دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله عنان

العصر الثالث

عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس

القسم الثاني

عصر الموحدين

وانهيار الأندلس الكبرى

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

ـة السعودية بمصر
باسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥٠١



بسم الله الرحمن الرحيم

تصـــدير

تناولنا فى القسم الأول من هذا الكتاب، تاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس ، منذ وفاة عاهلها ومؤسسها يوسف بن تاشفين فى سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦ م) ، حتى سقوطها بعد ذلك بنحو أربعين عاما ، وقيام الدولة الموحدية ، على يد داعيتها وإمامها المهدى ابن تومرت ، واستكمال فتوحها ، وتوطد دعائمها بالمغرب والأندلس ، على يد أول خلفائه ، عبد المؤمن بن على ، مؤسس الدولة الموحدية الكبرى .

وفى هـذا القسم الثانى من الكتاب ، نتناول عصر الموحدين فى المغرب والأندلس ، ونعرض تاريخ الدولة الموحدية الكبرى ، منذ بداية عهد ثانى خلفائها ، أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣م) ، حتى انحلالها وسقوطها فى عهد آخر خلفائها إدريس الملقب بأبى دبوس ، وذلك فى سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وهى حقبة تزيد على قرن من الزمان ، وهى حقبة حافلة بعظائم الحوادث والتطورات ، سواء فى المغرب أو الأندلس .

وبالرغم من أن الأندلس لم تكن فى ظل الدولة الموحدية ، سوى قطر من أقطارها العديدة ، يتبع المغرب وحكومة مراكش ، حاضرة الدولة الرئيسية ، فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية ، واستقلالها المعنوى والحضارى ، ومن ثم فقد خصصنا تاريخ الأندلس ، وتاريخ صراعها مع الدول النصرانية الإسبانية ، فى هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الموحدين ، بما يستحقه من العناية والإفاضة ، ومضينا فى استعراضه فى ظل الحكم الموحدى ، حتى قيام الدولة الهودية المتوكلية ، فى شرقى الأندلس وأواسطها ، ثم قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، على يد مؤسسها العبقرى محمد بن الأحمر النصرى ، وأفضنا القول ، بنوع خاص ، فيما نزل بالأندلس ، فى هذه الفترة المدلهمة من تاريخها ، من النوائب والمحن ، بسقوط قواعدها الكبرى ، التى أذكت لوعة الشعر الأندلسى ، وأملت على أبى الطيب الرندى مرثيته الشهيرة التى مطلعها :

لكل شىء إذا ما تم نقصان فلا يغرُّ بطيب العيش إنسان

وراعينا فى سرد أدوار هذه المأساة المشجية ، من تاريخ دولة الإسلام فى الأندلس ، أن نبرز تفاصيل المأساة الأندلسية كاملة ، على ضوء مصادرها العربية والقشتالية ، وأن نصل بها إلى حيث بدأنا تاريخ مملكة غرناطة فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وهو خاتمة هذه السلسلة الطويلة من عصور التاريخ الأندلسى ، التى استغرقت من حياة مؤلفها أكثر من ربع قرن من الزمان.

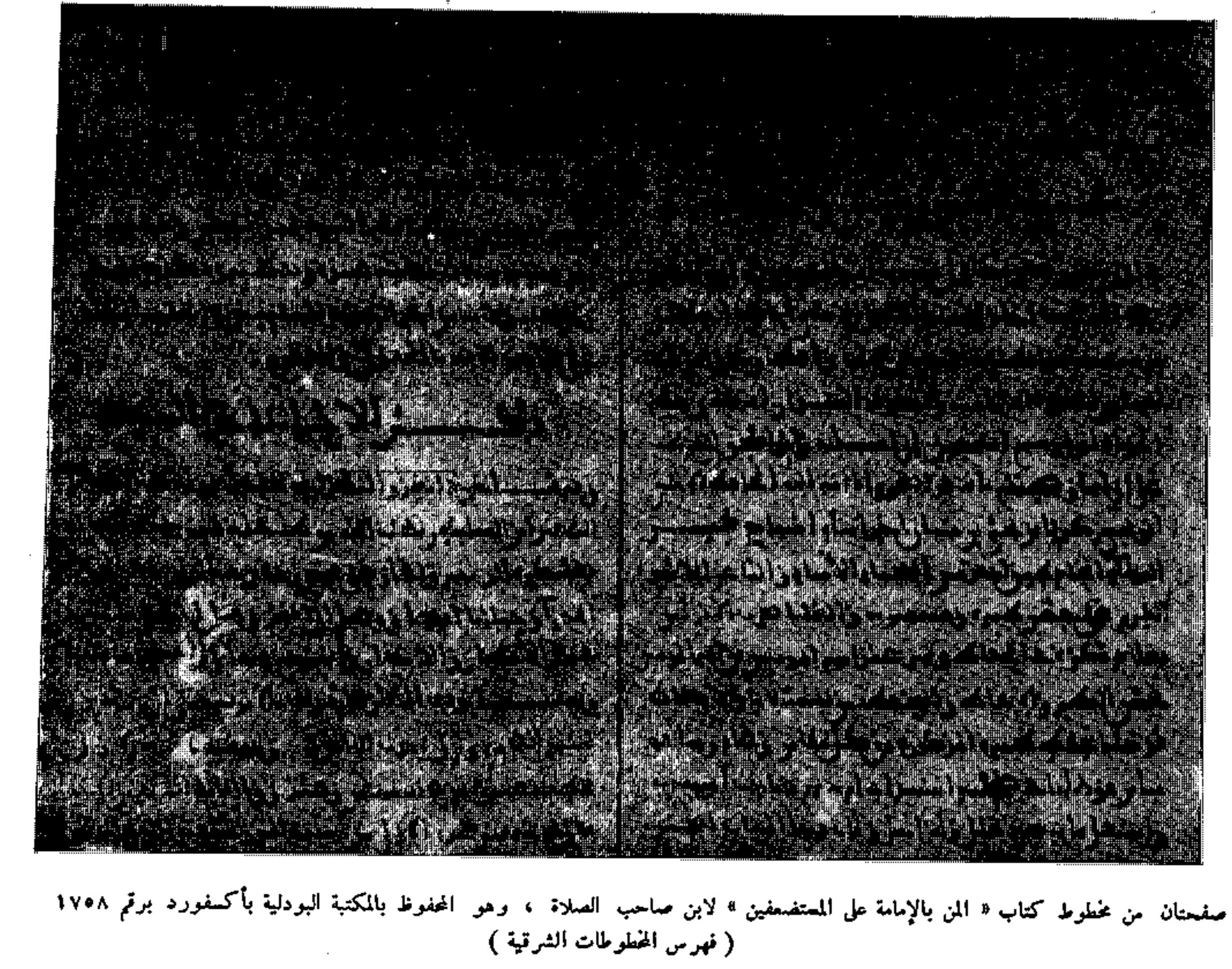
وقد عنينا فى كل من عصرى المرابطين والموحدين حسبما نوهنا فى مقدمة الكتاب ، أن نتحدث فى نهاية كل عصر ، عن طبيعة نظم هذا العصر وخصائصه ، وعن الحركة الفكرية الأندلسية خلاله . وقد تحدثنا فى القسم الأول من هذا الكتاب ، عما يخص العصر المرابطى من ذلك ، وسوف نحاول أن نتحدث فى خاتمة هذا القسم ، عن نظم العصر الموحدى ، وعن سير الحركة الفكرية الأندلسية خلاله وان لم يكن ذلك بما كنا نبغى من التفصيل والإفاضة . ذلك أن الميدان شاسع ، يستوعب المجلدات ، وهو ليس فى الواقع إلا تاريخ الحضارة الأندلسية ، التى يقتضى استعراض مراحلها العظيمة الوضاءة ، جهوداً شاقة ، لم يسعفنا الوقت والجهد ببذلها.

وعنينا فى هذا القسم أيضاً — عصر الموحدين — بتقديم طائفة من الخرائط والصور الأثرية ، والرسوم الهامة ، منها رسوم لميادين بعض المواقع التاريخية التى شهدناها بأنفسنا ، ودرسناها على الطبيعة حسبما أشرنا إلى ذلك فى مقدمة الكتاب وفيها صور لعدد من الآثار الموحدية الأندلسية التى مازالت قائمة حتى يومنا ، وأشهرها وأروعها جميعاً صومعة جامع المنصور (لاخيرالدا) لؤلؤة إشبيلية الأثرية .

ونحن نرجو ، وقد من الله علينا آخر الأمر ، وبعد أن قضينا هذه الأعوام الطويلة فى ارتياد المعاهد والديار بالأندلس والمغرب ، وذرفنا الدمع غير مرة على أطلال الإسلام بالأندلس ، وقمنا بعديد الرحلات فى طلب المصادر الأصيلة واستقصائها ، وجمعنا من ذلك أغزر مادة يمكن الظفر بها — نرجو الله بعد ذلك كله ، أن نكون قد وفقنا إلى أداء هذه الرسالة العلمية الجليلة التى اتخذناها شعاراً لحياتنا منذ خمسة وعشرين عاما ، على وجه يرضى العلم والتاريخ ؛ ومثل هذا التوفيق ، أن تحقق الرجاء ، يكون لنا خير جزاء لما بذلناه خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، من جهود مضنية فى سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى .

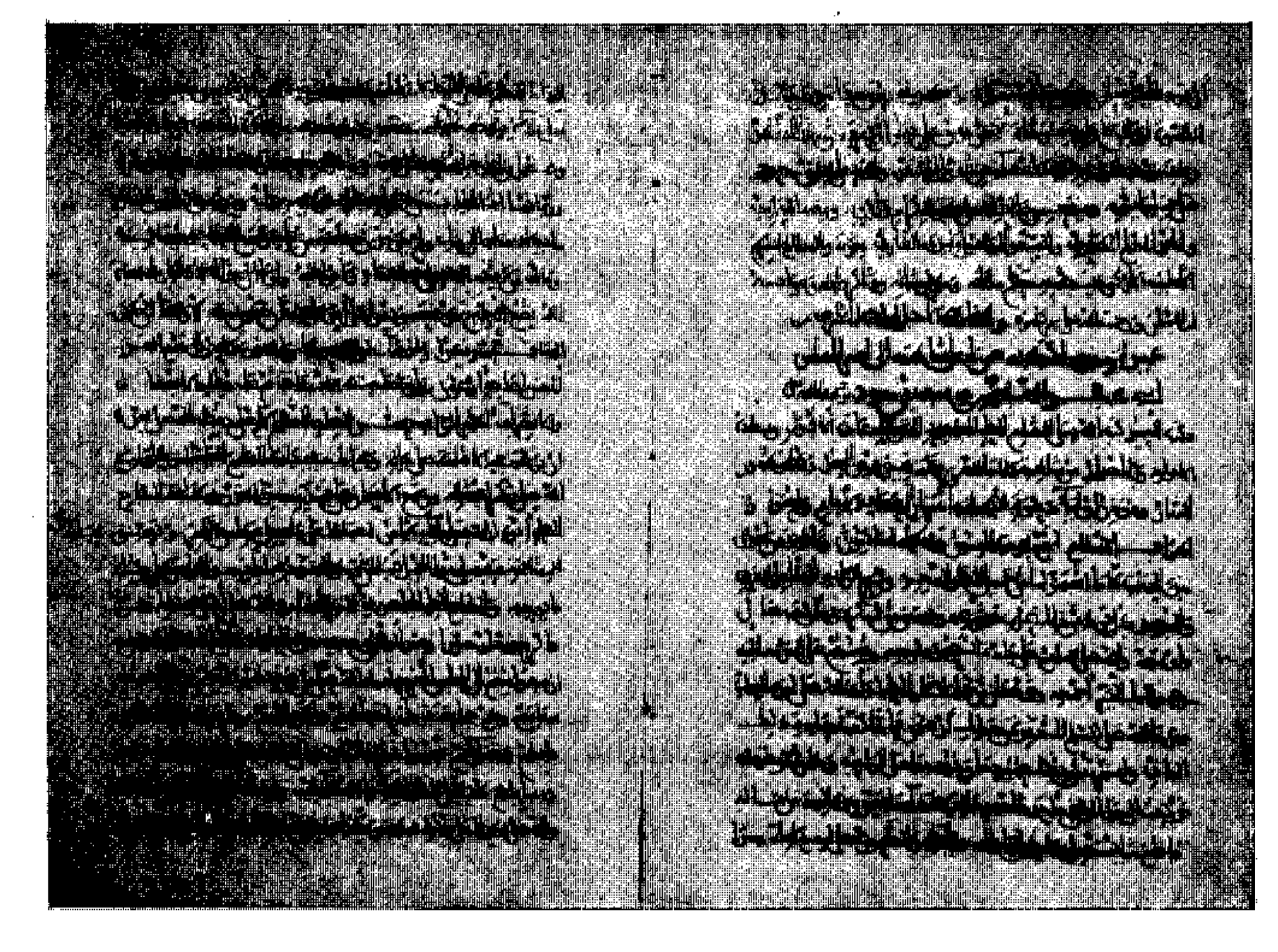
القاهرة فى : جمادى الأولى سنة ١٣٨٤
الموافق : سبتمبر سنة ١٩٦٤

محمد عبد الله عنان

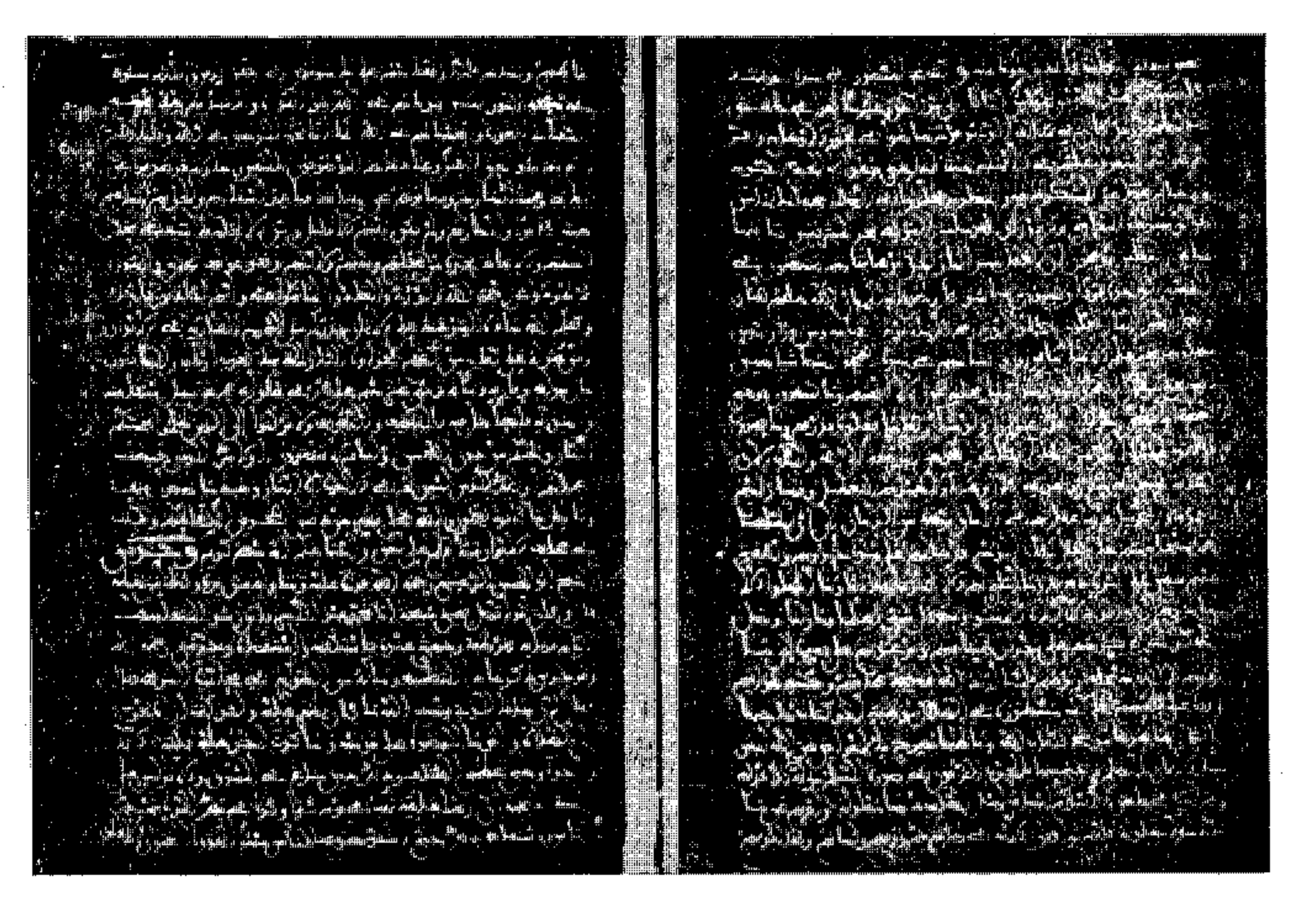


صفحتان من مخطوط كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين » لابن صاحب الصلاة ، وهو المحفوظ بالمكتبة البودلية بأكسفورد برقم ١٧٥٨
(فهرس المخطوطات الشرقية)

صفحتان من مخطوط الجزء الثالث من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي ، وهو مخطوط الزاوية الناصرية بتامجروت ، ويحفظ الآن بخزانة الرباط برقم ٢٠٠ في قسم مخطوطات الزاويا



صفحتان من مخطوط كتاب « زواهر الفكر » لابن المرابط المحفوظ بمكتبة الإسكوريال برقم ٥١٨ الغزيري (٥٢٠ ديرنبور) وهما تضمان رسالة لأبي المطرف بن عميره المخزومي كتب بها عن أهل شاطبه إلى المتوكل ابن هود



صفحتان من الجزء الخامس من مخطوط «كتاب الذيل والتكملة» لابن عبد الملك المراكشي المحفوظ بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٤٠ ، وهما تضمان بداية نص المنشور الموحدي الذي صدر عن الخليفة يعقوب المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد

الفصل الأول

عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة . تخلف بعض إخوته عن بيعته . موقف السيد أبي سعيد والى قرطبة والتوجس منه . مسير السيد أبي حفص إليه . اللقاء بين الأخوين فى جبل الفتح . عود التفاهم والصفا . رواية أخرى عن بيعة أبي يعقوب يوسف . ولاية السيد أبي حفص الوزارة . الثورة فى غمارة وإخمادها . حملة لإمداد الأندلس . عبور قوات موحدية جديدة إلى الأندلس بقيادة السيد أبي حفص . مسيرها لمقاتلة ابن مردنيش . استيلاؤها على أندوجر . زحفها على بسطة ثم لورقة . استيلاؤها على حصن بلج . خروج ابن مردنيش لقتال الموحدين . مسير الموحدين إلى مرسية . نزولهم فى فحص الجلاب . قدوم ابن مردنيش فى قواته . الاشتباك بين الفريقين . عنف المعركة واضطرامها . هزيمة ابن مردنيش وفراره إلى مرسية . مسير الموحدين فى أثره . تخريبهم لأحواز مرسية . إدريس بن جامع يتولى الوزارة للخليفة أبي يعقوب . عود الثورة إلى منطقة غمارة وإخمادها . احتلال الموحدين للأماكن المفتوحة فى ولاية مرسية . عود القوات الموحدية إلى الأندلس . عود السيد أبي حفص إلى مراكش . خروج الخليفة لاستقبال أخيه . وصف للاحتفالات التى نظمت لذلك . المآدب والصلات . تعيين ولاة الأندلس . اتخاذ الخليفة للعلامة . رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبي سعيد والى قرطبة . الحث فيها على وجوب التدقيق فى أحكام الإعدام وإراقة الدماء . عود الثورة إلى غمارة واستفحالها . مسير القوات الموحدية لإخمادها وفشلها فى ذلك . مسير الخليفة بنفسه لمقاتلة الثوار . منازلة الثوار فى جبال غمارة . تمزيقهم ومقتل زعيمهم ، عود الخليفة إلى مراكش . رسالة الفتح . الثورة فى جبل تاسررت وإخمادها . غزو والى غرناطة لحصن لبة واقتحامه . خطر البرتغال على قواعد الغرب . ملكها ألفونسو هنريكيز وأطماعه . تحالفه مع القوات الصليبية ومسيره لمحاصرة أشبونة . مناعتها وتفانى المسلمين فى الدفاع عنها . ضغط الحصار وثلم الأسوار . المعركة الأخيرة . اقتحام النصارى للمدينة . الفتك بأهلها المسلمين واسترقاقهم . استيلاء البرتغاليين على شنترين . استيلاؤهم على قصر الفتح . غزوهم لباجة وتخريبها . جيرالدو سمبافور وغاراته على قطاع بطليوس . وصف ابن صاحب الصلاة له ولأعماله . غزوه لمدينة ترجالة . استيلاؤه على قاصرش وحصون منتانجش وشربه وجلمانية . انشغال الموحدين بقتال ابن مردنيش وبفتنة غمارة . تجديد بيعة الخليفة وتعليله . أقوال ابن صاحب الصلاة . كتاب الخليفة فى ذلك . إنعام الخليفة واعطاؤه . تعيين السيد أبي إسحق لولاية قرطبة . إغارة جند ابن مردنيش النصارى على وادى شنيل . مسير والى قرطبة لقتالهم ونجاحه فى تمزيقهم . افتتاح الموحدين لثغر طبيرة . مقدم فرناندو رودريجس إلى إشبيلية وطلبه محالفة الموحدين . سفره إلى مراكش وتعاهده مع الخليفة على الإخلاص فى محالفته . الصلح بين فرناندو ملك ليون والموحدين . المنافسة بينه وبين ألفونسو هنريكيز . تعريف الرواية الإسلامية به . معاونة الموحدين له فى مقاتلة صاحب طليطلة .

— ١ —

لما توفى الخليفة عبد المؤمن بن على بمحلته بثغر سلا فى ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) خلفه على الأثر ، ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة بمحلة أبيه فى يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، وتولى تنظيمها أخوه شقيقه السيد أبو حفص عمر ، والشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى كبير أشياخ الموحدين ، تنفيذاً لوصية الخليفة الراحل ، وذلك حسبما فصلناه فيما تقدم[1] . وكان الخليفة الجديد عند ولايته فتى فى الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مولده بتينملّل فى الثالث من شهر رجب سنة ٥٣٣هـ ، وأمه حرة هى زينب بنت الفقيه القاضى موسى بن سليمان الضرير التينمللى[2] من أصحاب خمسين . ولما كملت البيعة سار الخليفة الجديد من سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة ، وتولى الشيخ أبو حفص وعظ الموحدين على اختلاف مراتبهم ، وحثهم على التزام فروض الطاعة . ثم أعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وحمل جثمانه إلى تينملل ، حيث ووري إلى جانب إمامه المهدى ابن تومرت .

ولم يتخلف عن بيعة أبي يعقوب يوسف ، سوى بعض أشياخ الموحدين وثلاثة من الإخوة ، هم السيد أبو الحسن على ، والسيد أبو محمد والى بجاية ، والسيد أبو سعيد والى قرطبة . فأما السيد أبو الحسن فقد كان حاضراً ليلة وفاة أبيه ، وعقد البيعة لأخيه ، ولما عاد من تينملل بعد مواراة الخليفة الراحل ، لزم العزلة ، وبرّحت به عوامل الغيرة والحقد ، حتى مرض وتوفى غير بعيد وذلك فى أواخر سنة ٥٥٨ هـ . وأما السيد أبو محمد عبد الله والى بجاية ، فقد لزم عاصمة إمارته ، وكُتب الخليفة تردد إليه بالاستعطاف والاستدعاء ، وهو يتمهل ، ويرد بالاعتذار والاستعداد للرحيل ، واستمر فى هذا التردد والتسويف نحو عام ونصف ، وأخيراً اعتزم أمره ، وغادر بجاية فى حاشيته ، قاصداً إلى مراكش ، فأدركته

---

(١) وذلك فى الفصل الرابع من الكتاب الثالث (ص ٣٩٤) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ ، ويسمى والدة أبي يعقوب عائشة ، والحلل الموشية ص ١٢٠ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ، (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى ، لوحة ٣٩٥) .

المنية فى الطريق (سنة ٥٦٠ هـ) فأسف أخوه الخليفة لفقده ، وشمل أهله وبنيه بعطفه ورعايته . ونظر فيما يجب لضبط شئون بجاية حتى يعين لها وال جديد .

وكان تخلف السيد أبى سعيد مثار التوجس ، ومختلف الأقاويل ، لأنه كان بوجوده فى رياسة الأندلس ، الشطر الثانى من الإمبراطورية الموحدية ، وبما يسيطر عليه بها من الموارد والقوى ، حرياً بأن تحدثه نفسه بالخروج والعصيان . ومن ثم فقد بعث أخوه الخليفة لاستدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين هم أبوعبدالله ابن أبى إبراهيم ، وأبو يحيى بن أبى حفص ، وأبوالربيع سليمان بن داود ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، تمارض السيد أبو سعيد ، ولم يستطيعوا مقابلته إلا بصعوبة ، ولم يحصلوا منه إلا على وعود غامضة . ولما عاد هذا الوفد إلى مراكش ، ولم يتحقق ما وعد به السيد أبو سعيد من القدوم ، وكثر التوجس والإرجاف من موقفه ، اعتزم السيد أبو حفص عمر أن يسير بنفسه إلى استدعاء أخيه ولقائه فى جبل الفتح (جبل طارق) . فغادر مراكش فى فاتحة ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ فى جملة من أشياخ الموحدين ، منهم أبو يحيى بن أبى حفص ، وأبو يعقوب بن يخيت ، وإسحق بن جامع ، ويوسف بن وانودين ، وجماعة من زعماء ثوار الأندلس منهم سيدراى بن وزير ، وابن الفخار صاحب لبلة ، وجماعة من أشياخ لمتونة ومسوفة ، ومعه قوة من نحو أربعة آلاف فارس ، خصصت لإمداد قوات الأندلس وتعزيزها . ولما وصل الركب إلى سلا ، تقدم الجند للعبور إلى الأندلس ، وأقام بها السيد أبوحفص شهراً ، بعث خلاله إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة يخطره بمسيره إلى رؤيته ، وبأن يكون اللقاء بينهما فى جبل الفتح . ولما وصل ركب السيد إلى طنجة ، استقل منها سفينة أقلته مع كاتبه عبد الملك بن عياش وبعض خاصته إلى سبتة ، وسارت بقية الركب إلى سبتة ، بطريق البر . وفى اليوم التالى لوصول السيد أبى حفص إلى سبتة ، وصلت من الجزيرة الخضراء سفينة ، أعلن من فيها وصول السيد أبى سعيد فى خاصته وأشياخه إلى جبل الفتح فى انتظار أخيه ، فعبر السيد أبوحفص وصحبه البحر فى نفس اليوم إلى جبل الفتح . ويقول لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، ومن حملة الوافدين ، أولا وآخرا ، إن اجتماع الأميرين قد تم على خير ما يرجى ، بين قرع الطبول ونشر البنود ، والسرور بالورود . وجاءت وفود قرطبة ، وغرناطة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس ، وكان على رأس وفد إشبيلية الفقيه الحافظ ابن الجد ، والقاضى أبوبكر

الغافقى ، وصاحب المخزن محمد بن المعلم . وجلس السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد فى قصر الجبل لاستقبال الوفود ، فتعاقبت فى السلام ، وإلقاء الخطب ، وأنشد الشعراء قصائدهم ، على نحو ماحدث أيام مقدم الخليفة عبد المؤمن ، ودامت إقامة الأميرين بالجبل خمسة عشر يوما ، أغدقت فيها « الأعطيات والبركات والكمى» . وصفا الجو ، وارتفع الإرجاف ، ثم انصرفت الوفود ، وعبر السيدان أبو حفص وأبو سعيد كل فى صحبه ، البحر إلى سبتة ، وأقاما بها ثلاثة أيام ريثما عبرت بقية الركب من الجبل ومن الجزيرة الخضراء ، ثم سار السيدان إلى مراكش ، فتلقاهما أخوهما الخليفة أبو يعقوب يوسف خارج الحضرة ، وكان اجتماعا بهجاً ، ساده البشر والحبور ، وكان وصول السيد أبى حفص وأخيه السيد أبى سعيد إلى مراكش فى أول شهر رجب سنة ٥٦٠ هـ ، فاستقبل الجميع بالحضرة أروع استقبال ، وأنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم . وهكذا تم التفاهم والتعاطف بين الخليفة وأخيه ، وأسبل الستار بذلك على ماكان يحيط بتوقف السيد أبى سعيد من التوجس والإرجاف[١] .

هذا وقد اعتمدنا فيما تقدم ذكره عن تولية الخليفة أبى يعقوب يوسف وبيعته ، وما حدث عن تخلف بعض إخوته عن بيعته ، على ماذكره مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيذق وابن صاحب الصلاة ، باعتباره أوثق ما يمكن الاعتماد عليه فى هذا الشأن[٢] . بيد أنه توجد إلى جانب ذلك رواية أخرى مفادها أن البيعة التى عقدت لأبى يعقوب عقب وفاة أبيه الخليفة عبد المؤمن ، لم تكن بيعة تامة ، إذ تخلف عنها بعض أشياخ الموحدين ، وبعض إخوته ، وأنه لذلك اكتفى باتخاذ لقب الأمير حتى تكمل بيعته ، وصرف الجيوش التى كانت مجتمعة للجهاد ، وعاد إلى مراكش ، فأقام بها ، وكتب إلى جميع عمالاته بالمغرب وإفريقية والأندلس فى طلب البيعة ، فوردت إليه من سائر النواحى ، ما عدا قرطبة التى كانت لنظر

---

(١) لخصنا ما تقدم عن رواية ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين (مخطوط أكسفورد السالف ذكره) لوحات ٤٨ إلى ٥٧ ، وأضربنا عن نقل ما أورده ابن صاحب الصلاة من مختلف قصائد المديح والتهنئة . وراجع فى ذلك أيضاً « البيان المغرب » القسم الثالث ، وهو يلخص كذلك عن ابن صاحب الصلاة (ص ٥٩ — ٦٢).

(٢) الأول فى كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ٨٤ ، والثانى فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٤٥ .

أخيه السيد أبي سعيد عثمان ، وبجاية التي كانت لنظر أخيه السيد أبي محمد عبدالله . وفي سنة ٥٥٩ ، هـ وفد عليه أخواه السيد أبو سعيد ، والسيد أبو عبد الله ، كل في أشياخ إمارته ، طائعين تائبين ، وقدما إليه البيعة ، وبذلك كملت بيعته . وذكر القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر ، وهو من قضاة عبد المؤمن ومن مؤرخي الموحدين ، أن أبا يعقوب يوسف بويع بيعة الجماعة واتفقت الأمة على بيعته في اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد والي قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمير المؤمنين ، بعد أن كان يتسمى بالأمير[1] .

وتولى السيد أبو حفص منذ البداية شئون الحجابة لأخيه السيد أبي يعقوب « على معنى الوزارة والإمارة » بتنفيذ الأوامر السلطانية باسمه وعن أمره ، على نحو ما كان عليه عند أبيه الخليفة عبدالمؤمن من تولي شئون وزارته . والظاهر مما تؤكده لنا الرواية من أن السيد أبا حفص كان يزاول سلطته عن رضى من أخيه السيد أبي يعقوب ، وأن علائق الأخوين كان يسودها الصفاء والمحبة ، أن السيد أبا حفص ، كان في منصبه يزاول سلطة مطلقة ، وأنه كان هو الخليفة الفعلي ، وأنه لم يترك لأخيه السيد أبي يعقوب سوى مظاهر الإمارة الشكلية . وكان الوزير إدريس بن إبراهيم بن جامع وهو من قرابة المهدي ، يمثل بين أيديهما لرفع المسائل ، وتوصيل رغبات الوافدين والسائلين ، وكان يؤدي دوره في تنظيم الصلة بين الأميرين ، وفي التوسط بينهما ، ببراعة وكياسة[2] . بيد أن السيد أبا حفص لم يمكث في منصبه هذا سوى فترة قصيرة لم تطل سوى عامين ، وانفرد بشئون الحجابة والوزارة من بعده الوزير ابن جامع[3] .

وفي بداية عهد أبي يعقوب في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وقعت ثورة محلية في منطقة غُمارة ، بزعامة مزيزدَغ الغماري الصنهاجي من صَنهاجة مفتاح ، فتغلب على تلك المنطقة ، والتفت حوله جموع غفيرة من غمارة ، وصنهاجة ،

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٨ ب) وكذلك البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٥٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٧١ ا ، والمعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٦٥ .

وأورية ، وضرب السكة باسمه ، ثم سار إلى أراضى تاودا ، على مقربة من فاس ، وعاث فيها وقتل كثيراً من أهلها ، فسير الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة يوسف بن سليمان . وفى رواية البيذق أن الموحدين قاتلوا مزيزدّغ ، حتى بددت قواته ، وأذعن للتوحيد ، ثم سمح له بأن يجوز إلى الأندلس ، وهنالك نزل بقرطبة . لكن صاحب روض القرطاس ، يقول لنا بالعكس إن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراكش[1] .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى الحملة التى جهزها السيد أبو حفص لإمداد قوات الأندلس ، وذلك حين سيره لمقابلة أخيه أبى سعيد بجبل الفتح . وقد عبرت هذه الحملة ، وقوامها نحو أربعة آلاف فارس ، معظمهم من العرب ، البحر بقيادة الشيخين أبى سعيد بن الحسن ، وأبى عبد الله بن يوسف ، وسارت تواً إلى إشبيلية . وأرسل منها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ، وتصادف أن كانت ثمة قوة من النصارى من أهل شنترين تغير على تلك المنطقة ، فقاتلها الفرسان الموحدون ومزقوا شملها ، وأفنوا معظمها . وسار الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله ببقية العسكر من إشبيلية إلى قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية ، إزاء هجمات ابن مردنيش . وماكاد الموحدون يستريحون قليلا ، حتى خرجوا إلى أحواز قرطبة ، وهنالك التقوا فى وادى « لك » القريب منها بجمع من عسكر ابن مردنيش ، وهم الذين ينعتهم مؤرخ الموحدين « بالأشقياء » ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، أبلى فيها الموحدون أحسن البلاء واستمر القتال بينهما طوال اليوم على شرب الماء ، وافترقا دون حسم ، وكان ذلك فى شعبان سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وبعث الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء المعركة إلى مراكش ، ووصفا ما لقيناه فى القتال من هول ومشقة ، وطلبا العون والإنجاد ، فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهز فى الحال جيشاً من الموحدين والعرب ، وخرج من مراكش فى قواته ومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان والى قرطبة ، فى أوائل شهر رمضان ، وأسرع فى السير وعبر البحر ، ووصل بجموعه إلى إشبيلية ، وهنالك اجتمع بزعماء الموحدين ، وقر الرأى على محاربة ابن مردنيش فى عقر أراضيه قبل أن يبادرهم بمهاجمة قرطبة[2] .

---

(١) راجع أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٥٧ ب و ٥٨ أ .

وخرجت القوات الموحدية من إشبيلية فى أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٠هـ ، وسارت نحو الشمال الشرقى معرجة على قرطبة ، حتى وصلت إلى أندوجر ، وهى من معاقل ابن مردنيش التى تهدد سلامة قرطبة . فهاجمتها واستولت عليها فى الحال عنوة ، وبادر أهل الحصون المجاورة إلى إعلان الطاعة وطلب الأمان . وأغار الموحدون على أحواز أندوجر واستولوا على كثير من السبى والغنائم . ثم حشد السيد أبو حفص صفوة جنده من الموحدين والعرب وسار من أندوجر جنوبا ، قاصداً إلى مرسية ، من طريق السهل ، فوصل إلى مشارف مدينة بسطة ، دون أية مقاومة ، وجنده تعيث فى تلك المنطقة ، وتنتزع الأقوات وتستاق الماشية ، وهنالك على مقربة من بسطة وافته حشود غرناطة ومنهم فرقة من الرماة ، وسار الجيش الموحدى بعد ذلك صوب لورقة ، مارا بحصن بلج أو بلش[1] وهو من أهم معاقل ابن مردنيش فى تلك المنطقة ، فسلم قائده العزفى وأصحابه بالأمان ، ووضعت به حامية موحدية[2] .

وكان محمد بن سعد بن مردنيش أثناء ذلك قد حشد قواته ، ومنها جمع كبير من النصارى ، وخرج من مرسية يزمع اعتراض الموحدين عند لورقة ، ويحول دون سلوكهم منها إلى مرسية ، فلما رأى الموحدون صعوبة اختراق هذا الطريق الجبلى الوعر تحولوا إلى غرب لورقة ، وانحدروا إلى السهل المسمى « بالفندون » وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة ، وهو من أخصب بقاع هذه المنطقة ، ثم اخترقوا السهل نحو مرسية . وهذا ما ورد فى خطاب الفتح الذى أرسل فيما بعد إلى مراكش . ولكن البيذق يقول لنا بالعكس إن الموحدين غلبوا على لورقة ، وقرطاجنة وبلّش ، ووحد أهلها ، وأن ابن مردنيش حينما قدم إلى لورقة كان بها الموحدون[3] .

وكان ابن مردنيش فى تلك الأثناء قد ارتد بجنده نحو مرسية من الطريق الجبلى . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذى الحجة سنة ٥٦٠هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٦٤م) ، أشرف الموحدون عند الظهر على فحص مرسية ، على بضعة أميال منها ، ونزلوا

---

(١) هو المسمى بالإسبانية Vélez Rubio .

(٢) وردت تفاصيل سير الحملة الموحدية فى خطاب الفتح الذى أرسل إلى مراكش بعد موقعة فحص الجلاب ونقله إلينا ابن صاحب الصلاة وسنأتى على ذكره .

(٣) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٦ .

بموضع فيه يعرف « بفحص الجلاّب » . وهنالك أشرف ابن مردنيش بقواته قبالتهم ، فنظم الموحدون قواتهم من أهل هرغة وتينملل وهنتاتة وجدميوه وباقى القبائل الموحدية ، كما نظم الجند العرب من بنى هلال ورياح والجشميين والرعينيين وحرس الأمير الأسود . ويبدو من خطاب الفتح السالف الذكر أن جيش الموحدين كان يضم عندئذ زهاء اثنى عشر ألف مقاتل غير حامية غرناطة ، من ذلك نحو أربعة آلاف هى التى كانت تحت إمرة الشيخين أبى سعيد وأبى عبد الله ، وثمانية آلاف هى جملة الحملة التى عبر بها السيد أبو حفص وأخوه . وأما جيش ابن مردنيش فلم تذكر لنا الرواية جملته ، ولكنها تقدر من كان به من النصارى المرتزقة بثلاثة عشر ألف مقاتل[1] .

وتعاهد الموحدون على الصدق والثبات والصبر ، والاستشهاد فى سبيل الله . وبدأ ابن مردنيش الهجوم فانقضت قواته أولا على الجند العرب ، ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين ، فهاجمهم مرتين متواليتين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، قاتل فيها الموحدون والعرب أشد قتال وأروعه ، واستمرت حتى مغيب الشمس ، ورجحت كفة الموحدين فى النهاية ، ففتكوا بجيش مردنيش ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسقط فى الموقعة شيوخ العرب السبعة فيمن سقط من الموحدين ، وارتد ابن مردنيش فى فلول قواته إلى تل قريب إلى أن دخل الليل ففر مسرعاً إلى مرسية ، وامتنع بداخلها . وفى صباح اليوم التالى الثامن من شهر ذى الحجة (١٦ أكتوبر) ، سار الموحدون إلى مرسية ، حتى اقتربوا منها ، ونزلوا بساحتها ، وأمضوا بها عيد الأضحى ، وخرجت سرياتهم تدمر أحوازها وغياضها ، ومنها بساتين ابن مردنيش البانعة ، مدى أيام ، حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات ، ووصلت طلائعهم إلى أوريولة وألش . وبعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى أخيهما الخليفة أبى يعقوب بمراكش بكتاب الفتح والبشرى ، من إنشاء الكاتب أبى الحسن بن عياش ، فوصل إلى الحضرة فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وقرئ على سائر الحاضرين من الأشياخ ، والطلبة ، ثم قرئ بعد ذلك بالمسجد الجامع على كافة الناس[2].

(١) نشرنا فى الفصل الثانى خريطة مملكة الشرق ومواقع غزوات الموحدين لها

(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تفاصيل الغزوة الموحدية لأندوجر ، وسير الموحدين إلى مرسية ، وموقعة فحص الجلاب فى كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٨ ا إلى لوحة ٦٠ ب . كما أورد لنا نص الخطاب الذى أرسل بالفتح إلى مراكش (لوحة ٦٠ ب إلى لوحة ٦٣ ا) =

وكانت هزيمة فحص الجلاب من أقسى الضربات التى أصابت ابن مردنيش، وكانت بداية انحلال ثورته ، وانهيار سلطانه فى شرقى الأندلس .

وحدث فى مراكش خلال ذلك أعنى فى عام ٥٦٠ ، وفى أثناء غياب السيد أبى حفص بالأندلس ، حدث هام ، هو تولى الخليفة أبى يعقوب يوسف لسلطانه المباشر ، واختصاصه للوزير أبى العلاء إدريس بن جامع بتدبير الشئون وتقريبه إياه ، واختار ابن جامع لمعاونته صفوة من رجاله المخلصين ، فى مقدمتهم الخطيب أبو الحسن الإشبيلى ، وأبدى فى منصبه كفاية وغيرة ونزاهة ، وبذل فى تصريف الأمور وإقامة العدل ، وتوطيد السكينة والأمن ، جهوداً مشكورة ، حتى كان الراكب وفقاً لقول المؤرخ « يسير حيث شاء من بلاد العدوة فى طرقها من جبلها وسهلها آمناً فى نفسه وماله لا يخاف إلا الله » . وأحسن لمن وفد عليه واستغاث به ، من أجناد الأندلس المضامين أو المأسورين ، يفتديهم بماله ، ويهبهم الخيل وآلات الحرب والكساء ، وأسبغ رعايته على الموحدين المقيمين ، وعلى طلبة الحضر الوافدين إلى العاصمة ، وفرض الزكاة على حكم الكتاب والسنة ، وأنفقها فى وجوهها المشروعة[1] .

وحدث فى هذا العام أيضاً أن عادت الفتنة إلى منطقة غُمارة ، وعادت بعض بطون صنهاجة إلى نقض الطاعة بقيادة سبع بن منغفاد . فخرج إليهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، فى حملة من الموحدين ، سارت إلى جبال غمارة ، وضيقت على الثوار ، حتى أذعنوا إلى طلب الأمان تائبين ضارعين ، معلنين للطاعة والخضوع[2] . بيد أنه كان ، كما سنرى ، خضوعاً خادعاً مؤقتاً .

— ٢ —

على أثر انتصار الموحدين فى موقعة فحص الجلاب ، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، بوضع حاميات موحدية فى الأماكن المفتوحة ، وتنظيم حكمها ،

= وتراجع أخبار موقعة فحص الجلاب أيضاً فى روض القرطاس ص ١٣٧ ، والبيان المغرب – القسم الثالث ص ٦٤ و ٦٥ ، وكذلك فى Huici Miranda : Imperio Almohade, V.I. p. 226 & 227
M. O. Remiro : Murcia Musulmana, p. 219- A P Ibars : Valencia Arabe, p. 541

(١) كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٧١ أ و ب ، وكذلك البيان المغرب القسم الثالث – ص ٦٥ ، و ٦٦ وهو ملخص من كتاب « المن بالإمامة » .

(٢) كتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٤ ، و « المن بالإمامة » لوحة ٧٢ أ .

وضبط الأمور فيها ، ثم انصرفا من ظاهر مرسية ، فى القوات الموحدية ، عائدين إلى الأندلس . ولما وصلا إلى قرطبة ، تخلف بها السيد أبوسعيد بموافقة سابقة من أخيه الخليفة ، ليستأنف بها مهام منصبه فى الولاية عليها ، وسار السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، ثم عبر البحر إلى العدوة ، عائداً إلى حضرة مراكش ، فوصل إليها فى ضحى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ .

ويقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفا ضافياً لاحتفال الخليفة أبى يعقوب باسقبال أخيه فى ظاهر مراكش ، وما تلا ذلك من الحفلات والمآدب وتوزيع الصلات . ولابد لنا أن ننقل هنا موجزاً لهذا الوصف ، أولا كنموذج لحفلات الابتهاج الموحدية ، وثانيا كنموذج لبعض نواحى الحياة الاجتماعية الرسمية ، التى يصفها لنا ابن صاحب الصلاة خلال روايته من آن لآخر .

يقول ابن صاحب الصلاة ، إن الأمير الإمام أبا يعقوب ، خرج بنفسه لاستقبال أخيه ، بعد أن كتّب كتائبه المنصورة الحاضرين معه بحضرة مراكش ، وكسا حرسه الأسود بالثياب الزاهية ، واصطفت الفرسان المدرعة من الموحدين وغيرهم ، والرجال بالدورق والرماح ، وجعل الرايات خلف ركابه ، وحملة الطبول مع خاصة أصحابه ، وهو راكب جواده ، ووزيره أبو العلاء إدريس ابن جامع راجل لصق ركابه ، وهو يحدثه ، ويصدر الأمير أوامره ، فينفذها الوزير ، ثم يرجع إليه ، وعلى عاتق الأمير رمح طويل . والتقى الأمير بأخيه فى الساحة التى كانت قائمة عندئذ تجاه باب الشريعة ، فلما التقى الأميران ، تجاوبت الخيل بالحملات والحراب والطبول ، ثم نزل الأخوان كل عن فرسه ، والتقيا وتصافحا ، ثم سلم الناس الواصلون على الأمير وعلى من حضر ، ثم ركبوا إلى القصر العتيق فى أعظم أبهة فوصلا إليه بعد العصر ، واجتمعا به . وفى اليوم التالى ، أقيمت المآدب الحافلة بالأطعمة والأشربة للموحدين والعرب الواصلين ، ولجميع المقيمين ، واستمر ذلك خمسة عشر يوما . ثم وزعت الكسى من العمائم والبرانس والأكسية . وتسلم كل فارس طقما كاملا من الكساء يتكون من عفارة وعمامة وكساء وقسطية وشقة ، وأنعم على جميع الناس من الغازين والقاطنين وطلبة الحضر ، ووزعت عليهم الأعطية المالية ، من الذهب والدراهم ، فخص الفارس سواء من الموحدين أو العرب ، عشرون ديناراً ، ولكل من أعيان الموحدين وأشياخهم وكذلك أشياخ العرب ، مائة دينار ، وعم بذلك البشر والحبور ، واستمرت

الطبول فى قرعها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف الغازون إلى قبائلهم (١) .

وكان أول ما عنى به الخليفة أبو يعقوب بعد الانتهاء من هذه الحفلات ، هو النظر فى تعيين الولاة . وكانت بجاية وإشبيلية فى مقدمة الولايات التى خلت رياستها ، فقرر الخليفة بعد مشاورة أخيه السيد أبى حفص ، أن يعين لولاية بجاية وأقطارها أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن . فسار إليها من الحضرة فى فاتحة جمادى الأولى سنة ٥٦١ هـ ، ومعه جملة من أبناء الجماعة والحفاظ . وعين لولاية إشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم إسماعيل، أحد أصحاب المهدى العشرة ، وعين له وزيراً لمعاونته هو أبو زكريا بن سنان، وهو من أكابر علماء الدعوة المهدية ، فغادر مراكش فى صحبة من الحفاظ إلى مقر ولايته ، فى الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، ووصل إلى إشبيلية فى أول شهر رجب . وماكاد يصل إليها ، حتى كانت جماعة من نصارى شنترين ، قد اخترقت ولاية الغرب ، ووصلت فى غارتها إلى بلدة طلياطة ، الواقعة جنوبى شرقى لبلة . فجهز الشيخ أبوعبد الله حملة لردهم من الحفاظ والعرب وجند إشبيلة ، بقيادة أبى العلاء بن عزون ، فأدركتهم وهزمتهم ، واستنقذت منهم الغنائم والأسرى ، وأسرت جملة منهم . وبعث الوالى الجديد بخبر هذه الموقعة إلى الخليفة فسر به ، وبعث إليه بشكره .

ولم يمض على انفراد الشيخ أبى عبد الله بولاية إشبيلية سوى أشهر قلائل ، حتى عين الخليفة أخاه السيد أبا إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً لإشبيلية ، فوصل إليها فى أول شهر ذى الحجة سنة ٥٦١ هـ ، وتقرر أن يبقى معه الشيخ أبو عبد الله ، على ماكان عليه ، وأن يتولى الشئون العسكرية ، وتوثقت أواصر المودة والتعاون بين الرجلين ، واستمرا معاً فى النظر فى شئون إشبيلية ، حتى وصل أمر الخليفة بندب الشيخ أبى عبد الله للقيام بولاية غرناطة وذلك فى أواخر شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، فغادر إشبيلية فى صحبة من الحفاظ وغيرهم فى أوائل شهر رمضان إلى غرناطة ، واستقر فى ولايتها ، واستدعى الخليفة فى نفس الوقت أخاه السيد أبا سعيد ، والى قرطبة للقدوم إلى الحضرة ، فغادرها فى أوائل ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ .

وفى نفس هذا العام أعنى سنة ٥٦١ هـ قرر الخليفة أبو يعقوب بالاتفاق

(١) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٧٣ أ و ب ولوحة ١٧٤ أ

مع أشياخ الموحدين ، أن يتخذ العلامة الخلافية ونصها « والحمد لله وحده » وأن يكتبها بخط يده على المراسيم والأوامر ، فتنفذ بمقتضاها . وصدرت أول رسالة ممهورة بالعلامة الخلافية فى الثالث من شهر رمضان مدبجة بقلم الوزير الكاتب أبى الحسن بن عياش ، وموجهة إلى أخى الخليفة السيد أبى سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة ، على أن تنفذ منها نسخ إلى مختلف البلاد ، وفيها بعد الديباجة الموحدية المعتادة ، يوصى الخليفة بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، فلا يقضى الموحدون فى الدماء من تلقاء أنفسهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وتشرح وتقيد بالشهود والعدول « وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين فى مقالاتهم واستظهارهم فى بياناتهم معطى كل ذى حق حقه ، موفى كل قائل قوله » ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ ، وكذلك فى سائر المعاملات والأموال واستحقاقها وفى الرقاب وعتقها أو استرقاقها ، وفى المناكحات فلا يبت فى أمرها إلا بعد المطالعة ، وتعرّف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ، وأنه يجب التوقف ومراعاة أنه لا يقدم على إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات ، إلا بوجه صحيح . ويختم الخليفة رسالته بحث الموحدين على العمل بما جاء فيها ، وأنه يجب عليهم فى جميع الأحوال ، تقوى الله فى السر والجهر ، وخيفته فى الباطن والظاهر ، والجرى على سننه ، وأنه يجب إذاعة هذا الكتاب ، والتشهير به ، وجمع الناس لقراءته ، وتعريف الحاضر والغائب بما فيه ، وأن ترسل منه نسخ إلى سائر الجهات ليعمل الناس بما جاء « فى هذا الأمر العزيز من إقامة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله على وجهه المتعين وسننه الواضح البين »[1].

وإنه لما يلفت النظر فى هذه الرسالة بنوع خاص ، اهتمام الخليفة البين بمسألة أحكام الإعدام ، وإراقة الدماء ، وتشدده فى المطالبة برفعها إليه ، وفى

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة النص الكامل لهذه الرسالة فى كتاب « المن بالإمامة » لوحة١٧٩ إلى لوحة١٨٢ ا ونقلها العلامة جولدسيهر فى بحثه الذى سبقت الإشارة إليه **Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Mog. Gesellsch., 1887 p. 134-138)** وقد نشرناها نحن فى باب الوثائق الموحدية فى نهاية الكتاب .

وجوب تحرى الدقة فى شرحها ، وتقييدها بالشهود والعدول ، وإثبات أقوال المظلومين وحججهم ، وأقوال الظالمين ، أعنى المدعين وحججهم ، فهذا الاهتمام البالغ من أبى يعقوب ، بالحرص على صون الدماء ، والتنكيب عن إراقتها إلا بوجه الحق ، ومنتهى الدقة والحذر ، يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الخليفة العالم ، والفقيه البارع ، قد تأثر أيما تأثر عما أبداه الموحدون منذ عهد المهدى ، من خفة فى سفك الدماء ، ومن إسراف فى إراقتها ، وما اتسم به عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن من سيطرة هذه الظاهرة الدموية المروعة ، وأنه أراد برسالته أن يحمل زعماء الموحدين من أمراء وأشياخ وحكام ، على التزام نوع من الحرص والاعتدال فى إراقة الدماء ، وفى تقرير أحكام الإعدام .

ولما وصلت رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد بقرطبة ، وجهت منها نسخ إلى سائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وقرئت على الناس فى الجوامع ، وغادر السيد أبو سعيد قرطبة بعد ذلك بقليل ، عائداً إلى حضرة مراكش نزولا على رغبة الخليفة حسبما تقدم .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) عادت الفتنة إلى جبال غمارة بين قبائل صنهاجة ، وعاد زعيمها سبع بن منغفاد إلى الخروج والعصيان ، وبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى سبتة ، وأخذ يعيث فساداً فى تلك المنطقة ، ويقطع الطرق ، ويعتدى على السكان الآمنين قتلا وسبياً ونهباً ، ووصل عيثه وعدوانه غرباً حتى منطقة القصر الكبير . وكان قيام الثورة فى تلك المنطقة الحساسة ، التى هى شريان المواصلة بين المغرب والأندلس من أخطر الأمور ، التى يجب حسمها بقوة وبسرعة . ومن ثم فقد سير الخليفة جيشاً موحدياً بقيادة أبى سعيد يخلف بن حسين إلى بلاد صنهاجة من جهة القلعة ، وكان الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، قد تقدم فى عسكره إلى ناحية أخرى من منطقة الثورة ، فقاوم الثوار أشد مقاومة ، وامتنع سبع بن منغفاد بقواته فى جبل الكواكب ، ولم تنل القوات الموحدية من الثوار مأرباً . وعندئذ رأى الخليفة أن يسير بنفسه إلى مقاتلة الثوار ، فخرج فى جيش كثيف ، ومعه أخواه السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، وسار إلى جبال غمارة ، ونازلت القوات الموحدية الزعيم الثائر فى أعماق معاقله ، وأحاطت به وبسائر صحبه من كل ناحية ، وأمعنت فيهم قتلا وأسراً ، ومزقوهم تمزيقاً ، واحتلوا

أراضيهم ، وقتل زعيم الثورة سبع بن منغفاد ، وصلبت جثته ، وأذعنت سائر صنهاجة فى تلك المنطقة ، وتضرعت إلى الصفح والأمان ، فأجيبت إلى ما طلبت. وتم قمع ثورة غمارة فى أوائل شوال سنة ٥٦٢ هـ (أغسطس سنة ١١٦٧ م) . واستولى الموحدون على غنائم هائلة من الماشية ودواب الحمل ، وأسروا من الثوار نحو أربعة آلاف. وعاد الخليفة أبو يعقوب فى عساكره المظفرة إلى حضرة مراكش ، وصدرت عن هذا الفتح رسالة مطولة بقلم الكاتب أبى الحسن بن عياش مؤرخة فى الرابع عشر من شوال ، ووجهت إلى سائر الموحدين والأشياخ والطلبة بالمغرب والأندلس[1] ، وعين الخليفة أخاه السيد أبا الحسن على والياً على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم تمض على إخماد فتنة غمارة بضعة أشهر ، حتى حدثت فتنة جديدة ، وثار بعض البطون البربرية بجبل تاسررت ، وأعلنوا خلع الطاعة ، فسار إليهم السيد أبو حفص أخو الخليفة فى عسكر وافر من الموحدين واشتد فى قتالهم ، حتى مزقهم واستأصل شأفتهم[2] .

— ٣ —

أشرنا فيما تقدم إلى ندب الخليفة أبى يعقوب للحافظ الشيخ أبى عبدالله بن أبى إبراهيم لولاية غرناطة وذلك فى شعبان سنة ٥٦٢ هـ . وكان أول ما عنى به الوالى الجديد، أن يطهر أحواز غرناطة من عدوان المرتزقة النصارى من أحلاف ابن مردنيش، وكانت قوة منهم تحتل حصن « لبه » الواقع فيما بين غرناطة ووادى آش ، وتعيث باستمرار فى تلك المنطقة ، وتبث فيها الخراب والروع ، وتصل أحياناً إلى أسوار غرناطة ، وتهدد أمنها وسلامتها ، فحشد الحافظ أبو عبد الله قواته وسار إلى حصن لبه المذكور ، وهاجمه بشدة ، واقتحمه عنوة ، ومزق حاميته من النصارى ، وقضى بذلك على عيثها وشرها ، وعاد ظافراً إلى غرناطة ، وبعث إلى الخليفة ينبئه بسعيه ، فبعث إليه الخليفة برسالة يعرب فيها عن شكره ورضاه .

على أن أهم حوادث الأندلس التى وقعت فى تلك الفترة ، كان مسرحها

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٨٢ أ و ب ، وكذلك لوحة ٩٦ . والبيان المغرب القسم الثالث ص٦٩ ، و٧٠ و٧١ . وينقل إلينا ابن صاحب الصلاة رسالة الفتح بأكلها وهى تشغل اللوحات من ٨٤ إلى ٩١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة لوحة ١١٣ ب .

ولاية الغرب الأندلسيه ، وكان قيام مملكة البرتغال الناشئة ، واشتداد ساعدها فى عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة ، وكان ألفونسو هنريكيز حينما اضطربت شئون الأندلس ، وعمت الفتنة قواعد الغرب ، قد انتهز هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة ، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على أشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجُه ، ولحصانتها ، ولكونها كانت معقل المسلمين المنيع فى قلب الأراضى البرتغالية . ولما لم يكن لديه قوى كافية لتنفيذ مشروعه فقد اتجه إلى الاستعانة بالقوات الصليبية المتجهة إلى المشرق من الإنجليز والألمان والفلمنك (الهولنديين) ، واستطاع بالفعل أن يجذب منهم لمعونته طوائف كبيرة . وفى أوائل سنة ١١٤٧م (أواخر ٥٤١هـ) سار فى قواته لمحاصرة أشبونة ، ورابطت القوات الصليبية فى البحر ، فى مدخل الميناء لتحول دون وصول أية إمداد إلى المدينة المحصورة . واستمر الحصار بضعة أشهر ، وكانت أشبونة الإسلامية مدينة منيعة ، تحميها من ناحية البر أسوار منيعة ضخمة ، ولها عدة أبواب عظيمة ، وبابها الغربى هو أعظم أبوابها ، وقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا ، على عمد من الرخام ، مثبتة على حجارة من رخام ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر ، وباب شرقى يسمى باب الحمة[1] . ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عديدة ، ودافع المسلمون عن ثغرهم أشد دفاع ، ولكن الحصار كان شديداً مرهقاً ، وقد نضبت موارد المدينة المحصورة تباعاً ، وثلمت الأسوار فى عدة مواضع . ثم استعد البرتغاليون للضربة الحاسمة . وخطب فيهم ملكهم ألفونسو ، يحثهم على مضاعفة الجهود فى القتال ، وليقول لهم إن المدينة غنية بالأموال ، التى تمكنهم من متابعة الحرب ، وإنها معقل الأعداء وكنزهم ، ومستودعهم الذى يزخر بالحلى والنفائس ، فعليهم أن يقتحموا هذه الأسوار المثلومة ، وأن يأخذوا المدينة .

وكانت المعركة الأخيرة قصيرة ، ولكن دموية هائلة ، ودافع المسلمون ، بالرغم مما عانوا من أهوال الحصار ، عن مدينتهم ، دفاعاً مريراً . ولكن هذا الدفاع اليائس لم يغن شيئاً ، واقتحم النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة من بابها الشرقى — باب الحمة — وقتل من المسلمين مقتلة عظيمة ، وأسر الأحياء منهم ، وجعلوا رقيقاً ؛ ونهب النصارى المدينة نهباً ذريعاً ، وكان فيها من الأموال والنعم

---

(١) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس — ص ١٦

أعظم ما يتصور . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وعين لها أسقف هو الأسقف جلبرتو ، وكان استيلاء البرتغاليين على أشبونة فى اليوم الخامس والعشرين ، وقيل فى الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١١٤٧م (جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ)[١] .

واستولى ألفونسو هنريكيز فى نفس الوقت على مدينة شنترين الواقعة شمال شرق أشبونة ، ثم استولى على سائر الأراضى الإسلامية المتاخمة لتلك المنطقة ، والتى تكون القسم الغربى من ولاية « استرامادوره » . ولم يكن من الميسور يومئذ على الموحدين ، وقد شغلتهم حوادث الغرب ، واضطرام الفتنة بالأندلس ، أن يبادروا إلى إنجاد هذه القواعد الإسلامية النائية .

واستمر ألفونسو هنريكيز أعواماً يغير على أراضى ولاية الغرب من آن لآخر ، ويترقب الفرص السانحة ، وقد أشرنا من قبل إلى ماكان من محاولة ابن قسى زعيم فتنة المريدين ، أن يحالفه ، وأن يستعين به على مقاومة الموحدين ، وما ترتب على هذه المحاولة من سقوط ابن قسى وهلاكه (سنة ٥٤٦هـ) . ولما تفاقم عدوان ملك البرتغال على قواعد الغرب ، عبر ابن وزير صاحب باجة ويابرة البحر إلى المغرب مستغيثاً بالخليفة عبد المؤمن (سنة ٥٤٩ هـ) ، ولكن عبد المؤمن اكتفى عندئذ ببذل وعوده فى الإنجاد والعون .

وفى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) استولى البرتغاليون بقيادة ألفونسو هنريكيز على الثغر الصغير المنيع المسمى بقصر الفتح أو قصر أبى دانس[٢]، الواقع على مصب نهر سادو (شطوبر) على المحيط جنوبى شرقى أشبونة ، بعد أن حاصروه مدى شهرين من البر والبحر ، وكان سقوطه فى ٢٤ يونيه من العام المذكور[٣] .

وفى أواخر سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر ١١٦٢) قبيل وفاة عبد المؤمن بقليل ، قامت حملة قوية من نصارى شنترين بغزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، ولبثوا فيها أربعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن خربوا ربوعها ، وهدموا أسوارها[٤].

---

(١) Mariana : Historia General de Espana : Lib. Decimo Cap. XIX

(٢) وهو بالبرتغالية Alcacer do Sal

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٩ وكذلك H Miranda : Imperio Almohade Vol. I p. 266

(٤) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١١٨ ب .

هذا وسوف نرى فيما بعد أن استيلاء البرتغاليين على باجة قد وقع وفق رواية أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى بدأ نصارى البرتغال سلسلة جديدة من الاعتداءات على القواعد والأراضى الإسلامية . وكان منظم هذا العدوان وقائده مغامر يدعى جيرالدو ، وينعت فى التواريخ النصرانية « بالباسل » **Geraldo sem Pavor** ، وكان هذا المغامر الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بالعلج جراندة الجليقى » قاطع طريق أو رئيس عصابة ناهبة ، ألفى مجالا طيباً لنشاطه فى الظروف التى كانت سائدة يومئذ فى بلاد الغرب الأندلسية ، وكان يغير بالأخص على المحلات والأراضى الإسلامية الواقعة فى قطاع بطليوس مابين نهرى التاجُه ووادى يانه ، ويعيث فيها قتلا وتخريباً ونهباً ، وكان يقوم بهذه الغارات والغزوات لحساب نفسه ، وفى أصحابه وعصبته ، على نحو ماكان يفعل السّيد الكنبيطور (الكمبيادور) فى شرقى الأندلس أيام الطوائف . بيد أنه لم يكن يبلغ من حيث شخصيته ، ولا من حيث عصبته أو مكانته ، مبلغ السّيد ، وإن كان بعض البرتغاليين يعتبره قرين السيد ، ويسميه « بالسيد البرتغالى » . وكان ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز يؤازره ، ويعاونه بالمال والرجال ، لما يترتب على نجاح حملاته وغاراته من إضعاف المسلمين ، والتمهيد لمشاريعه الضخمة فى افتتاح قواعدهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة — وهو الراوية المعاصر — أعمال جيرالدو ومغامراته فى الفقرة الآتية :

« كان أدفونش الرنك الغادر الجليقى ، صاحب قلمرية ، قد عاين من نجدة هذا الكلب جراندة ، وتيقظة لغدر البلاد والحصون ، ما أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين فى الثغور بأرجاله ، فكان الكلب يتسلل فى الليالى المطرة الحالكة المظلمة ، الشديدة الريح والثلج ، إلى البلاد ، وقد أعد آلات من السلالم من أطول العيدان ، بعلو سور المدينة التى يؤم ويروم ، فإذا نام السامر المسلم فى برج المدينة ، ألقى تلك السلالم إلى جانب البرج ، ورقى عليها بنفسه أولا إلى البرج ، وينقض على السامر ، ويقول له ، تكلم على ماكانت عادتك ليلا يشعر الناس بنا ، فإذا استوفى طلوع حملته ، ألزمه فى أعلى سور المدينة ، صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا من وجدوه

واستلبوه ، وأخذوا كل من فيها سبياً وقتْياً »[1] .

وكانت أول قاعدة إسلامية غزاها جيرالدو فى ذلك القطاع من ولاية الغرب، هى مدينة ترجالُه[2] الواقعة شمالى ماردة على مقربة من نهر التاجُه ، فدهمها فى شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٠ هـ (مايو سنة ١١٦٥م) ، ثم انقض على مدينة يابُرة فى شهر ذى القعدة من نفس العام (سبتمبر ١١٦٥) ، وباعها مع ترجالُه إلى النصارى . ثم سار إلى مدينة قاصرش[3] الواقعة غرب ترجالُه ، واستولى عليها فى صفر سنة ٥٦١ هـ (ديسمبر ١١٦٥) ، وتبعها بالاستيلاء على حصن منتانجش الواقع فى جنوبها الشرقى فى جمادى الآخرة من نفس العام . واستولى أخيراً على حصن شرْبة ، ثم حصن جلمانية[4] الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، واتخذه قاعدة للإغارة عليها ، والتضييق على أهلها . وكانت هذه الغزوات المتوالية التى وقعت بولاية الغرب فى نفس الوقت الذى شغل فيه الموحدون بمقاتلة ابن مردنيش فى شرقى الأندلس ، مقدمة لغزو بطليوس وسقوطها ، وتحريك الموحدين بذلك إلى المبادرة إلى خوض الصراع مع النصارى ، لاسترداد بطليوس ، وحماية ولاية الغرب الأندلسية من السقوط .

وشغل الخليفة أبو يعقوب فى العام التالى — سنة ٥٦٢ هـ — حسبما رأينا بقمع فتنة غمارة . وفى أوائل سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) اتفق رأى الموحدين على تجديد البيعة للخليفة . وليس فى أقوال الرواية ما يوضح سبب هذا الإجراء فى تجديد بيعة سبق عقدها عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، واستكمالها فى سنة ٥٦٠هـ ، حينما تمت بيعة السيد أبى سعيد والسيد أبى عبد الله لأخيهما الخليفة، وتسمى أبو يعقوب عقب ذلك بأمير المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون ذلك عنواناً لإجماع سائر البلاد والقبائل على الطاعة بعد إخماد ثورة غمارة التى شملت منطقة كبيرة حساسة فى شمالى المغرب ، والتى اقتضى أخمادها أن يسير إليها الخليفة بنفسه . ويزف ابن صاحب الصلاة إلينا هذا الإجراء كعادته فى ألفاظ منمقة ،

---

(١) فى كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ أ . وراجع أيضاً البيان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٢) هى بالإسبانية « Trujillo »

(٣) هى بالإسبانية « Cáceres »

(٤) منتانجش بالإسبانية Montanchez ، وشربه Serpa ، وجلمانيه Jurumena

ويقول لنا فى حوادث سنة ٥٦٣ ﻫ ، « فى أول هذه السنة خنع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والبشاير ، من الآراء الموفقة ، والنفوس المصفقة بتجديد البيعة ، والتسريح بالإسمية المستحق لسيدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين ، أعزهم الله » . ثم يقول لنا ، إن هذا الأمر العزيز ، قد نفذ بكتاب كريم ، أرسل إلى أخى الخليفة السيد أبى إبراهيم إسماعيل والى إشبيلية ، منبئاً له « بما اتفق من اجتماع الرأى السعيد ، والفعل السديد ، الذى اجتمعت عليه آراء الموحدين . . من تجديد البيعة الرضوانية والإسمية الإمامية للإمام أبى يعقوب » . وفى هذا الكتاب يأمر الخليفة بأن يأخذ الناس بما جاء فيه ، وجميع الموحدين بإشبيلية ، وسائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، مثل قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس ، وذلك بعقد البيعة على أوفى شروطها . فوجه السيد أبو إبراهيم نسخة الكتاب إلى زميله الحافظ أبى عبد الله والى غرناطة ، فاحتفل بقراءته من فوق المنابر ، وهرع الناس إلى إعطاء بيعتهم ، وسجلوها فى كتاب أرسل إلى الخليفة . وكتب أهل إشبيلية كذلك بيعتهم ، ووقعوها بخطوطهم ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إلى الخليفة . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة نص الوثيقتين المذكورتين ، وقد أرخت كلتاهما فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة(١) ، وأرسلت فى نفس الوقت بيعات سائر القواعد الأخرى ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، إلى حضرة مراكش .

ولما كملت البيعة الجديدة على هذا النحو تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمير المؤمنين ، وساد اليمن والبشر ، وأصدر الخليفة عفوه عن المسجونين ، وأمر برفع البقايا عن العمال الخائفين ، وتأمينهم من المخاوف ، فيما تقيد عليهم فى الدواوين ، وأغدق الصلات والأعطية ، وأمر بأن يجرى « الإنعام والبركات » فى سائر بلاد المغرب والأندلس ، فكثرت النعم ، وعم الرخاء ونمت الجبايات والخراج ، وانتعشت حركة العمران فى العاصمة الموحدية ، وشرع الناس فى إنشاء الدور الفخمة ، والرياض اليانعة ، وكثرت بهذه المناسبة مدائح الشعراء وتهانيهم . فمن ذلك قصيدة نظمها أبو عمر بن حربون شاعر الدولة الموحدية هذا مطلعها :

جاءتك تسحب ذيلها للموعد   زهراء طالعة بسعد الأسعد

---

(١) كتاب « المن بالإمامة » ، لوحة ١٠٠ إلى ١٠٤ ا . وقد رأينا أن ننقل نص بيعة إشبيلية فى باب الوثائق ، فلتراجع هنالك .

فاصدع أمير المؤمنين بدعــوة لم تترك صمما لسمع الجـامد
يهنى الخلافة ان لبست رداءها وقعدت منها اليوم أشرف مقعد[1]

وفى أواخر هذا العام — سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) — ندب أبو يعقوب أخاه السيد أبا إسحاق إبراهيم واليا لقرطبة، وكانت بلا وال مذ غادرها واليها السابق السيد أبو سعيد عائداً إلى مراكش نزولا على رغبة أخيه الخليفة ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ . وعبر السيد أبو إسحاق إلى الاندلس فى عسكر ضخم من الموحدين وسار إلى قرطبة ليتقلد ولايتها . وكان عبوره فاتحة الحركة التى كانت تجتمع أسبابها منذ حين ، لعبور الموحدين إلى شبه الجزيرة ، للاضطلاع بمحاربة النصارى ، وافتتاح عهد جديد من الجهاد ، تؤمّن فيه الأندلس ، ويقمع عدوان المعتدين عليها .

— ٤ —

والواقع أن الموحدين كانت قد انعقدت نيتهم على الاضطلاع بهذه الخطوة، التى برهنت حوادث الأندلس على ضرورتها ، وذلك سواء فى الشرق أو الغرب . وقد أبلغ الخليفة أمر هذه النية ، وما اتفق عليه رأى الموحدين بشأنها ، إلى الشيخ الحافظ أبى عبد الله والى غرناطة ، فى رسالة خاصة وجهها إليه ، مؤرخة فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ ، وفيها يشير إلى ما تقرر من إرسال السيد أبى إبراهيم فى عسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة ، وأنه سوف يتعاون بعسكره مع إخوانه الذين بإشبيلية ، ويضطلع الجميع بالجهاد وحماية البلاد ، وأن يستمر النظر للحافظ أبى عبد الله فى شئون الآلات والأسلحة التى تحتاج إليها القوات الموحدية[2] .

وحدث فى نفس الوقت الذى وصلت فيه هذه الرسالة إلى غرناطة ، أن أغارت قوة من النصارى المرتزقة من جند ابن مردنيش على وادى شَنيل غربى غرناطة ، واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رُندة ، وعاثت فى تلك المنطقة ، وانتهبت أموالها وماشيتها ، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز عسكر قوى

---

(١) أوردها ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٠٧ ا و ب ، ووردت كذلك فى البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٤ .

(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٠ ا و ب و ١١١ ا .

لردها وردعها ، فالتقت بهم حين عودتهم على مقربة من وادى آش ، فحاول النصارى الامتناع بجبل قريب ، ولكن الموحدين دهموهم فى أعلى الجبل ، وقاتلوهم بشدة ، حتى مزقت صفوفهم ، وتساقطوا من حافات الجبل ، وقد فنى معظمهم قتلا وأسرا ، واستاق الموحدون الغنائم والأسلاب ، ومعها ثلاثة وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم عند وصولهم إلى غرناطة (مارس سنة ١١٦٨ م) ، وبعث السيد أبو عبد الله ، بنبأ ذلك النصر إلى الخليفة ، فرد عليه برسالة يزجى فيها الشكر ، ويحمد الله على توفيقه[(١)] .

وفى أواخر هذا العام استولى الموحدون على ثغر طبيرة ، الواقع فى جنوبى البرتغال غربى مصب نهر وادى يانه ، وكانت طبيرة من القواعد التى ثارت بالغرب أيام أن اضطربت شئونه ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ ، وكان الخليفة أبو يوسف ، أيام أن كان والياً لإشبيلية ، فى أواخر عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن ، قد نازل طبيرة مرتين ، فلم يظفر بفتحها ، وكان صاحب طبيرة ، عندئذ الثائر بها عبدالله ابن عبد الله ، قد تفاقم شره وعدوانه ، وكثر عيثه فى تلك المنطقة ، يعتدى على السكان الآمنين والسابلة ، والتجار ، بعصبته من أهل الشر وقطاع الطريق ، سواء فى البر أو البحر ، فعندئذ عول الموحدون على أخذ طبيرة ، وحسم دائها. فساروا إليها فى حملة قوية ، واحتلوا حصن قسطلة القريب منها ، وحاصروها براً وبحراً ، حتى أذعنت إلى التسليم ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣ هـ (سبتمبر سنة ١١٦٨ م)[(٢)] .

وفى أواخر هذا العام أيضاً وقع حادث ذو مغزى خاص ، هو قدوم الزعيم القشتالى فرناندو ردريجيس صهر فرناندو الثانى ملك ليون وزوج أخته إبنة القيصر ألفونسو ريمونديس ، مع أخويه إلى إشبيلية ، والإعراب عن رغبته لأشياخ الموحدين بها ، فى أن يكون صديقاً وحليفاً لأمير المؤمنين ، ومنابذاً لشيعة النصارى ، فبعث الموحدون برغبته إلى الخليفة ، فأذن له بالقدوم إلى مراكش ، فقدم إليها ، واستقبله الخليفة أبو يعقوب بترحاب بالغ ، وأنزله ومن معه خير منزل ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر ، معززاً مكرماً ، « حتى كاد أن

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٢ ا و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٦ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٧ و ٧٨ .

يُسلم » ، وقد عاهد الخليفة أن يكون حليفه وحليف المسلمين المخلص ، لا يشهر عليه عدواناً قط . ثم عاد إلى بلاده وقد أمر الخليفة بأن يشمله الموحدون بأتم الرعاية . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة هذا الزعيم القشتالى باسم « فرناندو راس النصرانى » ويلقبه بصاحب ترجاله ، ويصفه « بالشهير النسب والشهامة عند النصارى »[1] .

وتلا ذلك عقد الصلح والتحالف بين فرناندو الثانى ملك ليون وبين الموحدين. وكانت الخصومة تضطرم بين فرناندو وملك البرتغال ألفونسو هنريكيز ، بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ، إذ كان فرناندو متزوجاً بالأميرة أوراكا ابنة ملك البرتغال ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أن فرناندو لم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال الذى ورثه عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس . وكان فرناندو مذ فرغ من مشاغله وحروبه فى قشتالة ، يتجه بأطماعه نحو مملكة البرتغال ، وينظر بعين الحسد والتوجس إلى ماكان يحرزه ألفونسو هنريكيز من انتصارات متوالية على المسلمين ، ويخشى بنوع خاص أن تمتد فتوح ملك البرتغال إلى بعض القواعد والأراضى الإسلامية التى يرى فرناندو أنها من خاصة قشتالة وليون . وكان فرناندو قد عمد إلى تحصين مدينة ردريجو ، (ثيوداد ردريجو)[2] الواقعة على حدود البرتغال ، واتخذها قاعدة للإغارة على أراضى البرتغال القريبة ، وأنشأ فى نفس الوقت عدة قلاع وحصون منيعة على حدود البرتغال . كل ذلك استعداداً لأن يخوض مع ملك البرتغال صراعاً حاسما. ثم رأى أخيراً أن يقوى جانبه بعقد التحالف مع الموحدين . وتسمى الرواية الإسلامية فرناندو ، « بالبيبوج » ، و« بصاحب السبطاط » وتسميه أحيانا صاحب « السبطاط وآبلة وليون وسمورة » . فأما « البيبوج » أو « البيوج » فهو تحريف للكلمة القشتالية El-Baboso ، ومعناها الكثير اللعاب ، وكذلك الأبله . وهذا ما لم يفت الرواية الإسلامية أن تشير إليه[3]. وأما « صاحب السبطاط » فمعناه « صاحب ثيوداد ردريجو » وقد كانت وقتئذ

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ ا — والبيان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ .

(٢) وهى بالإسبانية Ciudad Rodrigo وبالقشتالية القديمة Cibdad ومنها حرفت التسمية العربية « سبطاط » .

(٣) راجع المعجب ص ١٨٢ .

مقره وقاعدة تحركاته . وكانت أول ثمرات محالفة فرناندو للموحدين هو أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت تونيو دى لارا حاكم طليطلة، والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبي ألفونسو النبيل ملك قشتالة . وكانت هذه الحملة الموحدية التي حشدت فى إشبيلية بقيادة أبى العلاء بن عزون والحافظ أبو على عمر بن تمصلت ، والحافظ موسى بن حمو . ودخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضى قشتالة، وحاربوا معه ضد خصومه ، ثم ساروا معه حتى حدود الأستورياس (أشتريش) ، وأقاموا فى هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم عادوا سالمين ، وقد اغتبط ملك ليون بموازرتهم ونجدتهم ، وقطع على نفسه العهد الوثيق ، بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى ، الذين يعتدون على أراضيه ، وألا يتوانى فى ذلك قط ، وأقسم على ذلك فى بيعة بلده . وقد أوفى بهذا العهد كما سنراه فى حوادث بطليوس أتم وفاء[١] .

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ و ١١٨ ا ، والبيان المغرب ، القسم الثالث ص ٧٨

الفصل الثاني

حوادث الأندلس

وسقوط مملكة الشرق

اهتمام الموحدين بحوادث الأندلس . عزمهم على استئناف الغزو . رسالة الخليفة أبي يعقوب في ذلك . خطة ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لافتتاح بطليوس . سقوط المدينة وامتناع الموحدين بالقصبة . تدخل فرناندو ملك ليون لإنجاد الموحدين . بواعث خصومته لملك البرتغال . القتال داخل المدينة بين الفريقين . هزيمة ملك البرتغال وأسره ، ثم إطلاقه . فرناندو يسلم المدينة للموحدين . تدعيم الدفاع عن قرطبة . الشقاق بين ابن مردنيش وابن همشك . توحيد ابن همشك وانضمامه للموحدين . بعث ابن مردنيش قواته لقتاله . تعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لبطليوس . مهاجمة جيرالدو سمبافور لبطليوس . القتال بينه وبين الموحدين . هزيمة الموحدين وأسر أكابرهم . استدعاء ولاة قرطبة وإشبيلية وغرناطة إلى الحضرة ثم عودهم . غزو القشتاليين للأندلس . تقاعد الموحدين عن ردهم . بعض الأحداث الطبيعية . غارات جيرالدو على بطليوس . سعي الموحدين لإمدادها . معركة بين الموحدين وجيرالدو . هزيمة الموحدين ومقتل الحافظ أبي يحيى . مرض الخليفة وتأخر حركة الغزو . ترجيح البدء بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على حركته . عبور السيد أبي حفص في القوات الموحدية . مسير السيد أبي سعيد في قواته لإنجاد بطليوس . مسير ملك ليون إليها لافتتاحها . لقاء السيد والملك النصراني . تفاهمهما على استبقاء التحالف والصلح . افتتاح السيد أبي سعيد لحصن جلمانية . ابن مردنيش وانحلال قواه . عوامل هذا الانحلال . مصادقة ابن مردنيش للنصارى . خروج قادته ووزرائه عليه . مسير الموحدين بقيادة السيد أبي حفص لقتال ابن مردنيش . استيلاؤهم على قيجاطة . زحفهم على مرسية . دخول لورقة في طاعتهم ، ثم سقوطها في أيديهم . دخول ألش والجزيرة ثم بسطة في طاعتهم . مدافعة ابن مردنيش للموحدين . موقف أخيه يوسف والي بلنسية . محاولة النصارى غزو بلنسية . قيام محمد بن مردنيش ومحمد بن هلال بألمرية ودعوتهما للموحدين . اضطراب ابن مردنيش وتخاذله . وفاته وما قيل حولها . انهيار دولته . ثورة ابن مردنيش وصفتها الأندلسية القومية . شخصية ابن مردنيش ومعايبها . مقدرته وشجاعته . إعلان ولده هلال وقادته الطاعة للموحدين . رواية عن وصية ابن مردنيش بالتسليم . دخول السيد أبي حفص والموحدين مرسية . مسير هلال وأكابر الشرق إلى إشبيلية . مبايعتهم للخليفة أبي يعقوب . زواج الخليفة من ابنة ابن مردنيش . ابن همشك ونهايته .

لم يكن الخليفة أبو يعقوب وأعوانه من أشياخ الموحدين ، بغافلين عن خطورة الحوادث التي وقعت في غربي الأندلس ، وما اقترن بها من سقوط قواعد إسلامية جديدة في أيدي النصارى . وكان قد مضى على سقوط أشبونة وشنترين في يد الملك

ألفونسو هنريكيز نحو عشرين عاماً ، وقد غلب النسيان نوعاً على فقد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد الغرب لموقعهما النائى ، ولكن تقدم البرتغاليين نحو بطليوس وماردة ، بسقوط ترجالُه وقاصرش ويابرة وجلّمانية ، وتهديدهم لسائر الأراضى الواقعة على ضفتى نهر وادى يانه ، زاد من خطورة الموقف ، ونبه الموحدين إلى وجوب البدار إلى إنجاد الأندلس ، والعمل على حمايتها .

وقد حالت الأحداث والفتن التى وقعت بالمغرب ، والتى فصلناها فيما تقدم ، دون تنفيذ هذا العزم حيناً . فلما حلت سنة ٥٦٤ هـ ، هدأت تلك الفتن ، واستتبت السكينة والسلام بالمغرب ، لاح للخليفة ومعاونيه ، أن الفرصة قد أزفت للعمل بالأندلس ، فجهز أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى كبير أشياخ الموحدين ، وعبر هذا الجيش البحر إلى إشبيلية ، ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة ، التى اعتزم الموحدون القيام بها فى الأندلس . ويبدو مما يقوله لنا ابن صاحب الصلاة ، نقلا عن أبى محمد سيدراى بن وزير ، أن التعجيل بإرسال هذا الجيش ، كان بسبب وصول الخبر بمهاجمة البرتغاليين لبطليوس ، ومحاصرتهم للموحدين الممتنعين بقصبتها ، وقد وقع الهجوم على بطليوس فى شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩ م) . على أنه يبدو من نص الرسالة التى وجهها الخليفة بهذه المناسبة إلى الموحدين بالأندلس والتى أرخت فى اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، ان هذا الجيش الموحدى ، قد جهز وأرسل إلى الأندلس ، قبل حوادث بطليوس بنحو شهرين أو ثلاثة ، ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، وليطمئن أهل الأندلس بوصوله وأنه فوجئ بحوادث بطليوس أثناء وجوده بإشبيلية .

وهذه الرسالة التى وجهها الخليفة أبو يعقوب « إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس » هى من إنشاء كاتبه أبى الحسن بن عياش ، وهى تردد وتؤكد نفس الوعود التى قطعتها الخلافة الموحدية على نفسها غير مرة ، منذ أواخر عهد عبد المؤمن بالعمل على حماية الأندلس وغوثها ونصرتها[1] ، وقد ورد فيما يلى بخصوص هذا الشأن :

« وما زلنا وفقكم الله على أتم العناية بتاكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص

---

(١) أشرنا من قبل إلى رسالة بهذا المعنى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى ولده السيد أبى يعقوب أيام أن كان والياً لإشبيلية وذلك فى ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (القسم الأول ص ٣٧٩) .

على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة ، والمشاهدة ، إشفاقاً على ما استضام منها جيرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء، مجسمين وروما ، وماكادوها به من التكلف والتحيف والتنقص ، وفغر الأفواه ، وكسر الثيوب والأرصاد ، لغيض مافاض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصبة للمنحاشين إليه، المتعلقين بأسبابه ، المستذمين بذمته ، ممن صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السباك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدق على ما سواه من الأفكار ، ويأخذ السبق على غيره من معنيات الأمور» .

ثم تقول الرسالة إيضاحاً لحركة الشيخ أبي حفص ، وتأكيداً لنيات الخليفة فى الاضطلاع بأعباء الجهاد :

« ورأينا فى أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبي حفص أعزه الله ، ليكون تقدمة لحواز جمهور الموحدين ، ومؤذناً بما عزمنا عليه . والله المستعان من التحرك لجملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذى جعلناه نصب العين وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إنشاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أمراسها ، التى انعقدت بها النية ، واحتدمت لها فى ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله فى تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والمروية ، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتمم مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه بالنعمة فى أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وقنية ، فما ذلك على الله بعزيز »[1].

وفى خلال ذلك كان ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة بطليوس بالتعاون مع جيرالدو « سمبافور » أو « جيرانده الحليق » حسبما تسميه الرواية الإسلامية . وكان ملك البرتغال قد قام فى سنة ١١٦١ م

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحات ١٢٠ — ١٢٢

(٥٥٦ هـ) بمحاولة أولى لمهاجمة بطليوس ، انتقاماً لما قام به الموحدون قبل ذلك بأعوام قلائل من غزو أراضيه . ولكنه رد على الأثر . وليس من الواضح ما إذا كانت بطليوس عندئذ ما تزال تحت حكم صاحبها ابن الحجام ، أحد ثوار الغرب الموالين للموحدين ، أم أنها كانت قد خلصت للموحدين ، وهم الذين قاموا بالدفاع عنها . وكان جيرالدو سمبافور قد استولى ، حسبما ذكرنا فيما تقدم ، على حصن جلمّانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، وحصن منتانجش على مقربة من شمالها الشرقي . فني شهور رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩م) ، زحف جيرالدو سمبافور فى جموعه على مدينة بطليوس ، وهاجمها ، ورأى واليها أبو على عمر بن تيمصلت أنه لا يستطيع بحاميته الضعيفة أن يدفع الهاجمين ، فامتنع بالقصبة ، وبعث بصريخه إلى الموحدين بإشبيلية . وما كاد جيرالدو يستولى على المدينة حتى أقبل ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز فى قواته ، ودخل بطليوس ، وحاصر الموحدين فى القصبة ، وحدد لهم مهلة للتسليم . وكانت قصبة بطليوس من أعظم القصبات الأندلسية وأمنعها[1] ، ومن ثم فإن ابن تيمصلت كان على يقين من أنه سوف يستطيع الصمود مع حاميته حتى تصل الأمداد الموحدية من إشبيلية . بيد أن النجدة جاءت لأهل بطليوس ، وللموحدين المحصورين بقصبتها ، من طريق آخر لم يكن فى الحسبان . جاءت على يد ملك ليون فرناندو الثانى .

ويجب لكى نفهم هذا الموقف الذى ترتب عليه اشتباك الملكين النصرانيين ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وفرناندو الثانى ملك ليون ، داخل مدينة بطليوس ، وتحت أسوار قصبتها ، أن نرتد قليلا إلى الوراء ، لنلقى بعض الضوء على علائق هذين الملكين المتنافسين ، فى هذه الفترة الدقيقة من حياة الحاضرة الأندلسية التالدة — بطليوس . وقد سبق أن شرحنا بإيجاز سبب الخصومة الرئيسى بينهما ، وهو ما يتمسك به فرناندو الثانى من دعوى السيادة على البرتغال التى ورثها عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ، ورفض ملك البرتغال أن يعترف بظل من هذه السيادة ، وما اقترن بذلك من إنشاء فرناندو الثانى لمدينة ردريجو الحصينة على مقربة من حدود البرتغال ، لكى يتخذها قاعدة للإغارة على أراضى

---

(١) أتيح لى أن أزور مدينة بطليوس وأن أشاهد بقايا قصبتها العظيمة الواقعة فوق الربوة الصخرية المشرفة على نهر وادى يانه ، والتى مازالت تدل على ما كانت عليه هذه القصبة من الضخامة والمنعة .

البرتغال . كل ذلك بالرغم مما كان يربط هذين الملكين من وشائج المصاهرة الوثيقة ، إذ كان ملك ليون متزوجاً من ابنة خصيمه ملك البرتغال . وكان ألفونسو هنريكيز قد بعَث ولده سانشو فى جيش ليهاجم مدينة ردريجو ويخربها ، فبادر إليها فرناندو فى قواته ، ورد البرتغاليين عنها ، وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر عدداً وافراً منهم ، بيد أنه أطلق فى الحال سراحهم سعياً إلى استرضاء ملك البرتغال ، وتهدئة خصومته . ولكن الأمر كان بالعكس ، فقد عول ألفونسو هنريكيز على الانتقام لتلك الهزيمة ، وخرج فى أواخر سنة ١١٦٧ م من شمال البرتغال فى جيش قوى ، وهاجم جليقية من أراضى مملكة ليون واستولى على مدينة توى ، ثم على مدينتى ليما وترونيو وما حولها من الأراضى ، ووضع فيها حاميات برتغالية قوية ، وذلك بحجة أن هذه المدن والأراضى كانت من أملاك أمه الملكة تيريسا ، تلقتها عن أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها .

وفى العام التالى ، سنة ١١٦٨ م ، وضع ألفونسو هنريكيز خطته لمحاربة المسلمين ، والبدء بغزو مدينة بطليوس ، أهم وأقرب القواعد الإسلامية إليه . ونفذ خطته بالفعل بالتعاون مع جيرالدو سمبافور فى أبريل سنة ١١٦٩م . وكان فرناندو ملك ليون ، يرقب مشاريع ملك البرتغال وحركاته بمنتهى العناية ، ويحرص بالأخص على ألا تمتد فتوحه إلى تلك المنطقة التى كان ملوك قشتالة وليون يعتبرونها منطقة لنشاطهم وفتوحهم . وكان سانشو الثالث ملك قشتالة ، قد عقد مع أخيه فرناندو على أثر موت أبيهما القيصر ألفونسو ريمونديس ، معاهدة لتقسيم أراضى اسبانيا المسلمة ، إلى منطقتى نفوذ ، يختص كل منهما بواحدة منهما ، فيختص ملك ليون بالغزو والفتح فى المنطقة التى تمتد من لبلة حتى أشبونة ومنتانجش وماردة وبطليوس ويابرة وشلب وكذلك نصف مدينة إشبيلية ، وسائر الحصون الواقعة فى تلك المنطقة ، ويختص ملك قشتالة بالغزو والفتح فى سائر ما تبقى من أراضى اسبانيا المسلمة ، ولاسيما المنطقة الواقعة فيما بين الوادى الكبير وغرناطة ، ومن ثم فإنه لما سار ألفونسو هنريكيز إلى غزو بطليوس ، اعتبر فرناندو هذه الحركة اعتداء على حقوقه ومنطقة نفوذه ، وما كاد ملك البرتغال يدخل بطليوس ، حتى كان فرناندو قد سار بقواته فى أثره ، يحاول رده عن القاعدة الإسلامية . فلما اقترب من بطليوس بعث رسوله خفية إلى واليها ابن تيمصلت المحصور بالقصبة ، وإلى أهل المدينة من الأندلسيين ، ينبئهم بمقدم

ملك ليون لإنجادهم ، ويطلب إلى ابن تيمصلت أن يدله على الطريق الذى يمكن أن يسلكه لدخول المدينة . فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله إلى مكان خفى من بعض أسوار القصبة ، لم يفطن إليه البرتغاليون ، فلما تحققوا من وصول القوات الليونية ، نقبوا السور فخرج منه الموحدون إلى أقرب أبواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه جند ليون ، واجتمع الموحدون وجند ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة ، وحمى القتال بين الفريقين ، وأبدى الموحدون وحلفاؤهم الليونيون منتهى الإقدام والبسالة ، فى مقاتلة البرتغاليين ، حتى مزقت صفوفهم. واضطر ملكهم ألفونسو ، هنريكيز إلى الفرار ، ولكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو فى منتهى السرعة والذعر ، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدة أو علقت برتاج الباب على قول آخر ، فسقط من فرسه ، وقد كسرت ساقه ، وأغمى عليه ، فحمله أصحابه وهو فاقد الوعى ، إلى بليدة ، « قاية » الواقعة على مقربة من شمال المدينة فطاردتهم قوات فرناندو ، وأسرت الملك الجريح ، وعدة من أكابر أصحابه . وعامل فرناندو خصمه الملك بمنتهى الكرم والشهامة ، فعهد إلى أطبائه بمعالجته ، ثم أطلق سراحه ، بعد أن تعهد له برد سائر الأماكن التى انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها . وعاد ألفونسو هنريكيز إلى قلمرية ، وقد فتت الهزيمة فى عضده ، وشلت ساقه ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يركب فرساً[1] .

أما جيرالدو سمبافور فقد فر على أثر الموقعة ، حسبما يذكر لنا ابن صاحب الصلاة . وفى رواية أخرى أنه أسر مع مليكه ، ثم أطلق فرناندو سراحه بعد أن تعهد بالتنازل عن الأماكن والحصون التى استولى عليها شمالى بطليوس مثل ترجالُه ، وقاصرش ومنتانجش ، وقد استولى الموحدون على قاصرش وحصن شربة فيما بعد .

ووقعت هزيمة البرتغاليين وإخراجهم من بطليوس فى اليوم الثانى والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ (٢١ مايو سنة ١١٦٩ م) . وفى الحال سلم فرناندو المدينة إلى واليها ابن تيمصلت ، وأوفى فرناندو فى هذه المناسبة بعهوده للخليفة الموحدى أتم وفاء ، وأبدى للموحدين إخلاصه وعرفانه لسابق عونهم وإنجادهم . واستولى

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٢ ب و ١٢٣ ا ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٠ و ٨١ . وكذلك M, Lafuente : Hist- General de Espana. T. III, p. 329 8 330.

الموحدون على سائر ما تركه البرتغاليون وراءهم من العتاد والمتاع والمؤن ، وكانت مقادير وفيرة . وعاد فرناندو فى قواته ظافراً إلى ليون . ووصلت أنباء النصر إلى إشبيلية ، على عجل ، وتلقاها الشيخ أبو حفص عمر ، بينما هو يستعد للسير فى قواته إلى بطليوس لإنجادها . فكتب فى الحال إلى الخليفة أبى يعقوب ، رسالة بالفتح ، فسر الخليفة بذلك أيما سرور ، ورفع إليه الشعراء مدائحهم وتهانيهم . ومنها قصيدة لشاعر الدولة الموحدية أبى عمر بن حربون هذا مطلعها :

بسعدك أضحى الدين جذلان باسما ... وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما
إلا أنها فيا وعدت لآية يدين بها ... من كان بالله عالما[1]

— ١ —

لما انتهت معركة بطليوس بهزيمة البرتغاليين ، وتوكيد سيادة الموحدين على المدينة ، غادر الشيخ أبو حفص عمر إشبيلية فى قواته وسار إلى قرطبة، لمعاونة واليها السيد أبى إسحاق إبراهيم ، على تقوية جبهتها الدفاعية . وكان يخشى دائماً أن تهددها قوات ابن مردنيش من ناحية الشرق ، عن طريق جيّان قاعدة حليفه وصهره إبراهيم بن هَمُشك ، وتهددها القوات القشتالية من الشمال . بيد أن الخطر من ناحية الشرق تضاءل منذ موقعة فحص الجلاب ، التى هزم فيها ابن مردنيش وحطمت قواته . ومن جهة أخرى فقد وقع الشقاق بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك ، وذلك بسبب طلاق ابن مردنيش لزوجته صُبيحة ابنة إبراهيم ، بعد أن بالغ فى إهانتها وإيلامها ، فغادرته إلى كنف أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، ومما يروى أنها سُئلت عن ولدها ، وكيف تصبر عنه ، فأجابت « جرو كلب ، جرو سوء ، من كلب سوء لاحاجة لى به » فأرسلت كلمتها فى نساء الأندلس مثلا[2] . وكانت الوحشة قد سادت قبل ذلك بين ابن مردنيش وصهره ، وخشى ابن همشك على نفسه من غدر صهره ، وراعه ماشهده بنفسه من إقدام ابن مردنيش على قتل وزيريه ابنى الجذع وبنائهما فى الحائط ، وغير ذلك من الأعمال المروعة ، فاشتدت بينهما الوحشة ، وانقلبا إلى خصمين لدودين ، والظاهر من أقوال ابن الخطيب أنه قد وقعت بين ابن مردنيش وابن همشك على

---

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكلها فى « المن بالإمامة » وتشغل اللوحات من ١٢٤ إلى ١٢٦ ا .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣١٠ .

أثر ذلك ، معارك ومناوشات هلك فيها جماعة من أنصار الفريقين . وكان ابن همشك يسيطر على قطاع جيّان وبياسة وأبدة ، نائبا عن صهره ابن مردنيش . فلما اضطرم العداء بينهما ، أخذ ابن مردنيش يرهقه بغاراته ، ويؤلب عليه قواده وجنوده ، وابن همشك يقاوم ما استطاع .

على أن ابن هَمُشك لم يلبث أن جنح إلى قرار حاسم ، فكتب إلى الشيخ أبي حفص بقرطبة رسالة يعلن فيها توبته واعتناقه لمذهب التوحيد، ويعرض تمكين الموحدين من بلاده ، وهو ما يصفه ابن صاحب الصلاة « بتوحيد ابن همشك » وفي هذا التعبير ذاته ما يدلى بأن « التوحيد » لم يكن يقتصر على الناحية الدينية ، ولكنه كان يعني بالأخص الخضوع السياسي لسلطان الدولة الموحدية . ثم شفع ابن همشك رسالته بالسفر إلى قرطبة ، وذلك في رمضان سنة ٥٦٤ هـ (يونيه ١١٦٩ م) ، فاستُقبل من واليها السيد أبي إسحق ومن الشيخ أبي حفص ، وأكابر الموحدين بترحاب ومودة . وأعلن ابن همشك أنه « قد عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع ، والدخول في حكم التوحيد » . ثم كتب إلى الخليفة أبي يعقوب يسجل توبته ودخوله في الطاعة ، ويلتمس العفو ، وحسن المثاب . فرد الخليفة بحسن القبول ، وأمر بتقريبه ، وإكرامه ، واتصلت القواعد والأراضي التي كانت بيد ابن همشك بأراضي الموحدين في أواسط الأندلس . وكان انضمام ابن همشك إلى الموحدين على هذا النحو ، ضربة أصابت ابن مردنيش في الصميم ، إذ كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قواده وأشدهم وطأة على أعدائه ، ومن ثم فقد عول ابن مردنيش على الانتقام من صهره ونائبه السابق ، ومعاقبته على خيانته ، فدفع سائر قواته المجاورة لأراضيه إلى قتاله ، وهاجمت هذه القوات جيان واستمرت في مقاتلة ابن همشك وإرهاقه مدى عام ، وهو يستصرخ الموحدين لإنجاده . ولكن الموحدين لم يروا أن يتدخلوا في تلك المعركة ، إذ كانت لديهم خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنيش في عقر بلاده[1] .

وفي أثناء ذلك ورد أمر الخليفة بتعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر والياً لمدينة بطليوس مكان ابن تيمصلت . وكان أبو يحيى من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلما . وكان عندئذ مع أبيه بقرطبة . فسار إلى بطليوس في حملة

---

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٢٦ أ و ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٢ .

كبيرة من الموحدين والجند الأندلسيين ، وتقلد ولايتها وأخذ فى تأمينها وتحصين أطرافها . وقام بحفر بئر كبيرة داخل القصبة تنفيذاً لأمر الخليفة ، يسرى إليها ماء نهر وادى يانه ، وذلك تحوطاً واستعداداً لما قد يقع من حصار أوغيره من الطوارئ ، وعرفت هذه البئر باسم « القيوراجة » . وكانت من خير ما عمل لتأمين القصبة الشهيرة وتحصينها . وكان المغامر البرتغالى جيرالدو سمبافور ما يزال مرابطاً بقواته فى حصن جلمانية القريب من بطليوس ، فانتهز فرصة انشغال الوالى الجديد بأعمال الحفر والتحصينات ، وأخذ يرهق المدينة بغاراته المتوالية ، والحافظ أبو يحيى يبذل جهده فى مدافعته ورده بقواته . وأخيراً نظم جيرالدو حملة قوية ، اشتركت فيها قوة كبيرة من نصارى شنترين ، ورتب من جنده كمائن فى مواضع مستورة ثم هاجم أحواز بطليوس القريبة ، فخرج إلى لقائه الحافظ أبو يحيى فى قواته ، وما كاد الموحدون يحملون عليه ، حتى تظاهر بالهزيمة والفرار ، فتبعه الموحدون حتى وصل إلى مقر الكمائن ، وعندئذ أطبق النصارى على الموحدين ، وقاتلوهم بشدة ، فانهزم الموحدون وأسر النصارى منهم جملة بينهم عدة من الأكابر ، افتدى معظمهم فيما بعد ، وكان ذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ هـ (أواخر ١١٦٨م)[١].

وفى هذه السنة أيضاً — سنة ٥٦٤ هـ — استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم إسماعيل والى إشبيلية ، والسيد أبا إسحق إبراهيم والى قرطبة ، والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة ، إلى الحضرة فغادروا الأندلس فى أوائل جمادى الأولى من هذا العام (فبراير ١١٦٩ م) . والظاهر أن الغرض من هذا الاستدعاء ، كان يدور حول الاستعداد للحملة الكبرى التى يزمع الخليفة تسييرها لمقاتلة ابن مردنيش . وأقام هؤلاء الولاة فى الحضرة حتى أوائل سنة ٥٦٥هـ ثم انصرف السيدان أبو إبراهيم ، وأبو إسحق إلى الأندلس ، وصحبهما أخوهما السيد أبو على الحسن الذى ندب والياً لسبتة ، ومنطقة جبال غمارة ، ليتقلد ولايته . وبقى الحافظ أبو عبد الله بالحضرة حيناً آخر ، وسار السيد أبو إبراهيم إلى إشبيلية والسيد أبو إسحق إلى قرطبة . وكان معهما وال جديد عينه الخليفة ، هو الحافظ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن شيبان أحد أبناء أشياخ خمسين ، وقد عين واليا لطبيرة وشنتمرية الغرب ، من أعمال ولاية الغرب الأندلسية ، وكانت هذه المنطقة التى تقع فى جنوب البرتغال ، تضطرم بالفتنة من آن لآخر ، فضبطها الحافظ

---

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٢٨ ا وب و١٢٩ ا ، والبيان المغرب ص ٨٣ .

أبو يحيى بحزم وقوة ، وقمع بذور الفتنة ، واستمر فى حكمها أعواماً طويلة ، وقد ساد بها السلام والأمن .

وكان من أهم الأحداث فى هذه السنة — سنة ٥٦٥ ﻫ (١١٧٠ م) — إغارة القشتاليين على الأندلس . وكان عدوان القشتاليين على الأراضى الإسلامية قد انقطع حيناً منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، واضطرام الحرب الأهلية بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وانشغال قشتالة بنوع خاص بالصراع بين أسرتى لارا وكاسترو القويتين . فلما انتهى هذا الصراع الذى اشترك فيه فرناندو ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، بانتصار آل لارا وهزيمة آل كاسترو ، بسط آل لارا سيادتهم على طليطلة عاصمة قشتالة ، ووضعوا الملك الصبى ألفونسو الثامن تحت حمايتهم ، وقام بالوصاية عليه كبير الأسرة الكونت نونيو دى لارا (سنة ١١٦٦م) . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى اعتزم الكونت نونيو — ويسميه ابن صاحب الصلاة ، القمط نونه ، ويصفه « بظئر أدفونش الصغير » — أن يقوم بغزوة للأراضى الإسلامية ، يكون فيها تقوية سلطانه ، وتعزيز هيبته . فخرج فى قواته من طليطلة ، واخترق موسطة الأندلس ، وسار جنوبا ، وهو يثخن أينما حل ، دون أن تعترضه أية قوة معارضة . ثم عبر الوادى الكبير ، وشنيل ، وانتهى فى غزوته إلى فحص رُندة ، وفحص الجزيرة الخضراء ، أو أنه استطاع بعبارة أخرى ، أن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها دون أن يلقى أية مقاومة على نحو ما فعل ألفونسو المحارب قبل ذلك بنحو نصف قرن . ويقول ابن صاحب الصلاة ، إنه وصل فى سيره إلى البحر ، وقتل المسلمين فى تلك الأراضى ، واستولى على كثير من السبى والغنائم والماشية ، ونحن لانستطيع أن نفسر جمود الموحدين إزاء مثل هذا العدوان الجرىء خصوصاً وقد كانت لديهم فى قرطبة قوات كبيرة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر ، اللهم إلا حرصهم على قواتهم ، وادخارها لمحاربة ابن مردنيش[1] .

ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة طائفة من الأحداث الطبيعية التى حدثت فى تلك الفترة . منها تغير الهواء بمراكش أوبعبارة أخرى ظهور وباء مرض منه معظم السادات وكثير من الناس ، وذلك فى أواخر سنة ٥٦٤ ﻫ . ومنها توقف المطر وحدوث الشَّرَق بالأندلس حتى شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ ، ثم سقوط

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٠

الأمطار بعد ذلك . وفى شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٥ ﻫ ، حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها فى عدة من مدن الأندلس ، وتوالت بالأخص فى مدينة أندوجر مدة أيام حتى كادت أن تغوص منها الأرض، ووقعت كذلك بقرطبة وغرناطة وإشبيلية . يقول ابن صاحب الصلاة ، وكان من سكان إشبيلية « فكان الرائى يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى . وتهدمت من ذلك ديار كثيرة فى البلاد المذكورة وصوامع مساجدها »[1] .

وفى شهر رجب سنة ٥٦٥ ﻫ (أبريل سنة ١١٧٠ م) ، كثرت غارات جيرالدو سمبافور على مدينة بطليوس ، واشتد فى إرهاقها ، وقطع المؤن عنها ، حتى شعرت المدينة بالضيق ، فلما علم بذلك الموحدون فى إشبيلية ، قرروا أن يرسلوا إليها مدداً وافراً من المؤن ، فجهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات ، وقدم لحراستها الحافظ أبويحيى زكريا بن على فى قوة من الجند الموحدين بإشبيلية، ولما اقتربت هذه الحملة من مدينةبطليوس ، خرج إليها جيرالدو فى قواته وقوات أهل شنترين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت عدة ساعات وهزم فيها الموحدون أشنع هزيمة، وأبيدت صفوفهم، وسقط قائدهم الحافظ أبويحيى ضمن القتلى ، واستولى النصارى على قافلة المؤن كلها . وكان ذلك فى يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ ﻫ (١٤ مايو سنة ١١٧٠م) . ووقعت أنباء هذه النكبة لدى الموحدين بإشبيلة وقرطبة أسوأ وقع ، وبعثوا بخبرها إلى الخليفة فى مراكش[2] .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف مريضاً فى ذلك الوقت ، وقد بدأ مرضه منذ أوائل سنة ٥٦٥ ﻫ ، واستمر أكثر من عام . ونحن نذكر أن الخليفة كان منذ أوائل سنة ٥٦٤ ﻫ يزمع تنظيم حركة الجهاد بالأندلس ، وأنه وجه رسالته بذلك إلى الموحدين بها فى ربيع الآخر من هذا العام ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة بضرب الطبول والخروج ، وركب بنفسه فى هيئة الغزو ، وخرج من مراكش ، ونزل بوادى تانسيفت على مقربة منها ، معلناً

---

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٣٠ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣١ ا ، والبيان المغرب القسم الثالث ، ص ٨٤ .

عزمه على الجهاد بالأندلس ، وأقام به ثلاثة أيام ، وانتهى رأى الموحدين عندئذ إلى أن يتقدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بعسكر ضخم من الموحدين . وقد عبر الشيخ البحر إلى الأندلس بعسكره ، ونزل فى إشبيلية فى نفس الوقت الذى كانت قد أنقذت فيه بطليوس من خطر السقوط فى أيدى البرتغاليين ، بمعاونة ملك ليون ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه .

ثم جاء مرض الخليفة ، فعاقه عن الاستمرار فى تنفيذ حركة الغزو التى وعد بها الموحدين بالأندلس . بيد أنه استمر بالرغم من مرضه فى استدعاء جموع العرب من إفريقية ، وجموع الموحدين من كافة الأنحاء ، وتزويدهم بالأعطية والكسى . وكان تطور الحوادث فى الأندلس ، يؤذن بضرورة القيام باستعدادات عسكرية عاجلة توجه إلى شبه الجزيرة ، وذلك قبل أن تتم الأهبة لتنفيذ الغزوة الكبيرة التى يزمع الخليفة القيام بها . وكان موطن الصراع يبدو فى ناحيتين ، الأولى فى شرقى الأندلس ، حيث كان ابن همشك منذ دخوله فى طاعة الموحدين ، يتلقى ضربات صهره القديم ابن مردنيش باستمرار ، ويفقد معاقله تباعاً ، ويلح فى طلب النجدة من حلفائه الجدد ، الموحدين ، ويبعث بصريخه المتوالى إلى الخليفة وإلى الشيخ أبى حفص بقرطبة ، وقد أوفد إلى مراكش لهذا الغرض وزيره القدير أبا جعفر الوقشى ، وكان قد جنح مثله إلى طاعة الموحدين . ثم عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدوة ، وقصد إلى الخليفة بمراكش (٥٦٥ هـ) مؤكداً طاعته ومكررا صريخه . وكانت الناحية الثانية من مواطن الصراع ، فى غربى الأندلس ، حيث تطورت الحوادث تطوراً سيئاً ، وغدت مدينة بطليوس مرة أخرى ، عرضة لتهديد النصارى المستمر . وكان يلوح أن حوادث شرقى الأندلس تتطلب تدخلا عاجلا ، يكفل حماية ابن همشك وأراضيه التى غدت جزءاً من أراضى الموحدين ، والقضاء نهائياً على حركة ابن مردنيش والاستيلاء على بلاده ، حتى تخضع الأندلس بذلك من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان التوحيد ، وكان الشيخ أبو حفص يؤيد هذه السياسة ، ويبعث من قرطبة إلى الخليفة بالحث على اتباعها . ومن ثم فقد تقرر أن يسير السيد أبو حفص أخو الخليفة فى جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى ، ومقاتلته فى قلب بلاده ، والاستيلاء على مرسية ، قاعدته ومقر رياسته .

وخرج السيد أبو حفص فى عسكره من حضرة مراكش فى أول شهر

ذى القعدة سنة ٥٦٥ هـ (أغسطس سنة ١١٧٠ م) ومعه أخوه السيد عثمان أبو سعيد ، وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين ، ومن زعماء الأندلس ، أبو محمد سيدراى بن وزير ، وأخوه أبو الحسن على بن وزير ، وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش ، صحبهم لينتفع بخبرتهم ومشورتهم فى تدبير شئون الجزيرة ، وتنظيم الخطط العسكرية بها . فوصل فى قواته إلى إشبيلية فى أوائل سنة ٥٦٦هـ . ووافاه بها من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك . وعقد السيد أبو حفص وصحبه من الأشياخ والزعماء مؤتمرا لبحث شئون الحرب ، تقرر فيه أن يبادر السيد أبو سعيد أولا فى عسكر إلى مدينة بطليوس، لتقوية جبهتها الدفاعية. فسار إليها فى جيش من الموحدين والعرب، ومعه من زعماء الأندلس سيدراى ابن وزير ، وأبو العلاء بن عزون ، وقد جاءت هذه الحركة فى الواقع فى الوقت المناسب ، إذ كانت بطليوس فى تلك الآونة بالذات عرضة لخطر غزو جديد .

ذلك أن فرناندو الثانى ملك ليون ، لما رأى نشاط البرتغاليين المتكرر فى مهاجمة بطليوس ، وإلحاح جيرالدو سمبافور فى إرهاقها ، وما حل بقافلة الأمداد الموحدية من هزيمة ساحقة ، خشى أن ينتهى الأمر بسقوط المدينة فى أيدى البرتغاليين . وقد رأينا من قبل حرص ملوك قشتالة وليون على اعتبار بطليوس وما إليها داخلة فى نطاق فتوحاتهم ، وحرصهم على ألا يفوز البرتغاليون بأية فتوح فى هذه المنطقة . ومن ثم فقد خرج فرناندو فى قواته قاصداً إلى بطليوس ليقوم بالاستيلاء عليها ، قبل أن تسقط فى أيدى البرتغاليين ومليكهم ألفونسو هنريكيز ، وفى الوقت الذى وصل فيه إلى سهل الزلاّقة الواقع شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر وادى يانه ، اقترب الموحدون من المدينة ، ولما علم السيد أبو سعيد بالموقف ، أرسل سيدراى بن وزير ، وأبا العلاء بن عزون ، وبعض أشياخ الموحدين إلى المعسكر النصرانى ، ليتعرفوا نيات ملك ليون ، وهل هو باق على صلحه ومحالفته للموحدين أم قد نقض هذا الصلح ، فرحب بهم ملك ليون ، وأجابهم بأنه خرج لحماية بطليوس ، « وإمساكها لأمير المؤمنين » فاقترح الرسل أن يجتمع الملك النصرانى بالسيد أبى سعيد ، لتجديد الصداقة والصلح ، فاستجاب فرناندو لدعوتهم : وسار فى نفر من خاصته إلى مقربة من بطليوس، والتقى بالسيد أبى سعيد وكلاهما يمتطى صهوة جواده ، وتم بينهما التفاهم وتوكيد أواصر المودة والصلح ، وانصرف ملك ليون على أثر ذلك فى قواته إلى بلاده .

أما السيد أبو سعيد فقد سار فى عسكره تواً إلى حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربى بطليوس ، والذى اتخذه البرتغاليون بقيادة جيرالدو سمبافور قاعدة للإغارة على المدينة وإرهاقها ، ونازله واستولى عليه عنوة ، ثم هدمه ، وانقشعت بذلك غمته، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ (نوفمبر ١١٧٠ م) . وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو سعيد فى صحبه وعسكره المظفر إلى إشبيلية(١) .

— ٢ —

وما كاد السيد أبو سعيد يصل إلى إشبيلية ، حتى عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً جديداً حضره السيد أبوسعيد ، والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، واستقر فيه الرأى على القيام بمحاربة ابن مردنيش ، وتحطيم سلطانه فى شرقى الأندلس.

وكان محمد بن سعد بن مردنيش ، قد اضطربت شئونه خلال ذلك ، وأخذت تخبو قواه ، وموارده ، ولاسيما منذ هزيمة فحص الجلاب الساحقة . وكان من أهم العوامل فى انحلال سلطانه الشامخ الذى استمر منذ قيامه فى شرقى الأندلس فى سنة ٥٤٢ هـ ، نحو عشرين عاما يتحدى سلطان الموحدين ، وينتبذ سيادتهم ودعوتهم ، دون هوادة ، عاملان يتلخص أولها فى مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، وانخلاعه إليهم ، واعتماده المطلق عليهم . وقد رأينا فيما تقدم كيف كان النصارى المرتزقة ، يؤلفون معظم قوات ابن مردنيش فى أية موقعة يخوضها . والثانى ، فيما نشب من الشقاق بين ابن مردنيش ومعظم وزرائه وقادته .

فأما عن العامل الأول ، وهو مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، فقد كان أمراً طبيعياً ، تمليه الظروف المحيطة بابن مردنيش ، وثورته على الموحدين . وقد كانت ثورة ابن مردنيش ، تمليها فضلا عن الأطماع السياسة ، بواعث وطنية ، هى التى دفعت سائر القواعد الأندلسية إلى الثورة على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين فى التغلب على الأندلس ، فكانت ثورة ابن مردنيش على الموحدين ، وكفاحه ضدهم ، امتداداً لنفس الثورة ، ونزولا على نفس البواعث . وكان النصارى حلفاء طبيعيين لابن مردنيش فى هذا الصراع ضد العدو المشترك ، أعنى الموحدين الوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش عن أهمية هذا العامل ، فى اجتذاب النصارى إلى محالفته ،

(١) ابن صاحب الصلاة لوحات ١٣١ ب و١٣٢ و١٣٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٨٥ و٨٦ .

وحشدهم فى صفوفه . وكانت تربط ابن مردنيش فى البداية بسائر أمراء اسبانيا النصرانية ، روابط المودة والصداقة ، ولكنه لما توفى رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأراجون ، وخلفه ولده ألفونسو الثانى فى حكم مملكة أراجون المتحدة ، تطورت الأمور ، وساءت العلائق بينه وبين ابن مردنيش لإصراره على مطالبة ابن مردنيش بالجزية التى كان يدفعها لأبيه ، ورفض ابن مردنيش لأدائها . وقد وصل العداء بين الأميرين ، إلى حد أن ملك أراجون ، بعث ببعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين ضد ابن مردنيش فى معركة فحص الجلاب[١]. ثم تحسنت العلائق بعد ذلك بينهما حينما تدخل ملك قشتالة ، وتعهد ابن مردنيش بأداء الجزية وتعهد ألفونسو الثانى بألا يساعد الموحدين أعداء ابن سعد بأية صورة . وأما علائق ابن سعد بقشتالة ، فقد كانت على خير ما يرام ، من المودة والصفاء ، وكانت تربط ابن مردنيش بألفونسو الثامن ملك قشتالة صداقة متينة العرى . وكان ابن مردنيش يحتفظ فى بلنسية بحامية كبيرة من الجند القشتاليين ، يعيثون فى المدينة ، وتغص بهم طرقها وأحياؤها ، حتى ضاق بهم أهل المدينة المسلمين ذرعاً ، وغادرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى القريبة ، وهم يضطرمون سخطاً على أميرهم المسلم ، الذى مكن أعداءهم النصارى من دورهم وأموالهم ومرافقهم ، وشردهم بذلك عن أوطانهم . وقيل إن ابن مردنيش هو الذى أخرج أهل بلنسية منها ليوسع لحلفائه النصارى[٢] . وقد كان لهذه السياسة فى اصطفاء النصارى وما تقتضيه من إرهاق المسلمين بالمغارم والفروض ، وهى السياسة التى سبق أن أشرنا إلى طرف من عناصرها ومظاهرها ، أثرها العميق فى النيل من هيبة ابن مردنيش والسخط عليه ، وتبرم أهل شرقى الأندلس برياسته وتمنيهم زوالها .

وأما العامل الثانى فى تضعضع قوى ابن مردنيش ، فهو خروج قادته ووزرائه عليه . وقد كان انشقاق صهره إبراهيم بن همشك عليه ، وانضمامه للموحدين ، بلا ريب أعظم ضربة هزت من رياسته وسلطانه . فقد كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قادته ، وأوسعهم حيلة وأبعدهم صيتاً ، بل كان ابن همشك فى الواقع بالرغم من صفاته المثيرة ، ومن قسوته ، وروعة وسائله ، واستهانته بالدماء ، من أعظم قادة اسبانيا المسلمة فى هذا العصر ، ان لم يكن

---

(١) A. P. Ibars : Valencia Arabe, p. 542

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٦

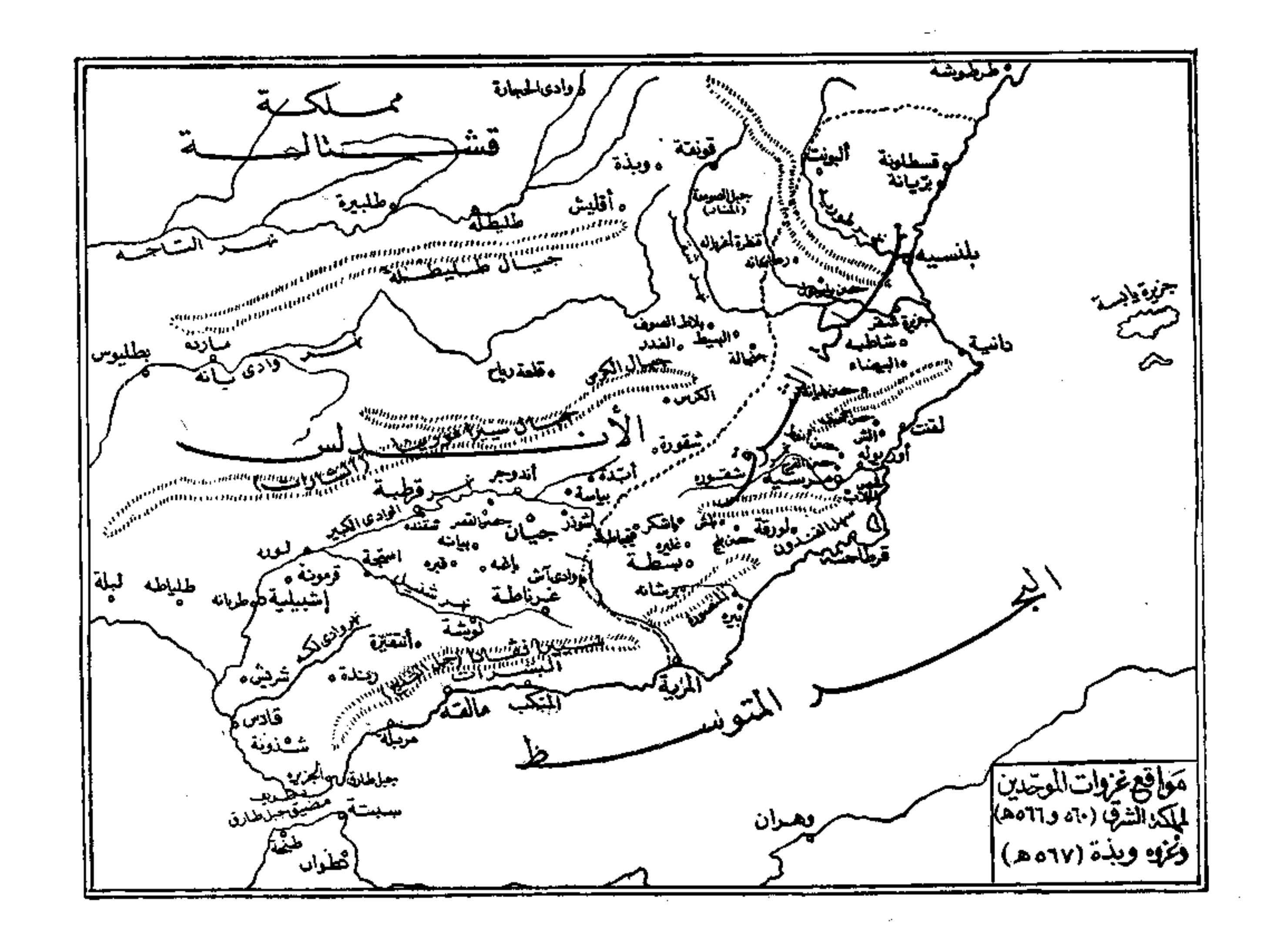
أعظمهم جميعاً . وخرج على ابن مردنيش غير ابن همشك ، عدة من قرابته ووزرائه ، ومن هؤلاء صهره يوسف بن هلال ، وكان فارساً شجاعاً حازماً ، حظى لدى أميره فصاهره ، وندبه لرياسة حصن مطرنيش القريب من بلنسية وما حوله من الأراضى ، ثم فسد ما بينهما ، فثار ابن هلال ، ولحق بمورتله (مورادال) وتحالف مع أمير برشلونة على أن يكون تحت حمايته ، فأيده بقوة من الفرسان ، وأخذ يغير على أحواز بلنسية ، وينتزع بعض حصونها . وأوقع الهزيمة بابن مردنيش . ولكن حدث لسوء طالعه أن وقع ذات يوم أسيراً فى يد سرية جردها صهره على مورتلة ، فأخذ إليه ، فأسرع به إلى مورتلة ، وطالبه بإخلائها ، وإلا نزعت عينه ، فأبى ، فأمر ابن مردنيش فأخرجت عينه اليمنى بعود ، ولما تمادى فى رفضه نزعت عينه الأخرى ، ثم أخذ إلى شاطبه ، حيث بقى بها إلى أن توفى(١). وكانت هذه الوسائل المثيرة فى الانتقام من أبرز نزوات ابن مردنيش ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يرويه لنا ابن صاحب الصلاة ، من أنه قتل وزيريه ابنى الجذع وذلك ببنائهما فى الحائط .

كان ابن مردنيش يعانى من هذه الظروف العصبية والمتاعب المضنية ، حينما وضع الموحدون خطتهم لإنزال ضربتهم الأخيرة به .

فى شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ (مارس سنة ١١٧١ م) خرج السيد أبوحفص وأخوه السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص فى جموع الموحدين من إشبيلية ، ومعهم إبراهيم بن همشك ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، أقاموا بها أياماً ، يضعون خططهم النهائية . ثم خرجت القوات الموحدية من قرطبة ، وسارت شرقاً قاصدة إلى مرسية ، وكانت أول قاعدة غزوها من قواعد ابن مردنيش مدينة قيجاطة(٢) الواقعة شرقى جيان، بينها وبين لورقة . فاقتحموها بعد مقاومة قصيرة ، وقبض على قائدها الشرقى وأعدم بإشارة ابن همشك ، ثم اخترق الموحدون بعد ذلك بسائط الشرق فى طريقهم إلى مرسية حتى وصلوا إلى فحصها ، فنازلوها لاختبار مقدرتها الدفاعية ، وتغلبوا على حصن الفرج فى ظاهرها ، وقد كان متنزه ابن مردنيش ، ومنزل لهوه وأنسه ، واستباحوا الرياض والبساتين ، وسائر القرى والبسائط الخضراء فى تلك المنطقة ، وابن همشك يقود الموحدين ويدلهم

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦٢

(٢) وهى بالإسبانية Quesada



مواقع غزوات الموحدين
لمملكة الشرق (٥٦٠ و٥٦٦هـ)
وغزوه وبذة (٥٦٧هـ)
مملكة قشتالة
وادي الحجارة
طرطوشة
قونقة
وبذة
أقليش
طلبيرة
طليطلة
نهر التاجه
جبال طليطلة
البونت
قسطلونة
بريانة
بلنسية
جزيرة يابسة
بطليوس
ماردة
وادي يانه
قلعة رباح
جبال الكرس
الكرس
شقورة
الأندلس
أندوجر
أبدة
بياسة
قرطبة
الوادي الكبير
جيان
بيانة
لوره
قرمونة
إشبيلية
طلياطه
لبلة
غرناطة
وادي آش
لوشة
أنتقيرة
رندة
شريش
قادس
شذونة
المنكب
مالقة
مربلة
المرية
بسطة
لورقة
مرسية
أوريولة
لقنت
دانية
شاطبة
بلاط الصوف
الفندر
جبال البشرات
البحر المتوسط
جبل طارق
الجزيرة
طريف
سبتة
مضيق جبل طارق
طنجة
تطوان
وهران

على خبر الطرق والمسالك . وكان ابن مردنيش خلال ذلك يستجمع قواته الأخيرة ، ويستصرخ حلفاءه النصارى لإمداده ، فلم يلب منهم دعوته سوى أربعمائة فارس ، بعث بهم إلى لورقة ، وهى حصن مرسية الأمامى ، لتأمين الدفاع عن قصبتها ، وقد كانت بقيادة قائده الأثير وموضع ثقته أبى عثمان سعيد ابن عيسى ، فضبطها أبو عثمان ، وحصنها أمنع تحصين . ولكن الأمر طال عليه، وهو فى عزلته ، وذاع بين الناس ما يعانيه ابن مردنيش من اضطراب الأحوال والقلق، وشعروا أن عاقبته قد دنت، فعندئذ ثار أهل لورقة، ودعوا للموحدين، وهاجموا النصارى وأنصار ابن مردنيش، فالتجأ هؤلاء جميعاً إلى القصبة وامتنعوا بها . واتجه أهل لورقة إلى الموحدين فى طلب الإنجاد ، وبعثوا بصريخهم إلى السيد أبى حفص بمحلته بفحص مرسية ، يعلنون دخولهم فى دعوة التوحيد ، ويستنصرون به على عدوهم ، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته صوب لورقة ، ودخلها واحتلها ، وبقيت حاميتها بقيادة أبى عثمان على حالها من الامتناع . وحدث أن خرجت سرية موحدية تجول فى الأنحاء المجاورة ، فوقع فى يدها ولد القائد ، محمد بن أبى عثمان ، فأمر السيد أبو حفص أن يحمل إلى مقربة من القصبة بمرأى من أبيه عسى أن يحمله ذلك على التسليم ، فأبى القائد واستمر فى امتناعه ، حتى كادت الأقوات والماء أن تنفد، فعندئذ ألح عليه حلفاؤه النصارى فى التسليم ، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى النزول من القصبة مع جنده بالأمان ، وهكذا سلمت القصبة ، وانصرف القائد أبو عثمان مع صحبه إلى مرسية ، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم ، وتم بذلك فتح لورقة وخلوصها للموحدين .

وعلى أثر ذلك عاد السيد أبوحفص فى قواته إلى مرسية، ليمضى فى حصارها، وفى أثناء ذلك أعلن أهل ألشرطانهم ودخولهم فى دعوة التوحيد ، وتبعهم فى ذلك أهل معظم الحصون المجاورة ، فمنحوا جميعاً الأمان ، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين والعرب تحت إمرة الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ، سارت إلى مدينة بسطة فافتتحتها ودخلت فى طاعة الموحدين . وأعقبتها الجزيرة — جزيرة شقر — الواقعة على مقربة من جنوبى بلنسية فأعلن أهلها التوحيد بزعامة عميدهم أبى بكر أحمد بن محمد بن سفيان المخزومى ، وطردوا النصارى الذين كانوا بها . وكان أبو بكر زعيما نابهاً من بيت عريق ، وزاهداً محسناً . وأديباً شاعراً ،

فلما رأى اختلال أمر ابن مردنيش وضغط الموحدين على قواعده ، دعا للموحدين وانضم إليه جيرانه ، فندب ابن مردنيش لقتاله ، أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائبه فى بلنسية ، وبعث أبو الحجاج قوة من الفرسان قامت بمنازلة الجزيرة ، ومحاصرتها والتضييق عليها ، فى منتصف شوال سنة ٥٦٦ هـ ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، وابن سفيان يقاوم ما استطاع ، وابن سعد يوالى إرسال الجند لتشديد الحصار ، ووصلت رسل الجزيرة إلى السيد أبى حفص بمحلته بمرسية فى طلب الإنجاد ، فوجه معهم قائدهم السابق أبا أيوب بن هلال الشرقى والياً عليهم ، وكان قد دخل فى دعوتهم للتوحيد واستطاع أبو أيوب أن يقتحم الجزيرة ، وأن يقوم بضبطها وحمايتها أشهراً ، حتى مرض ابن مردنيش ولحق بمرسية عليلا ، وتنفس مخنق الجزيرة[١] .

وكان ابن مردنيش أثناء ذلك ، والموحدون قبالة مرسية ، يخرج بقواته من آن إلى آخر ، ويشتبك مع المحاصرين فى معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد ، يتولى الدفاع عن بلنسية ، وأحوازها . وقد اختُلف فى موقف يوسف من أخيه فى هذا المأزق العصيب ، ففى رواية أنه خرج على أخيه ، وفر عنه إلى الموحدين[٢] ، ودخل فى دعوتهم قبيل وفاة أخيه بنحو عام . وفى رواية أخرى ، أنه لما رأى تجهم الحوادث دعا فى بلنسية لبنى العباس ، وكاتب الخليفة المستنجد بالله ، فكتب له بالعهد والولاية ، ثم بايع للموحدين (سنة ٥٦٦ هـ)[٣] . بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن هذه الرواية غير صحيحة ، وأن أبا الحجاج يوسف ، استمر يعمل إلى جانب أخيه بإخلاص ، وأنه اختص بالدفاع عن قطاع بلنسية ، بينما تفرغ أخوه محمد (ابن مردنيش) لمدافعة الموحدين فى مرسية . والواقع أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن مردنيش يكتنفها شىء من الغموض ، وفى بعض الروايات القشتالية ، أن ألفونسو الثانى ملك أراجون انتهز فرصة ضغط الموحدين على ابن مردنيش ، وغزا أراضى بلنسية ، المتاخمة لحدود قطلونية ، واستولى منها على عدة مواقع وحصون ، وأنه أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية ذاتها ، فتولى الرئيس أبو الحجاج مدافعة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٧

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦

القوات البرية ، وتولى ابن قاسم قائد أسطول ابن مردنيش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق عدداً منها[١] .

وجاءت حوادث ألمرية ضربة أخرى لابن مردنيش . وكان ابن مردنيش قد انتزع ألمرية من الموحدين ، وندب لولايتها قائده ابن مقدم . فلما اجتاح الموحدون منطقة الأندلس الشرقية ، واستولوا على لورقة وبسطة ، واقتربوا من ألمرية ، قام بألمرية ابن عم وصهر لابن مردنيش على أخته ، هو محمد ابن مردنيش المعروف بصاحب البسيط ، وتعاون معه محمد بن هلال أحد القادة الخوارج على ابن مردنيش ، وأعلنا بطاعة الموحدين ، وبعثا إلى السيد أبى حفص فى طلب العون والإنجاد ، فوجه إليهم قوة من الجند الموحدين ، فقبض على الوالى ابن مقدم وأعدم . فلما علم ابن مردنيش بما حدث ، أمر بقتل أخته زوجة ابن عمه وكانت بمرسية ، وقتل ابنته منها ، فقتلا إغراقاً ، فجاء هذا الحادث البشع ، دليلا جديداً على ماكان يتسم به ابن مردنيش من بالغ القسوة ، والاستهتار بسفك الدماء ، لاتعوقه فى ذلك صلة رحم أو أية عاطفة إنسانية . يقول ابن صاحب الصلاة : « واختل ذهن ابن مردنيش فى أثر ذلك ، وقل عونه من الله ومن الناس هنالك ، وعاد صبحه كالليـل الحالك ، وفزع من أذلته أهله وقرابته وشيعته وخاصته ، واختلت حياته وحالته »[٢] .

والواقع أن ابن مردنيش بما توالى عليه ، فى تلك الآونة العصيبة ، من الضربات الأليمة ، ومن انشقاق معظم قادته ووزرائه وقرابته ، ومن استيلاء الموحدين على معظم قواعده ، وتشددهم فى حصاره وإرهاقه ، قد بلغ ذروة اليأس والألم . وكانت الضربة الأخيرة والقاضية ، ما بلغه من عبور الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف نفسه إلى الأندلس فى جموع جرارة من الموحدين والعرب ، ونزوله بإشبيلية ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٦ هـ ، فأيقن عندئذ بأنه لم تبق مندوحة عن الهزيمة المطبقة والسقوط النهائى . وكان يستشف خلال يأسه وألمه ، نذر الخاتمة المحتومة المروعة ، بيد أنه لم يهن ولم يفكر فى أن يختتم ثورته العتيدة وسلطانه العريض ، الذى استطال زهاء ربع قرن ، بالتسليم المهين ، لمن كان يعتبرهم أعداء قومه وبلاده ، على أنه لم يلبث أن انهارت بنيته المتينة ، وحطمه الغم واليأس . ويبدو

---

(١) A. P. Ibars: Valencia Arabe, p. 582

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٦ و ١٣٧ .

من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن ابن مردنيش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الذهول والخبل ، وزاد من ذهوله ماعمد إليه أخوه الرئيس أبوالحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد . ثم جاء الموت فأنقذه من المصير المروع الذى كان ينتظره . وكانت وفاته حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، فى العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ (٦ مارس سنة ١١٧٢ م) فى الثامنة والأربعين من عمره ، وهو تاريخ يحمل طابع الرجحان لأنه قول المؤرخ المعاصر[١].

وفى رواية أن ابن مردنيش لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه انتحر بتناول السم[٢] ، أوأنه توفى مسموماً بيد والدته . ذلك أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته ، وأساء إليهم ، نصحته أمه ، وأغلظت له القول ، فنهرها وخافت بطشه ، لما تعلمه من وحشية طباعه ، فدبرت قتله بالسم[٣] . على أن هذه الرواية ، لاتستند إلى أساس قوى ، فإن ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان، لم يقل لنا شيئاً عنها . ومن جهة أخرى فإن ابن الأبار ، وهو قريب من العصر ، وقد عاش فى بلنسية فى عهد حفيد يوسف بن مردنيش ، يذكر لنا أن ابن مردنيش ، مرض خلال محاصرته ، لجزيرة شقر ، فغادرها عليلا إلى مرسية[٤] . ويقول لنا المراكشى أيضاً إن ابن مردنيش توفى « حتف أنفه » خلال حصار مرسية[٥].

وهكذا هلك محمد بن سعد بن مردنيش . وكان موته نذيراً بانهيار دولته الشامخة ، التى استطاع بعزمه وجرأته وشجاعته وبراعته ، أن ينشئها فى شرق الأندلس ، ما بين طرطوشة شمالا وألمرية جنوباً ، وما بين شاطئ البحر شرقاً وجيان غرباً ، والتى لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس واستقلالها القومى ، وتتحدى سلطان الموحدين وجيوشهم المتدفقة من وراء البحر ، بل لقد لاح مدى حين أن ابن مردنيش يكاد يبسط سلطانه على الأندلس كلها ، وذلك حينما استولى على جيّان وبيّاسة وأبدّة ووادى آش ، واخترق أواسط الأندلس حتى

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة (لوحة ١٦٥) . ويأخذ ابن الخطيب بهذه الرواية (الإحاطة ج ٢ ص٩٠) . ولكن ابن خلكان يقول لنا إن ابن مردنيش توفى فى التاسع والعشرين من رجب سنة ٥٦٧ (٢٧ مارس سنة ١١٧٢ م) . راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana p. 228

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٤) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٣٧

(٥) المعجب ص ١٤٠

إشبيلية ، وحينما اجتاح نائبه ومعاونه ابن همشك وادى قرطبة ، وهدد قرطبة ذاتها ، واستولى على قرمونة ، ثم هزم الموحدين فى مرج الرّقاد واستولى على غرناطة . ولو لم تضع موقعة السبيكة حداً لتقدمه ، لكان سلطان الموحدين فى الأندلس عرضة للانهيار ، ولكللت ثورة ابن مردنيش بالظفر التام . ولقد كان ابن مردنيش فى الواقع يمثل بثورته ضد الموحدين ، كل ماكانت تبطنه الاندلس القديمة من الآلام والآمال القومية ، التى لبثت تجيش بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها . ولم تغير سيادة الموحدين بعد المرابطين لشبه الجزيرة الأندلسية شيئاً من هذا الاتجاه القومى ، فقد كان الموحدون كالمرابطين بالنسبة للأندلس ، أجانب ، وكانوا مثلهم من القبائل البربرية ، التى لم تستطع منذ مثولها القوى فى شئون الأندلس منذ أيام الحاجب المنصور ، أن تحرز من الأمة الأندلسية كثيراً من العطف والتقدير . ولم تكن فكرة الجهاد التى كان يحمل لواءها المرابطون ثم الموحدون ، وماكانت الجيوش المرابطية ، ثم الموحدية ، تبذله فى سبيل حماية الأندلس ، ومحاربة اسبانيا النصرانية ، لتقضى تمام القضاء على الفكرة القومية الأندلسية ، وإن كانت تلطف من آن لآخر من جذوتها واضطرامها . على أن ابن مردنيش لم يكن بالرغم من حصافته وجرأته وشجاعته ، هو الشخصية المثلى لحمل لواء القومية الأندلسية ، فقد كانت ثورته على الموحدين ، تفقد كثيراً من قيمها المعنوية ، بما كان يجنح إليه من الإفراط فى مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم فى حروبه ، وتمكينهم من قواعده ، وتشبهه بهم فى زيه ، وفى حياته الخاصة والعامة . وإلى جانب ذلك كان ابن مردنيش يتسم بطائفة من الخلال الذميمة ، فقد كان مسرفاً فى الشراب ، واتخاذ الجوارى ، حتى «كان يراقد منهم جملة تحت لحاف واحد» ، منهمكاً فى حب القيان والزمر والرقص[1] ، ثم كان بعد ذلك طاغية ظلوماً ، بالغ القسوة ، مسرفاً فى الانتقام ، مستهتراً بالدماء ، وكان عماله على شاكلته من الظلم والجور[2] .

وتضع الرواية الإسلامية ابن مردنيش فى سلك ثوار الأندلس ، وتنوه بذكائه وشجاعته ، وقد وصفه بعضهم بأنه «كان بعيد الغور ، قوى الساعد ، أصيل الرأى ، شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً الانتقام ، مرهوب العقوبة» .

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (المطبوع) ج ٢ ص ٨٦ ، وفى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦١ .
(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ و ٨٨ .

وبالرغم من أن ابن صاحب الصلاة يقدمه لنا فى كتابه « المن بالإمامة » فى صورة قاتمة ، ويصف أصحابه دائماً بالأشقياء ، فإنه فى كتابه « ثورة المريدين » الذى يفصل فيه سير الأندلس ، يصف ابن مردنيش بقوله « كانت له فروسية وشجاعة وشهامة ورياسة »[(١)] .

أما ما حدث عقب وفاة ابن مردنيش ، فتختلف الرواية فى تصويره . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أنه على أثر وفاته ، بادر قرابته وأشياخه ، بإعلان الطاعة للموحدين ، وأقنعوا ولده أبا القمر هلالا بذلك ، فصدع برأيهم ، وبادر إلى إعلان توحيده ، وطاعته ، وسار إلى إشبيلية ، ليؤكد ذلك لأمير المؤمنين أبى يعقوب . وقد سبق أن أشرنا إلى ما يذكره ابن صاحب الصلاة من أن أبا الحجاج يوسف أخا ابن مردنيش ، قد أعلن توحيده ، قبيل وفاة أخيه[(٢)] .

ويذكر لنا عبد الواحد المراكشى ، أنه لما توفى ابن مردنيش ، خلال الحصار ، كتمت وفاته حتى قدم أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف من بلنسية ، وتباحث مع أكبر أبناء أخيه ، واتفق رأى الجميع على أن يدينوا بالطاعة لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، وأن يسلموا إليه البلاد . ويقرن ذلك برواية أخرى خلاصتها أن محمدا بن سعد حين شعر بدنو أجله جمع بنيه ، وكان له من الولد الذكور ثمانية ، هم هلال أبو القمر وهو أكبرهم ، وإليه أوصى ، وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وقال لهم أنى أرى أمر هؤلاء القوم ، من الموحدين ، فى صعود ، وقد كثر أتباعهم ، ودخلت معظم البلاد فى طاعتهم ، وأنه يظن أنه لاطاقة لهم بمقاومتهم ، وأنه لذلك يحسن التسليم لهم طوعاً واختيارا فيحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بهم ما أنزل بغيرهم من أهل البلاد التى دخلوها عنوة ، على أن عبد الواحد لايجزم بصحة أى الروايتين[(٣)] .

وعلى أى حال فإنه يبدو من المقطوع به ، أنه على أثر وفاة ابن مردنيش ، بادر ولده أبو القمر هلال ، بإعلان إذعانه وطاعته لأمير المؤمنين أبى يعقوب ، وبالتخلى له عن مدينة مرسية قاعدة الإمارة . فوجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعته وليتسلم المدينة ، فسار إليها فى عسكر منازل من الموحدين

---

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٦٥ .

(٣) المعجب ص ١٤٠ .

فبادر أهلها بالخروج إليه ، ثم دخل المدينة وآنس أهلها ، ووعظهم وحثهم على طاعة الخليفة ، ووعدهم بالخير ورفع المظالم عنهم . ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية فى مستهل شهر رمضان (٥٦٧ هـ) ومعه أكابر دولة الشرق وقادتها وأعيانها ، فاستقبله وصحبه خارج إشبيلية ، أخو الخليفة أبو زكريا يحيى صاحب بجاية ، وأبو إبراهيم إسماعيل وعلية أشياخ الموحدين ، ثم استقبلهم الخليفة بالقصبة العتيقة أجمل استقبال ، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الإخوة وأشياخ الموحدين . ثم أنزلوا بقصر ابن عباد والدور المتصلة به ، وقد غمرهم الخليفة بوافر عطفه وإكرامه . وفى اليوم التالى قدم قادة الشرق وأجناده ، وفى مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، بيعتهم وطاعتهم ، وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى ، وعينوا مدينة وبذة بالذات هدفاً لهذا الغزو ، نظراً لضعف تحصيناتها وأسوارها ، فوعد الخليفة بتحقيق هذه الرغبة[1].

وينقل إلينا ابن الخطيب بهذه المناسبة رواية خلاصتها أن الأمير محمدا بن سعد ، لما أدركه اليأس ، وأيقن بتصيير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه بإقامة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — عدوه — وصياً على ولده وأهله ، ورغب إليه قبول هذه الوصية ، فلما نقل ذلك إلى الخليفة رق لهذا القصد ، وتأثر بهذه الوسيلة ، وتزوج زائدة ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك. وكانت شقراء زرقاء العينين ، رائعة الجمال ، وتم زفافها إليه فى ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فحظيت لديه ، وغدت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن نفوذاً لديه « حتى كان الناس على قول ابن الخطيب يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء « المردنيشية » . وتزوج أختها صفية فيما بعد ولده ، وولى عهده الأمير أبو يوسف يعقوب[2]، وأغدق الخليفة عطفه على آل مردنيش ، واستبقى لهم سلطانهم بشرقى الأندلس ، فعين أبا الحجاج يوسف بن سعد والياً لبلنسية وجهاتها ، وعين غانم بن محمد ابن مردنيش قائدا لأساطيل العدوة بسبتة، واستبقى هلالا لديه، فعاش فى كنفه ، أثيراً ، رفيع الرتبة[3].

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٦٥ ب و١٦٦ أ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٤٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧١

وأما إبراهيم بن همشك ، وهو الذى كان خروجه على صهره وحليفه ابن مردنيش ، نذيراً بانهيار مملكة الشرق ، فقد لبث مستقراً على ما كان عليه فى جيّان وأراضيها ، وأقره الخليفة على ولايته ، وذلك حتى أوائل سنة ٥٧١هـ ، (١١٧٥ م) ، ثم طلب إليه الخليفة أن ينصرف إلى العدوة ، فعبر إليها بأهله وولده ، وأسكن مدينة مكناسة وأقطع بها إقطاعات يعيش منها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى أصيب بفالج غريب ، شديد الأعراض ، لم يلبث أن حمله إلى القبر ، بعد أن قاسى أهوالا من آلامه المروعة[1].

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣١١ .

الفصل الثالث

حركة الجهاد بالأندلس

والإخفاق فى غزوة وبذة

مرض الخليفة أبى يعقوب يوسف . عنايته باستدعاء العرب وحشدهم لمؤازرته . قصيدة ابن طفيل فى حثهم على الجهاد . قصيدة ابن عياش فى ذلك . استجابة العرب للنداء . مسير بعض طوائفهم إلى مراكش . شفاء الخليفة وجلوسه لاستقبال الوفود . خروج الخليفة وجيشه لاستقبال حشود العرب . المباريات الرياضية بين الفريقين . مبايعة العرب للخليفة . مآدب الطعام . تمييز عسكر العرب والتوسعة فى أجورهم . تمييز الموحدين . توزيع الخيل والسلاح على الفريقين . الإنعام والبركة . خروج الخليفة فى قواته من مراكش . وصف الموكب الخلافى . رباط الفتح . اتخاذها مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية . تجديد منشآتها . تمييز جديد للجيش . استئناف السير إلى قصر مصمودة . العبور إلى الأندلس . المسير إلى إشبيلية ثم قرطبة . جلوس الخليفة للسلام والتهنئة . مسير الخليفة إلى إشبيلية . عزل ابن المعلم ومحاسبته . إنشاء قنطرة طريانة . إمداد بطليوس بالمؤن . إنشاء قصور البحيرة . إنشاء البستان . إجراء الماء إلى المدينة . إنشاء الجامع الأعظم . وصف ابن صاحب الصلاة لمراحل بناء الجامع وصنع منبره . تطور طراز المنشآت الموحدية . اقتراح أكابر الشرق غزو مدينة وبذة . موافقة الخليفة . خروجه فى قواته من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره صوب القصر فأندوجر . استيلاؤه على حصن بلج . تسليم حصن الكرس . المسير إلى وادى شقر . مسير السيد أبى سعيد فى جيش إلى وبذة . معركة بين الموحدين والنصارى . وصول الخليفة فى قواته إلى وبذة . هجوم الجيش الموحدى على وبذة . التفافه بالمدينة . انسحاب القشتاليين إلى الداخل وامتناعهم بالقصبة . فشل الهجوم الموحدى . محاصرة الموحدين للمدينة . عصف الرياح والأمطار . مقدم جنود الشرق . استئناف الموحدين الهجوم . فشلهم للمرة الثانية . حث الشيخ أبى محمد للناس على الجهاد . محاولة الموحدين إقناع القشتاليين بالتسليم . فشل هذا المسعى . قرار الخليفة بالرحيل . مهاجمة القشتاليين للجيش المنسحب . ارتداد الموحدين نحو قونقة . عطاء الخليفة لأهل قونقة . مسير الموحدين صوب نهر شقر . ظهور طلائع القشتاليين . إحجام الموحدين عن القتال . استئناف السير نحو أراضى بلنسية . الوصول إلى ركانة . اختلال الجيش وقلة الأقوات . تسريح جنود الشرق . الوصول إلى بلنسية ثم شاطبة فأوريولة فرسية . نظر الخليفة فى شئون مرسية . المسير إلى إشبيلية . نزول آل مردنيش بها . تكوين قوة من أهل الثغور للغزو . تأملات عن فشل الموحدين فى حملة وبذة . عجز القيادة الموحدية . تفكك الجيش الموحدى . تقلب العرب وتخاذلهم . حوادث الغرب . الأحوال فى مدينة باجة . تربص النصارى بها . مسير ألفونسو هنريكيز وجيرالدو لافتتاحها . مداهمة النصارى لها واستيلاؤهم عليها . تخريبهم لها ثم مغادرتها . عدم اكتراث الموحدين بسقوطها . اشتغال الخليفة فى إشبيلية بإتمام الجامع والقصور . غزو القومس الأحدب لأحواز قرطبة . مسير الموحدين لرد النصارى . إدراكهم عند قلعة رباح . القتال بين الفريقين . هزيمة القشتاليين ومصرع

القومس . الاحتفال بالنصر فى إشبيلية . غزو الموحدين لأراضى قشتالة . وصولهم إلى طلبيرة وتخريب بسائطها . سعى النصارى إلى عقد المهادنة . عقد الهدنة بين الموحدين وبين صاحب طليطلة وملك قشتالة وملك البرتغال . دخول جيرالدو سمبافور وجنده فى خدمة الخليفة . بقية أخباره ومصرعه . تعمير قواعد المغرب . تعمير مدينة باجة . نكث فرناندو ملك ليون وغزوه لأراضى الأندلس . مسير الموحدين إلى مدينة ردريجو . زواج الخليفة بابنة أمير الشرق محمد بن سعد . نكبة الخليفة لابن عيسى . تعيينه لأخيه أبى على والياً لإشبيلية وأخيه أبى الحسن والياً لقرطبة . مغادرة الخليفة لإشبيلية وعبوره إلى المغرب .

نرجع الآن قليلا إلى الوراء ، لنتتبع مراحل الغزوة الأندلسية التى وعد بها الخليفة أبو يعقوب يوسف من بدايتها . وقد سبق أن أشرنا إلى مضمون الرسالة التى بعث بها الخليفة إلى الموحدين بالأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، يؤكد فيها حرصه على إغاثة الأندلس والعمل على نصرتها ، ونياته فى استئناف الجهاد ، وإلى ما قام به من إرسال جيش موحدى إلى الأندلس ، تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر ، ليكون تقدمه لهذا الجهاد . بيد أنه لم تأت أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، حتى مرض الخليفة ، واستطال مرضه زهاء أربعة عشر شهراً ، حتى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ . وكان يتولى علاج الخليفة خلال تلك النازلة الخطيرة ، طبيباه ، أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل[1]. وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها ، الفيلسوف والطبيب الكبير ابن طفيل ، باعتباره طبيب الخليفة الموحدى ، وكان يتولى الاتصال به وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع ، يعرض عليه المخاطبات الواردة فى مسائل الوفود ، وأخبار الشئون المطمئنة ، وتحجب عنه الأمور المكدرة ، والقاضى أبو محمد عبد الله المالقى إذ كان يثق بعلمه وأمانته وحسن نصحه وتدبيره ، وبعض الثقاة من أشياخ الموحدين . وكان أهم ما عنى به الخليفة أثناء مرضه . هو العمل على استدعاء العرب من إفريقية وترغيبهم للمشاركة فى الجهاد . وقد سبق أن أشرنا إلى طوائف أولئك العرب الذين كانوا يحتلون بعض مناطق إفريقية (تونس) الجنوبية ، وهم من بنى هلال ، وسُليم ، وزغبة ، ورياح ، والأثبج ، وإلى أسباب نزوحهم إلى إفريقية ، وما كان من موقفهم من الخليفة عبد المؤمن ، وما قام به عبد المؤمن من محاولة استمالتهم إلى المشاركة فى الجهاد بالأندلس . وقد لبثت السياسة الموحدية من ذلك الحين تعمل على استمالتهم وحشدهم فى صفوف الجيوش الموحدية ، وذلك بالرغم مما جبلوا

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٨ ب .

عليه من التقلب وعدم الولاء . ومن ثم فقد حذا الخليفة أبو يعقوب فى ذلك حذو أبيه ، وبذل بالرغم من مرضه جهوداً خاصة ، فى استمالة أولئك العرب إلى مؤازرته فيما ينتويه من الجهاد ، والقيام بالغزوة العظمى فى جزيرة الأندلس ، وكان مما أشار به الخليفة يومئذ ، وهو يعلم ما للشعر البليغ فى نفس العربى من عميق الأثر ، أن توجه إلى العرب قصيدة حماسية ، يشاد فيها برفيع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى فى نصرة الدين ، وقمع المارقين والكافرين . فنظم طبيبه الفيلسوف ابن طفيل ، تحقيقاً لتلك الغاية ، قصيدة طويلة تفيض بلاغة ، وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف فى نفس الوقت ، من منزلة عالية فى النظم ، تضعه فى صف أكابر الشعراء . وإليك بعض ما جاء فى تلك القصيدة الرائعة التى أوردها لنا بتمامها ابن صاحب الصلاة :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب ... لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكى العاديات على العدا ... فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنى ... ولا تكتب العليا بغير الكتائب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم ... على الهول ركّابٌ ظهور المصائب

ومنها فى استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية ... تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من بنى هلال بن عامر ... وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها ... بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وفيئوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبغى خلاص جميعكم ... دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبغى لنفوسنا ... ونوثركم زلفى بأعلى المراتب
لكم نصر الإسلام بدءاً فنصره ... عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت به أوائلكم ... ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبى وآله ... ومهديه منكم بلا عيب عائب
ومن ذا الذى يسمع ليبلغ شأوكم ... إذا كنتم فوق النجوم الثواقب

ومنها فى الختام :

وما الحزم إلا طاعة الله إنها ... هى الحرم المناع من كل طالب

نعدّكم السيف الذى ليس ينثنى ... إذا ما نبا سيف برّاحة ضارب
ونجعلكم صدر القناة إذا غدت ... تأطّرُ ما بين الحشى والترائب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى ... ولكن فعل الحرّ أصدق خاطب
وما خلق الأعْراب خلاف موعد ... ولكن صدق الوعد خلق الأعارب
سنعلم من أوفى ومن خان عهــده ... ومن كان من آت إلينا وذاهب(١)

وأمر الخليفة أن تتبع قصيدة ابن طفيل بشعر آخر يوجه إلى العرب، استعجالا لهم واستنهاضاً لهممهم، فوجهت إليهم قصيدة ثانية من نظم ابن عيّاش هذا مطلعها:

أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل ... وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر ... وشدوا على الأعداء شدة صايل
فما العز إلا ظهر أجرد سـابح ... يفوت الصبى فى شده المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنـــده ... على المـاء منسوج وليس بسائل
وأسروا بنى قيس إلى نيل غاية ... من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شُـدت إلى الغزو نيـة ... عواقبها مقصورة على الأوائل(٢)

وقد كان لهذه المخاطبة الشعرية أثرها فيما يروى ابن صاحب الصلاة، فى نفوس العرب فى إفريقية، ولاسيما فى منطقتى الزاب والقيروان، فاجتمع زعماؤهم، وحزموا أمرهم على المبادرة إلى الاستجابة لنداء الخليفة. وكان شيخ بنى رباح وزعيمهم جبارة بن كامل بن أبى العيش، وهو الذى كان قد فر أيام عبد المؤمن من إفريقية، فيمن فر من أشياخ العرب، حين دهمتهم القوات الموحدية فى جنوبى القيروان، قد عاد من المشرق فى هذه الآونة بالذات بعد أن تجول فى ربوعه حيناً، ورأى أن يقتدى بزملائه فى الاستجابة إلى «الأمر العزيز». فجمع قومه، وسار إلى بجاية، وقصد إلى أميرها السيد أبى زكريا يحيى أخى الخليفة، فأكرم وفادته، ولحق به بقية الزعماء والأشياخ، وتحرك الجميع فى صحبة السيد

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تلك القصيدة فى «المن بالإمامة» لوحات ١٣٩ ا وب، و١٤٠ ا، وهى تحتوى على أربعين بيتاً، ونقل ابن عذارى معظمها فى البيان المغرب القسم الثالث ص ٨٨ و٨٩. ونشرت فى العدد الأول من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (سنة ١٩٥٣).

(٢) أوردها ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٤٠ ب. وورد قسم منها فى المعجب ص ١٢٥.

أبي زكريا إلى حضرة مراكش ، ومعهم أموالهم وحملة كبيرة من عتاق الخيل ، ولما وصلوا إلى تلمسان سار معهم واليها السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة بمن عنده من العمال والأموال والخيل . وكان الخليفة أبو يعقوب قد شفى عندئذ من مرضه الطويل، فلما بلغته أنباء مقدم العرب ، واقترابهم من الحضرة ، سر بذلك أيما سرور ، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٦هـ ، فى جو يسوده الحبور والبشر ، وبعد ذلك بيومين جلس الخليفة لاستقبال أشياخ الموحدين وطلبة الحضر ، والأجناد والخاصة من أهل الوفود والقضاة ، وخطب فى هذا الحفل الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر ، والقاضى أبو يوسف ، والفقيه أبومحمد المالقى ، وأمر الخليفة بإخراج الصدقات للضعفاء والمساكين والوافدين الغرباء ، ثم صدر الأمر بأن يكون وصول العرب الوافدين ، ومن معهم إلى حضرة مراكش فى ضحى يوم السبت الثانى من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

وكانت الأوامر قد صدرت أثناء ذلك إلى جميع الجند الموحدين بالحضرة بالاستعداد واستكمال الزى والهيئة ، وفرقت عليهم بهذه المناسبة الدروع ، والبيضات والرماح والأسلحة والكسى والأعلام . وفى صبيحة يوم السبت المذكور بكر الحفاظ والطلبة من الموحدين وسائر الجند إلى باب السدّة ، وانتظمت صفوفهم جُملا جملا ، تتقدمهم الطبول العديدة . ولما كمل ترتيب الموكب ، برز الخليفة أبو يعقوب ممتطياً صهوة فرسه الأشقر ، وإلى جانبه وزيره أبو العلا إدريس ابن جامع ، سائراً على قدميه لصق ركابه ، وهو يراجعه فيما يعن من الأمور ، وفى ساقة الخليفة ، يسير سائر الإخوة الصغار والبنين ، ومن ورائهم حملة البنود ، وأكابر الموحدين يحمل كل منهم علما ، وعليه درع سابغة لامعه تسطع تحت أشعة الشمس ، وتتبعهم سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد . وتقرر أن يكون اللقاء فى الفحص الشاسع القريب من المدينة ، فلما وصل الموكب إلى الفحص المذكور ، والطبول تقرع بشدة ، والجيوش تبدو فى أكمل هيئة ، ضربت قبة الخليفة ، ونزل فيها مع إخوته وبنيه . وأقبلت عساكر العرب وأهل إفريقية ، ومعهم السيدان أبو زكريا يحيى ، وأبوعمران موسى أخوا الخليفة . ولما التقى الموكبان على هذا النحو ، أمر الخليفة أن يحمل الفريقان من العسكر كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة ولعب ، ففعلا ، وتجاولا وتصاولا حتى العصر ، والطبول

تفرع ، وقد أبدع كل منهما فى حركاته ومناوراته . ثم تقدم أخوا الخليفة وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب وجميع الوافدين للسلام على الخليفة ، وانصرف الخليفة بعد ذلك فى عسكر الموحدين إلى المدينة ، وضرب العرب محلتهم فى الفحص . وفى اليوم التالى ، الثالث من ربيع الأول ، أمر الخليفة بدخول أشياخ العرب والوفود لمبايعته ، وأخذ العهد عليهم ، فأدخلوا واستغرقت بيعتهم أسبوعاً حتى العاشر من ربيع الأول .

وفى يوم الجمعة الثانى والعشرين من ربيع الأول ، خرج الخليفة عقب الصلاة إلى البحيرة (البستان) خارج الحضرة ، ومدت المآدب العظيمة لإطعام العرب والوافدين . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذه الحفلات كلها ، هيئة الإطعام ، فيقول إن كل طائفة من ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لها الطعام ، وكلما انتهت طائفة من الأكل ، سارت إلى موضع الخليفة وسلمت ودعا لها . واستمر حفل الإطعام أياما ، وقد أربى ماكان يقدم فيه على ما تقدم من الإنعام الماثل . ولم يعكر صفو هذا الحفل سوى مشادة حدثت بين صبيان الموحدين وأتباع العرب ، وقعت خلالها بعض الاعتداءات على النفس والمال ، وبادر العرب بالاعتذار وطلب العفو من الخليفة لما وقع من أتباعهم ، فصفح الخليفة عنهم ، وأمر بالاستمرار فى إطعامهم وإكرامهم(١) .

وكانت آخر خطوة فى هذه الأحداث المتعاقبة ، إجراء التمييز لعسكر العرب والموحدين ، ففى اليوم الثامن من جمادى الأولى أمر الخليفة بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم ، وأن يحضروا بين يديه فى رحبة قصره بدار الحجر ، ورتب دخولهم كل يوم بعدد معلوم من مختلف القبائل ، فاستمر تمييزهم خمسة عشر يوماً ، والخليفة جالس فى مجلسه مع أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب ، يحرض العرب والناس على الجهاد ، ويحث على التفانى فيه . ولما انتهى التمييز ، دعا الخليفة أشياخهم وكبراءهم ، وأحضرت زمامات التمييز الأول ، أيام الخليفة عبد المؤمن ، فوجدت فى التمييز الجديد زيادة كبيرة فى الأجور . وكان قصد الخليفة من التوسعة على العرب ، أن يمتنعوا عن عاداتهم الذميمة فى الاعتداء على الأموال وخطف العمائم والثياب والسروج وغيرها ،

---

(١) يقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لهذه الاستقبالات والحفلات فى « المن بالإمامة » لوحات ١٤٦ ب إلى ١٤٩ ب .

وأن يستميلهم إلى طاعته وموازرته ؛ ثم بدئ بتميز الموحدين من غرة جمادى الآخرة واستمر تميزهم أيضاً خمسة عشر يوماً ، وفق منازلهم وقبائلهم ، ووزعت على أثر ذلك على الموحدين والعرب الخيل وعُدد الحرب من الرماح والدروع والبيض والسيوف وغيرها . واختتم التميز بما يسمى فى المراسيم الموحدية « بالإنعام بالبركة » وتوزيع الأعطية . وأقيم لذلك حفل ضخم جلس فيه الخليفة فى مجلسه ، ومن حوله أشياخ الموحدين وأشياخ العرب ، وأحضرت الأموال بين يديه ، أكواماً من الذهب والفضة ، من دنانير ودراهم ، وقُدم الموحدون فى تنفيذ البركة ، فأصاب الفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، وغير الكامل ثمانية ، والراجل الكامل خمسة دنانير وغير الكامل ثلاثة . وحصل العرب على منح مضاعفة ، فأصاب الفارس الكامل منهم خمسة وعشرين ديناراً ، وغير الكامل خمسة عشر ، والراجل سبعة دنانير ، ومُنح أشياخ العرب خمسون ديناراً لكل منهم ، ومنح كل رئيس قبيلة مائتا دينار ، ووزعت على الجميع الكسى من القباطى والنفاير والعمائم ، وزودوا بالسيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس وزعت على مختلف القبائل ، وحصل الموحدون كذلك على جملة كبيرة من الخيل قسمت عليهم بحسب قبائلهم ومنازلهم . وكان يوماً مشهوداً ، سادت فيه الغبطة والحماسة بين الأشياخ والجند ، وارتفعت قواهم المعنوية ، وأخذوا يتطلعون إلى الغزو المنشود فى عزم وثقة(١) .

— ١ —

وهكذا تمت أهبة الخليفة أبى يعقوب يوسف للغزوة الأندلسية التى اعتزمها ، والتى عاقه المرض حيناً عن إتمامها ، وعلى هذا النمط الذى أفاض فى وصفه ، ابن صاحب الصلاة ، ولخصناه فيما تقدم ، كانت تُحشد الجيوش الموحدية ، ويجرى استعداد الخليفة الموحدى للغزو . وفى اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١١٧١م غادر أبو يعقوب حضرة مراكش فى حشوده من الموحدين العرب ، وكان خروجه من باب دُكّاله ، وقد هرعت الجموع الغفيرة لرؤيته ، فسار وأمامه العلم الأبيض ، ومن ورائه حملة الطبول ، وقد قدم أمامه مصحف عثمان محمولا على جمل مرتفع ، وعليه قبة صغيرة حمراء ، وقد وضع فى تابوته الفخم المرصّع بنفائس الجوهر والياقوت والزمرد ، وأمام مصحف

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٠ ب و ١٥١ أ و ب .

عثمان ، مصحف الإمام المهدى ، وكان يسير إلى جانب حملة الأعلام والطبول ، الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، ومعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدى ، وأبو محمد عبد الله المالقى شيخ طلبة الحضر ، وقاضى الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران، وعدة آخرون من أشياخ الموحدين . ونزل الخليفة فى وادى تانسيفت على قيد ثلاثة أميال من مراكش ، وهو أول منازل الرحلة، وعساكره محدقة به من كل صوب . ثم غادره فى اليوم التالى إلى جسر الخطابة إلى توبن ، ثم إلى تودجين . واستمر فى سيره على هذا النحو حتى وصل إلى وادى أم الربيع ، وهو فى كل مرحلة ينزل فى الدار التى أعدت لنزوله ، وجاز العسكر الوادى تباعاً فوق القنطرة التى عملت لذلك ، وقد خصص يوم لجواز كل قبيلة . ثم استأنف السير حتى وصل إلى مقربة من المهدية، وهى التى سُميت عندئذ برباط الفتح . وكان موضع هذه المدينة التى غدت فى عصرنا عاصمة المغرب ، سهلا براحا به مرافق لأهل سلا ، وبعض أعيان إشبيلية ، فاشتراه الخليفة عبد المؤمن من أصحابه . ولما وفد فى قواته على سلا فى سنة ٥٤٥ هـ ، لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين ، أمر حسبما تقدم ، بأن ينشأ فى ذلك الموضع قصبة حصينة على اللسان الممتد فى البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب لجريان الماء من عين عبولة ، القريبة إلى محلته التى أنشأها ، فتم ذلك فى بضعة أشهر ، وجرى الماء ليستقى منه الناس والدواب وتروى الأرض ، وغرست الجنات والرياض ، وأذن الخليفة للناس بالسكنى وإنشاء الديار والأسواق . وهكذا قامت مدينة رباط الفتح . وكانت الرّباط ، منذ عهد عبد المؤمن مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية سواء إلى إفريقية أو الأندلس . ولما تم فتح إفريقية غدت بالأخص مجاز الجيوش المسيرة إلى الأندلس .

ولما وصل الخليفة أبو يعقوب إلى مقربة من الرّباط نزل فى فحصها مع الوزراء والأشياخ والكبراء ، وأمر بأن تُغرس فى أركان تابوت مصحف عثمان الأربعة ، أربع رايات ، رفعت على أربع رماح صغار ، فى أعلى كل منها تفاحة من الذهب يسطع بريقها الوهاج ، وللرايات ألوان أربعة ، الخلدى والأحمر ، والأصفر والأبيض . ثم اقتعد الخليفة غارب فرسه الأشقر ، وسار على النظام الذى سبق وصفه ، ومن ورائه حشود الموحدين والعرب وقد ملأت البسائط .

فلما أشرف على الرباط ، أمر بتقديم الطبول والرايات أمامه مع المصحفين تعظيما لشأنهما ، وتبعه الوزراء والأشياخ والكتاب والطلبة ، حتى وصل إلى باب المدينة ، فرد وجهه للناس واستقبلهم ودعا لهم ، وأمرهم بالنزول فى السهل الشاسع ، ونزل بالدار المعدة لنزوله ، وكان وصول الخليفة إلى رباط الفتح فى اليوم العشرين من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وبذا استغرقت رحلته إليها من مراكش ، سبعة عشر يوما(١) .

وأمر الخليفة على أثر وصوله أن تجدد السقاية التى أنشأها والده عبد المؤمن ، وكانت قد خربت ، وأسن ماؤها ، فجددت وأعيدت إلى حالتها الأولى ، وأنشئ إلى جانبها صهريج عظيم ليمدها بالماء المتجمع فيه ، وكذلك أمر بأن ينشأ جسر جديد فيما بين الرباط وسلا على نهر أبى رقراق ، إلى جانب الجسر الذى كان قد أنشأه أبوه ، ثم خرب بفعل الزمن ، فأقيم جسر عظيم فوق القوارب ، وغطى بالحجر والجيار الثابت . وأمر أخيراً بالبدء فى بناء أسوار المدينة من جهتى الجنوب والغرب ، وهى الأسوار التى أكملت فيما بعد فى عهد ولده الخليفة يعقوب المنصور . وفى اليوم الثامن من نزوله أمر بتحرك العساكر ، وأن يقام لهم تمييز جديد ، وأشرف على تمييز العرب السيد أبو زكريا أخو الخليفة ، وأبو محمد عبد الله المالقى لمعرفته بهم وبأنسابهم . ثم وزعت الكسى على الأشياخ من كل قبيل ، وعلى طلبة الحضر ، والعرب ، وخص كثير منهم بأخبية وخيل عتاق ، وكذلك وزعت الصدقات على الضعفاء والمساكين ، وقضيت حوائج الناس ، ثم اتخذت الأهبات الأخيرة لاستئناف السير .

وفى عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، صدرت الأوامر بالحركة ، وعبرت الجند البحر إلى سلا فوق الجسر الجديد . وفى صباح اليوم التالى تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين حتى تم جوازهم ، ثم تلاه السيد أبو زكريا بالعرب ، واستغرق جواز العسكر خمسة أيام ، وفى الخامس عشر من شعبان غادر الخليفة رباط الفتح ، ومعه وزيره ابن جامع ، والأشياخ والحفاظ والطلبة والعبيد ، بنفس النظام الذى تقدم وصفه ، ونزل بالموضع المعروف بالحمام على مقربة من وادى سبو تجاه ثغر المعمورة ، وتلاحق سائر العسكر إلى الوادى ، فاجتمع من عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس ، واجتمع كذلك

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٢ ا إلى ١٥٤ ب .

من العرب عشرة آلاف فارس ، وهذا غير المتطوعة والمجاهدين ، فإذا ذكرنا أن الشيخ أبا حفص بن يحيي ، كان قد تقدم الخليفة بجيش كبير إلى شبه الجزيرة فى أوائل سنة ٥٦٤ هـ ، وأن السيد أبا حفص أخا الخليفة ، تلاه فى جيش كبير آخر عبر إلى شبه الجزيرة فى أوائل سنة ٥٦٦ هـ ، وهو الجيش الذى اضطلع بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على مملكة الشرق ، أدركنا ضخامة الجيوش الموحدية التى أعدت للغزو بالأندلس .

ووصل الخليفة فى قواته الجرارة إلى قصر مصمودة غربى ثغر سبتة[1] ، وبدأ عبور الجند إلى شبه الجزيرة ، عن طريق ثغر طريف ، فى مستهل رمضان من سنة ٥٦٦ هـ (٨ مايو سنة ١١٧١ م) واستمر عبورها أكثر من أسبوعين ، وفى اليوم السابع والعشرين من رمضان عبر الخليفة فى خاصته ، واستقبله فى طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد ، ثم تحرك إلى إشبيلية ، ودخلها فى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شوال (١٨ يونيه) واستقبله الأشياخ والناس استقبالا حافلا ، فاستراح بها عشرة أيام ، ثم سار إلى قرطبة فى الثانى والعشرين من شوال ، فوصل إليها فى غرة ذى القعدة (٥ يوليه) . ونزلت القوات الموحدية فى داخل قرطبة وفى خارجها على ضفتى الوادى ، مدة إقامة الخليفة بها ، وقد استطالت إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ . وفى يوم عيد الأضحى ، خرج الخليفة للصلاة وألقيت الخطبة المعتادة ، واحتفل بالنحر ، ثم استقبل الأشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وانصرف إلى دار الإمارة . وفى اليوم التالى جلس بالقصر ، مجلس السلام والتهنئة ، وأقبل أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وطلبة الحضر ، والفقهاء والقضاة والكتاب ، وأهل الوفود ، وأعيان قرطبة ، أقبلوا جميعاً للسلام ، وأنشد الشعراء كالعادة مدائحهم وتهانيهم ، وكان فى مقدمتهم أبو بكر بن المُنخّل ، وقد أنشد بين يدى الخليفة قصيدة طويلة أوردها لنا ابن صاحب الصلاة ، ومما جاء فيها :

شرّف الخلافة أن ملكتَ زمامها يحمى جوانبها فكنتَ حسامها

---

(١) قال الإدريسى فى وصف قصر مصمودة « إنه يقع غرب سبتة على قيد ١٢ ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس . وهى على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس » (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٦٨) .

طبع الإله لها حساما صارما　　وغدوت من عقد الإمام إمامها
ورأت عداة الله أن حمامها　　من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشق صوبها　　وعلى سيوفك أن تفلّق هامها[1]

وفى خلال إقامة الخليفة بقرطبة سُيرت حملة موحدية بقيادة عبدالله بن أبى حفص ابن تفرجين وبعض أشياخ الموحدين نحو أراضى قشتالة ، وكان القصد من تسييرها أن تقوم بغارة انتقامية لما ارتكبه القشتاليون بقيادة الكونت نونيو دى لارا من العيث والتقتيل فى أراضى المسلمين ، قبل ذلك بنحو عامين ، فسار الموحدون شمالا ، وعبروا نهر التاجُه ، وعاثوا فى منطقة كبيرة من أراضى قشتالة ، وعادوا إلى قرطبة مثقلين بالسبى والغنائم ، ونحن نذكر أن الجيوش الموحدية ، كانت قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد سارت بقيادة السيد أبى حفص أخى الخليفة لحصار مرسية ومقاتلة ابن مردنيش فى عقر أراضيه ، والقضاء على سلطانه فى شرق الأندلس ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه ، وكانت الأنباء تتوالى على الخليفة ، وهو بقرطبة ، بما أنزله الموحدون بابن مردنيش من الضربات والهزائم ، وما استولوا عليه من بلاده ، وبما يؤذن بإحرازهم النصر النهائى فى تلك المعركة الحاسمة .

— ٢ —

غادر الخليفة أبو يعقوب يوسف قرطبة ، بعد أن أقام بها شهرين ، فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ ، قاصداً إلى إشبيلية ، فوصل إليها فى الثانى من محرم سنة ٥٦٧ هـ (٥ سبتمبر ١١٧١م) ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكل ما تقدم من تنقلات الخليفة ، إن الخليفة لم يحتل من دور إشبيلية سوى ستين داراً ، وأنه اشترى بها مائة دار من ماله الخاص لتكون منزلا للوافدين إليه ، وذلك رفقاً منه بأهل المدينة[2] ، وكانت إشبيلية قد غدت عندئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وذلك بعد أن ترددت هذه الحكومة حيناً بين قرطبة وغرناطة وإشبيلية . وكانت إشبيلية بموقعها على مقربة من البحر وعلى مقربة من العدوة ، أصلح من الناحية الإستراتيجية من قرطبة ، لاستقبال

---

(١) تشغل هذه القصيدة من « المن بالإمامة » لوحة ١٥٩ ب و ١٦٠ أ و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٥٦ ب

الجيوش الموحدية الوافدة ، واستقبال عتادها وذخائرها ومؤنها ، ومن جهة أخرى ، فقد أثبتت الحوادث ، منذ مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة ، أن تيار الغزو النصرانى للأندلس ، قد تحول إلى ناحية الغرب ، وأن قيام مملكة البرتغال الجديدة ، واشتداد ساعدها ، قد نقل الصراع الرئيسى بين إسبانيا المسلمة ، وإسبانيا النصرانية إلى هذه الناحية من شبه الجزيرة ، وهذا ما أيدته فى الأعوام الأخيرة ، معارك بطليوس ، وغزوات ألفونسو هنريكيز ، وهذا ما سوف تؤيده الحوادث فيما بعد ، وهو مما يدل على بعد نظر السياسة الموحدية فى هذا الشأن . وأخيراً فقد كانت إشبيلية ، بعد الذى أصاب قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من ضروب التخريب والعفاء منذ أيام الفتنة ، ومختلف الحروب والثورات ، كانت أرقى عمراناً ، وأوسع رحابا ، ولاسيما منذ أيام بنى عباد ، حيث غدت أعظم حواضر الأندلس وأجملها . ولهذا كله اختار الموحدون أن تكون إشبيلية حاضرتهم وقاعدة حكومتهم بالأندلس .

وما كاد الخليفة يصل إلى إشبيلية ، حتى أمر بعزل محمد بن سعيد المعروف بابن المعلم ، وكان يتولى أعمال المخزن أو إدارة الشئون المالية بإشبيلية والأندلس ، وأمر بالسير إلى قرطبة لمحاسبته ، والتحقيق فى سير أعماله ، وكانت قد علقت به وبتصرفاته فى تنفيذ المنشآت والمشاريع العامة ريب كثيرة ، وندب لمحاسبته الفقيه أبو محمد المالقى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز ، وانتهى الأمر باستصفاء أمواله ، ثم إعدامه فيما بعد . وقدّم الخليفة مكانه على أعمال إشبيلية ، أبا داود بلول ابن جلداسن . وقد كان للخليفة عند حلوله بإشبيلية برنامج ضخم من الأعمال الإنشائية ، سوف يضطلع بلول ، وزير المال الجديد ، فى تنفيذه بأعظم قسط .

وكان أول ما أشار به الخليفة من تلك الأعمال بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادى الكبير ، تصل ما بين إشبيلية وطريق طُريانة ، ضاحيتها الغربية ، وتيسر سبل المواصلات فى اتجاه الغرب ، فحشد لها العرفاء والصناع ، وتم إنشاؤها فى نحو شهر ، فى السابع من صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة يوم إكمالها وافتتاحها ، فى حفل ضخم ، رفعت فيه البنود وقرعت الطبول . وينوه ابن صاحب الصلاة بما كان لإنشاء هذه القنطرة العظيمة من حسن الأثر ، وما حققته للناس من يسر ورخاء ، إذ كان المرور بها دون قبالة أو رسوم .

وفى خلال ذلك ، حضر السيد أبو حفص أخو الخليفة من حصن مرسية ،

وذلك قبل وفاة ابن مردنيش وانقضاء أمره بأشهر قلائل، فاستقبله الخليفة خارج إشبيلية ، باحتفال بالغ . واجتمع الأخوان للبحث فيا يجب عمله لحماية الأندلس ورد عدوان النصارى عنها . وكان أول ما تقرر فى ذلك أن ترسل حملة ضاربة من الموحدين تحمل الميرة والعتاد والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس ، فخرجت هذه الحملة فى الثامن من شهر صفر ، وجازت فوق القنطرة الجديدة إلى طريانة ، فكانت أول عسكر يجوز عليها ، وسارت إلى بطليوس . فلما اقتربت من المدينة ، هاجمت حصن ليون الواقع على مقربة من شرقى بطليوس على ضفة وادى يانه ، وكانت تحتله حامية من النصارى من جند جيرالدو سمبافور ، واقتحمته عنوة ، وأوصلت حمولتها من الميرة والسلاح إلى بطليوس ، ثم عادت سالمة إلى إشبيلية .

ولما كللت حملة مرسية بالنجاح ، وتوفى ابن مردنيش ، وانتهت مملكة الشرق ، قَدِم هلال بن مردنيش وأكابر الشرق إلى إشبيلية ، فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وقد استطالت إقامة الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية والأندلس زهاء خمسة أعوام ، وبالرغم من أنه قام خلال إقامته بغزو أراضى النصارى ، وذلك تحقيقاً لمشروعه الرئيسى فى العبور إلى الأندلس ، فإن أهم ما تميزت به تلك الفترة ، هو اضطلاعه بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهى التى بدأها ببناء القنطرة على الوادى الكبير . والظاهر أن أبا يعقوب ، كان يحبو هذه المدينة العظيمة ، التى اتفق فيها أعواماً عديدة من شبابه حاكماً لها أيام أبيه المؤمن ، بكثير من الحب والإعجاب، ومن ثم فإنا نراه يعمل بهمة عظيمة على تحصينها وتجميلها ، وتزويدها بالمنشآت الفخمة ، والمياه الجارية . وكان أول ما عنى به بعد إنشاء القنطرة ، هو إنشاء القصور الخليفية المعروفة « بالبحيرة » . وكانت إشبيلية تزدان بعدد من القصور الملكية ، هى قصور بنى عباد السالفة ، وكانت ما تزال ، فى هذا العصر ، بعد أكثر من مائة عام ، تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها ، ولكن الخليفة الموحدى ، لم يرق له أن يتخذ من تلك القصور مقامه ، واكتفى بتخصيصها لنزول الأمراء والكبراء الوافدين . وكان السيد أبو حفص ، أخو الخليفة ، قد ابتنى خلال زياراته لإشبيلية بعض الدور فى وادى إشبيلية خارج باب الكُحل ، فرأى الخليفة أن يقيم قصوره خارج باب جهور ، فى أرض الجنان المنسوب

لأبى مسلمة القرطبى بعد أن عوض أصحابه جنانا فى مكان آخر . وأقيمت فى هذا الموضع طائفة من القصور والدور الفخمة للخليفة وحاشيته . وقام على إنشائها العريف أحمد بن باسُه عريف الأندلس ، والخبير بشئون القصور ، فجاءت على أبدع طراز ، وأقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الحيار والرمل والحصى . وعهد الخليفة إلى أبى القاسم أحمد بن محمد الحوفى القاضى ، وأبى بكر محمد ابن يحيى الجد ، لما عرف عنهما من الأمانة والخبرة الهندسية والزراعية ، أن يقوما بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور من أموال المخزن (الأموال العامة) تُجلب إليه الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه وسائر الأنواع النادرة الغريبة من الأشجار والغراس ، فقاما بتنفيذ أمره ، وعُوض أهل الأراضى التى أدخلت فى البستان عن أراضيهم تعويضاً مرضيا . وعهد بأعمال الحفر والغراس إلى أبى داود بلول بن جلداس ، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمين الخليفة ، وجلبت إلى البستان آلاف الغراس والأشجار من مختلف الأنحاء ، وغُرست فيه على أجمل نسق . وحملت غراس التفاح والأجاص (الكمثرى) وغيرها من غرناطة ووادى آش ، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع وابنه يحيى يلازمان الجلوس للإشراف على العمل من الصباح إلى المساء ، وكان الخليفة يخرج من قصره بإشبيلية مع أعيان الموحدين لمشاهدة الأعمال الجارية ومدى تقدمها . ويفيض ابن صاحب الصلاة كعادته فى وصف هذه القصور وجمالها وفخامتها[1] .

وكانت الخطوة التالية بعد إنشاء القصور والبستان ، النظر فى استجلاب الماء لتوفيرَ السقاية والرى . وكان يوجد خارج باب قرمونة ، على الطريق المتجه إلى قرمونة ، أطلال قنطرة رومانية قديمة ، قد درست وعفت ، ولم يبق منها سوى حجارتها المتساقطة . فقام المهندس الأندلسى البارع الحاج يعيش المالقى ، وهو الذى تولى الإشراف على أعمال جبل طارق ، بالحفر حول هذا الأثر ، حتى تحقق لديه ، أنه كان قنطرة رومانية تحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية ، ثم تتبع السرب بعد ذلك بالحفر حتى انتهى إلى مأخذه القديم من الوادى على مقربة من قلعة جابر[2] ، وتم إجراء الماء من ذلك الموضع فى سربه القديم إلى البحيرة ،

(١) المن بالإمامة لوحات ١٦١ ب و١٦٢ ا و ب و١٦٣ ا .

(٢) وهى تقع فى جنوب شرقى إشبيلية على قيد نحو عشرة كيلومترات منها ، ومكانها اليوم البلدة الإسبانية الصغيرة التى تسمى **(Acalá de Guadaira)** .

والقصور والرياض الخليفية ، وأمر الخليفة بعد ذلك ، بإجراء الماء إلى داخل المدينة اسقاية الناس ، وتوفير مرافقهم ، فقام الحاج يعيش بتنفيذ هذه الرغبة على أكمل صورة ، وأنشئ داخل إشبيلية محبس للماء بحارة منور وهو نهاية جريانه ، وتم توصيل الماء إلى المدينة على هذا النحو فى اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٧هـ ، وحضر الخليفة حفل إجرائه فى جماعة كبيرة من الجند والأشياخ والفقهاء والطلبة ، وضربت الطبول ، وساد البشر واليمن بين الناس .

على أن أعظم منشآت الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية ،هو الجامع الأعظم ، الذى مازالت تقوم منه حتى اليوم بعض البقايا الدارسة ، إلى جانب كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق أنقاضه . وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه فى شهر رمضان سنة ٥٦٧هـ ، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باسُه ، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء ، العرفاء ، والبناؤون من أهل إشبيلية ، ومن سائر قواعد الأندلس ، ومن أهل العدوة ولاسيما مراكش وفاس ، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة . وكان الموحدون حينما افتتحوا إشبيلية قد أنشأوا لهم بقصبتها جامعاً صغيراً يؤدون فيه شعائرهم ، ولكنه أضحى يضيق بهم ، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم ، ومن جهة أخرى ، فإن المدينة ذاتها كانت فى أشد الحاجة إلى مسجد جامع يتفق مع ضخامة عمرانها ، وأهميتها كمقر للحكومة الموحدية بالأندلس . وكانت مسجد إشبيلية الجامع ، المسمى بجامع العدبّس أو ابن عدبّس وهو المنسوب للقاضى عمر ابن عدبّس ، والمشيد فى سنة ٢١٤هـ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثف سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها ، ولم يفكر أحد من أمراء بنى عبّاد أيام دولتهم ، فى إنشاء مثل هذا الجامع لانهماكهم فى شئون الإمارة ، وإنشاء القصور ودور القصف ، وإهمالهم لشئون العبادة . يقول ابن صاحب الصلاة وقد كان من سكان إشبيلية ، وكان شاهد عيان لإقامة هذه المنشآت كلها ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب « قد حاز الذخر والأجر فى بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسسه من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلا طابية تحت الأرض ، أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام ، وإحضار الآلات من الخشب المجلوب من سواحل العدوة

مما لايقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه، وأنفذ أمره العالى ببنيانه فى رمضان من سنة سبع وستين وخمسمائة المؤرخة ، لم يرفع عنه البناء قط فى فصل من فصول السنين مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف وجاء فى أبهى النظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وتفنن فى ميزابه وخبره ورخمه مقدمه ، قارب جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده ، وسعته وعدد بلاطاته » .

وتولى النظر على بناء الجامع وعرفائه العريف أحمد بن باسُه ، والنظر على النفقة أبوداود بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ، وكان من الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساق . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مراحل إتمام الجامع على النحو الآتى : إن سرب المدينة كانت تشق بجريها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وصرفت إلى جهة الجوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار المحراب ، ساباطاً فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع ، لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصناع فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ومعه أشياخ دولته ، ويشير للمشرفين عليه بالجد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وكمال التسقيف ، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً ، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراكش فى الرابع عشر من شعبان عام ٥٧١هـ ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصناع إلى مواطنهم. على أن هذا الجامع لم يفتتح للصلاة بصفة رسمية وتقام به الخطبة ، إلا بعد ذلك بنحو سبعة أعوام ، وأقيمت فيه الخطبة لأول مرة يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢م) وذلك على يد السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب ، ووالى إشبيلية عندئذ ، وأزيلت الخطبة من جامع ابن عدبّس من ذلك التاريخ[1] .

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٦٧ أ و ١٦٨ ا و ب ١٦٩ ا ، وروض القرطاس ص ١٣٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٦ .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن الموحدين فى بداية أمرهم لم يعنوا بزخرفة المنشآت والصروح ، ولاسيما المساجد ، معتبرين هذا الزخرف من الأمور المكروهة من الناحية الدينية ، وكان كل ما يراعى فى هذه الصروح هو البساطة والمتانة . بيد أنه لما استحالت الخلافة الدينية من بعد عبد المؤمن إلى ملك باذخ ، وبلاط عتاز بالفخامة والروعة ، بدأ زخرف الصروح الموحدية وتجميلها بوفرة وسخاء ، فكان منبر جامع إشبيلية المرصع بصفائح الذهب والفضة ، وكان تزويد صومعته التى أنشئت فيما بعد بتفافيحها الذهبية الثقيلة(١) .

وسنرى فيما بعد ، كيف أنشئت منارة هذا الجامع ، وهى المنارة الشهيرة التى مازالت قائمة حتى عصرنا فى مدينة إشبيلية ، بعد أن حول جزؤها الأعلى إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أنه لما وفد هلال بن مردنيش وأكابر الشرق وقادته على إشبيلية فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ليقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة أبى يعقوب ، اقترح قادة الشرق ، وفى مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، على الخليفة أن يقوم بغزو أراضى النصارى من جهة بلادهم ، وعينوا له بالذات مدينة وبذة هدفاً لهذا الغزو ، وذلك لضعف تحصيناتها وأسوارها ، ولأنها حسبما ينقل إلينا ابن صاحب الصلاة « حديثة البنيان قريبة الإسكان »(٢) أو بعبارة أخرى لم يتأثل عمرانها ، ولا أهباتها الدفاعية ، وأن الخليفة وعدهم فى نفس هذا المجلس بتحقيق رغبتهم متى انتهى شهر الصوم(٣) . وإنه ليبدو لنا من ذلك أن الخليفة حينما عبر إلى الأندلس بقصد الغزو والجهاد لم يكن لديه مشروع معين لهذا الغزو ، ومن ثم كان قبوله لاقتراح قادة الشرق .

وعلى أى حال ، فقد اتخذ الخليفة أهبته لتلك الغزوة ، وخرج فى قواته من إشبيلية فى فجر يوم الاثنين الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٧ هـ (٦ يونيه سنة ١١٧٢ م) ، فوصل إلى قرطبة فى السابع عشر منه ، وأقام محلته فى جبل

---

(١) وقد أبدى العلامة جولدسيهر مثل هذه الملاحظة فى بحثه : **Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Morgenl. Gesellsch. 1887; p. 105)**

(٢) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ ا

(٣) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ ا .

فحص السرادق المطل على براح أرض مدينة الزاهرة القديمة ، وفى اليوم التالى دخل قصر قرطبة القديم ، وأقام به بضعة أيام . ثم غادر قرطبة فى ظهر اليوم الخامس والعشرين من شوال ، وسار فى قواته صوب مدينة القصر[١] ، فأندوجر ثم اتجه نحو الشرق حتى صار على مقربة من بياسة ، وهنالك لحق به إبراهيم ابن همشك ، وكان على حصار حصن بلج[٢] القريب من بياسه ، وكان من أعظم وأمنع حصون هذه المنطقة . وكان هذا الحصن من أملاك ابن همشك ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش ، من جراء انضوائه تحت لواء الموحدين ، استولى ابن مردنيش على هذا الحصن ، ووضع به حامية من جنده المرتزقة النصارى ، وكان ابن همشك يحاصره بقواته حينما قدم الخليفة فى جيشه الضخم ، فاقترح عليه ابن همشك أن يسير فى الحال إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه ، فاستجاب الخليفة إلى دعوته ، وسارت القوات الموحدية صوب الحصن ، ونزلت فى ظاهره ، وعاين الموحدون ضخامته ومنعته ، ورِوعت حاميته النصرانية بما شهدت من كثرة الجيوش الموحدية ، فاستدعوا ابن همشك ورجوه أن يتوسط لهم لدى الخليفة ليمنحهم الأمان مقابل تسليم الحصن ، فقام ابن همشك بتحقيق رغبتهم ووافق الخليفة ، ورأى فى تسليم الحصن فاتحة النجح والنصر ، وتم تسليم الحصن فى يوم السبت ٣٠ شوال ، وركب الخليفة إلى الحصن ، وراقته ضخامته ومنعته ، ورتب به حامية موحدية ، وصرف أمره إلى ابن همشك . وفى اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سار الخليفة فى قواته شمالا نحو حصن الكَرَس[٣] وكان ابن مردنيش قد فعل به ما فعل بحصن بلج ، وسلمه إلى حامية من النصارى . وكان هذا الحصن يقع فوق ربوة عالية يحيط بها الماء والبسائط الخضراء ، فلما اقترب منه الموحدون ، عرض النصارى تسليمه بالأمان ، على نحو ما تم بحصن بلج ، فأجيبوا إلى مطلبهم ، ونزلوا عن الحصن ، وذلك فى اليوم السادس من ذى القعدة ، وصرف أمره كذلك إلى ابن همشك .

ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من مرافقى هذه الحملة الموحدية[٤] ، سير الحملة وتنقلاتها بإفاضة ، ويقول لنا إنه بعد الاستيلاء على هذين الحصنين ، سار

---

(١) وهى بالإسبانية **Alcocer** .

(٢) وهو بالإسبانية **Vilches** . (٣) وهو بالإسبانية **Alcaraz** .

(٤) وهو يذكر لنا ذلك فى أكثر من موطن ، « المن بالإمامة » لوحة ١٧٧ ا ، ١٧٨ ب .

الخليفة فى قواته إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف[1] وهو المتصل بفحص جنجاله ، وقد كانت يومئذ مدينة الحدود بين الأندلس وبين قشتالة ، ثم تقدم منه إلى الموضع المعروف بالغُدُر قرب منابع نهر وادى يانه ، ونزل فى سهل بلاط الصوف وقضى فيه يوماً تزود فيه العسكر والناس بالماء . ثم غادره إلى مرج البسيط ، وأقام فيه يوماً آخر ، وسار منه إلى مقربة من وادى شُقر ، حيث ارتوى الناس والدواب من ماء النهر ، وقضوا فيه يومهم للراحة . وفى يوم الخميس الثانى عشر من ذى القعدة ، أمر الخليفة أخاه السيد أبا سعيد ، أن يسير من وادى شُقر فى عسكر ضخم من الموحدين والعرب ، يبلغ نحو اثنى عشر ألف فارس ، ومعهم قوة من الرّجالة والرماة ، إلى أراضى قشتالة ، صوب مدينة وبذة[2] ، فسار السيد أبو سعيد فى هذا الجيش ومعه أبو العلاء بن عزون « قاضى الدولة المهدية » فى جنده ، وإبراهيم بن همشك فى جنده ، فوصلوا فى صباح اليوم التالى إلى أول بلاد قشتالة بموضع يسمى « برج جمل » وفيه حصن يحتله النصارى ، فافتتحوه فى الحال ، وأفنوا حاميته قتلا وسبياً ، وهدموه . وفى اليوم التالى — السبت — وصلوا إلى مدينة وبذة ، والظاهر أن النصارى كانوا على أهبة لرد المغيرين ، فما كاد الموحدون يصلون إلى ظاهر المدينة ، حتى خرج إليهم القشتاليون . ونشبت بين الفريقين معركة تمهيدية ، ظهر فيها تخاذل من بعض الجند العرب ، فقتلوا ، وأسفرت المعركة حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة عن « ظهور الإسلام » . وعلى أثر ذلك نزل السيد أبو سعيد بعسكره فوق التل المطل على المدينة[3] .

وفى خلال ذلك وصل الخليفة فى قواته إلى وبذة فى اليوم السابع عشر من ذى القعدة ، وأمر الموحدين والعرب من سائر القبائل بالتأهب للحرب ، فانحاز كل عسكر إلى قبيله ، واجتمع تحت رايته ، وأمر الجميع بالسير ، والصعود إلى التل الذى نزل به السيد أبو سعيد بجنده ، ليتم اجتماع القوات المحاربة ، فصعد الجند على الترتيب المذكور ، وصعد بعدهم الخليفة فى كتيبته ، ومعه أبناء الجماعة ، وأبناء أهل خمسين وأهل الدار والعبيد ، وخلفه السيد أبو حفص وباقى الإخوة ، ومن ورائهم الرايات والطبول وعددها مائة ، وفى الحال بدأ الهجوم تحت قرع الطبول وصيحات التكبير ، بين الموحدين والقشتاليين ، واستولى الموحدون على

---

(١) وهو بالإسبانية Balazote .   (٢) وبذة هى بالإسبانية Huete .

(٣) تراجع مواقع غزوة وبذة فى الخريطة المنشورة فى ص ٤٩ .

ماكان لصق السور من مداخل أرباض المدينة ، وأحرقت الدور وهدمت ، وارتد القشتاليون إلى الداخل ، ونزل الموحدون بخيولهم فى الجنات والكروم المتصلة بالمدينة ، وقطعوا عنها ماء الوادى . وفى مساء نفس اليوم طاف السيد أبو حفص ومعه الإخوة والأشياخ والزعماء ، وقوة كبيرة من الموحدين بجوانب المدينة الأربعة ، وقسم جهاتها على الجند ، يختص كل عسكر بجهة ويقوده سيد من الإخوة ، ويختص العرب بجمعهم منها بجهة . وكان النصارى فى أثناء ذلك قد حفروا على عجل خندقاً خارج المدينة ، ووضعوا له زرباً من الخشب ، وذلك ليعوقوا اقتحام الموحدين للمدينة . وفى صباح اليوم التالى خرج الخليفة راكبا فرسه ، ومن حوله الكتائب الجرارة ، وقد اتخذت أهبتها للقتال ، وقرعت الطبول ، وخفقت الرايات ، وإلى جانبه أخوه السيد أبوحفص وأشياخ الموحدين ، ولما وصل إلى مقربة من الخندق ، نزل فوق ربوة تشرف عليه ، واستدعى إلى قبته الفقهاء والقضاة المرافقين للحملة ، وهم الحافظ أبوبكر بن الجد ، والفقيه أبو محمد المالقى ، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد وأقبل الإخوة والأشياخ ، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد ، وكانت العساكر قد احتل كل فريق مكانه المعين ، وقسمت السهام على الرماة ، وأعدت سائر الآلات ، ثم قرعت الطبول إيذاناً ببدء القتال ، فهجم الموحدون على القشتاليين واضطرمت بين الفريقين معركة عنيفة ، فارتد القشتاليون حتى لصق السور ، وإلى داخل البيوت ، وامتنع معظمهم بالقصبة ، ولم يثبتوا إلا فى الجهة الغربية ، حيث عجز أبو العلاء بن عزون وقواته عن ردهم . فحاول أن يستنجد بالخليفة ليمده ، فأعرض عنه لاشتغاله فى قبته بالمناقشة مع الطلبة . وهدم الموحدون كنيسة المدينة ، وانتزعوا نواقيسها ، وقتل من تصدى من النصارى لاستردادها . ويقول ابن صاحب الصلاة « ودام القتال على انحلال وضعف وملال إلى بعد أذان الظهر ، وارتفع ، وما نفع الجيش الكثير عديده ، ولا الجمع ، إذ كان فى نحو ماية ألف بين فارس وراجل ، وانصرف أمير المؤمنين ، وانصرف الناس إلى أخبيتهم ، وقد همهم الحال »[١] .

وهكذا فشل هجوم الموحدين الأول على وبذة ، وبالرغم مما يبدو من مبالغة ابن صاحب الصلاة فى تقدير عدد الجيش المهاجم ، فإنه كان بلا ريب جيشاً وافر

---

(١) المن بالإمامة لوحة ١٧٨ ا .

العدد ، وقد كان من جراء هذا الفشل ، أن اتجه الخليفة إلى حصار المدينة . وفى اليوم التالى اجتمع الأشياخ والقواد ، وأمر الخليفة أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر لزرع الغلات والعلوفات وتحصيل الأقوات ، استعداداً لحصار المدينة ، فخرج الناس لذلك ، وطرق الموحدون المدينة ، ومنعوا عنها ماء الوادى ، وأمر الخليفة بصنع السلالم والأبراج الخشبية لمقاتلة النصارى فى جوانب المدينة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن رسولا من النصارى جاء فى ذلك اليوم يعرض تسليم المدينة بالأمان، فلم يُلتفت إليه ، فكرر مسعاه فى مساء نفس اليوم، فصرف بغير طائل .

وفى صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة (١٤ يوليه) هبت ريح صيفية عاصفة ، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحدين ، واقتلعت الأخبية ، وفاضت الغدور ، وقضى الموحدون ليلتهم فى التحوط ضد عصف الريح . وفى صباح اليوم التالى قدم الشيخ أبوحفص عمر بن يحيى من مرسية فى جند أهل الشرق ، ومعه أبو الحجاج يوسف بن مردنيش وأهل بلنسية والثغر ، فخرج إليه الخليفة وسائر الإخوة والأشياخ والزعماء والطلبة ، واستقبل استقبالا حافلا. ثم نزل جند الشرق بالجبل المجاور لوبذة ليعاونوا فى تشديد الحصار ، وشهد القشتاليون من مدينتهم مقدم هذا الجيش الجديد فى توجس وفزع . وفى مساء نفس اليوم ، هبت ريح عاصفة أخرى أشد من السابقة ، فاقتلعت خيام الموحدين ، ومزقتها ، ثم تلاها مطر وابل ورعد قاصف وبرق . وكانت فرصة طيبة للنصارى أن ارتووا من مياه الأمطار. ويلاحظ ابن صاحب الصلاة أن هذه الرياح قد عصفت ، والأمطار قد هطلت « فى أشد ما يكون من الحر » فى شهر يونيه العجمى (وصحته يوليه) .

وفى صباح اليوم التالى — الاثنين الثالث والعشرين من ذى القعدة — هاجم الموحدون القشتاليين على الأسوار ، ولكنهم ما كادوا يبدأون القتال ، حتى أظلمت السماء ، وقصف الرعد والبرق ، وهطل المطر غزيراً كالسيل ، فأغرقت ثياب الموحدين وعجزوا عن القتال ، وفزع الناس من تكرر هذه الظاهرة ، واعتبروها سخطاً من الله ، ورغبوا فى التوبة إليه ، وارتد الخليفة والناس ، وقد اكتسحت السيول الهضبة ، وعند الظهر أشرقت السماء ، وارتفع المطر ، فعاد الموحدون إلى القتال وفق ترتيبهم السابق، ودام القتال حتى المساء ، ولكن دون جدوى .

وفى ليلة الأربعاء ، قام القشتاليون بهجوم مفاجئ من القطاع الذى يحتله جند هسكورة ، ففروا منه منهزمين ، فلما علم الخليفة فى الصباح ، أمر بضربهم

بالسباط عقاباً لهم . وفى صباح يوم الخميس ، أمرت الفرق المختلفة ، أن يخرج من كل ثلثها للبحث عن الأقوات والعلوفات ، واجتمع أولئك الجند تحت إمرة الحافظ أبى محمد عبد الله بن أبى تفريجين ، وإبراهيم بن همشك ، ولكن هذه الحملة فشلت فى مهمتها ، فلم تجمع شيئاً من المؤن والعلف ، فارتفعت الأسعار فى المعسكر الموحدى ، وكاد أن ينعدم فيه القوت .

هذه الأحداث المكدرة المثبطة للهمم ، حملت الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عمر ، أن يدعو الناس ، وأن يخطب فيهم ، تارة بالعربية ، وأخرى بالبربرية ، يعظهم ، ويستنهض هممهم للجهاد ، وكان مما قاله لهم : « قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا لله واجتهدنا ، فلما حضرتم معهم ، قصرتم وجبنتم وحنثتم الله عز وجل ، ونكلتم وما نصحتم ، ما أنتم بمؤمنين ولا موحدين ، أن تسمعوا النواقيس تضرب ، وتعاينوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر . إن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم فى حق الله تعالى من الجهاد على كثرتكم من الأعداء »[1].

وبذلت عندئذ محاولة يائسة لحمل القشتاليين على التسليم بالأمان ، فوُجه عبد الرحمن بن أبى مروان بن سعيد الغرناطى ، إلى قائد وبذة وهو ولد الكونت مانريكى دى لارا[2] ، يقول له إنهم على استعداد لتحقيق رغبته فى تسليم المدينة بالأمان ، وكرر هذا المسعى مرتين فى نفس اليوم ، فرفض قائد القشتاليين هذا العرض بجفاء ، لما رآه من اختلال أحوال الموحدين ، ولما علمه من استعداد ألفونسو الثامن لإنجاده بحشوده . ولما وقف الخليفة على ذلك استدعى سائر الأشياخ من الموحدين والعرب إلى خيمته — القبة الحمراء — للبحث فيما يجب عمله ، وفى نفس الليلة — ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة — أمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التى صنعت معه ، وبأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التى أخذت من الكنيسة من وبذة . وفى الصباح ضرب الطبل الكبير إيذاناً للناس بالرحيل ، فساد الاضطراب والهرج فى المعسكر الموحدى ، فلما رأى القشتاليون ذلك ، وأيقنوا أن الموحدين قد بدأوا فى الانسحاب ، خرجوا فى قواتهم من الفرسان والرجالة ، ونزلوا إلى الوادى ، وهاجموا الموحدين وأشعلوا النار فى البيوت والخيام ، ووصلوا إلى السوق بقرب المحلة ، وقتلوا

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٨٠ ا

(٢) ويسميه ابن صاحب الصلاة « ولد مرنو » .

الضعفاء والمرضى ، ونشب القتال بين الجيش المنسحب وبين النصارى ، وأمر الخليفة أن يتوقف سائر الجند حتى ترفع الأخبية ، فلما رفعت وقفت قوة ترد الهاجمين حتى يتم الانسحاب ، وتحرك الجيش المنسحب على قرع الطبول ، يتقدمه الخليفة ، والسيد أبو حفص فى أهل تينملل ، وأشياخ الموحدين مع قبائلهم ، وزعماء الأندلس مع أصحابهم ، والعرب مع قبائلهم ، والنصارى خلال ذلك يهاجمون الجيش المنسحب ، وقد احتشدت فى المؤخرة قوة كبيرة لردهم بقيادة السادة الإخوة ، ومعهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك وأبو العلاء بن عزون فى عسكر الأندلس . وسار الجيش المنسحب متجهاً نحو كونكة (قونقة) ونزل فى فحص به الماء على قيد بضعة أميال من وبذة ولحقت به قوة المؤخرة فى المساء ، بعد أن ردت النصارى وقتلت منهم نحو ستين .

واستمر الجيش المنسحب فى سيره ، وهو يحصد الزروع ، ويجمع الغلات فى طريقه ، حتى وصل إلى كونكة بعد يومين ، فى يوم الثلاثاء أول ذى الحجة . وفى عصر ذلك اليوم ركب الخليفة ومعه إخوته السادة ، ووزيره ابن جامع ، والفقهاء والقضاة ، وسائر الأشياخ من الموحدين والعرب ، ودخل المدينة . وكان يرافق هذا الموكب عبد الملك بن صاحب الصلاة راوية هذه الحوادث ، وهو يصف لنا قصبة كونكة ، ومنعتها ، وعلوها الشاهق ، وكيف يصل إليها الماء من بحيرة عظيمة تقع خارج السور ، وعلى قنطرة عظيمة فى جانبها ، وكان إلى جانب المدينة من جهة الحوف خندق عميق قد حفر فى الحجر الصلد ، وفيه أدراج حفرت تحت الأرض ، ينزل منها إلى الوادى لشرب الماء ، وتحريك الرحى التى على الوادى ، وقد غطى بستارة منيعة عليها برج عظيم من بناء الأوائل ، وفى فحص المدينة تقوم الكروم وأشجار الجوز والمراعى الخضراء .

ولما دخل الخليفة مدينة كونكة ، وقصبتها استقبله أهلها كباراً وصغاراً ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وكان النصارى قد حاصروا مدينتهم قبل ذلك ببضعة أشهر ، وبرّح بهم الضيق والحرمان ، ولم يتركهم النصارى إلا حينما علموا باقتراب الموحدين ، فلما سلموا على الخليفة سألهم عن أحوالهم ، ووعدهم بجميل رعايته ، وأمر بأن تكتب أسماء سائر أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ، فكان عددهم جميعاً سبعمائة ، فأمر للفارس منهم باثنى عشر مثقالا ، وللراجل ثمانية مثاقيل ، وللمرأة أربعة وللطفل أربعة ، وأعطاهم سبعين

بقرة لم يكن فى محلته سواها ، وزودهم بكثير من الرماح والقسى والسهام ، والسلاح ، وأمر بأن يمدهم سائر الجند بالقمح والشعير صدقة لهم ، وتنافس الأكابر والأشياخ فى تزويدهم بمختلف الأعطية والصلات .

وفى اليوم التالى أمر الخليفة بحصد الزروع ، التى للنصارى فى تلك المنطقة وسوقها ، ولكنهم التقوا بعدد كبير من النصارى على مقربة من قونقة ، وسرت الإشاعة بأنهم طلائع جيش ألفونسو الثامن والكونت نونيو دى لارا ، فلما علم الخليفة بذلك ، أمر بالإقلاع فوراً من ذلك الموضع ، والسير إلى وادى شُقر ، وأمر الناس بالرحيل ، فكان هرج شديد مقرون بالفزع كذلك الذى حدث يوم الإقلاع من وبذة ، وعبر الجيش الموحدى نهر شُقر ، ونزل بالجبل المتصل بمدينة قونقة لحصانته ، وسرعان ما وصلت قوات النصارى ، وعسكرت فى فى جبل تونيس ، فى الناحية المقابلة من النهر ، وصار كل من الجيشين تجاه الآخر دون أن تتاح لأحدهما فرصة الاشتباك ، وقضى الموحدون ليلتهم على حذر ، وفى صباح اليوم التالى ، عقد الخليفة مؤتمراً من الأشياخ واستقر الرأى على أن يقاتل الموحدون النصارى فى الغد . ولكن العرب اعترضوا « وجبنوا عن اللقاء » واحتجوا بضيق ساحة القتال . وانضم أهل الأندلس بقيادة أبى العلاء ابن عزون للموحدين فى نية القتال ، وفى الغد خرجت قوة منازلة بقيادة أبى العلاء واشتبكت مع النصارى فى عدة مناوشات لتختبر قوتهم . وفى اليوم التالى تأهب الموحدون لخوض المعركة ، وخرج أبو العلاء فى بعض قواته ليستطلع أمر العدو ، ولكنه عاد مع جنده ، وأعلن أن النصارى أقلعوا عن محلتهم منصرفين إلى بلادهم . فعندئذ أمر الخليفة باستئناف الرحيل ، وسار الجيش الموحدى حتى وصل إلى جبل « الصومعة » Alminar على بعد عشرة أميال من قونقة ، وقضى به الليل ، وفى اليوم التالى استأنف سيره حتى وصل إلى وادى تامطة ، وقد ظهر الإعياء على الناس ، وقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ثم وصل إلى وادى برج قُبالة فى طريق مدينة بلنسية ، وقد نفق كثير من الدواب ، وبرح الجوع بالناس ، ومات الكثير منهم . وفى اليوم التاسع من ذى الحجة عبر الموحدون الربوة العالية المسماة بعقبة الأبالس ، ووصلوا بعد جهد شاق إلى قنطرة « أغربالة »[1] وقد اشتد الإعياء بالناس من الضعف والجوع ، ونفق كثير من الخيل والبغال والجمال .

---

(١) وبالإسبانية Puente del Cabriel

وفى ظهر ذلك اليوم ، أمر الخليفة بإخراج البركة لسائر العساكر على قدر تميزهم ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وخص الراجل الكامل مثقالين ، وذلك ابتداء من حركة الغزو لسنة سابقة .

وفى صبيحة اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الأضحى ، أمر الخليفة بصلاة العيد فى ذلك الموضع ، وألقى خطبة العيد أبو زيد بن عبدون قاضى تلمسان ، وعقب الصلاة ، سلم الإخوة والأشياخ والأكابر على الخليفة ، ووزعت عليهم الأضاحى ، وعند الظهر استؤنف السير مدى خمسة عشر ميلا ، ونزل الموحدون بمرج القبذاق على مقربة من حصن ركّانة ، ووصلوا فى اليوم التالى إلى ركّانة ، وقد اشتدت المجاعة بين الناس . وينوه ابن صاحب الصلاة خلال وصفه المستفيض لتلك الرحلة المضنية ، فى غير موضع ، بما كان يعانيه الجيش المنسحب من نقص فى المؤن ، وغلاء شديد فى أسعار القمح والشعير والدقيق . وعند مغادرة ركّانة أخطأ الأدلاء الطريق ، وافترقت العساكر فى شعب الجبال ، واشتد بالناس الجوع والألم والضعف . وسار الخليفة إلى موضع يعرف « بمجمع الأودية » وهو الذى يلتقى فيه نهر شقر ونهر أغربالة (كبريل) ولحق به سائر الناس إلى هذا الموضع . ثم استؤنف السير فى اليوم التالى ، ونزل الخليفة قريباً من حصن بيتول ، وهو من حصون بلنسية الأمامية . وهنا صدر الأمر بتسريح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وسارت إلى بلنسية منهم جموع كبيرة[1] .

ووصلت إلى الخليفة فى هذا اليوم دفعة كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه بعث بها إليه والى بلنسية يوسف بن مردنيش . هذا بينما هرع الناس إلى حصن بنيول يطلبون القوت والعون . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان منهم ، أنهم لم يجدوا شيئاً سوى بعض التين الأخضر ، فقصدوا إلى بلنسية . ويصف ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة ، مدينة بلنسية وجمالها ونضرة رياضها ، بيد أنه يلاحظ أن الضعف كان بادياً عليها ، وأن الخوف من الفتنة كان يزداد . وقضى الخليفة فى محلته ثلاثة أيام بقرب حصن بنيول ، ثم غادره فى قواته فوصل إلى مدينة شاطبة فى السابع عشر من ذى الحجة ، وقضى بقصبتها يومين ، وانتهز أشياخ الموحدين هذه الفرصة ، فوعظوا أهل المدينة بالجامع عقب صلاة الجمعة ، وبشروهم بالخير فى ظل العهد الجديد .

---

(١) تراجع مواقع غزوة وبذة وارتداد الجيش الموحدى فى الخريطة المنشورة ص ٤٩ .

وغادر الخليفة بعد ذلك شاطبة ، ونزل بحصن بليانة[1] على مقربة منها ، ثم سار إلى حصن آصف ، ثم إلى ألش ، ووصل إلى أوريولة فى الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وغادرها فى اليوم التالى ، قاصداً إلى مرسية ، فنزل أولا بحصن أنوط[2] على مقربة منها ، ثم سار منه إلى المدينة ، فخرج أهل مرسية لاستقباله ، ودخل المدينة والأعلام تخفق والطبول تضرب ، ونزل بقصرها ، وقد احتشد أهل المدينة رجالا ونساء خاصتهم وعامتهم ، لتحية الخليفة ، والإعراب عن سرورهم بمقدمه ، وكان الخليفة قد طلب إلى هلال بن مردنيش أن يعد الدور اللازمة لنزول الموحدين ، فقام بتحقيق هذه الرغبة ، وأنزل أشياخ الموحدين أكرم منزل ، وقدم هلال إلى الخليفة ما وسع من الهدايا السنية ، وما كان لدى أبيه من الجوارى والسرارى البارعات فى الحسن ، فتقبل الخليفة هديته ، وأثابه عنها بالعطايا الجزيلة .

ولم تمض أيام قلائل حتى ضاقت مرسية ، بمن نزل فيها ، ووفد إليها ، من الموحدين وغيرهم ، وارتفعت الأسعار ، وعم الغلاء ، ورغب كثير من الموحدين والعسكر المرتزقة فى الرجوع إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ، وارتحل كثير منهم . ولما دخل شهر صفر سنة ٥٦٨ هـ ، صدر الأمر بخروج البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقة ، الذين اشتركوا فى هذه الغزوة ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وغيره أربعة مثاقيل ، وخص الراجل مثقالين ، وغيره مثقال ونصف ، وتسلم كل شيخ بركة قبيلته ، وافترق معظم الناس .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لينظم شئون مملكة الشرق القديمة ، فأمر بإصلاح معاقل مرسية ، وتحصيناتها ، وندب مختلف الولاة لجهاتها وحصونها ، وجمع هلال بن مردنيش وإخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف فى مجلسه ، وأبدى لهم منتهى العطف والرعاية ، وأنهم يكونون من جملة الموحدين والأهل ، وأمرهم بالنظر فى الارتحال معه ، وأقر أبا الحجاج يوسف بن مردنيش على ولاية بلنسية وأقطارها ، لما ثبت له من حسن إخلاصه وطاعته ، وكذلك أبقى ابن عيسى القائد على ما كان بيده من حصن جنجاله وأراضيه ، وأبقى غيره من قادة الحصون والثغور ممن ثبت إخلاصهم وصلاحهم .

وفى أول شهر ربيع الأول غادر الخليفة مرسية عائداً إلى إشبيلية ، وعرج

---

(١) هو بالإسبانية **Villena** .

(٢) هو بالإسبانية **Monetagudo** ، وقد بقيت أطلاله إلى اليوم .

فى طريقه على مدينة غرناطة ، وترك بها أخاه السيد أبا سعيد والياً لها ، ووصل إلى إشبيلية فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ (نوفمبر ١١٧٢م) . ومعه الإخوة وفى مقدمتهم السيد أبو حفص ، وخاصته من أشياخ الموحدين وأكابر الدولة ، فاستقبله أهل إشبيلية وعلى رأسهم الحافظ أبو بكر بن الجد ، استقبالا حافلا ، وقدم معه بنو مردنيش فى الأهل والولد ، وفقاً لما أمر ، فأنزلوا فى قصر ابن عباد ، والدور المتصلة به ، واشترى لهم الخليفة ما لزم لسكناهم وسكنى أتباعهم من الدور ، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من الجند الأندلسيين ، وأصحاب أبيه وأهل الثغور والأجناد بإشبيلية ، لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو وعيث البدو ، ونظم هلالا والكبار من إخوته فى جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، يحضرون مجلسه العالى ، ويشتركون فى مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى تقريباً لهم وتشريفاً وتأنيساً ، وكان غانم يخرج فى قواته مع الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، وقد ظهر فيما بعد بشجاعته وكفايته . وكان مثلا طيباً للغزاة من الأجناد والعرب .

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض مراحل هذه الغزوة الأندلسية الأولى للخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستوعبنا تفاصيلها ، وفقاً لرواية مؤرخها المرافق لها ، والتى سجلها منذ بدايتها إلى نهايتها ، يوماً بعد يوم ، نحاول أن نستخلص منها ما يمكن أن تدلى به من الحقائق والعبر .

وأول ما تكشف عنه حوادث هذه الغزوة التى لم يطل أمدها أكثر من شهرين ما تجلى تحت أسوار مدينة وبذة من عجز الجيوش الموحدية وتفككها . ويبدو هذا العجز فى أسطع صوره متى ذكرنا أن الجيش الموحدى الذى تصدى لحصار وبذة ، كان يضم على الأقل عشرين ألفاً من الفرسان النظامية ، منهم عشرة آلاف من الموحدين وعشرة آلاف من العرب ، الذين عبروا مع الخليفة الموحدى إلى الأندلس حسبما أسلفنا فى موضعه . وهذا غير المتطوعة وأجناد الأندلس ، وهؤلاء يمكن تقديرهم أيضاً بعدة آلاف . فكيف يعجز هذا الجيش الكبير عن اقتحام مدينة صغيرة غير ممتنعة مثل وبذة ، خصوصاً وقد كانت تضطلع بالدفاع عنها حامية محلية صغيرة من القشتاليين ؟ إن مثل هذا العجز المطبق يكشف أولا وقبل كل شىء عن عجز القيادة الموحدية ، ذلك أنه لم تكن بين أولئك الإخوة والأشياخ

الذين يلتفون حول الخليفة الموحدى، ويديرون دفة الغزوة، هيئة قيادة مقتدرة، بل لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصحيح، وكان مجلس القيادة يتخذ فى معظم الأحيان صورة اجتماع عائلى، تغلب فيه الآراء الفطيرة، والقرارات المرتجلة، وبدلا من أن نرى الخليفة يخرج من قبته ليقود جنده بنفسه، أو ليحثهم على التفانى فى القتال، نراه فى اللحظة الحرجة التى هزم فيها أهل الأندلس، وأجلوا عن مواقعهم، يجلس داخل قبته مع الطلبة الموحدين ليناقشهم فى بعض المسائل الفقهية. ويجدر بنا ونحن نتحدث فى هذا الموطن عن عجز القيادة الموحدية أن نعود قليلا إلى الوراء، لنذكر ماكانت عليه القيادة المرابطية فى شبه الجزيرة من المقدرة والكفاية، وماكان يمتاز به القادة المرابطون من البراعة والدربة العسكرية العالية، وهى التى مكنتهم من أن يحرزوا بجيوشهم القليلة العدد، انتصاراتهم الباهرة فى مواقع مثل إقليش وإفراغة.

هذا ومن جهة أخرى فقد كشفت غزوة وبذة، عما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك، وانعدام التناسق بين مختلف العناصر التى تتكون منها. وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحدى يحملون أكبر قسط من تبعة هذا التفكك، فقد رأيناهم يضنون بتعاونهم، ويحجمون عن القتال فى الساعات الحرجة، وكان هذا الإحجام من جانب العرب يشل حركة الجيش الموحدى، وينال من مقدرته وقواه المعنوية. أضف إلى ذلك ماكشفته هذه الحملة من سوء تنظيم تموين الجيش الموحدى، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات، وماكان يصيب الجند من جراء ذلك من الضيق والحرمان وانهيار القوى المعنوية[1].

— ٤ —

فى الوقت الذى نزل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بمرسية، ليستريح من وعثاء حملته المنكودة على وبذة، كانت تحدث فى الجانب الآخر من شبه الجزيرة فى غربى الأندلس، حوادث هامة، موسفة فى نفس الوقت. وكان ملك البرتغال مذ فتت فى عضده نكبته فى معركة بطليوس فى شعبان سنة ٥٦٤ (١١٦٩ م) قد لزم السكينة حيناً، وهو يرقب الحوادث والفرص، فلما غادرت الجيوش الموحدية قواعدها فى إشبيلية فى غزوتها إلى وبذة، شعر بأن الفرصة قد سنحت

(١) تستغرق يوميات ابن صاحب الصلاة عن غزوة وبذة من كتاب « المن بالإمامة » نحو ستة عشرة صفحة كبيرة من لوحة ١٧٣ أ إلى لوحة ١٨٩ ب .

للعمل ، وكان يطمح بعد فشله فى افتتاح بطليوس ، إلى الاستيلاء على مدينة باجة الحصينة ، أهم قواهد ولاية الغرب فى تلك المنطقة ، وكانت باجة ، مذ أقيل عن ولايتها سيدراى بن وزير ، وبسط الموحدون سيادتهم على قواعد ولاية الغرب ، قد أسندت ولايتها إلى بعض الحفاظ الموحدين ، فتولاها عمر بن تيمصلت التينملى مدى حين ، ولكنه لم يفلح فى تهدئة ما ثار بها من الفتن بين أعيانها وبين الدهماء ، فعزل عنها ، وولى عليها طالب بربرى من الحفاظ يسمى عمر بن سحنون ، وكان عاجزاً ، يغلب عليه الطيش ، فاتصل به الدهماء والسفلة ، فقربهم وأدناهم ، وأذكى بذلك حفيظة الخاصة ، واشتد التقاطع بين الناس ، واستوزر ابن سحنون أيضاً رجلا بلوياً من سفلة باجة ، فاضطهد الناس ، واجترأ على سفك الدماء ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، وضربهم بالسياط ، وعاونه فى طغيانه وعسفه قاضى البلدة عمر بن زرقاج ، وكان مغرضاً ظلوماً ، واستبد ابن سحنون بأمره ، وغلب رأى السفلة والفجار فى كل شىء ، وقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلما وعدواناً ، واشتدت الفتنة بالمدينة ، ووصلت أخبارها إلى إشبيلية .

كانت هذه حال مدينة باجة فى أواخر سنة ٥٦٧ هـ (صيف سنة ١١٧٢ م) حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يسير فى جيوشه إلى غزوة وبذة ، ولم تكن هذه الأحوال بخافية على النصارى ، وهم يحتلون يابرة وقصر أبى دانس القريبتين من باجة . وكان من الواضح أن مدينة هذه حالها لا يمكن أن تثبت أمام العدو المغير . ومن ثم فقد أعد ألفونسو هنريكيز عدته لافتتاح باجة ، وسار إليها ومعه قائده ومعاونه جيرالدو سمبافور فى قواته . وكان من سوء الطالع أن الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة ، وكان بعض هذه الأبراج دون سمار (حراس) يلازمونها بالليل ، لأن الوالى ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها ، وكان برج القصبة المسمى « برج الحمام » قد ترك على هذا النحو دون سامر . فى ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨ هـ (٢٣ أغسطس سنة ١١٧٢م) نفذ النصارى ضربتهم . وكانت ليلة مظلمة على النحو الذى كان يختاره جيرالدو سمبافور لإنزال ضرباته . فوصل النصارى إلى السور زحفاً على أيديهم وأرجلهم ، ووضعوا السلالم على برج القصبة دون أن يشعر بهم أحد من السُّمَّار ، ثم صاحوا صيحتهم المأثورة ، وما كاد الوالى عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من سباتهم حتى كان النصارى قد ملكوا برج القصبة ، ثم احتلوا القصبة فى الحال . وساد الذعر فى المدينة ،

وتدلى الوالى من السور وفر إلى ميرتلة ، وماكاد يسفر الصبح حتى احتل النصارى المدينة ، وأخذ الناس يفرون من أبوابها ، وهم يُقتلون ويأسرون من كل جانب ، وقتل وأسر جماعة من أعيانها ، واستولى النصارى على مقادير عظيمة من المال والمتاع .

ولكن النصارى لم تمكثوا طويلا بباجة . ذلك أن ملك البرتغال رأى من ضخامة المدينة ما يجعل الدفاع عنها مهمة شاقة ، ومن ثم فقد هدم أسوارها ، وأحرق ربوعها ، ثم غادرها بعد أن احتلها نحو خمسة أشهر ، وتركها قاعاً صفصفاً وذلك فى أول يناير سنة ١١٧٣ ، وقد أخذ معه كثيراً من أهلها الأسرى . وقد أنقذ معظم هؤلاء فيما بعد بالفداء ، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مراكش[١] .

ولم يتحرك الموحدون لسقوط باجة على هذا النحو ، وشغل الخليفة أبو يعقوب منذ وصوله إلى إشبيلية بالعمل على استكمال بناء المسجد الجامع ، وكذلك باستكمال بناء القصور والبساتين التى بدئ بإنشائها خارج باب جهور حسبما تقدم فى موضعه . وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقية . بيد أنه لم يمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى اضطر الموحدون إلى خوض غمار حرب جديدة جاءت تلك المرة من ناحية قشتالة .

ففى أوائل شهر شعبان سنة ٥٦٨ هـ (مارس ١١٧٣ م) خرجت من مدينة آبلة حملة قشتالية بقيادة حاكمها الكونت خمينو ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية بالقومس « سان منوس » وأحياناً بشانشوا وتصفه بالأحدب عظيم النصارى بآبلة — وقد كان بالفعل أحدباً — وتسميه أحياناً « بأبى بردعة » إذ كان لعاهته يركب على بردعة وثيرة من الحرير مسرجة بالذهب مرصعة بأصناف الجواهر[٢] . وكان الكونت خمينو قد قام قبل ذلك بعدة غارات مخربة فى ربوع الأندلس ، ووصل

---

(١) نقلنا هذه الرواية المفصلة عن غزو البرتغاليين لباجة عن ابن عذارى (البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٠ — ١٠٣) . وقد سبق أن أشرنا فى موضعه إلى الرواية الموجزة التى يقدمها إلينا ابن صاحب الصلاة عن ذلك الحادث وهو ينسب وقوعه إلى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر سنة ١١٦٢ م) أعنى إلى ما قبل التاريخ الذى يقدمه إلينا ابن عذارى بعشرة أعوام . (كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ ب) . ولم يذكر لنا صاحب البيان المغرب مصدره . ولكن يبدو من أسلوب روايته أنها ربما نقلت عن ابن صاحب الصلاة من السفر الثالث من كتابه وهو لم يصل إلينا . وفى هذه الحالة تكون رواية ابن صاحب الصلاة الأولى من قبيل اللبس والخلط .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٩٠ ب ، وروض القرطاس ص ١٣٩ والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٨ .

فى بعض غاراته إلى طريف والجزيرة الخضراء ، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيثه بلاء كثير . فخرج بقواته من آبلة واخترق قلب الأندلس جنوبا ، حتى عبر نهر الوادى الكبير ، من المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الحرف ، وانحدر إلى أحواز إستجة ، ثم اتجه صوب قرطبة ، وعاث فى واديها ، وخرب الزروع واستاق من الماشية نحو خمسين ألفاً ومن البقر نحو مائتين . وأسر من المسلمين نيفاً ومائة وخمسين رجلا ، ثم سار بغنائمه وأسراه غرباً صوب مخاضة بليارش على مقربة من بلدة القصر . وكان الخليفة فى تلك الأثناء قد أمر بالتأهب لمحاربة القشتاليين ، وقمع غاراتهم ، فخرج من إشبيلية فى الثالث عشر من شهر شعبان (٥٦٨ هـ) جيش موحدى بقيادة السيد أبى زكريا يحيى ابن الخليفة ، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل ، وعدة من الحفاظ والأشياخ وقوة مختارة من الفرسان والرجالة العرب بقيادة أشياخهم ، وعبر هذا الجيش الموحدى نهر الوادى الكبير على عجل ، وسار صوب قرطبة ، فوصلها فى السادس عشر من شعبان ، وكان القشتاليون قد وصلوا عندئذ إلى بلدة القصر . واجتمع أقطاب الموحدين بالشيخ أبى حفص عمر ، واستقر الرأى على مطاردة القشتاليين وقتالهم أينما كانوا ، ولو فى أراضى قشتالة ذاتها ، وانضم الشيخ أبو حفص بقواته إلى الجيش الموحدى ، واستعد بالميرة والعلوفات ، وخرج الموحدون فى أثر النصارى ، تتقدمهم قوة من الطلائع بقيادة الحافظ أبى عمران موسى بن حمّو الصنهاجى صاحب يابرة ، لتخبرهم تباعاً عن تحركات النصارى ، وكان القشتاليون قد توقفوا فى سهل متسع يعرف بفحص «كركوى» على مقربة من قلعة رباح . فأدرك الموحدون أنهم يريدون اللقاء فى هذا المكان ، فاستعدوا للمعركة فى عزم وثقة ، ولكنهم ما كادوا يقتربون من السهل ، حتى عجل النصارى بالمسير ، ولكنهم لما أيقنوا بأنه لامفر من القتال ، لجأوا إلى جبل وعر فى نهاية السهل . فاندفع الموحدون وراءهم إلى أعلى الجبل ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية . وكان الكونت خمينو ، يراقب المعركة من خيمته فى أعلى الجبل ، ويحث جنوده على التفانى فى القتال ، ولكن ما كاد ينتصف النهار ، حتى رجحت كفة الموحدين ، ومزقت صفوف القشتاليين ، وكثر القتل فيهم ، ووصل الموحدون إلى خيمة الكونت خمينو ، وقتلوه واحتزوا رأسه ، ولم يفلت من القتل من النصارى سوى نحو مائتين ، فروا فى مختلف الأنحاء . وفنى فى هذه المعركة معظم أهل آبلة ، واستولى المسلمون على عتاد

النصارى ، وأسلابهم وخيولهم ، واستنقذوا الأسرى المسلمين ، واستردوا سائر الغنائم والماشية والدواب ، وأعيدت بأمر الخليفة إلى أصحابها . وجمعت رؤوس النصارى ، وحملت إلى الشيخ أبى حفص وابنى الخليفة « ومېزت» رأس الكونت خمينو ، وأرسلت إلى الخليفة بإشبيلية ، عن يد يحيى ابن الوزير أبى العلاء بن جامع فوصل إليها فى ظرف يومين بعد رحلة مسرعة شاقة ، ووصف للخليفة تفاصيل الموقعة المظفرة ، وفى الحال قرعت الطبول إيذاناً بالنصر ، وأقبل الناس للتهنئة . وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، وهو ثالث يوم بعد الموقعة ، وصل الشيخ أبو حفص وصحبه إلى إشبيلية ، واجتمع بالخليفة وأخيه السيد أبى حفص ، بقصره بالقصبة ، واصطف الموحدون من الأشياخ والطلبة والفقهاء والكتاب والخطباء ، وأدخل المهنئون وفق مراتبهم . وخطب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولا باللغة البربرية ، ثم بالعربية ، وخطب من بعده الحافظ أبو بكر بن الجد ، فالقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، فالفقيه أبومحمد المالقى. ثم أنشد الشعراء تهانيهم ومدائحهم ، ووزعت عليهم الصلات ، وكان يوماً حافلا[1].

وشجع هذا النصر الذى تلا فشل حملة وبذة الموحدين على الاضطلاع بغارات جديدة فى أراضى النصارى . فجهزت حملة موحدية قوامها أربعة آلاف فارس ، وقوة من أجناد الأندلس والعرب ، بقيادة أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع ، ومعها مقادير عظيمة من الميرة والعتاد برسم مدينة بطليوس تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة ، وغادرت هذه الحملة إشبيلية ، إلى بطليوس ، وبعد أن سلمت أحمال الميرة إلى واليها أبى غالب بن أبى الحسن ، سارت نحو الشمال الشرقى حتى وصلت إلى أحواز مدينة طلبيرة ، الواقعة على نهر التاجُه غرب طليطلة ، فعاثت فى بسائطها ، وقتلت وأسرت كثيراً من النصارى ، واستولت على أكثر من ثلاثين ألفاً من الغنم والدواب ، وعادت سالمة إلى إشبيلية . ثم خرجت من بعدها حملة أخرى ، وسارت إلى أراضى طليطلة ، وعاثت فيها واستولت على كثير من الغنائم . وأدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدى قد تشتد ، وقد تتخذ صورة مزعجة ، فجنحوا إلى المسالمة ، وطلب المهادنة . وكان أول من سعى منهم إلى الصلح ، الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، ثم تلاه

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٩١ إلى ١٩٤ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٩ .

ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فبعث رسله إلى الخليفة ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو ملك قشتالة فبعث رسله فى طلب المهادنة والصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهرين ، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصارى ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ (يوليه سنة ١١٧٣ م) . وكان مما حمل الخليفة على إيثار الصلح والمهادنة رغبته فى التفرغ لأعمال الإنشاء ، وتعمير البلاد التى خربت أو أقفرت من جرّاء العدوان والغزو ، مثل باجة وغيرها[1].

وكان من أثر عقد المهادنة بين الخليفة وبين ملك البرتغال ، أن شعر حليفه وقائده السابق جيرالدو سمبافور أو جراندة الجليقى ، أنه فقد مكانته ، وأغلقت فى وجهه فرص المغامرة ، والعمل المثمر ضد الموحدين ، ولم يجد أمامه خيراً من الدخول فى خدمة الخليفة ، فسار فى صحبه ، وهم ثلاثمائة وخمسون جندياً ، إلى إشبيلية (سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٤ م) والتمس قبوله « عبداً وخديماً » للخليفة ، فقبل الخليفة التماسه ، ووصله بالإحسان والإكرام ، واستمر الأمر على ذلك بضعة أشهر ، ولكن ألفونسو هنريكيز ، الذى لم يرقه تصرف قائده السابق لبث يرسل إليه سراً ، أن يتحيل فى الارتداد والعود ، فضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جيرالدو المريب ، فقبض عليه وعلى أصحابه ، وأرسلوا إلى سجلماسة ، واعتقلوا هنالك تحت رقابة شديدة . ثم حاول جيرالدو الفرار من معتقله ليجوز إلى البحر ، فقبض عليه ، وقتل واحتز رأسه ، وانتهى بذلك وفى رواية أخرى أن جيرالدو لبث فى خدمة الخليفة حتى غادر الخليفة إشبيلية إلى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١ هـ (مارس ١١٧٦ م) ، فسار فى ركابه ، وعينه الخليفة للخدمة فى « السوس » وهنالك اتصل جيرالدو بالمكاتبة سراً بمليكه السابق ، وعرض عليه أن يجهز أسطولا لفتح هذه الناحية ، وبذلك تمتلك البرتغال بعض مراكز على ساحل المغرب ، فضبط الموحدون بعض هذه الرسائل[2] ، وأصدر الخليفة أوامره سراً إلى عامله بدرعة موسى بن عبد الصمد بأن يقسم جيرالدو

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٩٥ ا و ب . وهنا ينتهى السفر الثانى من كتاب المن بالإمامة ، وهو الذى وصل إلينا من مؤلف ابن صاحب الصلاة ، ولم يصلنا شىء من السفر الثالث الذى يبدأ بحوادث سنة ٥٦٩ هـ .

(٢) أخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٧ ، ويقول لنا البيذق إن مصرع جيرالدو كان فى سنة ٥٦٥ هـ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٣ . وراجع **H. Miranda : Imperio Almohade, T. I. p. 271**

وأصحابه على القبائل ، ثم بقتل جيرالدو لما ثبت من خيانته ، وبعث بجيرالدو إلى درعة فسار إليها مع أصحابه ، وهنالك نفذت فيهم أوامر الخليفة .

وكانت أهم الحوادث فى العامين التاليين ، قبيل عودة الخليفة إلى المغرب ، تتلخص فى اهتمام الخليفة بتعمير قواعد الغرب ، وفى تجدد الحرب مع ملك ليون .

وقد بدأ الخليفة أعمال التعمير ، بإصلاح حصن القلعة الواقع على مقربة من جنوب شرقى إشبيلية على النهر المتفرع من الوادى الكبير[1] ، وكان قديماً حصنها الشرقى ، وقد تهدم منذ أيام الفتنة الكبرى ، وبقى خراباً حتى ذلك الوقت ، فأمر الخليفة بإصلاحه وبنائه ليعود إلى الاضطلاع بمهمته الدفاعية القديمة ، وكان ذلك فى صفر سنة ٥٦٩ هـ .

وفى العام التالى كانت حركة تعمير مدينة باجة ، التى خربها وهدمها ألفونسو هنريكيز قبل إخلائها . ففى شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، استقبل الخليفة وفداً من أعيان أهل باجة السابقين ، ووعدهم بتعمير مدينتهم لكى يعودوا إلى سكناها ، ويسكنها معهم الموحدون ، وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير ، ثم سار أهل باجة إلى مدينتهم الخربة ، وكانوا يومئذ نحو مائتى شخص من مختلف الأعمار ، ونزلوا بقصبتها ، وبنوا بابها ، وأصلحوا ما تيسر من أطلالها . ثم لحق بهم عمر ابن تيمصلت والى شلب فى نحو خمسمائة رجل من الفعلة والبنائين ، ومعهم أقواتهم وأدواتهم ، وأخذوا فى بناء أسوارها فكملت فى نحو شهر ، وجاءت للعمل والبناء حشود أخرى ، واستمر العمل فى التعمير بهمة . وحدث خلال ذلك أن استبد والى باجة أبو بكر بن وزير وأساء السيرة ، ونشب بينه وبين أهلها خلاف شديد وفتنة ، فأمر الخليفة بعزله ، وتعيين عمر بن تيمصلت والياً مكانه ، فأحسن السيرة ، وأقبل الناس على البناء والتعمير ، وإنشاء الرباع والحدائق ، وراجت الأحوال ، وانتظم التعامل ، واستعادت باجة سابق عمرانها ورونقها[2] .

وفى أثناء ذلك كانت الحرب قد نشبت بين الموحدين وبين فرناندو الثانى ملك ليون المسمى «بالببوج» ، وكان فرناندو قد عقد الصلح والتحالف مع الخليفة الموحدى منذ سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، وعاونه الموحدون فى حربه ضد آل لارا زعماء قشتالة ، وأبدى هو ، حينما حاصر البرتغاليون مدينة بطليوس ، وكادوا يستولون

---

(١) وهو بالإسبانية **Alcalá de Guadaira** ويسمى كذلك قلعة جابر .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٧ .

عليها ، صدق ولائه ، فحارب إلى جانب الموحدين ، وعاون على صد البرتغاليين وهزيمتهم . وامتنع هو عن مهاجمة بطليوس مرة أخرى ، حينما نبهه الموحدون إلى الحلف المعقود ، وأبدى تمسكه بعهوده ، وهاداه الخليفة وأثنى عليه ، واستمر محافظاً على صداقته وولائه حتى أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وعندئذ ، ودون أية أسباب ظاهرة ، قام فجأة بغزو أراضي الأندلس وعاث فيها ، فاستشاط الخليفة غضباً ، وأمر بمهاجمته فى عقر داره ، فجهزت حملة كبيرة من الموحدين والعرب ، وخرجت من إشبيلية بقيادة السيد أبى حفص أخى الخليفة فى الثالث من صفر سنة ٥٧٠ (٣ سبتمبر ١١٧٤ م) ، وسارت تواً إلى مدينة ردريجو قاعدة ملك ليون ، وهى التى تسميها الرواية الإسلامية بمدينة « السبطاط »[١] ، ومعه الزعيم القشتالى فرناندو ردريجيس صهر ملك ليون حليف الموحدين القديم فى عصبه ، وهاجم الموحدون مدينة ردريجو ، فلم ينالوا منها مأرباً ، ولكنهم استولوا على حصنى القنطرة وناضوش من أماكن الحدود . ولما عاد السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، احتفل بهذا النصر الجزئى ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالعادة[٢] . ولزم فرناندو ملك ليون السكينة مدى حين . بيد أنها كانت هدنة قصيرة ، وكانت كما سنرى مقدمة لسلسلة من الغزوات الجديدة ، التى قام بها الملوك النصارى فى أراضى المسلمين .

* * *

وفى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالحسناء زائدة إبنة زعيم الشرق الراحل محمد بن سعد بن مردنيش ، وتم زفافها إليه فى اليوم الخامس من ربيع الأول فى مهرجان فخم . وكان صداقها الرسمى خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين « تأنيساً » . ولما وصلت إليه بإشبيلية مع أهلها وحشمها ، وهب لها كل ما كان أهداه إليه إخوتها عند فتح مرسية . وكان زواجاً موفقاً ، حظيت فيه العروس الأندلسية ، واستأثرت بحب الخليفة وإعجابه ، حتى كان يضرب المثل بهذا الحب للحسناء ذات العينين الزرقاوين . وحظى قومها آل مردنيش لدى الخليفة ، وأحرزوا فى كنفه رفيع

---

(١) سبق أن أوضحنا أن مدينة السبطاط ، هى تحريف لكلمة **cibdad** القشتالية ومعناها المدينة .
(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٤ .

المناصب والرتب ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه . وكان من غرائب القدر أن يحظى عقب الثائر الذى شغل الموحدين ودوخ جيوشهم زهاء ربع قرن ، على هذا النحو فى بلاط عدوه القديم المتغلب عليه[1] .

وكانت إقامة الخليفة بالأندلس تدنو عندئذ من نهايتها ، وقد استطالت هذه الإقامة زهاء خمسة أعوام ، منذ مقدم الخليفة فى رمضان سنة ٥٦٦هـ . ولم تدون الرواية فى الأشهر الأخيرة من إقامته شيئاً من الحوادث ، سوى ما أمر به من نكبة محمد بن عيسى المشرف على إشبيلية وذلك فى شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧١هـ ، وكانت قد لحقت به ريب كثيرة من تبديد الأموال واختلاسها ، فقبض عليه ، وتولى بلول بن جلداس محاسبته ، واستصفاء أمواله ، ثم عذب وضرب حتى مات ، وألقيت جثته فى الوادى الكبير .

ولم يمض على ذلك سوى أسبوعين أو ثلاثة ، حتى اتخذت الأهبة لسفر الخليفة ، وذلك بعد أن عقد لأخيه أبى على الحسين على ولاية إشبيلية ، ولأخيه أبى الحسن على ، على ولاية قرطبة . وغادر أبو يعقوب إشبيلية فى ركبه فى يوم الخميس الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ (٢٨ فبراير سنة ١١٧٦ م) ومعه الخواص والأشياخ والعمال والكتاب ، ومن زعماء الأندلس بنو مردنيش ، وإبراهيم بن همشك وغيرهم . وكان خروجه من مرسى طلياطة على نهر الوادى الكبير ، فجاز النهر ثم البحر إلى طنجة ، وأقام بها أياما ، ثم غادرها إلى مراكش ، فوصلها فى منتصف شهر رمضان من نفس العام (٢٨ مارس سنة ١١٧٦م) .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٠٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ . وكذلك : **A. P. Ibars : Valencia Arabe, T.I. p. 652**

الفصل الرابع

أحداث الأندلس والمغرب

عصف الوباء بالمغرب والأندلس . ثورة عشائر صنهاجة وإخمادها . غزو النصارى لمدينة قونقه وحصارها . غزو الموحدين لأراضى طليطلة وطلبيرة . استمرار النصارى فى حصار قونقه . سقوطها فى أيديهم . غزو ملك ليون لفحص إشبيلية . إغارة البرتغاليين على باجة وطريانة . خروج جند باجة للغزو وهزيمتهم . فرار أهل باجة وإخلاؤها . رواية أخرى عن غزوة البرتغاليين . نكبة الخليفة لبنى جامع وغيرهم . وفاة بعض السادة والأعلام . غزو السفن الموحدية لثغر أشبونة ، ورد السفن البرتغالية . غزوة ثانية للسفن الموحدية . نفاذ الموحدين إلى الداخل وهزيمتهم . معركة بحرية بين الموحدين والبرتغاليين . هزيمة البرتغاليين ومقتل قائدهم . غزو الموحدين لأراضى يابرة . غزو البرتغاليين لأراضى إشبيلية . غزوهم للشرف ومدينة شلوقه ، وحصن القصر . غزو القشتاليين لأراضى قرطبة . توغلهم فى وادى إشبيلية وجنوبى الأندلس . استيلاؤهم على حصن شنتفيلة . غزو الموحدين لحصن شنتفيلة وحصاره . صموده وإقلاعهم عنه . إخلاء النصارى له . غزو الموحدين لأحواز طلبيرة . اشتباكهم مع القشتاليين . هزيمة القشتاليين وفرارهم . القائد ابن وانودين والخليفة . وفاة السيد أبى حفص . ثورة بنى الرند بقفصة . مسير الخليفة لقمع الثورة . تواطؤ ابن المنتصر مع بنى الرند ونكبته . محاصرة قفصة وضربها . تسليم ابن الرند . حث الخليفة العرب على الجهاد . استجابة العرب لدعوته . سياسة الموحدين فى اصطناع العرب . دأبهم فى التقلب وعدم الولاء . عقد الصلح بين ملك صقلية والخليفة . رسالة الفتح . عود الخليفة إلى مراكش . مسير الخليفة إلى تينملل . زيارته لقبر المهدى وقبر أبيه . قصيدة فى مناقب المهدى وصحة دعوته . توسيع مدينة مراكش . ثورة عرب سليم وهزيمتهم للسيد أبى الحسين وأسره . حوادث أخرى .

لم تمض أسابيع قلائل على استقرار الخليفة أبى يعقوب بمراكش ، حتى ظهر الوباء بالمدينة فى أول شهر ذى القعدة (سنة ٥٧١ هـ) واشتد حتى بلغت ضحاياه كل يوم نحو مائتى شخص ، ولما ضاق الجامع بالصلاة على الموتى ، أمر الخليفة أن يُصلى عليهم بسائر المساجد . وأصيب معظم السادات بالوباء ، ومات منهم أربعة من إخوة الخليفة هم السيد أبو عمران ، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، فأخوهما السيد أبو عبد الله ، ثم أخوهم السيد أبو زكريا والى بجاية . ومات من أشياخ الموحدين أبو سعيد بن الحسن ، وكان الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى قادماً من قرطبة قاصداً إلى مراكش ، فأصيب بالوباء وتوفى بالطريق ، ودفن برباط الفتح ، وفقدت الدولة الموحدية بوفاته ركناً من أهم أركانها ، وبناء من أعظم بناتها ، وقائداً من

أعظم قوادها . ومرض الخليفة ، وأخوه السيد أبو حفص، وأشرفا على الهلاك ، ولكن تداركتهما العناية حتى شفيا . ويروى ابن صاحب الصلاة عن السيد أبى على الحسن ولد الخليفة ، أنه كان يموت كل يوم فى القصور الملكية ثلاثون شخصاً حتى فنى معظم رجال الحاشية والخدم والعبيد . واستمر هذا الوباء مدى عام ، وساد الروع حاضرة مراكش ، حتى أنه لم يكن يدخلها أويخرج منها أحد، وكان كل من خرج منها فارا ، أدركه الوباء فى الطريق . ولم يكن عصف الوباء قاصراً على أهل المغرب ، بل تعدى أثره إلى الأندلس، ولكن فيما يبدو بصورة مخففة . وكان من أعيان المتوفين به بالمغرب والأندلس غير من تقدم ذكرهم ، القاضى أبو يوسف حجاج بن يوسف قاضى مراكش ، وكان من أعلام عصره زهداً وعدلا وأدباً ، والكاتب أبو الحكم بن هرودس المالقى ، وأخوه أبو الحسن وكان من جلة الطلبة ، والكاتب أبو الحسن على بن زيد الإشبيلى ، ومشرف غرناطة أبو عمرو بن أفلح ، وجملة كبيرة من أعيان الطلبة والموحدين فى مختلف القواعد(١) .

وماكادت تنقشع غمة الوباء حتى وقعت ثورة محلية بين عشائر صنهاجة القبلية ، وذلك فى أواخر سنة ٥٧٢ هـ (أوائل ١١٧٧ م) ، فخرج الخليفة إلى غزوها فى الرابع من شهر ذى القعدة ، وترك أخاه السيد أبا حفص بمراكش والياً عليها ، فلما وصل إلى رباط هسكورة فى منطقة الأطلس ، جنوب شرقى مراكش ، أمر ببناء محلة للعسكر ، وقدم عليهم ابنه السيد أبا يوسف يعقوب ، وعاد إلى مراكش فى الحادى والعشرين من ذى القعدة ، ولم تلبث العشائر الثائرة أن أذعنت وعادت إلى الطاعة ، وانصرف جميع الأجناد(٢) .

وفى تلك الآونة بدأت حوادث الأندلس تتخذ وجهة خطيرة سواء فى الشرق أو الغرب . وكان التهادن والصلح قد عقد بين الخليفة وبين الكونت نونيو دى لارا صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، فى سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣م) أثناء إقامته بإشبيلية . ولكن الخليفة ماكاد يغادر شبه الجزيرة عائداً إلى المغرب فى شعبان سنة ٥٧١ هـ ، حتى عول النصارى على نقض الهدنة، واستئناف الغزو . ففى العام التالى ، أعنى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) وهى السنة التى عصف فيها الوباء بمراكش ، خرج ألفونسو الثامن

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٩ و ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٠ .

ملك قشتالة ، ووصيه السابق الكونت نونيو دى لارا ، لغزو الأراضى الإسلامية ، واتجها بقواتهما صوب مدينة قونقة (كونكة) وهى تقع فوق ربوة عالية صعبة المنال عند ملتقى نهرى شقر ووقر ، فى شمال شرقى الأندلس ، وهى من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعة ، وضربا حولها الحصار (يناير سنة ١١٧٧ م) . ويقول ماريانا ، إن قونقة كانت من المدن التى أنشأها المسلمون فى تلك المنطقة ، لأنه لم يرد ذكرها فى سير الرومان والقوط ، وان ملك أراجون كان مشتركاً فى تلك الحملة ، وقد تحالف مع ملك قشتالة على محاربة المسلمين ، كما اشترك فى الحملة إلى جانب الملكين عدد كبير من القادة ومشاهير الفرسان مثل بيدرو أسقف برغش ، وسانشو صاحب آبلة ، وريموندو صاحب بلازنسيا ، وغيرهم[1]. فبعث أهل قونقة إلى الخليفة بمراكش فى طلب الغوث والنجدة ، فبعث الخليفة إلى ولديه السيد أبى على الحسين والى إشبيلية ، والسيد أبى الحسن على والى قرطبة ، بأن يتحركا لغزو جهات طليطلة وطلبيرة ، وذلك حتى يرغم القشتاليون على رفع الحصار عن قونقه . فخرج السيد أبو الحسن فى عسكر قرطبة فى اليوم السادس من شوال (أبريل ١١٧٧) ، وأغار على أراضى طليطلة وأثخن فيها ، وارتد بغنائمه سالماً إلى قرطبة. وخرج السيد أبو على الحسين بعسكر إشبيلية فى أربعة آلاف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، وسار شمالا صوب طلبيرة ، وعاث فى أحوازها ، واستولى على كثير من السبى والغنائم ، وعبر نهر تاجُه فى قارب كان قد حمله معه من إشبيلية على أكتاف الرجال ، وفاء لنذر نذره .

على أن هذه الحركة التى نظمها الموحدون لغزو أراضى قشتالة ، لم تؤت ثمرتها فى إنجاد قونقة ، فقد لبث القشتاليون على حصارها ، ولم تصدهم قسوة الشتاء ، ولامناعة المدينة المحصورة ، ولاضخامة حاميتها ، عن المضى فى إرهاقها والتضييق عليها . والظاهر من أقوال الرواية النصرانية أن الموحدين قد أرسلوا صوب قونقة بعض أمداد مباشرة لإنجادها ، لكن هذه الأمداد عاقتها عن الوصول إلى المدينة المحصورة ، قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة . وطال حصار قونقة زهاء تسعة أشهر من أواخر يناير سنة ١١٧٧ حتى أواخر سبتمبر ، وفى النهاية اضطرت المدينة المسلمة ، بعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع ، وبعد أن برّح بها الجوع والحرمان إلى التسليم إلى ملك قشتالة ، وذلك فى اليوم

(١) Mariana : Historia General de Espana; Lib. Undecimo, Cap. XIV.

الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٧ م . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، جرياً على القاعدة المأثورة ، ثم جعلت قونقة بعد ذلك مركزاً لأسقفية . وكان سقوط قونقة ثغرة خطيرة فى خط الدفاع الشمالى الشرقى الأندلسى ، وكان تقصير الموحدين أوقصورهم فى إنجادها وإنقاذها ، ينطوى على خطأ عسكرى خطير ، يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدى عن شبه الجزيرة الأندلسية(١) .

وانتهز فرناندو الثانى ملك ليون (الببوج) نفس الفرصة فى الإغارة على الأراضى الإسلامية ، فخرج فى نفس العام بقواته ، وغزا فحص إشبيلية ، ووصل فى سيره حتى أحواز مدينتى أركش وشريش جنوبى إشبيلية . فخرج إليه الموحدون من إشبيلية ، فلحقوا بقوة من النصارى من أهالى منطقة طلبيرة ، وكانت قد خرجت فيما يبدو للانتقام مما أنزله الموحدون بأراضيهم ، فأحدق بها الموحدون وأبادوها ، واستنقذوا ماكان معها من الغنائم والماشية ، وأسروا منها ثمانين ، أخذوا إلى إشبيلية ، وهنالك ضربت أعناقهم أمام الخليفة والأشياخ(٢) .

ووقع فى غربى الأندلس عدوان مماثل ، وحذا ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال حذو زميليه ملكى قشتاله وليون، وقد اعتزم مثلهما أن ينقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة الموحدى . وكانت مدينة باجة هدفه مرة أخرى ، وخصوصاً بعد أن عمرت واستردت رونقها ورخاءها . فسار إليها فى سنة ٥٧٣ﻫ (١١٧٧م)، وانتسف زروعها، ونازلها أياما حتى كاد أن يتغلب عليها . ثم تركها وسار بقواته، نحو الجنوب الشرقى قاصداً وادى إشبيلية ، ووصل فى زحفه إلى ضاحيتها الغربية طريانة ، فدخلها وأثخن فيها ، وعاث فى أحواز إشبيلية ، ثم عاد إلى باجة مرة أخرى فوجدها خراباً وقد أقفرت من أهلها . وكان أهل باجة فى تلك الأثناء قد أصابتهم محنة أخرى ، اضطرتهم إلى الفرار من مدينتهم . وذلك أن واليها عمر بن تيمصلت خرج منها بجندها وفرسانها ، وانضم إليه على بن وزير حاكم حصن شربة فى قواته ، وأغار على فحص أبى دانس ، ونشب القتال بينهم وبين النصارى . وفى أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى شنترين فجأة ، وانضموا

---

(١) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ١١٠ و ١١١ . وراجع أيضاً :
M. Lafuente : Historia General de Espana T. III p. 326 & 327

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١١١ .

إلى إخوانهم فى مقاتلة الموحدين ، فانهزم ابن تيمصلت وزميله ابن وزير وأسرا مع جملة من الفرسان والرجالة ، وقتل الباقون ، ووصل الخبر إلى أهل باجة فبادروا بالفرار من مدينتهم فى الأهل والولد ، وقصدوا إلى مدينة ميرتلة ، وذلك فى شهر المحرم سنة ٥٧٤ (يوليه ١١٧٨ م) وحُمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى قلمرية ، وعذب ابن تيمصلت ثم أعدم ، وافتُدى ابن وزير بأربعة آلاف دينار[١] .

وتقدم إلينا الرواية البرتغالية قصة هذه الغزوة فى صورة أخرى ، فتقول إن الذى قام بغزو وادى إشبيلية هو سانشو ولد ألفونسو هنريكيز وولى عهده ، وذلك فى سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأنه بعد أن هزم الموحدين فى ظاهر طريانة ، سار لغزو مدينة لَبلة ، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة ، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت المهاجمين ، ثم لحق بها بباقى قواته ، وهزم الموحدين مرة أخرى ، وبقيت باجة فى حوزة البرتغاليين[٢] .

وعلى أثر هذه الأحداث المتوالية ، استدعى الخليفة أبو يعقوب أخويه السيدين أبا على الحسين والى إشبيلية ، وأبا الحسن على والى قرطبة إلى حضرة مراكش ، فغادرا إشبيلية فى اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٥٧٣ هـ (٢٧ فبراير ١١٧٨م) ، ومعهما أبو على بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين بإشبيلية ، فلما وصلا إلى الحضرة بحث معهما الخليفة طويلا فى شئون الأندلس ، وفيما يجب عمله لمحاربة النصارى ، والدفاع عن أراضى المسلمين . ثم أمرا بالانصراف إلى شبه الجزيرة ، فوصلا إليها فى المحرم سنة ٥٧٤ هـ (يونيه ١١٧٨ م) .

وفى نفس هذا العام ، أعنى سنة ٥٧٣ هـ ، قام الخليفة أبو يعقوب بحركة تطهير شاملة بين وزرائه وعماله ، فنكب وزيره أبا العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع وبنيه ، فقبض عليهم ، واستصفى أموالهم ، ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس ، فأقاموا بها فى فقر وضعة نحو ستة أعوام ، حتى توفى الخليفة أبو يعقوب ، فعفا عنهم ولده الخليفة أبو يوسف . وكان بنو جامع يتولون وزارة الخليفة الموحدى ، منذ بداية حكمه ، أى منذ خمسة عشر عاماً ، وعميدهم إدريس ابن جامع ، هو ولد إبراهيم بن جامع من أصحاب أهل الدار ، أعنى من قرابة

---

(١) البيان المغرب ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) H. Miranda : Imperio Almohde, T. I. p. 277 & 278

المهدى ابن تومرت ، فلما سما شأنهم ، وتمكن سلطانهم ، طغوا كالعادة وبغوا ، فنكبهم أبو يعقوب لينتخلص من نيرهم . ونكب الخليفة عدة آخرين من العمال ، وأعدم بعضهم ، وكان من هؤلاء أبو عبد الله بن المعلم مشرف إشبيلية ، وابن فاخر مشرف مجلماسة ، وأبو الحسن على بن حنون ، وغيرهم(١) .

وفى سنة ٥٧٤ هـ ، بعث الخليفة ابنى السيد أبى الحسن والى قرطبة ، إلى الأندلس ، فولى أبو زيد نظر غرناطة ، وولى أبو محمد عبد الله نظر مالقة . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفى أخو الخليفة السيد أبوعلى الحسن والى إشبيلية ، ثم أخوه السيد أبو العباس بن عبد المؤمن ، وكان والياً لمدينة مجلماسة . وتوفى من أعلام الدولة الموحدية اثنان كانا من أركان حكومة الخليفة أبى يعقوب ومجلسه ، وهما أبو على بن عزون عميد زعماء الأندلس ، والفقيه أبومحمد المالقى شيخ طلبة الحضر بمراكش ، وكان من أقطاب الفقه والحديث والأدب ، وحظى لدى الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبى يعقوب ، وعلت مكانته فى الدولة الموحدية . وكان يتولى رفع المسائل للخليفة ، وتوصيل الرسائل الواردة ، وقراءة كتب الفتح ، ويتقدم للخطابة والصلاة بأمير المؤمنين ، ويرفع إليه أشعار الشعراء فى المناسبات المختلفة ، ويلازم ركب الخليفة فى الحركة والغزو ، وكان له أدب بارع ، وشعر جيد ولاسيما فى الزهد(٢) .

— ١ —

وفى العام التالى أعنى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتد عدوان البرتغاليين فى البر والبحر . وكان ألفونسو هنريكيز قد نقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة ، وقام البرتغاليون بغزو وادى إشبيلية ، ثم مدينة باجة ، حسبما قدمنا ، ثم تفاقم عدوانهم تباعاً ، فعندئذ قرر الخليفة أن يقوم الموحدون بمجهود لرد هذا العدوان ، فبعث أسطوله المرابط بسبتة تحت إمرة غانم بن مردنيش لغزو شواطئ البرتغال ، فسار غانم صوب أشبونة ، وهاجم ثغرها ، واستولى على سفينتين من سفن البرتغاليين ، وعاد بأسطوله إلى سبتة . فعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب وهاجمت شواطئ ولاية الغرب الجنوبية ، واستولت على جزيرة شلطيش ، الواقعة قبالة

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ ا .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

ولبة فى مصب نهر أوديل ، وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين فبقوا فى الأسر حتى افتداهم الخليفة أبو يعقوب[١] .

ورأى الخليفة أن ينتقم لهذا الاعتداء، وأمر لانشغاله بغزوة قفصة التى نتحدث عنها بعد ، بأن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى ، فخرج غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء ، فى حملة بحرية ، سارت إلى مياه البرتغال الشمالية ، ورست عند سان مارتن دى بورتوشمالى أشبونه ، ونفذ المسلمون إلى الداخل، وحاولوا مهاجمة « بورتو دى موس » . التى تقع على مقربة من الشاطئ ، ولكن حاكمها البرتغالى الأميرال روبينو استنفر لمعاونته أهالى مدينة شنترين ، وألكانينا التى تقع فى شمالها ، فهرعوا لإنجاده ، ودبر البرتغاليون كميناً للمسلمين فى جبال منديجا ، وانقضوا عليهم ، فمزقت صفوفهم ، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء ، وجملة من أكابر الموحدين ، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم ، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها ، وساروا بها إلى أشبونة . ووقعت هذه الموقعة فى منتصف شهر المحرم سنة ٥٧٦ هـ (١١ يونيه سنة ١١٨٠م) . وكتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة يلتمس الغوث ، فعهد الخليفة إلى أخيه هلال ابن مردنيش بالنظر فى فداء أخيه ، فجمع المال اللازم لذلك ، وبعث به إلى إشبيلية ، فحمل إلى النصارى ، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه[٢] ؛ ولكن سنرى أن ابن عذارى ، وهو صاحب هذه الرواية ، يقدم لنا رواية أخرى عن افتداء غانم وأصحابه .

وحاول البرتغاليون أن يُتبعوا نصرهم ، بنصر أكبر ، فحشدوا أسطولا ضخماً سار بحذاء شاطئ ولاية الغرب بقيادة الأميرال روبينو ، وكان مقصد البرتغاليين أن يقوموا بضربة لميناء سبتة مركز الأسطول الموحدى . ولكن قائد أسطول سبتة عبد الله بن جامع ، وهو الذى تولى قيادته منذ أسر غانم ، خرج منها بأسطوله ، وخرج فى نفس الوقت أسطول إشبيلية بقيادة أبى العباس الصقلى ، واجتمعت الأساطيل الموحدية بثغر قادس ، ثم سارت منه مجتمعة صوب شاطئ البرتغال الجنوبى ، ثم انعطفت لتسير شمالا بحذاء شاطئ ولاية الغرب ، وكان الأسطول البرتغالى قد بدأ عندئذ سيره نحو الجنوب، فالتقى الفريقان قبالة رأس إسبكل

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٣ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٦ .

جنوبى أشبونة ، وكان من غرائب القدر أن وقع هذا اللقاء فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧ هـ (أواخر مايوسنة ١١٨١) أعنى لعام بالضبط من اليوم الذى وقعت فيه موقعة « بورتودى موس » وعلى مقربة من المكان رسا فيه الأسطول الموحدى بقيادة غانم بن مردنيش ، فنشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة هزم فيها البرتغاليون شر هزيمة ، وقتل قائدهم الأميرال روبينو ، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم ، وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير ، وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح ، وكان نصراً موحدياً باهراً . وبادر القائدان الظافران ابن جامع والصقلى ، فسارا إلى الحضرة فى الأسرى ، والغنائم وقدماها إلى أمير المؤمنين ، فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم بن مردنيش وأصحابه ، وأمر بإعدام الباقين[1] .

وقام القشتاليون فى نفس الوقت ببعض الغارات فى أراضى الأندلس من ناحية طليطلة ، وأثخنوا فيها كالعادة تخريباً وسبياً ، بيد أن المعركة الرئيسية ،كانت تضطرم بين الموحدين والبرتغاليين . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى وقعت فيه المعارك البحرية السالفة الذكر بين الفريقين ، كان الموحدون يغزون أراضى البرتغال الداخلية ، ففى فاتحة سنة ٥٧٧هـ ، خرجت من إشبيلية ، حملة موحدية قوية بقيادة أبى عبد الله محمد بن وانودين الهنتاتى ، وسارت نحو الشمال الغربى صوب مدينة يابرة وعاثوا فى أحوازها ، وانتسفوا الزروع والكروم والثمار والأشجار ، واستاقوا كثيراً من الماشية ، وامتنع البرتغاليون داخل المدينة ، والمسلمون يثخنون فى كل ناحية من نواحيها . وفى ذات يوم خرج البرتغاليون من يابرة فجأة ، واشتبكوا مع الموحدين فى معركة حامية ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، ولجأ الباقون إلى المدينة . فأقام عليها ابن وانودين يومين ثم انصرف عنها ، وهاجم فى طريق عودته حصناً آخر للنصارى واستولى عليه ، وسبى رجاله ونساءه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، مثقلا بالغنائم والأسرى ، وذلك فى أواخر شهر محرم سنة ٥٧٧هـ (يونيه سنة ١١٨١ م)[2] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى خرجت حملة برتغالية ، من أهل شنترين ، وعبرت نهر وادى يانه ، وسارت حتى فحص الشّرْف من أحواز إشبيلية ، فخرج

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ و١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ .

إليهم عسكر إشبيلية ، ونشب بينهما قتال عنيف قتل فيه من النصارى مائة وسبعون ، ولكن البرتغاليين كانوا قد رتبوا كميناً ، فخرج كمينهم واشترك فى المعركة ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وأغار القشتاليون فى نفس الوقت على مدينة إستجة وعلى أراضى قرطبة . ثم انصرفوا دون قتال ولا مقاومة ، وأحيط الخليفة بمراكش علما بما حدث[1] .

وفى العام التالى ، أعنى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) تفاقم عدوان البرتغاليين على أراضى الأندلس . فخرجت حملة برتغالية قوية قوامها فرسان شنترين ، وأشبونة ، وعبرت نهر وادى يانه ، واجتاحت الشرف جنوبى إشبيلية ، حتى وصلت إلى مدينة شلوقة[2] ، على مصب الوادى الكبير ، فنازلتها فى ألف فارس وألف راجل ، واقتحمتها ، وقتلت من كان بها من المسلمين ، واحتوت على كثير من الأسرى والغنائم ، ثم استولت على حصن القصر[3] وغيره من حصون تلك الناحية ، وعادت من طريق لبلة ، دون أن يقف فى سبيلها أحد . وتفاقم فى نفس الوقت عدوان القشتاليين ، فخرج ألفونسو الثامن أو أذفنش الصغير كما تسميه الرواية الإسلامية فى قواته ، وسار أولا صوب قرطبة ، وعسكر فى ظاهرها ، وذلك فى الرابع من شهر صفر ، ثم بعث طوائف من قواته سارت نحو مالقة ، ورندة ، وغرناطة ، فساد الاضطراب فى تلك القواعد الأندلسية ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . واجتمع مجهود الموحدين الدفاعى حول إشبيلية ، والتحوط لحمايتها ، فوجه قائدها أبو عبد الله بن وانودين قواته إلى الأنحاء المجاورة ، وتعزيزها ، ووجه بعض عسكره إلى دفع القشتاليين عن فحص قرمونة ، كل ذلك والقشتاليون يثخنون فى الأراضى الواقعة بين قرطبة وإشبيلية ، دون أن يردهم أحد ، ثم سار ألفونسو الثامن إلى منازلة مدينة إستجة ، وكاد يتغلب عليها ، ولكن واليها أبا محمد بن طاع الله الكومى استطاع أن يصمد فيها . فغادرها ألفونسو صوب إشبيلية ، وهو يعيث فى تلك المنطقة فساداً وتدميراً . وفى خلال ذلك تغلب القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب على بعض حصون رندة ، وأسروا فيه ألفاً وأربعمائة من المسلمين ، وانتسفوا الزروع

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) وهى بالإسبانية سان لوكار Sanlucar la Mayor

(٣) وهو بالإسبانية Aznalcázar

فى أراضى رندة والجزيرة ، واستولوا على مقادير عظيمة من الغنائم من الماشية وغيرها .

وكان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة[1] أخطر ما حققه القشتاليون فى تلك الغزوة . وكان من أمنع حصون المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، يقع فوق ربوة عالية وله أسوار منيعة ، فاستولى عليه القشتاليون فى السابع عشر من صفر (٢٢ يونيه ١١٨٢ م) وأسروا من كان به من المسلمين ، وعددهم سبعمائة بين رجال ونساء، فافتداهم أهل إشبيلية بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين ديناراً ، جمعت من الناس بالمسجد الجامع . وعنى ألفونسو الثامن بتقوية الحصن ، ومضاعفة أهباته الدفاعية ، ووضع به حامية من خمسمائة فارس وألف راجل ، وأسكنه بالنصارى وشحنه بالأقوات والعدد والسلاح ، ويروى أنه قال ، حين الاستيلاء على هذا الحصن : « الآن آخذ قرطبة وإشبيلية» . وأقلع ملك قشتالة بعد ذلك فى قواته عائداً إلى بلاده ، وذلك فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨ھ (١٧ يوليه ١١٨٢ م) بعد أن قضى فى غزوته خمسة وأربعين يوماً[2] .

وأدرك الموحدون خطورة فقد حصن شنتفيلة ، فقرروا العمل على استرداده . واستدعى السيد أبو إسحق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، الحشود من سائر أنحاء الأندلس برسم الجهاد ، وخرج فى قواته فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٧٨ ھ . وحدث فى نفس الوقت أن خرجت حامية شنتفيلة النصرانية لتغير على بعض الأنحاء المجاورة ، فخرج إليها المسلمون من قرمونة وغيرها ، وقاتلوها وهزموها ، وقتلوا منها سبعين فارساً ، وأسروا جملة أخرى ، واستاقوا الأسرى إلى السيد أبى إسحاق فأمر بإعدامهم فى الطريق . وشجع هذا النصر المحلى ، الموحدين على منازلة حصن شنتفيلة ، فطوقوه من كل ناحية ، وأحكموا حصاره ، وقطعوا عنه المؤن والعلوفات ، واستمر الحصار ستة وأربعين يوماً حتى مات أكثر الجند والدواب ، وفى خلال ذلك خرج ألفونسو الثامن فى قواته من طليطلة قاصداً إنجاد الحصن المحصور ، ووصل نبأ مقدمه إلى الموحدين فى السادس من جمادى الأولى ، فرفعوا الحصار ، وانصرفوا عائدين إلى إشبيلية . وعلى أثر ذلك وصل ألفونسو الثامن إلى الحصن فلم يجد به سوى خمسين فارساً ، هم البقية من حاميته الخمسمائة ، ومن

---

(١) وهو بالإسبانية **Santafila**

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٩

الرجالة ستمائة من ألف ، وقد هلك الباقون من أثر الحصار والمرض والوباء ، فأمر بإخلاء الحصن ، والرحيل عنه وذلك فى الخامس عشر من جمادى الثانية (١٦ سبتمبر سنة ١١٨٢ م)[١] .

وما كادت تنتهى غزوة شنتقيلة ، حتى قرر الموحدون استئناف الغزو ، واهتم أبوعبد الله بن وانودين بحشد الجند ، فاجتمع منهم بإشبيلية عدد جم ، وفى الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ (٩ سبتمبر ١١٨٢ م) ، غادر إشبيلية فى عسكره ومعه أشياخ الموحدين وأشياخ الأندلس ، وسلك طريقاً منعرجة حتى وصل إلى حصن بتة ، وهنالك ميز عسكره ، وعقد الأشياخ مجلساً للشورى ، تقرر فيه السير إلى غزو مدينة طلبيرة الواقعة غربى طليطلة على نهر التاجُه ، وهى أولى مدن الحدود القشتالية . ومن ثم فقد اتجه الجيش الموحدى نحو الشمال ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم نهر وادى يانه ، وكان الجو قاتماً ملبداً بالضباب ، فسار حتى أضحى على مقربة من طلبيرة دون أن يفطن النصارى إلى مقدمه ، وهنالك التقى الموحدون بسرية من النصارى فى نحو عشرين فارساً ، فأحدقوا بهم وأسروهم جميعاً إلا دليلهم فإنه نجح فى الفرار . ولما أشرف الموحدون على وادى التاجُه ، لم يجدوا أمامهم مغنما ، فعلموا أن الدليل الفار قد أخطر بمقدمهم ، فأسرعوا السير حتى وصلوا إلى ظاهر طلبيرة ، وذلك فى منتصف جمادى الآخرة .

وفى اليوم التالى احتل الموحدون ربوة مرتفعة تقع على نحو ميل من المدينة ، وضربوا محلتهم بها . ودهش النصارى لإقدام المسلمين على دخول بلادهم على هذا النحو ، بعد أن مضت مدة طويلة لم يجرؤ أحد منهم على الظهور فى تلك المنطقة ، وفى الحال حشدوا قواتهم واستنجدوا بأهل الحصون المجاورة ، وخرجوا لقتال الموحدين ، وكان الموحدون خلال ذلك قد غادروا الربوة منصرفين ، بعد ما امتلأت أيديهم من الغنائم ، فجد النصارى فى اتباعهم مصممين على قتالهم ، ولما أصبح الموحدون على قيد نحو ثمانية أميال من المدينة ، توقفوا وراء أحد التلال واستعدوا للقاء النصارى ، وابن وانودين يحثهم على الجهاد والتفانى ، إذ هم فى أراضى العدو بعيدين عن بلادهم . ثم نشبت المعركة المرتقبة بين الفريقين فثبت الموحدون ، وحملوا على القشتاليين حملة صادقة ، هزموا على أثرها ،

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

ومزقت صفوفهم ، وولوا الأدبار ، وقتل منهم حسبما تقول الرواية الإسلامية أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل ، واستولى المسلمون على عتادهم ، ودوابهم . وعاد الموحدون إلى إشبيلية ظافرين مغتبطين . وبعث ابن وانودين إلى الخليفة بكتاب الفتح ، فسر به ، ولكنه أبدى غضبه على ولده السيد أبى إسحاق لأنه لم يحضر تلك الغزوة التى نسبت برمتها إلى ابن وانودين ، مع أنه من جملة قواده ، وعاقب كل من تخلف من الأجناد ، وحرمهم من العطاء .

ومن جهة أخرى فإنه يبدو من رد الخليفة على ابن وانودين ، وقوله فى خطابه إليه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . يبدو من ذلك أن الخليفة قد غص بالانتصارات المتوالية التى أحرزها ابن وانودين ، دون بقية الأشياخ والسادة . وكان أبو عبد الله محمد بن وانودين هذا ، هو ولد أبى يعقوب يوسف ابن وانودين الهنتاتى من كبار أهل خمسين ، وقد نشأ فى مهاد العلم ، ونظمه الخليفة عبد المؤمن فى مجلسه ، وقربه إليه ، ثم قدمه على العسكر وولاه القيادة وصحبه فى سائر غزواته فى إفريقية . ولما أوفد إلى الأندلس ظهر فى محاربة ابن مردنيش ثم فى هزيمته لنصارى شنترين ، وفى قيادة قافلة الميرة إلى بطليوس ، ثم فى رد القشتاليين عن قرمونة ، وأخيراً فى غزوة طلبيرة . ومع ذلك كله فسرعان ما غضب عليه الخليفة لأتفه الأسباب ، وذلك عند مقدمه إلى إشبيلية فى العام التالى ، حيث وشى فى حقه الوشاة ، فأمر بتغريبه إلى غافق ، على مقربة من قلعة رباح ، فلبث بها حيناً ، ثم نزح إلى تونس واستقر بها[1] .

— ٢ —

نرجع الآن قليلا إلى الوراء لنستعرض ما حدث فى المغرب فى تلك الأعوام القلائل التى اشتد فيها عدوان القشتاليين والبرتغاليين على الأندلس ، والتى شغل فيها الخليفة بالأحداث الداخلية عن تجديد حركة الجهاد .

وكان من أهم الأحداث الداخلية ، فى تلك الفترة ، وفاة السيد أبى حفص عمر بن عبد المؤمن أخى الخليفة أبى يعقوب ، وكان أبو حفص شقيقه وكبيره ، وأمهما حسبما تقدم حرة هى زينب بنت القاضى موسى بن سليمان الضرير ، من أصحاب خمسين ، وكانت وفاته فى شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ (أغسطس

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٣٢ .

١١٧٩ م) ، وكان أبو حفص ، منذ أيام أبيه الخليفة عبد المؤمن يشغل مكانة ملحوظة فى الدولة الموحدية ، وقد تولى فى فتوته ولاية تلمسان ، ثم وزر لأبيه بعد مصرع وزيره عبد السلام الكومى . ولما توفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ ، بثغر سلا ، قام السيد أبو حفص مع الشيخ عمر بن يحيى الهنتاتى كبير الأشياخ بتنظيم البيعة لأخيه الأصغر أبى يعقوب يوسف ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ثم تولى له فى البداية منصب الحجابة على نحو ماكان لأبيه . واضطلع السيد أبو حفص بأعظم قسط فى حملة شرق الأندلس، وفى الأعمال الحربية التى انتهت بتحطيم مملكة الشرق ، وانتهاء ثورة ابن مردنيش ، وكان على العموم يحتل فى دولة أخيه الخليفة أبى يعقوب أعظم مكانة ، وفى تدبير الأمور والبت فيها أعظم نصيب.

وفى نفس هذا العام أعنى سنة ٥٧٥ هـ وقعت الثورة بمدينة قفصة الواقعة جنوبى القيروان على مشارف الصحراء . وكانت قفصة منذ ضعفت دولة بنى باديس الصنهاجيين بإفريقية ، منزل إمارة محلية فى ظل بنى الرند ، وعميدهم عبد الله ابن محمد بن الرند ، فاستقل بقفصة ، وقوى أمره تباعاً ، وبسط سلطانه على عدة من البلاد المجاورة حتى قسنطينة ، ثم خلفه فى الإمارة ولده المعتز ، ثم حافده يحيى بن تميم بن المعتز . ولما قام عبد المؤمن فى سنة ٥٥٤ هـ بغزوته لإفريقية ، استولى على قفصة ، ونقل بنى الرند إلى بجاية ، وعين لقفصة واليا موحدياً . وكان والى قفصة الموحدى حينما وقعت الثورة، عمران بن موسى الصنهاجى ،وكان قد أساء السيرة ، ووقع الاضطراب بالمدينة ، فبعث لفيف من أهلها إلى بجاية فى دعوة على بن عبدالعزيز بن الرند المعروف بالطويل، فقدم إليهم، واضطرمت الثورة ، وقتل عمران بن موسى ، واستبد ابن الرند بالمدينة ، وكان يشجعه فى ثورته ، ويحرض العرب للانضمام إليه قريبه القائد على بن المنتصر من بجاية[1].

فلما نميت هذه الأنباء إلى الخليفة أبى يعقوب ، اعتزم السير بنفسه إلى إفريقية ، فخرج فى قواته من مراكش فى الخامس عشر من شوال سنة ٥٧٥ هـ (مارس سنة ١١٨٠م) ، ويروى لنا ابن صاحب الصلاة ، أن البركة الدورية التى كانت تعطى للعسكر فى تلك الغزوة كانت تبلغ فى كل مرة ألف ألف دينار ، سوى العلوفات والمرافق ، مما يدل على ضخامة الجيش الذى حشد[2]، واستمر الخليفة

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

فى سيره وئيداً ، واحتفل فى الطريق بعيد الأضحى ، وقدم ولده السيد أبا يوسف يعقوب على مقدمة الجيش ، فسبقه إلى تلمسان . ووصل الخليفة فى قواته إلى تلمسان فى أوائل سنة ٥٧٦ هـ ، ولما كملت أهبة الجيش وتعبئته ، خرج من تلمسان فى الثانى عشر من شهر صفر ، متجهاً إلى إفريقية ، فلما وصل إلى بجاية نزل بها . وتحقق لديه أن القائد على بن المنتصر متواطئ مع قريبه الثائر بقفصة ، وأنه يوالى تحريضه على الاستمرار فى الثورة ، ويوالى تحريض العرب لتأييده ، وضبطت بمنزله رسائل تؤيد ذلك ، فقبض عليه ، وأحيط بسائر أمواله . ثم سار الخليفة من بجاية ، فلما قرب من قفصة ، بادر أشياخ العرب من رياح إلى المثول لديه ، وتأكيد ولائهم وطاعتهم . وضرب الخليفة الحصار حول قفصة وضربها بالمجانيق ، حتى اضطر على بن الرند إلى الإذعان والتسليم ، أو التوحيد وفقاً لقول البيذق ، ثم ارتد إلى تونس وفقاً لرواية أخرى ، واحتل الموحدون قفصة وذلك فى رمضان سنة ٥٧٦ هـ (فبراير ١١٨١م) وعقد الخليفة بولاية إفريقية والزاب لأخيه السيد على أبى الحسن ، وبولاية بجاية أو ولاية القيروان على قول آخر لأخيه السيد أبى موسى[١].

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لتجديد مساعيه فى استمالة العرب الذين ينزلون بهذه الأنحاء من إفريقية وترغيبهم فى الجهاد بالأندلس . وقد شرح لنا هذه المساعى فى رسالة الفتح التى وجهها إلى الموحدين بقرطبة . وذلك أنه لما اجتمع لديه أشياخ قبائل رياح وكبراؤهم من جميع الأنحاء ، ذُكروا بما كان لأسلافهم من فضل سابغ فى نصرة الدين ، وأنه يجدر بهم أن يحذوا حذو أسلافهم فى الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، وأن خير ما يصنعونه فى ذلك هو المساهمة فى الجهاد بالأندلس ، وغزو النصارى بها ، سيما وقد تفاقم عدوانهم فى الآونة الأخيرة ، وأن أولئك الأشياخ أبدوا أنهم على أتم أهبة للاستجابة إلى هذه الدعوة ، وأن قبائل رياح كلها ، وبطونها وأفخاذها ، أبدوا جميعاً أنهم يقبلونها بقلوب خالصة ، ونيات صافية ، وأنهم أخذوا بالفعل فى الحركة والاحتشاد ، كل طائفة صوب الطريق التى تفضلها وتراها أيسر لمجازها ، وتوالت جموعهم حتى امتلأت بها تلك البطاح والسهول . وكان ممن حضر ذلك الجمع الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ، فلما وقع العزم على الاستجابة ، أخذ فى الرحيل بأهله وولده وكل من تبعه من

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، وكتاب أخبار المهدى ابن تومرت ص ١٢٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٤١ ، و ١٤٢ .

قومه ، وبادر الجميع بالامتثال والرحيل ، مبايعين ربهم على الجهاد فى سبيله . وينوه الخليفة فى رسالته ، بأنه كان من أثر هذه الحركة أنه لم يبق بإفريقية من طوائف العرب ، سوى من نزل من قبائل سليم بجهات طرابلس وما وراءها مشرقاً نحو برقة والإسكندرية ، وأن هؤلاء قد خوطبوا أيضاً بما خوطب به زملاؤهم ، وكوتبوا ، وبذلت لهم أطيب الوعود ، وأنذروا فى نفس الوقت ، أملا فى استمالتهم واستجلابهم إلى مشاركة إخوانهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى خطة السياسة الموحدية فى استمالة القبائل العربية النازلة بإفريقية وحشدها فى الجيوش الموحدية ، وهى الخطة التى وضعها الخليفة عبدالمؤمن منذ افتتاحه لثغر المهدية فى سنة ٥٥٥ هـ ، وتابعها ولده الخليفة أبو يعقوب وضاعف اهتمامه بتنفيذها حسبما سبق أن فصلناه . وقد كان للسياسة الموحدية من تحقيق هذه الخطة هدف مزدوج أشارت إليه رسالة الفتح المتقدمة الذكر ، وهو أولا تخليص إفريقية من طوائف العرب النازلة بها ، وكف أيديهم عنها ، وذلك لما كان من استطالتهم عليها ، وتخريبهم لربوعها ومدنها ، وثانيا لاستنفارهم إلى الجهاد والاستعانة بهم فى تدعيم الجيوش الموحدية المرسلة إلى الغزو بالأندلس . وقد استطاع الخليفة أبو يعقوب أن يحشد بالفعل منهم حشوداً عظيمة عبرت معه إلى الأندلس ، واشتركت مع الجيوش الموحدية فى غزوة وبذة وفى محاربة النصارى فى مختلف الميادين فى شبه الجزيرة . ولما أراد أبو يعقوب العودة إلى المغرب فى سنة ٥٧١ هـ ، فرق العرب الباقين فى مختلف القواعد ، فأنزل بعضهم فى نواحى قرطبة ، وبعضهم فى نواحى إشبيلية الجنوبية ، مما يلى مدينة شريش وأعمالها .

بيد أن السياسة الموحدية لم تجن خيراً من هذه الخطة فى استمالة العرب وحشدهم إلى جانبها ، وذلك لما كانوا يتسمون به من حب التقلب ، ومجانبة الولاء ، والسعى إلى اجتناء المغانم المادية بأى الوسائل . وسوف نرى فيما بعد ، كيف انقلبوا إلى محاربة الدولة الموحدية ، وغدوا من أخطر خصومها فى منطقة إفريقية[1] .

وحدث أيضاً أثناء وجود الخليفة بإفريقية ، أن وفدت إليه رسل ملك صقلية ، النورمانى ، وهو يومئذ وليم الطيب ، يطلب الصلح والمهادنة ، وكان ملوك صقلية

---

(١) راجع رسالة الخليفة أبى يعقوب المتضمنة لشرح مساعيه فى حشد العرب فى كتاب « مجموع رسائل موحدية ». الرسالة السادسة والعشرون ص ١٤٩ — ١٥٧ ، وراجع أيضاً كتاب المعجب للمراكشى ص ١٢٤ و ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ .

منذ استرد منهم عبد المؤمن ثغر المهدية ، وقضى على سلطانهم فى شواطئ إفريقية قبل ذلك بعشرين عاما ، يخشون بأس الدولة الموحدية ، ويؤثرون السلم معها . ويقول لنا صاحب المعجب إن ملك صقلية عقد الصلح مع الخليفة على أن يحمل إليه إتاوة سنوية اتفق عليها ، وأنه أرسل إلى الخليفة تحفاً وذخائر نفيسة منها حجر ياقوت يسمى « الحافر » لاستدارته بمثل حافر الفرس ، وقد وضع فى تابوت مصحف عثمان ، الذى كان يبالغ الموحدون فى تكريمه[1].

وعلى أثر افتتاح قفصة ارتحل الخليفة إلى تونس ، وكتب من هنالك برسالة الفتح إلى حضرة مراكش ، وإلى الأندلس — إلى إشبيلية وقرطبة — وبعث مع الرسالة بقصيدة طويلة من نظم طبيبه العلامة الفيلسوف أبى بكر بن طفيل ، يشيد فيها بالفتح ، وبالجيش الموحدى ، وقد جاء فى أولها :

ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى ... أصبح حزب الله أغلب غالب
وساعدنا التوفيق حتى تبينت ... مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأنجزنا وعد من الله صادق ... كفيل بإبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم إذا سرى ... ولم يتركوا بالشرق علقة آيب
وأذعن من عليا هلال بن عامر ... أبى ولبى الأمر كل مجانب
يغص بهم عرض الفيافى وطولها ... وقد زحموا الآفاق من كل جانب

ولما وصل كتاب الفتح ، وقصيدة ابن طفيل ، إلى السيد أبى إسحاق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، عم البشر والسرور ، ومثل لديه أشياخ إشبيلية للتهنئة ، وخطب بين يديه الفقيه ابن الجد ، وأنشد أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب تاريخ « المن بالإمامة » قصيدة جاء فيها :

خير البشائر صوغت حمل المنى ... بقفول خير خليفة وإمام
وافت كما ابتسم الأمان لخائف ... وانهل أثر المحل سكب غمام[2]

ثم قفل الخليفة عائداً إلى حضرة مراكش ، فوصل إليها فى شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى أثر وصوله ، سارت وفود الأندلس إلى العدوة لتهنئته ، يتقدمهم ولده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، وابن وانودين وغيره من أشياخ الموحدين ،

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٢ .
(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٥ .

وقدمت كذلك وفود قرطبة وغرناطة ومرسية لغرض التهنئة ، وأقامت هذه الوفود بالحضرة إلى أواخر العام ، ثم انصرفت عائدة إلى بلادها .

وفى خلال ذلك علم الخليفة أن طائفة من أهل جبل السوس الواقع على مقربة من بلاد هرغة وهى قبيلة المهدى ابن تومرت ، قد استولوا لأنفسهم على ما تحصل من معدن الفضة الذى يستخرج من ذلك الجبل ، وذلك بطريق الاغتصاب من عمال المنجم الخاص بذلك ، فخرج الخليفة فى بعض عسكره من مراكش فى أول صفر سنة ٥٧٨ هـ ، ولما وصل إلى الجبل المذكور ، أمر ببناء حصن عليه ، ووضع به حامية ، ثم سار من هنالك إلى تينملل فزار قبر المهدى وقبر والده ، الخليفة عبد المؤمن ، وكان معه وفد من أهل إشبيلية قدم لزيارته بالحضرة قبل ذلك بقليل ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان ضمن هذا الوفد ، إنه زار القبرين بصحبة أبى بكر بن زهر ، وأبى الوليد ابن رشد ، وأن الخليفة زار فضلا عن القبرين الغار الذى فى جبل إيجليز حيث كان يتعبد المهدى والمسمى برابطة الغار ، والرابطة الأخرى المسماة رابطة وانسرى ، وكان الناس يأخذون التراب منهما للتبرك ويجعلونه على المرضى . وأمر الخليفة بهذه المناسبة ، أن ينظم الشعراء قصائدهم فى رثاء المهدى ورثاء أبيه ، وأن يذكروا مناقبهما ومآثرهما ، وأغدق عليهم صلاته الكثيرة[١] .

وكان مما قيل بهذه المناسبة ، فى ذكر مناقب المهدى ، وشرح أسطورته ، والإشادة برسالته ، قصيدة نظمها شاعر من أهل الجزائر ، وفد على أبى يعقوب بتينملل ، وأنشد قصيدته على قبر المهدى ابن تومرت بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين ، وإليك بعض ما ورد فيها :

سلام على قبر الإمام الممجد ... سلالة خير العالمين محمد
ومشبه فى خلقه ثم فى اسمه ... وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
ومحيى علوم الدين بعد مماتها ... ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أتتنا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل فى الأنام مخلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ... ويملك عربا من مغير ومنجد
فمن وصفه أقنى وأجلى وإنه ... علاماته خمس تبين لمهتدى
زمان واسم والمكان ونسبة ... وفعل له فى عصمة وتأيد

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ — ١٢٢ .

وتتبعه للنصر طـــائفـــة المدى   فأكرم بهم إخوانُ ذى الصدق أحمد
هى الثلة المذكور فى الذكر أمرها   وطائفة المهـدى بالحق تهتـــدى
بهم يقمع الله الجبابرة الأولى   يصدون عن حكم من الحق مرشد
ويقطـع أيـام الجبـابرة التى   أبادت من الإسـلام كل مشيد
فيغزون أعراب الجزيرة عنـوة   ويعرون منها فارساً وكأن قـد
ويفتتحون الروم فتح غنيمـــة   ويعرون منها فارساً وكأن قد
ويفتتحون الروم فتح غنيمـــة   ويقتسمون المال بالترس عن يد
ويغـــدون للدجال يغزونه ضحاً   يذيقـــونه حد الحسام المهنـــد
وينزل عيسى فيهم وأمـــيرهم   إمام فيـــدعوهم لمحـراب مسجد
يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم   بتقـديم عيسى المصطفى عن تعمد
فيمسح بالكفين منه وجـــوههم   ويخـــبرهم حقاً بعز مجــــدد
وما أن يزال الأمر فيه وفيهم   إلى آخر الدهر الطـــويل المسرمد
فأبلغ أمـــير المؤمنين تحيـــة   على النأى منى والوداد المؤكـــد
عليه ســـلام الله مادر شـــارق   وما صدر الوارد عن ورد مورد

وقيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر لإلقائها بنفسه، للكبر وبعد الشقة، وأنه أرسل بها فأنشدت باسمه على قبر الإمام، وكان نظمه إياها أيام حياة الخليفة عبد المؤمن [(١)].

وفى العام التالى، أعنى فى سنة ٥٧٩ هـ، كانت توسعة مدينة مراكش. وكانت العاصمة الموحدية، قد بدأت تضيق بسكانها الذين هرعوا إلى استيطانها من كل صوب، وبالرغم مما أقيم بها منذ أيام الخليفة عبد المؤمن، من الأحياء الكبيرة والدور العديدة الفخمة لسكنى رجال البلاط، وعلية القوم، والوافدين إليها من مختلف أنحاء المغرب والأندلس، فإنها أضحت قاصرة عن أن تستوعب سكانها، وحركة عمرانها الضخمة. وكان الخليفة قد أمر قبائل هسكورة وصنهاجة أن يتركوا بلادهم، وأن يأتوا إلى العاصمة بأهلهم لسكناها، فلما وصلوا إليها لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم، فشكوا إلى الخليفة أمرهم. فعندئذ رأى الخليفة أنه لابد من العمل على توسعة المدينة، وعهد إلى ولده وولى عهده السيد أبى يوسف

(١) راجع المعجب ص ١٠٤ – ١٠٦ حيث يورد هذه القصيدة وقصتها، وينفرد المراكشى بذلك بين المصادر الموحدية.

يعقوب بتلك المهمة ، فركب فى يوم أول ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع يصلح لتحقيق هذه الرغبة ، فاتفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبلية ، بإنشاء مدينة جديدة متصلة بها من هذه الناحية ، ووافق الخليفة على هذا المشروع ، وقام العبيد والرجال بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة ، ووضعت خطط المدينة الجديدة فى يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، واتصل بناء السور حول المواقع الجديدة ، وبناء باب الشريعة أربعين يوماً ، حتى كمل ، وبدأ إنشاء الدور والرباع بسرعة فى هذا القطاع الجديد من العاصمة الموحدية[١] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بإفريقية حادث مكدر . ذلك أن طوائف العرب من بنى سُليم ثاروا على مقربة من مدينة قابس ، فسار أبوالحسن على ابن الخليفة ووالى تونس لقتالهم ، ودامت الحرب بينهم أياماً ، ثم أمر الفرسان الموحدون من أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم إلى جبل قريب يسمى جبل كسرى ، فظن أن هذا الانتقال بسبب الهزيمة ، فتركوا عتادهم وفروا منهزمين دون قتال ، فلجأ السيد ومن معه إلى الجبل ، ولكنهم لم يجدوا به ماء ، فلما اشتد بهم العطش كروا على العرب دفعة واحدة ، فهزمهم العرب ، وأحدقوا بهم وأسروا السيد وأصحابه . (جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ) . ولما علم الخليفة بذلك قرر فى الحال غزو بنى سليم والانتقام منهم ، ولكن لم تمض بعد ذلك سوى أيام قلائل حتى ورد الخبر بأن السيد وأصحابه قد أطلق سراحهم لقاء ما دفعوا من المال ، وأنهم وصلوا سالمين إلى تونس[٢] .

ومن حوادث هذا العام أيضاً نكبة الخليفة لأبى زكريا بن حيون شيخ قبيلة كومية وابنه على الذى كان مشرفاً على تلمسان ، وقبض على أبى زكريا وحوسب مدة ، ثم نفى إلى بطليوس بالأندلس ، وبقى ابنه على فى السجن ، حتى خرج الخليفة إلى الغزو ، فأمر بأن يحمل معه مصفداً ، ولكنه استطاع الفرار أثناء السير .

ومنها فرار الداعية على بن محمد بن رزين المعروف بالجزيرى من مراكش ، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة يقول بتكفير جميع المسلمين ، وتبعه قوم من البربر يقرأون عليه مذهبه ، وشاع خبره ، وعندئذ خشى بطش ولاة الأمر . ففر من المدينة واختفى حيناً ، حتى قبض عليه فيما بعد وقتل أيام الخليفة المنصور .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٦ (٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٧

الفصل الخامس

غزوة شنترين

ومصرع الخليفة أبي يعقوب يوسف

استعداد الخليفة للجهاد بالأندلس. ولاة الأندلس وقضاتها الجدد . قسمة السلاح والعتاد . مسير الخليفة إلى رباط الفتح . الاتفاق على توجيه الحملة إلى الأندلس . مسير الخليفة إلى مكناسة ، ثم إلى فاس . تعيين السيد أبي حفص لقيادة العرب ، وبعض السادات لقيادة الموحدين . مسير الخليفة إلى سبتة . جواز قبائل العرب فقبائل البربر ثم الموحدين إلى شبه الجزيرة . عبور الخليفة ومسيره إلى إشبيلية . أقوال ابن صاحب الصلاة . اختيار مدينة شنترين هدفاً للغزوة المنشودة . حكمة هذا الاختيار وبواعثه . منشآت الخليفة بإشبيلية . خروج الخليفة في قواته إلى بطليوس . تحالف ملكى قشتالة وليون ضد الموحدين . ملك ليون يحاصر قاصرش . الرواية النصرانية عن خطة الموحدين . رفع الحصار عن قاصرش مسير الموحدين إلى شنترين . عدد الجيش الموحدى . شنترين وموقعها . أشبونة هدف الغزوة الموحدية. محاصرة الموحدين لشنترين . اقتحامهم للربض الخارجي . اعتصام النصارى بالقصبة . المعارك بين الموحدين والبرتغاليين . أمر الخليفة بالكف عن القتال . تحول الجيش الموحدى عن موقعه . صدور الأمر بالرحيل . غموض بواعث هذا الأمر . رواية في تعليله . رواية أخرى في شرح ماحدث في المعسكر الموحدى . شرح الرواية النصرانية لأسباب الانسحاب . ماحدث خلال الانسحاب من الفوضى والاضطراب . مهاجمة النصارى لساقة الجيش المنسحب . وصولهم إلى محلة الخليفة . جرح الخليفة ثم وفاته خلال السير . بعض روايات عن هذا الحادث . رواية أخرى عن مرض الحيفة ووفاته . أسباب نكبة الجيش الموحدى . مسير الجيش وكتمان وفاة الخليفة . التوقف في طرش . اجتماع القادة ومبايعة الأمير أبي يوسف يعقوب . الوصول إلى إشبيلية إعلان الوفاة وأخذ البيعة للخليفة . انقضاء الغزو والأمر بالرحيل . مسير الركب الخليفى إلى طريف . عبوره إلى العدوة . المسير إلى رباط الفتح . الخليفة أبو يعقوب . حزمه وتقواه وعلمه . حرصه على تنفيذ حكم الشرع . مطاردته للعمال الظلمة . خبرته بشئون المملكة . شغفه بالجهاد . علمه وأدبه . تمكنه من الحديث والفقه واللغة . دراسته للفلسفة والطب . صلاته بابن طفيل وابن زهر وابن رشد . كيف وضع ابن رشد شروحه لأرسطو . ابن طفيل سفير الخليفة لدى العلماء . شغف أبي يعقوب بجمع كتب الفلسفة . أثر من آثاره العلمية . كلفه بالمنشآت العمرانية . وزراؤه وقضاته وكتابه . أبناؤه وصفته .

كان من الواضح للخليفة أبي يعقوب وأعوانه من أقطاب الموحدين ، أن حوادث الأندلس ، قد أخذت في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة ، تسير نحو اتجاه مكدر ، وأن عدوان الممالك الإسبانية النصرانية ، قد أخذ يشتد ويتفاقم ، وأن غزوات البرتغاليين لولاية الغرب ، وما أحرزوه من انتصارات في البر

والبحر على القوات الموحدية ، وغزوات ملك قشتالة لموسّطة الأندلس وتهديده لقرطبة وإشبيلية ، وتوغل قواته جنوباً حتى غرناطة ومالقة ورندة ، كل ذلك قد كشف عن ضعف الجبهة الدفاعية الموحدية بالأندلس ، وعن قصور القوات الموحدية عن حماية الأندلس ، وصد عدوان النصارى عنها .

ومن ثم فقد رأى الخليفة أنه لابد من تنظيم حركة جديدة للجهاد بالأندلس ليقودها بنفسه ، وظهرت بوادر هذه النية منذ أوائل شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٩هـ ، حينما أمر الخليفة بتمييز طوائف الموحدين والعرب والقبائل استعداداً للغزو ، وبصنع عشرة مجانيق جربت بعد صنعها بالرمى أمامه ، فى منطقة البحيرة خارج مراكش ، واستمر تمييز الجند طوال شهر جمادى الثانية (سبتمبر ١١٨٣م) . وفى شهر شعبان أصدر الخليفة المراسيم بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية ، وهم السيد أبو إسحق لولاية إشبيلية كما كان ، والسيد أبو زكريا يحيى لولاية قرطبة ، وذلك تنفيذاً لرغبة القاضى أبى الوليد بن رشد ، والسيد أبوزيد لولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله لولاية مرسية ، وأمر بسفرهم إلى مقر أعمالهم ، تمهيداً لحركة الغزو . وأصدر أمره فى نفس الوقت بتوليه أبى المكارم ابن الحسين المصرى لقضاء إشبيلية ، وأبى الوليد بن رشد لقضاء قرطبة ، وأبى عبد الله بن الصقر لقضاء غرناطة ، وتحرك الجميع للسفر إلى شبه الجزيرة فى السابع والعشرين من شعبان .

وفى منتصف شهر رمضان ، أجريت قسمة السلاح والعتاد ، وخصص خباء لكل عشرة من الفرسان ، ثم أخرجت البركة لسائر الجند من الفرسان والرجّالة . وفى يوم السبت الخامس والعشرين من شوال (فبراير ١١٨٤م) صدرت الأوامر بالحركة ، وركب الخليفة كعادته بعد صلاة الصبح ، وخرج من باب دُكّالة ، وهو الذى يسلكه إلى الغزو بإفريقية . ويصف لنا صاحب البيان المغرب — والمرجح أنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة[1] — موكب الخليفة ومراحل سيره ، فيقول إنه سار يتقدمه العلم الأبيض مع الرجّالة ، كالعادة ، ومعه مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع ، وقد وضع تابوته المرصع بنفيس الجواهر ، وعليه قبة حمراء لصيانته ، ويليه مصحف المهدى يحمله بغل ، وقد سار بنو الخليفة مع

---

(١) يدفعنا إلى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من مطابقة فى السرد والوصف لأسلوب ابن صاحب الصلاة ، وورود عبارات كثيرة مسجعة وغيرها مطابقة لما يستعمله ابن صاحب الصلاة فى مواطن كثيرة .

إخوته خلفه ، ووصل الخليفة فى ركبه الضخم إلى سلا فى الثالث عشر من ذى القعدة ، ونزل بمدينة المهدية (رباط الفتح) ، وهنالك وفد عليه أبو محمد ابن أبى إسحاق بن جامع قادماً من إفريقية ، فأخبره أن السلام يسودها ، وأن العرب الذين يخشى من شغبهم ، قد فروا من البلاد بأهلهم ، حينما سمعوا بحركة الغزو ، وبذلك أمن شرهم واستتبت السكينة والأمن .

وفى أثناء ذلك وصل شيوخ العرب المنضمون للحملة بجميع قبائلهم ، فصدر أمر الخليفة بالإنعام عليهم بالكسى والبركات والصلات الجزيلة . وتعهد الأشياخ بأن يساهموا فى هذه الغزوة بمائة وثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

ثم أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة فى مؤتمر عام ، وخرج إليهم ولده أبو يوسف المنصور ، وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم فى أمر توجيه هذه الحملة ، هل توجه إلى أفريقية أم توجه إلى الأندلس ، فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد فى سبيل الله ، فأبدى الخليفة ارتياحه لهذا الرأى[1] . ومعنى ذلك أن الخليفة ، حين خروجه من مراكش لم يكن لديه رأى حاسم فى شأن الغزوة التى ينوى القيام بها ، وهذا فى ذاته يكشف لنا جانباً من ضعف الخطط العسكرية الموحدية .

وفى اليوم الثامن والعشرين من ذى القعدة ، بدأت العساكر فى الجواز على قنطرة سلا ، وفى اليوم الثلاثين غادر الخليفة فى موكبه، رباط الفتح إلى مكناسة ، فوصلها فى السادس من ذى الحجة ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم غادرها إلى فاس ، وكانت قد ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرفها وعمالها المختلفين ، واختلاساتهم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب « المخزن » ، وألزموا بأن يردوا « للمخزن » أربعمائة ألف وستين ألف دينار ، تعهدوا بأدائها أقساطاً ، ورتب عليهم الرقباء حتى قاموا بأدائها .

وفى الثانى عشر من ذى الحجة ، أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتا هنتانة وتينملّل برسم الجواز إلى الأندلس ، وبأن يتقدم ولده السيد أبو حفص على طوائف العرب ، وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس ، ثم قدم على قبائل الموحدين وحشودهم ، بعض السادات من الأبناء والإخوة ، وكتب إلى الولاة

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٠ ، وكذلك فى روض القرطاس ص ١٣٩ .

بالأندلس أن يستعدوا لاستقبال هذه الحشود المختلفة ، وأن يكونوا هم فى جموعهم فى هيئة استعداد للجهاد .

وفى يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ (٨ أبريل ١١٨٤ م) غادر الخليفة أبو يعقوب مدينة فاس فى موكبه ، على الترتيب السابق وصفه ، حتى وصل إلى ثغر سبتة فأقام به بقية شهر المحرم . وأمر فى أثناء ذلك ببدء الجواز ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، فالمصامدة ، فمغراوة وصنهاجة وأورية وغيرهم من بطون البربر ، ثم جازت جيوش الموحدين . فلما كمل جواز الجيش عبر الخليفة فيمن بقى من طوائف العبيد والحرس ، وكان عبوره فى الخامس من صفر (١٧ مايو) ونزل بجبل الفتح (جبل طارق) ثم سار منه إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى إشبيلية عن طريق أركش وشريش ، فوصل إليها فى عساكره فى اليوم الثالث عشر من صفر (٢٥ مايو) ، وخرج أهل الحاضرة الأندلسية إلى لقائه والسلام عليه ، وفى مقدمتهم قاضيهم ابن الجد . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إنه كان حاضراً فى هذا اليوم ، وإنه قام بالسلام على الخليفة مع من تقدم إليه من الطلبة ، وانه لم يستطع الكلام لشدة الزحام ، وان الخليفة نزل بقصره داخل حدائقه الواقعة خارج باب قرمونة . وفى اليوم التالى لوصوله أمر بتمييز العساكر وتوزيع السلاح والعتاد عليهم . ووزعت ألف فرس من عتاق الخيل على أشياخ الموحدين والعرب وكبار الجند . وأمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلى بإعداد سفن الغزو وما يلزمها من الآلات والمعدات . وكانت أجناد الأندلس ، تتلاحق خلال ذلك من أوطانها وقواعدها إلى إشبيلية ، لتنضم إلى جيش الغزو[1] .

وأقام الخليفة بإشبيلية أسبوعين وهو دائب العناية باستكمال الاستعدادت وتنظيم الحشود ، والنظر فى كل ما يلزم للقيام بالغزوة المنشودة ، وضمان نجاحها .

أما هدف هذه الغزوة ، فقد استقر الرأى على أن يكون مدينة شنترين البرتغالية . وقد سبق أن أوضحنا أن الخليفة لم يحدد هدف هذه الغزوة منذ البداية بصورة قاطعة ، بل لم تتحدد وجهة الحملة الموحدية إلى شبه الجزيرة الأندلسية إلا حينما وصل الخليفة إلى سلا . ولكن اختيار مدينة شنترين بالذات هدفاً للغزوة الموحدية يرجع إلى أسباب عديدة ، مادية ومعنوية . فقد كانت البرتغال فى عهد

---

(١) نقله البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ص ١٣٢ . وكذلك روض القرطاس ص ١٣٠ .

أبى يعقوب أول مملكة نصرانية فى شبه الجزيرة ناصبت الموحدين العدوان ، وكانت مدينة شنترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان ، فنها خرجت الحملات العدوانية المتوالية التى شنها الفارس المغامر جيرالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب وحصونها فى قطاع بطليوس ، وهى ترجالُه وقاصرش ، ومنتانجش وشربة ، وجلمّانية . ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها ، واستيلائهما عليها ، ولو لم يتعاون فرناندو ملك ليون مع الموحدين على إنقاذ المدينة ، لبقيت فى أيدى البرتغاليين . وكانت شنترين أخيراً مركزاً للحملات المخربة التى شنها البرتغاليون على أحواز إشبيلية ، والتى وصلت فى سيرها مرة إلى طُريانة ، وأخرى إلى الشّرف ومدينة شلوقة ، وعلى الجملة فقد كانت شنترين هى المركز الرئيسى لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها ، وقد اضطلع فرسانها وجندها بأعظم دور فى هذه الحملات العدوانية ، والغزوات المخربة ، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شنترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكيز ضربة شديدة ، ويقضى على أهم مراكز العدوان فى البرتغال ، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى.

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة أبا يعقوب ، لم ينس خلال هذه المشاغل الحربية الطامية برنامج منشآته العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهو الذى بدأه حين إقامته الأولى بإشبيلية قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً ، بإنشاء المسجد الجامع والقصور الموحدية ، وقنطرة طريانة . ومشاريع الرى والسقاية ؛ ذلك أنه أمر قبل تحركه إلى الغزو عامله أبا داود بلول بن جلداسن ، أن يقوم خلال غيبته فى الغزو ، بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية ، يمر من مبدئ بنيانه أمام رحبة ابن خلدون داخل المدينة ، وببناء صومعة للجامع فى موقع اتصال السور بالجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للسفن تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطائع ، إلى الرحبة السفلى المتصلة بباب الكحل[1] . وسوف نعود فيما بعد إلى التحدث عن مصير هذه المنشآت فى موطنه المناسب .

— ١ —

فى صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ الموافق لليوم السابع من شهر يونيه سنة ١١٨٤م ، تحركت الجيوش الموحدية وعلى رأسها

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٧٠ أ .

الخليفة أبو يعقوب يوسف ، من مدينة إشبيلية ، نحو الشمال ، بنفس الترتيب الذى سبق وصفه . وكان السير هيناً وئيداً ، فوصلت بعد تسعة أيام إلى حصن العرجة[1] فى طريق بطليوس ، وهنالك تم اجتماع الجيوش الموحدية ، وقد بدت فى أكمل نظام ، وأحسن زى ، وتقلد الجند كامل أسلحتهم من السيوف والدروع والقسى وغيرها ، ثم استأنفت الجيوش سيرها ، حتى وصلت إلى مدينة بطليوس ، فأمر الخليفة بالنزول فى ظاهرها ، وأن يجرى تميز الجند ، واستكملت الجيوش ماكان ينقصها من الزاد والميرة . وكان الوزير السابق إدريس بن جامع منفياً فى بطليوس ومعه فى المنفى أيضاً أبو زكريا بن حيون الكومى شيخ قبيلة كومية ، فالتمسا إلى أمير المؤمنين حين مقدمه أن يأذن لهما بالاشتراك فى الجهاد فأذن لهما .

وكان الموقف بالنسبة للممالك النصرانية قد تغير قبل ذلك بأعوام ، وانقطعت كل مهادنة بينها وبين الموحدين ، وجنحت كلها إلى العدوان ، وإلى غزو أراضى الأندلس كل من الناحية التى تليها ، وذلك حسبما فصلناه من قبل . وكان فرناندو ملك ليون قد نبذ محالفة الموحدين حسبما تقدم ، وحذا حذو زملائه فى انتهاج هذه السياسة العدوانية ، وعقد مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن معاهدة تعهد فيها بأن يلتزم معاداة الموحدين ، وألا يعود إلى محالفتهم قط ، وقطع زميله ملك قشتالة على نفسه مثل هذا المعهد (يونيه سنة ١١٨٣ م) . وكان فى الوقت الذى عبرت فيه الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، يقوم بغزوة جديدة لأراضى الأندلس ، ويحاصر مدينة قاصرش[2] الواقعة شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر التاجُه ، واستمر يحاصرها طول الشتاء حتى نهاية الربيع . وكان الخليفة الموحدى يعلم بأمر هذا التحالف الجديد بين قشتالة وليون . وكان الذائع بين الملوك النصارى أن الجيوش الموحدية الغازية ، قد تغزو أى الممالك النصرانية ، أعنى قشتالة أو ليون أو البرتغال ، إذ كانت جميعاً سواء فى موقفها العدوانى من الموحدين ، وفى الإغارة على أراضى الأندلس . بل أن الرواية النصرانية ، وبخاصة الرواية البرتغالية ، تنسب إلى الخليفة الموحدى من غزوته هذه مشاريع أجل خطراً ، وأبعد مدى ، فتقول لنا إنه كان يبغى ، بعد الاستيلاء على شنترين ، أن يقوم بافتتاح مملكة البرتغال كلها شمالا حتى نهر دويرة ، ثم يسير بعد ذلك إلى غزو مدينة طليطلة

---

(١) وهو بالإسبانية Alanje .

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres .

حاضرة قشتالة(١) ، وعلى أى حال فإن فرناندو ملك ليون ، حينما علم بسير الجيوش الموحدية نحو بطليوس واقترابها بذلك من مواقعه ، بادر برفع الحصار عن قاصرش ، وعاد إلى حاضرته مدينة ردريجو ، وأخذ يرقب سير الحوادث .

وفى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول غادر الخليفة فى قواته مدينة بطليوس، وسار نحو الشمال الغربى مخترقاً الناحية اليسرى من وادى التاجُه، ثم أمر الجند الموحدين أن يتقدموا صوب شنترين ، فعبروا نهر التاجُه بقيادة السيد أبى إسحاق وإلى إشبيلية، ثم تلاهم بقية الجند وعلى رأسهم الخليفة ، ونزلت الجيوش الموحدية جميعها بالتل المرتفع المشرف على شنترين من ناحيتها الشرقية والجنوبية ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (٢٧ يونيه سنة ١١٨٤م) وفقاً لقول الرواية الإسلامية المعاصرة(٢)، وتضع الرواية النصرانية مقدم الجيوش الموحدية إلى شنترين قبل ذلك بثلاثة أيام فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه وهو يوم القديس خوان(٣) .

وتنوه معظم الروايات الإسلامية بضخامة هذا الجيش الموحدى ، ووفرة حشوده(٤)، ويقدم إلينا بعضها عن عدده أرقاماً مدهشة ، فيقول لنا صاحب الروض المعطار إنه كان يضم أربعين ألفاً من أنجاد العرب الفرسان، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس ما ينيف على مائة ألف فارس(٥) ، وإذن فقد كان هذا الجيش الذى أعد لغزو البرتغال، وافتتاح شنترين أضخم من الجيش الذى سار من قبل عند جواز الخليفة الأول إلى الأندلس ، إلى حصار وبذة ، وتنوه الرواية النصرانية أيضاً بضخامة الجيش الموحدى، وذلك بما تذكره من أرقام خسائره ، حسبما نشير إليه فيما بعد .

وتقع مدينة شنترين ، وقد أتيحت لنا زيارتها ، فى شمال شرقى أشبونة على

---

(١) H. Miranda : ibid, cit. Chronicon Lusitanum p. 292

(٢) هذه هى رواية البيان المغرب ، منقولة فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، وكان مرافقاً للحملة (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٣) ويضع صاحب روض القرطاس مقدم الموحدين إلى شنترين فى السابع من ربيع الأول (ص ١٤٠) .

(٣) راجع فى ذلك H. Miranda : ibid, p. 297 & 300 .

(٤) راجع ما ينقله البيان المغرب فى القسم الثالث عن القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر (ص ١٣٥) وكذلك ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٥) الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس فى مقاله عن « شنترين » ص ١١٤ .

قيد خمسين كيلومتراً منها ، فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية . وقد كانت فى العصر الذى نتحدث فيه من أمنع القواعد البرتغالية ، وكانت فى عهدها الإسلامى ، نظراً لحصانة موقعها فى منعطف النهر من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت فى أيدى النصارى لأول مرة فى سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمرت فى حوزتهم عصراً آخر ، ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة فى عهد ملكها ألفونسو هنريكيز ، وأخذ هذا الملك يغير على القواعد الإسلامية المجاورة ، كانت شنترين وأشبونة من القواعد التى استولى عليها ، وذلك فى سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧م) حينما اضطربت شئون ولاية الغرب على أثر قيام الثورة ضد المرابطين وبقيتا بيد النصارى إلى ذلك الحين. وكان الموحدون يتوقون إلى استرداد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد ولاية الغرب .

وهنالك فى الواقع ما يدل على أن استرداد ثغر أشبونه كان من أهداف هذه الحملة الموحدية الكبرى بل ربما كان هو هدفها الرئيسى[1] . ذلك أن الأسطول الموحدى ، كان وقت عبور الخليفة إلى شبه الجزيرة ، قد حشد عند مصب الوادى الكبير ومصب وادى يانه ، وكان فى نفس الوقت الذى اتجهت فيه الجيوش الموحدية صوب شنترين ، يسير إلى مياه أشبونه ، ثم يحاصرها[2] . بيد أنه كان من الطبيعى أن يقوم الجيش الموحدى قبل السير إلى أشبونة ، بالاستيلاء على شنترين ، وهى حصن أشبونة من الشمال ، وبذلك تؤمن مؤخرة الجيش الموحدى ضد أى هجوم يقوم به النصارى من تلك الناحية .

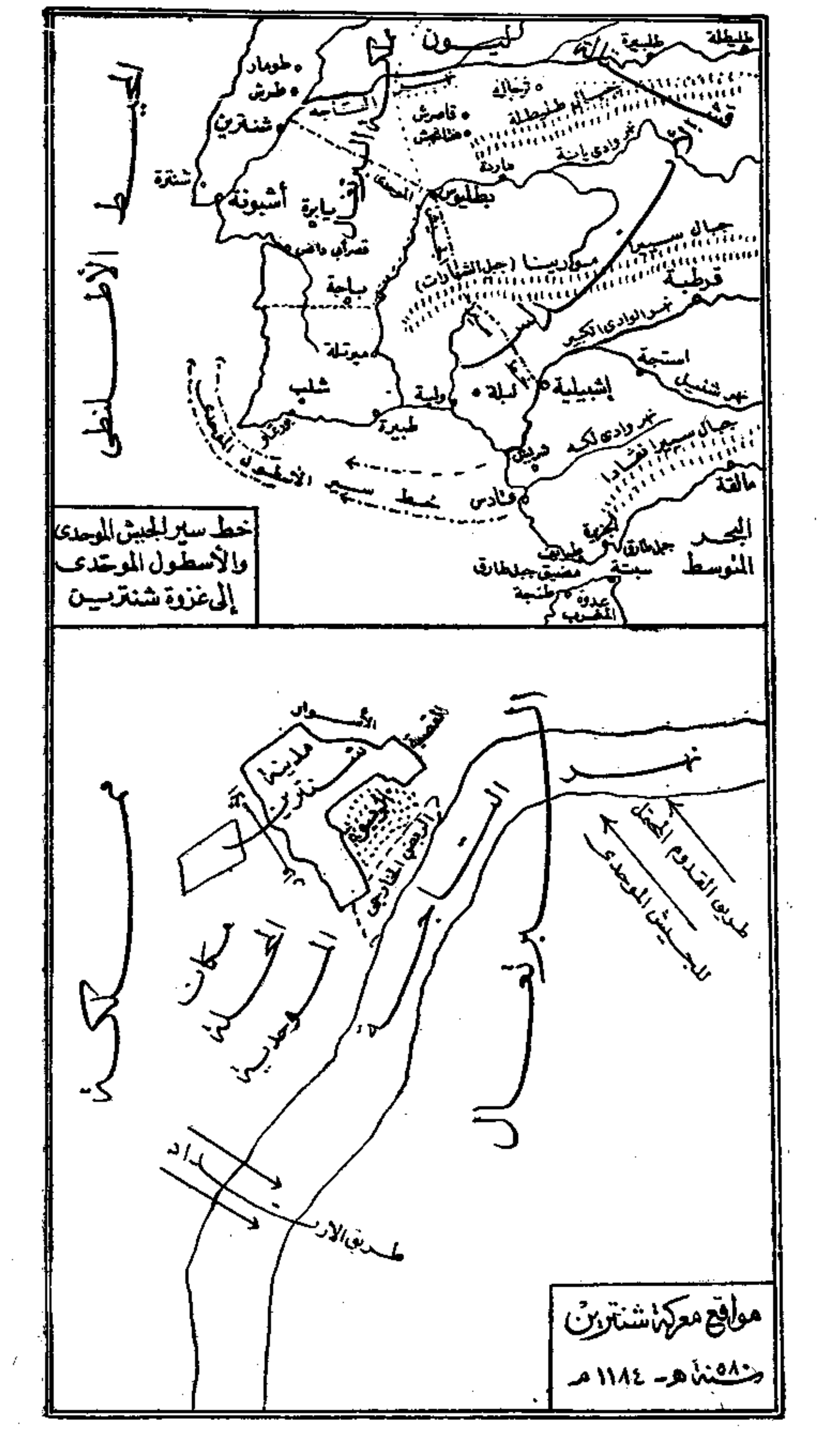
ومن ثم فإنه ما كادت القوات الموحدية تصل إلى ظاهر شنترين ، حتى أمر الخليفة بأن يتقدم الجند حتى أبواب المدينة ، وأن يضربوا حولها الحصار ، ونزل الموحدون فى الريض الواقع فى جنوبها الشرقى والممتد على طول النهر وضربت به قبة الخليفة ، وكان البرتغاليون وعلى رأسهم ملكهم ألفونسو هنريكيز ، قد احتشدوا داخل شنترين وقصبتها وجدوا فى تحصينها ، واتخذوا أعظم أهبة الدفاع عنها[3] ،

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) الروض المعطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤ .

(٣) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ .



خط سير الجيش الموحدى
والأسطول الموحدى
إلى غزوة شنترين
شنترين
أشبونة
بطليوس
قرطبة
إشبيلية
استجة
لبلة
شلب
باجة
طبيرة
شريش
قادس
مالقة
الجزيرة
سبتة
طنجة
البحر المتوسط
مضيق جبل طارق
مواقع معركة شنترين
سنة ٥٨٠ هـ - ١١٨٤ م
طريق القدوم المحتمل للجيش الموحدى

وكان المدافعون عن الربض الخارجي قد أقاموا حواجز يستطيعون الاعتصام بها ، والدفاع منها . فاقتحم الموحدون الربض وهدموا أحياءه المتصلة بالسور، وهدموا الكنيستين اللتين به ، وقتل كثير من المدافعين عنه ، وارتد الباقون إلى القصبة ، واعتقد القادة الموحدون أن السبيل ممهد لاقتحام المدينة وأخذها ، وأعدت بالفعل السلالم اللازمة لاقتحام الأسوار . وفى يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول ٢٩ يونيه) ، هاجم الموحدون الأسوار ، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة . وفى صبيحة اليوم التالى — السبت — تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى ، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول (٢ يوليه) . ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة . وتقدم إلينا الروايات النصرانية عن هذه المعارك صوراً مختلفة ، ويقول بعضها إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين فى الربض الخارجي للمدينة خمسة أيام ، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يجددون هجماتهم ، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربض ، وأضحى الموقف مستحيلا ، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة . وهذه الرواية تقترب فى جملتها من أقوال الرواية الإسلامية . بيد أن بعض الروايات النصرانية تقدم إلينا مزاعم لايستطيع أن يسيغها العقل ، ولاسيما الرواية المنسوبة إلى الحبر الإنجليزى راؤول دى ديستو ، وخلاصتها ان الموحدين وصلوا إلى شنترين فى يوم القديس خوان ، أعنى فى يوم ٢٤ يونيه ، وحاصروها ، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر ، نجحوا فى اقتحام المدينة من ثلمة أحدثوها . ولكن وصل فى اليوم التالى أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً، وسدوا تلك الثلمة بجثثهم . وفى اليوم الذى يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل ، وفى الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين[1].

بيد أنه وقفت فى اليوم الختامى لهذه المعارك ، وهو يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول (٢ يوليه) بالعسكر الموحدى مفاجأة مذهلة ، وهى صدور أمر الخليفة بالكف عن القتال ، وكان الأمر قد صدر فى نفس الوقت بتحرك الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أومن شرق شنترين إلى غربها وشمالها حسبما يقول صاحب

---

(١) H. Miranda ; ibid ; C.R. de Diceto y Crónica de Alfonso Enriquez p. 297 & 300

روض القرطاس . فعجب الناس لذلك ، ولم يفقهوا له سبباً ، بل إن فى هذا التعليق ذاته ما ينم عن إنكار الشيوخ والقادة الموحدين لهذا الأمر الفجائى الذى لم يدرس ، ولم تتضح مبرراته . فما الذى حدث فى المعسكر الموحدى ، وكيف ولم وقع هذا التحول الفجائى فى حركة الجيش الموحدى ، ولمّا لم يمض على مقدمه إلى شنترين سوى ستة أيام ؟ إن الرواية الإسلامية لا تقدم إلينا فى هذا الموطن أى شرح واضح أو أى تعليل مقنع لهذا الارتداد الفجائى لجيش ضخم غاز يربى عدده على المائة ألف ، عن مدينة مرهقة بالحصار وقد سقطت أرباضها فى أيدى الغزاة ، ولا تدافع عنها سوى حامية محلية ، قد أنهكتها المعارك المتوالية مع الغزاة ، ولجأت فى النهاية إلى القصبة ترقب المصير المحتوم ، ولم يقل لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو مرافق الحملة ومؤرخها ، شيئاً سوى التعليق على أمر الارتحال بقوله : « فتعجب الناس من هذا الرأى فى الانتقال والارتحال ، وتعطلت فى النفوس جميع الآمال ، وظهر الخلل فى جميع الأحوال » . ثم يقول إنه قد حدث فى هذا اليوم — أى يوم صدور الأمر بالارتحال — على عسكر أهل مرسية حادث مروع ، وذلك أنهم خرجوا للإغارة فى بسائط النصارى ، فخرجوا عليهم وهزموهم هزيمة شنيعة فارتدوا إلى المحلة منهزمين ، « وبات الناس فى المحلة على حذر ، ومن الوجل فى ألم وضرر »(١) .

ويقول لنا مؤرخ موحدى آخر كان مرافقاً للحملة أيضاً هو القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، إن الخليفة أبا يعقوب حينما قصد مدينة شنترين أمنع بلاد ابن الرنك ، وأكثرها أجناداً ، وأقواها استعداداً ، فزع النصارى وروعت نفوسهم لما رأوه من ضخامة الجيش الموحدى وتفوقه العظيم . وكان القصد محاصرة المدينة وإرهاقها ، ثم يقول دون أى إيضاح آخر : « فلما استراءت من جهاتها الأنباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم أمير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال ، فأمر بالرحيل ليلا »(٢) .

على أن مؤرخاً معاصراً آخر ، ويعتبر كذلك من مؤرخى الموحدين ، هو عبد الواحد المراكشى ، يقدم إلينا عن هذا الارتداد للجيش الموحدى رواية ، قد تبدد بعض هذا الغموض الذى يثيره صمت شاهد العيان ، وهى أن أبا يعقوب حينما

(١) نقله البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٤ و ١٣٥ .
(٢) نقله البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٦ .

حاصر شنترين وبالغ فى التضييق عليها ، وانتساف قواتها ، وقطع المؤونة والمدد عنها ، لم يزد ذلك أهلها إلا حزماً فى الدفاع ، وجلداً فى تحمل مشاق الحصار ، فخشى الموحدون هجوم البرد ، إذ كان الوقت آخر فصل الخريف ، وخافوا أن يفيض النهر فلا يستطيعون عبوره ، وتنقطع عنهم الأمداد، فأشاروا على أمير المؤمنين بالارتداد عن شنترين والرجوع إلى إشبيلية ، فإذا تغيرت الظروف ، عاد الموحدون إلى حصارها ، وصوروا له أن الأمر هين ، وأن المدينة تعتبر غنماً فى يده لا يمنعه عنها مانع ، فاستمع الخليفة إلى نصحهم ، وقال نحن راحلون غدا إن شاء الله ، ولم يقف أحد على هذا القول سوى الخاصة ، وكان أول من قوض خباءه وأظهر الأخذ بأهبة الرحل ، أبو الحسن على بن عبد الله المعروف بالمالقى ، وكان من أكابر البلاط الموحدى ، ويوصف بخطيب الخلافة ، فلما رأى الناس صنعه ، حذوا حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة ، وعبر النهر فى تلك العشية أكثر العسكر ، يريدون التقدم خشية الزحام ، ولم يبق إلا من كان بقرب خباء أمير المؤمنين ، وبات الناس يعبرون الليل كله ، وأمير المؤمنين لا علم له بما حدث[١] . وينقل ابن خلكان هذه الرواية بنصها وتفاصيلها فى ترجمة الخليفة أبى يعقوب[٢] .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الرواية أن حصار شنترين لم يقع فى أواخر الخريف ، ولكنه وقع فى أواخر شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، أعنى فى أوائل الصيف ، وقد رأينا أن الحصار ، وفقاً لرواية شاهد العيان ، وكذلك وفقاً للرواية النصرانية ، لم يدم سوى عدة أيام[٣]. وعلى ذلك فإن تعليل الارتداد باقتراب الشتاء ، والخوف من فيضان النهر ليس بالتعليل المقنع ، وإن كان على أى حال محاولة لتفسير تصرف الخليفة الموحدى .

هذا ، وهنالك محاولة أخرى من جانب الرواية الإسلامية لتفسير ما حدث فى العسكر الموحدى ، هى رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما أمر أمير المؤمنين بانتقال الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أنكر الناس ذلك.

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٨٠ هـ ، أن الخليفة أبا يعقوب حاصر شنترين مدة شهر (ج ١١ ص ١٩٠) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية (ج ٢ ص ٤٩٢) .

ولم يعلموا له سبباً ،وأنه لما جن الليل ، وفرغ الخليفة من صلاة العشاء ، استدعى ولده السيد أبا إسحق والى إشبيلية ، وأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزو مدينة أشبونة وشن الغارة على أنحائها ، وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهاراً ، فأساء السيد أبو إسحق فهم أوامر الخليفة ، وظن أنه أمره بالرحيل فى جوف الليل إلى إشبيلية . يقول صاحب الروض : « وصرخ الشيطان فى محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفى هذه الليلة تحدثت الناس بذلك ، وتأهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قرب الفجر أقلع السيد أبو إسحق ، وأقلع كل من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم فى مكانه لا علم له بذلك »[1] .

على أن ما تقدمه إلينا الرواية النصرانية عن أسباب انسحاب الجيش الموحدى قد يفسر لنا ماوقع بطريقة أوضح ، وأكثر اتفاقاً مع منطق الحوادث . ذلك أن الموحدين ، بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين فى ربض شنترين فى سلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام ، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية ، أدركوا أن المدينة من المناعة ، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة ، بحيث يتعذر اقتحامها ، ولابد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم . وفى أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم فى تطور الموقف . ذلك هو مقدم فرناندو الثانى ملك ليون فى قواته . ونحن نذكر أنه لما تحرك الجيش الموحدى من إشبيلية ، صوب بطليوس ، كان فرناندو الثانى يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقى بطليوس محاولا الاستيلاء عليها ، فلما وقف على حركة الجيش الموحدى ، رفع الحصار عن قاصرش ، وارتد إلى قاعدته القريبة مدينة ردريجو . ولما تعينت وجهة الجيش الموحدى بالسير إلى شنترين وحصارها ، سار فرناندو فى قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة ، وذلك تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه بقتال الموحدين ، وتقول الرواية النصرانية أيضاً إن ألفونسو ملك البرتغال كان متوجساً فى البداية من مقدم فرناندو وجيشه ، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى ، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص[2] . ومن ثم فإنه يبدو أن تطور الحوادث على هذا النحو

(١) روض القرطاس ص ١٤٠ .

(٢) Primera Crónica General de Espana (Ed. Pidal) p. 676

هو الذى حمل الخليفة على اتخاذ قراره الفجائى ، بالارتداد ، خشية أن يعمل الليونيون على إعاقة عبوره النهر إلى الضفة اليسرى ، ولاسيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شنترين .

بيد أنه إذا كان هذا التعليل يلقى شيئاً على بواعث قرار الارتداد ، فإنا لانستطيع أن نفهم سر ذلك الاضطراب المروع الذى اقترن بتنفيذه . ومن المحقق أن الخليفة ومعاونيه كانوا يقصدون أن يكون الارتداد وفق خطة منظمة ، تقى الجيش المنسحب كل اضطراب وكل عثار . وهذا ما يؤكده لنا القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر فى روايته حين يقول « إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع ، وأوعزوا إليهم ، ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحمولة والأثقال ، وتتلخص إلى السعة من المضايق والأوحال »[1] . بيد أن الذى حدث هو العكس تماما . وهو الفوضى المروعة ، والاختلال المطبق . يقول أبو الحجاج يوسف ، وهو شاهد العيان : « فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شنيعاً ، وكثر الضجيج ، واختلاط الأصوات ، وتهولت المحلات ، وأخذ العموم على شتى المسالك ، فلاترى سميعاً ولا مطيعاً » .

وكان أشنع ما فى ذلك ، هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة ، وتسرع فى تنفيذها . ذلك أن كثيراً من الأشياخ ورؤساء القبائل فهموا أنه يجب الارتداد فوراً وفى جوف الليل ، فهرعت طوائف غفيرة من الجند إلى الارتداد . وعبور النهر ، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والضجيج والفوضى . يقول الراوية شاهد العيان : « حضرت يوم هذا الإقلاع وليله ، فما رأيته فى تاريخ قبله ، ولا يحصر واصف هوله » ، وأقلع السيد أبو إسحاق ولد الخليفة نفسه فى جنده عند الفجر قاصداً إشبيلية ، واعتقد كثير أن الخليفة نفسه قد أقلع فى السحر ، واستمر عبور الجند على هذا النحو تباعاً ، حتى عبر معظم الجيش ، كل ذلك والخليفة غافل عما حدث . فلما أسفر الصبح ، ظهرت الحقيقة المروعة ، ولم يبق حول الخليفة الموحدى سوى الساقة ، فعندئذ أمر الخليفة بضرب الطبول ، فاجتمعت الفلول الباقية ؛ وانحدر الخليفة صوب النهر ، وبقى ابنه يعقوب المنصور مع بقية الساقة ، فى موضع المحلة مستعداً للقاء النصارى وردهم وحماية أبيه ومن معه .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٦ .

ولكن نصارى شنترين أدركوا عندئذ ماوقع فى العسكر الموحدى ، من إقلاع وارتداد ، فبادروا بالخروج من المدينة ، وهجموا على القوات المنسحبة بشدة ، وأدركوا ساقة الخليفة ، ودافعت الفلول الموحدية بمنتهى البسالة ، وسقط خلال ذلك عدد من أكابر الموحدين والأندلسيين ، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة نفسه بعدوة الوادى ، وإصابه بعضهم بجراح خطيرة . وعلى أثر انتهاء المعركة أمر الخليفة بتفرق الجموع ، ورجوع كل جندى إلى قبيلته ، وأمر بتخريب الوادى ، وانتساف زروعه ، وقطع أشجاره وهدم ضياعه ، وتغوير مائه ، وحرق كل ما يمكن حرقه ، كما أمر بتقسيم السرايا فى نواحى الوادى لتحصيل الأقوات ، وانتزاع السبي والغنائم . كل ذلك الخليفة الجريح ملتزم فراشه ، ومن حوله أطباؤه ابن زهر وابن طفيل[1] وابن قاسم ، وهو يزداد ضعفاً على ضعف ، ثم أمر الخليفة بالرحيل ، وهو محمول فى محفة ، حتى تم اجتياز وادى التاجُه ، وما كاد الموكب يقطع بضعة أميال أخرى ، حتى أسلم الخليفة الروح ، وذلك فى الثامن عشر لربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٩ يوليه سنة ١١٨٤ م)[2].

تلك هى رواية القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ، المرافق للجيش المنسحب عن ظروف الارتداد وعن إصابة الخليفة أبى يعقوب يوسف ووفاته متأثراً بجراحه . بيد أن هناك رواية أخرى هى رواية المراكشى ، وهو أيضاً معاصر ، ومن مؤرخى الموحدين ، وهى أنه لما رأى نصارى شنترين ما حدث من عبور الموحدين ، وانصراف معظم الجيش المحاصر ، ووقفوا على ما قرره الخليفة من الارتحال فى بقية جيشه ، خرجوا من المدينة فى خيل كثيفة ، وحملوا على المحلة الموحدية بشدة ، حتى بلغوا قبة أمير المؤمنين ، ودافعهم من حولها ، وجلهم من أعيان الأندلس ، حتى قتل كثير منهم ، ونفذ النصارى إلى خباء الخليفة ، فطعنه أحدهم تحت سرته طعنة توفى منها بعد أيام يسيرة ، وتكاثر الموحدون على الروم حتى ردوهم ، فانهزموا راجعين إلى المدينة ، وعبر أمير المؤمنين النهر

---

(١) وردت فى النص «ابن مقبل» ولكننا نعتقد أن ذلك تحريف لاسم ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتضع معظم الروايات تاريخ وفاة الخليفة فى شهر ربيع الآخر على خلاف فى اليوم الذى توفى فيه . ولكن المراكشى ينفرد بالقول بأن الخليفة أبا يعقوب توفى فى اليوم السابع من رجب سنة ٥٨٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٤ م) المعجب ص ١٤٧ . ويجاريه فى ذلك ابن خلكان فيذكر نفس التاريخ (الوفيات ج ٢ ص ٤٩٤) .

جريحاً فى محفة ، فلم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى توفى متأثراً بجراحه[١].

وهنالك رواية أخرى مماثلة تقترب فى جوهرها من رواية المراكشى ، وهى رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما وقع ارتداد معظم الجيش الموحدى ليلا ، وجاء الصبح ، فلم يجد الخليفة حوله سوى اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ، وقواد الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته ، فلما أشرقت الشمس وشهد النصارى ما وقع من ارتحال المحلة الموحدية ، وأنه لم يبق منها حول المدينة سوى قبة أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فتحوا أبواب المدينة ، وخرج جميع من فيها خرجة عنيفة وهم ينادون « الرى . الرى »[٢] أعنى الملك ، فاقتحموا محلة العبيد، حتى وصلوا إلى خباء الخليفة ، فزقوه واقتحموه ، فدافعهم الخليفة بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال ، فطعنه أحدهم طعنة نافذة ، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبن عليه حتى طعن ، وسقط على الأرض، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس، واجتمع المسلمون فقاتلوا النصارى قتالا عنيفاً حتى ردوهم عن الخباء ، ثم تابعوا قتالهم بشدة حتى هزموهم وردوهم إلى أبواب المدينة ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة تقدر بما يزيد على عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . ثم ركب أمير المؤمنين ، وقد أشرف على الموت ، وارتحل الناس ، ومات الخليفة خلال الطريق، وكانت وفاته فى يوم السبت الثانى من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (١٣ يوليه سنة ١١٨٤ م) وذلك على مقربة من الجزيرة الخضراء فى طريق جوازه إلى العدوة[٣] .

ويؤيد هذه الرواية عن مصرع الخليفة أبى يعقوب متأثراً بجراحه ، من المؤرخين المتأخرين، الوزير ابن الخطيب ، حيث يقول لنا إن الخلفة توفى بظاهر شنترين من سهم أصابه فى خبائه وهو محاصر لها ، قضى عليه ، وكتم موته . بيد أنه يضع تاريخ مصرعه فى الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونقل ابن خلكان هذه الرواية فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) "El Rey El Rey" .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وهو يوافق الثامن من أغسطس سنة ١١٨٤ م[١] .

ويوجد أخيراً رواية مفادها أن الخليفة أبايعقوب لم يمت متأثراً بجراحه ، ولكنه توفى من مرض لم تذكر لنا الرواية كنهه ، وهذه هي رواية ابن الأثير ، حيث يقول إن الخليفة حاصر شنترين شهراً ، فأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول (٥٨٠ هـ) وحمل تابوته إلى مدينة إشبيلية[٢] ، ويأخذ صاحب الروض المعطار بهذه الرواية فيقول لنا إن الخليفة ، وهو مقيم على شنترين عرض له المرض الذى توفى منه ، وأقام الرحل به مضطجعاً على فراشه ، وضعفه يتزايد ، إلى أن تُفقد فى بعض أميال فوجد ميتاً وذلك فى سنة ٥٨٠ هـ[٣] .

ويتردد ابن خلدون بين الروايتين ، فيقول لنا إن الخليفة توفى من سهم أصابه فى حومة القتال عندما اقتحم النصارى محلته أو أنه توفى من مرض أصابه[٤] .

وكان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته فى السابعة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده ، حسبما تقدم فى سنة ٥٢٣ هـ بتينملّل .

وإنه ليبدو لنا إزاء اتفاق الروايات الموحدية المعاصرة ، ومعها صاحب روض القرطاس وابن الخطيب ، أن القول الراجح هو أن الخليفة أبا يعقوب قد أصيب فى الموقعة التى نشبت بين النصارى وبين محلته ، وأنه توفى متأثراً بجراحه . ومن الواضح أن وقوع مثل هذا الحادث ممكن ومعقول فى مثل الظروف التى أحاطت بالجيش المنسحب ، وفى غمرة الخلل الذى أصابه ، والفوضى التى سادته . ولقد كان انسحاب الجيش الموحدى من أمام أسوار شنترين نكبة مؤلمة ، تفوق فى نتائجها الخطيرة المروعة ، نكبة انسحابه من وبذة قبل ذلك باثنى عشر عاما . ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب ، ونفس وجوه الضعف التى انتابت الجيش الموحدى ، وعصفت بتماسكه ونظامه ، وجعلته بالرغم من ضخامته ، ووفرة استعداده وعدته ، أشبه بكتلة بشرية مفككة ، لاتجمعها أية قيادة حازمة ، ولاهدف مشترك ، وفتت فى قواه المعنوية ، فانهارت لديه فكرة الجهاد التى حشد من أجلها ، وأضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها ،

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال الذى سبقت الإشارة إليه لوحة ٣٩٥

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٥٤٦ .

وترقب أول فرصة للانسحاب . ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأى قواده ، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة ، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر ، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدى من شرقى وجنوبى شنترين إلى الشمال والغرب ، وهو أمر عارضه القواد الموحدون، لأنه يضع الجيش الموحدى فى مواقع تعرضه لخطر التطويق ، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذى استأثر الخليفة بإصداره ، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع ، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والفوضى ، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة ، وبين حرس الخليفة وخاصته ، فكانت النكبة المروعة ، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية ، أضف إلى ذلك كله ماكان يعانيه الجيش الموحدى من نقص فى تمويناته ، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضى التى يخترقها خلال مسيره . وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله ، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حماة وبذة ، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم ، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها ، واستمر اعتمادهم فى حشدها على التفوق العددى دون سواه .

— ٢ —

لما توفى الخليفة أبو يعقوب متأثراً بجراحه بعد عبوره نهر التاجُه بقليل ، محمولا على محفته حسبما تقدم ، كتمت وفاته ، وحُمل كالعادة مسجياً فى محفته ، حتى نزل الركب خلال الطريق إلى إشبيلية ، بعد موضع يسميه صاحب البيان المغرب « بحصن طرش » وهنالك ضربت أخبية الخليفة كالعادة ، وأحدق الفتيان والخدمة بالقبة الخليفية وفقاً للرسوم المعتادة ، وكان السيد يعقوب أبو يوسف ولد الخليفة هو الذى يدخل على أبيه منذ إصابته ، ويخرج من لدنه ، ويتصرف فى الأمور باسمه[١] ، فلما نزل الركب بالموضع المذكور ، وتكامل وصول الناس ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الأكابر الموجودين مع الجيش ، وإلى أكابر الموحدين ، وأطلعهم على وفاة الخليفة، وكشف لهم عن جثمانه وهو مسجى فى فراشه ، وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبى يوسف ، فاستجابوا إليه ، وتمت البيعة فى مساء نفس اليوم . وفى اليوم التالى استؤنف السير ، وكل شىء على

(١) روض القرطاس ص ١٤١ .

حاله ، واستمر كتمان وفاة الخليفة الراحل ، بيد أنه كفن وأدرج فى تابوت ، حتى وصل الركب إلى إشبيلية ، وذلك بعد نحو شهر من بداية انسحاب الجيش وعبوره لنهر التاجه .

واستراح أبو يوسف يعقوب بإشبيلية ثلاثة أيام ، تلاحقت خلالها الحشود ، ووصلت جموع العرب والموحدين وسائر الطوائف الأخرى ، ونزلت فى أكناف إشبيلية ، ودعى الناس خاصتهم وعامتهم ، لتقديم البيعة ، وأعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وغصت القصبة بوجوه القوم من موحدين وغيرهم ، وأخذت البيعة للخليفة الجديد مدى يومين هما وفقاً لقول صاحب البيان غرة وثانى جمادى الأولى[١] وأغدق الخليفة بهذه المناسبة صلاته على قرابته وأهل بيته ، وخص أخاه السيد أبا زيد بهبة جلية قدرها عشرة آلاف لما بذل فى خدمته ، وتنظيم بيعته .

وقد تمت بيعة الخليفة أبى يوسف فى هدوء وسلام ، ودون أية معارضة ؛ أولا لأن أباه الخليفة الراحل أبا يعقوب كان قد خصه بولاية عهده أثناء حياته ، وإن لم تقدم لنا الرواية تاريخ هذا التعيين[٢] ، وثانيا لأنه كان أكبر أولاده[٣] ، فكان هذا الاعتبار فى ذاته مبرراً لتقديمه ، وذلك خلافاً لما كان عليه أبوه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن حيث قدم للخلافة مع وجود شقيقه الأكبر السيد أبى حفص ، وذلك تنفيذاً لوصية أبيه .

ولما كمل أمر البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس ، وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شئون الأندلس ، دعا الخليفة فى اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى (٢ سبتمبر سنة ١١٨٤) أشياخ الموحدين والعرب ، وشيوخ الوفود من سائر القواعد ، وأذن بالحركة وانقضاء الغزو ، والتأهب للرحيل ، وكتب بذلك لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين ، وقدم القائد أبو العباس الصقلى إلى ثغر طريف ، فى ثلاث عشرة سفينة لنقل الخليفة وخاصته وجيشه ، وتقدمت سفينتان

---

(١) وهذا التاريخ لا يتفق مع سير الأحداث والتواريخ السابقة . فقد كانت وفاة الخليفة وفقاً لنفس المؤرخ فى ١٨ ربيع الثانى سنة ٥٨٠ هـ ، وقد استغرق وصول الجيش المنسحب مدى شهر . وإذا فقد كان من المنطق أن تكون البيعة فى نحو منتصف شهر جمادى الأولى لا فى غرته (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٨ و١٤٢) .

(٢) المعجب للمراكشى ص ١٤٧ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٢٠ .

بالانتقال إلى رباط الفتح بمياه سلا . وفى فجر اليوم التالى ، خرج أهل الأندلس إلى بحيرة الوادى فى جموع حاشدة ، وضربت قبة الخليفة على شاطئ النهر (الوادى الكبير) ، ونظم الموكب الخليفى ، يتقدمه المصحف الكريم ، وسار الخليفة فى ضحى اليوم، فنزل بقرية طريانة قبالة إشبيلية ، ثم غادرها إلى شريش، تتبعه الجيوش ، ثم إلى مدينة شذونه ، أومدينة ابن السليم(١) ، حيث التقى بالسيد أبى زكريا ابن أخيه السيد أبى حفص قادماً من تلمسان مع أعيان عرب زغبة ، ومعه سبعمائة جواد معونة لأهل الأندلس . وسار الخليفة بعد ذلك جنوباً صوب الشاطىء حتى وصل إلى الموضع المسمى بحجر الإبل(٢)، وهى ربوة تقع على مقربة من طريف ، وقد اجتمع الأسطول على طول الشاطىء ، على قدم الأهبة لنقل الخليفة وجيشه ، وفى اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ (١٢ سبتمبر) ضربت قبة الخليفة ، وقام أهل الأندلس بتحية الوداع ، وكذلك ودع الخليفة إخوته الذين قدّمهم للولاية بالأندلس ، وهم أبو إسحاق وأبو زيد وأبو يحيى . وفى ضحى نفس اليوم ركب الخليفة البحر ، وأمام سفينته مصحف عثمان، ونزل بقصر مصمودة ، أو القصر الصغير ، قبالة ثغر طريف من البوغاز ، واستراح هنالك ريثما تم جواز سائر الجيش . ثم غادر القصر إلى رباط الفتح ، وهنالك تسمى لأول مرة بأمير المؤمنين ، وكان منذ بيعته يكتفى بلقب « الأمير يعقوب» ، وكتب فى الحال بذلك إلى بلاد الأندلس . وتلقاه فى الرباط ، أبوعبد الله بن واجاج فى وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم ، وأقال إبراهيم بن إسماعيل من عمل فاس ، وأمر سائر العمال بالمثول إلى الحضرة ، وقام بدفن أبيه أمير المؤمنين أبى يعقوب مؤقتاً بدار الخليفة بالرباط ، ثم نقل منها بعد ذلك ودفن بتينملل إلى جانب أبيه عبد المؤمن والمهدى ابن تومرت(٣). وغادر الخليفة بعد ذلك رباط الفتح إلى حضرته مراكش(٤) .

— ٣ —

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وبالرغم

---

(١) وهى بالإسبانية **Medina Sidonia**

(٢) وهى بالإسبانية **La Pena del Cierro** .

(٣) روض القرطاس ص ١٤١ ، والحلل الموشية ص ١٤٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٣ .

من أنه لم يحقق فى ميادين الحرب والسياسة نتائج عظيمة كالتى حققها أبوه الخليفة عبد المؤمن ، وولده الخليفة يعقوب المنصور ، فإنه يعتبر مع ذلك ، ولاسيما من النواحى الإدارية والعمرانية ، ثالث هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، الذين بلغت الدولة الموحدية فى ظلهم أوج قوتها وعظمتها .

وقد امتاز حكم الخليفة أبى يعقوب بالحزم ، وتحرى الحق والعدالة ومطاردة الظلم والبغى[1] ، وترجع هذه النزعة إلى ماكان يتسم به هذا الخليفة من التقى والورع ، ومن العلم والتبحر فى العلوم الشرعية . وقد ظهرت هذه النزعة بصورة عملية ، فى غير مناسبة من أوامره وتصرفاته . وربما كانت رسالته التى وجهها إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة ، وإلى سائر الطلبة الموحدين بالأندلس فى سنة ٥٦١ هـ ، بشأن وجوب تحرى الدقة فى تنفيذ الأحكام وتوقيع العقوبات ، أبرز محاولة بذلها فى هذا الشأن . وقد رأينا كيف عنى الخليفة فى هذه الرسالة التى لخصنا محتوياتها فيما تقدم ، بإصدار أمره إلى الموحدين بألا يُقضى بحكم الإعدام إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة مشفوعة بالشرح وأقوال الشهود والعدول ، وأن تكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، وكذا فى سائر المعاملات والأموال ، واستحقاقها ، وفى الرقاب وعتقها وغير ذلك . وكان الخليفة إلى جانب هذه المحاولات الشرعية ، يقوم بمطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فإذا وقف على ما يرتكبه بعضهم من ظلم أوعسف أواغتيال أموال الناس بالباطل ، عزله ونكبه . وكان من أبرز ما فعله فى ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها ، والتنكيل بهم ، ومصادرة دورهم وأموالهم[2] ، وماقام به فى جوازه الأول إلى الأندلس من نكبة بعض عمال إشبيلية والمخزن من المختلسين وغيرهم ، وماقام به بعد ذلك من نكبة عماله ووزرائه بنى جامع الذين أستأثروا بالوزارة دهراً ، وغير ذلك مما أشرنا إليه .

وإلى جانب هذه النزعة إلى تحقيق العدالة ، كان حكم أبى يعقوب متسماً بالمقدرة والحزم ، فقد كان خبيراً بشئون مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته ، دؤوباً

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٦ ب .
(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٣١ .

على النظر فى الأمور ، وكان عارفاً بالشئون المالية ، ضابطاً لخراج مملكته[١]، وربما كانت هـذه المقدرة فى فهم الشـئون وتدبيرها راجعة بالأخص إلى ممارسته إياها ردحاً من الزمن قبل توليه الخلافة أيام أن كان والياً لإشبيلية ، وقائماً بشئون الأندلس .

وقد تجلى هذا الحزم فى حكم ابن يعقوب فى شدة عنايته بقمع أية نزعة إلى الخروج والعصيان ، والسير بنفسه إلى مقاتلة الخوارج ، وذلك كما حدث عند فتنة غمارة ، ثم فتنة صنهاجة ، وحين ثورة قفصة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه فى مواضعه .

والخلة الثانية التى امتاز بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، هى شغفه بالجهاد فى سبيل الله ، وقد ظهر أثر هذا الشغف بالجهاد من الناحية النظرية فيما ألفه أبو يعقوب فى فضل الجهاد ، مما نذكره بعد ؛ وظهر من الناحية العملية فى عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها ، ثم قيادتها فى حملتيه العظيمتين إلى شبه الجزيرة الأندلسية . وبالرغم من أن الخليفة أبا يعقوب لم يكن موفقاً فى حملتيه المذكورتين ، وقد سجل فشله الأول تحت أسوار وبذة ، ثم سجل فشله الثانى أمام أسوار شنترين ، وبالرغم من أن الحملتين لم تكونا بعيدتين عن تحقيق الأغراض العسكرية والإقليمية ، فإن مقصد الجهاد كان هو النزعة المسيرة لها ، وقد ذهب الخليفة ضحية هذه النزعة واستشهد فى ميدان الجهاد .

وكان أبو يعقوب إلى جانب ذلك ملكاً عظيما « شديد الملوكية » على حد قول المؤرخ ، بعيد الهمة ، وافر البذل والجود ، عمت صلاته وأعطيته سائر الطوائف . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية الموحدين فى الإعطاء والمواساة ، وفى أيامه ساد الرخاء واستغنى الناس ، وكثرت فى أيديهم الأموال »[٢] .

على أن ألمع وأعظم خلة كان يتسم بها أبو يعقوب ، هو علمه وأدبه ، وقد أفاضت الروايات المعاصرة واللاحقة فى التنويه بمواهبه العلمية والأدبية ، ويجمل ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، العارف بشخص أبى يعقوب وخلاله ، مواهبه العلمية ، فى تلك الفقرة : « كان الأمير أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه كاملا فاضلا عدلا ورعاً جزْلا مستظهراً للقرآن ، حافظاً له ، عالماً بالحديث ،

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) المعجب ص ١٣٣ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

متقناً للعلوم الشرعية والأصولية، متقدماً فى علم الإمام المهدى رضى الله عنه»(١) .

على أن ما يجمله ابن صاحب الصلاة فى تلك الكلمات القليلة ، يفصله لنا المراكشى بإفاضة فى حديثه عن أبى يعقوب . وقد عاش المراكشى قريباً من عصر أبى يعقوب ، وكانت تربطه بعدة من أبنائه مثل أبى زكريا يحيى ، وأبى عبد الله محمد ، وأبى إبراهيم إسحق ، روابط وثيقة .

يقول المراكشى إن أبا يعقوب كان « أعرف الناس كيف تكلمت العرب ، وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها ، فى الجاهلية والإسلام » . ثم يقول : « إنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسرعهم نفوذ خاطر فى غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية »(٢) .

ويجب لكى نقدر روعة هذه الصفات فى أبى يعقوب ، أن نذكر أولا أنه كان بأرومته من صميم أصول البربر ، وذلك سواء من ناحية أبيه أو ناحية أمه ، وقد ولد ونشأ بتينملل عاصمة المهدى ، فى بيئة بربرية محضة ، ولكن يجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن أبا يعقوب كانت تحمله نفس الروح العلمية التى امتاز بها أبوه الخليفة العالم عبد المؤمن بن على ، ثم يجب أن نذكر أيضاً أن أبا يعقوب قضى زهرة فتوته فى إشبيلية مذ عينه أبوه والياً لها فى سنة ٥٥١ هـ ، وهو فى نحو الثامنة عشرة من عمره ، حتى وفاة أبيه فى سنة ٥٥٨ هـ ، حينما استدعى لتولى الخلافة من بعده . فى هذه الأعوام الثمانية التى قضاها أبو يعقوب فى المدينة الأندلسية العظيمة ، التى كانت قد غدت منذ اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية ، تفتحت مواهب أبى يعقوب العلمية والأدبية ، وقد كانت إشبيلية يومئذ مجمع أقطاب اللغة والعلوم الدينية ، وكان أبو يعقوب منذ حداثته حافظاً للقرآن متمكناً من الحديث ، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخارى . وكان فى نفس الوقت بارعاً فى الفقه ؛ وفى إشبيلية تلقى علوم اللغة عن بعض أقطابها ، وفى مقدمتهم العلامة اللغوى أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون ، وبرع فى النحو والأدب . ولما ولى الخلافة ، وعاد إلى إشبيلية فى جوازه الأول إلى الأندلس ، واستطالت إقامته بها زهاء خمسة أعوام أخرى ، تجلت فى هذه الفترة روعة مواهبه العلمية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٤٦ ب .

(٢) راجع المعجب ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أئمة التفكير الإسلامى ، هم طبيبه الخاص ، الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل الوادى آشى ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد بن رشد[١] ، والطبيب العبقرى أبو بكر بن عبد الملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه وطبيبه ابن طفيل ، ولايصبر على فراقه . وهكذا أتيح لأبى يعقوب أن يطلق العنان لشغفه بالدراسات الفلسفية فى ظل هذا الأفق العلمى الباهر ؛ ويبدو مما يذكره لنا المراكشى ، عن بعض مجالس الخليفة الفلسفية نقلا عما رواه له أبو بكر ابن يحيى القرطبى عن أستاذه ابن رشد ، أن الخليفة كان يأخذ من الفلسفة بقسط ملحوظ ، ويبدى فى شرح مسائلها « غزارة حفظ » تدعو إلى الإعجاب . ويضيف القرطبى إلى ذلك رواية أخرى مفادها أن أبا يعقوب هو الذى أوعز إلى ابن طفيل بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها مما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام بهذه المهمة لما يعلمه من مقدرته وقوة نزوعه وصفاء قريحته ، وأن هذا هو الذى حمل ابن رشد حسبما يقول لنا ، على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى الشروح التى اشتهر بها ابن رشد ، وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل ابن رشد وبراعته[٢] .

وحمل الخليفة أبو يعقوب شغفه بالدراسات الفلسفية على الاهتمام بجميع كتبها ، والتنقيب عنها ، وعن غيرها من الكتب الجليلة ، فى سائر أنحاء المغرب والأندلس ، وبذل فى ذلك جهوداً وأموالا جمة ، واجتمع له منها مقادير ضخمة قيل إنها بلغت قرب ماكانت تبلغه المكتبة الأموية العظيمة أيام الحكم المستنصر . ويروى لنا المراكشى طرفاً من هذه الجهود ، وكيف وقع عمال الخليفة على مجموعات عظيمة من كتب الطب والفلك كانت لدى رجل بإشبيلية يعرف بأبى الحجاج المرانى ، وأن هذه الكتب كانت قد وقعت إلى أبيه أيام الفتنة بالأندلس[٣] .

---

(١) كان ابن رشد قاضيا لإشبيلية منذ سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

(٣) المعجب ص ١٣٣ و ١٣٤ .

وقد انتهى إلينا من آثار الخليفة أبى يعقوب العلمية، بحث دينى يكشف لنا عن براعته فى علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو كتاب «الجهاد» الذى ألحق بكتاب المهدى ابن تومرت أوكتاب «أعز ما يطلب» وفيه يورد مؤلفه طائفة كبيرة من الأحاديث التى وردت فى فضل الجهاد فى سبيل الله، والحث عليه، وتبيان محاسنه. ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل. ويحمل هذا الكتاب فى خاتمته اسم مؤلفه، وهو الخليفة أمير المؤمنين، وتاريخ الانتهاء من وضعه، وهو العشر الأواخر من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة أعنى قبيل وفاة واضعه بنحو تسعة أشهر[1].

وكان الخليفة أبو يعقوب كلفاً بالمشاريع الإنشائية العظيمة، وقد قام بإنشاء طائفة من المنشآت العمرانية الهامة، والصروح الجليلة، التى خلدت اسمه، وجعلته فى مقدمة خلفاء الموحدين، بل وفى مقدمة ملوك المغرب قاطبة فى هذا الميدان. ويكفى أن نذكر هنا ما قام به فى إشبيلية حاضرة الأندلس، من المشاريع والمنشآت العظيمة مثل قنطرة طريانة، ومسجد إشبيلية الجامع، وصومعته العظيمة التى أتمها ولده يعقوب المنصور، ومشروع إمداد إشبيلية بالماء، وتجديد أسوارها التى خربها السيل، وإنشاء القصور والبساتين الموحدية العظيمة خارج إشبيلية، وإنشاء قصبة بطليوس العظيمة وإمدادها بالماء، وهى التى ما زالت أطلالها القائمة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والمنعة. وماقام به أخيراً من توسيع حضرة مراكش وتجميلها، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى مواضعه.

* * *

وتولى الحجابة لأبى يعقوب أول ولايته، شقيقه وكبيره السيد أبو حفص، ولما تنحى عنها وزر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع، واستمر فى منصبه نحو خمسة عشر عاما. ولما اشتد طغيانه، وبدت مثالبه، نكبه أبو يعقوب واستصفى أمواله، ونفاه مع ولده إلى الأندلس سنة ٥٧٣ هـ. فخلفه فى الوزارة أبو بكر ابن يوسف الكومى، ليعمل تحت رياسة ولده وولى عهده أبى يوسف يعقوب، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة أبى يعقوب وقيام ولده يعقوب بالأمر من بعده[2].

---

(١) راجع فصل الجهاد فى كتاب المهدى ابن تومرت ص ٣٧٧ — ٤٠٠.

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٠، وابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة الخليفة أبى يعقوب، مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥.

وتولى القضاء فى عهده أبو محمد المالقى ، ثم عزل وولى بعده عيسى بن عمران التازى التسولى ، وكان عالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، وشاعراً مجيداً ، وخطيباً بليغاً ، وكان يخطب عن الوفود وفى المناسبات الهامة ، وكانت له مكانة رفيعة فى البلاط الموحدى . ثم ولى القضاء من بعده حجاج بن يوسف . ثم أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة . واستمر فى منصبه حتى وفاة أبى يعقوب ، ومن بعده فترة أخرى فى أوائل عهد ولده يعقوب المنصور .

وتولى الكتابة لأبى يعقوب أبو الحسن بن عياش القرطبي كاتب أبيه من قبل . وكان هذا الكاتب الأندلسى ، قد فر من بلده قرطبة عند قيام الثورة بها فى أواخر العهد المرابطى ، ولجأ إلى إشبيلية ، واتصل بالسيد أبى حفص بن عبد المؤمن فاختاره لكتابته ، ثم صحبه معه إلى تلمسان ، ولم يزل متولياً كتابته حتى نكبة الخليفة عبد المؤمن لوزيره ابن عطية ، فاستدعاه الخليفة وعينه لكتابته . ولبث ابن عياش كاتباً للخليفة أبى يعقوب حتى توفى فى سنة ٥٦٨ هـ . وكتب لأبى يعقوب أيضاً أبو القاسم القالمى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وهو من أهل بجاية ، وأبو الحسن الهوزنى الإشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى . وفى مجموعة الرسائل الموحدية ، رسائل عديدة بقلم ابن عياش وزميله ابن محشرة تدل بما كان لهذين الكاتبين من مقدرة راسخة فى أساليب البيان(١) .

وترك أبو يعقوب من البنين ثمانية عشر ، وهم ولى عهده يعقوب المنصور وشقيقه إسحق ، ويحيى ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وإدريس ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى الصغير ، ومحمد ، وعمر ، وعبد الواحد ، وعبد الحق ، وطلحة وعبد الرحمن ، وموسى ، وعثمان . كما ترك عدة من البنات .

وأما عن شخصه ، فقد كان أبو يعقوب أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فاحم الشعر ، مستدير الوجه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، وكان جهير الصوت ، طيب المجالسة ، فصيح العبارة ، حلو الألفاظ ، رقيق الخلال(٢) .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال السابق ذكره لوحة ٣٩٥ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ . وقد عاش المراكشى قريبا من عصر الخليفة أبى يعقوب وكانت له صلة وثيقة ببعض أبنائه .

الكتاب السابع

عصر الخليفة يعقوب المنصور حتى موقعة العقاب

الفصل الأول

عصر الخليفة يعقوب المنصور

وبداية ثورة بنى غانية

الخليفة أبو يوسف يعقوب . رواية فى معارضة بيعته . اهتمامه بمطاردة الفساد والمنكر . حظره لبس الثياب الحريرية . عنايته بتحقيق العدل وقمع الظلم . جلوسه للنظر فى المظالم . إنشاؤه لضاحية الصالحة الملوكية . مضاعفته لوزن الدينار . بداية عدوان بنى غانية بإفريقية ، فتح المرابطين للجزائر الشرقية . ولاية وانور اللمتونى عليها . ولاية محمد بن غانية . استقلاله بعد سقوط المرابطين بحكم الجزائر . وفاته وولاية ولده إسحاق . الجزائر تغدو مثوى لبقايا المرابطين. تقدم الجزائر ونمو قوتها . غزوات سفنها لشواطىء الدول النصرانية . عقد التهادن بينها وبين بيزة وجنوة والبندقية . اطمئنانها أيام حكم ابن مردنيش . تحولها إلى مصانعة الموحدين بعد وفاته. اهتمام الموحدين بأمر الجزائر. مطالبتهم لإسحاق الاعتراف بالطاعة . وفاة إسحاق وولاية ولده محمد . مقدم على الربرتير سفير الخليفة إلى الجزائر . اعتراف محمد بطاعة الخليفة . خروج إخوته عليه واعتقالهم إياه . حجزهم لسفير الخليفة ورفضهم لطاعة الموحدين . خطتهم لمحاربة الموحدين فى إفريقية . تدبيرهم لغزو بجاية . مسير على بن إسحاق إليها فى حملة بحرية . اقتحامه إياها بمواطأة بعض أهلها. نزوله بها ودعوته لبنى العباس . تعيينه لأخيه يحيى والياً لها . مطاردته لواليها الموحدى السيد أبى الربيع . هزيمة السيد وفراره . استيلاء على على الجزائر ومليانة وأشير والقلعة . وصف لمدينة مليانة . عوده إلى بجاية وانتهابهما فيها . مسيره إلى قسنطينة ورده عنها . اهتمام الخليفة المنصور بتلك الحوادث . إرساله جيشاً إلى إفريقية بقيادة السيد أبى زيد . تسييره للأسطول فى نفس الوقت . ثورة المدن المحتلة ضد الغزاة . استيلاء الأسطول الموحدى على مدينة الجزائر. القبض على يحيى بن غانية وعلى حاكم مليانة المرابطى . الثورة داخل بجاية . دخول الموحدين إياها . فرار يحيى بن غانية وإخوته . أسر رشيد قائد سفن الميارقة والاستيلاء عليها . فشل على بن إسحاق فى اقتحام قسنطينة . فراره وإخوته وفلوله إلى الصحراء . مطاردته وعجز الموحدين عن إدراكه . فراره إلى بلاد الجريد ونهبه لحلاتها . استمالته لطوائف العرب . اقتحامه لمدينة توزر ونهبها . الفوضى فى بجاية . اقتحام غزى الصنهاجى قائد ابن غانية لأشير . قدوم الموحدين لإنقاذها ونجاحهم فى استردادها . مصرع غزى وأخيه . مقتل رشيد الرومى . مقتل وتشريد أنصار بنى غانية فى بجاية . زحف على بن غانية على قفصة واستيلاؤه عليها . دعوته للخليفة العباسى . استمالته لطوائف العرب . تحالفه مع قراقوش الأرمنى . كيف نزح قراقوش وصحبه الترك إلى المغرب . افتتاحه لفزان وطرابلس . التفاف العرب حوله . تطور الحوادث فى الجزائر الشرقية . مؤامرة الربرتير لخلع طلحة بن إسحاق وإعادة أخيه محمد . نجاح المؤامرة . دعوة الربرتير للخليفة الموحدى . مغادرته لميورقة . محاولة الموحدين تملك الجزائر . فشل هذه المحاولة . ثورة أهل ميورقة على محمد . مقدم عبد الله بن غانية . انتزاعه الولاية ونفيه لمحمد . محاولة أخرى للموحدين لافتتاح الجزائر . فشلهم فى أخذ ميورقة . تفاقم أمر على بن غانية بإفريقية . تحالفه مع قراقوش وطوائف العرب . انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يبسط حكم الإرهابيه

على إفريقية . اهتمام الخليفة يعقوب بذلك . تجهيزه لجيش موحدى . مسيره فى قواته إلى رباط الفتح ثم إلى فاس. عنايته بالشئون خلال مسيره . مسيره إلى قسنطينة ثم إلى تونس .استعداد ابن غانية وحلفائه . الخليفة يرسل حملة لقتاله بقيادة السيد أبى يوسف . اللقاء بين الموحدين والميارقة وحلفائهم قرب قفصة . موقعة عمرة . هزيمة الموحدين ومصرع أكثرهم . الاستيلاء على محلتهم . فرار السيد أبى يوسف وفلوله . اهتمام الخليفة لتلك النكبة . خروجه فى قواته من تونس . مسيره صوب القيروان . إنذاره لابن غانية . مسيره إلى الحمة قرب قابس . مقدم ابن غانية وحلفائه . مهاجمة الموحدين للعرب حلفاء ابن غانية . تخاذلهم وتبددهم . مهاجمة الموحدين للميارقة والترك . المعركة الدموية . هزيمة الميارقة . فرار ابن غانية وقراقوش إلى الصحراء . استيلاء المنصور على قابس وبلاد الجريد . محاصرته لقفصة وتسليمها بالأمان . القبض على قادة الغز وإعدامهم . توحيد قراقوش وابن زيان . عودة المنصور إلى تونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى مكناسة . تآمر أخيه الرشيد وعمه سليمان ضده . نكوصهما ومسيرهما لمقابلة الخليفة . القبض عليهما وإعدامها . دخول الخليفة إلى الحضرة . اهتمامه بشئون الأندلس واستعداده للجهاد .

استعرضنا فيما تقدم مجمل الحوادث التى وقعت عقب نكبة شنترين ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وما تم من مراحل بيعة الخليفة أبى يوسف يعقوب ولد الخليفة الراحل ، وعبوره من الأندلس إلى العدوة عائداً إلى حضرة مراكش .

وكان الخليفة الجديد فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمدينة قصر عبد الكريم أو القصر الكبير أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ (يناير سنة ١١٦٠) أو فى سنة ٥٥٥هـ على قول آخر . وأمه أم ولد كان قد أهداها سيدراى بن وزير صاحب شلب لأبيه الخليفة أبى يعقوب[١]. لقبه المنصور بفضل الله ، أسبغته عليه انتصاراته المتوالية ولاسيما فى معركة الأرك العظيمة .

وقد رأينا كيف تمت بيعته الخاصة عقب وفاة أبيه ، بمحلة الجيش المنسحب ، وهو فى طريقه إلى إشبيلية ، ثم تأيدت بعد ذلك بيعته العامة بإشبيلية ، ولم تلق هذه البيعة يومئذ معارضة من أحد . ولكن صاحب المعجب ، يقول لنا إنه كان له من إخوته وعمومته منافسون لايرونه أهلا للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء سيرته فى صباه ، وأنه لقى منهم شدة . بيد أنه لما نزل خلال عودته بسلا ، استجاب لبيعته من كان قد تخلف من أعمامه بنى عبد المؤمن ، بعد ما أغدق عليهم الأموال والإقطاعات الواسعة[٢].

---

(١) البيذق فى أخبار المهدى ابن تومرت ص ١١٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٣ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ١٠ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

وبدأ الخليفة يعقوب عهده بعمل خير مشكور ، فأخرج من بيت المال مائة ألف دينار من الذهب ، فرقت فى أسر الفقراء والضعفاء فى سائر أنحاء المغرب ، وأمر بتسريح المسجونين(١) . ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التى بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته ، وكان الناس قد انغمسوا ، فى الدعة ، وانهمكوا فى ضروب اللهو والملاذ ، وراجت سوق الخمور والقيان والغانيات ، فأريقت الخمور فى كل مكان ، ونفذت الأوامر بذلك إلى سائر الجهات ، وأنذر المخالفون بعقاب الموت ، وطاردت الشرطة كل مستهتر ، وألقت القبض على من وجد من المغنين ، فتفرقوا فى كل مكان ، ولاذوا بالنكيرة والاختفاء ، واختفى القيان ، وزهد الناس فى مجالسهن ، وبعث الخليفة بهذه المناسبة إلى إشبيلية ، حاضرة الأندلس الموحدية ، برسالة إلى الطلبة والموحدين والأشياخ مؤرخة فى فى عقب رمضان سنة ٥٨٠ هـ يأمر فيها بمطاردة شراب الرُّب ، وهو مسكر ذائع ، وقطعه جملة ، ومنع بيعه وإغلاق حوانيته ، وإراقة مايوجد منه ، وتوقيع أشد العقاب على من يقتنيه ، وبأن تنفذ هذه الرسالة إلى كافة الجهات للعمل بما فيها(٢) . وأمر الخليفة كذلك بمنع الثياب الحريرية الغالية ، والاجتزاء منها بالرسم الرقيق ، ومنع النساء من لبس الثياب الحفيلة ، والاقتصار على الساذج القليل ، وأخرج ماكان فى المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب ، فبيعت منه مقادير وفيرة بأثمان باهظة . وهكذا هبت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف ، واختفى كثير من ضروب الفساد التى كانت ذائعة بها(٣) .

وعنى الخليفة فى نفس الوقت بالعمل على بسط العدل وتأييده ورد المظالم التى وقعت أيام أبيه ، ومطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فنفذت كتبه إلى سائر الولاة والعمال بمراعاة العدل ، وتأنيس الرعية ، والعمل على إرضائهم فى اقتضاء حقوقهم ، وكف الظلمة عن إرهاقهم ، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين ، والمتظلمين من شبه الجزيرة . فاستبشر الناس بالعهد الجديد وطوالعه ، وأملوا تحقيق العدل والخير .

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .
(٢) الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل الموحدية (ص ١٦٤ — ١٦٧) .
(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٣ ، و١٤٤ ، و١٤٥ .

ورأى الخليفة أن يقرن هذا التوجيه إلى تحقيق العدالة ، بأن يجلس للنظر بنفسه فى المظالم وإجراء العدل ، واتخذ مجلسه لذلك الغرض بالمسجد الجامع المجاور لقصر الحجر القديم ، وكان بدأ جلوسه فى غرة شهر رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وكان يداوم جلوسه منذ الضحى إلى قرب الزوال . ويفد إليه المتظلمون من كل ضرب ، فيؤنسهم برفقه ولينه ، ويستمع إلى ظلاماتهم ، وكثرت دعاوى المدعين من السوقة والتجار ، قبل السادة والأشياخ والأكابر ، بطالب الحقوق والأموال ، وكثر فى ذلك الزور والتدليس ، فكان يقع الصلح فى معظم الأحوال بما يرضى المدعين دفعاً للفضيحة ، فلما تمادى هذا الأمر ، وكثر وفود السفلة والغوغاء وانكشف أمرهم ، وبدا تحاملهم ، قطع الخليفة جلوسه للعامة ، وأسدل الستار على هذا السيل من الإفك والبهتان[1] .

وفى العام التالى ، اعتزم الخليفة أن ينشئ له ضاحية ملوكية تتفق مع روعة الملك ومقتضياته ، وذلك بعد أن ضاق قصر الحجر القديم — قصر على بن يوسف — وملحقاته ، عن استيعاب الأغراض الخليفية ، ومطالب البلاط والحاشية ، فاختطت ضاحية الصالحة ، على رقعة مستطيلة تمتد فى جنوبى مراكش ، ما بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً . وكان البدء فى إنشائها فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ هـ (٢٨ سبتمبر سنة ١١٨٥ م) وحشد لبنائها رهط من المهندسين والعرفاء ، وآلاف من العمال والبنائين والفنانين ، من المغرب وإفريقية والأندلس ، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة ، ورتب لها الحفاظ والنظار . وأمر الخليفة أن يراعى فى إقامتها منتهى الإتقان والمتانة ، وأنشئت بها عدة قصور ملوكية ، ومسجد جامع ، ما زال يقوم بها حتى اليوم ، ويحمل اسم منشئه الخليفة يعقوب المنصور ، واستمر العمل فى بنائها نحو أربعة أعوام ، حيث كملت فى شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ (مايو سنة ١١٨٨ م) ، وبدت فى أجمل هيئة ، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية ، بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتقان ، والفخامة[2] .

وفى نفس هذا العام الزاخر بمشاريع الإصلاح والإنشاء أعنى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) اتخذ الخليفة خطوة جديدة لها خطرها ، فى ميدان الإصلاح المالى ، وذلك هو

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٤ و ١٤٥ .
(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٥ و ١٤٦ .

إقدامه على مضاعفة وزن الدينار الموحدى . وكان الدينار الموحدى القديم صغير الحجم ، صغير الوزن ، لايعدو وزنه القانونى بحسب الوزن الحديث جرامين وخمسة وثلاثون فى المائة من الجرام ، فأمر المنصور بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس ، الدينار الجديد بوزن أربعة جرامات وسبعين فى المائة من الجرام ، فكان لذلك الإجراء أثر بالغ فى بث الطمأنينة المالية ، واستقرار التعامل بين الناس[1] .

بيد أنه حدثت فى نفس تلك الفترة التى خيم فيها ظل الأمن والاستبشار على العاصمة الموحدية ، والتى عنى فيها الخليفة الجديد ، بأعمال الإصلاح والإنشاء — حدثت بإفريقية حوادث فى منتهى الخطورة ، إذ هاجم بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، أو أصحاب ميورقة ، ثغر بجاية واستولوا عليه ، واستولوا على عدة أخرى من ثغور الشاطئ ، وكان ذلك بداية ذلك الصراع المرير الذى نشب فى أراضى إفريقية بين الموحدين وبنى غانية ، واستطال أكثر من نصف قرن ، وكان له أبلغ الأثر فى انحلال الدولة الموحدية واستغراق جهودها ، وتبديد قواها ومواردها .

ولابد لنا لكى نفهم طبيعة ذلك الصراع وتطوراته ، والبواعث التى أدت إليه ، أن نعود فترة طويلة إلى الوراء ، نستعرض فيها تاريخ الجزائر الشرقية ، مذ أسندت ولايتها إلى بنى غانية أيام العهد المرابطى .

— ١ —

ذكرنا فيما تقدم من أخبار الدولة المرابطية أن أمير المسلمين على بن يوسف ، حينما غزا الجنويون والبيزيون وحليفهم أمير برشلونة ، الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل سنة ١١١٥ م) واستولوا على مدينة ميورقة بعد حصار طويل ، بادر بتجهيز أسطول مرابطى ضخم لاسترداد الجزائر ، واستردها المرابطون بالفعل فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦م) وعين أمير المسلمين لولايتها وانور بن أبى بكر اللمتونى ، فلبث فى حكمها زهاء عشرة أعوام ، ولكنه أساء السيرة واستبد وبغى ، حتى اضطرمت الثورة فى الجزائر ، وقبض الثوار على وانور ، وبعثوا إلى أمير المسلمين ، يشرحون ظلاماتهم ، ويلتمسون إليه أن

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وراجع كتاب « الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة » المنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (معهد الدراسات الإسلامية بمدريد سنة ١٩٦٠) ص ٥١ .

يعين لهم والياً آخر ، فاستجاب أمير المسلمين إلى رغبتهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، ولم يكن هذا الوالى الجديد ، سوى محمد بن غانية المسوفى ، وهو أخو الأمير القائد أبى زكريا يحيى بن غانية ، وكان يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر فى سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦م) وتولى شئونها بحزم وكفاية ، وشاء القدر أن تكون ولايته للجزائر ، فاتحة عهد جديد فى تاريخها ، يتصل مدى أمد قصير بتاريخ الدولة المرابطية ، ثم يغدو بعد ذلك مستقلا فى ظل بنى غانية .

وقد سبق لنا التعريف ببنى غاية ، وتتبع سيرة زعيمهم القائد البطل يحيى ابن غانية ، حتى وفاته بغرناطة سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨م) ، خلال غمار الثورة التى اضطرمت بأرجاء الأندلس ضد المرابطين. أما أخوه محمد بن غانية ، فقد لبث على ولايته للجزائر ، حتى سقطت الدولة المرابطية ، ودخل الموحدون مراكش، فى شوال سنة٥٤١ هـ (مارس ١١٤٧) . وكان محمد ، مذ رأى انهيار الدولة المرابطية ، وقيام أمر الموحدين ، يعمل على توطيد سلطانه بالجزائر ، والاستقلال بشئونها . ولما قضى الأمر وانتهت الدولة المرابطية ، لبث محمد مع ذلك على ولائه لقضية المرابطين ولمتونة ، واستمر يدعو فى الخطبة لأمير المسلمين وبنى العباس، وجعل من ميورقة والجزائر ، ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول لمتونة والمرابطين ، يستقرون بها تحت حمايته ورعايته .

واستطال حكم محمد بن غانية للجزائر زهاء ثلاثين عاما ، وكان يرقب من من مقره النائى بالبحر ، سير الحوادث ، وتقدم أمر الموحدين بشبه الجزيرة . بيد أنه كان يرى فى قيام ابن مردنيش ضد الموحدين ، وتمكن سلطانه فى شرق الأندلس ، عاملا يدعو إلى الطمأنينة . وكان مذ شعر بتوطد أمره ، فى تلك الجزائر المنعزلة، يعتزم أن يجعل منها ملكاً موثلا له ولعقبه . وكان له من الولد أربعة هم عبد الله وإسحق والزبير وطلحة ، فاختار لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله . وهنا تختلف الرواية فيقال إن إسحاق حقد على أخيه ودبر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه . وفى رواية أخرى أن عبد الله خلف أباه فى حكم الجزائر حينما توفى سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥م) ، وأن أخاه إسحاق خلفه فى الحكم بعد وفاته[1] .

وعلى أى حال فقد تولى اسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٢ ، وراجع أيضاً :
A. Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 19.

وضبطها بحزم وقوة . واستمر على سياسة أبيه من جعلها ملجأ للوافدين من فلول لمتونة ، ورمزاً لثورة المرابطين الأخيرة ضد الموحدين . وكان أولئك المرابطون الوافدون على الجزائر يمدونها بعونهم ، وروح البغض المتأصلة فيهم ضد الموحدين ، بقوى ذات شأن . وفى عهد إسحاق نمت موارد الجزائر وقوتها نمواً كبيراً ، وأضحت أساطيلها القوية عاملا يحسب حسابه فى ميزان القوى البحرية فى هذا الجانب من البحر المتوسط . ويبدو من خطاب أرسله الفارس برنجيردى ترّاجونا ، وهو من أشراف برشلونة ، وكان قد لجأ إلى ميورقة ، فراراً من اضطهاد أميره ، إلى ألفونسو الثانى ملك أراجون فى سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) ماكانت عليه ميورقة الإسلامية فى ذلك العهد من القوة والازدهار ووفرة الموارد . وكانت حملات إسحاق البحرية تتردد بالغزو بانتظام لشواطئ الممالك النصرانية القريبة ، وتثخن فيها ، وتحرز مقادير عظيمة من الغنائم والسبى ، ويقول لنا المراكشى إنه كان يغزو هذه الشواطئ فى العام مرتين[1] . وفى الروايات النصرانية ، أن مسلمى ميورقة فى عهد إسحاق غزوا ثغر طولون فى جنوبى فرنسا ، واستولوا عليه فى سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأسروا الڤيكونت هوجو جودفريد صاحب مرسيليا ، وعدة آخرين من أكابر النصارى ، وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية ، وتوالى غزواتها لشواطئ الدول النصرانية القريبة ، أن سعت جمهوريات چنوة وبيزة والبندقية إلى عقد المهادنة والصلح مع إسحاق ، فعقدت بين الفريقين فى سنة ١١٧٧ (٥٧٣ هـ) معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل منهما ألا يحدث أضراراً للآخر فى البر ولا فى البحر ، واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى توفى إسحاق فى أوائل سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)[2] .

ونحن نعرف أن ثورة ابن مردنيش ضد الموحدين ، استطالت زهاء ربع قرن حتى وفاته فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) ، وفى خلال ذلك كان ابن مردنيش يسيطر على شرق الأندلس كله ، وعلى أجزاء من الأندلس الوسطى . وكانت مملكة ميورقة خلال هذه الفترة ، تشعر بما تسبغها عليها سيطرة ابن مردنيش لشرق الأندلس من طمأنينة وسلامة . بيد أن سلطان ابن مردنيش مالبث أن أخذ فى التصدع ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٢ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 24 & 25

(٢) راجع : A. Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islamica en las Islas Baleares (Cit. Espana Sagrada) p. 144 - 145.

ولاسيما منذ انقلب عليه صهره وحليفه القوى إبراهيم بن همشك وانحاز إلى الموحدين. ثم انتهى أمر ابن مردنيش وانهارت مملكة الشرق بوفاته (٥٦٧ هـ) ودخل الموحدون مرسية ، وبسطوا سلطانهم على شرق الأندلس ، وأضحوا على مقربة من الجزائر. وهنا رأى إسحاق ابن غانية ، أن يتحول إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم ، فأخذ يراسلهم ، ويبعث إليهم بنفيس الهدايا من خاصة غنائمه وسبيه ، وكان الموحدون في البداية ، يستصغرون شأن الجزائر ، ولا يحفلون بأمرها ، فلما سيطروا على شواطئ الأندلس وثغورها الشرقية ، ولما رأوا تقرب إسحاق منهم ، أخذوا يهتمون بشأنها ، ويدركون أهمية موقعها البحرى ، فتوالت كتبهم على إسحاق بطلب الدخول فى طاعتهم ، وبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى إسحاق كتابه بذلك فى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وطلب إليه بصفة رسمية أن يعترف بطاعته وأن يدعو له فى الخطبة . فعرض إسحاق هذا الأمر على أكابر أصحابه ، فاختلف رأيهم بين الاستجابة والرفض ، فرأى أن يرجئ رده على الخليفة . وخرج فى أسطوله غازياً إلى بعض السواحل النصرانية القريبة ، فقتل فى بعض المعارك ، وقيل أنه طعن فى حلقه ، وحمل حياً إلى ميورقة ، وهنالك مات فى قصره . وكانت وفاته سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)[1] .

ولما توفى إسحاق بن محمد بن غانية ، خلفه فى حكم الجزائر أكبر أولاده العديدين محمد .[2] وكان قد اختاره فى حياته لولاية عهده . وكان محمد يواجه فى بداية حكمه تلك المشكلة الدقيقة ، التى أثارها الخليفة الموحدى بدعوته إلى خضوع الجزائر لسلطانه . وازدادت هذه المشكلة دقة بما عمد إليه الخليفة أبو يعقوب من إرسال سفيره إلى ميورقة فى بعض السفن الموحدية ، التى سارت به من سبتة ، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها ، وليختبر مدى استعداد بنى غانية للاستجابة إلى الدخول فى الدعوة الموحدية . وكان سفير الخليفة إلى محمد بن غانية ، رجلا من طراز خاص ، هو أبو الحسن على الربرتير ، وهو ولد الفارس النصرانى الربرتير El Reverter أو روبرتو القطلونى ، قائد جند الروم أو النصارى المرتزقة فى الجيش المرابطى أيام على بن يوسف ، وقد أبلى الربرتير وجنده الروم

---

(١) المعجب ص ١٥٢ ، وكذلك A. Bel : ibid; p. 24 & 25.

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ . ويقول المراكشى إن الذى خلف إسحاق هو أكبر أولاده على (ص ١٥٢) .

حسبما فصلنا من قبل ، خير البلاء فى محاربة الموحدين ، وانتصر عليهم مراراً ثم توفى قتيلا فى إحدى المعارك ، وذلك فى سنة ٥٣٩ ﻫ (١١٤٤ م) وترك ولدين ، كان أحدهما على هذا الذى اعتنق الإسلام ، وتحول إلى خدمة الموحدين .

واستقبل محمد بن غانية سفير الخليفة بترحاب ومودة ، وأبدى استجابته إلى الدخول فى طاعة الخليفة . وكان الخليفة أبو يعقوب عندئذ قد عبر البحر إلى الأندلس فى جيوشه الجرارة ، وذلك فى صفر سنة ٥٨٠ﻫ (أبريل سنة ١١٨٤م) ، قاصداً استئناف الجهاد ضد النصارى ، فلم يكن أمام محمد سوى الخضوع وسيلة لاتقاء الغزو الموحدى . ولكن إخوة محمد ، وهم على ويحيى وطاحة وعبد الله وسير وتاشفين ومحمد المنصور وإبراهيم ، لم يرقهم هذا الخضوع ، فثاروا ضد محمد ، وقبضوا عليه واعتقلوه ، وقدموا أخاهم علياً لولاية الجزائر ، ووضعوا فى الوقت نفسه سفير الخليفة علياً الربرتير فى شبه اعتقال ، وحالوا بينه وبين مغادرة الجزيرة ، واعتقلوا بحارة السفن الموحدية ، ووضعوا بها بحارة من ميورقة ، ولبثوا يطاولون الربرتير ، حتى جاءت الأنباء بمصرع الخليفة أبى يعقوب عقب موقعة شنترين ، وتفرق الجيوش الموحدية الغازية ، فعندئذ أعلن على وإخوته جهاراً رفضهم للدعوة الموحدية والدخول فيها ، وألقوا بعلى الربرتير إلى ظلام السجن[١] .

ولم يكتف بنو غانية — على وإخوته — برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم ، بل فكروا كذلك فى انتهاز فرصة ما أصاب الموحدين من آثار هزيمة شنترين ، وتفرق جيوشهم الغازية ، وجنوح الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب إلى القيام بأعمال الإصلاح والإنشاء فى ظل السكينة والعافية ، لإنزال أول ضرباتهم بالموحدين ، فاتجهوا بأبصارهم إلى إفريقية ، إلى تلك المنطقة المضطربة ، التى كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين ، والتى كانت طوائف العرب بها تجعل بتقلبها من فريق إلى فريق ، ميزان القوى دائماً فى تردد ، وأزمعوا غزو مدينة بجاية أقرب ثغور هذه المنطقة إلى ميورقة .

ولم يكن تفكير بنى غانية فى غزو بجاية دون تمهيد سابق ، فقد اتصل على ابن غانية ببعض العناصر الناقمة على الموحدين فى المدينة ، من أولياء بنى حماد

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك : **Campaner y Fuertes : ibid, p. 146 : -A. Bel : ibid; p. 29.**

أمرائها السابقين ، وراسله جماعة من أهلها ، وكان يعتمد فوق ذلك على مؤازرة بعض طوائف العرب من بنى هلال ورياح والأثبج . ونحن نذكر ماحدث قبل ذلك بأعوام قلائل من ثورة بنى الرند فى قفصة ، وقيام الخليفة أبى يعقوب بإخماد هذه الثورة (سنة ٥٧٦هـ) ، وإسناده عندئذ ولاية إفريقية لأخيه السيد على أبى الحسين ، وولاية بجاية والزاب لأخيه السيد أبى موسى عيسى ، وما حدث بعد ذلك بقليل من ثورة عرب بنى سُليم على مقربة من قابس ، وأسرهم للسيد أبى الحسين وأصحابه عندما تصدوا لمقاومتهم ، ثم إطلاق سراحهم لقاء فدية كبيرة . وكان تكرار هذه الحوادث وأمثالها ، مما يشجع بنى غانية على اختيار هذه المنطقة بالذات مسرحاً لمغامراتهم ضد الموحدين .

وحشد على بن إسحاق الملقب بالميورقى أسطولا صغيراً من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتى فارس وأربعة آلاف راجل، تحت إمرة القائد رشيد النصرانى ، واستخلف على ميورقة عمه أبا الزبير . وسار مع إخوته فى سفنه صوب بجاية ، فوصلت بسلام إلى مقربة من الميناء . وكان كل شيء فى المدينة هادئاً ، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن الغزاة على الأبواب . ودفع القائد رشيد رجاله فى زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحرى ، وكان والى المدينة السيد أبو الربيع سليمان عم الخليفة خارج المدينة وعلى مقربة منها راحلا إلى الحضرة ، وقد حل بها السيد أبو موسى مع بعض أصحابه فى طريقه إلى تلمسان، ولم يك ثمة أية أهبات دفاعية يعتد بها . فتقدمت السفن المهاجمة من المدينة . واحتشد رهط كبير من الغزاة فى مكان معين قبالة الأسوار ، كان متفقاً على اختياره لاقتحام المدينة مع الضالعين مع الغزاة ، وتدلى بعض هؤلاء من الأسوار ليدلوا الغزاة على عورات السور ، وثغرات الدفاع . واجتمعت جماهير من أهل البلد لمقاومة الغزاة دون قائد يجمع شملهم ، ودون استعداد ، وقد تخاذل الرؤساء وأولو الأمر ، فسلط الميورقيون عليهم القسىّ والسهام ففتكت بهم. ثم تقدم الفرسان والمشاه، واقتحموا المدينة من ثلمات السور ، واستولوا عليها ، وقبضوا على السيد أبى موسى وآله وعلى سائر الموحدين الذى يخشى بأسهم . وكان سقوط بجاية على هذا النحو فى يد على بن إسحاق الميورقى فى السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٣ نوفمبر سنة ١١٨٤ م)[1] .

(١) المعجب ص ١٥٣ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ . ويأخذ ألفرد بل بهذا التاريخ Les Benou Ghania, p. 42 . ولكن صاحب البيان =

وأقام على بن غانية أسبوعاً فى بجاية ينظر فى شئونها ، وصلى بها الجمعة ، ودعا فى الخطبة لبنى العباس ، وللخليفة العباسى أحمد الناصر ، وكان خطيبه يومئذ هو خطيب بجاية الفقيه المحدث والأديب الشاعر ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدى الإشبيلى صاحب كتاب « الأحكام » وغيره . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب ، حينما بلغه موقفه يزمع قتله والاقتصاص منه . ولكنه توفى غير بعيد ونجا من نقمته[١] .

وترك على بن غانية النظر على بجاية لأخيه يحيى بمعاونة رشيد الرومى ، وخرج من فوره لمطاردة واليها السيد أبى الربيع ، وكان ما يزال على مقربة من بجاية ، فلحق به بموضع يعرف بياميلول ، وكان معه رهط من الأعراب الموالين للموحدين فانخذلوا كعادتهم عند الشعور بالهزيمة ، وانضموا إلى ابن غانية ، وهزم السيد أبو الربيع ، وقتل عدد من رجاله ، وسقطت محلته بأسرها فى يد العدو ، وفيها أهله وأمواله ، ولكنه استطاع الفرار إلى الجزائر ، ومنها إلى تلمسان ، فنزل بها على واليها السيد أبى الحسن بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وأخذا فى تحصينها ، والاستعداد فى الدفاع عنها[٢] .

وتابع على بن غانية زحفه المظفر صوب الجزائر فدخلها ، وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم سار إلى مليانة ومازونة ثم إلى أشير والقلعة (قلعة بنى حماد) واستولى عليها جميعاً ، واستباح أهلها ، واستصفى أموالهم . وكانت مليانة ، وهى أهم هذه البلاد ، فى الأصل مدينة رومانية ، جددها زيرى بن مناد الصنهاجى وحصنها ، وكانت فى ذلك الوقت حسبما يصفها لنا الإدريسى ، مدينة قديمة البناء ، حسنة البقعة ، نضرة المزارع ، ولها نهر يروى معظم مزارعها وجناتها ، قد ركبت على ضفافه الأرحاء ، ولأراضيها حظ من مياه نهر شلف ، وعلى ثلاثة أيام منها ، وفى جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشريش ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرسون ، وأوربة ، وبنو أبى خليل ، وكتامة ومطماطة ، وبنو مليلت ،

= المغرب يضع تاريخ سقوط بجاية فى التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ (القسم الثالث ص ١٤٨) ويتابعه فى ذلك ابن خلدون (ج ٦ ص ١٩٠) وكذلك الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٠ .

(١) المعجب ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٨ .

وبنو وارتجان وبنو أبى خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، وهوارة وغيرها . وطول هذا الجبل مسيرة أربعة أيام ، وينتهى طرفه إلى مقربة من تاهرت[١] .
وقدم على بن غانية على مليانة يدّر بن عائشة ، ووقف بها أياما ، ثم عاد إلى بجاية ، وهنالك جلس بمسجدها الجامع ، فأقبل الناس لمبايعته والدخول فى طاعته ، والتف حوله الدهماء والعامة ، واستخرج ما كان فى المخازن من الأموال والثياب ، وكسا أوباش العرب ومن انضم إليهم من الأخلاط والكافة ، ولما رتب شئونه ببجاية ، ترك بها رشيداً الرومى إلى جانب ابن أخيه يحيى ، وسار فى قواته إلى قسنطينة ، ولكنها كانت على أهبة الدفاع ، واستبسل أهلها فى قتاله ، وقتلوا جملة من رجاله ثم اعتصموا بمدينتهم ، فضرب حولها الحصار ، مؤملا أن تسقط فى يده[٢] .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور ، بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال فى بداية عهده ، وما يكاد يبدأ حملته الإصلاحية ، فاهتز لها ، وأدرك فى الحال خطورتها ، واعتزم أن يبذل قصارى جهده لقمعها ، فجهز حملة قوية من الجند المختارة قوامها عشرون ألف مقاتل مزودة بوافر العدة والآلات ، وجعل قيادتها لابن عمه السيد أبى زيد بن أبى حفص ، وسار فى نفس الوقت أسطول موحدى كبير من سبتة ، تحت قيادة أبى محمد بن إسحاق بن جامع ، وأبى محمد بن عطوش الكومى ، وأبى العباس الصقلى ، وسارت القوات البرية والبحرية وفق خطة موحدة لمحاربة العدو ، متعاونين فى البر والبحر ، وسار الجيش الموحدى أولا إلى فاس ، وتوقف بها وقتاً لاشتداد البرد والأمطار ، ثم رحل إلى تلمسان وكان بها السيد أبو الحسن بن أبى حفص ، وقد حصن أسوارها وشحنها بالمقاتلة ومعه السيد أبو الربيع والى بجاية السابق ، وكان قد لجأ إلى تلمسان ، وتوقف بها يرتقب الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة العدو المغير .

وسار الجيش الموحدى من تلمسان شرقاً بحذاء الشاطئ ، والأسطول يحاذيه من البحر ، وكان الخليفة يعقوب قد وجه إلى أهالى القواعد المغزوة ، كتباً يعدهم فيها بالأمن والأمان والصفح والإحسان لمن تعاون مع العدو. واستطاعت الجواسيس

---

(١) الإدريسى فى « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٨٤ و ٨٥ ، وكذلك الاستبصار فى عجائب الأمصار (طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) ص ١٧١ .

(٢) الرسائل الموحدية — الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٢ ، و ١٧٣ . والبيان المغرب — القسم الثالث ١٤٨ .

الموحدية أن تدس هذه الكتب تحت جنح الليل إلى مختلف القواعد ، فلما علم الناس أن القوات الموحدية قد اقتربت منهم ، وثبت طوائف كثيرة منهم بالمحتلين ولاسيا بالجزائر ، وقبضت على العديد منهم ، وبادر الأسطول الموحدى ، فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش ، وأسر بها يحيى بن غانية وأتباعه الميورقيين ، ثم استولى على مليانة ، وكان حاكمها المرابطى يدّر بن عائشة قد فر منها ، فاقتفى أهلها أثره ، وطاردوه ثم قبضوا عليه وعلى أصحابه بعد معركة شديدة ، وسيق مع أصحابه مصفدا . ثم أعدم بعد ذلك . وكان السيد أبو زيد قد وصل عندئذ إلى وادى شلف ، وأمر بمتابعة الحرب ، وتقدم نحو بجاية على جناح السرعة ، إذ علم بأن ابن غانية يروم نقل السيد أبى موسى وزملائه من أكابر الموحدين إلى ميورقة ، وسار الأسطول إليها فى نفس الوقت . وتقدم القائد أبو العباس الصقلى فى إحدى السفن مع بعض أهالى بجاية ، ودسوا الكتب إلى أهلها بوصول القوات الموحدية ، فثارت العامة داخل المدينة ، وفتحوا الأبواب ، ونزل بحارة الأسطول وعلى رأسهم أبو محمد بن جامع إلى المدينة ، وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم ، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الله فى عدد قليل من أصحابه ، ولحق بأخيه أمام قسنطينة ، وأسر الموحدون رشيداً الرومى قائد الميورقيين ، واستولوا على السفن الميورقية خارج الميناء ، وأطلق سراح السيد أبى موسى ومن معه من أكابر الموحدين . وهكذا استنقذت بجاية بضربة سريعة ، وكان استردادها فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١هـ (٢٢ مايو سنة ١١٨٥) ، بعد أن لبثت فى قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر[١] .

وفى ذلك الحين كان ابن غانية تحت أسوار قسنطينة ، وكانت المدينة المحصورة قد استنفدت كل وسائل الدفاع ، وأشرفت على السقوط فى يد العدو ، ولكن ما كادت أنباء استرداد بجاية تصل إلى المحصورين ، حتى اضطرمت قواهم المعنوية وثبتوا فى معقلهم ، ورأى الميورقى من جهة أخرى ماحل بقضيته من الخسران ، بعد سقوط بجاية ، وضياع أسطوله ومصرع الكثير من أصحابه ، ونكول الأعراب عن مؤازرته ، وخشى من إدراك الموحدين له ، وهو فى هذه الحالة اليائسة ، فارتد عن قسنطينة مع إخوته وفلوله الباقية ، وتوغل فى الصحراء ، بعيداً عن

---

(١) الرسائل الموحدية — الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٦ — ١٧٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 50-53

المطاردة . ولم تمض على فراره ثلاثة أيام حتى وصل السيد أبو زيد فى قواته إلى تيكلات على مقربة من بجاية ، وهنالك وافاه طلبة بجاية وأكابرها وعلى رأسهم السيد أبو موسى ، وأخذ الجميع فى الأهبة والاستعداد لمطاردة العدو الفار ، وسيق إلى المحلة الموحدية كل من قبض عليه وأسر فى بجاية من أنصار الميورقى سواء منهم من جاز معه من ميورقة ، أو من انحاز إليه ، ارتداداً عن الدعوة الموحدية ، وميزوا وقتل معظمهم . واستبقى يحيى بن طلحة الميورقى رهينة . وفى اليوم الثالث سار الموحدون فى أثر ابن غانية واستمروا فى مسيرهم حتى مقرة ونقاوس ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكه ، لأنه كان قد ألقى معظم أثقاله فى الطريق وفرق قواته ، وسبق الموحدين بمراحل ، ولم يستطع الموحدون بقواتهم الكثيفة وعددهم الثقيلة لحاقاً به ، فعندئذ ارتد السيد أبو زيد فى جموعه إلى بجاية ، وذلك بعد أن أنفقت الحملة الموحدية زهاء ستة أشهر فى حركة متواصلة لم تنعم خلالها بقسط من الراحة[1].

أما على بن غانية ، فقد اتجه وأخوه يحيى فى فلوله جنوباً ، واخترق جبال الأطلس إلى منخفض حندة ، ثم إلى منطقة الواحات الواقعة جنوبى ولاية إفريقية المسماة بلاد الجريد ، وهو ينهب الخلات الغنية فى تلك المنطقة ، ويستميل بجزيل صلاته طوائف العرب النازلين فى تلك الأنحاء ، ولاسيما بنى رياح وبنى جشم . ولما اطمأنت نفسه وكثرت جموعه ، سار إلى افتتاح مدينة توزَر ، فضرب حولها الحصار ، وقطع غابات النخيل المحيطة بها ، فقاومته المدينة بشدة ، ولكنه استطاع بمعاونة بعض الضالعين معه من أهلها أن يدخلها أخيراً . فلما دخل أغضى عن أهلها الذين ناصروه ومنحهم الأمان ، واستصفى أموال الآخرين ، ثم فرض عليهم فروضاً أخرى لافتداء أنفسهم ، فمن استطاع أن يفتدى نفسه ، أطلق سراحه ، ومن عجز قتل ثم ألقى بعد قتله إلى بئر بالمدينة سميت فيما بعد بئر الشهداء ، وكان سقوط توزر فى سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)[2] .

وكان السيد أبو زيد قد استقر فى تلك الأثناء فى بجاية ، وكانت المدينة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وخربت دورها ومعاهدها ، وأقفرت سائر المناطق المحيطة بها ، وخربت على يد جند ابن غانية وأنصاره الأعراب ، وعدمت المؤن والموارد والغلات ، وارتفعت الأسعار ، وفر كثير من السكان وهاموا على

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٥١ .

(٢) رحلة التجانى (المنشورة بعناية المطبعة الوطنية بتونس سنة ١٩٥٨) ص ١٦٢ .

وجوههم ، ثم سرى الوباء إلى المدينة وكثر الموت . ووصلت أنباء تلك الحالة إلى الخليفة بمراكش ، وكثرت لديه الأقوال فى حق السيد أبى زيد ، وقصوره عن معالجتها ، فبعث إليه معاتباً ، وحاثا على العمل لتدارك الأمر ؛ وغادر الأسطول فى نفس الوقت مياه بجاية ، عائداً إلى قواعده فى سبتة .

وبالرغم من ابتعاد الميورقى عن بجاية وأحوازها ، وتوغله فى القفار الجنوبية فإنه بعث حملة من جنده تحت إمرة غزى الصنهاجى ، فسار إلى مدينة أشير ، واقتحمها ، وقتل حافظها الموحدى ، فبادر السيد أبوزيد إلى توجيه ولده السيد أبى حفص عمر فى قوة موحدية ومعه أبو الظفر بن مردنيش فى حملة أخرى من الأجناد ، فساروا لقتال غزى وأصحابه ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها غزى وقتل ، وأرسل رأسه إلى بجاية وعلق بها ، واستولى أبو الظفر بن مردنيش على محلة العدو وحريمه وعتاده وماشيته ، وحل عبد الله الصنهاجى مكان أخيه غزى فى الدفاع عن أشير ، فاستماله القاضى أبو العباس بن الخطيب ، وأغراه بالوعود ، واستنزله من المدينة ، ثم قبض عليه وأرسل إلى بجاية ، حيث صلب إزاء رأس أخيه[1] .

وكان من أحداث بجاية فى هذا العام ، أن قُتل رشيد الرومى قائد ابن غانية السابق ، وقتل عدد من أهل بجاية ممن انحازوا إلى جانب بنى غانية ، وكان من هؤلاء أبناء القائد ابن حملة ، وغُرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا ، لاتهامهم بالتواطؤ مع بنى غانية ، بعد أن أرغموا على تصفية أموالهم بها بثمن بخس ، وأبعد غيرهم من الأعيان أيضاً إلى سلا ، بعد أن صفيت أموالهم وديارهم[2] .

وعلى أثر ذلك استدعى السيد أبو زيد من قبل الخليفة إلى الحضرة ، فسار إليها فى حملة من صحبه بالرغم من اشتداد البرد والأنواء خلال فصل الشتاء ، فلما وصل إليها أحسن الخليفة استقباله ، وأكرم وفادته ، وسرى بذلك عنه ما كان قد لحق به من أوزار الوقيعة ، وتهمة القصور والإهمال .

وكان على بن غانية ، بعد أن استولى على توزر يطمح إلى الاستيلاء على قفصة . ونحن نذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف ، كان قد استرد قفصة فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م) وأخمد بها ثورة بنى الرند ، وكانت المدينة بالرغم من

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٣ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣ .

انضوائها تحت لواء الموحدين ، ما تزال مسرحا لمختلف الدسائس والتيارات ، وولاؤها للموحدين غير ثابت ، ولامستقر ، ومن ثم فإنه ماكاد الميورقى يزحف عليها بقواته ويضرب حولها الحصار ، حتى بادر أهل المدينة بإخراج الموحدين منها ، وتسليمها إلى الميورقى ، فوضع بها حامية من جنده المرابطين وحلفائه الجند الأتراك ، وجدد تحصيناتها ، وكان ذلك أيضاً فى سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) .

وهكذا سيطر على بن إسحاق بن غانية الميورقى على معظم إفريقية ، وقطع بها خطبة الموحدين ، ودعا لطاعة الخليفة العباسى ، الناصر لدين الله ، وأرسل إليه فى طلب المراسيم والخلع والأعلام السود . وكان مما يزيد فى خطورة هذا الموقف بالنسبة للموحدين ، أن الميورقى استطاع أن يستميل إلى جانبه كثيراً من طوائف العرب من سُليم ورياح وغيرهم ، واستطاع من جهة أخرى أن يعقد الحلف مع قراقوش الأرمنى مملوك الأيوبيين وجنده الترك ، وكانوا قد نزحوا من مصر إلى الغرب واستولوا على طرابلس ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أطراف إفريقية الشرقية[1] .

ويجب إن نشير بهذه المناسبة إلى الظروف التى وقع فيها نزوح أولئك الجند الترك إلى هذه الأنحاء من إفريقية . وذلك أنه لم تم استيلاء الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب على مصر ، على أثر وفاة الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ووقعت الوحشة من أجل ذلك بينه وبين سيده القديم السلطان نور الدين ، فكر بعض أمراء بنى أيوب ، أن ينزحوا ، إذا ما تغلب عليهم نور الدين ، إلى بعض الجهات النائية المأمونة مثل اليمن أو المغرب . واتجه نحو المغرب بالأخص تقى الدين عمر بن شاهنشاه أخو صلاح الدين . ولكنه عدل عن مشروعه لما رأى ما يكتنفه من الصعاب والمخاطر ، ففكر اثنان من أولياء بنى أيوب ، هما شرف الدين قراقوش الأرمنى مملوك تقى الدين (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد) وإبراهيم بن قراتكين المعظمى ، نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أخى صلاح الدين ، فى تنفيذ المشروع ، وفرا فى طائفة كبيرة من الجند الترك ، وسارا صوب المغرب ، ثم افترقا ليسعى كل منهما إلى مصيره فسار قراقوش إلى قلب ولاية طرابلس ، وافتتح سنترية وأوجلة ، ودعا للسلطان صلاح الدين ، وابن أخيه تقى الدين عمر ، ثم سار إلى فزان فافتتحها ، وقضى على دولة الهوارين القائمة بها

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

وكانت زويلة مقر ملكهم ، وخطب فيها أيضاً لصلاح الدين وابن أخيه .

وقوى أمر قراقوش تباعا ، فسار إلى طرابلس ، والتف حوله العرب من بنى دباب ونهضوا معه إلى جبل نفوسة ، فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالاً عظيمة فرقها فى حلفائه العرب ، ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بنى رياح ، وكان من الخارجين على بنى عبد المؤمن فانضم إليه بقواته ، وضرب قراقوش بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس ، وكانت خالية من الأجناد والأقوات ، فاستولى عليها بأيسر أمر ، وذاع صيته واشتد ساعده ، وهرعت طوائف العرب من كل فج إلى لوائه . وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة ، وتضخمت موارده وقواته ، ومعظمها من العرب الذين عاثوا فساداً فى تلك الأنحاء « بما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد، بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك » وأخذت نفسه تحدثه بالاستيلاء على سائر إفريقية [١] .

— ٢ —

وفى ذلك الحين حدثت بميورقة حوادث هامة . وكان من الطبيعى بعد أن خلت الجزيرة من معظم الجند والقادة ، منذ رحيلهم تحت إمرة عاهلهم على ابن غانية إلى إفريقية ، واستولى الموحدون على سفن الأسطول الميورقى فى مياه بجاية ، أن تتخذ الأحداث بالجزيرة وجهة جديدة . وكان رسول الخليفة الموحدى على الربرتير منذ اعتقل بالجزيرة ، يرقب الفرص لكى يتحرر من معتقله ، وليقوم فى نفس الوقت بضربة تحقق الغاية من رسالته . وألفى على فرصته فى الاتصال بالجند المرتزقة النصارى من حراس معتقله ومن إليهم من أبناء ملتهم ، وكان معظمهم يرومون مغادرة الجزيرة إلى أوطانهم ، فوعدهم علىّ بأنهم متى عاونوه على تحقيق غرضه ، فإنه يعمل على تسريحهم فى أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم . وكانت أرومة الربرتير وأصله النصرانى ، مما يحببه إلى نفوس أولئك الجند النصارى ويجعله موضع ثقتهم وأملهم . والظاهر أيضاً أن الربرتير استطاع أن يجذب إلى جانبه بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المعزول وخصوم أخيه على . وهكذا دُبرت مؤامرة قوامها الجند النصارى لخلع والى الجزائر القائم وهو طلحة ابن إسحاق بن غانية ، وإعادة أخيه محمد المعزول ، ونفذ المتآمرون مشروعهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٦ ، ورحلة التجانى ص ١١١ — ١١٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ و١٩٢ .

فى يوم جمعة ، وفى وقت الصلاة ، حينما شغل معظم الناس بأداء الصلاة فى المسجد الجامع ، وغيره من المساجد . فأخرج المتآمرون علياً الربرتير من سجنه ، ووثبوا إلى مخازن السلاح ، فاستولوا على ما فيها ، ثم حاصروا القصبة ، وقتلوا من بها من الجند المرابطين ، وتحصن الربرتير وأنصاره بالقصبة ، فحاصرهم جمهور من أهل ميورقة . وضربوا القصبة بالمجانيق وأرسلوا على من بها وابلا من الحجارة والسهام . فأتى الربرتير من داخل القصبة ، بأهل على بن غانية ، وفيهم أمه وأبناؤه ، ووضعهم فوق الأسوار ، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القصبة ، فعندئذ هدأت الأمور ، واضطر أهل البلد إلى المفاوضة ، وتبادل العهود[1] .

وعلى أثر ذلك استدعى محمد بن إسحاق بن غانية حاكم الجزائر السابق ، وكان قد خلعه إخوته ، حينما اعترف بطاعة الموحدين عند مقدم الربرتير إلى ميورقة ، واعتقل فى أقصى الجزيرة ، واتفق على إعادة تنصيبه والياً للجزائر ، ونزل الربرتير عن القصبة والسلطة ، وأعلن طاعة الموحدين ، وخطب للخليفة الموحدى ، وجمع الربرتير من الأموال والذخائر ما استطاع ، وسرح المرتزقة النصارى بأموالهم وأهلهم إلى بلادهم . ثم غادر الجزائر عائداً إلى المغرب ، وقصد إلى حضرة مراكش . ووقع ذلك فى أوائل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥م) . وفى رواية أخرى أن محمداً بن إسحاق غادر ميورقة مع الربرتير ولحق بالحضرة ، ليقدم طاعته بنفسه إلى الخليفة[2]. وهكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة فى ظل طاعة الموحدين الإسمية . ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة ، بتملك ميورقة ، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولا بقيادة أبى العلاء بن جامع ، أبى محمد أن يستجيب إليه ، واستغاث بملك أراجون فأمده بالجند ، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم . ومن جهة أخرى ، فإن الهدوء لم يستمر طويلا بالجزائر ، ذلك أن أهل ميورقة ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ، ورفعوا إلى الولاية أخاه تاشفين . وفى رواية أخرى أنه لما وقف على بن إسحق بن غانية وإخوته وهم بإفريقية ، على ما حدث فى ميورقة ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٥ و١٥٦ . وراجع :
A. Bel : ibid; p. 68 & 66 : وكذلك Cmapaner y Fuertes ; ibid, p. 148 et suiv.

(٢) البيان المغرب ص ١٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ .

سار منهم عبد الله فى بعض صحبه، وركب البحر إلى صقلية، وهنالك زوده النصارى ببعض السفن فسار إلى ميورقة ، والتف حوله جمع من أهل الجزيرة واستطاع أن يدخل ميورقة باستمالة بعض أعيانها ، وأن ينزع الولاية لنفسه، وقبض على أخيه محمد، وبعث منفياً إلى الأندلس. فالتجأ هنالك إلى الموحدين فولوه على مدينة دانية، واستقر عبدالله فى ولاية الجزائر دون منازع. وعاد الخليفة المنصور فبعث أسطوله إلى الجزائر بقيادة أبى العلاء بن جامع ، ثم أرسله مرة أخرى بقيادة الشيخ إبراهيم الهزرجى ، فقاوم عبد الله أشد مقاومة ، وقتل كثير من الموحدين ، ولم ينالوا مأرباً من ميورقة ، ولكنهم استطاعوا الاستيلاء ، على جزيرتى يابسة ومنورقة ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) . واستردت الجزائر فى عهد عبد الله قوتها ورخاءها ، واستمر فى رياستها أعواماً طويلة ، وهو يعاود الغزوات البحرية للشواطئ النصرانية القريبة ، حتى كان افتتاح الموحدين للجزائر فى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) على ما نذكر بعد[1] .

— ٣ —

عظم أمر على بن غانية بأنحاء إفريقية الجنوبية والوسطى، ولاسيما مذ تقاطرت طوائف العرب من بنى هلال وجشم وبنى رياح والأثبج إلى لوائه . وعقد التحالف بينه وبين قراقوش الأرمنى وأجناده الترك الوافدين من مصر ، وبسط سلطانه على سائر أنحاء إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين منها سوى المهدية وتونس ، ودعا على للخلافة العباسية حسبما أسلفنا ، وتلقب بأمير المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء الدولة المرابطية[2] وبعث ولده عبد المؤمن إلى الخليفة الناصر بن المستضىء ببغداد ليطلب إليه المدد والرعاية ، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه، وبعث ديوان الخليفة صحبة عبد المؤمن إلى مصر ، خطاب الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين باعتباره نائب الخليفة بمصر والشام ، فكتب له صلاح الدين كتابه إلى مملوكه قراقوش، بالعمل المشترك على تأييد الدعوة العباسية[3]، وكانت

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٥ و١٥٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ .

استعادة الجزائر على يد عبد الله بن غانية وتمكين سلطان بنى غانية بها ، عاملا جديداً ، فى ذيوع أمر على وتوطيد هيبته وسلطانه .

وبسط على بن غانية على إفريقية حكم إرهاب مطبق ، وأطلق العنان لأحلافه من طوائف العرب ، يعيثون أينما استطاعوا فساداً ، ويطلقون أيديهم بالإيذاء والسلب والنهب والسبي ، لايرعون حرمة ولايرحمون ضعفا ، وعلى لايستطيع منعهم أو ردعهم استبقاء لولائهم ومحالفتهم . وقد وصف مؤرخ رحالة حالة إفريقية فى ذلك الوقت بإيجاز فى قوله « إنه هلك العباد وخراب البلاد » . وكان من شنائع على بن غانية ، أنه سار إلى جزيرة باشو بالقرب من حضرة تونس فى غضون سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦م) ، فسأله أهلها الأمان ، فمنحهم إياه ، ولكن ماكاد عسكره يدخل إليها ، حتى نهبوا سائر ما فيها ، وهتكوا الحرمات ، وفر من استطاع منهم إلى تونس ، ونزلوا بين أسوارها ، فأهلكهم البرد خلال فصل الشتاء ، وبلغ من هلك على قول الرواية اثنا عشر ألفاً[١] .

وتوالت أنباء هـذه الحوادث الإفريقية المزعجة على الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور فأهمته ، وأدرك مبلغ خطورتها ، وبعث إليه أخوه السيد أبو عبدالله الذى كان قد حل مكان السيد أبى زيد فى ولاية إفريقية من تونس ، يستغيث به ويستنفره إلى تدارك الأمر بعد أن بلغ الخطر أقصاه ، وظهر عجز القوات الموحدية القليلة ، وأضحت سيادة الموحدين فى إفريقية على وشك الانهيار ، فاتخذ الخليفة أهبته للحركة إلى إفريقية ، وبدأ بالتحرك إلى تينملل ، حيث زار قبر المهدى ، جرياً على تقليدهم المأثور ، فى التيمن بزيارته ، عند الملمات والحوادث الجسام ، ثم عاد إلى مراكش ، وجهز جيشاً مختاراً من الموحدين قوامه عشرون ألف فارس ، وغادر الحضرة فى قواته عقب عيد الفطر فى الثالث من شوال سنة ٥٨٢ هـ (١٧ ديسمبر ١١٨٦ م) مستخلفاً عليها أكبر أعمامه السيد أبا الحسن ، ومسنداً إليه فى نفس الوقت الإشراف على تكملة الأعمال الخاصة بضاحية الصالحة ، وتابع الخليفة سيره دون توقف حتى رباط الفتح ، وهنالك وافاه ولاة الأندلس والمغرب ، فألقى إليهم بتعلياته وتوجيهاته . وكان من الأمور الظاهرة فى تجهيز هذه الحملة الموحدية ، أن الخليفة لم يصطحب معه فى جيشه كتائب العرب إلا قلة من أشياخ بنى رياح مثل بنى زيان وذلك تحوطاً من تقلباتهم

---

(١) رحلة التجانى عن ابن شداد ص ١٤ .

وخطر انسلاخهم أثناء القتال إلى جانب إخوانهم عرب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد اقتصر الخليفة فى حشوده على القلة المختارة من الجند ، نظراً لصعوبة تموين الحشود الجرارة فى إقليم خربت أرجاؤه ، ونضبت موارده ، من كثرة الغزوات والمعارك[١] . وأصدر الخليفة أوامره المشددة فى نفس الوقت إلى سائر العمال بالمنازل وأمهات الطرقات بتمهيد المسالك ، وتوطيد السبل ، ونصب الجسور فى أماكنها ، وإعداد الأقوات والعلوفات ، فكان الجند يسيرون فى طرق ممهدة ، موفورة المرافق والموارد ، مما لم يكن معهوداً من قبل فى مثل هذه الرحلات الغازية .

واستراح الخليفة وجيشه فى حضرة فاس ، وقضى بها معظم أشهر الشتاء ، وغمر والى فاس وأهلها الجيش الموحدى ، بمختلف ضروب الإكرام والضيافات ، وجدد الجند أسلحتهم وعددهم وملأوا أزودتهم ، ونظر الخليفة فى شئون المدينة ، وترتيبها على أكمل وجه ، ثم غادر الخليفة وجيشه فاس إلى رباط تازة وهو خلال الطريق دائب النظر فى شئون الرعية ، ومجتهد فى إزالة المظالم ، وتحقيق مبادئ العدل والإنصاف . وفى تازة لاحظ الخليفة أن معظم الإخوة والأعمام قد اختصوا بلباس الغفائر الزبيبية ، والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم اتخاذ ذلك الزى لكونه زى الخليفة فى حالتى ركوبه وجلوسه ، فجمعهم السيد أبو زيد والى بجاية السابق باعتباره عميدهم ، المقدم عليهم ، وذكرهم بوجوب التزام المراسيم الخلافية ، وأن يتجنبوا التشبه بالخليفة فيما هو خاص به فامتنعوا من ذلك الحين عن اتخاذ الملابس التى تحمل الألوان الخلافية[٢] .

ولما وصل الجيش الموحدى إلى أراضى قسنطينة ، وكان على بن غانية يرقب حركاته ، اجتمع ابن غانية فى قواته من الميارقة والأعراب والأغزاز وبعض طوائف سُليم ، على مقربة من القيروان ، وبدت طلائعهم أمام الجيش الموحدى ، وكان رأى الخليفة يعقوب أن يبادر بمهاجمة خصومه من قبل أن يكمل استعدادهم ، ولكن الأشياخ والوزراء رأوا فى المجلس الذى عقد للشورى أن الأفضل ، أن يتابع الجيش الموحدى سيره إلى تونس ، وهنالك ينال قسطه من الراحة والاستعداد ، وهكذا وصل الجيش الموحدى إلى تونس فى شهر صفر سنة ٥٨٣ ﻫ .

---

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٨ .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٥٨ و ١٥٩ .

وقد كان هذا خطأ عسكرياً دفع الموحدون ثمنه غالياً . ذلك أنه لما وصل الجيش الموحدى إلى تونس، واستراح الجند من أثقالهم، وجددوا مؤنهم ولوازمهم، جهز الخليفة حملة من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبى يوسف يعقوب ابن أبى حفص، وعمر بن أبى زيد من أشياخ الموحدين، والقائد على الربرتير ، وسارت هذه الحملة إلى مقاتلة على بن غانية وجموعه ، وكانت ترابط على مقربة من قفصة . فلما اقترب الموحدون من محلة الميارقة وحلفائهم الترك تحت إمرة قراقوش ، خرج إليهم على بن غانية فى جموعه ، والتقى الفريقان فى السهل المسمى بسهل «عُمرة» وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ (٢٥ مايو سنة ١١٨٧ م) ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وظهر انقسام الجيش الموحدى واختلاله منذ البداية ، حيث تقدم الجناح الذى يقوده على الربرتير إلى الهجوم فمزقته سهام الأعداء وطعناتهم ، وسقط الربرتير أسيرا وتفرق صحبه ، وحدث مثل ذلك حينما هجم القائد أبو على بن يومور فى طوائف العرب الذين يقودهم ، فخذلوه فى القتال كعادتهم المأثورة، وأسر ابن يومور وقد أثخن جراحا . واختلت صفوف الموحدين فى كل ناحية وكثر القتل فيهم ، وما انتهى النهار حتى كان الجيش الموحدى قد مزق تمزيقاً ، وفر السيد أبو يوسف فى فل من أصحابه صوب تونس، وهلك عدة من الأشياخ، وفى مقدمهم عمر بن أبى زيد، وبقى معظم الرجالة ممن لم يستطيعوا الفرار ولاسيما الجرحى، فلجأوا إلى قفصة، وشجعهم على ذلك ابن غانية، ووعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة، حتى إذا اجتمعوا فيها أمر بقتلهم، فقتلوا جميعاً . وجلس ابن غانية بخباء السيد أبى يوسف، وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم، ففرقها فى جنده، واقتيد إليه على بن الربرتير وابن يومور ، فأمر بتعذيبهما ثم قتلهما، وعلق رأس ابن يومور على باب قفصة . وكانت على الحملة هزيمة ساحقة للموحدين لم يصبهم مثلها منذ بعيد(١) .

وكان لتلك النكبة فى نفس الخليفة يعقوب المنصور أعمق وقع ، فاعتزم أن يأخذ بالثأر ، وأن يستأصل شأفة العدو ، ولم يدخر وسعاً فى الأهبة ، وفى تمييز جيشه وفى إعداده للضربة الحاسمة . ثم خرج فى قواته من تونس فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٨ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) وسار جنوباً صوب القيروان ،

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٠ و ١٦١ ، ورحلة التجانى ص ١٣٦ و ١٦٢ . وراجع A. Bel ; ibid ; p. 78-80

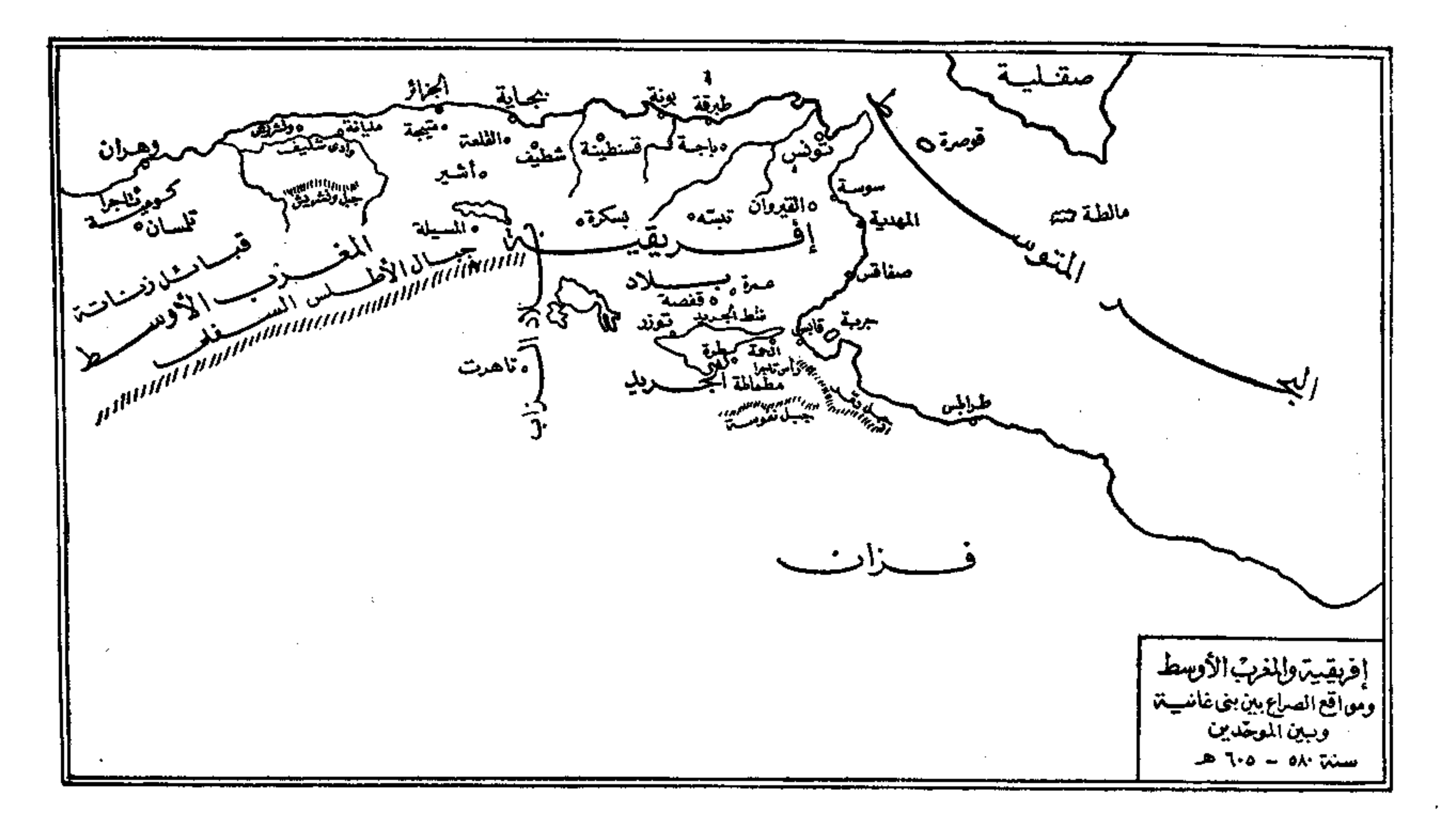
وقد برز الجيش الموحدى فى أروع حلله واكتمال عدته ، وشمة خطورته ، ولما وصل المنصور إلى القيروان ، وجه منها إلى ابن غانية وحلفائه كتابا ينذرهم فيه بوجوب دخول الطاعة ، ونبذ الشقاق والعدوان، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشىء[1] ولكنه جد فى أهباته . ورأى الخليفة خلال تجواله بالقيروان ، وأحيائها الخربة المقفرة ، ما انتهى إليه جامعها الشهير من العفاء والبلى ، فبعث من فوره إلى ولاة شرقى الأندلس ، بإعداد كساه وفرشه وزخارفه .

واستمر سير الجيش الموحدى بعد ذلك جنوباً فى طريق قابس حتى وصل إلى مقربة من« الحَمّة » الواقعة على مقربة منها ، وقد بدت طلائع العدو ، وكان على بن غانية وحلفاؤه من الترك والعرب ، قد عسكروا فى موقع حصين على مقربة من الحمة فى انتظار الموحدين . فضرب الموحدون محلتهم إزاء العدو ، واعتزم المنصور أن يبادر منذ الغد بمهاجمة العدو ، وأن يقود المعركة بنفسه بالرغم من اعتراض القرابة والأشياخ ، وقدم المنصور على مختلف القبائل أشياخ قرابته وأكابر عشيرته . وما كاد الصبح يسفر ، وتبدد الشمس حجب الضباب المتراكم ، حتى دفع المنصور بعض قواته على معسكر العرب الضالعين مع العدو ، فبدد شملهم وأركنوا كعادتهم إلى الفرار ، واحتوى الموحدون على سائر أسلابهم ، وفتت هذه الضربة الأولى فى عضد ابن غانية وحلفائه . ثم انقض المنصور بعد ذلك فى سائر قواته على جموع الميارقة والترك ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية عنيفة لم تدم سوى بضع ساعات ، وقد أدرك على بن غانية وحليفه أنهما يخوضان المعركة الحاسمة فى ظروف قاتمة . ولم يأت الظهر حتى كان الموحدون قد مزقوا صفوف العدو تمزيقاً ، وأبيد معظمهم بالقتل ، وفرقت فلولهم فى مختلف الأنحاء ، وكانت ضربة دموية ساحقة للميارقة والترك ، وفر ابن غانية وحليفه قراقوش فى بعض فلولهما صوب توزر ، فسار الموحدون فى أثرهم ، ولما اقترب الموحدون من توزر علم المنصور أن ابن غانية وحليفه قد فرا إلى الصحراء وغاض أثرهما . وتمت هذه الهزيمة الساحقة على ابن غانية فى يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٨٧ م)[2] .

---

(١) الرسائل الموحدية — الرسالة الثلاثون ص ١٨٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ١٦٢ و١٦٣ ، ورحلة التجانى ص١٣٦ ، و١٣٧و١٦٢ ، والرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص١٨٨ . وكذلك : **A. Bel : ibid ; p. 81 & 82**



إفريقية والمغرب الأوسط
ومواقع الصراع بين بني غانية
وبين الموحدين
سنة ٥٨٠ – ٦٠٥ هـ

وسار المنصور على الأثر إلى قابس ، وقد كانت مركز قراقوش ، فاستولى عليها فى اليوم التالى بالأمان ، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ، بعد أن حاولوا عبثاً الامتناع بالقصبة ، واستصفى أموالهم ، وأرسلهم، رقيقاً إلى مراكش[١]. ثم سار من قابس إلى بلاد الجريد فى طرق وعرة مقفرة، واستولى تباعاً على قواعد هذه المنطقة : نواوة وتوزر ، وتقيوس ، والحَـمّة ، ونفطة ، وأهمها هى توزر عاصمة بلاد الجريد ، وقام أهل هذه البلاد ضد من كان بها من بقية الميارقة ، وأبادوهم قتلا وأسرا ، وفرت فلولهم من توزر إلى الصحراء . ثم سار الموحدون بعد ذلك من توزر إلى قفصة، وكانت بها بقية كبيرة من صحب الميورقى وحلفائه الغز ، فامتنعوا بها معتمدين على حصانتها ، وأسوارها العالية ، فضرب الموحدون حولها الحصار ، وسلطوا عليها المجانيق وخربوا ماحولها من الزرع وغابات النخيل الهائلة ، وصنعوا برجا عالياً من سبع طبقات ، شحن بالكماة والرماة ، ودفع حتى حاذى السور ، وردموا الخندق المقابل لثلمة السور حتى ساوى وجه الأرض ، وأصبح السبيل ممهداً لاقتحام المدينة، بيد أن المهمة كانت شاقة ، وقد ألقى المدافعون عند أول محاولة ، على الموحدين ، وابلا هائلا من الأحجار ، فارتدوا ليستعدوا لإعادة الكرة فى اليوم التالى . ولكن أهل المدينة أدركوا ما سوف يحل بهم من الدمار ، فخرج أعيانهم بالليل ، وقصدوا إلى الخليفة المنصور ملتمسين الأمان ، وبحث المنصور الأمر مع القرابة والأشياخ ، فاستقر الرأى على أن يؤمن أهل البلد الأصليين فى أنفسهم وأملاكهم ، وأن يؤمن الأغزاز (الغز) فى أنفسهم وماملكت أيمانهم ، وأن يخرج كل من كان بالبلد من الحشود ، والغرباء على الحكم ، وأنه لا أمان للميورقيين ومن والاهم من الصحب والأوباش ، فتم الاتفاق على ذلك ، وفى صباح اليوم التالى خرج سائر من بالبلد من الشيخ الهرم إلى الغلام اليافع ، ولم يبق بالبلد سوى النساء والأطفال ، ومُيز الناس ، وعزل منهم أهل البلد ، فأخلى سبيلهم ، وسُمح لهم بالرجوع إلى بلدهم ، وعزل أصناف الجنود والغوغاء وسائر أهل الحشود ، ومن جملتهم إبراهيم بن قراتكين أحد قواد الغزو الوافدين من مصر وهو الذى سبق ذكره ، فقبض عليهم جميعاً، وزجوا إلى البرج الكبير ، ثم اقتيدوا بعدصلاة الظهر بين يدى المنصور ، فأمر بإعدامهم جميعاً فأعدموا زمراً ، وألقوا إلى الحفير ،

---

(١) الرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٠ .

ونقل المنصور محلته بعيداً عن مسرح المذبحة ، وأمر بهدم أسوار قفصة فهدمت على الأثر . وكان الاستيلاء على قفصة فيما يرجح فى أوائل ذى القعدة سنة٥٨٣هـ (يناير سنة ١١٨٧ م) وليس فى شعبان حسبما يقول صاحب البيان المغرب ،إذ كانت موقعة الحمّة فى التاسع من شعبان ، ثم كان بعدها الاستيلاء على قابس وسائر قواعد بلاد الجريد ، ثم حصار قفصة ، وقد اقتضى وحده مجهودات متعاقبة ، وليس من المعقول أن تقع هذه الأحداث كلها فى أسبوعين أو ثلاثة . ومن جهة أخرى فإن الخليفة يؤرخ رسالته التى وجهها من قفصة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش عن فتح قفصة فى الثالث عشر من ذى القعدة سنة ٥٨٣ هـ[1] .

ووصل إلى المنصور ، يوم حلوله تحت أسوار قفصة ، خطاب من قراقوش ، يعرب فيه عن خضوعه ورغبته فى دخول التوحيد، وأنه على استعداد إذا ما قبلت توبته أن يأتى إلى الموحدين مستنيباً طائعاً . وفى اليوم التالى وصل خطاب مماثل من أبى زيان زعيم الغز ، وزميل قراقوش السابق ، وهو الذى استقل بحكم طرابلس ، يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد ، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها[2] .

وكان لهذه الانتصارات الرنانة التى أحرزها المنصور على أعدائه فى إفريقية أبعد صدى . وقد أكثر الشعراء بهذه المناسبة من نظم قصائد التهنئة والمديح ، فكان مما قاله أبو بكر بن مُجبر فى يوم الحمّة قصيدة هذا مطلعها :

أسائلكم لمن جيش لهـــام ... طلائعــه الملائكــة الكــرام
أتت كتب البشــائر عنه تترى ... كما يتحمــل الزهــر الكمام

ومنها :

لقد برزت إلى هون المنــايا ... وجوه كان يحجبهــا اللثــام
وما أغنت قسى الغــز عنها ... فليست تدفع القدر السهــام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص ... وأمسوا بالصــعيد وهم رمام

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٦ — ١٦٨ ، ورحلة التجانى ص ١٣٨و١٣٩ ، والرسالة الثانية والثلاثون من رسائل موحدية ص ٢٠٤ — ٢٠٨ .

(٢) الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٨ .

هو الأمير الرضى طوبى لنفس   يكون لهـا بعصمته اعتصـام
حيـاة الدين دولته فدامت   لأمر قد أتيح له الدوام
سلام الله من قرب وبعـد   عليه وحسب ما نزل السـلام

وعاد المنصور بعد افتتاح قفصة فى قواته إلى تونس . ويقول لنا ابن عذارى إنه دخل تونس فى العشرة الأخيرة من شوال سنة ٥٨٣ ﻫ . ونحن نعتقد تبعاً لما سبق أن أوضحناه عن تاريخ فتح قفصة ، أن عودته إلى تونس كانت بعد ذلك بقليل . ومكث المنصور فى تونس بضعة أسابيع ينظم الشئون ، ويوطد الأحوال بعد ما طرأ عليها من الاضطراب والتزعزع ، وعقد لأخيه السيد أبى زيد على ولاية إفريقية . ولما انتهى من ترتيب الشئون ، سار إلى المهدية وقد أعلن عزمه على القفول إلى المغرب ، وأمر باتخاذ العدة للرحيل ، فقضى بها فترة يسيرة ، وبعد أن نظر فى شئونها ، وندب عمالها ، غادرها مرتحلا إلى الحضرة ، وذلك فى المحرم سنة ٥٨٤ ﻫ (مارس سنة ١١٨٨ م) .

فسار تواً إلى تلمسان عن طريق تاهَرْت ، حتى وصلها دون توقف أو تلوم . وكانت قد وصلته خلال وجوده بإفريقية أنباء مقلقة عن بعض مؤامرات تُدبر ، وعن بعض شخصيات من القرابة تتحفز للتمرد والوثوب . وكان أول من تلقاه بتلمسان عمه السيد أبو إسحق إبراهيم بن عبد المؤمن ، وكان قد نُمى إلى الخليفة ، أن هذا العم يطعن فى آرائه ، ويسفه تصرفاته ، ولاسيا عقب هزيمة عُمرة ، فلما قدم للسلام عليه ، رده المنصور بجفاء ، وكان مريضاً منذ مدة ، فاشتد به المرض ولم يلبث أن توفى .

بيد أنه كان ثمة ما هو أخطر من النقد الصراح . ذلك أنه على أثر هزيمة عُمرة التى مزق فيها الجيش الموحدى وقتل معظم قادته ، لاح لبعض السادة أن دولة المنصور قد تصدعت دعائمها ، وأضحت على وشك الانهيار ، وكان فى مقدمة هؤلاء وأشدهم إقداماً وجرأة ، أخو الخليفة السيد أبو حفص عمر الملقب بالرشيد والى مرسية ، وعمه السيد أبو الربيع سليمان والى تادلا . فأما الأول وهو الرشيد ، فقد كان يبسط على ولاية مرسية حكم إرهاب حقيقى ، وكان يسوم الناس الخسف ، ولاسيا التجار ، ويستصفى أموالهم بالإرهاب والقتل ، ويستنزف ما فى بيوت المال ، وكان مما فعله أن قبض على ابن رجاء مشرف مرسية ، وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية ، ولما عجز عن ذلك أمر بقتله

فقتل ، وفر ابن سليمان صاحب العمل إلى بلنسية ، وكذلك فر منها الكاتب حكم ابن محمد ناجياً بحياته ، ولكن الرشيد استدعاه بالخديعة ولين القول ، ثم غدر به وقتله ، والخلاصة أن الرشيد كان يرهق أهل مرسية ، خاصتهم وعامتهم بصنوف بطشه وبغيه . بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ذلك أن الرشيد كان يضمر مشاريع أخرى . فلما وقعت هزيمة عمرة ، اضطربت مخيلته بمختلف الأطماع والمشاريع ، وبادر بالاتصال بألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعقد معه حلفاً سرياً تسربت أنباؤه إلى الخليفة مع الواصلين من الأندلس . فلما حدثت موقعة الحمّة ، وأحرز المنصور نصره الساحق على ابن غانية وحلفائه ، أدرك الرشيد أنه توغل فى أوهامه ، وارتد إلى شىء من التعقل والتريث ، ولم يلبث أن وصله أمر أخيه الخليفة بالاستدعاء إلى حضرة مراكش ، فسار إليها وهو معتمد على عطف أخيه وصفحه وإغضائه ، وتنفس على أثر رحيله مخنق أهل مرسية .

وأما السيد أبو الربيع عم الخليفة ، فقد كان ممن عارض فى توليته وتخلف عن مبايعته منذ البداية ، وكان حين وقعت حوادث إفريقية يتولى النظر على إقليم تادلا الواقع على مقربة من شمال شرقى مراكش ، فلما وقعت نكبة الجيش الموحدى بعمرة ، أخذ السيد أبو الربيع فى مفاوضة بعض قبائل صنهاجة القريبة لمعاونته على الثورة ، والقيام بأمره ، فلم تنجح محاولته ، وأعرضت تلك القبائل عن مساومته . وسار إليه فى نفس الوقت السيد أبو زكريا يحيى بن السيد أبى حفص فى سرية كبيرة من الموحدين ، فأحاطت بقاعدة تادلا ، وحالت بين السيد أبى ربيع وبين أية حركة أو نشاط يخشى منه ، ولم يجد السيد أمامه سبيلا سوى التوبة والاستسلام ، فأمر بالذهاب لمقابلة الخليفة ، وكان الخليفة فى طريقه إلى الحضرة ، فقصد إليه فى محلته على مقربة من مكناسة ، ووصل السيد أبو حفص عمر الرشيد فى نفس الوقت قادماً من الأندلس ، فأمر الخليفة بنزوله مع نفر من صحبه وحاشيته على انفراد . ثم أمر بالقبض على السيدين أخيه وعمه ، وبعث بهما مكبولين إلى رباط الفتح ، واعتقالها بالقصبة ، حتى يصدر فى شأنهما أمره . ولما وصل الخليفة إلى مراكش ، وانتهت مراسم التحية ، واستقبال الوفود ، بحث مع السيد أبى الحسن ، نائبه بمراكش ، ومع أشياخ الموحدين ، أمر السيدين المذنبين ، وذلك على ضوء ما صدر منهما من محاولات فى الخروج والثورة ، وهو ما يستوجب إعدامهما شرعاً ، وانتهى الأمر بتقرير إعدامهما ، وبعث الخليفة إلى عثمان

ابن عبدالعزيز الكومى قائد قصبة رباط الفتح، بأن يتولى تنفيذ هذا الحكم فيهما، فقام بالمهمة ، وضرب عنقاهما ، وقُتل معهما فى نفس الوقت عدد ممن تحقق اشتراكه معهما فى محاولاتهما(١) . ويزيد صاحب روض القرطاس على ذلك ، أن الخليفة قتل أيضاً أخاه أبا يحيى ، بمعنى أنه أمر بإعدام ثلاثة من السادة دفعة واحدة ، أحد أعمامه ، واثنين من إخوته(٢)، ووقع ذلك فيما يرجح فى أواسط سنة ٥٨٤ هـ، (١١٨٨م) . ويقول لنا المراكشى إنه كان لهذا التصرف الدموى وقع عميق لدى قرابة الخليفة فهابوه، واشتد خوفهم وتوجسهم منه بعد أن كانوا يتهاونون بأمره ويحتقرونه، لأشياء كانت تصدر منه فى صباه أيام أن كان بالأندلس والياً لإشبيلية(٣).

وماكاد المنصور يستقر بمراكش ، بعد أن اطمأن إلى استتباب السكينة ، وتوطد سلطان الموحدين بإفريقية ، حتى أخذ ينظر فى شئون الأندلس . وكانت الأحوال فى شبه الجزيرة ، قد أخذت خلال انشغاله بحوادث المغرب وحملة إفريقية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق ، واشتد عدوان البرتغاليين من جهة على قواعد ولاية الغرب الجنوبية وانتهى بالاستيلاء على شلب وأحوازها ، ووصلت غارات القشتاليين من جهة أخرى إلى أحواز إشبيلية ؛ ومن ثم فقد خص المنصور شئون الأندلس بعنايته ، وأخذ فى الاستعداد لتدارك تلك الحال ، والعمل على قمع عدوان النصارى . فأذاع الدعوة إلى الجهاد على حكم الاختيار والتطوع ، فتقاطرت جموع المتطوعين المجاهدين إلى الحضرة ، من سائر جنبات المغرب ، ومن مختلف الطوائف والقبائل، وبعث الخليفة إلى العمال بالاستعداد ، وضرب الآلات الحربية ، وإعداد العتاد والأقوات ، ثم ندب لولاية إشبيلية ابن عمه السيد أبا حفص يعقوب بن السيد أبى حفص عمر ، وكان موضع ثقته وإيثاره ، كما كان أبوه من قبل موضع حب أبيه وإيثاره ، وذلك لكى يعمل على مواجهة الأحداث بالأندلس بروح وهمة جديدين، وندب ابن عمه السيد أبا الحسن ابن أبى حفص والياً لتلمسان ، وعهد إليه بشئون المخازن والمؤن ، والسهر على إعدادها وتوفيرها للحشود المقبلة(٤) .

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٧١ – ١٧٣ ، والمعجب ص ١٥٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٣) المعجب ص ١٥٧ ، ويقول لنا المراكشى أيضاً إن قتل السادة كان فى سنة ٥٨٣ هـ ، وهو تاريخ خاطئ ، لأن عودة الخليفة من غزوته الإفريقية ، كان فى المحرم سنة ٥٨٤ هـ .

(٤) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٧٤ .

الفصل الثانى

حوادث الأندلس وإفريقية

أطماع البرتغال فى ولاية الغرب . تهيؤ الفرص لتحقيقها . مقدم السفن الصليبية إلى مياه أشبونة . اتفاق سانشو ملك البرتغال مع الصليبيين على غزو شلب . موقع شلب وخواصها فى ذلك العصر . مسير سانشو وحلفائه الصليبيين إلى الجنوب . زحفهم على شلب واستيلاؤهم على أرباضها . محاصرة شلب وضربها . صمود المدينة . قطع النصارى الماء عنها . اضطرارها إلى التسليم بالأمان . خروج المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها . غزوات القشتاليين فى منطقة إشبيلية . تأهب الخليفة أبى يوسف يعقوب للجهاد بالأندلس . مسيره إلى رباط الفتح . عبور الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . مسير الخليفة إلى قرطبة . اجتماع الحشود الموحدية بالأندلس، ومسيرها إلى شلب . مسير الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية . عقد ملكى ليون وقشتالة للصلح مع الخليفة . مسير الخليفة فى قواته من قرطبة إلى وادى التاجة . غزوه لمنطقة شنترين . استيلاؤه على قلعة طرش . محاصرته لطومار . تخريبه لبسائط تلك المنطقة . صمود طومار . أمر الخليفة بالكف عن الغزو . عوده فى قواته إلى إشبيلية . عود الجيش المحاصر لشلب . فشل هذه الغزوة لأراضى البرتغال . نظر الخليفة فى أمر المسجونين والعمال . فتنة الجزيرى ومطاردته . ما أذيع حول شخصه . القبض عليه وإعدامه . حقيقة أمره ودعوته الإصلاحية . سفارة صلاح الدين إلى المنصور . ظروف الشرق الإسلامى يومئذ . عدوان الصليبيين واستيلاؤهم على ثغور الشام وبيت المقدس . نهضة صلاح الدين وتحطيمه للمملكة اللاتينية . أثر ذلك فى مضاعفة الغرب لأهباته العدوانية . اتجاه صلاح الدين إلى طلب العون من المغرب . رسالته الأولى إلى الخليفة الموحدى . سفارته إليه على يد ابن منقذ . ما جاء فى رسالته إلى الخليفة . أقوال الروايات المصرية والمغربية عن حركات السفير المصرى ومصير سفارته . استقبال الخليفة لإبن منقذ وتسلم هدية صلاح الدين . فشل هذه السفارة وبواعث هذا الفشل . المغزى العظيم الذى تنطوى عليه . أهبة المنصور لاستئناف الغزو . خروجه فى قواته من إشبيلية . مسيره إلى البرتغال . مهاجمته لقصر الفتح . تسليم النصارى إياها بالأمان . استيلاء الخليفة على حصن قلالة والحصون المجاورة . مسير الموحدين إلى شلب . محاصرتها وضربها بالمجانيق . اقتحامها وتسليمها بالأمان . عود المنصور إلى إشبيلية . عبوره إلى العدوة ومسيره إلى الحضرة . مرض المنصور . اختياره لولده محمد لولاية العهد . ملخص بيعة أهل قرطبة لولى العهد . مقدم السيد أبى زيد وأشياخ العرب . استجمام الخليفة بفاس . مسيره إلى رباط الفتح وتجديد قصبتها . عوده إلى مراكش . أمره بإنشاء حصن الفرج بشرف إشبيلية . فتنة الأشل ببلاد الزاب . مطاردة والى بجاية له . حماية العرب له . تحيل الوالى فى القبض على العرب . اضطرار عشائرهم إلى القبض على الثائر وتسليمه . استئناف بنى غانية لحركاتهم . عيثهم فى بلاد الجريد . وفاة على بن إسحاق ابن غانية . قيام أخيه يحيى مكانه بالأمر . توحيد قراقش ومسيره إلى تونس . بواعث هذا التصرف . فراره من تونس وعوده إلى مغامراته . استيلاؤه على طرابلس . الخلاف بينه وبين يحيى . هزيمة قراقش وفراره . استيلاء يحيى على طرابلس . ثورة أهل طرابلس وعودهم لطاعة الموحدين .

لم يكن ثمة شك فى أن نكبة شنترين ، وما ظهر خلالها من عجز الجيوش الموحدية الجرارة ، واختلال نظامها ، كان له أكبر الأثر فى إذكاء أطماع ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز (ابن الرنق) فى انتزاع ما تبقى من ولاية الغرب الأندلسية ، وفى مضاعفة شهوة العدوان والتغلب ، فى نفسه الوثابة المضطرمة . ولكن ألفونسو هنريكيز لم يعش طويلا ليقوم بنفسه بتحقيق هذه الأطماع العريضة ، إذ توفى فى السادس من شهر ديسمبر سنة ١١٨٥ م (أواخر سنة ٥٨١ هـ) ، بعد أن حكم مملكة البرتغال زهاء نصف قرن ، وبعد أن وطد أركانها ، ووسع حدودها شرقاً وجنوباً على حساب الأراضى الإسلامية ، وكانت وفاته لنحو عام ونصف فقط من وفاة الخليفة أبى يعقوب يوسف عقب نكبة شنترين . فخلفه ولده سانشو الأول ، وهو يضطرم بمثل أطماعه ، وقضى أعوام حكمه الأولى فى العمل على إصلاح البلاد والحصون التى خربتها الحرب ، وتعميرها بالسكان . ومنذ بداية سنة ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) نراه يعد العدة لاستئناف غزو الأراضى الإسلامية . وكانت كل الظروف تشجعه ، وتعضد مشاريعه . فقد كان الخليفة الموحدى ، بعيدا فى المغرب تشغله أحداث إفريقية ، ومغامرات بنى غانية ، ومؤامرات الخوارج عليه ، وكانت هذه الأحداث المحلية الخطيرة تجعل من المتعذر على الخليفة الموحدى ، أن يبعث بشىء من حشوده إلى شبه الجزيرة ، وكانت القوات الموحدية بالأندلس قليلة العدد والعُدد ، لاتكفى لدفع عدوان النصارى سواء من ناحية مملكة قشتالة أو مملكة البرتغال . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الظروف تهيئ لنصارى البرتغال أمداداً طارئة لم تكن فى الحسبان ، هى الأمداد الصليبية ، التى عادت تتقاطر إلى المشرق من ناحية المحيط ، لتنجد الجيوش الصليبية التى ضعضعتها ضربات صلاح الدين ، وسقوط المملكة اللاتينية ، باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس فى رجب سنة ٥٨٣ (أكتوبر سنة ١١٨٧ م) .

ففى أوائل سنة ١١٨٩ م (أوائل ٥٨٥ هـ) ، وصل أسطول صليبى ضخم من خمسين سفينة ، يحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والفلمنك إلى مياه اسبانيا الغربية فى طريقه إلى البحر المتوسط ، ورسا فى مياه جليقية قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب ، ولكن أهل المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند ، وخشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التى يحفل بها مزار هذا القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة ، قتل فيها عدد من

الجانبين ، وعاد الجند الصليبيون إلى سفنهم ، فسارت بهم نحو الجنوب : وتقدم فى نفس الوقت إلى هذه المياه أسطول صليبي آخر من انجلترا وبلاد الفلاندر ، ودفعته الأنواء والعواصف الجامحة نحو مياه أشبونة ، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية ، فاجتمع بذلك فى مياه أشبونة عدد ضخم من السفن الصليبية ، تحمل ألوفاً عديدة من المقاتلة ، فتلقاهم سانشو ملك البرتغال بترحاب ، وألفى فى مقدمهم فرصة طيبة للاستعانة بهم فى غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، وتفاهم مع الرؤساء والقادة الصليبيين على تسيير حملة قوية مشتركة إلى مدينة شلب ، لانتزاعها من المسلمين ، لأنهم يتخذونها بالأخص قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها ، وينهبون ثغورها ، ويأسرون كثيراً من النصارى[1] ، فاستجاب إليه الصليبيون ، بما أذكى أطماعهم من إحراز الغنائم والثروات من أراضى المسلمين .

وكانت شلب ، فى ذلك الوقت ، بعد باجة ويابرة ، أمنع قواعد ولاية الغرب الأندلسية ، وأوفرها عمراناً وثراء ، وهى تقع فى أقصى جنوبى البرتغال ، على مقربة من المحيط ، فوق ربوة متدرجة تشرف على نهر دراد الذى يصب فى المحيط جنوباً قرب ثغر بورتماو الصغير ، ومن حولها بسائط خضراء ، تكثر فيها غابات الزيتون ، والحدائق والحقول اليانعة ، وإليك كيف يصفها لنا الشريف الإدريسى ، وقد زارها قبل ذلك بنحو نصف قرن :

« ومدينة شلب حسنة فى بسيط من الأرض وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات . وشرب أهلها من واديها الجارى إليها من جهة جنوبها وعليه أرحاء البلد ، والبحر منها فى الغرب على ثلاثة أميال ، ولها مرسى فى الوادى وبها الإنشاء ، والعود بجبالها كثير ، يحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة فى ذاتها حسنة الهيئة بديعة المبانى مرتبة الأسواق ، وأهلها سكان قراها من عرب اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم »[2] .

تلك هى شلب الإسلامية التى أزمع سانشو ملك البرتغال وحلفاؤه الصليبيون

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص١٧٥ ، وأشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٣٢٩ و ٣٣٠ ، وراجع أيضاً :

Huici Miranda: Imperio Almohade, cit. Las Crónicas dos Sete Reis de Portugal p. 842

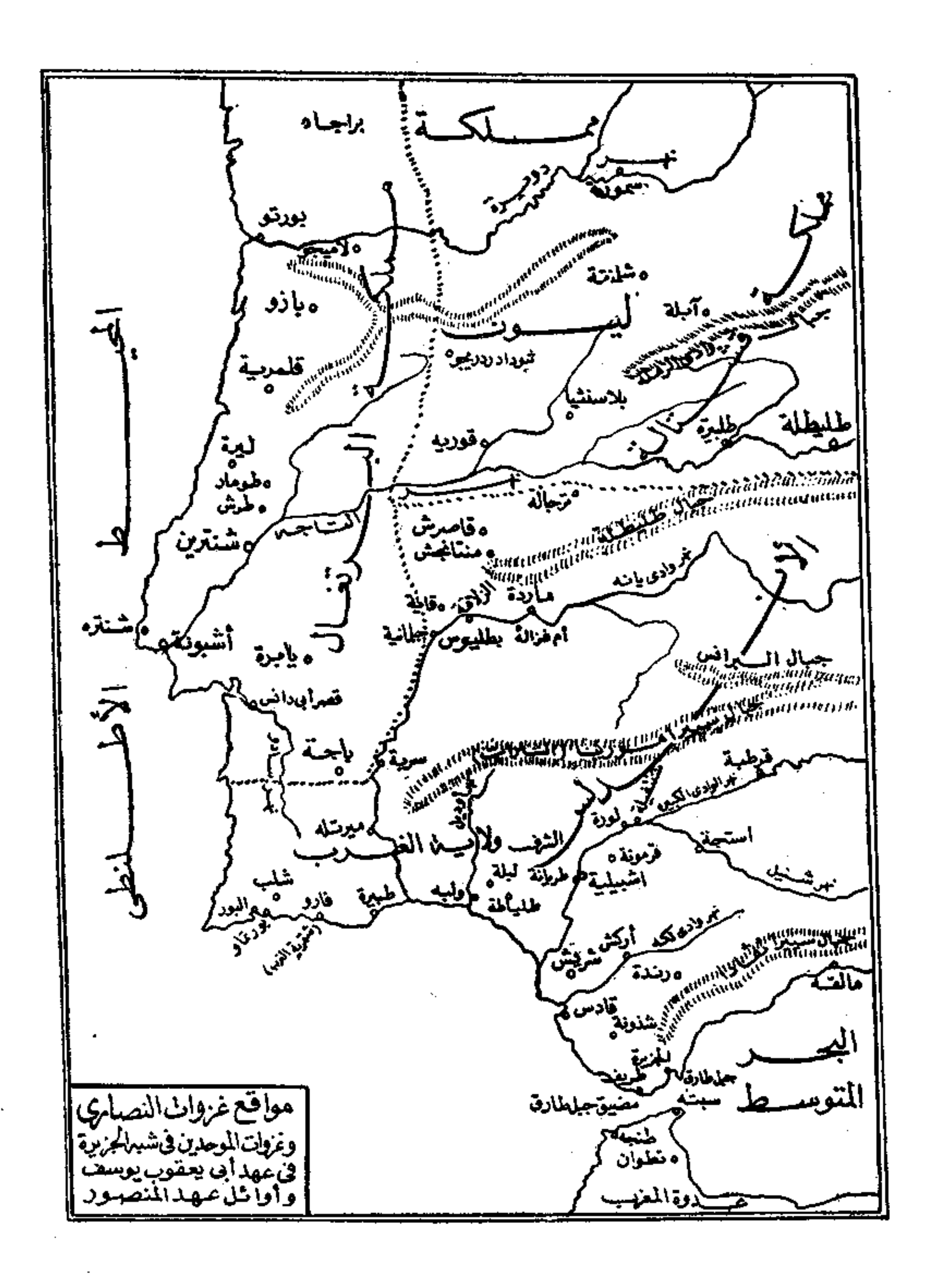
(٢) الإدريسى فى وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ص ١٧٩ و ١٨٠) ، ونقله صاحب الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٠٦ .

أن ينتزعوها من المسلمين . ففى أوائل سنة ٥٨٥ هـ (أوائل سنة ١١٨٩ م) ، بعث سانشو بقواته البرية جنوبا صوب شلب ، وسارت سفن الصليبيين من خليج التاجُه حذاء الشاطئ البرتغالى حتى مياه ثغر بورتماو الصغير ، الواقع على قيد إثنى عشر كيلومتراً من جنوبى شلب . وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن ألبور[1] الواقع على مقربة من غربى بورتماو ، وقتلت حاميته الإسلامية ومن كان به من اللاجئين المسلمين ، وعددهم جميعاً يقرب من الستة آلاف[2] ، ثم زحف سانشو بعد ذلك فى قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، نحو المدينة الإسلامية ، وهاجموا أرباضها ، واستولوا عليها فى الحال . وكان والى المدينة عندئذ الحافظ عيسى بن أبى حفص ابن على ، رجلا عاجزاً قليل الخبرة بشئون الدفاع ، فامتنع بقواته داخل المدينة ، معتمداً على حصانتها الطبيعية ، وأسوارها القوية العالية ، وشغل الصليبيون عن مهاجمة المدينة بنهب ما حولها من الأرباض والمحلات ، وحاول سانشو مدى بضعة أسابيع أن يقتحم المدينة بالهجوم فى قواته ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . فاضطر أن يلجأ إلى الحصار ، وأن يستدعى قوات جديدة لمعاونته قدمت فى أربعين سفينة جديدة . وتضع الرواية النصرانية بدأ حصار شلب فى ٢١ يوليه سنة ١١٨٩ م (ربيع الآخر سنة ٥٨٥ هـ) . وحاول سانشو فى بدء الحصار أن يعاود اقتحام المدينة ، فضربها بالمجانيق والنبال ضرباً شديداً ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً على تحصينات المدينة القوية ، وحاول الجند الفلمنك من جهة أخرى أن يحفروا السراديب تحت الأسوار وان يحدثوا بها ثلمات للدخول ، فأحبط أهل المدينة كل محاولاتهم . وكان من الممكن أن يطول هذا الموقف ، وأن تصمد المدينة للحصار ، مدة طويلة ، لولا أن عمد سانشو إلى محاولة قطع الماء عن المدينة ، وإرغامها إلى التسليم من جراء العطش . وكانت شلب تستمد ماءها من النهر القريب بواسطة بئر كبيرة أقيمت قرب السور تسمى « القراجة » ، وأقيم فوقها لحمايتها برج قوى ، ففكر المحاصرون فى هدم هذا البرج ، وهاجموه بواسطة السلالم ، فلما رأى المسلمون هذه المحاولة ، خرجوا لمنعها ، ونشبت حولها معركة تفوق فيها النصارى واستولوا على البئر . وكانت هذه بالنسبة للمسلمين ضربة مؤلمة ، لم تلبث أن حققت نتيجتها المحتومة . ذلك أن العطش أخذ إلى جانب الجوع ، يحدث أثره

---

(١) حصن ألبور بالإفرنجية Alvor .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٧٥ .


مواقع غزوات النصارى
وغزوات الموحدين في شبه الجزيرة
في عهد أبي يعقوب يوسف
وأوائل عهد المنصور
مملكة
براجاه
بورتو
لاميجو
بازو
قلمرية
شلمنقة
آبلة
ليون
بلاسنثيا
قوريه
طلبيرة
طليطلة
ترجالة
قاصرش
منتانجش
ماردة
بطليوس
جلمانية
أم فزالة
شنترين
أشبونة
شنتره
يابرة
قصر أبي دانس
باجة
سرية
ميرتله
شلب
فارو
طبيرة
ولبه
لبلة
طرليانة
إشبيلية
قرمونة
استجة
قرطبة
لورة
أركش
شريش
رندة
قادس
شذونة
الجزيرة
طريف
جبل طارق
مضيق جبل طارق
سبته
طنجة
تطوان
عدوة المغرب
مالقة
البحر المتوسط
جبال الشارات
جبال طليطلة
جبال البرانس
نهر وادي يانه
نهر الوادي الكبير
نهر شنيل
نهر وادي لكه
الغرب
ولاية الغرب
الشرف

المروع فى أهل المدينة ، وكان النصارى يترقبون الفرصة القريبة لمهاجمة المدينة واقتحامها ، بعد أن يعجز أهلها عن الدفاع تماماً . ولكن المدينة لم تستطع أن تصمد حتى هذه اللحظة ، ولم يلبث أن بعث أهلها وفدهم إلى سانشو ، يعرض عليه تسليم المدينة ، إذا وافق على أن يخرجوا منها حاملين سائر أمتعتهم ، فتفاوض سانشو مع حلفائه ، وكان رأى الفلمنك الصليبيين أن يقتل أهلها المسلمون جميعاً ، ولكن الرأى انتهى بإقناعهم بالحصول على أسلاب المدينة ، واتفق فى النهاية على أن يُؤمن أهل المدينة فى أنفسهم ، وأن يتركوا البلد بجميع ما فيه من أموالهم وأثاثهم . وهكذا غادر أهل شلب مدينتهم « مسلوبين » ، ودخل النصارى مدينة شلب ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، فى يوم الاثنين العشرين من رجب سنة ٥٨٥ هـ (٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ م)(١) .

وكان سقوط مدينة شلب على هذا النحو ضربة قاصمة لسلطان الموحدين فى ولاية الغرب ، إذ كانت هى آخر معاقلهم فى تلك المنطقة الحساسة ، وسقوطها بعد سقوط باجة قبل ذلك بعشرة أعوام ، يفتح الطريق لتهديد بقية ولاية الغرب فى اتجاه ولبة ولبلة ثم إشبيلية . على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن القشتاليين كانوا من الناحية الأخرى ، يهددون موسّطة الأندلس ، ومنطقة إشبيلية بالذات ، بغاراتهم المتوالية . فى نفس الوقت الذى سارت فيه القوات البرتغالية والصليبية لافتتاح شلب ، خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى قواته ، نحو منطقة قرطبة ، ثم اكتسح البسائط شرقاً نحو إشبيلية ، وهو يعيث فيها قتلا وسلباً ، فخرجت قوات إشبيلية إلى لقائه فأوقع بها الهزيمة ، والتجأت فلولهم إلى حصن المنار ، فطاردهم النصارى واستولوا على الحصن ، واستأصلوا من فيه من المسلمين قتلا وأسراً . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى سار ألفونسو إلى أم غزالة ، وكانت قد أخليت من سكانها قبل وصوله ، فحاصرها وقتاً ثم تركها ، وسار إلى ربينة ، واستولى عليها ، وقتل معظم سكانها وأسر الباقين ، واستمر فى حملته الغازية حتى قلعة جابر ، ثم حصن شلير ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة من سنة ٥٨٥ هـ (أغسطس سنة ١١٨٩)(٢) .

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٧٥ و١٧٦ ، والروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس ص ١٠٦) وراجع: Huici Miranda : ibid; (cit. Relaciones). p. 342 - 346

(٢) البيان المغرب ص ١٧٥ و١٧٦ .

وعاد ملك قشتالة بعد حملته المظفرة إلى طليطلة .

— ١ —

كان لتلك الحوادث أعمق وقع فى نفس الخليفة يعقوب المنصور ، فما كاد يقف على أخبارها ، حتى أخذ فى التأهب للعبور إلى الأندلس ، واستئناف الجهاد ، واعتمد فى هذه المرة على التطوع فى جمع الحشود ، حسبما ذكرنا من قبل ، وعنى عناية خاصة بتوفير العتاد والسلاح والمؤن ، ثم خرج فى قواته من مراكش فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ (٢٣ يناير سنة ١١٩٠م) ، وذلك بعد أن وجه كتبه إلى إشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، بما اعتزمه من قدومه إلى شبه الجزيرة لنصرة أهلها على عدوهم، وما يرجوه من تيسير استقبال الجيوش الوافدة ، وسار إلى رباط الفتح ، فلما وصلها ، أقام بها نحو الأربعين يوما ، حتى وصلت باقى الحشود وقوات القبائل، واستكملت أهبة الجيش الغازى .

وفى أواخر شهر المحرم من سنة ٥٨٦ هـ (أوائل مارس سنة ١١٩٠ م) غادر المنصور رباط الفتح فى قواته ، وسار إلى قصر مصمودة (القصر الصغير) وجدد منه كتبه إلى إشبيلية متضمنة قرب وصوله . ولبث مقيما بالقصر ، حتى كان بدء الجواز فى الخامس عشر من ربيع الأول ، ولما انتهى جواز الجند ، عبر المنصور البحر فى يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ونزل بجزيرة طريف ، وهنالك أقبلت وفود بعض البلاد للسلام عليه ، وشكا البعض مما يقع من ظلم العمال ، فأغضى المنصور عن مناقشة هذا الأمر فى هذه الظروف الدقيقة . ثم تحرك من طريف فى غرة جمادى الأولى ، وسار شمالا صوب مدينة أركش ، وهنالك ودع الوفود الملتفة حوله ، وسار إلى قرطبة . وبعث إلى السيد يعقوب بن أبى حفص والى إشبيلية ، بأن يتحرك منها بعساكره ، وأن يجمع سائر الحشود ، من العرب والبربر ، من غرناطة وغيرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة ، وسائر المتطوعة والمجاهدين . فصدع السيد يعقوب بالأمر ، وحشد سائر القوات المتقدمة ، وسار فيها قاصداً إلى شلب ، وذلك فى غرة جمادى الأولى (٦ يونيه) وعسكر فى ظاهر المدينة . ولم يمض شهر على ذلك حتى وصلت سفن الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية

على مقربة من ثغر بورتماو. ثم دنا الموحدون من أسوار شلب ، ونصبوا عليها المجانيق ، وآلات الرمى ، وضربوا حول المدينة حصاراً صارماً مرهقاً .

وأما المنصور ، فإنه لما وصل بقواته إلى قرطبة نزل بها بالقصر الذى كان أنشأه السيد أبو يحيى . ثم تجول بأطلال مدينة الزهراء، ليشاهد آثار القرون الماضية ، وليعتبر بما أحدثته صروف الدهر ، وأمر بإنزال التمثال الذى كان منصوباً فوق بابها ، وقد كان وفقاً لقول البكرى تمثالا للعذراء . ويقول لنا صاحب البيان إنه هبت فى عصر ذلك اليوم ريح عاصفة أحدثت بعض الخلل فى محلة الساقة ، فأذاع بعض عامة قرطبة أن ذلك كان بسبب إنزال تمثال الزهراء ، وأن هذا التمثال كان طلسما لحمايتها ، وبلغ المنصور ذلك فسخر منه ، وأنحى باللائمة على جهل أهل قرطبة[1] ، وأمر بالاجتهاد والتأهب .

وكان قد وصل إلى قرطبة رسل من قبل ملك قشتالة ، جاءوا ليسعوا إلى عقد الهدنة ، وكان مقدم الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، قد بث حسبما تحدثنا رسالة الخليفة ، بين النصارى ، أسباب الجزع والفزع ، فبادر ملوكهم إلى إرسال رسلهم فى التماس المسالمة والتهادن ، وأنه بينما كان الخليفة على وشك العبور من القصر الصغير ، وصل رسل ملك قشتالة إلى إشبيلية ، يعرضون السلم ويطلبون عقد الهدنة ، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى. وتكررت هذه العروض عند وصول الخليفة إلى قرطبة ، فاستجاب الخليفة إلى مطالبهم ، لأنه حسبما يقول لنا فى رسالته، رأى مصلحة المسلمين فى افتراق كلمة الكفر ، وكذلك عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة ، ولم يأبه بالحلف القديم الذى كان قد عقده أبوه فرناندو مع ملك البرتغال أيام موقعة شنترين[2].

ثم أمر الخليفة السيد أبا زكريا بن أبى حفص أن يسير إلى إشبيلية فى جيش خاص من العرب وزناتة وأهل تلمسان ومن إليهم ، ليتجهز هنالك وليلحق به وبإخوته فى طريق الغزو . وقام المنصور بعد ذلك بتمييز القوات المرتزقة ، والحشود الواصلة من العدوة، وفرقت فيهم البركة، ثم أمر بعقد الرايات ، وخرج فى قواته من قرطبة متجهاً نحو الشمال الغربى إلى وادى التاجُه ، ولحق به السيد أبو زكريا فى قواته فى نفس الاتجاه . وكانت خطة المنصور، فيما يبدو هى العمل

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٧٥ .

(٢) رسائل موحدية — الرسالة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٢ و٢٢٣ .

على إرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم كبير من قواته وقوات حلفائه الصليبيين، فى الشمال بعيداً عن شاب، لكى يخفف ضغط النصارى بذلك على القوات الموحدية الضاربة حولها، فتستطيع تكريس جهودها للتغلب على منعة المدينة ذاتها. ومن ثم فقد سار المنصور صوب السهل الممتد على ضفاف التاجه شمالى شنترين، وأثخن الموحدون فى تلك الرقعة الخضراء، فانتسفوا زروعها، وخربوا ضياعها، ثم عبروا النهر وساروا لمهاجمة قلعة طرش[1] الواقعة على مقربة من شمال شنترين، وهى قلعة عظيمة شديدة المنعة، تقع فوق ربوة عالية، فحاصروها بشدة، ولم تمض أيام قلائل، حتى عرض قائدها التسليم بالأمان، فوافق الخليفة وغادر القلعة كل من كان فيها من النصارى، وفى الحال خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها، وتركوها قاعاً صفصفاً، وكانت حسبما تصفها رسالة الخليفة محلة عامرة نضرة، تغص بالغراس والكروم. ثم سار الموحدون بعد ذلك شمالا، وهاجموا مدينة طومار[2]، وهى قاعدة منيعة، تقع فى بسيط مخصب زاهر، وكانت تدافع عنها حامية من فرسان المعبد (الداوية) فخرب الموحدون بسائطها، ولكنهم اضطروا الى حصارها، نظراً لما أبدته حاميتها من شدة فى الدفاع. ودام الحصار وقتاً دون أن تسلم طومار، ويقول لنا صاحب البيان المغرب، إن رسل ابن الرنك (ملك البرتغال) قدموا عندئذ فى طلب المهادنة والسلم، وأن المنصور أمر بتخفيف القتال ريثما ينعقد السلم، وتنتظم الأمور[3]. ومن جهة أخرى، فإنه يبدو مما يقصه علينا الخليفة فى رسالته أن الموحدين، كانوا خلال هذا الحصار، يوجهون سراياهم فى سائر البسائط القريبة تثخن فيها، وتمعن فى تخريبها، وأن سانشو ملك البرتغال كان فى ذلك الحين مرابطا بقواته فى شنترين، لا يجرؤ على الخروج منها لملاقاة الموحدين[4].

وعلى أى حال فإن الموحدين لم يستمروا فى حصار طومار، ولم يأخذوها، وحدث العكس حيث أمر الخليفة بالكف عن القتال واختتام أعمال الغزو. ويقدم إلينا صاحب البيان تفسيراً لذلك خلاصته، أن الخليفة شعر بتوعك تمادى أمره،

---

(١) هى بالإفرنجية **Torres** ، وتقوم اليوم مكانها بلدة **Torres Novas** البرتغالية.

(٢) هى بالإفرنجية **Tomar** وهى تقع على مقربة من شمال **T. Novas** .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

(٤) الرسالة الموحدية الرابعة والثلاثون ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

وأنه من جهة أخرى لاحظ أن شئون التموين بالجيش قد اختلت ، وأخذت المؤن والعلوفات تنضب ، وقد كانت تحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة . وهذا بعكس ماكان عليه البرتغاليون حيث استطاعوا قبل الغزو أن يحصدوا معظم زروعهم ، وأن يختزنوا المؤن الكافية(١) . ولهذا كله قرر الخليفة أن يختم أعمال الغزو ، وأن يأمر بالارتداد إلى إشبيلية ، وصدرت الأوامر فى نفس الوقت إلى الجيش المحاصر لشلب بأن يغادرها على وجه السرعة ، وأن يرتد كذلك أدراجه . وقضى المنصور فى هذه الغزوة ثلاثة وأربعين يوما . وكانت عودته إلى إشبيلية فى الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ (يوليه ١١٩٠ م)(٢).

ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضى البرتغال لم تسفر عن نتائج ذى شأن ، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة ، فلم تؤخذ طومار ، ولم تُسترد شلب ، وهى غاية الغزو الأولى . ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين فى الجيوش الموحدية ، كان دائماً فى مقدمة أسباب فشلها فى تحقيق أغراضها العسكرية . على أننا نستطيع أن نلاحظ فى نفس الوقت ، أن ما تذرع به المنصور من الحزم فى تنظيم الارتداد فى الوقت المناسب ، كان كفيلا بسلامة الجيش الموحدى ، وعدم تعرضه لكارثة أخرى ، من طراز كارثة شنترين .

على أن المنصور لم تقف همته ومشاريعه عند هذا الحد . ذلك أنه كان يشعر أنه لابد من تحقيق الهدف الرئيسى من عبوره إلى شبه الجزيرة ، باسترداد شلب ، وضرب قوى البرتغال العسكرية ، ومن ثم فقد عول على البقاء بالأندلس ، والعكوف على الاستعداد الوئيد المجدى .

وانتهز المنصور فرصة وجوده بإشبيلية ، فأخذ ينظر فى شئون الناس والعمال ، وأمر بفحص قضايا المسجونين الذين طال سجنهم ، وإعدام من يستحق الإعدام منهم بعد عرض أمره عليه ، واشتد فى مطاردة المنكرات والملاهى . وأما عن العمال فقد أمر المنصور ، بالقبض على ابن سنان لما نمى إليه من أنه كان فى موقعة المنار أول من بادر بالفرار ، وأمر كذلك باستصفاء أمواله .

---

(١) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ص ٢٢٧ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٠ .

وفى ذلك الحين بالذات ، رُفع إلى المنصور أمر ثائر من نوع جديد ظهر بمراكش . ويدعى على الجزيرى . ويقدم إلينا صاحب البيان بالمغرب هذا الثائر فى صورة غامضة مثيرة ، فيقول لنا إنه كان يتظاهر بطلب العلم ، ويعنى بنوع خاص « بحفظ المتشابهات » ، وإنه لما ظهر أمره لأول مرة ، أمر الخليفة بطرده من مراكش ، فغادرها ، وأخذ يتجول فى الأقطار ، وهو يبث دعوته سراً ، ولاسيا بين العامة حيث يخاطبهم ، ويسايرهم فى أفكارهم ، ثم ظهر من جديد بمراكش وكثر القول عن دعايته ومساعيه ، فأمر والى المدينة السيد أبو الحسن ابن أبى حفص بمطاردته والبحث عنه أينما وجد ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ، ثم ظهر بمدينة فاس ، وأخذ يختلط بعامتها وأوباشها وتبعه منهم جماعة ، فرفع خبره إلى واليها ابن ومازير ، فقبض على عدة من أتباعه وقتلهم ، وأفلت الثائر من المطاردة مرة أخرى ، واختفى ولم يوقف له على أثر .

ثم تواترت الأنباء بأن الثائر قد عبر إلى الأندلس ، فأمر المنصور بالكتب إلى سائر الولاة والعمال بصفته وهيئته وأماراته ، وبأن يقبض عليه أينما وجد . وذاعت بهذه المناسبة عن الثائر أقوال وروايات خرافية كثيرة ، فقيل إنه ساحر قدير ، وإنه يتصور فى صور الحيوانات المختلفة ، مثل الحمير والكلاب والسنانير ، وترددت هذه الأقاويل بين العامة . ثم قيل إنه عُثر عليه فى مالقة ، وقُبض على كثير من الأوباش الذين التفوا حوله ، وفيهم أخوه ، فأمر المنصور بإحضارهم إلى إشبيلية ، وقيل إن الثائر كان ضمن هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكنه استطاع أن يفلت بواسطة رشوة دفعها أتباعه للقاضى المختص ، ويدعى الوانى . فأمر المنصور بقتل أولئك الأتباع ، وعددهم تسعة وتسعون ، وأمر بأن يجلد القاضى بعدد الدنانير التى تقاضاها على سبيل الرشوه ، فهلك قبل أن يستوفى هذا العدد ، وقتل فى نفس الوقت فى مختلف الأنحاء كثيرون آخرون ممن نسب إليهم مسايرة الثائر واتباع دعايته .

وأخيراً ، وبعد بحوث ومطاردات عنيفة ، قبض على الثائر فى بعض قرى مرسية ، وأخذ إلى إشبيلية ، وحمل إلى مجلس الموحدين ، وطيف به على الحاضرين وهو يعلن إنكاره لما نسب إليه من المبادئ والنظريات الثورية ، ثم انتهى الأمر بصلبه ، والقضاء على مادار حول شخصه من ضروب الإرجاف والخرافة[1].

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٨٢ .

ونظم الشعراء قصائدهم كالعادة فى امتداح المنصور ، وتهنئته بالقضاء على هذه الفتنة . فمن ذلك ماقاله الجراوى من قصيدة طويلة :

نار من الفتنة العميـاء أطفـأها   سعد الإمام وحد الصارم الذكر
مازال إبليس فى الأقطـار يوقدها   وترتمى من شرار الخلق بالشرر
زاد الشقى على الخفاش مشبهه   ضعف البصيرة إذا ساواه فى البصر
جارى إلى سقر أصحابه فهـووا   فيها سراعا ووافاهم على الأثر

تلك هى رواية صاحب البيان المغرب عن ثورة الجزيرى ، وهى فيما يبدو مستمدة من أقوال ابن صاحب الصلاة ، وهى رواية بلاط لاتمثل سوى وجهة النظر الرسمية .

بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن ثورة الجزيرى ، كان لها شأن آخر ، وأن الجزيرى واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيرى ، لم يكن ذلك الدجال المشعوذ ، الذى تقدمه إلينا الرواية الموحدية . فهو عالم أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء ، أخذ من مختلف العلوم بقسط وافر ، وكان يُنعى على الدولة الموحدية ما جنحت إليه من الأخذ بأسباب الأبهة والترف ، ومن مخالفة تعاليم المهدى الأصلية . وكان يضطرم بنزعة إصلاحية ، ويطمح إلى إحياء سنن المهدى ابن تومرت ، ويبث دعوته بين الكافة بقوة وبراعة ، حتى عظم أمره ، وكان شاعراً مجيداً . ومن قوله يشير إلى رسالته الإصلاحية :

فى أم رأسى سر   يبدو لكم بعـد حين
لأطلبن مـــــرادى   إن كان سعدى معينى
أو لا فأكتب ممــــن   سعى لإظهـار دينى

وكانت الجموع تهرع إلى الالتفاف حوله أينما وجد ، وتذاع عنه وعن دعايته أغرب الروايات ، حتى زعم بعض الناس أنه يتصور فى صور الحيوانات مثل القطط والكلاب وغيرها . وكان من الطبيعى أن تفزع السلطات الموحدية لأمر هذا المصلح الثائر ، وأن تخشى من تأثير دعايته فى الجموع ، وأن تبث عليه العيون والأرصاد فى كل مكان . وكان ينجح فى الإفلات من المطاردة فى أحيان كثيرة ، حتى قبض عليه أخيراً فى بعض قرى مدينة بسطة ، وقتل ،

وأرسل إلى مراكش . وكانت ثورة الجزيرة فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م)(١) .

— ٢ —

وفى هذا العام بالذات أعنى فى سنة ٥٨٦ هـ ، تلقى الخليفة الموحدى سفارة هامة ، من الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ . ولم تكن هذه أول مرة يحاول فيها عاهل مصر ، أن يتصل بالخليفة الموحدى ، وأن يكتب إليه . ولابد لنا قبل التحدث عن موضوع هذه السفارة ، أن نشير إلى الظروف التى كان الشرق الإسلامى يجوزها فى تلك الفترة ، والتى حملت صلاح الدين ، على أن يتجه ببصره إلى الغرب الإسلامى ، ذلك أن الشرق الإسلامى كان منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) ، يواجه عدوان الغرب المنظم فى صورة الحملات الصليبية المتوالية . وكان هذا العدوان قد أسفر عن ثماره الأولى باستيلاء الصليبيين على ثغور الشام وبيت المقدس ، وقيام المملكة الفرنجية اللاتينية فى بيت المقدس . وكانت مصر فى تلك الفترة المؤلمة ، وهى أواخر العهد الفاطمى ، تجوز مرحلة انحلال وضعف ، وتعوزها الوسائل والقوى الدفاعية الناجعة . فلما انتهت الدولة الفاطمية ، ونهضت مصر نهضتها المشهورة ، على يد الملك الناصر صلاح الدين ، واستطاعت أن تسحق قوى الصليبيين ، وأن تسترد بيت المقدس ، وأن تقضى بذلك على المملكة اللاتينية (٥٨٣ هـ — ١١٨٧ م) هرع الغرب فى حشوده العظيمة مرة أخرى إلى الشرق ، ليقضى على تلك القوة الجديدة ، التى تهدد أطماعه ومشاريعه بالانهيار . وكان صلاح الدين ، بالرغم مما شاده من القوى العظيمة ، وما أحرزه من الانتصارات الباهرة ، يشعر بأخطار هذا التكتل الصليبى الجديد ، ويخشى إذا لم يتداركه العون من إحدى النواحى ، أن يضعف عن مدافعته . وهنا اتجه صلاح الدين ببصره نحو المغرب ، يرجو منه العون والغوث . وكان يرى فى الدولة الموحدية التى بلغت يومئذ ذروة عظمتها وقوتها ، ملاذاً يجدر قصده والالتجاء إليه . فكتب إلى الخليفة الموحدى ، — يعقوب المنصور — فى سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضى الفاضل يستصرخه ، ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام ، وفيها

(١) هذه رواية صاحب المغرب فى حلى المغرب (ج ١ ص ٣٢٣ و٣٢٤) . وقد نقل المقرى هذه الرواية وهذا الشعر فى نفح الطيب .

يصفه « بأمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين » ويصف له جهوده محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وماكان لذلك من أثر فى تحالف النصرانية ، ودول الغرب عليه ، ونهوض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربته ، ومحاولة الاستيلاء على ثغور المشرق ، والقضاء على قوى الإسلام المجتمعة تحت لوائه ، ويطلب صلاح الدين إلى عاهل المغرب ، أن يمد الشام ، مسرح القتال ، بشطر من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل فى الوقت نفسه ، جناحاً من أسطوله إلى صقلية ، فيشغل طاغيتها ، ويعطله عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى فى مهاجمة مصر ، ويعتقله بذلك فى جزيرته . ثم يقول صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى : « وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكر لاترد به المحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة ، يُطلع بها شمس النصر من مغربها »(١) .

والظاهر أن البلاط المصرى لم يكن على علم تام بحقيقة سير الأمور فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ذلك أن يعقوب المنصور ، ما كاد يتولى الخلافة عقب مصرع أبيه فى موقعة شنترين ، حتى أخذ يواجه حسبما رأينا سلسلة من الأحداث المزعجة سواء فى المغرب أو الأندلس . فأما فى المغرب فقد رأينا كيف شغل بثورة بنى غانية ، واعتدائهم على إفريقية ، واستخلاص ثغورها من أيديهم . وأما فى الأندلس ، فقد عنى المنصور ، كما رأينا بحشد الجيوش ، لاستئناف حركة الجهاد ، ورد عدوان النصارى عن أراضى الأندلس ، بعد ما تفاقم هذا العدوان سواء من جانب قشتالة أو من جانب مملكة البرتغال . وقد كان من الطبيعى ، فى تلك الظروف الدقيقة التى يجوزها الموحدون ، فى المغرب والأندلس ، أن صريخ صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ، لم يلق صدى ، وان رسالته لم يكن لها الأثر المرغوب .

على أن صلاح الدين لم ييأس من الفوز بعون الخليفة الموحدى. ذلك أنه كان يشعر بأنه يتوجه بصريخه إلى الوجهة الصحيحة ، وأن نزعة الجهاد ، كانت تضطرم فى المغرب على يد الدولة الموحدية ، اضطرامها فى المشرق ، وأن الكفاح الذى يضطرم به الموحدون ضد اسبانيا النصرانية ، لم يكن إلا شطراً من الكفاح الذى تضطلع به مصر فى المشرق . ومن ثم فقد اعتزم صلاح الدين أن يكرر محاولته . فعاد فى العام التالى فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، فأرسل إلى الخليفة

(١) تراجع رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٢٦ - ٥٣٠ .

يعقوب المنصور ، سفارة على يد وزيره الشهير شمس الدولة ابى الحارث عبدالرحمن ابن منقذ ، يحمل إليه رسالة وهدية فخمة . وكان ابن منقذ ، وهو سليل أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شيزر السابقين بالشام ، من رجالات الدولة الصلاحية البارزين ، وممن يصطفيهم السلطان لقضاء المهام الدقيقة . ويصف صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى ، ما حدث من تقاطر الفرنج على الشام براً وبحراً ، وفى مقدمتهم جيوش ملك الألمان وملك الإنجليز وأساطيله ، وما وقع حول عكا التى حاصرها الفرنج من المعارك الخطيرة ، وما بذله السلطان لإنقاذها من الجهود فى البر والبحر . ثم يتجه إلى الخليفة يطلب الإنجاد ويقول : إنه كان من المتوقع من « تلك الدولة العالية ، والعزمة الفادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن يمد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام » ، وأنه لما تأخرت الإجابة « ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فاستصرخه بهذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، إلى أن تحركها الرياح »[1] .

وهنا تختلف الروايتان المصرية والمغربية فى تاريخ وصول السفير المصرى إلى المغرب ، وفى ظروف لقائه مع الخليفة . فتقول الرواية المصرية إن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، وأنه وصل إلى مراكش فى شهر ذى الحجة من هذا العام ، وأدخل إلى الخليفة فى العشرين منه ، وحملت هدية السلطان إلى الخليفة فى نفس اليوم . بيد أنه يبدو أن الرواية المصرية لم تكن مطلعة تمام الاطلاع على سير الحوادث فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ومن ثم فإنها لم تستطع أن تتبع حركات السفير المصرى بدقة . ذلك أن الخليفة المنصور ، كان وقت وصول السفير المصرى إلى المغرب ، قد عبر البحر حسبما تقدم فى جيوشه إلى الأندلس معتزماً مقاتلة النصارى ، وإنقاذ مدينة شلب من قبضة البرتغاليين ، وأنه كان فى تلك الآونة بالذات مقيما بإشبيلية ، يجد فى الأهبة ، ويترقب الحوادث . ومن ثم فإن الرواية المغربية ، وهى رواية صاحب البيان المغرب ، المستقاة فيما يبدو من رواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ البلاط الموحدى ، تقدم إلينا تفاصيل أخرى عن تحركات السفير المصرى ،

(١) الروضتين فى تاريخ الدولتين ج ٢ ص ١٧١ — ١٧٣ . وراجع مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال) ج ٢ ص ٣٦١ و٣٦٢ .

تبدو أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . فتقول لنا إن السفير المصرى حينما وصل إلى المغرب ، نزل بثغر تونس، ثم بثغر بجاية، فاستقبله السيد أبوزيد والى إفريقية والسيد أبوالحسن والى بجاية ، بمنتهى الحفاوة والإكرام، وكتبا إلى الخليفة المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير ، فوصلت كتبهما إليه فى شهر رجب سنة ٥٨٦ﻫ فرد الخليفة عليهما بالشكر ، وأن يستمرا فى مجاملة السفير وإكرامه ، وأن يطلب إليه كتمان رسالته حتى يستقبله الخليفة ، وبأن يستقر بمدينة فاس معززاً مكرما ، حتى يتم هذا الاستقبال[1] .

ولبث ابن منقذ مقيما بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة . وكان المنصور فى تلك الأثناء ، حسبما نفصل بعد ، قد نظم غزوته الكبيرة لأراضى البرتغال ، واستولى على ثغر قصر أبى دانس أو قصر الفتح فى جمادى الأولى فى سنة ٥٨٧ﻫ ، ثم سار إلى مدينة شلب واستولى عليها فى جمادى الثانية ، وعاد ظافراً إلى إشبيلية، ثم غادرها عائداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٧ﻫ (يوليه ١١٩١م) ، ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، استقبل ابن منقذ ، وقدمت اليه هدية السلطان ، وكان فيها مصحف كريم فى ربعة مخيشة بالمسك، وثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجوهر ، ومائة قوس بأوتارها ، ونصول سيوف هندية وغيرها. ويقول لنا صاحب كتاب « الإستبصار » إن اجتماع ابن منقذ بالخليفة كان فى السادس من محرم سنة ٥٨٨ ﻫ (يناير ١١٩٢ م) وإنه غادر الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام[2] . وأفضى ابن منقذ إلى عاهل المغرب بمضمون سفارته ، فتلقى جواب المنصور عنها مجملا. ويقول لنا ابن خلدون إن الخليفة اعتذر عن إعارة الأسطول[3] وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل . ثم غادر مراكش فى العاشر من المحرم سنة ٥٨٨ ﻫ ، وهو يحمل من الخليفة إلى السلطان هدية تضارع هديته فى القيمة والفخامة ، فوصل إلى الإسكندرية فى أواخر جمادى الثانية من هذا العام[4] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٣ .

(٢) كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار(المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ١٩٥٨) ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٣ ، و١٨٤ .

ومما تذكره الرواية بهذه المناسبة أن ابن منقذ رفع إلى المنصور ، قصيدة من نظمه من أربعين بيتاً ، يمدحه فيها ، فمنحه المنصور صلة سخية قدرها أربعون ألف دينار ، ألفاً عن كل بيت ، وقال له إنما أعطيناك لفضلك ولبيتك ، وهذا بعض ما جاء فى القصيدة المذكورة :

سأشكر بحراً ذا عباب قطعته ... إلى بحر جـود ما لأخراه ساحل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل ... إلى بابك المأمول تزجى الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا ... بأن نداك الغمر بالنجح كافل
فلازلت للعليـــاء والجود بانياً ... تبلغك الآمال ما أنت آمل[1]

ونحن نعرف أنه لم يكن لهذه السفارة نتائج عملية ، ولم يحصل صلاح الدين على ما كان يرجوه منها من عون وإنجاد . وفى بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريخ صلاح الدين ، لأنه لم يلقبه فى رسالته بألقاب الخلافة[2]. وهى رواية ظاهرة الضعف . ذلك أن الأسباب الحقيقية لموقف الخليفة الموحدى، يجب أن تفهم على ضوء الحوادث والظروف التى كان يجوزها الغرب الإسلامى. أعنى المغرب والأندلس ، فى تلك الفترة . فقد كانت إفريقية وهى منطقة حساسة من المغرب ما تزال معرضة لعدوان بنى غانية ، ومن إليهم من الأعراب الضالعين معهم ، وكانت الأندلس تواجه مثل الأخطار التى كان يواجهها الشرق الإسلامى، من عدوان النصارى والصليبيين. وبالرغم من نجاح الموحدين فى غزو البرتغال، واستردادهم لقصر الفتح وشلب ، فإنه كان ثمة احتمال دائم ، بأن يتكرر عدوان البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين القادمين من الثغور الشمالية ، على غربى الأندلس، وأن يتكرر عدوان القشتاليين على أواسطها . وقد كانت الأساطيل الموحدية ، التى كان صلاح الدين يطمح بالأخص إلى عونها ،ترابط باستمرار فى مياه الأندلس الجنوبية والغربية ، استعداداً لمؤازرة الجيوش الموحدية لرد كل عدوان محتمل . ومن ثم فإنه لم يك ثمة إزاء هذه الظروف والأخطار كلها ، فيما يبدو، مجال لأن يتقدم عاهل المغرب إلى غوث إخوانه المشارقة ، بقوات كان هو فى أشد الحاجة إليها . وكان على كل فريق أن يعتمد على نفسه فى رد العدوان الذى يواجهه .

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .
(٢) ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٤٣٢ .

على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التى انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى ، أن نقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ التضامن الروحى ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية ، فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التى تعرض فيها كلاهما لمحنة العدوان الصليبى .

— ٣ —

لبث المنصور خلال إقامته بإشبيلية ، مذ عاد إليها فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، يجد فى أهباته العسكرية ، ويجمع الآلات والعدد ، ويستكمل ضم الحشود . فلما تمت أهباته ، واستكملت من سائر نواحيها ، عزم على الحركة والسير لاستئناف الغزو ، فخرج من إشبيلية فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ أبريل سنة ١١٩١م) فى قوات كثيفة، حسنة الأهبة والهيئة والنظام ، وعبر نهر وادى يانه مخترقاً أراضى البرتغال ، ومتجهاً نحو الشمال الغربى ، وكان مقصد الخليفة الأول ، هو قاعدة قصر الفتح أوقصر أبى دانس الحصينة ، الواقعة جنوب شرقى أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو ، على مقربة من البحر[1] ، فلما وصل إليها قُسمت الحشود الموحدية وفق نظام خاص، وقام العبيد وأهل الخدمة بردم خندق المدينة من جهاتها الأربع ، وأقبلت القوات الموحدية إلى السور تحاول اقتحام المدينة ، ولكن البرتغاليين أمطروا الهاجمين وابلا كثيفاً من النبال والحجارة ، فأصيب كثير من الجند الموحدين بالجراح . فلما رأى المنصور فتك النبال بجنده ، أمر بوقف القتال ثلاثة أيام، طلباً للراحة ، والعود إلى مهاجمة المدينة، بعزائم أشد . ووصل فى تلك الأثناء جانب من الأسطول الموحدى ، دخلت سفنه النهر الذى تقع عليه المدينة ، وهى تحمل آلات الهجوم الفتاكة . وفى الحال — فى خلال يوم وليلة فقط — نصبت حول المدينة أربعة عشر منجنيقاً . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٧ هـ) الموافق ١٠ يونيه سنة ١١٩١ ، صدر الأمر لسائر الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة ، فانقض عليها من سائر الجهات ، وأخذت

---

(١) كانت قاعدة القصر **Alcacer do Sal** فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسى ، مدينة حسنة متوسطة على النهر المسمى شطوبر **(Sadoa)** وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفرية بكثرة . وفيها استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وبينها وبين البحر عشرون ميلا (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٨١) .

المجانيق تضرب المدينة بشدة، فلما تفاقم الأمر ، ووصل هجوم الموحدين إلى ذروة عنفه وروعته ، بادر أهل المدينة بطلب الأمان ، ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا فى المراكب ، وبعثوا إلى إشبيلية ليكونوا هنالك عنوان الفتح. واستولى الموحدون على المدينة ، وشرع المنصور فى النظر فى شئون الحصن وأحواله ، وأمر بإصلاحه وشحنه بالمقاتلة الأنجاد من الموحدين، ورتب لهم من المؤن والمواد رواتب شهرية وسنوية، فى مخازن إشبيلية وسبتة ، وندب لولاية الحصن المذكور أبا بكر محمد بن وزير وهو ابن أبى محمد سيدراى بن وزير زعيم الغرب السابق، أيام ثورة ابن قسىّ ، وكان حاكم الحصن من قبل ، قبل أن يسقط فى أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ ﻫ (١١٦٠ م)[١] .

وسار الموحدون بعد ذلك إلى حصن قلماله[٢] ، وكان أمنع حصون هذه المنطقة ، وبه حامية قوية ، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة ، وعرضوا التسليم فى الحال ، والجلاء عن الحصن ، فاستجاب المنصور لرغبتهم ، وأخلى سبيلهم ، فساروا آمنين الى بلادهم ، ونهب الموحدون سائر ما فى الحصن من من الأثاث والأقوات والسلاح. ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم حتى محيت آثاره . وزحف الموحدون على حصن المعدن[٣] القريب ، فاستولوا عليه، وأمر المنصور كذلك بهدمه ، فهدم حتى صار أثراً بعد عين .

وتقول الرواية النصرانية فى شأن هذه الحصون ، إن أهل الحصون المجاورة، وهى حصون قلماله ، وكوينا والمعدن ، لما رأوا سقوط حصن القصر بالرغم من مناعته بهذه السرعة ، بادروا باخلاء حصونهم ، وفروا فى مختلف الأنحاء ، ولما أشرف الموحدون عليها ، أمر المنصور بهدمها ، فهدمت حتى سويت بالأرض[٤] .

ثم اتجه الموحدون بعد ذلك جنوباً إلى المقصد الرئيسى فى هذه الغزوة، وهو مدينة شلب . فوصلوا إليها فى يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة (٢٧ يونيه سنة ١١٩١ م) . وفى الحال طوقها الموحدون بقوات كثيفة ، وردمت الخنادق

---

(١) البيان المغرب ص ١٨٥ .

(٢) حصن قلماله ، وهو بالبرتغالية **Palmela** .

(٣) حصن المعدن هو بالبرتغالية **Almada** .

(٤) **Huici Miranda: ibid; (cit Crónica de Sancho 1, p. 537)**

المحيطة بها ، ونصبت حول أسوارها المجانيق ، وأخذت تضربها بشدة . واستمر الحصار والضرب حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى ، فنى فجر تلك الليلة ، كان الموحدون ساهرين يرقبون الفرص . وكان الحراس وأهل المدينة ، قد غلب عليهم التعب والنوم ، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بأية محاولة فى مثل هذه الفترة . ولكن الموحدين بالعكس ، لما رأوا إغفاء أهل المدينة ، تقدم أحد أدلائهم من السور ، ووثب إلى ثلمة فيه ، وتبعه جماعة من الأنجاد ، فرفعوا الرايات على السور ، وضربت الطبول ، وضج الجند بالتهليل والتكبير ، واقتحم الموحدون المدينة ، فلم يستيقظ أهلها ، إلا وقد سيطر عليها الفاتحون ، يثخنون فيهم قتلا وجرحاً ، فبادروا بطلب التسليم والأمان ، فضرب لهم المنصور أجلا قدره عشرة أيام لإخلاء المدينة ، وخرج النصارى من قصبة شلب فى يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية (٢٣ يوليه سنة ١١٩١م) ودخلها الموحدون فى الحال ، وعادت شلب بذلك إلى قبضة الإسلام ، بعد أن لبثت فى أيدى البرتغاليين ، منذ سقوطها فى رجب سنة ٥٨٥ هـ ، زهاء عامين[١] . وقدم المنصور على ولايتها ابن وزير[٢] .

تلك هى الرواية الإسلامية عن استرداد شلب . أما الرواية النصرانية ، فلا تقدم إلينا شيئاً من تلك التفاصيل ، بل تكتفى بالقول بأن الموحدين نصبوا المجانيق حول المدينة ، وأخذوا فى ضربها بالنهار والليل دون هوادة ، حتى اضطر أهلها إلى التسليم ، وخرجوا منها بأنفسهم وأمتعتهم .

ولبث المنصور ثلاثة أيام أخرى فى ظاهر شلب ، ثم غادرها فى قواته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية ، بعد أن أنفق فى غزوته زهاء ثلاثة أشهر ، فوصل إلى إشبيلية فى الرابع من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ يوليه سنة ١١٩١ م) .

وأنفق المنصور فى إشبيلية شهرين آخرين ، عنى خلالها بتنظيم شئون الأندلس واختيار أكفاء القادة لرياسة الثغور ، أو بعبارة أخرى مدن الحدود وحصونها ، وشحنها بصفوة الجند ، وتعيين بعض قرابته لولاية المدن الشاغرة من الولاة .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٥ و١٨٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

وفى غرة رمضان ، جلس بحدائق البحيرة خارج إشبيلية، لتلقى تحيات المودعين، ولما تمت مراسيم الوداع ، غادر إشبيلية ، ميمماً شطر العدوة ، وعبر البحر فى الخامس عشر من رمضان، واستمر فى سيره حتى وصل إلى حضرة مراكش[1] وماكاد يستقر بها حتى استقبله الشعراء كالعادة بقصائد التحية والتهنئة . فمن ذلك ما قاله شاعره الحراوى :

إياب الإمام حيـــاة الأمم توالى السرور به وانتظم
وجاد به الأرض صوب الحيا وجلى الظلام به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان لذى همم دونهن الهمم

على أن المنصور ماكاد يستريح من وعثاء السير والسفر ، حتى دهمه المرض واشتد به ، وطال أشهراً حتى خيف منه على حياته . وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى فاس ، فحُمل إليها فى محفة، واستمر بها أشهراً حتى تماثل إلى الشفاء . ويروى لنا المراكشى بهذه المناسبة أن الخليفة حينما اشتد مرضه ، أرسل يستدعى أخاه السيد أبا يحيى والى إشبيلية ، وأن أبا يحيى لبث يتلكأ فى العود مؤملا أن يموت أخوه ، وأنه قام فى ظل هذا الأمل باستكتاب بعض أشياخ الجزيرة مساطير لتأييد دعوته ؛ فلما برىء الخليفة من مرضه عاد أبو يحيى إلى المغرب . وكان أخوه الخليفة قد وقف على حركته ، فأمر القبض عليه وقتله ، فتولى قتله أخوه لأبيه السيد عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحضر من الناس[2] . ونحن نلاحظ على هذه الرواية بأنها متأخرة عن موضعها ، وأن حادث ائتمار السادة بالخليفة وقع فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) ، حسبما أشرنا إليه فى موضعه ، وأن السيد أبا يحيى وهو ولد الخليفة وليس بأخيه ، لم يكن بين المتآمرين ، الذين عاقبهم الخليفة بالإعدام .

---

(١) يقدم إلينا صاحب روض القرطاس ، رواية أخرى عن غزوة الموحدين للبرتغال واسترداد مدينة شلب ، فيقول لنا إن الذى اضطلع بهذه الغزوة هو محمد بن يوسف والى قرطبة ، وأنه سار إلى شلب فى جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس ، حتى نزل شلب فحاصرها ، وشد عليها القتال حتى فتحها ، وفتح قصر أبى دانس ومدينة باجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمس عشرة ألف سبية وآلاف من أسرى الروم ، وذلك فى شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة (ص ١٤٤) وهى رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة .

(٢) المعجب ص ١٥٨ و١٥٩ .

وشعر الخليفة إبان مرضه بدقة الموقف ، وأراد أن يحتاط لكل احتمال ، فعقد البيعة لابنه أبى عبد الله محمد بولاية عهده ، وكان سنه نحو عشر سنين[١] ، وهو الذى تسمى بالناصر فيما بعد ، وكتب بذلك إلى خاصة القرابة كالسيد أبى زيد والى إفريقية ، وولده السيد أبى يحيى والى إشبيلية ، فبادروا بالحضور إلى الحضرة ، مطيعين مؤيدين لذلك العهد ، وجاء وفد من شبه الجزيرة يحمل تأييد أهل الأندلس ، وجاء معهم يوسف بن الفخار اليهودى رسول ملك قشتالة يسعى إلى توطيد الهدنة المعقودة . وكان الخليفة قد أبل عندئذ من مرضه ، فتلقى تهنئة الوفود والأكابر بإبلاله ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالمعتاد[٢] .

وقد انتهت إلينا صورة وثيقة البيعة الرسمية التى كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولى العهد أبى عبد الله محمد الناصر ، وهى مؤرخة فى العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ٥٨٨ هـ ، وتبدأ بالتنويه بأهمية الاستخلاف فى الولاية ، وشرعيته ، منذ عهد النبى ، حينما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ثم تنوه بقيام المهدى ، وإعلاء كلمة الدين بظهوره ؛ وتقول لنا بعد ذلك فى صدد البيعة ما يأتى :

« وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله ، من الطلبة ، والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية ، من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله وعونه ، وإحسانه العميم ومنه ، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد ، السيد الأوحد . . . المؤهل المؤثل ، الحائز لشرف الانتساب . . . . فرع الشجرة المباركة الطيبة الانتماء التى أصلها فى مقر الهدى ثابت ، وفرعها فى السماء . . . أبو عبد الله محمد بن سيدنا الإمام المنصور ، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ، بن سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمرهم وأسماه » .

ثم يقول « فبايعوه بمقتضى أمره العلى ، ونصه الواضح الجلى ، بيعة مباركة سعيدة ، استقبلو بها آمالا فسيحة مديدة ، وأعمالا من البر والتقوى جديدة . أسكبت عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وأصحبت فواضل الإنعام والإحسان ، وازدادت بهاء وجمالا معالم الإسلام والإيمان . . » وإن أهل قرطبة « بادروا إلى

---

(١) المعجب ص ١٧٥ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٧ .

التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فبايعوا للأمير الأجل السيد السعيد الأوحد . . بيعة إخوانهم الموحدين ، على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من عيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمائرهم ، وتوافق من بواطنهم وطوايرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من من السمع والطاعة فى السر والجهر ، والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالاة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفقة قلوبهم وإيمانهم ، وعهدة إسلامهم وإيمانهم ، وخالصة سرهم وإعلانهم»(١).

وفى العام التالى سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وصل السيد أبو زيد والى إفريقية ، ومعه برسم الخليفة هدية جليلة من التحف الملوكية ، وفى صحبته وفد من أعيان عرب سليم ورياح ، وأنجادهم(٢) ، وكان الخليفة قد تحرك فى تلك الأثناء من الحضرة قاصداً إلى فاس نزولا على نصح أطبائه ، فالتقى به السيد أبوزيد ومن معه فى تانسيفت ، وأمر الخليفة بعد انقضاء مراسيم التحية واللقاء ، بمسير الوفود القادمة إلى مراكش لمشاهدة القصور والمرافق الخلافية ، وما تحويه الحضرة من جليل الآثار والمنشآت ، الدالة على عظمة الدولة الموحدية وقوتها . فأمضت الوفود بالحضرة أياما ، ثم لحقت بأمير المؤمنين فى طريقه لتزجى إليه آيات الشكر والعرفان .

ورحل الخليفة إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . وعنى خلال إقامته بفاس بالنظر فى شئون إفريقية . وكانت هذه الشئون مما يعتورها من المتاعب ، ومن الأخطار المترتبة على عدوان بنى غانية ، تلقى من الخليفة أعظم اهتمام ، وغمر الخليفة بهذه المناسبة وفود العرب من سليم ورياح بوافر صلاته وإكرامه ، والتزمت الوفود من جانبها بالوفاء ومقابلة البر بحسن الصنيعة ، ثم عادت إلى مواطنها بإفريقية ، وقد نالت من إنعام الخليفة وبره أضعاف ما أملت .

ولما شعر الخليفة باكتمال الصحة والعافية ، سار إلى رباط الفتح مرة أخرى ، وكان يؤثر هذه المدينة التى أسسها جده عبد المؤمن بحبه ، ويميل إلى سكناها والاستجمام بها . وكان فى تلك المرة قد عقد العزم على الانتقال إليها بصفة نهائية ،

---

(١) ورد نص هذه البيعة كاملا ضمن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو الذى سبق أن نقلنا عنه عدة من الوثائق المرابطية .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

واتخاذها حاضرة لمملكته ، فأمر بتجديد قصبتها ، وكانت تسمى بالمهدية ، إذ كانت تخططها وموقعها على البحر ، وأحاطته بها ، تشبه المهدية الفاطمية بإفريقية ، وألقى بشأن تنظيمها وتجميلها بقية أوامره ، ثم عاد إلى مراكش فى منتصف هذا العام (٥٨٨ هـ) ، واستقر بها ، وهو دائب الاهتمام بأعمال الإنشاء ، وتجديد الأهبات ، واستكمال العدد[١] .

وفى العام التالى سنة ٥٨٩ هـ ، أمر المنصور بإقامة صرح عظيم حصين خارج إشبيلية ليكون منزلا للمجاهدين ، وأن يكون موقعة فى وسط الشَّرَف . ويقدم إلينا المراكشى بعض تفاصيل عن هذا الصرح ، فيقول لنا ، إن المنصور حينما عاد ظافراً من غزوته لاسترداد شلب ، أمر أن يُبْنى له على النهر الأعظم (نهر الوادى الكبير) حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصور وقباب ، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء ، وإيثار التشييد ، فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد ، وسمى ذلك الحصن حصن الفرج . ويضيف صاحب البيان المغرب إلى ذلك ، وهو ينقل فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، أن هذا الحصن أو القصر الكبير ، قد كمل بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح ، وأنه جاء من أضخم ما عمل ، وكان المنصور وهو بالحضرة دائب التشوف إلى متابعة أخبار هذا الصرح ، والوقوف على ما تم فيه ، وعلى صفاته ، حتى إنه أمر أخيراً باستدعاء المشرف على بنائه إلى الحضرة ليقص عليه بنفسه كل مايتعلق بهذا الصرح وطرازه وصفاته[٢] .

ووقعت فى تلك السنة سنة ٥٨٨ هـ ، ببلاد الزاب ، جنوبى إفريقية ، فتنة جديدة كان بطلها زعيم يدعى الأشل . وليس فى الرواية الموحدية ، ما يلقى ضوءاً على شخصية هذا الزعيم الثائر ، ولاكنه دعوته ، وكل ما هنالك أنها تقول لنا ، إن الأشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه ، فالتف حوله شرذمة من العرب ، وكثير من أشتات الناس من أهل تلك المنطقة ، ومن أهل الجبال المجاورة ممن تصفهم الرواية « بالغوغاء والسفلة » وكان يلقى فى روع أتباعه بأنه موعود بأمره ، وأن

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٨٨ و ١٨٩ . ويقول ابن خلكان إن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية فى الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحصينه (الوفيات ج ٢ ص ٤٣١) وهو قول تطبعه المبالغة .

(٢) المعجب ص ١٦٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٩ .

الكتب والدلائل نصت على خبره : وعظم أمره ، وذاع ذكره ، وكثر عدوانه فى تلك المناطق، وتوالت على الخليفة المنصور أنباؤه ، فبعث إلى السيد أبى زكريا والى بجاية ، بأن يبذل كل ما فى وسعه للقبض على هذا الزعيم الثائر : فخرج السيد أبو زكريا فى عسكره من بجاية، وهو يتحسس أخبار الأشل، ويتقصى آثاره .

ولما توغل بعيداً فى الصحراء ، اجتمعت طوائف من عرب البوادى ليحاولوا مهاجمته ، وانتهاب محلته ، ولكنه استطاع أن يجتنب اعتداءهم طوراً بلين القول وطوراً بالوعيد وإظهار القوة ، وأنفذ السيد رهطاً من رجاله ، يتحسسون أخبار الثائر ومكان وجوده : وحاول فى نفس الوقت أن يغرى بعض الأعراب بالصلات والوعود ليكشفوا له مكان وجوده ، ولكنه لم يظفر منهم بطائل : ثم عاد إليه رسله الثقاة ، وأخبره بعضهم بمكان وجود الثائر ، وأنه يتصدر مجلس الزعامة وهو فى ثياب فاخرة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، وبين يديه سيف مُحلّى ، وقد التف حوله لفيف من شيعته وهو يحدثهم بلسان حضرى . وعندئذ حاول السيد مرة أخرى أن يحمل بعض الأعراب على إرشاده عن هذا المكان ، وهو يبذل لهم أطيب الوعود . ولكن الأعراب عقدوا العزم على مخادعته وغدره . ثم سار السيد فى قواته ميمماً شطر قلعة بنى حماد ، وهى من أعمال بجاية، ودخلها بعسكره . وهنالك وفد عليه الزعماء العرب يطالبونه بإنجاز وعوده ، فاحتفل بهم وقدم لهم الطعام . فلما استقروا داخل القلعة ، أغلقت أبوابها ، وأمر السيد بالقبض على جملة من أولادهم ، ثم استدعى آباءهم ورؤساء العشائر منهم ، وأقسم لهم بأوثق الأيمان أنه لن يحل وثاقهم ، ولن يطلق سراحهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه ، أو يحمل رؤوسهم مكان رأس الأشل إلى الخليفة المنصور . فأبدى العرب أنهم لايستطيعون الغدر بمن لجأ إليهم ، واحتمى بجوارهم ، ولو قتلوا جميعاً . وعندئذ تدخل أمهات الأبناء المعتقلين ، وصاحوا كيف نضحى بأبنائنا فى سبيل شقى منافق . وعندئذ نشب الخلاف بين الأمهات والآباء ، وذاع الخبر فى مختلف الأحياء ، ووقف الأشل على ما حدث فأراد الفرار اتقاء الغدر ، ولكن رهطاً من عشائر المعتقلين بادروه بالهجوم ، وقبضوا عليه وعلى وزيره وحملوهما إلى القلعة ، فغمرهم السيد بإحسانه وصلاته ، وأخلى سبيل المعتقلين ، وأمر بإعدام الثائر وصاحبه ، وحملت رأسه إلى بجاية ، وعلقت على بابها مع ذراعه وعضده ، وأخمدت بذلك ثورته فى مهدها[1].

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ١٩٠ و ١٩١ .

ولم تكد تنتهى هذه الفتنة حتى وردت على المنصور فى سنة ٥٩٠ هـ ، أنباء مقلقة عن إفريقية ، خلاصتها أن بنى غانية قد استأنفوا حركاتهم بنشاط مضاعف ، وأن حلفاءهم من العرب والغز ، يعيثون فساداً فى أنحاء إفريقية ولاسيما بلاد الجريد . ونحن نعرف أن على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، بطل هذه الحركة التى كادت تقضى على سلطان الموحدين فى إفريقية ، كان على أثر هزيمته الساحقة فى معركة الحمة (سنة ٥٨٤ هـ) قد فر جريحاً إلى أعماق الصحراء . وهنا تختلف الرواية فى مصيره ، فيقول لنا صاحب المعجب إنه توفى بعد قليل متأثراً بجراحه التى أصابته فى معركة الحمة[١] . ويقول ابن خلدون إنه توفى فى بعض حروبه مع أهل نفزاوة من سهم أصابه فى بعض المعارك ، وذلك فى نفس العام (٥٨٤ هـ) فدفن هنالك ، ثم حمل رفاته إلى ميورقة[٢] . ويقول التجانى فى رحلته إن على بن غانية ، حينما طارده المنصور بعد موقعة الحمة ، توغل فى صحراء توزر ، فرجع عنه المنصور ، ثم مات على بعد ذلك على توزر من سهم أصابه فى ترقوته فقضى عليه[٣] .

ولما توفى على بن غانية ، قام بالأمر من بعده أخوه يحيى ، وهو يضطرم بمثل مُثُله ، ويرمى إلى تحقيق مثل غاياته ، أعنى قيادة الثورة ضد الموحدين ، والقضاء على سلطانهم فى إفريقية ، معتمداً فى ذلك ، مثل أخيه على محالفة سائر العناصر الخصيمة من العرب والغز وغيرهم . ومن ثم فإنه جدد التحالف الذى كان بين أخيه وبين قراقوش أو قراقش زعيم الغز . ولكن هذا التحالف لم يطل أمده . ذلك أن قراقش مالبث أن جنح إلى طاعة الموحدين ، فسار إلى تونس واجتمع بواليها السيد أبى زيد ، فتلقاه بمنتهى الترحاب والتكريم ، وأقام بها وقتاً فى كنفه وتحت رعايته ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ هـ[٤] . وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كانت ثمة علاقة بين تصرف قراقوش وبين سفارة ابن منقذ التى أوفدها صلاح الدين فى نفس هذا العام إلى الخليفة الموحدى ؟ لقد كان قراقوش مملوكاً للملك المظفر تقى الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، ابن أخى السلطان

---

(١) المعجب ص ١٥٤ .
(٢) ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٣ .
(٣) رحلة التجانى ص ١٦٢ .
(٤) رحلة التجانى ص ١٠٤ .

صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش قد وقع بإيحاء السلطان ، حتى لاتعتور الصعاب مهمة سفيره لدى البلاط الموحدى . بيد أننا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأى ، لأن قراقوش لم يكن إلا مغامراً لا ذمام له ، ولا يدين فى الظروف التى كان يجوزها بدين الولاء لأحد . وقد أقدم قراقوش من قبل على على مثل هذه الخطوة حينما كتب إلى المنصور عقب موقعة الحمة بعرض التوبة والطاعة . ومن ثم فإنا نراه بعد فترة يسيرة من التظاهر بطاعة الموحدين، يفر من تونس ليستأنف مغامراته ، وذلك قبل أن ينتهى ابن منقذ من تأدية سفارته . ولما وصل قراقوش إلى قابس ، استطاع أن يدخلها مخادعة ، وقتل جماعة من أهلها ، وأعلن خروجه على الموحدين مرة أخرى ، واستدعى أشياخ العرب من ذباب وسليم ، فقتل سبعين منهم ، ومن بينهم محمود بن طوق بن بقية زعيم المحاميد ، وحميد بن جارية ، وذلك داخل قصر العروسين بقابس[1]. ثم سار إلى طرابلس فاستولى عليها من يد حاكمها الموحدى ، وسار بعد ذلك إلى بلاد الجريد فاستولى على معظم أنحائها . وكانت بلاد الجريد مقر حليفه يحيى بن غانية . وعندئذ وقع الخلاف بينهما ، وسار يحيى لقتال حليفه السابق، فالتقيا بموضع يعرف « بمحسن» من أعمال طرابلس ، فهزم قراقوش هزيمة شنيعة ، وفر إلى الجبال ، وأتبع يحيى نصره بانتزاع طرابلس من يد ياقوت نائب قراقوش ، وذلك بعد حصارها من البحر بمركبين بعث بهما إليه أخوه عبد الله والى ميورقة ، وقبض على ياقوت وأرسله مصفداً إلى ميورقة ، فلبث سجيناً بها ، حتى استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ هـ ، وعندئذ أفرج عنه ، وقصد إلى مراكش . وعين يحيى ابن عمه تاشفين بن غازى نائباً عنه بطرابلس، وغادرها ليتابع مغامراته . فلم يمض سوى قليل حتى ثار أهل طرابلس بنائب الميورقى وأخرجوه منها ، وأعلنوا طاعتهم للموحدين مرة أخرى[2] .

ونحن نقف فى حوادث إفريقية عند هذا الحد ، لنعود إلى تتبع حركات يحيى بن غانية ، الذى قدر له أن يمضى فى قيادة المعركة ضد الموحدين زهاء زهاء خمسين عاما ، وهو ينزل بقواتهم الضربة تلو الأخرى ، وسلطان الدولة الموحدية بإفريقية يهتز ويتصدع تباعا .

---

(١) رحلة التجانى ص ١٠٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) رحلة التجانى ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

الفصل الثالث

موقعة الأرك

عزم المنصور على السير إلى إفريقية . مسيره إلى رباط الفتح . مقدم ولاة الأندلس وإبلاغهم بانقضاء الهدنة مع النصارى . غارات النصارى وعيثهم فى أراضى الأندلس . تعديل المنصور لخطته وعزمه على العبور إلى الأندلس . رواية أخرى عن بواعث هذا التحول . إتمام الأهبة ومقدم سائر الحشود . مسير المنصور من مراكش إلىقصر الجاز . جواز الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلىشبه الجزيرة . مسيره إلى إشبيلية . إجراء التمييز واستكمال الأهبة . مسير الخليفة إلى قرطبة ثم خروجه إلى قشتالة . أهبة ألفونسو الثامن . مسيره نحو قلعة رباح . نزوله بقواته فى ربوة الأرك . مسير الخليفة إلى لقائه ونزوله قرب الأرك . اشتباك الطلائع . رأى ابن صناديد فى خطة القتال . تقسيمالجيش الموحدى وقواده . زحف الموحدين صوب الأرك . استعدادهم لخوض المعركة . ترتيب الجيوش الموحدية . تبادل الغفران والحث على الجهاد . وصف عيان لميدان معركة الأرك . بدء المعركة فى ضحى التاسع من شعبان . نزول القشتاليين واندفاعهم نحو المعسكر الموحدى . هجوم القشتاليين على القلب . عنف القتال وروعته . مقتلالقائد العام أبى يحيى . اندفاع جيوش الأندلس والمغرب والأغزاز نحو النصارى. اضطرار النصارىإلى الارتداد والفرار إلى الربوة . حملة العرب والمطوعة والأغزاز عليهم وحصدهم . زحف الخليفة فى سائر قواته نحو النصارى . ارتياع النصارى وفرارهم . اقتحام الموحدين لحصن الأرك . وصف الرواية النصرانية لأدوار المعركة . ارتداد ملك قشتالة فى فله نحو طليطلة . الاتفاق بين الفريقين على تسليمحصن الأرك . استنقاذ الأسرىالمسلمين وتسريح حامية الحصن . نتائج المعركة . عدد الجيش القشتالى وخسائره . خسائر المسلمين . الغنائم والأسلاب . المقارنة بين موقعة الزلاقة وموقعة الأرك . عنصر الأسطورة فى المعركتين . الخلاف بين الموقعتين من حيث الظروف والنتائج . أسباب نصرالموحدين . زحف الموحدين على قلعة رباح واقتحامها . وصف عيان لأطلال هذه القلعة . تقسيم المنصور للغنائم . عوده إلى إشبيلية . توجيه كتب الفتح . تهانى الشعراء . عناية المنصور بإصلاح الجامع وإتمام صومعته . قضاؤه الشتاء فى إشبيلية . التمييز والاستعداد لاستئناف الغزو . مسير المنصور من إشبيلية إلى منطقة استرمادورة . افتتاح الموحدين لحصن منتانجش . استيلاؤهم على مدينة ترجالة ، وسانتاكروث . اقتحامهم لمدينة بلاسنثيا وأسر حاميتها . مسيرهم إلى طلبيرة وتخريبهم لأحوازها . احتجاب القشتاليين وإحجامهم عن لقاء الغزاة . اقتراب الموحدين من طليطلة وتخريبهم لبسائطها . رواية عن غزوهم لطليطلة . استنصار ملك ليون بالمنصور . إمداده بقوة من الموحدين . غزوالموحدين والليونيين لقشتالة وتخريبهم لأراضيها . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية . نتائج هذه الغزوة السلبية . عناية المنصور بأمر العمال والنظار . قيامه بتعيين بعض الولاة . استعداده للغزوة التالية . مسيره إلى قرطبة ونزوله بها .

لما تواترت على المنصور خلال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) تلك الأنباء المقلقة عن حوادث إفريقية ، وتوالت عليه كتب واليها الشيخ أبى سعيد بن أبى حفص عن استفحال أمر بنى غانية ، وتفاقم غارات العرب واشتداد عيثهم ، اعتزم أن يسير إلى إفريقية لمعالجة الأمور بنفسه ، فغادر مراكش إلى رباط الفتح ، ليقوم هنالك بإعداد الحملة المرغوبة ، وبعث بكتبه إلى ولاة الأندلس بالحضور لتلقى تعلماته فلما وفدوا عليه بالرباط قرروا أن الهدنة التى عقدت مع ملك قشتالة فى سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠) عقب جوازه السابق إلى الأندلس ، قد انتهى أجلها ، وأنه أى ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدودها ينذرها بذلك ، وأنه اعتماداً على انشغال الخليفة بحوادث إفريقية ، وباستعداده للحركة إليها ، قد بعث أقماطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ، ويثخنون فيها ، حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية[١]. فصرف المنصور ولاة الأندلس ، وغادر رباط الفتح إلى مكناسة ، وهو على عزمه أن يسير إلى إفريقية . ولكن توالت عليه عندئذ كتب أهل الأندلس ، وقادة الثغور فيها ، باشتداد وطأة العدو ، وتفاقم غاراته . وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد بعث مطران طليطلة مارتن لوبث فى حملة تخريبية محضة إلى أراضى الأندلس ، عاثت فيها أشد عيث ، واستولت على كثير من الغنائم والماشية . فرفعت هذه المخاطبات والأنباء كلها إلى المنصور ، وهو فى مكناسة يستعد للسير إلى إفريقية فأقلقته وأهمته ، ورأى عندئذ أن يُعدل خطة سيره ، فأمر بأن تُبعث الأمداد إلى ولاة إفريقية ، وأن تعد العدة للسير إلى الأندلس ، فاشتدت الحركة عندئذ ، وأقبلت الحشود من كل صوب ، وكانت رغبة المجاهدين فى العبور إلى الأندلس أشد لقربها ، وتيسر المؤن والأقوات بها[٢].

تلك هى البواعث والظروف التى أملت على المنصور عزمه على العبور إلى الأندلس للمرة الثانية . ولكن توجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة ،

---

(١) وتوجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة كان قد بعث إلى المنصور ، وهو يتأهب لغزو إفريقية ، رسوله يطلب تجديد الهدنة ، وهو يضمر الكيد ، فلما وصلت أنباء الغارات التى قام بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، والرسول فى محلة المنصور ، أمر المنصور بطرده وتجهيزه إلى البحر (أورد هذه الرواية خلال حديثه عن موقعة الأرك أبو الحسن حازم القرطاجنى فى كتابه « رفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة » (مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٢) .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩١ و ١٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

على أثر انقضاء الهدنة التي كانت معقودة بينه وبين الموحدين، غزا أراضي الأندلس، وتوغل في غاراته حتى الجزيرة الخضراء. وهناك وجه إلى الخليفة المنصور كتابا من إنشاء وزيره اليهودي ابن الفخار، يتحداه فيه بأسلوب يفيض غروراً ووقاحة، أن يأتي لقتاله، فإن جبُن أوعجز، فليرسل إليه السفن ليجوز فيها إليه، ويقاتله في أعز مكان لديه، وأن المنصور غضب لذلك، واستنفر الناس للجهاد، وكانت حركته الثانية إلى الأندلس[١]. على أنه يبدو من نص هذا الخطاب، ومن تحدثه عن « تواكل رؤساء الأندلس، وإخلادهم إلى الراحة » أنه يمكن بطريقة أرجح نسبته إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، وأنه كان موجهاً إلى يوسف بن تاشفين، وليس إلى الخليفة الموحدى.

وفي أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) كانت أهبات الحملة الموحدية، قد تقدمت تقدماً كبيراً، واجتمعت الحشود من سائر بلاد المغرب والقبلة. وفي يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة، خرج الخليفة يعقوب المنصور من حضرة مراكش، والجيوش تتلاحق في أثره من سائر النواحي، وسار تواً الى قصر المجاز (القصر الصغير)، وهنالك عنى بتنظيم تموين الجيوش، ثم بدأ الجواز، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم قبائل زناتة، ثم المصامدة، فغمارة، فالجيوش المطوعة، ثم الموحدون، فالعبيد، ولما تم جواز الجيوش على هذا النحو واستقرت بأراضي الجزيرة الخضراء، عبر الخليفة المنصور البحر في جمع كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء والعلماء، وكان عبوره إلى طريف[٢] في يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ (أول يونيه سنة ١١٩٥ م).

وأقام المنصور بطريف يوما واحداً، ثم استأنف سيره إلى إشبيلية، ولقيه في الطريق والى إشبيلية السيد يعقوب بن أبي حفص وجماعة من أعيانها، ثم تقدمه ليعد له أسباب النزول في الحضرة الأندلسية، ونزل الخليفة بقصر البحيرة خارج باب جهور، وهرع أهل الحاضرة للسلام عليه، وعهد الخليفة إلى أبي بكر

---

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤، وابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٢٥، وروض القرطاس ص ١٤٥، والنويري طبعة ريميرو في مجلة (Revista del Centro de Estudios Historicos T. VIII ano 1919 p. 218) ج ٨ ص ٢٧٣

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٢، وفي روض القرطاس أنه عبر إلى الجزيرة الخضراء (ص ١٤٦).

ابن زُهر وزملائه أشياخ المدينة ، بإنزال الأشياخ والأكابر فى الدور المعدة لنزولهم ، وبعد الظهر أذن بدخول السادات للسلام عليه ، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الثانية . وفى الغد ركب الخليفة إلى حصن الفرج الذى كان قد أمر بإنشائه خارج إشبيلية ، وأعجب بمنعته وحسن روائه . ثم عاد فزار المسجد الجامع . وفى يوم السبت أمر بإجراء التمييز ، فانتظم سائر الجند بالزى الفاخر ، والعدد الكاملة ، وركب الخليفة ومعه من حضر من الأبناء ، والقرابة والوزراء ، واستعرض الجند صفاً صفاً ، وقبيلا قبيلا ، ثم أخرجت الرواتب والبركات ، ووزعت على سائر الحشود[1] .

وأنفق المنصور فى إشبيلية أسبوعين وهو يستكمل أهباته ، ويضع خططه فى أناة وروية ، وفى صبيحة يوم الخميس الحادى عشر من رجب (٢٢ يونيه) غادر إشبيلية قاصداً الى قرطبة ، مخترقاً طريق نهر الوادى الكبير فوصل إليها يوم الجمعة التاسع عشر منه ، واستراح بها ثلاثة أيام . ثم خرج منها من باب موراداال فى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه ، وسار فى قواته شمالا ميمماً صوب سهول شلبطرّة وقلعة رباح .

— ١ —

وكانت أنباء عبور الخليفة الموحدى وجيوشه الزاخرة ، قد ترامت أثناء ذلك إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، فجمع « الكورتيس » فى مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ماوسع ، واستدعى سائر أتباعه من الأمراء والأشراف فى قواتهم ، وحشد كل ما استطاع من الجند ، وبعث إلى زميليه ملكى ليون ونافارا فى طلب العون ، فوعداه بذلك ، وانتظر أياما بطليطلة حتى وفد أتباعه فى حشودهم ، ثم غادرها مسرعاً إلى الجنوب ، واخترق نهر وادى يانه متجهاً نحو أراضى قلعة رباح ، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون ، وكان قد وصل فى قواته إلى طلبيرة ، ولم ينتظر كذلك مقدم قريبه ملك نافارا (نبرّة) ، إذ كان واثقاً من رجحان كفة قواته وأهباته ، وواثقاً من النصر على أعدائه ، مهما بلغت قواتهم .

وكان ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد فى المحلة المسماة

---

(١) البيان المغرب ص ١٩٢ و١٩٣ .

« بالأرك » . وهى محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح ، تقع على مسافة أحد عشر كيلومتراً فى غربى مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة[1] ، وتقوم فوق ربوة عالية ، تمتد سفوحها حتى نهر وادى يانه ، وكانت عندئذ هى نقطة الحدود بين قشتالة وأراضى المسلمين ، فإلى هذه المحلة اتجه ملك قشتالة بقواته ، وعسكر بها معتزما أن يلقى الموحدين وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيه .

وأما الخليفة المنصور فاستمر فى سيره مخترقاً قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالى المعسكر فى الأرك . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الخليفة استمر فى سيره حتى بقى بينه وبين الأرك مرحلتان قريبتان ، وإنه نزل هنالك ، وذلك فى يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٣ يوليه سنة ١١٩٤م) . وماكاد الجيش الموحدى يستقر فى محلته حتى ظهرت سرية من خيل القشتاليين خرجت لتستطلع أخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند الموحدين وأبادتها قتلا . ومضت بضعة أيام أخرى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين ، ولم تكن ثمة سوى الطلائع من الجانبين ، وكانت الخسارة تقع فى معظم الأحيان على القشتاليين . وفى خلال ذلك كان الخليفة المنصور ، يعقد المؤتمرات الحربية ، ويجرى مشاوراته مع أشياخ مختلف القبائل ، ويروى لنا صاحب روض القرطاس أنه لما استشار قواد الأندلس أحالوه على كبيرهم أبى عبد الله ابن صناديد ، وأن ابن صناديد أبدى رأيه للخليفة ، بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب ، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة ، وأن ينتظر الخليفة فى المؤخرة ومعه جيوش الموحدين والعبيد والحشم فى موضع مستور ، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فيها ، وإن أسفرت عن هزيمتهم ، فعندئذ يبادر الخليفة فى قواته إلى لقاء العدو ، وليحمى ظهور المسلمين ، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه ، فيكون النصر للمسلمين ، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأى وقرر اتباعه[2] .

ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس فوق ذلك تفاصيل هامة عن تقسيم الجيش

---

(١) الأرك هى بالإسبانية Alarcos ، وثيوداد ريال هى Ciudad Real ومعناها المدينة الملكية . وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى Sta Maria de Alarcos فى فحص قلعة رباح .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ .

مواقع موقعة الأرك
سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٤ م

نهر وادي يانة
داميل
قلعة رباح
بيدرابوينا
منشارس
كاريون
ثيوداد
ريال
لوشيانة
حصن الأرك
بوبليتي
نهر وادي يانه
ألماجرو
نهر خابالون
ڤالدبنياس
ضيعة الملك

الموحدى وقواده فى ذلك اللقاء الهام ، فيقول لنا إن الخليفة جلس فى يوم السبت الخامس من شعبان فى قبته الحمراء واستدعى الشيخ أبا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، وهو حفيد الزعيم عمر بن أبى حفص الهنتاتى صاحب المهدى ، وكان من أكبر وزرائه ، فولاه قيادة الجيش العامة ، وقدم ابن صناديد على عساكر الأندلس وحشودها ، وجرمور بن رياح على جميع قبائل العرب ، ومنديل المغراوى على قبائل مغراوة ، وعقد لمحيو بن أبى بكر بن حمامة على جميع قبائل بنى مرين ، ولجابر بن يوسف على قبائل عبد الواد ، وعقد لعبد القوى التجينى على قبائل تجين ، ولتجليدر على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منغفاد على قبائل غمارة . وعقد أخيراً للحاج أبى خزر يخلف الأوربى على سائر المتطوعة ، وذلك على أن تكون هذه القيادات جميعها تحت القيادة العامة لأبى يحيى بن أبى حفص . واختص أمير المؤمنين من جانبه بكافة عسكر الموحدين والعبيد(١) .

وكان الخليفة المنصور ، قد قرر مع قادته أن تبدأ الجيوش الموحدية بالزحف على محلة النصارى . وتحركت الجيوش الموحدية بالفعل خلال السهل المنبسط أمام ربوة الأرك ، حتى صارت على مقربة منها ، ونزلت فى السهل المنخفض الممتد أمامها ، وهى تشرف عليه بمنعتها ووعورتها من عل ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان (١٧ يوليه) فلما رأى النصارى اقتراب الموحدين خرجت جملة من قواتهم ، وتقدمت قليلا من مراكز الجيش الموحدى ، ولكن الموحدين لم يفعلوا شيئاً للاشتباك مع العدو . ذلك أن الخليفة المنصور لم يشأ أن يخوض الموحدون المعركة فى ذلك اليوم ، بل قرر خوضها فى اليوم التالى . فلما رأى النصارى المتقدمون جمود الموحدين ، عادوا إلى محلتهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم(٢) .

وفى اليوم التالى . وهو يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يوليه سنة ١١٩٥ م) كانت الجيوش الموحدية كلها على قدم الأهبة ، وقد « عبئت تعبئة حرب » ، وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف ، وجعل القائد العام أبو يحيى عسكر الأندلس فى الميمنة ، وزناتة وسائر القبائل المغربية والعرب فى

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ .

(٢) الرواية النصرانية اللاتينية **Chronique latine des Rois de Castille** وقد أوردها الأستاذ هويثى فى بحثه عن معركة الأرك **Campana de Alarcos** المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدريد **Vol. II. p. 62-67** ، ثم فى كتابه **Grandes Batallas de la Reconquista, p. 152.**

الميسرة ، وجعل المتطوعة والرماة والأغزاز فى المقدمة ، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هنتاتة . وبقى المنصور فى خاصته ، وفى جند الموحدين والعبيد فى المؤخرة ، على أهبة للتدخل فى اللحظة الحاسمة(١) .

ووقعت قبيل المعركة بقليل فى المعسكر الموحدى ، مناظر مؤثرة ، حيث قام القائد العام الوزير أبو يحيى وصاح بصوت جهورى يقول للناس : إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم ، وأن يخلصوا نياتهم لله ، فبكى الناس ، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة ، وأنهم بيمن نيته وصدق طويته ، يرجون الخير من الرحمن . ثم قام القاضى أبو على بن حجاج ، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً ، فى الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله ، وكان لهذه الحركة آثارها فى إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر ، وتنقية السرائر ، وإذكاء العزائم(٢) .

ويجدر بنا قبل أن نصف أدوار المعركة ، أن نصف البقعة التاريخية ، التى وقعت فيها ، وقد أتيح لنا زيارتها ودراستها(٣) .

إن ميدان معركة الأرك Alarcos ، مازال معروفاً بمواقعه وحدوده ، تعينه وتحدده ، لا الرواية المتواترة فقط ، ولكن تحدده كذلك آثار حصن الأرك الشهير ، الذى عرفت باسمه المعركة ، والذى تقوم اليوم مكانه ، فوق نفس الربوة التى كان يحتلها ، كنيسة ، أو معبد يسمى « كنيسة القديسة مريم صاحبة الأرك » Sta Maria de Alarcos .

ويقع هذا المكان على قيد نحو ستة كيلومترات من غربى مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة ، وشمال غربى بلدة « بوبليتى » الصغيرة ، وتفضى إليه طريق جبلية معبدة ، تخترق فى البداية بسيطاً أخضر من الأرض ، يفضى غير بعيد إلى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة الأرك Alarcos التى تقوم عليها اليوم ، فوق أنقاض الحصن القديم كنيسة القديسة مريم ، أو سيدة الأرك ، وهذه الكنيسة أو المعبد ، حسبما يسمى فى تلك الناحية Ermita

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ و١٤٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٧ .
(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٤ .
(٣) كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٣ .

عبارة عن بناء قديم ، يقوم وسط فناء شاسع ، تحيط به أسوار قديمة . وتوجد بداخله كنيسة بها صفان من العقود الكبيرة ، يحتوى كل منهما على أربعة عقود ، وهى بسيطة جداً ، وليست بها أية مظاهر فخمة .

وأما آثار حصن الأرك القديم ، فتبدو أولا فى مصطبة صخرية كبيرة تمتد خارج سور المعبد على حافة الربوة ، وتدور حولها ، وهو ما يدل على أن المعبد قد بنى فوق موقع الحصن القديم ، وتبدو ثانياً فى وجود عدة بقايا صغيرة من أسوار الحصن تقع فى غربيه . وظاهر من وجود الأحجار والأنقاض المتماثلة ، وامتدادها غرباً حتى قرب النهر أن بناء الحصن ، كان يمتد نحو ثلاثمائة متر ، كما أنه يوجد فى الناحية الخلفية ، من الربوة ، وهى تطل أيضاً على نهر وادى يانه ، آثار عقدين قديمين .

ويوجد عند نهاية الأنقاض غرباً ، كتلة كبيرة من الأحجار والصخور ، وتحتها أثر سرب قديم ، يقال إن الفرسان ، كانت تقود منه خيلها إلى النهر لتشرب من مائه . وأنقاض مصطبة الحصن التى سبق ذكرها ، تصل إلى هذه الكتلة من الأنقاض ، مما يدل على أن الحصن كان يمتد حتى ذلك المكان . كما أنه يبدو خلال الأنقاض الممتدة كثير من أسس الجدران القديمة .

وتشرف الربوة فى اتجاه الجنوب على واد عميق متدرج ، يصطلح على أنه المكان الذى وقعت فيه الموقعة . ويجرى نهر وادى يانه بحذاء هذا الوادى من شماله وغربه ، ويدور فى انحناءة كبيرة حول ربوة الأرك ، ويطلق اليوم على هذا الوادى الذى تغمره الخضرة اسم « محلة ديجو » Villa Diego .

ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الجيش القشتالى ، كانت تحتل مكاناً يتصل بمشارف ربوة الأرك ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية بوبليى ، ويستند إلى الحصن ، وإلى نهر وادى يانه ، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادى ، وتستند محلتهم غرباً إلى يسار النهر .

وفى ضحى هذا اليوم - التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يوليه سنة ١١٩٤م) - نشبت المعركة المرتقبة . وكان القشتاليون حينما رأوا جيوش الموحدين تزحف نحو محلتهم ببطء ، وقد عبئت للهجوم أكمل تعبئة ، قد نزلوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قاتمة ، أو حسبما تصفهم الرواية الإسلامية وهم « كالليل الدامس »

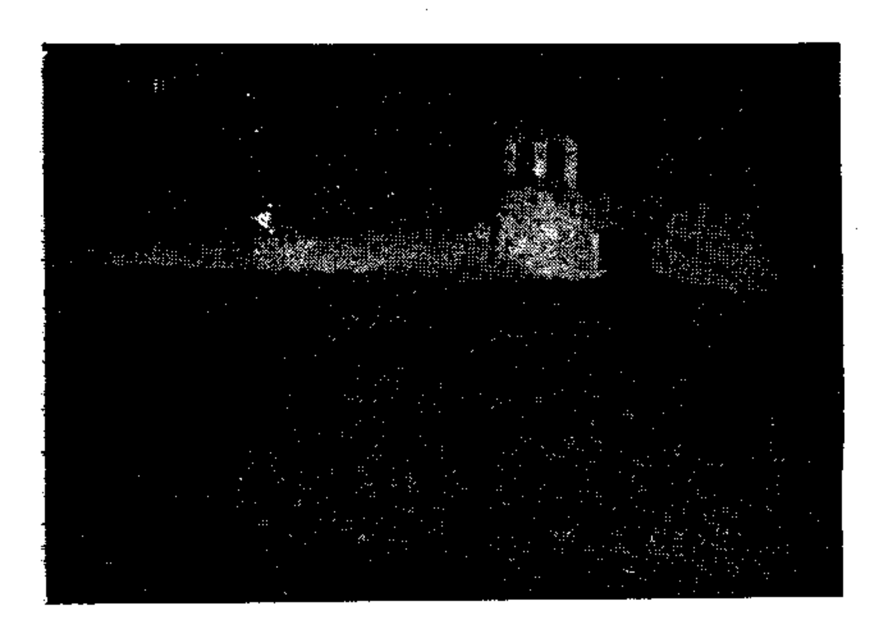
ضيعة المرجان
Los Corales
نهر وادى
كتلة من أطلال
حصن الأرك
مكان المسجد القديم
إلى النهر
ربوة
بقايا أساس أسوار حصن الأرك
موقع
حصن الأرك
بقايا أساس أسوار حصن الأرك
معبد سانتا ماريا
القائم مكان الحصن
Sta Maria
de Alarcos
الأرك
الطريق إلى ثيوداد ريال
ميدان المعركة
الوادى
(ويسمى اليوم ضيعة ديجو)
Villa Diego
رسم تخطيطى
لميدان موقعة الأرك
حسبما يبدو اليوم

والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً » . ويقدر صاحب روض القرطاس، من هبط فى هذه الدفعة الأولى من القشتاليين بنحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس «كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزرد » . ثم يتتبع حركات هذه القوة النصرانية المهاجمة ، فيقول إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أوكادت ، ثم تقهقرت قليلا ؛ وعادت إلى الاقتراب من المسلمين ، ثم ارتدت وتهيأت للهجوم الفعلى ، وفى أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيى والقائد ابن صناديد ، يحث كل منهما الجنـد على الثبات وإخلاص النيات والأعمال . وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التى يقودها القائد العام أبو يحيى ، معتقدين أنه هو الجناح الذى يقوده الخليفة ، وكان المنصور قد أمر بالفعل بأن ترفع الأعلام الخليفية على القلب ، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ، ولكن الصدمة كانت عنيفة ، فقتل أبو يحيى ، وقتل معه جماعة من من هنتاتة، والمطوعة وغيرهم . وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة ، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب ، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش الموحدية بجملتها نحو محلة القشتاليين ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة ، وكثر القتل فى مقدمة القشتاليين ، التى اضطلعت بالهجمة الأولى ، واستمر القتال على هذا النحو بعنف وشدة ، حتى اضطر القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التى تحتلها محلتهم ، وبدت بوادر الهزيمة على القشتاليين[1].

ولكن صاحب البيان المغرب ، وهو فيما يرجح ينقل عن رواية ابن صاحب الصلاة وهى رواية معاصرة ، يقدم إلينا عن المعركة صورة أخرى . فيقول لنا إن هجوم القشتاليين تركز أولا على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأنه أسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة وأخلاط السوقة ، فلما رأى المنصور ذلك ، نهض بنفسه ، وترك ساقته على حالها ، وتقدم منفرداً ، وهو يحث الجند على الثبات والهجوم على العدو ، فكان لحركته أعمق وقع فى نفوس الجند ، فاضطرمت هممهم وعزائمهم ، واندفعت سائر الحشود والقبائل نحو القشتاليين بشدة ، والتحم الجيشان ، واشتد القتال ، وكثر القتل فى صفوف القشتاليين ، واضطروا فى النهاية إلى التقهقر والفرار . ودامت المعركة من ضحى اليوم حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل جموع

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٩ — ١٥٠ .



كنيسة الأرك (سانتا ماريا دى ألاركوس) التى أقيمت على أنقاض حصن الأرك



مجموعة أطلال قلعة رباح

عظيمة من النصارى ، واستطاع ملك قشتالة أن يفر فى نحو عشرين فارساً من من أصحابه ، فسار تحت جنح الليل صوب طليطلة لايلوى على شىء ، واعتصمت معظم فلول النصارى بحصن الأرك[1] .

وتفصل لنا الرواية الإسلامية ما حدث بعد هزيمة القشتاليين فى الجولة الأولى . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، كان عندئذ معتصما مع باقى قواته بربوة الأرك : فلما ارتد القشتاليون ، وفروا نحو الربوة يحاولون الاعتصام بها ، حالت بينهم القوات الموحدية ، فارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة ، وحصدوهم حصداً ، وأفنوهم حسبما تقول الرواية عن آخرهم . ولما علم أمير المؤمنين بما حدث ، ضربت الطبول ونشرت الرايات ، وفى مقدمتها اللواء الخليفى الأبيض ، وزحف المنصور فى القوات الموحدية نحو القشتاليين ، تؤيده سائر الحشود والقبائل . وكان ملك قشتالة حينما رأى ما حل بقواته ، وسمع ضرب الطبول ، وعجيج الأبواق ، قد اعتزم أن يلقى ضد الموحدين بما تبقى من قواته ، ولكن القشتاليين حينما رأوا كثافة الجيوش الموحدية ، وروعة هجومها واضطرامها عولوا على الفرار ، فتلاحقت بهم فرسان الموحدين ، تحصدهم قتلا وأسرا ، وأحاط المسلمون بحصن الأرك ، يظنون أن ألفونسو الثامن قد اعتصم به ، ولكن تبين أنه قد لاذ بالفرار من أحد أبوابه الخلفية ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النار فى أبوابه ، واحتووا على جميع مافيه ، ومافى محلة النصارى ، من الذخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء[2] .

وعلى أى حال ، فإنه يبدو من أقوال الرواية الإسلامية ، أن القشتاليين هم الذين بدأوا بالهجوم على الموحدين : وتؤيدها فى ذلك الرواية النصرانية . وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن المعركة ، وصفاً موجزاً يختلف قليلا عما تقوله الرواية الإسلامية ، وهو أنه لما رأى القشتاليون الموحدين ، يتقدمون من محلتهم فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ، حدثت ضجة فى معسكر النصارى ، وخرج القشتاليون فى قليل من النظام وتقدموا ، ثم اشتبكوا مع المسلمين : وفى الصدمة الأولى سقط عدة من أكابر النصارى ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٠ .

ولما رأى ملك قشتالة رجاله يسقطون فى المعركة على هذا النحو تقدم بنفسه إلى الأمام ، وأخذ يثخن مع طائفة من رجاله فى المسلمين يميناً وشمالا . ولكن رجاله رأوا أنه يستحيل عليهم أن يقاوموا ضغط الحشود الموحدية ، خصوصاً بعد أن سقط كثير من النصارى ، وقد استطالت المعركة إلى منتصف النهار ، فتضرعوا إليه أن يحتفظ بحياته ، خصوصاً وأنه يبدو أن الله قد تخلى عن النصارى . ولكنه أبى أن يصغى إليهم ، فجذبوه من المعركة رغم إرادته ، وارتد نحو طليطلة فى نفر من الفرسان وقلوبهم تتفطر لما حدث حزناً وأسى[١] .

وتتفق الروايتان الإسلامية والنصرانية على أنه عقب الهزيمة ، لجأت فلول القشتاليين إلى حصن الأرك بقيادة دون ديجولوپث دى بسكاية . وتقدر الرواية الإسلامية هذه الفلول بخمسة آلاف ، فطوق الموحدون الحصن ، وكان الخليفة المنصور يعتقد أن ملك قشتالة قد لجأ إليه ، ولكنه تأكد من أقوال حليفه وخديمه القشتالى دون پيدرو فرنانديث دى كاسترو الموجود بمحلته ، أن الملك قد لاذ بالفرار إلى طليطلة ، فعندئذ طالب المنصور بتسليم الحصن فى الحال ، وأن يُعطى اثنى عشر فارساً كرهينة ، حتى يحضر دون ديجو إليه بمراكش ويسلم نفسه أسيراً ، وإلا فإنه سوف يقتحم الحصن ويقتل كل من فيه . وتقول لنا الرواية الإسلامية من جهة أخرى ، إن الاتفاق تم بواسطة دون پيدرو فرنانديث (وتسميه ببطره ابن فراندس) على أن يفرج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليين المحصورين بالحصن ، وأن المنصور ارتضى هذا الاتفاق ، حرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين ، وأخذت رهائن وُجهت إلى إشبيلية . وهكذا استطاع دون ديجولوپث أن يخرج من الحصن ، وأن يلحق بمليكه فى طليطلة[٢] .

ولكن صاحب روض القرطاس يقدم إلينا عن تسليم حصن الأرك رواية يطبعها شىء من الخيال ، وهو أن الموحدين أخذوا فى حصن الأرك أربعة وعشرين ألف أسير من زعماء الروم ، فرأى الخليفة المنصور أن يمن عليهم بالإفراج ، فأطلق سراحهم وأقالهم من الأسر بعد أن ملكهم ، وأن هذا التصرف من جانبه ،

---

(١) الرواية النصرانية اللاتينية Chronique Latine des Rois de Castille التى سبقت الإشارة اليها .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ و ١٩٦ . والرواية النصرانية اللاتينية التى سبقت الإشارة إليها . وينقل صاحب الحجب المستورة هذه الرواية (مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٤) .

قد عز على الموحدين وعلى كافة المسلمين ، واعتبروه سقطة من سقطات الملوك[١]

تلك هي تفاصيل موقعة الأرك العظيمة التي أحرز فيها الموحدون أعظم نصر ، حققوه خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية . على أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن نتائج المعركة بعض الأقوال والأرقام المغرقة ، وهي قبل ذلك تقدم إلينا عن عدد الجيش القشتالي أرقاماً لايسيغها العقل لكي تتفق مع هذه النتائج . وهي لاتقدم إلينا شيئاً واضحاً عن عدد الجيش الموحدي ، وتكتفي بأن تتحدث عن عظمة حشوده ، وبأن تصفه بأنه جيش يضيق له الفضاء[٢] . ولكنها تقول لنا إن جيش القشتاليين كان يزيد على ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل[٣]. ويقول الضبي إنه كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتي ألف راجل[٤]. أما عن خسائر النصارى ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنه قتل في المعركة من الكفرة ألوف لاتعد ولاتحصى. ويقول لنا ابن الأثير ويتابعه النويري، إن عدد القتلى من الفرنج بلغ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة عشر ألفاً[٥]. بيد أنه توجد عن خسائر النصارى رواية أخرى أكثر اعتدالا ، هي رواية يوسف بن عمر ، مؤرخ الموحدين ، التي نقلها إلينا صاحب البيان المغرب ، وهو أنه قتل في المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفاً[٦] . ويأخذ بهذه الرواية صاحب كتاب « الحجب المستورة » وهو يتابع في روايته رواية البيان المغرب مع تعديلات يسيرة[٧]. وأما عن خسائر المسلمين فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويري ، إنه قتل من المسلمين نحو العشرين ألفاً ، وهي رواية تبدو معقولة وربما مبالغاً فيها بعض الشيء من حيث الكثرة[٨] ، وتقول لنا بعض الروايات الأخرى إنه قتل من أعيان المسلمين نفر قلائل ، وإن عدد القتلى من المسلمين يبلغ نحو الخمسمائة وهو عدد ضئيل بالنسبة لاشتداد القتال، وطول أمد المعركة .

---

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويري (طبعة جسبار ريميرو السالفة الذكر ج ٨ ص ٢٧٤) .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٩ .

(٤) بغية الملتمس (المكتبة الأندلسية) ج ٣ ص ٣٥ .

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويري ، الطبعة المشار إليها ص ٢٧٤ .

(٦) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٥ .

(٧) كتاب الحجب المستورة في محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤) .

(٨) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويري (الطبعة السالفة الذكر) ج ٨ ص ٢٧٤ .

وعلى أى حال ، فإنه لايسعنا إلا أن نلاحظ أن الرواية الإسلامية هنا ، وكعادتها فى مثل هذه المواقع العظيمة الحاسمة ، التى تضطرم بين الإسلام والنصرانية ، تجنح إلى نوع من المبالغة والإغراق ، يمكن فهمه وتعليله وإن لم تمكن استساغته . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت فادحة فى مثل هذه المعركة التى بلغ فيها القتال أشده ، والتى ثقلت فيها وطأة المطاردة على الجيش المنهزم ، وأثخن الموحدون فى فلوله قتلا وأسرا ، ولكنها لا يمكن أن تعدو بضع عشرات من الألوف . ومن ثم كان الرقم الذى يقدمه إلينا المؤرخ الموحدى المعاصر وهو ثلاثون ألفاً ، يطبعه التعقل والاعتدال . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا بعد ذلك عن الغنائم والأسلاب أرقاماً مدهشة . فيقول لنا ابن الاثير ، ويتابعه النويرى ، إن المسلمين حازوا من الخيام مائة وخمسين ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف ، هذا غير مقادير لاتحصى من الأموال والتحف . وقسم الخليفة الغنائم بعد استبعاد الأخماس ، بين المسلمين وفقاً لأحكام الشريعة . وكان الخليفة فضلا عن ذلك ، قد نادى فى عسكره أن من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، فحُصر ما حمل إليه منه ، فكان يزيد على سبعين ألف لباس(١) .

وثمة مسألة أخرى تميل الرواية الإسلامية إلى ذكرها بمناسبة وقيعة الأرك ، وهى المقارنة بين هذه الموقعة وبين موقعة الزلاّقة ، وذلك من حيث ظروفها ونتائجها . فهى تذكر كيف أن جنود الأندلس كانوا أول من أصيب من عسكر المسلمين فى الزلاقة ، وكيف كثر القتل فيهم لولا أن تداركتهم فى النهاية قوات ابن تاشفين المرابطية ، وهذا بخلاف ماحدث يوم الأرك حيث لقيت الجيوش الموحدية النصارى ، مجتمعة وفى جبهة واحدة ، ومن ثم فقد كانت موقعة الزلاقة « مقسومة الثقل ، مكدرة الصفو » ، ولكن موقعة الأرك جاءت « هنيئة الموقع عامة المسرة » . ثم هى ترى بحق أن غزوة الأرك ، كانت مثل الزلاقة من أيام الإسلام المشهورة ، وبها اعتز الإسلام وعلت كلمته ، بل ترى أنها كانت أعظم من موقعة الزلاقة ، وأنها أنست كل فتح تقدمها بالأندلس(٢) . على أن المقارنة

---

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى (طبعة ريميرو المشار إليها) ص ٢٧٤ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) راجع البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٩٦ ، وروض القرطاس ص ١٥١ .

لاتقف عند هذا الحد ، فقد رأينا فيما تقدم من حديثنا عن موقعة الزلاقة[1] ، كيف أن الرواية الإسلامية تحيطها بطائفة من الأساطير التى تسبغ عليها هالة من القدسية ، وكذلك فإن حديثها عن موقعة الأرك لايخلو من ذكر هذه الأساطير ؛ وأسطع ما تقصه علينا فى ذلك هو حديث الحلم الذى يقال إن الخليفة يعقوب المنصور رآه قبل الموقعة ببضعة أيام ، فى ليلة الجمعة الرابع من شعبان ، واستبشر به ببلوغ النصر ، وهو أنه لبث طوال الليل راكعاً ساجداً مبتهلا ، وداعياً لتأييد المسلمين على أعدائهم ، فبينما هو راكع فى مصلاه إذ غلبه النوم ، فرأى كأن باباً قد فتح فى السماء ، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه ، وبيده راية خضراء منشورة ، قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم عليه ، فقال له من أنت يرحمك الله ، فقال أنا ملك من السماء ، جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين ، لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك . ثم أنشد هذا الفارس أبياتاً حفظها الخليفة وهى :

بشائر نصر الله جاءتك سافرة   لتعلم أن الله ينصر ناصره
فأبشر بنصر الله والفتح إنه   قريب وخيل الله لاشك ظافرة
فتفنى جيوش الروم بالسيف والقنا   وتخلى بلاداً لاترى بعد عامرة

وأن الخليفة نهض من نومه موقناً بالفتح والظفر[2] . فهذا الحلم الذى تقصه الرواية الإسلامية بمناسبة معركة الأرك ، يذكرنا بالحلم الذى تذكره لمناسبة موقعة الزلاقة وهو أن الفقيه الناسك أبا العباس بن رميلة القرطبي وكان بمحلة ابن عباد ، نهض فى جوف الليل ، قبيل نشوب المعركة فرحاً مسروراً ، وهو يقول إنه رأى النبي ، وإن النبي بشره بالفتح والشهادة[3] . ثم تذكرنا كذلك بالحلم الذى تقول لنا إن ألفونسو السادس ملك قشتالة رآه قبيل معركة الزلاقة ، وخلاصته أنه رأى أنه يركب فيلا ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مزعجاً كلما قرعه ، وأن فقيهاً من أهل طليطلة ، نبأه بأن هذا الحلم هو نذير هزيمته ، مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً . ثم يذكرنا كذلك ، بما تزعمه الرواية النصرانية من آن لآخر ، من أن الملوك النصارى ، كانوا متى اشتد القتال بينهم وبين المسلمين ، يرون ملاكاً يهبط من السماء وفى يده صليب أونحوذلك .

(١) راجع كتابى « دول الطوائف » ص ٣١٩ — ٣٢١ .
(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .
(٣) الروض المعطار ص ٩١ .

والرواية سواء أكانت إسلامية أونصرانية تجنح إلى مثل هذه الأساطير ، بالأخص فى المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، مثل الزلاقة ، والأرك وغيرهما ؛

على أن موقعة الأرك تختلف عن موقعة الزلاقة من بعض الوجوه الهامة . فقد كان المسلمون من أندلسيين ومرابطين يواجهون فى الزلاقة ، قوى اسبانيا النصرانية كلها ، ملتفة حول عميدها ألفونسو السادس . أما فى يوم الأرك فقد كانت الجبهة النصرانية ، مقتصرة على ملك قشتالة وقواته . وقد غادر ألفونسو الثامن طليطلة فى قواته ، حينما علم بزحف الموحدين نحو أراضى قشتالة ، ولم يرد أن ينتظر حليفه ملك ليون ، وكان قد وصل عندئذ بقواته إلى طلبيرة ، ولكنه لم يقدم على معاونة زميله ، لأنه أبى أن يعطيه بعض الحصون التى طلبها ، ثم انقلب بعد ذلك إلى خصومته ، ومحالفة الموحدين أعدائه . وكذلك لم ينتظر ألفونسو الثامن معاونة من ملك نافارا ، أومن ملك أراجون وذلك لوثوقه من رجحان قواته ، ويقينه ببلوغ النصر على أعدائه . وقد انتصر عليهم من قبل مراراً فى معارك محلية . ومن الغريب المدهش ما تقصه علينا الرواية الإسلامية من دلائل يقين ملك قشتالة بإحراز النصر على أعدائه ، وهو أنه كان يصطحب معه حين مسيره لقتال الموحدين جماعات من التجار اليهود ، جاءوا لشراء أسرى المسلمين ، وأسلابهم ، وأعدوا لذلك الأموال اللازمة(١).

وتختلف كذلك موقعة الأرك فى نتائجها عن موقعة الزلاقة . ذلك أن موقعة الزلاقة بالرغم من كونها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة ، وقضت مؤقتاً على الخطر الذى كان يهدد دول الطوائف ، فإنها اقتصرت على تحقيق النصر للمسلمين ، ولم يُتبع يوسف بن تاشفين نصره فى الموقعة ، بأية محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضى قشتالة . هذا فى حين أن المنصور بث جيوشه عقب النصر مباشرة فى أراضى قلعة رباح فاستولت على عدة حصون . ثم إنه لم تمض بضعة أشهر على معركة الأرك ، حتى خرج المنصور فى قواته ثانية لغزو أراضى قشتالة ، واخترقها حتى شمالى طليطلة ، واستولى على طائفة من المواقع والحصون حسبما نفصل بعد .

ولقد كان انتصار الموحدين فى معركة الأرك ، يرجع فضلا عن تفوقهم العددى ، إلى عدة أسباب ، روعى تحقيقها لأول مرة فى الغزوات الموحدية

---

(١) بغية الملتمس (المكتبة الأندلسية) ج ٣ ص ٣٥ .

الكبرى ، وأولها وأهمها العناية بالمحافظة على نظام الجيش ، وتوفير تموينه ومؤنه بصورة مؤكدة ، وتقسيم حشوده ، وتنظيم قياداته ، وتعيين قائد عام يشرف على هذه القيادات ، واعتماد الخليفة على مشورة قواده ، ثم مراعاة الحزم والسرعة فى تحرك الجيش ، وإعداده لضرب العدو على الفور . فهذه الميزات التى روعى تحقيقها فى الجيش الموحدى ، كانت كفيلة بأن تحقق له الظفر فى معركة الأرك ، وأن تجنبه تلك المفاجآت السيئة ، التى أصيب بها فى غزوة وبذة ، ثم بعد ذلك فى نكبة شنترين[1] .

— ٢ —

ماكادت تنتهى معركة الأرك العظيمة ، حتى بث المنصور سريات من جنده فى أراضى قلعة رباح ، فاستولت على عدة من حصون العدو فى هذه المنطقة ، ثم هاجم الموحدون قلعة رباح ذاتها ، واقتحموها بعد قتال عنيف ، وانتزعوها من أيدى فرسان جمعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وقتل أثناء المعركة أستاذ الجماعة نونيو دى فوينتس . وغادر الفرسان القلعة ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرّة القريبة منها . وهكذا استرد المسلمون هذه القلعة المنيعة ، بعد أن لبثت فى حوزة النصارى منذ سقوطها فى أيديهم فى سنة ١١٤٧ م ، زهاء نصف قرن . وأمر المنصور بتطهير جامعها الذى كان قد حول إلى كنيسة ، وقدم على حاميتها يوسف بن قادس[2].

نقول ، وقد أتيح لنا أن نزور أطلال قلعة رباح القديمة[3] هذه ، وأن نشهد بقايا هذه القلعة المنيعة ، التى لبثت دهراً من حصون الأندلس الأمامية ، والتى لعبت دوراً كبيراً فى الصراع بين المسلمين والنصارى . وتقع هذه

(١) راجع فى معركة الأرك ، روض القرطاس ص ١٤٥ — ١٥١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٣ — ١٩٦ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و٤٥ ، والنويرى (طبعة جسبار ريميرو) ص ٢٧٤ و٢٧٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ و٤٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٩ و ١٦٠ ، ورفع الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطانى ج ٢ ص ١٥٢ — ١٥٦) . ونشره الأستاذ هويثى ضمن مقاله المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدريد ج ٢ ص ٥٧ — ٦١ وراجع أيضاً :

H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista , p. 137-169

(٢) الروض المعطار ص ١٦٣ .

(٣) وهى بالإسبانية Calatrava la Vieja .

الأطلال على قيد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة ثيوداد ريال ، وعلى قيد نحو سبعة كيلومترات من ضاحيتها كربون ، وهى عبارة عن مجموعة ضخمة من الأطلال الدارسة ، تقع فوق ربوة قليلة الارتفاع ، وسط بسيط كبير تظلله الجبال الشاهقة ، ويستند من الشمال إلى نهر وادى يانه ، وتنقسم هذه الأطلال إلى مجموعتين ، فى إحداهما وهى اليمنى ، يوجد جدار برج عال ، ومن تحته عضادة تظلل عقداً كبيراً كاملا ، وفى الوسط يقوم جدار ضخم من عقد سابق . والمجموعة الأخرى ، يفصلها عن المجموعة الأولى فراغ كبير تتخلله الأنقاض والخرائب ، يبلغ طوله نحو ثمانين متراً ، وهى عبارة عن كتلة كبيرة ، يبدو أنها كانت قاعدة لعدة أبراج ضخمة . وتمتد الأطلال من الناحية الأخرى إلى مدى يبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، ويغمر هذه الأطلال الضخمة العالية ، والمكان كله ، جو من الوحشة والرهبة انقبضت له نفسى ، وأنا أطوف حول المكان منفرداً ، بين الأشواك والأدغال البرية ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، وعواء الكلاب المتوحشة ، ونعيق الغربان والنسور الصغيرة ، التى تعمر المكان ، يزعجنى ، وينذرنى بسرعة الرحيل .


جانب من أطلال قلعة رباح

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لم يكتف بذلك ، بل سار مخترقاً أراضى قشتالة يثخن فيها قتلا وأسراً وسبياً حتى وصل إلى جبل سليمان(١) على مقربة من قلعة هنارس شمالى طليطلة . بيد أنه لايوجد ما يؤيد هذه

---

(١) وهو بالإسبانية Cuesta de Zulema « مرتفع سليمان » .

الرواية . والظاهر أن صاحب روض القرطاس يشير بذلك إلى غزوة المنصور التالية لأراضى قشتالة بعد ذلك بعامين ، وهى غزوة سوف نتحدث عنها فيما بعد[1].

وبعد أن أخرج المنصور خمس الغنائم ، وقسم ما فيها على المجاهدين، سار فى جيوشه المظفرة ميمماً شطر إشبيلية ، وقد محا بهذا النصر الباهر ما لحق سمعة الحراب الموحدية فى شبه الجزيرة ، عقب نكبة شنترين من الانتكاس والتصدع ، فوصل إليها فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩١ ﻫ (٦ أغسطس سنة ١١٩٥ م) ، وأقبلت إليه الوفود من كل فج تزجى إليه تهانى النصر . ثم أمر أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب. وطلب إلى أبى الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى فى كتب الفتح غاية الإيجاز ، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة فى فتوحهم ، فصدع أبو طاهر بالأمر . ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة ، ونظم أبو العباس الجراوى شاعر البلاط الموحدى ، فى الفتح قصيدة جاء فيها :

هو الفتح أعيى وصفه النظم والنثرا ... وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد فى الدنيا وغار حديثه ... فراقت به حسناً وطابت به نشرا
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى ... وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى ... تبرأ منهم حين أوردهم بدرا
رأى الموت للأبطال حوليه ينتقى ... فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفلا ... وأمست خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحى الهيجا عليهم فأصبحوا ... هشيما طحينا فى مهب الصبا يذرا

وأنشد الشاعر الأندلسى المرسى ، على بن حزمون بين يدى الخليفة قصيدة ، وقعت منه أجمل وقع ، وهذا بعض ما جاء فيها :

حيتك معطرة النفس ... نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم ... إن الإسلام لفى عرس
أإمام الحق وناصره ... طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى ... فدنا التوفيق لملتمس
ورفعت منار الدين على ... عُمُد شُمٍّ وعلى أسس

---

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

وصدعت رداء الكفر كما صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم فغدوا فرسا فى قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم عدداً لم يحص ولم يقس
ومضيت لأمر الله على ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلاكله بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم المرفض مع الحدب والضرس
فأولئك حزب الكفر ألا إن الكفار لفى نكس (١)

وأمر المنصور بتسريح الحشود والقبائل وسائر الجنود ، على أن يكونوا على أهبة للاستعداد للجهاد فى أية لحظة . وقضى فصل الشتاء بإشبيلية ، وانتقل إلى حصن الفرج ، الواقع جنوب غربى المدينة على الضفة الأخرى من النهر الأعظم (الوادى الكبير) وهو الحصن ، الذى أمر بإنشائه قبل ذلك بقليل ، وكان يحبه ويؤثر الإقامة فيه ، وأمر باستكمال غروس بستانه ، وإنشاء النواعير على شاطئ النهر تحت الحصن لربه ، كما أمر بإصلاح المسجد الجامع ، واستكمال بناء صومعته ، وهو الجامع الذى كان قد أنشأه أبوه ، وأمر بإنشاء صومعته قبيل وفاته بقليل . ولما انتهى الشتاء وأقبل الربيع ، أمر المنصور باستئناف الحركة والاستعداد لمعاودة الجهاد ، واستنفار مختلف الحشود من منازلها ، فلما تم وصول مختلف الطوائف وحشدها ، أمر الخليفة بتمييز الجيوش وتنظيمها ، واستعدادها لاستئناف الغزو .

على أن المنصور ، قبل أن يبدأ الحركة ، رأى أن يستشير الزعماء والقادة فى أمر توجيه الغزو ، واختيار المنطقة الملائمة فى أراضى النصارى لإجرائه . وفى أثناء ذلك تردد رسل ملك قشتالة فى طلب المهادنة وعقد السلم ، فرفض المنصور (٢) ، واستقر الرأى على أن توجه الغزوة إلى ما تسميه الرواية الإسلامية « ببلاد الجوف » أعنى منطقة إسترمادورة ، وذلك لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد هذه المنطقة . وخرج المنصور من إشبيلية فى قواته فى منتصف جمادى الأولى سنة ٥٩٢ (٣) (منتصف أبريل سنة ١١٩٦ م) ، واتجه شمالا إلى حصن منتانجش (٤) .

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى المعجب ص ١٦٥ — ١٦٧ .

(٢) الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية (ص ٢٣١) .

(٣) ذكر صاحب البيان المغرب أنه منتصف رجب . ولكن هذا التاريخ يتعارض مع سياق الحوادث ومع التواريخ التى توردها الرواية النصرانية .

(٤) ورد اسمه فى الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثين الخاصة بهذه الغزوة (منت أنتش) ص ٢٣١

وقد كان حسبما أشرنا إليه من قبل من أمنع حصون منطقة بطليوس ، فتقدمت لمهاجمته قوة من الأندلسيين ، فلما رأت الحامية القشتالية مقدم الجيوش الموحدية الزاخرة ، طالبت بالأمان والتسليم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا ، وأمر قائد الجيوش الأندلسية أبو عبد الله بن صناديد ، بتوصيلهم إلى المنطقة الآمنة ، ولكن حدث حينما بدأوا السير أن هاجمتهم جماعة من « أوباش العرب » وسبت من كان معهم من النساء والأطفال ، فغضب الخليفة لهذا الاجتراء والإخلال بالعهود المقطوعة ، وأمر بسجن من عثر عليه من المعتدين ، ورد النساء والأطفال إلى ذويهم ، وأوصل الجند القشتاليين آمنين إلى أوائل بلادهم .

وقصدت القوات الموحدية بعد ذلك إلى مدينة تَرجالُه « قاعدة الثغر الشمالى » الواقعة شمال شرقى منتانجش ، وشرقى مدينة قاصرش ، وكان سكانها النصارى قد أخذوا فى إخلائها ، حينما شعروا باقتراب الموحدين ، فاستولى الموحدون على المدينة ، وطاردوا سكانها وأفنوا الكثير منهم ، وسبوا الكثيرين من نسائهم . واستولوا كذلك على بلدة « سانتاكروث »[1] القريبة منها ، وكانت حاميتها قد لاذت بالفرار . ثم عبر الموحدون نهر التاجُه ، واتجهوا شمالا نحو مدينة « بلاسنثيا » وهى التى تسميها رسالة الفتح الموحدية (ابلتانسية) وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انفق بضع سنين فى إنشائها وتحصينها ، ونقل إليها كثيراً من أهل الشمال ، وكان أهلها المدنيون قد غادروها ، وبقيت حاميتها فى قلعتها ، فاستولى الموحدون على المدينة ودمروها ، ثم هاجموا القلعة وضربوها بالنبال ضرباً شديداً ، حتى اضطرت الحامية بعد ليلة واحدة فقط من الاعتصام إلى التسليم ، واعتبر أفرادها أسرى بحكم مقاومتهم[2] . ويقول صاحب الروض المعطار ، وهو يسمى (بلاسنثيا) بلنسية ، إن الموحدين فتحوها عنوة ، وقبضوا على قائدها ، مع مائة وخمسين من أعيان النصارى ، وجهوا إلى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى معركة الأرك[3] . وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين بالعكس قتلوا الأسقف والرهبان وكثيراً من النصارى .

---

(١) وتسميها الرسالة الموحدية « شنتقروس Santa Cruz وتصفها بالقلمة « الحسيبة فى الامتناع » ص ٢٣٢ .

(٢) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ، ص ٢٣٤ .

(٣) الروض المعطار ص ١٣ .

واستمر الموحدون فى زحفهم شرقاً صوب مدينة طلبيرة ، وهى أكبر مدن ولاية طليطلة ، وهم يثخنون فى أراضى قشتالة ، تخريباً ، وأسرا وسبيا ، فلما أشرفوا على طلبيرة انتسفوا زروعها ، وحدائقها وأشجارها ، ولكنهم لم يحاولوا اقتحام المدينة لمنعتها ، ولعدم استعدادهم لضرب الحصار حولها ، إذكانت تنقصهم آلات الحصار ، فقنعوا باجتياح كل ما حولها من مظاهر العمران ، وصيروا أراضيها قاعاً صفصفاً . كل ذلك وملك قشتالة محتجب داخل مملكته ، غير مجترئ على لقاء الغزاة فى أية ساحة . ثم اتجه الموحدون شمالا إلى مكّادة(١) ، وأنزلوا بأراضيها من التخريب ما أنزلوه بطلبيرة . وهبطوا أخيراً إلى طليطلة من ناحيتها الشمالية ، وبرزت أمامها الحشود الموحدية فرسانا ومشاة فى أكمل عددها وعدتها ، وقد امتنع النصارى بداخلها مستعدين للكفاح والدفاع ، ثم عبر الموحدون بعد ذلك نهر التاجُه ، إلى ساحتها الجنوبية ، وانتسفوا زروعها ، وكرومها وحدائقها ، ولاسيما منيتها الشهيرة ، وهى التى كانت من قبل لبنى ذى النون ، وورثها النصارى ، وامتدت أيامها حتى خربها الموحدون فيما خربوه من مرافقها وأراضيها ، وقضى الموحدون حول طليطلة بضعة أيام ، واقتصروا على تخريب ديارها ، وإبراز مظاهر قوتهم ، وروعة حشودهم الزاخرة(٢) .

ويقدم إلينا المقرى عن غزوة طليطلة رواية خلاصتها أن المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ، واشتد فى ضربها بالمجانيق حتى أوشكت على السقوط ، خرجت إليه والدة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وبناته ونساؤه ، ومثلن بين يديه باكيات متضرعات إليه ، أن يبقى البلد عليهن ، فرق المنصور لضراعتهن ، وكف عن ضرب المدينة ، ووهب لهن قدراً من المال والجواهر الجليلة ، وردهن مكرمات. وهذه رواية يصعب علينا تصديقها لمجانبتها للمنطق والمعقول(٣) .

وفى خلال الغزوة الموحدية لأراضى قشتالة ، بعث ملك ليون ، وهو ألفونسو التاسع إلى المنصور ، يرجوه أن يعاونه ببعض قواته ، على غزو قشتالة ، فاستجاب المنصور لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة الأرك ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه إلى مصادقتهم ومحالفتهم . وغزا ملك ليون ، ومعه قوة من الموحدين أراضى قشتالة من ناحية « تيرا دى كامبوس » ،

(١) وهى بالإسبانية **Maqueda** . راجع الروض المعطار ص ١٣ .
(٢) الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثون ص ٣٣٦ و ٣٣٧ . والبيان المغرب ص ١٩٩ .
(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٢٠٧ .

وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين كانوا يقاتلون معه ، ضربوا الكنائس والأديار القشتالية بمنتهى القسوة ، وقام الليونيون بانتساف وتخريب الضياع ؛ ووصل ألفونسو التاسع فى غزوته هذه حتى مدينة كريون . وفى نفس الوقت أغار سانشو ملك ناڤارا من جانبه على أراضى قشتالة المتاخمة له ، واقتحم مدينة سُرية ، وعاث فى تلك المنطقة تخريباً ونهباً .

ولما انتهى المنصور من غزاته ، وأثخن ما شاء فى أراضى عدوه ، وأبرزت حشوده أمام أعين النصارى كل مظاهر قوتها وروعتها ، قرر العود بسرعة ، قبل أن يختل نظام التموين فى الجيش ، فارتد بقواته نحو الجنوب ، واقتحم الموحدون فى طريقهم بعض حصون منطقة طليطلة الجنوبية ، فاخترق أراضى قلعة رباح ، ثم اتجه نحو جيان ثم إلى قرطبة ، وسار من قرطبة إلى إستجة فقرمونة ، ووصل إلى إشبيلية فى أوائل رمضان (٥٩٢ هـ) بعد أن قضى فى غزوته نحو ثلاثة أشهر[1] .

وما نود أن نلاحظه هو أن هذه الغزوة الموحدية التى استطاع الموحدون أن يدفعوها إلى صميم أراضى قشتالة ، وإلى تطويق العاصمة القشتالية ذاتها ، أعنى طليطلة ، لم تسفر عن أية نتائج مستقرة ، ولم يحرز الموحدون خلالها أية أراضٍ أو مواقع ذات شأن . وإنه لما يلفت النظر أن يكتفى الخليفة المنصور ، وهو الذى حطم قوى قشتالة قبل ذلك بأقل من عام فى موقعة الأرك بالعيث والتخريب ، والسبى والنهب فى أراضى العدو ، دون أن يتحرى غاية عسكرية جليلة ، فى وقت كان فيه فى أوج قوته وأهباته العسكرية ، وفى وقت كان فيه عدوه الرئيسى ملك قشتالة فى منتهى الضعف والاستسلام ، حتى أنه لم يحرك ساكنا للقاء الغزاة فى أية مرحلة من مراحل الغزو . وإنه يحق لنا أن نتساءل ألم يكن فى وسع الخليفة الظافر ، فى مثل هذه الظروف المواتية ، أن يركز جهوده على محاولة الاستيلاء على طليطلة حصن الإسلام القديم على نهر التاجُه ، وفى اعتقادنا أنه لو فعل ، لما كانت هنالك ثمة عقبات خطيرة تحول دون بغيته ، ولكن السياسة العسكرية الموحدية آثرت مع الأسف أن تقنع بالمظاهرات العسكرية الجوفاء ، التى يستطيع العدو القديم الخالد دائماً أن يصبر عليها ، وأن يهضمها بسرعة ليعود إلى عدوانه .

---

(١) فصلت لنا الرسالة الموحدية المؤرخة فى التاسع من شهر رمضان سنة ٥٩٢ هـ ، وهى الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ، مراحل هذه الغزوة بإسهاب يغلب عليه الزخرف الأدبى ، وهى من إنشاء الكاتب أبى عبد الله بن عياش (ص ٢٢٨ — ٢٤١) .

وعنى المنصور خلال إقامته عندئذ بإشبيلية بأمرين ، الأول النظر فى أحوال الأعمال والنفقات ومحاسبة بعض العمال والنظار ، الذين لحقت بهم ريب التقصير والاختلاس ، والثانى الاستعداد للغزوة القادمة بعد أن ينال الجند قسطهم من الراحة والاستجمام والضيافة والإحسان . وقد أمر المنصور فيما يتعلق بالأموال بمحاسبة أبى سليمان داود بن أبى داود ، وندب لمحاسبته لجنة من الكتاب ، فحققت فى سائر أعماله وتصرفاته مدى ستة أشهر ، ثم انتهت بإدانته وإثبات ما فى ذمته من أموال ، بلغت فى الأعمال نحو مائة وخمسين ألف ، فاستصفيت أمواله ، ولكنه لم ينكب ولم يعاقب حتى عُفى عنه . وأمر الخليفة فى نفس الوقت بمحاسبة أبى على عمر بن أيوب ، على ما كان تحت يده من أموال النفقات ، فتبين أن فى ذمته قدراً كبيراً من المال ، فطولب به ، ولما عجز عن الوفاء ، اعتقل مع أبى سليمان حتى عفى عنه أمير المؤمنين .

وفى هذا العام أيضاً قام الخليفة ببعض التعيينات الهامة ، فقلد أبا زيد بن يوجان أشغال البرين (المغرب والأندلس) من الأعمال العلية والشئون السلطانية والوزارة ، وما يتعلق به من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة ، فأبدى فى تأدية مهامه المختلفة كفاية ظاهرة ، وقدم أبا القاسم بن نصير على الإسراف على عمل إشبيلية ، وقدم الكاتب المؤرخ يوسف بن عمر ، بعد أن ترك خدمة بنى حفص ابن عبد المؤمن ، على المستخلص بمنطقة الشَّرْف ومدينة لبلة .

وكان المنصور يعنى فى نفس الوقت بالاستعداد لاستئناف الغزو فى أراضى قشتالة . فلما انتهى فصل الشتاء أمر بالحركة وتعبئة الحشود ، فاجتمعت مختلف الطوائف والقبائل حتى ضاقت إشبيلية بجموعهم ، فلما استكمل الحشد والاستعداد ، خرج الخليفة فى قواته من إشبيلية فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ (١٤ أبريل سنة ١١٩٦) وسار ميمماً شطر قرطبة ، وكانت سنة خصب ورخاء ، فسارت الجموع طول الطريق فى دعة وعيش طيب . ولما وصل المنصور إلى قرطبة ، دخلها ونزل بها وقسم جيوشه لانتجاع الخصب ووفرة الأقوات ، حتى تحل الفترة التى تكثر فيها المؤن والأقوات بأراضى قشتالة[1] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠١ و٢٠٢ .

الفصل الرابع

ما بعد الأرك

حتى وفاة المنصور

إقامة الخليفة المنصور بقرطبة . الفيلسوف ابن رشد ومؤلفاته ومكانته العلمية . اجتماع الأسباب لنكبته . سعي خصومه فى الإيقاع به . تأويل آرائه ومسخها . إتهامه وبعض زملائه بالمروق . توجيه الاتهام إليه بالمسجد الجامع . إدانته ونفيه إلى بلدة اليسانة . مصادرة كتبه وإحراقها . كتاب المنصور فى تبرير تصرفه وفى شرح تهم المارقين . أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . عفو المنصور عنه وعن زملائه . عودة ابن رشد إلى مراكش ثم وفاته . ما تكشف عنه نكبة الفيلسوف من مغزى . خروج المنصور إلى الغزو . مسيره إلى طلبيرة ثم إلى طليطلة . مسيره إلى مجريط وحصارها . تخريبه لمنطقة وادى الحجارة . توجيه كتاب الغزو . عود المنصور إلى قرطبة ثم إشبيلية . أمره بإتمام صومعة الجامع . أقوال ابن صاحب الصلاة فى بناء الصومعة . تزويدها بالتفافيح الذهبيه . وصف لهذه التفافيح وعملية رفعها . قيام هذه الصومعة حتى اليوم . انتقال المنصور إلى حصن الفرج . تعيينه للعمال . تحالف قشتالة وأراجون ضد الموحدين . غزو قوات قشتالة وأراجون لمملكة ليون . عقد السلم بين المنصور وملك قشتالة . رفض المنصور معاونة ملك ليون . عبور المنصور إلى المغرب . وعوده إلى مراكش . أخذ البيعة لولده الناصر . عطفه على اليتامى . أمره بإلزام اليهود بزى خاص . بواعث هذا القرار . مرض المنصور وشعوره بدنو أجله . استدعاؤه للشيوخ والقرابة . توصيته بولده وبمن يثق بهم من السادة . توصيته برعاية الأندلس والذود عنها . توصيته بالأغزاز والعرب والطلبة . توصيته بقبائل الموحدين . ما ينسب إليه من آخر أقواله . وفاة المنصور . عظمته والإشادة بصفاته . عنايته بتنظيم الجيش وتقويته . شغفه بالجهاد . حزمه وعنايته بتوطيد العدل . ورعه وتقواه . عنايته بتطبيق أحكام الشرع وإقامة الصلاة والحدود . مطاردته لعلم الفروع والمذهب المالكى . اعتناقه للمذهب الظاهرى . انتشار الظاهرية فى عهده . إجلاله للعلامة ابن حزم . موقفه من إمامة المهدى وعصمته . ما ينسب إليه من نيته فى افتتاح مصر . قول المراكشى فى ذلك . أقوال الرحالة ابن جبير عن أحوال المشرق وضلال أهله . أقواله عن صدى الدعوة الموحدية بمصر . الفكرة الموحدية فى غزو مصر . الفكرة لم تكن سوى أمنية . عظمة مصر وقوتها أيام المنصور . صفات المنصور العلمية . عطفه على العلماء وطلبة العلم . أدبه وفصاحته . اجتماع الشعراء حوله . أبو العباس الجراوى يؤلف له كتاب « صفوة الأدب » . مدائح ابن مجبر . مواهب المنصور الإدارية والإنشائية . عنايته بالشئون المالية . منشآته العمرانية . إنشاؤه لضاحية الصالحة . تجديده لرباط الفتح وإنشاء مسجدها العظيم . إنشاؤه للبيمارستان بمراكش . منشآته بالأندلس . وزراؤه وكتابه . قضاته . أولاده . صفته .

- ١ -

فى خلال إقامة المنصور بقرطبة ، فى تلك الفترة من شهور سنة ٥٩٣هـ ، وقع حادث مؤسف ذو مغزى عميق ، هو نكبة القاضى الفيلسوف أبى الوليد بن رشد. وقد سبق أن أشرنا إلى صلة ابن رشد بالبلاط الموحدى ، وإلى ما كان يتمتع به من عطف الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولاسيما عن طريق أستاذه العلامة الفيلسوف الطبيب أبى بكر بن طفيل ، صديق هذا الخليفة وأستاذه الأثير لديه. وكان ابن رشد فى هذا الوقت يتولى قضاء إشبيلية ، ويشغل فى نفس منصب الطبيب الخاص للخليفة إلى جانب أستاذه ابن طفيل. ثم تقلب بعد ذلك فى عدة من المناصب القضائية والإدارية الهامة ، أحياناً بقرطبة وأحياناً بإشبيلية ، وكان يتنقل فى معظم الأحيان مع بلاط الخليفة، سواء بالمغرب أو الأندلس. ولما توفى أستاذه ابن طفيل فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) انفرد بمنصب الطبيب الخاص للخليفة ، واستمر على حظوته ومكانته لدى الخليفة يعقوب المنصور ، كما كان من قبل لدى والده الخليفة أبى يعقوب يوسف .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوعاً عظيما ، وكتب كثيراً من كتبه الفلسفية ، ومعظمها فى تلخيص كتب أرسطو وشروحها ، وكتب كذلك كثيراً من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس . ومنها « شرح «لأرجوزة » الشيخ الرئيس ابن سيناء فى الطب ، وكتب كذلك كتابه « الكليات » ، ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التى تناولها أستاذه العلامة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر فى كتابه « التيسير » . وهذا كله عدا ما كتبه فى الأصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق . وقد بلغت تصانيف ابن رشد فى مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ورسالة اشتهرت كلها فى المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى اللاتينية ، ولاسيما شروحه لفلسفة أرسطو ، وهى التى جعلت لابن رشد أعظم مكانة فى ميدان التفكير الأوربى .

وكان الخليفة يعقوب المنصور ، كأبيه عالماً متمكناً يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه ، ولاسيما فى علاقة الفلسفة بالدين، وهو

الموضوع الذى كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . وكان الفيلسوف يقضى معظم أوقاته عندئذ فى البلاط الموحدى ، حيثما كان الخليفة ، وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، إلى حد أنه كان يجلس إلى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع أشياخ الموحدين الأكابر. ومن الغريب أن يقال لنا إن ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمى من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث الملبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضى أبو مروان الباجى فى قوله «كان القاضى أبو الوليد ابن رشد حسن الرأى ذكياً ، رث البزة ، قوى النفس » .

وقد شاء القدر أن يُنكب الفيلسوف ، فى تلك الفترة التى نزل فيها المنصور بقرطبة . وكان ابن رشد قد عاد إلى الأندلس فى ركاب الخليفة ، ونزل بدار أسرته فى قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة فى الواقع تتجمع منذ بعيد . وكانت قد نشأت من قديم بين الفيلسوف وبين أهل قرطبة وحشة . « أحدثتها أسباب الحسد » . وكان الحفاظ والطلبة والفقهاء الموحدون فضلا عن ذلك ، ينقمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينقمون بالأخص منزلته لدى الخليفة . ونحن نعرف ما كان يتمتع به أولئك الحفاظ والطلبة لدى الخليفة الموحدى من عظيم النفوذ ، ولاسيما وقد كانوا نصحاءه ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يبثون حول آرائه ونظرياته دعاية مسمومة ، ويرمونه بالمروق والخروج على أحكام الشريعة ، « وإيثاره فيها لحكم الطبيعة» . وكانت الفلسفة ودراساتها بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدى ، منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، من رعاية العلم والعلماء ، من الموضوعات المريبة المكروهة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجدون فى صميم دراساته وكتاباته ، مواد اتهامهم . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يدسون عليه ألفاظاً وعبارات محرجة . ومن ذلك وصفه فى أحد شروحه « الزهرة » بأنها « أحد الآلهة » وقد جمع أولئك الخصوم مقالات وأوراق كثيرة منسوبة إلى الفيلسوف ، وحملوها إلى مراكش فى أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، وحاولوا أن يرفعوها إلى الخليفة . ولكن المنصور كان يشغل عندئذ بالأهبة للعبور إلى الأندلس . ومن ثم فقد فشل الساعون فى مسعاهم ، واضطروا للعودة خائبين .

ويقول لنا ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » وهو فيما يرجح ينقل عن

ابن صاحب الصلاة: « فلما كان التلوم من المنصور بمدينة قرطبة، وامتد بها أمد الإقامة ، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة ، تجددت للطالبين آمالهم ، وقوى تألبهم ، واسترسالهم ، فأدلوا بتلك الألقيات، وأوضحوا ما احتجنوه من شنيع الهفوات الماحية لأبى الوليد كثيراً من الحسنات، فقرئت بالمجالس، وتؤولت أغراضها ، ومعانيها وقواعدها ومبانيها ، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالبين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام . ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأغمد السيف بالتماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه ، وفقهاء دولته ، بالحضور بجامع المسلمين، وتعريف الملأ بأنه مرق من الدين ، وأنه استحق لعنة الضالين »[(١)] .

ولم يكن الاتهام بالمروق مقصوراً على الفيلسوف ، ولكنه شمل عدة من زملائه وتلاميذه ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل » . وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبى ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهرى المشهور بالأصولى ، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الحافظ الشاعر . وأحضر ابن رشد ، والفقيه أبو عبد الله المهرى وحدهما إلى جامع قرطبة ، وتوارى الباقون . وتولى توجيه الاتهام إلى الفيلسوف وزميله ، القاضى أبو عبد الله بن مروان، والخطيب أبو على بن الحجاج . ولم يقل لنا صاحب « التكملة » ، ماذا كان موقف ابن رشد ، ولكن المرجح أنه قام بالرد على أسانيد متهميه .

وعلى أى حال فقد انتهى الأمر بإدانة الفيلسوف ، وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفى من قرطبة ، واعتقاله ببلدة « أليسّانة » أو « اللسّانة » ، الواقعة فى جنوبها على مقربة من نهر شنيل . وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود فى هذه المنطقة من الأندلس . وكانت بالأخص مدينة غنية زاهرة أيام دولة بنى باديس أصحاب غرناطة[(٢)] . وقيل فى اختيارها لاعتقال الفيلسوف « إنه يُنسب فى بنى إسرائيل، ولأنه لايعرف له نسب فى قبائل الأندلس » . وكان من الواضح أن الخليفة قد راعى فى الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفى، سنه

(١) التكملة لابن عبد الملك المراكشى المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى . ونقله إلينا صاحب البيان المغرب مع الاختصار ص ٢٠٢ .

(٢) وهى بالإسبانية Lucena . راجع الإدريسى ، وصف المغرب والأندلس (طبعة دوزى) ص ٢٠٥ .

وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد جاوز السبعين من عمره . وقُضى على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم كذلك بالنفى إلى جهات أخرى ، وكان أبرزهم بعد ابن رشد ، هو إبراهيم الأصولى . وصودرت كتب الجميع ، وأمر بإحراقها أينما وجدت .

ولم يكتف البلاط الموحدى بتوقيع العقوبة المادية على المتهمين ، ولكنه رأى أن يقرنها بإعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فوجه المنصور كتاباً فى هذا الموضوع ، من إنشاء كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، إلى مراكش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس . وإليك بعض ماجاء فى هذا الكتاب المشهور ، الذى انفرد بتدوينه ابن عبد الملك صاحب « الذيل والتكملة » :

« وقد كان فى سالف الدهر قوم ، خاضوا فى بحور الأوهام ، وأقرّ لهم عوامّهم ، بشفوف عليهم فى الإفهام ، حيث لاداعى يدعو للحىّ القيوم ، ولاحاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلّدوا فى العالم صحفاً ، مالها من خلاق ، مسوّدة المعانى والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون فى القضية الواحدة فرقاً ، ويشيدون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم ما فى الله خلقهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يذرون . ونشأ منهم فى هذه [اللمحة] البيضاء شياطين .. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولوشاء ربك مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله .. لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وهاؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم [الغمومة] والتخييل ، وبث عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم ، على رجال كان الدهر قد سالمهم على شدة حروبهم ، وأغضى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شىء علماً .

« وما زلنا وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدنيهم . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبة أخذ

كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشّحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرّحٌ بالإعراض عن الله ، لُبّس منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون فى صورة السِّلم ، مزلّة للإقدام ، وسمٌ يدب فى باطن الإسلام ، وأسياف أهل الصليب دونها مفلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة فى ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذًى فى جفن الدين ، ونكتة سوداء فى صفحة النور المبين ، نبذناهم فى الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم فى الله ، كما أنا نحب المؤمنين فى الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهاؤلاء قد صدفوا عن [الله] وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعدت أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلجام فلا . . فى مجال ألسنتهم ، والإيقاظ [بحدة] من عقلهم ونصبهم ، ولا كنهم رفعوا بموقف الخزى والهوى ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا ؛ لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية فى الأبدان . ومن عُثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التى بها يُعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عُثر منهم على مُجِدٍّ فى غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فليُعاجل فيه بالتثقيف والتعريف ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون . أو لا يرد الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون . . . والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب فى صحف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم ، إنه منعم كريم »(١) .

هذا كله فيما يتعلق بناحية التكفير ، وناحية العقيدة ، وهى التى اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وإدانته . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالسيد أبى يحيى أخى المنصور ووالى قرطبة ، وقد

---

(١) أورد ابن عبد الملك المراكشى نص هذا الكتاب الموحدى فى « الذيل والتكلة » فى ترجمة ابن رشد (المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى) .

كان بين الأخوين موجدة وجفاء . ومنها أنه أى ابن رشد ، كان يجرى فى أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائماً بقوله « تسمع يا أخى » وكان المنصور يُسرّ له هذه الجرأة فى مخاطبته . ومنها أخيراً ، وهو ما يدخل فى باب العيب فى ذات الخليفة ، إن ابن رشد قال فى شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ما يأتى : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر » مشيراً إلى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوباً بخطه[1] . فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لتهيئ لخصوم الفيلسوف ومتهميه فرصة النيل منه ، وإقناع الخليفة بصحة مانسب إليه من تهم المروق والإلحاد .

ولبث ابن رشد فى معتقله فى «اليسّانة» زهاء ثلاثة أعوام . ثم إن جماعة من أكابر أهل إشبيلية ، خاطبوا المنصور فى شأن الفيلسوف وزملائه ، وتشفعوا لديه فى سبيل إقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بالأخص عن الفيلسوف تهمة المروق والزيغ ، وشهدوا بحسن إيمانه وسلامة عقيدته . ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب فى حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » وقال إن صحة الوصف هى ملك « البرين » وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ ، فاستجاب المنصور إلى شفاعتهم ، وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وذلك فى سنة ٥٩٤ ﻫ .

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته فى البلاط الموحدى ، وعاد إلى مراكش ليلتحق ببلاط الخليفة . بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ ﻫ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م) ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . ودفن ابن رشد أولا فى مقبرة « باب تاغزوت» خارج مراكش ، ثم حمل منها بعد أشهر قلائل إلى قرطبة مسقط رأسه ، وموئل أسرته ، ودفن فى روضة آبائه بمقبرة ابن عباس[2] .

تلك هى أدوار المأساة المشجية التى اقترنت بحياة فيلسوف من أعظم أقطاب التفكير الإسلامى والتفكير العالمى . ولقد تكررت هذه المأساة ، التى اتخذت صورة الاضطهاد الفكرى ، غير مرة فى ظل المرابطين ثم الموحدين ، وكانت مطاردة ابن رشد ومحاكمته ، بلا ريب وصمة فى عهد خليفة عظيم عالم كالخليفة

---

(١) المعجب للمراكشى ص ١٧٤ و ١٧٥ .

(٢) راجع فى نكبة ابن رشد « الذيل والتكلة » لعبد الملك المراكشى (المخطوط المشار إليه) ، والتكلة لابن الأبار فى ترجمته (القاهرة) رقم ١٤٩٧ .

المنصور . بيد أنها تكشف بالأخص عن روح التزمت العميق التي كان يتسم بها التفكير الديني في عهد الموحدين .

— ٢ —

وكان الخليفة في تلك الأثناء يستكمل أهبته للغزوة المنشودة ، فلما تم له ما أراد من ذلك ، غادر قرطبة في قواته ، واخترق جبل الشارات (سيرا مورينا) ميمماً شطر طلبيرة . فلما وصل إلى حدود قشتالة ، قصد إليه رسل ألفونسو الثامن في طلب المهادنة ، فصرفهم دون جواب ، وقد عقد العزم على اختراق أراضي قشتالة ، وغزوها وفقاً للخطة التي وضعها . ولما وصل إلى طلبيرة ، سار إلى مكادة ، وضرب ما حولها من الأراضي دون أن ينال منها شيئاً ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وحاصرها ، وهنالك علم أن ملك قشتالة قد حصل على عون زميله ملك أراجون ، وأنهما يرابطان بقواتهما عند قلعة مجريط[1] في انتظار الاشتباك مع الموحدين ، فتحول المنصور نحو مجريط بسرعة ، بعد أن خرب أراضي طليطلة ، مؤملا أن يلتقي بالقوات النصرانية . ولما وصل إلى مجريط ، حاصرها بضعة أيام ، ولكن الملكين لم يكونا بها ، بل كانا قد انسحبا في معظم قواتهما إلى جبال وادي الرملة[2] ، وتركا في حصن مجريط قوة مختارة بقيادة دون ديجو لوبث دي هارو ، وهو الذي كان قد لجأ إلى حصن الأرك يوم الموقعة . فدافع القشتاليون عن مجريط بشدة ، فغادرها المنصور عندئذ ، وسار ميمماً شطر قلعة هنارس (قلعة النهر) ثم وادي الحجارة ، وهو ينتسف الزروع ، ويخرب الضياع والقرى ، ولكن الموحدين لم يستطيعوا كذلك الاستيلاء على وادي الحجارة لمنعتها . وخرجت حاميتها ، وفاجأت قافلة المتاع والعتاد والخدم ، فأوقعت بها ، واستطاعت أن تنتزع منها بعض الأسلاب ، قبل أن يتدراكها الموحدون ، ويردوا المغيرين على أعقابهم ، ويقتلوا عدداً منهم .

وفي اليوم التالي ، نظم الموحدون مظاهرة عسكرية ضخمة في ظاهر وادي الحجارة ، بدا فيها الجيش الموحدي بمختلف طوائفه وحشوده ، إظهاراً لقوتهم وإرهاباً للعدو ، وبعث المنصور من محلته بتفاصيل الغزوة إلى مختلف الجهات .

---

(١) وهي التي غدا موقعها فيما بعد نواة لموقع مدريد عاصمة اسبانيا الحديثة ، وتطور اسمها العربي من مجريط Majerit إلى Madrid

(٢) جبال وادي الرملة هي بالإسبانية Guadarrama .

ثم أمر بالحركة والعود ، وسار بطريق وبذة . وهنا اتجه المنصور ، وفقاً للرواية النصرانية شرقاً نحو قونقة وحاصرها ، ثم ارتد نحو أقليش وسار منها جنوبا نحو الكرس وبيّاسة ، ووصل إلى قرطبة فى أواخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ ، ثم غادرها فى الحال إلى إشبيلية ، فوصلها فى يوم عيد الفطر (أغسطس سنة ١١٩٧م) وذلك بعد أن أنفق فى غزوته الثانية لأراضى قشتالة أربعة أشهر(١) .

وماكاد المنصور يستقر فى إشبيلية ، حتى عنى بإتمام الأعمال الأخيرة لصومعة الجامع الأعظم (المنارة) وهى التى كان أبوه الخليفة أبو يعقوب يوسف ، قد أمر ببنائها قبل خروجه إلى غزوة شنترين فى سنة ٥٨٠ هـ . وكان المنصور قد أمر بالمضى فى إنشائها عقب توليه الخلافة . ووضع العريف أحمد بن باسُه أسسها لصق الجامع ثم تعطل البناء حيناً لعزل بعض العمال المختصين ، أو لغير ذلك من الأسباب . وفى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) بعد أن فرغ المنصور من غزواته بإفريقية ، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو حسبما أشرنا من قبل غير مرة مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، أنه شُرع فى بناء الصومعة بالآجر الذى يؤخذ من سور قصر ابن عباد ، ودام العمل فى ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها بصورة متقطعة ، فإذا حضر الخليفة إلى إشبيلية ، ضوعفت الهمة فى البناء ، وإذا غادرها إلى الحضرة تعطل البناء ، ثم يُستأنف متى حضر. وكان الخليفة المنصور كأبيه الخليفة أبى يعقوب ، شغوفاً بالبناء ، وكان وقت وجوده بإشبيلية ، يلازم فى أوقات فراغه الإشراف على أعمال البناء بنفسه ، واستمر الأمر كذلك حتى عاد المنصور من موقعة الأرك مكللا بغار الظفر ، وأصدر أوامره بمضاعفة الهمة لإتمام الصومعة ، ولما عاد إلى إشبيلية من غزوته الأخيرة ، كان بناء الصومعة قد تم ، ولم تبق سوى أعمال التجميل . وبالرغم من أن المنشآت الموحدية ، كانت حتى ذلك العهد تقتصر على مراعاة الروعة والمتانة ، ولا تميل إلى الزخرف والزينة ، فقد أصدر الخليفة أمره ، بأن تزود صومعة الجامع بتفافيحها الذهبية الشهيرة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هـذه التفافيح ، ورفعها إلى أعلى المنارة ، فى حفل كان من شهوده :

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . وراجع : Altamira : Historia de Espana; Vol. I. p. 364 .



صومعة جامع المنصور بإشبيلية المسماة لاخيرالدا **La Giralda**

« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه فى مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة ، الكبيرة الجرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت فى منازلها بمحضره ، وحضر المهندسون فى إعلائها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة فى عمود عظيم من الحديد مرسى أصله فى بنيان أعلى الصومعة أعلاها ، زنة العمودماية وأربعون ربعاً من الحديد ، موثقاً هناك فى تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدمات الأمطار ، ما يطول التعجب من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية ، عملها الصياغ بين يدى أمير المؤمنين وحضوره . ولما كملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان ليلا ينالها الدنس من الأيدى والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتبكير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت فى العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبى يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولى عهده أبى عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك فى يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمس ماية ، ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وشعاع رونقها »[1].

ويضيف صاحب روض القرطاس إلى ما تقدم ، أن الذى قام بالإشراف على صنع هذه التفافيح الذهبية ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم أبو الليث الصقلى ، وأن هذه التفافيح قومت يومئذ بمائة ألف دينار من الذهب[2].

ونقول نحن ، إن هذه الصومعة أو المنارة العظيمة التى أمر بإنشائها الخليفة أبو يعقوب يوسف لجامع إشبيلية الأعظم ، وأتمها ولده يعقوب المنصور ، وزودها بتفافيحها الذهبية الرائعة ، مازالت تقوم حتى يومنا ، وإن كانت قد فقدت تفافيحها الذهبية منذ بعيد ، وحولت طبقتها العليا إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧١ ، ا و ب) .
(٢) روض القرطاس ص ١٥١ .

العظمى ، وهى التى قامت بدورها فوق أنقاض الجامع الأعظم : وهى تحمل اليوم اسمها الإسبانى « لاخيرالدا La Giralda » ، بيد أنها مازالت بالرغم من تحولها إلى برج للأجراس، تحتفظ بكثير من روعتها الإسلامية القديمة، ومازالت تعتبر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية[1] .

ولما تم الاحتفال بإتمام صومعة الجامع الأعظم على هذا النحو انتقل المنصور إلى حصن الفرج ، وقضى به فصل الصيف ، وكان يؤثره لجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، فأقام بها أربعين يوما أخرى ، وعنى خلال هذه الفترة بتنظيم الشئون ، وتعيين الولاة والعمال ، فأسند ولاية إشبيلية إلى ولده السيد أبى زيد ، وولاية بطليوس وجهاتها إلى السيد أبى الربيع بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وولاية منطقة الغرب إلى أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وندب العمال للنظر فى شئون الجباية فى مختلف الجهات ، ورتب الحاميات المختارة فى مختلف القواعد ، وأمر بتحصينها وإصلاح أسوارها[2] .

وكانت الأحوال قد تطورت عندئذ فى مملكتى قشتالة وليون ، وأنشىء حلف جديد لمقاومة الموحدين بين قشتالة وأراجون ، وتقدم ملك أراجون پيدرو الثانى لمعاونة حليفه ألفونسو الثامن ، وظهر أثر هذه المعاونة فى اجتماع القوات المتحالفة لمقاومة الموحدين فى منطقة وادى الحجارة ، حينما قام المنصور بغزوته الثانية لأراضى قشتالة . ومع أنه لم يقع بين الفريقين اشتباك ذو شأن ، فإن المنصور لم يغفل من حسابه أمر ذلك التكتل الجديد بين القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان لذلك التطور أثره فى موقف ألفونسو التاسع ملك ليون حليف الموحدين . ذلك أنه كان قد غزا أراضى قشتالة بمعاونة قوة من الموحدين ، ووصل فى زحفه حتى مدينة كَرّيون ، وذلك فى نفس الوقت الذى غزا فيه الموحدون أراضى قشتالة من الجنوب . فلما انتهى الموحدون من غزوتهم ، وانسحبوا إلى الجنوب ، قامت قوة مشتركة من القشتاليين والأرجونيين بغزو مملكة ليون ، واخترقت أراضيها حتى كويانسا (بلنسية دى دون خوان) ، وحاصرت ملك ليون وحلفاءه الموحدين فى قاعدة بنافنتى ، فالتزم ملك ليون الدفاع ، ولم يحاول

---

(١) راجع تاريخ منارة المنصور ، وأوصافها القديمة والحالية فى كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٥١ — ٥٦ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

أن يشتبك مع خصومه . ثم انسحب القشتاليون وحلفاؤهم من أراضى ليون مثقلين بالغنائم ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده وزال الخطر عن مملكة ليون .

وقبيل مغادرة المنصور لإشبيلية ، وفدت عليه رسل ملك قشتالة مرة أخرى فى طلب المهادنة والسلم ، فرأى المنصور على ضوء هذه التطورات ، أن يجيبه إلى رغبته بشروط اشترطها ، وهو مما يصفه صاحب البيان المغرب بأن التهادن عقد وفقاً لشريعة الإسلام[1] . ومن جهة أخرى فإن ملك ليون ، بعد أن تحرج مركزه ، وأعلن البابا نفيه من الكنيسة ، باعتباره خارجاً على الدين ، وأذن لملك البرتغال بمحاربته متشحاً بالصفة الصليبية ، قصد بنفسه إلى إشبيلية ملتجئاً إلى المنصور ، وطالباً إليه معاونته بالجند والمال ، ولكنه لم يوفق فى مسعاه هذه المرة ، نظراً لقيام التهادن والسلم بين الموحدين وبين مملكة قشتالة .

ولما انتهى المنصور من النظر فى سائر الشئون ، أصدر أوامره بالتأهب للعودة إلى حضرة مراكش . ثم غادر إشبيلية فى أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ (أواخر مارس سنة ١١٩٨ م) وعبر البحر فى غرة جمادى الثانية ، وقصد أولا إلى فاس ، فأقام بها نحو عشرين يوماً طلباً للراحة والاستجمام ، ثم غادرها إلى الحضرة ، فدخلها فى شعبان سنة ٥٩٤ هـ .

استقر المنصور فى حاضرته ، وهو متعب منهوك القوى ، من جراء ما اضطلع به من الغزوات والأعمال مدى أربعة أعوام متوالية . وكان أول ما عنى به هو أخذ البيعة لولده أبى عبد الله محمد الملقب بالناصر ، وكان قد اختاره لولاية عهده ، حينما اشتد به المرض فى سنة ٥٨٧ هـ ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فبايعه سائر أشياخ الموحدين ، وأخذت له البيعة فى سائر القواعد والجهات .

وكانت تصرفات الخليفة فى هذه الفترة الأخيرة من حياته ، تصطبغ بنوع من التقى والورع . فمن ذلك أنه أمر أن يجمع الأطفال الأيتام ، وأن يختنوا ، وأمر لكل منهم بثوب ودينار من الذهب ودرهم من الفضة وحبة من الفاكهة ، توضع فى يده تخفيفاً لألمه . ويقول لنا المراكشى إن هذا الموسم لتختين اليتامى كان يقام كل عام[2] .

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . ويقول المراكشى إن الهدنة عقدت بين الموحدين وملك قشتالة لمدة عشر سنين (المعجب ص ١٦٠) .

(٢) المعجب ص ١٦٢ .

ومن ذلك أنه أمر بتمييز اليهود بلباس خاص : ونحن نعرف أن السياسة الموحدية ، كانت منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، تجرى نحو الذميين على قاعدة التزمت وعدم التسامح ، وأن عبد المؤمن ، أمر فى أواخر عهده بأن يعتنق النصارى واليهود والإسلام ، أو يغادروا الأراضى الموحدية ، وقرر الموت عقوبة للمخالفين . ولكن السياسة الموحدية جنحت من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح ، فترك النصارى واليهود أحراراً يعيشون فى البلاد الموحدية . وكانت النظرة إلى اليهود دائماً أكثر تزمتاً وشدة منها إلى النصارى . وكان الذى حدا بالمنصور إلى تمييز لباسهم ، هو أنهم ازدهروا فى عهده وتشبهوا بالمسلمين فى اللباس ، وشاركوهم فى مظاهرهم وأساليب حياتهم ، فرأى أن يفرض عليهم لباساً خاصاً يميزهم عن المسلمين . وكان هذا الزى عبارةعن قميص أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع ، وبرنس أزرق ذو أكمام مفرطة السعة والطول ، وقلنسوة زرقاء يضعونها على الرأس مكان العمامة ، تصل إلى الأذنين . ويقول لنا المراكشى إن الذى حمل المنصور على هذا التصرف إزاء اليهود ، هو شكه فى إسلامهم ، وأنه كان يقول لو صح عندى إسلامهم ، لتركتهم يختلطون بالمسلمين فى سائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، لكنى متردد فى أمرهم ، وهم يظهرون الإسلام ، ويغشون المساجد ، والله أعلم بما تكن وصدرهم . وصدر قرار المنصور بتمييز اليهود فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ . وقد نظم ابن نغرالة زعيم اليهود المغاربة يومئذ ، وهو فيما يبدو سليل أسرة بنى نغرالة أو بنى النغريلى التى ازدهرت فى غرناطة أيام باديس بن حبوس ، أرجوزة يتهكم فيها على هذا القرار ، ومافرضه من اللباس الأزرق ، ويواسى مواطنيه اليهود ، هذا مطلعها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خسارا ... فافهموا يا قوم هذه الإشارا

ولما تولى الخلافة أبو عبدالله محمد الناصر لدين الله ولد المنصور ، استغاث به اليهود ، واستشفعوا لديه بكل من استطاعوا لإقالتهم من هذا الزى المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية عهد الموحدين[1] .

---

(١) المعجب ص ١٧٣ — والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، ودائرة المعارف اليهودية : Vol. I. p. 483 .

- ٣ -

ولم يمض قليل على ذلك حتى مرض المنصور مرضه الأخير ، وكان قد انتقل من الحضرة إلى ضاحية الصالحة المالكية التى كان قد أنشأها فى بداية عهده ، ولما شعر بخطورة مرضه ، ودنو أجله ، استدعى شيوخ الموحدين ، ووجوه أهل بيته ، وأعيان بلاطه . وقد وصف لنا صاحب البيان المغرب ، ما وقع فى هذا المجلس الأخير للخليفة الراحل ، وما أوصى به أشياخ دولته وأهل بيته ، فقال إنه لما استقر المجلس بالحضور ، اتجه الخليفة إليهم ببصره ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ، فسألهم عن أحوالهم وأعمالهم ، ثم قال : « أيها الناس رحمكم الله ، إن هذه العلل والأمراض قد توالت علينا ، وهدت قوانا ، وهتكت جوارحنا ، وأظن والله أعلم بغيبه أن هذه العلة هى آخر عهدنا بهذه الدنيا ، وأنها القاضية علينا ، فانظروا رحمكم الله ، وأعانكم على طاعته ، من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين » .

قال ، فغلب البكاء على الحاضرين ، وتكلم أبو موسى بن محمد بن الشيخ أبى حفص بن على ، وقال «كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تخرسنا بهذا القول ، أنتم أمير المؤمنين ، فإن توفيتم فإلى رحمة الله تعالى ، والجميع صائرون ومنقلبون إلى ما تصيرون إليه ، وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل أبى عبد الله ابنكم ، فنحن باقون عليه ، إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم ، وهو خليفتكم علينا بعدكم » .

ثم تعاقب الحضور فى الكلام ، وأبدى الخليفة لهم قلقه لصغر سن ولده ، وطلب إليهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال ، فيما انعقدت عليه النية ، وأن يتولوه بمعونتهم ، ولايتركوه لرأيه ، حتى ينتبه ، ويكمل عقله . ثم التفت إلى السيد أبى الحسن ، وأخيه السيد أبى زيد ، ابنى السيد أبى حفص . وقال إنهما لخير هذا البيت ، وإنه قدمهما على الإخوان ، وعلى البلاد ، فليكونا على ما عهد منهما ، وعلى ما ربط لهما من قبل .

ثم أوصى الخليفة الحاضرين بالسادات ، وبعض الأشياخ ، وخص منهم بالذكر الشيخ أبا زكريا ، وأبا محمد عبد الواحد ، وأن يعتبر هذان الشيخان مستشارين لولده محمد ، لايصدر إلا عن رأيهما ومشورتهما :

وقال الخليفة للحضور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وبالأيتام واليتيمة . فسأله الشيخ أبو محمد عبدالواحد ، يا سيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس . والأيتام سكانها المسلمون ، وإياكم الغفلة فيا يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها، وتربية أجنادها وتوفير رعيتها ، ولتعلموا أنه ليس فى نفوسنا أعظم من همها ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا من المسلمين . وأجروا الشرائع على مناهجها .

وأوصى الخليفة أخيراً بالأغزاز (الغز) ومنحهم البركة التى أمر بها ، كما أوصى بملاطفة العرب والإحسان إليهم ، وشغلهم بالحركات ، وعدم تركهم للعطلة والراحة . وأوصى بطلبة الحضر ، وأن يكون لهم موضع خاص يشتغلون فيه بالمذاكرة . وأوصى أخيراً ببعض أصحاب المناصب، والعمال الذين أولاهم ثقته .

واختتم المنصور حديثه بالتوصية بقبائل الموحدين ووجوب مزاورتهم ، وسماهم قبيلا بعد قبيل . وكرر حديثه إلى الأشياخ بأن يحفظوا الأمانة التى ألقيت إلى أعناقهم ، وأن يجروا الشرائع على سننها ، وأن يحرصوا على اجتناب الباطل . ثم دعا للناس ، وانفض المجلس ، وانصرف الموحدون ، وكان هذا آخر العهد به[1].

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لما اشتد به المرض ، وشعر بدنو أجله ، قال لمن كان حوله من الأشياخ ، ما ندمت على شىء فعلته فى خلافتى ، إلا على ثلاث ، وددت أنى لم أفعلها ، أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأنى أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه من بيت المال ، وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولابد لهم أن يطلبوا بثأرهم[2] .

وفى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، توفى الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بقصره بالصالحة[3].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٦ — ٢٠٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢ .

(٣) ويقول لنا صاحب روض القرطاس إنه توفى بقصبة مراكش (ص ١٥٢) وفى رواية أنه توفى فى غرة جمادى الأولى سنة ٥٩٥ ، وفى أخرى أنه توفى غرة صفر (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١) ويقول ابن الأثير إنه توفى ثامن عشر ربيع الآخر ، وأن وفاته كانت بمدينة سلا (ج ١٢ ص ٥٧) .

ودفن موقتا بمجلسه بالقصر ، وكتمت وفاته حيناً ، ثم نقل رفاته إلى تينملل ، ودفن بها ، وثارت حول اختفائه بعض الروايات والأساطير ، فزعم البعض أنه ترك الملك وأضحى مرابطاً بالأندلس ، وزعم آخرون أنه تزهد وساح فى البلاد ، وقصد المشرق ومات خاملا ، ودفن بالشام ، إلى غير ذلك(١) .

وبوفاة المنصور يختتم عهد من ألمع عهود الدولة الموحدية :

— ٤ —

كان الخليفة يعقوب المنصور أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، إذا استثنينا جده عبد المؤمن ، مؤسس الدولة وموطد دعائمها . وفى ظله بلغت الدولة الموحدية أوج قوتها وعظمتها ، وظهرت على يديه روعة الملك وفخامته ، فى أبهى حللها .

ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « نجم بنى عبد المؤمن » وهى كلمة قوية جامعة(٢) .

وتشيد الرواية الإسلامية بخلال المنصور ، وتفيض فى استعراض مآثره ، وامتداح تصرفاته وسياسته ، سواء من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية ، وتشيد بنوع خاص بغيرته فى الجهاد ، وتفانيه فى الذود عن قضية الإسلام بالأندلس ، ومن ثم كانت عنايته بتنظيم الجيش وتنميته ، وشحنه بالفرق الحديدة من الفرسان والرجالة ، وتزويده بموفور العتاد والسلاح ، والإنفاق عليه بسعة وسخاء ، وإعداده للجهاد بصفة مستمرة . وكان يعنى بتوفير أرزاق الجند ، ومنحها فى مواعيدها المقررة . وكان نظام العطاء فى الجيش ، أن يمنح الجند الموحدون العطاء ، (الحامكية) ثلاث مرات فى العام بصورة منتظمة ، مرة فى كل أربعة أشهر ، ويمنح الجند الغز أو الأغزاز ، وكذلك العرب عطاءهم كل شهر . وكان رأى المنصور فى اختصاص الأجناد الغز والعرب بهذه المزية ، هو أن الموحدين من أهل البلاد الأصليين ولهم بها الإقطاع والأموال الكثيرة . أما الغز والعرب ، فهم غرباء لاشىء لهم فى البلاد يعتمدون عليه سوى هذا العطاء الرسمى المنظم(٣) . وكان لهذه العناية بتوفير أعطية الجيش أثرها القوى فى رفع همم الجند ، وشحذ

---

(١) البيان المغرب ص ٢١١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١ .

(٢) ابن الخطيب فى الإحاطة فى ترجمة أبى يعقوب يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف الذكر — لوحة ٣٩٥) .

(٣) المراكشى فى المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٨ .

الرغبة فى الجهاد . والواقع أن الجهاد هو ألمع ما فى حياة المنصور العامة ، وقد أسبغت عليه غزواته الموفقة للمالك النصرانية فى شبه الجزيرة ، ولاسيما انتصاره الباهر فى موقعه الأرك ، على شخصه وعلى جهاده ، هالة من العظمة والجلال غلبت على كل خلاله ومناقبه الأخرى .

وقد رأينا المنصور منذ بداية حكمه ملكاً حازماً ، يعمل على إقامة العدل وتوطيد أسسه ، والنظر فى الأحكام بنفسه ، ومراقبة أعمال الولاية والعمال ، ومحاسبتهم ، ومطاردة من ينحرف منهم عن جادة الحق والعدل وعزلهم ، ثم رأيناه ملكاً مصلحاً ، يضطرم بروح إنشائية قوية ، ويعنى بإقامة المنشآت العظيمة ، من مدن وحصون وجوامع وغيرها ، سواء بالمغرب أوالأندلس .

وأول ما تشيد به الرواية من صفات المنصور هو ورعه وتقواه ، والتزامه أحكام الشريعة وسننها ، ومحاولة تطبيقها على حقيقتها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإقامة الحدود ، حتى فى أهله ، وعشيرته الأقربين ، وكان مثل جده عبد المؤمن يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، ويأمر بالمناداة عليها ، ويعاقب على تركها ، وكان يشتد كذلك فى إقامة الحدود ، ويذهب فى ذلك أحياناً إلى حدود بعيدة ، حتى قيل إنه عاقب على شرب الخمر بالقتل ، وأمر بقتل بعض العمال الذين تشكو الرعية منهم[1] .

وقد كان للمنصور من الناحية الدينية موقف خاص، يمكن أن يوصف بأنه انقلاب فى ميدان المذهب والعقيدة فى الدولة الموحدية ، فهو أولا قد طارد علم الفروع ، أعنى دراسة تفاصيل العبادات والمعاملات . وأمر بإحراق كتب المذهب المالكى فى سائر البلاد مثل مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب ، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الرأى والخوض فيه ، وأنذر من يفعل ذلك بشديد العقاب ، وأمر جماعة من العلماء المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة فى الصلاة ومايتعلق بها على نحو المجموعة التى جمعها ابن تومرت فى الطهارة ، وذاع هذا المجموع فى المغرب ، وأقبل الناس على حفظه . وكان قصد المنصور من ذلك أن يمحو

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٨ ، و٤٣٣ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ .

مذهب مالك وأن يزيله من المغرب[1]. وكان المنصور أيضاً من أشد دعاة المذهب الظاهرى ، وهذا المذهب الذى اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، يرجع إلى القرن الثالث ، ومؤسسه هو خلف بن داود الأصفهانى المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وقد وضع أسسه فى نحو منتصف القرن الثالث ، وخلاصتها أنه يجب فى صوغ أحكام الشريعة أن يُرجع فقط إلى ظاهر القرآن والسنة أى الحديث ، وألا يُؤخذ فى ذلك بالرأى أو القياس ، وأن يبقى الإجماع محصوراً فى إجماع صحابة رسول الله . ويبدى ابن حزم إمام المذهب الظاهرى بالأندلس تشدداً فى تطبيقه على العقائد ، وهو لا يأخذ فى تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين فى صوغ الأحكام . وقد حمل الخليفة المنصور الناس على اعتناق المذهب الظاهرى ، والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . وكان المنصور يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية فى المسألة الواحدة ، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهرى يحسم كثيراً من هذه الخلافات . ونستطيع القول إن المذهب الظاهرى ، غدا هو المذهب الرسمى فى عهد المنصور ، وعظم أمر الظاهرية ، وانتشروا بالمغرب ، وكانوا يسمون بالحزمية نسبة إلى الفيلسوف ابن حزم عميد المذهب . وكان المنصور يبجل ابن حزم ، ويرتفع به وبعلمه إلى أسمى مكانة . ومما يذكر فى هذا الصدد ، ما يروى ، من أن المنصور ، مر فى عودته من غزوه لأراضى البرتغال فى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، بشمال مدينة ولبة ، حيث توجد قرية منت ليشم ، وهى بلد بنى حزم ، وبها قبر العلامة ابن حزم ، فوقف المنصور على قبره ، وهو يقول عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ؛ ثم قال « إن كل العلماء عيال على ابن حزم »[2] . ويقول لنا ابن الأثير إن المنصور عين فى أواخر أيامه قضاة من الشافعية . وقد كان الجنوح إلى مذهب الظاهرية ، فيما يذكر لنا المراكشى من صفات أبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وجده الخليفة الفقيه العالم عبد المؤمن بن على ، إلا أنهما لم يفصحا عن هذا الاتجاه بشكل ظاهر ،

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ ، والتكلة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٣ . وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ ، والنويرى طبعة جسبار ريميرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٢٧٧ .

(٢) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٦٢ . ومازالت هذه القرية التى دفن بها العلامة الأندلسى الكبير ، قائمة حتى يومنا ، وهى تسمى اليوم باسمها الحديث « كاسا مونتيخو Casa Montejo » .

إذ كانت الدولة الموحدية ما تزال فى بدايتها ، وكانت عقيدة التوحيد تعلو على كل ما عداها . وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث فى عهد المنصور ، وحظى طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية[١] .

ومن جهة أخرى فإنه يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن المنصور لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامة المهدى ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، وهو اتجاه تبلور فيما بعد ، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية[٢] .

ومما يتصل بتقى المنصور ، وورعه ، وحماسته الدينية ، ما ينسب إليه من أنه كان ينوى افتتاح مصر ، وضمها إلى الإمبراطورية الموحدية ، لأنها كانت فى نظر الموحدين بلداً يجنح إلى البدع ، وتشيع فيه المنكرات : وقد نوه بمشروع المنصور هذا نحو مصر ، غير واحد من المؤرخين والرواة . فيقول لنا المراكشى ، وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه عن غير واحد « أن المنصور صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول ، نحن إنشاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات »[٣] . ويفيض الرحالة ابن جبير ، وهو أيضاً معاصر المنصور ، فى رحلته ، فى الكلام عن هذه النية الموحدية فى غزو مصر ، وصداها فى مصر ذاتها ، ويبدأ حديثه بالحملة على أحوال البلاد المشرقية ، ولاسيما ما يقع ببلاد الحجاز من ظلم الحجاج وانتهاب أموالهم ، ويعرب عن أمله فى أن تُقمع هذه البدع المجحفة بالمسلمين « بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين فى إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته » .

ثم يقول ابن جبير فى التنديد بأحوال المشرق وضعف إسلامه : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة لابنيات فيها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرقة ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ، كما أنه لاعدل ولا حق ولا دين على وجهه ، إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم أئمة العدل فى هذا الزمان ، وكل من سواهم من الملوك فى هذا الأوان ، فعلى غير

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ .
(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٦٤ .
(٣) المعجب ص ١٦٠ .

الطريقة ، يُعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلها ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق » .

وأهم من ذلك ما ينوه ابن جبير من صدى الدعوة الموحدية بمصر ، وانتشارها بصورة تدعو إلى الدهشة ، ومن أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدى بعضهم ، وأنذرت بأشياء من الكوائن . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صبحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لايمترون فى إنجاز وعدها . شاهدنا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواهما مشافهة وسماعا ، أمراً غريباً ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصدق . ونُمى إلينا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة وزعمائها ، قد حبّر خطباً أعدها للقيام بين يدى سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير »[1] .

ونستطيع أن نربط بين هذه الأقوال التى يصف فيها ابن جبير صدى الدعوة الموحدية بمصر خلال مروره بها فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أعنى قبيل عهد المنصور بقليل ، وبين ما ذكره أبو القاسم المؤمن المصرى فى كتابه المسمى « بالأنساب فى معرفة الأصحاب » ، ونقله البيذق ، عن أصحاب المهدى بمصر ، فقد ذكر لنا من هؤلاء واحداً وخمسين رجلا بأسمائهم ، وقال إنهم كانوا من أعيان بلادهم « وإنهم كانوا سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به ، مختارين صحبته ، مؤثرين لحقه ، معظمين لحرمته »[2] .

ويستخلص مما تقدم ، ومن أقوال ابن جبير خاصة ، أنه كانت توجد ثمة فكرة موحدية لغزو مصر ، وأن هذه الفكرة ترجع إلى ما قبل عهد المنصور ، وأنها ربما تبلورت فى عهد المنصور ، واتخذت طابعاً قوياً ، وذلك لما أبداه

---

(١) رحلة ابن جبير (المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار – القاهرة سنة ١٩٥٥) ص ٥٣ و ٥٤ .

(٢) نقله البيذق فى « أخبار المهدى ابن تومرت » ص ٣٠ – ٣٢ .

المنصور من عزم وضخامة فى أهباته العسكرية ، وما وفق إليه من انتصارات باهرة ضد النصارى فى شبه الجزيرة الإسبانية، ولاسيما فى معركة الأرك العظيمة . وربما كان من بواعث هذه الفكرة ومشجعاتها ، مثل الفاطميين ، الذين ساروا من المغرب ، قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وغزوا مصر ، واستولوا عليها بأيسر أمر . ولكن شتان بين العصرين ، وشتان بين ماكانت عليه مصر وقت الفتح الفاطمى ، وماكانت عليه أيام الخليفة المنصور . بيد أننا لانستطيع مع ذلك ، أن نعتقد أن الموحدين كانوا يحتضنون مشروع غزو مصر بصورة جدية . وأكبر الظن أنها ربما كانت أمنية ، وربما كانت مُثُل هذه الأمنية ترجع إلى عصر المهدى ذاته ، فقد رأينا المهدى أثناء مقامه بثغر الإسكندرية يغضب لما رآه فيها من « البدع » ثم يقوم بها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى قيل بأنه خرج منها منفيا ، لما ترتب على دعايته من الشغب . بل قيل أكثر من ذلك ، وهو أن المهدى قال ذات يوم لبعض أصحابه فيما قال ووعدهم به ، وكانوا يجلسون تحت شجرة الخروب المواجهة لمسجد تينملل : « ليبصرنّ منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر ، مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها »[1] كذلك يلوح لنا أن ما يذكره ابن جبير عن انتشار فكرة الغزو الموحدى بمصر ، وماكان يهمس به الناس من ذلك الأمر ، إنما هو مبالغة ترجع إلى ولاء ابن جبير للدولة الموحدية ، التى خدم فى ظلالها وتمتع برعايتها ، والأغلب أن ابن جبير تلقى أخباره من بعض الغلاة الهائمين من أتباع المهدى وأنصاره بمصر ، فصورها على أنها تعبر عن اتجاه أغلبية الأمة المصرية ، وهو مايعتبر فى نظرنا من ضروب الوهم المغرق .

ولاشك أن الموحدين ، وفى مقدمتهم الخليفة المنصور ، كانوا يعرفون ماكانت عليه قوة مصر فى ذلك العهد ، التى نعمت فيه بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وما أحرزته بقواتها العسكرية الضخمة البرية والبحرية ، من انتصارات باهرة على الصليبيين ، فلم يكن من المعقول أن يفكروا فى غزو مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، التى تحطمت على صخرة قوتها الراسخة حملات الصليبيين المتوالية ؛ ومن جهة أخرى ، فإن قصور الموحدين فى هذا الوقت بالذات عن القضاء على ثورة بنى غانية فى إفريقية بصورة حاسمة ، واستمرار هذه الثورة العتيدة ، أيام المنصور ومن بعده أعواما طويلة ، يقطع بأن فكرة

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٦٤ .

غزو مصر، إن كانت ، لم تكن لدى الموحدين سوى أمنية خيالية بعيدة المنال :

وكان المنصور عالما مستنيراً ، متقناً للحديث والفقه واللغة ، مشاركاً فى كثير من العلوم ، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وقد أشرنا من قبل إلى شغفه بالجدل والمناقشات الفلسفية ، وما كان يعقده من مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء الفيلسوف ابن رشد : وقد كانت نكبة الفيلسوف العظيم ونفيه إلى اليسّانة من سقطاته البارزة ، ولكن كان متأثراً فى ذلك بضغط الفقهاء والطلبة الموحدين . وكان المنصور يعنى بأمر طلبة العلم أعنى علم الحديث، أعظم عناية ، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده . وكان الموحدون يتبرمون بالطلبة، وينقمون عليهم خظوتهم ونفوذهم لدى الخليفة ، حتى اضطر المنصور ذات يوم ، أن يصرح أمام سائر الموحدين ، وقد بلغه موقفهم من الطلبه ، « يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيله، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سواى ، فمهما نابهم أمر ، فأنا ملجؤهم ، وإلىّ فزعهم ، وإلىّ ينتسبون » . يقول المراكشى ، فعظم من ذلك اليوم أمر الطلبة ، وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم[1] .

وكان المنصور أديباً فصيحاً ، جزل الألفاظ ، وكان يجتمع حوله شعراء العصر من العدوتين ، المغرب والأندلس ، يصغى إلى مدائحهم ، ويغمرهم بصلاته ، وقد وضع له شاعره الأثير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر[2] . وانتشر هذا الديوان بين أهل المغرب انتشاراً عظيما ، وكان لديهم ككتاب الحماسة لأبى تمام عند أهل المشرق ، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى قصائد الجراوى ومدائحه للمنصور ، وأبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف ، فى مختلف المناسبات : وكان من شعراء دولته أيضا أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مُجْبَر المرسى الأندلسى ، وقد أشرنا إلى مدائحه كذلك من قبل غير مرة ، وقد ذكر لنا ابن خلكان أن مدائح ابن مُجبر للمنصور جمعت فى ديوان ، وأورد لنا منها قصيدة رقيقة فى مطلعها :

أتراه يترك الغــزلا وعليه شب واكتهــلا

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٢ .

كلف بالغيد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا

وإلى جانب هذه الصفات العلمية والأدبية اللامعة ، كان المنصور جواداً ، وافر البذل ، كثير الصدقات ، وكان يقدر قيمة البذل فى أسر النفوس وترويضها ، وكان يؤثر بصلاته الوفيرة أجناد الغز (الأغزاز) والعرب الذين ينضمون لجيشه ، استبقاء وتأكيداً لولائهم(١).

هذا وإما عن كفاية المنصور ومواهبه الإدارية والإنشائية ، فلدينا من ذلك تفاصيل عديدة . فقد كان المنصور فى الواقع من أقدر الخلفاء الموحدين فى فهم شئون الدولة الإدارية وتنظيمها ، وكانت ولايته لوزارة أبيه مدرسة درس فيها هذه الشئون خير دراسة . وفيها « بحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور »(٢) . وقد رأيناه سواء فى المغرب أوالأندلس يعكف على معالجة شئون الدولة بهمة ، ويتقصى شئون الولاة والعمال . وكان يولى شئون الأندلس فى ذلك عناية خاصة ، فى كل مرة يعبر فيها إلى شبه الجزيرة ، يعنى إلى جانب أهباته للغزو ، بتنظيم شئونها الداخلية ، وفى سنة ٥٩٢ هـ ، نراه بعد ظفره فى معركة الأرك ، يعنى خلال إقامته بإشبيلية ، بمطاردة العمال المقصرين والمختلسين ومحاسبتهم ، واستصفاء أموالهم ، كما يعنى بتعيين غيرهم من الحائزين لثقته . ثم هو فى نفس الوقت يولى شئون الدولة المالية اهتماماً خاصاً ، ويندب لأعمال الجباية رجالا من ذوى الأمانة والنزاهة . وكان من أهم مافعله المنصور فى باب السياسة المالية ، هو تغييره للدينار الموحدى ، ومضاعفته لوزنه ، حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

وكذلك أبدى المنصور همة ظاهرة فى إقامة المنشآت العمرانية العظيمة ، فأنشأ لأول عهده ضاحية الصالحة الملوكية فى جنوبى مراكش ، فوق البسيط الممتد بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فجاء إنشاؤها دليلا على ماكانت تجيش به نفسه من إظهار أبهة الملك وروعته ، على مثل ماكان عليه خلفاء الأندلس ، وعنى بتوسيع مدينة رباط الفتح ، التى كان قد اختطها جده فأبوه وتجديد قصبتها ، وإتمام أسوارها وأبوابها ، واستكمال أحيائها ومبانيها . وأنشأ

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، ونقله ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

بها مسجداً عظيما واسع الفناء ، يقول المراكشي بأنه كان أكبر مسجد فى المغرب ، وأنشأ له صومعة متناهية فى العلو « على هيئة منار الإسكندرية » يُصعد إليها بغير درج . ولكن هذا المسجد لم يتم إذ انقطع العمل فيه بوفاة المنصور[1] . ونزيد نحن على ذلك بأن معالم المسجد المشار إليه ، وقواعد أعمدته مازالت قائمة فى مكانها ، تدل على عظم مساحته ، وما زالت صومعته الشاهقة التى لم يكمل بناؤها قائمة فى مكانها ، على مقربة من شاطئ المحيط ، وهى التى تعرف اليوم بمنارة حسّان (تورحسان) ، وهى على نمط صومعة جامع إشبيلية الشهيرة (لاخيرالدا)[1] . بيد أن أهم منشآت المنصور فى الحاضرة الموحدية — مراكش — كان هو البيمارستان (المستشفى) العظيم ، الذى كان أول صرح من نوعه حظيت به مراكش . وقد اختار لإقامته ساحة شاسعة ، وعنى بتخطيطه وبنائه أعظم عناية ، وغرست من حوله الحدائق ، وأجريت المياه إلى سائر أجنحته ، وزود بنفيس الأثاث والرياش ، ومختلف صنوف الأدوية ، وعين له رهط من مهرة الصيادلة لإعداد الأدوية على اختلاف أصنافها ، ورصدت الأموال اللازمة للإنفاق على المرضى ، وإطعامهم وكسائهم ، وكان المريض الفقير إذا تم شفاؤه ، زُود عند خروجه بمال يعيش منه حتى يرزق بعمل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وتُرك وشأنه ، وكان يؤم هذا المستشفى الكبير سائر المرضى من المحليين والغرباء ، وكان المنصور يركب إليه فى كل جمعة بعد الصلاة ، ويعود المرضى ، ويسأل عن أحوالهم وحاجاتهم ، وكانت هذه المأثرة الإنسانية من أعظم مآثر المنصور وأخلدها[2] .

وأما عن منشآته بالأندلس فقد أشرنا إلى ماكان من إنشائه لحصن الفرج خارج مدينة إشبيلية ، وإنشاء قصوره وقبابه ، ثم إتمامه لصومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وهى التى كان أبوه قد أمر بإنشائها ، ولم تكمل فى عهده ، فقام المنصور على إتمامها ، وتزويدها بتفافيحها الذهبية حسبما أشرنا إليه فى موضعه . وأنشأ المنصور فى نفس الوقت بمدينة مراكش منارة الكُتبية العظيمة على نسق صومعة جامع إشبيلية ، كما أنشأ بمدينة الرباط صومعة مسجدها على نفس الطراز ، وهى منارة حسّان التى لم يكمل بناؤها ، حسبما تقدم . وقيل فى شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها فى عهد جده الخليفة عبد المؤمن ، وقام هو بالعمل على إتمامها ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٦٢ .

وطبقاً لهذه الرواية تكون منارة الكتيبة سابقة على صومعة إشبيلية ، وتكون هى أم هذا الطراز من الصوامع الموحدية ، وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتبية فى سنة ٥٩٤ هـ ، قبيل وفاة المنصور بقليل(١) .

ووزر للخليفة المنصور فى بداية أمره أخوه السيد أبوعبد الله . ثم خلفه فى الوزارة أبو حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى ، ولما توفى خلفه أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الله بن أبى حفص عمر الكبير ، واستمر فى منصبه إلى أن قُتل فى موقعة الأرك وهو يقود الصفوف . فتولى الوزارة من بعده أبو عبدالله محمد بن أبى بكر ابن الشيخ أبى حفص ، وهو ابن عم أبى يحيى الشهيد المتقدم الذكر ، ولكنه لم يلبث فى الوزارة سوى أيام يسيرة ، ثم تركها مختاراً وهام على وجهه فى بعض نواحى إشبيلية ، وتزهد ، فأرسل الخليفة إليه من استرده وأعفاه من الوزارة ، وخلفه فى الوزارة أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجّان الهنتاتى ، فلم يزل فى منصبه حتى توفى الخليفة المنصور ، فتولى الوزارة بتوصية الخليفة ، لابنه محمد الناصر مدى حين(٢) .

وكتب للمنصور عدة من أكابر الكتاب منهم أبو الفضل جعفر ابن محشرة من أهل مدينة بجاية ، وكان تلميذاً لأبى القاسم القالمى ، كاتب أبيه الخليفة أبى يعقوب ، وكان كاتبا مجيداً ، بارع الأسلوب ، واسع الرواية غزير الحفظ ، تشهد له بذلك رسائله العديدة التى انتهت إلينا ، واستمر فى منصب الكتابة حتى توفى . فكتب من بعده للمنصور أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عياش ، وهو أندلسى من أهل بُرْشانة من أعمال ألمرية ، واستمر فى منصبه حتى توفى المنصور ، فكتب من بعده حيناً لابنه محمد الناصر ، ثم لحفيده يوسف. وكان من ألمع كتاب الدولة الموحدية وأبرعهم أسلوباً . وقد انتهت إلينا كذلك عدة من رسائله الصادرة عن الخليفة المنصور ، ومنها الرسالة التى وضعها فى اتهام ابن رشد وزملائه بالخروج على شريعة الإسلام ، وكلها تشهد بروعة بيانه(٣) .

---

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، والحلل الموشية ص ١٢١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص٢٠٩ .

(٣) راجع فى مجموعة الرسائل الموحدية الرسالة السادسة والعشرين إلى الرسالة الرابعة والثلاثين وهى جميعها من إنشاء ابن محشرة ، وراجع الرسائل الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وهى من إنشاء ابى عبد الله بن عياش .

وتولى القضاء فى عهد المنصور ، أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة ، وكان يتولاه من قبل فى عهد أبيه الخليفة أبى يعقوب ، ولما توفى خلفه فى القضاء أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل وهران ، ثم عُزل وتولى القضاء من بعده أبو القاسم أحمد بن محمد من ولد بقى بن مخلد فقيه الأندلس الأشهر ، واستمر فى منصبه حتى وفاة المنصور ، ووقتا من عهد ولده محمد الناصر(١).

وترك المنصور من الولد ستة عشر من الذكور ، هم محمد ولى عهده والخليفة من بعده ، وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين . وقد تولى الخلافة منهم غير محمد ، اثنان آخران هما أبو محمد عبد الله العادل ، وأبو العلاء إدريس المأمون . وترك المنصور كذلك عدة من البنات .

هذا ، وأما عن شخص الخليفة يعقوب المنصور ، فقد وصفته الرواية المعاصرة ، بأنه كان شديد السمرة ، طويل القامة ، جميل المحيا ، أعين ، أفوه ، أقنى الأنف ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ(٢) .

تلك هى مآثر الخليفة الموحدى ، الظافر فى معركة الأرك العظيمة ، وتلك هى صفاته وخلاله الوضاءة اللامعة .

---

(١) المعجب ص ١٤٩ .
(٢) المعجب ص ١٤٧ و ١٤٨ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

الفصل الخامس

عصر الخليفة محمد الناصر

جلوس الخليفة محمد الناصر . وزيره ومستشاروه . أعماله الأولى . أحوال إفريقية . استيلاء يحيى ابن غانية على قابس . ابن عبدالكريم وظهوره . خلافه مع والى المهدية . القبض عليه ثم إطلاق سراحه . استيلاؤه على المهدية واستبداده بها . مسيره لغزو تونس . اشتباكه مع الموحدين وهزيمتهم . لومه وعوده إلى المهدية . الخلاف بينه وبين يحيى الميورقى . استيلاؤه على قفصة . اشتباكه مع الميورقى . هزيمته والتجاؤه إلى المهدية . محاصرة الميورقى له . تسليمه للمهدية . قبض الميورقى عليه هو وولده ثم اغتيالها . امتداد سلطان يحيى إلى معظم أنحاء إفريقية . سيره إلى باجة واقتحامها . مسير الموحدين لقتاله . هزيمة الموحدين وسقوط محلتهم . مسير يحيى إلى بسكره واقتحامها . عوده إلى المهدية . قلق البلاط الموحدى لحوادث إفريقية . تجهيز حملة كبيرة لقتال الميورقى وتوقفها . ثورة أبى قصبة ببلاد السوس . مسير الموحدين لقتاله . هزيمة الدعى ومقتله . وقوع السيل العظيم بإشبيلية . تأهب الموحدين لافتتاح الجزائر الشرقية . عبد الله بن إسحاق حاكم الجزائر . مسالمته للدول النصرانية وتعاونه معها . انتزاعه لمدينة ميورقة من الموحدين . إعداد الحملة الموحدية لافتتاح الجزائر . خروجها من دانية إلى يابسة ثم إلى ميورقة . استيلاء السفن الموحدية على منورقة . نزول الموحدين فى ميورقة . القتال بينهم وبين عبد الله بن إسحاق . هزيمة عبد الله ومقتله . اقتحام الموحدين لمدينة ميورقة وافتتاحها . تعيين ابن طاع الله الكومى لولايتها . صدى هذا الفتح فى أراجون والدول النصرانية الأخرى . تأثيره فى خطط يحيى بن إسحاق . عزم يحيى على فتح تونس . مسيره إليها فى قواته . قطع اتصالها بالبحر ومحاصرتها . اقتحام يحيى لها . قبضه على واليها السيد أبى زيد وأولاده وأشياخ الموحدين . يحيى يفرض غرامة فادحة على تونس . خروجه إلى جبل نفوسة وتغريم أهله . وقع سقوط تونس فى بلاط مراكش . الناصر يعين ولاة الأندلس . عزمه على سحق الميورقى . مسير الحملة الموحدية والأسطول الموحدى إلى إفريقية . حركات يحيى بن إسحاق فى الجنوب . وصول الأسطول الموحدى . وصول الحملة الموحدية بقيادة الناصر . عودة يحيى إلى تونس . إرساله لأمواله وذخائره إلى المهدية . إخلاؤه لتونس ومسيره فى قواته إلى قفصة . احتلال الموحدين لتونس . مسير الحملة الموحدية فى أثر الميورقى . تحصن الميورقى بجبل دمر . تحصينه للمهدية . مسير الناصر لمحاصرة المهدية . مسير حملة موحدية بقيادة الشيخ أبى حفص إلى جبل دمر . معركة دموية فى رأس تاجرا . هزيمة الميورقى ومقتل أصحابه . فراره فى فلوله . إنقاذ السيد أبى زيد وصحبه . اشتداد المقاومة بالمهدية والمعارك المستمرة . طلب الغازى حاكم المهدية التسليم بالأمان . موافقة الناصر . خروجه من المهدية مع صحبه . دخوله فى طاعة الموحدين . سحق بنى غانية وتحرير إفريقية . مثل بنى غانية فى محاربة الموحدين . تحولها إلى مغامرة فى سبيل السلطان والثراء . مثالب حكومة الميورقى وأساليبها الهمجية . بغض المحكومين لها . التجاء يحيى الميورقى إلى الصحراء الجنوبية . مطاردة الموحدين لطوائف المفسدين . تعيين الشيخ ابن محمد عبد الواحد لولاية إفريقية . اعتذاره وشروطه للقبول . موافقة الناصر ومغادرته لتونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى فاس . أعماله ومطاردته لعاملى فاس ومكناسة .

مسيره إلى رباط الفتح ثم إلى مراكش . نظره فى الأعمال السلطانية ومراجعته لأعمال العمال . وفاة السيد أبى الربيع والى بجاية . تعيين السيد أبى عمران موسى والياً لتلمسان . عود يحيى الميورقى إلى الحركة . تحول بعض طوائف العرب عن مخالفته إلى الموحدين . مسير يحيى إلى الشمال . خروج الشيخ أبى محمد إلى لقائه . معركة تبيشة . هزيمة الميورقى وفراره . جمعه لقواته ومسيره غرباً صوب واحات سجلماسة . اقتحامه لسجلماسة ونهبها . اهتمام الموحدين فى إفريقية ومراكش . عوده صوب تلمسان . مفاجأته لواليها السيد أبى عمران وقواته . هزيمة الموحدين ومصرع السيد وصحبه . اقتحام الميورقى لمدينة تاهرت . عيث الميورقى فى أحواز تلمسان . إنجاد المدينة وتأمينها . مسير حملة جديدة لمقاتلة الميورقى . ارتداده صوب طرابلس . عوده إلى الحركة . تضخم جيشه بالعرب والأغزاز . خروج الشيخ أبى محمد لقتاله . مسيره نحو جبل نفوسة . اشتباك الفريقين . هزيمة الميارقة وحلفائهم . مقتل أشياخ العرب . فرار يحيى وفله . عود القائد الظافر أبى محمد . كتابه إلى الخليفة بالفتح . معالجة الشيخ أبى محمد لشئون إفريقية . فضله فى إخماد ثورة بنى غانية . توطيده لسلطان الموحدين فى إفريقية . التجاء سير اخى يحيى إلى الشيخ أبى محمد . أعمال الناصر وتعييناته للولاة والكتاب والقضاة . بعض حوادث المغرب فى تلك الفترة . حريق مراكش . وفد المسلمين الصقليين إلى تونس . أحوال مسلمى صقلية منذ افتتاح النصارى الجزيرة . أقوال الرحالة ابن جبير عن ذلك .

لما توفى الخليفة يعقوب المنصور ، فى ليلة الجمعة الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، خلفه فى صباح اليوم التالى ولده أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأخذت له البيعة العامة بعد ذلك بأسبوع فى نهاية شهر ربيع الأول . ولم يعارضه أحد من الإخوة ولا العمومة . وكان المنصور قد اختاره لولاية عهده ، وعقد له البيعة بذلك فى أواخر سنة ٥٨٧ هـ ، حينما دهمه المرض الشديد ، عقب عوده إلى المغرب ، من جوازه الأول إلى الأندلس . ثم أخذت له البيعة بعد ذلك فى سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان الخليفة الجديد حين جلوسه ، فى نحو السابعة عشر من عمره ، إذ كان مولده فى أواخر سنة ٥٧٦هـ . ويقول لنا المراكشى إن أمه أم ولد رومية تدعى زهر . ولكن صاحب روض القرطاس ، يقول إن أمه بالعكس كانت حرة اسمها أمة الله ، وأنها ابنة السيد أبى إسحق بن عبد المؤمن[١] .

وتولى الوزارة للخليفة الجديد ، وزير أبيه أبو زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، وهو ابن أخى الشيخ أبى حفص[٢] ، وتولى مهمة الاستشارة والتوجيه ، الشيخ أبو زكريا وأخوه الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، إبنا الشيخ

---

(١) المعجب ص ١٧٥ ، وروض القرطاس ص ١٥٢ .

(٢) وقد ورد فى بعض الروايات « أبو زيد بن يوجاق » (راجع رحلة التجانى ص ٣٦٣) .

أبى حفص عمر الهنتاتى ، وتولى رياسة البيت المالك السيد أبو الحسن وأخوه السيد أبو زيد ، ابنا السيد أبى حفص عم الخليفة الراحل ، وذلك كله ، وفقاً لوصية المنصور فى مرض موته حسبما أشرنا إليه من قبل .

وأقام الخليفة الجديد عقب ولايته بحضرة مراكش بضعة أسابيع ، حتى آخر شهر ربيع الثانى من سنة ٥٩٥ هـ ، وتمت البيعة خلال ذلك فى سائر النواحى ، ووصلت إلى الحضرة ، وخرجت البركات للموحدين والأجناد كالعادة ، وقدّم الشعراء تهانيهم بتجديد البيعة . ثم غادر الخليفة مراكش فى أول شهر جمادى الأولى ، وقصد إلى مدينة فاس ، فأقام بها حتى نهاية هذا العام . وعنى الخليفة خلال ذلك بتصريف الشئون ، بمعاونة وزيره عبد الرحمن بن يوجان ، وكان فى مقدمة المراسم الجديدة ، أن عين الخليفة السيد الحسن بن السيد أبى حفص والياً لبجاية وأعمالها ، وأمده بالرجال والأموال ليستطيع مواجهة الحوادث فى تلك المنطقة المضطرمة ، وعين أخاه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور والياً على إشبيلية مكان أخيه السيد أبى زيد[1] .

وكانت الأحوال فى إفريقية قد ساءت فى أواخر عهد المنصور ، ولا سيما حين شغل بأمر الجهاد فى الأندلس ، ولم تسعفه الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب ، ليعنى بالنظر فى شئون إفريقية ، وتدارك مادهمها من الحوادث ، حيث فاجأه المرض وتوفى . فكان على ولده الخليفة الفتىّ محمد الناصر ، أن يواجه هذه الظروف ، وأن يقوم بتداركها .

— ١ —

وقد وصلنا فيما تقدم من سرد حوادث إفريقية ، إلى ظفر يحيى بن إسحاق ابن غانية الميورقى ، بخصمه شرف الدين قراقوش ، وفراره إلى الجبال ، وانتزاع طرابلس من يد نائبه . ولما تم ليحيى ماتقدم سار إلى قابس ، وكان نائب قراقوش قد غادرها على أثر هزيمة سيده ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبى حفص والى تونس ، حافظاً من الموحدين يسمى ابن تفراجين . فقصد إليها يحيى بقواته ووجه إلى أهلها كتابا ينذرهم فيه بالتسليم ، ويحذرهم من المخالفة ، ويحدد لهم ثلاثة أيام لإجابة مطلبه ، فلما انتهى هذا الأجل دون أية إجابة ، زحف

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢١٢ و ٢٦٣ .

يحيي على المدينة ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وقطع غابات النخيل القريبة منها ، إلا نخلة واحدة تركها للعبرة . فأذعن أهل المدينة إلى التسليم ، على أن يؤمن واليهم ابن تفراجين ، ويُسمح له أن يغادر المدينة بأهله من طريق البحر ، فأوفى لهم يحيي بذلك ، وفرض على المدينة إتاوة قدرها ستون ألف دينار . وكتب كاتبه أبومحمد عبد البر بن فرسان كتابا بهذا الفتح ، يشيد فيه بعود المدينة إلى الدعوة العباسية(١).

وبينما كان الميورقى يتابع مغامراته ، ويعمل على توطيد سلطانه فى بلاد الجريد ، إذ ظهر بإفريقية عامل مقلق جديد بثورة ابن عبد الكريم . وكان محمد ابن عبد الكريم الرجراجى هذا ، من زعماء الجند ، الذين امتازوا بالشجاعة والنجدة ، وأبوه جندى من أهل المهدية ، ينتمى إلى قبيلة كومية الموحدية . وكان قد ظهر فى مقاتلة الأعراب وغيرهم من العناصر المشاغبة المفسدة ، واستطاع فى كثير من المواطن أن يقمع شغبهم وضررهم ، بمن التف حوله من الجند والأنصار ، فلما قوى أمره ، وظهرت كفايته ، قدمه الوالى لتلك المهمة ، وأطلق يده فى محاربة الخوارج والمعتدين ، فكان يطاردهم وينكل بهم ، ويقتل من يقتل ، ويعتقل من يعتقل ، فلايطلقه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة ، وإعطاء العهود المؤكدة على التزام الطاعة والسكينة .

فلما وُلى الشيخ أبو سعيد بن أبى حفص ، من قبل الخليفة المنصور ، على إفريقية ، قدم على المهدية ، أخاه أبا على يونس بن أبى حفص ، فطالب ابن عبد الكريم أن يُشركه فيما يغنمه من أموال الأعراب المخالفين ، فرفض ابن عبد الكريم تحقيق رغبته ، وطلب إليه أن يتركه على ماكان عليه الولاة من قبل . فقبض عليه أبوعلى وأهانه ، وزجه إلى السجن ، فاستغاث ابن عبد الكريم بالشيخ أبى سعيد والى إفريقية فلم يسعفه . وحدث عندئذ أن اشتد عيث الأعراب بالساحل ، وكثرت الشكوى منهم ، وألح الناس على أبى على أن يطلق ابن عبد الكريم ، فاضطر إلى إطلاقه خشية الفتنة ، ورد إليه منصبه وجنده ، وأمره بالعمل على كف عيث أولئك الأعراب . فخرج ابن عبد الكريم فى صحبه ، وأقام محلته فى ظاهر المهدية ، وشكا إلى جنده مالحقه من ظلم الوالى ، وتفاهم معهم على الغدر بأبى على والاستيلاء على المدينة . ويقدم إلينا ابن الأثير تفسيراً آخر لتصرف ابن عبد الكريم ، خلاصته أن جماعة من عرب بنى عوف نزلوا على مقربة من المهدية ، فخرج

---

(١) راجع رحلة التجانى ص ١٠٥ — ١٠٨ .

إليهم ابن عبدالكريم ، فخافوا وفروا تاركين عيالهم و أموالهم ، فاستولى ابن عبد الكريم على المال والعيال ، وسلم العيال وجزءاً من المال والأسلاب إلى الوالى واحتفظ بالباقى ، فسار رؤساء بنى عوف إلى الشيخ أبى سعيد ، وقدموا الطاعة ووحّدوا واستغاثوا به ، أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فاستدعى ابن عبد الكريم وطالبه برد ما أخذ من أسلابهم ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأن أعطاه إلى الجند ولايستطيع رده . فأغلظ له الشيخ أبو سعيد القول ، وهم أن يبطش به ، فاستمهله حتى يعود إلى المهدية ، ويحاول أن يسترد من الجند ما استطاع . فلما عاد إلى المهدية ، نبأ صحبه بما حدث ، واتفق معهم على الوثوب بأبى على يونس . وعلى أى حال فقد نفذ ابن عبد الكريم مشروعه ، ودخل المدينة فى أواخر الليل فى ثُلة مختارة من صحبه ، وبادر إلى قصر الوالى ونفذ إليه ، وقبض على أبى على ، وحبسه فى موضع من القصر ، ولم يطلقه إلا بعد أن وصل فداؤه من قبل أخيه الشيخ أبى سعيد ، فارتد إلى أخيه مخذولا ، وبسط ابن عبد الكريم بذلك حكمه على المهدية ، وكان استيلاؤه عليها فى شهر شعبان سنة ٥٩٥ هـ[1] ، لأشهر قلائل من ولاية الناصر .

واستبد ابن عبدالكريم بحكم المهدية ، وتسمى « المتوكل على الله » ، واستفحل أمره . وفى تلك الأثناء وصل السيد أبو زيد ابن السيد أبى حفص من قبل الناصر والياً على إفريقية ، مكان الشيخ أبى سعيد ، ومعه جماعة من الأشياخ والأجناد . فاعتزم ابن عبد الكريم أن يحاصره بتونس ، قبل أن يستعد لقتاله ، فسار إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة ، فسير السيد أبوزيد السفن فى البحر ، والجند فى البر لقتاله ، وكان ابن عبد الكريم قد رتب كمائنه فى بعض المواضع ، فلما أقبل إليها الموحدون ، خرجت عليهم تلك الكمائن ، فأوقعت بهم الهزيمة وفتكت بمعظمهم ، وانتشر عسكر ابن عبد الكريم فى أحواز تونس ، وعاثوا فيها نهباً . وعندئذ بعث السيد أبوزيد والشيخ أبوسعيد إلى ابن عبدالكريم ، أشياخاً من الموحدين يسوقون إليه اللوم ، ويذكرونه بانتمائه إلى الموحدين ، وأن ما يفعله مروق ونكران لايليق به ، وأنه من الخير أن يعود إلى طاعته ، فوعدهم ابن عبد الكريم خيراً ، ثم عاد إلى المهدية .

وكانت قد حدثت فى تلك الأثناء وحشة بين ابن عبد الكريم ، ويحيى الميورقى

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٠ – ٣٥٢ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ .

لما دب بينهما من عوامل التنافس والحسد ، وفكر ابن عبد الكريم فى محاربته ومحاصرته ، وهو يومئذ بقابس، فاستخلف على المهدية ولده عبد الله وسار إلى قابس، ولكنه لما أشرف عليها بجموعه هالته منعتها، فارتد منها إلى قفصة واستولى عليها . وعندئذ خرج الميورقى من قابس لمطاردته ومحاربته ، فخرج ابن عبدالكريم بقواته من قفصة ، والتقى الفريقان فى مكان يعرف بقصور لالة ، فهزم ابن عبد الكريم ، وفر إلى المهدية ناجياً بنفسه ، وتبعه إليها من نجا من فلوله ، واحتوى الميورقى على معسكره وجميع أسلابه . وكان ذلك فى بداية سنة ٥٩٧ هـ :

وأراد الميورقى أن يقضى نهائياً على خصمه ، وأن ينتزع منه المهدية ، فبعث إلى السيد أبى زيد بتونس يسأله المهادنة والسلم ، ويطلب منه أن يعينه بعدة سفن يستطيع بها محاصرة المهدية من البحر ، والقضاء على ابن عبد الكريم . وكان السيد أبو زيد يتوق إلى التخلص من هذا الثائر الذى استفحل أمره ، فبعث إلى الميورقى سفينتين ، فعندئذ أدرك ابن عبد الكريم أنه لامفر من التسليم ، وبعث إلى الميورقى ولده عبد الله يعرض التسليم على أن يؤمن فى نفسه وماله ، فأجابه الميورقى إلى ذلك ، وخرج ابن عبد الكريم وولده من المهدية وتوجها إلى الميورقى للسلام عليه ، فلما رآهما أمر فى الحال بالقبض عليهما متفرقين، واستولى على المهدية وعلى سائر ما كان بها لابن عبدالكريم من الأموال والذخائر. ثم زج بابن عبدالكريم وولده إلى السجن ولم تمض أيام قلائل حتى أخرج ابن عبد الكريم ميتاً من سجنه ، ثم أخرج ولده عبد الله وحمل إلى السفينة، بزعم إرساله إلى ميورقة، ولكن السفينة ما كادت تصل إلى مقربة من قسنطينة ، حتى ألقى به مكبولا إلى البحر ، فابتلعته المياه[1] .

وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقى حكمه على سائر إفريقية ، ما عدا شاطئها الشمالى ، واستولى على سائر قواعدها ، طرابلس وقابس وصفاقس والمهدية والقيروان وسائر بلاد الجريد ، ووصلت دعوته إلى بونة ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة ، وقد أصبحت كذلك فى خطر السقوط . وبينما كان السيد أبو زيد والى إفريقية ، مايزال يعتقد أن الميورقى يرغب حقاً فى السلم ، وأنه ينوى أن يضع حداً لأعماله العدائية ، إذا بالميورقى

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن رحلة التجانى، وهى فيما يبدو أوثق الروايات عن هذه الحوادث ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . وراجع ابن خلدون فى كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٤ و١٩٥ ، وهو فيما يرجح ، ينقل عن التجانى .

يسير فجأة إلى بلدة باجة الواقعة غربي تونس، وقد كانت من أخصب بلاده هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاما[1] ويقتحمها عنوة ، ويستولى عليها ، ويقتل حاكمها الموحدى على الفور . فبعث السيد أبو زيد فى الحال جيشاً ، تحت إمرة أخيه السيد أبى الحسن والى بجاية ، لكى يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها ، وكان الميورقى قد عاد لحصارها ، فلما علم بمقدم الموحدين ، رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه ، وعسكر فى موضع حصين بالقرب من قسنطينة ، وهنالك أشرف عليه السيد أبو الحسن بجموعه ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون، واستولى الميورقى على معسكرهم وأسلابهم . وارتد أبو الحسن فى بعض فلوله إلى بجاية وهو فى أسوأ حال[2] .

وكانت مدينة بسكرة التى استولى عليها الميورقى من قبل قد خلعت طاعته ، وعادت إلى طاعة الموحدين ، فسار إليها يحيى ، واقتحمها عنوة ، وعاقب السكان على نكثهم ، بقطع أيدى الكثير منهم ، وقبض على عاملها الموحدى وزجه إلى السجن . وخشى أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة ،فبعثوا إلى الميورقى بطاعتهم . ووقعت هذه الحوادث فى سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) . وعاد يحيى بعد ذلك إلى المهدية فاستقر بها بعض الوقت[3].

وفى خلال ذلك كان البلاط الموحدى بمراكش يتتبع أنباء الحوادث فى إفريقية بمنتهى الجزع ، ويحاول أن يقمع العدوان بالحملات المحلية المتواليه . فلما توالى فشل هذه المحاولات ، جهز الخليفة الناصر ، أوبالحرى مستشاروه من أشياخ الموحدين ، حملة كبيرة ندب لقيادتها الوزير ابن يوجان ، وسارت هذه الحملة إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ، ولكنها لم تقم بأية محاولة لمقاتلة الميورقى ، وعاد الوزير إلى تلمسان ، وهنالك وصله الأمر بالنظر فى أعمالها ، ثم نُدب إلى ولاية فاس ، وأقام بها حتى ندبه الناصر للسير معه إلى إفريقية[4] .

وكان هذا التردد فى مطاردة الميورقى ، راجعاً إلى اضطرام ثورة جديدة فى منطقة السوس . وذلك أن دعياً من أصل أندلسى ، ينتمى إلى قبيلة جزولة ،

---

(١) وهى طبعاً غير باجة بالأندلس . راجع الاستبصار فى عجائب الأمصار ص ١٦٠ .
(٢) المعجب ص ١٧٩ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ ، وكذلك : **A. Bel : Les Benou Ghania, p. 113.**
(٤) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢١٤ ، والمعجب ص ١٧٩ . هذا وتراجع خريطة إفريقية فى ص ١٦٣ ، حيث وضحت بها سائر المواقع التى كانت مسرحا لتلك المعارك المتوالية .

يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس ، ويعرف بالمهر وبأبى قصبة ، كما يعرف عند البربر بما معناه « ابن الجزارة » ثار بالسوس . وكان هذا الدعى من طبقة العلماء بالأندلس . وحضر ذات يوم مجلس الخليفة يعقوب المنصور وبدرت منه بعض أقوال جدلية خشى عاقبتها ، فاختفى حيناً ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور ، فى السوس فى منازل جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القطحانى » الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه لاتقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قطحان ، يقود الناس ، ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، ومما ينسب إليه فى مصير بنى عبد المؤمن شعر يقول فيه :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن على　　　تأهبوا لوقوع الحادث الجلل

قد جاء سيد قحطان وعالمها　　　ومنتهى القول والغلاب للدول

وذاعت دعوة أبى قصبة فى أرجاء بلاد السوس ، والتفت حوله جموع غفيرة ، فبعث إليه بلاط مراكش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعاً ، وأخيراً اضطر الناصر أن يجهز لقتاله حملة كبيرة من الموحدين والغز وغيرهم ، وسار الموحدون إلى بلاد السوس ، وأنذروا المصامدة وغيرهم من القبائل المجاورة ، بأن الدعى يعتمد على تسامحهم وتغافلهم ، وبذلك يقوى أمره ، ولو شاءوا لقضوا عليه ، فعند ذلك تحركت ، القبائل وانضمت إلى الجيش الموحدى القادم ، فى مقاتلة الدعى ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقبض على الدعى وقتل ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى مراكش ، وكان مصرع أبى قصبة وانهيار ثورته ، على هذا النحو سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م)[١] .

وكان من حوادث الأندلس فى تلك الفترة أن عزل الناصر أخاه السيد أبا محمد عبدالله بن المنصور عن ولاية إشبيلية ، ولكنه عاد فاستبقاه فى منصبه تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك فى سنة ٥٩٧ هـ . وفى أوائل هذا العام بالذات ، وقع بإشبيلية حادث مفزع هو وقوع السيل العظيم ، الذى لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ، ولاسيما ما بين باب طُريانة وباب المؤذن ، وغمرت المياه المدينة بأسرها ، وسقط عدد كبير من دورها قيل إنه ستة آلاف ، وكان من رحمة القدر أن وقع هذا السيل ظهراً ، وكان وقوعه يوم الاثنين ١٩ من جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هـ

---

(١) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٦ و ٢٥٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٥ ، والمعجب ص ١٨٠ .

(٢٦ مارس ١٢٠١ م) واستمر ثلاثة أيام ، ولو حدث وقوعه بالليل لغرق آلاف من أهل المدينة . واجتاح هذا السيل وادى النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، وحتى ثغر قادس ، ومات من جرائه الكثيرون غرقاً . وكان من أشنع الحوادث التى شهدتها إشبيلية من عهد طويل(١) .

— ٢ —

وكان الخليفة الناصر ، وأشياخ الموحدين ، يتأهبون فى نفس الوقت لمشروع ضخم ، هو افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وكان استمرار يحيى ابن إسحاق الميورقى فى عدوانه ، وتفاقم أمره فى إفريقية ، وفشل الحملات الموحدية المتوالية فى القضاء على سلطانه ، قد حمل البلاط الموحدى على أن يفكر فى افتتاح ميورقة ، والقضاء على سلطان بنى غانية فيها ، وضربهم بذلك فى موطن قوتهم الأصلى ، ومصدر مواردهم وأمدادهم البحرية ، فيكون ذلك الفتح ذاته ، وسيلة لضرب سلطان يحيى الميورقى فى إفريقية ، والتمهيد للقضاء على حركته .

وقد سبق أن فصلنا ظروف استيلاء بنى غانية على الجزائر الشرقية ، وقيام حكمهم فى ميورقة ، ومحاولة الخليفة أبى يعقوب يوسف أن يخضع عميدهم إسحاق ابن غانية لسلطان الموحدين ، وما كان من إرساله سفيره علياً الربرتير إلى ميورقة ، ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وإخفاق الربرتير فى مهمته ، ثم قيام على بن إسحاق بافتتاح بجاية ، وبداية تلك الحركة المضطرمة ، وتلك الحملات المخربة المتوالية ، التى قام بها بنو غانية فى إفريقية ، واستيلائهم تباعاً على معظم قواعدها .

وكان على حكم ميورقة فى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه حركة يحيى بن إسحاق بإفريقية ، أخوه عبد الله بن إسحاق بن غانية . وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التى استطاع فيها عبد الله أن ينتزع حكم ميورقة من أخيه محمد بن إسحاق وذلك فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) ، واستبد عبد الله بحكم ميورقة ، كبرى الجزائر ، وازدهرت فى عهده ، واستمر على رياستها طوال هذه الأعوام دون منازع . وكان عبد الله ، يتبع سياسة أبيه إسحاق بن غانية فى مسالمة الدول النصرانية القريبة ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٤ . والذيل والتكملة لابن عبد الملك (الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى ، فى ترجمة محمد بن أحمد بن تمام العذرى .

ولاسيا چنوة وبيزة ، ويعقد معها الصلات الودية ، وكان ذلك مما يساعد على رواج التجارة بين ميورقة وبين هذه الدول البحرية . وفى سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨م) عقد عبد الله مع جمهورية چنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاما ، وذلك بواسطة نيقولا لاكانوتزى سفير چنوة إلى ميورقة . وكان التجار النصارى فى الجزيرة ، يعيشون فى دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وتعاون جهودهم فى ترويج تجارة الصادر والوارد بين الفريقين. وكان من الواضح أنه منذ اضطرمت الخصومة بين بنى غانية والموحدين، لم يكن فى وسع الجزائر أن تعتمد فى تموينها ومواردها الحيوية على الأندلس المعادية ، ومن ثم فقد كانت تسعى للحصول على مواردها من النصارى ، وكان هؤلاء يمدونها بالسفن والسلاح والذخائر ، مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى . ومن جهة أخرى ، فقد كان النصارى يجنون ثمار هذه الصلات الودية مع ميورقة ، وذلك بامتناع عبد الله عن الإغارة على شواطئهم . على أن عبد الله كان ما يزال ينظم غاراته البحرية على شواطئ الدول التى لم يكن يرتبط معها بعهود الصداقة والمودة ، مثل فرنسا ، وكانت هذه الغارات ، توطد من مكانته لدى شعبه وتزيد فى ثرائه . وبالرغم من أن عبد الله لم يكن فى وسعه دائماً ، أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجند ، فى مغامراته الإفريقية ، فإن ميورقة كانت تعتبر مع ذلك بالنسبة لبنى غانية ، مركزهم الرئيسى وموطن قوتهم الحقيقية(١) .

كانت هذه أحوال ميورقة ، حينما وصلت غزوات يحيى بن غانية للثغور الإفريقية إلى ذروتها، وحينما اعتزم البلاط الموحدى أن ينفذ مشروعه لغزو ميورقة، كوسيلة لضرب بنى غانية فى صميم مثوى قوتهم وسلطانهم . وكان الموحدون يرون أنه متى سقطت ميورقة فى أيديهم ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يتفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانه فى إفريقية ، دون أن يكون أمامه ملاذاً وملجأ أخيراً يتجه إليه .

وبذل الخليفة الناصر وأعوانه من أشياخ الموحدين جهوداً مضاعفة لإعداد حملة بحرية عظيمة توجه لغزو ميورقة . وفى تلك الأثناء ، وقبل أن يتم إعداد الحملة ، عمد عبد الله بن إسحاق بن غانية إلى مهاجمة جزيرة يابسة الواقعة جنوب

---

(١) A. Bel : Les Benou Ghania, p. 118 & 119

غربى ميورقة محاولا انتزاعها من الموحدين ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٥٩٧هـ ، خلال فصل الشتاء ، حينما تكون الأساطيل الموحدية راسية فى سبتة ، فقاومته السفن الموحدية المرابطة بقيادة ابن ميمون ، وانتزع ابن ميمون منه سفينتين وأحرقهما ، فارتد إلى ميورقة خائباً . ولكنه سار فى العام الثانى (٥٩٨) هـ ، وهاجم جزيرة منورقة وانتزعها من أيدى الموحدين، وولى عليها من قبله رجلا اسمه الزبير بن نجاح . والظاهر أن عبدالله كان قد ترامت إليه الأخبار عن مشروع الموحدين فى غزو ميورقة ، فأراد أن يبادر بإبعادهم عن هذه المياه ، وتأمين ميورقة بالسيطرة على منورقة ويابسة جناحيها من الشرق والغرب .

وأخيراً تم إعداد الحملة البحرية المنشودة ، مكونة من أسطول سبتة بقيادة السيد أبى العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومن جيش من الفرسان والرماة والرجالة ، بقيادة الشيخ أبى سعيد بن أبى حفص . والتقت القوتان بثغر دانية ، أقرب قواعد الأندلس البحرية إلى الجزائر . وكانت القوى البرية تتألف من ألفى ومائتى فارس ، وسبعمائة من الرماة ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة غير غزاة القطع (أى السفن) . وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن (سفينة) منها سبعون غرابا ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركباً كباراً ، ومائة وخمسون قارباً من مختلف الأنواع ، وكانت الحملة مزودة بكميات كبيرة من العدد والسلاح والمجانيق والسلالم ، ومختلف الأدوات ، وكذلك من الدروع والسيوف والرماح والبيضات والدرق ، والقسىّ ، وصناديق النشاب ، وكانت بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعداداً لطول المقاومة أوطول الحصار . وأقلعت الحملة من ثغر دانية فى أواخر سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٣م)، فوصلت بعد أيام قلائل إلى جزيرة يابسة ، فصلوا بها الجمعة، ثم أقلعت منها يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ذى الحجة (٣ سبتمبر سنة ١٢٠٣) قاصدة إلى ميورقة[١] . ويبدو مما يقوله صاحب البيان المغرب ، أن السيد أبا العلاء ، قد انحرف أولا بجزء من الأسطول نحو جزيرة منورقة ، وانتزعها من ابن نجاح ، وقبض عليه ، وأرسله مع بعض صحبه مصفداً إلى الحضرة ، وهنالك أعدم وعلقت رأسه[٢] . وبذلك تم تأمين جناحى الحملة الموحدية ، وتطويق ميورقة كبرى الجزائر . ثم أقبلت

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن صاحب الروض المعطار (ص ١٨٩) وهو ينفرد بها .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٦ .

السفن الموحدية إلى ميورقة واحتلت مرساها ، وأنزل العسكر المهاجم بالقرب من مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، فخرج إليهم عبد الله بن إسحاق فى جموعه ، واضطرم القتال بين الفريقين ، واستمرت المعارك بينهما سبعة أيام ، وعبد الله وجنوده يدافعون بمنتهى الشدة ويقاتلون قتال اليأس ، وأخيراً دارت عليه الدائرة فهزم وقتل ومعظم أصحابه . وأغلق المدافعون فى الداخل أبواب المدينة فطوقها الرماة وغزاة البحر ، واقتحموها ، ودخلها الموحدون وبدأوا نهبها ، ودخل السيد أبو العلاء والشيخ أبو سعيد المدينة ، وأمامهما رأس عبد الله مرفوعة على قناة ، فأمر فى الحال بمنع النهب ، وتأمين الناس ، وقبض على أولاد عبد الله وأهله ، فخرج الناس ، وقد أمنوا واطمأنوا ، وكُتب فى الحال بالفتح إلى الخليفة الناصر . وكان فتح ميورقة على هذا النحو فى شهر ربيع الأول سنة ستمائة (شهر ديسمبر سنة ١٢٠٣ م)[1] .

تلك هى تفاصيل الفتح الموحدى لميورقة حسبما يوردها لنا صاحب الروض المعطار ، وحسبما تقصها علينا رسالة الفتح الصادرة عن الخليفة الناصر ، والمدبجة بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه ، وأنه خرج من مدينة فاس فوصل إلى جزائر بنى مزغنة ، وجهز من هنالك الأساطيل والعساكر لفتح ميورقة ، ففتحها وانتزعها من أيدى المرابطين[2] . بيد أنه لا توجد أية رواية أخرى تؤيد هذا القول ، فضلا عن أن رسالة الفتح الرسمية صريحة قاطعة فى عدم صحته . ويقدم إلينا ابن خلدون إسمى قائدى الحملة وهما كما تقدم السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد بن أبى حفص قائد القوى البرية[3] . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن الناصر كان فى الوقت الذى سارت فيه الحملة الموحدية إلى الجزائر مقيما بحضرة مراكش[4] .

وندب السيد أبو العلاء لولاية الجزائر عبد الله بن طاع الله الكومى ، فكان

---

(١) الروض المعطار فى روايته السابقة الذكر ص ١٨٩ ، وراجع الرسالة السادسة والثلاثين من رسائل من موحدية ، وهى خاصة بفتح ميورقة (ص ٢٣٥ وما بعدها) ، وكذلك روض القرطاس ص ١٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ ، ويتابعه فى ذلك الأستاذ الفرد بل: **Les Benou Ghaina, p. 167**

(٣) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٤) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢١٨ .

أول ولاتها من الموحدين ، وعين لقضائها الفقيه المحدث عبد الله بن حوط الله .
ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبي يعقوب يوسف ، وندب ابن طاع الله لقيادة البحر .

وكان فتح الموحدين لميورقة ضربة شديدة لبني غانية ، قضت نهائياً على سلطانهم في الجزائر ، ومن جهة أخرى فقد كان له وقع عميق لدى الممالك النصرانية القريبة ، ولاسيما مملكة أراجون المواجهة في شبه الجزيرة . وإلى هذا تشير رسالة الفتح صراحة بقولها « ولأخذُ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة ، أشدُّ من رشق النبل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول الممات »
وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتبعه بنو غانية من سياسة المسالمة والمودة نحو الدول النصرانية المجاورة ، ولاسيما مملكة أراجون وجمهوريتي جنوة وبيزة . وكانت تجمع بين بني غانية أصحاب الجزائر وبين أراجون بالأخص فكرة مشتركة ، هي خصومة الموحدين والكفاح ضدهم . وكانت أراجون وحليفاتها من الدول النصرانية المذلك ، تنظر إلى سيادة بني غانية للجزائر بعين الإغضاء ، ما التزم بنو غانية سياسة المودة والمسالمة . أما الآن ، وقد احتل الموحدون الجزائر ، فإنه كان لابد للدول النصرانية ، وفي مقدمتها أراجون أن تتخذ نحو الجزائر موقفاً آخر . ومن المحقق أن أراجون ومن ورائها جنوة وبيزة كانت تطمع دائماً ، إلى انتزاع الجزائر من المسلمين . وقد جاء استيلاء الموحدين على الجزائر عاملا جديداً ، يذكي هذه الرغبة ويؤكدها . على أن ظفر الموحدين بالاستيلاء على الجزائر ، كانت تقابله من الناحية الأخرى ، ضربة جديدة مؤلمة للموحدين في في إفريقية . ذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، كان يشعر حين ترامت إليه أنباء الحملة الموحدية ، التي سيرت إلى الجزائر ، أن مصير ميورقة قد بت فيه ، وأنه لم يبق لبني غانية إلا أن يعملوا على توطيد أمرهم بإفريقية ، وأنه لابد لتحقيق هـذه الغاية أن يسحق سلطان الموحدين نهائيا في تلك المنطقة . وكان يحيى قد ظفر عندئذ بالاستيلاء على المهدية ، والقضاء على خصمه ابن عبد الكريم .
ففكر عندئذ في الاستيلاء على تونس عاصمة إفريقية . وكانت سائر الثغور الشرقية ، وسائر القواعد الجنوبية القريبة من تونس قد سقطت في يد يحيى ، وجردت العاصمة من سائر مواردها المعتادة ، وكان والى إفريقية السيد أبوزيد لايحتكم على قوى كافية للدفاع . ومن جهة أخرى ، فإن انشغال الموحدين في نفس

هذا الوقت بالذات ، بتسيير حملتهم الكبيرة إلى الجزائر ، كان يحول دون إرسالهم الأمداد العاجلة إلى إفريقية . ومن ثم فإن الظروف كلها كانت مواتية لمشروع يحيى الميورقى . فاستعمل على المهدية ابن عمه على بن الغانى بن عبد الله بن محمد ابن غانية ويعرف بالكافى . وسار فى قواته وعُدده صوب تونس ، وذلك فى أوائل شهر ذى الحجة سنة ٥٩٩ هـ ، ونزل بالجبل الأحمر فى ظاهر تونس ، ونزل أخوه الغازى بن إسحق بالموضع المعروف بحلق الوادى حيث يتصل البحر بالبحيرة شرقى المدينة ، فردم المجرى الموصل بينهما وجعله أرضا يابسة ، ورتب عليه الحرس ، وقطع بذلك سير القوارب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها ، ثم تحول إلى قبلى المدينة ، على مقربة من باب الجزيرة وردم الخندق المواجه له ، ونصب أمام الباب المجانيق وآلات الحرب ، وضرب الميورقيون حول تونس حصاراً صارما ، ولم يجرؤ الموحدون على الخروج من المدينة ، والاشتباك مع العدو فى أية معركة ، لقلة عددهم ، وضآلة مواردهم . واستمر هذا الحصار المرهق أربعة أشهر . وفى يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر سنة ستمائة (١٥ ديسمبر سنة ١٢٠٣م) ، اقتحم يحيى فى قواته البلد ، وقبض على واليها السيد أبى زيد وولديه ، وجماعة من أشياخ الموحدين ، وثقفوا بمكان بداخل القصبة تحت حرس قوى ، وأعلن يحيى الأمان لأهل تونس فى أنفسهم وأملاكهم ، ولكنه فرض عليهم غرامة قدرها مائة ألف دينار ، قال إنها هى مقدار ما أنفقه فى الاستيلاء عليها ، وقُسّطت هذه الغرامة على أهل المدينة وفق أحوالهم المالية ، وعهد باقتضائها إلى كاتبه الأثير ابن عصفور ، وإلى أبى بكر من عبد العزيز السكاك من أهل المدينة ، فاشتطا فى تحصيل المال ، ولحق الناس من ذلك منتهى الإرهاق والعنت ، وقتل منهم كثير بسبب ذلك ، وانتحر إسماعيل بن عبد الرفيع المقدم على قبض مال المخزن وغيره من الناس ، فلما علم الميورقى بذلك ، أمر برفع ما بقى من الغرامة عن الناس ، ونودى فيهم بالأمان . وعلم الميورقى بعد ذلك أن أهل جبل نفوسة توقفوا عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم ، وكان أهل هذه المنطقة معظمهم من الخوارج ، وكانوا يبغضون نير الموحدين ونير بنى غانية معا ، ويثورون من آن لآخر محافظة على استقلالهم . فخرج إليهم يحيى بنفسه ، واستصحب معه السيد أبا زيد وزملاءه من الموحدين المعتقلين ، مبالغة فى التحفظ عليهم ، وفرض على أهل نفوسة ألفى ألف دينار . ولما انتهى من اقتضائها منهم

بوسائله المروعة ، عاد إلى تونس واستقر بقصبتها[1] .

— ٣ —

وهكذا تم ليحيي بن إسحاق الميورقي الاستيلاء على عاصمة إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية ، بعد أن سقطت جميع قواعدها الشرقية والداخلية في يد الميورقي ، سوى ثغر بجاية ، وما يليه غرباً . وكان لسقوط تونس ، وما اقترن به من أسر واليها وزملائه من أشياخ الموحدين ، وقع عميق في بلاط مراكش . وكان مما يضاعف هذا الوقع ، ما يرتكبه الميورقي باستمرار من ضروب العيث والقمع والقسوة ، في مختلف القواعد التي يسيطر عليها . وكان الموحدون ، بعد أن ظفروا بالاستيلاء على ميورقة ، وجرداو بني غانية بذلك من ملاذهم ومركز سلطانهم في الأندلس ، يرون أن الوقت قد حان للقضاء على سلطانهم بإفريقية ، وتحريرها من نيرهم ومن عيثهم ، واسترداد سلطان الموحدين ، والعمل على توطيد هيبتهم في تلك الأنحاء . بيد أن الموحدين كانوا يشعرون في نفس الوقت بفداحة هذه المهمة ، ومن ثم فإن الخليفة الناصر حينما شاور الأشياخ في ذلك الأمر ، رأى معظمهم أن يكتفي بمسالمة ابن غانية والاتفاق معه ، ولكن أبا محمد بن الشيخ أبي حفص أشار بوجوب السير إلى إفريقية ، ومحاربة ابن غانية ، ووافق الناصر على هذا الرأي .

وكان الناصر في الوقت الذي سار فيه الموحدون لفتح ميورقة ، أعني في سنة ستمائة ، يقيم بحضرة مراكش ، ويعني بشئون الأندلس الإدارية والعسكرية ، وكان من أهم ما عني بذلك إرسال الأوامر المؤكدة إلى سائر ولاة الأندلس بالنظر في صنع الآلات الحربية . ففي شهر المحرم من هذا العام ، وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة . وفي شهر ربيع الأول ندب الناصر عمه السيد أبا إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن لولاية إشبيلية ، مكان الشيخ أبي عبدالله ابن يحيي ، الذي نقل إلى ولاية بسطة . وولى السيد أبا محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن على مدينة شلب وبلاد غربي الأندلس ، والشيخ أبا يحيي بن أبي سنان على مدينة بطليوس وجهاتها . وندب أبا عبد الله بن عبد السلام الكومي لقيادة أسطول سبتة . وفي نفس العام وصل إبراهيم بن الفخار اليهودي رسول

---

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٤ — ٣٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ و٢٤٨ .

ألفونسو التاسع ملك قشتالة ووزيره ، إلى مراكش ، يطلب تجديد المهادنة .

فلما ترامت الأنباء بسقوط تونس فى يد الميورقى ، واشتداد عيثه وبطشه بأنحاء إفريقية ، وعقد الخليفة الناصر عزمه على محاربته والقضاء على سلطانه ، أعدت حملة موحدية جديدة للسير إلى إفريقية ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول بالسير من سبتة إلى مياه إفريقية ، وعين لقيادة وحداته أبو يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . وكان يحيى الميورقى فى ذلك الوقت بالذات ، ما يزال ينزل ضرباته بمختلف أنحاء إفريقية ، وكان بعد أن قام بإخماد ثورة أهل جبل نفوسة ، قد سار إلى ناحية طرّة قاعدة بلاد نفزاوة لإخماد ثورتهم أيضاً ، فاقتحم أحياءهم ، واشتد فى معاقبتهم ، وقتل جنده كثيراً منهم ، وأضرموا النار فى دورهم ، ثم سار إلى حمة مطماطة ، ففعل بأهلها مثل ذلك ، وضجت هذه الأنحاء كلها من سفكه وشديد عيثه[1] .

هذا وبينما الميورقى سادر فى هذا العيث والسفك ، إذ بلغته الأنباء باقتراب القوات الموحدية ، وعلى رأسها الخليفة الناصر . وكان الناصر قد غادر مراكش على رأس قواته فى أواسط جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ (فبراير سنة ١٢٠٥ م) وسار إلى رباط الفتح قاعدة تجمع الجيوش الموحدية . ثم غادر رباط الفتح فى قواته متجهاً صوب إفريقية ، وكانت وحدات الأسطول الموحدى ، تسير فى نفس الوقت بحذاء الشاطئ ، صوب بجاية وتونس ، بقيادة أبى يحيى بن أبى زكريا الهزرجى . فلما علم الميورقى باقتراب الأسطول الموحدى من تونس ، ووصول الجيش الموحدى إلى بجاية ، وأدرك أنه لاقبل له بالصمود أمام هذه القوى الجرارة جمع أمواله وذخائره ، وأرسلها إلى المهدية ، لتكون تحت حراسة ابن عمه على ابن الغانى ، ثم بادر بإخلاء تونس ، وارتد فى قواته جنوبا ، فوصل إلى القيروان وأقام بها أياما ، وهو يجد فى الأهبة ، ثم سار إلى قفصة ، وهنالك استدعى طوائف العربان ، وبذل لهم الأموال والوعود ، وأخذ مواثيقهم ورهائنهم على مناصرته والقتال معه . ووقف الموحدون على انسحاب الميورقى من تونس ، فنزلتها القوات البحرية الموحدية ، وقتلوا كل من وجدوه بها من أتباع الميورقى ، وأصدر قائد الأسطول الأمان لأهلها . ولما علم الناصر باستيلاء قواته على تونس ، وفرار الميورقى فى قواته نحو الجنوب ، سار فى أثره

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٦ .

صوب قفصة . فسار الميورقى فى قواته إلى جبل دمّر ، وتحصن به . وسار الناصر إلى قفصة ، فأقام بها أياما ، ثم توجه إلى قابس وندب لها عاملا من قبله . وكان يحيي الميورقى قد قرر أن يركز مقاومته الأخيرة فى المهدية ، فضاعف تحصيناتها ، وشحنها بطائفة من قواته المختارة ، ووكل الدفاع عنها لابن عمه على بن الغازى . واستعد هو للقاء القوات الموحدية بمكانه الحصين من جبل دمّر ، وقرر الموحدون من جهة أخرى مطاردة الميورقى فى مركزى مقاومته فى وقت واحد ، فسار الناصر بنفسه لمحاصرة المهدية ، وطوقها بقوات كثيفة من الموحدين والعرب ، ونصب عليها المجانيق ، وسار إليها الأسطول الموحدى ليحصرها من ناحية البحر. وبعث الناصر فى نفس الوقت جانباً من القوات الموحدية يحتوى على أربعة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص لمقاتلة الميورقى فى جبل دمّر ، فلما أشرف الموحدون على محلته ، وشهد ضخامة عددهم ، أراد الفرار بقواته فى البداية ، ولكن ضباطه شجعوه على الثبات وخوض المعركة ، فنشبت بين الفريقين فوق جبل صغير يعرف برأس تاجْرا ، على مقربة من وادى مجسر ، جنوب شرقى قابس[1] معركة دموية عنيفة ، استمرت نحو ثلاث ساعات ودارت فيها الدائرة على الميورقى وأصحابه ، فقتل وأسر معظمهم ، وكان بين القتلى أخوه جبارة ، وكاتبه على بن اللمطى ، وعامله الفتح بن محمد ؛ وفر يحيى مع جماعة قليلة من صحبه ، وكان قد ترك ولده وأهله فى موضع بعيد عن مكان المعركة فصحبهم فى فراره ، وأنقذوا بذلك من الأسر ؛ واستطاع الشيخ أبو محمد القائد المظفر أن ينقذ السيد أبا زيد وأصحابه أحياء من أسر الميورقى ، وكان الموكل بالسيد أبى زيد على وشك أن يجهز عليه ، واستولى الموحدون على محلة الميورقى ، ورايته العباسية السوداء ، وسائر ماكان بالمحلة من الأموال والأسلاب والإبل ، وكانت غنيمة وافرة تحتوى على ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والآلات ، وحمل ذلك كله إلى الخليفة الناصر ، وهو تحت أسوار المهدية ، وكان بين الأسرى الأمين الموكل بثقاف السيد أبى زيد ، فشهر به فوق جمل عال ، وبيده الراية السوداء ؛ ووقعت هذه الهزيمة الساحقة بالميورقى بجبل تاجْرا فى اليوم الثانى عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م)[2].

---

(١) تراجع خريطة إفريقية المنشورة فى ص ١٦٣ ففيها بيان لمواقع هذه المعركة .

(٢) رحلة التجانى ص ٣٥٧ — ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٢٣ و ١٢٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ، وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 129

وكان الموحدون فى تلك الأثناء يضاعفون جهودهم للضغط على المهدية ، وإرغامها على التسليم . وكان يحيى الميورقى ، توقعاً لهذا الحصار ، قد بالغ فى اتخاذ الأهبة ، وشحن المهدية بالرجال والمؤن . وكان حاكم المدينة على بن الغازى جندياً جريئاً ، ومدافعاً قوى الشكيمة ، فبذل جهوداً عنيفة لرد المحاصرين ، وخرج لقتالهم عدة مرات ، وفى كل مرة يوقع بهم ويحرق مجانيقهم وآلاتهم ويسبب لهم خسائر شديدة ، واضطر الموحدون إزاء ذلك إلى الإكثار من المجانيق والآلات ، وإعداد السلالم والأبراج العالية للإشراف على المدينة ، ومضاعفة الحشود حولها ، واستمر الأمر على هذا المنوال ، حتى وقعت معركة رأس تاجْرا ، وهزم يحيى وألجئ إلى الفرار ، وحمل الموحدون الغنائم والعلم الأسود إلى الناصر تحت أسوار المهدية ، وقاموا بتبريز الغنائم ، وتوزيعها بمشهد ظاهر من أهل المدينة المحصورة : ومع ذلك فإن الغازى وصحبه لبثوا حيناً غير مؤمنين بهزيمة يحيى ، واستمرت المعارك بينهم وبين المحاصرين وقتاً ، وجمع الناصر المجانيق على جهة واحدة من السور ، وشدد فى ضرب المدينة ، فكثُر القتلى والجرحى من أهلها ، واضطر الغازى وصحبه أخيراً إلى طلب الأمان والتسليم ، على أن يُسمح لهم باللحاق بيحيى ، فوافق الناصر على طلبهم ، وسلمت المدينة للناصر فى اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ (١١ يناير سنة ١٢٠٦ م) وغادر على بن الغازى — وكان الموحدون يسمونه بالحاج الكافر — المدينة مع صحبه ، ونزل بموضع قريب منها بنية اللحاق بيحيى ، ولكنه عاد فى اليوم التالى ، فعدل عن هذه النية ، وبعث إلى الناصر يعلن طاعته ودخوله فى الدعوة الموحدية ، فاغتبط الناصر بتوحيده ، واستدعاه إليه ، وغمره بعطفه وإكرامه ، وصحبه معه فيما بعد إلى مراكش ، ولما عبر الناصر البحر بعد ذلك إلى الأندلس بقصد الجهاد ، سار علىّ معه ، واشترك مع الموحدين فى معركة العقاب ، وقتل ضمن من قتل منهم(١) .

وفى يوم عشرين من جمادى الأخرى ، غادر الناصر المهدية ، بعد أن عفا عن سائر أهلها ، من المقاتلين وغيرهم ، وأمر بترميم أسوارها ، وتنظيم أمورها ، وعين لها والياً هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يغمور الهنتاتى ، وعين لولاية طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع . ثم سار إلى تونس ، ومنها أصدر كتب الفتح ، واستقر بها بقية عام اثنين وستمائة ، ومعظم العام التالى .

---

(١) رحلة التجانى ص ٣٥٨ و ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٣ و ١٥٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٣ .

— ٤ —

وهكذا انتهت هذه المعركة العنيفة الشاملة، بسحق يحيى بن إسحاق الميورقى ، وسحق سلطان بنى غانية فى إفريقية ، واسترداد الموحدين لسلطانهم وهيبتهم ، فى تلك المناطق الغنية الآهلة . وكان قد مضى نحو ربع قرن ، منذ نفذ بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، مشروعهم فى مهاجمة إفريقية ، واتخاذها مسرحاً للصراع ضد الموحدين خصوم الدولة المرابطية والمنتزعين لتراثها ، ومنذ استولى عميدهم على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، على ثغر بجاية فى سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فى أوائل عهد الخليفة المنصور . وقد تتبعنا حركات بنى غانية ومغامراتهم فى إفريقية من ذلك التاريخ ، وأتينا على فتوحاتهم المتوالية للقواعد والثغور الإفريقية ، وعلى ما نشب بينهم وبين الموحدين ، فى مختلف المواطن والتواريخ ، من معارك مريرة مستمرة . ولقد كان بنو غانية رجال حرب وسياسة معا ، يبغون افتتاح الأقطار ، وبسط السيادة والسلطان على ما يفتحونه من الأراضى ، ولكن كانت تحفزهم إلى خوض هذه المعارك مع الموحدين مشاعر ومثُل خاصة، فقد كانت تجثم وراء هذه المعارك والفتوحات المتوالية ، إلى جانب شهوة السلطان والملك ، رغبة مضطرمة فى تقويض أسس الدعوة الموحدية ، والقضاء على سلطان الموحدين . وكانوا يرون الدعوة الموحدية ، دعوة ختل وخداع ، ويعتبرون الموحدين غاصبين آثمين ، استولوا بغير حق ولا سند شرعى ، على تراث الدولة المرابطية غدراً وظلما ، ويعتبرون المرابطين سادتهم وحماتهم الأوائل ، وبنى قبيلهم وجلدتهم ، مجاهدين شهداء ، يجب الانتقام لهم ، والانتصاف لحقهم المغصوب .

كانت هذه العواطف والمثل هى التى تحرك بنى غانية فى البداية إلى شهر صراعهم ضد الموحدين فى إفريقية ، ولكنهم بعدما تحقق لهم الظفر فى ذلك الصراع ، وبعد أن استولوا على معظم القواعد والثغور الإفريقية ، ونعموا بالملك والسلطان ، وامتلأت أيديهم من الأموال والغنائم ، تحولوا إلى فئة من المغامرين ، تقصد قبل كل شىء إلى تحقيق الغُنم والسلطان بأى الوسائل، وتضاءل لون المعركة المذهبي والمثالى شيئاً فشيئاً ، واستحال إلى صراع مادى على امتلاك تلك المنطقة الغنية الآهلة — إفريقية — وانتزاعها من أيدى الموحدين ، لتغدو غنما لبنى غانية . وقد أسفر هذا الصراع عن تحقيق أمنية بنى غانية كاملة ،واستطاع

يحيى بن غانية ، بعد فترة قليلة من مصرع أخيه على بن غانية ، أن يفتتح سائر القواعد والثغور الإفريقية — القيروان وسوسة والمهدية وصفاقس وقفصة وبلاد الجريد ، وجبل نفوسة وطرابلس وغيرها ، وانتهى أخيراً بأن افتتح تونس ذاتها ، وتغلب على خصومه من الغز فى المنطقة الشرقية ، وسحق سائر الحملات الموحدية التى وجهت لقتاله ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية سوى بجاية ، وما يليها من الشاطئ .

على أن هذه المملكة العظمية ، التى استطاع يحيى بن غانية أن يبسط عليها سلطانه ، لم تكن وحدة متماسكة متناسقة ، فقد كان سكانها يتألفون من عناصر مختلفة متنافرة ، من العرب والبربر ، وكان من بينها فى الجنوب فى جبل نفوسة ، وما يليه ، طوائف من الخوارج لاتدين بالولاء لأحد . ولم يكن يحيى بن غانية بالرغم من براعته وبسالته كجندى وقائد ، يتصف بشىء من المقدرة الإدارية والنظامية ، ولم يستطع بالرغم من ظفره على خصومه فى معظم المعارك التى خاضها ، أن ينشئ فى البلاد التى افتتحها أية نوع من الحكومة المنظمة ، بل كان يجرى فى حكمها على نوع من الارتجال الخطر ، وكانت أساليبه فى الحكم هى أساليب الطاغية المطلق ، أعنى حكم عسف وهوى ، لايعرف معنى للحق والعدل ، فلم يكن ثمة فى ظله ضمان للنفس أوالأموال أوالحرم ، بل كان يتميز قبل كل شىء بالقتل والغصب واستباحة الحُرم ، وعلى الجملة ، فلم تكن حكومة الميورقى ، وعماله فى تلك الأقطار ، سوى حكومة عصابات ناهبة تعتمد فى تدعيم سلطانها على الإرهاب المطبق . وكان يحيى لايدخر وسعاً فى استلاب المال بكافة الوسائل ، ينفق منه على حملاته ومشاريعه الحربية التى لاتنتهى ، ويبذل الوفير لأحلافه من طوائف الإعراب القُلّب الذين لايخبو لهم جشع . وقد رأينا ماكان من بالغ جشعه واشتطاطه فى فرض الغرامات على أهل تونس ، وجبل نفوسة ، وما اقترن باقتضائها من رائع السفك والتقتيل .

وقد كان حريّاً بمثل هذا الحكم أن يثير بغض سائر المحكومين ومقتهم وأن يحفزهم إلى ترقب انهياره والخلاص منه . وهكذا كان سلطان بنى غانية ، يقوم على بركان من البغض الخطر ، الذى لايلطف منه أى عطف أو ولاء . وبالرغم من أن حكم الموحدين لإفريقية لم يكن حكما مثالياً ، فقد كان على الأقل حكما نظامياً ، فى معنى من المعانى ، وكان بعيداً عن مثل هذه الفظائع ، التى كانت تصم حكم

بنى غانية باستمرار ، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن يتوق أهل المدن الإفريقية إلى عودة الحكم الموحدى ، وأن يستقبلوا الجيوش الموحدية بالترحيب والرضى ، وأن يبتهجوا لسقوط الميورقى وانهيار سلطانه .

تلك هى الظروف والعوامل التى اجتمعت لتقوض سلطان بنى غانية فى إفريقية ، ولتحول انتصارات يحيى الميورقى وفتوحاته ، إلى حملات ناهبة غير مستقرة الدعائم ، ولتجعل من حكمه لتلك المملكة الغنية الشاسعة ، حكم عصابة مغامرة ، ولتحمل إليه فى النهاية عوامل الانهيار والسقوط .

على أن يحيى الميورقى ، بالرغم من هزيمته الساحقة فى جبل تاجرا ، ومن فقده لأمواله وعتاده ، ومعظم صحبه ، وفراره فى فلوله شريداً إلى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس مع ذلك ، ولم تتكسر نفسه الوثابة ، ولم تخب قواه المعنوية ، ولم يعتبرها كلمة الفصل النهائية ، فى معركته مع الموحدين ، وسوف نراه عما قريب ينزل إلى ميدان النضال والصراع مرة أخرى ، مزوداً بقوى جديدة ، وآمال جديدة .

— ٥ —

كان أهم ما عنى به الناصر خلال إقامته بتونس ، هو أن يتخذ كل إجراء ممكن ، لتأمين إفريقية ، وتوطيد سلطان الموحدين بها ، والحيلولة دون قيام أمر بنى غانية مرة أخرى . وكان يحيى الميورقى على أثر هزيمته الساحقة فى موقعة تاجرا ، قد فر فى فلوله حسبما تقدم إلى الواحات الجنوبية ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يدل على أنه قد سحق بصورة نهائية . ومن جهة أخرى فقد كانت توجد ثمة طوائف أخرى من البربر والأعراب فى الجهات الجنوبية ، دائبة الشغب والعصيان . ففى شهر صفر سنة ٦٠٣ هـ ، وجه الناصر وهو ما يزال بتونس حملة موحدية جديدة ، تحت إمرة أخيه السيد أبى إسحق ، إلى الأطراف الجنوبية لاستئصال أهل الشر والفساد ، فسارت هذه الحملة ، وهى تتقصى آثار « الأشقياء » شرقاً وغرباً ، حتى وصلت إلى أحواز طرابلس ، وقامت بردع بنى دمر ، ومطماطة ، ووصلت إلى آخر جبال نفوسة ، وهى تعمل على مطاردة العناصر المشاغبة وسحقها ، ثم عادت إلى تونس بعد أن قامت بتأدية مهمتها ، دون أن تلقى معارضة أو مقاومة[1] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .

على أن أنجع إجراء اتخذه الناصر لتأمين إفريقية هو إسناده ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتى ، وهو الظافر فى معركة تاجرا . وكان أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين، وأعلاهم مكانة ، وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة . وكان يمت إلى الخليفة بصلة النسب الوثيق ، إذ كان متزوجاً أخته إبنة الخليفة المنصور . وكان الناصر يثق بحكمته ، وسديد رأيه ووافر مقدرته . وقد اعتذر أبو محمد بادى ذى بدء عن قبول هذا المنصب ، وشعر أنه نوع من الإبعاد له عن البلاط ، والمشاركة فى الجليل من الشئون ، فبعث الناصر إليه ابنه وولىّ عهده الفتى يوسف ، ليقنعه بالقبول . ويفصل لنا التجانى فى رحلته ، ما قاله ولى العهد للشيخ ، وما نوه به من أهمية إفريقية ، وماضحى به الموحدون فى سبيلها من المال والرجال ، وأن الخليفة لم يجد عن اختيار الشيخ معدلا ، وقد أكبر الشيخ حركة الخليفة ومقدم ولى عهده، فأبدى قبوله لولاية إفريقية، بشروط خلاصتها أنه لايبقى فى منصبه إلا بقدر ما تصلح أحوال إفريقية ، وينقشع خطر الميورقى عنها ، وهو يقدر لذلك ثلاث سنين ، وأن يختار من قوات الجيش من يرى بقاءهم معه ، وألا يُسئل عن تصرفاته كائنة ماكانت ، وأن يُخير فى أمر الولاة الذين اختارهم الخليفة لبلاد إفريقية ، فيبقى من يشاء ويعزل من يشاء ، فقبل الناصر كل شروطه . ثم أزمع الرحلة إلى المغرب ، فغادر تونس فى السابع من شهر شوال سنة ٦٠٣ هـ ، وصحبه الشيخ أبومحمد مدى ثلاثة أيام . وحدث عند خروج الناصر أن مثل بين يديه أهل تونس وأبدوا له خوفهم ، من أن يعود الميورقى إلى عدوانه ، بعد سفره ، فاستدعى الناصر أعيانهم ، وطمأنهم بوجود الشيخ أبى محمد على رأس الولاية ، وأنه آثرهم بوجوده رغم شدة حاجته إليه ، فاطمأن الناس لقوله واستبشروا بولاية الشيخ[1] .

وسار الناصر أولا إلى تلمسان ، فوصل إليها فى أوائل شهر ذى الحجة ، واستقر بها وقتاً ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاة إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة والمرية ومرسية ، لموافاته مع أتباعهم . وكان عند خروجه إلى غزوته فى إفريقية ، قد أمر بعزل السيد أبى إسحق عن ولاية إشبيلية، وقدم عليها أخاه السيد أبا موسى . وقضى أيام عيد النحر بتلمسان ، وبقى بها حتى نهاية ذى الحجة ، ثم غادرها إلى مدينة فاس ، ونزل بها فى أوائل شهر المحرم سنة ٦٠٤هـ ، واستأنف بها النظر فى

(١) رحلة التجانى ص ٣٦١ و٣٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٨ و٢٤٩ .

الأعمال ، وشكا إليه أهل فاس من مظالم عاملهم أبى الحسن بن أبى بكر ، كما شكا إليه أهل مكناسة من مظالم عاملهم أبى الربيع بن أبى عمران ، فأمر بالقبض عليهما ، واستصفاء أموالها . ثم رحل إلى مكناسة ، ونزل بها فى صفر ، وأصابته هنالك وعكة ، يبدو أنها كانت من أثر مرض وبائى فشا ببلاد الأندلس وانتقل إلى العدوة . فلما تماثل للشفاء ، غادر مكناسة إلى رباط الفتح ، فوصل إليها فى شهر ربيع الأول ، ثم رحل منها مباشرة ، إلى مراكش ، فوصلها بعد أيام قلائل(١) .

وماكاد الناصر يستريح من وعثاء السفر ، حتى عاد إلى النظر فى الأعمال السلطانية ، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبى زيد على الأشغال بالعدوتين المغرب والأندلس . وكان أبو سعيد بن جامع متولياً للوزارة ، فبقى على ماكان عليه ، وكانت تربطه بعبد العزيز بن أبى زيد روابط الصداقة . ووصل معظم العمال مع أتباعهم وكتابهم ، وفقاً للأمر الصادر بذلك ، وأخذ فى تصفح أعمالهم ومراجعتها ، وكان ممن وصل من العمال بالأندلس ، يوسف بن عمرو الكاتب ومؤرخ الخليفة المنصور ، وكان يتولى النظر على بعض الأشغال المخزنية والسهام السلطانية ، وكان قد لحقت بتصرفاته بعض الريب ، فماكاد يقترب من الحضرة حتى أحيط بأحماله ومتاعه وقبض عليه وثقف ، ثم فتحت أحماله وأمتعته بحضور الشهود وروجعت ، فلم يوجد بينها شىء مما يدينه ، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه ، ورد ماله ومتاعه إليه ، وكان مما شفع له فى ذلك عند الناصر ، كتابه الذى ألفه فى محاسن والده المنصور(٢) .

وفى هذا العام توفى السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن والى بجاية ، وكان قد قام بتجديدها عقب الحريق الذى أصابها وخرب كثيراً من ربوعها . وفى العام التالى أعنى سنة خمس وستمائة أقيل السيد أبو الحسن بن عمر والى تلمسان لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور ، واضطراب قبائل زناتة فى تلك المنطقة ، وعين مكانه فى الولاية السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة ، فقدم إلى تلمسان ومعه عسكر من الموحدين ليستعين بهم فى ضبط الأمن والسكينة فى تلك المنطقة .

وفى تلك الأثناء كانت الحوادث فى إفريقية قد عادت إلى اضطرامها ، وعاد يحيى الميورقى إلى استئناف نشاطه ومغامراته . وكان مذ لحقت به

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، والبيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

الهزيمة الساحقة ، بجبل تاجرا ، وارتد بفلوله إلى الجنوب ، يرقب الفرص للانتقام واسترداد شيء من سلطانه الضائع . وكان ما يزال يلتف حوله بعض طوائف من حلفائه الأعراب ، الذين بقوا إلى جانبه بالرغم من محنته . وقد أشرنا من قبل غير مرة إلى الدور الذى كانت تقوم به طوائف العرب فى أرجاء إفريقية ، من احتراف الحرب ، والتقلب فى محالفة مختلف الجهات . وكان بنو غانية يعتمدون بالأخص على معاونة العرب فى سائر مشاريعهم الحربية . وكان يحيى الميورقى يجمع حوله كثيراً من حشودهم ، ويأسرهم بوافر بذله ، وإطلاق أيديهم كلما سنحت الفرص ، فى أعمال السلب والنهب . وكذلك كان الموحدون يعتمدون على بعض طوائف العرب فى تزويد جيوشهم بفرق المرتزقة . فلما حلت الهزيمة بيحيى وتحطم سلطانه ، تركه كثير من حلفائه العرب السابقين ، وانضموا إلى جانب الموحدين الظافرين ، وكان من هؤلاء بنو مرداس وبنو عوف من بطون بنى سُليم ، وكانت أحياؤهم تقع فى المنطقة الممتدة من قابس نحو بونة ، أما بنو زغبة فقد كانوا أصلا من خصوم بنى غانية ، ولم ينقطعوا عن محاربتهم قط ، وكانوا دائماً إلى جانب الموحدين ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع بربر زناته الضاربين فى المغرب الأوسط ، واستمرت المصادمات بينهم وبين بنى غانية . بيد أن يحيى استطاع بالرغم من محنته أن يستبقى إلى جانبه بالأخص، حشوداً كبيرة من رياح وسليم ، ومن الزواودة من بطون رياح ، وشيخهم محمد بن مسعود الباط لم يفارقه فى ضرائه .

فلما غادر الخليفة الناصر ، تونس ، وسار فى معظم قواته صوب المغرب ، فى أواخر سنة ٦٠٣ هـ ، أخذ يحيى الميورقى يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى ، ثم سار على رأس جموعه نحو الشمال ، وهو يعيث حيثما حل ، وكان الشيخ أبو محمد الحفصى والى إفريقية ساهراً ، يرقب عن طريق عيونه حركات الميورقى ، فلما ترامت إليه الأخبار بتحركه ، خرج فى جيش من الموحدين والعرب ، من بنى عوف وسليم ومرداس ، وسار توا للقائه . والتقى الفريقان فى منطقة تبيشة على ضفة وادى شبرو ، واقتتل الفريقان بشدة وعنف ، واستمرت المعركة طول اليوم ، وأسفرت فى النهاية عن ظفر الموحدين وهزيمة المرابطين الميورقيين ومن معهم من العرب ، فارتد يحيى فى فلوله وهو جريح ، والموحدون فى أثره ، ولكنه استطاع أن يلحق بالصحراء فى اتجاه طرابلس ، واستولى الموحدون على

محلته وسائر عتاده وأسلابه ومتاعه ، وكانت غنيمة وافرة ، وتمت هذه الهزيمة على يحيى الميورقى فى ٣٠ ربيع الأول سنة ٦٠٤هـ (٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧م) . ورجع أبو محمد إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الناصر بالفتح ، واستنجزه وعده فى الإقالة من منصبه ، فبعث إليه الخليفة يشكره ويعتذر له بانشغاله بشئون المغرب ، ويرجوه الاستمرار فى النظر ، وبعث إليه بالمال والخيل والكسى للإنفاق والعطاء ، وبلغ ما أرسله من المال وحده مائتى ألف دينـار[1] .

على أن هذه الهزيمة الثانية لم تفت فى عضد يحيى بن غانية ، ولم تخمد لديه عزم التوثب والنضال ، فجمع أشتات قواته مرة أخرى ، ورأى تلك المرة ، تجنباً للصدام مع أبى محمد ، وتفاديا لضرباته القاصمة ، أن يتجه نحو المغرب ، فسار فى جموعه من المرابطين وطوائف العرب ، متجهاً صوب الجنوب الغربى ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، وتحالف مع بطون زناتة الضاربة فى تلك الأنحاء ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى واحات سجلماسة ، ثم هاجم سجلماسة واقتحمها ، ونهبها ، وفرق الغنائم فى أصحابه ، وكانت وفيرة ، فانتعشت نفوسهم . وكان وصول الميورقى على هذا النحو إلى أعماق المغرب ، واقترابه من العاصمة الموحدية ، مثار الدهشة والروع بين الموحدين ، ونهض الشيخ أبو محمد فى قواته مرة أخرى للقاء الميورقى عند العود ، وبعث إلى والى تلمسان السيد أبى عمران موسى يحذره من مفاجآت الميورقى ، وأن يتجنب لقاءه ، وكان السيد أبو عمران قد خرج من تلمسان يجوس بين قبائل زناتة الضاربة فى جنوبها ، يسترضيهم ، ويستميلهم إلى أداء الجبايات ، والتزام الطاعة والسكينة . وكان بين قوات الميورقى كثير من بطون زناتة ، الخوارج على طاعة الموحدين ، فاتصل بهم زملاؤهم زعماء زناتة المقيمين فى جنوبى تلمسان ، وعرّفوا الميورقى بظروف السيد أبى عمران ، وعدم استعداده وضعف قواته ، وابتعاده عن مدينته المحصنة ، فسار الميورقى نحو الشمال حتى اقترب من جنوبى تلمسان . وعلم السيد أبو عمران

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ . وقد جاء فى « العبر » أن مبلغ ما أرسله الخليفة من مال كان « مائة ألف ألف دينار ثنتان » . ومعنى ذلك أن المال بلغت جملته مائة مليون دينار . وهذا رقم يصعب تصديقه ، ولا يتفق بأى حال مع تقديرات العصر وموارده . وربما كان هناك تحريف فى النص .

بمقدمه وتردد وقتاً فى لقائه . ولكن الميورقى لم يلبث أن فاجأه بجموعه من المرابطين والعرب . واضطر السيد أن يلقاه فى قواته القليلة ، وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية ، وفتكوا بها ، وصمد السيد أبوعمران ومن معه ، فقتلوا جميعاً ، وأسر بعض بنى السيد ، والكاتب أبو الحسن بن عياش ، وبعض طلبة تلمسان ، واستولى الميورقى على المحلة الموحدية وسائر ما فيها من العتاد والسلاح والخيل ، واقتحمت مدينة تاهَرْت ونهبت وخربت حتى غدت أطلالا (٦٠٥هـ — ١٢٠٩م) ، وانتشرت جنود الميورقى من المرابطين والعرب فى أحواز تلمسان ونهبوها ، وانتسفوا زروعها ، فارتاع أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، وهم يتوقعون أسوأ مصير ، وبادر السيد أبو زكريا يحيى والى فاس فى قوة من الموحدين ، فوصل مسرعاً إلى تلمسان ، وطمأن أهلها وسكن روعهم . وأمر الناصر فى نفس الوقت بتجهيز حملة كبيرة من قوات مختارة ، زودت بوافر العدد والأقوات ، وعين لولاية تلمسان الوزير أبا زيد بن يوجان ، وقدّمه على العسكر ، فسار ابن يوجان فى قواته إلى تلمسان ، وعلم يحيى الميورقى بهذه الاستعدادات الضخمة كلها ، فغادر منطقة تاهرت فى قواته ، وقصد إلى الصحراء متجهاً نحو طرابلس ، ومعه محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وطوائف رياح وسليم وغيرهم[1] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اعتزم يحيى بن غانية أن يستأنف غاراته . وكانت نفسه قد قويت بما أحرز من نصر فى تاهرت ، وانتعشت جموعه لما أحرزت من المال والغنائم ، وكان حلفاؤه العرب من جهة أخرى يتوقون إلى استئناف العيث والنهب ، وهو قوام أطماعهم ، ومورد عيشهم ، وقد تضخم جيش يحيى بما انضم إليه من طوائف جديدة من الغز والعرب ، جاءت لتبحث عن مطامعها ، ولتغتنم فرص الكسب ، وكان من هؤلاء رياح وزغبة وعوف ودباب ونعات وغيرهم ، هذا إلى الزواودة وشيخهم محمد بن مسعود . وكان يحيى ينوى هذه المرة أن يعود إلى مهاجمة أراضى إفريقية ذاتها . ولم تكن نيات الثائر بخافية على أبى محمد بن أبى حفص والى إفريقية اليقظ الحازم . فبادر بحشد قواته ، معتزماً أن يبادر الميارقة وحلفاءهم قبل أن يخترقوا إفريقية ، وخرج من تونس

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص٢٢٩ و٢٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ و ٢٧٨ .
وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania p. 148 & 149 .

سنة ست وستمائة ، فى جيش كثيف وافر العُدة ، وسار جنوبا نحو قابس ، ثم اتجه نحو جبل نفوسة ، حيث كان يحتشد المرابطون وحلفاؤهم العرب . والتقى الفريقان فى موضع من جبل نفوسة ، وأقام أبومحمد محلته مزودة بالفساطيط والأبنية ، حتى لاتكون ثمة أية فكرة فى التراجع . ثم اشتبك الفريقان فى معركة عنيفة دامية ، فانكشفت ميسرة الموحدين فى البداية ، وولى من كان بها من الغُز والأعراب منهزمين ، وثبت الشيخ أبومحمد فى القلب مع الموحدين والحفاظ ، وانحازت إليه بعض طوائف من بنى عوف وبنى سليم ، واستمر القتال طول اليوم على أشده ، وأسفر فى النهاية عن هزيمة المرابطين وحلفائهم ، وطارد الموحدون الجيش المنهزم ، وأمعنوا فيه قتلا وأسراً ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، واستولى الموحدون على محلة الميورقى ، وسائر ما بها من الأسلاب والغنائم ، واستولوا كذلك على ظعائن العرب وغنائمهم التى كانوا يحتفظون بها ، وذكر ابن خلدون نقلا عن ابن نجيل كاتب أبى محمد أن أحمال الغنائم فى هذه الموقعة بلغت ثمانية عشر ألفا ، وكان بين القتلى محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن أبى الشيخ ، وشيخ بنى قرة ، وشيخ مغراوة ، ومحمد بن الغازى ابن غانية ، وكثيرون من أنجاد بنى رياح وبنى هلال . وكانت ضربة ساحقة ليحيى ابن غانية ، وحلفائه ، تضارع فى عنفها وأهمية نتائجها ضربة جبل تاجْرا ، وفر يحيى فى فلٍّ من صحبه ، وقد هدته النكبة ، وأوقعت فى قلبه اليأس ، وارتد أبو محمد فى قواته إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الخليفة الناصر بالفتح ، فقرئ كتابه بالمسجد الجامع : وجلس الناصر لتقبل الهناء والاستماع لمدائح الشعر[1] ، وكان منها قصيدة لأبى عبد الله بن يخلفتن الفازازى هذا مطلعها :

هذه فتوح تفتحت أزهارها ... وتدفقت ملء الملا أنهارها
وتأرّجت نفحاتها وتبرجت ... صفحاتها وتبلجت أنوارها
وأتت بشائرها إليك سوافرا ... عن أوجه يا حبذا إسفارها

ولم ينس أبو محمد ما قام به عرب سليم من محالفة الميورقى والقتال إلى جانبه ، فاخترق ديارهم خلال عوده ، وأمر بالقبض على زعمائهم ، وأرسلهم مصفدين إلى تونس ، فكان لتصرفه وقع عميق فى تلك المنطقة ، التى كثر فيها تقلب

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣١ و ٢٣٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ .

الأعراب وفسادهم . وبالعكس عومل العرب الذين وقفوا إلى جانب الموحدين بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم أراض شاسعة خصبة فى وادى القيروان .

وكان أهل جبال نفوسة قد أرهقهم ابن عصفور نائب يحيى بجوره ، وأثقل كاهلهم بالمظالم والفروض ، فما كادت تقع الهزيمة على الميورقى ، حتى وثبوا بابن عصفور فقتلوه ومعاونيه من المرابطين ، كما قتلوا ولدين ليحيى .

وعكف أبومحمد بعد نصره الحاسم على معالجة شئون إفريقية ، بما عرف عنه من الحزم والبراعة ، فقمع كل صنوف الفساد والشغب ، ووطد دعائم السكينة والنظام ، واستوفى فروض الجباية من سائر الطوائف ، فازدهرت فى ظله بلاد إفريقية ، وعمها الأمن والرخاء ،وذاع اسم أبى محمد ، واشتهر أمره ، وسمت مكانته ،حتى غدا ثانى رجل فى الدولة بعد الخليفة ذاته ، وكان العمل الذى اضطلع به ونجح فى تحقيقه ، وهو إخماد ثورة بنى غانية ، وتحرير إفريقية من نيرهم ، وردها إلى سلطان الموحدين ، وذلك فى فترة يسيرة لاتتجاوز خمسة أعوام أو ستة ، من أعظم الأعمال العسكرية والسياسية ، التى استطاعت الدولة الموحدية أن تقوم بها فى مدى ربع قرن ، مذ نزل بنوغانية بإفريقية لأول مرة . ولم يكن ذلك عملا هيناً ولا ميسوراً إزاء ماكان يتصف به على بن غانية وأخوه يحيى ، وبقية هذه العصبة ، من الجرأة والبسالة وشدة المراس . وكان توطيد سلطان الموحدين بإفريقية على هذا النحو ، عمل إنقاذ وقى الدولة الموحدية كثيراً من أخطار التمزق والتفكك ، التى كانت تتعرض لها ، من جراء تغلب بنى غانية على جزء من أهم أراضى الدولة ، وعجزها عن رد عدوانهم . واستمر أبو محمد بن أبى حفص عدة أعوام أخرى حتى وفاته فى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) يسيطر على مصاير إفريقية ، ويسهر على سلامتها وأمنها ، ويوطد شئونها بمقدرة فائقة ، فهل كان عندئذ يضمر أو يدور بخلده أنه إنما يمهد بهذا التوطيد لسلطان عقبه ، وتأسيس أسرته الملوكية المستقلة ، التى قامت بعد ذلك بقليل ، فى هذا القطر من أقطار الإمبراطورية الموحدية[1] .

أما يحيى بن غانية فقد لبث بعد نكبته الأخيرة فى جبل نفوسة ، ملتجئاً مع فلوله إلى الصحراء الجنوبية ، يلوذ مؤقتاً بأهداب السكينة ، ويرقب الحوادث . بيد أنه لم يمض قليل على ذلك ، حتى انفصل عنه أخوه سير بن إسحاق بن غانية ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٩ . وراجع أيضاً A. Bel : Les Benou Ghania p. 152 - 154

وكان ممن شهد معه غزوة تلمسان ، وسار إلى تونس ملتجئاً إلى الشيخ أبى محمد ، لائذاً بطاعة الموحدين ، فأكرم الشيخ مثواه ، ثم استأذنه فى السفر إلى الحضرة فأذن له ، واستقبل هناك بالمودة والترحاب (سنة ٦٠٧ هـ) .

وفى خلال ذلك كان الخليفة الناصر عاكفاً على معالجة الشئون الإدارية ، والنظر فى أعمال الولايات . وكان كثير التغيير والتبديل للولاة ورجال الدولة . ومن ذلك أنه فى سنة خمس وستمائة ، أقال أبا يحيى بن الحسن بن أبى عمران من الوزارة ،وألزمه أن يبقى فى داره ، ثم عينه بعد ذلك والياً لميورقة مكان السيد أبى عبد الله بن أبى حفص ، وعين السيد أبا عبد الله واليا لبلنسية ، وقدم للوزارة أباسعيد ابن أبى إسحاق بن جامع مكان أبى زيد بن يوجان . ثم عين أخاه السيد أبا إسحق والياً لإشبيلية ، وأخاه السيد أبا محمد والياً لشرق الأندلس ، والشيخ أباعمران بن ياسين الهنتاتى والياً لمرسيه ، مكان أبى الحسن بن واجاج ، وعين السيد أبا زيد والياً لجيان ، وأبا عبد الله بن أبى يحيى بن الشيخ أبى حفص والياً لغرناطة . وعين لكتابة الديوان الكاتبين أبا محمد بن الحسن ، وأبا عبد الله بن منيع ، وكان كلاهما من الكتاب المجيدين ، واختص الأول بكتب التوقيعات والظهائر ، واختص الثانى بديوان العسكر ، والتنفيذات السلطانية . وكذلك تناولت هذه التعيينات شئون القضاء فعزُل القاضى أبوعبد الله الباجى عن قضاء إشبيلية ، وعُين مكانه أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق . وعُين لقضاء قرطبة ابن حوط الله ، مكان أبى على بن أبى محمد المالقى ، واستدعى أبوعلى إلى الحضرة حيث قُدم على طلبة الحضر ، وهو المنصب الذى كان يتولاه أبوه وإخوته من قبل . وعُين أبو إبراهيم ابن يغمور لقضاء بلنسية . وندب القائد أبوعبد الله بن عيسى المرسى لقيادة قوات الغرب بشلب ، ونُدب أبو الجيش محارب لاستقبال ملوك الروم وسفرائهم ، والاشتغال بإنزالهم وضيافتهم ، والترجمة عنهم ، مكان ابن عوبيل ، وهى وظيفة مستحدثة فى البلاط الموحدى ، ولم يسبق أن وقفنا على ذكرها من قبل ضمن مناصب الإدارة الموحدية . ووقعت هذه التغييرات والتعيينات كلها فى عام واحد ، هو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م)[١] .

ووقعت بالمغرب فى هذا العام عدة حوادث أخرى تستحق الذكر ، منها

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٣ و ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

مصرع ابن عطية الزناتى ، أحد رؤساء زناتة الخوارج فى منطقة تلمسان الجنوبية ، وكان ممن تحالف مع ابن غانية حين غزوته لمنطقة تلمسان ، فدس إليه ابن يوجان والى تلمسان من اغتاله بمقره . وفى هذا الحادث ما يدل على أن الاغتيال السياسى كان من وسائل الموحدين فى القضاء على خصومهم . ومنها أن الشيخ أبامحمد قام بغارة على أحياء الخوارج والمشاغبين من بنى سليم ، واستاق أشياخهم وأموالهم ، وجعلهم رهينة لديه فى تونس ، حسما لفسادهم وشغبهم ، وإرغامهم على قطع إمدادهم ومعاونتهم لابن غانية ، ومن جهة أخرى فقد قام محمد بن عبد السلام عامل طرابلس بغارة على منطقة جبل نفوسة واقتحم بها قصراً ، ألفى فيه جملة من ثمين المتاع والأموال لبنى غانية ، ووطد أسباب الهدوء فى تلك المنطقة

وكان من أهم الحوادث فى هذا العام أيضاً ، الحريق الكبير الذى وقع بمراكش ، وكان وقوعه فى ليلة يوم الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى ، والناس يرقدون فى مضاجعهم . وشبت النار أولا فى حى القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحى كله ، فشب الناس مذعورين من نومهم ، وكثر الصراخ والاستغاثة ، ونهض الخليفة الناصر على الضجيج وغادر قصره مسرعاً ، واعتلى صومعة الجامع ليشهد تغلغل النار عاجزاً . واقتحم الغوغاء كثيراً من الدروب ، وسلبوا ما استطاعوا سلبه مما سلم من الحريق ، واستمر الحريق حتى صباح اليوم التالى ، وقد أتى على كثير من أحياء المدينة . وأمر الناصر فى اليوم التالى ، بتتبع السفلة الناهبين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم ، فقبض على كثيرين من هؤلاء وأعدموا على الأثر . وهلك فى تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافتقر كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم . وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه ، خصوصاً وقد كانت تواجه القصر الخليفى يسبغ عليها أضواءه[١] .

هذا ويذكر لنا صاحب البيان ضمن حوادث هذا العام ، أعنى عام ٦٠٧هـ ، حادثاً يستوقف النظر ، وهو أن بعض أعيان جزيرة صقلية ووجوهها ، وفدوا على الشيخ أبى محمد بن أبى حفص بتونس ، ونبأوه بأن المسلمين فى صقلية انتزعوا كثيرا من المعاقل من أيدى الروم ، وأقاموا الخطبة فى بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية ، وقطعوا ما سواها من الدعوات من عباسية وغيرها .

---

(١) البيان المغرب ص ٢٣٤ و ٢٣٥ .

ويبدو من تتبع تاريخ صقلية ، فى تلك الفترة أن الأقلية الإسلامية التى كانت بالجزيرة حتى هذا العهد ، كانت تعانى من الضغط والاضطهاد . وكان المسلمون منذ سقطت الجزيرة فى أيدى الأمراء النورمان فى سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، يتمتعون بطائفة من الحقوق والامتيازات ، ومنها السكنى فى بعض الأحياء ، والأراضى ، فى مسينى ، وبلرم ، وترابانى ، وجرجنت ، ومازرة ، وغيرها من المدن ، ومزاولة شعائرهم الدينية فى مساجدهم القليلة الباقية ، ومزاولة مهنهم وأعمالهم السلمية . واستمر الأمر على ذلك نحو قرن ، فى ظل عدة متعاقبة من الأمراء النورمان ذوى التسامح المستنير ، وفى مقدمتهم ولد فاتح الجزيرة ، الدوق روجر (رجّار) الثانى ، وهو الذى أسبغ رعايته على الشريف الإدريسى ، وعهد إليه بوضع موسوعته الجغرافية الشهيرة « نزهة المشتاق » . فلما توفى فى سنة ١١٥٤م ، خلفه ولده وليم الأول (غليام) ، فولده وليم الثانى . وفى عهد هذا الملك ، اشتدت وطأة الحكم على المسلمين وأراد أن ينزع منهم بعض الأراضى التى يحتلونها ليعطيها لبعض الأديرة المجاورة ، فقام المسلمون ببعض ثورات محلية ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية ؛ والظاهر أن الملك وليم ، عدل بعد ذلك عن سياسة الضغط والقمع التى حاول أن يتخذها إزاء المسلمين ، وعاد الصفاء يخيم على علائق المسلمين والنصارى .

وقد أورد لنا الرحالة الأندلسى ابن جبير وصفاً دقيقاً لأحوال مسلمى صقلية فى عهد الملك وليم (ويسميه غليام) مما وقف عليه حين زيارته للجزيرة فى شهر رمضان سنة ٥٨٠هـ (يناير سنة ١١٨٥م) ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه ، وبلارمه (بلرم) ، واطرابنش ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم . وهو يقول بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وأن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استقبالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين من العام ، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها ، ثم يقول لنا ، إنه لم يكن فى مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهى عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين فى بارم « رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم ، ويقيمون الصلاة بأذان

مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ؛ ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى . ولهم بها قاض ، يرتفعون إليه فى أحكامهم ؛ وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لاتحصى ، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل »[1].

وهذه العبارة الأخيرة من أقوال ابن جبير ، تلخص لنا حقيقة أحوال المسلمين فى صقلية فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . ذلك أنه بالرغم من تلك الامتيازات الشكلية فى السكنى والتجارة ومزاولة الشعائر ، فإنه لم يكن ثمة شك فى أن الأقلية المسلمة كانت تعيش داخل الجزيرة ذليلة مضطهدة . وهذا ما يفصله لنا ابن جبير بعد ذلك ، إذ يقول إنه خلال إقامته ببلدة إطرابنش ، « تعرف ما يؤلم تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ، وما هم عليه من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهد الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين » . ثم يقول لنا ، إنه التقى فى هذه البلدة بزعيم مسلمى صقلية ، وهو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وهو من ورثة أهل السيادة ، وكان من خيرة مسلمى الجزيرة كرماً ومآثر ، وكان قد اتهم بمخاطبة الموحدين ، واضطهد من أجل ذلك ، وغرم أموالا طائلة . ويزيد ابن جبير على ذلك ، أنه وقف من هذا الزعيم ، على بواطن أحوال مسلمى الجزيرة مع أعدائهم « مما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألماً »[2] .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك وليم (غليام) ، فيقول إنه عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله جملة من العبيد المسلمين وعليهم قائد منهم . ثم يصف لنا فخامة قصوره ، وتناهيه فى الترف ورفاهة العيش ، وشغفه باتخاذ الفتيان والجوارى ، وأنه يقرأ العربية ويكتبها ، وأهل عمالته فى ملكه منهم مسلمون .

ولما توفى الملك وليم الثانى فى سنة ١١٨٩م ، وخلفه فى حكم صقلية الإمبراطور فردريك الثانى ، أول حكامها من آل هوهنشتاوفن ، عاد فانتزع من المسلمين

---

(١) رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣١٤ و٣٢٣ .
(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٣٢ و٣٣٣ .

كثيراً من أراضيهم وأعطاها للكنيسة ؛ وكان ذلك فى سنة ١٢٠٨م (٦٠٥ هـ)[1] والظاهر أن المسلمين عادوا يومئذ إلى الثورة ، وانتزعوا بعض الحصون النصرانية مرة أخرى . ويبدو من مقارنة التواريخ ، أن هذه هى الحوادث التى يشير إليها وفد المسلمين الصقليين إلى الشيخ محمد الحفصى . على أنه يبدو كذلك أنه لم يترتب على مسعى هذا الوفد أى أثر ، وأن الموحدين لم يفكروا فى التدخل فى حوادث صقلية بأية صورة . وسنرى فيما بعد أن هذا الصراع يتجدد فى صقلية بين المسلمين وحكامهم النصارى ، ثم ينتهى بإخماد كل نزعة تحريرية للمسلمين ، وإخراجهم من ديارهم .

(١) راجع : M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1872) p. 586 & 591

الفصل السادس

موقعة العقاب

انشغال الموحدين بحوادث إفريقية عن شئون الأندلس . سكون الممالك النصرانية منذ الأرك . شعورها بسنوح الفرصة لاستئناف الغزو . انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين . إغارة الفونسو الثامن وفرسان قلعة رباح على أراضي الأندلس . إغارة ملك أراجون على أراضي بلنسية . اهتمام الناصر لتلك الحوادث . اعتزامه العبور للجهاد واستنفاره للقبائل . خروج الناصر فى قواته إلى رباط الفتح . مسيره إلى قصر كتامة . صعوبة تموين الجيش . مؤاخذة العمال المقصرين . عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة . عبور الناصر ومسيره إلى إشبيلية . الاستعداد وحشد الجند فى سائر الكور . خروج الناصر فى الجيوش من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره إلى قلعة شلبطرة . أحوال الممالك النصرانية عندئذ . الصلح والتهادن بينها . عدوان ملك قشتالة على الأندلس . اتخاذ قلعة شلبطرة قاعدة لهذا العدوان . غارات أراجون فى الشرق . البابوية والصفة الصليبية لحروب النصارى ضد الأندلس . سعى البابا إنوصان لمعاونة ملك قشتالة . صدى مقدم الجيوش الموحدية . حصار الناصر لقلعة شلبطرة . عجز ألفونسو عن إنجادها وتسليمها بالأمان . رواية صاحب روض القرطاس عن الحصار . ما ينقض هذه الرواية . عود الناصر إلى إشبيلية . أهبة ملك قشتالة . معاونة البابا والأحبار النصارى . احتشاد جماعات الفرسان . مقدم المتطوعة الصليبيين من سائر الأنحاء . اجتماع جيوش قشتالة وأراجون ونافارا . الصوم والابتهال فى رومة . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الأهبة . ما ورد فى كتاب الخليفة . أهبة الناصر . مقدم الحشود الجديدة . خروج الجيوش النصرانية من طليطلة . خروج الناصر فى جيوشه من إشبيلية . مسير النصارى إلى قلعة رباح ومهاجمتهم إياها . يأس حاكمها ابن قادس من النجدة وتسليمه بالأمان . ما أثاره هذا من خلاف بين القشتاليين وحلفائهم الأجانب . مغادرة معظم المتطوعة الأجانب للمعسكر النصرانى . إشارة الرواية الإسلامية إلى ذلك . وصول الناصر إلى جيان . مقدم ابن قادس إليه . اتهامه وصهره بالخيانة وإعدامهما . سخط الأندلسيين لذلك . إصلاح ما حدث بالمعسكر النصرانى . مسير سائر الجيوش النصرانية إلى الجنوب . صعودها إلى جبل الشارات ونزولها فى ممر موراداال . مسير الجيوش الموحدية لملاقاة العدو . أقسام الجيش الموحدى وعدده . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديره . عبور الموحدين لنهر الوادى الكبير . احتلالهم لممرات جبل الشارات . نزولهم فى السهل المواجه لممر تولوسا . توقف الناصر للقاء النصارى . وصف عيان لميدان الموقعة . حصن العقاب . الطريق الرومانى والنهر . بوير تو دل موراداال . مائدة الملك . استيلاء النصارى على قلعة فير ال أو حصن العقاب . تعذر عبورهم لجبل الشارات من تلك الناحية . قصة الراعى والممر السهل . تحول الجيش النصرانى واحتلاله لمرتفع « مائدة الملك » . وقوف الموحدين على تلك الحركة . تعبئة الجيوش الموحدية للقتال . المناوشات الأولى . ترتيب الجيش الموحدى لخوض المعركة . موقع قبة الخليفة وحرسه . تنظيم الجيش النصرانى وقيادته . استعداد الفريقين للمعركة . بدء النصارى بالهجوم . هجوم طلائعهم على مقدمة الجيش الموحدى . هجوم جناحى النصارى على جناحى الموحدين . المعركة الهائلة . ارتداد المتطوعة المسلمين . ثبات الموحدين ورد جناحى النصارى .

نزول ملك قشتالة بالقوات الاحتياطية . اشتداد هجوم النصارى . ارتداد ميمنة وميسرة الجيش الموحدى . فرار الأندلسيين والعرب . هجوم النصارى على القلب . مقاومة الحرس الخليفى العنيفة . ثبات الخليفة الناصر وحثه جنده على الثبات . اختراق النصارى للقلب . اختراقهم للدائرة الخليفية المدرعة . تمزق الجيش الموحدى وكثرة ضحاياه . صمود الناصر . مصرع الآلاف من حرسه الأسود . اضطراره فى النهاية إلى الفرار . مسيره صوب بياسة ثم جيان . فرار الموحدين فى كل ناحية . المطاردة المروعة والقتل الذريع لهم . الاستيلاء على المحلة الموحدية وانتهاب سائر ما فيها . مختلف أسماء الموقعة . خسائر المسلمين فى الموقعة . مبالغة الرواية الإسلامية فى تقديرها . اعتدال الرواية النصرانية فى ذلك . مبالغتها فى التقليل من خسائر النصارى . ما يمكن أن يقال فى ذلك . وفرة السلاح والغنائم التى استولى عليها النصارى . خيمة الناصر والعلم الموحدى . الأسباب المادية والمعنوية لتلك النكبة . آثار النكبة بالنسبة للأندلس والمغرب . توكيد التفوق السياسى والعسكرى لإسبانيا النصرانية . الفزع فى أرجاء الأندلس . شبح السقوط والفناء . فناء الجيوش الموحدية والفروسية المغربية . تضعضع الدولة الموحدية وتفككها . مقارنة بين الأرك والعقاب . كتاب الناصر عن الموقعة . ألفونسو الثامن يتبع نصره بالاستيلاء على الحصون الإسلامية . مهاجمته لبياسة وحصاره لأبدة . اقتحام أبدة وقتل وسبى أهلها . ظهور الوباء وارتداد النصارى إلى أراضيهم . وصول الناصر إلى إشبيلية ، ثم عبوره إلى مراكش . أخذه البيعة لولده أبى يعقوب يوسف . احتجابه بقصره . مرضه ووفاته . ما قيل فى وفاته . الناصر وعهده . بدايته الحسنة . استبداده بالأمر . خلو عهده من الأعمال الإنشائية . عطله عن أنواع العلوم والمعرفة . صفات الناصر وفقاً لقول المراكشى وروض القرطاس . وزراء الناصر . قضاته وكتابه . أبناؤه .

شغل الخليفة محمد الناصر لدين الله ، منذ ارتقائه العرش فى أوائل سنة ٥٩٥ هـ ، بحوادث إفريقية واستيلاء بنى غانية على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدين بها ، عن سير الحوادث فى الأندلس ، ولم يستطع خلال هذه الفترة التى استطالت زهاء اثنتى عشرة عاما ، أن يعنى بشىء من شئون الأندلس الجوهرية ، أو يعبر إليها بنفسه ، وحتى اهتمامه بافتتاح الجزائر الشرقية ، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لصراعه مع بنى غانية فى إفريقية .

بيد أن شئون الأندلس ، كانت خلال ذلك تثير قلق الموحدين ، وتوجسهم من العواقب . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية ، وفى مقدمتها قشتالة ، قد لزمت السكينة حينا منذ موقعة الأرك ، ولبثت بضعة أعوام تتهيب الاشتباك مع القوات الموحدية فى شبه الجزيرة ، وفضلا عن ذلك فقد كانت قشتالة وليون ، ترتبط كل منهما بعقد الهدنة مع الموحدين . فلما شغل الموحدون بصراعهم مع بنى غانية فى إفريقية ، ولما استطال أمر هذا الصراع أعواما ، واتسع نطاقه وانقطع عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، أدركت الممالك النصرانية أن الفرصة قد سنحت مرة أخرى ، لاستئناف غزواتها للأراضى الإسلامية ، ولم يعقها

عن انتهاز هـذه الفرصة على الفور سوى منازعاتها الداخلية .

فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة وبين الموحدين ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس . وكان منذ هزيمة الأرك الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، ورفع الوصمة التى لحقت من جرائها الجيوش النصرانية ، وفى أوائل سنة ١٢٠٩ م ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة فى قواته ، واحتشد فرسان قلعة رباح ، فى قلعة شلبَطَرّة ، على مقربة من قلعة رباح ، وكانوا قد لجأوا إليها منذ انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من أيديهم عقب معركة الأرك وسار ألفونسو صوب جيّان وبيّاسة ، فانتسف الحقول وخرب الضياع ، وقتل وسبى ، وعاث الفرسان فى أحواز أندوجر ، واستولوا على عدة حصون ، وأصاب المسلمين من جراء تلك الغارات ، محن وخسائر فادحة . وفى العام التالى خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، وعاث فى أراضى جيان وبياسة ، ووصل فى عيثه إلى أراضى ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

وفى نفس الوقت ، وقعت فى شرقى الأندلس حوادث مماثله ، وكان السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطول الموحدى وفاتح الجزائر الشرقية ، قد سار فى جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة ، وعاثت سفنه فى شواطئ قطلونية ، وأنزل بها خسائر فادحة ، واستولى على كثير من الأموال والغنائم ، وكان ذلك فى صيف سنة ١٢١٠م (٦٠٧هـ) . فاستشاط بيدرو الثانى ملك أراجون لذلك غضبا ، وجمع قواته وخرج من منتشون ومعه فرقة من فرسان المعبد (الداوية) ، وسار جنوبا نحو أراضى ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها ، واستولى على عدة من الحصون الإسلامية فى تلك المنطقة[١] .

وكان لاستئناف النصارى لغزواتهم المخربة ، فى أراضى الأندلس ، على هذا النحو ، أعمق صدى ، وكان من الواضح أن الحاميات الموحدية الصغيرة التى ترابط فى مختلف القواعد ، لم يكن فى مقدورها أن تقوم برد الجيوش النصرانية الغازية ، ولم يك ثمة مندوحة من أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه ، فى جيوشه الجرارة ، إلى شبه الجزيرة ليضطلع بنفسه بجهاد النصارى ، على نحو ما فعل أبوه وجده . وقد عبر بالفعل وجوه شرقى الأندلس ، على أثر غارات ملك أراجون ، إلى العدوة ، وقصدوا إلى الناصر ، مستغيثين به ، متضرعين إليه أن يسعفهم بعبوره ، فاهتز

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٤ .

الناصر لهذه الأنباء المزعجة ، وخصوصاً لما أبداه ملك قشتالة من الإصرار على خطته العدوانية ، بالرغم من احتجاج رسل الناصر إليه ، على خرق الهدنة .
ومما هو جدير بالذكر أن الناصر كتب إلى الشيخ محمد بن أبى حفص والى إفريقية يستشيره فى ذلك الأمر ، وفيما يلتويه من استئناف الجهاد والغزو ، فأبدى له الشيخ رأيه وجوب التريث ونصح بعدم العبور واستئناف الغزو فى تلك الآونة . ولكن الناصر لم يستمع إلى رأيه[1] ، وقرر الاستجابة لداعى الجهاد ، وأخذ بالفعل فى الاستعداد ، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفار الناس إلى الجهاد ، فاستجابت سائر الجهات والقبائل إلى الدعوة ، وكتب الناصر فى نفس الوقت ، إلى ولاة إشبيلية وقرطبة ، بوجوب تجديد حشد الجند ، وإعداد المؤن ، وتمهيد السبل فى جميع المناطق[2] .

ولما كملت الأهبة ، وأقبلت الحشود من سائر الأنحاء ، وجهزت بما يلزم من العتاد والسلاح والكسى والمؤن ، خرج الناصر فى قواته الجرارة من حضرة مراكش فى يوم السبت عشرين من شعبان سنة ٦٠٧ ﻫ (٥ فبراير سنة ١٢١١م) وسار إلى رباط الفتح ، وعسكر فى الضاحية المجاورة المسماة ببرج الحمّام ، وقضى هنالك نحو شهرين وهو يعمل على استيفاء الأهبة ، وتنظيم الشئون ، ونفذت كتبه مرة أخرى إلى الأندلس ، يطلب إلى ولاتها حث الناس على الجهاد ، واتخاذ ما يجب من ضروب الاستعداد ، فعكف الولاة على تنفيذ تلك الأوامر ، بكل ما وسعوا من غيرة وجهد .

وخرج الناصر فى جيوشه من رباط الفتح ، فى يوم الاثنين الثامن عشر من شوال (٤ أبريل سنة ١٢١١م) ، قاصداً إلى قصر كتامة (القصر الصغير) ، ونحن نعرف أن هذه المنطقة الممتدة من رباط الفتح شمالا حتى البحر ، وهى طريق الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، كانت مزودة بمراكز هامة لتموين الجيوش المسافرة ، سواء فى الذهاب والإياب ، وأن هذه المراكز كانت تزخر دائماً بالمؤن والعلوفات اللازمة . ولكن الجيوش الموحدية لقيت هذه المرة خلال مسيرها ، صعابا مرهقة فى التموين ، ونضبت الأقوات ، وغلت الأسعار بصورة لم تعهد

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٤ .

من قبل ، ولحق الجند والناس من جراء ذلك ضيق وشدة . ووقف الناصر على ذلك ، فاستشاط غضباً، وأدرك ما هنالك مما يرتكب من ضروب الإهمال والاختلاس ، فأمر بمؤاخذة سائر العمال المقصورين ومعاقبتهم ، وطلب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي على بن مثنى صاحب الأعمال المخزية والأشغال العملية ، بالقبض على عامل فاس ، وهو عبد الحق بن أبي داود ، فقبض عليه وعلى سائر نوابه من العمال المحليين ، واستصفيت أموالهم . وكذلك أمر الناصر ، حينما وصل إلى قصر كتامة بالقبض على عامل سبتة محمد بن يحيى المسّوفى ، لما بدا من إهماله وفساده، والقبض كذلك على سائر نوابه ، وتوجيههم جميعاً مصفدين إلى صاحب الأعمال بفاس[1].

وحشدت السفن من سائر الأنحاء ،لعبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة، واستمر عبورها بضعة أسابيع ، واستمر الناصر مقيما بالقصر ، حتى تم عبور ساقته وأثقاله وحاشيته وحرسه . وركب البحر فى يوم الاثنين أول شهر ذى الحجة (١٥ مايو) ونزل بساحل طريف ، وهنالك استقبله قواد الأندلس وفقهاؤهم ، وأقام بطريف ثلاثة أيام ، ثم سار فى جيوشه الجرارة إلى إشبيلية ، فوصلها يوم الاثنين منتصف ذى الحجة (آخر مايو) ونزل بقصور البحيرة الواقعة إزاء باب جهور ، وتم استقرار الجيوش الموحدية بالحاضرة الأندلسية ، وذلك فى نهاية سنة ٦٠٧ هـ (منتصف يونيه سنة ١٢١١ م) .

وماكاد الناصر يستقر بإشبيلية حتى أمر باستنفار الحشود الأندلسية ، وصنع الآلات الحربية ، واستدعاء الجند والغزاة ، من سائر الكور ، ووصولهم مع العمال والولاة ، فلما تم تنفيذ هذه الأوامر ، وتم حشد الجند، واستكمال الأمداد من سائر الجهات ، وأصبحت الجيوش الموحدية فى حالة تعبئة كاملة ، شرع الناصر فى الحركة ، وخرج من إشبيلية فى جيوشه من الموحدين والعرب وأهل الأندلس والمطوعة والأغزاز وغيرهم من طوائف الجند ، وسار جنوبى الوادى متجهاً نحو قرطبة ، ثم سار منها إلى جيّان وبيّاسة ، وكان النصارى هم الذين حددوا بتصرفهم ، الهدف الذى يقصد إليه الناصر بجيوشه ، وهو قلعة شلْبَطَرّة[2]

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٧ ، وروض القرطاس ص ١٥٥ .

(٢) شلبطرة حسبما يرسمها صاحب الروض المعطار (ص ١٠٩) هى بالإسبانية **Salvatierra** ويرسمها صاحب روض القرطاس (ص ١٥٦) وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٤٩) سربطرة أو شربطرة . ويرسمها المراكشى (المعجب ص ١٨٢) شلب ترة ، ويقول إن معناها « الأرض البيضاء » ويتابعه فى هذا الرسم النويرى (طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٧٩) .

التى تقع على مقربة من جنوبى غربى قلعة رباح ، بينها وبين جبال الشارات (سيرا مورينا) . وكان الخليفة يعقوب المنصور ، قد انتزع قاعدة قلعة رباح المنيعة ، حسبما تقدم ، من أيدى فرسان جمعية قلعة رباح الدينية فى سنة ١١٩٥ م ، عقب هزيمة القشتاليين فى معركة الأرك ، ونزل أولئك الفرسان فى قلعة شلبطرة القريبة منها . وكانت هذه القلعة المنيعة ، فضلا عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار ، يتخذها النصارى قاعدة لغزواتهم المخربة داخل الأراضى الإسلامية ، ومنها سار القشتاليون والفرسان بالفعل للقيام بغاراتهم المخربة فى أحواز جيان وبياسة وأندوجر قبل ذلك بقليل ، فى سنة ١٢٠٩م . ومن ثم فقد آلى الناصر على نفسه أن يفتتح غزاته بالاستيلاء على تلك القلعة المنيعة .

— ١ —

ويجدر بنا بادئ ذى بدء أن نلم بطرف من أحوال اسبانيا النصرانية فى تلك الآونة ، التى أخذت فيها طوالع الصراع الحاسم ، بين الموحدين والنصارى ، تبدو فى الأفق مرة أخرى . وذلك أنه حينما وقعت معركة الأرك العظيمة فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، لم يكن الوئام سائداً بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وخاضت قشتالة المعركة وحدها ضد الموحدين . ولم تجد قشتالة بعد هذه الهزيمة الساحقة ضمانا لسلامتها ، سوى عقد الهدنة مع الموحدين ، وارتضى الخليفة المنصور يومئذ ، أن يعقد السلم مع النصارى ، بعد أن بلغ غايته من سحق قواهم ، وقمع عدوانهم .

وقضت اسبانيا النصرانية منذ معركة الأرك فترة قصيرة من الهدوء والسلام ، وعُقد الصلح أخيراً بين قشتالة وليون ، وذلك بزواج ألفونسو التاسع ملك ليون بالأميرة برنجيلا إبنة ألفونسو الثامن ملك قشتالة . بيد أن هذا الصلح لم يطل أمده ، إذ اضطر ملك ليون أن يطلق هذه الأميرة ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، بناء على تدخل البابا وضغطه المستمر . ومن جهة أخرى فإن شريفاً قشتالياً كبيراً ، هو دون دجولوبث دى هارو ، سيد بسكاية ، وهو أخ لزوجة ملك ليون الأولى ، دونيا أوراكا ، قد ثار لما لحق بأخته من غبن ولمهانة ، وارتد فى أصحابه إلى أراضى ناڤارا ، وأخذ يغير منها على أراضى قشتالة ، فسار ألفونسو الثامن فى قواته صوب ناڤارا ، فخشى ملكها سانشو الثامن العاقبة ، وقام بإخراج دون دجو من مملكته ، فلجأ دون دجو إلى بيدرو الثانى ملك أراجون ، فنكل عن غوثه ، فاضطر أن يلتجئ عندئذ إلى

المسلمين فى ولاية بلنسية ، وأخذ يغير من هنالك فى صحبه على أراضى أراجون .

وكانت أول نتيجة لهذه الحوادث أن عقدت بين ناڤارا وقشتالة فى سنة ١٢٠٧ م الهدنة لمدة خمسة أعوام . ثم تدخل ملك قشتالة بعد ذلك ، بين زميليه ملك ناڤارا وملك أراجون ، فعقدت بينهما الهدنة ، وذلك فى سنة ١٢٠٩ م ، وانعقد بذلك نوع من الوئام والتفاهم ، بين الممالك الإسبانية النصرانية خلا مملكة ليون .

وكان أجل الهدنة المعقودة بين ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وهو سنة ١٢١٠م ، يدنو عندئذ من نهايته ، وكان ملك قشتالة ، بعد أن شعر بنوع من من الطمأنينة والأمل فى عون زملائه ، يضطرم رغبة فى استئناف الحرب ضد الموحدين ، فبدأ بالقيام بغاراته المخربة التى أشرنا إليها فى منطقة جيّان وبياسة وأندوجر ، وذلك خلال سنتى ١٢٠٩ ، ١٢١٠م ، ولم يحفل باحتجاج رسل الخليفة الموحدى ، على هذا الخرق لنصوص الهدنة المعقودة ، وكانت قلعة شابطرّة ، التى يحتلها فرسان قلعة رباح ، قاعدة لهذه الغارات الدموية التى ضج لها المسلمون يومئذ . وحذا بيدرو الثانى ملك أراجون حذو زميله ملك قشتالة ، فعاث فى منطقة بلنسية ، انتقاماً لغزو السفن الموحدية لشواطئه ، واستولى على عدة من حصون هذه المنطقة ، وكان من الواضح أن ملك قشتالة يستطيع أن يعتمد على مؤازرة حليفه ملك أراجون ، إذا ما اضطرمت الحرب بينه وبين الموحدين .

وكان على رأس البابوية يومئذ حبر يضطرم بروح صليبية عميقة ، هو البابا إنوصان الثالث ، الذى اعتلى الكرسى الرسولى فى سنة ١١٩٨م ، وقد سبق أن أشرنا فى غير فرصة إلى ما كان يتمتع به الكرسى الرسولى لدى الممالك الإسبانية النصرانية ، من مكانة راسخة ونفوذ قوى ، وإلى ما كان يعلقه الملوك الإسبان ، من أهمية بالغة ، على الصفة الصليبية لحروبهم ضد المسلمين ، ولاسيما عند اضطرام الحرب الشاملة بين الفريقين ، وذلك استدراراً لعطف الأمم النصرانية المجاورة ، واستجلابا للمتطوعة والمرتزقة النصارى من سائر الأنحاء . وكان ملك قشتالة ، حينما اعتزم أن يشهر الحرب على الموحدين ، قد بعث جرهارد أسقف شقوبية إلى البابا إنوصان ، ليرجوه أن يدعو أمم أوربا النصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين فى اسبانيا ، وأرسل كذلك ردريك مطران طليطلة[1] وعدة أخر

---

(١) هو ردريك الطليطلى صاحب التاريخ المشهور المنسوب إليه المكتوب باللاتينية **Anales Toledanes** ، والمتضمن لتاريخ اسبانيا النصرانية حتى أوائل القرن الثالث عشر . وقد طبع بفرانكفورت —

من أكابر الأحبار إلى فرنسا ، وإلى الأمم المجاورة ، للدعوة إلى قضيته واستثارة حماسة النصارى للعبور إلى اسبانيا ، ومؤازرة الجيوش النصرانية فى قتالها ضد المسلمين . ونزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا فى يناير سنة ١٢١٢ ، بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أى البابا يمنح كل من لبى هذه الدعوة الغفران التام . وكان الإنفانت الفتى دون فرناندو ولى عهد قشتالة ، وولد ألفونسو الثامن قد توفى عندئذ ، فبعث إليه البابا يعزيه عن فقد ولده ، وكذلك عن فقد حصن شلبطرّة الذى استولى عليه الموحدون حسبما نفصل بعد ، ويعرب عن خوفه بأن الحرب ضد « الألبيين »[1] فى جنوب فرنسا قد تحول دون كثرة المتطوعين ، وأنه يتمنى له الفوز فى جميع الأحوال . بيد أن يعرب عن نصحه له بأنه إذا استطاع أن يعقد الهدنة مع « أمير المؤمنين » فليفعل ، حتى تسنح فرصة أفضل لضمان النصر المنشود .

كانت هذه هى أحوال قشتالة والممالك الإسبانية النصرانية، حينما عبر الناصر فى جيوشه الجرارة إلى شبه الجزيرة الأندلسية، فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠٧ هـ (مايو ١٢١١م) . ويعلق صاحب روض القرطاس على عبور الخليفة الموحدى بقوله : « واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه فى قلوب ملوكهم ، وأخذوا فى تحصين بلادهم ، وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب إليه أكثر أمرائهم يسئلون سلامته ويطلبون منه عفوه» ، ثم يقدم إلينا قصة غامضة عن مقدم ملك « بيونة » على الخليفة بإشبيلية « مستسلما خاضعاً مستصغراً ، يطلب صلحه ، ويسأل منه عفوه وصفحه » وكيف أن الناصر وافق على مهادنته إلى الأبد ، وأعطاه تحفاً جليلة[2]. ويرجع غموض هذا النص ، إلى أن مدينة بيونة ، وهى تقع فى الطرف الآخر من البرنيه على خليج بسكونية ، قرب مملكة ناڤارا ، لم تكن يومئذ داخلة فى حظيرة اسبانيا النصرانية ، بل كانت من أملاك چون ملك

= سنة ١٦٠٦ ضمن سلسلة **Hispana Ilustrata** ونشر أيضاً مع الطبعة العربية لتاريخ المكين بن العميد المطبوع بلندن سنة ١٦٢٥ .

(١) الألبيون **Albigences** هم فرقة من الملاحدة ظهرت فى جنوبى فرنسا فى أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزاً لهم ومنها اشتق اسمهم . وشهروا على الكثلكة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة ، واستمروا يبثون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور فى أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية انتهت بتمزيقهم .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

انجلترا (ولد هنرى الثانى) ، وذلك بالوراثة عن أمه دوقة أكوتين . وقد ترتب على ذلك أن بعض الباحثين ، رأو ، بالاستناد فى نفس الوقت إلى مؤرخ إنجليزى عاش فى القرن الثالث عشر ، أن صاحب روض القرطاس ، يشير بذلك الى سفارة وردت إلى محمد الناصر من قبل ملك انجلترا يومئذ ، وهو الملك چون . ولكنا نلاحظ أولا أن صاحب روض القرطاس يتحدث عن مقدم « ملك بيونة » بنفسه ، وليس عن مقدم سفيره ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « بيونة » هذه التى وردت فى طبعة تورنبرج التى نعتمد عليها قد وردت مكانها كلمة « بنبلونة » فى النص الذى نقله السلاوى (عن روض القرطاس)[1]. ومعنى ذلك أن الذى ورد على الناصر ، أثناء مقامه بإشبيلية هو ملك نافارا (نبرّة) ، وهو حدث مفهوم معقول ، يتفق مع ما سبق عقده من علائق المودة والتحالف بين سانشو السابع ملك نافارا الملقب « بالقوى » وبين البلاط الموحدى . وتسجل لنا التواريخ النصرانية نفسها أن سانشو السابع ، كان قبل ذلك ببضعة أعوام ، حينما شعر بالخطر يتهدد مملكته من جراء تحالف جاريه ملكى قشتالة وأراجون ضده ، قد عبر البحر إلى المغرب ملتجئاً إلى عون الخليفة الموحدى ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وأنه قد أقام بمراكش فى ضيافة الخليفة الناصر ، زهاء عامين ، توطدت فيهما الصداقة والتحالف بين الملكين[2] . يضاف إلى ما تقدم أن الألفاظ التى صيغ بها نص روض القرطاس ، والقصة كلها التى يوردها عن كيفية استقبال الناصر للملك المذكور ، لا يمكن أن تنصرف إلى أية سفارة واردة من خارج شبه الجزيرة الإسبانية . وإذاً فمن المرجح المعقول أن يكون ملك نافارا حليف الموحدين القديم هو الذى ورد على الناصر ، وهو ملك « بنبلونة » . وهناك دليل آخر يؤيد هذا الرأى ، وهو ما ورد فى كتاب الناصر عن موقعة العقاب من إشارته إلى صاحب نبرّة ونكثه بحلفه وكونه « كان متعلقاً من الموحدين بزمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ، ولسواد أهل ملته مكثرا ، فلحق بتلك الجموع مرهجاً »[3] ، ويقول لنا ابن خلدون إن الذى ورد على الناصر فى تلك المناسبة ، هو ملك ليون المعروف « بالبيبوج » ، قدم عليه عام العقاب « فداخله ، وأظهر له

---

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 345 - 346.

(٣) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

التنصيح ، فبذل له أموالا ثم غدر به »[١] . ونستطيع أن نلاحظ أخيراً أنه لم تكن ثمة أية علاقات سياسية ومصلحية ، بين الموحدين وبين ملك انجلترا ، تستدعى أن يأتى ملك انجلترا بنفسه إلى الخليفة الموحدى : « مستسلما خاضعا مستصغراً » وليس من الممكن أن ينسب مثل هذا التصرف إلا إلى ملك من ملوك اسبانيا النصرانية[٢] .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية ، حسبما تقدم فى الأيام الأولى من سنة ٦٠٨هـ (أواخر يوليه ١٢١١م) متجهاً إلى جيان ، فأبدّة وبيّاسة ، ثم سار شمالا نحو قلعة شلبَطَرّة . وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات ، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن الناصر كان يقصد السير توًّا إلى غزو قشتالة ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع ، أقنعه بوجوب الاستيلاء أولا على قلعة شلبطرة ، نظراً لمناعتها الفائقة ، وأهمية موقعها[٣] . بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضى قشتالة ، لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد ، وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرّة بادئ ذى بدء . ويؤيد ذلك ما ورد فى كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة ، بأنه وإن كان صاحب قشتالة أقرب من تعينت حربه دارا ، فإن فصل الغزو ، كان قد ذهب جُله ، واستحالت الأرض من جراء الأمطار الغزيرة إلى غدور وأوحال ، تحول دون مسير الخيل ، وذهبت معظم الجسور ، وأنه قصد إلى معقل شلبطرة لقيامه فى قلب الإسلام ، وكون النصرانية قد جعلته جناحاً لكل غاية ، تخدمه ملوكها ورهبانها ، وتتخذ منه عاصما يعصمها[٤] . وعلى أى حال فقد طوق الموحدون قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها ، وقتلوا بها من النصارى أربعمائة ، وأضرموا النيران فيها ، واستولوا على حصن آخر قريب منها تسميه الرواية « بحصن الثلج » ثم نصبوا حولها أربعين قطعة من المجانيق الهائلة ، وضربوها بالحجارة الضخمة ، ورموها

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و١٥٦ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٦ و١٥٧ .

(٤) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٣٩ ، وراجع أيضاً المعجب ص ١٨٢ ، وتضع بعض الروايات النصرانية سقوط القلعة فى أيدى الموحدين فى شهر سبتمبر سنة ١٢١٠ راجع :
La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1959) (p. 18)

بالنبال والسهام الممطرة ، حتى اضطر النصارى إلى تسليم القلعة ومغادرتها . وقد استمر الحصار وفقاً لرواية صاحب الروض المعطار واحداً وخمسين يوما. وكانت حامية القلعة ، وفقاً للرواية المذكورة ، حينما اشتد بها البلاء من جراء الضرب المروع المتواصل ، وتساقط الحجارة الهائلة ، قد طالبوا من الموحدين أجلا يتصلون فيه بملكهم ألفونسو الثامن ليستأذنوه فى تسليم القلعة ، إذا لم يستطع إنجادهم ، وكان ألفونسو الثامن عندئذ بجوار طلبيرة يجد فى أهباته ، فاتصل به رسلهم ، واضطر أن يوافق على تسليم القلعة لعجزه عن إمدادهم ، ولأنه لم يكن قد استكمل أهباته بعد . فعادوا وسلمت شلبطرة للموحدين ، فدخلوها وحولوا كنيستها فى الحال مسجداً ، ووفى الخليفة بوعده فى ترك الحامية النصرانية تعود إلى بلادها ، وكان ذلك فى أوائل ربيع الأول سنة ٦٠٨ ﻫ (أواخر أغسطس سنة ١٢١١م)[١]. ويقول صاحب روض القرطاس إن الحصار قد طال بالعكس ثمانية أشهر ، واستمر بذلك حتى دخل الشتاء واشتد البرد ، وقلت المؤن وكلت عزائم الجند ، وفسدت نياتهم التى قصدوا بها للجهاد ، ونضبت المواد من الحملة ، وأن ملك قشتالة لما وقف على ذلك وعلم أن شوكة المسلمين قد انكسرت ، والحدة التى قاموا بها قد خمدت ، تأهب لأخذ الثأر ، وجاءته ملوك الروم وهم فى غاية الاستعداد ، ثم جاء ألفونسو بقواته وهاجم قلعة رباح واستولى عليها . ويضع تاريخ تسليم شلبطرة فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٨ﻫ ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة ، لما وقف على سقوط القلعة ، سار وسائر من كان معه من ملوك الروم ، وحشودهم والتقى بالموحدين فى موضع يسمى «حصن العقبان»[٢]. بيد أن هذه الرواية التى يستخلص منها أن سقوط شلبطرة فى أيدى الموحدين ، وسقوط قلعة رباح فى أيدى القشتاليين ، ثم نشوب معركة العقاب بين الفريقين ، قد حدثت كلها متتابعة فى حلقة واحدة ، ينقضها أولا كتاب الفتح الصادر عن الخليفة ذاته بفتح شلبطرة ، وهو مؤرخ فى الثانى من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ ، ولابد أنه كتب بعد سقوط القلعة بأيام قلائل[٣] ، ثم تنقضها أكثر من رواية وثيقة . فصاحب الروض المعطار يقول لنا ، إن الناصر بعد افتتاح شلبطرة « رجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثم استغاث الأذفونش

---

(١) الروض المعطار ص ١١٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٨ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٣٨ .

بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، وانثالوا عليه من كل مكان » . ويقول لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، إنه بعد رجوع أمير المؤمنين أبى عبد الله من هذا الفتح المتقدم الذكر (أعنى فتح شلبطرة) إلى إشبيلية ، استنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة[1]. وإذن فمن الواضح أن غزوة شلبطرة كانت غزوة مستقلة ، اقتصرت على فتح هذه القلعة المنيعة ، وأن القوات الموحدية التى قامت بفتحها ، لم تكن هى تلك الجيوش الجرارة التى عادت بعد ذلك بأشهر ، لتلتقى مع الجيوش النصرانية فى « مرتفعات » العقاب ، وأن الموحدين والنصارى ، قد انتفع كلاهما بتلك الفترة لمضاعفة الأهبة والاستعداد .

ففى الوقت الذى حل فيه الناصر بإشبيلية ، بعد عوده من غزوة شلبطرة ، كان ملك قشتالة ، يبذل أقصى جهوده فى استكمال أهباته لمقاتلة الموحدين . ولم تكن هذه الأهبة تقتصر على قشتالة وحلفائها من ملوك اسبانيا النصرانية ، ولكنها كانت تمتد بعيداً إلى ما وراء ذلك . وقد سبق أن أشرنا إلى مسعى ملك قشتالة لدى البابا ، ليسبغ الصفة الصليبية على محاربته للمسلمين ، وأن البابا قد استجاب إلى رغبته ، وكتب إلى الأساقفة بدعوة النصارى فى جنوبى فرنسا وغيرها إلى التطوع لمقاتلة المسلمين ، وكان سقوط شلبطرة وهى مركز فرسان قلعة رباح فى أيدى الموحدين على النحو المتقدم ، نذيراً جديداً بتفاقم الخطر على مصاير اسبانيا النصرانية ، وبتأكيد هذه الصفة الصليبية[2]. وكان المطران المؤرخ ردريك الطليطلى ، وعدة من أكابر الأحبار عندئذ يجوبون جنوبى فرنسا لجمع المتطوعين. واستمرت هذه الجهود الصليبية تبذل خلال عام ١٢١١ م ، وكانت الوفود المتطوعة تأتى تباعاً إلى طليطلة ، التى تقرر أن تكون مكاناً لاجتماع الجيوش، والوفود المختلفة . وفى أوائل سنة ١٢١٢ م ، عاد المطران ردريك ومعه جمهرة كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ، ثم اجتمعت بعد ذلك وفود المدن الإسبانية ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم فرسان قلعة رباح ، وشنت ياقب ، والأسبتارية ، والداوية (فرسان المعبد) ، واجتمع كذلك سائر القوامس والفرسان القشتاليين ، وفى مقدمتهم رؤساء أسرة لارا وفرسانها ، والكونت ديجولوبيث ، ولو بى دياث دى هارو ، ومن معهم من الفرسان . وكان

(١) الروض المعطار ص ١٣٧ ، والمعجب ص ١٨٢ .

(٢) La Orden de Calatrava ; p. 18 .

يرأس فرسان قلعة رباح جوميث رامبريس، وفرسان شنت ياقب پيدرو آرياس، ويرأس فرسان الأسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن، ويتولون الإنفاق على حشودهم. وقدم فوق ذلك عدة من أحبار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين، وفى مقدمتهم مطران أربونة وأسقفا بوزدو ونانت وغيرهم من أكابر رجال الدين.

ولم يأت شهر مايو سنة ١٢١٢م، حتى اجتمع فى قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوربا لمعاونة اسبانيا النصرانية، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة، وخمسين ألفاً من الرّجالة، أو بعبارة أخرى اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل، لمؤازرة الجيوش الإسبانية النصرانية، وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأراجون وناڤارا، ومن أمداد من جليقية والبرتغال. وتلقى ملك قشتالة، فوق ذلك، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح، والمؤن، أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وإيطاليا. ولم يأت شهر يونيه سنة ١٢١٢م، حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس، ومائة ألف من الرجالة. وأمر البابا إنوصان الثالث فى رومه بالصوم ثلاثة أيام، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية فى اسبانيا على المسلمين، وأقيمت الصلوات العامة. وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة، وسارت المواكب الدينية فى الطرقات خاضعة متمهلة، من كنيسة إلى أخرى، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية، طلب فيها إلى النصارى أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبانيين[١].

وتشير الرواية الإسلامية إلى هذه الاستعدادات الضخمة كلها، وإلى ما سعى إليه ملك قشتالة من صبغ محاربته للموحدين بالصبغة الصليبية. وكان المراكشى أكثرهم إلماماً بذلك، إذ يقول: «وخرج الأدفنش لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم، مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشنونى لعنه الله»[٢]. ويقول صاحب

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (الترجمة العربية ص ٣٥٨ – ٣٦٠).
(٢) المعجب ص ١٨٢.

البيان المغرب « فاستعد له (أى للقاء الناصر) وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين »[1]. ويقول أيضاً صاحب الروض المعطار « ثم استغاث الأذفونش بأهل ملته وحثهم على حماية دينهم، فاستجابوا له وانثالوا عليه من كل مكان»[2]. وأبلغ من ذلك ماورد فى كتاب الخليفة الناصر ذاته عن موقعة العقاب إذ يقول « إن صاحب قشتالة رأى أن يضرع للملوك أهل ملته ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف . . فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى . . فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان سحيق . . وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون فى الشرق والشمال »[3] فهذه الفقرات الموجزة تدل دلالة واضحة ، على أن الموحدين كانوا يعلمون بحقيقة الوسائل والاستعدادات البعيدة المدى ، التى لجأ إليها ألفونسو الثامن ليقود إلى ميدان الحرب أكبر قوة نصرانية يمكن حشدها ، وليسبغ صبغة الحرب المقدسة على المعركة التى يضطلع بها ، مثلما كان المسلمون يسبغون صفة الجهاد فى سبيل الله ، على المعارك التى يخوضونها ضد النصارى .

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات ، وقد استنفر الناصر عقب عوده من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية ، الناس من سائر الجهات ، ليضاعف حشوده ، وليدعم جيوشه ، فاجتمعت له قوات جديدة كثيفة ، وكان من الواضح أن الفريقين يرى كل منهما أن أجل اللقاء الحاسم يدنو بسرعة . ففى يوم ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ، خرجت الجيوش النصرانية ، من طليطلة قاصدة إلى الجنوب . وكانت مقسمة إلى ثلاثة جيوش رئيسية ، جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف مقاتل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ، وكان يقوده القائد القشتالى دييجو لوبيث دى هارو يعاونه عدد من أكابر الأحبار والقوامس . ويتألف الجيش الثانى من قوات أراجون وقطلونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدرو الثانى ملك أراجون . ويتألف الجيش الثالث ، وهو جيش المؤخرة من قوات قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشنت ياقب والأسبتارية ، ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، يعاونه

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الروض المعطار ص ١٣٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٤١ .

عدة قواد من الأحبار والسادة ، وفى مقدمتهم ردريك مطران طليطلة ، وتقدر الرواية عدد الفرسان فى هذه الجيوش بثلاثين ألفاً ، وذلك غير المشاة .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية فى العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٣ يونيه سنة ١٢١٢م) متجهاً صوب جيان ، وقاصداً لقاء النصارى. وكانت الجيوش النصرانية تسير فى نفس الوقت نحو الأراضى الإسلامية ، فوصلت طلائعها فى اليوم الرابع والعشرين من يونيه ، إلى حصن ملّجون ، وهو من حصون الحدود الإسلامية ، فاستولت عليه ، وقتلت حاميته الإسلامية الصغيرة ، ثم استمرت الجيوش النصرانية فى سيرها صوب قلعة رباح أكبر وأمنع القواعد الإسلامية فى تلك المنطقة . وكان الخليفة المنصور قد انتزعها عقب موقعة الأرك من فرسان قلعة رباح حسبما تقدم وحول كنيستها إلى مسجد ، وعين لقيادتها أبا الحجاج يوسف بن قادس ، وهو من أنجاد الفرسان والقادة الأندلسيين ، وكان يسهر على حمايتها ، والدفاع عنها ، من ذلك التاريخ ، وكان لديه وقت مقدم النصارى حامية من سبعين فارسا[1] . ولقى النصارى فى عبور نهر وادى يانه الذى تقع قلعة رباح على مقربة من ضفته الجنوبية صعابا ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنانير والخوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، طوقوا القلعة فى الحال ، ولكن القلعة كانت فضلا عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبى النهر ، تتمتع بأسوار وأبراج فى منتهى المناعة ، ومن ثم فقد تردد النصارى فى مهاجمتها بادئ ذى بدء ، ولبثوا تحت أسوارها ثلاثة أيام يبحثون فيما إذا كان من الأفضل الاكتفاء بتطويق القلعة ، وترك افتتاحها لما بعد وقوع النصر ، ولكن غلب الرأى فى النهاية بوجوب مهاجمتها ، فهوجمت بشدة فى يوم ٣٠ يونيه ، واستطاع النصارى أن يحتلوا قسمها الخارجى الذى يحاذى النهر ، وهو أضعف قسميها من حيث المناعة . وهنا تتفق الروايتان النصرانية والإسلامية ، فيما تلا من تفاهم المسلمين والنصارى على تسليم القلعة ، ومنح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحراراً فى مغادرتها إلى بلادهم ، وذلك على نحو ماحدث فى شلبطرّة بالنسبة لحاميتها النصرانية . وكان ابن قادس قد انتهى إلى هذا الرأى ، بعد أن حاول الاستنجاد عبثاً بالناصر ، وهو بمحلته القريبة ، وبعد أن أيقن بعبث الدفاع ، وتعريض رجاله لموت محقق ، إذا هو أصر على القتال . وكان ألفونسو ملك قشتالة ، يؤيد هذا الحل السلمى الذى يمكنه

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٧ .

من الاستيلاء على قلعة رباح دون تأخير ودون سفك دماء . ولكن حلفاءه من الأرجونيين والأجانب الوافدين ، عارضوا فى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية الإسلامية . ولكن غلب الرأى بقبول هذا الحل فى النهاية، خصوصاً ، وقد صمم ابن قادس على الدفاع ، إذا لم يجب إلى ما طلب من منح الأمان والحرية لرجاله . واتُّفق على أن يغادر الفرسان المسلمون القلعة دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل . وهكذا استولى ألفونسو الثامن على قلعة رباح ، وسلمها فى الحال إلى « فرسان قلعة رباح » أصحابها السابقين ، قبل أن يفتحها الخليفة المنصور(١).

وكان افتتاح قلعة رباح مثار التنابذ والخلاف بين القشتاليين وحلفائهم الوافدين . ذلك لأن الوافدين الصليبيين ، رأوا فى إفلات المسلمين من القلعة أحراراً أحياء ، عملا لا مبرر له ، ولا يتفق مع أغراض الحرب الصليبية، وثانيا لأن ألفونسو وجد فى قلعة رباح مقادير وافرة من المؤن قسمها بالتساوى بين الجند الوافدين وزملائهم المحاربين الأصليين ، ولكن سرت الإشاعة بين الجند الوافدين، أن ملك قشتالة، قد عثر بالقلعة على تحف وذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه . ومن ثم فقد أبدت طوائف كثيرة من الجند الوافدين تبرمها وسخطها ، واحتج كثير منهم بأنهم لا يحتملون جو اسبانيا الحار ، وأنهم وفوا بعهودهم فى مقاتلة المسلمين فى ملجون وقلعة رباح ، وأبدوا عزمهم على الرجوع إلى بلادهم ، وأيدهم فى ذلك مطران بوردو أعظم أحبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة وزملائه الإسبان ، فى إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادرت معظم الطوائف الوافدة المعسكر القشتالى ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف أربونة فى رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالى المنبت ، وكانت عدة رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، وبلغ من غادر المعسكر القشتالى على هذا النحو زهاء خمسين ألف مقاتل ، اخترقوا قشتالة ، صوب جبال البرنيه عائدين إلى بلادهم ، وقد أغلقت سائر المدن الإسبانية أبوابها فى وجوههم خوفاً من اعتدائهم وعيثهم(٢).

---

(١) المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٧ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة ، وكان مشتركاً فى الموقعة ، وقد أوردها **Huici Miranda ; Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956) p. 242, 244 & 245** ، وكذلك أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين « الترجمة العربية » ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

(٢) أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين الترجمة العربية ص ٣٦٢ و ٣٦٣ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة **H. Miranda : ibid ; p. 245** .

وإنه لما يلفت النظر أن الرواية الإسلامية ، لم يفتها أن تشير إلى هذا الشقاق الذى وقع فى المعسكر النصرانى ، على أثر افتتاح قلعة رباح ، فنرى المراكشى يقول مشيراً إلى افتتاح القلعة « فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئت لتفتتح بنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه »[١] .

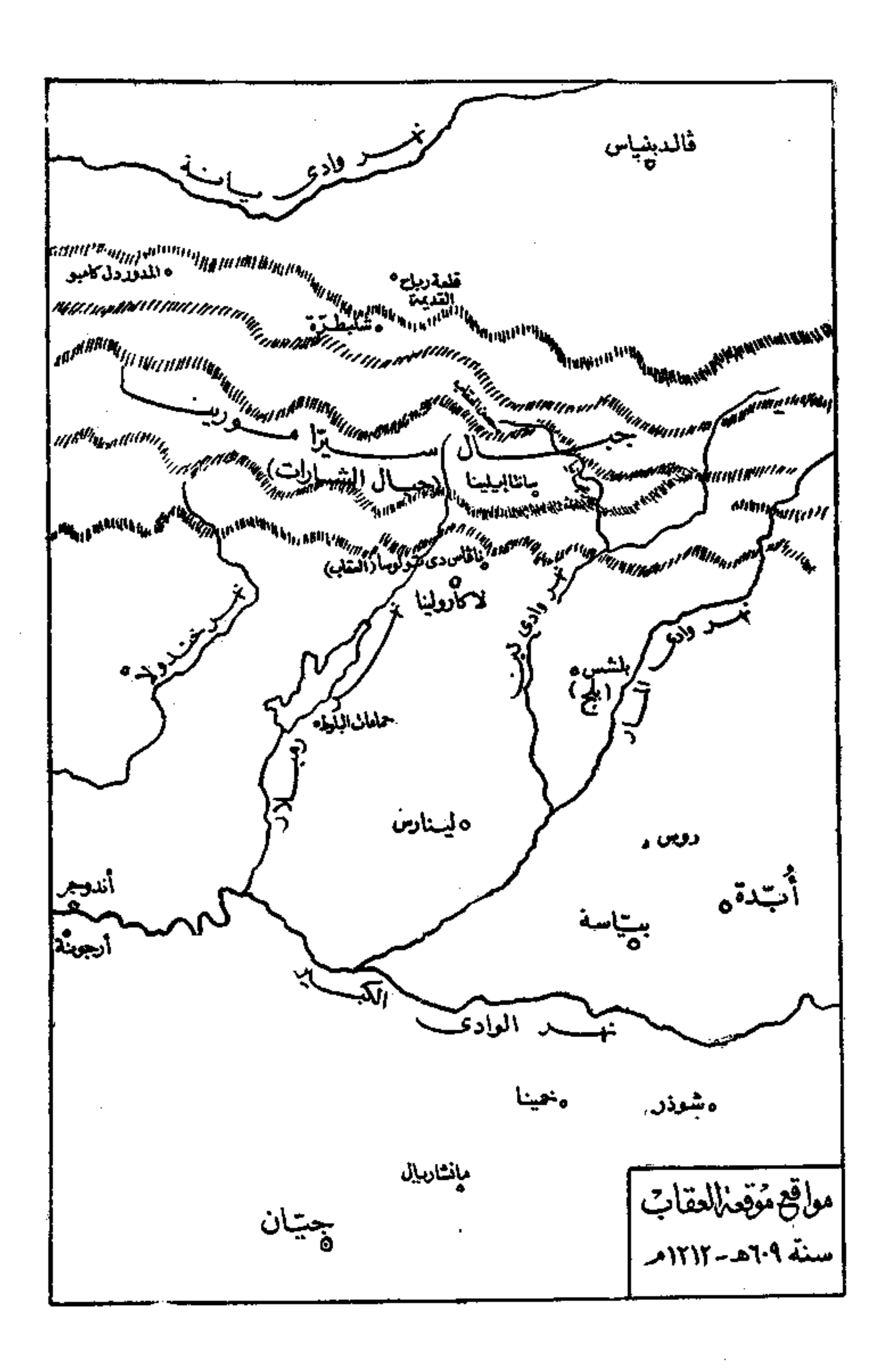
— ٢ —

وفى ذلك الحين كان الناصر قد وصل فى جيوشه الجرارة إلى جيان ، وهنالك استقر بظاهرها أياما ، منتظراً عبور النهر ، ووقف على ما وقع من أحداث على الحدود ، من سقوط قلعة رباح فى يد العدو ، وماحدث على أثر ذلك فى المعسكر النصرانى من الشقاق ، وما عمدت إليه طوائف الجند الوافدين من العود إلى بلادها . وقدم ابن قادس قائد قلعة رباح عندئذ ، إلى المحلة الموحدية ، مع صهره ونفر من أصحابه ، ليقص أمره على الخليفة ، فنعه الوزير أبوسعيد بن جامع من ذلك ، وصوّر موقفه للخليفة أسوأ تصوير ، واتهمه بالخيانة وتسليم القلعة للنصارى ، فأمر الناصر بإعدامه هو وصهره ، دون أن يستمع إليه ، أو يستوضح أمره ، فأعدما طعناً بالرماح ، وكان لمصرع هذا القائد الأندلسى الباسل على هذا النحو ، وقع عميق بين مواطنيه الجند الأندلسيين ، ولما شعر الوزير ابن جامع بما حدث من تغير نفوس الأندلسيين ، استدعى قادتهم ، وطلب إليهم أن يعتزلوا جيش الموحدين ، وأنه لاحاجة للموحدين بهم . وكانت هذه إحدى البوادر المقلقة فى المعسكر الموحدى[٢] .

وكان لسقوط قلعة رباح فى أيدى النصارى أسوأ وقع فى نفس الخليفة الناصر ، وكان ألفونسو الثامن عقب استيلائه على القلعة ، قد استطاع أن يتغلب بسرعة على ماحدث فى المعسكر النصرانى ، من جراء ذلك من خلل ، بسبب رحيل بعض طوائف المحاربين الوافدين ، وأن ينظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراجون وجليقية والبرتغال . وكان ملك نافارا ، قد ارتضى

---

(١) المعجب ص ١٨٣ .
(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والروض المعطار ص ١٣٧ .



نهر وادى يانة
ڤالدبنياس
المدور دل كامبو
قلعة رباح القديمة
شلبطرة
جبال سيرا مورينا
(جبال الشارات)
باتابيلينا
ناڤاس دى تولوسا (العقاب)
لاكارولينا
نهر وادى
نهر
بلشس (بلج)
حمامات البلاطه
ليناريس
روس
أبدة
بياسة
أندوجر
أرجونة
نهر الوادى
خينا
شوذر
مانشاريال
جيان
مواقع موقعة العقاب
سنة ٦٠٩هـ - ١٢١٢م

أخيراً بالرغم من خصومته القديمة لقشتالة ، ومهادنته للموحدين ، أن يشترك فى تلك الحملة الصليبية بقوة صغيرة من الفرسان ، وذلك نزولا على نصح البابا وإلحاحه[1] ، وهكذا استأنفت القوات النصرانية المتحدة سيرها إلى الجنوب نحو الأراضى الإسلامية ، ومرت بشلبطرة دون أن تتعرض لها ، حتى أشرفت طلائعها على مرتفعات جبال الشارات (سيرا مورينا) ، ثم لحقت بها سائر القوات الأخرى ، واحتلت البسيط العلوى المقفر المسمى ممر موراداال ، وذلك فى يوم ١٣ يوليه (العاشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ) .

وفى خلال ذلك كان الخليفة الناصر ، قد تحرك فى جيوشه الجرارة نحو الشمال لملاقاة العدو ، وكانت الجيوش الموحدية ، قد قسمت كالعادة إلى وحداتها العنصرية والقبلية ، فكانت خمسة أقسام ، يتكون القسم الأول من طوائف العرب ، ويتكون القسم الثانى من القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة وغيرها ، والقسم الثالث من الجنود المتطوعة ، والقسم الرابع من جند الموحدين النظامية ، والقسم الخامس من جنود الأندلس . أما عن عدد الجيوش الموحدية التى كان يقودها الناصر ، فقد بولغ فى شأنه مبالغة كبيرة . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الناصر قد خرج فى جيوش لاتحصى وأمم كالجراد المنتشر ، قد ملأت السهل والوعر ، وضاق بهم المتسع والنجد والغور . ثم يقدم إلينا فى موضع آخر أرقام الجيوش الموحدية مفصلة ، فيقول إن عدد المتطوعة بلغ مائة وستين ألفا بين فارس وراجل ، وبلغ عدد الرجال المحشودين ثلاثمائة ألف راجل ، وبلغ عدد العبيد الذين يمشون بين يدى الخليفة بالحراب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد ، ومن الرماة والأغزاز (الغز) عشرة آلاف . وذلك كله دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم . ومعنى ذلك أن الجيوش الموحدية بلغت مجتمعة نصف مليون مقاتل غير المرتزقة[2] . وفى رواية أخرى لاتقل مبالغة وإغراقاً أن الجيوش الموحدية كانت تضم ستمائة ألف مقاتل[3] ، وهذا تقدير لا يمكن أن يسيغه العقل ، إذ كان من المستحيل مادياً أن يكفل تموين مثل هذا الجيش ، وخصوصاً فى مثل هذه المنطقة الوعرة التى كان يخترقها الجيش الموحدى للقاء

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٠ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، ونقله السلاوى فى الإستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

أعدائه . ونحن نعرف أن مسألة التموين بالذات كانت من أعقد مشاكل الجيش الموحدى ، وكانت تسبب له دائماً أزمات ومتاعب عديدة . ونحن نعتقد أننا لوقدرنا الجيش الموحدى بمختلف وحداته بمائتى ألف مقاتل ، لكنا أقرب كثيراً إلى الحقيقة والمعقول .

واخترقت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير ، واتجهت صوب بياسة ، وكانت قد تخلفت أياماً عن عبوره لارتفاع مائه ، ثم عبرته حين نضب الماء ، واحتلت سريات من خيرة أنجادها ممرات جبل الشارات المؤدية إلى بياسة وأبدة ، ومنها ممر « لوسا » الوعر ، الذى تستطيع قوة صغيرة باحتلاله أن تمنع جيشاً كبيراً من جوازه ، ثم نزلت الجيوش الموحدية فى البسيط الواقع تجاه هذا الممر وهو يقع اليوم أمام الطرف الغربى لقرية سانتا إيلينا Sta. Elena وتسميه رسالة الغزو الرسمية « بالمرشة » .

واعتزم الخليفة الناصر أن يصمد فى هذا المكان للقاء النصارى . وكان الناصر يعتمد على ما بلغه من حوادث الانشقاق فى الجيوش النصرانية ، وما تلقاه من متاعب التموين ، لانتهاز الفرصة فى لقائها ، وهى متعبة ، فاترة الهمم . ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية ، أن الناصر كان واثقاً من النصر ، معتزا غاية الاعتزاز بضخامة حشوده ، وتفوقه العددى .

ولابد لنا قبل أن نعرض إلى تحركات الجيشين المتحاربين ، أن نحاول أن نرسم للقارئ صورة واضحة من أوضاع هذه المعركة الشهيرة ، والأمكنة التى وقعت فيها . ذلك أن دراسة ميدان معركة العقاب ، وخواصه الطبوغرافية ، مما يساعد على إيضاح كثير من الروايات التى وردت بشأن المعركة ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا أن نقوم بهذه الدراسة الشاقة ، وأن نتجول فى هضاب جبال سيرا مورينا (جبال الشارات) وأن نصعد إلى قممها الشاهقة ، وأن نشهد الأمكنة التى اجتازتها وعسكرت فيها الجيوش النصرانية ، وأن ندرس طبيعة المكان الذى كان يحتله الجيش الموحدى فى أسفل الجبال .

ويجب أن نذكر أولا أن المعركة تعرف فى التواريخ النصرانية ، بمعركة ناڤاس دى تولوسا Navas de Tolosa ، وهذا الاسم مازال يطلق حتى اليوم على محلة أوضيعة صغيرة ، تقع فى سفح جبال الشارات على مقربة من شمال شرقى بلدة « لاكارولينا » الواقعة على الطريق الكبير الممتد من مدريد جنوبا إلى الأندلس .

بيد أن هذا الاسم القديم الذى يعنى « هضاب تولوسا » أو « عقاب تولوسا » قد فقد مدلوله القديم : وتدل سائر المعلومات والوثائق التاريخية ، وكذلك البحوث الحديثة ، على أن المعركة لم تقع فى هذا المكان الذى أطلق اسمه عليها ، بل وقعت شمالى هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات ، فى الهضاب والبسائط ، الواقعة غربى قرية « سانتا إيلينا » فيما بينها وبين قرية « ميرانده دل رى » وفى أسفل الأكمة المسماة « مائدة الملك » Mesa del Rey التى سوف نذكرها فيما بعد ، وذلك حسبما يوضح لنا الرسم التخطيطى ، الذى نقدمه نتيجة لدراستنا لمعالم الموقعة .

ونستطيع من جهة أخرى أن نقدم دليلا على صحة هذا التحديد الطبوغرافى لميدان الموقعة ، ما يعثر عليه الباحثون فى هذا المكان ، من آن لآخر ، من السهام الموحدية الأرضية التى كانت تنصب للخيل ، وقد عثرنا نحن على خمسة منها بالحفر بأنفسنا فى هذه الساحة ، وهى التى نقدم صورتها بعد .

حصن العقاب

وجبال الشارات ، التى لبثت عصوراً تفصل بين الأندلس ، واسبانيا النصرانية ، فى هذه البقعة ، عبارة عن عدة متعاقبة من الجبال السوداء العالية ، تفصلها هضاب وعرة أو بعض السهول المتدرجة . وقد بدأنا بعد رحلة شاقة فى أعماق الجبال ، استغرقت بضع ساعات ، بالصعود إلى موقع الحصن ، الذى يسمى بالإسبانية حصن كسترو فرال Castro Ferral ويسميه صاحب روض القرطاس ، حسبما يأتى بعد ، بحصن العقاب أو حصن العقبان . وهو يقع فوق قمة أحد الجبال فى الصف الثالث أو الرابع تجاه بلدة سانتا إيلينا . وهو يحتل أعلى قمة فى الجبل ، ويقع شمال غربى سانتا إيلينا ، إلى يسار المنحدر الجبلى الشهير المسمى دسبنيابروس Despeñaperros (أو منحدر الكلاب) . ولم تبق اليوم من هذا الحصن سوى أطلال دارسة هى عبارة عن بقايا جدارين عاليين متوالين . ويبلغ ارتفاع الجدار الأول نحو ثمانية أمتار ، وبه ثغرة كبيرة فى وسطه . ويبلغ ارتفاع الجدار الثانى نحو عشرة أمتار ، وهو يليه ويبعد عنه نحو خمسة أمتار . وتوجد كذلك بقية جدار جانبى إلى يمين الداخل ، طولها نحو عشرة أمتار وارتفاعها نحو ستة ، وفيه ثغرتان من أسفل ، ومساحة هذا الطلل كلها تبلغ نحو عشرين متراً فى خمسة عشر . ومازالت أسس الجدران ظاهرة فى أرض المكان .

أطلال حصن العقاب كما تبدو عن بعد فوق الجبال

الجدار الأوسط لأطلال حصن العقاب



الواجهة الخلفية لأطلال حصن العقاب

الطريق الرومانى والنهر

وإنه لما يسترعى النظر فى أعماق هذه الجبال الوعرة ، هو طريق عبورها ، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب أعنى من الأندلس إلى الشمال (أراضى قشتالة) . وقد تتبعنا هذا الطريق المسمى «كارثادا» Carzada ، وهو الطريق الرومانى القديم ، وهو يوجد وراء الجبال فى المنحدرات النازلة نحو النهر الصغير الذى يقع فى سهل خفيض فى أسفل الجبل ويسمى نهر مجانيا Magaña وهو عبارة عن فرع صغير من نهر وادى لين المتفرع من نهر الوادى الكبير ، وكان الطريق الهابط يستمر حتى النهر ، ثم بعد عبوره ، يعود فيصعد الصف الثانى من الجبال نحو الشمال . أما النهر ذاته فهو يقع خلف الصف الأول ، وأسفل الصف الثانى من الجبال ، وهو نهر صغير لايزيد عرضه عن خمسة عشر متراً ، وقد رأينا به قليلا من الماء . وكان المسلمون يعبرون هذا الطريق الذى كان يعبره الرومانيون من قبل ، إلى أراضى قشتالة .

بويرتو دل مورادال

وهذا الطريق المسمى «كرثادا» يسير من ناحية أخرى صاعداً نحو القمة الكبيرة الواسعة من السفح المسماه Puerto del Moradal (بويرتودل مورادال) أوثغر مورادال ، وكان هذا هو أهم ممرات جبل الشارات . والطريق الصاعد إليه فيما يبدو من آثاره الحجرية ، كان طريقاً عريضاً ، يبلغ عرضه نحو العشرة أمتار . وكذلك يبدو من بعض أجزائه القليلة الباقية ، المعبدة بالحجر الأسود ، أنه كان طريقاً معبداً كله ، وهذا الممر يحتل فوق قمة جبل الشارات مساحة كبيرة منبسطة ، ثم ينزل من الناحيتين صاعداً وهابطاً ، ويسمى منزل هذا الممر وما حوله باسم «الإمبدرادليو» Empedradillo . وقد شاهدنا فوق قمة مورادال ، وأمام الممر ، أنقاض أحجار كثيرة ، قيل لنا إنها كانت أنقاض محلة رومانية Venta خلال الطريق القديم ، ومنها ينزل نحو نهر مجانيا . ويوجد على مقربة من ممر مورادال جبل مطل على النهر يسمى «جبل المسلم» Cerro del Moro .

مائدة الملك

وإلى يسار ممر مورادال ، على مسافة نحو ساعة منه ، توجد قمة أخرى تشغل بسيطا كبيراً بيضاويا ، يمتد نحو اليمين ونحو اليسار إلى مسافة عدة كيلومترات ،



نهر مجانيا كما يبدو فى أسفل الجبال



منحدر دسبنياپروس

وهو البسيط الذى يسمى « مائدة الملك Mesa del Rey » ، وقد شهدناه من بعد أولا ، ولاح لنا أنه بالفعل ، مستدير أوبيضاوى كالمائدة ، ومن ثم كان الاسم الذى أطلق عليه . وتنحرف جوانب هذه القمة إلى أسفل الوادى ، مغطاة بالخضرة ، وإلى جانبها الأيمن مرتفعات متعددة صاعدة ونازلة . وهذا المرتفع المستدير يمتد كما قلنا من الجانبين إلى مسافات شاسعة يطلق عليها جميعا نفس الاسم « مائدة الملك » ، ويبدو من انبساطها وضخامة مساحتها ، أنها كانت بالفعل تصلح محلة للجيوش الغازية .

* * *

ونحن نستطيع بعد تتبع هذا الوصف لأوضاع المعركة وأماكنها المختلفة ، أن نتتبع تحركات الجيشين القشتالى والموحدى ، وأن نكوّن فكرة واضحة عن مسرح معركة العقاب الحقيقى .

وكان النصارى بعد احتلالهم بسيط مورادال الواقع فوق الجبل ، قد استطاعوا أن ينتزعوا قلعة كسترو فيرال الإسلامية الواقعة فى قمة الجبل والتى وصفناها من قبل ، وهى التى تسمى أحيانا بحصن العقاب ، وكانت بها حامية موحدية صغيرة ، ولكنهم شعروا مع ذلك بحرج موقفهم فى ذلك المكان نظراً لوعورته ، ونقص وسائل التموين والمياه فيه ، وكان لابد لهم بأى حال أن يعبروا جبل الشارات إلى الناحية الأخرى ، وكان ذلك متعذراً عليهم نظراً لاحتلال الموحدين سائر ممراته بقوات كافية ، ولاسيما ممر لوسا الواقع جنوب غربى الحصن ، وهوالذى يفضى إلى سهول تولوسا ، والذى لايمكن لجيش عظيم بأسره اقتحامه . عندئذ اجتمع الملوك النصارى مع قوادهم للبحث عن مخرج لهذا المأزق ، وكان الرأى الغالب ، هو أن يعود الجيش النصرانى أدراجه إلى السهل ، ثم يحاول دخول أراضى الأندلس من طريق آخر ، ولكن ملك قشتالة عارض فى هذا الرأى ، لأن أية حركة ارتداد كانت فى نظره خطراً على روح الجيش المعنوية ، فضلا عن اعتبارها من جانب الأعداء فراراً ونكولا عن خوض المعركة . وهنا تعرض لنا الرواية النصرانية قصة يطبعها لون من الأسطورة ، وهى أن راعياً من رعاة هذه الأنحاء ، تقدم إلى القادة النصارى ، وأخبرهم أنه يستطيع إرشادهم إلى طريق آخر لعبور الجبل ، يقع فى موتفع آخر ، ويفضى إلى سهل أبدّة ، ويمكن أن يسلكه الجيش دون أن يفطن العدو إلى ذلك . فسار معه القائدان لوبث دى هارو ،



ممر بورتو دل مورادال كما يبدو من أسفل الجبل



بسيط مائدة الملك Mesa del Rey كما يبدو من أسفل الجبل

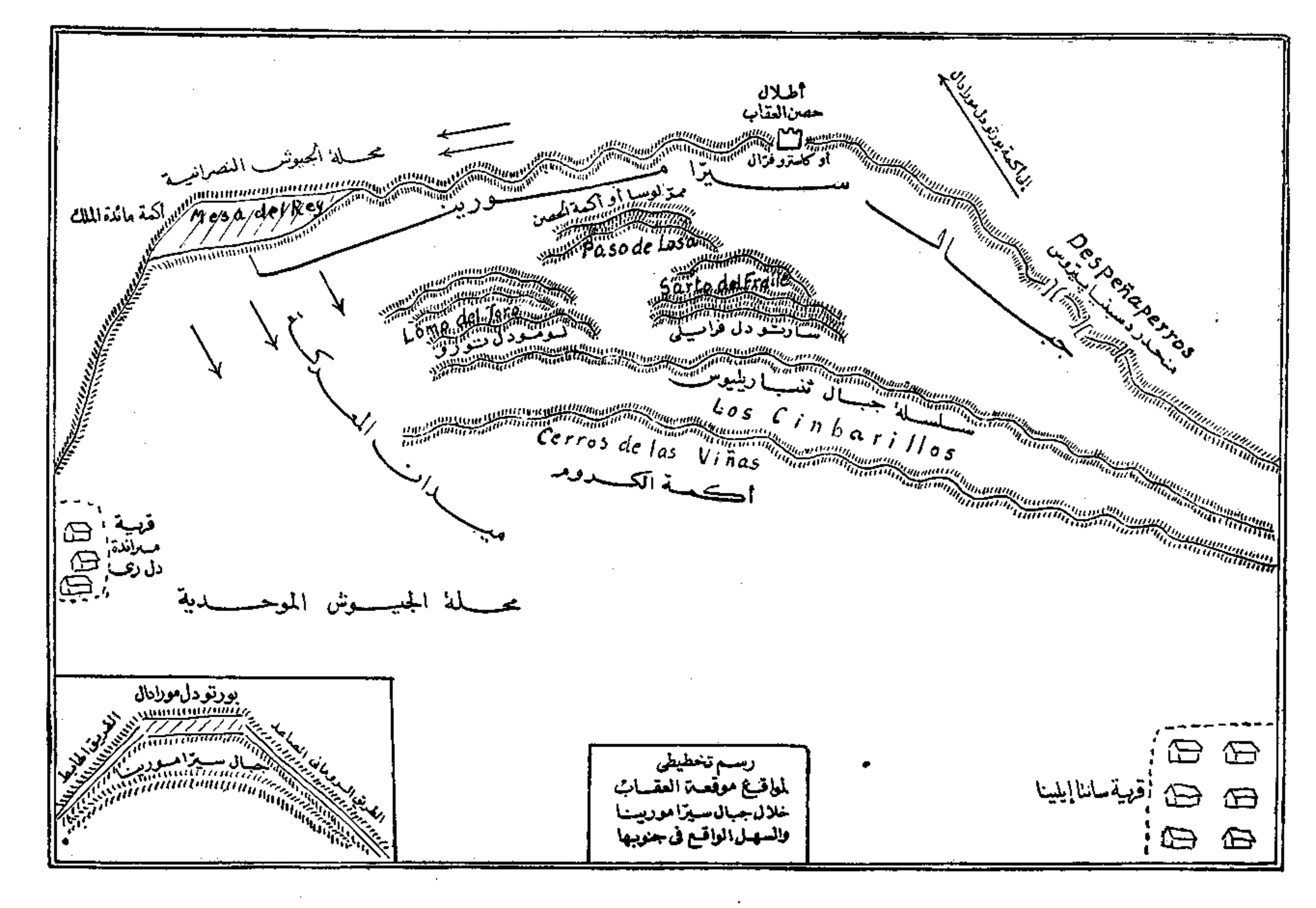
وغرسية روميرو لمعاينة هذا الطريق ، ولما تحققا من صحة كل ما قاله الراعى ، بادر الجيش النصرانى فى نفس اليوم — وهو يوم السبت ١٤ يوليه — بالسير إلى ذلك المرتفع الجديد ، واحتلوا بسيطه — وهو البسيط الذى يطلق عليه اليوم اسم « مائدة الملك » Mesa del Rey وهو الذى وصفناه ، وبينا موقعه فيما تقدم . وحصنوا ما حوله ، وبقيت بقية الجيش النصرانى مرابطة من ورائه ، واعتبر هذا الراعى المرشد منقذاً أرسله الله[1] .

ولم يخف أمر هذه الحركة التى قام بها الجيش النصرانى على الموحدين ، وقد وقفوا فى الحال على مكان عدوهم الجديد، وحاولت فرقة من الفرسان الموحدين عبثاً أن تنتزع هذا المرتفع الجديد من أيدى النصارى . وصدرت أوامر الخليفة الناصر بتعبئة الجيوش الموحدية لخوض المعركة فى الحال ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام مؤقتاً بمركزهم المنيع ، ولم يريدوا بالأخص أن يخوضوا المعركة فى يوم أحد ، واقتصر الأمر على بعض المناوشات البسيطة بين سريات الفرسان من الفريقين . بيد أنه لم يكن من الميسور على النصارى أن يؤخروا خوض المعركة لأكثر من يوم ، أولا لقلة مؤنهم ، وخوفهم أن تنضب بسرعة ، وثانيا لكون الجيش الموحدى ، لبث منذ يوم السبت فى حالة تعبئة مستمرة للقتال ، وقد يفاجئ الجيش النصرانى بالهجوم . وكان الناصر على علم مستمر بأحوال الجيش النصرانى ، وكانت كل تقديراته تؤكد له تحقيق الظفر المنشود .

وليس لدينا فى الرواية الإسلامية تفاصيل شافية ، عن التنظيمات التى وضعت للجيوش الموحدية لخوض المعركة ، بيد أنه يبدو مما ذكره لنا صاحب روض القرطاس ، وكذلك ما يذكره لنا ردريك الطليطلى ، وهو من شهود المعركة ، أن الجيش الموحدى ، قُسم وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق ، تتألف الفرقة الأمامية من القوات المتطوعة من مختلف الطوائف ، وتتألف قوات القلب والقوات الاحتياطية من الجند الموحدين ، وهم أغلبية الجند النظامية ، وتتألف الميمنة من القوات الأندلسية ، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل .

---

(١) وردت هذه التفاصيل وهذه القصة فى معظم التواريخ النصرانية الإسبانية . ويراجع فى ذلك Primera Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II, p. 698 ونقلها الأستاذ هويثى فى كتابه: Las Grandes Batallas de la Reconquista ; p. 250 . ونقلها أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ٣٦٥ .



رسم تخطيطي
لمواقع موقعة العقاب
خلال جبال سيرّا مورينا
والسهل الواقع في جنوبها
أطلال
حصن العقاب
أو كاسترو فرّال
إلى أكمة بورتو دل مورادال
Despeñaperros
منحدر دسبنيا بيرّوس
جبال سيرّا مورين
ممر لوسا أو أكمة الحصن
Paso de Losa
Sarto del Fraile
سارتو دل فرايلي
Loma del Toro
لوما دل تورو
سلسلة جبال ثنبا ريليوس
Los Cinbarillos
Cerros de las Viñas
أكمة الكروم
ميدان المعركة
محلة الجيوش النصرانية
أكمة مائدة الملك
Mesa del Rey
قرية
مرانذة
دل رى
محلة الجيوش الموحدية
قرية سانتا إيلينا
بورتو دل مورادال
الطريق الهابط
الطريق الروماني الصاعد
جبال سيرّا مورينا

وضربت قبة الخليفة الحمراء ، فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذى تحتله الجيوش الموحدية ، والذى يواجه مواقع الجيش النصرانى. ودارت العبيد ، وهم أغلبية الحرس الخليفى حول القبة من كل ناحية ، وكلها مزودة بالسلاح والعدة ، وضرب فى نفس الوقت حول القبة الخليفية سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة ، وشهر جند الحرس حرابهم فى اتجاه العدو ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ، وجلس الناصر فى قبته مستنداً إلى درقته ، ومعه أشياخ الموحدين ، وربطت فرسه مسرجة أمامه ، ووضعت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد ، تحت إمرة الوزير أبى سعيد بن جامع . وكان بوسع النصارى أن يروا من مواقعهم العالية ، جموع المسلمين التى لا تحصى ، وفى قلبها قبة أمير المؤمنين الحمراء[١] .

أما عن تنظيم الجيش النصرانى فلدينا تفاصيل كثيرة ، يقدمها إلينا ردريك الطليطلى وغيره من شهود المعركة ، وخلاصتها أن الجيش النصرانى قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتزعم كل قسم منها ، ملك من ملوك النصارى الثلاثة ، الأول يتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، هذا إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا . ويتكون الثانى من الجناح الأيمن ، ويقوده سانشو ملك نافارا ، ويضم فضلا عن القوات النافارية ، جند سرية وآبلة وشقوبية ومدينة سالم ، وفرسان فرنسا الذين يرأسهم مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال . ويتكون القسم الثالث من الجناح الأيسر ، ويقوده بيدرو الثالث ملك أراجون ، ويشتمل على قوات الطليعة والقوات التى يقودها أشراف أراجون . وقد وزع كل قسم من هذه الأقسام إلى وحدات عديدة ، فوضع فى القلب فرسان الداوية والأسبتارية وفرسان قلعة رباح كل منها تحت إمرة قائده الخاص ، وكذلك الصفوف التى يقودها مطران طليطلة وخمسة من الأساقفة القشتاليين[٢] .

وفى ليلة يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ ﻫ (ليلة ١٦ يوليه سنة ١٢١٢ م) ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وقضى النصارى شطراً من

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ ، وراجع أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ص ٣٦٧ ، وكذلك :

Huici : cit. Anales Toledanos, Las G. Batallas de la Reconquista p. 267

(٢) أشباخ الترجمة العربية ، ص٣٦٦ ، وكذلك : Huici : ibid; p. 253 & 254 .

الليل فى الصلاة والدعاء ، وتلقى البركة والغفران البابوى على يد الأساقفة ورجال الدين . ولم نجد فى الرواية الإسلامية ما يشير إلى أنه وقع الجيش الموحدى فى تلك الليلة ، شىء من تلك المناظر المؤثرة ، التى وقعت به قبيل اضطرام معركة الأرك ، من تبادل الاستغفار بين الخليفة والناس ، ومن وعظ وبكاء وحث على الجهاد ، فقد كان الخليفة الناصر حسبما تشير سائر الروايات ، واثقاً من النصر ، واثقاً من تفوقه العددى الهائل ، ولم يكن ينتظر سوى بدء المعركة لإحراز النصر المنشود .

وبدأت المعركة فى الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر ، وكان كل من الجيشين على أهبة لخوضها ، وقد رتبت صفوفه وفقاً للأوضاع التى سبق وصفها . وبدأ النصارى بالهجوم ، فهبطت طلائعهم مسرعة من المرتفع الذى تحتله الجيوش النصرانية فى بسيط « مائدة الملك » **Mesa del Rey** إلى السهل الأسفل الذى يحتله الجيش الموحدى ، والذى يشغل بسيطاً شاسعاً ، يقع عند الطرف الغربى من بلدة « سانتا إيلينا » ، ويستند من الخلف إلى سلسلة من المرتفعات المنخفضة ، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدى ، فلقيتهم صفوف المتطوعة بقوة وثبات ، واقتتل الفريقان بشدة حتى بدأ النصارى فى التراجع ، فأدركتهم الأمداد ، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان ، التى صعب على المتطوعة الموحدين اختراقها ، وهجم فى نفس الوقت جناحا الجيش النصرانى على جناحى الجيش الموحدى ، واحتدمت بين الجيشين معركة هائلة عامة ، وكانت طبول الساقة الموحدية ، تهز الآفاق بدويها الرائع . ويستفاد من أقوال الروايتين الإسلامية والنصرانية ، أن المتطوعة المسلمين بعد ثباتهم الأول ، قد ارتدوا تحت ضغط النصارى الهائل ، وكثر القتل فيهم ، بل يقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنهم لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم « وعساكر الموحدين والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد»[1]. ولكن النصارى حين تقدموا بعد التغلب على فرق المتطوعة إلى قلب الجيش الموحدى ، لقوا من الجند الموحدين أشد مقاومة ، وردوا على أعقابهم . ومن جهة أخرى ، فإن قوات الميمنة والميسرة الموحدية استطاعت بعد قتال عنيف أن ترد جناحى الجيش النصرانى ، وأخذ النصارى حسبما تقول لنا الرواية النصرانية ذاتها ، فى الارتداد

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ .

والفرار[1]، ولاح للفريقين أن لواء النصر سوف يعقد للموحدين .

ولكن هذه البارقة لم يطل أمدها . ذلك أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، حينما شهد من فوق المرتفع ما آلت إليه المعركة ، من تراجع القوات النصرانية فى القلب والجناحين ، وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة ، اعتزم فى الحال أن ينزل إلى الميدان بقواته الاحتياطية المختارة ، من قوات قشتالة وليون ، ليقاتل قتال اليائس، واندفع بالرغم من اعتراض المطران والأساقفة والقوامس على مسلكه الخطر ، فى قواته إلى الصف الأمامى . وتبعه فى نفس الوقت ملكا أراجون وناڤارا كل فى قواته ، نحو جناحى الجيش الموحدى ، وهجمت القوات النصرانية كلها فى وقت واحد ، بمنتهى العنف والشدة ، حتى بدأت ميمنة الجيش الموحدى وميسرته فى الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى ، وفر الأندلسيون والعرب ، وأحدث فرارهم اضطرابا فى الصفوف . وهنا تمركز هجوم النصارى على قلب الجيش الموحدى ، المكون من الجنود النظامية والاحتياطية ، والذى تتوسطة قبة الخليفة الحمراء ، ومن حولها الحرس الخليقى الأسود ، وكان النصارى قد انتعشوا ، بما شهدوا من تطور المعركة فى صالحهم ، فشددوا الهجوم على الموحدين. وصمد الموحدون ، ودافعوا بمنتهى الشدة، ومن ورائهم الحرس الأسود شاهراً رماحه ، من وراء السلاسل الحديدية الضخمة ، وكان الخليفة الناصر قد أدرك حقيقة الموقف، فنهض من مجلسه وجلس أمام خبائه على درقته، وهو يحث جنوده على الاستبسال ، واستطاع النصارى أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى دائرة الحرس الأسود ، فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهرة حيناً ، وهم كالبنيان المرصوص حول القبة الخليفية . ولكن النصارى « ردوا أكفال الخيل المدرعة إلى رماح العبيد »[2] فاخترقوا الدائرة المدرعة ، وكان أول من دخلها منهم الكونت ألبارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين ، وفى يده علم قشتالة الأبيض ، ودخلها فى نفس الوقت ملكا أراجون وناڤارا كل من ناحيته ، وبذلك مزق الجيش الموحدى من كل ناحية ، وكثر القتل فيه كثرة مروعة ، ولبث الخليفة الناصر حتى آخر لحظة فى مجلسه الحرج ، وهو يحاول

---

(١) وهذا ما تقوله لنا رواية ألفونسو العالم . وتراجع فى : **Primera Crónica General** (Ed. Pidal) Vol.II p. 701 .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ .

حث جنده على الصمود . وتنوه الرواية الإسلامية بثبات الناصر وصموده اليائس فى تلك اللحظة الرهيبة ، التى تناثر فيها الجيش الموحدى ، والحرس الخلفى من حوله أشلاء دامية ، وشراذم فارة فى كل ناحية ، وتقول لنا إنه لبث فى مكانه لا يتزحزح ، حتى كادت الروم أن تصل إليه ، بل كاد أن يهلك ، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد ، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستؤصلت جموع الجيش الموحدى كلها قتلا وأسرا[1] . واضطر الناصر فى آخر لحظة أن يمتطى صهوة فرس قدمها إليه أعرابى كان إلى جانبه ، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوبا نحو بيّاسة ، ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان ، وكانت فلول الجيش الموحدى عندئذ تفر فى كل ناحية ، ومن ورائها الفرسان النصارى يمعنون فيها قتلا وإفناء . واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل ، وكانت أشنع ماوقع من ضروب السفك والتقتيل ، إذ هلك فيها عشرات الألوف من الجند الفارين ، وانقض الجند النصارى على المحلة الموحدية ينتزعون منها ما استطاعوا من المتاع والأسلاب ، بالرغم من تحذير مطران طليطلة . وقبيل مغيب الشمس ، كان الملوك النصارى ، والمطران ، والأساقفة ، وجزء كبير من الجيش النصرانى ، قد دخلوا محلة الجيش الموحدى ، واستقروا بها ، وأضحى الجيش الموحدى العظيم الذى كان بها منذ ساعات قلائل فقط ، أثراً بعد عين .

وكان وقوع هذه النكبة المروعة بالجيش الموحدى فى يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩هـ الموافق يوم ١٦ يوليه سنة ١٢١٢[2] ، وهى تعرف فى التواريخ النصرانية حسبما قدمنا بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا **Las Navas de Tolosa** لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التى تحيط بها الربى ، تقع فى سفح جبل الشارات الجنوبى ، وتعرف أيضاً بموقعة أبّدة لوقوعها على مقربة من شمال غربى هذه المدينة . وأما فى التواريخ الإسلامية فإنها تعرف

---

(١) روض القرطاس ص ١٥٩ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٨٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) هذا هو التاريخ الذى تأخذ به معظم الروايات الإسلامية ، وهو الذى يتفق بالفعل مع الروايات النصرانية (راجع المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٩ ، والروض المعطار ص ١٣٨) . ولكن ابن خلدون يضع تاريخها فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص ٢٤٩) . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخها فى يوم الاثنين ٨ صفر سنة ٦٠٩ — القسم الثالث ص ٢٤١ .

بموقعة العِقاب ، من مفردها عقبة ، وذلك فيما يرجع لوقوعها بين الربى والتلال المانعة[1] ، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب ، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى ، فى معرض التلويح بغضب الله وعقابه للموحدين ، لأنهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتملوا على عونه . وينفرد صاحب روض القرطاس إلى جانب تسميتها بموقعة العقاب بتسميتها بموقعة « حصن العقاب » أو «حصن العقبان»[2] وهو باسمه الإسبانى حصن فرّال أوكاستروفرال Castro Ferral الواقع فى قمة جبل الشارات ، والذى استولى عليه القشتاليون قبيل المعركة ثم تركوه ليعبروا الجبل من الناحية الأخرى التى أرشد عنها الراعى .

ومن المسلم أن خسائر المسلمين فى معركة العقاب كانت فادحة جداً . والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى ، قد هلك معظمه . بيد أنها تذهب أحيانا إلى تقديرات لايستسيغها العقل ، ومن ذلك مايقوله صاحب روض القرطاس أنه لم ينج من الجيش الموحدى إلا الواحد من الألف ، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدى بأكثر من نصف مليون ، فمعنى ذلك أنه لم ينج من الموحدين فى المعركة سوى خمسمائة جندى ، وهذا منتهى الإغراق . ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحة من القتلى ، يرجع إلى أن ملك قشتالة أمر أن ينادى فى جيشه بأن لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره[3] . ويصف صاحب الحلل الموشية الموقعة « بالهزيمة العظمى » التى فنى فيها أهل المغرب والأندلس . ويقول صاحب « الذخيرة السنية » مشيراً إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لايحصر ، وفيها فنى جيوش الغرب والأندلس[4] ، ولكن المراكشى وهو مؤرخ معاصر يقول لنا فى نوع من الاعتدال ، إنه قتل من الموحدين خلق كثير ، ويتابعه فى هذا الوصف صاحب الروض المعطار ، ويقول لنا إنه قد هلك فى الموقعة جملة من الأعيان والطلبة ، منهم أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص ، وعلى بن الغانى الميورقى . وسقط كذلك فى المعركة عدة من أكابر

---

(١) جاء فى القاموس المحيط أن عقبه بالتحريك هى مرقى صعب من الجبال والجمع عقاب (بكسر العين) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٩ و ١٥٨ .

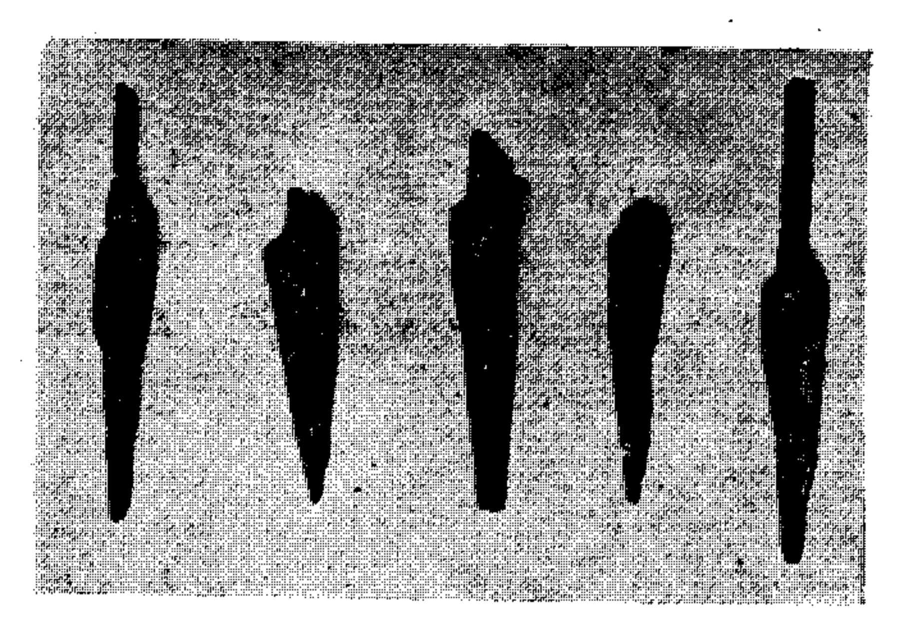
(٣) روض القرطاس ص ١٥٩ .

(٤) الحلل الموشية ص ١٢٢ ، والذخيرة السنية ص ٤٨ .

العلماء والحفاظ ، منهم أحمد بن هارون بن عات النفزى ، وإسحاق بن إبراهيم المجابرى ، ومحمد بن حسن الأنصارى المعروف بابن صاحب الصلاة ، ومحمد ابن إبراهيم الحضرمى ، وأيوب بن عبد الله بن عمر الفهرى ، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم[١] . بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أن الرواية النصرانية مع ما يؤثر عنها من المبالغة فى مثل هذه المواطن ، تقدم إلينا عن خسائر الموحدين فى الموقعة ، أرقاما يطبعها نوع من الاعتدال ، بكونها تقل كثيراً عما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية ، بيد أنها من جهة أخرى تبالغ فى التقليل من خسائر النصارى . ذلك أن ردريك الطليطلى يقدر من قتل من المسلمين فى الموقعة بمائتى ألف ، وذلك من مجموع الجيوش الموحدية التى يقدرها بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة ، ويقدر الملك ألفونسو الثامن قتلى المسلمين فى خطابه إلى البابا بمائة ألف ، ويقدرهم أرنولد مطران أربونة بستين ألفاً ، ثم يقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من هذا العدد أثناء الفرار ، وتقدر الأميرة برنجاريا القشتالية فى خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً . بيد أن الروايات النصرانية تقدم إلينا فى نفس الوقت عن خسائر النصارى فى المعركة أرقاما لا يمكن أن يصدقها العقل ، ومن الغريب أن شهود العيان الذين تقدم ذكرهم هم الذين يقدمون هذه الأرقام . فالمطران ردريك يقول لنا إنه لم يقتل فى الموقعة من النصارى سوى خمسة وعشرين ، والملك ألفونسو يذكر فى خطابه إلى البابا أنهم لم يتجاوزا الثلاثين ، وأرنولد مطران أربونة يقول إنهم لم يتجاوزا الخمسين ، ولاريب أن مثل هذه الأرقام الضئيلة لم تملها سوى أثرة الرواية النصرانية ، ومحاولتها أن تسبغ ثوب المعجزة ، على النصر الذى أحرزه النصارى . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت شديدة أيضاً ، فى مثل هذه المعركة التى التحم فيها الجيشان بأسرهما ، وردت فيها هجمات النصارى الأولى بخسائر كبيرة لاريب ، ولم ينجحوا فى اختراق قلب الجيش الموحدى إلا بعد جهود فادحة ، وبعد أن ألقوا فى المعركة بقواتهم الاحتياطية ، ولا يمكن أن تقل هذه الخسائر عن الألوف العديدة ، فى جيش لم يكن يقل تعداده عن ثمانين ألف أو مائة ألف من الفرسان والمشاة . ويقدم إلينا الراهب ألبريكوس الذى عاش

---

(١) المعجب ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ، وابن الأبار فى التكملة (القاهرة) فى التراجم رقم ٢٦٢ و٥١٧ و١٥٠٨ و١٥٥٩ .



سهام خيل أرضية عثر بها المؤلف بالحفر فى بعض نواحى السهل الذى كانت به المحلة الموحدية

قريباً من هذا العصر تفسيراً لهذا الرقم الضئيل ، الذى تقدمه الرواية النصرانية عن خسائر النصارى ، فيقول إنه قد هلك فى الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك فى نفس الوقت من النصارى خلال التحام المعركة عدد كبير ، بيد أنه لم يهلك منهم خلال مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين(١) .

واستولى النصارى فى محلة الجيوش الموحدية على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والذهب والفضة ، والنقود الذهبية والبسط والآنية الثمينة والثياب والأقمشة الفخمة ، وكذلك على مقادير عظيمة من المؤن ، وعلى ألوف مؤلفة من دواب الحمل ، فكانت من أعظم الغنائم التى ظفر بها النصارى(٢) .

---

(١) تراجع الروايات النصرانية عن خسائر المسلمين والنصارى فى أشباخ (الترجمة العربية) ص ٣٧٠ و ٣٧١ . وكذلك فى :

Huici: Las Grandes Batallas de la Reconquista p. 266 & 267

(٢) راجع فى تفاصيل موقعة العقاب ، المعجب ص ١٨٣ - ١٨٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ، وروض القرطاس ص ١٥٦ - ١٦٠ ، والروض المعطار ص ١٣٧ و ١٣٨ والنويرى (طبعة ريميرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٣٧٩) والحلل الموشية ص ١٢٢ ، =

وكان من أهم الغنائم الغنائم التى أحرزها النصارى خيمة الناصر الحريرية الموشاة بالذهب ، وعَلَمٌ موحدى ضخم مازال يحفظ حتى اليوم بين ذخائر اسبانيا النصرانية . وقد أرسلت الخيمة مع طائفة أخرى من نفيس الهدايا إلى البابا برسم كنيسة القديس بطرس، لتعرض بها تذكاراً للنصر ، واستولى ملك نافارا على السلاسل الحديدية التى كانت تحيط بقبة الخليفة . وأما العَلَم الموحدى فما زال يحفظ حتى اليوم بالدير الملكى بمدينة برغش[1]، وقد شهدناه وقت زيارتنا لهذه المدينة التاريخية ، وهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ مترا وعرضها ٢,٢٠ متراً . وبها فى الوسط دائرة كبيرة صفراء يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة ، وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة ، ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة أحزمة بنية ، نقشت عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفى ذيلها دوائر نقشت فيها أدعية مختلفة . والظاهر أن هذا العلم لم يكن من الأعلام التى كانت تحمل خلال المواقع ، وإنما كان من الأعلام التى تعلق بخيمة الخليفة . ومن ثم كان الاسم الذى يعرف به وهو « مُعلق معركة العقاب » Pendón de las Navas ، وكذلك الوصف الذى سطر تحته بالإسبانية وهو « غنيمة انتزعت من العدو فى موقعة العقاب »[2].

- ٣ -

ولابد لنا أن نحاول بعد ذلك أن نتلمس الأسباب المادية والمعنوية ، التى أدت بالجيش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة . فالحقيقة أنه إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الجيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيماتها ، وتنافر العناصر المكونة منها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدى قادة يتسمون بالبراعة العسكرية ، واختلال نظام التموين بها ، نظراً لابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة ، إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت

= وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، ونفح الطيب ج٢ص ٥٢٨ وراجع الروايات النصرانية P. Crónica General(Ed. Pidal) P.690 - 704. Huici : Las Grandes Batallas de la, Reconquista; p. 231 - 308 والمراجع . وكذلك أشباخ (الترجمة العربيه) ص ٣٦٥ — ٣٧٨ .

(١) واسمه بالإسبانية Real Monasterio de las Huelagas .

(٢) راجع وصف هذا العلم وما نقش عليه من آيات فى كتابنا الآثار الأندلسية الباقية فى اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية) ص ٢١٣ و ٢١٤ . وراجع أيضاً : A. de los Rios : Troleos Mlitares de la Reconquista, Ensenas Musulmanes del Real Monasterio de las Huelgas (Burgos). (Madrid 1893) p. 27 - 48.

على وقوع الكارثة . وتشير الرواية الإسلامية إلى طرف من هذه الأسباب ، وتلخصها فى تغير قلوب الموحدين ، وسخطهم على الوزراء والقادة ، وذلك بسبب حبس أعطيتهم وتأخرها ، وقد كان المتبع منذ أيام المنصور ، أن يُمنح العطاء للجند مرة فى كل أربعة أشهر دون تأخير ، ولكن العطاء كان يؤخر فى عهد الناصر ولاسيما فى هذه الحملة الكبيرة ، فنسب الجند أسباب التأخير للوزارة ، وخرجوا إلى الغزو وهم كارهون ، وقد خبت قواهم المعنوية ، وهكذا خرج الناصر إلى الغزو « بحشود لاغرض لهم فى الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهم ، وقتر عليهم » : ويقول لنا المراكشى فضلا عن ذلك ، أنه بلغه من جماعة منهم « أنهم لم يسلوا سيفاً ولاشرعوا رمحا ، ولا أخذوا فى شىء من أهبة القتال ، بل انهزموا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك »[1] . أضف إلى ذلك ما حدث قبيل نشوب المعركة فى المعسكر الموحدى ، من حوادث كان لها نذير . منها قتل الخليفة الناصر للقائد الأندلسى الباسل ابن قادس قائد قلعة رباح هو وصهره ، دون أن يستقبله أويستمع إلى عذره ، ومنها إهانة الوزير أبى سعيد بن جامع للقواد الأندلسين وإنذارهم بمغادرة الجيش ، وقد كان لهذه الحوادث أسوأ وقع فى نفوس الأندلسين ، وفى تثبيط همتهم فى القتال ، وكان الأندلسيون بالرغم من قلتهم العددية ، عنصراً هاما فى جيوش الغزو الموحدية المقاتلة بالأندلس ، لأنهم كانوا أكثر خبرة بقتال النصارى الإسبان ، وأكثر دراية بطريقتهم فى الحرب[2] . وقد رأينا كيف كان اعتماد الخليفة المنصور على نصح ابن صناديد قائد الأندلس ومشورته ، من أسباب نصره فى معركة الأرك . وأخيراً فإن ما أبداه الناصر من العُجب والاعتداد بكثرة جموعه ، واعتماده على تفوقه العددى البالغ ، والتقليل من شأن العدو ، كان له أكبر الأثر فيما بدا من الرعونة ، وعدم الحرص والتحوط فى لقاء العدو ، ومن ثم فقد كان ظفر القشتاليين باختراق قلب الجيش الموحدى بتلك السرعة ، مفاجأة هائلة لم تخطر للناصر ولا للقادة الموحدين . وترى بعض الروايات الإسلامية أن نكبة الناصر فى العقاب كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بكثرة جموعه ، واعتقاده أنه لاغالب له من الناس ، فأراه

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٣٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٦ و ١٤٧ ، والروض المعطار ص ١٣٨ ، وراجع أيضاً نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .



العلم الموحدى الذى غنمه الإسبان فى معركة العقاب ويحفظ الآن بدير برغش الملكى (لاس هويلجاس)

الله تلك الآية ليعلم أن النصر من عند الله ، وأن القدرة والحول والقوة بيد الله[1].

وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة ، عن أفدح وأروع الآثار التى يمكن تصورها ، سواء بالنسبة للأندلس أوالمغرب أو الدولة الموحدية . فأما بالنسبة للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية فى شبه الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذى كانت تسبغه الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها ، وتضعضع سلطان الحكم الموحدى بالأندلس ، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تنحدر إلى براثن الفوضى الطاحنة ، وانتثرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة ، قامت لتضرب بعضها بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التى لانهاية لها ، والتى تذكرنا بعهد الطوائف. وضمن ذلك النصر الباهر الذى أحرزته الجيوش النصرانية المتحالفة فى هضاب تولوسا ، لإسبانيا النصرانية ، تفوقها السياسى والعسكرى فى شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد **La Reconquista** النصرانى المنظم ، الذى سوف يستمر من ذلك الحين فى اجتناء ثمارة ، بانتزاع القواعد الأندلسية ، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة ، وفى فترات قصيرة مذهلة .

وقد تردد هذا الفزع الذى سرى إلى الأندلس يومئذ ، وما كان يلوح لها من من شبح الفناء ، من جراء كارثة العقاب ، واضحاً فى الأدب والشعر . فمن ذلك ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلى :

وقائلة أراك تطـــل تفكرا ... كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقلت لها أفكر فى عقاب ... غدا سبباً لمعركة العقـــاب
فما فى أرض أندلس مقام ... وقد دخل البلا من كل باب[2]

وأما بالنسبة للمغرب ، والدولة الموحدية ، فقد كانت كارثة العقاب ضربة شديدة للمغرب ، ولأهل المغرب ، بما هلك فيها من حشود القبائل البربرية ، وزهرة جنودهم ، ومن الجيوش الموحدية النظامية ، ولم يعد فى مقدور هذه القبائل أن تقدم للغزو الكثير من حشودها ، ولم يعد فى مقدور الدولة الموحدية أن تجدد مثل

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

هذه الحملات العسكرية العظيمة ، التى كان يقودها خلفاء مثل عبد المؤمن وأبى يعقوب يوسف والمنصور والناصر . وكما أن الرواية الإسلامية تنوه بخطورة آثار الهزيمة فى مصير الأندلس ، وتصفها بأنها كانت سبباً فى « هلاك الأندلس »[1]، فإنها تنوه كذلك ، وبنوع خاص ، بالخسارة الآدمية الهائلة ، التى وقعت من جرائها بالمغرب والأندلس ، وتصف الموقعة بالهزيمة العظمى « التى فنى فيها أهل المغرب والأندلس[2]، أو التى خلا بسببها أكثر المغرب[3]، أوحسبها تقول لنا فى عبارة أوضح وأشمل « إن المغرب قد باد أهله ورجاله وفنى خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ، قد استشهد الجميع فى غزوة العقاب»[4]. ويلخص لنا ابن الأبار ، نتائج الموقعة المدمرة بالنسبة للأندلس فى قوله إنها « أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى فى تحيف الروم بلادها ، حتى استولت عليها »[5]. وأما بالنسبة للدولة الموحدية ، فقد هزت كارثة العقاب أركانها إلى الأعماق ، وقضت على كل عوامل التوطد ، التى أسبغها عليها المنصور بانتصاره فى معركة الأرك ، والتى تأيدت بإخماد ثورة بنى غانية فى إفريقية . ومما لاريب فيه أن تضعضع الدولة الموحدية على هذا النحو ، كان أكبر مشجع لبنى حفص على اقتطاع إفريقية وإقامتهم غير بعيد لدولتهم المستقلة بها . ويلخص لنا صاحب الروض المعطار أثر الهزيمة فى الدولة الموحدية بقوله « وكانت هذه الوقيعة أول وهن دخل على الموحدين ، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة»[6].

ونستطيع بعد أن استعرضنا آثار هزيمة العقاب أن نقول فى معرض المقارنة بينها وبين معركة الأرك ، إن انتصار الموحدين فى الأرك ، بالرغم من عظمته ولمعانه ، لم يسفر بالنسبة لإسبانيا النصرانية عن آثار عميقة ، ولم يصب قشتالة بأكثر من ضعف عسكرى موقت ، استطاعت أن تنهض منه فى فترة قصيرة ، ولم يستطع الموحدون أن يقوموا فى أعقابه إلا بغزوات عابرة لمنطقة إسترامادورة ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٢٤ .

(٥) ابن الأبار فى « التكلة » (القاهرة) ج ١ ص ١٠٢ .

(٦) الروض المعطار ص ١٣٨ .

ثم لمنطقتى طلبيرة وطليطلة ، وقد حاصروا طليطلة بالفعل ، ولكنهم لم يحاولو أولم يستطيعوا الاستيلاء عليها . أما هزيمة العقاب ، فقد رأينا بالعكس مما تقدم ، ماكان لها من الآثار الهدامة العميقة .

ومن الغريب المدهش حقاً ، أن الناصر لم يرد أن يلوذ بالصمت إزاء هذه الكارثة الفادحة ، بل أراد أن يقدم عنها اعتذاره فى رسالة رسمية ، وجهت من إشبيلية إلى حضرة مراكش وإلى غيرها من قواعد المغرب والأندلس، وذلك فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ . وقد نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض فصول هذه الرسالة ، وهى من إنشاء الوزير الكاتب أبى عبد الله بن عياش، وفيها يقص علينا الناصر قصة استعدادات ألفونسو الثامن لمحاربة المسلمين ، واهتمام البابا ، والأحبار النصارى بمعاونته وشد أزره، وماكان من انضمام ملكى أراجون ونافارا إليه . ثم يصف لنا سيره للقاء النصارى ، ويقول لنا إنه نشبت بين الفريقين فى الموضع المعروف « بالمرشة » معركة « اشتد فيها الكفاح ،وأرخصت الأرواح » . ثم يقول « ولكن الله أراد أن يمحص المؤمنين ، ويبلى الكافرين ، فكانت عاقبة اليوم على الخصوص لأهل الصلبان، والعاقبة المطلقة هى لأهل الإسلام والإيمان، وتحاجز الفريقان ، والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدرة الله كتائبهم ، لم تصب الحرب منهم أحدا ، ولا نقصت لهم عدداً . وهى الحروب قضى الله أن تكون سجالا ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا » . ثم يقول فى ختام رسالته : « وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية ، وكفايات الله وافية ، فلا تهنوا فإنا لا نهن ، وانتظروا الكرة على الكفار ، والإمداد عليهم ، بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين ، حتى يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلا ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . وعرفناكم لتكون عندكم هذه الوقيعة على وجهها ، والنازلة على كنهها ، ولتعلموا أنه لم يدر للموحدين قتيل ، ولا أصيب منهم كثير ولاقليل والسلام »[1] .

وإذا كان من الصعب أن يعلق المؤرخ على مثل تلك الرسالة ، التى يصفها صاحب الروض المعطار بأنها من قبيل « الزخرف الكاذب » ، فإنه يمكن القول بأنها محاولة جريئة من الخليفة المهزوم ، للاعتذار عن نكبته وتهوين شأنها فى نفوس أمته ، واستدرار عطفهم ، والتخفيف من سخطهم .

(١) راجع البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

— ٤ —

حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، على أثر ظفره العظيم فى موقعة العقاب أن يجنى ثمار نصره باقتطاع ما يستطاع من الأراضى الإسلامية ، فاستولى فى أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية فى تلك الناحية ، وكان من بينها حصن فرّال (حصن العقاب) ، الذى كان قد أخلاه قبل الموقعة ، وبلج ، وبانيوس ، وتولوسا . ثم سار إلى مدينتى بيّاسة ، وأبّدة ، اللتين لاتبعدان عن مسرح المعركة سوى بضع مراحل . وكانت بياسة قد غادرها معظم أهلها ، ولكن كان بها كثير من الجرحى والضعاف والفارين ، فأحرق دورها ، وخرب مسجدها الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، وأخذ بعضهم أسرى . ثم سار إلى مدينة أبدة ، القريبة منها ، وكانت تموج بأهلها ، وبمن وفد عليهم من أهل بياسة ، ومن الفارين ، ولكنها كانت فى حالة دفاع وأهبة ، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة ، فحاصرها ألفونسو ثلاثة عشر يوما ، وصمد المسلمون ، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر ، ثم عرض المسلمون فى النهاية أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة ، وأن يتمتعوا بدينهم وشعائرهم ، فقبل ألفونسو وزميلاه ملكا أراجون ونافارا هذا العرض ، ولكن الأحبار عارضوا فى تنفيذه ، وأصروا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط ، فنزل الملوك عند هذا الضغط ، ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسبوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبي من أهل أبّدة ، بمائة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمائة ألف[1] ، ويقول لنا المراكشى ، وهو المؤرخ المعاصر ، إن ألفونسو دخل أبدة عنوة ، فقتل وسبي وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان ، بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة[2]. ثم هدم النصارى دور المدينة ، بعد أن خلت من سكانها حتى أصبحت خرابا يبابا .

ولم يكن بين النصارى الظافرين وبين مدينة جيان سوى بضع مراحل ، وكان من الطبيعى أن يقصد ملك قشتالة إلى انتزاع هذه القاعدة الأندلسية الهامة ،

(١) راجع أشباخ — الترجمة العربية ص ٣٧٢ ، وكذلك :
Huici : Imperio Almohade, Vol. II p. 427 .

(٢) المعجب ص ١٨٤ .

ولو حاول ذلك لكان من المحقق أن يفوز ببغيته، فى تلك الظروف التى انهار فيها خط الدفاع الأمامى بالأندلس . ولكن مصاعب التموين كانت تتفاقم، وقد سادت الفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الجثث التى غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصارى فى قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة فى موكب ملوكى ضخم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر ، وتقرر أن يغدو يوم ١٦ يوليه ، وهو اليوم الذى تحقق فيه النصر ، عيداً قومياً يحتفل به فى طليطلة وسائر أنحاء قشتالة ، ويسمى عيد « ظفر الصليب » .

هذا وأما الخليفة الناصر لدين الله ، فإنه بعد أن فرّ من ميدان المعركة فى آخر لحظة ، حسبما أشرنا من قبل، سار إلى جيّان ثم غادرها مسرعاً إلى إشبيلية فوصلها فى أيام قلائل ، فى أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ووجه منها كتابه بالاعتذار عن الكارثة، إلى قواعد المغرب والأندلس . ولبث مقيما بإشبيلية حتى شهر رمضان من هذا العام ، وهو لايحرك ساكنا ولايبالى بأمر ، ثم عبر البحر إلى العدوة ، قافلا إلى حضرة مراكش ، وماكاد يستقر بها حتى أخذ البيعة بولاية العهد لولده السيد أبى يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر ، فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع المنابر بالمغرب والأندلس ، وذلك فى أواخر شهر ذى الحجة سنة تسع وستمائة . ثم لزم الناصر بعد ذلك قصره ، واحتجب عن الناس . يقول صاحب روض القرطاس : « وانغمس فى لذاته ، فأقام فيه مصطبحاً ومغتبقاً » أى صباح مساء . وفى أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠هـ ، مرض الناصر ، وتوفى فى مساء يوم الأربعاء العاشر من شعبان (٢٢ ديسمبر سنة ١٢١٣م)[١]. وقد اختلف فى أسباب وفاته ، فقيل إنه توفى غما وألماً من آثار نكبته فى العقاب[٢] . وقيل إنه توفى من عضة كلب[٣] ، وقيل إنه مات مسموماً ، بتدبير بعض وزرائه ، ممن خشوا من نقمته وانتقامه ، لما بلغه عنهم من سوء فعلهم ودسائسهم ، فأغروا

---

(١) اختلف فى يوم وفاته ، فذكر إنه اليوم الخامس من شعبان أو اليوم العاشر (النويرى — طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٨٠) ، وذكر أنه اليوم الحادى عشر (روض القرطاس ص ١٦٠) . ولكن المراكشى وهو أقرب من عاصره يضع تاريخ وفاته فى يوم الأربعاء العاشر من شعبان (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .   (٣) الروض المعطار ص ١٣٨ .

بعض جواريه بوضع السم له فى قدح من الخمر فمات من حينه[1]. ولكن المراكشى وهو فى ذلك أكثر اطلاعاً وأقرب إلى الثقة، لمعاصرته لتلك الحوادث ؛ يقول لنا إن أصح ما بلغه عن وفاة الناصر « أنه أصابته سكتة من ورم فى دماغه ، وذلك يوم الجمعة لخمس خلون من شعبان ، فأقام ساكتا لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ، وتوفى يوم الأربعاء لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ، وصلى عليه خاصة الحشم »[2].

وكان الخليفة محمد الناصر لدين الله ، آخر ذلك الثبت من الخلفاء الموحدين الذين اقترنت بعصرهم بعض الأحداث الضخمة الحاسمة ، وكان أهم تلك الأحداث أولا تحطيم ثورة بنى غانية فى إفريقية ، وهو ألمع حادث فى عهده، ويقترن بذلك فتح الموحدين لميورقة ، وثانيا نكبة العقاب المشئومة التى هزت أركان الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس . ولم يكن ثمة فى بداية عهـده ما يؤذن بأنه صائر إلى ذلك الانهيار ، الذى انتهى إليه فى فترته القصيرة ، بل كانت صولة أبيه العظيمة ، وذكريات نصر الأرك الباهر ، مازالت تظلل الخلافة الموحدية . وقد بدأ الناصر عهده بداية حسنة ، وأبدى همة ظاهرة فى إدارة الشئون وتنظيم الإدارة ، ومطاردة الفساد ، وإقصاء العمال الظلمة والمرتشين ، ولكنه لم يتذرع فى ذلك بالروية وبعد النظر ، بل كان يغلب فى ذلك النزق والاستبداد . وكان الناصر فى البداية ، وهو مايزال فى شرخ فتوته يسترشد بآراء أشياخ الموحدين، فى تسيير الشئون الكبرى ، ولاسيما بآراء الشيخ أبى محمد عبدالواحد بن أبى حفص ، وفقاً لوصية أبيه المنصور ، ولكنه لما اشتد ساعده ، استبد بالأمر ، ولم يعد يقبل نصحاً أومشورة من أحد ، حتى أنه رفض نصح الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، حينما استشاره فى شئون الأندلس ، بألا يسير إلى غزوته الكبرى ، التى انتهت بنكبته فى موقعة العقاب . ولم يقع فى عهد الناصر شىء يذكر من الأعمال الإنشائية ، التى امتاز بها عهد أبيه وجده ، ولم يكن الناصر على شىء خاص من أنواع العلوم أوالمعرفة ، ولم يجتمع فى بلاطه أحد من أولئك العلماء المبرزين ، الذين اجتمعوا حول أبيه ، وإنما كان يلوذ ببلاطه فقط بعض الشعراء الملقين ، الذين عرفناهم فيما تقدم ، مثل أبى العباس الجراوى ، ووزيره خالد اللخمى وغيرهما .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) المعجب ص ١٨٤ ، ونقله النويرى (طبعة ريميرو ج ٨ ص ٢٨٠) .

وقد وصف لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، وربما شاهد عيان ، صفات الناصر فى قوله : «كان كثيراً الإطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغاً كان بلسانه ، حليما ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لايعنيه ، إلاأنه كان بخيلا»(١). ونحن نعتقد أن وصف الناصر بالعفة عن الدماء ، وصف فى غير موضعه ، لما رأيناه ، فيما تقدم ، من تسرعه فى سفك دماء بعض العمال ، ودماء القادة الأندلسيين . ويقول صاحب روض القرطاس «إنه كان كبير الهمة ، غليظ الحجاب ، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد ، مصيب برأيه ، مستبد فى أموره وتدبير مملكته بنفسه»(٢) وأما عن شخصه ، فيوصف الناصر ، بأنه كان أبيض ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، نحيل الجسم ، حسن القامة .

ووزر للناصر فى البداية وزير أبيه عبد الرحمن بن يوجان ، ثم استوزر من بعده أخاه إبراهيم بن الخليفة المنصور ، ثم ولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد ابن على بن أبى عمران ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان يحض الخليفة على فعل الخير ، ونشر العدل ، والإحسان إلى الرعية والجند ، ثم عزله الناصر ، ووُلّى الوزارة من بعده ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وإبراهيم هو جد هذه الأسرة من الوزراء ومن صحب المهدى ابن تومرت حسبما سبقت الإشارة إليه . وتولى القضاء للناصر ، أبو القاسم أحمد بن بقى قاضى أبيه ، ثم أبوعبد الله محمد بن مروان ، فلبث فى منصبه حتى توفى فى سنة ٦٠١ هـ ، فخلفه فى القضاء أبوعمران موسى بن عيسى بن عمران ، واستمر بقية عهد الناصر وشطراً من عهد ابنه المستنصر . وكان من كتاب الناصر اثنان من أسرة بنى عياش اللامعة ، هما الكاتب الأديب البارع أبوعبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش كاتب أبيه من قبل ، وأبو الحسن على بن عياش بن عبد الملك بن عياش ، وكان أبوه من كتاب عبد المؤمن ، وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازى .

وكان من كتاب جيشه أبو الحجاج يوسف المرانى وهو أندلسى من أهل شريش ، وأبو جعفر أحمد بن منيع . ولم ينجب الناصر لدين الله من الولد سوى ثلاثة من البنين ، هم يوسف المستنصر ولى عهده ، والخليفة من بعده ، ويحيى وقد توفى فى حياة أبيه فى سنة ٦٠٨ هـ ، وإسحاق ، وعدد من البنات .

---

(١) المعجب ص ١٧٦ .
(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ .

الكتاب الثامن

الدولة الموحدية

فى طريق الانحلال والتفكك

الفصل الأول

عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله

وأوائل ظهور بنى مرين

يوسف المستنصر يخلف أباه الناصر . بيعته الخاصة ثم بيعته العامة . وزراؤه وكتابه . ميله إلى حياة الدعة . عماله على الولايات . السيد أبو إسحق والى غرناطة . السيد أبو العلاء أمير تونس . ثورة الفاطمى العبيدى . تفاصيل حركته . إخماد ثورته وإعدامه . مقدم سفير قشتالة فى طلب السلم . عقد السلم مع قشتالة . بواعث إيثار قشتالة السلم . طلائع بنى مرين عند أحواز فاس . أصول بنى مرين ومنازلهم . انتسابهم إلى العرب . أمراؤهم الأوائل . صراعهم مع القبائل الخصيمة . اللقاء الأول بينهم وبين الموحدين . هزيمتهم ومقتل أميرهم . اشتراكهم فى الجهاد مع الموحدين . انحلال قوى الموحدين عقب موقعة العقاب . نهوض بنى مرين لانتهاز الفرصة . إغارتهم على أطراف المغرب . تأهب الموحدين لردهم . اللقاء بين الفريقين . موقعة المشعلة . هزيمة موحدية أخرى فى رباط تازة . الخلاف بين بنى مرين . خروج بنى حمامة منهم . أميرهم عبدالحق . تحالف المنشقين مع الموحدين والعرب . القتال بين الفريقين . مقتل عبد الحق وولده إدريس . تجدد الحرب وهزيمة بنى حمامة . أبو سعيد عثمان يتولى رياسة بنى مرين . حوادث الأندلس . مهاجمة البرتغاليين والصليبيين لثغر القصر . محاصرة النصارى للثغر . مبادرة الموحدين إلى إنجاده . اللقاء بين المسلمين والنصارى . هزيمة المسلمين . صمود حصن القصر ثم تسليمه . استيلاء النصارى على حصن القصر . محاصرة ملك ليون لقاصرش وصمودها . تكرار الهجوم عليها ومعاودة حصارها . سقوطها فى أيدى النصارى . أحوال المغرب فى هذا الوقت . ركود بلاط مراكش وتواكله . اضطراب الأمن . الأحوال الاقتصادية وانتشار المجاعة . كتاب الخليفة المستنصر إلى الولاة والأعيان والكافة . تجدد التهادن بين الموحدين وقشتالة . كتاب البلاط الموحدى إلى ملكة قشتالة . مصرع المستنصر الفجائى . ركود عهده واضطراب الأحوال فيه . أقوال المؤرخين فى ذلك . أحوال المغرب حسبما يصورها ابن عبد الملك . صورة أخرى للمستنصر وخلاله . حكومة المستنصر . وزراؤه وكتابه وقضاته .

تدخل الدولة الموحدية ، بعد وفاة الخليفة محمد الناصر لدين الله ، فى العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، مرحلة انحلال مضطرد ، وصراع داخلى مستمر على انتزاع العرش ، وتنتثر أسرة بنى عبد المؤمن الشامخة ، إلى شيع وأحزاب ضعيفة متخاصمة ، وينتثر شمل القبائل الموحدية ، حول تأييد هذا الفريق أوذاك ، وتنهار قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تباعاً ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، فى معارك انتحارية مستمرة ، وتتخذ هذه

المرحلة فى الأندلس بالأخص ، طابعاً مشئوماً ، لم يسبق للأندلس أن نكبت بمثله ، فتغدو من جديد مسرحاً مضطرما للحرب الأهلية ، أولا فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش ، وثانيا فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم ، وفى خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز اسبانيا النصرانية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح « الاسترداد » ، وتهتز مصاير القواعد الأندلسية الكبرى ، ومصاير الأمة الأندلسية كلها

خلف المستنصر بالله ، أبو يعقوب يوسف ، أباه محمد الناصر ، فى اليوم التالى لوفاته ، فى الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٢١٣م) وأمه حرة ، هى فاطمة بنت السيد أبى على بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقيل إنها أم ولد نصرانية تدعى قمر[١] . وكان المستنصر حين ولايته فتى فى السادسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ[٢] ، وهناك أقوال أخرى بأنه كان فى العاشرة من عمره[٣] ، ولكننا نفضل الأخذ بالرواية الأولى ، إذ هى رواية المؤرخ الموحدى المعاصر ، وهو الذى يقدم لنا تاريخ مولده ، ويأخذ بهذه الرواية مؤرخان كبيران هما ابن خلكان وابن خلدون[٤] .

وكان يوسف المستنصر فتى وسيما ، حسن القد ، جميل المحيا ، صافى السمرة ، شديد الكحل ، ولم يكن على قول المؤرخ فى بنى عبد المؤمن أحسن وجها منه ، ولا أبلغ فى المخاطبة[٥] . وكان أبوه الناصر لدين الله قد أخذ له البيعة بولاية عهده عقب عوده من الأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل وفاته بأشهر قلائل ، وكان أول من أخذ له البيعة الخاصة ، عم جده أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومن أشياخ الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى زيد الهنتاتى ، وأبو على عمر بن موسى عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان

---

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب روض القرطاس (ص ١٦٠) ، وبالثانية المراكشى (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٨٤ .

(٣) هذه هى رواية ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وصاحب الحلل الموشية ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ .

عبد الملك بن يوسف من أهل تينملل ، وكان هؤلاء النفر من القرابة والأشياخ هم الذين نصبوا أنفسهم للوصاية على الخليفة الصبي وتوجيهه ، وذلك بتوصية من والده الخليفة المتوفى ، واستغرقت البيعة الخاصة يومي الخميس والجمعة ، الحادي عشر والثاني عشر من شعبان ، وفى يوم السبت أذن بأداء البيعة العامة . ويقول لنا المراكشي ، وقدكان من شهود ذلك اليوم ، أن أبا عبد الله بن عيّاش الكاتب كان قائماً يقول للناس « تُبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين . هذا ما له عليكم . ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم ، وأن لايدخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وأن لايحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلد من أموركم» . وكان يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة[1] . وأخذت بعد ذلك بيعات الأعيان والوفود القادمين من مختلف الأنحاء ، ثم وردت بيعات مختلف البلاد بالمغرب والأندلس . واتخذ الخليفة الجديد لقب المستنصر بالله ، وفى بعض الروايات أنه لُقب أيضاً بالمنتصر بالله[2] .

ولم يتأخر فى تقديم البيعة سوى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك لصغر سن المستنصر . ولكن الوزير أبا سعيد بن جامع بذل سعيه لدى الشيخ لتسوية هذا الأمر ، فوصلت بيعته فيما بعد[3] .

وتولى الوزارة للمستنصر وزير أبيه من قبل ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله ابن إبراهيم بن جامع ، فاستمر فى الوزارة حتى سنة ٦١٥هـ ، ثم عُزل وخلفه زكريا ابن يحيى بن إسماعيل الهزرجي . وهو ابن بنت الخليفة يعقوب المنصور ، أعنى ابن عمة المستنصر ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتب أبيه وجده من قبل أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش .

وكان الخليفة الجديد ميالا إلى حياة الدعة والبطالة مشتغلا عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب[3] لايعنيه شيء من مهام الملك ، أو بعبارة أخرى لايمكن من العناية بشيء منها . وكانت الأمور تجرى وفقاً لما يراه ويبرمه الأشياخ

---

(١) المعجب ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠ ، وتاريخ الدولتين للزركشي (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٠ .

الأوصياء . وكان عهده على العموم ، يمتاز بالهدوء والركود ، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن ، ولم تنظم غزوات ما ، ولم تُحشد الجيوش الموحدية ، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة ، وفقاً لما جرى عليه الأمر ، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد المؤمن بن على .

وعقد المستنصر لأول ولايته للسادة ، على عمالات الولايات بالمغرب ، والأندلس . فولّى على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحق الملقب بالأمير الظاهر ابن يوسف بن عبد المؤمن وكان والياً على غرناطة ، وهو أبو الخليفة المرتضى. وقد اشتهر السيد أبو إبراهيم إسحق هذا أيام ولايته لغرناطة فى آخر عهد الناصر ، بمنشآته العمرانية بها ، وكان من أهمها وأجملها القصر الذى أنشأه خارج غرناطة على مقربة من ضفة نهر شنيل ، وهو القصر الذى عرف فيما بعد أيام ملوك غرناطة « بقصر السيد » . والظاهر أن السيد إسحق ولى حكم غرناطة فى عهد المستنصر مرة أخرى ، إذ يقول لنا صاحب « الحلل الموشية » إنه أنشأ أمام هذا القصر ، رابطة فى سنة ٦١٥ هـ . وقد استعمل « قصر السيد » أيام ملوك غرناطة منزلا للضيافة الملوكية ، وما زالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله ، فى ضاحية غرناطة المسماة « أرملة »(١) .

وولى على إشبيلية عمه السيد أبا إسحاق بن يعقوب المنصور ، وهو المعروف بالأحول ، وبعث عم أبيه أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن إلى تونس ليستقر فى قصبتها ، وأن يكون أميراً عليها ، يعنى بتدبير شئونها ، والدفاع عنها ضد الميورقى ، إلى جانب الشيخ أبى محمد بن أبى حفص والى إفريقية . والسيد أبو العلاء هذا هو الذى أنشأ البرجين على باب المهدية ، وأنشأ باب سبتة الجديد ، ثم أنشأ بإشبيلية برج الذهب الشهير أيام ولايته لها(٢).

وكان أول حادث ذو شأن وقع فى ولاية المستنصر ، هو إخماد ثورة الفاطمى العبيدى . وقد روى لنا المراكشى قصة هذا الدعى كاملة ، وقد عرفه

---

(١) راجع فى ذكر « قصر السيد » ووصفه ، الحلل الموشية ص ١٢٦ ، والإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٥ ، ٣٢٤ و٥٦١ . وراجع كتابى « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٣ و١٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٦١ .

واجتمع به . وكان اسمه عبد الرحمن ، ويدعى أنه من بنى عُبيد ، وأنه ولد الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين . وكان قد ورد على المغرب ، أيام الخليفة المنصور ، وسعى إلى الاجتماع به فلم يأذن له ، واستمر يطوف بالبلاد ، إلى أن قُبض عليه بأمر الخليفة الناصر ، واعتقل فى سنة ٥٩٦هـ ، فلم يزل فى سجنه إلى أن تحرك الناصر إلى إفريقية فى سنة ٦٠٨ هـ ، فشفع له فيه أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الهزرجى ، فوافق على إطلاق سراحه ، على أن يلتزم السكينة ، وألا يشتغل بأى أمر غير مرغوب فيه . ولكن الدعى ما كاد يسترد حريته ، حتى غادر مراكش إلى بلاد صنهاجة ، وهنالك التف حوله كثيرون ممن جذبتهم دعوته ، وكانوا يعظمونه ويبجلونه . يقول المراكشى « وكان هذا الرجل كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقيته مرتين ، فلم أر فى أكثر من شهدته من المشبهين بالصالحين ، مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس ، وسكون الأطراف ، ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ، ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة » . ثم خرج هذا الرجل فى جموعه متجهاً صوب مدينة سجلماسة ، فخرج إليه واليها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العُبيدى ، واضطر أن يرتد فى فلوله إلى سجلماسة ، ومازال العبيدى يتنقل بين قبائل البربر ، من موضع إلى موضع ، دون أن يستقر فى مكان ، أوتثبت حوله جماعة ، إذ كان وفقاً لقول المراكشى « غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يُرجع إليه » حتى رمت به المقادير إلى أحواز فاس . وكانت السلطات الموحدية تطارده أينما حل ، فقُبض عليه بظاهر المدينة ، وأودعه حاكم فاس ، وهو السيد إسحاق ، المطبق ، وكتب إلى الخليفة المستنصر بأمره ، فكتب إليه المستنصر بأمر بقتله وصلبه ، فضُرب عنقه ، وصلب جسده ، وأرسلت رأسه إلى مراكش ، حيث علقت هنالك إلى جانب عدة أخرى من رؤوس الثوار والمتغلبين[١] .

ويضع ابن عذارى تاريخ ثورة العبيدى فى سنة ٦١٢هـ (١٢١٥ م) ، ويقول إنه قام بثورته فى بلاد جزولة ، من إقليم السوس ، وكان يزعم أنه فاطمى من ذرية عبد الله الشيعى ، ولم يزل يبث دعوته حتى ظفر به الموحدون فقتل وعلق رأسه على باب فاس[٢] . بيد أننا نؤثر الأخذ برواية المراكشى ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٨٦ .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤٣ .

وهو معاصر وشاهد عيان ، وهو ينفرد بما يقدمه إلينا من التفاصيل .

وفى نفس هذا العام ، سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م) وصل إلى مراكش إبراهيم ابن الفخار اليهودى وزير ملك قشتالة ، سفيراً إلى الخليفة الموحدى فى شأن التهادن وعقد السلم ، فرحب المستنصر وأوصياؤه ، بهذه الرغبة ، ووجه كتابين إلى الأندلس ، أحدهما إلى السيد أبى الربيع والى جيان ، والثانى إلى الشيخ أبى العباس بن أبى حفص والى قرطبة ، يطلب إليهما عقد التهادن والسلم مع ملك قشتالة ، على جميع بلاد الموحدين بالأندلس ، وفقاً للشروط التى اتفق عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار ، والتزم بها السفير القشتالى نيابة عن مليكه ، وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو ، خطوة طيبة ، حققت للأندلس فترة من الهدوء والسلام[1] .

ويجب لكى نفهم البواعث التى حملت قشتالة ، على أن تسعى إلى عقد السلم مع الموحدين ، ولما يمض سوى ثلاثة أعوام على انتصارها الساحق فى معركة العقاب ، أن نذكر أنه لما توفى ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وهو الظافر فى فى معركة العقاب ، فى أكتوبر سنة ١٢١٤ م ، خلفه على العرش ولده الطفل هنرى (إنريكى) ، ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولت أمه الملكة إليونور ، الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد أشهر قلائل ، فخلفتها فى الوصاية أخته دونيا برنجيلا ، زوجة ألفونسو التاسع ملك ليون المُطلّقة ، وكان آل لارا الأقوياء يطمحون إلى انتزاع الوصاية لأنفسهم ، فتنازلت عنها إليهم دونيا برنجيلا بشروط تعهدوا باحترامها ، أهمها ألا يعلنوا الحرب على أى ملك ، أو يتنازلوا عن الأراضى للأتباع ، أو يفرضوا أية ضرائب ، دون موافقة الملكة (برنجيلا) . وسارت الأمور فى قشتالة على هذا النحو حيناً ، حتى توفى الملك الصبى هنرى بعد ذلك بقليل من جرح أصابه خلال اللعب مع بعض الصبية الآخرين ، وذلك فى يونيه سنة ١٢١٧ . فعندئذ بادرت الملكة برنجيلا باستقدام ولدها فرناندو وهو الذى رزقت به من ألفونسو ملك ليون ، وكان صبياً فى الثانية عشرة من عمره ، واستدعاء صحبها المخلصين ، وسارت إلى بلد الوليد ، وهنالك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة ، بيد أنها تنازلت فى الحال عن العرش لولدها

---

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٤ .

فرناندو فأصبح ملكاً على قشتالة (أول يوليه سنة ١٢١٧ م) وهذا الملك الصبى ، هو الذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ، أو فرناندو المقدس[1] .

وفضلا عما كان يحيق بعرش قشتالة من عوامل التقلقل والضعف ، فإن أحوال قشتالة العامة لم تكن يومئذ تدعو إلى الرضى ، فإن آثار الوباء كانت ماتزال متفشية فى معظم الأنحاء ، وكان الإنتاج الزراعى قد انخفض من جراء ذلك ، وهلكت المحاصيل ، وانتشرت المجاعة بين السكان .

نستطيع على ضوء هذه الظروف التى كانت تجوزها قشتالة عندئذ ، أن نفهم كيف جنحت قشتالة إلى المسالمة ، وآثرت أن تجوز فترة هدوء وسلام ، تستطيع خلالها أن تنظم شئونها ، وأن توطد عرشها ، وأن تعمل على إنعاش مواردها وأحوالها الزراعية والاقتصادية .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وقع حادث ضئيل فى ظاهره ، كبير فى مغزاه ، ونتائجه المحتملة ، هو ظهور طلائع بنى مَرين فى أحواز مدينة فاس . وقد شرح لنا ابن خلدون أصل أولئك القوم ، الذين كتب لهم ، أن ينتزعوا ملك الموحدين فيما بعد ، فهم من شعوب بنى واسين من بطون قبيلة زناتة الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل البربرية التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ، ومغيلة ، ومديونه ، وبنى يفرن ، وبنى دمر ، وزواغة ، وجراوة ، وبنى عبد الواد ، وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مرين ، كمعظم الأسر البربرية التى شادت بالمغرب دولا شامخة ، يُرجعون نسبهم إلى العرب وقد رأيت أن هذا كان شأن المرابطين حيث تُرجع صَنهاجة التى تنتمى إليها لمتونة نسبها إلى العرب اليمانية ، وشأن الموحدين ، حيث ينتسب صاحب دعوتهم المهدى ابن تومرت ، إلى آل البيت ، ويُرجع مؤسس دولتهم عبدالمؤمن نسبته إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان . وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب بنو مرين ، فيقولون إنهم من ولد بربن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وجدهم الأعلى جرماط بن مرين بن ورتاجى بن ماخوخ بن وجديج بن فاتن بن يدّر ابن يخفت بن يصليتن بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سحيك ابن واسين[2] . وكانت منازل بنى مرين ، وإخوانهم من بنى مديونة وبنى يلومى

(١) M.Lafuente : Historia General de Espana. T. III. p. 380 & 381

(٢) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (طبع الجزائر ١٩٢٠) ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ .

وبنى يادين بن محمد فى المغرب الأوسط ، مابين وادى ملوية شمالا وسجلماسة جنوباً . وكانت المعارك كثيراً ما تنشب بين بنى مرين وجيرانهم من بنى يادين ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو عبد الواد ، أصحاب مملكة تلمسان فيما بعد ، وكانت الغلبة فى معظم الأحيان على بنى مرين ، لكثرة خصومهم من بنى يادين ، وكان بنو مرين كمعظم البطون البربرية فى تلك المنطقة ، من البدو الرحل ، يتجولون فى هاتيك القفار شرقاً وغرباً ، وربما وصلوا فى ظعنهم شرقاً إلى بلاد الزاب . وقد كانت الرياسة فيهم ، حسبما تذكر الرواية قبل ذلك بعصور ، لمحمد بن وزير ابن فكوس بن كرماط بن مرين . ولما توفى محمد قام بأمر بنى مرين من بعده أكبر أولاده حمامة ، ثم خلفه أخوه عسكر ، فلما توفى قام مكانه فى الرياسة ولده أبو يكنى الملقب بالمخضب ، فلم يزل أميراً عليهم حتى ظهر أمر الموحدين ، وزحف عبد المومن إلى تلمسان فى أثر تاشفين بن على ، ليخوض معه المعركة الحاسمة (٥٣٩ هـ) ، وبعث قوة من الموحدين بقيادة الشيخ أبى حفص عمر الهنتانى ، لمحاربة الخوارج من بطون زناتة ، فاجتمع لقتاله بنو يادين وبنو يلومى وبنو مرين ومغراوة ، فمزق الموحدون جموعهم ، وأذعن بنو يلومى وبنو بادين وبنوعبد الواد إلى الطاعة . ولكن بنى مرين لحقوا بالصحراء فى اتجاه الزاب . ولما دخل عبد المؤمن وهران ، على أثر مصرع تاشفين وتبدد قواته ، واستولى على أموال لمتونة وذخائرها ، عهد بهذه الأموال والذخائر إلى قوة من الموحدين لتحملها إلى تينملل ، فعلم بنو مرين بذلك ، واعترضوا تلك القوة ، وانتزعوا الغنائم من أيدى الموحدين . فحشد عبد المؤمن أولياءه من بطون زناتة ، وبعثهم مع الموحدين لاستنقاذ الغنائم . والتقى الموحدون وبنو مرين فى مكان يعرف بفحص مسون ، فهزم بنو مرين ، وقتل شيخهم المخضب بن عسكر ، وذلك فى سنة ٥٤٠هـ (١١٤٥ م) . ولجأ بنو مرين على أثر ذلك إلى الصحراء ، وعادوا إلى القفر يرقبون الفرص .

وقام بأمر بنى مرين بعد المُخضب بن عسكر ، ابن عمه أبوبكر بن حمامة ابن محمد . ولما توفى فى سنة ٥٦١ هـ ، قام بأمرهم ولده محيو ، فلم يزل فى

= و١٧ ، وابن خلدون فى كتاب العبر ج ٧ ص ١٦١ . ويقدم لنا صاحب الذخيرة السنية شرحاً طويلا لكيفية تحول نسل بربن قيس عيلان بالمغرب من العروبة إلى البربرية .

(١) الذخيرة السنية ص ١٨ و١٩ .

رياستهم ، حتى استنفرهم الخليفة يعقوب المنصور للجهاد معه بالأندلس ، فاشتركت معه منهم جماعة كبيرة فى موقعة الأرك ، وأبلوا فيها البلاء الحسن (٥٩١ هـ — ١١٩٥ م) ، وأصيب عميدهم محيو فى المعركة بجرح توفى منه بعد بضعة أشهر ، فخلفه فى الرياسة أكبر أولاده أبو محمد عبد الحق ، وكان من خيرة أمرائهم ، وعلى يديه أخذ نجم بنى مرين يبزغ فى الأفق[1] .

ولما وقعت كارثة العقاب ، وفنى معظم الجيوش الموحدية ، فى شبه الجزيرة الأندلسية ، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين ، فى معظم العمالات والأطراف . ولم يكن ذلك بخاف على القبائل المتوثبة مثل بنى مرين . ولما توفى الخليفة الناصر ، وخلفه ولده الصبى يوسف المستنصر ، وشغلته نزوات الحداثة والشباب ، عن تدبير شئون الدولة ، وغلب التواكل والتراخى ، على السادة والأشياخ ، فى مختلف النواحى ، لاح لبنى مرين أن فرصتهم قد سنحت. وكانوا لايأوون إلا إلى القفار ، ولايخضعون لأى حكم ، ولايؤدون الجزية لأحد ، ولايعرفون الحرث والزرع ، ولا شاغل لهم غير الصيد والغارات ، وجل أموالهم من الإبل والخيل[2] . وكانت منازلهم ما تزال فى جنوبى وادى ملوية ، وكانوا يترددون فى تلك الأنحاء ، ولاسيما فى المنطقة الممتدة مابين وادى ملوية ومكناسة ، ويأنسون بمن بها من عشائر زناتة ، وينتجعون المرعى أيام الربيع والصيف ، ويجمعون الحبوب لأقواتهم طيلة الشتاء ، ثم يرتدون إلى منازلهم فى القفر فوق التلال والربى . فلما شهدوا من تضعضع الدولة الموحدية ، وتخاذل أطرافها ماشهدوا ، اعتزموا أن يهجروا القفر ، وأن ينتجوا العمران ، فنفذوا إلى نواحى المغرب المجاورة ، واكتسحوا بخيلهم البسائط ، وملأوا أيديهم بالغارة والنهب ، وكان ذلك بداية عهد الخليفة المستنصر . فثار لذلك بلاط مراكش ، وأمر المستنصر بتجهيز الحشود ، وندب أبا على بن وانودين للقيادة ، وبعثه إلى السيد إبراهيم إسماعيل والى فاس ، وأمر بأن يخرج السيد لغزو بنى مرين ، وأن يثخن فيهم وأن يستأصل شأفتهم ، وكان بنو مرين حينما علموا بأمر هذه الأهبة قد اجتمعوا وتشاوروا ، واتفق رأيهم على التأهب للحرب والنزال ، فتركوا أموالهم وحريمهم فى حصن تاروطا بأرض غمارة ، وساروا جنوبا صوب فاس ،

---

(١) ابن خلدون فى العبر ج ٧ ص ١٦٧ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٢٣ .

وكانوا فى نحو أربعمائة فارس غير الرجّالة ، وخرج الموحدون إليهم بقيادة السيد أبى إبراهيم، وكانوا فى عشرين ألف مقاتل أو فى عشرة آلاف وفقاً لرواية أخرى. والتقى الفريقان بوادى نكور ، فكانت الهزيمة على الموحدين ، واستولى بنو مرين على أسلابهم ودوابهم ومتاعهم بل وثيابهم ، وأسروا السيد أبا إبراهيم ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك ، وارتدت فلول الموحدين إلى فاس ، وبعضهم نحو رباط تازة ، وكثير منهم يسترون أنفسهم بورق النبات المعروف « بالمشعلة » حتى لقد سميت هذه الموقعة بموقعة المشعلة ، بل سمى هذا العام (سنة ٦١٣ هـ) بعام المشعلة[1]، وسار بنو مرين بعد ذلك شرقاً نحو بلدة رباط تازة ، وبعث أميرهم أبو محمد عبد الحق إلى عاملها الموحدى ، يطلب إليه أن يقيم فى خارجها سوقاً لبنى مرين ، يتزودون منها بما يحتاجون إليه ، فأنف العامل الموحدى ، وثار المللك الطلب ، وخرج فى جمع غفير من الموحدين والعرب وأبناء القبائل المجاورة ، ونشبت بينه وبين المرينيين معركة شديدة هزم فيها وقتل ، ونهبت محلته . فكان ثانى نصر لبنى مرين على الموحدين فى ظرف بضعة أشهر[2] .

ثم وقع الخلاف بين بنى مرين أنفسهم ، وانقسموا إلى فرقتين ، الأولى يتزعمها بنو عسكر بن محمد ، والثانية يتزعمها بنو حمامة بن محمد ، وقد كانت الرياسة فى البداية فى بنى عسكر ، ثم انتقلت إلى بنى حمامة ، فغص بذلك فريق بنى عسكر ، وخرجوا على أميرهم أبى محمد عبد الحق ، وتحالفوا مع أولياء الموحدين من عرب رياح ، وكان الخليفة المنصور قد أنزلهم بتلك المنطقة . وفى سنة ٦١٤ هـ ، نشبت بين بنى عسكر وحلفائهم من أولياء الموحدين ، وبين بنى حمامة فى وادى سبو ، موقعة هزم فيها بنو حمامة فى البداية، وقتل أميرهم عبدالحق وولده الأكبر إدريس، فاضطرم بنو حمامة سخطاً ، واستجمعوا قواهم، وحملوا على خصومهم من الموحدين والعرب حملة عنيفة ، كثر فيها القتل من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الموحدين والعرب وتمزيق جموعهم ، وانتهاب سائر أسلابهم . (جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ) . وقام برياسة بنى مرين بعد مقتل أميرهم عبد الحق، ولده أبو سعيد

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٤ و٢٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٨ ، والذخيرة السنية ص ٢٦ – ٢٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٣١ و٣٢ .

عثمان ، وهو الذى بزغ على يديه نجم بنى مرين ، وأصبحوا قوة لها خطرها[1] .

• • •

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى عقد التهادن والسلم بين الموحدين ومملكة قشتالة ، ولكن هذا التهادن لم يتحقق بالنسبة لباقى الممالك الإسبانية النصرانية ، ومن ثم فقد وقعت بالأندلس ، فى قطاع الغرب ، حوادث هامة ، كان من نتائجها ، أن نكبت الأندلس بفقد طائفة جديدة من الأراضى والحصون .

وكان أول ضربة أصابت الأندلس من جراء العدوان النصرانى ، فقد ثغر القصر أوقصر أبى دانس[2] ، وهو أمنع قاعدة دفاعية اسلامية فى منطقة الغرب . وكانت القصر قد سقطت فى أيدى البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، على أثر اضطراب الحوادث فى منطقة الغرب ، ولما عبر الخليفة المنصور إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، لاسترداد شلب التى استولى عليها البرتغاليون بمعاونة النصارى الصليبيين ، فى سنة ٥٨٥ هـ ، غزا منطقة الغرب واستطاع أن يسترد حصن القصر من النصارى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ (يونيه ١١٩١ م) ، وولى عليه أبا بكر محمد بن وزير . ويقع ثغر القصر جنوب شرقى أشبونة على مصب نهر شطوبر Sadoa ، على مقربة من المحيط الأطلنطى ، ويتسع مصب هذا النهر لدخول السفن الكبيرة ، تشقه حتى أسوار المدينة ، ويتصل قبل مصبه فى المحيط بخليج واسع يصلح لتجمع السفن الغازية . وكانت مناعة القصر تقف سداً منيعاً ضد تقدم البرتغاليين نحو الجنوب . ففى أوائل سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧م) وصل إلى شواطىء البرتغال أسطول من الصليبيين الألمان فى طريقه إلى المشرق ، ورسا فى مياه أشبونة (لشبونة) ، فانتهز البرتغاليون تلك الفرصة ، ودعوا إلى إشهار الحرب الصليبية ، ضد مسلمى الأندلس ، وسار البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون الألمان إلى ثغر القصر ، وضربوا حوله الحصار من البحر ومن البر ، وذلك فى ٣٠ يوليه سنة ١٢١٧ م ، فامتنع المسلمون داخل ثغرهم ، وبادر واليها عبد الله ابن وزير ، وهو ولد واليها السابق أبى بكر بن وزير ، يطلب الإنجاد من الموحدين ، ووصل صريخه إلى بلاط مراكش ، فبعث المستنصر إلى ولاة قرطبة وإشبيلية وجيّان وولاة الغرب ، بحشد جيوشهم ، والمبادرة إلى إنجاد الثغر المحصور ،

---

(١) الذخيرة السنية ص ٣٢ — ٣٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) وهى بالبرتغالية **Alcácer do Sal**

وسارت الجيوش الموحدية المجتمعة صوب القصر ، فوصلت إليه فى أوائل شهر سبتمبر ، وكان المسلمون مازالوا صامدين فى ثغرهم ، وقد استطاعوا أن يردوا عدة هجمات للمحاصرين . وسارت فى نفس الوقت طائفة من السفن الموحدية إلى مياه القصر ، لتسد الطريق على السفن المحاصرة . ونشب القتال بين الجيوش الموحدية المتحدة وبين النصارى . والظاهر أن البرتغاليين كانوا يتفوقون فى الكثرة على المسلمين ، إذ كان جيشهم يضم وفقاً للرواية النصرانية ذاتها ، عشرين ألفاً من الرجّالة وعدداً من الفرسان . فهزم المسلمون ومزقت صفوفهم . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المسلمين ماكادوا يرون النصارى حتى أدركهم الرعب ، وولوا الأدبار ، وذلك لسابق رعبهم منذ هزيمة العقاب ، فطاردهم النصارى وقتلوهم عن آخرهم[1] ، ويقول صاحب الروض المعطار ، إنه قد اجتمع من الأمداد جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا مدبرين ، ووقع القتل والأسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم[2] .

ويضع ابن الأبار تاريخ الموقعة فى شهر جمادى الأولى سنة ٦١٤ هـ (أغسطس ١٢١٧م) ، وفى موطن آخر فى أحد شهرى ربيع سنة ٦١٤ هـ متقدماً قليلا عن الرواية النصرانية ، ويقول إنه فقد فيها آلاف من المسلمين بتخاذل رؤسائهم ، يوم التقى الجمعان ، وأن الموقعة كانت « إحدى الكوائن المنذرة حينئذ بما آل إليه أمر الأندلس »[3] .

ومع ذلك فقد بقيت حصن القصر صامدة ، فلما رأى النصارى أنهم لم يستطيعوا ثلم الأسوار ، صنعوا برجين عاليين من الخشب ، يضارعان فى ارتفاعهما أبراج المدينة ، وشحنوهما بالرماة ، وركبوا فى جوانبهما آلات الرمى ، وضربوا الأسوار من هذين البرجين ضرباً شديداً ، حتى أيقن المدافعون أنه لا أمل فى الصمود ، فعرضوا التسليم . على أن يسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . ففتحوا الأبواب ، وانطلقوا إلى حال سبيلهم ، وسلمت المدينة بعد أن لم تبق أية وسيلة

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) الروض المعطار ص ١٦٢ .

(٣) الرواية الأولى فى الحلة السيراء ص ٢٤٢ . والثانية فى التكملة (القاهرة) ج ٢ فى الترجمة رقم ١٥٧٧ .

للدفاع ، وذلك فى ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ م (١٤ رجب ٦١٤ هـ) ، بعد شهرين ونصف من بدء الحصار . وسلم قائد الثغر ، وهو عبد الله بن وزير ، نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتناق النصرانية طلباً للسلامة ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى استطاع الفرار ، والوصول إلى الأراضى الإسلامية . ولجأ فيما بعد إلى مدينة إشبيلية . ودخل النصارى مدينة القصر أوقصر أبى دانس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالضياع المجاورة ، من المسلمين . وفتح سقوط هذا الثغر المنيع ، الطريق إلى زحف البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب ، نحو باجة ومبرتلة وشلب . ولكن ملك البرتغال ألفونسو الثانى (ألفنش) ، وهو لم يشترك فى حصار القصر ، آثر أن يتمهل بعض الوقت لتعمير الأراضى المفتوحة . ومن جهة أخرى فإن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف إلى الجنوب ، بعد أن وصلتهم أوامر البابا قاطعة بأن يستأنفوا سيرهم إلى المشرق[١] .

ومن الغريب أن ابن عذارى ، وهو فى معظم ما يكتبه ، يقظ متنبه للأحداث ، يقول لنا إنه لم يتحقق خبراً يذكره فى سنة أربع عشرة أو خمس عشرة ، هذا فى حين أن صاحب روض القرطاس ، يذكر واقعة سقوط القصر ، وتاريخ وقوعها فى سنة ٦١٤هـ ، ويصفها بأنها كانت من الهزائم الكبار التى تقرب من هزيمة العقاب .

ولم تمض بضعة أعوام على نكبة مدينة القصر ، حتى منيت الأندلس بفقد قاعدة أخرى من حصونها الأمامية المنيعة هى قاصرش[٢] . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون غير مرتبط مع الموحدين برباط التهادن والسلم ، وكان يطمح إلى الاستيلاء على قاصرش ، الواقعة شمالى ماردة وغربى ترجاله ، وذلك لكى يضمن سلامة حصن القنطرة الواقع على نهر التاجُه فى شمالها الغربى ، والذى كان مركز جمعية فرسان القنطرة ، فسار إليها فى شهر نوفمبر سنة ١٢١٨م (٦١٦ هـ) وضرب حولها الحصار ، ولكن حاميتها الإسلامية صمدت ، واضطر أن يرفع الحصار عند حلول الميلاد ، وفى سنة ١٢٢١ م (٦١٩هـ) استولى فرسان القنطرة على قاعدة « بلنسية »[٣] الإسلامية . وفى العام التالى ، اشترك فرسان شنت ياقب

---

(١) راجع فى سقوط حصن القصر ، روض القرطاس ص ١٦١ ، والروض المعطار ص ١٦١ و١٦٢ وكذلك : A.Huici : Historia Politica del Imperio Almohade, p. 442 & 448

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres

(٣) هى المعروفة ببلنسية القنطرة الواقعة غربى قاصرش ، وهى طبعاً غير ثغر بلنسية الكبير ، فى الشرق .

وملك ليون فى حصار ماصرش ، ولكن ألفونسو التاسع عاد فرفع الحصار للمرة الثانية ، عن القاعدة الإسلامية . وفى الأعوام التالية ، تكرر هجوم الليونيين على قاصرش بمعاونة جماعة من القشتاليين ، وانتهى الأمر بسقوطها فى أيديهم ، وذلك فى صيف سنة ١٢٢٣ م (٦٢٢ هـ) ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بنحو عامين .

ومن جهة أخرى فإنه بالرغم من عقد المهادنة بين قشتالة ، والخليفة الموحدى ، كانت العناصر النصرانية المتعصبة التى لا يروقها الكف عن محاربة المسلمين تتربص الفرص ، لتجديد غزو الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الحبر المتعصب ، ردريجو خمينث دى رادا مطران طليطلة ، فإنه قام بتجهيز حملة صليبية ، وعبر إلى الأراضى الإسلامية من ناحية الشرق ، واستولى على عدة من حصون المسلمين ، ووصل فى زحفه إلى بلدة ركّانة الواقعة غربى بلنسية ، وحاول النصارى الاستيلاء على ركّانة فضربوها بالمجانيق ، وهاجموها مراراً ، وهدموا بعض أبراجها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم ، وارتدوا عنها خائبين . وكان ذلك فى أواخر سنة ١٢١٩ م (٦١٧ هـ) .

* * *

وكانت الأمور خلال ذلك كله ، تسير فى العاصمة الموحدية رتيبة راكدة ، وبلاط مراكش على ما هو عليه من التواكل والسكون ، والخليفة الفتى يوسف المستنصر ، مكب على حياة اللهو والمرح ، وأشياخ الموحدين المضطلعين بتدبير الأمور ، غير حافلين بشىء ، ولم توقظهم نهضة بنى مرين وفورتهم الخطيرة ، التى لم يحدها سوى خلافهم فيما بين أنفسهم ، ولم تهزهم حوادث الأندلس وسقوط ثغر القصر ، وما اقترن به من الحوادث المؤلمة ، ولم يفكروا فى العمل على تعزيز معاقل الأندلس ، وخطوطها الدفاعية ، تحوطاً للحوادث . ثم جاءت سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) ، وقد هلكت الزروع ونضبت الحبوب ، وانتشرت المجاعة ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلا . وكانت الأحوال الاقتصادية قبل ذلك ، تسير من سيئ إلى أسوأ ، وقد سجلت لنا الرواية عن أحوال المغرب فى هذا الوقت صورة قاتمة ، حيث كثرت الفتن بين قبائل المغرب ، ونبذ أكثرها الطاعة ، وقطعت السابلة ، واشتد الخوف فى الطرقات ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وانكمش الأخذ والعطاء لاختلال الأمن ، وإغارة القبائل

البربرية وجموع العرب على مختلف الأنحاء[1]. كل ذلك والحكومة الموحدية جامدة لاتفكر فى اتخاذ أى إجراء لإصلاح الأحوال . فلما اشتدت المجاعة وعلم المستنصر بما يقاسيه الناس من أهوالها ، أمر بفتح المخازن السلطانية ، المعدة لاختزان الحبوب والمؤن ، ففتحت وفرقت منها مقادير عظيمة على العامة والضعفاء دون ثمن ، وفرق منها على الأقوياء والميسورين بالثمن ، وفرق الخليفة كذلك مبالغ كبيرة من المال على الناس ، فكان لذلك أثر طيب فى تخفيف الضيق . ومن الغريب أنه طافت بالأندلس فى العام التالى سنة ٦١٧ هـ ، مثل هذه الشدة ، فقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الأزمة لم تطل ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعى[2] .

وفى هذا العام ، سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م) ، وجه الخليفة المستنصر بالله كتابا إلى قواعد المغرب والأندلس ، على نمط الكتب التى كان يوجهها الخلفاء الموحدون ، منذ عبد المومن ، إلى الولاة والأعيان والكافة ، فى مختلف المناسبات ، بوجوب التمسك بالدين ، واتباع أحكام الشرع ، والتزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما إلى ذلك من النصائح والوصايا ، وربما كان لذلك أيضاً علاقة باختلال الأحوال ، ومحاولة تطمين الرعايا ، وإلقاء السكينة فى روعهم . وقد نقل إلينا ابن عذارى فصلا من ذلك الكتاب ، ونحن ننقل بعض فقراته فيما يلى :

« وإلى هذا ، وصل الله توفيقكم ، فقد علمتم أن الدين هو الأساس الوثيق ، والبناء العتيق ، والفسطاط المضروب ، والعلم المنصوب ، والتجر الذى لايبور ، والطريق الذى لايجور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به ، فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى ، فإذا وقفتم على كتابنا هذا ، فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الأخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابح ، عسى أن يجعلهم الله تعالى فى الدارين ، من الذين لهم البشرى ، وبثوا فى جهاتكم كلها ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . واستحفظوا الكافة صلواتهم ، فإنها الكتاب الموقوف على على المؤمنين ، وخذوهم باعتياد المساجد ، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق ،

---

(١) الذخيرة السنية ص ٣٥ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٥ .

فإنه الخير المألوف ، والشعار المعروف ، والرسم الذى عليه العمل ، والعهدالذى لايجب فيه التغيير والخلل .

« ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، وتحفظ مراسمها ، ومن جملتها التذكير بالدين ، فهو الشافع الذى لا يغفل ، والوسيلة التى لاتضاع ولاتهمل ، فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علما ، وكونوا فى القيام به لاتخالفون يقظة ، ولانوماً ، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل التام، والإنصاف العام ، وكف الأيدى ، وقبضها عن التعدى . وهذا خطاب قد أرشدنا فيه إلى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على أمور ضرورية ، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه ، وخير العمل ما دووم عليه ، والله معينكم والسلام عليكم ، وكتب فى عاشر ربيع الأول سنة سبع عشر وستمائة »(١) .

والظاهر أن توجيه هذا الكتاب ، لم يكن إلا محاولة من الخليفة الفتى ، للعمل على إحياء تقليد من تقاليد آبائه الخلفاء الموحدين ، فى تذكير الناس من وقت إلى آخر بدستورهم الدينى ، والتنبيه إلى توقيره ، والمحافظة عليه .

وفى العام التالى ، سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) ، قدم سفير قشتالة إلى مراكش مرة أخرى ليسعى فى تجديد المهادنة والسلم . وكانت المفاوضات الأولى قد تمت بين القشتاليين ، وولاة الأندلس من السادة الموحدين ، وتم تجديد المهادنة بين الفريقين، وفقاً لتوجيه الخليفة المستنصر . ثم كتب وزير المستنصر ، أبو يحيى بن أبى زكريا ، إلى « ملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليطلة » كتاباً من إنشاء الكاتب ابن عيّاش بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم . ومن الواضح أن ملكة قشتالة المشار إليها هنا ، لم تكن سوى الملكة برنجيلا بنت ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وكانت يومئذ تتولى الوصاية على ابنها الصبى فرناندو ، الذى أعلن ملكاً على قشتالة فى سنة ١٢١٧ م ، وكانت بذلك تعتبر هى الملكة الأصيلة فى نظر الموحدين .

وقد أورد لنا ابن عذارى نبذة من الكتاب المشار إليه ننقلها فيما يلى :

« وقد انقلب إليكم رسول منكم، بما تعرفونه فى السلم المنعقد ، النير شهابه ، المتقد بين الموحدين وبينكم ، بالمخاطبة الكريمة ، التى حملها إليكم ، وحمل نحوكم

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٤٥ و ٢٤٦ .

من الإتحاف ما يبغاكم على يديه ، الذى هو عنوان الخالصة ، وثمرة المواصلة ، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ، ينبغى أن يكون متقبلا ، وعلى أحسن المتأولات متأولا ، ان شاء الله ، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم ، وتحافظون عليها ، وتعاقبون كل من هم بإذاية المسلمين ، فإن الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك . وكتب فى سادس رمضان سنة ثمان عشرة وستمائة »[1] .

وكان من تصرفات المستنصر الأخيرة ، أن عين عمه أبا محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور والى غرناطة ، وهو الذى تسمى بالعادل فيما بعد ، والياً على مرسية ، وذلك فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١م) .

ولم يك ثمة ما يؤذن بوفاة الخليفة المستنصر فى سن مبكرة ، وقد كان فتى فى عنفوانه ، لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وكان متين البنية ، حسن التكوين . ولكن حياة اللهو الصاخب المستمر ، التى انهمك فيها ، حطمت بنيته ، ومهدت الألعاب والرياضات العنيفة ، التى كان يشغف بها لوفاته الفجائية . ويقص علينا صاحب روض القرطاس قصة هذه الوفاة الفجائية ، فيقول لنا إن يوسف المستنصر ، كان مولعاً بالبقر والخيل ، وكان يستجلب الأبقار من الأندلس ، ويربيها فى رياضه الكبيرة بمدينة مراكش ، فنى عشية ذات يوم ، ركب المستنصر فنشيا (مهرا) ، وذهب إلى الروض ليتأمل خيله وأبقاره فى ضوء القمر ، فبينما هو يسير بين البقر ، إذ قصدت إليه بقرة شرود منهن ، فضربته بقرنيها بعنف ، ضربة أصابته فى القلب ، وأودت بحياته على الأثر . وكان ذلك فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٠هـ (٤ يناير ١٢٢٤ م)[2] . ولكن هذه الرواية ، التى ينقلها بعض المؤرخين المتأخرين ، ليست هى الوحيدة فى شرح ظروف وفاة الخليفة المستنصر الفجائية ، فإن هناك رواية أخرى ، مفادها ان المستنصر توفى مسموماً ، بتدبير وزيره أبى سعيد بن جامع والفتى مسرور ، وهذا ، نقله إلينا الزركشى عن « ترجمان العبر »[3] .

والآن فلنلق نظرة عابرة على هذه الأعوام العشرة ، التى شغلتها خلافة المستنصر ، وعلى شخصية هذا الخليفة الفتى ، وهى شخصية لم تتميز بشىء من الخلال العظيمة ، والأعمال البارزة .

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٦
(٢) روض القرطاس ص ١٦١ .
(٣) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ .

ان سائر التواريخ المعاصرةوالقريبة من العصر ، تحدثنا عما كان عليه عهد الخليفة المستنصر ، من التعطل والركود ، وعما كان عليه المغرب يومئذ ، من من اختلال الأحوال ، واضطراب السكينة والأمن ، وذيوع التوجس والقلق ، وضعف الموارد العامة والخاصة ، وانتشار الضيق والفقر ، وفتور همم أولى الأمر ، ونكولهم عن القيام بأية إجراءات ناجعة ، لتنظيم شئون الدولة ، أو معالجة الأحوال العامة ، أو معاونة الشعب على اجتياز أزماته الاقتصادية والاجتماعية .

ولم يكن ثمة شك فى أن هذه كلها ، كانت علامات مزعجة ، تؤذن بدبيب الوهن والانحلال إلى الدولة الموحدية العظيمة ، وبانحدارها إلى المصير ، الذى لابد أن تنحدر إليه دولة يصيبها مثلما أصاب الدولة ، فى عهد المستنصر بالله .

وإنا لنقرأ فى وصف المؤرخين لشخصية المستنصر ، وفى تعليقاتهم على عصره ، تلك الصور المروعة ، لدولة تنحدر بسرعة إلى هاوية السقوط .

فمثلا يقول لنا ابن عذارى : « ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولاغزوة ، ولاخرج من حضرته إلا لمدينة تينملل ، على العادة فى التبرك بالمهدى . فما وقفت له على خبر أذكره إلا ما رأيت فى بعض الرسائل ، والله يؤتى ملكه من يشاء »[1] .

ويقول صاحب روض القرطاس : « ولم يخرج من حضرة مراكش طول خلافته إلى أن توفى ، وكانت أوامره لا تتمثل ، أكثرها لضعفه وليانه ، وإدامته على الخلافة ، وركونه إلى اللذات . وتفويضه أمور مملكته ، ومهمات أموره ، إلى السفلة »[2] .

ويقول ابن خلدون : « وقام بأمر الموحدين من بعده (أى بعد الناصر) ابنه يوسف المستنصر ، فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم ، وشغلته أحوال الصبا وجنونه ، عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ، فأضاع الحزم ، وأغفل الأمور ، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ، ونفس عن مخنقهم ، من قبضة الاستبداد والقهر ، فضاعت الثغور ، وضعفت الحامية ، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ريحهم »[3] .

على أن أبلغ ما وقفنا عليه من هذه التعليقات يتمثل فى تلك الفقرة التى يوردها ابن عبد الملك المراكشى ، فى ترجمة أبى الحسن بن القطان ، تعليقاً على اختلال

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٧ . (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .
(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ .

الأحوال فى المغرب وقطع السبل ، ووقوع النهب على التجار وغير ذلك :

« واستمرت الأمور على هذه الحال ، وهذه السبيل زمانا ، والمستنصر فى غفلة عن كل ما يجرى ، غير سايل عن رعيته التى يسئل عنها ، وإن بدرمنه سؤال عن أحوال الناس والبلاد ، أجاب الوزير أبو سعيد ، أن الجميع فى سبوغ نعمه ، وشمول عافية ، واتساع أحوال ، وبسط أموال ، فيقنعه ذلك ، ويعود إلى انهماكه فى لذاته . وأهمل مع ذلك جانب الأجناد الذين هم آلة الملك وأعوانه ، فأرجل فرسانهم ، وصرفت رجالهم ، فتفاقم الأمر ، واستشرى شرى المفسدين وكثر أضرارهم ، وعم عدوانهم . ولما تمادى ظهور الفساد ، واشتدت شوكة أهله ، أجرى أبو الحسن (المترجم) ذكر ذلك بمجلس الوزير أبى سعيد ، وأشار عليه بإنفاذ جيش إلى بعض نواحى مراكش لردع من نجم من أهل البغى ، فأجابه بأن ذلك لا يحتاج إليه ، وأنه سيكتب إلى أهل تلك الناحية ، بالنفوذ إلى من تعرض إلى أرضهم ومرافقهم ، والقبض عليهم وقتلهم ، ونحو هذا »[١] .

فى تلك الفقرة ، التى يقدمها إلينا مؤرخ عاش فيها قريباً من العصر ، تبدو أصدق صورة للمستنصر وأحوال عصره ، وهى صورة تنطق بنفسها ، عما يمكن أن يترتب على مثلها بالنسبة للدولة التى تجوزها من النتائج الخطيرة .

على أنه توجد لدينا فى نفس الوقت بعض نصوص تقدم إلينا المستنصر ، هذا الفتى المتعطل المستهتر ، فى صورة أخرى ، هى صورة الطاغية القوى المستبد ، الذى يستأثر بالأمور ، وإليك ما يقوله لنا فى ذلك مؤرخ موحدى معاصر وشاهد عيان ، هو عبد الواحد المراكشى ، وقد عرف المستنصر شخصياً واتصل به .

يقول عبد الواحد خلال حديثه عن المستنصر : « ولم يغير أبو يعقوب هذا على الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله ، خلا أنى رأيت كلّ من يعرفه من خواص الدولة ، قد مُلئ قلبه رعباً لما يعلمون من شهامته وشدة تيقظة . لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك فى غرة سنة ٦١١ ، فرأيت من حدة نفسه ، وتيقظ قلبه ، وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق ، فكيف الملوك ، ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شىء مما يتوقع »[٢] .

---

(١) كتاب الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشى (السفر الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٩) فى ترجمة على بن محمد بن عبد الملك بن سماحة الحميرى الكتامى ، أبى الحسن بن القطان .

(٢) المعجب ص ١٨٧ .

ويؤيد هذه الصورة فى بعض نواحيها صاحب روض القرطاس حين يقول فى حديثه عن المستنصر : « فضعفت دولة الموحدين فى أيامه ، واعتراها النقص، وأخذت فى الإدبار ، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية . فلما كبر ، واشتغل بأمره ونهيه، واستبد بملكه، جعل يفرق أعمامه، وحواليه الذين أقاموها، وأشياخ الموحدين الذين أسسوها ، وقرب أناسا وتمسك بهم ، لم يكن لهم أصل فيها »[1] .

هذا وقد كانت حكومة الخليفة المستنصر ، تتألف من معظم الأشخاص الذين عملوا مع أبيه الناصر ، فكان وزيره وزير أبيه أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وهو سليل تلك الأسرة التى استأثرت بوزارة الخلافة الموحدية زهاء نصف قرن ، وكان عميدها ابراهيم بن جامع من أصحاب المهدى ، واستمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ هـ ، ثم صرفه المستنصر ، واستوزر من بعده أحد القرابة ، وهو زكريا بن يحي بن اسماعيل الهزرجى ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده ، بيد أن هناك ما يدل على أن المستنصر ، عاد فاستدعى الوزير أبا سعيد للعمل مرة أخرى ، وذلك فى أواخر عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتبا أبيه وجده من قبل ، وهما أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش، ولما توفيا متعاقبين فى شهور سنة ٦١٩ هـ ، استدعى للكتابة أبوعبد الله محمد ابن يخلفتن الفازازى ، كاتب الناصر من قبل ، وكان عندئذ يشغل منصب القضاء بمرسية ، وعين معه للكتابة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش ، وبقى كاتب الجيش أحمد بن منيع ، وهو كاتب الناصر من قبل ، فى منصبه دون تغيير . وتولى الحجابة للمستنصر ، مبشر الخصى حاجب أبيه ، ولما توفى خلفه فى الحجابة فارح الخصى المعروف بأبى السرور ، واستمر فى الحجابة حتى وفاة المستنصر.

وتولى القضاء للمستنصر ، أبوعمران موسى بن عيسى بن عمران قاضى أبيه ، فلم يزل فى منصبه حتى نهاية عهده، وهذا القاضى هو أيضاً ، حفيد أسرة استأثرت بمناصب القضاء منذ أيام عبد المؤمن ، وكان عميدها أبو عمران موسى الضرير صهر عبد المؤمن .

ولم ينجب المستنصر ولدا ، ولم يعقب إلا حملا من جارية ، لم تذكر لنا الرواية مصيره[1] .

---

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

الفصل الثانى

أبو محمد عبد الواحد والعادل

وثورة البياسى بالأندلس

ولاية الخليفة أبى محمد عبد الواحد . نشأته وصفاته . تصرفاته الأولى . اعتراض السيد أبى محمد عبد الله والى مرسية على خلافته . قيامه بالدعوة لنفسه وتلقبه بالعادل . انضمام إخوته ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة إليه . تأييد أبى محمد عبدالله البياسى والى جيان له . مخالفة السيد أبى زيد والى بلنسية . استوزاره لابن يوجان ونزوحه إلى إشبيلية . القيام بدعوته فى مراكش . مصرع الخليفة أبى محمد عبد الواحد . تطور الحوادث بالأندلس . خروج البياسى على العادل ودعوته لنفسه . مسير أبى العلى إدريس لقتاله . استنصار البياسى بملك قشتالة . تخاذل أبى العلى عن قتاله وارتداده . العادل يرسل جيشاً آخر لقتال البياسى . هزيمة هذا الجيش وفراره . استيلاء البياسى على قرطبة . إغارة النصارى على أحواز إشبيلية . خروج أهلها لرد الغزاة . هزيمتهم وتمزيق صفوفهم . إغارة النصارى على أحواز مرسية . هزيمة المسلمين . مغادرة العادل للأندلس ومسيره إلى مراكش . العادل ونشأته وصفاته . اهتمامه بشئون الأندلس وكتابه فى ذلك . تفاقم الحوادث فى الأندلس . أعمال البياسى والقشتاليين فى أواسط الأندلس . تحالف البياسى وملك قشتالة . محاصرة ملك قشتالة لجيان . فشل الحصار وارتداد النصارى . افتتاح القشتاليين للقبذاق وباغة . غزوهم للوشة والحامة . محاصرتهم لغرناطة ثم جلاؤهم عنها . زحف البياسى على إشبيلية . خروج أبو العلى إدريس فى الموحدين لمدافعته . هزيمة الموحدين وأهل إشبيلية . خضوع قرطبة وبلاد شرق إشبيلية للبياسى . ما سلمه البياسى لملك قشتالة من المواقع والحصون . عود البياسى إلى مهاجمة إشبيلية . خروج أبى العلى لقتاله . هزيمته وتمزيق جموعه . عود بلاد شرق إشبيلية إلى طاعة العادل . كتاب أبى العلى إلى أخيه الخليفة . ثورة أهل قرطبة ضد البياسى . مطاردته ومصرعه وانهيار ثورته . صفاته الذميمة . افتتاح ملك قشتالة لحصن قبالة . استنجاد أهل بياسة بصاحب جيان . خروج أهلها منها واستيلاء النصارى عليها . استيلاء فرناندو الثالث على شوذر ومواضع أخرى . مسير السيد أبى العلى إلى مرتش وعجزه عن مهاجمتها . يعقد الهدنة مع القشتاليين . اضطراب الأحوال فى المغرب . عيث الخلط وهسكورة فى أحواز مراكش . خروج أبى العلى إدريس بالأندلس على أخيه . دعوته لنفسه بالخلافة . كيف مهد لنفسه طريق الدعوة . مبايعته واتخاذه لقب المأمون . سعى الوزير ابن يوجان لتأييده . اتفاق الموحدين على خلع العادل . رفض العادل التنازل ومصرعه . بيعة الأشياخ للعادل ثم عدولهم عنه إلى ابن أخيه يحيى الناصر . تلقب يحيى بالمعتصم . غضب المأمون واعتزامه العبور إلى العدوة .

لما توفى الخليفة يوسف المستنصر بالله دون عقب فى يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، اجتمع رأى أشياخ الموحدين ، وفى مقدمتهم الوزير أبو سعيد بن جامع ، على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد

ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[1] ، وكان شيخاً قد جاوز الستين ، يعيش مغموراً فى هدوء ودعة . ويقول لنا المراكشى ، فيما بلغه ، أنه لما توفى المستنصر ، اضطرب الأمر ، وتطلع الناس لنشوب الخلاف ، ولكن معظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبى محمد عبد العزيز (عبد الواحد)[2] . على أنه يبدو أن اختيار عبد الواحد ، كان أمراً تقرر بمنتهى السرعة ، إذ بويع فى اليوم التالى لوفاة المستنصر ، أعنى فى يوم الأحد الثالث عشر لذى الحجة ، ويبدو فى نفس الوقت أن هذا الاختيار لشيخ جاوز الستين ، يرجع إلى حكمة مزدوجة ، أولا لكى يكون أداة مطواعة للزعماء الذين يقبضون على ناصية الحكم ، وثانياً لكى تكون خلافته ، ومفروض أنها سوف تكون قصيرة الأمد ، فترة انتقال ، يتمكن الأشياخ فيها من حسم خلافاتهم ، والاتفاق على الخليفة الحقيقى .

ويقدم إلينا المراكشى ، وقد عرف السيد عبد الواحد شخصياً ، تفاصيل عديدة عنه ، وعن حميد صفاته . فهو من أصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وأمه حرة اسمها مريم وهى صنهاجية من أهل قلعة بنى حماد ، كانت قد سبيت هى وأمها فيمن سبوا عند افتتاح عبد المؤمن للقلعة ، فأعتقهما عبد المؤمن ، وزوج مريم لابنه أبى يعقوب يوسف ، فرزق منها بثمانية من الولد ، أربعة ذكور ، وأربع إناث ، وكان الذكور هم ابراهيم وموسى وإدريس وعبد الواحد وهو أصغرهم . ولبث عبد الواحد طيلة شبابه مغموراً ، لم تسند إليه ولاية ما ، حتى تولى الخلافة ابن عمه الناصر لدين الله ، فأسند إليه ولاية مالقة ، وذلك فى سنة ٥٩٨ هـ ، ثم صرفه عنها فى سنة ٦٠٣هـ ، وولاه أمر قبيلة هسكورة ، وهى ولاية ضخمة ، فاستمر فى ولايته هذه طوال عهد الناصر ، وشطراً من عهد ولده المستنصر . ثم اختاره المستنصر والياً لسجلماسة ، ثم والياً لإشبيلية ، وذلك حينما عزل عنها أخوه أبو العلاء إدريس ، ونقل إلى ولاية تونس ، ثم صرف عنها وعاد إلى مراكش .

وقد بويع السيد أبو محمد عبد الواحد بالخلافة على كره منه ، فلم يك راغباً فيها ، ولم يك يصلح لها[3] . وكان حسبما يصفه لنا المراكشى عن علم ومشاهدة ،

---

(١) وفى الحلل الموشية أن كنيته « أبو مالك » ص ١٢٣ .

(٢) المعجب ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٢ .

رجلا ورعا صالحاً ، بعيد النظر ، قوى العزم ، شديد الشكيمة ، حريصاً على اتباع الحق ، لاتأخذه فيه لومة لائم ، كثير التلاوة لكتاب الله ، دؤوباً على تلاوة الأوراد ، لايمنعه عن ذلك مانع ، ولايترك وظيفة من الوظائف التى رتبها لنفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار ، رتبها على أوقات الليل والنهار . يقول المراكشى : « شهدت هذا كله بنفسى ، لا أنقله عن أحد ، ولا أستند فيه إلى رواية . هذا مع دماثة خلق ، ولين جانب ، وخفض جناح لأصحابه ، ولمن علم فيه خيراً للمسلمين » . وأما عن شخصه فيصفه المراكشى بأنه كان « أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء »[1] .

وتمت بيعة السيد أبى محمد عبد الواحد فى جو من التفاهم والوفاق ، ولم يختلف أحد فى المغرب على بيعته ، ولم يبد عليها اعتراض من أحد ، ولم يتخذ الخليفة الجديد لقباً خلافياً كأسلافه ، ولكنه عرف فيما بعد « بالمخلوع » لأنه كان أول من خلع بنى عبد المؤمن عن كرسى الخلافة . وكان فى مقدمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن أشرفى صاحب المخزن ، ومطالبته بالمال . وكتب لأخيه أبى العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية ، وكان المستنصر قد أوعز بعزله ، بيد أنه توفى قبل استئناف ولايته ، وأمر باطلاق سراح الوزير السابق أبى زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، ولكن الوزير ابن جامع اعترض على تنفيذ هذا الأمر ، وبعث بابن يوجان مع الأسطول بقصد تغريبه إلى ميورقة[2] . ولكنه لما وصل إلى الأندلس ، أخذ وسجن فى حصن جنجالة ، فبقى فيه حتى توفى ابن جامع ، وعندئذ أطلق سراحه[3] . ثم كان ظهور الخلاف والمعارضة للخليفة الجديد ، لا فى المغرب ولكن فى جهة أخرى ، فيما وراء البحر ، أعنى فى شبه الجزيرة الأندلسية . وذلك أنه لم يمض شهران على بيعته بالمغرب ومعظم أنحاء الأندلس ، حتى ارتفع أول صوت ضد بيعته فى شرق الأندلس ، وكان هو صوت ابن أخيه السيد أبى محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور . وكان أبو محمد عبد الله عندئذ ، واليا لمرسية . وكان إخوته أبو العلى (أبو العلاء) والياً على قرطبة ، وأبو الحسن والياً على غرناطة ، وأبو موسى والياً على مالقة . وكان قد استوزر أبا زيد بن يوجان بعد إطلاق سراحه .

---

(١) المعجب ص ١٨٨ .

(٢) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) الروض المعطار ص ٦٧ فى مقال جنجالة .

وكان ابن يوجان هذا داهية زمانه ، فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة لأبي محمد عبد الواحد ، تقدم ابن يوجان إلى السيد أبي محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له إنهم بتنصيب عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور ، وأنه يشهد بأن المنصور قال إن لم يصلح محمد (أعني الناصر) فعبد الله ، وأنه أي عبد الله أحق بالخلافة ، فهو ولد المنصور ، وأخو الناصر ، وعم المستنصر ، وأنه صاحب عقل وحزم وسياسة وبعد نظر ، ولن يختلف اثنان على استحقاقه للخلافة ، خصوصاً وأن الناس يكرهون بني جامع الذين توارثوا الوزارة ، وجعلوا يقصون عن الحضرة كل ذي رأي ومقدرة ، وأخيراً فإن له من وجود أخوته الثلاثة في رياسة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر عضد[1] . وكان لتوجيه ابن يوجان وتحريضه أكبر الأثر ، فنهض السيد أبومحمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ، ودعاهم إلى مبايعته ، فلبوا دعوته ، وتسمى بالعادل ، وكان ذلك في يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ وذلك لشهرين من بيعة أبي محمد عبد الواحد ، وبايعه إخوته ولاة قرطبة ، وغرناطة ومالقة . وكذلك بايعه السيد أبو محمد عبد الله بن أبي عبد الله محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذي عرف فيما بعد بالبيّاسي ، لقيامه فيما بعد ضد العادل ببياسة . وكان سبب انضمامه للعادل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبي الربيع بن أبي حفص ، فانتقض عليه وبايع للعادل[2] . وفي رواية أخرى أن عبد الله البياسي كان عند قيام العادل والياً على إشبيلية[3] . وعلى أي حال ، فقد استطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس ، خلا بلنسية ودانية وشاطبة ، حيث امتنع واليها السيد أبو زيد بن أبي عبد الله محمد أخو البياسي عن مبايعته ، وبقيت هذه القواعد على طاعته . ثم خرج العادل من مرسية وبصحبته وزيره أبو زيد بن يوجان ، وسار إلى إشبيلية ، وأخذ في تدبير الأمور ، ولم يلبث أن برم بطغيان ابن يوجان واستئثاره بكل أمر ، فبعثه إلى سبتة ، ليكون هناك نائبه ، ولينظر في شئون العودة . وهنا يحيق الغموض بسير الحوادث سواء بالمغرب أو الأندلس.

---

(١) الروض المعطار ص ٦٨ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) هذه رواية ابن عذارى في البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٨ .

فنى رواية أن العادل حينما وصل إلى إشبيلية ، وصلته هنالك بيعة أهل مراكش وبلاد المغرب. وفى رواية أخرى أنه كتب إلى الأشياخ الموحدين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم بجزيل الصلات ، ورفيع المناصب والولايات ، فصدعوا برغبته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد ، وهددوه ، وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه ، وأن يشهد بذلك على نفسه أمام القاضى والفقهاء والأشياخ ، وكان ذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢١هـ . ولم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى دخلت عليه جماعة من الموحدين ، وخنقوه ، ونهبوا قصره ، وسبوا حريمه ، فكان بذلك أول من خلع وقتل من بنى عبد المؤمن[١] ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن أشياخ الموحدين بمراكش ، لما بلغتهم بيعة العادل بالأندلس ، اختلفوا فيما بينهم أولا ، وبادروا بعزل الوزير ابن جامع ، واقتسموا السلطات فيما بينهم ، وأنفذوا أوامرهم إلى الأسطول بمنع جوار العادل إلى المغرب. ولكن الظاهر أنهم قرروا أمرهم فيما بعد ، وبعثوا ببيعتهم إلى العادل[٢].

— ١ —

وفى أثناء ذلك اضطربت الحوادث بالأندلس ، واتخذت وجهة جديدة لم تكن فى الحسبان . وكان لبيعة العادل أكبر أثر فى تطورها على هذا النحو . وذلك أن السيد أبا محمد عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى من رفض أخيه السيد أبى زيد والى بلنسية ودانية وشاطبة ، بيعة العادل ، واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره ، فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وأبدة وقيجاطه وبياسة ، وسائر أراضى تلك المنطقة . فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ابن المنصور ، فى قوة كبيرة من الموحدين ، لقتال السيد أبى محمد عبد الله وإخماد ثورته ، فخرج السيد عندئذ من جيان ولجأ إلى بياسة وامتنع بها . وسمى من ذلك التاريخ بالبياسى ، وبعث إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به . ونحن نعرف منذ أيام الطوائف ، ماذا كان الثمن الذى يتقاضاه الملوك النصارى نظير هذه المعونة ، فقد كان دائماً قطعة من أشلاء الأندلس ، تبذل دون تحفظ ، إلى

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ و١٦٣ .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ و٢٥٢ .

جانب الخضوع والطاعة . ولم يشذ البياسى عن هذه القاعدة المؤلمة ، بل سنرى أنه ذهب فيها إلى أبعد حد .

وأشرف الجند الموحدون بقيادة أبى العلاء على بيّاسة فى أواخر سنة ٦٢١هـ (أواخر سنة ١٢٢٣ م) ، ونزلوا فى ظاهرها ، وكان الوقت شتاء ، وقد بلغ البرد ذروته ، واشتد هطل الأمطار ، وغمرت السيول كل صقع ، فحاصر أبو العلاء بياسة أياما قلائل ، ثم خشى أن يفيض النهر (الوادى الكبير) فيتعذر عليه العبور عند العودة ، وخشى كذلك أن يداهمه القشتاليون حلفاء البياسى ، وبعث إليه البياسى من جهة أخرى بعوده إلى طاعة العادل ، وأرسل إليه ولده الأصغر رهينة لديه ، فاكتفى أبو العلاء بذلك وارتد عائدا بقواته إلى إشبيلية ، دون أن يحقق شيئاً من مهمته ، فقوبل فى إشبيلية بمنتهى الاستهجان والسخط ، ورمى بالخور والجبن[1] . وعندئذ بادر العادل بتجهيز جيش موحدى آخر ، أسندت قيادته إلى أبى سعيد عثمان بن أبى حفص . فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوبى المدينة ، على مقربة من شمال الوادى الكبير ، فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسى ، وقوة من حلفائه القشتاليين ، فسرى الرعب إلى الموحدين عند رؤيتهم ، وبادروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية ، وبقى البيّاسى فى بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه القشتاليون قصبتها[2] .

وهنا يحيق الغموض بموقف البياسى وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع فى تلك الآونة أن يبسط سلطانه ، فضلا عن منطقة بياسة ، على مدينة قرطبة ، وذلك على خلاف فى طريق تملكها ، فابن عذارى يقول لنا إن العادل هو الذى أسند إليه ولايتها ، وقت أن كان مُقراً بطاعته ، وصاحب روض القرطاس يقول إن أهل قرطبة هم الذين انضموا إليه . وأما صاحب الروض المعطار ، فيقول إن البياسى هو الذى تملك قرطبة ، بل يزيد على ذلك أنه تملك أيضا مالقة ، « وكاد يستولى على الأمر لوساعده القدر »[3] . وعلى أى حال

---

(١) الروض المعطار فى مقاله عن بياسة ص ٥٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ ، والروض المعطار ص ٥٨ .

فقد كان من الواضح أن البياسى ، كان يحتل فى الأندلس الوسطى مركزاً له خطره ، وكان منافساً قوياً للعادل ، يكاد ينتزع الأمرمنه .

وكان العادل قد غدا بإشبيلية على أثر فشل قواته فى إخضاع البياسى ،فى مأزق حرج . وزاد من حرج مركزه عندئذ ، غزوة قام بها النصارى فىأراضى الشّرف غربى إشبيلية . وذلك أن قوة من الجند الليونيين يقودها مارتن سانشيز ، وهو ابن غير شرعى لملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون ، عبرت جبال الشارات ، وسارت جنوبا حتى وصلت إلى أراضى الشّرف ، وعاثت فى تلك المنطقة ، واستولت على كثير من الغنائم والسبى ، وألفى العادل ، وأخوه أبو العلاء، ووزيره ابن يوجان ، ومن معهم من أشياخ الموحدين، أنفسهم عاجزين عن دفع النصارى ، وحماية المدينة مما قد يصيبها . ووقع الهرج بين أهل المدينة، واجتمع الناس خاصتهم وعامتهم بالمسجد الجامع ، وطالبوا العادل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف ، والخروج إلى لقاء العدو ، فاستنفر العادل الناس ، واحتشدت منهم جموع غفيرة ، ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة ، وسارت هذه الجموع إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة[1] وهى تقع غربى إشبيلية على مقربة من لبلة ، وكان النصارى فى قوة كبيرة حسنة الأهبة والسلاح ، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الصغيرة إلى لقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبى بكر بن يزيد ، وحاول أن يقنع العامة بعبث هذه المحاولة ، وبأن التزام الدفاع أفضل وأولى ، فتطاولوا عليه وسبوه ، فانسحب مع فرسانه . وعندئذ انقض النصارى على هذه الجموع الهزيلة المفككة من المسلمين ، ففتكوا بها وأفنوا الكثير منها قتلا وأسراً ، وفر الكثير منهم فى مختلف الأنحاء . ويقدر من هلك من المسلمين فى الموقعة بعدة آلاف ، ويبالغ بعضهم فيقدرها بنحو عشرين ألفاً ، ووقعت موقعة طلياطة هذه فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ (مايو ١٢٢٤ م)[2] .

ولم يمض شهران على ذلك ، حتى وقعت فى شرقى الأندلس غزوة نصرانية مماثلة، وهزيمة مماثلة للمسلمين . وذلك أن حكام قونقة وبذة والأركون وموبا ،

---

(١) وهى بالإسبانية Tejada

(٢) ينفرد صاحب الروض المعطار بما يقدمه إلينا عن هذه الموقعة من تفاصيل وافية (ص ١٢٨ و ١٢٩) .

جمعوا قواتهم ، وسارت منها حملة غازية بقيادة ألبرو تليس اخترقت وادي شُقر جنوباً حتى أراضي مرسية ، فخرج لردهم جند مرسية وأهلها بقيادة أبي علي ابن أشرق ، وكانوا على مثل أهل إشبيلية من التفكك والفوضى ، فنشبت بينهم وبين النصارى ، في مكان يعرف بعفص Aspe يقع شرقي مرسية ، معركة شديدة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وأسر وقتل منهم فيها الكثير . وكان ذلك في شهر رجب سنة ٦٢٢هـ (يوليه ١٢٢٤م) ، وفي ذلك يقول شاعر مرسي ، مقارنا بين موقعتي عفص وطلياطة :

موقعة عفص وطاياطة تكامل إقبـال أيامنا
فبالغرب تلك وبالشرق ذي أناخا على شم أعلامنا[1]

— ٢ —

في ذلك الحين ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصلت إلى العادل بإشبيلية ، وكان الخليفة عبد الواحد، قد خُلع ولقي مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خاليا ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكي يعبر إلى المغرب ، خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتجهم في الأندلس ، على أثر فشله في التغلب على البياسي ، وفي رد النصارى عن أراضي إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر على شئون الأندلس ، وغادر إشبيلية ، وعبر البحر إلى المغرب ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٤ م)[2] . والظاهر أنه لقي في طريقه إلى مراكش صعابا من تعرض العربان وغيرهم إليه .

ولما وصل العادل إلى مراكش ، واستقر بقصر الخلافة ، استوزر أبازيد

---

(١) راجع الروض المعطار ص ١٣٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ١٢٩. ونحن نرجح الأخذ بهذا التاريخ الذي يقدمه إلينا صاحب الروض المعطار لعودة العادل ، ولكن يبدو من أقوال ابن عذاري أن العادل عاد إلى مراكش يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٢ ، وهو آخر يوم من حكم عبد الواحد ، وأنه دخل عليه القصر في هذا اليوم . وفي اليوم التالي أشهده على نفسه بالخلع ، وأن عبد الواحد خنق بعد ثلاثة أيام من خلعه (البيان المغرب ص٢٤٧ و ٢٤٨) ومعنى ذلك أن العادل هو الذي قام بخلع عبدالواحد ثم أوعز بقتله ، ونهب قصره وسبي حريمه . وهذه الرواية التي ينفرد بها ابن عذاري ، تبدو في نظرنا ضعيفة بعيدة الاحتمال . وبالعكس فإن الظروف والقرائن الزمنية تحمل كلها على الاعتقاد بأن عودة العادل كانت بعد خلع عبد الواحد ومصرعه . ويستفاد ذلك فضلا عن قول صاحب الروض المعطار ، من قول ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٣٤) ، وصاحب الحلل الموشية (ص ١٢٣) وصاحب روض القرطاس (ص ١٦٣) وكذلك ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٤ الغزيري) لوحة ٥٤ ا .

ابن أبي محمد بن أبي حفص ، وأقر عماله سواء بالمغرب أوالأندلس على أعمالهم ، وأقر خاصته وحشمه كل فى وظائفهم وطبقاتهم .

وقد تقدم نسب العادل ، فهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن على ، وأمه أم ولد نصرانية برتغالية ، من سبي شنترين اسمها سر الحسن أسرت فيما يبدو ، حين غزوة المنصور الأولى للبرتغال فى سنة ٥٨٦ﻫ (١١٩٠ م) ، وبذلك يمكن أن نضع تاريخ مولد العادل فى نحو سنة ٥٨٧ ﻫ (١١٩١ م) فيكون عمره وقت أن تولى الخلافة ، نحواً من أربعة وثلاثين عاما . ولقبه الكامل هو « العادل فى أحكام الله تعالى » . وأما عن صفته ، فقد كان العادل نحيل القد ، أشهل العينين ، أقنى الأنف ، خفيف العارضين[1] . وكان العادل من خيرة بنى عبد المؤمن ، فاضلا وقوراً ، كبير النفس ، عالى الهمة ، من أهل العلم والمعرفة[2] .

وتولى العادل حكم غرناطة فى سنة ٦١٩ ﻫ ، أيام ابن أخيه يوسف المستنصر ، ثم نقل باختياره إلى ولاية مرسية . ولما تولى الخلافة عمه أبومحمد عبد الواحد ، خرج عليه بمرسية ، كما تقدم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١ﻫ ، ولم يتخلف عن بيعته بالأندلس سوى السيد أبى زيد والى بلنسية ، وأخوه السيد أبو عبدالله صاحب جيّان ، وهو المعروف بالبياسي . وأما فى المغرب فقد تلقى بيعة سائر الموحدين ، ما عدا بيعة بنى حفص ولاة افريقية ، وكان هؤلاء عندئذ يدبرون الخطة لانفصالهم عن الدولة الموحدية ، والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم .

وكان فى مقدمة ما فعله العادل ، أن وجه إلى قواعد الأندلس ، كتابا يؤكد فيه عناية الموحدين بشئون الجزيرة ، واجتماع كلمتهم على الجهاد . وقد أوردلنا ابن عذارى من الكتاب المذكور فقرة ننقل منها ما يلى : .

« وها هم بحمد الله (أى الموحدين) قد انتظم شملهم ، واتصل حبلهم ، واجتمعت أهواءهم ، واتفقت على إعزاز الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة . والأعداد متكاثرة ، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار ، لا حلول إقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى يمضى عزائمهم ، ويجبرهم

(١) روض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) ابن الخطيب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال المشار إليه) لوحة ٥٤ ا .

على جميل معتقداتهم ، على جهاد أعداء الله الكفار ، فاعملوا وفقكم الله على ذلك ، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم »[1] .

والواقع أن شئون الأندلس ، كانت أهم ما يشغل العادل ، وقد تركها عند مغادرته لشبه الجزيرة ، فى حالة اضطراب مروع ، تتجاذبها تيارات جارفة ، من الفتن الداخلية ، ومن عدوان النصارى .

— ٣ —

غادر العادل الأندلس ، وترك أخاه أبا العُلى إدريس فى إشبيلية ليواجه العاصفة . وكانت الأندلس قد غدت كما قدمنا مرة أخرى ، مذ أعان العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتغلبين . وكانت حركة البياسى أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، فى أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت أن تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ، والأندلس الغربية. وكان البياسى ، قد لجأ حسبما تقدم ، إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به ، ويطلب عونه ضد خصومه ، وكان فرناندو ، وهو الذى قدر له أن يفتتح فيما بعد معظم قواعد الأندلس الكبرى ، يقدر كأسلافه ، مزايا هذا التدخل فى فى حوادث الأندلس ، وفى حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مغانم سياسية ، وإقليمية جليلة ، فلبى نداء البياسى ، وبعث إليه بالأمداد ، وامتنع البياسى بمدينة بياسة ، وصمد أمام الجيوش الموحدية ، التى بعثها العادل لإخضاعه . ولما اطمأن إلى حصانة مركزه ، خرج مع حليفه ملك قشتالة ، ليعاونه على افتتاح أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهى مدنية قيجاطة[2] الواقعة جنوب شرق بياسة . وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه فى خريف سنة ١٢٢٤ م (أواخر سنة ٦٢٢ هـ) ، واخترق أراضى أبّدة قاصداً إلى قيجاطة ، وكانت تزخر بالأموال والثروات ، فاقتحمها القشتاليون ، وهدموا معظم أسوارها ، وقتلوا من أهلها الألوف ، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية (سبتمبر ١٢٢٤ م) . واستولى القشتاليون فى نفس الوقت على عدة أخرى من حصون هذه المنطقة . ثم ساروا بعد ذلك ، ومعهم حليفهم البياسى ، فعاثوا فى أراضى جيان ، وقتلوا من أهلها نحو ألف وخمسمائة (أكتوبر ١٢٢٤ م) . ثم ارتد ملك قشتالة

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Quesada .

فى قواته مثقلا بالغنائم والأسرى ، عند اقتراب الشتاء ، وعبر نهر الوادى الكبير عائداً إلى بلاده[١] .

وفى صيف العام التالى ، أعنى فى سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، خرج فرناندو الثالث من قشتالة بجيش ضخم ، وعبر ممر مورادال بجبال سيرّا مورينا (جبل الشارات) ونزل فى سهل العقاب ، على مقربة من شمالى بياسة ، وبعث إلى البياسى يستدعيه ، فهرع البياسى إلى لقاء ملك قشتالة ، وقدم إليه خضوعه بصفة رسمية ، وعقد معه عهداً يعترف فيه بطاعته ، ويتعهد بأن يسلم إليه حصون مرتُش ، وأندوجر ، وجيان ، متى حصلت فى يده ، وكذلك سائر الحصون ، التى يطلب ملك قشتالة الاستيلاء عليها ، فى أراضى المسلمين ، وسلم البياسى ولده الأصغر إلى ملك قشتالة كفالة بولائه وإخلاصه . وتعهد ملك قشتالة من جانبه بأن يقدم إلى البياسى المعونة العسكرية الكافية ، لاسترداد أملاكه وتأمينها[٢] .

وعلى أثر ذلك قصد ملك قشتالة ومعه حليفه أو تابعه البياسى إلى مدينة جيان وهو يخرب سائر الأراضى التى يمر بها ، خلا تلك التى يسيطر عليها البياسى . ولما وصل إلى جيان ، ضرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون مدى أيام يهاجمونها دون جدوى . وكانت جيان أمنع قاعدة فى تلك المنطقة ، ولها أسوار عالية ، وقصبة فى منتهى المناعة ، مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم ، تشهد بسابق حصانتها . وكانت تدافع عنها حامية موحدية قوية بقيادة عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، ومعهم فرقة من الفرسان النصارى بقيادة ألبار بريث دى كاسترو ، وكان مثل أبيه يعمل فى خدمة الموحدين بغيرة وإخلاص ، ولما اشتدت هجمات النصارى ، خرج المسلمون لهم ، واشتبكوا معهم فى معركة ، قتل فيها من المسلمين مائة وثمانون ، وأسر نحو ألفين . ثم امتنع المسلمون بالمدينة ، ولبثوا صامدين ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة ، وهم فى كل مرة يرتدون عنها خائبين . وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يرفع الحصار عن المدينة ، وأن يرحل عنها[٣] .

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٤٩ ، والروض المعطار ص ٦١ وكذلك :
J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946) ; cit. Anales Toledanes; p. 36 & 37 .

(٢) J. Gonzalez : ibid; p. 38 .

(٣) J. Gonzalez : ibid, cit. Crónica Latina; p. 40 .

وسار ملك قشتالة بعد ذلك ومعه البياسى إلى القبذاق[1] ، فاستولى عليها وسلمها لحليفه ، إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جنوبا نحو باغة[2] ، فقاومته حاميتها بشدة ، واضطر إلى محاصرتها مدة ، ثم سلمت حاميتها بالأمان نظير فدية كبيرة ، وقصد بعد ذلك إلى لوشة ، وهى جنوب باغه على ضفة نهر شنيل . فاقتحمها وفتك بأهلها . ولما وصل إلى مدينة الحامة فى جنوبها ، الفاها خالية ، إذ هجرها أهلها خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل لوشة .

ثم سار القشتاليون بعد ذلك شمالا صوب غرناطة ، وكان أهلها قد استدعوا ألبار بيريث لمعاونتهم على الدفاع . فلما اقترب القشتاليون من المدينة ، وضربوا حولها الحصار ، وسّط أهلها ألبار بيريث ليفاوض ملك قشتالة فى أن يرحل عنهم ، نظير تسليمهم إياه ألفا وثلاثمائة أسير من النصارى كانوا لديهم ، فتم الاتفاق على ذلك ، وعفا ملك قشتالة عن ألبار بيريث ، فترك خدمة الموحدين ، وعاد إلى إلى خدمة مليكه ، وارتد ملك قشتالة فى قواته شمالا ، حتى اقترب من بياسة ، وهنالك قام البياسى بتسليمه حصنى مرتش وأندوجر ، وفقاً لعهده الذى أخذه على نفسه[3] .

وكان البياسى قد شعر عندئذ بتوطد مركزه ، وضخامة العون الذى يلقاه من حلفائه النصارى ، فما كاد فرناندو الثالث يختم غزوته فى أراضى المسلمين ، حتى سار البياسى فى قواته ، ومعه جيش من النصارى ، تقدره الرواية بعشرين ألفاً[4] صوب إشبيلية ، وعبر نهر الوادى الكبير إلى الشّرف ، وخرجت القوات الموحدية وأهل المدينة بقيادة السيد أبى العلاء لرد الغزاة ، وهنالك أيضاً ، على مقربة من طلياطة ، فى فحص القصر ، اشتبك الفريقان فهزم الموحدون وأهل إشبيلية ، هزيمة شديدة ، وقتل منهم نحو ألفين[5] وكان من نتيجة هذا النصر ، أن خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقا بين اشبيلية وقرطبة لسلطان البياسى ، بل إن أهل مدينة قرطبة ذاتها ، حينما رأوا تفوق البياسى على هذا النحو ، خلعوا طاعة حاكمهم الموحدى السيد أبى موسى أخى العادل ، وأعلنوا طاعتهم للبياسى .

وكان فرناندو الثالث قد عاد فى تلك الأثناء ، فعبر بقواته إلى أراضى

---

(١) وهى بالإسبانية Alcaudete . (٢) وهى بالإسبانية **Priego** .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٦١ و١٦٥ و١٧٤ . وكذلك :

J. Gonzalez, ibid; cit. Crónica Latina p. 42

(٤) روض القرطاس ص ١٦٤ . (٥) الروض المعطار ص ٥٨ .

الأندلس مرة أخرى ، واستدعى البياسى إلى حصن أندوجر ، وطلب إليه أن يسلم إليه طائفة من الحصون التى يرغب الاستيلاء عليها فى منطقة قرطبة ، فوعد البياسى بأن يسلمه حصون شلبطرّة، وقبالة، وبرج الحمة[1]، وارتضى أن يسلمه قصبة بياسة كفالة بتنفيذ وعده ، واحتل استاذ فرسان قلعة رباح ورجاله بالفعل قصر بياسة ، وبقى المسلمون على حالهم بالمدينة . ثم بذل البياسى جهده فى تسليم حصن شلبطرة ، وندب لذلك رسولا من قبله استطاع بعد مشقة أن يقنع حاميته بتسليمه للنصارى ، وكذلك سلم النصارى حصن برج الحمة ، ولم يبق عليه إلا أن يسلمهم حصن قبالة ، الذى امتنع عليه[2] .

ولم يقنع البياسى بما تم من توطد مركزه ، واستقراره بعاصمة الخلافة القديمة ، وسيطرته على معظم نواحى الأندلس الوسطى ، ولكنه أراد أن يستولى على إشبيلية ذاتها ، وأن يقضى نهائياً على سلطان منافسه العادل وأخيه أبى العلاء ، فسار فى قواته مرة أخرى صوب إشبيلية ، وحاول أن يضرب حولها الحصار . وكان أبو العلاء قد استعد للقائه فخرج إليه فى حشود الموحدين وأهل المدينة ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسى ، ومزقت جموعه ، وارتد فى فلوله صوب قرطبة . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة ، فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ ، وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهو ٢٥ فبراير سنة ١٢٢٦ م[3] .

وكان لهذا النصر الحاسم الذى أحرزته القوات الموحدية على البياسى ، نتائج هامة ، فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرق إشبيلية عن طاعة البياسى ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل[4] وكتب السيد أبو العلاء إلى أخيه العادل بمراكش ، كتاباً ينبئه فيه بهذا النصر ، ومما جاء فى الكتاب المذكور :

« إن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ،

---

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Salvatierra و Banos de la Encina, Capilla ، وتقع الأخيرة شمالى اندوجر .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 46 & 47

(٣) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 48

(٤) البيان المغرب ص ٢٥١ .

وانتهى إلى غاية لايتعداها ، والحمد لله الذى أذل للخلافة العادلية ، أحد عداتها وأنصفها من منازعها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها ، حافظاً بين ظلام وعماء ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو ، إلى أن يدعوه عقيراً ، أو يستثبتوه أسيراً إن شاء الله تعالى، وكتب فى ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وستمائة » .

وهنا خرج فرناندو الثالث فى قواته مرة أخرى ، وكان هدفه فى هذه المرة الاستيلاء على حصن قبالة[1] ، وهو من حصون الحدود الواقعة فى شمالى قرطبة ، وشمالى جبل الشارات ، وكان قد تعذر على البياسى ، أن يقوم بتسليمه وفقاً لتعهداته ، وكان البياسى قد وصل فى تلك الأثناء إلى قرطبة منهزما مدحوراً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا إفراطه فى محالفة النصارى ، وإسرافه فى تسليم الحصون الإسلامية إليهم ، قد خشوا أن ينتهى الأمر بأن يغدر بهم ، ويسلم قرطبة ذاتها للنصارى ، فاعتزموا الفتك به والتخلص منه ، فثاروا به ، وشعر البياسى بخطورة الأمر ، ففر من المدينة ، والتجأ إلى حصن المدوّر الواقع جنوبى النهر على مقربة من جنوب غربى قرطبة ، ولكن الثوار طاردوه بشدة ، وحاصروه فى الحصن ، ثم اقتحموه ، وقتلوا البياسى ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا بها إلى السيد أبى العلى بإشبيلية ، فأرسلها بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل بمراكش ، فرد العادل بكتاب يتضمن تعيين أخيه أبى العلى واليا لقرطبة بالإضافة إلى إشبيلية[2] ، وكان البياسى عند مصرعه شيخاً قد جاوز الستين .

وهكذا تحطمت ثورة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، المسمى بالبياسى ، بعد أن لبثت ثلاثة أعوام تبث الاضطراب والدمار إلى أواسط الأندلس ، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون الواقعة فى شرقى قرطبة وفى شمالها ، وقد اقتطعوا منها بالفعل طائفة كبيرة ، كان ضياعها سبباً فى إضعاف خطوط الدفاع عن قرطبة ، والتمهيد لسقوطها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، البياسى ، فى صور بغيضة قاتمة[3]. ونستطيع أن نعتبر البياسى بالفعل على ضوء ماتقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية

---

(١) وبالإسبانية Capilla .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ٥٩ .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٥٨ و ٦١ ، والبيان المغرب ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطماعه الوضيعة ، شخصية بغيضة مثيرة ، تستحق أن يدمغها التاريخ بأقسى الأحكام ، ويرميه ابن عذارى بالارتداد عن عن الإسلام ، واعتناق النصرانية ، بيد أننا لم نجد فى الروايات النصرانية مايؤيد هذا الاتهام ، ولو وقع لكانت الرواية النصرانية أول من يسجله ويشيد به .

- ٤ -

وكان فرناندو الثالث حينما وصلته أنباء هذه الحوادث أمام حصن قبالة المنيع ، وقد ضرب حوله الحصار (أوائل يونيه سنة ١٢٢٦) وأخذ يهاجمه باستمرار ، وحاميته الإسلامية ، صامدة ، بيد أنه لما طال الحصار ، واشتدت هجمات النصارى ، اضطر المسلمون إلى مفاوضة ملك قشتالة ، وعرضوا أن يقدموا رهائنهم بالتسليم ، وأن يبعثوا رسلهم إلى السيد أبى العلاء ، وكان عندئذ بقرطبة ، يطلبون إليه الإنجاد ، فإذا لم تصل إليهم النجدة خلال ثمانية أيام ، سلموا الحصن بالأمان ، فقبل فرناندو هذا العرض . ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الرسل من قرطبة خائبين ، فسلم المسلمون الحصن ، وسمح لهم وفقاً للاتفاق ، أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأن يسيروا محروسين حتى حصن « غافق » الواقع جنوب قبالة ، وهو أقرب الحصون الإسلامية إليهم ، ودخل فرناندو الحصن وفى الحال حول مسجده إلى كنيسة ، ووضع به حامية نصرانية ، وكان تسليم حصن قبالة فى أوائل أغسطس سنة ١٢٢٦م (أواخر سنة ٦٢٣ هـ) .

وجاء بعدئذ دور بيّاسة ، وكان من الواضح ، بعد مصرع البياسى ، أن مصير بياسة غدا فى كفة القدر ، وأن ملك قشتالة كان يتطلع إلى أخذها باعتبارها من أملاك تابعه . وكان فرسان قلعة رباح قد احتلوا قصبة بياسة كما قدمنا ، كفالة بتنفيذ البياسى لتعهداته ، فلما قتل البياسى ، أراد أهل بياسة أن يخرجوا النصارى من قصبتهم ، فبعثوا إلى صاحب جيّان عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، يستنجدون به ، فقدم عليهم فى بعض قواته ، ومعه القائد محمد بن يوسف المسكدالى ، ودخل المدينة ، وكان بها سوى من بالقصبة ، طائفة كبيرة من النصارى ، فقتلوا جميعاً مدافعين عن أنفسهم ، ولكن صمد من كان منهم بالقصبة لحصانتها ، فطلب أهل بياسة إلى الوالى الموحدى ، أن يبقى يوماً أو يومين لحصار النصارى بالقصبة لإرغامهم على التسليم ، لأنهم كانوا يتلقون مؤنهم من أهل المدينة يوماً بعد يوم ، فأبى وأصر على الخروج من فوره ، وذلك خوفاً من قدوم القشتاليين ،

وقال لأهل المدينة ، إنى ذاهب ، فمن أحب أن يخرج معى فليخرج ، ومن أراد البقاء فليبق ، فاضطر أهل المدينة إلى مغادرتها خوفاً من الوقوع أسرى فى أيدى النصارى ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء . وهكذا استولى النصارى الذين بالقصبة وهم فرسان قلعة رباح على سائر المدينة ، وذلك فى اليوم التاسع من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ (أول ديسمبر سنة ١٢٢٦م) ووهب فرناندو الثالث الفرسان من أجل ذلك كثيراً من دور المدينة ورياضها وضياعها[١] .

وفى العام التالى استولى فرناندو الثالث على شوذر[٢] الواقعة جنوبى بياسة ، وعلى عدة من الحصون المجاورة ، وأخرج من بقى من المسلمين فى بياسة ومرتُش وغيرهما من القواعد والحصون التى استولى عليها .

وهكذا استطاع القشتاليون أن يخرجوا من ثورة البياسى ، بأكبر غنم ، وأن يضعوا أيديهم على طائفة كبيرة من القواعد والحصون الأندلسية الهامة فى منطقة جيان وقرطبة ، وأن يتحكموا بذلك فى خطوط الدفاع عن الأندلس الوسطى ، وأن يقتربوا من قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، التى كان الاستيلاء عليها من أعز أمانيهم .

وكان السيد أبو العُلى (أبو العلاء) إدريس ، مذ حلّ بقرطبة عقب مصرع البياسى ، يحاول أن يضع حداً لعدوان النصارى فى تلك المنطقة ، فسار فى بعض قواته إلى مرتش وحاصرها ، وحاول أن يستولى عليها ، ولكن الأمداد القشتالية جاءت أخيراً لتنقذها من السقوط ، واضطر السيد أبو العلى أن يرفع الحصار وأن ينصرف بقواته ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٤ هـ — ١٢٢٧ م . فلما شعر أبو العلى باشتداد وطأة القشتاليين على الأراضى الإسلامية ، سعى إلى عقد المدنة معهم ، وبعث رسوله أبا القاسم للمفاوضة ، وتم الاتفاق على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد ، وأن يدفع الموحدون لقاء عقدها ثلاثمائة ألف قطعة Naravedi من الفضة ، دفع بعضها عند توقيع التعاقد ودفع الباقى بعد ذلك[٣] .

— ٥ —

لم نجد بعد أن سجلنا أحداث الأندلس الأثمة فى عهد الخليفة العادل ، مانسجله

(١) الروض المعطار ص ٥٨ و ٥٩ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid, p. 52 .

(٢) وهى بالإسبانية Jodar .

(٣) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina, p. 65 .

من الأحداث فى عهده بالمغرب ، وهو عهد لم يطل إلا نحو عامين ، إلا ما كان من تفاقم الأحوال ، واضطراب حبل الأمن ، وازدياد الفوضى ، وتوالى عيث العرب ، وبعض القبائل البربرية ، ولاسيا هسكورة ، فى الأنحاء القريبة من العاصمة وازدياد شأن بنى مَرِين ، وتغلبهم على كثير من النواحى والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم ، مثل فاس وتازى ومكناسة ، وذلك لكى يكفوا الغارة عنهم (١) .

وكان أهم ما حدث فى تلك الفترة القصيرة ، قيام عرب الخُلط ، وشيخهم هلال بن مقدم ، وهسكورة ، وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيث فى نواحى مراكش ، وتخريبهم بلاد دُكالة . وخرج إليهم فى البداية ابن يوجان فلم يستطيع شيئاً ، فوجه إليهم العادل عسكراً من الموحدين بقيادة إبراهيم بن إسماعيل بن أبى حفص ، فهزم وقتل ، واستمرت أعمال العدوان والعيث على حالها(٢) .

وبينما المغرب يجوز فى ظل العادل ، هذه الفترة المدلهمة ، إذ وقع بالأندلس حدث جديد ضخم ، هو خروج السيد أبى العلى والى إشبيلية وقرطبة على أخيه العادل ، وخلع طاعته ، وإعلانه الدعوة لنفسه ، ومبايعته بالخلافة فى إشبيلية ، وذلك فى الثانى من شهر شوال سنة ٦٢٤ه (١٥ سبتمبر سنة ١٢٢٧ م) . ولم يتخذ السيد أبو العلى قراره ارتجالا ، بل مهد إليه بالسعى والاتصالات ، وكان معه بإشبيلية عدة من وجوه الموحدين وأشياخهم ، الذين يعتد برأيهم ، فأراد أن يسبر غورهم أولا ، فاتفق مع قاضى المدينة ، أبى الوليد بن أبى الأصبغ ابن الحجاج ، وكان ذلك فى أواخر شهر رمضان ، أن ينشىء خطبة بليغة يلقيها فى يوم الفطر ، وأن يتعرض فيها لمسألة الخلافة ، وأن يشير بلباقة إلى ما يجول بخاطره من القيام بالأمر ، فألقى القاضى خطبته حسبما اتفق ، وأطنب فى ذكر السيد واستحقاقه للأمر ، وفى اليوم التالى ، اجتمع أشياخ الموحدين بمجلس السيد أبى العلى ، وقام الجميع بمبايعته ، واتخذ لقب المأمون ، وبايعه على أثر ذلك بعض ولاة الأندلس ، وفى مقدمتهم السيد أبو زيد والى بلنسية ، وبعثوا ببيعاتهم إليه . وكذلك بايعته من أنحاء العدوة سبتة وطنجة(٣) .

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ١٦٦ .

ويقول لنا ابن الخطيب ، إن أبا العلى ، قام على أخيه العادل بممالأة أخيه السيد أبى زيد أمير بلنسية وتحريكه إياه ، وقد وهم ابن الخطيب فجعل من السيد أ زيد وأخيه عبد الله البياسى ، أخوين للعادل وأبى العلى ، فى حين أنهما من أبناء عمومتهما ، إذ أن أبا زيد عبد الرحمن والى بلنسية ، وأخاه عبد الله البياسى ، هما ولدا محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومحمد هو أخ ليعقوب المنصور[1].

وبعث أبو العلى المأمون إلى ابن يوجان ، يدعوه إلى مبايعته والعمل على نصرته ، وكان العادل قد تغير على ابن يوجان وأقصاه ، وخاطب ابن يوجان هلال بن مقدم أمير الخُلْط ، وعمر بن وقاريط شيخ هسكورة ، وأوعز إليهما بالاستمرار فى الإغارة على أحواز مراكش ، حتى يذعن الموحدون إلى خلع العادل ومبايعة المأمون[2]. ويقول لنا صاحب روض القرطاس من جهة أخرى إن المأمون أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، وإلى الفتك بأخيه العادل ، وأنهم صدعوا بأمره ، وقتلوا العادل ، وكتبوا بيعتهم إليه[3] . على أن الأمور اتخذت فى بلاط مراكش وجهة أخرى. وكان يسيطر على الدولة رجلان هما أبو زكريا بن الشهيد زعيم هنتاتة ، ويوسف بن على شيخ تينملّل . فلما وردت الأنباء بقيام أبى العلى المأمون وبيعته ، ولما تفاقم أمر الخُلط وهسكورة ، اتفقا على خلع العادل وعقد البيعة لأبى زكريا يحيى بن محمد الناصر . فدخل الموحدون القصر على العادل ، وطلبوا إليه أن يخلع نفسه ، ولما أصر على الرفض قتلوه ، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن القتلة ، وضعوا رأس العادل فى خصة تفور بالماء ، وشنقوه بعمامته حتى مات . ويزيد على ذلك بأن الموحدين عقدوا البيعة أولا للمأمون ، وبعثوا بها إليه ، وخُطب له بالفعل على منبر جامع المنصور ، ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانتقامه ، فنكثوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر[4].

ويؤيد ابن الخطيب هذه الرواية ، فيقول لنا إن الموحدين عقدو البيعة للمأمون بمراكش والأندلس ، ثم إن الموحدين بمراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا

---

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ ، ومخطوط الإسكوريال (١٦٧٤ الغزيرى) لوحة ٥٤ .

(٢) الروض المعطار ص ٦٩ . (٣) روض القرطاس ص ١٦٦ و ١٦٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٥٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ و ١٦٧ .

عنه إلى ابن عمه (والصحيح ابن أخيه)، أبي زكريا يحيى بن الناصر[1] ثم يؤيدها بعد ذلك بصورة قاطعة ، ماحدث ، عقب استيلاء المأمون على العرش ، من قتله لأشياخ الموحدين ، جزاء لهم على نكث بيعته بعد عقدها[2] .

وعلى أى حال فقد انتهى الموحدون بمراكش ، إلى البيعة ليحيى بن الناصر. ويقول ابن عذارى إن هذه البيعة قد تمت فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال أعنى فى نفس اليوم الذى قتل فيه العادل[3]، وهذا ما لايتفق مع سير الحوادث ، وعقد البيعة للمأمون ثم النكث بها ، ومن ثم فأنا نوثر الأخذ برواية صاحب روض القرطاس وهو أن بيعة يحيى قد تمت فى اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ[4]، أعنى بعد مصرع العادل بأسبوع ، وهو أكثر اتفاقاً مع المنطق . وكان يحيى بن الناصر ، هو الذى اجتنى ثمرة الجريمة ، وليس أخو الخليفة المقتول، وقبض بعد ذلك بأشهر قلائل على الوزير السابق أبى زيد بن يوجان، وولده الأكبر بالرغم من اختفائهما وقتلا ، وذلك لما نسب إليهما من تحريض عرب الخُلط وهسكورة على الاستمرار فى عيثهما[5] .

وتلقب يحيى بن الناصر ، بالمعتصم ، وكان وقت تقلده الخلافة ، فتى حدثاً فى السادسة عشرة من عمره ، وامتنع من بيعته عرب الخُلط ، وقبيلة هسكورة ، وبقيا على ولائهما فى بيعة المأمون .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المأمون بالأندلس ، استشاط سخطاً وغضباً ، وكان قد أخذ بالفعل فى الأهبة للمسير ، وقصد إلى الجزيرة الخضراء ليجوز منها إلى العدوة ، فارتد إلى إشبيلية ، وقد آلى على نفسه أن يعمل بكل ما وسع لانتزاع عرش الخلافة ، والانتقام من أولئك الأشياخ المنافقين الذين غدروا به ونكثوا بيعته .

بيد أنه يجب قبل أن نتتبع مصاير الخليفة المأمون ، وما اقترن بعهده من أحداث المغرب ، أن نقف لحظة لكى نستأنف الكلام على سير الحوادث بالأندلس .

---

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ .
(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٦٥ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٥٣ .
(٤) روض القرطاس ص ١٦٥ .
(٥) الروض المعطار ص ٦٩ و ٧٠ .

الفصل الثالث

عصر الخليفة أبى العـــلى المأمون

إلغاء رسوم المهدى ابن تومرت

وقيام الدولة الحفصية بإفريقية

المأمون يعقد حلفاً مع قشتالة . شروط هذا الحلف . معاونة فرناندو الثالث العسكرية للمأمون . عبور المأمون إلى المغرب . اللقاء بينه وبين يحيى المعتصم . هزيمة يحيى وفراره . دخول المأمون مراكش. فتكه بأشياخ الموحدين . القتال ثانية بين يحيى والمأمون . هزيمة يحيى وفراره للمرة الثانية . مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدى وإعلانه بطلان دعوته . كتابه فى ذلك . رواية أخرى عن إزالته للدعوة المهدية . ماكان يجيش به المنصور من ذلك . بناء النصارى لكنيستهم فى مراكش . إفريقية تحت ولاية الشيخ أبى محمد عبد الواحد . وفاته وقيام ولده أبى محمد عبد الله مكانه . الخليفة الموحدى يعين أميراً لتونس . تحرك يحيى بن إسحاق بن غانية . نهوض السيد أبى العلاء من تونس لقتاله . أطوار القتال بين الفريقين . هزيمة ابن غانية وفراره . ولاية السيد أبى زيد لإمارة تونس ثم إقالته . العادل يعين أبا محمد عبد الله لولاية إفريقية . دخوله تونس وتعيينه لأخيه أبى زكريا لحكم قابس ، ولأخيه أبى ابراهيم لحكم توزر . تأثل هيبة الشيخ أبى محمد عبد الواحد وبنيه بإفريقية . عود ابن غانية للعيث فى شمال إفريقية . اقتحامه لقسنطينة ومليانة والجزائر . خروج الشيخ أبى محمد لمطاردته . مسيره صوب أحواز سجلماسة . استعراض لمغامرات بنى غانية . تدهور مثلهم الثورية . هزيمتهم وانهيار أحلامهم . الأعوام الأخيرة من حياة يحيى بن غانية . وفاته وتعليق ابن خلدون عليها . مصرع الخليفة العادل وقيام يحيى مكانه . اضطراب أمر الخلافة الموحدية . قيام الخليفة المأمون وماتلا ذلك . توقف أبى محمد عبد الله عن مبايعته . عزله وتعيين أخيه أبى زكريا لولاية إفريقية . محاولة أبى محمد مقاتلة أخيه ورده عن ذلك . استدعاء الأشياخ لأبى زكريا واعتقال أبى محمد . مسير أبى زكريا إلى تونس. تعيين المأمون لبعض العمال الجدد. غضب أبى زكريا لذلك . خلعه لطاعة المأمون . رواية أخرى عن نزاع الأخوين وقيام أبى زكريا فى الحكم. خلع طاعة بنى عبد المؤمن واستقلال إفريقية . استيلاء أبى زكريا على قسنطينة وبجاية من الولاة الموحدين . قيام إفريقية المستقلة تحت حكم الدولة الحفصية . بنو حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد . انشغال بلاط مراكش وعجزه . كتاب المأمون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . السيد أبو موسى والى سبتة يدعو لنفسه بالخلافة . الثورة فى منطقة فازاز . مسير المأمون لمعاقبة الثوار . تفرق الثوار ومسير المأمون إلى سبتة . فشل محاصرته لها . عبور أبى موسى إلى الأندلس . تنازله عن سبتة لإبن هود . اقتحام يحيى لمراكش . احراقه لكنيستها وقتله للنصارى . عود المأمون ووفاته فى الطريق . اتفاق الأشياخ على مبايعة ولده الرشيد . مسير جيش المأمون إلى مراكش . امتناعها واستعدادها للمقاومة خشية انتقام الجند النصارى . صدور ظهير الرشيد بتأمينها . دخوله المدينة . تعويض النصارى افتداء للمدينة . الخليفة أبى العلى المأمون ونشأته وصفاته . براعته البيانية . نموذج من بلاغته . بعض شعره . وزراؤه وكتابه . شخصه وأولاده .

لما عاد المأمون إلى إشبيلية ، بعد أن أخفق فى التغلب على ابن هود ، كانت تشغله فكرة واحدة ، هى العبور إلى المغرب ، وانتزاع العرش من يد أبن أخيه يحيى ، ومعاقبة الناكثين لبيعته . وكان مما يشجعه على العبور ، أن وردت إليه من المغرب بيعات والى فاس ، ووالى تلمسان محمد بن أبى زيد بن يوجان ، ووالى سبتة ، وهو أخوه أبو موسى بن المنصور ، ووالى بجاية ، وهو ابن أخته ، وكذلك وصلت إليه بيعة مقدم بن هلال أمير عرب الخلط ودعوته بالقدوم[1] . على أن المأمون لم يرد العودة دون قوة عسكرية تكفل له النجاح ، ومن ثم فقد اتجه نحو ملك قشتاله ، وكان فرناندو الثالث ، قد عبر الحدود إلى الأندلس فى أواخر سنة ١٢٢٨ م (أوائل سنة ٦٢٦ هـ) ، وهو يرقب حوادث الأندلس وما تجوزه من فتن ومعارك داخلية ، تمهد سبل الوثوب . فبعث إليه المأمون يعرض تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر بنفس الشروط ، أعنى مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، ويطالب إليه فى نفس الوقت عقد حلف يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية تعبر معه إلى المغرب . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة الشروط التى اشترطها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف وقبلها المأمون ، وهى أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية فى منطقة الحدود يختارها بنفسه ، وأن تُبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ، ويرد إلى إخوانه يقضون فى أمره ، وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل . بيد أنه يبالغ فى قيمة العون الذى قدمه ملك قشتالة للمأمون ، فيقول إنه بعث إليه بجيش كثيف من إثنى عشر ألف فارس من النصارى ، برسم الخدمة معه ، والجواز إلى العدوة ، وأن هذا الجيش الضخم ، وصل إلى المأمون فى شهر رمضان سنة ٦٢٦ هـ ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدوة على هذا النحو[2] ، وفى هذا القول مبالغة ظاهرة ، وليس من المعقول أن يعبر ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه للخليفة الموحدى ، والجيش القشتالى كله لم يكن يضم فى كثير من المواقع الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان . والحقيقة التى تقدمها إلينا الرواية النصرانية . هى أن ملك قشتالة لم يمد المأمون

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ .

بأكثر من خمسمائة فارس(1) . وهذا هو بالذات مايقرره ابن عذارى ، إذ يقول مشيراً إلى عزم المأمون على الجواز إلى العدوة : « فحشد الحشود ، وزم الجنود، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم، لما كان يبغى من الحركة ويروم»(2). ويكتفى ابن الخطيب بأن يصف هذه القوه التى أمد بها ملك قشتالة حليفه المأمون بأنها «جمع من فرسان الروم»(3) .

وعبر المأمون البحر فى حشوده من الموحدين والعرب والقشتاليين ، ولم يترك بإشبيلية وباقى القواعد الأندلسية الباقية على طاعته، سوى بعض الحاميات الضئيلة . وكان جوازه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة٦٢٦هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٨م) . فأقام فى سبتة أياماً ، ينظم قواته ، ويستعد للسير إلى غزوته المنشودة . ثم سار فى قواته صوب الحاضرة الموحدية ، وكان ابن أخيه الخليفة الفتى يحيى بن الناصر وأشياخ الموحدين الموالين له ، حينما بلغهم عبور المأمون إلى العدوة ، قد استعدوا للقائه . وخرج يحيى فى قواته من العرب ، والموحدين، لرد المأمون، وكان اللقاء على جبل إيجليز ، على مقربة من مراكش، وذلك فى اليوم الخامس والعشرين لربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ (يناير ١٢٢٩ م)، فهجم الفرسان النصارى على قبة يحيى الحمراء واقتحموها ، ومزقت حشوده وقتل معظمهم ، وفر هو ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى جبل هنتاتة . ودخل المأمون حضرة مراكش، فبادر أشياخ الموحدين إلى بيعته، واستقر فى كرسى الخلافة(4).

وكان أول عمل قام به المأمون، هو تتبع خصومه والناكثين لبيعته، ولاسيما من أشياخ هنتاتة ، وتينملل ، ولجأ فى ذلك إلى حيلة لاجتذابهم فأعلن الأمان ،فهرع معظمهم للسلام عليه ، ولما تم اجتماعهم، استحضر خطوطهم وبيعاتهم، ثم أخذ يحاسبهم على تصرفاتهم وعلى خديعتهم ، ونكثهم المتكرر ببيعاتهم ، وذلك بحضرة القاضى الفقيه المكيدى ،وكان قد حضر معه من إشبيلية ، ثم خاطب القاضى بقوله : « ما تقول يا فقيه فى قوم بايعوا شخصاً ، ثم نكثوا عليه وخلعوه ، ثم قتلوه ، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه ، ثم بعثوا ببيعتهم هذه إلىّ ثم نكثوا

---

(1) J. Gonzalez : Las Conqusitas de Fernando III en Andalucia p. 59, Nota 14

(2) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٤ .

(3) الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ .

(4) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص٢٥٣ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

أيضاً على » فقال القاضى : « وجب عليهم القتل أجمعين » وتلا الآية : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فأمر المأمون بإعدامهم جميعاً ، وكانوا نحو مائة من أعيان الموحدين ، ودفنوا على الأثر فى حفرة كبيرة حفرت لهم خارج باب السادة ، ثم تتبع من بقى منهم بمراكش ، حتى فنى معظمهم ، وتضاءلت بذلك مشيخة الموحدين ، وضعف نفوذها القوى ، الذى لبث ، منذ أيام المهدى ، يأخذ بأكبر نصيب فى توجيه مصاير الدولة الموحدية[1] .

وفى شهر رمضان من هذا العام (٦٢٧ هـ) خرج المأمون من مراكش ليرد هجوماً جديداً كان يدبره يحيى بن الناصر وأنصاره من الموحدين . فالتقى الفريقان بفحص واونزرت ، فوقعت الهزيمة للمرة الثانية على يحيى وأصحابه ، وقتل منهم عدد ضخم ، وفر يحيى فى فلوله إلى بلاد درعة وسجلماسة ، وعلق المأمون من رؤوسهم على أسوار مراكش نحو أربعة آلاف ، وكان الوقت قيظاً ، فانتشرت روائحها الكريهة فى المدينة ، وضج الناس من ذلك ، ورفع الأمر إلى المأمون ، فكان جوابه أنه يوجد ثمة مجانين ، وتلك الرؤوس لهم أحراز لايصلح حالهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، كريهة عند المبغضين[2] .

وكان المأمون يجيش بأفكار ومشاريع عظيمة ، نحو تجديد الدولة الموحدية ، وتجديد رسومها وتعاليمها ، بعد أن أضحت فى نظره عتيقة بالية . وقد تذرع فى تنفيذ خطته بمنتهى الشجاعة والجرأة ، وقد كان المأمون فى الواقع شجاعاً صارماً ، مضطرم النفس ، فأصدر مرسومه إلى سائر بلاده بإزالة اسم المهدى من الخطبة ومن السكة ، ومحو اسمه من المخاطبات ، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية مثل « تاصليت الإسلام » « وسودود » و« ناردى » « وأصبح ولله الحمد » وغير ذلك مما كان العمل جارياً عليه منذ بداية الدولة الموحدية . وأذاع فى كتابه الرسمى ، الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت بالمهدى وبالإمام المعصوم « إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه » . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذا الكتاب الشهير ، الذى يعتبر صدوره حدثاً حاسما فى تاريخ العقيدة الموحدية ، ونحن ننقله هنا لبالغ أهميته :

« من عبد الله إدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ،

---

(١) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ .

إلى الطلبة والأعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر أنعمه الجسام ، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام ، وإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم عملا منقاداً ، وسعداً وقاداً ، وخاطراً سليما ، لايزال على الطاعة قائماً مقيما ، من مراكش كلأها الله تعالى ، وللحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ، وقضاء لايرد ، وباب لايسد ، وظلال على الآفاق لمحو النفاق بعد ، والذى نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أنا نبذنا الباطل ، وأظهرنا الحق ، وأن لامهدى إلا عيسى بن مريم ، وما سمى مهدياً إلا أنه تكلم فى المهد ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التى تقلدناها . وقد أزلنا لفظة العصمة عمن لاتثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فتسقط وتبيت ، وتمحى ولاتثبت . وقد كان سيدنا المنصور ، رضى الله عنه ، هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للإمة الخرق الذى رقعنا ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجّله إليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ كتابه ، أف لهم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك المحجة ، اللهم ، اشهد اللهم اشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ، ونعوذ بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وأمرهم الخبيث ، إنهم فى المعتقد من الكفار ، وإنا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » والسلام على من اتبع الهدى واستقام »[1] .

وفى رواية أخرى هى رواية صاحب روض القرطاس ، أن المأمون بعد أن دخل مراكش وبايعه الموحدون ، صعد إلى المنبر بجامع المنصور ، وخطب الناس ، ولعن المهدى ، وقال أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، إنه لامهدى إلا عيسى ، وانا قد نبذنا أمره النحيس به ، ثم أصدر مرسومه المتقدم ، بإزالة اسم المهدى من الخطبة والسكة ، وأن كل ما فعله المهدى ، وتابعه أسلافنا فهو بدعة ، ولا سبيل لإبقاء البدع . ثم دخل قصره فاحتجب ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع ، فاستدعى أشياخ الموحدين بين يديه ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ص ٤١٩ ، و ٤٢٠ .

وعاتبهم على نقض عهودهم ، ثم أمر بإعدامهم حسبما تقدم[1]. بيد أنه يبدو من المرجح أن المأمون ، قد عمد أولا إلى التخلص من خصومه من أشياخ الموحدين ، ثم أقدم على تنفيذ خطته فى إزالة رسوم المهدى وتعاليمه .

ولاريب أن عمل المأمون كان أعظم انقلاب ثورى حدث فى أصول العقيدة الموحدية على يد بنى عبد المؤمن ، وقد أصاب الصميم من أسس هذه العقيدة وتعاليمها ، وقضى بصورة رسمية قاطعة ، ببطلان أحداث الأسطورة التى مثلت فى جبل إيجليز قبل ذلك بمائة واثنى عشرة عاما ، وأعلن فيها محمد بن تومرت أنه المهدى المنتظر ، والإمام المعصوم .

ونحن نعرف أن الخليفة يعقوب المنصور ، كانت تساوره نحو المهدى مثل هذه الأفكار ، وأنه لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامته ومهديته ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، فكان عمل المأمون فى الواقع ، وحسبما يشير إليه كتابه ، تنفيذاً لما كان يجيش به والده المنصور ، ولم يكن يجرأ فى وقته على المجاهرة به ، أو الإقدام على تنفيذه .

والظاهر أن عمل المأمون فى إزالة رسوم المهدى وتعاليمه ، لم يكن له كبير صدى ، ولم تترتب عليه أية معارضة أوبوادر انتقاض ، وبالعكس فقد أشاد الشعراء بتصرفه ، وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة ، يورد لنا ابن عذارى بعضها[1] .

وأذن المأمون فى نفس الوقت لحلفائه النصارى القادمين معه ، فى بناء الكنيسة بمراكش ، وهى التى اشترط ملك قشتالة إنشاءها ، وأخذت النواقيس منذ إتمامها ، تدق لأول مرة فى العاصمة الموحدية[3] .

— ١ —

وكان من أعظم الحوادث الحاسمة فى عصر المأمون ، إلى جانب محو أصول العقيدة الموحدية ، انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيامها دولة مستقلة تحت سلطان بنى حفص . ونحن نعرف أنه لما تفاقم أمر يحيى بن إسحاق بن غانية

---

(١) روض القرطاس ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ .

الميورقى فى إفريقية ، واشتد عيثه بها ، واستولى على معظم قواعدها ، ثم استولى على تونس ذاتها ، وكاد سلطان الموحدين يمحى فى ذلك الركن من إمبراطوريتهم الشاسعة ، سار إليه الخليفة الناصر لدين الله فى الجيوش الموحدية ، ولبثت هذه الجيوش تطارده من مكان إلى مكان ، حتى ضربته ضربتها الحاسمة فى موقعة جبل رأس تاجرا فى سنة ٦٠٢ ه ، وانتزعت منه قواعد إفريقية واحدة بعد أخرى ، ورأى الناصر تأميناً لإفريقية ، وتوطيداً لسلطان الموحدين بها ، أن يسند ولايتها إلى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص بن عمر الهنتاتى ، وهو الظافر فى معركة رأس تاجرا ، وكان الشيخ أبومحمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة ، وكان فوق ذلك صهر الخليفة متزوجاً بأخته ابنة الخليفة المنصور ، فقبل الشيخ الولاية ، على كره منه ، واشترط لتقلدها شروطاً تكفل له الاستقلال التام برأيه وتصرفاته ، وأبدى الشيخ فى ولايته منتهى الحصافة والحزم ، ووقف بالمرصاد للميورقى ، وقضى على كل محاولاته ، ومحاولات حلفائه من طوائف العرب ، وغيرهم من المغامرين المفسدين ، وحقق لإفريقية عهداً من الاستقرار والطمأنينة والرخاء لم تعرفه منذ بعيد .

ولما توفى الخليفة الناصر ، بعد موقعة العقاب المشئومة بقليل ، فى اليوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ ه ، وخلفه ولده يوسف المستنصر ، وبادر أشياخ الموحدين من سائر الأنحاء إلى بيعته ، تمهل الشيخ أبو محمد فى تقديم بيعته بعض الوقت ، وأحيط تصرفه يومئذ بمختلف التعليقات ، ولكنه انتهى بسعى الوزير ابن جامع إلى تقديم البيعة المنشودة . ولكن حدث حينما قام الخليفة المستنصر بتعيين عمال النواحى ، أن ندب عمه السيد أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ليكون أميراً على تونس ، وليستقر بقصبتها ، ليعنى بتدبير شئونها ، والسهر منها على حركات الميورقى ، إلى جانب الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، وأن يبقى الشيخ على ما هو من تقلد أعمال ولايته ، ولم يك ثمة شك فى أن هذا التعيين لم يكن محلا لرضى الشيخ ، وأنه رأى فيه مضايقة له ، وافتئاتا على حقوقه وسلطانه[1].

وهناك قول آخر بأن تعيين السيد أبى العلاء لإمارة تونس لولاية إفريقية ، لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبى محمد ببضعة أشهر ، فى أواخر سنة ٦١٨ ه ، وأنه عين خلفاً للشيخ . ومما يعزز هذا القول ، هو أن السيد أبا العلاء ماكاد يتولى

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٧٣ و ٢٧٤ .

منصبه ، حتى أمر بالقبض على كاتب الشيخ ، محمد بن أحمد بن النجيل ، وأخويه أبى بكر ويحيى ، واستصفاء أموالهم ، وذلك بتهمة تآمرهم على سلامة الدولة ، ثم أمر بعد ذلك بإعدام ابن النجيل وأخيه يحيى [1] .

وتوفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس فى مستهل شهر محرم سنة ٦١٨ هـ (٨ مارس سنة ١٢٢٠ م) ، بعد أن لبث نيفاً وأربعة عشر عاما يضطلع بأعباء منصبه الشاقة ، وكان الشيخ بلاريب أقدر الحكام الذين ولوا حكم إفريقية ، وأمضاهم عزماً ، وأوفرهم شجاعة وجرأة ، وكان لعزمه وشجاعته أكبر الأثر فى تحطيم ثورة بنى غانية ، وإنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، وحماية جناح الدولة الموحدية الشمالى الشرقى من الانهيار مدى حين .

وهنا تختلف الرواية مرة أخرى فى أمر من ولى حكم إفريقية عقب وفاة الشيخ ، فيقول لنا ابن عذارى متفقاً مع روايته الأولى ، إن ابنه أبا محمد عبد الله هو الذى خلفه فى منصبه ، وذلك تحت إشراف السيد أبى العلاء إدريس [2] ، وهناك قول آخر ، يتمشى مع الرواية الثانية ، وهو أن الذى خلفه فى منصبه هو السيد أبو العلاء إدريس ، معيناً من قبل الخليفة يوسف المستنصر.

وعلى أى حال فإن وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد ، قد تمخضت عن نتيجتين فى منتهى الأهمية ، الأولى تحرك ابن غانية من جديد ، والثانية تحول مجرى الحكم فى إفريقية .

— ٢ —

وذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، ما كاد يعلم بوفاة خصمه العتيد ، الشيخ أبى محمد ، حتى تنفس الصعداء ، وأخذ فى التحرك من منفاه السحيق فى الصحراء ، وكان قد لزم ودّان وأحوازها ، منذ هزائمه الفادحة على يد الشيخ أبى محمد ، ولبث هناك زهاء تسعة أعوام يرقب الفرص ، فلما لاحت الفرصة بوفاة الشيخ ، سار فى الصحراء نحو الشمال ، وعاث فى بلاد الجريد ، فنهض السيد أبو العلاء فى جيش من الموحدين ، وسار إلى قابس ، ونزل بها بقصر العروسين ، حتى لاتسقط فى يد الثائر ، وبعث ولده السيد أبا زيد فى قوة إلى درج وغدامس ، وبعث قوة أخرى إلى ودان لرد ابن غانية ، ومحاصرته . ولكن العرب من أنصار

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania, p. 164

(٢) البيان المغرب ص ٢٧٤ .

ابن غانية وحلفائه اعترضوا سبيل الموحدين ، وفر ابن غانية فى جمعه من الملثمين والأعراب إلى جهة الزاب ، فسار السيد أبو زيد فى أثره ، ونجح ابن غانية فى الوصول إلى الشمال والاستيلاء على بلدة بسكرة جنوبى قسنطينة ، وتخريبها ونهبها ، فهاجمه السيد أبو زيد ، وانتزعها منه ، وفر ابن غانية فى حشوده من العرب والبربر وسار شرقاً حتى اقترب من أحواز تونس ، فأتبعه السيد أبو زيد فى عسكر الموحدين والعرب الموالين ، ولاسيما عرب هوارة ، ونشبت بين الفريقين فى مكان يسمى مجدول قتال مرير ، وهزم فيه ابن غانية ، وقتل كثير من جنده ، وامتلأت أيدى الموحدين من غنائمهم . وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٣ م) . وفر ابن غانية فى فلوله نحو الجنوب مرة أخرى ، وأخذ يتجول بين الواحات ، وهو يحشد الأنصار ، وينتهب الأموال أينما استطاع ، ويرقب الفرص السانحة[١].

وعلم السيد أبو زيد على أثر الموقعة بوفاة أبيه السيد أبى العلاء ، فارتد إلى تونس ليشغل منصبه فى الإمارة ، ووفقاً لهذه الرواية يكون تعيين السيد أبى زيد لولاية إفريقية ، قد جاء من قبل الخليفة أبى محمد عبد الواحد المخلوع ، الذى تولى الخلافة ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ . على أن ابن عذارى ، يقول لنا متفقاً مع روايته أن ولاية السيد أبى زيد الإمارة ، كانت على نمط ولاية أبيه السيد أبى العلاء ، وأن الشيخ أبا محمد عبد الله بن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بقى على حاله مكان أبيه فى ولاية افريقية ، ينظر بالأخص فى تدبير الشئون وجباية الأموال . ولكن السيد أبا زيد أساء السيرة ، واشتد فى معاملة الناس ، خلافاً لما كان عليه الشيخ أبى محمد عبد الواحد وولده عبد الله . فسخط عليه الناس وتمنوا زوال حكمه ، واستمر السيد فى منصبه حتى توفى الخليفة أبومحمد عبد الواحد وتولى الخليفة العادل ، فأقال السيد أبا زيد من منصبه ، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ٦٢٣ هـ ، وأرسل إلى إفريقية عمه السيد أبا عمران موسى بن ابراهيم بن اسماعيل الحفصى ليتولى الحكم بها حتى يصل إليها حاكمها الأصلى الذى اختاره الخليفة ، وهو أبو محمد عبد الله ابن الشيخ محمد عبد الواحد . وبعد ذلك ببضعة أشهر سار أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زكريا يحيى إلى إفريقية ، وتوقف أبومحمد قليلا فى بجاية ، ومعه أخوه أبو عبد الله اللحيانى[٢] ، وبعث أخاه أبا زكريا إلى تونس

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و١٩٧ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ وكذلك :
A. Bel : ibid; p. 167.

(٢) وقد عرف بهذا الاسم لطول لحيته (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨١) .

ليمهد لاستقباله . ثم سار إلى تونس ، ودخلها فى اليوم السابع عشر من ذى القعدة سنة ٦٣٣هـ (نوفمبر سنة ١٢٢٥ م) فى مواكب حافلة ، واستقر فى منصبه دون منازع ، وندب الشيخ أبومحمد عبد الله ، أخاه الأمير أبا زكريا يحيى لحكم قابس والحمة ، وأخاه الأمير أبا ابراهيم لحكم توزر ونفطة ، وسائر بلاد قسطيلة[1] ، وتمكن بذلك سلطان بنى حفص بإفريقية . وكانت سيرة الشيخ أبى محمد ، وحكمه العادل ، وسياسته اللينة الرفيقة ، مما يسبغ على أسرته وبنيه من بعده ، حسن الذكرى ويحبوها بالمحبة والولاء من سائر الناس .

وفى تلك الأثناء ، كان يحيى بن غانية ، وهو فى مثواه بالصحراء ، يجد فى تحصيل الأموال ، وحشد الرجال ، ويرقب الفرصة للقيام بضربة جديدة ؛ وفى أواخر سنة ٦٢٣ هـ ، سار نحو الشمال فى اتجاه منطقة قسنطينة ، ثم اجتازها بسرعة ، واقتحم بجاية ، ثم غادرها لوقته صوب تدلس ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، ثم اتجه نحو الغرب ، وغزا متيجة ، وتوغل فى منازل زناتة ، واكتسح أحياءها ، وانتهب ثرواتها ، وحاول شيخ مغراوة ، عبد الرحمن بن منديل ، وهو من أولياء الموحدين ، أن يقف فى سبيله ، فهزمه ابن غانية وأسره ثم قتله ، ثم اتجه ابن غانية بعد ذلك شمالا واقتحم مليانة ، ثم استولى على الجزائر وصلب جثة ابن منديل على سورها . وخرج الشيخ أبومحمد عبد الله من تونس على عجل لمطاردة ابن غانية ، ووضع حد لعيثه ، وذلك فى أواسط سنة ٦٢٤هـ ؛ فسار أولا إلى أبة ، وهاجم منازل هوّارة ، وكانت ضالعه مع ابن غانية ، وقبض على زعمائها وأرسلهم مصفدين إلى المهدية . ثم سار فى أثر ابن غانية ، ودخل بجاية ، وأصلح شئونها ، وقصد بعد ذلك إلى مليانة ، وكان ابن غانية فى تلك الأثناء ، قد غادر الجزائر بعد اقتحامها ، وسار نحو الجنوب الغربى ، واستمر فى مسيره حتى وصل إلى أحواز سجلماسة ، فترك الشيخ أبومحمد مطاردته ، وعاد إلى تونس ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ[2] .

ومن ذلك الحين ، تغيض أخبار يحيى بن اسحاق بن غانية . وكان إلى ذلك الحين ، قد قطع أربعين عاما فى متابعة ذلك الصراع المرير ، الذى بدأه أخوه علىّ ضد الموحدين ، فى إفريقية ، والذى اتُخذت إفريقية ، لموقعها من الجزائر

---

(١) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٥ ، والبيان المغرب ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 174

الشرقية مثوى بنى غانية ، ونأيها عن مركز الحكومة الموحدية، وثرواتها الطائلة ، مسرحاً له ، والذى كانت تحدوه فى البداية مثل سياسية وقومية ، ثم انحدر بعد طول النضال ، إلى غزوات خاطفة ، ومعارك ناهبة . وقد وصل ابن غانية إلى ذروة سلطانه، بالاستيلاء على سائر قواعد إفريقية بما فيها العاصمة تونس، خلا بجاية ، ثم قلب له الحظ ظهر المجن ، فانتزع الموحدون الجزائر الشرقية ، مثوى أسرته وموئل سلطانها ، ومستودع مواردها ، وذلك فى سنة ٦٠٠ هـ ، ثم لقى هزيمته الحاسمة فى موقعة جبل تاجرا فى سنة ٦٠٢ هـ . ومع ذلك ، وبالرغم من تمزق حشوده ، وتضاءل موارده ، فإنه لم يخب له عزم ، ولم تضعف له إرادة ، فاستمر فى نضاله اليائس أعواماً طويلة أخرى ، ولكنه كان نضال العصبة المغامرة، والانتقام المضطرم . وكان من الواضح أن الحلم الذى كان يجيش به بنو غانية ، وهو العمل على إحياء الإمبراطورية المرابطية فى إفريقية ، وفوق أنقاض سلطان الإمبراطورية الموحدية ، قد تحطم وتلاشى ؛ بيد أنه لم يك شك أيضاً فى أن هذه الضربات المتوالية ، التى أنزلها على بن إسحاق بن غانية ، وأخوه يحيى ، مدى نصف قرن بسلطان الموحدين وجيوشهم فى إفريقية ، قد هزت من أركان الدولة الموحدية وساعدت على تفككها ، وتبديد مواردها وقواها ، وكانت عاملا من أهم العوامل التى اجتمعت فى تلك الفترة ، لتمهد إلى انهيارها وسقوطها .

وقد عاش يحيى بن غانية أعوامه الأخيرة بين قليل من الصحب والجند ، حياة شريد لايستقر له مقام ، بيد أنه لم ينقطع عن الإغارة على تخوم إفريقية كلما استطاع ، ولم ينقطع أمير افريقية ، وكان عندئذ أبازكريا يحيى عن مطاردته ورده عن أراضيه ، وأقام فوق ذلك فى مختلف الحدود مراكز ثابتة ، مزودة بالجند للسهر على حركات الثائر ، وإخمادها فى بدايتها ، ومع ذلك فإن ابن غانية كان دائم النشاط والحركة ، دائم الإغارة والعيث ، حتى أنه كان من وقت لآخر يصل فى غاراته شمالا حتى وادى شليف ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٦٢٦ هـ . بيد أن هذه لم تكن سوى النفثات الأخيرة لثورة عاتية ، ولم يكن يلتف حوله عندئذ سوى القلائل من صحبه المخلصين ، ولم يكن له أهل ولاولد ، بعد أن مات أخوته وولداه فى ساحة الحرب ، سوى عدد من البنات ، وكان فى هذه الأعوام الأخيرة ، يشهد انحلال الدولة الموحدية التى نذر نفسه لكفاحها ، ولكنه كان يرى فى نفس الوقت أنه لم يجن من صراعه وصراع أسرته

الذى استطال خمسين عاما ، أية نتائج مادية، وأن علم الدولة المرابطية الذى حاول أن يرفعه سوف يخبو بوفاته إلى الأبد . ثم كانت الخاتمة النهائية ، وتوفى يحيى بن اسحاق بن غانية ، وهو فى محلته على ضفاف نهر شليف على مقربة من مليانة ، وذلك فى سنة ٦٣١هـ أو سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٤م) ودفن هنالك، ثم عفى أثر مدفنه . قال ابن خلدون معلقاً على موته : « وانقض أمر الملثمين من مسوفة ولمتونة من جميع بلاد إفريقية ، والمغرب والأندلس ، بمهلكه ، وذهب ملك صنهاجة ، من الأرض، بذهاب ملكه وانقطاع أمره » . وقيل إن يحيى بعث قبيل وفاته ببناته إلى الأمير أبى زكريا ليعشن فى كنفه ، فأكبر الأمير الحفصى حسن ظنه ، وأحسن كفالتهن ، وابتنى لصونهن داراً خاصة بحضرة تونس ، عرفت بقصر البنات ، وأقمن بها فى عيش رغد ، محروسات مشمولات بأقصى رعاية ، حتى توفين عانسات معمرات ، ولم يقبلن الزواج من أحد[1] .

— ٣ —

وهنا نعطف على ذكر الحدث الثانى الذى ترتب على فاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى افريقية، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦١٨هـ .

وقد رأينا فيما تقدم أن الذى خلف الشيخ أبا محمد فى ولاية إفريقية ، هو ولده أبو محمد عبد الله ، وذلك على خلاف فى تاريخ هذه الولاية وكيفية نوعها ، مما سبق لنا تفصيله ، وعلى أى فقد كان أبو محمد عبد الله قائماً فى ولاية إفريقية ، مذ حلَّ بتونس فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣هـ ، وكان الذى قلده ولايتها وفقاً لذلك ، هو الخليفة العادل .

ولم تمض عدة أشهر على ذلك ، حتى وقع مصرع الخليفة العادل، بعد مصرع سلفه الخليفة أبى محمد عبد الواحد، وجلوس الخليفة الفتى يحيى المعتصم على كرسى الخلافة ، مكانه فى شوال سنة ٦٢٤ . ثم تفاقم اضطراب أمر الخلافة الموحدية ، بقيام السيد أبى العلى بن المنصور بالأندلس، والدعوة لنفسه باسم المأمون، وجوازه إلى العدوة ، واستيلائه على كرسى الخلافة من يد ابن أخيه يحيى المعتصم، وقتله لأشياخ الموحدين ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ . وقد كان لذلك كله أعمق وقع فى إفريقية . ولما بعث المأمون إلى أبى محمد عبد الله والى إفريقية ليأخذ له البيعة ،

---

(١) نقلنا هذه التفاصيل الأخيرة عن وفاة يحيى وبناته عن ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 186 .

توقف عن عقدها ، فكتب المأمون عندئذ إلى أبي زكريا يحيى أخي السيد أبي محمد ، وكان يومئذ حاكماً لقابس ، بالولاية على إفريقية ، وعزل أخيه السيد أبي محمد ، فبادر أبوزكريا بعقد البيعة للمأمون ، ووقعت الوحشة بذلك بين الأخوين .

ذلك أنه لما علم أبومحمد عبد الله ، بما كان من أخيه أبي زكريا ، خرج في عسكره من تونس ، فلما وصل إلى القيروان جمع أشياخ الموحدين ونبأهم بما اعتزم من قتال أخيه ، فأنكر الأشياخ عليه ذلك ، واعتذروا إليه عن تنفيذ فكرته ، وذلك لحبهم للأمير أبي زكريا وتقدير صفاته ، فأصر أبومحمد على رأيه ونهرهم ، فأغلظوا له القول ، وكادوا يعتدون عليه . وبعث الأشياخ إلى أبي زكريا ينبئونه بما حدث ، ويستدعونه إليهم ، فقدم أبوزكريا على الأثر ، وتسلم قيادة العسكر ، وأمر بالقبض على أخيه أبي محمد ، وحمل محروساً إلى تونس ، وهناك اعتقل حيناً بقصر ابن فاخر . ودخل الأمير أبوزكريا تونس في اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة ٦٢٥هـ ، وأمر في الحال بالقبض على أبي عمر كاتب أخيه ، فقبض عليه وعذب وقتل ، ثم بعث بأخيه أبي محمد إلى المغرب عن طريق البحر . وتولى أبوزكريا حكم إفريقية باسم الخليفة المأمون . ولكن لم يمض قليل على ذلك حتى بعث المأمون من قبله بعض عمال (حكام) إلى تونس ، فثار لذلك أبو زكريا ، وصرفهم ، وخلع طاعة المأمون ، وأمر بالخطبة ليحيى المعتصم . وكانت هذه أول خطوة في استقلال إفريقية[1] .

بيد ابن عذارى يقدم إلينا عن نزاع الأخوين ، واستيلاء أبي زكريا على الحكم ، رواية أخرى ، خلاصتها أنه لما تفاقم اضطراب الأحوال في البلاط الموحدي ، وتوالى قتل أشياخ الموحدين ، جمع الأمير أبو زكريا أشياخ الموحدين بتونس ، وشرح لهم الأحوال ، وفاوض أخاه أبا محمد عبد الله في وجوب خلع طاعة الخلافة المؤمنية ، والاستقلال بالحكم ، فأبى عبد الله كل الإباء ، واعتقل أخاه أبا زكريا بداره ، ففر أبو زكريا من معتقله ، وسار إلى قابس ، وهنالك تفاوض مع شيخها ابن يكى ، فوافقه على مشروعه ، ثم خاطبه الموحدون من تونس ، باجتماع كلمتهم على اختياره ، واتفقوا معه على التنفيذ ، متى خرج أخوه عبد الله برسم الحركة إلى القيروان . فلما خرج عبد الله بقواته ، ونزل بظاهر تونس ، طالبه الجند ببركاتهم ، فتلكأ في الإجابة ، وكان أبو زكريا قد قدم في صحبه ، ونزل على مقربة من محلة أخيه ، فبادر الجند إلى خباء أخيه ، ورموه بالحجارة حتى

(١) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٧ .

كاد يهلك ، ففر أمامهم ، وعفّ الجند عن قتله إكراماً لأخيه، وقصد عبد الله إلى مراكش ، وفى الحال جلس الأمير أبوزكريا مجلس الأمراء ، وبايعه أشياخ الموحدين ، ثم دخل تونس وبويع بها بيعة الخلفاء ، واختار وزراءه وكتابه . وأبقى أبو زكريا فى البداية ذكر الإمام المهدى ، فى الخطبة وغيرها من المراسيم(١).

وتمت هذه الخطوة الأولى فى استقلال إفريقية فى أول سنة ٦٢٧ﻫ (نوفمبر ١٢٢٩ م) وأعلن أبوزكريا يحيى خلع طاعة بنى عبدالمؤمن ، وتسمى أولا بالأمير وجعل ذلك اللقب فى صدر كتبه . ولما كانت قسنطينة وبجاية ، مازالتا بيد الحكام الموحدين ، وكان أبوزكريا ، يرمى إلى تحقيق استقلال إفريقية بسائر جهاتها وأراضيها ، فقد بادر فى العام التالى (٦٢٨ﻫ) بالزحف على قسنطينة ، وحاصرها أياما ، وانتهى الأمر بأن مُكن من دخولها، فدخلها وقبض على واليها الموحدى، وولى عليها عاملا من قبله، ثم سار إلى بجاية فافتتحها، وقبض على واليها الموحدى أبى زكريا عمران ، وبعث بالواليين المقبوض عليهما إلى المهدية ، وبعث بأهلهما وأولادهما فى البحر إلى الأندلس ، وقبض كذلك على عدة من أشياخ الموحدين والعرب الموالين لهم ، وأرسلهم أيضاً إلى المهدية ، فزجوا إلى مطبقها ، واستكملت بذلك سيادة بنى حفص على سائر رقعة الوطن الإفريقى . وصحب الأمير أبا زكريا أخوه أبوعبدالله اللحيانى ، وكان متولياً أشغال بجاية . أما أخوه أبو محمد عبدالله والى إفريقية السابق ، فقد لقى مصرعه بمراكش ، وكان قد لجأ إليها .

وفى يوم الجمعة السابع من صفر سنة ٦٣٣ ﻫ دعى فى الخطبة للأمير أبى زكريا بعد ذكر الإمام ، وبويع للمرة الثانية بيعة تامة شاملة ، لم يتخلف فيها أحد ، ولكنه استمر مقتصراً على لقب الأمير ، ولم يتسم بأمير المؤمنين(٢).

وهكذا قامت بإفريقية ، بأحد أقاليم الدولة الموحدية الكبرى ، دولة جديدة، هى الدولة الحفصية، نسبة للأسرة التى أنشأتها وحكمتها ، وهم بنو حفص، أبناء الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، وقد كان أبوحفص عمر بن يحيى من أصحاب المهدى العشرة ، وكان زعيم هنتاتة أقوى قبائل مصمودة، وهو الذى مهد لخلافة عبد المؤمن عقب وفاة المهدى ، وكان له أعظم شأن وأقوى نفوذ لدى الخلافة الموحدية ، وكانت وفاته بعد حياة حافلة بجلائل الأمور فى سنة

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص٢٧٤، ٢٧٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٢٠ و٣٢١ .
(٢) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٨، والبيان المغرب ص ٢٧٦ .

٥٧١ ﻫ[1]، وكان لولده الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وهو أحد أبناء عدة تولوا جميعاً رفيع المناصب بالمغرب والأندلس، مثل مقامه ونفوذه لدى البلاط الموحدى، وكان يعتبر كبير أشياخ الموحدين ، وقد رأينا ماكان من إخماده لحركة ابن غانية ، بعد أن كادت تقضى على سيادة الموحدين بإفريقية، وما كان من اضطلاعه بولاية إفريقية ، فى أحرج الظروف وأدقها ، وماوفق إليه بعزمه وحزمه وقوة نفسه ، من إنقاذها من عيث ابن غانية وحلفائه العرب ، ومن توطيد أمنها وسلامها .

وقد كان انفصال إفريقية واستقلالها على هذا النحو ، ضربة جديدة للدولة الموحدية . وكان عاملا جديداً فى إضعاف قواها ومواردها . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى مراكش . وكان البلاط الموحدى فى هذا الوقت ذاته مشغولاً ، بما يدور حول كرسى الخلافة ، من حروب ومنافسات ، ومايقوم به بنو مرين من استطالة ، وعيث مستمر ، فى أطراف المغرب ، ومايضطرم من ثورات محلية فى بعض القواعد الهامة مثل مكناسة وسبتة ، ولم تكن لديه أية قوة أو وسيلة يستطيع أن يحاول بها الوقوف فى سبيل هذا الحدث المحتوم .

— ٤ —

تركنا أخبار الخليفة المأمون ، وقد هزم منافسه وابن أخيه يحيى المعتصم مرة أخرى ، بفحص واونزرت على مقربة من مراكش، فى شهر رمضان سنة ٦٢٧ﻫ ؛ ثم أصدر مرسومه بعد ذلك بمحو اسم المهدى ابن تومرت ورسومه . وفى العام التالى، سنة ٦٢٨ ﻫ ، وجّه المأمون كتبه إلى سائر بلاد الموحدين بالمغرب ،والأندلس ، يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحض على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والصدقات ، والنهى عن شرب الخمر والمسكرات ، والتحريض على الدعاية . وقد أورد لنا ابن الخطيب فصولا من كتابه المشار إليه ننقل منها الفقرة الآتية :

« وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهم وأولى ، والتهمم بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها ، أحق أن يقدم وأحرى وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع وندع ، ونتتبع السنن المشروعة ، ونذر البدع . ولنا أن لاندخر عنها نصيحة ، ولا نغبنها أداة من الأدوات مريحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع »[2].

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٣٢١ .
(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢١ ، و٤٢٢ .

وقد صدر مثل هذا الكتاب بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والحث على اتباع أحكام الشريعة ، ونبذ البدع ، عن معظم الخلفاء الموحدين ، حسبما أشرنا إليه فى مواضعه .

هذا وبينما المأمون مشغول على هذا النحو ، بإصلاحاته المذهبية والدينية ، إذ وقع انفصام جديد فى الخلافة الموحدية ، وظهر مدّع جديد للخلافة ، هو السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور أخو المأمون . وذلك أن المأمون كان قد ولى أخاه السيد أبا موسى حكم ثغر سبتة ، ففى سنة ٦٢٩هـ ، دعا السيد أبو موسى لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالمؤيد بالله ، وفى نفس الوقت كانت قبائل فازاز ومكلاته ، قد جاهرت بالعصيان ، وعاثت فى منطقة مكناسة ، وحاصرت مكناسة ذاتها ، فحشد المأمون قواته ، وخرج من مراكش يريد تأديب القبائل الثائرة أولا ، ثم يسير إلى سبتة ثانيا ، وكان عندئذ قد اطمأن إلى عجز ابن أخيه يحيى المعتصم عن القيام بأية محاولة جديدة ، بعد أن تركه الموحدون ،وعادوا إلى جبالهم ، وسار هو فى صحبه القليل إلى منطقة درعة وسجلماسة .

ولما أشرف المأمون بقواته الكثيفة على مكناسة ، بادرت القبائل الثائرة بالتفرق والفرار ، وعندئذ استمر فى سيره إلى سبتة ، فلما وصل إليها ضرب حولها الحصار من البر ، ولكن المدينة المحصورة لم تشعر بشىء من الضيق ، إذ كانت حرة مفتوحة من جهة البحر ، فلم تنقطع عنها الموارد . وفضلا عن ذلك فإن السيد أبا موسى ، بعث إلى ابن هود صاحب الأندلس يستنصر به ، فأمده ابن هود ببعض سفنه . ومن ثم فقد لبث المأمون على حصارها ثلاثة أشهر ، وهو يضربها بالمجانيق كل يوم، دون أن يلحقها شىء من الضيق أو تقع ثلمة فى أسوارها ، أو يهدم شىء من دورها ، وربما كان فى عزم المأمون أن يتابع هذا الحصار الفاشل حيناً آخر ، لولا أن بلغه عندئذ خبر رُوع له ، وأرغمه فى الحال على رفع الحصار ، هو وقوع مراكش فى يد يحيى المعتصم .

وما كاد المأمون يبتعد عن سبتة حتى عبر أخوه ، السيد أبو موسى إلى الأندلس . وكان ابن هود قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ، وبايعت له معظم قواعد الأندلس ، فبايعه ، ونزل له عن سبتة ، فعوضه عنها بولاية ألمرية . وبعث ابن هود إلى سبتة بحليفه ، وقائده السابق الغشتى والياً لها ، فلبث بها بضعة أشهر إلى أن أخرجه أهلها وخلعوا طاعة ابن هود ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن محمد

اليانشتى ، فاستبد بحكمها ، وتسمى بالموفق بالله ، وذلك فى سنة ٦٣٠ هـ[1] .

وكان يحيى المعتصم قد انتهز غيبة المأمون عن الحضرة ، فجمع حشوده على عجل ، وانضم إليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرمون بن عيسى ، وأبوسعيد بن وانودين شيخ هنتانة ، وسار إلى مراكش ، واقتحمها عنوة، وكانت بلا دفاع ، ودخل القصر ، وجمع سائر مافيه من الأموال والذخائر ، وبعث بها إلى الجبل ، وقتل وسبى الكثيرين ولاسيما من اليهود ، وأحرق الكنيسة ، وقتل من بها من القسس والنصارى . وبلغت هذه الأنباء إلى المأمون وهو على حصارسبتة ، فرفع الحصار من فوره ، وارتد فى قواته منصرفاً صوب مراكش ، وذلك فى أوائل شهر ذى القعدة سنة ٦٢٩هـ ، وهو يعتزم أن ينكل بيحى وصحبه ، وأقسم لحلفائه النصارى الذين معه ، وقد اضطرموا سخطاً لما حل بكنيستهم ومواطنيهم ، أن يطلقهم على مراكش ثلاثة أيام ينتصفوا فيها لأنفسهم. ولما وصل المأمون إلى وادى العبيد ، الفرع الشمالى لوادى أم الربيع ، مرض وتوفى فجأة ، وذلك فى آخر شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ ، فكتمت زوجه حبابة الرومية ، وهى أم ولده الأكبر وولى عهده الرشيد ، وفاته ، ولم يقف عليها سوى القادة وأشياخ الخُلط وبعض القرابة ، ولم يقف عليها أحد من عامة الجيش . وفى اليوم التالى وهو مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢م)، اجتمع الأشياخ والقادة واتفقوا على بيعة ولد المأمون أبى محمد عبد الواحد الرشيد بالخلافة ، مبايعة سرية خاصة، وكان فتى فى الرابعةعشرة من عمره . وأذيع فى المحلة أن أمير المؤمنين مريض ، لايستطيع الركوب ولا الظهور ، وحمل المأمون فى تابوت وضع فى هودج ، وسارت الجيوش أمامه وهى على أهبها للقاء يحيى المعتصم[2]،

ولما وصلت حشود المأمون إلى مقربة من مراكش ، خرج إليها يحيى المعتصم فى قواته من الموحدين وعرب سفيان وغيرهم ، فنشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وقتل معظم جنده ، وتفرق الباقون فى مختلف الأنحاء . ولكن قوات المأمون ، حينما أشرفت على مراكش ، وعلى رأسها ولده الرشيد ، ألفت الحاضرة وقد استعدت للدفاع . وكانواليها من قبل يحيى ، أبوسعيد بن وانودين قد تخلى عن

---

(١) البيان المغرب ص ٢٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٨٠ — ٢٨٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ و٢٥٤، وروض القرطاس ص ١٦٩ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٥ .

عن منصبه ، واختار الناس مكانه السيد أبا الفضل جعفر بن السيد أبي سعيد ، وكان أهل مراكش قد ترامى إليهم ما أعلنه المأمون قبل وفاته ، من أنه سوف يبيح المدينة للنصارى ، انتقاماً من أهلها ، لما أبدوه من استسلامهم ليحيى ، وتمكينه من دخولها ، ومن ثم فإنهم لما رأوا مقدم جيش المأمون ، ازدحموا فوق الأسوار ، واستعدوا للدفاع ، فعندئذ أصدر الرشيد لأهل المدينة ظهيراً بتأمينهم والعفو عنهم جميعاً ، وعمن كان معهم من الموحدين ، ورفع المغارم عنهم ، وضمن ظهيره كثيراً من الوعود الطيبة ، وحمل هذا الظهير القاضي أبو محمد عبد الحق ، ومعه جملة من الناس ، واقتربوا من السور من جهة باب السادة . وأعلن للناس وفاة المأمون وولاية ابنه الرشيد ، وهزيمة يحيى ، وعرفهم بما يتضمنه الظهير من تأمينهم والإنعام عليهم ، فاطمأن الناس وسكنت نفوسهم ، وأذنوا له ولرفاقه بالدخول إلى المدينة ، ثم سار معه واليها السيد أبو الفضل والوجوه إلى القصر الخليفي ، وقرئ الظهير على الكافة ، فعم البشر والاطمئنان ، وكتب الأشياخ والوجوه إلى الخليفة بالسمع والطاعة ، وعاد القاضي وأصحابه ومعهم وفد من الكبراء للسلام على الخليفة واستقباله . وكانت حبابة أم الخليفة قد تفاهمت مع القواد النصارى ، ودفعت لهم مقابل فيء المدينة التي وعدوا باستباحتها ، وافتدائها من الاعتداء والنهب ، مبالغ طائلة ، ويقال إن الرشيد دفع لهم مقابل ذلك خمسمائة ألف دينار[1] ، وهكذا أنقذ الموقف ، ومهد كل شيء لدخول الخليفة الفتى إلى حاضرته .

— ٥ —

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن خلافة الرشيد ، أن نذكر كلمة عن الخليفة المأمون ، وعن صفاته وخلاله .

كان أبو العُلى (أو أبو العلاء) من أنبه الخلفاء الموحدين وأقدرهم ، وكان يتسم بكثير من صفات أبيه العظيم الخليفة يعقوب المنصور ، ولو أتاح له القدر فسحة من الوقت ، فربما كان من المرجح أن يعمل الكثير لإنقاذ الدولة الموحدية من محنتها ، ولتأخير انحلالها وسقوطها ، ولكنه أنفق أعوام خلافته الخمسة في منازعات وحروب متوالية ، لم يفق منها حتى أدركه الموت . وكانت سقطته الجوهرية ، هي التجاؤه إلى النصارى لتحقيق مشروعه في انتزاع الخلافة . ولكنها

(١) البيان المغرب ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٠ .

كانت سقطة العصر وظروفه المؤلمة ، وقد تردى فيها من قبله ومن بعده كثير من زعماء الأندلس .

وكان مولد المأمون بمدينة مالقة سنة ٥٨١ هـ(١١٨٥ م) ، وأمه حرة هى صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش ، وكان المأمون صنو أبيه المنصور فى صفاته العلمية . فقد كان فقيهاً حافظاً ، ضابطاً للرواية ، متمكناً من علوم الدين ، إماماً فى اللغة ، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير ، كاتباً بليغاً ، متين البيان ، وشاعراً محسناً ، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخارى ، وكتاب الموطأ ، وسنن أبى داود . وكان فوق ذلك حاكماً مقتدراً ، بارعاً فى الإدارة ومعالجة الشئون ، ذكياً وافر الهمة والعزم . ويجمل ابن الخطيب صفاته فى قوله : « كان رحمه الله شهماً ، شجاعاً جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوى الشكيمة ، لبيبا ، كاتباً أديباً ،فصيحاً ، بليغاً ، أبيا ، جواداً ، حازماً »[1] . بيد أنه كان فى نفس الوقت صارماً ، سفاكاً للدماء . وقد رأينا كيف أسرف فى استباحة دماء خصومه وقضى عليهم جميعاً .

وكان المأمون كاتباً جزلا ، يشغف بتسطير كتبه بنفسه ، بالرغم من وجود عدة من أئمة البلاغة بين كتابه . وقد نقل إلينا ابن عذارى وابن الخطيب كتابه ، الذى كتبه بخطه إلى أهل أنلوجر بالأندلس ، وفيه ينحى باللائمة عليهم ، ويتوعدهم بالنكال لجنوحهم إلى الاستسلام للنصارى ، وهو ينطق بروعة أسلوبه ، وإليك بعض ما جاء فيه :

« إلى الجماعة والكافة من أهل . . ، وقاهم الله عثرات الألسنة ، وأرشدهم إلى محو السيئة بالحسنة . أما بعد فقد وصل من قبلكم كتابكم الذى جرد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، أتعتذرون من المحال ، بضعف الحال ، وقلة الرجال ، إذاً نلحقكم بربات الحجال ، كأنا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء منقلبكم وأحوالكم ، لاجرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً ، وشممتم ريح الموت ورداً وصدراً ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب ، وأن القضاء قد غص بالتفاف القنا ، واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شىء ، فتخيلتموه طلائع الكتائب ، تباً لهمتكم المنحطة ، وشيمتكم الراضية بأدون خطة . أحين

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٨ .

ندبتم إلى حماية إخوانكم ، والذب عن كلمة إيمانكم ، نسقتم الأقوال وهي مكنوبة ، ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة ، لقد آن لكم أن تبدلوا جل الحرصان ، إلى مغازل النسوان ، وما لكم ولصهوات الخيول ، وإنما على الغانيات جر الذيول ، أتظهرون العناد تخريصاً ، بل تصريحاً وتلويحاً ، ونظن أن لايجمع لكم شتاً ولايدنى منكم نزوحاً . أين المفر وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث لايتركك ، فأزيلوا هذه النزعة النفاقية من خواطركم ، قبل أن نمحوا بالسيف أقوالكم ، وأفعالكم ، ونستبدل قوماً غيركم ، ثم لايكونوا أمثالكم »[1] .

ومن نظمه قوله عند ظفره بخصومه الناكثين بيعته ، وقتلهم وتعليق رؤوسهم :

أهل الحرابة والفساد من الورى ... يعزون فى التشبيه بالذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره ... بالقطع والتعليق فى الأشجار
ذكارهم ذكرى إذا ما أبصرو ... فوق الجذوع وفى ذرى الأسوار
لو عم عفو الله سائر خلقه ... ماكان أكثرهم من أهل النار

ووزر للمأمون الشيخ أبو زكريا بن أبي الغمر ، وكتب له عدة من أعلام البلاغة فى ذلك العصر ، مهم أبو زكريا الفازازى ، وأبو المطرّف بن عميرة المخزومى ، قطب البلاغة بالأندلس يومئذ ، وأبو الحسن الرُّعينى ، وأبو عبد الله بن عيّاش ، وأبو العباس بن عمران ، وغيرهم[2].

وأما عن شخصه فقد كان المأمون أبيض اللون ، معتدل القامة ، جميل المحيا ، أكحل العينين ، فصيح اللسان ، حسن الصوت والتلاوة[3] .

وترك المأمون عدة من البنين هم ، أبو محمد عبد الواحد الرشيد ولى عهده والخليفة من بعده ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وعثمان ، وأبو الحسن على ، الملقب بالسعيد ، والوالى بعد أخيه الرشيد ، وترك كذلك عدة من البنات ، وأمهات الجميع روميات وسريات مغربيات[4].

---

(١) وردت هذه الرسالة فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٦ و٢٦٧ ، وفى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٢ ، و٤٢٣ .

(٢) البيان المغرب ش ٢٨٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٢٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٦ .

(٤) البيان المغرب ص٢٨٢ و ٢٨٣ .

الكتاب التاسع

انهيار الأندلس

وسقوط قواعدها الكبرى

الفصل الأول

الثورة فى مرسية وبلنسية

ونذر الانهيار الأولى

صدى انحلال الخلافة الموحدية فى الأندلس . اضطرامها من جديد بالفورات القومية . محمد بن هود أول زعماء هذه الحركة . ظهوره فى أحواز مرسية . ماقيل عن طريقة ظهوره . زحفه على مرسية وهزيمته لواليها الموحدى . دخوله مرسية ومعه الراية السوداء . دعاؤه للخليفة العباسى وتلقبه بأمير المسلمين . فكرته فى الانضواء تحت لواء الخلافة العباسية . دخول عدة من القواعد فى طاعته . نهوض المأمون من إشبيلية لقتاله . ما يقال عن اللقاء بين الفريقين . اعتراف إشبيلية بطاعة ابن هود . صدى الثورة فى بلنسية . السيد أبو زيد والى بلنسية . أبو جميل زيان سليل آل مردنيش . آل مردنيش ومركزهم فى الشرق . وزارة أبى جميل زيان للسيد أبى زيد. قيام الثورة فى بلنسية . اختيار أهلها لرياسة زيان . الوحشة بينه وبين السيد أبى زيد . مغادرة السيد أبى زيد لبلنسية . دخول زيان بلنسية وعقده البيعة لنفسه . دعاؤه للخليفة العباسى . النزاع بينه وبين ابن هود . امتناعه ببلنسية . الخوف من عواقب الفتنة . دعوة إلى الاتحاد . إلتجاء السيد أبى زيد إلى النصارى . مرافقة كاتبه ابن الأبار له . مسير السيد إلى ملك أراجون . المعاهدة التى عقدها معه . تعهده بتسليم عدد من الحصون . تنازله عن سائر حقوقه الإقليمية . اعتناقه النصرانية . تأييد الرواية الإسلامية لهذه الواقعة . عودة ابن الأبار إلى بلنسية . إلتحاقه بخدمة أميرها زيان . ضعف الأندلس . توثب الملوك النصارى لمهاجمتها . غزو ملك ليون لشمالى منطقة الغرب . محاصرته لماردة . مسير ابن هود لمدافعته . هزيمته وارتداده . استيلاء الليونيين على ماردة وبطليوس . توقف ابن هود بإشبيلية . مصرع ولدى ابن وزير . غزو فرناندو الثالث للأندلس الوسطى . محاصرته لمدينة جيان . فشل الحصار وانسحاب النصارى . غزوة ثانية للقشتاليين . فرناندو الثالث يستأنف الغزو . محاصرته لأبدة واستيلاؤه عليها . عقد الهدنة بين ابن هود وفرناندو . الجزائر الشرقية تحت حكم الموحدين . مقدمات غزو النصارى للجزائر . تطلع الدول النصرانية إلى افتتاحها . اهتمام ملك أراجون الخاص بذلك . خايمى الأول واستعداد أراجون لهذا المشروع . خروج أسطول الغزو النصرانى . استعداد أبى يحيى حاكم الجزائر للمقاومة . التآمر والنزاع فى ميورقة . نزول النصارى بأرض الجزيرة . القتال بينهم وبين المسلمين . محاصرة النصارى لمدينة ميورقة . مفاوضة ابن يحيى للنصارى . إصرار النصارى على التسليم . اقتحامهم للمدينة . دفاع المسلمين اليائس . هزيمتهم وتمزقهم . المذبحة الرائعة . دخول الملك خايمى المدينة . مقاومة المسلمين فى الجبال . تحطيم المقاومة وسقوط سائر الحصون . تقسيم ميورقة بين الفاتحين . كتاب التقسيم الخاص بذلك . استيلاء الأرجونيين على يابسة . منورقة وبقاؤها عصراً تحت حكم المسلمين . الرئيس سعيد بن حكم الأموى . حكمه لمنورقة . حزمه وكفايته . أدبه وشعره . ولده أبو عمر . افتتاح الأرجونيين لمنورقة .

لقد كان انتثار الخلافة الموحدية ، على هذا النحو ، وقيام الخليفة العادل بالأندلس ، خروجاً على الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، ثم قيام أبى العلى المأمون بالأندلس أيضاً ، خروجاً على أخيه العادل ، أعمق وقع وأبعد صدى فى الأندلس . ولم يقتصر الأمر فى ذلك ، على تصدع أركان الحكم الموحدى ، وماحدث من ثورة أبى محمد عبد الله البيّاسى ، وما ترتب عليها من الآثار المؤلمة ، بل كان أن اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لهذه الأحداث الخطيرة ، ونهضت من من سباتها الطويل ، الذى فرضة عليها الحكم الموحدى ، زهاء ثمانين عاما ، وأخذت تضطرم بسلسلة جديدة من الفورات القومية ، على غرار ماحدث فى أواخر العهد المرابطى . بيد أن هذه الفورات كانت مع الأسف ، حركات متناثرة ، متنافسة ، متخاصمة ، تفرق بينها الأطماع الخاصة ، وإن كانت تجمع بينها رابطة الغرض المشترك ، وهو تحرير الأندلس من نير الموحدين ، وحمايتها من عدوان النصارى .

قامت هذه الحركات التحريرية فى شرقى الجزيرة وفى وسطها ، فى وقت واحد ، وكانت بالرغم من طابعها الشخصى ، وهو مايتفق مع روح العصر ، حركات قومية أندلسية محضة ، وكان قيامها فى غمار المحن التى نزلت بالأندلس من جراء تخاذل السادة والحكام الموحدين ، عن تأدية واجبهم الأول فى شبه الجزيرة ، وهو الدفاع عن الأندلس وحمايتها من عدوان النصارى ، وتحول نشاطهم إلى معارك داخلية شخصية ، بل وإلى مصانعة وتسليم للنصارى . ولم تكن حال الموحدين ، وتضعضع قواهم ، وانهيار مواردهم بالمغرب ، خافية على الأمة الأندلسية ، وعلى زعمائها الذين نهضوا فى تلك الآونة العصيبة ، يحاولون إنقاذ الموقف ، بكل ما يمكن أن تسمح به الظروف والأحوال .

وكان أول من ظهر من أولئك الزعماء الأندلسيين ، زعيم من بيت عريق فى الزعامة والرياسة ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف . وكان آخر من أتينا على ذكرهم من زعماء هذا البيت ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود ، وهو الملقب بسيف الدولة وبالمستنصر بالله ، وأحياناً بالمستعين ، وقد تتبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ غادر قلعة روطة آخر مستقر لبنى هود ، بعد سقوط سرقسطة فى أيدى الأرجونيين فى سنة ٥١٢ هـ (١١١٨م) وانضوى تحت لواء ملك قشتالة

ألفونسو ريموند يس . ولما اضطرمت الأندلس بالثورة ضد المرابطين ، عمد سيف الدولة إلى خوض غمارها ، أولا فى القواعد الوسطى فى جيّان ، وقرطبة وغرناطة ، ثم فى شرق الأندلس ، فى بلنسية ومرسية ، وانتهى الأمر إلى أن قتل فى معركة البسيط ، فى شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ (فبراير سنة ١١٤٦م)[1]. ولم يرد من ذلك التاريخ ذكر لبنى هود فى حوادث الأندلس ، حتى قيام محمد بن يوسف ابن هود ، هذا المتقدم الذكر . وأما نسبته فهى وفقاً لقوله ، أنه محمد بن يوسف ابن محمد بن عبد العليم بن أحمد المستنصر ، فهوبذلك ثانى حفيد لولد سيف الدولة المتقدم ذكره .

وكان ظهور محمد بن يوسف بن هود ، فى نفس المنطقة التى كانت قبل ثمانين عاما مسرحاً لظهور جده سيف الدولة ، أعنى فى شرق الأندلس ، وفى مدينة مرسية . ولاتحدثنا الرواية بشىء عن حياته الأولى ، وكل ما تذكره من ذلك أنه كان رجلا من أصناف الجند بمرسية وغيرها[2] ، ويبدو من أقوال الرواية أنه ظهر بطريقة متواضعة جداً ، وذلك بمعاونة قائد أومقدم من رؤساء العصابات يسمى الغشّى ، وكان الغشّى هذا زعيما لعصبة من المحاورين أو « المغاورين » الذين يحاربون النصارى ، وأحيانا يقطعون الطرق على المسلمين . ونحن نضرب صفحاً عما تذكره لنا الرواية عن تنبؤات المنجمين بشأن ظهوره ، ونكتفى بأن نقول بأن ابن هود تفاهم مع الغشّى على التعاون فى العمل ، وأفضى إليه بما يخالجه من أمل فى الاستيلاء على الأمر ، وبدأ الاثنان بالإغارة على بعض أراضى النصارى المجاورة لأحواز مرسية ، فأصابا غنائم من الماشية والأسرى ، وأخذ جمع ابن هود يكثر شيئاً فشيئاً ، وتتوطد مكانته فى تلك النواحى ، وكانت أرومته الملوكية تسبغ عليه مهابة وتجذب إليه الأنصار . ولما كثر جمعه ، نهض فى رجاله إلى موضع يعرف « بالصخيرات » أو بالصخور ، وهو حصن صغير يقع على نهر شقورة على مقربة من مرسية ، وهنالك بايعه أنصاره بالإمارة[3] ، فذاع أمره ، وسارع كثيرون من الفرسان والجند بالانضمام إليه ، وكانت أحوال

---

(١) تراجع تفاصيل هذه الحوادث فى ص ٣٦٠و٣٦١ من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) الروض المعطار ص ١١٨ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٦—٢٥٧ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص٢٧٨ و٢٧٩ ، والروض المعطار ص ١١٨ .

الموحدين ، وما نشب بينهم من خلاف ، وما وقع من قتل خلفائهم بمراكش ، وما يبشر به ذلك كله من ذهاب أمرهم ، وانهيار دولتهم ، مما يذكي حماسة الجموع ، ويبعث إليها روح الأمل والاستبشار .

وكانت ولاية مرسية ، مذ غادرها السيد أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور أو العادل ، على أثر مبايعته بالخلافة ، قد أسندت إلى ابن عمه السيد أبى العباس ابن أبى عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن . وكان من الواضح أن أولئك السادة الولاة ، كانوا ينظرون إلى الموقف فى خشية وتوجس ، وأن الحاميات الضئيلة التى تركت لهم ، كانت قد خبت قواها المعنوية ، ومن ثم فإن ابن هود حينما شعر بقوة جمعه ، لم يحجم عن الزحف على مرسية . فخرج إليه السيد أبو العباس بعساكر مرسية ، فهزمه ابن هود واعتقله ، وذلك فى رجب سنة ٦٢٥هـ (يونيه سنة ١٢٢٨م) . وعلى أثر ذلك خرج إليه السيد أبو زيد والى بلنسية فى قواته ، فهزمه ابن هود أيضاً ، واستولى على محلته ، ولكنه لم يحاول دخول بلنسية . ثم عاد إلى مرسية ، ودخلها وهو يرفع راية سوداء عباسية ، وذلك بتفاهم مع قاضيها أبى الحسن على بن محمد القسطلى ، وهو قتيله فيما بعد ، وقبض على واليها السيد أبى العباس[1] . وبويع ابن هود بمرسية غرة رمضان سنة ٦٢٥هـ (٤ أغسطس ١٢٢٨ م)[2] وتسمى بأمير المسلمين ، ومعز الدين ، ودعا للخليفة العباسى المستنصر بالله ، وكتب إليه ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وسماه مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل على الله ، وهكذا كانت علامة ابن هود « توكلت على الله الواحد القهار » .

وكانت فكرة ابن هود فى الانضواء تحت راية الخلافة العباسية ، هو أن يتشح بثوب من الشرعية فى انتحال الولاية ، وفى محاربة الموحدين ، وهو قد أعلن أنه سوف يعمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين ، ومن عدوان النصارى معا ، وسوف يعمل على إحياء الشريعة وسننها ، بعد مادرست فى ظل الموحدين ،

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٤٩ . ويستفاد من رواية صاحب الروض المعطار أن هود لم يشتبك فى معركة مع والى مرسية ، السيد أبى العباس ، ولكنه دخلها بحيله رتبها القاضى المذكور ، وإيهامه للوالى ، أن ابن هود سوف ينضوى تحت لوائه ويخدمه برجاله ، فلما دخل عليه ابن هود غدر به وقبض عليه (الروض المعطار ص ١١٩) .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، وروض القرطاس ص ١٨٢ .

وسرعان ماقوى أمره ، وذاع ذكره ، وأطاعته من قواعد الشرق شاطبة ، وجزيرة شقر وما والاهما ، وأعلنت بطاعته عدة من قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية ، مثل جيان وقرطبة ، حيث قتل أهلها واليها الموحدى السيد أبا الربيع ، وأخرجوا منها الموحدين ، وكذلك أطاعته غرناطة ومالقة والمرية .

ولما ذاع أمر ابن هود ، ووقف السيد أبو العُلى بإشبيلية — وكان يومئذ قد غدا الخليفة المأمون — على ما حدث فى الشرق من هزيمة الموحدين ، وضياع مرسية ، ووصله صريخ السيد أبى زيد ، أهمه ذلك ، وكان على وشك العبور إلى العدوة ، فآثر أن يبادر إلى الشرق لحسم الأمر قبل استفحاله ، فغادر إشبيلية ، وسار فى بعض قواته صوب مرسية . وهنا تختلف الرواية حول ما حدث بينه وبين ابن هود ، فهناك قول بأنه اشتبك مع ابن هود على مقربة من مرسية فى معركة هزم فيها ابن هود ، وارتد إلى مرسية فامتنع بها ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٥ هـ ، وعاد المأمون ظافراً إلى إشبيلية ، فامتدحه الشعراء وأجزل لهم العطاء[١] . ويزيد ابن الخطيب هذه الرواية تفصيلا فيقول ، إن المأمون تحرك فى جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبى زيد والى بلنسيه[٢] ، فتحرك المأمون إليه ، واحتل غرناطة فى رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة ، وأنفذ منها كتابه إليه يشجعه ، ويعلمه بنفوذه إليه ، وانضم إليه جيش غرناطة وماوالاها ، ثم سار نحو الشرق ، فبرز ابن هود إلى لقائه ، فكان اللقاء بخارج لورّقة ، فانهزم ابن هود ، وفر إلى مرسية وعساكر الموحدين فى عقبه[٣] . وفى رواية أخرى أنه لم يقع قتال ، ولكن المأمون حاصر مرسية ، حينا فامتنعت عليه فكرّ راجعاً إلى إشبيلبة ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م)[٤].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٨ ، ويورد لنا ابن عذارى عدة من القصائد التى ألقيت بهذه المناسبة ، وكذلك ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ .

(٢) الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٠. وقد وهم ابن الخطيب هنا فى وصف السيد أبى زيد والى بلنسية بأن أخ المأمون . والحقيقة أن السيد أبا زيد وهو عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابن عبد المؤمن — إنما هو ابن عم المأمون (وهو إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن) لا أخوه . وابن الخطيب يصحح نفسه فى ترجمته للسيد أبى زيد الواردة فى الإحاطة أيضاً (مخطوط الإسكوريال ٦٧٤ الغزيرى لوحة ١٣٨ ا) فيذكر نسبته الحقيقية ، وهى كما تقدم ، عبد الرحمن بن محمد بن يوسف ابن عبد المؤمن. وذكر المقرى من جهة أخرى أن السيد أبا زيد هو عبد الرحمن بن السيد أبى عبد الله محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن . (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧) .

(٣) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٠ .

(٤) الروض المعطار ص ١٢٠ .

وما كاد أبو العُلى المأمون ، يغادر إشبيلية ليعبر البحر إلى العدوة ، حتى اجتمع أهل إشبيلية وذلك فى اليوم الثانى من عيد الأضحى سنة ٦٢٦ هـ ، وأعلنوا خلع طاعة الدولة الموحدية ، والاعتراف بطاعة ابن هود فى ظل الخلافة العباسية ، وكتب عنهم أبو بكر بن البناء إلى المتوكل ابن هود كتابا بهذا المعنى ، فأوفد إليهم ابن هود فى الحال أخاه أبا النجاء سالم الملقب عضد الدولة ليكون واليا عليهم . وحذت ماردة وبطليوس حذو إشبيلية ، فى الإعلان بطاعة ابن هود . وهكذا اتسع نطاق الدعوة الهودية وشملت أواسط الأندلس وغربها ، وأخذت الأندلس كلها ، تتطلع إلى لواء هذا الزعيم الأندلسى الجديد ، ترجو أن يكون حاميها وقائدها ، وجامع كلمتها ، وموحد صفوفها .

— ٢ —

وفى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورة ابن هود بمرسية ، كانت ثمة ثورة أخرى تضطرم فى بلنسية ، وتجرى فيها أحداث مماثلة . وذلك أن بلنسية كان يحكمها منذ سنة ٦٢٠هـ ، واليها السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، وهو أخو السيد أبو محمد عبد الله البياسى ، الذى أتينا على أخباره فيما تقدم . ولما قام ابن هود بمرسية ، خرج السيد أبوزيد بقواته لمحاربته ، ولكن ابن هود تغلب عليه فارتد منهزماً إلى بلنسية . وسرعان ماظهر صدى هذه التطورات فى بلنسية ذاتها . وذلك أن أهل بلنسية ، حينما رأوا تطور الحوادث فى مرسية ، وهزيمة القوات الموحدية فى منطقة الشرق ، سرت إليهم روح الانتقاض والثورة ، وقديماً كانت بلنسية حصن الثورة ضد الموحدين . وقد لبثت مملكة الشرق أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، زهاء ربع قرن تتحدى الدولة الموحدية ، وهى فى إبان قوتها . والآن فإنا نعود فنشهد صفحة جديدة من ثورة بلنسية ، ضد الموحدين ، وإن كانت هذه المرة تضطرم فى ظروف عصيبة ، تواجه فيها بلنسية وقواعد الشرق خطر العدوان الداهم ، من جانب عدوها الخالد اسبانيا النصرانية .

وكان زعيم الثورة فى هذه المرة ، أيضاً ينتمى إلى زعمائها السابقين من آل مردنيش . وهو أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن سعد ابن مردنيش الجذامى ، وجده أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش هو كما نذكر ، أخو أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش . وكان الخليفة أبويعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، حينما استسلم إليه آل مردنيش ، عقب وفاة عميدهم

الأمير محمد بن سعد فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، واستولى على مرسية وبقية مملكة الشرق ، قد شملهم برعايته ، وأسند إليهم جليل المناصب ، فقدّم الأمير أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، أخا الأمير محمد المتوفى ، على بلنسية وجهاتها ، كما كان أيام أخيه ، واستمر أبو الحجاج يوسف ، وكان يعرف بالرئيس ، والياً لبلنسية حتى توفى فى سنة ٥٨٢ هـ ، فخلفه فى ولايتها السيد أبو عبد الله محمد حفيد الخليفة عبد المؤمن ، ثم خلفه بعد وفاته ولده السيدأبوزيد.

وترك الرئيس أبو الحجاج يوسف عدة من الأولاد ، منهم أبو الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمد طلحة ، وقد تولوا جميعاً فى ظل حكومة الموحدين ، مناصب هامة فى مختلف قواعد الشرق ، من قيادة وولاية ، واشتهروا فى أواخر أيام الدولة الموحدية بالأندلس ، وكانوا مثل أبيهم يعرفون بالرؤساء . فلما اضطربت الأحوال وسرت الفتنة إلى مختلف النواحى ، عقب وفاة الخليفة يوسف المستنصر ، خاضوا الفتنة مع الخائضين ، وكان عميدهم يومئذ الرئيس أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن الرئيس يوسف أبى الحجاج ، وكان أبوه مدافع ، قد استشهد شابا فى حياة أخيه أبى سلطان عزيز والى جزيرة شقر ، وكان إلى جانبه ببلنسية وأحوازها ، عشرة من رؤساء بيته من الإخوة أو أبناء العمومة . وكان أبو جميل زيان وقتئذ وزير السيد أبى زيد والى بلنسية، وكبير بطانته ومدبر أمره[1] ، وفى رواية أخرى أنه كان قائد الأعنة المتولى أمر الدفاع عن بلنسية[2] . فلما ارتد السيد أبو زيد منهزماً أمام ابن هود كما تقدم، اضطرمت الثورة فى بلنسية، والتف البلنسيون حول عميد بيت إماراتهم القديم ، أبى جميل زيّان ، ونادوا برياسته ، فوقعت الوحشة بينه وبين السيد أبى زيد ، فغادر بلنسية إلى حصن أندة القريب وامتنع به ، واشتد الهياج وتفاقم الأمر فى المدينة ، فخشى السيد سوء العاقبة ،وغادر بلنسية بدوره فى أهله وولده وأمواله ، وذلك فى أوائل شهر صفر سنة ٦٢٦هـ ، واعتصم ببعض الحصون القريبة . وعندئذ بادر الرئيس أبو جميل زيان بالقدوم إلى بلنسية من مقره بحصن أندة ، فدخلها فى اليوم السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٦هـ (يناير ١٢٢٩ م) ونزل بالقصر ، وعقد البيعة لنفسه ، وذلك

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ .

فى أول شهر ربيع الأول ،ودعا للخليفة المستنصر العباسى ، وفى الحال دخلت فى طاعته دانية وجنجالة ، وعدة من الحصون ، وذاع أمره واشتد ساعده . ولكن خرج عليه أبو سلطان عزيز بن يوسف والى جزيرة شقر ، ودعا لابن هود ، وكذلك فعلت شاطبة وواليها أحد أبناء عمومة زيان ، واضطرمت الفتنة بين زيان وابن هود وزحف ابن هود على بلنسية ، فخرج زيان للقائه ، فكانت عليه الهزيمة ، وتبعه ابن هود إلى بلنسية فامتنعت عليه ، وشغل ابن هود عندئذ بحوادث ومشاريع أخرى[1].

وهكذا عمت الثورة أو الفتنة ، شرق الأندلس ، وسرى الاضطراب إلى سائر أنحائه ، وفى ذلك يقول شاعر معاصر من أبنائه ، هو أبو عبد الله محمد ابن إدريس بن على المعروف بمرج الكحل :

ولاسيما فى فتنة مدلهمة ... فلا أحد فيها أخاه يشمت
وكان قضا صمتنا عنه واجب ... وسلم الأحداث من كان يصمت

ولم يكن يخفى على ذوى النظر البعيد ، ما يترتب على تلك الفتنة من عواقب خطيرة ، وكان بعضهم يسعى إلى تداركها بجمع الكلمة . وقد وقفنا فى ذلك على رسالة ، وجهها العلامة الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب ، عميد علماء مرسية والمنتزى فيها فيما بعد ، إلى الخطيب أبى عبد الله بن قاسم ببلنسية ، يشير عليه فيها بأن يحض الرئيس أبا جميل زيان على الدخول فى طاعة « أمير المسلمين » ابن هود وذلك قبل أن يتحرك ابن هود لمحاربة زيان فى بلنسية . وفيها ينوه بوجوب اتحاد المدن المختلفة التى تدين بدين واحد لمقاومة أعداء الدين ، وأن القوة فى الاتحاد وهو ما يحض عليه الله والرسول . وأنه يجب على علماء الدين أن يسعوا فى ذلك بالنصح ، وأن مآل الخلاف انقطاع الرياسة ، واستيلاء عدو الدين على البلاد ؛ ثم يطلب إليه أن يهيب بالأمير أبى جميل أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ، فذلك مما يكسبه محبة أهل الأندلس ، ومحبة المسلمين[2] .

وأما السيد أبو زيد ، فقد لبث منذ غادر بلنسية ، وامتنع بأهله وأمواله ، فى

---

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث فى أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٧٢ ، والبيان المغرب ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ ، وكذلك : **M. Gaspar Remiro: Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 275 & 276**

(٢) وردت هذه الرسالة فى كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن على بن عبد الرحمن المكنى بابن المرابط ، وهو مخطوط الإسكوريال ، رقم ٥١٨ الغزيرى (ديرنبور رقم ٥٢٠) .

بعض الحصون القريبة ، حيناً يرقب سير الحوادث ، فلما رأى تطور الموقف على هذا النحو ، ورأى سلطان الموحدين ينهار فى سائر النواحى ، وأن الظروف كلها تدعو إلى اليأس ، لم يجد أمامه سبيلا إلا أن يلتجىء إلى النصارى. فغادر مقره فى أهله وولده ، وقصد إلى ملك أراجون خايمى الأول ، مستجيراً به وملتجئاً إلى حمايته . وكان بصحبة السيد أبى زيد كاتبه ، وكاتب أبيه من قبل ، الفقيه الكاتب الشاعر والمؤرخ المبدع ، أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى الشهير بابن الأبار ، وقد وصف لنا ابن الأبار موقفه يومئذ ، فى بيتين من الشعر ، بعث بهما إلى بعض أصحابه على أثر مغادرته لبلنسية وهما :

الحمد لله لا أهل ولا ولد ... ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا سلما إلى أمد ... فعاد حربا لنا لما انقضى الأمد[1]

ويضع ابن الخطيب تاريخ مغادرة السيد أبى زيد بلنسية ، ولحاقه بالنصارى فى السادس والعشرين من صفر سنة ٦٢٦هـ ، أعنى فى نفس اليوم الذى دخل فيه الرئيس أبو جميل زيان بلنسية[2] . ولكنا ذكرنا فيما تقدم اعتماداً على ابن الخطيب نفسه أن السيد أبا زيد غادر بلنسية قبل ذلك بمدة وجيزة ، والتجأ إلى بعض حصونها القريبة .

وتكتفى الرواية الإسلامية بأن تذكر لنا أن السيد أبا زيد لحق بالنصارى ، ودخل فى دينهم[3]. ولكن لهذا السيد الموحدى ، قصة مفصلة متعددة النواحى ، تقدم إلينا تفاصيلها ، الرواية والوثائق النصرانية المعاصرة ، ويجدر بنا أن نلخصها هنا .

سار السيد أبو زيد وصحبه إلى قلعة أيوب ، حيث كان خايمى الأول ، ملك أراجون[4] يعقد بلاطه يومئذ . وفى اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ١٢٢٩م

---

(١) وقفنا على هذين البيتين فى مخطوط الإسكوريال « زواهر الفكر ، وجواهر الفكر » السابق ذكره لوحة ٨٧ ا . وراجع فى مصاحبة ابن الأبار لمخدومه ، أزهار الرياض (المطبوع) ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال (١٦٧٤ الغزيرى) لوحة ١٣٨ أ .

(٣) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و ١٦٨ ، وابن الخطيب فى الإحاطة فى مخطوط الإسكوريال المشار إليه .

(٤) تسمى الرواية الإسلامية **Jaime** خايمى : « جاقمة ملك أرغون » (الروض المعطار ص ٤٨)، وأعمال الأعلام ص ٢٧٣) وتسميه أحياناً دون جايمش (أعمال الأعلام ص ٣٣٧) . وخايمى هو الرسم الإسبانى ليعقوب .

الموافق الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ ، اجتمع السيد أبو زيد وولده أبو محمد مع ملك أراجون وولده ألفونسو ، وكان يومئذ يقوم بأهبته لافتتاح ميورقة ، وعقدت بين الفريقين معاهدة ، نص فيها على أن يعطى السيد أبو زيد من سائر الأراضى والأماكن والحصون التى يغنمها سواء بالقوة أو الرضى ، مقدار الربع إلى الملك خايمى ، وعلى أن يحتفظ الملك خايمى لنفسه بكل ما يقوم هو بافتتاحه ، أوما يقع تسليمه إليه ، وأن يقدم السيد كفالة بتنفيذ هذا الاتفاق ، حصون بنشكلة ، ومرلّة ، وقله ، وألبونت ، وشارقه ، وشبرب(١) بصفة رهينة ، وأن يقوم الملك خايمى تأكيداً لعهوده ، بحماية السيد والدفاع عنه وعن ولده ضد أعدائه ، بتسليم حصنى الدموس ، وقشتيل الحبيب(٢) اللذين افتتحهما أبوه الملك بيدرو .

وكان من الواضح أن السيد أبا زيد ، حينما عقد هذا الاتفاق مع ملك أراجون ، كانت له أسوة بما فعله من قبل أخوه السيد عبد الله البياسى ، حينما انضوى تحت لواء فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وتعهد بتسليم الحصون والأراضى الإسلامية ، بل وبما فعله ابن عمه الخليفة المأمون نفسه ، من تعهده لملك قشتالة بتسليمه الحصون التى يرغبها فى الأراضى الإسلامية ، وغير ذلك مما قطعه على نفسه من العهود ، إزاء قيام هذا الملك النصرانى بمعاونته على انتزاع العرش من خصمه .

وتنفيذاً لهذا الاتفاق خرج السيد أبو زيد ، ومعه الفارس بيدرو دى أساجرا صاحب شنتمرية الشرق ، وبلاسكو دى ألاجون ، وهو زعيم أرجونى كان قبل عامين قد لجأ إلى بلنسية وخدم الموحدين ، ثم عاد إلى أراجون وعفا عنه الملك ، فى قوات طرويل وبعض الفرسان الأرجونيين ، واخترقت الحملة الأراضى التى كان ما يزال السيد أبو زيد يتمتع فيها بشىء من التأييد . وبالرغم من أن السيد استطاع فيما بعد أن يبسط سلطانه على بعض النواحى والضياع القريبة من بلنسية ، فإنه أدرك فى النهاية أنه لن يستطيع تنفيذ العهود التى قطعها على نفسه لملك أراجون ، ومن ثم فإنه عاد فى يناير سنة ١٢٣٢ ، وتنازل للملك خايمى عن سائر الحقوق الإقليمية التى احتفظ بها لنفسه بمقتضى المعاهدة ، وذلك سواء فى مدينة بلنسية

---

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Segorbe, Jérica, Alpuente, Culla, Morella, Penoscola

(٢) وهما بالإسبانية Castielfabit, Ademuz

ذاتها ، أو فى أراضيها ، واستبقى لنفسه ولأهله ما سوى ذلك من الحقوق (١).

وفى خلال ذلك سقط السيد أبو زيد سقطته المؤسية . ذلك أنه لم يكتف بهذا الانضواء المطلق تحت نير الملك النصرانى ، ولكنه هوى إلى الدرك الأسفل ، فاعتنق دين النصرانية ، وهو سليل بنى عبد المؤمن أئمة التوحيد وأقطابه ، ونبذ اسمه المسلم ، واختار اسما نصرانياً هو بثنّى Vicente أو بالعربية « بجنت » وتزوج فيما بعد من سيدة نصرانية من أهل سرقسطة ، وكان يسمى فى الوثائق النصرانية « بثنّى » ، ملك بلنسية وحفيد أمير المؤمنين » ، ولم تقدم إلينا الرواية النصرانية تاريخ تنصر السيد أبى زيد ، ولكنها تقدم إلينا ما يفيد أنه كان يضمر هذه النية منذ عهد بعيد ، أعنى منذ أيام أن كان فى بلنسية والياً عليها ، وتقول لنا إن السيد طرد من بلنسية ، لما علم من أنه يبعث رسله السريين إلى البابا وإلى ملك أراجون ، يعرض اعتناقه للنصرانية ، ولما كان يبدو من إمارات استحسانه لهذا الدين (٢) .

وتجمع الرواية الإسلامية على صحة ارتداد هذا السيد الموحدى عن دين الإسلام ، وتعرب عن أسفها وسخطها لانحداره إلى هذا الدرك المؤسى (٣) . ومن جهة أخرى فإنه مما لاشك فيه أن كاتبه ابن الأبار ، الذى صحبه فى رحلته إلى بلاط ملك أراجون ، قد تركه لمصيره غير بعيد ، لما رأى من استسلامه للنصارى ، ونيته فى اعتناق دينهم ، وعاد إلى بلنسية ، والتحق بخدمة أميرها الجديد أبو جميل زيان (٤) . وسوف يكون ابن الأبار منذ الآن من أبرز شهود المأساة التى اقترنت بمصير بلنسية ، وسوف يأخذ قلمه فى تدوين محنتها بأوفى نصيب .

— ٣ —

فى تلك الآونة التى أخذت فيها نيران الفتنة ، تندلع إلى ربوع الأندلس ، ويسرى دبيب التفكك إلى هيكلها المتداعى ، كانت اسبانيا النصرانية تتطلع فى ثقة وأمل إلى اجتناء التراث المنهار ، وانتزاع الأشلاء المتساقطة ، وكان كل شىء يمهد إلى تحقيق هذا الأمل ، فإن حركة الاسترداد Reconquista ، لم تحظ

---

(١) Andres Piles Ibars : Valencia Aarabe (Valencia 1901). p. 632, 625, 626 & 629

(٢) A. P. Ibars : ibid; p. 617,618 & 622 , cit. Zurita, Nota

(٣) يراجع بالأخص ابن عذارى فى البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ ، و١٦٨ .

(٤) أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٥ .

من قبل قط ، بما كانت تحظى به يومئذ من سهولة الانقضاض ، وانهيار الجبهة الدفاعية الحصيمة ، بانهيار القوى العسكرية الموحدية فى شبه الجزيرة ، وانشغال البلاط الموحدى بالمغرب ، بخلافاته وحروبه الأهلية . وكانت قوى الأندلس ومواردها الخاصة ، قد تضاءلت تحت ضغط الحكم الموحدى المرهق ، واستئثار الموحدين بشئون الدفاع ، ثم أخذت على ضعفها وضآلتها ، تنتثر هنا وهنالك ، بين أولئك المتغلبين ، أولئك « الطوائف » الجدد ، وكان ملوك اسبانيا الثلاثة ، خايمى الأول ملك أراجون ، وفرناندو الثالث ملك قشتالة ، وألفونسو التاسع ملك ليون ، يسيطر كل منهم ، على مصاير منطقة من شبه الجزيرة ، فملك أراجون يسيطر على مصايرها من ناحية الشرق ، وملك قشتالة يسيطر على مصايرها من ناحية الوسط ، وملك ليون يسيطر على مصايرها من ناحية الغرب ، وكل منهم يرقب الفرص المواتية للانقضاض على الفريسة ، على تلك الأندلس ، التى مزقتها الفتنة ، وفقدت وسائل الدفاع الحقيقية ، وأضحت معظم قواعدها تحت رحمة العدو القوى المتحفز .

ووقعت الضربات الأولى فى الغرب ، من جانب ملك ليون ، وهو أقل الملوك الثلاثة شأناً ، ثم تلتها فى الحال ضربات قشتالة وأراجون القوية ، ووجهت قشتالة اهتمامها إلى القواعد الأندلسية الوسطى ، واتجهت أراجون أولا إلى افتتاح الجزائر الشرقية ، لكى تتفرغ بعد ذلك إلى انتزاع القواعد الشرقية ، وفى مقدمتها ثغر بلنسية العظيم .

وكان ملك ليون ، ألفونسو التاسع (وهو والد فرناندو الثالث) ، منذ استولى على مدينة قاصرش المنيعة فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) حسبما تقدم ذكره ، يرقب الفرصة لإنزال ضربته التالية ، فى منطقة الغرب الأندلسية . وكانت ماردة ، وبطليوس ، وهما جنوبى قاصرش هما أقرب القواعد الأندلسية العظيمة إلى حدود ليون . فلما عمت الفتنة أرجاء الأندلس ، ولاح لملك ليون ، أن منطقة الغرب أضحت دون مدافع ، وأن قيام ابن هود فى شرقى الأندلس ، لايمكن أن يحول دون مشاريعه ، خرج من ليون فى قواته ، وذلك فى أواخر فى أواخر سنة ١٢٢٩ م (أوائل سنة ٦٢٧ هـ) ، وسار جنوبا فى اتجاه نهر وادى يانه ، واستولى أولا على حصن منتانجش[1] . الواقع على مقربة من شمال ماردة ، ثم سار إلى ماردة ،

(١) وهو بالإسبانية **Montanchez** .

وهى تقع شرق بطليوس ، على ضفة نهر وادى يانه ، وضرب حولها الحصار . ووقف ابن هود على حركة ملك ليون ، فحشد ما استطاع من قواته ، وسار نحو الغرب لإنقاذ المدينة المحصورة ، وكانت من القواعد التى دخلت فى طاعته ، فلما وصل على مقربة من ماردة ، ترك ألفونسو التاسع الحصار ، وتقدم للقاء جيش ابن هود ، ونشبت بين الفريقين عند حصن الحنش[1] معركة عنيفة ، هزم فيها ابن هود ، وارتد فى قواته دون نظام ، وفى الحال ، احتل الليونيون مدينة ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل ، مدينة بطليوس العظيمة ، وذلك فى مايو سنة ١٢٣٠م (أواسط سنة ٦٢٧هـ) . وينحى ابن عذارى بهذه المناسبة باللائمة على ابن هود ، لأنه انهزم بساقته فى بداية الموقعة ، فولى الناس منهزمين من أجل ذلك . ويقول لنا إنه كان بطبعه ملولا عجولا ، وكانت هذه الغزوة أول غزواته وأضخمها[2] .

وعرج ابن هود فى مسيره بعد هزيمته على إشبيلية . وكان مما حدث عند حلوله بها ، أن ثارت العامة بعبد الله بن وزير حاكم ثغر القصر السابق ، وكان قد لجأ إليها ، وقبضت عليه ، فأمر ابن هود بإعدامه هو وأخوه عبد الرحمن ابن وزير ، ويقول لنا ابن الأبار إن ما حدث من العامة نحو الأخوين قد وقع بتحريض ابن هود نفسه[3] .

وفى هذا الوقت نفسه ، كان فرناندو الثالث ، ملك قشتالة يحاول أن يقوم بضرباته فى الأندلس الوسطى . وكان فرناندو يرقب الدعوة الهودية ، واتساع نطاق سلطان ابن هود ، وتوالى طاعة القواعد الأندلسية له ، بمنتهى الاهتمام والتوجس . وكان يخشى أن تجتمع كلمة الأندلس كلها حول هذا الزعيم الجديد ، وأن تغدو مرة أخرى ، كتلة قوية متماسكة يصعب تحطيمها . وكان يرى وجوب المبادرة إلى العمل ، قبل أن يصبح ابن هود وهو فى نظره زعيم الأندلس الحقيقى ، قوة لاتقهر ، ومن ثم فإنا نراه فى أوائل سنة ١٢٣٠م (أوائل سنة ٦٢٧هـ) يخرج فى قواته من قشتالة متجهاً نحو أندوجر ، ثم يعبر نهر الوادى الكبير ، وهو أيضا

---

(١) وهو بالإسبانية Alanje

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

(٣) الحلة السيراء ص ٢٤٢ .

حل ينسف الزروع ، ويخرب القرى ، ويسبى الذرية، واستمر فى سيره نحو الجنوب حتى فحص غرناطة ، ثم عاد إلى الشمال ثانية . والظاهر أن هذه الغارة الأولى كانت عملا استكشافياً ، لمعرفة ماقد يلقى الغزاة من مقاومة .ولما اخترق ابن هود عندئذ بقواته تلك المنطقة فى طريقه إلى الغرب ، ظن القشتاليون أنه قدم لمحاربتهم ، ولكن ابن هود كان يقصد إلى إنجاد ماردة ، وألفى ملك قشتالة نفسه حرًّا فى خططه وتحركاته ، وعندئذ اتجه فرناندو الثالث بقواته صوب مدينة جيّان الحصينة ، وهى أكبر قواعد تلك المنطقة ، وضرب حولها الحصار ، وذلك فى أواخر يونيه سنة ١٢٣٠ م ، وقذفها بالمجانيق بشدة ، وحاول القشتاليون ، اقتحامها بكل الوسائل ، ولكن المدينة لبثت صامدة كالصخرة ، أولا لمنعتها الفائقة ، وثانياً لوفرة المدافعين عنها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر اضطر فرناندو أن يترك جيّان ، وأن يعود أدراجه . وماكاد يصل إلى قشتالة حتى علم بوفاة أبيه ألفونسو التاسع ملك ليون ، عقب عودته من افتتاح ماردة وبطليوس ، فاتجه مسرعاً إلى ليون ليجلس على عرشها مكان أبيـه ، وبذا اتحدت قشتالة ، وليون مرة أخرى(١) .

وهكذا نجت القاعدة الإسلامية — جيان — من السقوط إلى حين . ولكن ملك قشتالة ، عاد فبعث فى العام التالى حملة غازية إلى الأندلس ، بقيادة أخيه الإنفانت ألفونسو ، فسارت من أندوجر ، وعاثت فى أنحاء قرطبة ، واستمرت فى سيرها غرباً حتى أحواز إشبيلية ، ثم ارتدت بعد ذلك إلى شريش ، وهى تعيث أينما حلت قتلا وتخريباً . وهنا تحرك ابن هود مرة أخرى لرد الغزاة ، فسار فى قوات كثيفة ، والتقى بالقشتاليين فى فحص شريش ، ولكنه هزم مرة أخرى ، بالرغم من تفوقه فى العدد ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣م) .

والظاهر أن القشتاليين كانوا يقصدون بهذه الغزوة ، أن يقطعوا صلة ابن هود بالثغور الجنوبية . وكان ابن هود قد افتتح الجزيرة الخضراء فى سنة ٦٢٩ هـ ، ثم افتتح جبل طارق ، وفى نفس هذا العام دخلت سبتة فى طاعته حسبما قدمنا ، ولكن ابن هود لبث بالرغم من هزيمته ، محتفظاً بسلطانه فى القواعد والثغور الجنوبية . وماكاد فرناندو الثالث ينتهى من تنظيم الشئون الداخلية التى ترتبت على وفاة أبيه حتى تأهب لاستئناف الغزو. وكان بعد أن أخفق فى الاستيلاء على جيان ،

---

(١) J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia p: 62 & 68

يعتزم افتتاح مدينة أبّدة ، وكانت أيضاً من أمنع مدن هذه المنطقة وأوفرها سكانا وأقواها حامية ، ولكن فرناندو صمم على أن يمضى فى حصارها حتى ترغم على التسليم . واستمر حصار أبدة من يناير حتى يوليه سنة ١٢٣٣م (أواخر سنة ٦٣٠هـ) فلما عدمت الأقوات ولم ترد أية نجدة من أى جهة ، اضطرت أبّدة إلى التسليم بالأمان ، على أن يؤمن سكانها فى أنفسهم ؛ وأن يسمح لهم بأن ينقلوا من أموالهم ما يستطيعون حمله معهم ، وأن تضمن سلامتهم حتى يصلوا إلى الأراضى الإسلامية[١].

وفى نفس هذا العام ٦٣٠هـ ، عقدت الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة ، نظير ألف دينار يؤديها اليه ابن هود فى كل يوم[٢]. وكان ابن هود ، قد تكاثر عليه الخصوم ، بقيام منافسه ابن الأحمر فى قطاع جيان ؛ وخروج بعض المدن ، ولاسيما إشبيلية عن طاعته وذلك حسبما نفصل فى موضعه ، فرأى أن يتفرغ لمحاربتهم بعقد الهدنة مع النصارى .

— ٤ —

بينما كان ملك قشتالة ينزل ضرباته المتوالية بالأندلس الوسطى ، كان ملك أراجون خايمى الأول ، يقوم بأول غزواته الكبرى فى الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ، ونعنى غزو الجزائر الشرقية .

كانت الجزائر الشرقية أو جزر البليار ، وهى ميورقة ومنورقة ويابسة ، وعدة جزائر صغيرة أخرى ، منذ افتتحها الموحدون من أيدى بنى غانية فى سنة ٦٠٠هـ ، يتعاقب فى حكمها الولاة الموحدون ، وكانت تتبع ولاية بلنسية من الناحية الإدارية . ولما اضطرمت الأندلس بالثورة على الموحدين ، كان على الجزائر واليها أبو يحيى ابن يحيى بن أبى عمران التينمللى . وكان رابع الولاة الموحدين ، مذ قام الموحدون بافتتاحها من أيدى بنى غانية فى سنة ٦٠٠هـ (١٢٠٣م) ، ووليها منذ سنة ٦٠٦هـ . وفى رواية أخرى هى رواية ابن عميرة المخزومى ، فى كتابه « تاريخ ميورقة » ، أن أمير الجزائر كان عندئذ هو محمد بن على بن موسى ، وأنه هو الذى وليها فى سنة ٦٠٦هـ[٣] ولكننا نرجح الرواية الأولى ، لأن الرواية النصرانية المعاصرة

---

(١) البيان المغرب ص ٢٨٨ ، وكذلك : J. Gonzalez: ibid; p. 29 y nota (64)

(٢) البيان المغرب ص ٢٨٨ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ .

(٣) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤ نقلا عن تاريخ ميورقة للمخزومى ، وهو كتاب لم يصل إلينا . ويقول لنا ابن الخطيب فى ترجمته للمخزومى إنه ألف كتابا فى « كائنة ميورقة » وتغلب الروم عليها . (الإحاطة ١٩٥٦ — ج ١ ص ١٨٤) .

ومنها تاريخ الملك خايمى نفسه، تردد اسم أبى يحيى كأمير للجزيرة[١]. ويقص علينا المخزومى سبب غزو النصارى لميورقة ، أومقدمات هذا الغزو فى قوله ، إن والى ميورقة بعث طريدة بحرية ومعها سفينة حربية إلى جزيرة يابسة ، لتأتى إليه ، بالأخشاب التى يحتاج إليها ، فعلم بأمرها والى طرطوشة النصرانى ، فبعث إليها قوة بحرية استولت عليها ، فاستشاط الوالى لذلك غضباً ، واعتزم أن يغزو مياه بلاد الروم . وفى أواخر سنة ٦٢٣ﻫ (أوائل يناير سنة ١٢٢٥م) ظهرت فى مياه يابسة سفينة من برشلونة ، وأخرى من طرطوشة ، فبعث الوالى ولده فى عدة قطع بحرية ، فرسى فى مياه يابسة ، وألفى بها مركباً جنوية كبيرة فاستولى عليها ، ثم استولى على المركب البرشلونية . فلما وقف الروم على ذلك ، اضطرموا سخطاً ، وأهابوا بملكهم أن يقوم بغزو الجزيرة ، وعرضوا عليه أن يتطوعوا بانفسهم ، وأموالهم ، فأخذ عليهم العهد بذلك ، وحشد من أهل البلاد عشرين ألفاً ، وجهز فى البحر ستة عشر ألفاً آخرين ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ ﻫ[٢] .

هذا ما يقوله المخزومى عن مقدمات غزو ميورقة . ولكن هذه المقدمات ترجع فى الواقع إلى أسباب أقدم وأبعد مدى . فقد كان أمراء قطلونية ومعهم جمهوريتا بيزة وجنوة يتوقون دائماً إلى افتتاح هذه الجزائر ، ووضع حد لغزوات ولاتها المسلمين ، فى مياه الشواطىء النصرانية ، وكان الكرسى الرسولى يشجع ويبارك كل مشروع لافتتاحها . وقد افتتحها النصارى بالفعل قبل ذلك بنحو قرن فى سنة ٥٠٨ ﻫ (١١١٦ م) فى أوائل العهد المرابطى ، واستعادها المرابطون على أثر ذلك . ولما استقل بنوغانية بالجزائر وقوى أمرهم ، كانت غزواتهم المتكررة ، لشواطىء الدول النصرانية القريبة ، تزعج هذه الدول ، وتحملها على مهادنة أصحاب الجزائر ، وعقد معاهدات السلم معهم . فلما افتتح الموحدون الجزائر من أيدى بنى غانية ، تجددت رغبة الدول النصرانية ، فى انتزاع هذه الجزائر من أيدى المسلمين ، وكان أشدهم رغبة فى ذلك مملكة أراجون ، التى كانت ترى من حقها الطبيعى ، أن تستولى على تلك الجزائر التى تواجه شواطئها ، وذلك تأميناً لمواصلاتها وتجارتها ، وكان بيدرو الثانى ملك أراجون قد فكر فى افتتاح الجزائر بصفة جدية ، ولكن لم يتح له تحقيق أمنيته . فكان على ولده الملك الفتى

---

(١) M.Lafuente : Historia General de Espana, T. IV. p. 77, Nota 2

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤ .

خايمى الأول أن يحقق تلك الأمنية . وكان انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة واضطرام أنحاء الأندلس بالفتنة ، وانتثار وحدتها وتفرق كلمتها مما يمهد لاسبانيا النصرانية السبيل إلى تحقيق غايات الاسترداد La Reconquista بايسر أمر ، وانتزاع أشلاء الأندلس المهيضة الممزقة ، وكان على أراجون وهى تسيطر على شرق شبه الجزيرة ، أن تجتنى تراث شرق الأندلس ، وكان الملك خايمى حينما وفد عليه السيد أبو زيد الموحدى مطرودا من بلنسية فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ ، يستعد بالفعل لافتتاح الجزائر ، وكان قد استدعى الكورتيس القطلونية فى برشلونة فى شهر ديسمبر سنة ١٢٢٨ م ، واقترح عليه أن يقوم بحملة عسكرية ضد ميورقة بغية افتتاحها ، وذلك لتأمين تجارة قطلونية فى البحر المتوسط ، فوافق الكورتيس على هذا الاقتراح ، ووافق على أن يقوم الملك بتحصيل ضريبة الماشية القرنية للمعاونة فى نفقات الحملة . وعرض أكابر الأحبار والرهبان ، أن يشتركوا فى الحملة بأنفسهم وبمن يحشدونه من الفرسان والجند ، كل وفق طاقته . وعرض أكابر الأشراف القطلان ، وفى مقدمتهم نونيو سانشز كونت روسيون ، وهوجو دى أمبرياس ، والأخان رامون وجلين دى مونكادا وغيرهم من الأكابر ، أن يشتركوا فى الحملة ، بحشود كبيرة من الفرسان والرماة والجند ، فقبل الملك هذه العروض ، وتعهد من جانبه بأن يقدم مائتى فارس من أهل أراجون بخيلهم وسلاحهم ، كما تعهد بتقسيم الأراضى المفتوحة ، والغنائم المكتسبة بالعدل والقسطاس ، بين المشتركين فى الحملة ، كل وفق ما تكبده من النفقات ، محتفظاً لنفسه بالقصور والسيادة العليا على الحصون والقلاع . وأقسم الجميع على ذلك ، واتفقوا على الاجتماع فى طرطوشة بعد اتمام العدة ، فى شهر أغسطس من العام التالى[1] .

وتم كل شىء وفق ما اتفق عليه. وفى اليوم الخامس من سبتمبر سنة ١٢٢٩م (١٤ شوال سنة ٦٢٦ هـ) خرج الأسطول الأرجونى يحمل قوات ضخمة من ثغور سالو وطركونة وكامبريلس ، وكان مؤلفاً من مائة وخمس وخمسين سفينة حربية وعدد من القطع الخفيفة ، التى يقودها بحارة مغامرون من الجنويين وغيرهم . وبلغ عدد المقاتلين ألفاً وخمسمائة من الفرسان وخمسة عشر ألفاً من المشاة ، هذا عدا حشود من المتطوعين من أهل جنوة وبروفانس وغيرهم . ودفعت الرياح العنيفة

(١) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 76 .

السفن إلى وجهة غير التي كانت تقصدها ، ولكنها وصلت بعد جهد الى خليج بالما ، وهو الخليج الذى تقع عليه مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، وكان والى الجزيرة أبو يحيى بن أبى عمران ، قد علم بأمر هذه الأهبة الضخمة التى اتخذها النصارى لفتح الجزيرة ، فاستعد من جانبه للدفاع ، واستطاع أن يحشد قوة مختارة من نحو ألف فارس ، ومن فرسان الرعية والحضر ألفا أخرى ، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفاً ، بيد أنه اكتشف فيما يبدو ، مؤامرة لخلعه ، فقبض على أربعة من أكابر الأعيان ، وأمر بإعدامهم ، وكان منهم اثنان هما ابنا أخت أبى حفص بن سيرى وهو من ذوى المكانة والوجاهة ، فاجتمع الناس حوله ، وأبدوا سخطهم وتوجسهم مما حدث به ، وأمر الوالى بعد ذلك بالقبض على خمسين آخرين من الأشخاص البارزين ، وكان ذلك فى منتصف شهر شوال ، وقد اضطرب الناس ، وكثر الإرجاف ، ولم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى أقبلت سفن النصارى وظهرت ، فبادر أبو يحيى بالصفح عن خصومه، وتأهبت الحشود لدفع النصارى[1] . ولكن السفن النصرانية استطاعت أن تدخل مياه الخليج ليلا ، وبمنتهى السرعة ، حتى أن القوات المسلمة التى أرسلت لردها ، وهى مكونة من مائتى فارس وخمسة آلاف راجل لم تستطع شيئاً لمنعها .

وكان أول من نزل إلى البر قوة من سبعمائة من النصارى بقيادة برناردو دى ارختنونا ، تحصنت باحدى التلال ، وتبعتها فرقة من فرسان رامون دى مونكادا هاجمت المحلة الإسلامية المقابلة ، ففرقتها، ثم نزل الفرسان القطلان وبعض طوائف الأرجونيين . وهنا وقعت أول معركة بين المسلمين والنصارى ، وكان المسلمون قد استجمعوا سائر قواتهم المرابطة على الشاطىء وانقضوا على الأرجونيين ، وحلفائهم بشدة ، فهزموهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد من الأشراف ، والفرسان القطلان ، وفى مقدمتهم جلين دى مونكادا ، وأخوه رامون ، وهرعت أمداد من النصارى لإنجاد المهزومين .

وعندئذ ضرب النصارى الحصار حول مدينة ميورقة ، وأخذوا يضربونها بمختلف الآلات بشدة ، ورد المسلمون على ذلك ، بأن دفعوا قوة منهم حاولت أن تقطع مورد المياه الذى يمد المحلة النصرانية من الجبل. فهاجمها النصارى وقتلوا عدداً منها ، وألقوا ببعض رؤوسهم إلى داخل المدينة ، على أن الدفاع عن المدينة ،

(١) المقرى فى نفح الطيب نقلا عن المخزومى ج ٢ ص ٥٨٤ .

لم يكن لسوء الطالع محكماً ، وكان الخلاف يسود بين المدافعين . وكان كثير من الجند الساخطين يتسربون إلى المعسكر النصرانى . وأخيراً استطاع النصارى أن يقتربوا من الأسوار ، وأن يحطموا أربعة من الأبراج . ورأى الوالى أبو يحيى أن الوقت قد حان للمفاوضة فى تسليم المدينة ، فبعث إلى الملك خايمى على يد دون نونيو سانشيز ، أحد أقطاب الحملة ، يعاونه يهودى من سرقسطة يسمى باشول كان يعرف العربية ، يعرض أن يدفع ثمناً لانسحاب ملك أراجون ، وذلك بأن يؤدى إليه سائر نفقات الحملة ، مذ خرجت من ثغر طركونة إلى يوم انسحابها ، على أن لاتترك فى الجزيرة حامية نصرانية ، ولكنه لما علم أن ملك أراجون يصر كل الإصرار على أخذ المدينة ، بعث إليه يعرض تسليم المدينة على أن يسمح له بالخروج إلى المغرب مع أهله وحشمه وأمواله ، وأن تترك له السفن التى تحمله إلى شاطىء افريقية ، وأن يبقى فى الجزيرة من شاء من أهلها المسلمين. ولكن الملك خايمى رفض هذا العرض أيضاً ، تحت ضغط الزعماء القطلان . لأنهم كانوا يريدون الانتقام لآل مونكادا ، والاستيلاء على غنائم المدينة وثرواتها .

وعندئذ عول أبو يحيى على أن يدافع دفاع اليأس ، وعول النصارى من جانبهم على مهاجمة المدينة واقتحامها . وفى يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٢٢٩ م ، استعد الجيش النصرانى للهجوم ، واستمع الجند للقداس ، وعند الفجر بدأوا الهجوم وأحدثوا ثلمة فى السور ، وانثالوا إلى المدينة فى طوائف متعاقبة من ناحية باب الكحل ، فلقيهم المسلمون فى داخلها ، واضطرم بين الفريقين فى الميادين والشوارع قتال عنيف ، وكان الوالى أبو يحيى على رأس جنده ممتطياً صهوة جواده الأبيض ، وهو يحثهم على الثبات ، ودخل الملك خايمى أمام جنده المدينة ، وهو شاهر سيفه . ولم يمض سوى قليل حتى ظهر التفكك فى صفوف المسلمين ، وأخذوا يفرون من باب بورتبين ، وباب برتوليت ، وفى سائر النواحى ، والنصارى فى أثرهم يمعنون فيهم قتلا ، وتقدر الرواية الإسلامية من قتل من المسلمين خلال هذه المعركة الدموية بأربعة وعشرين ألفاً[1] . وفر منهم إلى الجبال نحو ثلاثين ألفاً ، وأسر الوالى أبو يحيى وولده ، واستولى النصارى على ميورقة فى مناظر مروعة من السفك . وكان استيلاؤهم عليها فى يوم الاثنين ٣١ ديسمبر سنة ١٢٢٩ ،

---

(١) المقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

وهو يوافق بالهجرية الثالث عشر من شهر صفر سنة ٦٢٧هـ[١] .

وتتفق التواريخ النصرانية على روعة المذبحة التى وقعت عند دخول النصارى ميورقة ، ويقدر بعضهم من هلك فيها من المسلمين بثلاثين ألفاً ، والبعض الآخر بخمسين ألفاً . بيد أنه يبدو أن ذلك مبالغ فيه[٢] .

ودخل الملك خايمى الأول ، قصر المُدَينة ، وهو قصر الولاة المسلمين ، وأتى بالوالى أبى يحيى ، وأمر بتعذيبه ، واستمر تحت العذاب خمسة وأربعين يوما حتى توفى . وأما ابنه وكان صبياً فى الثالثة عشرة ، فتقول لنا الرواية النصرانية إنه نُصر وسمى بدون خايمى[٣].

على أن المعركة لم تكن قد انتهت بعد ، فإن أبا حفص بن سيرى ، وهو الزعيم الذى أشير إليه فيما تقدم ، لما رأى هزيمة المسلمين ، وسقوط المدينة فى أيدى النصارى ، خرج إلى الجبل ، وتبعته طوائف كبيرة من الفارين ، واجتمع له منهم عدة آلاف مقاتل ، واعتزم المقاومة إلى النهاية ، فلم تمض سوى أيام قلائل حتى خرج إليه الملك خايمى فى بعض قواته ، ومعه فرسان من القطلان ، واستمرت هذه القوة فى مطاردة المسلمين ، والاشتباك معهم فى معارك متوالية ، حتى قضت فى النهاية على حشودهم ، وقتل قائدهم ابن سيرى وذلك فى اليوم العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨ هـ (١٣ فبراير ١٢٣١ م) أى لأكثر من عام من سقوط المدينة ، وتم كذلك استيلاء النصارى على ما تخلف من المعاقل والحصون وذلك فى شهر رجب من نفس العام[٤] .

وهكذا فقد المسلمون جزيرة ميورقة الغنية الزاهرة كبرى الجزائر الشرقية ، بعد أن حكموها أكثر من خمسة قرون ، وكان لافتتاحها وقع عميق فى الأمم البحرية النصرانية ، فى غربى البحر المتوسط ، واستقبل فيها بمنتهى الغبطة والرضى . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى الأندلس ، حيث كانت المعارك الأهلية الصغيرة

---

(١) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) الترجمة ٤٠٠ و٦٣١ ، وهو يجعل يوم الاثنين يوافق ١٤ صفر ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، والروض المعطار ص ١٩١ ، وكذلك ؛ Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888). p. 179-186

(٢) Campaner y Fuertes : ibid; p. 188

(٣) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 79, Nota I

(٤) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

تستغرق كل اهتمام . وعاد الملك خايمى إلى أراجون مكللا بغار الظفر ، بعد أن قضى فى غزوته زهاء خمسة عشر شهرا ، ولقب من ذلك التاريخ « بالفاتح » .

وعاد خايمى بعد ذلك إلى ميورقة أولا فى أواخر سنة ١٢٣١ م ، حينما نمى إليه أن أمير إفريقية الحفصى ينوى أن يبعث بحملة لاسترداد الجزيرة ، وقام عندئذ بإخضاع عدد من المعاقل الجبلية ، التى كانت ما زالت قائمة بالمقاومة ، وعقد مع بعض الزعماء المسلمين الأقوياء فى الأنحاء الجبلية بعض عهود واتفاقات؛ ثم عاد إلى الجزيرة مرة أخرى فى صيف سنة ١٢٣٢ م ، واستطاع عندئذ أن يقوم بالقضاء على أعمال العصيان والمقاومة الأخيرة . على أن أهم ما قام به خايمى يومئذ، هو تقسيم أراضى الجزيرة وأحياء ميورقة ودورها بين الزعماء الفاتحين ، وفقاً للعهد الذى قطعة على نفسه بذلك ، وتم ذلك على يد هيئة من الأحبار والأكابر . وكتب بهذا التقسيم كتاب باللغات اللاتينية ، والقطلانية، والعربية ، اشتهر « بكتاب التقسيم » El Libro del Repartimiento وقام بتحريره فى أول يوليه سنة ١٢٣٢ الكاتب الموثق بيدرو روملينو . وما زال هذا الكتاب يحفظ حتى اليوم فى دار المحفوظات ببلدية ميورقة ، وقد اطلعنا عليه خلال زيارتنا لميورقة[1] .

وكان من الواضح أن مصير باقى الجزائر بعد سقوط ميورقة ، قد بت فيه وأضحى رهن مشيئة الفاتحين . فأما جزيرة يابسة Ibiza وهى صغرى الجزائر الثلاثة الكبيرة ، وهى تقع جنوب غربى ميورقة ، فقد نزل بها الأرجونيون فى سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥ م) ، فقاومهم أهلها المسلمون ، واستمر الصراع بين الفريقين نحو خمسة أشهر ، وانتهى بتسليم المسلمين ، واستيلاء الأرجونيين على الجزيرة[2] . واستولى النصارى فى نفس الوقت على جزيرة فرمنترا الصغيرة الواقعة على مقربة من جنوبى يابسة وكانت خالية ليس بها أحد من المسلمين .

هذا فيما يختص بميورقة كبرى الجزائر الشرقية وزميلتها يابسة . وأما جزيرة منورقة أو منرقة الواقعة فى شرقى ميورقة، وهى ثانى الجزائر من حيث الحجم ، فقد استمرت حقبة أخرى تحت الحكم الإسلامى . ذلك أن واليها الرئيس أبا عثمان

---

(١) حصلنا على نسخة مصورة من هذا المخطوط الذى يتكون من كراسة كبيرة مستطيلة ، تضم تسع ورقات حجمها نحو ٣٠ فى ١٥ سنتى . وامام كل صفحة من صفحاته العربية مقابلها باللاتينية ، والقطلانية . راجع وصف الكتاب وبعض نصوصه فى كتابنا « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية ص ١٣٣ – ١٣٦) .

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

سعيد بن حكم الأموى ، وهو من أهل طبيرة من غربى الأندلس ، كان رجلا طموحاً وتجول فى شبابه فى أنحاء الأندلس وإفريقية ، ثم دخل منرقة فى سنة ٦٢٤ هـ ، واشتغل بها مشرفاً على شئون الجباية والأجناد ، ثم ظفر برياستها لما اضطربت الأحوال ، وتقلص سلطان الموحدين ، فوليها من قبل أبى يحيى ، وضبط شئونها بهمة وبراعة وذلك منذ سنة ٦٣١هـ ، وكان عالماً محدثاً ، ونحوياً أديبا يجيد النثر وينظم الشعر مع مشاركة طيبة فى علم الطب ، يجتذب إليه العلماء من كل صوب ، ويفتدى منهم من يقع فى أسر العدو ، وكان ورعاً حريصاً على تنفيذ أحكام الشريعة ، وكان يلقب بالرئيس ، فصلحت أحوال الجزيرة فى عهده ، وعمها الرخاء والأمن . ولما استولى الملك خايمى على جزيرة ميورقة ، رأى أبوعثمان أن يبادر بالتفاهم مع النصارى ، فاعترف بطاعة الملك خايمى ، على أن يؤدى له جزية سنوية ، وأن يسلم إليه حصن تيوداديلا وذلك على أن لا يدخل الجزيرة أحد من النصارى . وهكذا ترك أبوعثمان وشأنه ، فلبث على رياسته للجزيرة زهاء نصف قرن آخر ، وضبط شئونها بحزم ، وسار فى الناس أعدل سيرة ، واستقام أمر الجزيرة على يديه ، وهابه جيرانه من النصارى ، وكان يقصده الناس والعلماء والطلاب من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، ويتردد عليه التجار ، فيشمل الجميع ببره ، ورفقه وأنسه . وكان شغوفاً بجمع الكتب ، حتى اجتمع له منها ما لا نظير له كثرة وجودة وندرة ، ومن شعره قوله فى الحض على الجود :

لا تمنع المعروف يوما معرضا ومعرضا كلاهما من حقه فيـه له أن يعرضا
هذا تنزه فاستحق على نزاهته الرضـا والآخر استحيا من التصريح فيه فعرضا

وتوفى سعيد بن حكم فى رمضان سنة ٦٨٠هـ (١٢٨١م) ، فخلفه فى حكم الجزيرة ولده أبو عمر حكم بن سعيد ، وكان مثل أبيه أديباً وعالما ، ولكن أمد حكمه لم يطل ، لأن النصارى رأوا أخيراً أن ينتزعوا منورقة من أيدى المسلمين ، فقام الأرجونيون بافتتاحها فى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وأجلى عنها المسلمون ، وانتهى بذلك أمر الإسلام بالجزائر الشرقية ، وغادر أبو عمر الجزيرة ومعه أهله ورفات أبيه ، وسار أولا إلى سبتة ، ثم قصد إلى تونس ، فغرق فى البحر هو وآله(١).

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٥٥ ، والروض المعطار ص ١٨٥ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٧٥ — ٢٧٧ . وقد أورد ابن عبد الملك فى التكملة ترجمة ضافية لسعيد بن حكم (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى لوحة ٩ ا — ١٠ ب) .

الفصل الثاني

ابن هـــود وابن الأحمر

وسقوط قرطبة

تقدم دعوة ابن هود . صراعه ضد القشتاليين . رفعه الشعار الأسود ومطالبته بمرسوم الخليفة العباسي . وصول المرسوم وقراءته وهو بغرناطة . محتويات هذا المرسوم . ابن هود أمير الأندلس الشرعي . مدى امتداد سلطانه . اختياره لولده أبي بكر لولاية العهد . رسالته إلى أهل شاطبة بذلك . توجس ابن هود من حركة ابن الأحمر . قيام محمد بن يوسف بن الأحمر في أواسط الأندلس . نشأته وقومه بنو نصر . قيام دعوته في أرجونة وجيان وبسطة ووداي آش . دعوته لأبي زكريا الحفصي ثم للخليفة العباسي . تأهب ابن هود لمقاومته . تحالف ابن الأحمر مع الباجي زعيم إشبيلية القتال بين ابن هود وابن الأحمر . انتصار ابن الأحمر ودخوله إشبيلية . مصرع الباجي وثورة أهل إشبيلية بابن الأحمر . عودهم لطاعة ابن هود . عقد السلم بين الزعيمين . اعتراف ابن الأحمر بطاعة ابن هود . قيام ابن شعيب بلبلة . فشل ابن هود في محاصرته . غزو ملك قشتالة لمنطقة جيان . تجديد الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة . شروط هذه الهدنة . افتتاح القشتاليين لحصن الأطراف وعدة حصون أخرى . طموح ملك قشتالة إلى افتتاح قرطبة . قرطبة واضطراب أحوالها عندئذ . غزو الفرسان القشتاليين لشرقي قرطبة . اقتحامهم للمنطقة الشرقية . اختلاف الرواية في ظروف هذا الحادث . احتلال النصارى لبعض الأبراج . ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك . إسراع قوات الحدود لإنجاد النصارى . اهتمام فرناندو الثالث بالحادث . مسيره في الحال إلى قرطبة . تضخم الحشود النصرانية تحت أسوار قرطبة . موقف القرطبيين الحرج . إسراع ابن هود بقواته نحو قرطبة . إحجامه عن إنجاد المدينة . اختلاف الرواية في أسباب هذا الإحجام . رواية نصرانية عن ذلك . رواية إسلامية عن تجدد الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة . اشتداد فرناندو الثالث في محاصرة المدينة . اضطرار أهل المدينة إلى المفاوضة في التسليم . شروط هذا التسليم وظروفه . قبول فرناندو الثالث . إيجاز الرواية الإسلامية في ذلك . ما تقوله الرواية النصرانية عن مغادرة المسلمين لمدينتهم . دخول القشتاليين قرطبة . رفع الصليب على صومعة جامعها . دخول فرناندو الثالث المدينة ومثوله في الجامع . إقامة قداس الشكر . نزع رؤوس الثريات القديمة وردها إلى شنت ياقب . تأملات عن سقوط قرطبة . كتاب ابن هود إلى عماله . مسيره إلى ثغر ألمرية . واليها أبو يحيى الرميمي ودعوته لابن هود . بواعث مقدم ابن هود إلى ألمرية . رواية إسلامية عن ذلك . غدر الرميمي بابن هود ومصرعه . تأملات عن ثورة ابن هود وحركته . سياسته وخلاله . مبايعة ولده ابى بكر بمرسية . صدى وفاته في إشبيلية . عودها إلى طاعة الموحدين . سبتة تحذو حذوها . استيلاء ابن الأحمر على غرناطة . مسيره إلى ألمرية ومحاصرتها . فرار الرميمي والتجاؤه إلى إفريقية . دخول ألمرية في طاعة ابن الأحمر . دخول مالقة في طاعته . اجتماع بقايا الأندلس في مملكة غرناطة . تغدو مستودعا لتراث الأندلس . دعاء ابن الأحمر للخلافة الموحدية ، ثم لأمير إفريقية الحفصي . غزو القشتاليين لمنطقة جيان . استيلاؤهم

على أرجونة وغيرها . فشلهم فى محاصرة جيان . ابن الأحمر يعقد الصلح مع ملك قشتالة . شروط هذا الصلح . ماخسرت الأندلس من جرائه . اعتراف ابن الأحمر بطاعة قشتالة . استيلاء ملك قشتالة على إشبيلية . ابن الأحمر يختار ولى عهده . النزاع بين ابن الأحمر وبين صاحب سبتة . مسير ابن الأحمر إلى إشبيلية لتجديد الصلح مع ملك قشتالة . شعوره بنية الغدر والخيانة ومغادرته للمدينة . عود ملك قشتالة لغزو الأندلس . صدى محنة الأندلس فى الغرب . النجدة الأولى من عسكر بنى مرين . إغارة القشتاليين على غرناطة . اضطرار ابن الأحمر إلى تجديد الهدنة مع ألفونسو العاشر . خسائر جديدة للأندلس . رثاء أبى الطيب الرندى للقواعد الذاهبة . وفاة ابن الأحمر . بعض صفاته وخلاله .

تركنا محمد بن يوسف بن هود ، المتوكل على الله ، وقد اعترفت بطاعته ، عدا مرسية ، مطلع ثورته ، ومهد حركته ، شاطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقه ، والمرية ، ثم إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى . وشعر ابن هود بحق أنه بانهيار الحكم الموحدى ، واجتماع معظم قواعد الأندلس تحت طاعته ، قد غدا زعيم الأندلس الحقيقى ، وقائد حركتها التحريرية ، والمسئول عن حمايتها والذود عنها ضد النصارى ؛ وفى ظل هذا الشعار سار ابن هود لإنجاد ماردة ، حينما دهمها الليونيون ، ولكنه هزم فى المعركة التى نشبت بينه وبينهم ، وسقطت ماردة وبطليوس ، فى أيدى النصارى (٦٢٧ هـ) . واستولى ابن هود على الجزيرة الخضراء ، وجبل الفتح ، من أيدى الموحدين فى سنة ٦٢٩ هـ ، وكان استيلاؤه عليهما بمعاونة السيد أبى عمران موسى والى سبتة ، وأخى الخليفة المأمون عندما ثار على أخيه ، ودعا بالخلافة لنفسه ؛ ونزل السيد أبوعمران فى نفس الوقت لابن هود عن سبتة ، وحكمها نائبه الغشتى حينا حسبما تقدم ذكره ، ثم خاض ابن هود وهو عائد إلى الشمال ، فى أواخر هذا العام ، مع القشتاليين وعلى مقربة من وادى آش ، معركة هزم فيها القشتاليون وقتل معظمهم[1] ، ولكنه عاد فاشتبك مع القشتاليين فى العام التالى ، على مقربة من شريش ، فى معركة هزم فيها ، ورأى على أثر ذلك أن يعقد الهدنة مع القشتاليين ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وكان ابن هود قد رأى منذ البداية ، أن يستظل بلواء الدولة العباسية ، فرفع الشعار الأسود ، ودعا للخليفة المستنصر بالله العباسى ، وبعث إليه ببغداد يطلب المرسوم والخلع الخلافية ، فبعث إليه المستنصر بالمرسوم والخلع والرايات ،

---

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٨٠ .

وحملها من بغداد إلى الأندلس، مبعوث الخليفة أبو على حسن بن على بن حسن الكردى الملقب بالكمال ، وتلقاها ابن هود فى سنة ٦٣٠هـ ، وهو يومئذ بغرناطة، فقرئ المرسوم على الناس بمصلى العيد ، وقد اجتمعوا لطلب الغيث والاستسقاء وابن هود يرتدى السواد ، والرايه السوداء بين يديه[1] ، ومن حسن التوفيق أن نزل المطر على أثر على ذلك ، فاستبشر الناس ، وكان يوماً مشهوداً .

وقد نقل إلينا ابن الخطيب نص هذا المرسوم الخلافى ، وفيه يسبغ الخليفة على ابن هود ، لقب المتوكل على الله ، الذى اختاره لنفسه ، ومما جاء فيه بعد الديباجة ، وبعد الإشادة بالخليفة المستنصر وعهده :

« ولما انتهى إلى علومه الشريفه (أى المستنصر) زادها الله شرفاً وقدساً ، ما عليه مجاهد الدين ، محمد بن يوسف بن هود ، من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان ، والتزام شروط الولاء ، الذى هو علامة متانة الدين وكمال الإيمان ، والتصدى لمقارعة الناكثين عن محجه الحق والهدى ، والتجرد لمرابطة من حاد عن السنة والإجماع ، اللذين بهما يسترشد ويهتدى ، اقتضت آراؤه الشريفة ، المقدسة النبوية الإمامية الظاهرة ، الزكية الممجدة ، المعظمة المكرمة ، المستنصريه ، زادها الله جلالا متألق الأنوار ، وشرفاً رفيع المنار ، واقتدارا تجوب جياده جنوب الآفاق والأقطار ، أن يقلده أمر جزيرة الأندلس ومايجرى معها من الولايات والبلاد ، ويسوغه ما يفتتحه من ممالك أهل الشرك والعناد ، تقليداً صحيحاً شرعياً ، وتسويغاً صريحاً إماميا ، وإنعاماً يضفو عليه لباس فخاره الفضفاض ، وتصفو لديه موارد مواهبه النميرة الحياض .

وقد أمره — صلوات الله عليه — بأوامر تهديه إلى سبيل الرشاد ، وتحظيه برضى الله الذى هو أنفع الذخائر فى الدنيا ويوم يقوم الإشهاد ، وماتوفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل واليه ينيب » .

ويلى ذلك ما يسديه الخليفة إلى ابن هود من نصائح ، تتلخص فى وجوب تمسكه بتقوى الله ، وبأن يجعل كتاب الله مناراً يرجع إليه فى حل المشكلات ، وأن يعمل بسنة نبيه ، وأن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء ، ومشاورة العقلاء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٨٠ . ويقول ابن عذارى إن وصول مرسوم الخليفة كان فى سنة ٦٢٩ هـ (البيان المغرب ص ٢٧٦) ، ولكنا نرجح الرواية الأولى .

الألباء ، وأن يحسن السيرة فى رعيته ، وأن يعنى بمجاهدة الكفار ، وفقاً لما أمر الله فى كتابه . ثم يختتم الكتاب بتلقيب ابن هود بالألقاب الآتية : « الأمير ، الأصفهصلار الكبير ، الأجل ، المرابط ، الثاغر ، الغازى ، مجاهد الدين ، مجد الإسلام ، جمال الأنام ، نجم الدولة ، عز الملة ، معين الأمة ، فخر الملوك ، قامع المشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، زعيم الجيوش ، شرف الأمراء ، تاج الخواص ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه ونعمته »(١) .

وهكذا غدا ابن هود أمير الأندلس الشرعى ، وتوجت زعامته بشعار الخلافة العباسية ، حسبما كان عليه المرابطون أيام دولتهم وحكمهم للأندلس . وكان سلطان ابن هود يمتد يومئذ فى شرقى الاندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمرية جنوباً ، وفيما بين ألمرية ، والجزيرة الخضراء ، وفى وسط الأندلس ، فيما بين قرطبة وغرناطة ، ولم يخرج عن سلطانه من القواعد الكبرى ، سوى بلنسية فى شرقى الأندلس ، وجيّان فى وسطها ، وإشبيلية فى غربها . وكانت إشبيلية قد دانت بطاعته ، وولى عليها أخاه عماد الدولة حسبما تقدم . ولكن لم يمض طويل على ذلك ، حتى نكث أهل إشبيلية ببيعتهم ، وأخرجوا منها عماد الدولة ، والتفوا حول زعيم جديد هو القاضى أبومروان أحمد بن محمد الباجى ، فاعتذر عن قبول الولاية أولا ، ولبث حيناً على قاعدة الشورى ، ثم تقلد الولاية ، وبسط سلطانه على إشبيلية وقرمونة . وكان ذلك فى سنة ٦٢٩ هـ(٢) .

وعمد ابن هود على أثر تلقيه المرسوم الخلافى بالولاية ، إلى اختيار ولده أبى بكر محمد لولاية عهده ، ولقبه بالواثق بالله ، المعتصم به . وقد وقفنا على رسالة فى ذلك مدبجة بقلم أبى عبد الله بن الجنان ، عن لسان ابن هود وموجهة منه إلى أهل شاطبة يبلغهم فيها ذلك الاختيار ، وفيها ينعت نفسه « بمجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه ، أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود » ويخاطب الفقهاء والوزراء والقواد والأعيان والوجوه والنبهاء والكافة « بشاطبة وجهاتها ، وما انضاف إليها من جهة بيران ودانية ، وذلك من حضرتنا بمرسية » . ثم يعرب فيها ، بعد الدعاء للنبى وللخليفة المستنصر بالله ، عن محبته لهم ، ويعلن

(١) يراجع نص المرسوم فى أعمال الإعلام ص ٢٨٠ – ٢٨٦ ، ونشر البيان المغرب بعض فقراته ص ٢٧٧ و ٢٧٨ .

(٢) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٢٧٨ و ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ .

إليهم أنه اختار : « ولى عهدنا ، المتولى لأمور المسلمين من بعدنا ، ابننا الأمير الموفق المبارك الميمون السعيد الرشيد ، الواثق بالله ، المعتصم به ، أبا بكر محمداً ، أدام الله توفيقه ، ومنحه إنجاده وعضده وإسعاده ، وتملكه جميع أمورها ، وكافة حواضرها وثغورها ، وتقدمه فيها فى بلاد هى منشأه ومشيئته ومبدأه » ، وأنه يوليه « جميع أقطار المشرق ، وبلاده ، وأغواره وأنجاده ، تولية عامة فى حياتنا ، مع أنه المتولى بحكم العهد الذى ارتضينا له لكل ممالكنا وطاعاتنا ، وخصصنا هذه البلاد الشرقية ، حاطها الله تعالى بتقديمه فيها »[1] .

وكان مما يوطد مركز ابن هود ، ويدعم زعامته وهيبته ، هو تجرده لمحاربة النصارى ، وما يخوضه معهم من معارك متوالية ، وإذا كان ابن هود قد انتهى بأن عقد الهدنة ، مع ملك قشتالة ، نظير إتاوة يؤديها إليه ، فإن ذلك لم يكن إلا نزولا منه على حكم الظروف ، لكى يتفرغ لمقارعة خصومه ومنافسيه .

— ١ —

على أن ابن هود لم يكن منفرداً برياسة الأندلس ، ولو أتيح له هذا الانفراد بالرياسة ، لكان من المرجح أن يكون له فى قيادة الأندلس شأن آخر ، وقد رأينا فيما تقدم ، أنه فى الوقت الذى قام فيه بمرسية ، كان له فى شرق الأندلس ، منافس آخر ، هو أبو جميل زيان بن مردنيش القائم فى بلنسية . بيد أن هذه المنافسة المحلية فى الشرق ، لم تكن مما يضايق ابن هود أو يهدد زعامته ، وإنما كان يتوجس ابن هود ويخشى من قيام زعيم آخر ، أخذ نجمه يبزغ فى أواسط الأندلس وجنوبها بسرعة ، ويظفر بطاعة قاعدة بعد أخرى ، ولم يكن هذا الزعيم الأندلسى الجديد ، سوى محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس النصرى المعروف بابن الأحمر . وكان بنو نصر هؤلاء ، وهم يرجعون نسبتهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، فى الأصل سادة حصن أرجونة ، الواقع على مقربة من نهر الوادى الكبير ، ومن أعمال ولاية جيان . وكان لبنى نصر فى تلك المنطقة عصبية ووجاهة مؤثلة ، فلما اضطربت الأمور ، وانهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وظهر ابن هود فى الشرق ، وأخذ سلطانه يمتد نحو الجنوب ، لاحت لمحمد بن يوسف فرصة للظهور والعمل ، وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ،

---

(١) وردت هذه الرسالة فى كتاب « زواهر الفكر » الذى سبقت الإشارة إليه (مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٠ الغزيرى ، و٥١٨ ديرنبور) .

يضطرم بكثير من الشجاعة والإقدام والعزم ، فدعا لنفسه وبويع أولا فى أرجونة موطن أسرته ومثوى عصبيته وأنصاره ، وفى الجهات المجاورة لها ، وذلك فى سنة ٦٢٩هـ . وفى العام التالى ، دخل مدينة جيان وبويع بها ، ثم أطاعته بسطة ، ووادى آش؛ وهكذا قوى أمره وامتد سلطانه بسرعة إلى أنحاء الأندلس الوسطى وأخذ يتطلع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية . وكان ابن الأحمر ، يرى منذ البداية ، أن يستظل بلواء سلطة إسلامية مرموقة . فدعا أولا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، وتلقى منه بعض العون ، ولكنه عاد ، فدعا على نمط ابن هود للخليفة العباسى ، المستنصر بالله[1] .

ولم يلبث ابن هود أن شعر بخطورة هذه الحركة ، التى يضطلع بها منافسه الجديد ، فى المناطق الوسطى والجنوبية ، ومن ثم فقد اعتزم أن يتأهب لمقارعته والقضاء على حركته ، ولم يكن يخاف أيضاً على ابن الأحمر خطورة ، المعركة التى يجب عليه أن يخوضها مع ابن هود ، لكى تخلص له رياسة الأندلس ، ومن ثم فقد أخذ من جانبه يتأهب لخوضها ، وكان عقد ابن هود للهدنة ، مع القشتاليين ، يرجع قبل كل شىء إلى رغبته فى التفرغ لهذه المعركة الداخلية . ومن جهة أخرى فقد اتجه ابن الأحمر إلى العمل على تقوية جانبه ، بالتفاهم مع أبى مروان أحمد ابن محمد الباجى المتغلب على إشبيلية ، وذلك بأن عقد معه حلفاً ، وصاهره على ابنته ، واتفق الاثنان على مقاومة ابن هود ومحاربته .

وتأهب الفريقان للحرب ، وحشد كل منهما مااستطاع من قواته ، والتقيا على مقربة من إشبيلية ، ووقعت بينهما معركة ، كانت الهزيمة فيها على ابن هود ، وكان النصر لابن الأحمر وحليفه الباجى ، وكان وقوعها فى أوائل سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣ م)[2]. ودخل ابن الأحمر إشبيلية بعد ذلك بقليل، وهو يضمر الغدر بحليفه وصهره الباجى ، ولم يلبث أن دس عليه أحد أصهاره من بنى أشقيلولة فقتله وذلك فى جمادى الأولى من نفس العام ، وبادر ابن الأحمر فاحتل القصبة ، وحاول أن يبسط سلطانه على المدينة ، ولكنه لم يلبث فيها سوى شهر ، وثار به أهل إشبيلية ، وأخرجوه من القصبة ومن المدينة ، عنوة ، ثم عادوا فدعوا

---

(١) البيان المغرب ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ . وراجع كتابى « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » الطبعة الثانية ص ٣١ و ٣٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

لابن هود ، وبعث إليهم ابن هود أخاه سالما عماد الدولة ليضطلع بولاية إشبيلية مرة أخرى ، والظاهر مما يقوله ابن عذارى أنه قد وقع لابن الأحمر بقرطبة ، مثلما وقع بإشبيلية ، وأن أهل قرطبة ، كانوا قد بايعوه فى بداية أمره ، فلما رأوا فعلته بالباجى ، وما ترتب عليها من إخراجه من إشبيلية ، نكثوا ببيعته وخلعوا طاعته وعادوا إلى طاعة ابن هود[١] .

وحدث عندئذ حادث لم يكن متوقعاً ، هو عقد الهدنة والصلح بين ابن هود وابن الأحمر . وذلك أن كلا الزعيمين ، أدرك فيما يبدو ، خطر الحرب الأهلية الانتحارية ، التى يخوضها كل منهما ضد صاحبه ، وأنه لن يستفيد من هذا الصراع الأخوى المؤلم ، سوى ملك قشتالة ، المتربص بهما معا ، فتفاهما ، وعقد الصلح بينهما ، وذلك فى شوال سنة ٦٣١ هـ (يونيه ١٢٣٤م) ، وذلك على إن يعترف ابن الأحمر بطاعة ابن هود ، وعلى أن يقره ابن هود فى ولاية جيان وأرجونة ، وبركونة وأحوازها . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن اعتراف ابن الأحمر بطاعة ابن هود ، وقع على أثر وصول العهد الخلافى من بغداد لابن هود وذلك فى سنة ٦٣١[٢] .

ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار بمدينة لبلة فى سنة ٦٣٢ هـ ، وهى من أعمال إشبيلية ، قاضيها شعيب بن محمد بن محفوظ ودعا لنفسه ، وتسمى بالمعتصم ، فسار ابن هود لقتاله ، فامتنع بمدينته ، وهى ذات موقع طبيعى حصين وأسوار عاليه ، فحاصرها ابن هود واستمر على محاصرتها حينا ، وهى صامدة ممتنعة عليه[٣] .

وقد كان سير الحوادث فى الواقع يدعو إلى عقد مثل هذا التهادن بين الزعيمين المتنافسين . ذلك أن ابن هود ، علم وهو على حصار لبلة ، بأن ملك قشتالة قد خرج فى قواته صوب الأندلس ، يريد محاربته ، ولكن فرناندو الثالث ، انحرف بقواته نحو منطقة جيان التى يسيطر عليها ابن الأحمر ، وأخذ يعيث فى أحواز أرجونة ، وجيان ، وترك ابن هود حصار لبلة ، دون أن ينال منها مأرباً ، ليعود إلى أراضيه ، وهنالك فيما بين إشبيلية وقرطبة وفد إليه سفير فرناندو ،

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٩ و ٣٢٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ .
(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ .
(٣) روض القرطاس ص ١٨٣ ، والبيان المغرب ص ٣٢٢ .

ألبار بيرث ، وجرت بينهما مفاوضات ، انتهت بالاتفاق على تجديد الهدنة ، بين ابن هود وملك قشتالة لمدة ثلاثة أعوام ، وذلك على أن يدفع ابن هود لملك قشتالة إتاوة قدرها مائة ألف وثلاثون ألف دينار ، دفع منها فى الحال خمسين ألفا ، وقسط الباقى على الأعوام الثلاثة ، وعلى أن ينزل ابن هود عن بعض الحصون الواقعة فى منطقة جبل الشارات (سيرّا مورينا) ، وهى حصون نائية ، منقطعة لم يكن من السهل أن يدافع عنها أو ينجدها المسلمون[1] . ويقول لنا ابن خلدون إن هذه الحصون كانت ثلاثين ، وأن ملك قشتالة تعهد بأن يتخلى عن معاونة ابن الأحمر ، وأن يعاون ابن هود على تملك قرطبه[2]. على أن هذا القول بالنسبة لابن الأحمر لم يكن يتفق مع ماتم من عقده للسلم مع ابن هود ومبايعته له ، وهو ما يقرره لنا ابن خلدون نفسه حسبما سبقت الإشارة إليه . وكان عقد هذه الهدنة ، بين ملك قشتالة وابن هود فى أواخر سنة ٦٣٢ هـ (صيف سنة ١٢٣٥م) .

وعلى أثر ذلك ارتد ملك قشتاله فى قواته عائداً إلى بلاده ، وفى خلال هذا العود ، قام بمحاصرة «حصن الأطراف» Iznataraf ، فاستسلم إليه فى الحال على أن يمنح الأمان لمن كان به من المسلمين ، وأن يغادروه حاملين ماستطاعوا من أمتعتهم . ثم حاصر من بعده حصن شنت إشتبين ، وهو من الحصون الواقعة ، فى طريق بياسة وأبدة ، فسلمه المسلمون إليه بنفس الشروط ، واستولى فرناندو فى طريقه أيضاً على عدة حصون أخرى فى منطقة جيان ، وكانت هذه الحصون كلها من الحصون التى نص على تسليمها فى الهدنة التى عقدت مع ابن هود .

— ٢ —

والواقع أن هذه الحوادث كلها : غزوات فرناندو الثالث المتوالية لأراضى الأندلس ، وتهدئته لابن هود بعقد السلم معه ، واستيلاؤه ، واستيلاء الجماعات الدينية العاملة باسمه ، تباعا على حصون منطقة جيان ، لم تكن سوى مقدمات لغاية أخطر وأبعد مدى ، كان يضمرها ويعمل لها ملك قشتالة ، أوبعبارة أخرى لم يكن سوى تمهيد لضربة مؤلمة جديدة ، يزمع إنزالها بالأندلس ، تلك هى استيلاؤه على مدينة قرطبة العظيمة .

كانت عاصمة الخلافة القديمة ، منذ انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة ،

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص٣٢٢ ، وكذلك : J.Gonzalez : ibid ; p. 71 y notas

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .

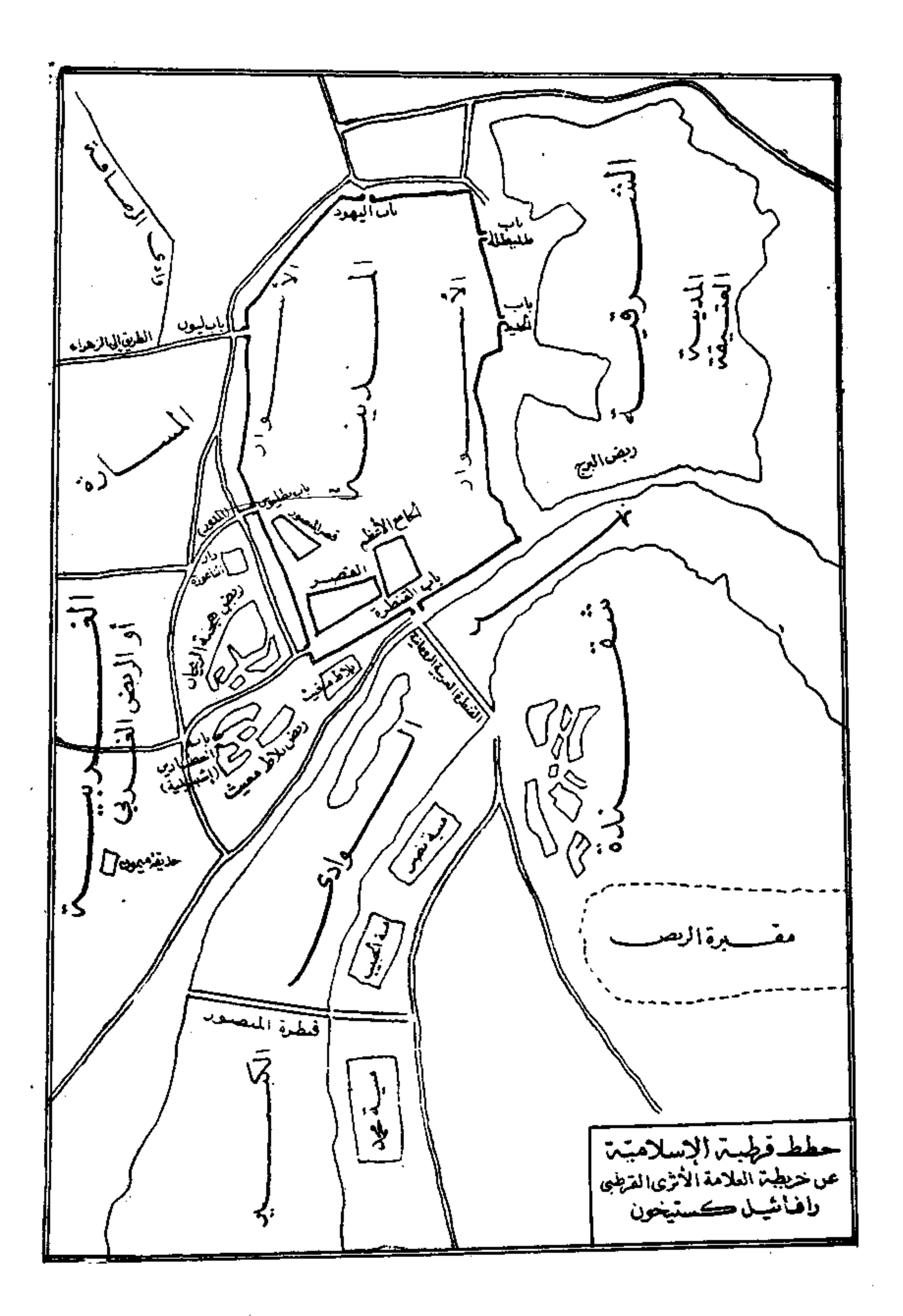
ومذ ثار شعبها المتوثب ، بواليها الموحدى السيد أبى الربيع وقتله، حيرى فى أمرها، لا زعيم لها ولاقائد ، تتردد فى الطاعة بين مبايعه، ابن الأحمر ومبايعة ابن هود ، ولكنها أميل إلى الانضواء تحت لواء ابن هود . ومن الأسف أن الرواية الإسلامية التى تعنى دائماً أشد عناية بأحوال قرطبة وأخبارها، لاتمدنا عن هذه الفترة الأخيرة من حياة المدينة الأندلسية العظيمة ، أوعن مأساة سقوطها ، بأية تفاصيل شافية . ومن ثم فإنه لابد لنا أن نعتمد فى ذلك بالأخص على أقوال الرواية النصرانية المعاصرة ، إذ هى أكثر عناية وتفصيلا .

ولقد عرفنا من قبل فى مواطن وظروف كثيرة ، ماكان عليه أهل قرطبة من خلق متمرد مضطرم ، لايلين ولا تصقله عبر الحوادث ، ومن ثم فإنا نراهم فى تلك الآونة العصيبة ، التى كان مصيرهم فيها يهتز فى كفة القدر ، على خلاف فى الرأى ، لايجمعهم شعار الخطر المشترك ، ونرى الأحقاد والخصومات ، تدفع فريقاً منهم إلى المغامرة ، بسلامة مدينتهم ، فيما يمكن أن يوصم بعمل من أعمال الخيانة ، التى لايمكن أن يغتفرها التاريخ .

فنى أوائل سنة ١٢٣٦ م (أواخر ربيع الثانى سنة ٦٣٣ هـ) خرجت جماعة من الفرسان القشتاليين ، وهم من أهل الحدود المغاورين المحترفين ، ومعظمهم من منطقة أندوجر الواقعة شرقى قرطبة ، وساروا صوب قرطبة، فأشرفوا عليها حينما دخل الليل . وكانت مدينة قرطبة فى ذلك الوقت تنقسم إلى خمس مناطق أو أحياء متعاقبة ، وبين كل منطقة وأخرى ، سور فاصل[1] ، وكانت المنطقة الأولى الواقعة شرقى قرطبة ، تعرف بالربض الشرقى أو « الشرقية » وتجتمع باقى المناطق فيما يسمى « بالمدينة »، وهى تقع غربى « الشرقية» وكلتاهما الشرقية والمدينة، تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير . فلما وصل الفرسان القشتاليون وهم فئة قليلة ، لاتحدد لنا الرواية عددها ، وربما كانت تضم بضع عشرات — إلى مشارف « الشرقية » وضعوا فى الحال خطة اقتحامها . وهنا تختلف الرواية فى شأن الخطة التى تم بها هذا الاقتحام . فنى رواية ألفونسو الحكيم أن الفرسان القشتاليين أسروا بعض المسلمين من الساخطين على زعمائهم ، وعلموا منهم أن المدينة محروسة بشدة ، وتفاهموا معهم على إحداث ثلمة فى سور الشرقية ، واستطاعوا بهذه الطريقة أن يقتحموا السور ، وأن يستولوا على الأبراج فى ليلة حالكة عاتية

---

(١) الروض المعطار ص ١٥٣ .



باب اليهود
باب ليون
الطريق إلى الزهراء
المسارة
ربض البرج
الجامع الأعظم
القصر
باب القنطرة
ربض بلاط مغيث
حديقة ميمون
وادي
مقبرة الربض
خطط قرطبة الإسلامية
عن خريطة العلامة الأثري القرطبي
رافائيل كستيخون

الريح[1] . وفى رواية أخرى أن بعض المسلمين ، ومنهم بالأخص واحد كان قد تنصر ، ساعدوا القشتاليين على تحقيق خطتهم ، وبينوا لهم أن الشرقية ، ليس بها سوى قليل من السكان ، وأن أسوارها الخارجية ضعيفة الحراسة ، ومن ثم فقد استطاع القشتاليون ، بإرشاد هذا المسلم المتنصر ، أن يتسلقوا السور ، وأن يستولوا على الشرقية بطريق المباغتة ، وكان هذا السور ، هو أول الأسوار الخارجية ، وليس هو السور الذى يفصل الشرقية عن باقى أحياء المدينة ، وقتل من أهل الشرقية عدد كبير ، وهرب الباقون إلى داخل المدينة . واحتل النصارى بعض الأبراج المنيعة فى السور . وفى الحال وقع الهرج بالمدينة ، وتقدم المدافعون لمهاجمة النصارى ، وقتل عدد من الجانبين ، ولكن النصارى لبثوا صامدين فى الأبراج ، وأرسلوا فى الحال يطلبون الإمداد[2] .

وتجمل الرواية الإسلامية، ذلك العدوان المفاجىء فى قولها: « وفيها (أى فى سنة ٦٣٣ هـ) غدر النصارى شرقية قرطبة ، وذلك فى ثالث شوال ، غبشاً فى غفلة السحار ، وسلم الله عز وجل النساء والذرارى حتى لحقوا بالغربية ، وبقى الناس معهم فى قتال شديد »[3] .

ووصل نداء القشتاليين إلى إخوانهم على الحدود بسرعة ، وفى الحال هرع اثنان من قادة الحدود ، هما أردونيو ألباريث ، وألبار بيرث ، الذى عرفناه من قبل ، كل فى قواته ، وتبعهما أسقف بياسة مع رجاله ، ثم أسقف قونقة فى قواته ، وسار فى أثرهم آخرون . وماكادت هذه الأنباء تصل إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وهو فى بنفنتى على مقربة من ليون ، حتى اهتم لها أيما اهتمام ، وكان ثمة من وزرائه ومستشاريه من يرى فى الأمر كثيراً من الخطورة والتعقيد، فهو يرتبط أولا مع ابن هود باتفاق الهدنة ، وقرطبة تدين بطاعة ابن هود ، وقرطبة مدينة عظيمة ، تزخر بالسكان والمدافعين ، ولايتأتى افتتاحها الا بقوات ضخمة ، ومن جهة أخرى فإن ابن هود قد يضطر إلى إنجادها بقواته ، خصوصاً وأن قرطبة تعتبر فى نظر المسلمين كبرى قواعد الأندلس ، ولها فى نفوسهم مكانة خاصة .

(١) Crónica General (Ed.M. Pidal) No. 1044 .

(٢) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina y Jimenez de Rada; p. 74 - 76 y notas .

(٣) هذه رواية روض القرطاس (ص ١٨٣) .

وهذا كله إلى ظروف الجو وقسوة الشتاء وفيضان الأنهار . ولكن ملك قشتالة لم يلق بالا إلى شيء من هذه الاعتراضات ، ولم يكن يرى بالأخص فى مهاجمة قرطبة نقضا لعهوده مع ابن هود ، إذ كان فريق من أهل المدينة هم الذين استدعوا النصارى . ومن ثم فقد بادر فرناندو الثالث من فوره بالمسير إلى الجنوب ، ومعه قوة من مائة فارس فقط ، وقصد من فوره إلى قرطبة ، فوصل إليها فى اليوم السابع من فبراير ، واضطرمت الحشود النصرانية المرابطة تحت أسوار المدينة حماسة لمقدمه ، وكانت تتضخم كل يوم بمن يفد إليها من حشود قشتالة وليون ، ومن فرسان الجماعات الدينية المختلفة . ونصب ملك قشتالة محلته قبالة قنطرة قرطبة التى تؤدى إلى طريق إستجة . وأخذ فى الحال فى وضع خطة للاستيلاء على المدينة[١].

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، ماذا كان موقف القرطبيين إزاء هذا الخطر الداهم ، وماذا كان بالأخص موقف ابن هود . أما عن القرطبيين ، فليس ثمة شك فى أنهم اعتزموا منذ اللحظة الأولى الدفاع عن مدينتهم وحاضرتهم ، ولكن كان من الواضح أنه كانت تنقصهم القيادة الحازمة ، وكان ينقصهم بالأخص اجتماع الكلمة . وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية تذكر لنا أن أهل قرطبة لبثوا مع النصارى فى قتال شديد[٢] ، وهى لاتذكر لنا اسم الزعيم أو القائد الذى اجتمع حوله أهل قرطبة فى تلك الآونة العصيبة ، وإن كانت الرواية النصرانية تذكر لنا أنه كان يسمى أبا الحسن . وأما عن ابن هود ، وهو صاحب الولاية الشرعية على قرطبة ، فقد كان من الطبيعى أن يتجه اليه القرطبيون لإنجادهم والدفاع عن مدينتهم . وكان ابن هود فى الواقع قد هرع فى قواته من قطاع مرسية ، حينما علم بالخطر الذى يحدق بعاصمة الخلافة القديمة . وكان فى جيش قوى يبلغ نحو خمسة وثلاثين ألف مقاتل ، ومعه نحو مائتى فارس من المرتزقة النصارى ، فسار فى قواته مسرعاً صوب قرطبة ، وانحرف عن العاصمة قليلا نحو الجنوب الشرقى ، وعسكر على مقربة من إستجة . وكان أهل قرطبة ينتظرون بفارغ الصبر مقدم ابن هود ، واشتباكه مع النصارى فى معركة فاصلة ، ولم يكن ثمة ريب أن ابن هود لو اشتبك بجيشه مع القشتاليين ، لحقت عليهم الهزيمة ، ولتركوا

---

(١) J. Gonzalez : ibid : p. 76-78; M. Lafuente : Historia General de Espana; T. IV. p. 48

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

المدينة المحصورة وشأنها . ذلك أن القشتاليين كانوا فى قلة من العدد ، ولم يكن مع ملك قشتالة سوى نحو مائتى فارس من الأشراف ، ولم تكن الحشود الواردة من مختلف أنحاء قشتالة ، تؤلف قوة ذات شأن . ولكن الذى حدث هو أن ابن هود لبث جامداً فى قواته . وهنا تختلف الرواية فى إيضاح سبب هذا الجمود . فيقال لنا إن قسوة الطقس ، وهطل الأمطار بشدة ، ونقص المؤن ، حملت ابن‌هود على التريث والإحجام . ووردت فى تاريخ ألفونسو الحكيم قصة أخرى ، خلاصتها أنه كان يوجد فى جيش ابن‌هود فارس قشتالى منفى بأمر مليكه يدعى لورنسو خواريز ، ومعه مائتان من المرتزقة النصارى ، وكان ابن هود يقربه ويثق به ويعمل بنصحه . فلما نزل ابن هود وجيشه فى إستجة ، وهو يعتزم مقاتلة القشتاليين ، فكر هذا الفارس فى أن يسترد رضى مليكه بخدمة عظيمة يؤديها إليه ، وهو أن يعمل على خدعة ابن هود ورده عن مقاتلة القشتاليين ، وإنجاد أهل قرطبة ، فتظاهر بأنه سوف يتسلل إلى المعسكر النصرانى تحت جنح الليل ، ويقف على مبلغ عدده وعدته . وسار لورنسو بالفعل ليلا مع أصحابه إلى المعسكر النصرانى ، وترك أصحابه على مقربة من المعسكر ، وتقدم بنفسه إلى خيمه الملك ، وطلب مقابلته لأمر خطير ، فاقتيد إليه ، وكان الملك غاضباً عليه ، فلما شرح إليه مهمته ، وأنه يريد أن يعمل على خدعة ابن هود ، وتخويفه من قوة الجيش القشتالى وعدده ، ورده عن مقاتلته ، عفا عنه الملك ، ووعده برعايته ، وتفاهم الإثنان على ما يجب عمله . وعاد لورنسو إلى ابن هود ، وحذره بشدة من الاشتباك مع القشتاليين ، لأنهم فى جيش قوى ، حسن الأهبة والعدد ، ولا يؤمن الدخول معه فى معركة ، فاستمع ابن هود إلى نصحه ، وقرر أن يتخلى عن مشروعه فى إنجاد أهل قرطبة والاشتباك مع القشتاليين[1] .

هذا ما تقرره الرواية النصرانية عن السبب فى إحجام ابن هود عن إنجاد أهل قرطبة . وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن ابن‌هود تلقى فى اليوم التالى رسالة من صاحب بلنسية أبى جميل زيان ، ينبئه فيها بأن خايمى ملك أراجون يشتد فى مضايقته وإرهاقه ، ويطلب إليه الإنجاد والغوث ، وأن ابن هود عملا بنصح مستشاره لورنسو خواريز ، قرر أن يسير إلى بلنسية ، وقد كان يطمح إلى

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) T. II. p.7 82 ، وكذلك : : J. Gonzalez :
ibid; cit. Crónica Latina ; p. 78 y notas

امتلاكها ، وأنه ترك قرطبة إلى مصيرها ، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، إلى أن يستطيع هو انقاذها فيما بعد[١] . على أن هذه الروايات النصرانية لاتلقى في نظرنا أى ضوء مقنع على تصرف ابن هود . ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية تكاد تلزم الصمت المطبق فى هذا الموطن . وكل ماهنالك أن صاحب روض القرطاس ، يقدم إلينا خلال حديثه عن حوادث سنة ٦٣٣ هـ وبعد ذكره لسقوط قرطبة ، نصاً موجزاً يقول فيه : « وفيها (أى فى سنة ٦٣٣هـ) انعقد الصلح بين ملك قشتالة ، وابن هود لأربعة أعوام بأربع مائة آلاف دينار فى السنة »[٢] . ويبدو من هذا النص أن الهدنة ، بين ابن هود وبين فرناندو الثالث ، كانت قد انتهت أو انقطع سريانها ، لتخلف ابن هود عن أداء الإتاوة المشروطة أو غير ذلك من الأسباب ، وأن التخلى عن إنجاد قرطبة ربما كان ضمن شروط الهدنة الجديدة ، التى يشير إليها صاحب روض القرطاس ، وهذا ما يمكن أن يستدل كذلك من سير الحوادث تحت أسوار المدينة المحصورة .

ذلك أن فرناندو الثالث شدد فى حصار قرطبة ، وقطع كل علائقها من جهة البر ، ومن جهة الوادى الكبير ، حتى لاتستطيع أن تتلقى أية مؤن أو أمداد من الخارج ، وحتى لايستطيع أن يدخلها أو يخرج منها أحد . واستمر هذا الحصار المرهق دون هوادة ، حتى نضبت موارد المدينة وأقواتها أوكادت ، وعندئذ اضطر أهل المدينة إلى مفاوضة ملك قشتالة فى التسليم على أن يؤمنوا فى أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، ووافق ملك قشتالة على هذا الشرط ، ولكن أهل قرطبة علموا عندئذ أن الجيش القشتالى تنقصه المؤن ، وأنه يعانى أيضاً من قلة الأقوات ، فنكلوا عن توقيع عهد التسليم أملا فى أن يضطر القشتاليون إلى رفع الحصار ، وتنجو المدينة من السقوط . وعندئذ شعر ملك قشتالة أن لابن هود يداً فى هذا التحول ، فبعث فى الحال إلى محمد بن الأحمر أمير جيان ، وعقد معه عهداً جديداً بالتحالف . وقد كان ابن الأحمر بالرغم من عقد الهدنة مع ابن هود ما يزال هو خصمه ، ومنافسه فى رياسة الأندلس ، وكان فوق ذلك خصيما لأهل قرطبة لأنهم طردوه من مدينتهم . وعندئذ شعر أهل قرطبة بخسران قضيتهم ، وانهيار آمالهم ، وعادوا إلى المفاوضة فى التسليم ، على شروطهم السابقة . وكان قد مضى على الحصار

---

(١) Crónica General; T. II. p. 783 .

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

بضعة أشهر ، وأضحى الموقف مستحيلا ، خصوصاً بعد أن نكل ابن هود عن إنجاد المدينة المحصورة ، وأحجم عن كل اشتباك مع القشتاليين . وكان بعض الغلاة من صحب ملك قشتالة من الأحبار والأشراف ، يرون رفض التسليم واقتحام المدينة ، وقتل كل أهلها المسلمين ، ولكن ملك قشتالة ومعه فريق آخر من مستشاريه ، كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة إلى اليأس ، وتخريب المدينة ، ومسجدها الجامع ، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها . والظاهر أيضاً أن ابن الأحمر ، حليف ملك قشتالة أو تابعه ، كان له يد فى إقناعه بقبول التسليم ، وتأمين أهل المدينة . وفى نفس الوقت عقدت بين ملك قشتالة ، وابن هود هدنة جديدة ، لمدة ستة أعوام يلتزم فيها ابن هود بأن يدفع إتاوة قدرها اثنين وخمسين ألف مرافيدى على ثلاثة أقساط سنوية[١] .

وهنا أيضاً ، لاتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، أية تفاصيل شافية عن تسليم قرطبة ودخول النصارى إياها ، وذلك حسبما فعلت بالنسبة لسقوط بلنسية ، وكل ماتذكره فى هذا الشأن كلمات موجزة ، مثل « وتغلب عليها النصارى » أو « كان دخول النصارى مدينة قرطبة » أو « ملكها النصارى » أو ماشابه هذه العبارات من كلمات مقتضبة[٢] . وهنا أيضاً يجب أن نعتمد فى ذكر هذه التفاصيل على الرواية النصرانية . فإنه ماكاد عهد التسليم يعقد بين أهل المدينة ، وبين ملك قشتالة حتى ترك أهل قرطبة دورهم ، وأوطانهم ، وغادروا مدينتهم العزيزة التالدة ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم ، وقد برح بهم الجوع والحزن ، وتفرقوا فى أنحاء الأندلس الأخرى . وفى يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٦٣٣هـ ، الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦[٣] م ، دخل الجند القشتاليون مدينة قرطبة ، وفى الحال رفع الصليب على قمة صومعة جامعها الأعظم ، ودخل أسقف أوسمة إلى الجامع ، وحوّل فى الحال إلى كنيسة . وفى اليوم التالى ، يوم الاثنين ٣٠ يونيه دخل فرناندو الثالث ومن معه من الأشراف والكافة ، قرطبة ، ثم دخل الجامع ، وهنالك استقبله أساقفة أوسمة ، وبياسة ، وقونقة ، وسائر رجال الدين ، وأقيم

(١) J. Gonzalez : Ibid, p. 79 & 80 y notas .

(٢) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) فى الترجمة ٣٠٢ ، والبيان المغرب ص ٣٢٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ ، والروض المعطار ص ١٥٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

(٣) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) ص ٢٠٢ .

فى الحال قداس شكر بورك فيه الملك . ومما تذكره الرواية النصرانية فى هذا الموطن ، أن الملك فرناندو أمر بأن تنزع النواقيس التى كان الحاجب المنصور قد أخذها من كنيسة شنت ياقب (سنتياجو) حين غزوه لمدينة شنت ياقب فى سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، وهنالك جعلت رؤوسا للثريات الكبرى بالجامع — أمر بأن تنزع هذه النواقيس، وأن يحملها الإسرى المسلمون على كواهلهم ، إلى شنت ياقب ، لترد هنالك إلى أمكنتها بالكنيسة الكبرى[1]. ثم سار الملك بعد ذلك إلى قصر قرطبة ، القريب ، وهو قصر الأمراء والخلفاء الأمويين القدماء ، ونزل فيه ، وندب لحكم المدينة المفتوحة الدون تليو ألفونسو ، وحشدت لحراسة المدينة حامية كافية من الفرسان، وأخذ النصارى يفدون إليها من سائر الأنحاء لسكناها وتعميرها ، وفق الخطة التى وضعها الملك لذلك ، وانصرف ملك قشتالة ، عائداً إلى بلاده[2] .

وهكذا سقطت قرطبة ، عاصمة الخلافة القديمة ، وكبرى قواعد الأندلس، ومثوى العلوم والآداب الأندلسية ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون ، منذ افتتاحها فى سنة ٩٢هـ (٧١١ م) خمسمائة وخمسة وعشرين عاما ، وبعد أن لبثت قرونا منارة ساطعة ، تبث أضواء علومها وفنونها ، فى سائر أنحاء شبه الجزيرة، وفيما وراء جبال البرنيه . ومن الغريب المحزن ، أن الرواية الإسلامية لاتكاد ترثى قرطبة إلا بمقتضب الكلم ، وأن الشعر الأندلسى وكذلك النثر ، لايخصانها بشىء من تلك القصائد الرنانة المؤسية ، وتلك الرسائل البليغة المبكية، التى يخصان بها قواعد مثل طليطلة ، وبلنسية ، وإشبيلية . وربما كان سبب ذلك أنه لم يكن ثمة بقرطبة ، عند سقوطها ، كتاب وشعراء مثل ابن الأبار ، وأبى المطرّف بن عميرة المخزومى ، وإبراهيم بن سهل الإشبيلى .

ومن الواضح أن سقوط قرطبة ، كان نذيراً بخضوع معظم البلاد والحصون القريبة، لسلطان النصارى . ومع أن ملك قشتالة لم يضع يده نهائياً على تلك البلاد والحصون ، إلا أنها خضعت جميعاً لطاعته ، وتعهدت بأداء الجزية ، والسماح بإقامة حاميات نصرانية بها . وكان من هذه البلاد والحصون ، إستجة، والمدور ، وإشتبة، وبيانة، وأجيلار (بلاى) ومرشانة وقبرة وأشونة، واللسانة، ومورور وغيرها.

(١) Crónica General (Ed. Pidal); p. 734 .

(٢) J. Gonzalez : ibid; p. 80 & 81 y notas .

— ٣ —

لما جددت الهدنة بين ملك قشتالة، وابن هود، وانتهت المأساة بتخلى ابن هود عن إنجاد قرطبة ، لتسقط بعد ذلك بقليل فى أيدى النصارى ، غادر ابن هود فى قواته مدينة إستجة . وليس فى الرواية ما يبين لنا اتجاهه ، وخط سيره فى تلك الآونة . بيد أنه وجّه بعد ذلك بقليل ، فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٤ﻫ ، إلى نوابه وعماله فى مختلف القواعد التى تدين بطاعته ، كتابا يحثهم فيه على تقوى الله ، ومراعاة أحكامه وحدوده ، والاقتداء بالسلف الصالح ، والحرص على صون الدماء ، وحقنها ، وعدم إراقتها إلا بمسوغ شرعى ، واختيار المشرفين على الأموال من ذوى العفة والنزاهة والدين، لأن حرمة الأموال مشبهة بحرمة الدماء ، وأن تكون معاملة الناس فى الحق سواء ، دون محاباة ولا مفاضلة ، ولا مجاوزة فى تغليب قوى على ضعيف ، ولا يؤخذ أحد بجريمة غيره ، وأن يجرى العمل باتباع أحكام كتاب الله ، وأن يتلى كتابه هذا على الناس جملة وتفصيلا [١] .

ولسنا نعرف شيئاً عن حركات ابن هود وأعماله فى الأشهر التالية ، ولكنا نراه يتجه فى قواته نحو ثغر ألمرية فى أوائل سنة ٦٣٥ ﻫ . وكانت ألمرية فى مقدمة البلاد التى نادت بطاعته ، ودعا له بها أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن أبى يحيى الرميمى ، وهو حفيد واليها السابق أبى يحى الذى افتتحها النصارى من يده ، فى سنة ٥٤٥ ﻫ ، واستردها الموحدون بعد ذلك أيام الخليفة عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٥٢ ﻫ . ولما دعا أبو عبد الله لابن هود بألمرية ، قصد إليه بمرسية ، فولاه ابن هود وزارته ، وصرف إليه أموره ، فأبدى غيرة فى خدمته ، وأقنعه بأن يحصن ألمرية ، وأن يجعل منها مثوى له ، يلجأ إليه عند الحاجة ، ثم تولى الرميمى شئون ألمرية ، واستبد بها ، ولبث أثيراً عند ابن هود وموضع ثقته ، وكان يدعى بذى الوزارتين . وتختلف الرواية فى أمر البواعث التى حدت بابن هود إلى أن يقصد إلى ألمرية بعد أن ترك قرطبة لمصيرها ، فهناك قول بأنه كان يقصد السير بقواته إلى بلنسية لإنجاد صاحبها أبى جميل زيان ، وأنه كان يزمع أن ينقل جنده بالسفن من ألمرية إلى بلنسية ، وهذا قول الرواية النصرانية ، متمشياً مع ما سبق ذكره من قولها ، إن أبا جميل زيان بعث إلى ابن هود يستغيث به وهو فى

(١) أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذة طويلة من هذا الكتاب (ص ٣٣٢ — ٣٣٥) .

إستجة ، وأن ابن هود قرّر أن يستجيب إلى هذا الصريخ ، لأنه كان يطمح إلى امتلاك بلنسية. بيد أنه يبدو من الأرجح أن ابن هود كان يقصد إلى العمل ، على توطيد سلطانه فى المنطقة الجنوبية ، خصوصاً وقد كانت غرناطة تضطرم يومئذ بالثورة عليه وتنادى بخلع طاعته ، حسبما نبين بعد ، وأنه سار إلى ألمرية أولا لينظم خطة العمل . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا تعليلا آخر ، هو أن ابن هود كانت له جارية إسبانية رائعة الحسن من بنات الإشراف ، وكان قد أودعها لدى الرميمى بألمرية خشية أن يتسرب خبرها إلى زوجته ، فشغف بها الرميمى ، واستأثر بها ، فنمى ذلك أن ابن هود ، فسار إلى ألمرية ، وهو يضمر معاقبة الرميمى ، فلما وصل إلى ظاهر ألمرية ، استقبله الرميمى بمنتهى الحفاوة ودعاه إلى قصره ، ليقوم بحقه ، وليجتمع هنالك بجاريته الحسناء ، فقبل ابن هود دعوته ، ولما حل بالقصر على مأدبة حافلة ، كان ابن الرميمى قد دبر أمره للقضاء عليه متى جن الليل ، فقيل إنه دس عليه بالحمام أربعة من رجاله قضوا عليه ، وقيل إنه قتله خنقاً بمخدتين أقعدهما على نفسه وفيه . وهكذا لجأ الرميمى إلى الجريمة احتفاظا بسلامته وسلطانه . وفى صباح اليوم التالى أعلن وفاة ابن هود ، وأنه توفى فجأة من صرع أصابه ، ووضعت جثته فى تابوت أرسل بحراً إلى مرسية ، وكان مصرع ابن هود على هذا النحو فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ﻫ (٢١ يناير ١١٣٨م)[١]. واستمر الرميمى على رياسته لألمرية فترة أخرى حتى انتزعها منه ابن الأحمر .

وهكذا توفى محمد بن يوسف بن هود المتوكل ، وهو فى ذروة سلطانه ، ومشاريعه ، وانهارت بوفاته دولته التى لم يطل أمدها سوى تسع سنين وبضعة أشهر ، والتى كانت تبشر حين قيامها ، بعهد جديد من الإحياء والاستقرار بالنسبة للأندلس . وكانت ثورة ابن هود وحركته ، رمزاً لتلك الأمنية القديمة ، التى اتخذت من قبل شعاراً لمختلف الثورات التى قامت ضد المرابطين فى نهاية عهدهم ، والتى اضطلع بها محمد بن سعد بن مردنيش ، فى أوائل عهد الموحدين وهى العمل على تحرير الأندلس من نير حكامها الأجانب ، وكان ابن هود فى الوقت الذى يعمل فيه لتدعيم سلطانه ، وزعامته ، مخلصاً لدعوته ، وغايته فى

---

(١) البيان المغرب – القسم الثالث ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ، والمقرى فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٢ . ويقول ابن الأبار إن مصرع ابن هود وقع فى السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥ ﻫ (الحلة السيراء ص ٢٤٩) .

جمع كلمة الأندلس تحت لواء قومى جديد، والذود عما بقى من أراضيها وقواعدها ضد تيار الفتح النصرانى ، وكان الانحلال المؤلم الذى انتهت إليه الأندلس فى أواخر عهد الموحدين ، وتراخى الموحدين فى الدفاع عنها ، واهتمامهم بشئونهم الخاصة ، واتخاذهم من الأندلس أداة للتطاحن والمساومة مع النصارى ، تحقيقاً لمطامعهم الخاصة — كان ذلك كله مما يسبغ على حركة ابن هود ودعوته قوة ، ورجحانا ، ولكن ابن هود لم يكن بصفاته وموارده كفوًا للمهمة العظيمة ، التى اضطلع بها ، وكانت تعتور جهوده نفس المثالب القديمة ، التى كانت تصدع دائماً من جهاد الزعماء الأندلسيين ، والتى كانت تجتمع فى مصانعه النصارى ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية . ولم يكن ابن هود أيضاً بالرغم من اخلاصه لقضية الأندلس ، يتمتع بمثل تلك المواهب اللامعة التى كانت يتمتع بها زميله ومنافسه محمد بن الأحمر ، من الروية والدهاء وحسن السياسة ، بل كان بالعكس حسبما يخبرنا ابن عذارى ، بطبعه ملولا عجولا . وكان شجاعاً كريماً وفيا ، متوكلا على الله ، ولكنه كان قليل المبالاة بالأمور محدود الأفق ، غير موفق فى آرائه وخططه لتسرعه وغلبة الخفة عليه ، ولقائه اعداءه دون روية واستعداد ، فكان ذلك مما يعوق نجاحه فى أحيان كثيرة[1] .

وإذا كانت الرسائل السلطانية ، تلقى من جهة أخرى ضوءاً خاصاً على أخلاق ابن هود وسياسته ، فإنا نستطيع أن نقول إنه كان يتجه فى حكمه إلى توطيد العدل وقمع الظلم ، والرفق بالرعية ، وذلك بالاستناد إلى رسالته التى وجهها فى سنة ٦٣٤ هـ ، إلى الولاة ، يوصيهم فيها بالمحافظة على أحكام الشريعة، وتوخى الحق ، والعمل على صون الدماء ، والتحوط ضد قتل المسلم ، وعزل العمال الظلمة غير الأمناء ، وأن تطبق المساواة فى الحق على الجميع[2] ، وكذلك بالاستناد إلى رسالة أخرى كتبها عنه أبو عبدالله بن الحنان ، إلى أحد ولاة المدن، يقول فيها إنه وقف على كتابه فى طلب تحصين هذه المدينة وتأمينها ، وأنه مع موافقته على ذلك، يهيب به أن يرفع ما يقع بالناس من الحيف وضرر الخدمة، وأنه لابد من اتباع الرفق مع الناس ، وإيثار العدل فى معاملتهم[3].

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧٨ .

(٢) تراجع هذه الرسالة فى البيان المغرب ص ٣٣٢ — ٣٣٥ .

(٣) تراجع هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان لوفاة ابن هود وقع عميق فى الأندلس ، ولاسيما فى الشرق مركز دعوته ومثوى رياسته . ولما وصل نبأ وفاته إلى مرسية ، اجتمع أهلها على مبايعة ولده وولى عهده أبى بكر بن محمد بن يوسف بن هود ، وكان أبوه قد اختاره حسبما تقدم لولاية عهده منذ سنة ٦٢٩ هـ ، ولقبه بالواثق ، وأطاعته بلاد الشرق التى كانت تحت طاعة أبيه[١] .

ويقول لنا ابن الأبار من جهة أخرى، إنه لما توفى ابن هود ، كان على رياسة مرسية أخوه على بن يوسف الملقب بعضد الدولة[٢] . وعلى أى حال فإن رياسة بنى هود لمرسية ، لم يطل أمدها ، حسبما نفصل بعد فى موضعه .

وأما فى غربى الأندلس فقد كان لاختفاء ابن هود من الميدان صدى كبير فى إشبيلية ، وكان من أثره أن وقع بالمدينة تحول جديد خطير ، بعودها إلى طاعة الموحدين . ففى شوال سنة ٦٣٥ هـ ، أعلن أهل إشبيلية ، بزعامة أبى عمرو بن الجد طاعتهم للخليفة أبى محمد عبد الواحد الرشيد ، وقدموا للولاية عليهم أبا عبد الله بن السيد أبى عمران ، وكان قد لجأ مع أخويه أبى زيد وأبى موسى إلى إشبيلية ، بعد أن قتل والدهم السيد أبوعمران فى إفريقية ، وأقاموا بها فى ظل ابن هود . وسار إلى مراكش وفد من أهل إشبيلية ليقدم بيعتها إلى الخليفة ، وأقر الخليفة السيد أبا عبد الله على ولايتها . وحدث مثل هذا التحول فى ثغر سبتة ، وكانت قد خلعت طاعة الموحدين منذ سنة ٦٣٠هـ ، فلما مر وفد أهل إشبيلية فى سفنه بها فى طريقه إلى مراكش ، قام أهلها أيضاً بإعلان طاعتهم للخليفة الرشيد ، وبعثوا إلى مراكش وفداً لتقديم بيعتهم . وكان لهذا التحول الذى وقع بعود إشبيلية وسبتة ، إلى طاعة الدولة الموحدية ، رنة فرح واستبشار فى مراكش ، وأحيط مقدم الوفدين الإشبيلى والسبتى إلى الحاضرة بأعظم مظاهر الترحاب والتكريم ، ومما زاد فى ارتياح البلاط الموحدى ، ماقام به أهل إشبيلية من القبض على عمر بن وقاريط زعيم هسكورة السابق ، الثائر على الدولة الموحدية ، وإرساله إلى المغرب ، وكان بعد هزيمته ، قد لجأ إلى إشبيلية ، فى ظل ابن هود[٣] . وسوف نعود إلى تفصيل ذلك فى موضعه المناسب .

---

(١) البيان المغرب ص ٣٧٧ .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٥٠ .

(٣) البيان المغرب — ص ٣٣٧ ٣٣٩ .

— ٤ —

وكان محمد بن يوسف بن الأحمر ، خلال ذلك ، يرقب الحوادث ، فلما توفى ابن‌هود ، أدرك أن الفرصة قد سنحت للعمل على اجتناء تراثه فى الاندلس الوسطى ، وهى التى كان ابن الأحمر يسيطر منها على المنطقة الشمالية ، وكان مقصده الأول ، مدينة غرناطة قاعدة المنطقة الجنوبية . وكان ابن‌هود قد ولّى عليها عتبة بن يحيى المغيلى ، وكان عتبة رجلا فظا ظلوما جائراً ، يبغض ابن‌الأحمر ويأمر بسبه على المنابر ، فلما اشتدت وطأته على أهل المدينة ، ثار عليه جماعة من أشرافها ، بزعامة ابن خالد ، واقتحموا القصبة والقصر فى عصبتهم ، وقتلوا عتبة ، وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ، لتولى الرياسة عليهم ، فكانت فرصة مواتية لابن الأحمر . فبادر بالسير إلى غرناطة فى جمع من صحبه ، ونزل بخارجها فى البداية مبالغة فى التحوط والطمأنينة . ثم دخلها من الغد عند مغيب الشمس ، فى يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) وهو يرتدى ثيابا خشنة وحلة مرقعة ، وقصد إلى مسجد القصبة ، وأم الناس لصلاة المغرب . ثم غادر المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته . وغدت غرناطة من ذلك اليوم حاضرته ، ومقر حكمه ، بدلا من جيّان ، التى كان يهددها النصارى باستمرار[١] .

وماكاد ابن الأحمر يستقر فى غرناطة ، حتى اعتزم أن يسير إلى ألمرية لافتتاحها ، وسحق ابن الرميمى وزير ابن‌هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته ، وحاصرها من ناحية البر بشدة ، ولبث على حصارها حينا ، فلما رأى ابن‌الرميمى أنه لا أمل له فى النجاة من مصيره ، غادر ألمرية من جهة البحر ، فى مركب شحنه بأهله وأمواله ، وسار إلى تونس ، حيث لجأ إلى أميرها أبى زكريا الحفصى ، واستقر بها تحت كنفه ورعايته[٢] .

وكان استيلاء ابن‌الأحمر على ألمرية فى أواخر سنة ٦٣٥هـ ، وكانت قد أطاعته من قبل من القواعد الجنوبية شريش ووادى آش ، ثم نادت بطاعته مالقة ، العام التالى (٦٣٦هـ) ، وقدم إلى غرناطة وفد من أعيانها يقدم إليه بيعتها ، وكانت من إنشاء أديبها الكبير ابن عسكر ، فولاه ابن الأحمر قضاءها[٣] .

(١) البيان المغرب ص ٣٣٦ و٣٣٧ ، واللمحة البدرية لابن الخطيب ص ٣٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ ، والذخيرة السنية ص ٦٠ .
(٢) البيان المغرب ص ٣٣٧ .	(٣) البيان المغرب ص ٣٤٥ .

وهكذا كانت ترتسم باستيلاء ابن الأحمر على غرناطة وألمرية ومالقة، حدود المملكة الإسلامية الجديدة ، التى شاء القدر أن يكون هو منشوءها فى شبه الجزيرة الأندلسية ، والتى غدت غرناطة ، مذ نزل بها ، قاعدتها وحاضرتها . وكانت هذه الدولة الإسلامية الجديدة ، وهى التى اجتمعت فى ظلالها ، أشلاء الأندلس المنهارة ، والتى انكمشت أطرافها فيما وراء نهر الوادى الكبير جنوبا وشرقا ، تحتل رقعة متواضعة ، تمتد من جيّان وبياسة ، وإستجة ، جنوبا حتى البحر ، وشرقا حتى ألمرية وبيرة ، وغربا حتى مصب الوادى الكبير ، ويخترقها من الوسط نهر شنيل ، ثم جبال سيرّا نفادا وهضبات البشرّات . على أن هذه المملكة الصغيرة وهى الدولة النصرية أومملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، كانت بالرغم من صغر رقعتها ، وبالرغم من مواردها المحدودة ، جديرة بأن ترث تراث الأندلس الكبرى؛ وقد شاء القدر أن تبقى فى شبه الجزيرة الإسبانية، زهاء مائتين وخمسين عاما أخرى ، مستودعا لعبقرية الأمة الأندلسية ، وعلومها وفنونها ، تحمل مشعل حضارتها وضّاء ، فى تلك الأوطان الأندلسية القديمة ، وتضطلع فى نفس الوقت ، بذلك الكفاح القديم الخالد ، ضد إسبانيا النصرانية، إلى أن تلقى مصرعها فى النهاية أبية كريمة شهيدة .

وبالرغم من توطد أمر ابن الأحمر ، وتمكن سلطانه فى الأقاليم الوسطى والجنوبية ، فإنه لبث مدى حين يشعر بأنه مازالت تنقصه صفة الرياسة الشرعية . وقد رأينا فيما تقدم كيف عقد الصلح مع المتوكل ابن هود ، واعترف بطاعته (٦٣١ هـ) . فلما توفى ابن هود ، اتجهت أنظاره إلى الانضواء تحت لواء الدولة الموحدية ، وذلك بالرغم من انهيار سلطانها بالأندلس ، فأعلن بيعته للخليفة الرشيد ، وأخذ له البيعة على أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التى كانت تحت طاعته ، وبعث إلى الرشيد ببيعته ، وذلك فى سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . فتقبلها الرشيد بالشكر والرضى[1] . واستمر على طاعته للخلافة الموحدية طوال خلافة الرشيد ، وقنع الرشيد منه بالدعاء فى الخطبة . ولكنه لما توفى الرشيد سنة ٦٤٠هـ ، قطع دعوة الخلافة الموحدية ، واتجه إلى الدولة الحفصية بإفريقية ، فأعلن طاعته للأمير أبى زكريا الحفصى ، وبعث ببيعته إلى تونس مع أبى بكر بن عياش شيخ مالقة ، وأبى جعفر التنزولى ، فبعث

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٥ .

إليه الأمير أبو زكريا قدراً كبيراً من المال برسم المعاونة على الجهاد[1] . واستمر ابن الأحمر على طاعته للدولة الحفصية ردحا طويلا من الزمن ، وجدد بيعته بعد ذلك للأمير المستنصر ولد الأمير أبي زكريا ، وذلك فى سنة ٦٦٤ ﻫ ، وبعث إليه المستنصر بطريق البحر هدية وأموالاً[2] .

ولبث محمد بن الأحمر يعمل بهمة وإقدام ، على توسيع مملكته وتوطيد سلطانه ، ولكنه كان يشعر دائما بخطر النصارى ، ويرقب حركات فرناندو الثالث ملك قشتالة فى توجس وحذر . والواقع أن سائر القواعد الوسطى ، ولاسيما جيان وأحوازها ، قد أضحت منذ سقوط قرطبة ، تحت رحمة القشتاليين . وكان فرناندو الثالث قد بعث بالفعل جيشاً بقيادة ولده ألفونسو ، فعاث فى منطقة جيان ، واستولى على حصن أرجونة ، موطن ابن الأحمر وقومه (بنى نصر) ، وعدة حصون ومواضع أخرى من أملاك ابن الأحمر ، ثم زحف القشتاليون جنوبا صوب غرناطة ذاتها ، وضربوا حولها الحصار ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسارة فادحة ، وذلك فى سنة ٦٤٢ ﻫ (١٢٤٤ م) . وفى العام التالى عاد القشتاليون فزحفوا على مدينة جيان وحاصروها ، ولكنها صمدت ضدهم مرة أخرى.

فلما رأى ابن الأحمر تفاقم عدوان القشتاليين ، وخطورة اندفاعهم نحو أراضيه ، وأيقن أنه من العبث أن يبدد موارده وقواه فى صراع لاتؤمن عواقبه ، عول على أن يسلك سبيل المصانعة والتقرب من ملك قشتالة ، وأن يشترى سلامه وسلام مملكته ، بمهادنته والخضوع له . وقد لخصت لنا الرواية الإسلامية مجمل هذا الصلح ، الذى عقد بين ابن الأحمر وبين ملك قشتالة ، وذلك فى أواخر سنة ٦٤٣ﻫ (فبراير ١٢٤٦ م) ، وخلاصته أن يعقد الصلح بينهما لمدة عشرين سنة ، وأن يسلم ابن الأحمر لملك قشتالة مدينة جيان ، وما يلحق بها من الحصون والمعاقل ، وأن ينزل له عن أرجونة وبيغ والحجار وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة ، ولم تدخل فى هذا الصلح مدينة إشبيلية ، ولا مدينة شريش[3] . وتزيد الرواية النصرانية على ذلك إن ابن الأحمر اعترف بمقتضى هذه المعاهدة بالطاعة لملك قشتالة على سائر ما يحكمه من الأراضى ، وتعهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٦ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٦٧ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ و٧٣ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

مراڤيدى ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، وأن يشهد اجتماع الكورتيس (مجلس قشتالة النيابى) كل عام باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[١] .

وهكذا استطاع ابن الأحمر أن يعقد السلم مع ملك قشتالة القوى بهذا الثمن الفادح . بيد أنه استطاع فى ظل هذا السلم ، المشوب بكدر الخضوع والمهانة ، أن ينصرف إلى العمل على توطيد مملكته وتنظيم شئونها ، وتنمية مواردها .

واستطاع ملك قشتالة من جانبه ، أن ينصرف إلى فتوحاته فى أراضى الأندلس التى لم يشملها هذا الصلح ، وهى الواقعة فى غربى مملكة غرناطة ، وكانت أعظمها حاضرة إشبيلية قاعدة غربى الأندلس كله ، وقد استولى عليها فرناندو الثالث فى ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ نوفبر ١٢٤٨ م) بعد حصار طويل وذلك حسبما نفصل بعد فى موضعه ، وكان أشد ما فى حوادث هذا الحصار إيلاما للنفس ، هو أن ابن الأحمر اضطر أن يشترك فيه مع القشتاليين بقوة من فرسانه ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه فى معاهدة الصلح مع ملك قشتالة . وفى الرواية الإسلامية مايدل على أنه كان فى كل عام يسعى إلى الاجتماع بملك قشتالة ، وفقاً لنصوص هذه المعاهدة ، باعتباره من الأمراء الخاضعين لطاعته[٢] .

وكان ابن الأحمر حينما شعر بتوطد سلطانه ، واستقرار الأمور فى مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أباسعيد فرج بن محمداً بن يوسف بن نصر . ولكن هذا الأمير توفى فى سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م)[٣] فلبثت ولاية العهد شاغرة نحو ثلاثة أعوام . ثم اختار ابن الاحمر لولاية عهده ولده محمداً الملقب بالفقيه ، وذلك فى سنة ٦٥٥هـ (١٢٥٧ م) ، وهو الذى خلفه بعد وفاته على عرش غرناطة[٤] .

وفى سنة ٦٥٩هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وبين الفقيه أبى القاسم العزفى صاحب سبتة ، لأسباب لم تذكرها الرواية ، فسير ابن الأحمر سفنه لغزو سبتة . فخرجت من الجزيرة الخضراء بقيادة أمير البحر ظافر ، ونفذت إلى مياه سبتة ،

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) Vol.1 p. 746. وكذلك : J. Gonzalez : ibid : p. 95

(٢) البيان المغرب ص ٤١٠ .

(٣) الذخيرة السنية ص ٨٨ .

(٤) البيان المغرب ص ٤١٥ .

وأخذت فى مهاجمتها والتضييق عليها ، فأمر العزفى قائد أسطوله أبا العباس الرنداحى أن يخرج فى سفنه لردها . ووقعت بين الفريقين معركة بحرية ، هزمت فيها السفن الأندلسية وقتل قائدها ظافر ، وحملت رأسه إلى سبتة ، وطيف بها ، وسمى هذا العام فى سبتة بعام ظافر[١] . ثم هدأت الأحوال بعد ذلك ، ولم يفكر ابن الأحمر فى استئناف محاولته ضد سبتة .

ولما اقترب أجل انتهاء معاهدة التهادن والسلم المعقودة بين ابن الأحمر ومملكة قشتالة ، وقد عقدت حسبما تقدم فى سنة ٦٤٣هـ لمدة عشرين عاما ، سار ابن الأحمر فى أوائل سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) لمقابلة ملك قشتالة فى إشبيلية ، وهو يومئذ ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم ، وكان قد خلف أباه فرناندو الثالث فى الملك عقب وفاته فى مايو سنة ١٢٥٢ م ، ليسعى لديه فى تجديد المعاهدة . وكان معه صهراه الزعيمان أبو محمد وأبو إسحق ابنا أشقيلولة ، وقوة من خمسمائة فارس. فخرج إليه ألفونسو ودعاه لزيارته داخل المدينة ، فاستجاب ابن الأحمر ، ودخل إشبيلية مع صهريه وثلة من فرسانه ، ونزل بالعبادية من أحيائها . ولكنه سرعان ما نمى إليه أن النصارى ، قد سدوا الدروب الموصلة إلى مكانه ليلا بالخشب المسمرة ، وذلك لكى تعيق سير الخيل ، فخشى البادرة على نفسه ، وخرج فى الحال مع صحبه ، واقتحموا تلك الدروب ، وغادر ابن الأحمر إشبيلية مغضباً ، وقد شعر بنية الغدر والخيانة ، ولم يقنع بما أبداه له ألفونسو من أعذار وإيضاحات . ومر فى طريقه إلى غرناطة بشذونة (مدينة ابن السليم)[٢] وغيرها ، وهو يوصى أهلها بالأهبة والتحرز من غدر النصارى ، وكان هذا الحادث سبباً فى فساد العلائق بين غرناطة وقشتالة[٣] .

والواقع أن ابن الأحمر كان يعتزم فى قرارة نفسه ، أن ينتهز أول فرصة للتحرر من ذلك الغل المهين ، الذى صفدته به معاهدته مع قشتالة ، بيد أنه كان يرى من جهة أخرى أنه لايستطيع بمفرده أن يناهض قوة قشتالة الضخمة المتزايدة . وقد كشف ألفونسو العاشر نفسه عن نيات قشتالة العدائية ، بزحفه فى نفس العام (٦٦٢ هـ) على غرناطة ومضايقتها أياما[٤] . وبالرغم من أنه لم ينل منها مأربا ،

---

(١) البيان المغرب ص ٤٣١ .

(٢) شذونة أو مدينة ابن السليم هى بالإسبانية **Medina Sedonia**

(٣) البيان المغرب ص ٤٣٧ و٤٣٨ .

(٤) الذخيرة السنية ص ١١١ .

فإن ابن الأحمر قد أخذ على ضوء هذه الحركة ، يدرس وسائل المقاومة والصمود فى وجه العدوان القشتالى . وكان تطور الحوادث فى الأندلس شرقها وغربها ، وتفاقم محنتها ، وتوالى سقوط قواعدها فى أيدى العدو ، قد أخذ يحدث صداه قويا فى الصفة الأخرى من البحر ، فى المغرب ، حيث أخذ نجم الدولة المرينية يتألق ، وتبدو ضخامة حشودها وقواتها ومواردها ، مشجعة على الالتجاء إليها ، وطلب إنجادها وغوثها . وكانت النجدات الأولى من متطوعى بنى مرين قد أخذت تعبر إلى شبه الجزيرة ، وفى مقدمتها حملة يقودها عامر بن إدريس بن عبد الحق ، نزلت مدينة شريش وأخرجت النصارى من قصبتها (أواخر ٦٦٢هـ) . وقامت فى داخل المغرب حركة قوية للحث على إنجاد الأندلس وتداركها ، قبل أن يفوت الوقت ويتم العدو القوى الإجهاز عليها ، واشترك فى هذه الحركة شعراء نظموا القصائد المبكية مثل أبى الحكم مالك بن المرحل ، وعلماء أدباء توجهوا برسائلهم البليغة ، مثل أبى القاسم العزفى صاحب سبتة[1] . بيد أنه كان لابد أن تمضى بضع سنوات أخرى حتى تؤتى هذه الحركة ثمارها العملية ، ويعبر بنو مرين بقواتهم الجرارة إلى شبه الجزيرة .

وفى تلك الأثناء كان ابن الأحمر يعانى من عدوان القشتاليين وغاراتهم المتوالية . فلما تفاقم أمر هذه الغزوات ، وزحف القشتاليون على غرناطة للمرة الثانية (٦٦٤هـ) ورأى ابن الأحمر أنه عاجز عن رد هذا البلاء ، اضطر أن يتقدم خطوة أخرى ، فى سبيل طلب المهادنة والسلم ، وأن يبذل لتحقيق هذه الغاية مزيداً من التضحية ، فعقد مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة فى أواخر سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) معاهدة صداقة وسلم جديدة ، نزل له بمقتضاها عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش والمدينة (مدينة شذونة) والقلعة وغيرها ، وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر بمقتضى هذا الصلح للملك قشتالة من البلاد والحصون الإسلامية المسورة ، بلغ مائة وخمس من بلاد غرب الأندلس[2] .

وقد أذكى هذا الانهيار الفادح لصرح الوطن الأندلسى ، وما أصابه من فقد معظم قواعده التالدة ، فى نحو ثلاثين عاما فقط ، لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر ، أبو الطيب صالح بن شريف الرندى ، مرثيته الشهيرة فى رثاء الأندلس ، وبكاء قواعدها الذاهبة ، وهى قصيدة ماتزال إلى يومنا تهز أوتار القلوب أسى ، وهذا مطلعها :

---

(١) راجع كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، الطبعة الثانية ص ٤٠ و ٤١ .
(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و ١٢٧ .

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يُغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان[1]

وقضى محمد بن الأحمر الأعوام الستة الباقية من حكمه، فى توطيد مملكته وتنظيم شئونها ، وتوفى فى التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١هـ (ديسمبر ١٢٧٢ م) عقب جرح أصابه فى معركة خاضها ضد جماعة من الخوارج عليه ، وقد قارب الثمانين من عمره .

وكان هذا الرجل العبقرى ، مؤسس مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، يتمتع بخلال باهرة ، من الشجاعة والإقدام ، والمقدرة ، وشغف الجهاد ، هذا إلى جم البساطة والتواضع . ويقدم إلينا ابن الخطيب مؤرخ الدولة النصرية عنه وعن خلاله هذه الصورة المؤثرة : « كان هذا الرجل آية من آيات الله فى السذاجة ، والسلامة والجمهورية ، جنديا ، شهماً ، ثغريا أيداً ، عظيم التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، مؤثراً للتقشف ، والاجتزاء باليسير ، متبلغاً بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، موهوب الإقدام ، عظيم التشمير ، محتقراً للعظمة ، مصطنعاً لأهل بيته ، فضاً فى طلب حظه ، حاميا لقرابته وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات فى سلاحه وزينة ديابوزه ، يخصف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ، ويستشعر الجد فى أموره »[2] .

وقد رأينا أن نكتفى هنا بما تقدم من الشذور الموجزة عن قيام مملكة غرناطة ، وعن حياة منشئها العبقرى محمد بن الأحمر . ذلك أننا قد سبق أن تناولنا قصة مملكة غرناطة ، وقصة بنائها كاملة ، فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » ، وكان جل غايتنا فى كتابنا الحالى أن نصل بتاريخ الأندلس إلى حيث بدأنا بتاريخ مملكة غرناطة .

---

(١) راجع هذه القصيدة بأكلها فى الذخيرة السنية ص ١٢٧ — ١٢٩ ، وفى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٤ و٥٩٥ ، وفى أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ — ٥٠ . وراجع كتابى « نهاية الأندلس » ص ٣٥ هامش . وفى ترجمة الرندى ص ٤٣٨ و٤٣٩ .

(٢) كتاب الإحاطة فى أخبار غرناطة (المطبوع) ج ٢ ص ٦١ .

الفصل الثالث

سقوط بلنسية

وقواعد الشرق

أبو جميل زيان يوطد سلطانه فى بلنسية . استيلاؤه على دانية . خروجه لغزو أراضى أراجون . مشروع ملك أراجون لافتتاح بلنسية . إعلانه الصفة الصليبية لهذا الفتح . بداية حرب بلنسية . استيلاء الأرجونيين على آرش . انضمام السيد أبى زيد لجيش الغزو الأرجونى . حصار ملك أراجون لبريانة وأخذها . استيلاؤه على بنشكلة وعدةحصون أخرى. سقوط قسطلونة . سقوط مونكادة ومشروس . حصن أنيشة واهميته . هدمه واحتلال الملك خايمى لموقعة . تأهب زيان لمدافعته . موقعة أنيشة . هزيمة المسلمين ومصرع كثير من علمائهم . مصرع أبى الربيع سليمان كبير علماء الأندلس . رثاء ابن الأبار له . تعجيل خايمى بالاستعداد لفتح بلنسية . اجتماع الكورتيس وحشد الجنود . مسيره فى قواته صوب بلنسية . تسليم حصون بلنسية الأمامية . تضخم جيش الفتح . حشود الأحبار والمتطوعة . محاصرة خايمى لبلنسية . سوء الأحوال داخل المدينة . اعتزام المقاومة . استنجاد زيان بالقواعد القريبة . اتجاهه إلى الاستنصار بأمير إفريقية . إرساله كاتبه ابن الأبار سفيراً إليه . قصيدة ابن الأبار فى صريخ الأندلس . اهتمام الأمير أبى زكريا . إرساله أسطولا لإنجاد بلنسية . عجز هذا الأسطول عن الاتصال بالمدينة المحصورة . تفريغه لشحنته فى دانية . اشتداد محن الحصار على بلنسية . اضطرار زيان إلى المفاوضة فى التسليم . لقاؤه للملك خايمى . ماكتبه ابن الأبار عن وصف اللقاء وشروط التسليم . ما تقوله الرواية النصرانية فى ذلك . جلاء المسلمين عن بلنسية . خايمى الفاتح وأكابر الأحبار يدخلونها . خواطر عن سقوط بلنسية . سقوطها يذكى فجيعة الشعر والنثر . شىء من رثاء ابن الأبار . بعض ما قاله أبو المطرف بن عميرة . شىء من نظمه فى ذلك . قصيدة أخرى موجهة إلى أمير إفريقية . مرسوم الخليفة الرشيد بالتصريح لأهل بلنسية وقواعد الشرق بالنزول فى رباط الفتح . مسير الأمير زيان إلى جزيرة شقر ثم إلى دانية . نزوح ابن الأبار الى تونس . اتجاه زيان إلى مرسية . أحوال مرسية بعد وفاة ابن هود . أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب ينتزع رياسها . استدعاء بعض أهلها لزيان . قدومه إلى مرسية . قبضه على ابن خطاب وإعدامه . دعوته لأمير إفريقية . رسالته إلى الأمير فى ذلك . استخدامه لابن عميرة فى منصب الكتابة . محاولة عقد السلم مع ملك قشتالة . خروج محمد ابن هود عليه . مغادرة زيان لمرسية والتجاؤه إلى لقنت . سقوطها فى أيدى الأرجونيين ونزوحه إلى إفريقية . استيلاء الأرجونيين على دانية وشاطبة . نقضهم للهدنة مع أهل شاطبة وإجلاؤهم عنها . اتفاق محمد بن هود وأهل مرسية على التفاهم مع النصارى . أرسالهم سفيرا إلى ملك قشتالة يعرض الاعتراف بطاعته . قبول ملك قشتالة والتفاهم على التسليم. مسير ولى عهد قشتالة وتسلمه مرسية صلحاً . احتلال النصارى لمرسية وبعض حصونها . احتفاظ لورقة ومولة وقرطاجنة باستقلالها . استمرارمحمد ابن هود فى حكم مرسية ومن بعده ولده أحمد . تعليل هذه الظاهرة . ثورات المدجنين فى بلنسية واشتداد ساعد مملكة غرناطة . ثورة أبى بكر بن هود الواثق . انتزاعه لحكم مرسية . محاولته أن يخلع نير النصارى.

يعلن طاعته لابن الأحمر . رواية ابن عذارى . تفاهم ملكي قشتالة وأراجون على قمع ثورة مرسية . مسير خايمي إلى مرسية ومحاصرتها . اضطرار الواثق إلى التسليم . سقوط سائر قواعد الشرق في أيدي النصارى . قيام مجتمع المدجنين .

— ١ —

نعود الآن إلى شرقي الأندلس لنتابع ما وقع فيه من الأحداث ، وذلك منذ اضطرمت الثورة في بلنسية ، وقام بها أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش الجذامى ، عقب انسحاب واليها الموحدى السيد أبى زيد بن أبى عبد الله محمد ، وانهيار سلطان الموحدين بالشرق .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف لجأ السيد أبو زيد إلى ملك أراجون خايمي الأول ، وانضوى تحت حمايته ، وعقد معه معاهدة ، يتعهد فيها بأن يسلمه جزءاً من البلاد والحصون التي يستردها بمعاونته ، وكيف انتهى به الأمر بأن اعتنق دين النصرانية ، واندمج في القوم الذين لجأ إلى حمايتهم ، وأخذ من ذلك الحين يصحبهم في غزواتهم للأراضي الإسلامية .

وكان ذلك في سنة ٦٢٦ هـ (١٢٣٠ م) ، قبل أن يسير الملك خايمي إلى غزو الجزائر الشرقية بقليل . ثم كان غزو الجزائر ، وافتتاح ميورقة في العام التالي سنة ٦٢٧هـ (١٢٣١ م) ، ثم افتتاح يابسة ، وسيطرة الأرجونيين على الجزائر ، وذلك في سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) .

في تلك الأثناء كان أبو جميل زيّان أمير بلنسية يعمل على توطيد سلطانه في في بلنسية وأحوازها . وكانت دانية من أملاك ابن هود ، وعليها وال من قبله هو الأديب الشاعر أبو الحسن يحيى بن أحمد بن عيسى الخزرجي ، وهو والى شاطبة في نفس الوقت[1] ، فانتزع زيان منه دانية ، وولّى عليها ابن عمه محمدا ابن سبيع بن يوسف بن سعد الجذامى[2] . ولم يكتف زيّان بالعمل على توسيع أملاكه على هذا النحو ، ولكنه اعتزم في نفس الوقت أن ينتقم لما قام به النصارى من غزوات مخربة ، في أراضي بلنسية ، ولاسيما بتحريض السيد أبى زيد واليها المخلوع ، وكانت الظروف تتيح له يومئذ أن يحقق بغيته ، إذ كان ملك أراجون مشغولا بافتتاح

(١) ابن الأبار في الحلة السيراء ص ٢٤٩ .
(٢) الحلة السيراء ص ٢٥٥ .

الجزائر ، وتوطيد سلطانه بها ، ولم يترك فى قواعد الحدود سوى حاميات ضئيلة ، ومن ثم فقد خرج زيان بقواته شمالا ، وقام بالعبث فى أراضى أراجون على طول الشاطىء حتى ثغر طرطوشة ، واستاق غنائم وأسرى[1] . وكان هذا الاعتداء يحز فى نفس ملك أراجون ، وهو يزمع أن يرده مضاعفاً فى أول فرصة .

وماكاد ملك أراجون ينتهى من افتتاح الجزائر ، حتى أخذ يضع خطته لافتتاح الثغر الإسلامى العظيم بلنسية ، وكان يقتضى لنجاح ذلك المشروع أن يستولى ملك أراجون على سائر القواعد الأمامية لإقليم بلنسية ، حتى يستطيع أن يعزل بلنسية ، وأن يحرمها من كل وسائل الدفاع . وكان ملك أراجون يرى أن ظروف بلنسية ، ومواردها المحدودة ، وما يضطرم بين الزعماء المسلمين فى شرق الأندلس من خلاف ، مما يعاون على تحقيق أمنيته ، ولكنه كان يرى فى نفس الوقت أن يستعد لهذا المشروع بكل ما يستطيع ، وأن يسعى لتتويجه بالصفة الصليبية . وقد استجاب البابا جريجورى التاسع لمسعى ملك أراجون ، وأصدر مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية ، على مشروع فتح بلنسية ، وأعلن أمر هذه الحرب الصليبية الجديدة فى مونتشون ، وهرع إلى لوائها كثير من الفرسان والسادة ، ولاسيما جماعة الأسبتارية ، ووافق القطلان على سن ضريبة الماشية العينية ، مساهمة فى نفقات الحرب .

وبدأت حرب بلنسية فى أوائل سنة ١٢٣٣ م (أواخر سنة ٦٣١ هـ) وخرجت جماعات من الجيش الأرجونى وتفرقت فى أراضى إقليم بلنسية الشمالية ، وبدأت بالاستيلاء على بلده آرش ، ثم استولت على بلده مورلة وهى أقصى بلاد بلنسية الشمالية . وكان الملك خايمى يومئذ فى طرويل . وكان يصحبه فى هذه الغزاة السيد أبو زيد والى بلنسية المتنصر باسم بنتى ، وأستاذ الفرسان الأسبتارية هوجو دى فولكاركير ، ودون بلاسكودى ألاجون ، وهو أرجونى عاش طويلا فى بلنسية ، وخدم واليها الموحدى ، وكان يجيد العربية ، ويعرف أحوال المسلمين . وكان السيد أبو زيد ، قد استقر فى منطقة طرويل ، فى طاعة ملك أراجون وتحت حمايته ، على أن يعاونه بنفسه وصحبه ضد المسلمين .

وكانت أول قاعدة هامة من إقليم بلنسية قصد إليها ملك أراجون هى بلدة بريّانة ، الواقعة على البحر على مقربة من شمال بلنسية ، فضرب الأرجونيون حولها الحصار ، بعد أن خربوا ضياعها وزروعها القريبة ، واشترك فى الحصار

---

(١) A.P. Ibara : Valencia Arabe, p. 628

عدد من الأشراف ، وفرسان الداوية ، والأسبتارية ، وقلعة رباح . وكانت بريّانة تتمتع بحصانة فائقة ، وقد استعد أهلها المسلمون للدفاع عنها بشدة . وضرب الأرجونيون البلدة بالآلات ، وحاولوا اقتحامها غير مرة ، وهى صامدة ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، حتى نضبت مواردها وأقواتها ، واضطر المسلمون فى النهاية إلى التسليم وذلك فى شهر يوليه سنة ١٢٣٣ م . ثم استولى الأرجونيون بعد ذلك على قلعة بنشكلة Peñiscola صلحاً ، ووعد أهلها المسلمون بأن يبقوا على دينهم وشريعتهم ، ثم تلتها فى التسليم عدة حصون وأماكن منها شفيت ، وبريول ، وكويڤاس ، والمصورة ، وغيرها من القرى والضياع ، الواقعة على ضفة نهر شقر ، واستولى الأرجونيون فى نفس الوقت على ثغر قسطلونة الهام الواقع على مقربة من شمالى بريّانة ، وكان سقوطه فى أيدى النصارى أمراً محتوماً بعد استيلائهم على بريّانة ، وكان لسقوط هذين الثغرين نتائج هامة ، إذ كانا لقربهما من بلنسية يصلحان قواعد لتموين الجيوش الغازية . ونفذ ملك أراجون بعد ذلك فى قواته الخفيفة إلى فحص بلنسية ذاته ، واستولى على بعض قلاع هذه المنطقة ومنها قلعتا مونكادة ومشروس القريبتين من شمالى بلنسية ذاتها . ووقعت هذه الفتوح الأرجونية كلها فى سنة ١٢٣٤م (٦٣٢–٦٣٣هـ)[1].

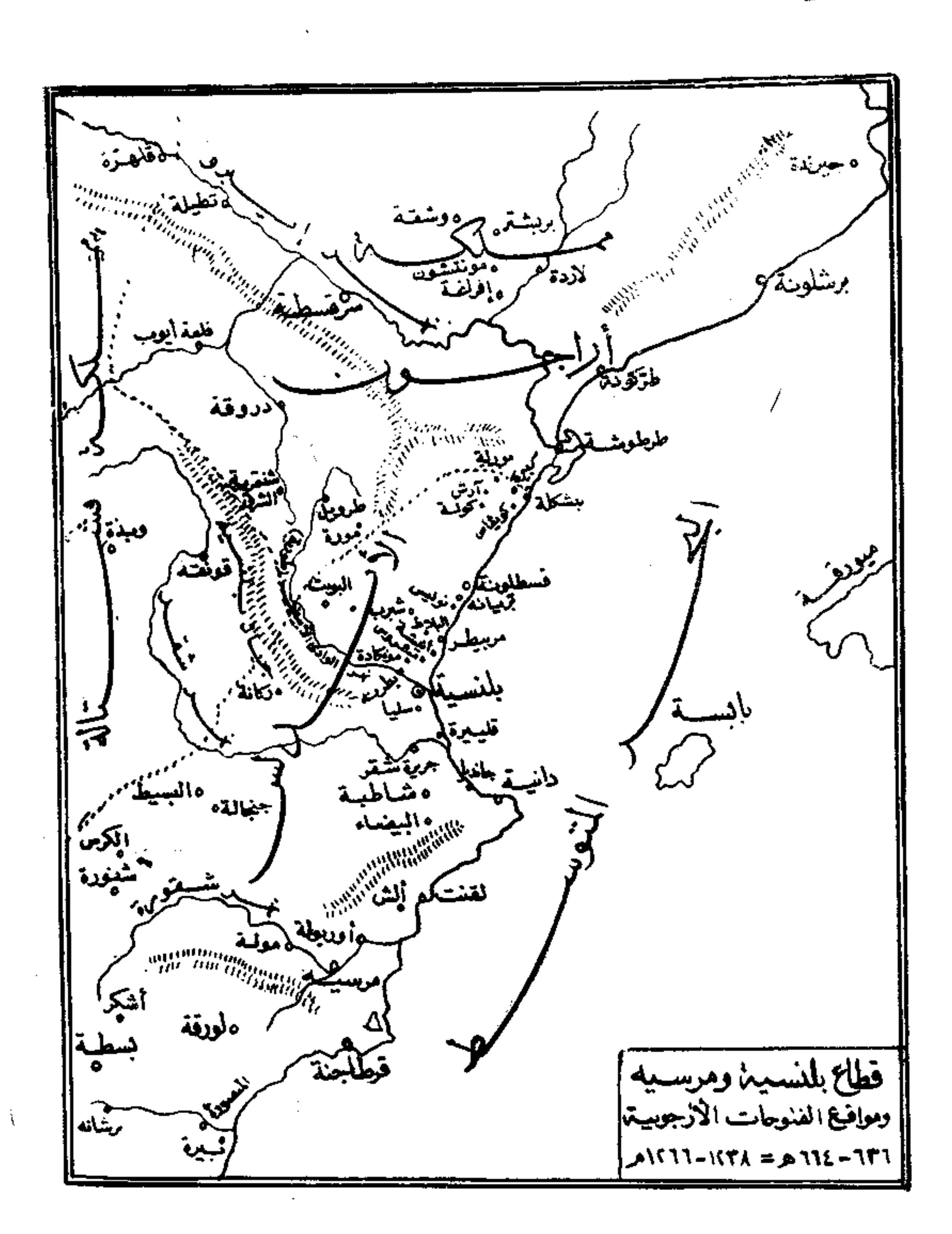
ووقف مشروع غزو بلنسية عند هذه المرحلة الأولى من الاستيلاء على معظم المواقع والثغور القريبة من بلنسية ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده ليعنى ببعض الشئون الداخلية والعائلية .

ومضى نحو عامين ، لم تقع خلالها فى إقليم بلنسية سوى بعض غارات أرجونية صغيرة . ولكن ملك أراجون لم ينس خلال مشاغله الداخلية ، مشروع فتح بلنسية ، ولم ينقطع عن أن يوليه اهتمامه المستمر ، وكان يتوق بالأخص إلى أن يحتل حصن أنيشة أو أنيجة المنيع الواقع على مقربة من شمالى بلنسية ، على سبعة أميال منها ، وهو من أهم حصونها الأمامية ، وكان يقع على ربوة عالية تزيد موقعه مناعة ، ويشرف على مرج بلنسية وحدائقها[2] ، وكان الأمير زيّان قد

---

(١) M. Lafuente : Historia General de Espana T. IV. p. 82 & 83

(٢) يسمى الإدريسى هذا الحصن بأنيشة (طبعة دوزى ص ١٩١) وكذا يسميه ابن الأبار (التكلة رقم ١٩٩١) ، وابن عبد الملك المراكشى فى « الذيل والتكلة » (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٤ الغزيرى) ويسميه أبو المطرف بن عميره « أنيجة » (الروض المعطار ص ٤٩) وكذلك =



قطاع بلنسية ومرسيه
ومواقع الفتوحات الأرجونية
٦٣٦-٦٦٤هـ = ١٢٣٨-١٢٦٦م

فطن إلى أهبة هذا الحصن، وخطورة سقوطه فى أيدى النصارى، فأمر بهدمه، ولكن الملك خايمي أصر مع ذلك على احتلال موقعه، فسار فى جيشه من قلعة أيوب، ومعه السيد أبو زيد أمير بلنسية المتنصر، وهاجم أنيشة وهزم المسلمين الذين تصدوا لمقاومته، واحتل المكان، وابتنى فوق نفس الربوة حصناً جديداً منيعاً، ووضع به حامية عهد بقيادتها إلى خاله دون برناردو دى انتنزا. واتخذ الأرجونيون من هذا الحصن قاعدة للعيث والإغارة فى مختلف نواحى إقليم بلنسية. وشعر زيّان بخطر وجود الحامية الأرجونية فى هذا المركز الدقيق المهدد لسلامة المدينة، فصمم على انتزاعه من أيديهم، وحشد جيشاً قوياً تقدره الرواية النصرانية بستمائة فارس وأربعين ألف راجل، وهو تقدير واضح المبالغة، وسار فى قواته نحو تل أنيشة، ونشبت بين المسلمين والأرجونيين فى ظاهر أنيشة معركة عنيفة، قاتل الفريقان فيها بشجاعة، وانتهت بأن أصيب المسلمون بهزيمة فادحة، وقتل منهم جملة كبيرة، وكان بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية ووجوهها وصلحائها، وفى مقدمتهم كبير علماء الأندلس ومحدثها يومئذ، أبو الربيع سليمان بن موسى ابن سالم الكلاعى، وهو فوق علمه وأدبه الجم جندى وافر الشجاعة والجرأة، كان يشهد معظم الغزوات، ويشترك فى القتال، وكان فى موقعة أنيشة يتقدم الصفوف، وهو يقاتل بشجاعة، ويحث المنهزمين على الثبات، ويصيح بهم «أعن الجنة تفرون» حتى قتل. ورثاه ومن سقط معه، من علماء بلنسية، وهم نحو سبعين، تلميذه الكاتب المؤرخ، أبو عبد الله بن الأبار القضاعى، وكان إلى جانب مخدومه الأمير زيان فى الموقعة، بقصيدته الشهيرة التى مطلعها:

ألما بأشلاء العلا والمكارم ... تقد بأطراف القنا والصوارم

وعوجا عليها مأربا وحفاوة ... مصارع غصت بالطلى والجماجم

تحيي وجوها فى الجنان وجيهة ... بما لقيت حُمراً وجوه الملاحم

ووقعت نكبة أنيشة فى يوم الخميس عشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ (١٤ أغسطس سنة ١٢٣٧م). وكانت هزيمة المسلمين الفادحة فيها على هذا النحو

= المقرى (نفح الطيب ج٢ ص ٥٨٤) ويسميه ابن خلدون «أنيسة» (ج ٦ ص٢٨٣) والغزيرى أنيشة (الفهرس ج ٢ ص ١١٥). وتسميه الرواية الإسبانية **Puig de Cebolla** (تل البصل). أو **Puig de Sta Maria** (تل شنتا مارية).

نذيراً بانهيار قوى بلنسية الدفاعية ، نذيراً بأن مصير بلنسية ذاتها ، قد بت فيه ، وأن النهاية قد اضحت وشيكة الوقوع [١] .

— ٢ —

وكانت أسباب المرحلة الثانية والأخيرة من افتتاح بلنسية تتهيأ وتدنو بسرعة . وكان سقوط قرطبة ، قبل ذلك بأكثر من عام ، فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وتغلبه على معظم المنطقة الشمالية من الأندلس الوسطى ، مما يدفع خايمى إلى التعجيل بفتح بلنسية خشية أن يمتد زحف القشتاليين إلى تلك المنطقة ، ويقع الخلاف بين المملكتين ، وذلك بالرغم من أن أراجون ، قد اختصت بمقتضى معاهدة كاسولا Cazola ، المعقودة مع قشتالة منذ سنة ١١٧٩ م ، بافتتاح قطاع بلنسية . وكان مما يشجع خايمى على هذا التعجيل ، ثقته فى أن همم المسلمين الدفاعية قد خبت من جراء موقعة أنيشة ، وأن مواردهم قد تضاءلت . وكان هذا شعور البلنسيين أنفسهم ، حسبما يعبر لنا عنه كاتب بلنسية المبدع أبو المطرف ابن عميرة فى إحدى رسائله المبكية عن سقوط بلنسية [٢]. ثم جاءت وفاة ابن هود فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ (يناير ١٢٣٨) ، عقب موقعة أنيشة بقليل ، لتزيد من ثقة خايمى ، بأنه لم يبق ثمة أمل لأهل بلنسية فى أن يأتيهم الإنجاد من أية جهة أندلسية .

ومن ثم فقد عكف خايمى على إعداد عدته لهذا الفتح . وكان قد عقد الكورتيس فى مونتشون لكى يوافق على ضريبة المراڤيدى Matavedi ، وهى ضريبة تؤدى مرة كل سبعة أعوام ، واستمر فى أهبته حتى جهزت الحشود التى اعتزم أن يسيرها لافتتاح بلنسية ، وهى حشود قليلة حسبما يتضح من أرقامها بعد . ووصله أثناء ذلك نبأ وفاة خاله دون برناردو قائد حامية أنيشة ، وكان بعض مستشاريه يرى أن يترك هذا الموقع ، ولكنه أصر على الاحتفاظ به ، وعين ولد المتوفى مكانه لقيادة حاميته ، وكانت تتألف من خمسين فارساً .

ولما أتم خايمى أهباته ، أقسم بين يدى الأشراف والقادة ، أنه سوف يسير

---

(١) راجع فى موقعة أنيشة : ابن الأبار فى التكلة (الأندلسية) رقم ١٩٩١ (ج ٢ ص ٧٠٩) ، وابن عبد الملك فى «الذيل والتكلة» (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ فى ترجمة أبى الربيع بن سالم) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٦ ، وكذلك فى : **M. Lafuente : ibid. T. IV. p. 84**

(٢) الروض المعطار ص ٤٩ .

إلى فتح بلنسية ، وأنه لن يعود إلى المرور بطرويل أوعبور نهر طرطوشه (نهر إيبرو) قبل أن تسقط بلنسية فى يده ، وأنه تأكيدا لذلك سوف يصحب معه الملكة والأميرة ابنته[1] . وفى شهر مارس سنة ١٢٣٨ م ، خرج خايمى فى قواته متجهاً إلى الجنوب صوب بلنسية ، ووصلته أثناء مسيره رسائل من معظم الحصون الإسلامية القريبة من بلنسية تعلن الدخول فى طاعته ، وفى مقدمتها المنارة ، ونوليس ، وبطرنة ، وبوليا ، وأوشو ، وغيرها . ولم تكن قوات ملك أراجون ، عند مسيره ، تعدو بضع مئات من فرسان الداوية والأسبتارية وقلعة رباح ، والفرسان الملكيين ، وبضع آلاف من الرجّالة ، ولكن هذا الجيش تضخم فيما بعد أمام بلنسية ، بمن انضم إليه من أشراف وأحبار أراجون وقطلونية وأجنادهم العديدين ، ومن حشود الحرس الوطنى ببرشلونة ، وحشود المتطوعين الفرنسيين بقيادة مطران أربونة ، وكانوا جماعة كبيرة من الفرسان ، ونحو ألف من المشاة . وقد جاء معظم هذه القوات بطريق البحر ، وانضمت كلها إلى الجيش الفاتح . وعول الملك خايمى على أخذ بلنسية بالحصار ، فطوقها أولا بالقوات التى جاءت معه ، وضرب محلته بين المدينة ، وبين خليج جراو (الميناء) . ولما انثالت الأمداد ، وحشود المتطوعة على الجيش الأرجونى ، شدد فى إحكام الحصار حول المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج . وتقدر الرواية النصرانية عدد القوات التى اشتركت فى حصار بلنسية بعشرة آلاف فارس ، وستين ألف راجل . وكانت هذه القوات تموّن بسهولة ، عن طريق البحر من ثغور بنشكلة وبريّانة وقسطاونة ، وقد افتتحها الأرجونيون قبل ذلك بقليل .

وبدأ حصار بلنسية فى الخامس من شهر رمضان سنة ٦٣٥هـ (أبريل سنة ١٢٣٨م)[2] وشدد النصارى فى التضييق على المدينة المحصورة ، وبدأوا يضربونها بالآلات المخربة . وكانت بلنسية ، مذ هزمت قواتها ، وسقط أبناؤها فى موقعة أنيشة ، قبل ذلك بأشهر قلائل ، قد ساءت أحوالها ، وانهارت قوى شعبها المعنوية وأخذت تتوقع سوء المصير . بيد أنه لما ظهر النصارى تحت أسوارها ، وبدت طلائع المعركة الأخيرة ، اعتزم البلنسيون أن يدافعوا عن مدينتهم حتى آخر رمق . ولم يكن أميرهم أبو جميل زيان أقل عزماً منهم فى مدافعة النصارى ، فوجه بعض

---

(1) M. Lafuente : ibid ; cit. Hist. del Rey don Jaime, T. IV. p 86

(٢) ابن الأبار فى التكلة (القاهرة) فى الترجمة رقم ٣٠٣ .

مواقع حصار بلنسية

٦٣٥هـ - ١٢٣٨م

رسله إلى القواعد الإسلامية القريبة فى طلب النجدة والإمداد . وكان رسوله إلى مرسية الفقيه المتصوف محمد بن خلف بن قاسم الأنصارى[1] . بيد أن زيان لم يقف عند هذا الاستمداد المحدود . ذلك أنه فى تلك الآونة العصيبة ، قد اتجه وجهة أخرى أوسع آفاقاً وأجدى أملا ، اتجه إلى إخوانه المسلمين ، فى الضفة الأخرى من البحر ، ولم يكن ذلك الاتجاه يومئذ إلى أولئك الموحدين ، الذين عبروا البحر قبل غير مرة لإنجاد الأندلس ، إذ كانت دولتهم بالمغرب تجوز مرحلة الانحلال الأخير ، ولكن إلى تلك الدولة الفتية ، التى قامت فى وسط الضفة الأخرى من البحر ، إلى دولة بنى حفص بإفريقية ، وإلى عميدها ومنشئها الأمير أبى زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، وكانت قد أخذت تلفت الأنظار بقوتها وثرائها ، واتساع مواردها . وبعث زيان إلى أمير إفريقية سفارة على رأسها وزيره وكاتبه العلامة الشاعر والمؤرخ الكبير أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن أبى بكر بن الأبار القضاعى ، يحمل إليه بيعته وبيعة أهل بلنسية ، وصريخه بسرعة الغوث والإنجاد قبل أن يفوت الوقت . ولما وصل ابن الأبار إلى تونس ، مثل بين يدى سلطانها الأمير أبى زكريا الحفصى ، فى حفل مشهود ، وألقى قصيدته السينية الرائعة التى اشتهرت فى التاريخ ، كما اشتهرت فى الشعر ، يستصرخه فيها لنصرة الأندلس ونصرة الدين ، وهذا بعض ماجاء فيها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطال ما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا ... للنائبات وأمسى جدها تعسا
فى كل شارقة إلمام بائقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة إجحاف نائبة ... تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لانالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا
وصيرتها العوادى العابثات بها ... يستوحش الطرف ضعف ما أنسا

(١) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) فى الترجمة رقم ١٦٧ .

فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كُنُسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً ... وللنداء غدى أثناءها جرسا
كانت حدائق الأحداق مونقة ... فصوح النصر من أدواحها دعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين عصر جليناه بها سلسا
محا محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حينا ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا
خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك مالم تطأه رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفردا ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
وأحي ماطمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدى ماطُمسا
أيام صرت لنصرة الحق مستبقا ... وبثّ من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جاريةً بالنجع راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا

ومنها :

ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد إلى نعماه ملتمسا
قد نور الله بالتقوى بصيرته ... فما يبالى طروق الخطب ملتبسا
من ساطع النور صاغ الله جوهره ... وصان صيقله أن يقرب الدنسا
إن السعيد أمرؤ ألقى بحضرته ... عصاه محتزماً بالعدل محترسا

وفى ختامها :

يا أيها الملك المنصور أنت لها ... علياء توسع أعداء الهدى تعسا
وقد تواترت الأنباء أنك من ... يحي بقتل ملوك الصفر أندلسا
طهر بلادك منهم أنهم نجس ... ولاطهارة مالم تغسل النجسا
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم ... حتى يطأطأ رأسا كل من رأسا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت ... عيونهم دمعا تهمى زكا وخسا

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت　　داء متى لم تباشر جسمها انتكسا
فاملأ هنيئاً لك لتمكين ساحتهـا　　جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه　　لعل يوم الأعادى قد أتى وعسا[1]

وكان لهذه القصيدة المبكية ، التي مازالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المحزن ، والتي كانت كأنها نفثة الأندلس الجريح ، أبلغ الأثر فى نفس الأمير أبى زكريا الحفصى ، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح والأطعمة والكسى والأموال ، يتألف من اثنى عشرة سفينة كبيرة ، وست صغيرة ، وعهد بقيادته إلى أبى يحيى ابن يحيى بن الشهيد بن إسحق أبن أبى حفص الكبير ، وتقدر الرواية الإسلامية قيمه ما شحن بهذا الأسطول بمائة لف دينار من الذهب ، وهى قيمة لها خطرها فى ذلك العصر[2] . وأقلعت هذه السفن المنجدة على جناح السرعة من ثغر تونس قاصدة إلى ثغر بلنسية ومعها ابن الأبار ورفاقه ، وهى رحلة تستغرق عدة أيام .

وكان الأرجونيون فى تلك الأثناء قد شددوا الحصار على بلنسية ، وحاولوا فى البداية ، أن يقتحموا الرُّصافة ضاحيتها الجنوبية الشرقية ، ففشلت المحاولة ، وردهم المسلمون بخسارة كبيرة . وكان المسلمون يخرجون من آن لآخر لمقاتلة النصارى فى جماعات صغيرة ، ووقعت أعنف معركة من هذا النوع بين الفريقين حول بلدة سليا ضاحية بلنسية الجنوبية ، وانتهت باستيلاء النصارى عليها . ولم تمض أيام على ذلك حتى ظهر الأسطول التونسى فى مياه بلنسية ، واستطاع أن يصل إلى خليج جراو Grao الواقع جنوب شرقى المدينة بحذاء مصب نهر طورية أو نهر الوادى الأبيض Guadalaviar ، الذى يخترق بلنسية بعد مصبه بقليل ، ولكن المحلة النصرانية كانت تحتل اللسان الواقع بين الخليج وبين المدينة، ومن ثم فإن رجال الأسطول، لم يستطيعوا الوصول إلى المدينة ، ولم يستطع أهل المدينة من جهة أخرى ، أن يصلوا إليهم ، وعندئذ حاولت السفن المسلمة أن تبعث الأمداد إلى أهل المدينة من ناحية الشمال ، فسارت شمالا بحذاء الشاطىء

(١) راجعنا ما نقلناه من قصيدة ابن الأبار على نصها المخطوط الوارد فى مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الفزيرى الموسوم بكتاب « زواهر الفكر » وهى طويلة تقع فى سبعة وستين بيتاً . وقد نقلها المقرى كاملة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ ، وكذلك ابن خلدون مع إغفال بعض أبياتها فى ج ٦ ص ٢٨٣ — ٢٨٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٥ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٢٠ .

حتى ثغر بُنُشكلة الصغير ، الواقع شمالى قسطلونة ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً لظهور السفن الأرجونية ، واضطرار السفن التونسية إلى الإقلاع صوب الجنوب ، وانتهى الأمر بأن أفرغت السفن التونسية شحنتها فى ثغر دانية ، بعيداً عن الثغر المحصور ، ثم أقلعت عائدة إلى إفريقية ومعها المال إذ لم يحضر من قبل الأمير زيان من يتسلمه . وهكذا فشلت هذه المحاولة التى نظمت لإمداد المدينة المحصورة وإنجادها ، وتركت بلنسية لمصيرها .

وهنا ضاعف النصارى جهودهم فى التضييق على المدينة ، وإرهاقها . وبينما كان أهل بلنسية ، يعانون الحرمان والجوع داخل مدينتهم ، كان النصارى فى سعة تأتيهم المؤن من البحر بانتظام : وكان النصارى يضربون المدينة ، وأسوارها وأبراجها ، بالآلات الثقيلة باستمرار ، والبلنسيون مع كل هذا البلاء يخرجون لمقاتلة النصارى ، وتنشب المعارك الكثيرة بين الفريقين. وفى إحدى هذه المعارك أصيب الملك خايمى بجرح فى رأسه . واستمر الحصار المرهق على هذا النحو زهاء خمسة أشهر ، من أبريل حتى أوائل سبتمبر ، حتى فنيت الأقوات ، وعدمت الموارد ، واشتد البلاء بأهل المدينة ، وثلمت الأسوار والأبراج فى غير موضع ، وعندئذ رأى وجوه المدينة وعلى رأسهم الأمير زيان ، بأنه لا مفر من التسليم قبل أن يفوت الوقت ، ويقتحم النصارى المدينة ، فبعث بابن أخيه أبى الحملات ليفاوض ملك أراجون فى شروط التسليم . واتفق الفريقان على أن تسلم المدينة صلحاً . وإليك كيف يصف لنا ابن الأبار ، وقد كان شاهد عيان ، ما تلا ذلك من لقاء بين الأمير زيان والملك خايمى ، ومن إبرام شروط التسليم بينهما ، وذلك فى يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٦٣٦ ﻫ . قال :

« وفى هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى من المدينة ، وهو يومئذ أميرها ، فى أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية ، وقد تزيا بأحسن زى فى عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالولجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلما لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله ، وتوليت العقد عن أبى جميل فى ذلك . وابتدئ بضعفة الناس فسيروا فى البحر إلى نواحى دانية ، واتصل انتقال سائرهم براً وبحراً : وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور ، كان خروج أبى جميل بأهله من القصر ، فى

طائفة يسيرة أقامت معه : وعند ذلك استولى عليها الروم أحانهم الله »[1].

وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن شروط تسليم بلنسية تفاصيل لا تخرج فى جملتها عن مضمون الرواية المتقدمة ، فتقول إن المفاوضة وقعت أولا بين أحد الرؤساء المسلمين ، وأحد الأشراف الأرجونيين ، وذلك بمحضر من الملكة ، التى شاء الملك أن تشهد سائر التفاصيل ، وانتهى الأمر بأن اقترح الأمير زيان على الملك خايمى ، أن يسلم إليه المدينة ، على أن يسمح لسائر المسلمين بها رجالا ونساء ، بأن يحملوا سائر أمتعتهم دون أن يعترضهم أحد ، وأن يسيروا آمنين حتى قليرة (أو غليرة)[2] أو دانية ، فوافق الملك والملكة على اقتراحه ، واتفق على أن تسلم المدينة ، بعد خمسة أيام ، يبدأ فى نهايتها جلاء المسلمين عنها . وأبلغ الملك هذا الاتفاق إلى الأحبار والأشراف ، فلم يرق لبعض القادة ، والفرسان ، الذين كانوا يؤملون الثراء بنهب المدينة . وفى اليوم الثالث بدأ المسلمون جلاءهم عن بلنسية ، وخرج منهم منها خمسون ألفا ، وساروا آمنين حتى قليرة Cullera ، وهى ثغر صغير يقع على مقربة من جنوبى بلنسية ، ومنحوا عشرين يوما لإتمام الجلاء . وعقد الملك خايمى كذلك مع الأمير زيان هدنة مدتها سبع سنين ، وأقسم باحترامها بالنسبة لدانية وقليرة ، طوال هذه المدة . وتم ذلك فى اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٢٣٨ م[3] .

وفى يوم الجمعة التاسع من أكتوبر سنة ١٢٣٨م، الموافق للسابع والعشرين من صفر سنة ٦٣٦هـ دخل خايمى الفاتح ملك أراجون، وزوجه الملكة ڤيولانتى وأكابر الأحبار والأشراف والفرسان الأرجونيين والقطلان، وممثلو الجماعات الدينية والمدن، مدينة بلنسية ، ورفع علم أراجون على قمة أعلى برج فى أسوار المدينة ، وحولت المساجد فى الحال إلى كنائس وطمست سائر قبور المسلمين[4]. وقضى الملك خايمى بضعة أيام فى تقسيم دور المدينة وأموالها بين الأحبار والأشراف والفرسان ، كل وفق ما اشترك به فى الفتح ،وبلغ عدد من وزع عليهم من فرسان أراجون وقطلونية،

---

(١) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ١٩٠ ، وفى التكلة (القاهرة) فى الترجمة رقم ١٧٤٥ و٢١١٩ ، والبيان المغرب ص ٣٤٥ .

(٢) وبالإسبانية Cullera

(٣) M. Lafuente : ibid; cit. Hist: del Rey don Jaime ; T. IV. p. 87

(٤) التكلة لابن الأبار (القاهرة) رقم ١٣٠٦ .

ثلاثمائة وثمانون ، هذا عدا الأحبار والأشراف ، وجعلت هذه الأملاك وراثية بالنسبة لأعقابهم ، وسموا بفرسان الفتح ، وترك لهم حراسة المدينة والدفاع عنها . وأقبل النصارى من كل فج على سكنى بلنسية وتعميرها . ومع ذلك فقد بقيت بها جماعة كبيرة من أهلها المسلمين ، تدجّنوا واستسلموا لمصيرهم الجديد .

وهكذا سقطت بلنسية فى أيدى النصارى ، بعد أن حكمها المسلمون ، منذ الفتح خمسة قرون وربع قرن ، سطعت خلالها فى شرق الأندلس ، وتزعمت قواعده ، ولعبت أعظم دور فى أحداثه ومصايره ، ولبثت فترات طويلة ، مثوى الثورة الوطنية الأندلسية ، وكانت أعظم مركز للعلوم والآداب فى شرق شبه الجزيرة . وكانت بلنسية منذ بعيد هدفاً لأطماع النصارى ، القشتاليين منهم والقطلان ، وكانت مسرحاً لمغامرات السيد الكنبيطور (السيد الكمبيادور) ،وقد استولى عليها بالفعل فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧هـ (يونيه ١٠٩٤ م) ولبثت تحت نير النصارى زهاء ثمانية أعوام ، حتى استردها المرابطون فى شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو ١١٠٢ م) ، وذلك حسبما فصلناه فى كتابنا « دول الطوائف » .

على أن بلنسية وأحوازها ، استمرت بعد سقوطها فى أيدى النصارى ،مدى عصور ، مثوى لجماعات كبيرة من المدجّنين المسلمين ، ثم بعد ذلك من العرب المتنصرين (الموريسكيين) وقد لعب هؤلاء فى تاريخها السياسى والاجتماعى منذ القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن السادس عشر ، أدواراً ذات شأن . وهو مافصلناه فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » .

- ٣ -

وقد أذكت محنة بلنسية وسقوطها فى أيدى النصارى ، فجيعة الشعر والنثر بالأندلس ، على نحو مافعلت محنة طليطلة ، وسقوطها ، وصدرت فى رثائها طائفة كبيرة من القصائد والرسائل المبكية . ويرجع ذلك بالأخص إلى وجود عدد من أكابر الكتاب والشعراء المعاصرين ، الذين شهدوا المحنة من أبناء بلنسية ذاتها ، أو شرق الأندلس ، وفى مقدمتهم أبوعبد الله بن الأبار ، وأبو المطرف بن عميرة المخزومى ، وأبو عبد الله بن الجنان ، وهم جميعاً من كتاب أمير بلنسية ، أبى جميل زيان . وإذا كنا لانعنى هنا إلا بتسطير الأحداث والمحن ، فإنه يسوغ لنا مع ذلك أن نقف مدى لحظة ، لنستعرض خلالها ، بعض نماذج من النثر والنظم ،فى رثاء بلنسية من كلام أبنائها .

ولامراء فى أن ما صدر عن ابن الأبار فى ذلك وهو من أعظم أبناء بلنسية ، وقد قضى فيها معظم شبابه وكهولته ، وشهد أدوار المحنة من بدايتها إلى نهايتها ، سواء من النثر أو النظم ، إنما هو غرة هذه المراثى ، وأبلغها استثارة للأسى ، وقد أوردنا فيما تقدم شطراً من قصيدته الرائعة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا　　　إن السبيل إلى منجاتها درسا

ورأينا كيف يصور فيها محنة الأندلس العامة أروع تصوير وأبلغه . ولما سقطت بلنسية ، بعد ذلك ، صدرت عنه رسائل وقصائد أخرى، فى رثاء بلنسية وبقية قواعد الأندلس الذاهبة، وبكاء أمجادها ومحاسنها، فمن ذلك قوله من رسالة إلى صديقه أبى المطرّف ابن عميرة :

« وأما الأوطان المحبب عهدها بحكم الشباب، المشبب فيها بمحاسن الأحباب، فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد ، وأخنى عليها الذى أخنى على لبد ، أسلمها الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسرها الطائرة ، وطاحت أنجمها الغائرة ، فغلب على الجذل الحزن ، وذهب مع المسكن السكن .

كزعزع الريح صك الدوح عاصفها　　　فلم يدع من جنّى فيها ولاغصن
واها وواها بموت الصبر بينهما　　　موت المحامد بين البخل والجُبُن

أين بلنسية ومغانيها ، وأغاريد وُرْقها وأغانيها ، أين حلى رصافتها وجسرها ، ومنزلا عطائها ونصرها، أين أفياؤها تندى غضارة، وركاؤها تبدو من خضارة ، أين جداولها الطفاحة وخمائلها ، أين جناتها النفاحة وشمائلها ، شد ماعطل من قلائد أزهارها نحرُها ، وخلعت شعشعانية ضحاها بحيرتها وبحرها ، فأية حيلة لاحيلة فى صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانت إلا رونق الحق وبشاشة الإيمان ، ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دب إلى جزيرة شُقرها ، فأمرّ عذبها النمير ، وذوى غصنها النضير ، وخرست حمائم أدواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت دانية ، فنزحت قطوفها وهى دانية ، وبالشاطبة وبطحائها ، من حيف الأيام وأنحائها ، ولهفاه ثم لهفاه على تُدمير وتلاعها، وجيّان وقلاعها ، وقرطبة ونواديها ، وحمص ووداها ، كلها رُعى كَلأُها ، ودهى بالتفريق والتمزيق ملأها ، غض الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها . . وما لأندلس أصيبت بأشرافها ، ونقصت من أطرافها ، قوض عن صوامعها الأذان ، صُمّت بالنواقيس فيها الآذان ، أجنت ما لم تجن الأصقاع ، أعقّت

الحق فحاق بها الإيقاع ، كلا بل دانت للسُّنة ، وكانت من البدع فى أحصن جُنّة ، فليت شعرى بم استوثق تمحيصها ، ولم تعلّق بعموم البلوى تخصيصها ، اللهم غُفْراً ، طالما ضر ضجر ، ومن الأنباء مافيه مزدجر ، جرى بما لم تقدّره المقدور ، فما عسى أن ينفث به المصدور ، وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا التفويض له والتسليم»(١)

ولأبى المطرّف بن عميره ، وهو أيضاً من أبناء بلنسية ، ومن أبلغ كتابها ، رسائل عديدة فى رثاء المدينة العظيمة ، فمن ذلك رسالة خاطب بها زميله وصديقه ابن الأبار جوابا عن رسالته المتقدمة يقول فيها :

« طارحنى حديث مورد جف ، وقطين خفّ ، فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل : طيروا ، وإنما هو القتل والأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدى سبا ، وانتشروا ملء الوهاد والربا ، ففى كل جانب عويل وزفرة ، وبكل صدر غليل وحسرة ، ولكل عين عبرة لاترقأ من أجلها عَبرة ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، ومازال بها حتى سجى على موتاها ، وشجا ليومها الأطول كهلها وفتاها ، وأنذر بها فى القوم بحران أنيجة ، يوم أثاروا أسْدها المهيجه ، فكانت تلك الحطمة طل الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب .. وبعد ذلك أخذ من الأم بالمخنق ، وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق ، وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسدها روح الإيمان ، فبرح الخفاء ، وقيل على آثار من ذهب العفاء ، وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء ، وأودت الخفة والحصافة ، وذهب الجسر والرُّصافة ، ومزقت الحلة والسهلة ، وأوحشت الجرف والرملة ، ونزلت بالجارة وقعة الحرة ، وحصلت الكنيسة من جآذرها وظباها على طول الحسرة ، فأين تلك الخمائل ونضرتها ، والجداول وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومنعرجها ، والنواسم وهبوب مبتلها ، والأصائل وشحوب معتلها ، دار ضاحكت الشمس بحرها وبحيرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطل فى أعينها ترددها وحيرتها ، ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فآها لمسقط الرأس هوى نجمه ، ولفادح الخطب سرى كَلْمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحق نعتها ، وإنما كانت داره التى فيها دب ، وعلى

(١) واضح من هذه الرسالة انها أنشئت بعد سقوط قواعد الشرق ، وبعد سقوط إشبيلية فى سنة ٦٤٦ هـ أعنى بعد سقوط بلنسية بنحو عشرة أعوام .

أوصاف محاسنها ألَبّ ، وفيها أتته منيته كما شاء وأحب ، ولم تعدم بعد محبين قشيبهم إليها ساقوه ، ودمعهم عليها أراقوه » .

ويقول فى رسالة أخرى :

« ثم ردف الخطاب الثانى بقاصمه المتون ، وقاطبه المنون ، ومضرمة نار الشجون ، ومذرية ماء الشئون ، وهو الحادث فى بلنسية ، دار النحر ، وحاضرة البر والبحر ، ومطمح أهل السيادة ، ومطرح شعاع البهجة والنضادة ، أودى الكفر بإيمانها ، وأبطل الناقوس صوت أذانها ، ودهاها الخطب الذى أنسى الخطوب ، وأذاب القلوب ، وعلّم سهام الأحزان أن تصيب ، ودموع الأجفان أن تصوب ، فياثكل الإسلام ، وياشجو الصلاة والصيام ، يوم الثلاثاء ، وما يوم الثلاثاء ، ياويح الداهية الدهياء ، وتأخير الإقدام عن موقف العزاء ، أين الصبر وفؤادى أنسيه ، لم يبق لقومى على الرمى سيه ، هيهات نجد ما مضى من أتنسيّه ، من بعد مصاب حل فى بنسية .

« يا طول الحسرة ، ألا جابر لهذه الكسرة ، أكل أوقاتنا ساعة العسرة ، أخى أين أيامنا الخوالى ، ولياليتا على التوالى . . كل رزء فى هذه الرزء يندرج ، وقد اشتدت الأزمة فقل لى متى تنفرج ، كيف انتفاعنا بالضحى والأصائل ، إذ لم يعد ذلك النسيم الأرج ، ليس لنا إلا التسليم والرضى ، بما قضاه الخلاق العليم .

ومن نظم أبى المطرّف بن عميرة فى رثاء بلنسية قوله :

ما بال دمعك لاينى مدراره … أم ما لقلبك لايقر قـــراره
اللوعة بين الضـلوع لظاعن … سارت ركائبه وشطّت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه … بعد الدنو وأخفقت أوطاره
أم للزمان أتى بخطب فادح … من مثل حادثة خلت أعصاره
بحر من الأحزان عبّ عبابه … وارتج ما بين الحشا زخّاره
فى كل قلب منه وجد عنده … أسف طويل ليس تخبو ناره
أما بلنسية فمثــوى كافــر … حفّت به فى عقرها كفّاره
زرع من المكروه حلّ حصاده … عند الغُدوّ غداة لجّ حصاره
ماكان ذاك المصر إلا جنّــة … للحسن تجرى تحته أنهــاره
طابت بطيب نهاره آصــاله … وتعطرت بنســيمه أشــجاره

قد كان يشرق بالهداية ليله   والآن أظلم بالظلال نهاره
ودجا به ليلُ الخطوب بصبحه   أعيا على أبصارنا إسفاره[1]

وجاء فى قصيدة طويلة ، وجهها بعضهم إلى أمير إفريقية أبى زكريا الحفصى يستنهض همته لنصرة الأندلس ، وذلك على أثر سقوط بلنسية :

نادتك أندلس فلب نداءها   واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها   من عاطفاتك ما يقى حوباءها
هى دارك القصوى أوت لإيالة   ضمنت لها مع نصرها ايواءها
تلك الجزيرة لابقاء لها إذا   لم يضمن الفتح القريب بقاءها

ومنها فى رثاء بلنسية :

ايه بلنسية وفى ذكراك ما   يجرى الشؤون دماءها لاماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد   شب الأعاجم دونها هيجاءها
والى رُباً وأباطح لم تعر من   حلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها   وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبى مدارس كالطلول دوارس   نسخت نواقيس الصليب نداءها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها   وغدت ترجع نوحها وبكاءها[2]

ونكتفى بهذه المقتطفات النثرية والشعرية التى قيلت فى رثاء بلنسية ، وإنما أوردناها دليلا على شعور أبنائها بفداحة المحنة ، وفداحة آثارها ، التى انتهت فى أعوام قليلة بسقوط سائر قواعد الشرق فى أيدى النصارى .

ولما سقطت بلنسية ، وما يليها من القواعد القريبة فى أيدى النصارى ، نزح الكثير من أهلها إلى قواعد الأندلس الباقية ، فى الشرق والجنوب والوسط ، وعبر فى نفس الوقت كثير منهم البحر إلى العدوة ، واستقروا فى مختلف أنحائها . وقد وقفنا على نص ظهير ، أصدره الخليفة الموحدى الرشيد ، فى الحادى والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٣٧ هـ ، من إنشاء كاتبه القاضى أبى الطرف بن عميرة

---

(١) وردت هذه القصيدة وما تقدمها من رسائل فى كتاب «الروض المعطار» فى مقال «بلنسية» (ص ٤٨ – ٥٢) . وقد أورد لنا المقرى نص الرسالتين كاملا ، رسالة ابن الأبار ، ورسالة ابن عميرة فى الرد عليها ، وذلك فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٦ – ٦٠١ .

(٢) وردت هذه القصيدة الطويلة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٩ – ٥٩٢ .

المخزومى ، إلى « المنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومن جرى من ساير بلاد الشرق مجراهم ، وعراه من عبر الأيام ماعراهم » يأذن لهم فيه بالنزول فى رباط الفتح « وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ، ويعمروا منه بلداً يقبل منهم أولى من قبل ، ويحملهم إنشاء الله تعالى ، وخير البلاد ماحمل » ، وأن « لهم أفضل ماعهده رعايا هذا الأمر العزيز ، أدامه الله تعالى من التوسعة على قويهم حتى يزداد قوة ، والرفق بضعيفهم ، حتى ينال يساراً وثروة » ، وأن يقوموا بحرث أرضه ، وغرس كرومه ، وأن يتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم ، ولايطالبوا بغير حقوق الشرع ، وأن الأوامر قد صدرت إلى الولاة والعمال بحمايتهم والرفق بهم ، وعدم إلحاق الأذى بهم ، أو منعهم من تحقيق مآربهم . وقد صدر هذا الظهير ، حسبما نوه فى بدايته بسعى ذى الوزارتين الشيخ أبى على بن أبى جعفر بن خلاص البلنسى . وهو وثيقة ذات أهمية خاصة ، تلقى ضوءاً كبيراً على مصاير من شردتهم محنة الانهيار من أهل الأندلس، وماكانوا يلقون فى أنحاء العدوة من ضروب المواساة والعطف والترحيب[1]

— ٤ —

لما غادر الأمير أبوجميل زيّان وطنه القديم ومقر رياسته ، ورياسة آبائه وأجداده ، مدينة بلنسية العظيمة ، بعد أن سلمها إلى الملك خايمى الفاتح ، سار فى آله وصحبه إلى الجزيرة أوجزيرة شُقر ، الواقعة جنوبها على ضفة نهر شقر ، وسار وزيره ابن الأبار فى أهله إلى تونس بعد أن أيقن أنه لا أمل فى حياة مستقرة فى ربوع الوطن القديم ، وأخذ زيان بيعة أهل الجزيرة للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ولكنه ماكاد يستقر بها حتى زحف عليها الأرجونيون وطوقوها لأنها لم تكن داخلة فى نطاق الهدنة ، التى كانت تشمل فقط دانية وقليرة ، فاضطر زيان إلى التخلى عن الجزيرة للنصارى ، وغادرها إلى دانية ، ونزل بها وذلك فى شهر رجب سنة ٦٣٦ هـ ، لبضعة أشهر من تسليم بلنسية ، ودعاها للأمير أبى زكريا الحفصى ، وأغضى النصارى مدى حين عن مهاجمة هذا القطاع من من إقليم بلنسية . وعرض زيان خلال ذلك على الملك خايمى أن يسلمه حصن لقَنت على أن يمنحه جزيرة مِنُرقة كإقطاع يحكمها باسمه وتحت طاعته ، فاعتذر

(١) وقفنا على نص هذا الظهير فى المخطوط المعنون « بزواهر الفكر » المحفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى ، ورقم ٥٢٠ ديرنبور (لوحة ١١٥ أ — ١١٦ أ) .

خايمى بأن لقنت لاتدخل فى نطاق فتوحه ، وإنما هى داخلة فى نطاق فتوح قشتالة(١) ، هذا إلى أن منرقه كان يحكمها عندئذ أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى تحت حماية الملك خايمى ، ويؤدى إليه الجزية حسبما تقدم فى موضعه .

وعندئذ اتجه نظر زيان إلى مرسية . وكانت مرسية أيام ابن هود مقر رياسته . ولما توفى بالمرية فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، بايع أهل مرسية ولده أبا بكر محمد بن يوسف بن هود ، وتلقب بالواثق ، ولكن الظاهر أن عمه على بن يوسف تغلب عليه بعد قليل ، ودعا لنفسه وتلقب بعضد الدولة ، بيد أن رياسته لم يطل أمدها أيضاً ، إذ ثار به عميد مرسية وكبير علمائها الفقيه أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن محمد بن خطاب ، وأخرجه من المدينة ، ودعا لنفسه ، وبايعه أهل مرسية ، وذلك فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦هـ ، وتلقب بضياء الدولة. ثم سقطت بلنسية بعد ذلك بأسابيع قلائل فى أيدى النصارى ، وتجهمت الحوادث فى شرق الأندلس ، وقلقت النفوس فى مرسية وغيرها ، ورأى جماعة من أهل مرسية استدعاء أمير بلنسية السابق أبا جميل زيان ، ليتولى الرياسة عليهم ، وهو يومئذ بدانية يرقب الحوادث. فسار زيان إلى مرسية ودخلها ، فثار أهلها بأبى بكر عزيز ضياء الدولة وانتزع زيان منه الرياسة وقبض عليه ، وذلك فى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، ثم أمر بقتله ، فقتل فى السادس والعشرين من الشهر ، وكان ابن خطاب سليل أعرق بيوت مرسية ، وجده الكبير أبو عمر أحمد بن خطاب ، هو الذى استضاف المنصور بن أبى عامر وسائر جيشه ، حين مروره بمرسية فى طريق غزاته إلى برشلونة ، وذلك فى أوائل سنة ٣٧٥هـ (٩٨٥ م)(٢) .

ودعا زيان بمرسية للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ودخلت فى طاعته معظم البلاد الباقية فى شرق الأندلس ، وبعث زيان ببيعتها جميعاً مع وفد ندبه لذلك إلى الأمير أبى زكريا بتونس ، فعاد الوفد يحمل إليه من الأمير تقليد ولايته على مرسية وبلاد شرق الأندلس ، وقدراً من المال لمعاونته ، وذلك فى سنة ٦٣٧هـ . وقد وقفنا على نص الرسالة التى بعث بها الرئيس زيان إلى الأمير أبى زكريا على أثر تلقيه مرسوم الولاية ، وهى من إنشاء الكاتب البليغ أبى عبد الله بن الجنان ،

---

(١) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 88

(٢) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٥٠ — ٢٥٢ ، والذخيرة السنية ص ٥٩ ، وكذلك : M.G. Remiro : Murcia Musulmana p. 295

وفيها يعرب زيان بعد الديباجة « والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، الطالع من أنوار الهدايات » ، وبعد الدعوات الجمة ، عن ولائه وإخلاصه ، ويقول : « فلا جرم أن الخادم يطمئن بذلك قلبا » . ثم يبدى شكره على التفات « الحضرة الكريمة » ، وأنه تلقى الكتب الكريمة بارتياح ، وأنه فى سائر أحواله ، وجميع أفعاله وأقواله « يهتدى بهدى الحضرة العلية ، والانقياد لما أمره به مولاه من النظر فى هذه البلاد ، عاكفاً على المراسم الكريمة فى كل القصد والاعتماد ، باذلا مستطاعة فى الجد والاجتهاد » وخصوصاً فى هذه الأوقات التى اشتدت فيها نكايات الأعداء ، ولكنه يؤمل أن الأحوال سوف تصلح . ثم يختتم كلامه بالدعاء . والرسالة صادرة « من مرسية حرسها الله تعالى » ؛ ولكن ليس لها تاريخ[1] .

على أن زيان لم يتح له أن يجمع سائر الشرق تحت طاعته ، فقد خرجت على رياسته أوريولة ، واستقل بها ابن عصام ، وكذلك خرجت لورقة ، واستقل برياستها الفقيه محمد بن على بن أحلى .

واستمر الأمير زيان فى رياسته لمرسية زهاء عامين . وكان كاتبه فى تلك الفترة ، القاضى والكاتب اللامع أبو المطرّف بن عميرة المخزومى . وهنالك مايدل على أن الأمير زيان ، قد بذل عندئذ محاولة للتفاهم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وذلك حسبما تدل عليه رسالة موجهة منه إلى فرناندو ، ومحررة بقلم أبى المطرف ، يذكر فيها ما تم له من فتح مرسية ، ورضاء المسلمين بهذا الفتح ، وأنه رأى مفاوضته فى عقد السلم ، وأن يكون ذلك على يد رسول أوفده إليه ، وأنه على استعداد للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض[2] . ومن الواضح أن هذه المحاولة من جانب زيان ترجع إلى ماكان معقوداً بين مملكتى قشتالة وأراجون من أن الاستيلاء على منطقة مرسية ، كان من حق ملك قشتالة . على أن الأمر لم يطل برياسة زيان لمرسية ، فقد خرج عليه زعيم من بنى هود ، من أبناء عمومة المتوكل ، يدعى محمد بن هود ، والتف حوله أهل مرسية ، فانتزع الحكم من زيان وتلقب ببهاء الدولة ، وخرج زيان من مرسية ، فى أهله وأمواله ولجأ فى قومه وعشيرته إلى لقنت ذلك فى سنة ٦٣٨ ﻫ (١٢٤٠ م) . وعاش بها بضعة

---

(١) وردت هذه الرسالة فى كتاب « زواهر الفكر » الذى سبقت الإشارة إليه (مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى (رقم ٥٢٠ ديرنبور) .

(٢) أورد لنا القلقشندى نص هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٦ و ١١٧ .

أعوام فى خول ، وهو يشهد سقوط قواعد الشرق المتوالى فى أيدى النصارى، إلى أن وصل الأرجونيون إلى بلده واستولوا عليها ، وذلك فى سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) فعندئذ عول على مغادرة الأندلس قاطبة ، وركب البحر فى أهله إلى تونس، ونزل بها فى كنف أميرها ، إلى أن توفى سنة ٦٦٨هـ (١٢٦٩م)[١].

وكان الأرجونيون خلال ذلك قد استولوا على ثغر دانية ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤١هـ (مايو ١٢٤٤م) ، وبعد ذلك بنحو عامين استولوا على شاطبة ، وذلك فى آخر صفر سنة ٦٤٤هـ (يوليه ١٢٤٦ م) . وكانت شاطبة منذ أيام المتوكل ابن هود ، قد تولى رياستها من قبله يحيى بن أحمد بن عيسى الخزرجى ، فلما توفى فى شعبان سنة ٦٣٤ هـ ، وليها من بعـده ، ولده أبو بكر محمد ، وولى كذلك دانية حيناً ، واستمر على ولايته لشاطبة أعواماً من بعد سقوط بلنسية ، وهو يصانع الملك خايمى ، ويؤدى إليه ماشاء من جزية ، إلى أن قرر خايمى فى النهاية الاستيلاء عليها ، فدخلها الأرجونيون صلحاً فى التاريخ المتقدم (صفر ٦٤٤هـ) وذلك بعد حصار قصير . ولم يمض سوى عام ونصف حتى نقضوا الهدنة مع أهلها المسلمين ، وأرغموهم على الجلاء عنها وذلك فى رمضان سنة ٦٤٥ هـ[٢] فتفرقوا فى مختلف البلاد ، وغادرها واليها السابق أبو بكر فى أهله ولجأ إلى أحد الحصون القريبة منها . وكان أبو بكر بن يحيى هذا ، أديبا متمكناً من النثر والنظم ، وقد أورد لنا ابن الأبار شيئاً من نظمه[٣] .

وهكذا استولى الأرجونيون من بعد بلنسية ، خلال أعوام قلائل فقط على سائر القواعد القريبة منها ، جزيرة شقر ، ودانية ، وشاطبة ، والبيضاء ، ولقنت[٤] وغيرها ، ولم يبق من قواعد الشرق بيد المسلمين سوى مرسية وأحوازها . على

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ ، و ج ٦ ص ٢٨٥ . ويقول صاحب الذخيرة السنية إن زيان لجأ إلى حصن اللش (ألش) . وراجع : M.G. Remiro : Ibid; p. 295 & 296

(٢) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) ج ١ ص ١٢٤ و ٣٣٤ .

(٣) ابن الأبار فى الحلة السيراء ص ٢٤٧ و ٢٤٨ . وفى التكملة « القاهرة » فى الترجمة رقم ٣١٠ و ٩٠٧ .

(٤) يضع صاحب الذخيرة السنية تاريخ استيلاء النصارى على دانية ولقنت وألش وأوريولة وقرطاجنة فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) (ص ٦٥) ولكنا نرجح فيما يتعلق بدانية ولقنت ، ماتقدم من الروايات . ثم هو يعود فيذكر لنا مرة أخرى ان سقوط أوريولة كان فى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) (ص ٨٧) . ولكن سنرى أن هذه القواعد الأخيرة قد تأخر سقوطها إلى ما بعد ذلك .

أن القدر كان أيضاً بالمرصاد لمرسية ، وإن كان قد طوح بها إلى مصير آخر .

— ٥ —

وذلك أنه لما نجح بهاء الدولة محمد بن هود ، فى انتزاع حكم مرسية من الأمير أبى جميل زيان ، وذلك فى سنة ٦٣٨هـ ، كان ابن عصام صاحب أوريولة من أنصاره والمعترفين بطاعته ، ولكن لورقة لبثت مع ذلك محتفظة باستقلالها برياسة واليها ابن أحلى .

على أنه لم يمض سوى قليل حتى شعر أهل مرسية أن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا النحو ، وأن توالى سقوط قواعد الشرق فى يد الأرجونيين ، سوف يحدد مصير مرسية ، عاجلا أوآجلا ، ومن جهة أخرى فإن انضواء مرسية تحت لواء أمير إفريقية الحفصى لن يغنى شيئاً ، لبعد الشقة ، وتعذر العون ، ومن ثم فقد قرر أشياخ مرسية بالاتفاق مع بهاء الدولة أن يتفاهموا مع النصارى ، رجاء صونها من الغزو والتخريب ، واتجهوا فى ذلك إلى ملك قشتالة ، إما لأنهم آثروا القشتاليين على الأرجونيين ، وإما لأنهم كانوا يعلمون أن مدينتهم تقع فى منطقة الغزو القشتالى ، وبعثوا إلى ملك قشتالة سفارة على رأسها أحمد بن محمد بن هود ولد واليها ، يعرضون عليه الاعتراف بطاعته وتأدية الجزية إليه ، وأن يسمح له بوضع حامية بالمدينة . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذا العرض فى سنة ٦٣٩هـ الموافقة لسنة ١٢٤١م ، وهو التاريخ الذى تقدمه لنا الرواية النصرانية[1] .

وكان ملك قشتالة فرناندو الثالث يومئذ مريضاً فى برغش ، وكان ولده وولى عهده الإنفانت ألفونسو بمدينة طليطلة ، فوفدت عليه هنالك سفارة مرسية ، فاستقبلهم باسم والده الملك ، وأبلغ النبأ فى الحال إلى فرناندو ، فوافق على عرض أهل مرسية ، وصرفهم الإنفانت بعد التفاهم معهم على تسلم المدينة ، ثم سار بعد قليل فى نفر من صحبه صوب مرسية ، حيث التقى فى الكَرَس بنواب مرسية ، وعقد معهم معاهدة التسليم ، ودخل ألفونسو ولى عهد قشتالة وصحبه ، ومعهم أحمد بن محمد هود مرسية ، وتسلموها صلحاً ، وذلك على الاعتراف بالطاعة ، وأداء الجزية ، وبقاء حكمها بأيدى أهلها ، وذلك فى اليوم العاشر من شوال سنة ٦٤٠ هـ (٢ أبريل ١٢٤٣ م)[2] . ووضع القشتاليون بعض

---

(١) الذخيرة السنية ص ٦٤ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 88

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار فى التكلة (القاهرة) فى الترجمة رقم ١٦٧١ ، ولكن المقرى =

الجند فى مرسية ، وفى بعض الحصون التابعة لها ، واحتفظ أمير مرسيه بسيادته التامة على لقنت ، وأوريوله ، وألش ، وبعض الأماكن الأخرى الداخلة فى أعمال مرسية . وكذلك فإن لورقة ، ومولة ، وقرطاجنة ، وهى من أعمال مرسية ، لم تدخل فى هذا التسليم ، واحتفظت باستقلالها حيناً ، حتى استولى عليها القشتاليون فى سنة ١٢٤٥ م . أما مرسية فلبثت عدة أعوام أخرى تحت حكم واليها محمد بن هود ، بهاء الدولة ، ثم بعد وفاته تحت حكم ولده أبى جعفر أحمد ، وذلك تحت حماية ملك قشتالة . وكان والى مرسية يعرف عندئذ عند النصارى بملك مرسية . وكان من الغريب أن « تبقى مملكة مرسية » الإسلامية قائمة على هذا النحو تتمتع بنوع من الاستقلال ، بعد أن سقطت بلنسية ، وكل أعمالها ، وأضحى النصارى يشرفون عليها من لقنت وألش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . ولكن ذلك يمكن تفسيره أولا ، بما وقع من الاضطرابات المستمرة فى بلنسية ضد الأرجونيين ، وقيام المسلمين المدجنين فى بلنسية ، وشاطبة ، ومربيطر وقسطلونة وغيرها ، ومحاولتهم استرداد استقلالهم بقوة السلاح ، واستردادهم بالفعل لبعض الحصون الهامة (سنة ١٢٥٤م)، وثانيا باشتداد ساعد مملكة غرناطة ، المملكة الإسلامية الجديدة التى أنشأها ابن الأحمر فى جنوبى الأندلس ، وتهديدها من آن لآخر بإنجاد أهل مرسية ومعاونتهم . وكان خايمى ملك أراجون حينما اشتدت الاضطرابات فى بلنسية وأحوازها ، قد عمل على تدعيم معظم الحصون بحاميات جديدة ، وأخرج بالقوة آلافا مؤلفة من المسلمين المدجنين من أراضى بلنسية ، فقصدوا إلى مرسية وأعمالها وتفرقوا فيها ، وذهبت آلاف أخرى منهم إلى مملكة غرناطة . وفرض القشتاليون على المهاجرين منهم إلى مرسية وأعمالها ضريبة لدخولهم قدرها بيسانتى Besante عن كل فرد . واشتد ساعد « مملكة مرسية » بمن وفد إليها من هذه الجموع المهاجرة ، واستطاعت أن تفرض احترام استقلالها الداخلى على النصارى فترة أخرى .

واستمر أبو جعفر أحمد بن هود واليا لمرسية وأحوازها حتى سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٤ م) ؛ وفى هذا العام خروج عليه ، أبو بكر محمد بن محمد بن يوسف ابن هود ، وكان قد حكم مرسية بضعة أشهر عقب وفاة أبيه المتوكل ، وتسمى

= يقول لنا إن ذلك وقع فى العاشر من شوال سنة ٦٣٩ هـ (١١ أبريل ١٢٤٢ م) (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) وراجع أيضاً : M.G. Remiro ; ibid ; p. 296

بالواثق ، ثم تغلب عليه عمه عضد الدولة بن هود ، ثم جاء أبوجميل زيان فانتزع الحكم منه حسبما فصلناه فيما تقدم ، إلى أن تغلب عليه بها الدولة ابن هود ، وفى خلال ذلك كان الواثق يعيش مغموراً هادئاً ، إلى أن سنحت له الفرصة لينتزع الحكم من أبى جعفر . وكان الواثق يعتقد أنه يستطيع بمعاونة المسلمين المدجّنين فى منطقة الشرق ، ومعاونة ابن الأحمر ملك غرناطة ، أن يخلع طاعة النصارى، وأن يستّرد لمرسية كامل استقلالها . وربما كان قد شعر أيضاً أن قشتالة لم تكن من القوة كما كانت أيام فرناندو الثالث . وكان فرناندو قد توفى منذ سنة ١٢٥٢م، وخلفه ولده ألفونسو العاشر ، وشغلت قشتالة فى ظله بصراعها مع مملكة غرناطة . ومن ثم فقد أعلن الواثق خلع طاعة ملك قشتالة ، لأنه لم يلتزم الوفاء بما تعهد به فى معاهدة التسليم ، وخرق نصوصها بالاستطالة على حقوق مملكة مرسية ، وبعث إلى رومة سفيراً يسعى لدى البابا ، ليحمل ملك قشتالة على الوفاء بعهوده ، من عدم التدخل فى شئون مملكة مرسية، واستمر متمسكاً باستقلاله ، ولكنه لما شعر بأن جند الملك خايمى ملك أراجون ، بدأت تغير على أراضى مرسية وترهق أهلها ، أعلن طاعته لابن الأحمر ملك غرناطة ، وبعث إليه ابن الأحمر قوة من جنده بقيادة صهره الرئيس أبى محمد بن أشقيلولة ، فقدم إلى مرسية وضبط أمورها ، وخطب بها لابن الأحمر .

ويقدم إلينا ابن عذارى شرحاً آخر لتطور الحوادث فى مرسية فيقول ، إن أهل شرق الأندلس كانوا قد صالحو الروم بمال معلوم، يدفعونه لهم فى كل عام، وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم . فلما ذاع فيهم ضرر الروم وأذاهم ، أخرجوهم بالقتال والحصر ، وكتب أهل مرسية إلى الأمير ابن الأحمر ببيعتهم ، فبعث إليهم الرئيس أبا محمد بن أشقيلولة والياً . فزحف النصارى إليها، ونزلوا عليها ، وحصر الرئيس فيها ، ثم غادرها مع صحبه . وهكذا اضطر ابن الأحمر أن يتخلى عن حماية مرسية ، واضطر نائبه ابن أشقيلولة أن يغادرها مع جنده . ويضع ابن عذارى تاريخ هذا الحادث فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤م) ويزيد على ذلك أن أهل مرسية لم يجدوا بعد ابن الأحمر حماة ولا أنصاراً ، واشتد عليهم حصار العدو وتألبه ، فأعطوا مرسية للنصارى وخرجوا منها بالأمان إلى «الرشاقة»، فسكنوا بها نحو عشرة أعوام، إلى أن أخرجهم النصارى منها بالأمان فى سنة ثلاث وسبعين ، ولكنهم غدروا بهم فى الطريق بموضع يعرف ببوركال ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء

والأطفال[١] . ولكن الرواية النصرانية تقول لنا بالعكس ، إنه على أثر مغادرة جند ابن الأحمر لمرسية ، رد أهلها الأمر ثانية إلى الواثق ابن هود ، فقضى فى حكمها فترة قصيرة أخرى ، إلى أن افتتحها الملك خايمى ، وذلك على النحو الآتى :

فى تلك الأثناء ، كان ملك قشتالة ألفونسو العاشر ، يعانى صعابا فى الاحتفاظ بفتوحه الجديدة فى الأندلس ، ولاسيما فى منطقة شريش وشذونة ، ويرقب نشاط ابن الأحمر ملك غرناطة وازدياد قوته بعين التوجس والخوف . وزاد قلقه من جراء ذلك بما حدث من عبور بعض قوات بنى مرين من المغرب إلى الأندلس ، لمناصرة ابن الأحمر . وكان من جهة أخرى يرى نفسه عاجزاً عن قمع ثورة مرسية ، واسترداد سيادته عليها ، ومن ثم فقد بعث إلى حميه خايمى ملك أراجون — وكان قد تزوج بابنته الأميرة ڤيولانتى ، وارتبط معه برباط المصاهرة والصداقة الوثيقة — يطلب إليه المعاونة فى منطقة مرسية ، لأن الثورة فى مرسية تهدد سيادته فى بلنسية ، ومن ثم فقد قرر الملك خايمى ، بعد استشارة الأمراء والأحبار ، أن يسير لافتتاح مرسية ، بالرغم من كونها تقع فى منطقة نفوذ قشتالة ، وذلك نزولا على رغبة ملك قشتالة نفسه[٢] . فجهز حملة قوية ، وسار جنوبا صوب مملكة مرسية ، وزحف أولا على حصونها الأمامية ألش ولقنت وأوريوله ، واستولى عليها ، ثم بقى فى أوريولة ، وضربت جنده الحصار حول مرسية ، وبذل الأرجونيون كل جهد للتضييق على المدينة المحصورة ، ورد كل أمداد يصل إليها من غرناطة ، واستمر الحصار بضعة أشهر . فلما رأى الواثق أنه لامفر من التسليم ، بعد أن نفدت سائر الموارد ، وغاض كل أمل ، فاوض الملك خايمى فى التسليم ، واتفق معه على أن يعوضه عن مرسية بحصن « يسر » ليقيم فيه هو وأهله وصحبه . وهكذا سلمت مرسية آخر قواعد الشرق الكبرى ، ودخلها الملك خايمى الأرجونى وذلك فى فى شهر فبراير سنة ١٢٦٦ م . وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية الإسلامية لسقوط مرسية ، وهو سنة ٦٦٤ هـ ، وأن كانت ثمة روايات نصرانية أخرى تضع تسليم مرسية فى سنة ١٢٦٩ أو ١٢٧٠[٣] م . ولم يطلب الملك خايمى

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣٨ .

(٢) M. Lafuente : ibid ; T. IV. p. 132

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ . وهو يجمل سقوط مرسية فى كلمة عابرة ، وإنما استقينا التفاصيل المتقدمة من كتاب : G. Remiro : ibid; p. 300-303 . وفيها يلخص مختلف الروايات النصرانية .

من اهل مرسية الجلاء عن أرضهم كما حدث فى بلنسية وقواعدها ، ولكنه طلب إليهم فقط أن يسمح لأهل أراجون وقطلونية بالهجرة إلى أراضى مملكة مرسية . وكان قد حمل على هذا الاعتدال ، بما حدث فى بلنسية وقواعد الشرق الشمالية من الاضطرابات العنيفة على إثر إخراج سكانها من أوطانهم .

وهكذا استولى خايمى الفاتح على سائر ثغور شرقى الأندلس وقواعده ، من بنشكلة وقسطلونة شمالا ، حتى قرطاجنة ولورقة جنوبا ، وذلك فى فترة لاتتجاوز الثلاثين عاما ، وانتهت بذلك سيادة الإسلام فى تلك الرقعة الكبيرة من الوطن الأندلسى القديم ، بعد أن لبثت بها أكثر من خمسة قرون ، وأضحى أهلها المسلمون الذين آثروا البقاء بأوطانهم القديمة ، واستسلموا إلى قدرهم فى ظل حكم السادة النصارى الجدد ، مدجنين Mudéjares تعصف بهم إرادة الفاتح ، وتسلبهم حقوقهم الدينية والمدنية ، ومميزاتهم القوية شيئاً فشيئاً ، ولاتنفعهم ثوراتهم المتكررة فى سبيل الاحتفاظ بكيانهم ، حتى غدوا بمضى الزمن مجتمعاً غريبا فى بلاده ، وفقدوا دينهم القديم ، ولغتهم العربية ، وغلبت عليهم الذلة والعبودية ، وحتى هذه الحياة المسكينة الذليلة فى ظل آثار دينهم ولغتهم لم تدم ، وكان أن أرغموا بعد ذلك على التنصير ، واعتناق دين الغالب ولغته ، وأضحى تاريخهم فى ظل الحكم الإسبانى ، وظل الكنيسة الإسبانية ، ومحاكم التحقيق ، مأساة من أروع مآسى التاريخ ، وأبلغها إيلاما للنفس ، وهى التى تعرف بمأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين[1] .

---

(١) تناولنا كل ما يتعلق بمصاير المدجنين وأحوالهم وتاريخ الموريسكيين بتفصيل واف فى كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » (ص ٤٧ — ٥٨) .

الفصل الرابع

سقوط اشبيلية

وقواعد الغرب

ابن الأحمر واشتداد ساعده . يعتزم محاربة القشتاليين . محاصرته لمرتش . هزيمته للقشتاليين . غزو فرناندو الثالث للأندلس الوسطى . عيثه فى أحواز جيان . افتتاحه لأرجونة وغزوه لفحص غرناطة . يعتزم افتتاح جيان . أهبة جيان وحصانتها . مسيره إلى جيان وحصارها . استنجاد واليها بابن الأحمر . طول الحصار ونفاد المؤن . موقف ابن الأحمر . يؤثر التفاهم مع ملك قشتالة . اعترافه بطاعة فرناندو . بقية شروط المعاهدة المعقودة . دخول القشتاليين جيان . جيان ومركزها التالد بين قواعد الأندلس . الأماكن الأخرى التى نزل عنها ابن الأحمر . انهيار الأندلس الشرقية والوسطى . تحول أنظار النصارى إلى إشبيلية . إشبيلية ومركزها أيام الفتنة . تطور مصايرها منذ قيام ابن هود . عودها إلى طاعة الموحدين . استقلا لها المحلى . اعترافها بطاعة الدولة الحفصية . سبتة تحلو حذوها . الأمير أبوزكريا يعين والياً لإشبيلية ويوجه رسالة إلى أهلها . سوء تصرف الحكام الإفريقيين . أهل إشبيلية يخرجونهم ويقتلون زعيمهم ابن الجد . ماذا وراء ثورة أهل إشبيلية . زعماء إشبيلية الجدد . إعلانهم إلغاء المعاهدة التى عقدت بين ابن الجد وملك قشتالة . مضمون هذه المعاهدة . غضب ملك قشتالة لمصرع ابن الجد . محاولة الزعماء تجديد المعاهدة مع فرناندو . رفض فرناندو واعتزامه فتح إشبيلية . منعة إشبيلية وظروفها الجغرافية . فرناندو يعتزم أخذها بالحصار . مسيره إليها فى قواته . معاونة ابن الأحمر للنصارى . أستيلاء فرناندو على قلعة جابر . عيث القوات القشتالية فى فحص الشرف وفحص شريش . تجهيز السفن للحصار . معاونة البابا فى المشروع . فرناندو يجهز قوات الغزو النهائى فى قرطبة . البدء بمهاجمة قرمونة . اشتراك جند ابن الأحمر فى ذلك . تطويق النصارى لقرمونة . عرض أهلها للتسليم . استيلاء فرناندو على لورة وقنطلانة . تسليم غليانة وجرينة . مهاجمته للقلعة . دفاعها ثم تسليمها . دور ابن الأحمر فى تسليم هذه المعاقل . مقدم أسطول الحصار . يرابط فى الوادى الكبير . ظروف إشبيلية الدفاعية واستمدادها للدفاع . قصور الرواية الإسلامية فى التعريف بزعماء إشبيلية ودروها الدفاعى . بداية الحصار . مهمة الأسطول النصرانى . اشتراك ابن الأحمر وجنده فى الحصار . إشبيلية تتلقى الأمداد من النهر ومن وادى الشرف . المعارك المستمرة بين الإشبيليين والنصارى . عيث النصارى فى ضواحيها . السفن المغربية تصارع السفن النصرانية وتحمى خط إمداد المدينة . محاولتها حرق السفن النصرانية . مقدم قوات الفرسان والأحبار والمدن النصرانية لتعزيز الحصار . صريخ أهل إشبيلية إلى أمراء المغرب . قصيدة ابن سهل الإشبيلى . قصيدة أبى موسى هرون . تحطيم النصارى لقنطرة طريانة . مهاجمة النصارى لطريانة . دفاع الحامية الإسلامية . محاصرة طريانة وفصلها عن إشبيلية . اشتداد محن الحصار على المدينة . وصف ابن عذارى لذلك . اجتماع الزعماء وبحث الموقف . عرض الزعماء التسليم الجزئى . رفض ملك قشتالة وإصراره على التسليم الشامل . المفاوضة فى التسليم وشروطه . إخلاء المسلمين للمدينة . تأمين

النصارى للمهاجرين . مسيرهم إلى العدوة ومختلف أنحاء الأندلس الباقية . عبور القائد شقاف وزملائه إلى سبتة . مصيرهم المؤسى . دخول فرناندو الثالث إشبيلية . تحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة . تقسيم دور المسلمين بين الفاتحين . إشبيلية تغدو عاصمة قشتالة . تأملات عن سقوط إشبيلية . افتتاح القشتاليين لقواعد هذه المنطقة . خضوع ابن محفوظ صاحب لبلة . خضوع صاحب شريش . أحوال شريش بعد ذلك. سقوط قادس . القاضي ابن محفوظ ومدى رياسته . تفاهمه مع ملك قشتالة . نزوله عن بعض الحصون والأماكن . استيلاء البرتغاليين على ميرتلة وشلب وطبيرة وشنتمرية الغرب . خروج ابن محفوظ على ملك قشتالة ألفونسو العاشر . مسير ألفونسو إلى لبلة ومحاصرتها . مناعة لبلة وصمودها . إطلاق المسلمين منها آلات تشبه المدافع . تسليم لبلة . مصير ابن محفوظ . الخلاف بين البرتغال وقشتالة على بعض قواعد الغرب . فرناندو الثالث . إشادة الرواية النصرانية بعبقريته . يعتبر قاهر الأندلس الحقيق . البابا يسبغ عليه صفة القداسة .

— ١ —

فى نفس الوقت الذى كانت فيه قواعد الشرق ، تسقط تباعا فى أيدى الأرجونيين ، كان ملك قشتالة فرناندو الثالث ، منذ استولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة فى شوال سنة ٦٣٣ هـ ، يتابع غزواته وفتوحه فى منطقة الأندلس الوسطى .

وكان محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، يعمل خلال هذه الفترة على توطيد مركزه فى الأندلس الجنوبية ، وقد قوى أمره ، واشتد ساعده ، ونمت موارده ، باستيلائه على ألمرية ومالقة عقب وفاة ابن هود ، وغدا يبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من جنوبى الوادى الكبير حتى البحر ، ومن ألمرية غربا حتى رندة .

ولم ينس ابن الأحمر أمر المنطقة الشمالية التى بدأ منها ، والتى بها موطنه ومنشأ أسرته ، وهى منطقة جيان وأرجونة . وكان القشتاليون ، منذ استيلائهم على قرطبة ، قد عاثوا مراراً فى تلك المنطقة ، وخربوا ربوعها ، فلما شعر ابن الأحمر باشتداد ساعده وتكاثر جمعه ، اعتزم أن يسير لقتال القشتاليين ، وأن يعمل على تحرير تلك المنطقة من عيثهم ، فخرج من غرناطة فى قوة كبيرة ، وقصد إلى إلى مرتش وهى بلدة حصينة تقع جنوب غربى جيان ، وكانت بيد القشتاليين ، وضرب حولها الحصار ، (سنة ٦٣٦ هـ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادها بسرعة ، واضطر ابن الأحمر أن يرفع الحصار . وهنا وقعت بينه وبين القشتاليين بقيادة دون ردريجو ألونسو ، وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، معركة عنيفة هزم فيها القشتاليون هزيمة شديدة ، وقتل منهم وممن كان معهم من فرسان

شنت ياقب عدد جم . وكان لذلك الحادث أعمق وقع فى قشتالة . ومضى على ذلك نحو عامين أوثلاثة ، ثم نهض فرناندو الثالث لتدارك الموقف ، وخرج فى قواته قاصداً إلى الأندلس من ناحية أرجونة ، وهو يخرب تلك الأنحاء ، وينتسف زروعها . ثم سار جنوبا نحو جيان والقبذاق ، وكان يتوق للانتقام لهزيمة جنده فى مرتش ، فخرب أيضاً أراضى تلك المنطقة . ثم بعث جانبا من قواته لافتتاح أرجونة ، وهى موطن ابن الأحمر ومثوى أسرته ، فحاصرها القشتاليون مدى يومين ، وفى اليوم الثالث أشرف عليها فرناندو فى بقية جيشه ، فلما أيقن أهلها المسلمون أنه لا أمل لهم فى الصمود والإنجاد ، سلموها بالأمان وغادروها حاملين أمتعتهم وذخائرهم ، وبعث فرناندو قواته صوب الجنوب لتغزو فحص غرناطة ، فعاثت فى أنحائه وخربت كثيراً من ربوعه . ووقعت هذه الحوادث فى أواخر سنة ١٢٤٤ م (أواسط سنة ٦٤٢ هـ) ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى قرطبة فاستراح بها حتى أوائل العام التالى :

وكان أهم هدف لملك قشتالة فى تلك المنطقة ، هو الاستيلاء على مدينة جيان عاصمتها التالدة ، وأمنع قواعدها ، وكان قد حاصرها قبل ذلك فى سنة ١٢٣٠م (٦٢٧ هـ) ولكنه أخفق فى الاستيلاء عليها ، وكان ابن الأحمر قد اتخذها مقرا لرياسته فى مبدأ أمره . وكانت جيان مدينة عظيمة ، حسنة التخطيط والبناء ، ذات صروح وآثار جميلة ، وكانت تتمتع بمناعة فائقة ، سواء بأسوارها العالية ، أو بقلعتها الحصينة الشامخة ، التى مازالت أطلالها القائمة تنبىء بحصانتها القديمة ، كما أنها بموقعها الطبيعى فى منطقة من البسائط الخضراء اليانعة ، كانت من أغنى قواعد الأندلس الوسطى وأكثرها رخاء[1] . وكان الاستيلاء عليها يحقق للقشتاليين بسط سلطانهم على سائر أنحاء تلك المنطقة الغنية الخصبة . ومن ثم فقد عول فرناندو على افتتاحها ، ولم يك ثمة سبيل آخر لتحقيق هـذه الغاية سوى محاصرة هذه المدينة الكبيرة الغنية ، حتى يرغمها الجوع على التسليم .

وفى أواخر سنة ٦٤٢هـ (أوائل سنة ١٢٤٥ م) ، أشرف فرناندو الثالث بقواته على مدينة جيان ، وضرب حولها الحصار . ولم يكن هذا الحصار أمراً هيناً لوقوعه فى قلب الشتاء ، وكان اشتداد البرد وهطل الأمطار ، يضاعف متاعب الجند المحاصرين ، واستمر الحصار على هذا النحو شهراً ، وجيان صامدة ، وقد

---

(١) الروض المعطار ص ٧٠ و٧١ .

خرج أهلها غير مرة لمقاتلة القشتاليين ففتكوا بهم وقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم . بيد أن المدينة المحصورة كانت من جهة أخرى تعانى من الحرمان والجوع . وكان واليها أبو عمر على بن موسى ، حينما شعر بتحركات القشتاليين ومراميهم ، قد أرسل قبل الحصار إلى ابن الأحمر يستغيث به ، ويطلب إنجاده بالمؤن ، لكى تستطيع المدينة مقاومة النصارى ، فبعث إليه ابن الأحمر بقافلة كبيرة من المؤن استطاعت أن تجتنب القشتاليين ، وأن تصل إلى المدينة ، فلما طال الحصار نفدت الأقوات ، وأخذ الموقف يتحرج ، ومع ذلك فقد لبثت المدينة على صمودها .

وكان ابن الأحمر خلال ذلك يرقب الحوادث بمنتهى الجزع ، وكانت غزوات القشتاليين قد وصلت غير مرة ، إلى فحص غرناطة ، والى غرناطة ذاتها ، وشعر ابن الأحمر أنه لابد أن يلتمس الوسيلة لتأمين سلطانه ، واجتناب عادية القشتاليين ، ولم يك ثمة وسيلة أنجع من التفاهم مع ملك قشتالة ، والحصول على مهادنته . ومن جهة أخرى فقد أدرك ابن الأحمر ، أنه لاسبيل إلى إنجاد جيان ، أو اجتناب مصيرها المحتوم ، وأنه يحسن تدارك الموقف ، قبل أن تسقط المدينة فى أيدى القشتاليين ، أو يقومون باقتحامها وتخريبها . ومن ثم فقد بدأ بن الأحمر بمفاوضة ملك قشتالة؛ وكان فرناندو الثالث يصر على أن يكون أساس التفاهم مبدأً واحداً لاسبيل إلى تغييره ، هو وجوب خضوع ابن الأحمر لسيادته ، والاعتراف بطاعته . ولم ير ابن الأحمر محيصاً عن قبول هذا الشرط المؤلم ، فسار بنفسه إلى المعسكر القشتالى تحت أسوار مدينة جيان ، وقدم طاعته إلى ملك قشتالة . وعقدت بين الملكين معاهدة سلام وتحالف ، خلاصتها أن تسلم مدينة جيان وأعمالها فى الحال إلى ملك قشتالة ، وأن يحكم ابن الأحمر مملكة غرناطة وسائر أراضيها ، باعتباره تابعا لملك قشتالة ، بكل ما يستتبعه هذا الاعتراف من فروض ، ومنها أن يتعاون ابن الأحمر مع قشتالة فى الحرب وفى السلم ، وأن يشهد اجتماع الكورتيس (مجلس قشتالة النيابى) ، وأخيراً أن يؤدى ابن الأحمر إلى ملك قشتالة جزية قدرها مائة وخمسون ألف مراقيدى تؤدى خلال عشرين عاما ، وهى المدة التى اتفق أن يعقد خلالها السلم والتهادن بين الفريقين . وتم عقد هذه المعاهدة فى أوائل سنة ١٢٤٦ م (أواخر سنة ٦٤٣ هـ)[١] .

وعلى أثر ذلك دخل القشتاليون مدينة جيان العظيمة ، وحول مسجدها الجامع

J. Gonzalez : Las Conqnistas de Fernando III en Andalucia, p. 94 & 95 (١)

فى الحال إلى كنيسة ، وغادرها معظم أهلها المسلمين ، وتفرقوا فى قواعد الأندلس الجنوبية . ولما تم احتلال الجند النصارى للمدينة ، دخلها ملك قشتالة ، فى موكب فخم ، وشهد القداس الذى أقيم فى جامعها ابتهاجاً بالنصر ، ووزع دور المدينة على أكابر الفرسان ، ومعظمهم من جماعة فرسان شنت ياقب ، وجماعة فرسان قلعة رباح .

وكانت جيان من مراكز العلوم والآداب بالأندلس ، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء والأدباء ، ومنهم الحافظ أبوعلى الجيانى ، والفقيه أبوذر مصعب ابن محمد بن مسعود الخشنى . ومما أنشده بعض أهل جيان عند الخروج منها هذان البيتان :

أودعكم أودعكم جيّانى   وأنثر عبرتى نثر الجمان
وانى لا أريد لكم فراقا   ولكن هكذا حكم الزمان[1]

ونزل ابن الأحمر للقشتاليين ، عدا جيان ، عن أرجونة بلده ومثوى أسرته ، وعن بركونة وبيغ والحجار ، وكذلك نزل إليهم عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها[2] . وهكذا اشترى ابن الأحمر سلامته ، وسلامة مملكته وأراضيه بهذا الثمن الفادح ، وارتضى بالأخص أن يضحى باستقلاله السياسى وهيبته الملوكية إلى حين ، وذلك لكى يأمن شر عدوان خصمه القوى القاهر ، ولكى يتفرغ إلى تنظيم مملكته وإلى توطيد سلطانه الداخلى[3] .

— ٢ —

كان من الواضح ، فى تلك الآونة ، بعد أن توالى سقوط قواعد الأندلس الكبرى ، الشرقية والوسطى : قرطبة وبلنسية وشاطبة ، ودانية ، وبياسة ، وأبدة وجيان ، وكثير غيرها ، وذلك كله فى فترة قصيرة لاتعدوعشرة أعوام ، أن الأندلس الكبرى قد انهارت دعائمها ، وتحطمت منعتها ، وقواها الدفاعية ، وأنه باستثناء القواعد الجنوبية التى اجتمعت فى ظل مملكة غرناطة ، والتى يسيطر عليها

---

(١) الروض المعطار ص ٧٢ .

(٢) أرجونة بالإسبانية **Arjona** ، وبركونة **Porcuna** ، وبيغ أوبيغو **Priego** ، والحجار هى **Higuéra** ، وكلها تقع فى منطقة جيان .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ ، وابن الخطيب فى اللمحة البدرية ص ٣٦ ، وفى الإحاطة المطبوع ج ٢ ص ٦٥ .

ابن الأحمر ، لم يبق من قواعدها الكبرى دون فتح ، سوى مدينة إشبيلية العظيمة وأحوازها ، والقواعد القريبة منها فى الشرق والغرب والجنوب .

كانت إشبيلية بعد قرطبة ، هى التى تجذب عندئذ أنظار ملك قشتالة ، وأنظار الأحبار وجماعات الفرسان النصارى ، وهم الذين كانوا يفوزون من غنائم المدن المفتوحة ، بأعظم قسط . ولكن إشبيلية لم تكن هدفاً سهل المنال ، ولم تكن مثل قرطبة مجردة من وسائل الدفاع ، وكانت خطوطها الدفاعية الأمامية ، ماتزال تدعمها طائفة من القواعد والحصون القوية ، التى كان لابد من إخضاعها قبل الإقدام على منازلة إشبيلية ذاتها .

وكانت إشبيلية مذ عمت الفتنة أرجاء الأندلس، وتوالت الثورة ضد الموحدين فى مختلف القواعد ، تتولى مصايرها بنفسها، وترسم لنفسها خطة قيادتها وحكمها. وكانت باعتبارها أعظم حواضر الأندلس فى ذلك العصر ، وباعتبارها مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، تتخذ مركز القيادة فى تصرفاتها واتجاهاتها ، وقد لبثت تحتفظ بهذه الصفة ، حتى قيام أبى العلى المأمون بها ، واتخاذه لقب الخلافة ، وذلك فى سنة ٦٢٤هـ ، ثم مغادرته لها ليعبر إلى العدوة ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٦هـ (أواخر سنة ١٢٢٨ م) .

ولما قام ابن هود بثورته فى شرقى الأندلس ، وبزغ نجمه ، وأطاعته معظم القواعد الشرقية والوسطى ، خلعت إشبيلية طاعة الموحدين، ونادت بطاعته، وولى عليها أخاه عماد الدولة . ولكن أهل إشبيلية لم يلبثوا طويلا على طاعته ، فنكثوا ببيعته، وأخرجوا أخاه من المدينة، والتفوا حول قاضيهم ابن مروان الباجى ، وذلك فى سنة ٦٢٩هـ . ولما قوى أمر ابن الأحمر أمير جيان يومئذ فى المنطقة الوسطى ، واشتدت المنافسة بينه وبين ابن هود ، تفاهم ابن الأحمر مع الباجى ، وتحالف الإثنان على قتال ابن هود ، وهزماه على مقربة من إشبيلية (٦٣١ هـ) ، ودخل ابن الأحمر إشبيلية ، وغدر بحليفه الباجى ، ودس عليه من قتله ، فثار به أهل إشبيلية ، وأخرجوه منها ، ونادوا بطاعة ابن هود مرة أخرى .

ولما توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ ، وانهارت بوفاته دعوته فى معظم القواعد ، رأى أهل إشبيلية أن يعودوا إلى طاعة الدولة الموحدية . وكان زعيمهم عندئذ الفقيه أبو عمرو بن الجد ، وهو حفيد الحافظ الشهير أبى بكر بن الجد، وبعث أهل إشبيلية بدعوتهم وفداً إلى الخليفة الرشيد بمراكش ، وقدموا للولاية عليهم

السيد أبا عبد الله بن السيد أبي عمران ، وأقره الرشيد فى منصبه ، وهكذا عادت الحاضرة الأندلسية الكبرى إلى الانضواء تحت لواء الخلافة الموحدية .

على أن هذا العود إلى طاعة الخليفة الموحدى لم يكن سوى مسألة شكلية فقط ، وكان حكم المدينة الفعلى باقيا بيد زعيمها القوى ابن الجد . وكانت إشبيلية فى الواقع منذ اضطرب أمر الموحدين ، وعمت الفتنة أرجاء الأندلس ، تتمتع فى إدارة شئونها بنوع من الإستقلال المحلى ، وذلك بالرغم من انضوائها تحت لواء هذا الأمير أوذاك . ثم ان هذا العود لم يطل أمده ، ذلك أن أحوال الخلافة الموحدية وماكان يضطرم حول عرش مراكش من الخلافات والحروب ، كان نذيراً بانحلال الدولة الموحدية وتضعضع قواها ، وعجزها عن أن تنجد الأندلس وقت الخطر الداهم . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الدولة الحفصية التى قامت بإفريقية على أنقاض سلطان الدولة الموحدية ، وأخذ نجمها يبزغ فى الأفق ، تبدو بما تتمتع به من القوى والموارد والفتوة ، ملاذاً أفضل وأقدر على تأدية رسالة المغرب القديمة فى إنجاد شبه الجزيرة ، وكانت مبادرة أميرها أبى زكريا الحفصى إلى إنجاد بلنسية ، حينما دهمها النصارى استجابة لصريخ أميرها أبى جميل زيان سنة ٦٣٦هـ ، ماتزال بالرغم من إخفاقها فى تحقيق الغاية المنشودة ، مثلا يضرب فى الشهامة والوفاء ، والجهاد فى سبيل الله . ومن ثم فقد انتهى أهل إشبيلية بتوجيه زعيمهم أبى عمرو ابن الجد ، إلى خلع طاعة الخلافة الموحدية ، والاتجاه إلى الدولة الحفصية ، وإعلان بيعتها . وكان لهم فى ذلك أسوة ، بما قام به ابن الأحمر نفسه فى بداية أمره ، وما قام به أبو جميل زيان أمير بلنسية ، من مبايعة الدولة الحفصية والانضواء تحت لوائها .

وعقد أهل إشبيلية بيعتهم للأمير أبى زكريا يحيى الحفصى فى سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) ، وبعثوا بها إلى تونس مع وفد من كبرائهم . وفى نفس هذا العام أعلن أبو على بن خلاص صاحب سبتة بيعته أيضاً إلى الأمير أبى زكريا ، وبعث بها مصحوبة بهدية إلى الأمير مع ولده فى سفينة خاصة ، فغرقت باليم بمن فيها . ولما وصل وفد إشبيلية إلى تونس ، وعلم بأمر بيعة سبتة ، استقبل الأمير أبوزكريا البيعتين بمنتهى الارتياح ، وندب للولاية على سبتة ابن الشهيد الهنتاتى ، وعلى أشغالها ابن أبى خالد البلنسى ، وندب لولاية إشبيلية ابن أخيه أبا فارس عبد العزيز ابن الشيخ أبى حفص لكى يستقر فى قصبتها ، ويشرف على شئونها إلى جانب

ابن الجد[١] ووجه الأمير إلى أهل إشبيلية بتاريخ العاشر من محرم سنة ٦٤٦ هـ رسالة ، يعرب فيها عن اغتباطه ببيعتهم ، ويعدهم بأن يمهد لهم سبل إصلاح شئونهم ، وتوفير أمنهم وسلامتهم ، والبدار إلى إنجادهم عند النوائب والخطوب ، وأن يثقوا بنصر الله وإمداده[٢] .

وعاد وفد إشبيلية بعد إتمام مهمته ، فى تقديم البيعة للأمير الحفصى ، وصحبهم الوالى وبعض رجاله والقائم بالأعمال ، ووصلوا فى جملة من السفن إلى إشبيلية ، وهنالك قام أولئك النفر من أهل إفريقية بارتكاب ضروب من الفساد والأمور الشنيعة « التى لايمكن ذكرها » . فأخرجهم أهل إشبيلية من مدينتهم ، وقتلوا ابن الجد ، إذ كان هو السبب فيما حدث ، وأدى إلى مقدم هؤلاء القوم المفسدين . وتزيد الرواية على ذلك ، أن مقتل ابن الجد كان سببا فى زحف النصارى على إشبيلية وحصارهم لها ، إذ كان ملك قشتالة مصادقا لابن الجد « ومصالحا له على المسلمين » فلما قتل فسد هذا الصلح ، وقام النصارى بحصارهم[٣] .

على أن ذلك لم يكن وحده سبباً فى قيام الثورة التى أودت برياسة ابن الجد وحياته ، ذلك أنه كان لابن الجد خصوم ومنافسون أقوياء ، وكان من أخطاء ابن الجد ، أنه طرد أولئك الخصوم من ديوان الحكم ، وأخرج بعضهم من قيادة الجيش ، فنظمت المؤامرة ، وقامت الثورة . وكان أبرز زعمائها القائد شقاف وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية « بقائد الفحص شقّاف »[٤] وتسميه الرواية النصرانية Axataf . وفى الحال تولى الزعماء الجدد الرياسة ، وأعلنوا بطلان المعاهدة التى عقدها ابن الجد مع النصارى ، وجددوا الدعوة إلى طاعة أمير إفريقية الحفصى ، وانضواء إشبيلية تحت لوائه[٥] .

— ٣ —

وأما حقيقة هذه العلاقات التى كانت قائمة بين ابن الجد وبين فرناندو الثالث ملك قشتالة ، والتى كانت كفيلة بقيام التهادن بينه وبين النصارى ، وتأمين سلام

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٧٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .
(٢) راجع نص هذه الرسالة فى البيان المغرب ص ٣٧٩ و ٣٨٠ .
(٣) البيان المغرب ص ٣٨١ . (٤) البيان المغرب ص ٤٠٠ .
(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، وكذلك : Is. de las Cagicas : Sevilla Almohade y ultimo Anos de su Vida Musulmana (Madrid 1951) p. 30

إشبيلية ، فردها إلى معاهدة كانت قد عقدت بين ابن الجد باعتباره صاحب إشبيلية أو أميرها ، وبين ملك قشتالة ، على نمط المعاهدة التي عقدت بين هذا الملك وبين ابن الأحمر ، وخلاصتها أن يعترف بطاعة ملك قشتالة ، وأن يؤدي إليه الجزية . وأن يشهد اجتماعات « الكورتيس » باعتباره من أتباعه ، وأن يقدم إليه العون متى طلب إليه ذلك . وربما كانت تتضمن فوق ذلك، تعهده بتسليم بعض المواقع والحصون في منطقة إشبيلية . وقد رأينا فيما تقدم أنه لم يكن يكفل سكون ملك قشتالة المؤقت ، ومسالمة الزعماء المسلمين سوى هذه العهود وأمثالها . فلما قتل ابن الجد ، وانقلب أهل إشبيلية إلى مخاصمة النصارى ، غضب ملك قشتالة لما حدث ، وأبدى امتعاضه لمقتل صديقه ابن الجد[1]. وكان زعماء إشبيلية الجدد ، قد أدركوا غير بعيد ، ماقد يؤدي إليه مخاصمة النصارى من سيئ العواقب ، فحاولوا السعي في تجديد الهدنة مع ملك قشتالة ، ولكن فرناندو الثالث لم يرد أن يعقد التفاهم مع زعماء إشبيلية الجدد ، وبالعكس فقد كان يرى أن يتخذ مصرع ابن الجد ذريعة للتدخل والانتقام ، وأن هذا هو الطريق المفضل عندئذ للتصرف والعمل ، وأن الوقت حان لكي ينهض إلى افتتاح إشبيلية ؛ خصوصاً وقد أصبحت الحاضرة الأندلسية العظيمة ،معزولة ، لاتستطيع أن تعتمد على أية معاونة عاجلة ، لامن ملك غرناطة ، وقد خضع لملك قشتالة ، ولامن الموحدين، وقد نكثت إشبيلية ببيعتهم غير مرة ، ولامن أمير إفريقية ، بعد الذي حدث نحو عماله . وهكذا استقر الأمر على غزو إشبيلية وانتهى السلم الذي كان معقوداً بينها وبين القشتاليين[2] .

على أن افتتاح إشبيلية كبرى حواضر الأندلس ، وهي أزخرها سكاناً ، وأمنعها جانبا ، وأكثرها حصوناً وقلاعاً ، كان يقتضي أهبات خاصة . ومن جهة أخرى ، فإن أخذها بالحصار ، لم يكن أمراً ميسوراً ، إذكانت تقع في منطقة كثيرة الخصب والنماء ، وكان اتصالها بالبحر عن طريق نهر الوادي الكبير ، يمكنها من تلقي الأمداد والمؤن من عدوة المغرب . ومن ثم فإنه كان من الواجب إذا استقر الأمر على أخذها بالحصار ، أن تخضع أولا سائر حصونها الأمامية من سائر النواحي، وثانيا أن تخرب سائر بسائطها الخضراء التي تمدها بالمحاصيل

---

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .

J. Gonzalez : ibid; p. 100 & 101 (٢)

والمؤن ، وثالثا أن تحكم محاصرتها من ناحية البحر بالسفن حتى لايتسرب إليها شيء من الأمداد من وراء البحر .

وقد انتهى ملك قشتالة ، بعد التشاور مع أكابر قادته وفرسانه ، بأن قرر أن يلتجيء إلى وسيلة الحصار لإخضاع الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وأن يسير سفنه من الثغور الشمالية إلى مصب الوادى الكبير ، ليحول دون تلقى المسلمين لأية أمداد أو مؤن تأتى من عدوة المغرب .

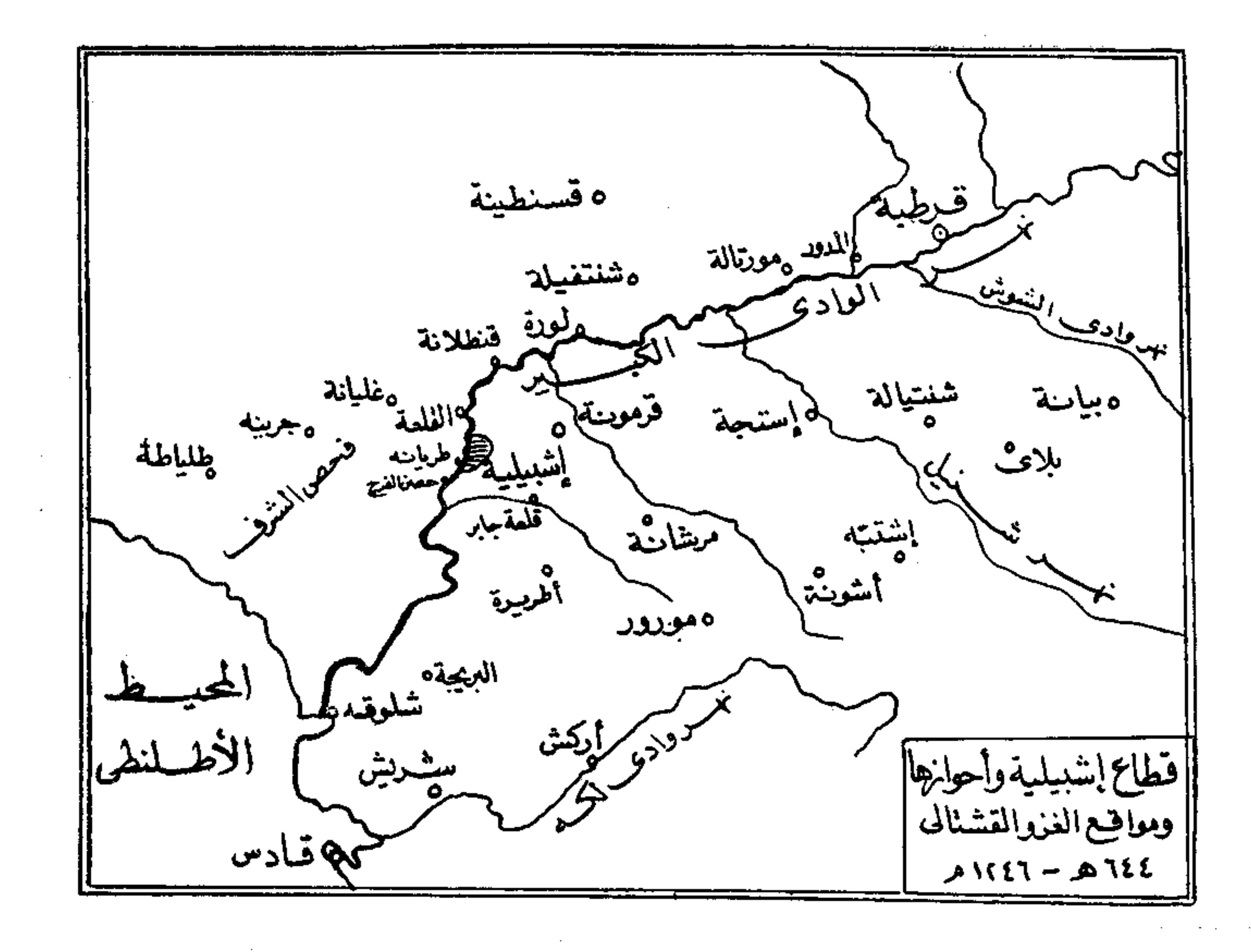
وفى خريف سنة ١٢٤٦ م (أوائل سنة ٦٤٤ هـ) حشد ملك قشتالة بعض قواته ، ولاسيما من فرسان شنت ياقب وفرسان قلعة رباح ، وجيش قرطبة ، وسار فى قواته صوب إشبيلية ، وعبر الوادى الكبير تجاه قرمونة ، وأخذ ينتسف زروع هذه المنطقة ويخرب ضياعها ، ويأسر من يلقى من المسلمين . وهنالك على مقربة من قرمونة ، وافاه ابن الأحمر حليفه وتابعه فى قوة قوامها خمسمائة فارس ، مقدماً عونه وفقاً لعهوده . وسارت القوات المشتركة جنوبا نحو قلعة جابر[١] حصن إشبيلية من الجنوب الشرقى ، وانتهى ابن الأحمر باقناع حاميتها الإسلامية بتسليمها حقنا للدماء ، وصونا للأموال والأرزاق ، وتسلم فرناندو الثالث القلعة ، ووضع بها حامية نصرانية ، وأخذ النصارى فى إصلاحها وتحصينها[٢] . وبعث فرناندو بعد ذلك بعض قواته بقيادة أخيه دون ألفونسو وبلاى كوريا أستاذ فرسان شنت ياقب ، لكى تعبر الوادى الكبير غربا ، وتقوم بتخريب فحص الشرف الممتد أمام إشبيلية ، وبعث حملة مشتركة من قوات غرناطة وقشتالة وفرسان قلعة رباح ، لتسير جنوبا ، ولتقوم بتخريب فحص شريش . وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه هاتان الحملتان كل بمهمتها ، ورد على ملك قشتالة نبأ وفاة والدته ، فأمر باختتام الغزو ، وصرف ملك غرناطة ، فى قواته ، وسار إلى قرطبة ومنها إلى جيان ، وهنالك قضى جانبا من الشتاء .

وكانت هذه أول مرحلة فى افتتاح إشبيلية . وفى أثناء ذلك كان أمير البحر رامون بونيفاس ، قد حشد فى ثغور كنتبريا أسطولا قويا ، وشحنه بالبحارة والجند والمؤن . وحصل فرناندو من البابا على قرار بأن تخصص الكنيسة القشتالية والليونية ثلث إيراداتها للمساهمة فى نفقات الحرب . ولما تمت هذه الأهبة سار

---

(١) وهى بالإسبانية Alcalà de Guadaira .

(٢) راجع الذخيرة السنية ص ٧٢ و ٧٣ .



قطاع إشبيلية وأحوازها ومواقع الغزو القشتالى
٦٤٤ هـ - ١٢٤٦ م

فرناندو إلى قرطبة ، وهى التى اتخذها مركزاً لتجهيز الحملة (صيف سنة ١٢٤٧م) وهنالك احتشدت قوات جماعات الفرسان الدينية ، وقوات ليون وبطليوس وغيرها ، وسير فرناندو بعض قواته إلى قرمونة ، وهى أمنع حصون إشبيلية الأمامية من ناحية الشمال الشرقى ، فخربت سائر البسائط المحيطة بها ، ثم لحقت بها بعد ذلك قوات أخرى من مختلف ولايات قشتالة ، وتزيد الرواية النصرانية على ذلك أن قوات غرناطة ، كانت ضمن الحشود الوافدة على قرمونة ، وهو ما يعنى اشتراك ابن الأحمر فى جيش الغزو القشتالى لإشبيلية[١] . والواقع أن الرواية الإسلامية حسبما نرى بعد ، تؤيد وجود ابن الأحمر وجنده ، تحت أسوار إشبيلية إلى جانب القوات القشتالية المحاصرة[٢]. وطوق النصارى قرمونة بحشود ضخمة ، فلما رأى أهل قرمونة ضخامة هذه الحشود ، وأيقنوا بعبث الدفاع ، عرضوا تسليم المدينة بعد ستة أشهر ، إذا لم تصلهم خلالها نجدة ما ، فقبل ملك قشتالة هذا العرض ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية من طريق شمالية بحذاء الوادى الكبير ، واستولى فى طريقه على لورة بالأمان ، واعترف أهلها بطاعته ، ثم سار بعد ذلك إلى قنطلانة ، الواقعة شمالى إشبيلية على الوادى الكبير ، وهاجمها ، واقتحمها عنوة ، وأسر منها سبعمائة مسلم ، وقصد بعد ذلك إلى غليانة ، فسلم أهلها اعتباراً بما حدث لقنطلانة ، وكذلك سلمت جرينة القريبة منها ، وبعث فرناندو بعد ذلك قوه إلى بلدة القلعة الحصينة الواقعة على الوادى الكبير[٣]، على مقربة من شمالى إشبيلية ، فصمدت حاميتها وصممت على المقاومة . وكان أهل إشبيلية قد شحنوها بالجند والمؤن تقديراً لأهميتها فى الدفاع عن المدينة . واضطر فرناندو أن يحاصرها ، وضربها القشتاليون بالآلات ، وخرجت حاميتها غير مرة لتشتبك مع النصارى فى معارك عنيفة ، وقام النصارى بتخريب سائر ما حولها من الكروم والزروع ، وأخيراً رأى قائد الحصن أبو الحسن بن أبى على حاكم قرمونة السابق ، أنه من العبث أن يستمر فى الدفاع على هذا النحو ، فاتفق مع ملك قشتالة على أن ينسحب فى جنده ، وهم ثلاثمائة فارس إلى إشبيلية ، وأن

---

(١) Crónica General (Ed. Pidal) V. II. p. 749 .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

(٣) قنطلانة هى بالإسبانية Cantillana ، وغليانه Guillena ، وجرينة هى Gerena ، والقلعة أو قلعة النهر هى Alcalá del Rio .

تسلم المدينة بالأمان ، وفقاً لأفضل الشروط الممكنة ، وهكذا سقطت القلعة ، وبسقوطها أصبحت سائر الحصون الأمامية لإشبيلية من جهة الشرق والشمال ، والغرب كلها فى أيدى القشتاليين[1] .

ونستطيع أن نتصور الدور الذى قام به ابن الأحمر ملك غرناطة فى معاونة ملك قشتالة على إخضاع هذه المجموعة الكبيرة من البلاد والحصون الهامة ، منذ قرمونة حتى القلعة ، وذلك بإقناع أهلها والمدافعين عنها بالتسليم بالأمان ، وإقناع ملك قشتالة من جهة أخرى بالتساهل فى شروط التسليم ، على أن دور الزعيم المسلم لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه كما سنرى إلى معاونة النصارى ومؤازرة جهودهم ضد المسلمين ، بطريقة إيجابية فعالة .

— ٤ —

وهنا وبعد أن جردت إشبيلية من سائر حصونها الأمامية وخطوطها الدفاعية الأولى ، يأتى دور المرحلة الأخير فى افتتاح الحاضرة الأندلسية الكبرى، ولم تكن هذه المرحلة سوى محاصرتها وإرهاقها ، حتى ترغم على التسليم .

وبدأ التمهيد للحصار بمقدم الأسطول النصرانى بقيادة رامون بونيفاس ، وكان يتألف من ثلاث عشرة سفينة كبيرة وعدة أخرى صغيرة، مشحونة بالرجال والمؤن ، ودخوله إلى مياه مصب الوادى الكبير ، وتخصيص قوة برية لمؤازرته على إحكام حصار المدينة من ناحية البحر ، وثانيا على رد أية قوات تأتى لمناجزته ، سواء من طنجة أوسبتة أو إشبيلية .

وغادر فرناندو بلدة القلعة فى قواته جنوبا إلى إشبيلية ، وذلك فى الخامس عشر من أغسطس سنة ١٢٤٧ ، وأخذ يضع خطته لتنظيم الحصار . ولم يكن حصار إشبيلية أمراً سهلا ، وكان لابد لتحقيقه من تعاون سائر القوات البرية والبحرية، ومن جهة أخرى فقد كان من الضرورى أن يعمل حساب لهجمات المسلمين على مختلف القوات النصرانية ، وقد كانت إشبيلية تموج بقوات مدافعة زاخرة حسنة الأهبة ، وكانت مشحونة بكميات وافرة من الطعام توقعاً لحدوث هذا الحصار، وكان من حسن الحظ أن استطاع أهل المدينة أن يجمعوا محاصيل فحص الشرف قبل مقدم النصارى . وكانت مهمة القشتاليين فى المرابطة على ضفة الوادى الكبير ،

(١) وردت سائر هذه التفاصيل فى موسوعة Crónica General; V. II. p. 749 & 750
وراجع أيضاً : J. Gonzalez : ibid; p. 104—106 .

لحماية أسطولهم من الهجمات الفجائية من الأمور الشاقة ، إذكانت حامية حصن الفرج الإسلامية ، وهو حصن إشبيلية الجنوبى الواقع على النهر ، تهدد القوات القشتالية المرابطة على النهر باستمرار ، وفضلا عن ذلك فقد كان طريق الشرف مفتوحا أمام ابن محفوظ صاحب لبلة ، وكان بوسعه أن يفاجىء القشتاليين فى أية لحظة .

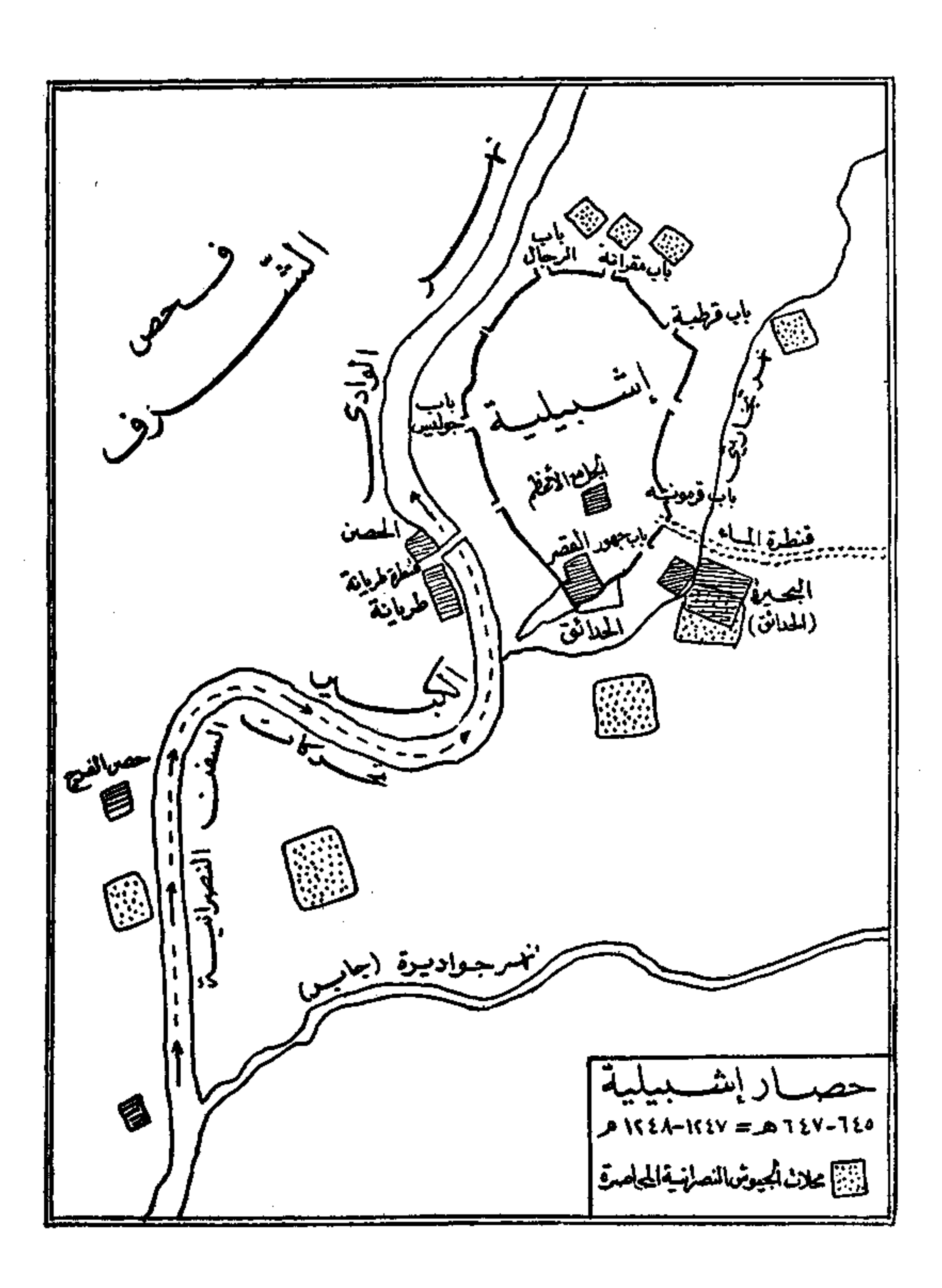
وفى الوقت الذى كان فيه ملك قشتالة يمهد لتنفيذ خطته فى حصار إشبيلية ، كان أهل إشبيلية من جانبهم يستعدون للذود عن مدينتهم بكل ماوسعوا . وقد سجل لنا التاريخ ، ولاسيما عن طريق الرواية النصرانية ، عن دفاع أهل إشبيلية، صحفاً رائعة من البسالة والتضحية . ولكن الرواية الإسلامية ، لاتقدم إلينا مع الأسف تفاصيل شافية عن هذا الدفاع . بل هى لاتذكر لنا سوى القليل عن الزعماء الذين قادوا هذه المعركة الدفاعية المجيدة، التى استطالت خمسة عشر شهراً . فهى لاتعرفنا بشىء عن القائد شقّاف وزملائه، يحيى بن خلدون ، وابن شعيب، ومسعود بن خيار ، وهم زعماء إشبيلية ، الذين ألقى القدر عليهم تبعة السهر على مصايرها ، فى تلك الفترة الدقيقة، وكل ما هنالك أنها تحدثنا عن شقاف فى كلمة عابرة ، وتصفه « بقائد الفحص شقاف المشهور ، الذى كان السبب مع قضاء الله تعالى فى دخول النصارى مدينة إشبيلية »[١] .وتحدثنا الرواية النصرانية عن زعماء إشبيلية وقت حصارها ، فتذكر منهم شقاف وهو لديها Axataf ، وتسميه أحيانا أبو الحسن الشقاف ، والرئيس ابن شعيب[٢] . وإذا فلابد لنا أن نعتمد فى استقاء تفاصيل الأحداث التى اقترنت بمصير إشبيلة الأخير ، وكذلك أعمال الزعماء الذين قادوها عندئذ ، بالأخص على أقوال الرواية النصرانية .

وبدأ حصار إشبيلية فى النصف الثانى من أغسطس سنة ١٢٤٧ م (جمادى الأولى سنة ٦٤٥ هـ) ، وتقاسمت الكتائب القشتالية والليونية والجليقية ، وغيرها من القوات النصرانية ، مناطق الحصار ، وضرب فرناندو الثالث محلته جنوبا على ضفة نهر الوادى الكبير ، قريباً من سفن الأسطول النصرانى ، ولكنه اضطر إزاء هجمات المسلمين العنيفة ، أن ينقل محلته إلى مكان قريب يسمى « بتلاطة » . واحتل الأسطول النصرانى مياه مصب الوادى الكبير ، وكانت مهمته

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٠٠ .

(٢) Crónica General ; No. 1077, 1122 & 1123 ; - M. Lafuente : Historia General de Espana ; T. IV.p.69


فحص الشرف
نهر الوادي الكبير
باب الرجال
باب مقرانة
باب قرطبة
إشبيلية
باب جوليس
الجامع الأعظم
باب قرمونة
قنطرة الماء
باب جهور القصر
الحصن
قنطرة طريانة
طريانة
الحدائق
البحيرة (الحدائق)
حركات السفن النصرانية
حصن الفرج
نهر جواديرة (جابر)
حصار إشبيلية
٦٤٥-٦٤٧ هـ = ١٢٤٧-١٢٤٨ م
محلات الجيوش النصرانية المحاصرة

الأولى هي أن يمنع ورود الأمداد والمؤن على المدينة من طريق البحر . ولم يأت يوم ٢٠ أغسطس ، حتى كانت إشبيلية قد طوقت من كل ناحية ، سواء من البر أو البحر . وكان من الأحداث المؤلمة التي تنفطر لها النفس ، وجود ابن الأحمر أمير غرناطة على رأس قوة من فرسانه ، إلى جانب القوات النصرانية المحاصرة ، وذلك وفاء بتعهداته لملك قشتالة ، وكان يرابط بقواته إلى جانب فرسان شنت ياقب جنوبي حصن الفرج ، وهكذا كان هذا الأمير المسلم يشترك مع أعداء أمته ودينه في تطويق الحاضرة الإسلامية ، ومحاولة افتتاحها ، وتشريد أهلها وسحق دعوة الإسلام بها . ويفسر لنا ابن خلدون هذا التصرف المشين من جانب الأمير المسلم ، بأن ابن الأحمر كان يرمي بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية ، لأنهم خذلوه ونكلوا عن طاعته ، وأخرجوه من المدينة[1] . على أن ذلك لم يكن يعني أن المدينة ، قد قطعت سائر علائقها الخارجية أو أنها عدمت وسائل الاتصال ، ولا سيما مع عدوة المغرب . فمن الحقائق التي تسجلها الرواية النصرانية أنه في الوقت الذي يرابط فيه الأسطول النصراني في مياه الوادي الكبير ، كان يوجد في نفس المياه عدد من السفن الإسلامية ، ومعظمها في الغالب سفن مغربية ، قدمت من مياه سبتة وطنجة ، وأن اتصال إشبيلية بوادي الشرف ، كان مكفولا عن طريق حصنها الغربي طريانة الذي تربطها به عبر الوادي الكبير قنطرة من السفن المثبتة بسلاسل حديدية ضخمة . وكانت المؤن مازالت بالرغم من الحصار ، ترد على المدينة المحصورة ، من العدوة ، ومن الشرف ، وغربي الأندلس ، وكان أهل إشبيلية ، لاطمئنانهم إلى حالة التموين يحصرون اهتمامهم في مقاتلة النصارى ، والاشتباك معهم كلما سنحت الفرص . وقد نظم المسلمون غير كمين للإيقاع بالنصارى ، وأصيب النصارى بالهزيمة غير مرة ، ومني منهم فرسان القنطرة وقلعة رباح ، بخسائر فادحة ، وخرج المسلمون في قوة كبيرة ، هاجمت المحلة الملكية ، فردتها قوات ولي العهد ألفونسو والإنفانت إنريكي ، فعادت إلى المدينة بعد أن تكبدت بعض الخسائر . وكان النصارى خلال الحصار يخرجون إلى القرى والضياع المجاورة ، ويقومون بتخريبها وانتهابها ، ومن ذلك أنهم اقتحموا منية البحيرة الغاصة بالحدائق ، والرياض ، الواقعة في جنوب شرقي المدينة ، والتي كان قد أنشأها الموحدون ،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

وعاثوا فيها ، ونهبوا الماشية والمتاع والثياب ، وقتلوا من كان بها من المسلمين ، وأحرقوا دورها ، وفعلوا مثل ذلك بربض مقرينه ، الواقع فى شمالها الشرق.

وأما ، فى مياه مصب الوادى الكبير ، فقد كانت مهمة الأسطول النصرانى ، وهى قطع الإمداد والمؤن عن المدينة ، من طريق البحر ، مهمة شاقة ، وكانت السفن الإسلامية التى وردت من مياه طنجة وسبتة ، تثير فى وجه السفن النصرانية ، صعابا جمة ، وكانت تفسح الطريق للأمداد والمؤن الواردة من العُدوة ، وتعمل على حمايتها ، حتى تجد سبيلها إلى المدينة ، وقد حاول البحارة المسلمون فوق ذلك أن يحرقوا السفن النصرانية بالنار اليونانية ، واقتربوا منها بالفعل ، تحميهم من ضفة النهر بعض حشود من الجند ، وأمامهم مواعين مملوءة بالزيت والمواد الملتهبة ولكن النصارى فطنوا إلى المحاولة ، وهاجموا المسلمين من البر والبحر ، فلجأ الجند الذين بالشاطىء إلى قلعة طريانة ، ونشبت بين سفن الفريقين معركة شديدة ، واستطاع المسلمون أن يقذفوا مواد هم الملتهبة ، ولكن النصارى استطاعوا أن يخمدوا النار قبل اندلاعها . وهكذا فشلت المحاولة ، ولكن المعارك البحرية الجزئية كانت تضطرم بين الفريقين باستمرار . وفى ربيع سنة ١٢٤٨ م ، وفدت على المعسكر النصرانى طوائف كثيرة من الجند ، منها قوة من فرسان قشتالة ، بقيادة ولى العهد ألفونسو ، وقوة من فرسان قطلونية ، بقيادة ألفونسو ولى عهد أراجون ، وقوة من الفرسان البرتغاليين بقيادة بيدرو ولى عهد البرتغال ، وقوة من جند بسكونية وقشتالة القديمة بقيادة لوبيث دى هارو ، وكذلك قدم يوحنا مطران شنت ياقب فى قوة من جند جليّقية ، وقدمت حشود أخرى من مدينة سالم ، ومدلين ، وقورية ، وغيرها ، ووفد كثير من الأساقفة والرهبان ، وفرسان الجماعات الدينية ، وانضمت هذه الحشود الجديدة ، إلى القوات المحاصرة ، فى فى مختلف مناطق الحصار ، وهكذا عزز الحصار حول إشبيلية ، وأحكمت حلقاته ، وعول ملك قشتالة ، أن يلجأ إلى الوسيلة ، المأمونة المؤكدة ، وهى إرهاق المدينة بأقصى ما يستطاع ، وإرغامها على التسليم بالجوع والحرمان .

وكان قد مضى على حصار النصارى لإشبيلية زهاء تسعة أشهر وهى صامدة ، تزداد ثباتا وإصراراً على مدافعة النصارى ، ولكنها مذ أحكمت حولها حلقات الحصار ، أخذت تشعر بالضيق يدب إليها حثيثاً ، وشبح الجوع يقترب منها شيئاً فشيئاً . ولم يبق لديها عندئذ سبيل للتنفس البطىء سوى طريانة ، قلعتها

الجنوبية الغربية المشرفة على الشّرف. وهنا كرر أهل إشبيلية صريخهم إلى المغرب، وإلى سائر أمرائه وزعمائه، يصفون محنتهم الغامرة، ويلتمسون الغوث والإنجاد قبل فوات الوقت. وكان مما نظمه فى هذه المناسبة شاعر إشبيلية يومئذ، إبراهيم ابن سهل الإشبيلى الإسرائيلى قصيدة مؤثرة، يستصرخ فيها أهل العدوة، ويستحثهم على المبادرة إلى نصرة إخوانهم فى الدين وفيها يقول:

وردا فمضون نجاح المصدر ... هى عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر ... يبدو لكم بين القنا والضُّمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا ... عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى ... ترووا بماء الحوض غير مُكدّر
يا معشر العرب الذين توارثوا ... شيم الحميّة كابرا عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم ... بيعوا ويهنئكم وفاء المشترى
أنتم أحق بنصر دين نبيكم ... ولكم تمهد فى قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فاتدعموا ... ذاك البناء بكل لون أسمر(١)

ونظم أبو موسى هرون بن هرون قصيدة طويلة، يصف فيها محنة أهل إشبيلية حينما طوقها النصارى، وما نزل بأهلها من ضنوف الآلام والخطوب، ويهيب فيها بأهل العُدوة أن يبادروا إلى إنجادها، وتدارك أهلها، وقد جاء فى أولها:

ياحمص أقصدك المقدور حين رما ... لم حق فيك الردى إلا ولا ذمما
جرت عليك يد الدهر ظالمة ... لايعدل الدهر فى شيء إذا حكما
ماكنت أحسب أن الحادثات إذا ... همت بك السوء لاتلقى لك السلما
قد كان حسنك فتان الشباب فمذ ... أصبت عوضت منها القبح والهرما
ياجنة زجرتنا عن زخارفها ... ذنوبنا فلزمنا البت والندما

ومنها فى وصف الحصار ومصائبه، واستنهاض همم أهل العدوة:

وعمموا حمص فى جمع يضيق به ... ذرع الفضا بالمرهفات الماع فاكتتما
واستوطنوا القبر فى الوادى وقام لهم ... جسر منه الفلك لاتشكو به السأما
فكم أسارى غدت فى القيد موثقة ... تشكوا من الذل أقداما لها حطما

(١) أورد لنا هذه القصيدة صاحب الذخيرة السنية، ص ٧٤ وما بعدها.

وكم صريع رضيع ظل مختطفا ... عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
وكم بطريانة أبقى الأسى ندبـا ... فى القلب يبعث وجدا كلما كلما
يا حسنها عرف للحسن جامعــة ... ما طار قط لها إلا النعيم جما
ياعين فابك على حمص وقل لها ... منك البكاء إذا ما ترسليه دمـا
وقد أصيبت بها الدنيـا وساكنها ... حقاً وأصبح ركن الدين قد ثلما
سطا بها الكفر إذ قل النصير بها ... فمن معز بها الإسلام ما سلما
يا أهل وادى الحما بالعدوة انتعشوا ... هذا الذماء فقد أشفى به سقمـا
فماذا يبطئكم عنــا وحولــكم ... أن تبصروا دار قوم أصبحت رمما
وحقنا واجب فالدين يجمعنـــا ... مع الجوار الذى مازال منتظما
وقد دعونا فأسمعنا على كثب ... مما قد استنفد القرطاس والقلما(١)

وكان الاستيلاء على قلعة طريانة حصن إشبيلية من الجنوب الغربى ، أهم ما يشغل بال النصارى ، وكان لابد قبل محاولة الاستيلاء عليها أن تحطم القنطرة القوية الضخمة ، التى تربطها بإشبيلية عبر الوادى الكبير ، عند برج الذهب. وكانت هذه القنطرة ، تتكون حسبما قدمنا ، من مجموعة من السفن المثبتة بسلاسل ضخمة من الحديد . وهذا ما اعتزمه النصارى بالفعل . وجهز بونيفاس قائد الأسطول النصرانى لهذا الغرض مركبين كبيرين ، وركب فى إحداهما . ودُفع المركبان نحو القنطرة ، فنجحت إحداهما فى قطع السلاسل الحديدية ، وإحداث ثغرة فى فى القنطرة ، وأسرع الملك فرناندو فى قوة كبيرة ليحمى بونيفاس ومركبه ، وليحقق الفصل بين المسلمين فى طريانة ، وأهل المدينة ، ووقع ذلك الحادث فى اليوم الثالث من مايو سنة ١٢٤٨ م .

وكان تحطيم القنطرة على هذا النحو ضربة شديدة للمسلمين ، إذ ترتب عليه الفصل بين قلعة طريانة ، وبين المدينة ، وقطع طريق الشَّرف ، وهو الملاذ الأخير الذى كان باقيا للمحصورين ، لاستيراد الأقوات والمؤن ، بعد أن أضحى طريق النهر محفوفاً بأعظم المخاطر . كما ترتب عليه عزل طُريانة وتعرضها لخطر هجوم النصارى . وهذا ما عول عليه النصارى بالفعل على أثر تحطيم القنطرة .

---

(١) أورد لنا ابن عذارى نص هذه القصيدة بأكلها فى البيان المغرب ص ٣٨٢ — ٣٨٤ .

على أن الاستيلاء على طريانة لم يكن مهمة سهلة . ذلك أن المسلمين كانوا على حذر ، وكانوا يدركون أهمية طريانة الدفاعية ، وكانوا لذلك قد شحنوها بالرجال والسلاح والمؤن ، ورتبوا بها بالأخص جماعة من الرماة يستطيعون إصابة الفرسان بقذائفهم عن بعد . ومن ثم فإنه لما هاجمها النصارى بقوات كثيفة استطاعت حاميتها القوية أن تحطم هذا الهجوم الأول بسرعة ، وعندئذ كرر النصارى هجومهم بشدة ، والمسلمون يحبطون كل محاولة ، وكان بالقلعة عندئذ زعيم إشبيلية الأول القائد شقاف . ولما تكرر فشل النصارى فى اقتحام القلعة اقترب منها فرناندو بقواته ، ودفع الحفارين إلى السور لإحداث ثلمة به ،ولكن المسلمين نجحوا أيضاً فى إحباط هذه المحاولة ، وعندئذ عمد النصارى إلى محاصرة القلعة براً وبحراً ، وضربها بمختلف الآلات ، واعتزموا أخذها بالحصار ، وقدمت سفنهم إلى النهر أسفل القلعة فنجحت بعد مجهود عنيف فى قطع كل صلة بين طريانة وبين إشبيلية .

واستمر الحصار حول إشبيلية وطريانة ، وهو يشتد كل يوم ، والحاضرة المحصورة تشعر بالضيق ، يرهقها شيئاً فشيئاً ، والنصارى يوالون ضربها بالآلات المخربة ، حتى نفدت الأقوات ، وأخذ الجوع يفتك بالمحصورين . ويصف ابن عذارى حالة المدينة المحصورة فى قوله : « وعدموا المرافق كلها ، قليلها وجليلها ، إلا ما كان فى بعض ديار الأغنياء مثل الفقيه القاضى ابن منظور ، فإنه كان يطمع فى إقلاع النصارى عن المدينة ، فيأمر الناس بالقتال والرمى بالنبال ، والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى . ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود »[1]. وهكذا فتك الجوع والحرمان والمرض بأهل إشبيلية ، وأضنتهم المعارك المستمرة بعد حصار صارم مرهق استمر خمسة عشر شهراً ، وغاض كل أمل فى الإنقاذ والإنجاد ، فلم يتحرك الموحدون لانشغالهم بمكافحة بنى مرين ، وأمير إفريقية الذى اتخذ لقب الخلافة ، ولم يتحرك أمير إفريقية لما سبق من موقف الإشبيليين نحو عماله ، وربما أيضاً اعتباراً بما حدث من فشل محاولته لإنقاذ بلنسية ، وقد كان إنجادها أقرب وأيسر . فلما بلغ الضيق أشده ، طلب القائد شقاف وهو فى طريانة ، إلى النصارى هدنة ليتمكن

(١) البيان المغرب ص ٣٨١ و٣٨٢ .

من الاتصال بأهل المدينة، والتفاهم معهم على التسليم . وبحث زعماء المدينة الموقف من سائر نواحيه ، واتفقوا على أن يسلموا إلى ملك قشتالة القصر وجباية المدينة ، على أن لايدفعوا من المكوس أكثر مما كانوا يدفعونه لملوكهم، ولكن ملك قشتالة رفض هذا العرض الجزئي رفضاً باتا ، فعاد الزعماء وعرضوا أن يسلموا القصر وثلث المدينة، فرفض هذا العرض أيضاً . واضطر الزعماء أن يتقدموا خطوة أخرى. فعرضوا أن يسلموا نصف المدينة ، بعد أن يخليه المسلمون ، وأن يترك النصف الآخر للمسلمين ، وأن يقام بين النصفين سور فاصل . ونصح بعض مستشارى الملك إليه بقبول هذا العرض ، ولكن ملك قشتالة أصر على أن يتسلم المدينة كلها حرة ودون شروط(١) .

وعندئذ لم ير زعماء إشبيلية وأهلها ، بدّا من قبول مصيرهم المحتوم ، وجرت المفاوضة بينهم وبين ملك قشتالة فى تسليم المدينة ، وذلك عن طريق ممثل ملك قشتالة ، دون ردريجو ألباريس، وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن تسلم المدينة بالشروط الآتية: أن تسلم المدينة كاملة حرة سليمة ، لايهدم من صروحها شيء، وأن يغادرها سكانها مع السماح لهم بأن يحملوا معهم كل أمتعتهم المنقولة والمال والسلاح ، وأن يسلم القصر فى الحال بعد إخلائه عقب وضع شروط التسليم، وأن تسلم مع المدينة سائر الأراضى التابعة لها ، وأن يعطى ملك قشتالة إلى القائد شقاف ، والرئيس ابن شعيب ، من بلاد الشرف ، شلوقه وحصن الفرج ، ثم لبلة متى تم افتتاحها ، واتفق على أن تُمنح لأهل المدينة مهلة لاتقل عن الشهر لتسوية شئونهم وإخلاء دورهم ، والتأهب للرحيل .

ولما وُقع عهد التسليم بين الفريقين ، سُلِّم القصر ، وهو مقر الولاة ، ويقع فى جنوبى المدينة على مقربة من باب جَهْور ، إلى ملك قشتالة ، وبعث ملك قشتالة مندوبه ليرفع شعاره الملكى فوق برجه الأعلى ، وكان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٢٤٨ م ، وهو يوافق يوم الاثنين الخامس من شعبان سنة ٦٤٦ هـ ، وهو اليوم الذى تضعه الرواية الإسلامية لسقوط إشبيلية فى أيدى النصارى (٢) . بيد أنه يوجد تاريخ آخر ، هو

(١) M. Lafuente: ibid; T. IV. p. 69; J. Gonzalez: ibid; p. 118; Crónica Geneneral, No. 1122

(٢) ابن الأبار فى التكلة (القاهرة) ج ٢ ص ٩٠٣ . ويقول صاحب الروض المعطار إنه اليوم الثالث من شعبان (ص ٢٢) .

تاريخ دخول النصارى المدينة ، وهو يعتبر أحيانا تاريخ سقوطها .

وقضى المسلمون زهاء شهر فى إخلاء المدينة ، وتصفية شئونهم ، وبيع متاعهم ، وكان ملك قشتالة ، يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين منهم بطريق البر حتى مدينة شريش ، وحتى نغر سبتة لتأمين المهاجرين منهم بطريق البحر ، وخصص لذلك الغرض أسطولا يتكون من خمس سفن كبيرة ، وثمانى صغيرة[1]. وخرجت من إشبيلية جموع غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددها ، وتشمل سائر الطبقات . ولم تحدد لنا الرواية الإسلامية عدد المهاجرين منها ، ولكنها تقول لنا فقط إنه قد خرج الخاص منها والعام « وكل منهم فى بحر المنايا غاص وعام ، مماحل بهم من الأوجال والآلام »[2] . وتقدر بعض الروايات من خرج من أهل إشبيلية من المسلمين بأربعمائة ألف ، منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبتة ، وثلاثمائة ألف ساروا براً بطريق شريش[3] . وتفرقوا فى مختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب . وقصد أكثرهم بالأندلس مملكة غرناطة ، وذلك بتشجيع ابن الأحمر ، وكورة لبلة وغربى الأندلس ، وقصد من عبر البحر منهم إلى مختلف ثغور المغرب ، ولاسيما سبتة وتونس ، وكان فى مقدمة من غادرها منهم زعيمها القائد شقاف ، ولم يحفل بما عرضه النصارى عليه من منح وإقطاعات وعبر البحر إلى سبتة مع جماعة من القواد والأجناد ، والظاهر أنه استطاع أن يتدخل فى شئونها ، وأن يشاطر واليها الحفصى ابن أبى خالد قسطامن السلطة ، ولكن حدث بعد فترة قصيرة أن نهض زعيم سبتة الدينى الفقيه أبو القاسم العزفى ، واستطاع بمعاونة حليفه القائد أبى العباس الرنداحى أن ينتزع الرياسة لنفسه ، وقتل شقاف وعدة من أصحابه فيمن قتل من ضحايا الانقلاب ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٤٧ هـ[4] .

وبقيت إشبيلية ، بعد أن غادرها أهلها ، خالية ثلاثة أيام . وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٨م « (أوائل رمضان سنة ٦٤٧ هـ) دخل فرناندو الثالث ملك قشتالة ، مدينة إشبيلية فى موكب فخم ، وكان مطران

---

(١) الروض المعطار ص ٢٢ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 120

(٢) البيان المغرب ص ٣٨٥ .

(٣) Crónica General : ibid ; No1124

(٤) الذخيرة السنية ص ٨٥ ، والبيان المغرب ص ٤٠٠ و ٤٠١ .

طليطلة قد قام بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة ، وصنع به هيكل موقت ، فقصد إليه الملك النصرانى ، وحاشيته من أكابر الأحبار والقادة والفرسان ، وأقيم قدّاس الشكر ، ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى القصر وتسلمه ، وعنى بوضع أسس الحكم للحاضرة المفتوحة ، وجعل منها مركز مطرانية ، كما كانت قبل الفتح الإسلامى ، وقام بتقسيم دور المسلمين وأراضيهم ، بين أولئك الذين بذلوا أكبر جهد فى تحقيق الفتح . وبذلك اختتم الفتح ، وأخذ النصارى فى تقويض محلاتهم خارج المدينة ونزلوا بها[1] .

ومن ذلك التاريخ تغدو إشبيلية ، عاصمة مملكة قشتالة ، ومقر البلاط القشتالى ، بدلا من طليطلة .

وهكذا سقطت إشبيلية ، حاضرة الأندلس العظمى ، بعد أن حكمها المسلمون منذ افتتحها موسى بن نصير فى سنة ٧١٢م، خمسة قرون وثلث قرن ، وحكمها الموحدون زهاء قرن ، وكانت قاعدة حكومتهم بالأندلس ، فجاء سقوطها ، بعد سقوط قرطبة ، وقواعد الشرق ، تصفية نهائية لسلطانهم فى شبه الجزيرة الإسبانية . وكانت إشبيلية إلى جانب قرطبة من أعظم مراكز العلوم والآداب فى الغرب الإسلامى ، وبها سطعت عبقريات فريدة فى تاريخ الفكر الإنسانى ، مثل بنى زهر أعظم أساتذة الطب والكمياء فى الغرب فى العصور الوسطى ، وأبى العباس بن الرومية أعظم النباتيين والعشابين ، بعد ديسقوريدس . وسطعت إشبيلية أيام الطوائف فى ظل بنى عباد ، ولبثت زهاء نصف قرن أعظم مجمع للآداب وللشعر والنثر فى الأندلس . وجعل منها الموحدون قاعدة الحكم فى الأندلس ، وغدت فى ظلهم أعظم حواضر شبه الجزيرة ، وأزخرها عمرانا ، وأجملها تخطيطاً وصروحاً ، تتيه بمسجدها الجامع أعظم جوامع الأندلس ، بعد جامع قرطبة ، وبمنارته الشاهقة الرائعة ، التى مازالت تقوم حتى اليوم أثراً من أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وذلك بالرغم من تحويلها إلى برج لأجراس الكنيسة .

---

(١) يراجع فى فتح إشبيلية : البيان المغرب ص ٣٨١ و٣٨٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ وج ٧ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ — ٧٦ وص ٨٠ ، والروض المعطار ص ٢٢ ، ومن المراجع القشتالية : Crónica General (Ed. Pidal) No. 1080 - 1125 - J. Gonzalez : ibid; p. 98 - 121 - Is. de las Cagicas : Sevilla Almohade ; p. 31 - 33 — M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 53 - 59

وكان لسقوط إشبيلية وقع عظيم فى الأندلس ، أوبعبارة أخرى فيما بقى من قواعدها وربوعها ، وفى شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وفى المغرب وسائر أنحاء العالم الإسلامى . وقد رثاها الشعر فى قصائد عديدة مبكية ، حتى قبل أن تسقط نهائيا فى أيدى النصارى . وقد أوردنا فيما تقدم بعض ما نظمه الشعر فى ذلك .

— ٥ —

وكان سقوط إشبيلية نذيراً بسقوط سائر القواعد والبلاد القريبة منها ، ولاسيما قواعد الغرب التى أصبحت معزولة عن بقية القواعد الأندلسية .

وماكاد فرناندو الثالث ينتهى من تنظيم شئون « مملكة إشبيلية » ويستريح من عناء الغزوة الكبرى ، حتى سيّر بعض قواته شرقاً وجنوبا ، لتفتتح قواعد هذه المنطقة . وليست لدينا تفاصيل عن كيفية افتتاح هذه القواعد أوسقوطها فى أيدى النصارى ، ولكن الرواية النصرانية تجمل قصة هذه القواعد فى قولها ، إن فرناندو الثالث ، استطاع عقب افتتاحه لإشبيلية أن يبسط سلطانه على شريش وشذونه والقلعة وقادس وشلوقة وأركش والبريجة وروطة أو روضة[١] بعضها بالفتح وبعضها بعقد المعاهدات ، وأن إخضاع هذه القواعد قد تم فى سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ، وتزيد على ذلك أن ابن محفوظ صاحب لبلة وما إليها من الأراضى والحصون ، قد اعترف بطاعة فرناندوالثالث[٢]. ولكن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن إخضاع هذه القواعد بعض تفاصيل أخرى ، فتقول لنا إن الوزير أبا خالد صاحب شريش أعطى فى سنة ٦٤٨ هـ للفنش (وتريد هنا فرناندو الثالث) مدينة أركش وحصن فريس ، وحصن تنكر ، والأفراس ، وأن النصارى استولوا فى نفس العام على قرمونة ، والقلعة ، والقليعة ، وشلوقة ، وغليانة ، وروطة ، وجميع حصن الوادى وحصن الفرج[٣]. ولنلاحظ أولا أن قرمونة ، والقلعة ، وغليانة ، وهى من حصون إشبيلية الأمامية ، قد سقطت كلها فى أيدى النصارى ، فى سنة ٦٤٥هـ قبيل حصار إشبيلية . وأما عن شريش وهى أهم قواعد الفرنتيرة ، فيلوح لنا أنها قد خضعت بمقتضى الاعتراف ، وأن صاحبها أبا خالد ، قد أعلن خضوعه

---

(١) هى بالإسبانية على التوالى Jerez ، Medina Sedonia ، Alcala ، Cadiz ، San Lucar ، Lebrija, Arcos ، Rota

(٢) J. Gonzalez : Ibid; p. 121 & 122

(٣) الذخيرة السنية ص ٨٧ .

لملك قشتالة ، وتعهد بأداء الجزية ، ومكّن النصارى من القصر دون أن يحتلوا المدينة ، ونزل لملك قشتالة عن أركش والحصون التي سبق ذكرها ، رهينة بحسن طاعته. والظاهر أن هذه الحالة قد استمرت عدة أعوام أخرى ، لأن الرواية الإسلامية تقول لنا إن سرية من الفرسان النصارى قصدت إلى شريش فى سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠ م) برسم إخلاء موضع القناطر ، وإخراج المسلمين منها ، وأن ديارها قد أخليت بالفعل برسم الطاغية (ملك قشتالة) ، وأن النصارى دخلوا قصبة شريش صلحاً فى العام الثانى (٦٥٩ هـ) ، ثم أرادوا أن يغدروا بالمسلمين ، فتغلب المسلمون عليهم ، واستطاعوا إخراجهم منها بمعاونة قوة من عسكر بنى مرين عبرت إلى شبه الجزيرة بقيادة عامر بن إدريس بن عبد الحق ، وذلك فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) ، واحتل عامر بن إدريس ، ومن معه من المجاهدين مدينة شريش ، واستمرو بها زهاء عامين حتى أخرجهم القشتاليون منها ، بقيادة ملكهم ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم وذلك فى سنة ١٢٦٤م (٦٦٣ هـ)[1]

وقد شاطرت مدينة قادس فيما يبدو نفس الظروف ونفس المصير ، فخضعت أولا بإعلان الطاعة وأداء الجزية لملك قشتالة . ويبدوكذلك أن النصارى قداحتلوا قصبتها على غرار ما حدث فى شريش . يدل على ذلك ماتذكره الروايةالإسلامية فى حوادث سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) من أن القائد الرنداحى ، وهو قائدالأسطول بها ، قتل ثمانين من زعماء الروم بجزيرة (ثغر) قادس[2] . وقد استمرت الأحوال على اضطرابها بقادس حتى افتتحها القشتاليون فى سنة ١٢٦١ م ، وافتتحوا فى نفس الوقت شذونة ، والبرجه ، وغيرها من قواعد الفرنتيرة .

واستولى القشتاليون فى العام التالى (٦٦٢ هـ) على مدينة إستجة ، الواقعة فى جنوب غربى قرطبة . سلمها إليهم صاحبها ابن يونس بالأمان ، ولكن قائدهم دون خيل ماكاد يدخلها فى قواته ، حتى أخرج المسلمين منها ، وقتل معظمهم ، واستولى على أموالهم ، وسبى نساءهم ، حتى أطلقهن من يده دون نونيو قائد قشتالة الأكبر ، وعذل دون خيل على غدره بالمسلمين[3] .

وأما عن بقية قواعد ولاية الغرب ، الواقعة غربى الوادى الكبير ، وحتى

---

(١) البيان المغرب ص ٤٣٠ و٤٣١ ، والذخيرة السنية ص ١١١ و١١٢ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

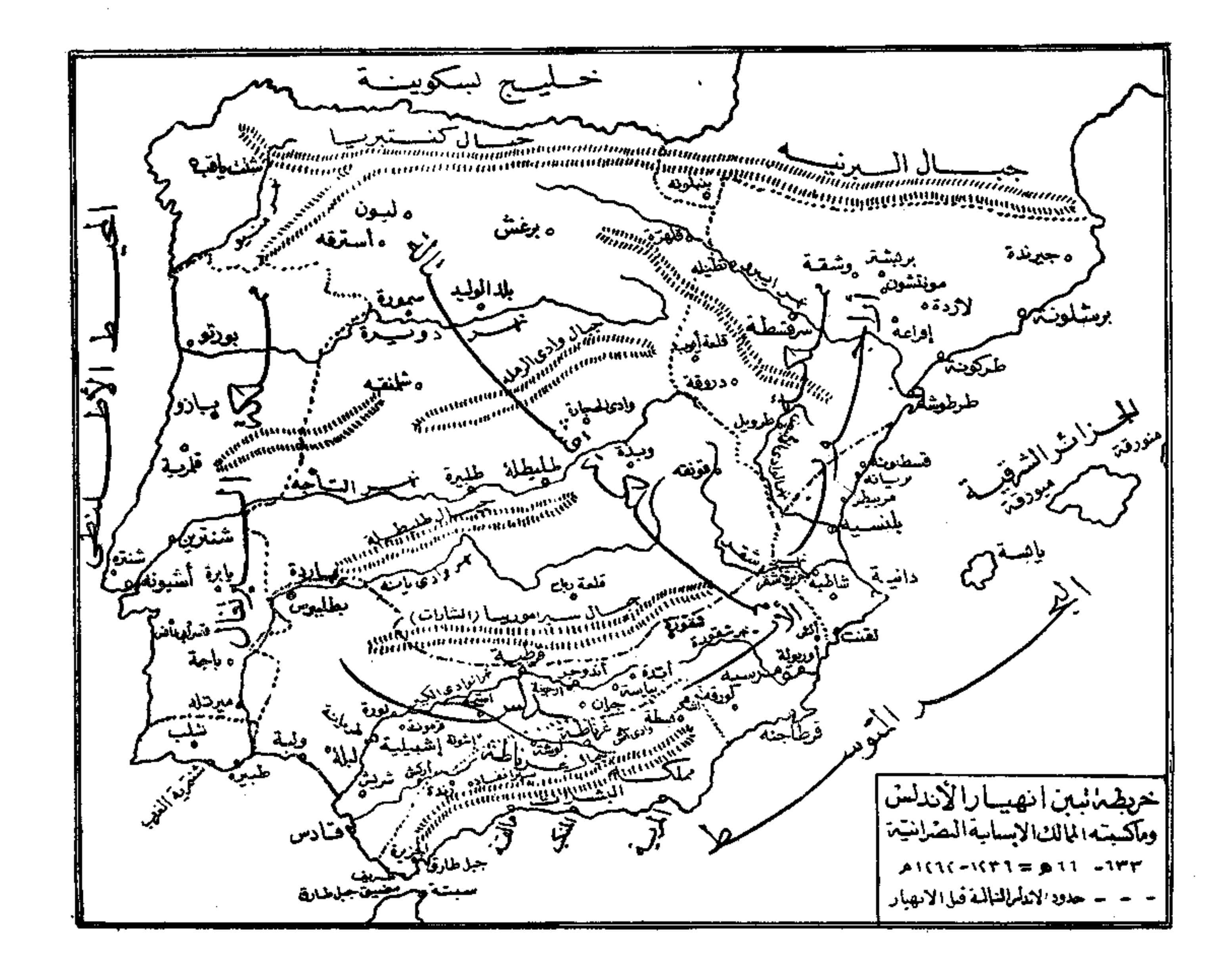
(٣) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

أراضى البرتغال ، فقد كان معظمها تحت سلطان القاضى شعيب بن محفوظ ، أقوى زعماء هذه المنطقة ، وكانت مدينة لبلة الحصينة قاعدة حكمه ، وبها ثار منذ سنة ٦٣٢هـ ، ودعا لنفسه وتسمى بالمعتصم ، واستطاع أن يبسط سيادته على معظم القواعد والأنحاء الواقعة غربى الوادى الكبير ، وفيما وراء نهر وادى يانه . ولا تحدثنا الرواية عن شخصية ابن محفوظ ، ولا عن أصله ونشأته . ويبدو لنا من مختلف القرائن ، أنه كان من بقية زعماء الموحدين فى تلك المنطقة ، وتسبغ الرواية النصرانية عليه بالفعل هذه الصفة . ولما زحف القشتاليون على قطاع إشبيلية ، وأخذت قواعدها وحصونها الأمامية تسقط فى أيديهم ، شعر ابن محفوظ بأن سلطانه فى تلك المنطقة أضحى معرضاً للانهيار ، فسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة ، وذلك بنفس الطريقة التى كان يجرى عليها سائر الزعماء المسلمين يومئذ ، فنزل إليه وفقاً لقول الرواية الإسلامية عن مدينة طبيرة والعُلى وشلب والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة ، وكلها من قواعد أقصى الغرب ، وذلك فى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م)[1] . واعترف بطاعته على حكم لبلة كما تقدم . بيد أنه يبدو أن سلطان ابن محفوظ على قواعد الغرب ، لم يكن يمتد إلى هذا المدى البعيد من قواعد الغرب البرتغالية ، مثل طبيرة وشلب وشنتمرية الغرب . يدل على ذلك ما تذكره لنا الرواية الإسلامية بعد ذلك ، من أنه لما تم لفرناندو الثالث افتتاح إشبيلية ، تقدم ابن محفوظ فى سبيل إرضائه خطوة أخرى ، فنزل له عن حصن اللقوه ، وجبل العيون ، ووادى أنه ، وشنتيل ، والحصين ، وشلطيش ، وذلك صلحاً ، على أن يبقى محتفظاً بلبلة وأحوازها مع الاعتراف بالطاعة وأداء الجزية[2] . وهذه الأماكن كلها تقع فى منطقة ولبة (أونبة القديمة) ، شرقى نهر وادى يانه ، وهو أقصى مدى كان يمتد إليه سلطان ابن محفوظ .

أما قواعد الغرب البرتغالية ، وهى شلب وطبيرة وشنتمرية الغرب ، فقد كانت من نصيب الفتوح البرتغالية . وكان ألفونسو الثالث ملك البرتغال ، قد أدرك مذ سقطت إشبيلية فى أيدى القشتاليين ، وساد الانحلال والفزع فى سائر قواعد الغرب الإسلامية ، وانهارت فيها الروح الدفاعية ، أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على ما بقى بأيدى المسلمين من هذه القواعد ، فى أراضى البرتغال

(١) الذخيرة السنية ص ٧٦ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٥ .



خريطة تبين انهيار الأندلس
وما كسبته الممالك الإسبانية النصرانية
٦٣٣ - ٦٦ هـ = ١٢٣٦ - ١٢٦٢ م
- - - حدود الأندلس الثابتة قبل الانهيار

الجنوبية . وكان أخوه وسلفه الملك سانشو الثانى قد استولى على مدينة ميرتلة من المسلمين ، وسلمها لفرسان شنت ياقب للقيام بالمحافظة عليها . وفى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) استولى البرتغاليون على مدينة شلب ، من يد واليها الموحدى واسمه المنصور ، ولم يبق بعد الاستيلاء على شلب ، وهى أهم قواعد الغرب الجنوبية ، سوى طبيرة وشنتمرية الغرب . فأما طبيرة ، فقد سقطت فى أيدى الفرسان ، البرتغاليين فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) . وأما شنتمرية الغرب[١] فقد قام بافتتاحها ألفونسو الثالث ، بعد أن حاصرها من البر والبحر ، حتى اضطرت إلى التسليم ، وذلك فى سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، واتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين يريدون البقاء بها ، بدينهم وشرائعهم وأموالهم ، وأن يكونوا رعايا للملك البرتغال يؤدون إليه من المكوس ماكانوا يؤدونه إلى ملوكهم . وتابع ألفونسو الثالث بعد ذلك فتوحاته فى هذه المنطقة الجنوبية ، فاستولى على سائر الحصون والبلاد الإسلامية الباقية فيها ، ولم تأت سنة ١٢٥٠ م ، حتى كانت ولاية الغرب البرتغالية كلها قد سقطت فى أيدى البرتغاليين . وفى العام التالى عبر البرتغاليون نهر وادى يانه ، ومضوا فى فتوحهم فى أراضى الغرب الأندلسية ، وافتتحوا عدة من الحصون والقواعد على ضفته اليسرى ، ومنها قلعتا أورشه وأورسينة الواقعتان على مقربة من لبلة . وكان ملك قشتالة ، يعتبر عبور البرتغاليين إلى هذه المنطقة ، اعتداء على أراضيه ، ويرقب الفرصة لردهم إلى ما وراء نهر وادى يانه .

ولما توفى فرناندو الثالث (١٢٥٢ م) ، وخلفه ولده ألفونسو العاشر ، شعر ابن محفوظ صاحب لبلة أن ملك قشتالة الجديد ، ليس له من الحزم والسطوة ماكان لأبيه ، فأخذ يتحلل من عهوده ، ثم أبى أن يدفع الجزية ، وثار بمدينة لبلة الحصينة وامتنع بها ، فسار ألفونسو العاشر إلى لبلة فى جيش قوى ، وضرب حولها الحصار ، وكان ضمن حشوده فرقة من جند ابن الأحمر ، بعث بها لتشترك فى الحصار ، وإخضاع ابن محفوظ ، وفاء بعهوده القديمة ، وبغضا منه لهذا الزعيم الموحدى ، بقية الدولة البائدة فى شبه الجزيرة . ولم يكن افتتاح لبلة أمراً سهلا ، نظراً لمنعتها الطبيعية بوقوعها فوق ربوة عالية ، ونظراً لأسوارها الصلدة العالية التى تحيط بها إحاطة تامة ، ومن ثم فقد صمدت المدينة فى وجه المحاصرين ، واستمر صمودها عدة أشهر . وكان أبرز مافى حوادث هذا الحصار ، ماقام به

(١) وهى التى قامت فيما بعد على أنقاضها مدينة فارو Faro الحديثة .

المسلمون من إطلاق النار والحجارة من فوق أسوار المدينة ، من آلات قاذفة شديدة الفتك ، يصحبها دوى كالرعد ، لم يعرف كنهها ولم يسبق استعمالها فى شبه الجزيرة ، تشبه المدافع البدائية ، وقد فتكت هذه الآلات بالجيش المحاصر ، وأرغمته على إطالة الحصار أكثر من تسعة أشهر ، ولكن المدينة المحصورة ، اضطرت آخر الأمر ، وبعد أن برحت بأهلها مصائب الحصار ، ويئست من تلقى أية نجدة أو مدد ، اضطرت إلى التسليم إلى القشتاليين بالأمان ، وعوض ألفونسو صاحبها ابن محفوظ مقابل تسليمها ، بأملاك وضياع واسعة فى أحواز إشبيلية ، وفى فحص الشرف . وكان تسليم لبلة فى سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٧ م)[١].

هذا ما تقوله الرواية النصرانية عن حصار لبلة وتسليمها . ولكن الرواية الإسلامية مع تأييدها لخضوع ابن محفوظ ، وأدائه للجزية وفق صلح منفرد عقده مع النصارى ، ومع تنويهها بهول حصار لبلة وروعته ، تضع تاريخ تسليم لبلة فى سنة ٦٦٠هـ ، أو ٦٦١هـ (١٢٦٢ أو ١٢٦٣ م) ، أعنى بعد التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية بنحو أربعة أعوام . ثم هى تذكر لنا عن مصير ابن محفوظ رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن محفوظ عبر البحر إلى المغرب مع أهله وصحبه ، وقصد إلى الخليفة المرتضى بمراكش ، وانضوى تحت لوائه ، قائداً بالجيش الموحدى ، وظل على تلك الحالة حتى توفى[٢]

وأما قواعد الغرب الواقعة شرقى نهر وادى يانه ، والتى استولى عليها البرتغاليون ، ومنها قلعتا أورشة ، وأورسينة ، فقد ثار بشأنها الخلاف بين البرتغال وقشتالة ، وكاد يؤدى بهما إلى الحرب ، لولا أن تدخل البابا ، وانتهى الأمر بتسوية الخلاف بين ألفونسو العاشر ملك قشتالة وزميله ألفونسو الثالث ملك البرتغال ، وذلك بأن يتزوج ملك البرتغال الأميرة بياتريس ، وهى إبنة غير شرعية لملك قشتالة ، وأن ينزل ملك قشتالة إليه ، عن قواعد الغرب المذكورة ، على أن يكون ذلك بطريق الإقطاع ، وأن يقدم ملك البرتغال عربوناً بطاعته خمسين فارسا لمعاونة ملك قشتالة فى حروبه كلما طلب ذلك إليه ، وتم ذلك فى سنة ١٢٦٣ م[٣].

* * *

(١) M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 119

(٢) البيان المغرب ص ٤٣٦ .

(٣) M. Lafuent : ibid ; T. IV p. 120

هذا وقد توفى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، بعد مرض شديد ، فى الثلاثين من شهر مايو سنة ١٢٥٢ م ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، وذلك بعد أن حكم ستة وثلاثين عاما ، ودفن بمدينة إشبيلية آخر وأعظم فتوحه ، وحاضرته الجديدة ، فخلفه ولده ، وولى عهده ألفونسو العاشر ، وهو الذى لقب فيما بعد بالحكيم أو العالم .

وتشيد التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو الثالث وعبقريته ، وعظيم مآثره ، وتعتبره من أعظم ملوك إسبانيا ، ومن أعظم ملوك العصور الوسطى ، وترى أن فتوح « الاسترداد » La Reconquista ، قد وصلت على يديه إلى ذروتها ، وذلك بافتتاح قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وإشبيلية أعظم حواضر الأندلس. والواقع أننا نستطيع أن نعتبر فرناندو الثالث ، هو قاهر الأندلس الحقيقى ، وأنه هو الذى استطاع بضرباته وفتوحاته المتوالية لأراضيها وقواعدها ، أن يحطم وحدتها وتماسكها ، وأن يقوض صرحها الشامخ ، الذى استطاع الموحدون أن يحتفظوا بسلامته زهاء قرن ، وقد وضع افتتاحه لقواعدها الكبرى ، حداً نهائياً لسيادة الإسلام فى الأندلس الوسطى والغربية ، وجاء استيلاؤه على قرطبة ، وإشبيلية بالأخص ، وهما أعظم مراكز الإشعاع الحضارى فى الغرب الإسلامى ، ضربة قاضية للنفوذ الحضارى والمؤثرات الأدبية الأندلسية ، التى لبثت خمسة قرون متغلغلة فى شبه الجزيرة الإسبانية .

وقد لبثت ذكرى فرناندو الثالث عصوراً ، تقترن بالأخص بحماسته الدينية وغيرته الكاثوليكية ، والصفة الصليبية التى كانت شعار حروبه ضد الإسلام فى الأندلس ، حتى جاء البابا كليمنضوس العاشر ، فأسبغ عليه صفة القداسة وتوجه قديسا ، وذلك فى سنة ١٦٧١ م وأضحى فرناندو الثالث من ذلك التاريخ يعرف بالقديس فرناندو San Fernando أو فرناندو المقدس Fernando el Santo

الكتاب العاشر

نهاية الدولة الموحدية

الفصل الأول

عصر الخليفة أبي محمد عبد الواحد الرشيد

بيعه الخليفة الرشيد . دخوله مراكش . بعض خواص عهده . قدوم ابن وقاريط زعيم هسكورة . موقفه من الرشيد . مغادرته للحضرة وإعلانه للعصيان . تحالفه مع يحيى . خروج الرشيد لقتال يحيى وحلفائه . هزيمة يحيى وفراره . قدوم الزعيم غندصلة إلى الحضرة . مافعله قبل مقدمه بأهل قادس . أبو عثمان الجدميوى ورغبته فى العودة إلى الطاعة . توسيطه لمبعوث الروى جوان كيس فى ذلك . ميل الزعماء الموحدين إلى العودة إلى الطاعة . القائد شانجه يعرض الأمر على الرشيد . موافقة الرشيد واغتباطه . مقدم أبى عثمان وصحبه إلى الحضرة . مساعيه ومفاوضاته فى سبيل عود الموحدين إلى الطاعة . مساعى الرشيد ودعوته لهم . تأهبهم للقدوم ثم احجامهم خوفا من عدوان الخلط . مسعود شيخ الخلط وأعماله العدوانية . اعتزام الرشيد القضاء عليه . يضع خطة لذلك . استدراج مسعود إلى الحضرة . تدبير المؤامرة لاغتياله . البطش به وبأصحابه ومصرعهم داخل القصر . القبض على عرب الخلط وإهلاكهم . دعوة الرشيد للموحدين للقدوم . رسل الموحدين إلى الرشيد . مطالبة الموحدين باعادة رسوم المهدى. وعد الرشيد بتحقيقها . مقدم الموحدين إلى الحضرة . إعادة رسوم المهدى . إعادة حقوق الموحدين وأملاكهم . تضعضع الدولة الموحدية . تحالف الخلط وابن وقاريط ويحيى . زحف الحلفاء على مراكش . خروج الرشيد فى قواته لقتالهم . هزيمة الرشيد وتمزيق قواته . عزمه على مغادرة الحضرة صونا لها . حيلته ليشق لنفسه طريق الخروج . نجاحه فى الخروج والفرار . التجاؤه إلى الجبل ثم إلى سجلماسة . الضيق والجوع فى مراكش . عيث العرب فى أحوازها . دخول يحيى وابن وقاريط والخلط المدينة . تغلب ابن وقاريط على الخليفة . فرار الموحدين من المدينة . استعداد الرشيد لاستئناف القتال . مسيره إلى مراكش . اللقاء بينه وبين يحيى وحلفائه . هزيمة يحيى والخلط . دخول الرشيد الحضرة وإنقاذها من العيث . غزو الجنويين لسبتة . ظروف هذه المحاولة وفشلها . التنكيل بالجنويين المحليين . مقدم أسطول جنوة ومحاصرته لسبتة . تعويض الجنويين وإقلاعهم . الخلط يدبرون خطة الانتقام . يبعثون ابن وقاريط سفيراً إلى ابن هود . استعداد الرشيد للقضاء على خصومه . مسيره إلى فاس . التجاء يحيى إلى عرب المعقل ومصرعه بأيديهم . يحيى وصفاته . عودة الرشيد إلى الحضرة . حوادث سجلماسة . مسير الرشيد إلى فاس . مهاجمة ابن وقاريط لسلا وفشل المحاولة . عوده إلى إشبيلية . وفاة ابن هود وعودة إشبيلية إلى طاعة الخلافة الموحدية . القبض على ابن وقاريط وإرساله إلى المغرب. إعدام جملة من زعماء الخلط . تعذيب ابن وقاريط وإعدامه . بيعة ابن الأحمر للرشيد . الثورة فى السوس ومصرع زعيمها . المجاعة فى سبتة وأسبابها . بنومرين وسيطرتهم على الأقطار الغربية . وصولهم إلى فاس . تعيين ابن وانودين لولاية الأقطار الغربية . النزاع بينه وبين بنى مرين . تقدم دعوة بنى مرين . مصرع أبى سعيد عثمان أمير بنى مرين . أخوه أبو معرف يخلفه فى الإمارة . الشقاق بين بنى مرين . تحالف ابن وانودين مع بنىعسكر . محاربته لبنىمرين . اجتماع بنى مرين حول زعيمهم أبى معرف محمد بن عبد الحق . مسيرهم إلى مكناسة وفتكهم بالروم التابعين لابن وانودين . مسير

ابن وانودين لقتالهم . لقاء الفريقين قرب مكناسة . هزيمة ابن وانودين وحلفائه . التجاؤه إلى قصر عبد الكريم . تضاعف هيبة بنى مرين وامتداد سلطانهم . ابن وانودين وقصته وعوده إلى مراكش . الرشيد يبطش بوزيره المومنانى . مصرع الرشيد فى حادث البحيرة . مختلف الروايات حول ذلك . خلال الرشيد وصفاته . وزراؤه وكتابه . شخصه .

بويع أبو محمد عبد الواحد الرشيد ، حسبما تقدم عقب وفاة أبيه ، وهو فى طريق عودته على رأس جيشه من سلا إلى مراكش ، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢م) ، وكانت بيعة خاصة انحصرت فى أكابر الأشياخ والسادة ، إذ كتمت وفاة الخليفة الراحل إلى حين . ولما وصل الرشيد فى جيشه إلى الحضرة ، بعد هزيمته لابن عمه يحيى بن الناصر ، واستعدت الحضرة لاستقباله ، بعد أن كانت على أهبة لرده ، مما فصلناه من قبل ، دخلها فى منتصف شهر المحرم ، ونزل بالقصر ، وساد التفاؤل والبشر بين الناس ، وكانت طوائف الموحدين والعرب التى قدمت مع يحيى ، ولاسيما عرب سفيان وشيخهم يومئذ جرمون بن عيسى ، قد عاثت فى أرجاء العاصمة وخربتها ، ونهبت من الأموال والذخائر مقادير طائلة . ووصل مع الرشيد كثير من عرب الخُلط المخلصين له ولأبيه من قبل ، واستقروا فى مختلف الأنحاء ، ووصل معه كذلك عمه السيد أبو محمد عبد الله بن أبى سعد بن المنصور ، فأنزله الرشيد أكرم منزل وولاه وزارته ، وكانت له فى الدولة مكانة رفيعة .

ولما استقر الرشيد بمراكش ، اجتمع الناس على طاعته ، ووصلته البيعات من مختلف الجهات من الحواضر ومن القبائل .

وكان عهد الرشيد الذى استطال زهاء عشرة أعوام ، عهداً بعيداً عن الهدوء والاستقرار ، مليئاً على قصره بالأحداث والانقلابات العنيفة . بيد أنه قد امتاز فى نفس الوقت بوقوع بعض الظواهر الهامة ، وفى مقدمتها عود الموحدين الخوارج ، إلى تأييد الدولة الموحدية ، وإحياء ما اندثر من رسوم المهدى ، والقضاء على تمرد عرب الخلط ، وقبيلة هسكورة ، وتحرير البلاد من عيثهم ، وطغيانهم ، وامتاز أخيراً بتقدم دعوة بنى مرين ، وسيطرتها على معظم الأنحاء الشمالية .

وفى أوائل سنة ٦٣٠ هـ ، قدم إلى مراكش عمر بن وقاريط زعيم هسكورة من جبله ، ومعه أولاد الخليفة المأمون إخوة الرشيد الصغار ، ومنهم السيد أبو الحسن ، وكان أبوه قد تركه بإشبيلية فى كفالة بعض الأشياخ ، ثم أخرجه أهلها ، فأخذ

إلى عمه أبي موسى بسبتة ، ولجأ أولئك الصبية أثناء احتلال يحيي لمراكش إلى هسكورة ، تحت كنف ابن وقاريط ورعايته .

وكان ابن وقاريط منذ البداية من أنصار الخليفة المأمون ، وخصوم ابن أخيه يحيي ، ولكنه لما تولى الرشيد شعر نحوه بشيء من التوجس ، بيد أنه توسل باستصحاب إخوته الصغار أبناء المأمون إلى الحضرة ، إلى نيل عطفه وثقته . ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، توثقت أواصر المودة بينه وبين السيد أبي محمد ابن أبي سعد عم الرشيد ، وصديقه الحميم العلامة الفقيه أبي إسحاق بن الحجر ، وكان من أقطاب عصره علما ومكانة ، بيد أن ابن وقاريط لم يكن صادق الولاء ، وكانت نفسه تجيش بنيات ونوازع مختلفة ، لم تلبث أن كشفت عنها الحوادث .

وكان ابن وقاريط ، شعوراً منه بكثرة جمعه ، وتوطد نفوذ قبيلته ، يكثر من الرغبات والمطالب ، وخصوصاً منذ توفى صديقه وناصحه السيد أبو محمد بن أبي سعد ، وكان الرشيد يستجيب إلى معظم رغباته ، ومن ذلك أنه منحه جباية هزرجة وأغمات وريكة ، وغير ذلك . بيد أنه لم تهدأ ثائرة نفسه ، وفى ذات يوم — آخر سنة ٦٣٠ هـ — غادر مراكش بحجة الاتصال بإخوانه وإصلاح شئونه ، ولكنه لم يعد ، ولم يلبث أن كشف القناع ، وأظهر العصيان للرشيد ، والانضواء تحت طاعة منافسه يحيي المعتصم ، وسار إليه بمقره ببلاد مزالة ، وكان من الواضح أن عمله كان نذيراً ببدء فصل جديد ، من الصراع بين الرشيد ، وبين يحيي وحلفائه .

— ١ —

وذلك أن الرشيد لما علم بما وقع من عقد التحالف بين هسكورة ويحيي ، حشد قواته ، وخرج لقتال خصومه ، واستخلف على مراكش صهره زوج أخته السيد أبا العلى إدريس ، فقام على ضبطها وتسيير أمورها بحزم وكفاية . ولما وقف ابن وقاريط ويحيي ، على أهبة الرشيد للقتال ، أخذا فى استنفار أنصارهما ، واجتمعت حشود هسكورة ومزالة وجلاوة ، وأخذت تتأهب للسير صوب مراكش ، فبعثت أم الرشيد إلى ولدها تستحثه وتهيب به أن يستدرك الموقف قبل أن يهدد الأعداء العاصمة ، فحول الرشيد خط سيره ، وقصد إلى بلاد هزرجة ، واخترق فى طريقه بلاد هسكورة وخرب بسائطها ، واستعد يحيي وحلفاؤه لمنازلته فى حمى بعض الجبال ، فسار الرشيد لقتالهم ، ولما اضطرمت المعركة بين الفريقين ، تخاذل أنصار يحيي وولوا الأدبار ، واعتصموا بالجبال ،

وتركوا محلاتهم ، فاستولى عسكر الرشيد على ما فيها ، وفر يحيى فى فلوله إلى بلاد سجلماسة ، وعاد الرشيدظافراً إلى مراكش[١] .

وقدم عندئذ إلى الحضرة الزعيم غنصلة (كونثالو) أخو شانجه (سانشو) قائد الروم (الجند النصارى) مع طائفة من الجند النصارى ، وكان قبل مقدمه ، قد جاز على مدينة قادس ، وانقض عليها فى عصبته ، وفتك بأهلها ، وحمل منهم عدداً من الأسرى . وكانت قادس يومئذ تدين بالطاعة لابن هود ، ألد خصوم الخلافة الموحدية ، واستاق غنصلة الأسرى المسلمين معه حتى ثغر آسفى ، فقام أهله بافتدائهم ، وتم تسريحهم ، وبقيت قادس بعد ذلك خرابا حتى تملكها النصارى فيما بعد ، فى عهد ألفونسو العاشر[٢] .

وكان أهم ماحدث فى هذا العام — ٦٣١ هـ — هو التقرب بين زعماء الموحدين وبين الرشيد ، وذلك على يد أبى عثمان سعيد بن زكريا الجدميوى . وكان يتردد على جدميوه ، وهى من منازل الموحدين القديمة ، بعض التجار النصارى ، وكان من هؤلاء مبعوث « للرومى » جوان كيس وكيل شانجه قائد النصارى ، وكان هذا المبعوث يتردد على أبى عثمان ، ويقدم إليه مختلف الهدايا تسهيلا لمهامه ، وأبو عثمان من جانبه يقوم بخدمته ومعاونته. ولما علم بذلك جوان كيس قرر أن يزور أبا عثمان وان يوثق معه علائقه ، فاستقبله الزعيم الجدميوى أجمل استقبال ، وانتهز الفرصة فأبدى له رغبته فى العودة إلى الطاعة ، وأن يقوم بذلك المسعى القائد شانجه ، لمكانته من الرشيد ، فأبدى جوان كيس اغتباطه بذلك ، ووعد بتحقيقه . وكان الزعماء الموحدون الخوارج على الرشيد ، قد برموا بحركات يحيى ، وارتمائه فى أحضان هسكورة وابن وقاريط ، وهو خصمهم الأكبر ، وسرت بينهم فكرة العودة إلى الطاعة ، وعقد الصلح مع الرشيد . وكان أبوعثمان يسره أن يكون البادئ بهذا المسعى الحميد . ولما وقف القائد شانجه على ذلك أدرك ما لهذا المسعى من الأهمية والفائدة ، وعرض الأمر على الرشيد وطلب موافقته ، فأبدى الرشيد اغتباطه ، وأصدر عهده لأبى عثمان بالأمان والقبول ، فلما وصل العهد إلى أبى عثمان ، بادر بالسير إلى الحضرة فى أهله وإخوانه ، ومن اتبعه من قبيلته ، فاستقبله شانجه أجمل استقبال ، وصحبه إلى الدار التى خصصت له ، وشمله الخليفة هو وسائر

---

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٩١ و ٢٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٢ ، والذخيرة السنية ص ٧٠ .

صحبه بعنايته ورعايته وجزيل صلاته . وأخذ أبو عثمان يعمل على توثيق علائقه برجال الدولة من جهة، وعلى بث سعيه الحثيث، لدى زملائه الموحدين من جهة أخرى، ليجمع كلمتهم على الطاعة ، والعود إلى الالتفاف حول كرسي الخلافة . واستمرت مساعيه ومفاوضاته فى سبيل ذلك حينا ، واستطاع فى النهاية ، أن يقنع زملاءه الموحدين بالعود إلى الطاعة ، على أن يشملهم العفو التام ، وعلى أن تعاد رسوم إمامهم وقوانينهم وتقاليدهم كما كانت ، وهوما وعد الخليفة بتنفيذه، وبذل الرشيد من جانبه ، مساعيه لاستجلاب الموحدين ، واستدعائهم إلى الحضرة ، لما فيه خيرهم وصلاحهم ، فبعث الموحدون إليه بالشكر والدخول فى الطاعة ، وأخذوا فى الأهبة للسير إلى الحضرة ، وندب الرشيد لمصاحبتهم والوصول معهم ، عمه موسى بن الناصر ، ولكن حدث أن وقف على ذلك شيخ الخلط مسعود بن حميدان ، ورأى فى انضمام الموحدين إلى الرشيد تقوية لشوكته ، وإضعافا لمركز الخلط ، فرتب قوة من رجاله ، لتعترض الموحدين وتفتك بهم ، وعلم الموحدون بتلك الخطة الغادرة ، فارتدوا إلى جبلهم سالمين . ولما نمى ذلك إلى الرشيد ، استشاط غيظاً ، وتشاور فى الأمر مع وزرائه وخاصته ، واستقر الرأى على استدراج زعيم الخلط والقضاء عليه .

وكان ابن وقاريط خلال ذلك ، يجد فى وضع خططه وإحكام وسائله ، وكان يوحى إلى حليفه القديم ، شيخ الخلط بمختلف المشاريع العدوانية ، وشيخ الخلط مسعود من جانبه ، يعيث فسادا فى الأرض أينما حل ، ويفرض سلطانه الغاشم على الناس ، ويرهقهم بالمغارم والفروض، ويستبيح الأموال والحُرم ، وكان وكيله ، واسمه موسى الكافر ، رجلا فاجراً يستطيل على رجال الخليفة وخدامه ، دون حياء ولا وازع ، وكان الرشيد يشهد ذلك كله ، مظهراً الصبر والإغضاء ، وهو يضطرم فى قرارة نفسه رغبة فى التخلص من هذا الزعيم المتجبر الباغى ، ويرقب الفرص لتحقيق بغيته .

ولم يكن القضاء على شيخ الخلط بالأمر الهين ، فقد كان يعتمد على قوة محاربة تتألف من نيف وإثنى عشر ألف فارس ، غير الأُتباع والحشود التى لاتحصى ، وكانت فرسانه وجنده ، حسنة الأهبة كاملة السلاح ، ولديه من الأموال والثياب والدواب والإبل مقادير وافرة ، وبالجملة فقد كان مسعود ابن حميدان ملكاً غير متوج ، قوى الشوكة ، وافر البأس ، وكان لابد للقضاء عليه

وعلى سلطانه ، من التذرع بكثير من الحكمة والصبر والدهاء[1] .

ووضع الرشيد خطته لذلك بالاتفاق مع وزرائه ونصحائه ، وخلاصتها ، أن يرسل الجيش مع وزيره السيد أبى محمد الكبير فى مهمة إلى بلاد حاحة . ذلك لأن شيخ الخلط كان يخشى المثول فى الحضرة ، مع وجود الجيش ، ومن ثم فقد تحرك السيد أبو محمد بالجيش إلى حاحة برسم جبايتها . وعلى أثر ذلك بدأ الرشيد مسعاه فى استدعاء مسعود بن حميدان إلى الحضرة ، فقبل الدعوة بعد لأى وتسويف ، واستقبل بمنتهى المودة والإكرام ، وصار يتردد إلى باب الخليفة فى جموعه ، وكان يقيم بالحضرة معاوية بن وقاريط عم عمر بن وقاريط ، وهو يظهر التبرؤ من عمر وفعله ، والولاء للرشيد ، بيد أنه كان من جهة أخرى ، يبدى صداقته لمسعود ، وقد أعد له هو وإخوانه ذات صباح مأدبة حافلة ، ولكن الرشيد لم يصبر على تلك المظاهرة فأمر بالقبض على معاوية وإعدامه ، وكان مسعود فى ذلك الوقت نفسه فى دار الخلافة لمصالح يقضيها ، فلما نمى إليه الخبر لم يهتز له ، وقال لقد أفسد علينا غذاء الخلط ، فأقيمت له ولأصحابه فى الحال مأدبة عظيمة ، وبولغ فى إكرامه والحفاوة به .

وهنا وضع الرشيد خطته للإيقاع بمسعود ، حينما يفد على القصر ، وبث له الكمائن من الفتيان والعبيد والحشود ، داخل القصر وحواليه . فلما حضر مسعود أذن له بالدخول ، فطلب أن يدخل مع أصحابه ، ولكنه أجيب إلى الدخول بمفرده ، ومنع الصحب ، فتردد أولا ثم ارتضى أن يدخل وحده ، فلما وصل إلى مكان معين احتاط به يحيى بن عبد الرحيم ، ونفر من العبيد والفتيان ، فشعر بالخطر يحدق به ، وشهر سيفه وصاح برفاقه الذين تخلفوا وراءه ، وتمكن من اللحاق بهم ، فشهروا سلاحهم وحاولوا الخروج ، ولكن الأبواب كانت قد أغلقت ، ففتحوا الباب الأول ، بعد جهد ، ولكن لقيهم من ورائه ابن ماكسن صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكنهم استطاعوا التغلب عليهم ، ووثبوا إلى الباب الثانى ، ولكنه كان أيضاً مغلقاً ، وهجم عليهم فى ذلك الفناء ، كل من كان كامنا فى الرياض من الفتيان والكتاب والخدم ، وعرف الجميع أن العرب هم المطلوبون ، ودافع مسعود ورفاقه عن أنفسهم أعنف دفاع ، ولكن السيوف تلقفتهم من كل ناحية ، وتساقطوا حول زعيمهم واحداً بعد الآخر ، ثم كانت الخاتمة بمصرع

(١) البيان المغرب ص ٢٩٥ – ٢٩٨ .

مسعود، فسقط مضرجا بدمه، واحتز رأسه فى الحال، وحمل إلى الرشيد، فحمد الله على ما حقق من هلاك هذا الخصم الخطر، وفى الحال أمر الرشيد بالقبض على من كان بالحضرة من عرب الخلط، وقتلهم، والطواف بجثهم، وكان مصرع مسعود بن حميدان، وانهيار سلطانه على هذا النحو، عمل انقاذ لموقف شديد الحرج، إذ كان عرب الخلط قد اشتد عيثهم فى أنحاء البلاد، واغتصبوا جباياتها وعشورها، وأصاب البلاط الموحدى من جراء ذلك منتهى الضيق والإرهاق(١).

ولم يمض على مصرع زعيم الخلط سوى أيام قلائل، حتى عاد الجيش الذى أوفد إلى بلاد حاحة، بقيادة السيد أبى محمد، بعد أن قام بمهمته. وعلى أثر ذلك قام الرشيد بتوجيه كتبه إلى الموحدين بالوفادة عليه، بعد أن مهد السبيل، وزالت العقبات، فبعث الموحدون إليه منهم رسولين، هما أبو بكر بن يعزى التينمللى، ومحمد بن بزريجن الهنتاتى، فاستقبلا فى الحضرة بمنتهى الترحاب والبشر والتكريم، وغمرهما الرشيد بعطفه ورعايته. وأبديا للخليفة شروط الموحدين للعودة، وهى إعادة ما نسخه أبوه الخليفة المأمون، من رسوم الإمام المهدى، وذلك بإعادة اسمه فى الخطبة، ونقشه فى السكة، وإعادة الدعاء له بعد الصلاة، والنداء «بتاصليت الإسلام» «وسودوت» «ونارد ى» «وأصبح ولله الحمد» وغير ذلك مما جرى عليه التقليد، منذ قيام الدولة الموحدية، وقضى المأمون بإزالته، وتبعه فى ذلك ولده الرشيد، فوعد الرشيد بتحقيق مطالبهم. وعلى أثر ذلك قدم الموحدون إلى الحضرة، ونزلوا فيما خصص لهم من الدور، وانتظموا كما كانوا فى طاعة الخلافة، وتمهل الرشيد وقتاً فى تنفيذ ماوعد به من إحياء رسوم المهدى، ولكنه لما شهد قلقهم وتوجسهم من ذلك، بادر بتنفيذ عهده، وأعيدت رسوم المهدى ابن تومرت كما كانت قبل إلغائها، واستقبل الموحدون ذلك بمنتهى العرفان والرضى(٢)، وقرن الرشيد ذلك بأن رد على الموحدين دورهم وأملاكهم وأموالهم، وسائر حقوقهم وامتيازاتهم القديمة، فطابت نفوسهم، واتسعت أحوالهم، وأقبلوا على الانضمام إلى الجيش، والاضطلاع بنصيبهم من المسئوليات والشئون، ولاح أن الدولة الموحدية قد استردت سابق تماسكها ووحدتها وقوتها(٣).

---

(١) البيان المغرب ص ٣٠١ — ٣٠٣، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥.
(٢) البيان المغرب ص ٣٠٤ و ٣٠٥، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٤.
(٣) البيان المغرب ص ٣٠٦.

— ٢ —

على أن الأمر لم يكن كذلك فى الواقع . ذلك أن الدولة الموحدية لم تكن عندئذ سوى بقية هزيلة مما كانت عليه . ولم يكن سلطان الخليفة الموحدى يتعدى يومئذ أحواز العاصمة الموحدية — مراكش — وما إليها ، وكانت أطرافها قد قصت من كل ناحية ، ففضلا عن انسلاخ إفريقية ، وقيام دولة بنى حفص المستقلة بها ، فقد غلب بنو مرين على معظم الأنحاء الشمالية الشرقية ، وابثت طوائف العرب ، ولاسيما عرب الخلط ، مسيطرة على الأنحاء القريبة من العاصمة ، واستقر يحيى المعتصم مع فلوله فى قطاع سجلماسة . ومن جهة أخرى ، فقد كان لمقتل مسعود ابن حميدان زعيم الخلط ، نتائج بعيدة المدى . ذلك أن طوائف الخلط هاجت وماجت ، وأزمعت الانتقام ، واختارت لزعامتها يحيى بن هلال بن حميدان ، واضطرمت كلها بنار الفتنة ، وانتهز ابن وقاريط تلك الفرصة ، ليضع يده مع الخلط ، وليذكى فيهم ظمأ الانتقام والعيث ، وكان منذ هزيمته فى هزرجة ، قد لبث إلى جانب يحيى المعتصم . واستنفر الخلط سائر حشودهم ، فاجتمعت منهم جموع غفيرة ، وانضم إليهم يحيى وابن وقاريط بقواتهما ، وزحفت الجموع المشتركة على مراكش ، وعاثت فى أحوازها ، وانتسفت الزروع والرياض والبحائر القريبة ، وضربت المداشر والقرى ، وانقطعت المؤن والأمداد عن الحضرة ، واشتد بها الضيق ، وأخذ الجند فى التسلل إلى الخلط ، فعندئذ رأى الرشيد أن يدفع بقواته لمقاتلة المهاجمين ، فخرج غنصالة ، (كونثالو) قائد الروم فى فرسانه ، ومعه جند الرشيد ، إلى وادى تانسيفت ، حيث اجتمع الخلط وهسكورة ، وكان معه أيضاً عبد الصمد بن يلولان الهسكورى ، خصم ابن وقاريط الألد فى جمع من أنصاره ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف ، وقاتل الروم ومن معهم بمنتهى الشجاعة ، ولكن تكاثرت عليهم الخلط وهسكورة وفتكت بهم ، فهزموا هزيمة شديدة ، وارتدت فلولهم عند دخول الليل إلى المدينة ، فأغلقت أبوابها ، وساد بها الاضطراب والفزع ، وزاد الضيق وعدمت الأقوات ، وانهارت هيبة الخلافة والخليفة ، وأخذت الأمور تنذر بأخطر العواقب (٦٣٢ هـ — ١٢٣٤ م)[(١)].

وعندئذ اقترح الموحدون على الرشيد ، صونا للمدينة ، وانقاذاً لها من الحصار والخراب ، وانقاذاً لأهلها من الهلاك والأسر ، أن يغادرها الرشيد ، وأن يلجأ

---

(١) البيان المغرب ص ٣٠٧ و ٣٠٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ .

إلى جبال الموحدين فى قاصية جبال الأطلس ، فقبل الرشيد هذا الرأى ، ولكن كان لابد لتنفيذه من أن يلتمس الرشيد له طريقاً للخروج والإفلات ، من خصومه المتربصين به خارج الحضرة ، ومن ثم لجأ الرشيد إلى الحيلة ، فأمر بأن يكتب خطابان على لسان جرمون شيخ عرب سفيان ، موجهان إليه ، بانتصار عرب سفيان على الخلط ، وأنهم مرابطون فى وادى أم الربيع ، وأنهم مازالوا على ولائه وطاعته . وقد كان عرب سفيان دائماً من أنصار المأمون وولده الرشيد ، وكانوا من أعداء الخلط ، ثم عهد بالخطابين المزورين إلى رسولين (رقاصين) أجزل لهما العطاء ، وأمرا بأن يمرا قرب محلة الخلط ، وأن يتظاهرا بأنهما قادمين من لدن عرب سفيان إلى الرشيد ، فتمت الحيلة ، وقبض الخلط على الرسولين ، وضبط الكتابان ، فقررا أنهما قدما من لدن جرمون ، وأنه مقيم بحشوده فى وادى أم الربيع ، وخشى الخلط أن يكون قد وقع مكروه لباقى مواطنيهم ، فقوضوا محلتهم خارج الحضرة ، وساروا مع حلفائهم بنى هسكورة صوب وادى أم الربيع[1] .

وما كاد الخلط وحلفاؤهم يبتعدون عن الحضرة ، حتى بادر الرشيد فجمع أمواله وعتاده ومتاعه ، وغادر مراكش فى أهله وولده ، ووجوه دولته ، وأشياخ الموحدين ، واستخلف على المدينة أبا محمد عبد الله بن زكريا ، وخرج فى أثره كثير من الناس بأهلهم ، ولحسن الطالع لم يتعرض له أحد فى ذلك اليوم ، فسار فى أمن حتى وصل ومن معه إلى أغمات . ولما علم الخلط بما حدث بعد يوم أو اثنين ، هرعوا فى أثر الخليفة الفار ، وحاصروه بأغمات مدى يومين ، شغلوا خلالها بالبحث عن الأقوات والمؤن ، وتحيل الرشيد من جهة أخرى فى الخروج صوب الجبل ، فنجح ، ووصل إلى أطراف الجبل ، قبل أن يفطن إلى ذلك خصومه ، ثم بعث بجنده إلى تينملل ، ولما أدرك الخلط ماحدث ، ولم يجدوا أحداً بالمحلة ، ارتدوا على أعقابهم إلى حيث أتوا .

وسار الرشيد فى قواته جنوبا ، فاخترق بلاد هرغة ، ثم اتجه شرقاً صوب سجلماسة ، وكان واليها أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش ، فامتنع ، واستعد للمقاومة . ولكن طائفة من النصارى كانت بالمدينة ، فتحت الأبواب وأعلنت الطاعة ، فدخل الناس المدينة وأسعفوا بالأقوات ، وهدأت الأحوال .

وكانت مراكش ، منذ غادرها الرشيد ، قد ساد بها الاضطراب والضيق ،

---

(١) البيان المغرب ص ٣١٠ و ٣١١ .

وعزت الأقوات واشتد الكرب ، وأكل الناس كل ما وصل إلى أيديهم من صنوف النبات والحشائش ، ومات كثير من الجوع ، وكان العرب خارج المدينة يحولون دون إغاثتها وتموينها ، ويقيمون هم فى خصب وسعة . ثم كان أن تسور المدينة السيد أبو إبراهيم بن أبى حفص الملقب بأبى حاقة ، وفر الوالى أبو محمد بن أبى زكريا ، وضبط السيد أبو ابراهيم البلد ، وأمل الناس أن ينقذهم من عيث العرب وبطشهم ، وبدأت تباشير الفرج بوصول الناس إلى الحقول والزرع الأخضر.

وفى تلك الأثناء وصل يحيى المعتصم وابن وقاريط وطوائف الخلط إلى المدينة ، فتوجس الناس شراً ، ودخل يحيى فى الحال مراكش واحتلها ، واستولى أصحابه من العرب والهساكرة على الدور ، ووزر ليحيى يومئذ أبو محمد بن وانودين ، وأبو يحيى بن زكريا بن يجلد ، ودخل ابن وقاريط فى أشياعه ، ونزل بدار الوزير السابق أبى سعيد بن جامع ، واقتسم الزعماء القصور والرباع الفخمة ، وغلب ابن وقاريط والعرب على الخليفة الضعيف يحيى . وكان المسيطر عليه يومئذ فتى أفاق يدعى بلال ويكنى أبا حمامة ، وأوقع بلال هذا بعلى أخى يحيى ووشى به ، فأمر يحيى بالقبض عليه ثم إعدامه ، بالرغم من شفاعة ابن وقاريط والخلط ، وكثر الإرجاف ، وساءت الظنون ، وخرج الموحدون الذين كانوا بالمدينة ، وغادروها تباعا بمختلف الوسائل والحيل ، وساروا إلى الجبل ، وانتظروا يرقبون الحوادث .

وكان دخول يحيى مراكش على هذا النحو فى أواخر سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥م) فلبث بها حتى أوائل العام التالى ، وكان الرشيد فى تلك الأثناء بسجلماسة ، ينظم شئونه ، ويتخذ أهبته للمعركة المرتقبة . فلما شعر بعد بضعة أشهر بتحسن أحواله وازدياد قواته ، واستجاب إلى نصرته عرب سفيان ، وشيخهم جرمون بن عيسى ، عول على التحرك والعمل . فخرج فى قواته من سجلماسة ، قاصداً إلى مراكش ، وترامت هذه الأنباء إلى الحضرة ، فسرى إليها الاضطراب ، وخرج منها يحيى ، وضرب محلاته فى ظاهرها استعداداً للقاء الرشيد ، وقد تزايدت قواته بحشود حلفائه من الخلط وهسكورة .

وسار الرشيد فى قواته أولا صوب وادى أم الربيع ، ثم هبط منه نحو العاصمة ، وهنالك فى مكان يسمى أوجدام التقى الفريقان ، ونشب بينهما قتال هائل ، استمر طول اليوم دون حسم ، ثم استؤنفت المعركة بعد بضعة أيام ، ونشبت بينهما معركة عنيفة أخرى ، انقض خلالها الروم من عسكر الرشيد ، على ناحية

الخلط ، وهاجموهم بشدة ، وفتكوا بهم ، فولى الخلط الأدبار مع أميرهم ، وتحطمت جبهة يحيى وحلفائه ، وانتهبت محلاتهم ، وسبي أولادهم ونساؤهم ، وتحقق للرشيد نصر كامل ، ودخل الرشيد حاضرته فى حفل فخم ، فأغدق صلاته على حلفائه من عرب سفيان ، فاتسعت أحوالهم ، وزادت جموعهم ، وأعلن الصفح عن خصومه ، وساد التهادن والسلم ، وتم ذلك فى أواسط أو أواخر سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م)(١) .

وكانت هزيمة الخلط على هذا النحو الشامل ، ضربة شديدة لتلك الطوائف الباغية المفسدة ، أنقذت بها الخلافة الموحدية ، وأنقذت مراكش من كابوس خانق ، فانتظمت الأحوال وانتعشت النفوس ، وعمرت الديار ، وارتفعت المظالم المرهقة ، التى كانت هذه الطوائف تنزلها بالناس ، وأخذ الرشيد يستعد لمطاردة الخلط ، والقضاء عليهم ، وكانوا عندئذ قد انفضوا عن يحيى ، وفر يحيى فى نفر يسير من صحبه مفلولا كسيراً ، والتجأ إلى جماعة من عرب المعقل .

وحدث فى هذا العام — سنة ٦٣٣ هـ — الذى بلغت فيه الحرب الأهلية ذروتها من الاضطرام ، حادث لم يلتفت البلاط الموحدى إلى خطورته ، وإلى خطورة دلالته ، وهو غزو الجنويين لثغر سبتة ، ومحاولة الاستيلاء عليه . وكان الجنويون يفدون فى سفنهم إلى سبتة للاتجار مع أهلها ، ومع القبائل المجاورة ، وترتب على ذلك أن نزل بها وبأرباضها كثير منهم ، ففكر جماعة منهم فى الاستيلاء عليها ، لأهميتها البحرية والتجارية ، فنمى ذلك إلى واليها عندئذ ، وهو أبو العباس اليانشتى ، فكتب إلى القبائل المجاورة يستنفرهم ، وحدد لوفودهم يوما معينا . وفى ذلك اليوم ، وفدت على سبتة ، منهم جموع غفيرة ، وخرج اليانشتى للقائهم ، فأدرك الجنويون فشل مشروعهم ، وأسرعوا إلى باب المدينة ، يحاولون امتلاكه فردتهم عساكر البربر ، وقتلوا منهم عددا كبيرا ، ورمى كثير منهم أنفسهم إلى البحر ، ووصلوا إلى سفنهم الراسية فيه ، ونهبت أموال الجنويين وفنادقهم ، وهرع من بقى منهم إلى جنوة ، وأبلغوا أهلها ماحدث ، فحشد أهل جنوة فى الحال نحو مائة مركب ، وساروا لمحاصرة سبتة ، ولما وصلوا إليها نصبوا عليها المجانيق ، وضيقوا عليها ، وعولوا على ضربها وأخذها بالحصار ، فبادر صاحب المدينة اليانشتى إلى مفاوضتهم ، واتفق معهم على تعويضهم عن كل ماحدث من الخسائر

(١) البيان المغرب ص ٣١٨ — ٣٢٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ .

لمواطنيهم ، وقدر هذا التعويض بمبلغ أربعمائة ألف دينار دفعها أهل سبتة، فتسلم الجنويون المال ، وأقلعوا عن المدينة، ووقع ذلك فى سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) ، أو فى سنة ٦٣٢ هـ(١٢٣٥ م) وفقاً لرواية صاحب روض القرطاس ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذا الحادث فى سنة ٦٣٦ هـ(١٢٣٨ م)[١] .

وفى تلك الأثناء كان عرب الخلط يجمعون فلولهم ويدبرون خططهم . ذلك أنهم لم ييأسوا من المقاومة ، واقترح عليهم ابن وقاريط أن يعترفوا بطاعة صاحب الأندلس ، محمد بن يوسف بن هود ، وأن يستنصروا به ، لكى يرسل إليهم جنداً لمحاربة الرشيد ، فوافق العرب على ذلك ، وندبوا ابن وقاريط وجماعة من أعيانهم للسير إلى ابن هود . وكان ابن وقاريط فى الواقع يتوق إلى مغادرة المغرب ، بعد أن شعر بفداحة هزيمته وخسران قضيته ، فعبر البحر مع رفاقه إلى الأندلس ، ووفد على ابن هود ، فرحب بمقدمهم ، وشملهم بعطفه وجوده، ولبثوا بإشبيلية فى ضيافته وتحت كنفه، حتى سنة ٦٣٥هـ ، وانتظر عرب الخلط وأمرهم فوضى ، نتيجة هذه السفارة ، حتى تحرك الرشيد حركته الثانية ، فدب إليهم الذعر وتفرقوا فى مختلف الأنحاء .

وكان الرشيد عندئذ ، قد استعد لحرب خصومه أعظم استعداد ، وبذل الأعطية على نطاق واسع ، وشمل الموحدين بسابغ عطفه وكرمه ، وندب لولاية مراكش الشيخ أبا على بن أبى محمد عبدالعزيز ، ولأشغالها أبا عبدالله بن أبى زيد التينمللى ، ولقضائها أبا زيد المكادى ، ولشرطتها يوسف بن عثمان الهنتاتى .

وسار الرشيد فى قواته أولا إلى فاس ، والناس يرحبون به أينما حل . وفى فاس نظر فى الشئون ، وطلب تحصيل الجبايات، وأرسل الجيش إلى غُمارة بقيادة الوزير السيد أبى محمد سعيد بن المنصور . وخلفه فى الوزارة الشيخ أبو موسى ابن عطوش . وبقى الموحدون فى فاس . وحصلت الجبايات العظيمة من قبائل غمارة وفازاز ، ومنح الجند أعطيتهم ، ووسع عليهم ، واستقامت الأمور ، وتحسنت الأحوال .

ووقع خلال إقامة الرشيد بفاس حادث حسم ، هو مصرع يحيى المعتصم . وذلك أنه كان عقب هزيمته الأخيرة الساحقة ، قد لجأ إلى عرب المعقل بقرب رباط تازا ، واستجار بهم ، فآووه ووعدوه بموازرتهم ونصرتهم ، ولكنهم

---

(١) راجع فى غزو سبتة البيان المغرب ص ٣٤٦ و٣٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ .

أخذوا يرهقونه بمطالبهم ، فى إصدار الظهائر لهم بامتيازات وحقوق معينة ، أملا منهم فى عوده إلى الخلافة ، فأبى يحيى ذلك عليهم ، فقتلوه غيلة ، ودفنوا شلوه ، وذلك فى يوم الاثنين ٢٨ رمضان سنة ٦٣٣هـ (مايو سنة ١٢٣٦ م) ، وذلك بمكان يسمى فحص الزاد ، يقع بين فاس ورباط تازا ، ثم بعثوا برأسه إلى الرشيد وهو بفاس(١) ، فبعث بها الرشيد « فى زق عسل » إلى مراكش ، ومعها كتاب إلى الوالى أبى على بن أبى محمد ، فاستدعى الوالى الناس ، وقرأ عليهم كتاب الخليفة ، وعلق الرأس على باب الشريعة(٢) .

وقام الوالى أبو على فى نفس الوقت ، بناء على أمر الخليفة ، بإعدام بعض زعماء العرب من سفيان وجابر ، وكانوا معتقلين بسجن الحضرة .

وهكذا كانت خاتمة يحيى المعتصم بن الناصر بن المنصور ، بعد حياة مضطربة شريدة ، استطالت مذ بويع بالخلافة لأول مرة فى شوال سنة ٦٢٤ هـ ، حتى مصرعه فى رمضان سنة ٦٣٣ هـ ، تسعة أعوام ، لم ينعم خلالها بالاستقرار ، والاتشاح بثوب الخلافة ، سوى فترات يسيرة ، كانت تتخللها مغامرات ومعارك مستمرة ، أولا مع عمه ومنافسه القوى ، أبى العُلى المأمون ، ثم بعد ذلك مع ابنه الرشيد . وكان يحيى شخصية ضعيفة ، لا تتميز بشيء من الإرادة أو حسن التصرف ، وكان طول الوقت آلة فى يد أنصاره ، يوجهونه كيفما شاءوا ، وإذا كنا نضعه من حيث الشكل فى ثبت الخلفاء الموحدين ، فإن عهد خلافته المتقطع ، لم يقترن من الناحية العملية ، بأى تصرف أو أثر يذكر .

— ٣ —

وفى أوائل سنة ٦٣٤ هـ ، غادر الرشيد فاس عائداً إلى مراكش ، فدخلها فى موكب فخم ، واستقرت الأمور ، وانتظمت الأحوال ، وساد الهدوء والسلام ، وقام الرشيد بتعيين عمال النواحى ، واستقام أمر الموحدين ، وأخذوا فى تنظيم شئونهم ، وحرث أراضيهم ، وتذوق الحياة الوديعة الهادئة .

وحدث فى هذا العام أن استطاع أبومحمد بن وانودين والى درعة ، الاستيلاء على سجلماسة ، وكانت قد خرجت عن الطاعة . وذلك أن الرشيد لما غادر سجلماسة

(١) البيان المغرب ص ٣٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٦ . وهو يسمى الموضع الذى قتل به يحيى ، « بفيج عبد الله من أحواز رباط تازا » .

(٢) البيان المغرب ص ٣٣٠ .

عين يوسف بن علي التينملي والياً لها ، فاستعمل قريبا له وهو يحيى بن أرقم ابن مردنيش لإدارتها ، وثار بيحيى ثائر من صنهاجة وقتله ، فقام ولده أرقم ، واستطاع أن يتغلب على المدينة ، وأن يفوز بحكمها مكان أبيه ، وخشى أرقم أن يعزله الرشيد ، فاستقل بالمدينة ، وامتنع بها ، فمازال أبومحمد بن وانودين به ، حتى أقنعه بالعودة إلى الطاعة ، واستطاع أن يسترد منه المدينة ، وعفاعنه الرشيد(١)

وغادر الرشيد الحضرة إلى فاس مرة أخرى ، واستخلف على مراكش الشيخ أبا محمد بن أبي ابراهيم. وفي أثناء إقامته بفاس، وفد عليه رسل بني مرين، فأكرم مقدمهم ، وأجزل صلتهم . وكان الخليفة الموحدى يدرك ما انتهى إليه بنو مرين يومئذ من القوة والشأن ، ويبذل وسعه في مصانعتهم واسترضائهم .

ووقع عندئذ حادث مزعج ، هو مفاجأة ابن وقاريط سلا بالهجوم عليها ، ومحاولة أخذها . وكان ابن وقاريط مذ عبر إلى الأندلس لاستنصار ابن هود ، قد لبث في إشبيلية يرقب الفرص ، ثم اقترح على ابن هود مشروعاً لفتح سلا ورباط الفتح ، وطلب منه بعض السفن ، ليستعين بها في تنفيذ مشروعه ، فوافق ابن هود ، وقدم لابن وقاريط سفينتين . وكان على ولاية سلا يومئذ ، السيد أبو العُلى صهر الرشيد زوج أخته فاطمة بنت المأمون ، فسار ابن وقاريط في حملته البحرية الصغيرة ، وفاجأ سلا بالهجوم عليها ، ولكنه لقى مقاومة شديدة ،واضطر أن يرتد أدراجه . واهتم الرشيد لذلك الحادث وبعث إلى سلا فاستقدم أخته وأمه إليه ، وكانت معها ، حرصا على سلامتهما(٢) .

وكانت هذه خاتمة محاولات ابن وقاريط . ذلك أنه ما كاد يعود إلى إشبيلية حتى تطورت الحوادث، وتوفى المتوكل ابن هود في ألمرية في جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ ، حسبما فصلنا ذلك في موضعه ، وعندئذ قام أهل إشبيلية بزعامة أبي عمرو ابن الجد وأعلنوا خلع طاعة بني هود ، والعودة إلى طاعة الخلافة الموحدية ، وعقدوا بيعتهم للرشيد ، وبعثوا إلى مراكش وفداً لتقديم بيعتهم . وحدث مثل ذلك في سبتة ، حيث قام أهلها بخلع صاحبها أبي العباس اليانشتي ، وبايعوا للرشيد، وبعثوا ببيعتهم وفداً إلى الحضرة . وحدث في نفس الوقت أن قام أهل إشبيلية بالقبض على ابن وقاريط ، وكان الفضل في ذلك راجعاً الى فقيه من أهل فاس يدعى

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ ، والبيان المغرب ص ٣٣١ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

أبو عبد الله المومنانى كان مقيما بإشبيلية ، وبه ولاء للدولة الموحدية ، فحرض أهل المدينة على القبض على الزعيم الخارج ، وإرساله إلى المغرب ، لما فى ذلك من إرضاء للخلافة ، وتحقيقاً لسلامها ، فقبض على ابن وقاريط ، وأرسل إلى المغرب محروساً فى سفينة ، رست به على ثغر أزمُّور ، وهنالك تسلمه الوزير الشيخ أبو زكريا بن عطوش . وكان فى سجن أزمور عدة من زعماء الخلط ، كان الرشيد قد تحيل فى استدعائهم وقبض عليهم ، وبعث جنده فاستباحت محلاتهم وسبت أولادهم ونساءهم ، ثم اعتقلوا بأزمور ، فأمر الرشيد بإعدامهم ، فأعدموا وحزت رؤوسهم ، وأودعت فى سفط وضع فوق جمل ، أركب عليه ابن وقاريط وأرسل إلى مراكش على تلك الحالة . فلما وصل إلى الحضرة ، احتاط به الناس ، وأخذوا فى لعنه ، ثم أودع السجن ، وأعدم بعد أيام قلائل ، وعلقت جثته على باب الشريعة (أواخر سنة ٦٣٥ ﻫ) وبذلك انتهى أمره ، واستراح الرشيد من خصم من أخطر خصومه ، وأشدهم عناداً وجلداً[1] .

وفى العام التالى (٦٣٦ ﻫ) ، وصلت إلى الرشيد بيعة محمد بن الأحمر صاحب غرناطة ومالقة ، وكان ابن الأحمر ، يتردد فى الطاعة بين الانضواء تحت طاعة ابن هود ، والخلافة الموحدية والخلافة العباسية ، وقد لبث يدعو للرشيد وللخلافة الموحدية ، حتى وفاة الرشيد فى سنة ٦٤٠ ﻫ .

وحدث فى هذا العام أيضا — ٦٣٦ ﻫ — أن خرج ببلاد السوس ثائر يدعى بابن ياوجى ، وامتنع بحصن تيوينوين ، والتف حوله كثير من الناس ، وانضم إليه عرب المعقل ، فدس إليه أبومحمد بن أبى زكريا والى السوس رجلا من جزولة ، استطاع أن يدخل الحصن وأن يقتله ، ثم قطع رأسه وحمل إلى مراكش ، وبذلك أخمدت ثورته فى مهدها ، وقد عرف حصن تيوينوين هذا من قديم ، بأنه كان دائماً مركزاً للشقاق والعصيان ، وبه خرج من قبل أبو قصبة ، ثم ثار به ابن الفرس وامتنع به حتى اغتيل وقتل[2] .

وفى سنة ٦٣٧ ﻫ ، وقعت بسبتة وأحوازها مجاعة عظيمة ، واشتد القحط والغلاء ، وسمى هذا العام « عام سبعة » وكان ذلك من جراء الفتن المتوالية ، التى عصفت بالمناطق الغربية ، ومن جراء الشرق وقلة الأمطار حتى عدمت الموارد ،

(١) البيان المغرب ص ٣٤١ و٣٤٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٤٤ .

وهلكت الزروع ، وتفاقم الضر بعيث طوائف العرب ، ولاسيما عرب رياح ، فى أحواز مكناسة ، وفاس ، ونشوب المعارك المتوالية بينهم وبين زناتة ، وأحيانا بينهم وبين بنى مرين . وقد أوقع بهم بنو مرين ومزقوا جموعهم ، واستولوا على أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وكان بنو مرين يجوبون عندئذ سائر الأقطار الغربية ، ويفرضون سلطانهم ، على معظم القبائل والطوائف النازلة فى تلك الأنحاء ، ويقمعون أهل الشر والفساد ، من العرب وغيرهم ، ممن يعيثون فى تلك المناطق فساداً ، حتى أمنت السبل ، واستقامت الأمور ، وعلت كلمة بنى مرين وهيبتهم ، ودخل الناس فى طاعتهم ، وأخذوا فى جباية الضرائب والمكوس ، فاتسعت أحوالهم ، وقويت شوكتهم ، وغلب لديهم الرخاء والنماء[1] .

وقد سبق أن تناولنا نشأة بنى مرين ، وخروجهم من منازلهم القفرة بوادى ملوية ، إلى أنحاء المغرب ، وما وقع بينهم وبين الموحدين ، أيام يوسف المستنصر من المعارك ، وكيف أنهم وصلوا فى زحفهم داخل أنحاء المغرب حتى أحواز فاس ، وكيف أنه لم ينقذ الدولة الموحدية يومئذ من خطر تقدمهم الداهم ، سوى ما وقع بينهم من الشقاق الداخلى . وقد لبث بنو مرين فى تلك الفترة التى اشتغلت فيها الخلافة الموحدية بحروبها الداخلية ، يعملون على توطيد مركزهم ، وتوسيع سلطانهم ، والاندفاع غربا داخل أقطار المغرب ، حتى أنهم فرضوا الإتاوة على مكناسة وغيرها من البلاد المجاورة ، وكان أميرهم فى الوقت الذى نتحدث عنه ، هو أبو سعيد عثمان بن عبد الحق ، ولم يكن الرشيد غافلا عن خطورة حلول بنى مرين فى تلك المنطقة الهامة من مناطق المغرب ، ولكنه نظراً لازدياد قوتهم ، كان يؤثر مصانعتهم وعقد السلم معهم .

ولما دخلت طنجة وسبتة فى طاعة الرشيد ، واستقامت الأمور نوعا فى أواخر سنة ٦٣٥هـ ، عين الرشيد لولاية المناطق الغربية أبا محمد عبد الله بن وانودين . وكان ابن وانودين من خيرة زعماء الموحدين ، وكان يمت إلى بيت الخلافة بصلة المصاهرة ، إذ كان متزوجاً بالسيدة بنت يوسف المستنصر ، وكانت له بذلك مكانة فى الدولة . وكان قد وزر ليحيى المعتصم ، ثم تركه ولحق بخدمة الرشيد ، فولاه بلاد درعة فى سنة ٦٣٢ هـ ، ونجح ابن وانودين أثناء ذلك فى استخلاص سجلماسة ، من يد أرقم ابن مردنيش حسبما تقدم ، فولاه الرشيد عليها ، ثم عاد إلى مراكش فى سنة ٦٣٤هـ .

---

(١) البيان المغرب ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

ولما عين الرشيد ابن وانودين لولاية الغرب ، عين معه فى نفس الوقت أبا على بن خلاص البلنسى لولاية سبتة ، وعين للنظر على دار الصناعة أبا زكريا ابن مزاحم الكومى . وخرج ابن وانودين من مراكش فى عسكر كبير ، من الموحدين والمطوعة والعرب ، وفوض له الرشيد النظر فى أحوال البلاد ، فسار أولا إلى بلاد غمارة ، لينظر فى شئونها ، فثارت عليه بعض قبائلها ، وكان عدد من هذه القبائل قد دخل فى طاعة بنى مرين . وكان الرشيد يعتمد على فطنة ابن وانودين ، ولباقته فى معالجته الأمور مع بنى مرين بالكياسة والحسنى ، وقد بعث معه بعض أحمال من الكسى الفاخرة برسم بنى عبد الحق وأشياخ بنى مرين ، ولكن ابن وانودين ماكاد يصل إلى مقربة من أحيائهم ، حتى بادرهم بالخصومة والعداء ، وطالبهم برد الفارين إليهم من بنى غمارة ، فرفضوا ، ووقع النزاع بين الفريقين ، وانتهى إلى القتال بينهما ، فأغار بنو مرين على محلة ابن وانودين ، وقتلوا جملة كبيرة من أجناده ، وعلم الرشيد بما حدث ، فأمره بالاستقرار فى تلك المنطقة ، تحوطا لحركات بنى مرين[1] .

واستمر أمر بنى مرين فى تقدم ، وأطاعتهم معظم القبائل فى تلك المنطقة ومنها هوارة وتسولة ومكناسة ، وصالحتهم بعض المدن على أموال معلومة ، يؤدونها فى كل عام ، وكان منها فاس ومكناسة ورباط تازا وغيرها . وكان بنومرين يرون ، بعد أن ضعفت الدولة الموحدية ، وعجز الخلفاء الموحدون عن ضبط البلاد ، وخرجت معظم المدن والقبائل عن طاعتهم ، وانتشرت الفوضى فى معظم الأنحاء ، أنهم غدوا أولى بالنظر فى شئون الدين ، وصون مصالح المسلمين ، وحمايتهم من العدوان والفوضى[2] .

وفى سنة ٦٣٧ هـ ، وقيل فى محرم سنة ٦٣٨هـ (١٢٤٠ م) قتل أمير بنى مرين أبوسعيد عثمان بن عبدالحق ، اغتاله فتى من علوجه رباه صغيراً ، ثم هرب هذا العلج إلى ابن وانودين . وقيل عندئذ أن ابن وانودين هو الذى حرضه على ارتكاب جريمته[3]. فخلفه فى رياسة بنى مرين أخوه الأمير أبو معرف محمد ابن عبد الحق . فأطاعه بنو مرين ، ولكن خالف عليه أبناء عمومته بنو حمامة ، وعاد

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٠ و ٣٥١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٩٢ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٥١ ، وروض القرطاس ص ١٩٢ ، والذخيرة السنية ص ٦٢ .

الشقاق القديم بين بنى حمامة وبنى عسكر يمزق صفوفهم . وبعث ابن وانودين ، بقلم كاتبه أبى الحسن السرقسطى إلى الرشيد ، يعرفه بما تقدم من شئون بنى مرين ، وقد اغتر ابن وانودين بما حدث بينهم من شقاق ، وأظهر المودة لبنى عسكر وتحالف معهم ، ونهض معهم بالفعل إلى مقاتلة بنى عبد الحق (بنى حمامة) ، والتق الفريقان على مقربة من سلفات ، وخسر كل من الفريقين قتلى ، وارتد ابن وانودين مع الموحدين وبنى عسكر ، ونزل بظاهر مكناسة ، واشتد فى معاملة أهلها ، وفرض عليهم المغارم الفادحة ، لأنهم كانوا يدينون بطاعة بنى عبد الحق ، ثم سار إلى فاس ففعل بها مثل ماتقدم ، ثم عاد إلى مكناسة ،ونزل على مقربة من جبل زرهون الواقع فى شمالها ، ففر منه الناس فى مختلف الأنحاء[1] .

واجتمع بنو مرين حول أميرهم محمد بن عبد الحق ، وانضمت إليهم حشود من زناتة ، وغيرها ، وساروا إلى مقربة من مكناسة واصطدموا هنالك بقوة من النصارى (الروم) كان ابن وانودين قد بعثها لحراسة تلك المنطقة ففتكوا بها ، وعندئذ وضع ابن وانودين خطة لمهاجمة بنى مرين ، وسار فى قواته من الموحدين والعرب وبنى عسكر ، وتأهب بنو مرين للقائه . ونشبت المعركة بين الفريقين على قيد نحو ثمانية أميال من مكناسة ، فقاتل بنو مرين بعنف وشجاعة ، وفتكوا بالموحدين وحلفائهم ، وحقت الهزيمة الفادحة على ابن وانودين ، ومزق عسكره ، من العرب وبنى عسكر ، فلجأ ابن وانودين إلى مكناسة ، وامتنع بها . واستولى بنو مرين على محلته ، وسائر ما فيها من المتاع والدواب ، ثم غادر ابن وانودين مكناسة فى جملة من الخيل ، ومعه ابنه أبو زكريا ، وقصد إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير) حيث لحق هنالك بأسرته وامتنع به .ووقعت هذه الحوادث فى أواخر سنة ٦٣٧ هـ[2] .

وكانت هزيمة ابن وانودين على هذا النحو ، ضربة جديدة للخلافة الموحدية وكسبا جديداً لبنى مرين زاد فى قوتهم وفى هيبتهم ، وامتد سلطانهم بذلك إلى جهة القصر الكبير ، ومن فيها من عرب رياح ، ودخل فى طاعة الأمير محمد بن عبد الحق ، من تخلف من قبائل بنى مرين ، وسائر قبائل غُمارة وغيرها ، وأصبح

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٢ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٥٣ .

بنو مرين يتجولون فى تلك الأنحاء سادة أحراراً ، وجنح الرشيد إلى مهادنتهم ، ومصانعتهم ، وكانت بينه وبينهم مراسلات ودية .

وعلم ابن وانودين وهو فى ملجئه بقصر عبد الكريم ، أن كثيراً من أهل البلاد التى كانت تحت حكمه ، قد كتبوا فى حقه إلى الرشيد ، وشكوا مما كان ينزله بهم من المظالم ، واتهموه بأنه كان يقصد أن يحذو فى منطقته حذو بنى حفص ، وأن يستقل بحكمها ، وأن الرشيد قد صدق هذه الاتهامات ، فغادر قصر عبد الكريم ، وقصد إلى جبال الموحدين ، وسار ليلا ونهاراً حتى وصل إليها ، بالرغم من مطاردة بنى مرين ، وبقى لاجئاً إليها ، حتى نمى إليه أن الرشيد ، تحقق فى النهاية من براءته مما نسب إليه ، فعاد إلى مراكش ، وأكرم الرشيد وفادته .

وفى سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١ م) ، بطش الرشيد بوزيره وكاتبه أبى حفص ابن المومنانى ، وكان من أكابر الدولة وأعلام الكتاب ، وله عند الرشيد حظوة ومكانة رفيعة . ولكنه ارتكب زلة خطيرة حينما وجه خطابا خاصاً إلى صديقه السيد أبى حفص عمر بن عبد العزيز بن المنصور ، يهنئه فيه باسناد إحدى الولايات إليه ، ويقول له فى خطابه إنها « إنشاء الله ابتداء الخلافة » ، وأخطأ الرسول ، ودفع الخطاب إلى أهل القصر ، فوقع فى يد القائد أبى المسك ، ودفعه أبو المسك إلى الرشيد ، فلما وقف عليه الرشيد ، أمر من فوره بقتل المومنانى والسيد أبى حفص ، فنفذ أمره فى الحال وهلك الرجلان ضحية عبارة طائشة[1] .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر على ذلك الحادث الدموى ، حتى هلك الرشيد نفسه . ذلك أنه خرج ذات يوم للتنزه فى إحدى الرياض التى كان قد أنشأها بجوار القصر ، وكانت توجد فى تلك الروضة بحيرة صغيرة ، أو صهريج وفقا لوصف المؤرخ ، فنزل فى هذه البحيرة مع بعض جواريه فى زورق برسم التنزه ، فانقلب الزورق بمن فيه ، وغرق الرشيد ومات لوقته ، وقيل إنه انتشل محموما من الماء ، وحمل إلى القصر ، وهنالك توفى بعد ثلاثة أيام . وكان غرق الرشيد فى يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ (٢ديسمبر سنة١٢٤٢م) فإذا أخذنا بالرواية الثانية ، فتكون وفاته فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة الموافق ليوم ٥ ديسمبر . وفى رواية ثالثة ينقلها إلينا ابن عذارى عن مصادر مسندة عن حاجب الرشيد ، أن الرشيد نزل بزورقه فى الصهريج فى ليلة باردة ،

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

ثم خلع عمامته ، فلما أزالها أصابته نزلة شديدة ، فأخرج من الزورق ، وحمل إلى قصره حيث توفى ، فى يوم الجمعة العاشر من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ[١] .

وكان الرشيد حينما توفى فى الرابعة والعشرين من عمره ، وقد استطالت خلافته أكثر من عشرة أعوام .

• • •

وكان الرشيد ، كأبيه الخليفة المأمون ، يتمتع بطائفة من الخلال القوية اللامعة ، من الذكاء والجرأة ، وحدة النفس ، وقوة العزم ، وبعد النظر ، ولو لم ترغمه الحوادث على أن ينفق أعوامه العشرة فى مقارعة خصومه ، والدفاع عن عرشه ، لكان لنا أن نتوقع منه خططا وأعمالا إنشائية أخرى ، ربما كان لها أثرها فى إنقاذ الدولة الموحدية ، وإطالة حياتها . بيد أنه تولى العرش وحكم فى ظروف سيئة ، وكانت التيارات الخصيمة ، قد سارت قدما فى تقويض هيكل الدولة الموحدية ، وتحطيم أسسها ، ولم يكن باقيا منها سوى شبح باهت ، يرتكز من الناحية المادية ، على رقعتها الجنوبية . وكان من أهم ماعمله المأمون لتقوية الدولة من الناحية المعنوية ، هو استدعاء بقية الزعماء الموحدين إلى مؤازرته ، بعد أن بطش بهم أبوه ، ومزق شملهم ، ولو أنه اضطر فى سبيل ذلك إلى إعادة العمل برسوم المهدى الدارسة .

وقد وزر للرشيد ، السيد أبو محمد عبدالله بن أبى سعد بن المنصور ، وأبو زكريا بن أبى الغمر ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الجنفيسى ، وأبو على بن أبى محمد عبد العزيز ، وذلك بالتعاقب ، ثم تولى الجنفيسى مرة أخرى ، وبالرغم من أن الرشيد لم يكن كأبيه المأمون أديبا ولا كاتبا ، فقد استخدم لكتابته ، عدة من أعلام كتاب العصر المغاربة والأندلسيين ، مثل أبى زكريا الفازازى ، وأبى عبد الله القباجى ، وأبى عبد الله ابن أبى عشرة ، وأبى عبد الله الفازازى ، وأبى المطرّف ابن عميرة المخزومى ، وأبى الحسن الرّعينى ، وأبى عبد الله التلمسانى . وكان من هؤلاء من كتب لأبيه من قبل مثل أبى زكريا الفازازى ، وأبى المطرف بن عميرة ، وأبى الحسن الرعينى .

وتصف الرواية الرشيد ، بأنه كان فى أزهر اللون ، أشقر ، كث اللحية ، حسن القد ، فى وجهه نمش يسير[٢] .

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٨ . وفى روض القرطاس (ص١٧١) والذخيرة السنية (ص٦٤) أن وفاة الرشيد كانت فى يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة .

(٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ .

الفصل الثانى

عصر الخليفة أبى الحسن على السعيد

مبايعة الخليفة ، أبى الحسن على السعيد . شخصيته القوية . وزراؤه وكتابه . مطاردته لخصومه . مصانعته لعرب الخلط وغيرهم . عنايته بأمر الروم . خروج الخزرجى بسجلماسة . تلمسان والمغرب الأوسط . بطون زناتة الخارجة على الموحدين . استيلاء يغمراسن زعيم بنى عبد الواد على تلمسان . يقيم بها إمارة مستقلة . خصومته لبنى مرين وبنى حفص . علائقه الودية ببلاط مراكش . توجس الأمير أبى زكريا من ذلك . تأهبه لغزو تلمسان . محاصرته لها . فرار يغمراسن واستيلاء أبى زكريا على تلمسان . ستدعاؤه ليغمراسن وتأمينه وتعيينه لولايتها . اهتمام الخليفة السعيد بأمر سجلماسة . فرار بعض أشياخ الموحدين والتجاؤهم إليها . مسير السعيد إلى درعة . مخاطبته لأشياخ سجلماسة ووعوده لهم . سعى أبى زيد بن زكريا الجدميوى لرد المدينة إلى الطاعة . نجاحه فى ذلك بمداخلة الجند النصارى . القبض على الخزرجى واعدامه . خلع سبتة وإشبيلية لطاعة الخلافة الموحدية ومبايعتهما لأمير إفريقية . خروج السعيد لمقاتلة بنى مرين . هزيمة بنى مرين ومصرع أميرهم . رواية أخرى عن حركة السعيد وعلاقته الودية ببنى مرين . قبض السعيد على ابن وانودين والوزير ابن عطوش وغيرهم . إعتقالهم بأزمور . فرار ابن وانودين والتجاؤه إلى جبل هنتاتة . ما تدلى به محنته من اضطراب البلاط الموحدى . خروج كانون زعيم عرب سفيان وتحالفه مع بنى مرين . تأهب السعيد للحرب . مسيره فى قواته صوب تامسنا . القتال بينه وبين بنى مرين وحلفائهم . هزيمة بنى مرين ومسيرهم نحو الغرب . مسير عرب سفيان لمهاجمة أزمور . مسير السعيد إلى مطاردتهم . مهاجمة السعيد لهم وتمزيقهم . فرار كانون فى فلوله . تولى الأمير أبى يحيى لزعامة بنى مرين . خروج بنى عسكر عليه . تحالفهم مع الموحدين ثم نكثهم . محاولة السعيد لاستمالة يغمراسن وفشل محاولته . محاصرة بنى مرين لمكناسة . ثورة أهلها على الموحدين . إقناع بنى مرين لزعيمها أبى العافية بمبايعته أمير إفريقية . صدى هذه الحوادث فى البلاط الموحدى . ماأصاب الدولة الموحدية من التمزق . أهبة السعيد لتدارك الموقف . عود عرب سفيان وغيرهم من العرب إلى الطاعة. مسير السعيد فى حشوده صوب وادى ملوية . نزوله قبالة بنى مرين . توجس بنى مرين وإيثارهم للسلم . نزولهم عن البلاد التى احتلوها . عقد الصلح بين الفريقين . مسير السعيد إلى مكناسة . خروج أهلها إليه والتماسهم العفو. العفو عنهم وتأمينهم . بيعتهم الجديدة . مسير السعيد إلى فاس ثم تلمسان . مشروع السعيد فى استردادها ثم محاربة أمير إفريقية . التقرب بين صقلية وبين الموحدين . استدعاء السعيد ليغمراسن ورفض يغمراسن الحضور . فراره والتجاؤه إلى تامزجدرت . مسير السعيد لمطاردته . سلوكه شعب الجبال . خروج كمائن بنى عبد الواد عليه . مصرعه ووزيره . تمزق قوى الموحدين وارتداد فلولهم إلى مراكش . السعيد وعزمه وخلاله . صفته .

فى نفس اليوم الذى توفى فيه الرشيد ، وهو يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ، تم اختيار الخليفة الجديد ،

وهو أبو الحسن على بن أبى العُلا إدريس بن يعقوب المنصور ، وهو أخو الخليفة الراحل . وكان أكابر الدولة ، وأشياخ الموحدين ، قد اتجهوا أولا إلى اختيار ولد الخليفة المتوفى الصبى ، فاعترض بعضهم على ذلك ، وقالوا سئمنا خلافة الصغار ، ولم يلتفت الجماعة فى البداية إلى أبى الحسن على ، أخى الخليفة ، لأنه كان أسود ، شديد السواد ، ولد جارية نوبية ، ولكن أبا محمد بن وانودين كبير أشياخ الموحدين ، نهض فبايع السيد أبا الحسن ، وكان موجوداً ضمن السادة من القرابة ، وأقعده فى مجلس الخلافة ، فتتابع فى أثره القرابة والأشياخ ، وبايعوه ، وبذا تم اختياره لكرسى الخلافة[1] .

وتلقب الخليفة الجديد بالسعيد ، وبالمعتضد بالله ، ولكن غلب عليه اللقب الأول . وكان اختيار أبى الحسن للخلافة أمراً موفقاً ، فقد كان بشخصيته القوية ، وعزمه ، وسطوته ، أقوى رجل فى الدولة ، وكان وجوده فى كرسى الخلافة فى تلك الظروف العصيبة ، التى تجوزها الدولة الموحدية ، من العوامل المطمئنة المشجعة ، الباعثة على الاستبشار والأمل .

واستوزر السعيد ، السيد أبا اسحق بن أبى ابراهيم ، وأبا زكريا بن عطوش ، وأبقى فى منصب الكتابة ، الكاتبين البليغين ، أبا الحسن الرعينى ، وأبا عبد الله التلمسانى .

وكان أول عمل قام به السعيد ، هو أن قبض على جملة من أشياخ الموحدين ، المعارضين لبيعته ، وسجنهم ، وأغرمهم أموالا ، وسجن كذلك أم أخيه الرشيد ، حبابة الرومية وأغرمها أموالا ، وذلك اتقاء لشرها ودسائسها ، ثم أخذ فى مصانعة عرب الخُلط ، واستدعى طوائفهم من بلاد السوس وغيرها ، وقربهم ، وأغدق عليهم صلاته ، وكذلك استدعى زعماء العرب ، من جشم وغيرهم ، ليستظهر بهم ، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون من أوثق حلفائه ، ولم ينس كذلك أمر المرتزقة ، وهم فرقة الجند « الروم » التى جلبها معه أبوه المأمون ، فعنى بأمرهم أشد عناية ، وكانوا يقيمون بكنيستهم التى بنوها فى العاصمة الموحدية ، ويشتركون فى سائر حملات الخليفة الحربية[2] .

وفى بداية عهده خرج عليه عبد الله بن زكريا الهزرجى بسجلماسة ، وكان

---

(١) البيان المغرب ص ٣٥٨ و ٣٥٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٥٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

من المعارضين لبيعته ، ودعا للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد حدثت بالمغرب الأوسط حوادث مقلقة حول تلمسان . وكانت تلمسان ، كإفريقية ، قد خرجت عن سيادة الموحدين ، وقام على رياستها زعيم بنى عبد الواد القوى يَغْمُراسن بن زيان . ويجدر بنا أن نشرح ظروف هذا التحول فى مصاير تلمسان . وذلك أنه على أثر غزوات ابن غانية للمغرب الأوسط وأحواز تلمسان ، وتخريبه لهذه النواحى ، نهضت قبائل زناتة الخارجة على الموحدين ، وفى مقدمتهم بنو عبد الواد ، وبنو راشد ، وبنو توجين ، ونفذوا إلى أحواز تلمسان والمغرب الأوسط ، وكانت أمصار المغرب الشرقية ، قد خربت من جراء غزوات ابن غانية ، فلم تجد قبائل زناتة ، الضاربة فى المغرب الأوسط أمامها من الحواضر الغنية سوى تلمسان ، تعيث فى أحوازها ، وتقوم بأعمال النهب والسلب المستمرة . وكان الموحدون قد عنوا بتحصين تلمسان ، وتشييد أسوارها ، حتى غدت من أمنع أمصار المغرب ، ولكن ذلك لم ينجها من قدرها المحتوم . وكان آل زيان من بنى عبد الواد من أقوى وأبرز بطون زناتة المغامرة ، وكانت منازلهم تقع فيما بين البطحاء ووادى ملوية غربى تلمسان ، وكان زعيمهم يَغْمُراسن بن زيّان بن ثابت من أشد زعماء هذا الحى بأسا ، وأعظمهم مكانة ، وقد تولى رياسة قومه منذ سنة ٦٣٣ هـ ، وانضم إليه بنو مظهر وبنو راشد الخارجان من قبل على قومه ، ولم يجد يغمراسن صعوبة فى الاستيلاء على تلمسان ، وانتزاعها من حاميتها الموحدية الضعيفة ، فجعل منها قاعدته ، وجند الجند وتزيا بزى الإمارة ، ومحا آثار الدولة المؤمنية ، ولم يترك من رسومها سوى الدعاء للخليفة بمراكش ، ووفد عليه من الأندلس لفيف كبير من شرقها ، وعلى رأسهم ابن وضّاح ، فأكرم وفادتهم ، وقرب ابن وضاح وقدمه للشورى ، ووفد عليه أيضاً أبو بكر بن خطاب وكان كاتبا بليغا ، وشاعراً جزلا ، فعينه لكتابته ، ولاسيما فى مخاطبته للخلفاء الموحدين ، وأمراء تونس. وكان يغمراسن يتحرز من نيات بنى عبد المؤمن وبنى حفص ، وكذلك من أطماع بنى مرين ، وكان بينه وبينهم وقائع متعددة (١). ولكنه كان يرتبط مع البلاط الموحدى برباط المودة ، وكان الرشيد يحبوه بصداقته ، ويهاديه حتى لاينحرف إلى محالفة بنى مرين ،

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ .

وكان عند جلوس الخليفة السعيد ، قد بعث إليه بهدية من الخيل العتاق ، وكتب إليه يعاهده على قتال بنى مرين ، فلما وقف الأمير أبو زكريا ، أمير إفريقية على ذلك ، خشى أن يعقد السلم كذلك بين يغمراسن وبنى مرين ، ثم يقع التحالف بين الثلاثة على محاربة إفريقية ، ورأى أن يبادر بالعمل لإحباط مثل هذه الخطة ، ووفد عليه عندئذ بعض زعماء زناتة ، وشجعوه فى مشروعه ، لغزو تلمسان وأخذها ، وجمع كلمة زناتة بذلك ، والتمهيد لخطته فى الاستيلاء على ملك الموحدين . وقام الأمير أبو زكريا بأهبات عظيمة ، وسار إلى تلمسان فى جيش ضخم ، ومعه عدد وافر من الرماة ، وضرب حولها الحصار (أواخر سنة ٦٣٩ هـ) وضربها الرماة بشدة ، فأدرك يغمراسن أنه لا أمل فى المدافعة ، وخرج من تلمسان فى أهله وخاصته ، فلما اعترضه الجند المحاصرون فتك بهم ، وشق لنفسه طريقا ، ولحق بالصحراء ، ولجأ إلى جبل قريب ، ودخل أبو زكريا تلمسان ، وعفا عن أهلها ، ولما بحث مع خاصته من الموحدين ، فى أمر من يوليه عليها ، أشاروا عليه بتقديم يَغْمُراسن ، باعتباره أصلح من يقوم بأمرها ، فاستدعاه ، وأمنه ، وولاه عليها وعلى أعمالها ، وفق عهود وشروط معينة ، وذلك لكى تغدو حاجزاً بين مملكة إفريقية ، وبين شمال المغرب ، حيث أخذ سلطان بنى مرين ينمو بصورة مزعجة ، وكان ذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤٠هـ (أوائل ١٢٤٣ م)(١) .

وعنى الخليفة السعيد أولا بأمر سجلماسة ، وكان واليها الثائر يدعو بها للأمير أبى زكريا الحفصى ، ويستجلب إليه العرب من كل صوب ، وقد فوض إليه الأمير أبو زكريا الأمور ، ووعده بالعون والإمداد ، وكان جماعة من أشياخ الموحدين ، ممن خشوا بطش السعيد وغدره ، يعتزمون الفرار والالتجاء إلى سجلماسة ، وكان السعيد قد خرج عندئذ فى قواته من مراكش ، ونزل فى وادى تانسيفت على مقربة منها ، واستطاع الفرار من أولئك الأشياخ ، أبو زيد عبدالرحمن ابن زكريا الجدميوى ، وابن واجاج ، وأبو سعيد العود الرطب الهنتاتى ، ولكن قبض على أبى عثمان سعيد أخى أبى زيد ، وهو زعيم حركة التقرب الموحدى من الخلافة ، وأمر السعيد بقتله ، بعد أن استصفى سائر أمواله بمراكش . ولحق الزعماء الفارون بسجلماسة بعد جهد ومشقة ، ونزلوا فى كنف واليها الثائر ، وسار

(١) ابن خلدون ج٦ ص ٢٥٧ و ج ٧ ص ٨١ ، والبيان المغرب ص ٣٦١ و ٣٦٢ ، والذخيرة السنية ص ٦٤ و ٦٥ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ٢١ .

أبو سعيد الهنتاتى إلى تونس ، فتلقاه أميرها بترحاب وإكرام[1] .

وكان والى سجلماسة عبد الله بن زكريا الهزرجي بجد عندئذ فى الحركة والأهبة للمدافعة ، والامتناع بمدينته الحصينة ، وكان السعيد من جانبه ينوى أن ينكل بالثائر ، وأن يسحق حركته ، لتكون عبرة لأمثاله ، فسار فى قواته إلى درعة ، فبعث إلى أشياخ سجلماسة بظهير يعدهم فيه بالاعتناء والتكريم ، وعندئذ رأى أبو زيد بن زكريا الجدميوى فرصة سانحة للعمل والعود إلى الطاعة ، فداخل قواد النصارى بالمدينة ، وقام النصارى بالضغط على العرب ، من حراس باب القصبة ، واستطاع أبو زيد أن يدخل القصبة مع أشياخ سجلماسة ، وأن يشحنها بالرماة والحماة ، وفى الحال بعث إلى السعيد ينبئه بما حدث ، فشكره السعيد أجزل الشكر ، وعفا عنه ، وحظى لديه ، وقبض فى تلك الأثناء على عبد الله بن زكريا ، وساقه بعض العرب مصفدا إلى السعيد ، فأمر بإعدامه ، وأعدم بالرغم مما بُذل لإنقاذه من شفاعة وضراعة ، وحمل رأسه وعلق على باب الكحول بمراكش . وعاد السعيد إلى الحضرة ، دون أن يدخل سجلماسة ، وذلك فى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م)[2] .

ووقعت عندئذ حوادث أخرى تدلى بتفكك الدولة الموحدية ، وتصدع هيبتها ، ومن ذلك ما عمد إليه أبو على بن خلاص البلنسي والى سبتة ، من خلع طاعة الدولة الموحدية ، وماعمد إليه أيضاً أهل إشبيلية بالأندلس ، حيث خلعوا كذلك طاعة الدولة الموحدية ، وذلك بتوجيه زعيمهم أبى عمرو بن الجد ، واتجهت المدينتان سبتة وإشبيلية إلى مبايعة صاحب إفريقية ، الأمير أبى زكريا الحفصى ، وبعثت إشبيلية بيعتها إلى تونس مع وفد من كبرائها ، وكذلك بعث ابن خلاص ولده ببيعته فى سفينة خاصة ومعه هدية للأمير الحفصى ، فغرقت السفينة بمن فيها ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه من قبل ، أضف إلى ذلك ماكان من تقدم الدعوة المرينية فى شمال المغرب ، وزحف بنى مرين باضطراد داخل الأقاليم المغربية .

ومن ثم فقد خرج السعيد فى نفس العام — ٦٤٢ هـ — من مراكش مرة أخرى قاصدا إلى الأقاليم الغربية ، ومعه حشود المصامدة والعرب والروم ،

---

(١) البيان المغرب ص ٣٦٣ و٣٦٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

فى جيش ضخم ، تقدره بعض الروايات بعشرة آلاف فارس ، والبعض الآخر بأكثر من عشرين ألفا . وهنا تختلف الرواية ويحيق الغموض بما تلا من تحركات السعيد، ذلك أنه يقال تمشياً مع هذه الرواية ، أن السعيد زحف نحو بنى مرين ، واستعد بنو مرين بقيادة أميرهم أبى معرّف محمد بن عبد الحق للقاء الموحدين ، ووقع اللقاء بين الفريقين بموضع من أحواز فاس يسمى « أغلان » فنشبت بينهما معركة عنيفة ، واستمر القتال حتى دخل الليل ، وكان أمير بنى مرين يتقدم جنده ، فقصد إليه فارس من فرسان الروم يدعى خوان جايتان ، وطعنه بحربته فسقط صريعاً ، وانكشف بنو مرين ، وطاردهم الموحدون فلحقوا بجبال غياثة على مقربة من أحيائهم ، فامتنعوا بها ، واختاروا للولاية عليهم مكان أميرهم القتيل ، أخاه أبا يحيى أو أبا بكر بن عبد الحق ، وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٦٤٢ هـ (أواخر ١٢٤٤ م)[١] .

هذا ما يقوله لنا صاحب الذخيرة السنية وابن خلدون ، ولكن توجد ثمة رواية أخرى هى رواية ابن عذارى ، وهى أن السعيد حينما خرج فى سنة ٦٤٢هـ، إلى الأقاليم الغربية ، قصد أولا إلى مدينة فاس ، وأقام بها أياما ، نظر فى شئونها وعزل بعض عمالها وعين آخرين غيرهم ، ثم غادر فاس إلى المقرمدة ، ضاحيتها الشرقية مستطلعاً لأحوال بنى مرين وأخبارهم . ثم يقول ابن عذارى أن جو المهادنة كان يسود بين الفريقين ، وأنه وقعت بين السعيد وبين زعيم بنى مرين الأمير أبى يحيى ، مراسلات ودية ، فارتد السعيد أدراجه إلى مركش ، دون أن يعكر صفو السلم بين الفريقين[٢] . فهل يمكن أن يكون الصلح قد عقد بين السعيد وبنى مرين ، عقب هزيمتهم ومقتل أميرهم ، وبذلك يمكن التوفيق بين الروايتين ؟

على أن ما حدث بعد ذلك ، من تصرفات بنى مرين العدائية ، ضد الدولة الموحدية ، مما سوف نذكره بعد ، لا يمكن أن يؤيد هذا الفرض .

وتتمة لأحداث سنة ٦٤٢هـ ، نقول إنه حدث فى هذا العام أيضاً أن أمر السعيد بالقبض على أبى محمد بن وانودين ، وهو كما تقدم قطب أشياخ الموحدين ، وإليه يرجع الفضل فى اختيار السعيد لكرسى الخلافة ، وذلك دون أسباب واضحة ، وقبض معه فى نفس الوقت على أبى زكريا بن مزاحم ، وأبى زكريا بن عطوش ،

---

(١) الذخيرة السنية ص٦٦ و٦٧ وابن خلدون ج ٧ ص١٧١ وكذلك روض القرطاس ص ١٩٣ .

(٢) ابن عذارى فى البيان المغرب ص ٣٦٦ .

وأرسلوا جميعاً إلى أزمور ، فسجنوا بها تحت حراسة قوية ، ولكن ابن وانودين لم يستكن إلى محنته ، وأخذ يدبر الحيلة فى فراره ، حتى أتيح له أن يشترى أحد حراسه ، وأن يفر من السجن بمعاونته وتدبيره ، وخرج من سجنه تحت جنح الظلام ، فقصد إلى منازل عرب سفيان ، فوصلها عند الصبح ، وبعث معه زعيمهم كانون بن جرمون ، لفيفاً من الفرسان ، سار فى صحبتهم ، حتى وصل إلى جبال الموحدين ، ولحق بقومه هنتاتة . ولما علم السعيد بما حدث أمر بضرب رقاب الحراس ، وعلقت رؤوسهم على السور ، كما أمر بالإفراج عن ابن عطوش وابن مزاحم ، وبعث إلى ابن وانودين عشرة من وجوه الموحدين مع خاصته ، فقصدوا إليه بتامزاورت وأبلغوه أسف السعيد لما حدث ، وبزوال ماكان فى نفسه ، فأعرب ابن وانودوين عن شكره للخليفة ، ولكنه تمسك ببقائه فى جباله ، ليعيش بها مع أهله وولده ، فوافق السعيد على مطلبه ، وعاش ابن وانودوين بتيفنوت حتى توفى[1] ، وكانت محنة ابن وانودوين هذه ، مثلا بارزا ، لما كان عليه البلاط الموحدى فى ذلك الوقت ، الذى غرب فيه نجم الخلافة الموحدية ، من اضطرام بمختلف الأهواء العنيفة ، والخيانات المزرية ، التى لايبررها أى باعث معقول أو أية مصلحة عامة .

ثم خرج على السعيد كانون بن جرمون وقومه عرب سفيان ، وعاد إلى طاعته بالعكس عرب الخُلط وبنو جابر . وتحالف كانون مع الأمير أبى يحيى ابن عبد الحق ، أمير بنى مرين ، وحشد بنو مرين حشوداً كبيرة ، فى منطقة الغرب ، واجتمعت حولهم بنو راشد الزناتيين ، وبنو وراو ، وبنو سفيان . وأدرك السعيد خطورة هذه الحركة ، فتأهب للحرب ، ومنح الموحدين والجند بركاتهم وأعطياتهم التقليدية ، واستدعى حشود العرب من بنى جابر والخلط وغيرهم ، وخرج من مراكش فى قوات غفيرة ، وسار موكبه وفقاً للترتيب القديم المأثور لدى بنى عبد المؤمن ، من تعاقب السادات والوزراء والأشياخ ، وكان وزيراه يومئذ أبو زكريا بن عطوش الكومى والسيد أبو اسحق بن أبى ابراهيم . واستخلف على مراكش أخاه أبا زيد ، وندب أخاه أبا حفص عمر واليا لسلا ، واستمر سير الخليفة وجيشه ، على هذا النحو شمالا ، حتى منطقة تامسنا ، وقد اجتمعت هنالك حشود بنى مرين ، تحت إمرة الأمير أبى يحيى ، ومعهم حلفاؤهم الذين

---

(١) البيان المغرب ص ٣٦٨ — ٣٧٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

سبق ذكرهم ، وذلك على مقربة من واسنات ، وقد استعدوا للقتال .

ووقعت المناوشة الأولى بين الطلائع على شرب الماء ، ففتك جند بنى مرين بالمرتزقة النصارى ، فلما علم السعيد بذلك ، أمر بخوض المعركة ، فاضطرم القتال بين الفريقين حتى جن الليل فافترقا . وفى اليوم التالى وقع بين أيدى الموحدين ، عبد من عبيد بنى مرين العارفين بأمورهم ، وأخذ إلى السعيد ، فذكر أن الأمير أبى يحيى قد اتفق مع حلفائه ، على القتال فى يوم معين ، فاستعد السعيد للقتال ، فى اليوم المذكور ، ووقع القتال فيه فعلا ، وضاعف الموحدون جهودهم ، حتى اضطر بنو مرين وحلفاؤهم ، إلى الارتداد ، وقصدوا إلى جهة الغرب . وهمّ السعيد أن يطاردهم فى اليوم التالى ، لولا أن ترامى إليه أن كانون بن جرمون وعرب سفيان ، قد غادروا الميدان ، فخشى السعيد أن تكون هذه الحركة ، موجهة إلى مراكش ، على نحو ماحدث من قبل ، من عرب الخلط ، فترك مطاردة المرينيين ، وسار فى قواته جنوبا صوب مراكش .

ولكن كانون وقومه كانوا قد سلكوا طريقاً آخر ، أقرب وأيسر منالا من الحضرة ، هو طريق أزمُّور ، فسار إليها كانون واستولى عليها ، بمعاونة زعيمها على بن يزيمر التامردى ، ونهبها عرب سفيان وأغرموا أهلها أموالا ، ولاسيما اليهود الساكنين بها ، وكان واليها ابن معنصر الكومى ، قد غادرها ، وسار إلى نحية السعيد بتامسنا . ولما علم كانون برجوع السعيد من قتال بنى مرين ، غادر أزمور فى حشوده ، وسار إلى أحياء دُكالة . ووقف السعيد على وجهته فسار إليه ، ودهمه هنالك ، وفتك بقومه ، وأفنى معظمهم ، وفر كانون فى فله القايل إلى الغرب ، وبعث السعيد برؤوس قتلى سفيان إلى مراكش ، فعلقت على سورها ، ودخل السعيد أزمور ، وعفا عن أهلها وقبض على ابن يزيمر ، وأرسله مصفداً إلى مراكش ، حيث قتل هنالك ، ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه الوقائع ولكن يبدو من المرجح أنها وقعت فى أوائل سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م)[1] .

— ٢ —

لما تولى الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ، زعامة قومه بنى مرين ، كان أول ما فعله هو أن قسم مناطق المغرب ، الواقعة تحت سيادة بنى مرين ، بين القبائل المرينية ، وخص كل قبيلة بناحية منها لاتتعداها ، ثم سار فى أهله وحشمه وجنده

---

(١) البيان المغرب ص ٣٧٠ – ٣٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٥٧ .

فنزل فيما بين سلفات وجبل زرهون ، شمالى مكناسة ، فاضطرمت المنافسة القديمة بين أحيائهم ، وخالف بنوعسكر مرة أخرى على أميرهم ، وانحازوا إلى الموحدين ، فحرضوهم على بنى عبد الحق . واهتم الخليفة السعيد ، بنزول بنى مرين ، على مقربة من مكناسة ، وضغطهم عليها ، فسار فى قواته مرة أخرى إلى فاس ونزل بها ، وهنالك بايعته قبائل بنى عسكر ، وفاوض من جهة أخرى يغمُراسن بن زيّان صاحب تلمسان ، للانضمام إليه ، فقدم عليه فى قوة من الفرسان ، ولكن هذه المحاولة فى جمع خصوم بنى مرين ، انتهت بالفشل ، لأن بنى عسكر عادوا فنكثوا لرفض السعيد أن يطلق سراح رهائنهم ، واضطروا إلى مهاجمته سرية من الحشم والروم ، كان قد أرسلها إليهم مع مولاه عنبر لملاطفتهم ، فقبضوا على أفرادها ، حتى اضطر السعيد ، إلى تسريح رهائنهم . ومن جهة أخرى فقد كان يغمراسن ، زعيما لاتؤمن نياته ، وخططه ، فلم يلبث أن عاد فى جنده إلى تلمسان[1] .

ولما اشتد ضغط بنى مرين على مكناسة ، وقطعوا عنها المرافق والموارد ، ولاح أنها أصبحت رهن مشيئتهم ، ثار بها العامة ، وقتلوا واليها الموحدى ، وداخل الأمير يعقوب بن عبد الحق ، أخو الأمير أبو يحيى ، زعيم مكناسة أبا الحسن بن أبى العافية ، على أن تقوم المدينة بمبايعة الأمير أبى زكريا الحفصى ، وكان بنومرين يومئذ يدينون إسما بطاعته ، فتم الاتفاق على ذلك ، وكتب كتاب البيعة كاتب الأندلس البليغ القاضى أبو المطرّف بن عميرة ، وكان يشغل يومئذ منصب القضاء بمكناسة . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذه البيعة بأكمله ، وهى طويلة ومؤرخة فى يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٤٣ هـ[2] ، فسر أمير إفريقية الحفصى لذلك ، وأقطع ثلث جباية المدينة للأمير يعقوب بن عبد الحق .

وكان لذلك أبلغ وقع فى البلاط الموحدى ، وقد بدا له عندئذ روعته ، لما أصاب الإمبراطورية الموحدية الكبرى من التمزق . فقد خرجت جزيرة الأندلس من حوزة الموحدين ، واستقل بها ابن هود وابن الأحمر ، ثم أخذ يلتهمها العدو المتربص بها . قاعدة فأخرى ، وقد انفصلت إفريقية ، واستقل بها بنوحفص ، وخرجت سبتة عن الطاعة ، وغلب بنو عبد الواد على تلمسان وأحوازها ، وتوغل بنو مرين فى أعماق المغرب ، وغلبوا على معظم أنحائه الغربية ، ثم استولوا

---

(١) الذخيرة السنية ص ٦٨ — ٧٠ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧١ و١٧٢ .

(٢) يراجع نص هذه البيعة فى البيان المغرب ص ٣٧٣ — ٣٧٨ .

على مكناسة ، وهى لاتبعد عن فاس عاصمة الإمبراطورية الثانية ، سوى مسافة يسيرة ، ومن ثم فإنه كان لزاما على الخليفة الموحدى أن ينهض بقوة وعزم ، لتدارك هذا الصدع الذى ينذر بانهيار الدولة كلها . وهذا مافعله السعيد ، فإنه مذ ولى الخلافة ، لم يكن غافلا عن خطورة الموقف ، وكان منذ البداية يرقب الفرصة للعمل ، لإنقاذ الدولة ، من عدوان الخارجين عليها ، وكان الزحف على إفريقية ذاتها ، مما يدخل فى برنامجه ، فاستنفر الموحدين والمصامدة ، وسائر القبائل والروم والأغزاز ، ووافاه كانون بن جرمون فى قومه سفيان ، وكان قد عاد إلى الطاعة ، ووافته جشم وغيرها من طوائف العرب ، واجتمعت له حشود عظيمة ، يضيق لها الفضاء ، وخرج من مراكش فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤٥هـ (أبريل سنة ١٢٤٨م) وسار حتى نزل بوادى تانسيفت وقد اهتزت بلاد المغرب لحركته ، وكانت خطته تقضى ، أولا بمحاربة بنى مرين ، وإجلائهم عن أقطار المغرب الوسطى ، ثم السير إلى تلمسان وافتتاحها ، من أيدى بنى عبد الواد ، ثم السير بعد ذلك إلى مقاتلة بنى حفص ، وانتزاع إفريقية منهم . وسار السعيد فى قواته بعد ذلك صوب الشمال الشرقى ، حتى وصل إلى وادى ملوية ورباط تازة ، ونزل قبالة منازل بنى مرين . ولما وقف الأمير أبو يحيى زعيم بنى مرين ، على حركة السعيد ، وشهد بنفسه ضخامة الجيوش الموحدية ، وأدرك أنه لاقبل له بها ، آثر السلم والتهادن ، ونزل له عن البلاد والجهات التى احتلها بنو مرين ، وارتد بحشوده نحو بلاد الريف ، وذلك بعد أن عقد مع السعيد صلحاً ، يتعهد فيه بأن يمده بفرقة من عساكر بنى مرين ، فى حربه ضد أميرى تلمسان وإفريقية(١).

واقترب السعيد بحشوده ، بعد ذلك ، من مدينة مكناسة ، فخرج إليه أهلها ، وقد قدموا أمامهم أولادهم يحملون المصاحف ، والتمسوا إليه العفو والغفران ، مما حدث ، فعفا عنهم وأمنهم . ومما هو جدير بالذكر مايقصه علينا ابن عذارى ، من أن أهل مكناسة ، لما سمعوا عقب عقدهم البيعة لأمير إفريقية ، من تأهب السعيد للحركة نحو بلادهم ، بعثوا إليهم صلحاءهم وعلماءهم ، يعتذرون ويستغفرون ، وبعثوا معهم بيعة جديدة للخليفة السعيد ، مدبجة بقلم الكاتب ابن عبدون ، وهو يورد لنا نص هذه البيعة ، مؤرخة فى تاسع عشر ذى الحجة

(١) الذخيرة السنية ص ٧٦ و٧٧ ، والبيان المغرب ص ٣٨٦ و٣٨٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٢ .

عام ٦٤٣ هـ [1] ، ولاتناقض بين الروايتين :

وتحرك السعيد بعد ذلك إلى فاس ، ونزل فى ظاهرها ، وخرج إليه أشياخها وفقهاؤها يؤدون له التحية ، فأكرم وفادتهم ، ولكنه لم يدخل المدينة . ثم غادر فاس فى التاسع عشر من المحرم سنة ٦٤٦هـ ، وسار متجهاً إلى تلمسان ، حتى إذا ما فرغ من أمرها ، زحف على إفريقية . وكان مما يلقى ضوءاً على مشروع الموحدين نحو إفريقية ، تقربهم من بلاط صقلّية ، وسعيهم إلى التحالف معه . وكان فردريك الأول ملك صقلية ، قد أرسل إلى الرشيد سفارة وهدية ، ولكنه توفى قبل وصولها ، فاستقبلها أخوه السعيد ، وبعث السعيد إلى ملك صقلية بدوره هدية ، وعهد إلى رسله ، بأن يبلغوه رغبته فى معاونته له بأساطيله فى البحر ضد إفريقية [2] . هذا ولما وصل السعيد بحشوده ، إلى مقربة من تلمسان ، وكان من جملة عسكره فرقة من خمسمائة فارس من بنى مرين ، أمده بها الأمير أبويحيى وفقاً لعهوده ، بعث إلى يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، يطلب إليه لقاءه والدخول فى طاعته ، فبعث إليه يغمراسن وزيره الفقيه عبدون ، مؤكداً الطاعة ، ومعتذراً عن قدومه ، وأنه مستعد لأن يرسل إليه جملة وافرة من بنى عبد الواد ليحاربوا تحت رايته . وكان يغمراسن قد غادر عندئذ تلمسان فى أهله وولده وخاصته ، ولجأ إلى قلعة تامزجدرت أوتامجردرت ، الواقعة جنوبى مدينة وجدة ، وامتنع بها ، فألح السعيد فى وجوب مقدم يغمراسن إليه بنفسه . ولما أصر يغمراسن على موقفه ، عول السعيد على مطاردته وقتاله ، فسار إلى قلعة تامزجدرت حيث امتنع ، وكان الوصول إليها خلال شعب وأوعار ضيقة ، قد كمن بها بنو عبد الواد . فأشار على السعيد وزيره ابن عطوش وغيره أن يحذر من سلوك تلك المضايق ، فأبى وأصر على اقتحام القلعة ، وسار فى جانب من قواته ، وأمامه وزيره راجلا ، شاهراً سيفه ، فلما توسط الموحدون تلك الأوعار ، انقضت عليهم ، من الجبل ، كمائن بنى عبد الواد ، بمنتهى العنف ، فقتل الوزير ابن عطوش فى الحال ، وتلاه سيده السعيد فسقط صريعاً من فوق فرسه ، ومزق الموحدون شر ممزق ، وارتدت فلولهم صوب المحلة الموحدية ، فساد بها الرعب والفزع ، وكان الذى قتل السعيد فارس يدعى يوسف بن عبد المؤمن الشيطان ، وكان يكمن أسفل الجبل ، ومن

---

(١) ابن عذارى فى البيان المغرب ص ٣٧٨ و ٣٧٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٨٦ .

ورائه يغمراسن نفسه ، وابن عمه يعقوب بن جابر . ولما سقط الخليفة الموحدى صريعاً ، وقبل أن يلفظ أنفاسه ، انحنى عليه يغمراسن وحياه ، وأقسم له على براءته من مصرعه ، ثم فاضت روح السعيد ، وأمر يغمراسن بتكفينه وغسله ، ثم حمل فدفن بمكان يعرف بالعباد خارج مدينة تلمسان ، وانتهبت محلة السعيد ، واستولى بنو عبد الواد على سائر ما فيها ، وتفرق عسكره أيدى سبا ، وارتدت فلولهم مسرعة إلى مراكش . ووقعت تلك النكبة المروعة فى يوم الثلاثاء آخر صفر سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ يونيه ١٢٤٨ م) (١).

وهكذا هلك الخليفة أبو الحسن على السعيد فجأة ، وبصورة لم يكن يتوقعها أحد ، وهو فى إبان ظفره وطموحه ، وقد كان حريا أن يسير فى قواته الجرارة صوب إفريقية ، وأن يفتتحها ، وقد لاح مدى لحظة أن الخلافة الموحدية ، قد نهضت من سباتها ، وتداركت عثرتها ، وأنها أضحت على وشك الظفر بخصومها ، واسترداد كامل سلطانها ، وكان يبدو أن ما يتصف به السعيد ، من العزم والصرامة وقوة النفس ، كانت كفيلة بتحقيق هذه الغاية الضخمة ، بل لقد بدا أنها بدأت تتحقق بالفعل ، حينما زحف السعيد فى قواته الجرارة للقاء بنى مرين ، وحينما رأى بنو مرين ، وهم أقوى وأخطر خصوم الخلافة الموحدية ، أن ينحنوا أمام عزم السعيد وقوته ، وأن ينسحبوا من معظم الأراضى ، التى كانوا يحتلونها من أنحاء المغرب . ولو أتاح القدر للسعيد فرصته ، ولو لم يسقط صريعا على هذا النحو المفاجىء ، لكانت أمامه ثمة فرصة ، بل فرص سانحة ، لتحقيق برنامجه الضخم ، فى إقالة الدولة الموحدية من عثرتها ، واستردادها لسابق تماسكها ومنعتها .

وتنوه الرواية بعزم السعيد ، وهمته ، وشجاعته ، وتقول لنا إنه كان مهابا ذا إقدام ونجدة فى الحروب ، فاق بها من تقدم من آبائه ، وهذا ماتدلى به فى الواقع أعمال السعيد وحملاته الحربية المتوالية . وتصفه الرواية بأنه كان أسمر شديد السمرة ، تام القد ، معتدل القوام ، سبط الشعر ، مليح العينين (٢).

---

(١) الذخيرة السنية ص ٧٨ ، والبيان المغرب ص ٣٨٧ و ٣٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٥٨ و ج ٧ ص ٨٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٢ ، وهو يقدم إلينا مصرع السعيد فى صورة حادث استكشاف خاص قام به السعيد فى شعب الجبل ، ففاجأته جماعة من بنى عبد الواد ، ومنهم يغمراسن ، فقتلوه .

(٢) روض القرطاس ص ١٧١ .

الفصل الثالث

عصر الخليفة المرتضى لأمر الله

اختيار الخليفة الجديد . مبايعة السيد أبي حفص عمر المرتضى لأمر الله . تصرفاته الأولى . عصره فذير انهيار الدولة الموحدية . أثر مصرع السعيد فى تحرك بنى مرين . استيلاء الأمير أبى يحيى على رباط تازا . زحف أبى يحيى على فاس ومحاصرتها . تسليمها إليه صلحا . مبايعة أشياخها له . دخول أبى يحيى فاس . استتباب الأمن والسكينة . مغادرة أبى يحيى لفاس وخروجه إلى بلاد فازاز . مؤامرة الموحدين لخلع أبى يحيى . مؤازرة الجند الروم لهم . وثوبهم بالوالى المرينى وقتله . إعلانهم بالعودة لطاعة الخليفة الموحدى . عودة أبى يحيى إلى الزحف على فاس . تحرك يغمراسن لأخذ رباط تازا . مسير أبى يحيى لقتاله . هزيمة يغمراسن . عودة أبى يحيى إلى فاس وتشديد الحصار عليها . طلب أهل المدينة العفو والتسليم . موافقة أبى يحيى ودخوله المدينة . القبض على زعماء المؤامرة وإعدامهم. إلزام أهل المدينة برد المال المنهوب . وفاة أبى زكريا الحفصى خلال مسيره للغزو . صفاته وخلاله . صدى وفاته فى موقف الأقلية المسلمة بصقلية . أحوال هذه الطائفة وتلاشيها . الثورة فى سبتة والبطش بالولاة الحفصيين . خلع طاعة بنى حفص وقيام القاضى العزفى فى الرياسة . علاقة الخلافة الموحدية بالكرسى الرسولى . بدء نفوذ النصارى منذ أيام المأمون . قيام الكنيسة بمراكش . تضخم الجالية النصرانية بها . البابا يرسل أسقفاً إلى مراكش وخطابا إلى الخليفة السعيد . حثه الخليفة على اعتناق النصرانية وتخصيص حصون لحماية النصارى . عدم اكتراث السعيد برسالة البابا . الخليفة المرتضى يرسل رده إلى البابا مع الأسقف لوبى . إشارة الخليفة بوحدانية الله وحملته على التثليث . إشارته إلى كتب البابا ، وما يوجبه الخليفة لمنصبه من الإجلال . تنويهه بتكريم اليشب رسول البابا . رجاؤه أن يكون خلفه من ذوى العقل والخلق الراجح . مغزى كتاب الخليفة الموحدى ودلالاته . وفود بعض زعماء بنى مرين المنشقين على المرتضى . تأهبه بتحريضهم لقتال بنى مرين . خروجه فى قوات الموحدين والعرب إلى سلا . الأمير أبو يحيى يكتب إلى المرتضى فى طلب السلم . ضغط الوزراء على المرتضى وجنوحه إلى الحرب . مسيره إلى محلات بنى مرين ونزوله باميلولين . نشوب المعركة بين الفريقين . خدعة شيخ سفيان باذاعة الصلح . أمر المرتضى بالعودة . هجوم المرينيين على مؤخرة الجيش الموحدى وانتهاب عتاده وأمواله . عود المرتضى إلى الحضرة . ثورة والى السوس على بن يدر . عجز القوات الموحدية عن إخضاعه . محاولته الاستيلاء على تارودانت . ارتياب المرتضى فى ابن يونس وأمره باعدامه . توطيد بنى مرين لحكومتهم فى فاس . ما خسرته الدولة الموحدية من أراضيها . إخضاع أبى يحيى لبلاد فازاز . مسيره صوب سلا . المرتضى يدبر مصرع زعماء الخلط . ثورة زعيم بنى جابر والقبض عليه . خروج المرتضى لمحاربة بنى مرين . اللقاء بين الفريقين عند جبل بهلولة . هزيمة الموحدين وفرار المرتضى . الهدوء المؤقت . نية بنى مرين فى القضاء على الدولة الموحدية . افتتاحهم لسجلماسة ودرعة . اشتداد ثورة السوس . فشل الموحدين فى إخمادها . وفاة الأمير أبى يحيى . الانقلاب فى سجلماسة . عود زعيمها القطرانى إلى طاعة الموحدين . موافقة المرتضى ثم تدبيره لمصرعه . الخلاف على وراثة عرش بنى مرين .

خلوص الأمر للأمير أبي يعقوب . افتتاح بنى مرين لثغر سلا ورباط الفتح . تختلف الروايات فى ذلك . خلع يعقوب بن عبد الله للطاعة واستقلاله بسلا . مخاطبته لألفونسو العاشر . ألفونسو يدبر مشروعا لغزو سلا . مقدم السفن القشتالية واعتداؤها الغادر على سلا . اهتمام السلطان أبى يوسف ومسيره إلى سلا . مقاتلته للنصارى وإجلاؤهم . استيلاؤه على سلا ورباط الفتح . انهيار مشروع ألفونسو العاشر . افتداء أسرى سلا . ماكان ينذر به هذا العدوان . سعى المرتضى إلى الصلح مع بنى مرين . خروج أبناء إدريس المرينى بغمارة . استنزالهم واسترضاؤهم . أبو يوسف يرسل حملة لإنجاد الأندلس بقيادة عامر ابن إدريس . احتلالها لمدينة شريش . بداية عون بنى مرين للأندلس . الخلاف بين ابن الأحمر والعزفى . أحوال عرب سفيان والخلط . ترددهم بين طاعة الموحدين وبنى مرين . موقف المرتضى . تدبيره لمصرع الزعماء الناكثين . عود المرتضى إلى التأهب لمحاربة بنى مرين . مسير الموحدين لقتالهم . موقعة أم الرجلين . هزيمة الموحدين وتمزيق صفوفهم . محاولة جديدة لإخماد ثورة السوس وفشلها . حوادث طنجة وسبتة . مسير السلطان أبى يوسف لمحاصرة سبتة ثم عوده . مسير السلطان أبى يوسف إلى مراكش . القتال بينه وبين الموحدين . مصرع ولد السلطان . توقف القتال وتعهد المرتضى بدفع إتاوة سنوية . السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبى دبوس . الوحشة بينه وبين المرتضى . اختلاف الرواية فى تعليل ذلك . فرار أبى دبوس والتجاؤه إلى السلطان أبى يوسف . موافقة أبى يوسف على مشروعه لفتح مراكش . إمداده بعسكر من بنى مرين . مسير أبى دبوس ونزوله بهسكورة . التفاف القبائل حوله . توجس المرتضى ومطاردته لزعيم سفيان وقائد الروم . إنضمام العرب والروم إلى أبى دبوس . مسير أبى دبوس إلى أغمات ثم إلى مراكش . الاضطراب فى المدينة وخلوها من القوات المدافعة . اقتحام رجال هسكورة للسور وفتحهم لباب الصالحة . دخول أبى دبوس المدينة وفرار المرتضى . مسيره إلى أزمور وغدر واليها صهره . مبايعة أبى دبوس بالخلافة وتلقبه بالواثق بالله . خلاله وصفته . وزراؤه . إجراءاته الأولى . نضوب الأموال . كتابه فى ذلك ورد المرتضى . تأثره لمحنة المرتضى . نصح وزيره بالقضاء على المرتضى . إعدام المرتضى . المرتضى وتمام تفكك الدولة فى عهده . صفاته . وزراؤه وكتابه . أدبه وشعره . ابن القطان يؤلف له تاريخه . شخصه . إعتقال أولاده . إطلاقهم والتجاؤهم إلى حماية ملك قشتالة . انتقالهم إلى غرناطة . ولده أبو حمارة . السيد أبو زيد أخو أبى دبوس . التجاؤه إلى ملك قشتالة وتنصره . تأملات عن هذه الظاهرة .

— ١ —

لما لقى الخليفة أبو الحسن السعيد مصرعه فى شعب جبل تلمسان ، فى نهاية شهر صفر سنة ٦٤٦هـ ، ووصل نبأ مصرعه ونكبة جيشه ، إلى مراكش ، كان لذلك أعمق وقع فى البلاط الموحدى ، وبادر السيد أبو زيد ، أخو الخليفة القتيل ووالى مراكش ، فاستدعى أشياخ الموحدين الموجودين بالحضرة ، لبحث الموقف ، واختيار الخليفة الجديد ، فاتجه الرأى أولا إلى اختيار السيد أبى زيد نفسه ، ولكنه امتنع واعتذر ، فاقترح البعض أن يولى السيد أبو حفص عمر والى سلا ، وذلك لعقله وورعه وصيانته ، فوافق الموحدون على ذلك ، وبايعوا السيد أبا حفص فى غيبته ، وتلقى الدعوة نيابة عنه ، أخوه السيد أبو زيد . والسيد أبو حفص عمر هذا ، هو ولد السيد أبى ابراهيم بن الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

أو بعبارة أخرى هو ابن أخ للخليفة يعقوب المنصور ، وعم للمأمون والد السعيد. وكان من قبل والياً لأغمات ، ثم عينه السعيد لولاية سلا ورباط لفتح . وعقدت له البيعة بجامع المنصور ، فى أوائل شهر ربيع الأول ، وحمل كتابها إليه الحاكم ابن أصلماط ، وكان مقبلا من سلا إلى تامسنا، فى طريقه إلى الحضرة ، مع بعض أشياخ الموحدين والعرب ، فتلقى البيعة ، وضربت له فى الطريق قبة ، قرئت فيها البيعة ، وبايعه فيها من حضر، وذاع الأمير بين الناس . ثم نظم لركوبه موكب خلافى ، سار فيه بعض السادة والوزراء والقرابة ، وبعض حشود العرب والخدم، واستمر الموكب فى سيره حتى قرب من العاصمة ، فخرج إليه عندئذ أشياخ الموحدين، ومعهم الخيل والأجهزة والكسى ، والطبل والبنود، فنزل الخليفة أولا بالبحيرة ، ثم دخل الحضرة فى موكبه الفخم ، واجتمعت الناس على طاعته(١).

وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى لأمر الله . وكان كهلا فى نحو الخمسين من عمره، هادئ الطبع ، شديد الورع ،قليل الأطماع .وكان أول ماقام به أن قدم أبا محمد ابن يونس للوزارة، ثم قدم لها أخاه السيد أبا اسحق، عندما وفد إليه من سجلماسة ، وعين يعقوب بن كانون شيخاً لعرب بنى جابر ، وعمه يعقوب بن جرمون شيخاً لعرب سفيان ، وأقر كلا منهما على بلاده . وكان فى مقدمة أعماله أيضاً أن قبض على حاشية السعيد وخدمه ، ولاسيما صاحبه ابن المسك، وسجن الحرّة عزونة أخت السعيد ، واقتضى منها أموالا فادحة(٢) .

وكانت خلافة المرتضى ، التى استطالت نحو تسعة عشر عاما ، هى الفترة القاتمة التى تم فيها تفكك الإمبراطورية الموحدية ، الذى مهدت إليه حوادث الحقبة السابقة ، منذ انسلاخ إفريقية ، وانهيار الأندلس ، واستقلال تلمسان . ثم عجل بوقوعه ، استمرار الحروب الأهلية بين الموحدين من جهة ، واشتداد ساعد بنى مرين من جهة أخرى . وسوف نشهد منذ الآن فصاعداً ، كيف تتساقط أشلاء الإمبراطورية الموحدية الباقية ، واحداً بعد الآخر ، والخلافة الموحدية عاجزة عن أن تتدارك أية ضربة ، من الضربات القاصمة الموجهة إليها.

وقد ترتب على مصرع الخليفة السعيد ، فى الناحية الأخرى ، أعنى ناحية بنى مرين ، نتائج هامة . ذلك أن الأمير أبا يحيى بن عبد الحق أمير بنى مرين ،

(١) البيان المغرب ٣٨٩ و ٣٩٠ ، وروض القرطاس ص ١٧٣ .
(٢) البيان المغرب ٣٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٨ .

ماكاد يقف على مصرع السعيد وتبدد جيشه ، حتى نهض للعمل . وكان قد عقد الصلح مع السعيد وأمده بشطر من فرسانه ، ضد بنى عبد الواد أصحاب تلمسان ، وأعطاه رهائن من قومه ، أودعها السعيد برباط تازا . فلما انتهى السعيد وجيشه الجرار ، سار أبو يحيى فى قواته فوراً صوب تازا ، وكان واليها هو السيد أبو على ، أخو السيد أبى العلا إدريس المسمى بأبى دبوس وهو الخليفة المستقبل ، فبعث إلى أبى يحيى يطلب الاجتماع به ، ولما اجتمعا تعهد أبو يحيى بأن يعمل على صون أهل تازا ، وحمايتهم من كل أذى. وعندئذ غادر السيد أبو على تازا بأهله وولده ومتاعه ، ودخلها أبو يحيى وبنو مرين ، وبايع أهل تازا وسائر أحوازها للأمير المرينى ، وكانت تازا أول مدينة مغربية استولى عليها بنومرين من أيدى الموحدين وذلك فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٦٤٦ هـ (يوليه ١٢٤٨ م)(١).

ولم تمض على ذلك أسابيع قلائل ، حتى وقعت الخطوة الثانية ، فى تقدم بنى مرين داخل الإمبراطورية الموحدية ، وكانت أخطر وأبعد مدى. ذلك أن الأمير أبا يحيى ، ماكاد يرتب شئونه برباط تازا ، ويرتب بها رسوم الإمارة ، حتى سلمها لأخيه الأمير أبى يوسف ، ثم غادرها وسار فى قواته غربا صوب مدينة فاس ، وهى العاصمة الثانية للإمبراطورية الموحدية ، وافتتح فى طريقه مدينة أجرسيف ، وسائر حصون وادى ملوية(٢). ثم نزل قبالة فاس معتزماً فتحها ، وضرب حولها الحصار وقطع علائقها مع الخارج ، فاشتد بأهلها الضيق ، وطلبوا إلى أشياخهم مفاوضة الأمير أبى يحيى ، وكان واليها الموحدى يومئذ هو السيد أبو العباس بن أبى حفص ، وكان عاجزاً عن أى دفاع ولم يتلق أية نجدة ، ولم يكن لديه سوى مائتى جندى من الروم ، وفدوا إلى المدينة عقب مصرع السعيد ، مع قائدهم شديد . ويقول لنا ابن عذارى إن هذه الفرقة من الروم دافعت وقت الحصار ضد بنى مرين دفاعا شديداً ، واضطر أشياخ المدينة نزولا على ضغط أهلها ، أن يتقدموا إلى أبى يحيى بطلب الصلح ، فتلطف أبو يحيى بهم ، وتعهد لهم بحسن النظر ، وإقامة العدل وحمايتهم ، وكف الأذى عنهم ، فتقبلوا عهده ، وبايعوه على الطاعة ، بالرابطة الواقعة بخارج باب الشريعة ، وكان فى مقدمة من بايعه كبير فقهاء مراكش ، الشيخ الورع أبو محمد الفشتالى ، وسائر

(١) البيان المغرب ص ٣٩٢ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ١٩٥ .

الفقهاء والأشياخ ، وأخلى القصبة ، والى الخليفة الموحدى ، السيد أبو العباس ، وغادرها فى أهله وولده ، وأمنه أبو يحيى ، وأعطاه خمسين فارساً يحرسونه حتى وادى أم الربيع ، ثم دخل أبو يحيى مدينة فاس فى اليوم السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ ، وذلك بعد وفاة الخليفة السعيد بنحو شهرين[1] .

ولبث الأمير أبو يحيى بفاس أكثر من عام ، وهو ينظم الشئون ، ويضع القواعد والرسوم ، لحكم مملكة بنى مرين ، التى أخذ طالعها يتألق فى الأفق . وكانت الوفود تترى عليه من كل صوب ، متقدمة لبيعته ، والانضواء تحت رايته ، وقد عم فى سائر المنطقة جو من الهدوء ، والاستبشار بالدعة والخير ، بعد أن طال عهد الاضطراب والفوضى ، فأمنت السبل ، ونشط التعامل ، وأخذ الناس فى الحرث والعمارة والاستقرار . وكان استيلاء بنى مرين على تلك المدينة العظيمة — حاضرة المغرب العلمية التالدة — وهى التى غدت فيما بعد ، عاصمة لمملكتهم الزاهرة ، بداية النهاية فى خاتمة الدولة الموحدية . وفى شهر رجب سنة ٦٤٧ هـ ، غادر الأمير أبو يحيى فاس ، بعد أن استخلف عليها مولاه المسعود ابن خرباش الحشمى ، وخرج إلى بلاد فازاز وما يليها ، يعمل على إخضاع قبائلها وتحصيل الجباية منهم ، ولكنه ما كاد يبتعد عن فاس حتى أخذ بعض زعماء المدينة من الموحدين ، وغيرهم من المعارضين ، يحاول قلب الأوضاع الجديدة ، والعود إلى طاعة الخلافة الموحدية ، وخاطب أولئك المعارضون قاضى المدينة أبا عبدالرحمن المغيلى ، فى خلع أبى يحيى وقتل نائبه المسعود ، وطرد أنصاره من المدينة ، وعبثا حاول القاضى أن يردهم عن مشروعهم ، فنظموا مؤامرتهم على ما رتبوه ، من خلع أبى يحيى وقتل نائبه ، وإعادة البيعة للخليفة المرتضى ، وتفاهموا مع قائدى جند الروم الذين بالقصبة ، وهما شديد وزنار ، وكان أبو يحيى قد تركهم على ما كانوا عليه[2] . وفى رواية أخرى أنه كان قد حبسهم عند دخول فاس[3] . وعلى أى حال فقد كان قواد الجند الروم مع المتآمرين ، وكانوا بطبيعتهم من أولياء

---

(١) الذخيرة السنية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ . ويضع ابن عذارى دخول أبى يحيى فاس فى ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ (البيان المغرب ص ٣٩٣) .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٢ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٩٩ .

الدولة الموحدية ، المخلصين لها . وقصد أشياخ المدينة ، وعلى رأسهم المشرف ابن جشّار وأخوه ابن أبي طاهر إلى القصبة، ومع قواد الروم، وبعد مشادة قصيرة مع المسعود بن خرباش، انقض عليه الروم وقتلوه مع عدة من أصحابه ، واستولى الأشياخ على القصبة، وعلى ما فيها من المال والذخيرة ، ورُفع رأس المسعود على رمح وطيف به ، وأغلقت المدينة أبوابها ، وتولى قائد الروم ضبطها ، ونادى الأشياخ بطاعة الخليفة الموحدى ، وبعثوا بها إليه ، وطلبوا عونه ونصرته ، فبعث المرتضى إليهم ، يعدهم بالعون والقدوم . ووقع هذا الانقلاب بمدينة فاس فى شهر شوال وقيل فى العشرين من شعبان سنة ٦٤٧ هـ[١] .

ولكن المرتضى لم يسر إلى فاس ، ولم يبعث إليها بمدد من جنده ، وبقيت المدينة الثائرة مغلقة ، تترقب مصيرها . ولما علم الأمير أبو يحيى بما حدث ،وكان يغزو بلاد فازاز ، تركها وارتد لمعاقبة أهل فاس على نكثهم ، وضرب الحصار حول المدينة . وكان المرتضى حينما شعر بعجزه ، عن تدارك فاس بعونه ، قد بعث إلى يغمراسن بن زيان ، يغريه على انتهاز الفرصة فى بنى مرين . فلما سار أبويحيى إلى فاس ، نهض يغمراسن فى قواته إلى رباط تازا ، يحاول الاستيلاء عليها ، فاضطر أبو يحيى عندئذ ، أن يترك بعض قواته لمتابعة حصار فاس ، وان يسير بنفسه لمحاربة يغمراسن . ولما وصل أبويحيى إلى تازا ، ارتد عنها يغمراسن، فسار أبو يحيى فى أثره ، ونشبت بين الفريقين فى وادى إيسلى، على مقربة من وجدة ، عدة معارك شديدة ، انتهت بهزيمة يغمراسن ، وسقوط محلته وأسلابه فى أيدى العدو ، فارتد فى فلوله صوب تلمسان ، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤٧هـ[٢].

ثم سار أبو يحيى فى قواته إلى فاس ، وشدد فى محاصرتها ومنازلتها ،فلما رأى أهل المدينة أنه لامناص من التسليم، بعثوا إلى أبى يحيى بطلب العفو والأمان، فأجاب ملتمسهم ، ودخل فاس وذلك للمرة الثانية ، فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٨هـ (أكتوبر سنة ١٢٥٠ م) ، ونزل بالقصر ، وألزم أشياخ المدينة ، أن يردوا إليه ما سلب من الأموال والذخائر ، وقدر ذلك بمائة ألف دينار ، أو ثلاثمائة ألف وفقاً لابن عذارى ، فماطل الأشياخ أوعجزوا ، فقبض على زعمائهم

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ و١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨١ و٨٢ ، والبيان المغرب ص ٣٩٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨٣ .

وفى مقدمتهم القاضى أبو عبد الرحمن المغيلى ، وابن جشار وأخوه ابن أبى طاهر وغيرهم ، وأمر بقتلهم ، وعلقت رؤوسهم على أبواب المدينة (رجب ٦٤٨هـ) ، وألزم أهل المدينة ، ومن بقى من شيوخهم ، برد المال المنهوب ، وساد على المدينة حكم إرهاب ، خشعت له القلوب ، وأخمدت كل نزعة إلى الفتنة والخروج[1].

— ٢ —

وفى تلك الأثناء توفى عاهل إفريقية ، الأمير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد الحفصى ، وكان حينما وقع مصرع الخليفة السعيد ، قد أخذ فى الأهبة ، لتحقيق ما كان يجيش به من أطماع ، نحو الأقاليم المغربية ، وخرج فى جيشه من تونس ، فى أوائل سنة ٦٤٧هـ . فلما وصل إلى بلدة العناب على مقربة من بونة أصابه مرض مفاجىء ، واشتد به حتى توفى ، وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وكان فى التاسعة والأربعين من عمره . وكان أميراً عظيما وافر الشجاعة والمقدرة والعزم ، وهو الذى أنشأ الدولة الحفصية المستقلة بإفريقية ، حسبما ذكرنا من قبل فى موضعه ، وكان فوق ذلك عالما أديبا ، مجيداً للنثر والنظم ، محباً للعلماء ، مؤثراً لهم ، وقد وفد عليه كثير من علماء الأندلس وأدبائها النازحين منها ، حينما تغلب النصارى على قواعد الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الفقيه الكاتب المؤرخ والشاعر الكبير ابن الأبار القضاعى . ولما توفى أبو زكريا بويع ولده أبو عبد الله محمد بتونس ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وهو الذى لقى ابن الأبار مصرعه على يديه ، حسبما نفصل ذلك فى ترجمته .

وكان لوفاة عاهل إفريقية ، صدى فيما أصاب البقية الباقية من مسلمى صقلية ، من اضطهاد وتشريد . وكانت الأقلية المسلمة ، قد لبثت عصراً ، بعد افتتاح النورمانيين ، للجزيرة ، عنصراً من أهم عناصر سكانها ، وأوفرهم تقدما وحضارة ، يتمتعون فى ظل الملك رجّار فاتح الجزيرة ، وخلفائه الأوائل ، بقسط كبير من الرعاية والحرية ، ولكنهم غدوا بعد ذلك موضع الاضطهاد والمطاردة . وقد سبق أن أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت عليه أحوالهم ، وأوردنا طرفا مما ذكره عنها الرحالة ابن جبير ، وأشرنا إلى ما كان من وفود بعض أعيانهم على الشيخ أبى محمد الحفصى والى افريقية ، فى نحو سنة ٦٠٥ هـ ، سعياً إلى الاستنصار بعون

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨٤ ، والبيان المغرب ص ٣٩٥ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

الخليفة الموحدى محمد الناصر . بيد أن مسعاهم لم يسفر يومئذ عن أية نتيجة عملية : فلما استقلت إفريقية ، وغدت فى عهد أول أمرائها من بنى حفص أبى زكريا يحيى ، دولة قوية زاهرة ، اتجه نظر مسلمى صقلية إلى غوث هذه الجارة المسلمة القوية ، والظاهر مما تذكره لنا الرواية الإسلامية ، أنه وقعت بين الأمير أبى زكريا ، وبين ملك الجزيرة ، وكان يومئذ الإمبراطور فردريك الثانى ، مفاوضات بشأن مسلمى صقلية ، أسفرت عن استردادهم لامتيازاتهم القديمة ، من سكنى بلرم وضواحيها وبعض أماكن أخرى . بيد أنه لما توفى الأمير أبو زكريا عاد ملك صقلية إلى إضطهاد المسلمين ومطاردتهم . فاضطروا إلى مغادرة السهول ، ولجأوا حسبما كانوا يفعلون من قبل ، إلى الجبال والأوعار ، ونصبوا عليهم أميراً من بنى عباس . بيد أن هذه الثورة الأخيرة لمسلمى صقلية ، لم تغنهم شيئاً ، لأن ملك صقلية حاصرهم ، واشتد فى إرهاقهم حتى استنزلهم من الجبال ، ثم أرغمهم على السكنى فى منطقة لوجارا ، ثم سار إلى جزيرة مالطة ، وأخرج منها المسلمين ، وألحقهم بإخوانهم ، وكانت هذه الضربة الأخيرة لمسلمى صقلية ، هى بداية انحلالهم وتلاشيهم النهائى ، وغاضت آثار الإسلام من صقلية شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى أمره ، من تلك الربوع ، التى ازدهرت فيها حضارته زهاء أربعة قرون[1].

وكان من أصداء وفاة الأمير أبى زكريا أيضاً ، ماوقع بثغر سبتة ، من انقلاب جديد ، وقيام دولة جديدة . وذلك أن سبتة ، كانت قد قامت بالدعوة للأمير أبى زكريا ، حسبما ذكر فى موضعه ، وأوفد إليها الأمير أبوزكريا ، رجلين من قبله ، للإشراف على شئونها ، هما ابن أبى خالد وابن الشهيد ، فلم يحسنا السيرة ، وبرم بهما أهل المدينة . فلما توفى أبو زكريا تهيأت الفرصة لانقلاب لاجديد ، فى رياسة هذا الثغر ، الذى لبث عصوراً من أهم الثغور الموحدية الشمالية ، كما لبث عصوراً قاعدة رئيسية ، لعبور الجيوش الموحدية إلى الأندلس . وذلك أن أهل سبتة ، اضطرموا بالثورة ، واتفق قاضى المدينة وكبير علمائها ، أبو القاسم العزفى مع أمير البحر أبى العباس الرنداحى ، وكان راسيا بسفنه فى مياه سبتة ، على تدبير الانقلاب المنشود . وكان ممن يخشى بأسهم بسبتة ، غير رجال الأمير الحفصى ، جماعة من فرسان الأندلس النازحين ، وعلى رأسهم القائد شقّاف بطل إشبيلية السابق . فتم التفاهم على التخلص من الجميع . ودبر الرنداحى الأمر بإقامة وليمة

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٠ .

كبيرة بمنزله ، دعا إليها معظم القادة والجند ، وبعث رجاله بالليل ، فقاموا بقتل القائد شقاف وزملائه ، ثم نفذوا إلى القصبة ، فقتلوا ابن أبي خالد ، وأخرجوا ابن الشهيد فى زورق سيروه إلى الأندلس . وهكذا تم تدبير الانقلاب المنشود ، وخلعت طاعة بنى حفص ، وتولى القاضى أبو القاسم العزفى زمام السلطة (٦٤٧ هـ) . وكان أبو القاسم ، وهو ولد العلامة الكبير الورع الزاهد أبى العباس العزفى ، عالما جليلا ، ورئيساً حازما ، وورعا كأبيه ، فضبط أمر سبتة بقوة وكفاية . وكان ذلك بداية رياسة هذه الأسرة العريقة ، للثغر الموحدى القديم ، واستمر العزفى فى حكم سبتة ، زهاء ثلاثين عاما ، حتى توفى فى سنة ٦٧٧هـ (١) .

— ٣ —

ولابد لنا أن نشير هنا ، إلى حادث ذى مغزى عميق ، من الناحيتين الدينية والأدبية ، وإن لم يكن له نتائج مادية أو سياسية هامة ، ذلك هو ما وقع من مكاتبة بين الخليفة الموحدى المرتضى لأمر الله ، وبين البابا إنوسان الرابع ، وقد انتهى إلينا لحسن الطالع ، كتاب الخليفة الموحدى ، إلى عميد النصرانية ، وهو مايزال محفوظاً بأصله فى مكتبة الفاتيكان الرسولية . بيد أنه يجدر بنا قبل أن نعرض إلى محتويات الكتاب المذكور ، أن نشير إلى ما تقدم ، من علاقات ، بين الخلافة الموحدية ، والكرسى الرسولى .

وقد بدأت هذه العلاقات منذ عصر الخليفة المأمون ، وهو المسئول عن تشجيع الكرسى الرسولى ، على محاولة بث نفوذه ، داخل الإمبراطورية الموحدية . وذلك أن المأمون حينما دعا لنفسه بالخلافة ، وهو بالأندلس ، واعتزم العبور إلى المغرب ، رأى أن يستنصر بفرناندو الثالث ملك قشتالة ، لكى يمده بقوة من المرتزقة النصارى ، يستعين بها على قتال خصومه . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن فرناندو الثالث ، اشترط على المأمون لمحالفته وإمداده ، غير ما رغب فى امتلاكه من الحصون الأندلسية ، شروطاً أخرى منها أن يبنى للنصارى فى مراكش كنيسة يقيمون فيها شعائرهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل إسلامه ، بل يرد إلى إخوانه يقضون فى أمره وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل (٢) . ولما استطاع المأمون أن

---

(١) البيان المغرب ص ٤٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ . وراجع ص ٣٦٨ من هذا الكتاب .

يتغلب على خصومه ، بمعاونة أولئك الجند النصارى ، أو الروم حسبما تنعتهم الرواية الإسلامية ، كان فى مقدمة ماعمله ، إن ابتنى للنصارى فى داخل مراكش كنيسة كبرى . وقد كانت أول كنيسة أقيمت بالعاصمة الموحدية ، وكانت فيما يبدو أكثر من محل للعبادة ، إذ كانت فى أحيان كثيرة ملاذا للقادة والجند الروم ، حسبما يستدل على ذلك من إشارات عديدة ، وتكاثر أولئك الجند النصارى بما كان يفد إليهم من إخوانهم المرتزقة ، من وراء البحر ، ولبثوا أعمدة الخليفة الموحدى فى مقارعة خصومه ، وكانوا قوة يحسب حسابها ، فى سائر المنازعات والانقلابات السياسية والعسكرية .

وقد لفت قيام هذه الجالية النصرانية القوية ، فى العاصمة الموحدية ، منذ البداية ، نظر الكرسى الرسولى ، ورأى فيها سنداً لتدخله ، ومحاولة بث نفوذه . وكان أول ما وقع من ذلك أن بعث البابا إنوسان الرابع ، بالقس لوبى فرنانديث إلى مراكش فى سنة ١٢٤٦م ، فى عهد الخليفة السعيد ، ليكون أسقفا بها ، وكان السعيد كأبيه المأمون ، يغمر الجند النصارى بعطفه وصلاته ، ويعتبرهم ملاذ العرش الموحدى ، وسنده القوى . وبعث البابا إلى الخليفة مع الأسقف كتابا يهنئه فيه ، بانتصاراته على خصومه ، فى سجلماسة ، وبلاد الغرب ، ويشيد بالدور الذى قام به الجند النصارى فى هذه الانتصارات ، بل وينصح الخليفة ، لما كان يعلمه من من استعداده ، لاستقبال طوائف جديدة من أولئك الجند ، ولما كان يحبوهم به من عطف — ينصحه بأن يعتنق النصرانية لكى يغنم حماية الله والكرسى الرسولى ، ثم يرجوه لضمان حماية النصارى ، ولكى لايتعرضوا إلى مثل ماحدث لهم أيام يحيى المنتصر ، من القتل ومن حرق كنيستهم ، أن يخصص لهم بعض الحصون المنيعة ، الواقعة تحت سلطانه ، لكى يلجأوا إليها عند الضرورة ، وكتب البابا فى نفس الوقت إلى أمراء تونس وبجاية وسبتة ، يرجوهم أن يسهلوا لنصارى مراكش الاتصال بإخوانهم فى تلك الثغور .

على أن رسالة البابا المتقدمة إلى الخليفة السعيد ، لم يكن لها أى صدى . ذلك أن السعيد ، بالرغم من حرصه على إرضاء جنده ، لم يكن على استعداد ، لكى يمنح للكرسى الرسولى ذاته ، أية امتيازات أوحقوق من أى نوع . ومن المحقق أنه لم يلق أية التفاتة ، لمادعاه إليه البابا ، من اعتناق النصرانية ، بل سوف نرى بالعكس ، ماورد فى شأن ذلك من الاستنكار ، فى خطاب خلفه ، الخليفة المرتضى إلى البابا .

وقد بعث الخليفة المرتضى كتابه ، إلى البابا، مع الأسقف لوبى المتقدم ذكره وهو كتاب طويل ، ومؤرخ فى ختامه ، فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ، وفيه يوصف البابا بعد الديباجة « بمطاع ملوك النصرانية ، ومعظم عظماء الأمة الرومية ، وقيم الملة المسيحية ، ووارث رياستها الدينية ، البابا إينه سانس ، أنار الله بصيرته ، بتوفيقه وإرشاده ، وجعل التقوى التى أمر عز وجل بها ، عدته لحياه ومعاده » .

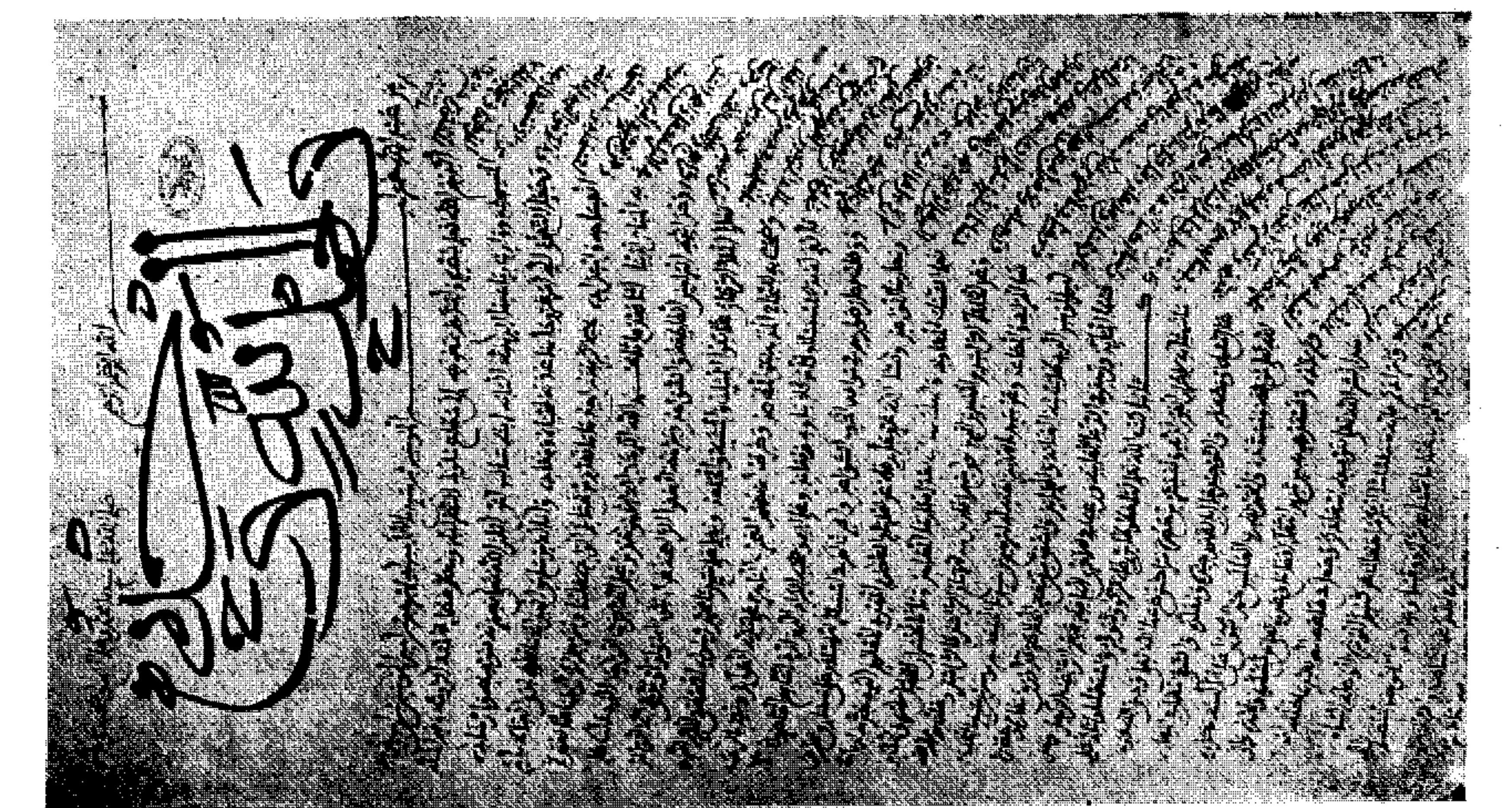
ويفتتح الكتاب بالإشارة إلى المسالة الدينية الجوهرية، التى تفرق بين الإسلام والنصرانية ، ويعرضها الكتاب بقوة وحسم ، ردا على ما أشار به البابا إلى الخليفة الموحدى ، من اعتناق النصرانية ، فيقول مايأتى :

« أما بعد فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة ، عن أن يكون له ولد ، أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد » .

ويلى ذلك الصلاة على النبى ، ثم طلب الرضى عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، وعن الخلفاء الراشدين ، ثم عن الخليفة المرتضى ذاته ، موجه هذا الكتاب .

ويعرض الكتاب بعد الدعاء ، والشكر لله تعالى ، إلى موضوع المراسلة ، ويشير إلى أنه كانت قد تبودلت كتب بين البابا والخليفة الموحدى ، وذلك حينما يقول « فإنه سبقت منا إليكم مراجعات ، عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا » ثم يؤكد الخليفة للبابا ، أنه يوجب لمنصبه « الذى أبر فى ملتكم على المناصب حقه » ، وأنه لذلك عند الخليفة « بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الجميلة محظوظون، على « ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد »

ثم يشير الكتاب بعد ذلك إلى أنه « قد انصرف عن حضرة الموحدين البيشُب ، الذى كان قد وصل بكتابكم إلينا ، انصرافا لم يعزه منّا فيه بر واكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام « وأنه لبث طوال إقامته بالحضرة معززاً مكرماً ، فى حله وترحاله ، وأنه رحل مختاراً ، وهو يحمل كتاب الخليفة، تعريفاً بذلك . ويرجو الخليفة إلى البابا ، أن يراعى فى اختيار خلفه للإشراف على النصارى « المستخدمين ببلاد الموحدين » أن يكون من أهل العقل الراجح ،



صورة فوتوغرافية لخطاب الخليفة المرتضى إلى البابا إنوسان الثالث المحفوظ بمكتبة الفاتيكان الرسولية

والسمت الحسن والنزاهة ، وذوى الخلال المشكورة . ويختتم الكتاب بتوجيه الشكر إلى البابا « لما تذهبون إليه من تمشية الأغراض والمذاهب ، والمساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب »[١] .

هذا هو ملخص كتاب الخليفة الموحدى إلى البابا ، وهو كما تقدم مؤرخ فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ الموافق العاشر من يونيه سنة ١٢٥٠ م . ومن الأسف أننا لم نعثر فى التواريخ العربية بأية إشارة ، إلى هذه المكاتبات الهامة ، بين الخلافة الموحدية ، وبين الكرسى الرسولى[١].

وإذا كان لنا أن نعلق بشىء على هذا الكتاب ، فهو أن ما يكشفه لنا من نقاش حول العقيدة الدينية ، بين البابوية والخليفة الموحدى ، وما جنح إليه الخليفة الموحدى فى كتابه ، من دحض نظريات ألوهية المسيح والتثليث ، بقوة وعنف ، يدل على ما حدث من أصداء عميقة ، لدى الخلافة الموحدية ، فى أواخر عهدها من جراء ازدياد نفوذ الجالية النصرانية ، ومحاولة استغلال البابوية لهذا النفوذ ، بصورة انتهت إلى الاجتراء ، على دعوة الخليفة الموحدى إلى نبذ دينه وعقيدته الإسلامية .

— ٤ —

وفى نفس هذا العام أعنى فى سنة ٦٤٨ هـ ، وفد على الخليفة المرتضى ، زعيمان من زعماء بنى مرين ، المنشقين على الأمير أبى يحيى ، هما أبو عمران موسى ابن زيان المونكاسى ، وأخوه على بن زيان ، فأكرم وفادتهما ، ورتب لهما أموالا سخية ، وشجعاه على النهوض لقتال بنى مرين . فأخذ المرتضى فى الأهبة ، وبعث بعض رسله إلى الأندلس ، ليحشدوا له فرقة جديدة من المرتزقة النصارى ، فجمعوا له عدداً منهم . وفى سنة ٦٤٩هـ (١٢٥١ م) غادر المرتضى مراكش ، فى قوات الموحدين والعرب ، ومعه على بن زيان وأخوه ، قاصداً محاربة بنى مرين ، ومنعهم من عبور وادى أبى رقراق ، إلى أرض تامسنا . وكان خروجه فى رمضان

(١) نقلنا نص الكتاب الموحدى المشار إليه من محفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية وهو محفوظ بها تحت رقم A.A.L.XVIII. وقد قامت بنشر هذا الكتاب مجلة **Bulletin de l'Institut de Hautes Etudes Marocaines -Hespéris** فى عددها الصادر سنة ١٩٢٦ ونشرت صورة فوتوغرافية للكتاب المذكور وترجمة فرنسية ، وعلق عليه الكردينال تسيران والأستاذ ڤييت فى بحث طويل (ص ٢٧ — ٥٣) وقد نشرنا نصه الكامل فى باب الوثائق كما نشرنا هنا صورته الفتوغرافية . ولم نجد بمحفوظات الفاتيكان أية وثيقة مغربية أو أندلسية أخرى من وثائق ذلك العصر .

من هذه السنة . فسار أولا إلى تينملّل حيث قام بزيارة قبر المهدى ، وقبور أجداده ، ثم عاد إلى طريق مراكش ، واتجه صوب سلا . وكان واليها ابن أبى يعلى ، قد استعد فى حشوده للانضمام إليه . وأقام المرتضى أياما فى سلا ، يتعرف أخبار بنى مرين ، ثم خرج من سلا فى حشود وافرة ، قاصداً إلى مكان بنى مرين . وكان الأمير أبو يحيى ، حينما علم بخروج المرتضى إلى قتاله ، قد جمع أشياخ بنى مرين وحلفاءهم ، وبحث الأمر معهم ، فرأوا أن يجنحوا إلى المسالمة ، فكتب أبو يحيى إلى المرتضى ، يطلب إليه السلم والمهادنة ، وكان المرتضى يميل إلى عقد السلم ، ولكن وزراءه عارضوا فى ذلك ، وبينوا له خطورة مهادنة بنى مرين ، وإغفال أمرهم ، فجنح المرتضى إلى الحرب ، وسار فى حشوده الزاخرة ، إلى لقاء خصومه ، ومعه أحمال كثيرة من المال برسم النفقة ، حتى صار على مقربة من محلات بنى مرين ، ونزل بمكان يسمى أمن ملولنين (أو أميلولين) من أحواز مكناسة . وكان الأمير أبو يحيى وبنومرين ، قد استعدوا للقتال ، وبدأ الموحدون المعركة ، وهجم الموحدون وعلى بن زيان وجنوده ، كل من ناحية ، فتظاهر بنو مرين بالانسحاب ، وكانوا قد رتبو كمائنهم ، فى أماكن قريبة مستوره ، ولكن الموحدين فطنوا إلى الخدعة ، فلم يتبعوهم ، وعندئذ أشاع حليف المرتضى ، يعقوب بن جرمون ، شيخ سفيان ، بناء على خطاب تلقاه من أبى يحيى ، فى المحلة الموحدية ، أن الصلح قد عقد بين الفريقين ، فاقتنع المرتضى بورود هذا الخطاب على يعقوب ، وإن لم يعقد صلح فى الواقع ، وأمر بالرحيل ، وتحركت الجيوش الموحدية ، عائدة صوب مراكش ، فعندئذ تبع بنو مرين الجيوش المرتدة ، وانتزعوا كثيراً من عتادها وأحمالها ، واستولوا بالأخص على أحمال الخليفة ، وأمواله ، واستمر انسحاب القوات الموحدية ، فى غير نظام ، حتى ثغر أزمور ، فاستراح بها المرتضى أياما ، ثم غادرها إلى الحضرة . وكانت هزيمة دون قتال ، وكانت دليلا جديداً على ما أصاب قوى الموحدين المعنوية من التخاذل والانهيار[1] .

ولما عاد المرتضى إلى الحضرة عزل وزيره ابن يونس ، وكان حاقداً عليه ، لمعارضته فى بيعته ، ومايزال يسرها له (٦٥٠ هـ) .

وفى العام التالى – ٦٥١هـ – ثار والى السوس على بن يدّر ، وجاهر بالعصيان فبعث المرتضى حمله موحدية إلى السوس لإخضاعه ، ولكنها عجزت عن ذلك ،

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٨ وج ٧ ص ١٧٦ ، والبيان المغرب ص ٤٠٢ – ٤٠٥ .

فارتدت خائبة إلى مراكش ، واستمر الأمر على ذلك حتى العام التالى ، حيث تفاقم أمر الثورة فى السوس ، واشتد ساعد على بن يدر ، بمن انضم إليه من طوائف العرب ، من عرب الشبانات وبنى حسان وغيرهم ، ثم سار إلى حصار تارودانت عاصمة السوس ، يبغى الاستيلاء عليها ، فسارت من مراكش ، حملة موحدية جديدة لقتاله ، فترك تارودانت ، وامتنع بالداخل ، ولم يستطع الموحدون إليه سبيلا ، فارتدوا عائدين إلى الحضرة ، وعاد ابن يدر إلى مضايقة تارودانت والعيث فى أحوازها (٦٥٢ هـ) . وحدث بعد ذلك أن وقف المرتضى ، على بعض كتب صادرة من ابن يدر ، إلى قريبه الوزير ابن يونس ، تدل على أنه كان يمده بالمال والسلاح ، فقبض على ابن يونس وأولاده ، ثم أمر به المرتضى فقتل ، وأفرج عن أولاده فيما بعد (٦٥٣ هـ)[١] .

وفى خلال ذلك ، كان الأمير أبو يحيى وبنو مرين ، يعملون على توطيد سلطانهم ، وتنظيم حكومتهم بمدينة فاس ، وهى التى سوف تغدو منذ الآن فصاعدا ، حاضرة ملكهم الفتى ؛ والواقع إن الإمبراطورية الموحدية ، كانت قد فقدت بانسلاخ إفريقية عنها ، ثم استقلال بنى عبد الواد بمملكة تلمسان ، سائر أقاليم المغرب الأوسط ، ثم جاء بنو مرين فانتزعوا النصف الشمالى ، من المغرب الأقصى ، واستولوا من قواعده على تازة ووجدة وفاس ومكناسة ، وأخضعوا سائر أقاليم تلك المنطقة ، من جبال غمارة حتى وادى أبى رقراق ، ولم يبق بيد الدولة الموحدية ، سوى ماوراء ذلك جنوبا من الأقاليم القليلة الباقية ، حتى بلاد السوس ، تتوسطها مراكش . ولم يكن خافيا على ذوى النظر البعيد ، من أشياخ الموحدين وغيرهم ، أن مصير الدولة الموحدية أضحى يهتز فى كفة القدر ، وأنها وصلت ، بما انتهت إليه من الضعف والتفكك ، إلى مرحلة الاحتضار .

ولما انتهى أبو يحيى ، من تنظيم الشئون بفاس ، ارتد فى بعض قواته إلى بلاد فازاز ، ليتم إخضاعها ، فافتتحها ، وأخضع بطون زناتة النازلة فى تلك المنطقة ، وفرض الجباية عليهم جميعاً ، وأخمد كل نزعة إلى الخروج والعصيان[٢] . ثم سار فى قواته غرباً ، فى المنطقة الممتدة ما بين وادى أبى رقراق ، ووادى أم الربيع ، وكان من الواضح أنه يقصد الزحف إلى سلا ورباط الفتح ، وقد

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ ، والبيان المغرب ص ٤٠٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ .

أثارت هذه الحركة جزع البلاط الموحدى ، فأخذ يستعد لمقاومتها بكل ماوسع.

وكان المرتضى ، وهو الشيخ الورع الهادئ يعكف خلال ذلك ، على تدبير ضربانه ، والانتقام من خصومه ، وكان الدور بعد مصرع ابن يونس ، على أشياخ الخلط ، وكانت الريبة قد اتجهت عقب مصرع الخليفة السعيد ، فى شعب جبل تلمسان فى سنة ٦٤٦ هـ ، إلى عرب الخلط ، وقوى الظن بأنهم اشتركوا فى مؤامرة قتله ، وذلك لأنهم تخاذلوا فى القتال أولا ، ثم لما قتل السعيد ، كانوا أول من بادر إلى نهب محلته ، واستلاب ما فيها ، وسلبوا فوق ذلك أموال أهله وأقاربه ، وذلك قبل أن يصل بنو عبد الواد ، إلى محلة الخليفة القتيل ، وكان المرتضى يتوق إلى معاقبة زعمائهم ، على ما ارتكبوه من الخيانة والغدر ، فدبر كمينا لإهلاكهم ، واحتال فى دعوتهم إلى مراكش ، بمختلف المعاذير ، فلما وصل معظمهم ، أذن لهم بالدخول إلى القصر ، وكان قد كمن لإهلاكهم ، عدد كبير من عبيد المخزن والجند ، فلما تقدموا إلى داخل الدار ، وأحيط بهم ، قتلوا أشنع قتل ، وقيل بل قتلوا بالسم ، فى الطعام الذى قدم لهم ، وكان عدد من قتل من زعماء الخلط سبعون شيخاً ، ووقع ذلك الحادث الدموى فى سنة ٦٥٢ هـ[١] .

وفى نفس هذا العام ، ثار يعقوب بن محمد بن قيطون ، زعيم بنى جابر ، وخلع الطاعة ، وكان المرتضى قد أكرمه ، ومنحه إقطاعات واسعة ، فبعث المرتضى إلى تامسنا ، عسكراً بقيادة أبى الحسن بن يعلى ، ليتفقد أحوالها ، وليدبر مع يعقوب بن جرمون شيخ سفيان ، طريقة القبض على ابن قيطون . ودعا أبو الحسن ومعه ابن جرمون ، ابن قيطون للتفاهم معه ، فلما حضر ، أبرز ظهيرا بتقديم يعقوب بن جرمون ، على سائر عرب المنطقة ، فثار لذلك ابن قيطون ، وحاول الانسحاب ، ولكن قبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم ، وعاد أبو الحسن بهما مكبولين إلى مراكش[٢] .

وكان المرتضى ، قد استطاع فى تلك الأثناء ، أن يتم أهباته لمحاربة بنى مرين . وكان بنو مرين ، وعلى رأسهم الأمير أبو يحيى من جهة أخرى ، قد توطد أمرهم بفاس وأحوازها ، وأطاعتهم سائر القبائل المجاورة ، وعمد أبو يحيى إلى حشد الحشود ، والاستكثار من العدة والسلاح ، وكان من الواضح أن وقفه تقدم

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ ، والبيان المغرب ص ٤٠٩

(٢) البيان المغرب ص ٤١٠ .

بنى مرين ، فى قلب المغرب ، أضحى بالنسبة للموحدين مسألة حياة أو موت. ومن ثم فان المرتضى ، عول على أن يسير بنفسه لقتال بنى مرين ، فقام بأداء الزيارة المأثورة إلى تينملل ، ثم خرج من مراكش فى حشود ضخمة ، من الموحدين والمصامدة والعرب ، وسار أولا إلى سلا ، ثم غادرها فى حشوده شرقاً صوب فاس ، وكان أبو يحيى قد استعد كذلك فى قواته للقاء الموحدين ، وكان المرتضى بزمع من وراء ذلك الصراع ، أن يسترد فاس وأحوازها ، إذ كان بقاؤها فى أيدى بنى مرين ، يمثل أعظم خطر على كيان الدولة الموحدية . ولما اقتربت القوات الموحدية من فاس ، وقعت بين المرتضى وأبى يحيى ، بعض مراسلات ومراجعات فى سبيل الصلح ، ولكنها لم تفض إلى أية نتيجة . ثم وقع اللقاء بين الفريقين ، عند جبل بهلولة أو بنى بهلول ، على مقربة من فاس ، وكانت معركة عنيفة ، انتهت بهزيمة الموحدين ، وتمزيق صفوفهم ، فقتلت منهم جموع عظيمة ، واستولى بنو مرين على محلتهم وعتادهم ، ومؤنهم ودوابهم ، واستولوا بالأخص على أحمال الأموال ، وكانت مقادير طائلة ، وكان أكبر عامل فى تلك الهزيمة الشنيعة ، خيانة العرب ، وتراجعهم عند بدء المعركة . وفر المرتضى فى بعض فلوله ، إلى أزمّور ، وهو فى حالة سيئة ، ولبث بها ، حتى بعث إليه والى مراكش ، أبى سعيد ابن تيجا ، بما يلزم من ضروب الإسعاف ، وكان وقوع تلك النكبة بالموحدين فى سنة ٦٥٣ (١٢٥٥ م)[١] .

وكانت هذه ضربة قاصمة ، لقوى الموحدين المادية والمعنوية ، وجنح المرتضى بعد ذلك إلى الدعة والراحة ، وعكف على تشييد القصور لأبنائه ، وأنفق فى ذلك أموالا طائلة ، وقام بإصلاح جامع على بن يوسف ، وكان إصلاحه من قبل يعتبر عملا مكروها ، فى نظر الموحدين . ويقول لنا ابن عذارى فوق ذلك ، إنه عقد الهدنة والسلم ، مع الأمير أبى يحيى ، وكانت تربطه بالفقيه أبى القاسم العزفى ، صاحب سبتة ، صلات ودية ، بالرغم من خروجه على الموحدين ، ودعوته لأمير إفريقية الحفصى ، وكذلك بأبى الحجاج يوسف بن الأمين صاحب طنجة ، وكان قد انضوى تحت لواء العزفى أولا ، ثم استبد بحكم طنجة[٢] .

---

(١) البيان المغرب ص ٤١١ ، و٤١٢ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ وج ٧ ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب ص ٤١٤ ، و٤١٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٦ .

على أن هذا الهدوء النسبى ، الذى بسط ظلاله ، على مابقى من أقطار الدولة الموحدية ، لم يستمر طويلا ، لأن بنى مرين ، لم يكن فى نيتهم ، أن يقفوا عند حدود الرقعة الواسعة ، التى انتزعوها من الموحدين ، والتى أضحت تكون وحدها مملكة ضخمة ، داخل المغرب الأقصى ، وإنما كانت تحدوهم رغبة قوية فى انتزاع ما بقى من أراضى المغرب ، والقضاء على الدولة الموحدية بصورة نهائية ، وإقامة مملكتهم الفتية على أنقاضها ، مستقلة دون منازع .

ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، على موقعة جبل بهلولة ، حتى نهض بنو مرين لافتتاح قطر جديد ، من أقطار الدولة الموحدية ، روجهت الضربة فى هذه المرة ، إلى سجلماسة ودرعة . وهنا تختلف الرواية فى تاريخ هذا الفتح المرينى ، ففى رواية أنه وقع فى أواخر سنة ٦٥٣ هـ[1] ، وفى أخرى أنه كان فى سنة ٦٥٥ هـ[2] . وتفصيل ذلك أن والى سجلماسة الموحدى أبا محمد عبد الحق الجنفيسى ، كان يرابط مع جنده فى قصبة سجلماسة ، فدبر رجل من زعماء المدينة يسمى أبويحيى محمد القطرانى ، مؤامرة للغدر بهم ، وتسليم المدينة إلى بنى مرين ، واتصل القطرانى بأبى يحيى وأغراه بفتح سجلماسة ، فبعث إليه أبويحيى جملة من جنده ، فتحيل القطرانى فى إدخالهم إلى المدينة ، وهاجم القصبة وقبض على واليها الموحدى ، وبعث به معتقلا إلى الأمير أبى يحيى ، ثم وفد أبو يحيى بنفسه إلى سجلماسة ، ودخلها ، واستولى على ماكان بالقصبة من المال ، وعين إلى جانب القطرانى ، واليا مرينيا للمدينة ، ثم استولى على درعة فى جنوب سجلماسة ، وعاد إلى فاس . وثار الخليفة المرتضى لما وقع ، وأبى أن يفتدى واليه أبا محمد عبد الحق من الأسر ، لاتهامه إياه بالتقصير والتفريط[3] .

وفى نفس الوقت تفاقم الأمر فى بلاد السوس ، واشتد أمر على بن يدر ، المتغلب عليها حسبما تقدم ، فرأى المرتضى أن يبذل محاولة جديدة ، لإخماد هذه الحركة ، فبعث إلى السوس حملة موحدية جديدة ، بقيادة أبى محمد بن أصناج ، فسار إلى تارودانت ونزل بها ، وكان على بن يدر قد غادرها عندئذ ، إلى حصن تيونوين ، واعتصم به ، فسار ابن أصناج لقتاله ، فخرج إليه ابن يدر

---

(١) هذه رواية صاحب الذخيرة السنية ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٦ .

(٢) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب ص ٤١٦ ، وروض القرطاس ص ١٩٧

(٣) البيان المغرب ص ٤١٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

وهزمه ، وقتل معظم عسكره ، فارتد ابن أصناج فى فلوله ، منهزماً إلى مراكش ، وبقى ابن يدر على سلطانه وطغيانه[1] .

وأما فى سجلماسة ، فإن الأمر لم يقف فى شأنها عند ما تقدم . ذلك أن الأمير أبا يحيى مرض ، وتوفى بفاس فى رجب من العام التالى (٦٥٦ هـ) ، ووقع الخلاف على ارتقاء العرش ، بين ولده عمر وأخيه أبى يوسف يعقوب ، فانتهز القطرانى هذه الفرصة ، واستولى على حكم سجلماسة ، واستطاع الوالى المرينى أن يغادر القصبة ، فى أهله وأصحابه ، وبعث القطرانى إلى المرتضى ، يعتذر عما حدث ، وأنه سوف يقوم بالدعوة الموحدية ، ولكن بشرط أن يبقى عاملا بسجلماسة ، مستقلا بأمرها ، فوافق المرتضى على ذلك ، وبعث إليه بالفقيه أبى عمرو بن حجاج ، ليكون قاضياً للمدينة ، وبسرية من الجند الروم مع قائدهم ، وزود القاضى والقائد بأوامر سرية معينة . واستمر القطرانى فى رياسة المدينة حيناً ، وفى ذات يوم وثب قائد الروم بالقطرانى فقتله ، وكان هذا تنفيذا لأوامر المرتضى ، فوقع الهرج بالمدينة ، وبادر القاضى فأعلن للناس أن ماوقع إنما كان تنفيذا لأمر الخليفة ، وعهد المرتضى إلى القاضى أبى عمرو بشئون المدينة ، وكان هذا الحادث دليلا جديداً على ما كانت تتسم به وسائل المرتضى من شيم النكث والغدر[2] .

ولما توفى عاهل بنى مرين الأمير أبو يحيى ، تولى ولده عمر بن أبى يحيى العرش مكانه ، ولكن معظم أشياخ بنى مرين ، لم يكونوا راضين عن ولايته ، وكانوا يؤيدون بالعكس ولاية عمه الأمير أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ، أخى أبى يحيى ، وكان عند وفاة أخيه غائباً برباط تازا ، فأسرع إلى حضرة فاس ، والتف حوله أكابر المشيخة ، ووقع الخلاف بين عمر وعمه ، واعتصم عمر بالقصبة وكان أبو يوسف يميل إلى حسم الأمر ، بالبقاء فى رباط تازا ، ولكن ألح عليه أشياخ بنى مرين ، والتف حوله جمع كبير من الأنصار ، وخرج عمر للقائه فى أنصاره ، فى ظاهر فاس ، فخذل عمر وهزمه أنصاره ، وارتد إلى فاس مفلولا ، وانتهى الأمر بالصلح بين عمر وعمه ، على أن يرقى أبو يوسف العرش ، وأن يتولى عمر أمر مكناسة وما إليها ، ودخل أبو يوسف يعقوب ظافراً ، وتولى الملك ، وذلك فى شهر شوال سنة ٦٥٦ هـ (أواخر ١٢٥٨ م)[3] .

---

(١) البيان المغرب ص ٤١٥ .
(٢) البيان المغرب ص ٤١٩ .
(٣) الذخيرة السنية ص ٩٢ و ٩٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ص ٤٢٠ و ٤٢١ .

— ٥ —

لم يبق عندئذ ، تحت سلطان الخلافة الموحدية ، من إمبراطوريتها الشاسعة القديمة ، بعد العاصمة وأحوازها ، سوى المنطقة الواقعة بين وادى أبى رقراق ووادى أم الربيع ، وفيها سهل تامسنا وثغرا سلا ورباط الفتح ، فإلى هذه المنطقة ، وإلى هذين الثغرين ، اتجهت أنظار بنى مرين . فى سنة ٦٥٧ هـ ، سار كبير بنى مرين يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، وهو ابن أخى السلطان أبى يوسف ، متجهاً صوب تامسنا ، مع قوة من الجنود المرينية ، وذلك بحجة ممارسة الصيد والكلأ ، ونزل بعين عبولة ، على مقربة من سلا . ويقول لنا صاحب الذخيرة السنية ، إنه قام بهذه الرحلة ، بإيعاز عمه السلطان أبى يوسف(١) ، ولكن ابن خلدون بالعكس ، يقدم إلينا رواية أخرى ، خلاصتها أن الأمير أبا يحيى ، كان قد افتتح سلا ، من أيدى الموحدين ، فى سنة ٦٤٩ هـ ، واستعمل عليها ابن أخيه ، يعقوبا المتقدم ذكره ، ولكن الموحدين عادوا فاستردوا سلا ، فأقام يعقوب مع صحبه ، فى بعض أحوازها ، يترقب الفرص ، ولما تولى عمه أبو يوسف الملك ، غضب منه لبعض الأمور ، وأخذ يدبر الحيلة فى الاستيلاء على سلا(٢) . وعلى أى حال فقد دبر يعقوب خطة لافتتاح هذا الثغر الموحدى الهام . وكان والى سلا من قبل المرتضى يومئذ هو أبو عبد الله محمد بن أبى يعلى الكومى ، وكان حينما اقترب يعقوب برجاله من سلا ، قد اتخذ كل أهبة ، ورتب الحراس على أبواب المدينة ، ليلا ونهاراً ، بيد أن الدفاع عن المدينة كان بالرغم من ذلك ضعيفاً ، ولم يكن الاستيلاء عليها أمر صعباً . وكان يعقوب بن عبد الله يعرف هذه الحقيقة ، ويقول صاحب الذخيرة السنية ، ويتابعه ابن خلدون ، إن يعقوبا استطاع أن يدخل إلى قصبة رباط الفتح بالحيلة ، وأن يخرج منها ابن أبى يعلى ، فسار فارا بنفسه إلى أزمور ، واستولى يعقوب بذلك على سلا دون قتال(٣) . ولكن ابن عذارى يقول لنا بالعكس ، إن يعقوبا طرق سلا مع رجاله بالليل ، وركبوا السلالم على السور ، أمام الباب ، وقتل الحراس أو أسقطوا من عل ، ثم كُسر الباب ، ودخل يعقوب وصحبه إلى المدينة ، ونهبوا دورها ، ووقع الاضطراب ، وفر الناس هنا وهنالك ، وفر ابن أبى يعلى من القصبة فى سفينة ، إلى ثغر أزمور ، وملك يعقوب سلا

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٢ . (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ و ١٧٨ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٨ .

ورباط الفتح ، وكان ذلك فى أوائل سنة ٦٥٨ هـ[1] .

وما كاد يعقوب بن عبد الله يستقر بسلا ، حتى جاهر بخلع طاعة عمه السلطان أبى يوسف ، والاستقلال بأمره ، وأخذ فى الأهبة والاستعداد ، واقتناء السلاح والعدد ، واستدرج شيوخ سلا إلى القصبة ، ونزع سلاحهم ، اتقاء لشرهم ، وكتب إلى ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، يرجوه أن يمده بمائتين من المرتزقة النصارى ، ليستعين بهم على مقاتلة أعدائه .

وعلى أن هذه المخاطبة لملك قشتالة ، قد أسفرت عن مفاجأة مروعة ، لم يكن يتوقعها أحد . وذلك أن ألفونسو العاشر ، كان منذ بداية حكمه ، يفكر فى نقل الحرب الصليبية ، التى اضطرمت عصوراً ، فى شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى إفريقية ، وكان يشجعه فى مشروعه ، البابا إنوسان الرابع ، ومن بعده خلفه البابا اسكندر الرابع ، وكان ألفونسو قد أنشأ فى إشبيلية أحواضاً كبيرة لبناء السفن ، لتكون نواة لأسطول الغزو المنشود . فلما وردت عليه مكاتبة الأمير المرينى صاحب سلا ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة ، وأن يرسل حملة بحرية صغيرة لافتتاح سلا ، وجهزت سفن هذه الحملة فى مياه إشبيلية ، ووقف الفقيه العزفى صاحب سبتة ، من عيونه ، على هذه الأهبة ، فبعث النذير إلى سائر ثغور المغرب ، على المحيط ، ينصحهم بالحذر والاستعداد . وسارت السفن القشتالية مشحونة بالمقاتلة ، حتى رست فى مياه سلا ، فاعتقد أهل المدينة أنهم قدموا للمتاجرة ، واعتقد يعقوب بن عبد الله ، أنهم الجند الذين طلب إلى ملك قشتالة إرسالهم لإنجاده ، ولم يخالج أحد شك ، فى حقيقة المشروع الغادر ، الذى قدمت من أجله هذه السفن النصرانية . وجمع القشتاليون سفنهم تدريجيا ، فى خليج المدينة ، ثم فاجأوها بالهجوم ، ودخلوها بعنف ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وهم دون دفاع ، وسبوا النساء والأطفال ، فى مناظر مروعة ، واحتشد جماعة من أهل المدينة لمدافعة النصارى ، وقاتلوا بكل ما وصل إلى أيديهم ، من صنوف السلاح ، فلم يغن ذلك شيئاً ، وهلك معظمهم ، وهرع الناس إلى مغادرة المدينة ، فى جموع متراصة ، وهلك فى الزحام كثير منهم . كل ذلك ويعقوب بن عبد الله ممتنع بالقصبة ، لايستطيع شيئاً ، وهو يرى عاقبة تصرفه الشنيع ، وجمع النصارى السبايا من النساء والأطفال بالجامع ، واغتصبوا النساء والأبكار ، وقتلوا الشيوخ ، وخربوا المساجد ، ولم تقف فظائعهم عند

---

(١) البيان المغرب ص ٤٢٢ .

حد . وكان وقوع هذا الاعتداء المروع على ثغر سلا ، فى اليوم الثانى من شهر شوال سنة ٦٥٨ ﻫ (١٠ سبتمبر ١٢٦٠ م)(١) .

وترامت هذه الأنباء المؤلمة ، إلى السلطان أبى يوسف ، وهو بفاس ، فأهمته وأزعجته ، فهرع فى بعض قواته إلى سلا ، وحاصر النصارى بها ، واجتمعت من الأنحاء القريبة ، طوائف كبيرة من المتطوعة ، وقاتل النصارى من فوق الأسوار ، وتبادل الفريقان الرمى بالنبال والأحجار ، واستمر القتال على هذا النحو بضعة أيام ، حتى اليوم الثالث عشر من شوال ، وقتل عدد من النصارى ، وأيقنوا أنهم لايستطيعون الصمود ، واضطروا أخيراً إلى مغادرة المدينة ، ومعهم جماعة كبيرة من أسرى المسلمين ، وما نهبوه من المال والمتاع ، واستقلوا سفنهم المرتبطة إلى الشاطىء ، وأقلعوا بها على عجل ، وذلك فى اليوم الرابع عشر من شوال . وفى الحال استولى أبو يوسف على سلا ورباط الفتح ، وأمر بإصلاح ما تهدم من سورها الغربى ، وإصلاح جامعها ومساجدها ، وكان يشترك مع كبراء قومه ، فى رفع الأحجار ، ابتغاء الأجر .

وأما يعقوب بن عبد الله ، فقد فر من القصبة ، ولحق بحصن علودان من جبال غمارة ، وامتنع به ، فبعث أبو يوسف فى أثره ولده الأمير أبا مالك ، فى قوة من الجند لمنازلته . وسار النصارى بسفنهم حذاء الشاطىء ، دون أن يتزودوا ، وهم يحاولون الحصول على الماء والطعام ، والمسلمون يردونهم أينما حلوا ، واستنقذ أهل العرائش منهم ثلاثة وخمسين أسيراً ، نظير الماء ، وانفصل بعض النصارى عن جماعتهم ، وحصلوا على الأمان ، والتحقوا بخدمة أبى يوسف ، ودلت أنباء الطلائع المسلمة ، على أن ملك قشتالة ، كان قد جهز حشوداً أخرى ، لإنجاد رجاله ، ومعاونتهم على الاحتفاظ بسلا ، فلما علم بانسحابهم ، قرر معاقبة قائدهم خوان غرسية ، ولكن خوان استطاع الفرار مع نفر من صحبه ، إلى مياه أشبونة ، ولم يعد إلى قاعدته فى قادس(٢) .

وأما أسرى سلا ، الذين حملهم النصارى معهم ، فى سفنهم ، فقد بالغت الرواية فى تقدير عددهم . وقيل إن ما أنزل منهم فى إشبيلية ، بلغ نحو ثلاثة آلاف من الجنسين كباراً وصغارا ، فافتدى أهل شريش المدجنون ، منهم ثلاثمائة وثمانين ،

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٣ ، والبيان المغرب ص ٤٢٤ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٢٦ — ٤٢٨ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٨ .

وبعث السلطان أبو يوسف ، فى أواسط شهر ذى الحجة من نفس العام ، رسولا خاصا إلى الأندلس ، هو أبو بكر بن يعلى ، ليعمل على افتداء الأسرى ، فافتدى معظمهم ، ومنهم قاضى سلا . بيد أنه بقى منهم عدد لم يعرف مصيرهم(١) .

وبعث الخليفة المرتضى بهذه المناسبة ، إلى الفقيه العزفى صاحب سبتة ، رسالة مؤرخة فى الثالث من ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ ، يزجى إليه الشكر فيها ، على ما قام به من تحذير أهل السواحل ، ويشيد بخلاله وإخلاصه ، ويرجوه أن يستمر ، على التعريف بكل ما يقف عليه ، من خطط العدو تجاه المغرب ، وقد أورد لنا ابن عذارى نص على هذه الرسالة(٢) .

وقد كشف عدوان النصارى على سلا ، عن وجود خطر جديد ، يهدد سلامة المغرب ، لم يكن متوقعا ، ولم يحسب حسابه . ونستطيع القول بأن هذه المحاولة ، من جانب اسبانيا النصرانية ، كانت هى البداية الأولى ، لتلك السلسلة المتوالية من حملات العدوان المنظم ، التى اضطلعت بها اسبانيا النصرانية ، والبرتغال فيما بعد ، ضد شواطىء المغرب الشمالية والغربية ، والتى بدأها البرتغاليون بالاستيلاء على ثغر سبتة فى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥ م) ثم طنجة فى سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٤م) .

ولبث السلطان أبو يوسف حينا بثغر سلا ، ينظم أمورها ويصلح ما خرب منها ، وكان النصارى قد أحرقوا وخربوا وأتلفوا معظمها ، وقدّم على ولايتها أبا عبد الله بن أحمد الفنزارى ، ثم غادرها ، واستولى على بلاد تامسنا ، وخضعت له سائر القبائل المجاورة(٣) .

ولما رأى الخليفة الموحدى – المرتضى بالله – ، أنه لم يبق ثمة أمل فى المقاومة ، والكفاح ضد بنى مرين ، بعث إلى السلطان أبى يوسف هدية سنية ، ومعها رسالة من أشياخ الموحدين ، وسائر الفقهاء والصلحاء ، يلتمسون إليه الصلح والموادعة ، فاستجاب السلطان لرغبتهم فى عقد السلم ، وجعل وادى أم الربيع ، حدا بينه وبين ماتبقى من مملكة الموحدين(٤) .

وكان من ذيول ثورة يعقوب بن عبد الله بسلا ، أن حذا حذوه أبناء عمه أولاد إدريس ، وهم أبناء أخى السلطان ، فثاروا بقصر كتامة ، تضامنا مع يعقوب ، واجتمعوا تحت راية كبيرهم محمد بن إدريس ، والتف حولهم جمع

(١) البيان المغرب ص ٤٢٨ .
(٢) البيان المغرب ص ٤٢٥ .
(٣) الذخيرة السنية ص ١٠٤ .
(٤) الذخيرة السنية ص ١٠٤ .

كبير من القرابة والصحب ، واعتصموا بجبال غمارة ، فبعث السلطان حملة ، لقتالهم ، ثم استنزلهم واسترضاهم ، وعقد لأخيهم عامر بن إدريس ، على جيش من نحو ثلاثة آلاف مقاتل، من بنى مرين ومن المطوعة . وكانت رسائل ابن الأحمر صاحب غرناطة ، تترى منذ حين على أبى يوسف ، طلبا للعون والنصرة ، والمشاركة فى الجهاد فى سبيل الله ، فبعث أبو يوسف ذلك الجيش الصغير ، إلى الجهاد بالأندلس ، فعبروا إلى شبه الجزيرة ، واستقبلهم ابن الأحمر بالضيافات والكرامات ، وساروا أولا إلى مالقة ، فاستقروا بها بقية سنة ستين . وفى العام التالى سنة ٦٦١هـ ، سار أولئك المجاهدون إلى أرض الفرنتيرة ، وقصدوا إلى مدينة شَريش ، وكانت قد دعت بطاعة ابن الأحمر ، ولكن النصارى احتلوها ، فانتزعها المرينيون من أيدى النصارى واحتلوها ، ولكن لمدى قصير فقط . بيد أن عبور هذه الكتائب المرينية القليلة ، إلى شبه الجزيرة ، كان فاتحة لهذا التعاون القوى المثمر ، الذى انعقد بين بنى الأحمر ملوك غرناطة ، وبين بنى مرين، ضد اسبانيا النصرانية ، واستمر عصراً يشد من أزر مملكة غرناطة ، ويمكنها من الصمود ضد أعدائها(١) .

أما يعقوب بن عبد الله ، فقد استمر على ثورته وعصيانه ، معتصما بمختلف النواحى ، إلى أن قتله قائد المرينيين طلحة بن على ، بناحية أرض عبولة ، على مقربة من ثغر سلا ، فى سنة ٦٦٨هـ ، فلقى بذلك جزاءه وانتهى أمره(٢) .

وكان من حوادث هذا العام أيضاً — ٦٥٩ هـ — أن بعث ابن الأحمر صاحب غرناطة سفنه لغزو سبتة ، لسوء تفاهم وقع بينه وبين صاحبها العزفى ، فلقيتها سفن سبتة ، بقيادة الرنداحى ، وهزم أسطول الأندلس وقتل قائده ظافر ، وسمى هذا العام بعام ظافر(٣) .

— ٦ —

فى خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث ، من تاريخ بنى مرين ، والتى انتزعوا فيها رقاعا وثغوراً جديدة هامة ، من أشلاء الدولة الموحدية ، وأخذ نجمهم يتألق فى قلب المغرب الأقصى ، كان الخليفة الموحدى المرتضى لأمر الله ، عاكفاً فى

---

(١) الذخيرة السنية ص ١١٢ ، والبيان المغرب ص ٤٣٩ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ .
(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ . (٣) البيان المغرب ص ٤٣١ .

حاضرته ، التى قصت أطرافها ، على معالجة الصغائر من الأمور ، ومساجلة طوائف العرب ومصانعتها ، وكان قد قدّم يعقوب بن جرمون على عرب سفيان حسبما ذكرنا من قبل ، فأمر يعقوب لأمر ما بقتل ابن أخيه كانون . فثار عليه إخوة القتيل ، وتربصوا به وقتلوه ، ورحلوا إلى بلاد بنى مرين ، ودخلوا فى طاعتهم . فلما وقف المرتضى على ذلك ، قدم على سفيان عبد الرحمن بن يعقوب ، ولكنه لم يكن عاقلا حريصاً كأبيه ، فنى ذات يوم قام بنهب قوافل التجار المارة فى وادى تانسيفت ، على مقربة من مراكش ، ولما خشى عواقب فعلته ، جاهر بخلع طاعة الموحدين ، وفر إلى أرض بنى مرين ، والتجأ إلى حمايتهم ، فقدم المرتضى عندئذ على سفيان ، مسعود بن كانون ، وكان حازماً عاقلا فاستقامت على يده الأمور .

ووفد عندئذ على مراكش عواج بن هلال ، من زعماء الخلط ، ناكثا لطاعة بنى مرين ، وكان معه عسكر كبير من قومه ، فأكرم المرتضى وفادتهم ، وأجزل صلاتهم ، ولما علم بذلك عبد الرحمن بن يعقوب ، بعث إلى الخليفة فى طلب الصفح والأمان ، فأجيب إلى طلبه ، ووفد هو أيضاً إلى مراكش ، فى جمع كبير من قومه ، فاستقبله الخليفة بالترحاب ، ثم دبر الحيلة فى التخلص منه ، جريا على طريقته المأثورة ، فى إزهاق من يخرج على طاعته ، فاستُدرج ذات يوم مع وزرائه ، وقتلوا جميعا ، وعلقت رؤوسهم على باب دُكاله ، وبقى مسعود بن كانون أميراً على سفيان . وقدم اسماعيل بن يعقوب بن قيطون ، أميراً على بنى جابر ، وعلى بن أبى على ، أميراً على عرب الخلط . أما عواج بن هلال فقد وشى به وأعدم(١) .

على أن اشتغال المرتضى ، بأمر أولئك الأعراب ، لم ينسه المسألة الرئيسية ، وهى الكفاح ضد بنى مرين . ولم يكن ذلك الصلح الذى عقد بينه وبين أبى يوسف ، عقب سقوط سلا ورباط الفتح ، سوى هدنة مؤقتة ، وسلام زائف ، ولم يكن أبو يوسف من جانبه ، ينوى التوقف عن مطاردة الموحدين ، حتى يظفر بالقضاء على دولتهم بصورة نهائية . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى خرج أبو يوسف من حضرته فاس ، إلى أرض تامسنا ، بقصد الرعى والكلأ ، وتوطيد نفوذه بين القبائل الضاربة فى تلك الأنحاء ، مثل برغواطة وغيرها . وكان المرتضى من جانبه يتأهب لمحاولة جديدة لقتال بنى مرين وصد تقدمهم . فحشد جيشاً مختاراً

---

(١) البيان المغرب ص ٤٣٢ و٤٣٣ .

من الموحدين والعرب والأغزاز والروم (النصارى المرتزقة) ، وعهد بقيادته إلى أبى زكريا يحيى بن وانودين . فسار هذا الجيش إلى وادى أم الربيع شمالى مراكش، وكان السلطان أبو يوسف قد استعد هنالك للقاء الموحدين أتم استعداد . ووقع اللقاء بين الجيشين ، عند مكان من الوادى (النهر) تبدو فيه كدى ، أو جزائر صغيرة ، ينحسر عنها الماء وكأنها أرجل ، ومن ثم فقد سميت الواقعة ، التى نشبت هنالك بين الجيشين ، موقعة « أم الرجلين » . وكانت موقعة عنيفة انتهت بوقوع الهزيمة على الموحدين، وتمزيق صفوفهم ، ومقتل العدد الجم منهم . فولوا الأدبار واستولى بنو مرين على محلتهم وسائر عتادهم ومتاعهم . وكان ذلك فى سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢ م) . وارتد ابن وانودين فى فلوله إلى مراكش ، واعتذر للخليفة بأن الهزيمة، ترجع إلى تخاذل عرب بنى جابر وغدرهم . وكان للهزيمة أعمق وقع فى العاصمة الموحدية وخشى الناس أن يزحف المرينيون إليها ، فأغلقت بعض أبوابها ، ثم ساد الهدوء بعد ذلك، بعد أن جاءت الأخبار بانصراف بنى مرين إلى بلادهم[١] .

وفى نفس هذا العام ، خرجت عقب موقعة « أم الرجلين » ، حملة موحدية جديدة ، إلى بلاد السوس ، بقيادة محمد بن على بن آصلماط ، وذلك لإخماد ثورة على بن يدر ،ولكنها ماكادت تشتبك مع قوات الثائر ، حتى هزم الموحدون، وقتل قائدهم ابن آصلماط ، فكان لتلك الكسرة الجديدة ، أسوأ صدى. وعندئذ قدم المرتضى على بلاد السوس أبا زيد بن يخيت أحد وزرائه ، وبعث معه قائد الروم (النصارى المرتزقة) المسمى ذا اللب (دون لوبى) فى قوة من جنده ، واضطرمت الحرب بين الموحدين وبين على بن يدر مرة أخرى ، فصمد على ابن يدر ، وافترق الجيشان دون حسم ، وأبدى دون لوبى تهاونا وتخاذلا ، وكان على غير تفاهم مع ابن يخيت ،فكتب ابن يخيت بذلك إلى الخليفة ، فاستدعاه وأمر سراً بقتله وزملائه، فقتلوا فى طريق العودة على يد أبى زيد بن زكريا الحدميوى[٢]

وكان السلطان أبو يوسف يعتزم بعد موقعة (أم الرجلين) ، أن يسير أخيراً إلى مراكش ، لافتتاحها والقضاء على الدولة الموحدية المحتضرة ،

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٥ ، وهو يضع تاريخ الموقعة فى سنة ٦٥٩ هـ ،والبيان المغرب ص ٤٣١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ وج ٧ ص ١٧٩ ، وكلاهما يضع تاريخها فى سنة ٦٦٠ هـ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٠ ، والبيان المغرب ص ٤٣٦ .

ولكن أخّره عن ذلك حادث لم يكن فى الحسبان . وذلك أن أبناء أخيه الأمير أبى يحيى وهم أبو مظهر وأبو سالم وأبو حديد ، ساروا إلى طنجة فى ثلاثمائة فارس من بنى مرين وغيرهم ، ونزلوا بها ، فأكرم صاحبها ابن الأمين وفادتهم ، ولكنهم غدروا به وقتلوه ، فثار لذلك رجال ابن الأمين ، وقتلوا من بالقصر من بنى مرين واستدرجوا من كان منهم بالمدينة إلى القصبة ، وقتلوهم تباعا ، ووقع الهرج بالمدينة ، وخشى أهلها من انتقام بنى مرين ، فخاطبوا الفقيه العزفى صاحب سبتة ، فبعث إليهم بسفنه وعلى رأسها القائد الرنداحى ، فاستولى على طنجة ، وقبض على أولاد ابن الأمين وصحبه ، واستاقهم إلى سبتة ، وولى العزفى على طنجة واليا من قبله هو ابن حمدان . ولما وقف الأمير أبو يوسف على ما حدث من مقتل قرابته وفرسانه ، وحماية العزفى لأهل طنجة ، سار فى بعض قواته إلى سبتة ، فحاصرها وقتا ، وقاتله أهلها من فوق السور ، ولم يستطع أن ينال منها مأربا (٦٦٢ هـ)[1] .

— ٧ —

وهنا أزفت الخطوة الحاسمة ، واعتزم أبو يوسف أن يقوم بضربته الأخيرة ، بالسير إلى مراكش ، فسار فى قواته وعبر وادى أم الربيع ، واستمر فى تقدمه ، حتى نزل بجبل إيجليز ، على مقربة من العاصمة الموحدية ، وتقدمت عساكر الموحدين لصده ، ونشبت عدة معارك محلية ، كانت سجالا بين الفريقين ، وقتل ولد أبى يوسف الأمير عبد الله ، فى إحدى هذه المعارك ، وكانوا يسمونه برطانتهم « العجوب » أو « العجب » ، وذلك لفائق جماله ، وفروسته وشجاعته ، وعلو همته . فوقف القتال ، وساد الحزن والوجوم فى المحلة المرينية ، وبعث المرتضى رسولا خاصاً إلى أبى يوسف ، يعزيه فى فقد ولده ، فتأثر أبو يوسف لذلك أيما تأثر ، ووافق رسل المرتضى على الارتحال ، على مال معلوم ، يدفع إليه كل عام . وتضع الرواية تاريخ هذه الحملة فى سنة إحدى وستين اواثنتين وستين وهو الأرجح[2] .

بيد أنه وقع حادث جديد ، أذكى من عزم أبى يوسف ، ومهد له السبيل لتنفيذ مشروعه . وذلك أن السيد أبا العلاء إدريس بن السيد عبد الله بن السيد

---

(١) البيان المغرب ص ٤٣٩ و ٤٤٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٤٠ ، والذخيرة السنية ص ١٠٨ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ .

أبى حفص بن الخليفة عبد المؤمن ، وهو كما يبدو من نسبه ، من أبناء عمومة المرتضى ، ويعرف بالأخص بأبى دبوس لأنه كان وقت وجوده بالأندلس، يحمل الدبوس باستمرار فشهربه[1] ، كان السيد أبو العلاء هذا أو أبو دبوس ، ناقما على المرتضى ، لأمور تختلف فى شأنها الرواية ، فمن ذلك مايقوله روض القرطاس من أنه كان يخشى أن يقتله المرتضى ، لوشاية رفعت إليه فى حقه[2]، وما يقوله لنا ابن خلدون من أن أبادبوس ، كان من قادة الجيش الموحدى ، فى موقعة « أم الرجلين » ، فلما وقعت الهزيمة على الموحدين، سعى بعض خصومه ، فى حقه لدى الخليفة ، فشعر بهذه السعاية ، وخشى سطوة المرتضى . ويزيد الأمر ايضاحا ما يقوله صاحب الذخيرة السنية ، من أن السعاية فى حق أبى دبوس للمرتضى ، كانت تتلخص فى أنه يكاتب بنى مرين ويصانعهم ، وأنه يفكر فى القيام ضد المرتضى ، ويعتمد فى ذلك على محبة الناس له لشجاعته[3] . وأخيراً يقول لنا ابن عذارى ، إن نقمة أبى دبوس على المرتضى ، كانت ترجع إلى « اهتضام جانبه فى أحواله » . وهكذا اضطرب الجو بين الخليفة ، وبين ابن عمه ، وشعر أبو دبوس ، أن حياته أصبحت فى خطر ، ففر من القصبة ، مع ابن عمه السيد أبى موسى ، وذلك فى المحرم سنة ٦٦٣هـ ، وقصد توا إلى فاس ، ملتجئاً إلى السلطان أبى يوسف . فلما وقف المرتضى على ما حدث أمر بالقبض على أولاد السيدين الفارين ، والتحوط على دورهما ، ومطاردة كل من يشتبه فى اتصاله بهما . وسأل أبودبوس أبا يوسف العون والنصرة ، وعرض عليه مشروعه ، فى أن يعينه بقوة من بنى مرين ، وما يلزم من النفقة ، لافتتاح مراكش وأحوازها ، وأنه يتمتع فى ذلك بتأييد معظم الموحدين والكافة ، وأن يكون هذا الفتح مشتركا ، ومناصفة بينهما ، فوافق أبو يوسف على مشروعه ، وأمده بجيش من بنى مرين ، قوامه ألف فارس أوثلاثة أو خمسة آلاف وفقاً لأقوال أخرى ، وزوده بالخيل والعتاد والسلاح والمال ، وبالكتب اللازمة ، لحث زعماء العرب والقبائل ، الذين فى طريقه ، للنهوض إلى معاونته . وخرج أبو دبوس فى حشوده من فاس ، فى شهر ذى القعدة سنة ٦٦٣هـ (أغسطس ١٢٥٦ م) ، وسار أولا إلى مكناسة ،

---

(١) الحلل الموشية ص ١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٥٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ ، والذخيرة السنية ص ١٢٣ .

ثم إلى المعدن ثم إلى تادلا ، ثم سار إلى هسكورة ، فى جنوب شرقى مراكش ، فنزل بها ، على زعيمها مسعود بن جلداسن ، ولبث هنالك مدى حين(١).

وتوافد على أبى دبوس ، خلال إقامته بجبال هسكورة ، كثير من الأنصار من كل صوب ، وأطاعته قبائل هزرجة ، وسائر بطون هسكورة ، ووفد عليه كثير من الموحدين ، والجند الراغبين فى خدمته ، فقوى أمره بالجبل ، وتوجس المرتضى لما بلغه من ذلك ، وقبض على مسعود بن كانون شيخ سفيان ، وزجه إلى السجن ، وقبض كذلك على شيخ بنى جابر ، وقائد الروم غرسية ، وذلك لشبهة تواطئهم مع أبى العلاء . على أنه لم يفعل شيئاً ، للتحوط ضد الهجوم المنتظر ، بل لقد بعث بعسكره فى تلك الآونة الدقيقة ، لقتال حاحة ورجراجة ، والظاهر أن ذلك كان بتحريض الوزراء ، الضالعين مع أبى دبوس ، وذلك لكى تخلو العاصمة ، من أسباب الدفاع . وكان من جراء مطاردة المرتضى للزعماء ، والقبض عليهم ، أن هرع كثير من جند سفيان وبنى جابر ، وكذلك فر كثير من الجند الروم ، مع قائدهم زنار ، وانضموا إلى قوات أبى دبوس .

ولما وقف أبودبوس ، من أنصاره فى مراكش على مجرى الحوادث ، وعلم أن العاصمة أضحت بلا دفاع ، وأنه من جهة أخرى قد استكمل أهباته ، وكثرت حشوده وعساكره ، عول على تحقيق مشروعه ، فى انتزاع العاصمة الموحدية ، والاتشاح بثوب الخلافة . فسار فى قواته صوب أغمات ، فخرج إليه واليها أبوزيد ابن يخيت ، فى جند الموحدين ، لصده عن أغمات ، فهاجمتهم فرسان أبى دبوس ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل ابن يخيت وجنده ، وسار أبودبوس بعد ذلك إلى مراكش ، بعد أن تحقق من أخبار أنصاره وعيونه فى العاصمة ، أن الفرصة قد أضحت مؤاتية ، وتقدمه عرب سفيان الموالين له ، حتى وصلوا إلى باب الشريعة ، فسرى الاضطراب إلى المدينة ، كل ذلك والمرتضى صامت جامد ، إلى أن قرر أخيراً مواجهة الموقف ، وبعث رجاله فتفقدوا الأسوار فلم يجدوا بها حراسة ولا حراسا ، وكان الوقت قد فات لاتخاذ أى إجراء مجدى ، وصعد بعض رجال هسكورة إلى السور ، وهبطوا إلى الداخل ، وفتحوا باب الصالحة ، الواقع فى جنوبى المدينة ، وكان أبو دبوس قد وصل إليها فى حشوده ، ووقف المرتضى

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٣ و ١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٧٤ ، ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ ، والبيان المغرب ص ٤٤١ .

على ما تقدم ، وشهد بنفسه اجتماع الجند القادمين بين الأبواب ، وسمع قرع الطبول ، وأدرك أنه لم يبق أمل فى المقاومة ، فقرر الفرار ، وأخذ فى الأهبة له . وقرر أبو دبوس من جانبه دخول المدينة ، فدخلها من باب الصالحة أو باب الكحل ، وذلك فى ضحى يوم السبت الثانى والعشرين من المحرم سنة ٦٦٥هـ (أكتوبر سنة ١٢٦٦م) ، ولكنه لم يستطع دخول القصبة حتى العصر ، حينما أيقن بفرار المرتضى ، وخلو القصر من عاهله ، ودخل رجال هسكورة إلى المدينة ، وانقضوا على القيسارية ، ونهبوها وأحرقوها ، ونهبوا الدور وعاثوا فيها[1].

أما المرتضى فإنه فر من القصر فى عصر ذلك اليوم ، وخرج من باب النحل ، ومعه اثنان من وزرائه وبعض أولاده ، وقصد إلى الجبل ، صوب منازل كيك . ولكنه لم يجد بينهم نصيراً يلتجىء إليه ، وألفى معظمهم بالعكس ، قد انضم إلى جانب خصمه ، فسار مع أولاده إلى مدينة أزمور ، وكان واليها عبد العزيز ابن عطوش صهره ، وكان قد افتداه من أسر بنى مرين بمال كثير ، ولكنه لم يستطع دخول المدينة ، لأن واليها الغادر ، كان قد بعث ببيعته إلى أبى دبوس ، ولجأ المرتضى وأولاده ، إلى غار على شاطىء البحر ، حتى يظفر بمثوى أمين . وكان أبو دبوس مذ دخل القصر ، قد أرسل فى أثره جماعة من الخيل والرجال ، فطاردوه حتى أزمور ، وظفروا به ، وكبله الوالى هو وأولاده ، فى انتظار إرسالهم إلى أبى دبوس[2] .

وهكذا استولى أبو العلاء إدريس ، أبو دبوس ، على العاصمة الموحدية ، وبويع بالخلافة بجامع المنصور ، وبايعه كافة الموحدين ، والأشياخ والوزراء والقضاة ، وذلك فى اليوم التالى لدخوله المدينة ، يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة ٦٦٥ هـ ، وتلقب بالواثق بالله . وكان هذا الأمير الموحدى ، الذى شاء القدر ، أن تنتهى على يديه الدولة الموحدية ، حسبما تصفه الرواية ، داهية شجاعا ، وافر الفروسة ، حازما مقداما فى الأمور ، وكانت أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى . وكان أبيض اللون أشقر الشعر واللحية ، أزرق العينين ، طويل القامة ، كبير اللحية ، مهيب الطلعة[3] .

---

(١) البيان المغرب ص ٤٤٤ — ٤٤٦ ، والذخيرة السنية ص ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٠ .
(٢) البيان المغرب ص ٤٤٨ و ٤٤٩ .
(٣) روض القرطاس ص ١٧٤ والبيان المغرب ص ٤٥٤ .

ووزر للخليفة الجديد ، السيد أبو زيد عبد الرحمن بن السيد أبى عمران ، وأخوه السيد أبو موسى عمران بن أبى عمران ، وكتب له أبو الحسن الرعينى ، وأبو عبد الله التلمسانى ، وهما من كتاب سلفه .

وماكاد الواثق بالله يستقر بالحضرة ، حتى أجمع الناس على طاعته ، وتوافدوا على الحضرة ، من كل مكان، ورأى اجتذابا لعطف الشعب وتأييده ، أن يرفع المغارم والكلف عن الناس ، سواء فى الحواضر أو البوادى ، وأن يقتصر على الفروض الشرعية، التى جرى عليها العمل فى بداية الدولة، وأمر بالعفو عن المجرمين. ولكن كانت تنقصه الموارد والأموال ، ولم يجد شيئاً منها بالقصر أو بيت المال ، فكتب وزيره السيد أبو موسى عمران عن لسانه ، إلى الخليفة المعتقل — المرتضى — كتابا ، يسأله عن مصير الأموال التى كانت بيده ، وأن يعرفه بمكان إيداعها ، إذ هى أموال المسلمين ، وأنه إن فعل « شمله عفو أمير المؤمنين » فكتب إليه المرتضى بخطه ، يؤكد أنه لا يعرف أى مستودع للمال ، وأنه لم يودع ولم يدفن شيئاً ، وأن المال كان كثيراً ، وقت وصول المرينى ، ولكنه نفد بعد ذلك ، ثم يقسم له على صحة كلامه ويناشده أن يحقن دمه ، ويبقى على حياته ، ويسترحمه ويدعو له، فى عبارات مؤثرة[1]. فلما وقف الواثق بالله على كتابه ، تأثر لمحنته ، وبعث السيد أبا موسى عمران ، مع أبى سرحان بن كانون ، وجماعة من سفيان ، للقيام باستقدام المرتضى ، واستحضاره إليه . ولكن حدث بعد مسيرهم ، أن نصح السيد أبو زيد إلى الواثق، بعدم الإبقاء على المرتضى ، وحذره مما قد يترتب على مقدمه ، من التأثير فى موقف الجند والرعية ، فبعث الواثق براءة بخطه ، إلى السيد أبى موسى ، وحملها إليه عمر بن آصلماط ، تتضمن وجوب قتل المرتضى ، فى أول مكان يلتقى به فيه . فالتقى به فى موضع يسمى « فرزغون » من أرض دكاله ، وكان السيد أبو موسى ، قد وصل إلى هذا المكان ، ومعه المرتضى وأولاده ، وهم فى الأصفاد على الدواب ، فلما وقف على أمر الخليفة الواثق ، أخذ المرتضى جانبا، وأنزله عن دابته ، وأعدم قتلا بالسيف ، ودفن حيث قتل، وكان مصرعه فى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من صفر سنة ٦٦٥ هـ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٦٦م)[2]

---

(١) نقل إلينا صاحب البيان المغرب نص كتاب أبى موسى إلى المرتضى ، ونص رد المرتضى عليه ص ٤٤٩ و ٤٥٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٥٠ و ٤٥١ .

وهكذا هلك الخليفة المرتضى بالله ، بعد أن تولى الخلافة ، زهاء تسعة عشر عاما ، وهى فترة طويلة ، لم تتح لخليفة موحدى آخر ، من بعد عبدالمؤمن وولده أبى يعقوب يوسف ، وكانت فترة حاسمة فى تاريخ الدولة الموحدية . ففى خلالها تم تفكك الإمبراطورية الموحدية الشاسعة ، وأخذت أشلاؤها المقطعة ، تسقط تباعا فى أيدى خصومها ، فانفصلت سبتة وطنجة ، وقامت فى كل منهما حكومة مستقلة ، ثم توالى استيلاء بنى مرين ، بعد انتزاعهم لرباط تازا ، على حضرة فاس ، ثم سجلماسة ودرعة ، ثم على سلا ورباط الفتح ، وقامت ببلاد السوس ثورة وحكومة مستقلة . وهكذا فقدت الإمبراطورية الموحدية ، فى عصر المرتضى سائر أقطارها وحواضرها الهامة ، ولم يبق منها بيد الخلافة الموحدية ، سوى حضرة مراكش ، ورقعة تمتد بين وادى أم الربيع ووادى تانسيفت ، حتى ثغر أزمور ، ولقد حاول المرتضى غير مرة ، أن يكافح وأن يصد بنى مرين ، وقد خاض أكثر من موقعة ، ولكنه لم يبد فى أية مرة ، من صدق العزم والجلد ، ما كان يبديه أسلافه ، فى الدفاع عن تراثهم وعن أراضيهم ، وكان أكثر اهتماما بالدعة والاستقرار ، وحياكة الدسائس ، والبطش بخصومه بأساليبه الغادرة ، التى جرى عليها طوال حكمه ، ولم يكن للمرتضى خلال أومناقب بارزة ، يمكن أن يشيد بها المؤرخ ، ولم يكن ماتذكره الرواية عن علمه وورعه وزهده ، سوى ستار ، يحجب ما يضطرم داخل نفسه ، من مشاعر الحقد والضغن ، وشهوة البطش والغدر .

ووزر المرتضى رجال غير لامعين ، مثل أبى محمد بن يونس ، وأبى عبدالله محمد الحنفيسى ، وأبى زيد بن عزوز ، وأخيه السيد أبى اسحق ، وأبى محمد بن أصناج ، وأبى يوسف بن تيجا الجدميوى ، وأبى موسى بن عزوز الهنتاتى ، وغيرهم ، وقد صاهر المرتضى هذين الوزيرين الأخيرين ، وزوج كل منهما ابنة من بناته . وكتب للمرتضى أبو الحسن الرعينى ، وأبو عبد الله التلمسانى ، وكلاهما من كتاب العصر البلغاء[1] .

وكان الخليفة المرتضى فقيها عالما ، وأديبا شاعراً . ويقول لنا ابن عذارى إنه قد وقف على مجلد من شعره ونثره ، بيد أن شعره كان ضعيفاً ، ثم يورد لنا شيئاً من نظمه . فمن ذلك قوله من قصيدة نظمها فى شهر ربيع :

---

(١) البيان المغرب ص ٣٨٩ .

وافى ربيع قد تعطر نفحه أذكى من المسك العتيق نسيما
بولادة المختار أحمد قد بدا يزهو به فخرا وحاز عظيما

وقوله فى معنى الزهد :

ولما مضى العمر إلا الأقل وحان لروحى فراق الجسد
دعوت إلاهى مستعطفا ليصلح منى ما قد فسد

وكان شغوفاً بالكتب والتصانيف ، وكان ممن يتمتع بعطفه ورعايته ، من علماء عصره ، الفقيه أبو محمد ابن القطان ، وقد ألف له جملة من الكتب : منها كتاب « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » وهو الذى انتفعنا به ، وأشرنا إليه فيما تقدم ، فى غير موطن . وكتاب «شفاء الغالل فى أخبار الأنبياء والرسل » وكتاب « الأحكام لبيان آياته عليه السلام » وكتاب « المناجاة » وكتاب « المسموعات » وفيه قصائد مختارة فى فضائل المولد النبوى ، وشهور رجب وشعبان ورمضان ، وغير ذلك[1] . وقد أشاد ابن القطان فى كتابه « نظم الجمان » بذكر المرتضى ومدحه ، مما يدل على أنه كان متمتعاً بسابغ رعايته وجزيل صلاته[2] .

وتصف الرواية المرتضى ، بأنه كان معتدل القامة ، ساطع البياض ، عالى الأنف ، أسيل الخد ، أشيب ، لايخضب بحناء أو غيرها[3] .

أما أولاد الخليفة المرتضى ، فقد زجهم أبو دبوس إلى السجن ، فلبثوا معتقلين فيه طوال مدته ، حتى أطلق سراحهم الأمير أبو يوسف المرينى ، حينما دخل مراكش فى أوائل سنة ٦٦٨ هـ ، إلا كبيرهم محمد ، فكان قد قتل فى سجنه بأمر أبى دبوس . ولما أطلق سراحهم ، غادروا المغرب وعبروا إلى الأندلس ، والتجأوا إلى حماية ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وعاشوا بإشبيلية تحت كنفه أعواما طويلة ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى غرناطة ، وأقاموا بها تحت رعاية ملكها ابن الأحمر ، وأطلق لهم ملك غرناطة ، مايكفيهم من الأرزاق الشهرية . ويقول ابن عذارى إنهم كانوا بغرناطة حتى هذا الوقت الذى كتب فيه قصتهم . ويزيد على ذلك أن أخاهم أبا زيد ، غادر الأندلس فى سنة ٦٨٤ هـ ، وعبر إلى المغرب وسار إلى السوس راكبا على حمارة ، وسمته العامة من أجل ذلك بأبى حمارة ،

(١) البيان المغرب ص ٤٥٢ و ٤٥٣ .
(٢) كتاب « نظم الجمان » المخطوط السابق ذكره لوحة ٦٧ .
(٣) البيان المغرب ص ٣٨٩ .

وأنه نزل بجبل سكسا وعاش هنالك ، وهو يرتزق من النسخ ، وأنه كان مايزال بقيد الحياة ، هو وأخوه محمد المقيم بغرناطة ، حتى الوقت الذى كتب فيه ابن‌عذارى هذه السطور ، وهو عام اثنى عشر وسبعمائة[1] .

هذا ، وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، قصة أخرى عن أخ لأبى دبوس ، آخر الخلفاء الموحدين ، هو السيد أبو زيد بن السيد عبد الله ، حفيد الخليفة عبد المؤمن ، خلاصتها أن هذا السيد ، أو السويد حسبما تنعته الرواية ، كان مقيما بالأندلس ، وكان قد لجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو العاشر ، وعاش تحت رعايته بمدينة إشبيلية . وفى أواخر سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، أعلن هذا السويد اعتناقه لدين النصرانية ، فى حفل عام أقيم لهذا الغرض ، فقام ملك قشتالة بحلق لحيته بيده ، وكساه حلة ملوكية ، وعندئذ صعد السويد الموحدى ، إلى‌كرسى عال يشرف منه على الناس ، ثم قال : « أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود ، أنى قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة ، وكنت أكتمه ، وأنا الآن قد أبحته وأظهرته ، وأن دين المسيح بن مريم ، هو الدين القديم الأزلى » ؛ ثم تحدث ملك قشتالة ، فأثنى على السويد وهنأه باعتناق النصرانية . على أن هذا السويد المتنصر لم يعش طويلا بعد تنصره ، فقد توفى بإشبيلية بعد ذلك بأربعة أشهر فقط ، وذلك فى أوائل سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢ م)[2] .

وإنا لنقف قليلا ، عند هذه الظاهرة الأليمة ، التى تكررت بين بعض السادة من بنى عبد المؤمن ، وهى إقبالهم على اعتناق النصرانية ، وخروجهم بهذه الطريقة المثيرة ، على دين آبائهم وأجدادهم العريق ، الذين جاهدوا فى سبيل إعزازه أيما جهاد ، وعلى إمامتهم الموحدية ، ومقام خلافتهم العظيمة . وليس من شك فى أن هذه الردة ، التى تكررت على يد أبى محمد عبد الله البياسى ، وأخيه السيد أبى‌زيد والى بلنسية ، ثم على يد هذا السويد أبى زيد ، لم تكن ترجع إلى بواعث تتعلق بالإيمان أو العقيدة ، وإنما كانت ترجع إلى بواعث مادية ودنيوية ، وذلك حسبما تدلى به بالأخص حالة البياسى وأخيه السيد أبى زيد . ولاريب أن فى هذه الصفحة المؤلمة ما يصدع من هيبة الخلافة الموحدية ، ومن عظمة تاريخها .

---

(١) البيان المغرب ص ٤٥٤ . وهذه السطور تكشف لنا لأول مرة ، عن جانب من حياة المؤرخ ابن عذارى ، والعصر الذى عاش فيه ، وقد امتد حسبما ينبئنا بنفسه ، إلى ما بعد سنة ٧١٢ هـ ، ومن ثم فقد عاصر المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية ، وشطراً كبيراً من حياة الدولة المرينية فى مراحلها الأولى .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٠٦ .

الفصل الرابع

نهاية الدولة الموحدية

وعوامل تفككها وسقوطها

مبايعة أبي العلاء إدريس الواثق . الوحشة بينه وبين زعيم هسكورة . خروج الواثق في قواته . تصرفاته ومحاولاته لدى هسكورة . مخاطبته ووعوده للأمير أبي يوسف . مؤامرة في مراكش ضد الواثق . ضبطها وإخمادها . تأهب الواثق للزحف على بلاد السوس . ورود مبايعة يغمراسن وتحذيره من بني مرين . مسير الواثق ونزوله في جبال السوس . مهاجمته لحصن تيزغت واقتحامه . مسيره إلى حصن تيوينوين . مهاجمة الحصن وصموده . على بن يدر يتظاهر بعرض الطاعة . مسير الواثق إلى الحضرة في موكبه الخلافى الفخم . أبو يوسف يطالب الواثق بتنفيذ عهوده . شعور الواثق بقوته وكثرة حلفائه . رده الجاف على أبي يوسف . غضب أبي يوسف وزحفه على الحضرة الموحدية . استنجاد الواثق بيغمراسن . مهاجمة يغمراسن لأطراف الأراضي المرينية . ارتداد أبي يوسف لمحاربته . اللقاء بينهما في وادى تلاغ . المعركة العنيفة . هزيمة يغمراسن وفراره إلى تلمسان . عود أبي يوسف إلى التأهب لمحاربة الواثق . مسيره إلى مراكش وغزواته المخربة في طريقه . أبودبوس يحشد سائر قواته . خروجه للقاء بني مرين . ارتداد أبي يوسف نحو الشمال ومطاولة الموحدين . اللقاء بين الفريقين في وادى غفو . المعركة المضطرمة . بلاء أبي دبوس وجيشه . صمود بني مرين . مصرع أبي دبوس وتمزيق قواته . تعليق رأسه على سور فاس . مسير أبي يوسف إلى مراكش . فرار الموحدين إلى تينملل . دخول أبي يوسف مراكش واستقباله ومبايعته . انتهاء الدولة الموحدية . سيطرة بني مرين على سائر المغرب الأقصى . أبو يوسف يرسل حملة لإخضاع بلاد السوس . خروجه لمطاردة العرب في قطاع درعة وإخماد حركتهم . عوده إلى مراكش . مطاردته لبقايا الموحدين . ظفره بالقبض على بعض أكابرهم وإعدامهم. أبو يوسف يعقد ولاية العهد لولده أبي مالك . مسيره صوب سبتة وطنجة . استيلاؤه على طنجة . إذعان العزفى صاحب سبتة وإقراره بالطاعة . مسير أبي يوسف إلى سجلماسة وافتتاحها . جهاد أبي يوسف بالأندلس ونصرته لمملكة غرناطة . كون هذا الجهاد استمرار لرسالة المغرب التاريخية . وفاة السلطان أبي يوسف . الدولة الموحدية وعوامل تفككها . موقعة العقاب وآثارها . العوامل الأدبية . الحكومة الموحدية وصفتها الإقطاعية والعائلية. ضعف هذا النظام وقصوره. استطالة الممالك النصرانية على الأندلس. قصور الجيوش الموحدية عن حمايتها . التنافس على عرش الخلافة . خروج البياسى وأخيه السيد أبي زيد وما ترتب على ذلك . ثورة بني غانية وتخريبها لبلاد إفريقية . إنسلاخ إفريقية وقيام الدولة الحفصية . إنسلاخ تلمسان وسبتة وطنجة . نهوض بني مرين واستيلاؤهم تباعا على المغرب الأقصى . العوامل الأدبية . تحول الإمامة إلى ملك دنيوى . إلغاء الإمامة الموحدية ورسومها . ماخسرته الخلافة الموحدية بذلك . تقلب القبائل البربرية وطوائف العرب . الحرب الأهلية بين الخلفاء . انهيار الدولة الموحدية وكونه لم يحدث صدى قويا . انهيار الصرح القبلى الموحدى . عناصر هذا الصرح من القبائل والبطون . مصير هذه القبائل . اندثار هرغة قبيلة المهدى . قبر المهدى بتينملل . هنتاتة وفوزها بسلطان إفريقية . مصير جدميوه وغيرها .

— ١ —

لما دخل أبو العلى إدريس ، الملقب بأبي دبوس حضرة مراكش في اليوم الثاني والعشرين من محرم سنة ٦٦٥هـ ، واحتل القصر عقب فرار الخليفة المرتضى بايعه سائر الأشياخ والطلبة والكافة ، وتلقب حسبما تقدم بالواثق بالله . وكان أول

ما قام به أن ركب فى اليوم التالى ، وطاف بأحياء الحضرة ، للعمل على توطيد السكينة والنظام ، وتهدئة روع الناس ، وقمع المعتدين والمفسدين ، ثم كتب إلى حليفه ، الأمير أبى يوسف عاهل بنى مرين ، ينبئه بما تم ، وما انتهى إليه مجرى الحوادث ، ولبثت المخاطبات بينهما مدى حين .

بيد أنه وقعت وحشة ، بين الواثق وبين ابن جلداسن زعيم هسكورة ، لم لم توضح لنا الرواية أسبابها ، وكان ابن جلداسن من حلفائه ، ومعاونيه فى حركته إلى افتتاح مراكش ، حسبما ذكر فى موضعه ، ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أشهر حتى أخذ الواثق فى الأهبة للحركة والخروج ، فخرج فى قواته من مراكش ، فى الثانى عشر من شعبان سنة ٦٦٥ ، ه فنزل أولا بالبحيرة ، ثم سار إلى بلاد هيلانة فوادى أغمات ، ونزل فيه بمكان يسمى تادارت معطاسة ، وهنالك وفد عليه بعض أشياخ هسكورة ، ومنهم الشيخ حيدى بن مخلوف الهسكورى ، وكان يقوم من قبل الواثق بالاتصال بالأمير أبى يوسف ، ويتردد بينهما فى مراسلات ومفاوضات مختلفة . وقدم الواثق أبا موسى بن عزوز على بلاد حاحة ، ليقوم بالنظر فى أعمالها وتحصيل جبايتها ، وبعث رجلا من ثقاته ، هو عبدالعزيز بن عطوش إلى ابن جلداسن زعيم هسكورة ، ليستطلع الأمر ، وليحادثه فى بعض الشؤون ، فعاد هذا الرسول ، وأبلغه ما وقف عليه ، والظاهر أن الأمور كانت قد هدأت عندئذ ولم ير الواثق فى موقف ابن جلداسن مايستدعى الغضب والمؤاخذة ، فتركه على حاله ، وقنع منه بالطاعة ، مؤثراً مودته على خصومته[1] .

وسار الواثق بعد ذلك من تادارت إلى الولجة الواقعة فى شرقها ، وفى أثناء ذلك جاءت الأنباء بانصراف بنى مرين ، وإجازتهم لوادى أم الربيع ومسيرهم إلى بلادهم ، وكان الأمير أبو يوسف يعقوب ، قد خرج فى حشوده من فاس ، وسار إلى بلاد دُكالة وانتسف زروعها ، نذيرا لأبى دبوس ، فبعث إليه أبو دبوس الشيخ الصالح أبا العباس الهسكورى بهدية سنية ، ليطمئه وليؤكد له أنه سوف يفى بعهوده وينفذ ما اشترطه على نفسه ، فتقبل أبو يوسف ذلك الوعد ، وارتد منصرفا إلى بلاده . فكان ذلك من بواعث الارتياح فى المحلة الموحدية[2] . بيد أنه وصلت فى نفس الوقت ، أنباء تدل على أنه يخشى من وقوع أحداث فى الحضرة ، من جراء نشاط مريب ، يقوم به السيد عبدالعزيز بن الخليفة السعيد ، فسار الواثق فى

---

(١) البيان المغرب ٤٥٧ و ٤٥٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٦ .

جنده، إلى تاونزرت على مقربة من الحضرة، وبعث من هنالك بعض قواته لتحصيل الجباية من حاحة ورجراجة، وكان السيد عبدالعزيز هذا، من ولد الخليفة الراحل السعيد، وكان يرى أن قيام الواثق فى الخلافة، وهو ليس من عقب المنصور، اغتصابا يجب منعه، وانضم إليه فى ذلك بعض الزعماء، وكاتب ابن جلداسن شيخ هسكورة سراً، ليقوم بمعاونته، ووقف الواثق على ذلك من صهره، السيد أبى زيد ابن السيد أبى عمران والى مراكش، وضبطت بعض كتب كانت مرسلة، من السيد عبدالعزيز إلى جلداسن، وكان السيد عبدالعزيز يلزم داره متحرزاً على نفسه، فعمل السيد أبو زيد على استدراجه واستدعائه، فقصد إليه مع بعض أشياخ الموحدين، فواجهه بما نسب إليه، وأبرز له كتبه المكتوبة بخطه، فأسقط فى يده وبهت، وعندئذ قبض عليه، وأعدم بأمر الواثق، وأخمدت هذه المؤامرة فى مهدها[1].

وعلى أثر ذلك أخذ الواثق فى الأهبة للزحف على السوس، وفى خلال وجوده بوادى تانسيفت، وردت إليه هدية ومكاتبة، من الأمير يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان، يقدم فيها بيعته للخليفة الموحدى، ويحذره من أطماع بنى مرين فيما بقى من أقطار الدولة الموحدية، ويعد بمحالفته، وتعهده بأن يكفيه شر بنى مرين. وذاع أمر هذه البيعة الهامة بين الجند، وضربت الطبول ابتهاجا بها، وعم السرور لذلك فى المحلة الموحدية[2]. ثم تحرك الواثق صوب بلاد السوس، وتقدمه الشيخ أبو زكريا ابن وانودين، ليستنفر القبائل للخدمة، والحركة ضد على بن يدر الثائر بالسوس، واستمرت الحملة فى مسيرها حتى وصلت إلى جبال السوس (وهى شعبة من جبال الأطلس)، ونزلت هنالك فى بعض البسائط، وهنالك قضى الواثق عيد الفطر.

وأخذت الحملة بعد ذلك فى التنقل بين القبائل، وأصدر الواثق عدداً من الظهائر لبطون جزولة وغيرها، يبلغهم عزمه، على القضاء على ثورة على بن يدر وتأمين أرجاء نواحى السوس. ثم مرت الحملة بتارودنت حاضرة السوس، وقد خرب أكثرها، ونزلت المحلة هنالك فى واد أخضر، فى أسفل حصن تيزغت المنيع، وكانت به حامية قوية، من جند على بن يدر، فاستعد الجند لمهاجمته، ونشبت بينهم وبين حاميته معارك عنيفة، استمرت بضعة أيام، حتى اضطر قائده أخيراً، واسمه حمدين، إلى طلب الأمان، وقرر بأن على بن يدر، على

(١) البيان المغرب ص ٤٥٩ و ٤٦٠.

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٧، والبيان المغرب ص ٤٦١.

استعداد لإعلان الطاعة ، وقبل الواثق طلبه ، ولكن لم يتم التسليم ، وانتهى الأمر ، بأن اقتحم الموحدون أحواز الحصن ، بعد قتال شديد ، ولجأت الحامية إلى الداخل ، بعد أن قتل منهم عدد جم . وأخيراً اقتحم الحصن نفسه ، وأبيدت حاميته قتلا وأسراً ، وكانت أخت على بن يدر ضمن الأسرى ، وكتب بالفتح إلى الحضرة ، وكان ذلك فى ١٣ شوال سنة ٦٦٥ هـ(١).

وفى اليوم الحادى والعشرين من شوال ، استأنفت الحملة سيرها داخل بلاد السوس ، وقدم عندئذ أبو زكريا بن وانودين مع جمع كبير من واوزجيت ، وهم من خصوم على بن يدر ، وبعد يومين نزلت الحملة قرب تارودنت ، وكان ابن يدر قد خرب حصنها الكبير وهدمه ، فأمر الواثق بتجديده وأعادة بنائه ، ولكن لم يتم أمره بذلك . واتجهت الحملة بعد ذلك ، إلى حصن تيوينوين ، وهو من أعظم حصون السوس وأمنعها ، وكان فى معظم الأحيان مركزاً للعصيان والثورة ، فاستعدت حاميته القوية للدفاع ، وهاجم الموحدون الحصن ، وذلك فى الثانى من ذى القعدة ، فدافعت حاميته دفاعا شديداً ، ووصل عندئذ كتاب من السيد أبى زيد والى مراكش ، ومعه كتاب ببيعة أبى الحسن على بن أبى على ، من زعماء الخلط ، ودخوله فى الطاعة ، فكان لذلك أطيب وقع . ولما رأى الواثق مناعة الحصن ، وشدة بأس حاميته ، قرر اتخاذ الأهبة لاقتحامه ، بمعاونة من كان معه ، من حشود العرب وزناتة ، ولمطة وبنى واوزجيت ، وهوجم الحصن بشدة ، وضرب بالمنجنيق ، ولكن حاميته استمرت فى المقاومة .

واستمر الأمر كذلك حتى مر عيد الأضحى . وفى الحادى والعشرين من ذى الحجة ، وصل رسل على بن يدر ، يعرضون التوبة ، ويعدون البيعة والطاعة ، ولكن لم يتم شىء من ذلك ، واستمر حصن تيوبنوين على امتناعه. وورد على المحلة خلال ذلك كثير من عرب المعقل فى أهلهم وأموالهم برياسة شيخهم عبد المؤمن بن أبى الطيب لتقديم بيعتهم ، فتلقاهم الوزير أبو موسى ومعه العسكر ، وأكرم الواثق وفادتهم ، وأجزل صلاتهم ، وسمح لهم برؤية إخوانهم من المعتقلين ، فاطمأنوا عليهم ، ووعدوا بتسريحهم ، ثم عادوا إلى منازلهم(٢) .

وفى الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٦٦ هـ ، تأهب الواثق للعود إلى

(١) البيان المغرب ص ٤٦٥ و ٤٦٦ .

(٢) الذخيرة السنية ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٧٠ .

حاضرته ، وانتظم الموكب الخلافى ، فى أكمل وضع وأفخمه ، على نسق المواكب الموحدية ، فحمل المصحف الكريم (مصحف عثمان) ، فى هودجه بزينته القديمة ، وجعلت قلائد الفضة فى عنق الجمل الذى يحمله ، وجملت البغال بالكسى الجميلة ، وارتدى العبيد الذين يقودونها الثياب البيض ، وسار الواثق وراء المصحف ، ومعه الأهل والقرابة والحاشية ، ومن بعدهم الوزراء فى الساقة ، ومعهم الأعلام الخلافية السبعة ، وقبائل الموحدين كل منها رافعة علامتها التقليدية ، وسار الموكب على هذا النمط حتى أشرف على الحضرة ، فبرزت الناس والفرسان لاستقباله أعظم بروز ، وهم يحملون البنود والطبول ، واحتشد العرب من سائر البطون ، وكان يوما مشهوداً[1] . ولم يكن يخطر يومئذ ببال أحد أن الخلافة الموحدية تشهر آخر مواكبها ، وأنه سيكون لها بمثابة موكب الوداع ، الذى تنهار من بعده ، وتلفظ أنفاسها الأخيرة .

— ٢ —

وكان قد مضى عندئذ زهاء عام ، مذ دخل أبو العلى إدريس أو أبو دبوس حضرة مراكش ، وتبوأ الخلافة ، بمعاونة أبى يوسف ، ولم تبدر أية بادرة من أبى دبوس ، تدل على أنه يعتزم الوفاء بعهوده ، وإشراك العاهل المرينى ، فيما افتتحه من بقايا الدولة الموحدية القديمة ، بمعاونة جنده وأمواله ، وعندئذ كتب أبو يوسف إلى أبى دبوس ينذره بوجوب تنفيذ عهوده ، وتمكينه من نصف البلاد التى غلب عليها ، وفاء بعهوده . وكان أبو دبوس مذ وعده يغمراسن صاحب تلمسان بحلفه ومعاونته ، ومذ توالت عليه بيعات القبائل من العرب والبربر ، خلال زحفه على السوس ، قد شعر بتوطد سلطانه ، واشتداد ساعده ، واعتزم أن يدافع عن عرشه ، وعن تراث الدولة الموحدية . فلما جاءه نذير أبو يوسف ، رد رسوله بجفاء ، وطلب إليه أن يبلغ سيده ، بأن يقنع بما فى يده من البلاد ، وإلا جرد عليه جنوداً لاقبل له بها ، وكتب إلى أبى يوسف كتابا شديد اللهجة ، يخاطبه فيه مخاطبة الخلفاء والرؤساء إلى عمالهم . فثار لذلك أبو يوسف ، وخرج من فاس فى حشود بنى مرين والمغرب ، وعبر وادى أم الربيع ، وزحف على العاصمة

(١) البيان المغرب ص ٤٧١ و٤٧٢ . وهنا ينتهى المجلد الثالث من كتاب « البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب » لابن عذارى المراكشى وهو المخطوط الذى وجد فى الخزانة الناصرية بتامجروت بالمغرب وأشرنا إليه فى الفصل الخاص بالمصادر . وقد تم نشره بمدينة تطوان بعناية الأستاذ ا . هويسى ميرانده ومساهمة الأستاذين محمد بن تاويت وابراهيم الكتانى (أواخر سنة ١٩٦٣) وقد كان لنا خلال قيامنا بتأليف هذا الكتاب من أقيم مصادرنا ، وأهمها ، وأكثرها تفصيلا .

الموحدية ، وهو ينتسف الزروع ، ويخرب المنازل والضياع ، فاضطربت الأحوال فى مراكش ، وانقطعت عنها الموارد ، وقلت المؤن ، وارتفعت الأسعار فامتنع أبو دبوس بالحضرة، وبعث إلى حليفه يغمراسن بن زيان أمير تلمسان ، يستغيث به ، ومع رسله إليه هدية سنية . فنهض يغمراسن فى حشوده ، منتهزاً فرصة ابتعاد أبى يوسف بالقوات المرينية ، وأخذ يغير على أطراف المغرب الخاضعة لبنى مرين ، ولاسيما فى وادى ملوية ، أصل منازلهم ، ويعيث فيها تخريباً ونهبا وسلبا . فلما وقف أبو يوسف على ذلك اعتزم لفوره ، أن يترك أمر العاصمة الموحدية مؤقتا ، وأن يسير لقتال يغمراسن ، والقضاء على حركته أولا ، ثم يعود لمناجزة الموحدين . ومن ثم فقد غادر وادى تانسيفت ، وارتد راجعا فى قواته إلى فاس ، فأقام بها أياما يستكمل أهبته ، ثم غادرها فى جموع عظيمة ، حسنة الأهبة والسلاح ، وذلك فى منتصف شهر ربيع الأول سنة ٦٦٦هـ وكان يغمراسن فى تلك الأثناء قد استكمل من جانبه أهباته ، وحشد سائر قواته لملاقاة المرينيين . وسار أبو يوسف نحو وادى ملوية ، من طريق أجر سيف أو كرسيف ، وكان اللقاء بوادى تلاغ ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة طاحنة ، قاتل فيها كلاهما بمنتهى الإقدام والشجاعة ، وامتازت بالأخص بمثول النساء فى الهوادج والمراكب سافرات بين الفريقين ، وتحريضهن للشجعان على الثبات والإقدام ، وانتهت بانتصار بنى مرين ، وهزيمة يغمراسن وقومه بنى عبد الواد ، وتمزيق صفوفهم ، ومصرع جماعة من أكابرهم ، وفى مقدمتهم أبو حفص ولد يغمراسن . وفر يغمراسن بفلوله صوب تلمسان ، وتبددت جموعه ، واستولى بنو مرين على سائر مافى محلته ، من السلاح والعتاد والأموال ، ووقعت هذه الهزيمة الشنيعة على يغمراسن فى الثانى عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ[1].

وهكذا قضى أبو يوسف ، على الجبهة المعادية فى مؤخرته ، بالقضاء على قوى أمير تلمسان ، وارتد بقواته إلى فاس فاستراح بها حينا ، وهو يستكمل أهباته للمعركة التالية . ثم غادر فاس فى شهر شعبان من نفس العام (٦٦٦هـ) فى حشود ضخمة ، وعبر وادى أم الربيع ، وهبط إلى البسائط المؤدية إلى مراكش، وهو يسرح جنده فى كل ناحية لانتساف الزروع ، وتخريب الضياع ، والنهب والسبى ، وأنفق بقية سنة ٦٦٦ هـ فى القيام بتلك الغزوات المخربة ، ثم غزا عرب الخلط

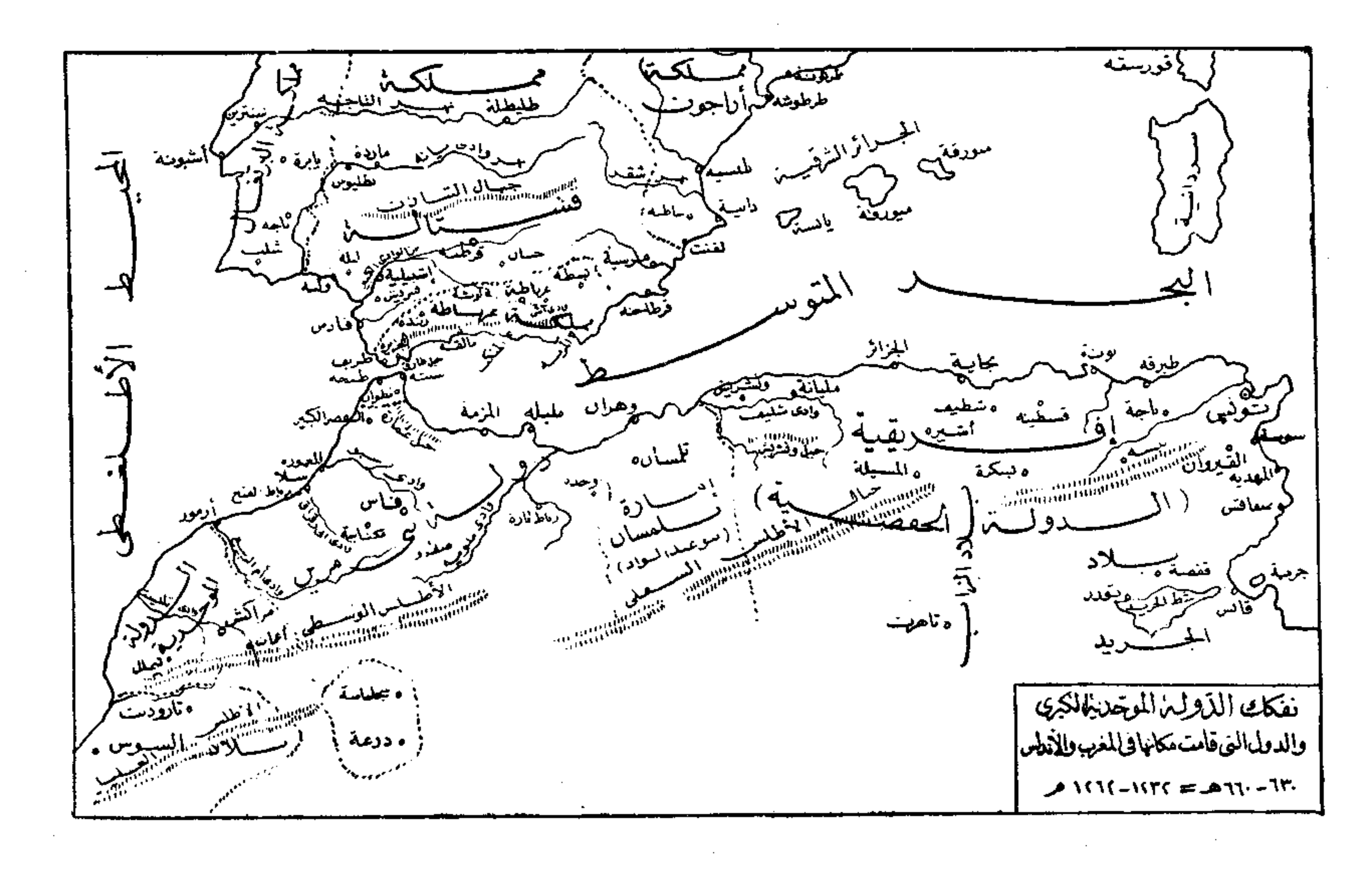
(١) الذخيرة السنية ص ١٣١ و١٣٢ وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٠ .

ومنازلهم بناحية تادلا ، وأثخن فيهم ، ومزق جموعهم ثم غزا وادى العبيد ، ونفذ إلى منازل صنهاجة ، وهى الواقعة فى شمالى وادى تانسيفت ، وعاث فيها . واستغرقت هذه الغزوات المحلية عاما آخر هوعام ٦٦٧هـ (١٢٦٨ م)[١].

وكان البلاط الموحدى خلال ذلك ، قد ساده الاضطراب والجزع ، وأخذ أشياخ الموحدين والعرب ، يهيبون بأبى دبوس أن ينهض لرد بنى مرين ، ودفع عاديتهم ، بعد أن تفاقم الأمر ، وخربت الديار ، وقتل الأهل والإخوة أو شردوا ، ولم يكن أمام أبى دبوس فى الواقع أى سبيل آخر سوى خوض هذه المعركة الحاسمة ، فحشد سائر قواته من الموحدين والعرب والأغزاز وبقايا الروم ، واجتمع له من ذلك جيش ضخم ، وخرج فى قواته من مراكش يريد لقاء بنى مرين ، وكان آخر الخلفاء الموحدين شجاعا مقداما ، وكان يعرف أنه سوف يخوض المعركة الأخيرة والحاسمة ، فإما أن يكتب له النصر على بنى مرين ، وعندئذ يستطيع أن يردهم إلى منازلهم ، فيما وراء وادى أم الربيع ، وأما أن يلقى هزيمته الحاسمة ويسقط مدافعا عن عرشه وقومه الموحدين . ولما علم أبو يوسف بخروج أبى دبوس فى قواته لمحاربته ، رأى أن يلجأ إلى خطة لاستدراجه وإبعاده عن قواعده ، فارتد فى قواته صوب الشمال . وتصور لنا الرواية ارتداد بنى مرين ، أمام زحف أبى دبوس ، فى صورة الخدعة الحربية ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه قد يدل من جهة أخرى على أن الأمير المرينى ، وقف على ضخامة الجيش الموحدى وحسن استعداده ، وأنه خشى أن يخوض معه المعركة الحاسمة ، قبل العمل على مطاولته وإنهاكه . وعلى أى حال فقد ارتد أبو يوسف فى قواته نحو الشمال ، وسار الجيش الموحدى فى أثره ، وهو يطاوله من موضع لآخر ، واعتقد أبو دبوس من جهة أخرى أنه يطارد جيشاً يخشى لقاءه ، واستمرت هذه المطاردة حتى وادى غفو ، وهنالك وقف بنو مرين واستعدوا للقاء الموحدين . ونشبت فى وادى غفو بين الجيشين معركة عنيفة ، قاتل فيها الفريقان بمنتهى الشجاعة والجلد ، وكان الموحدون يوالون الهجوم على بنى مرين ، وأبو دبوس يقود المعركة بنفسه ، ولكن بنو مرين ثبتوا كالصخر وقاتلوا بشدة حتى اختلت صفوف الموحدين ، وتمكنت جماعة من أنجاد فرسانهم ، من تطويق أبى دبوس وصحبه الذين حوله ، والتحمت بينهما معركة عنيفة ، أثخن فيها أبو دبوس

---

(١) روض القرطاس ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .


تفكك الدولة الموحدية الكبرى
والدول التي قامت مكانها في المغرب والأندلس
٦٣٠-٦٦٠هـ = ١٢٣٢-١٢٦٢م
المحيط الأطلنطي
البحر المتوسط
مملكة قشتالة
مملكة أراجون
إفريقية
الدولة الحفصية
تلمسان
وهران
تونس
المهدية
القيروان
صفاقس
بجاية
الجزائر
قسنطينة
بونة
طبرقة
باجة
سطيف
المسيلة
بسكرة
تاهرت
فاس
سبتة
طنجة
مراكش
أزمور
سلا
ميورقة
منورقة
يابسة
الجزائر الشرقية
سردانية
كورسقة
بلاد الجريد
قفصة
توزر
قابس
جربة
أشبونة
طليطلة
بلنسية
دانية
لقنت
مرسية
قرطاجنة
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
مالقة
المرية
جيان
شلب
سجلماسة
درعة
تارودنت

طعناً بالرماح ، وسقط صريعا عن جواده ، وقتل معه وزيره أبو موسى عمران ، وكاتبه على بن عبد الله المغيلى ، ومزقت صفوف الموحدين وبدد شملهم ، وسقطت محلتهم ، بسائر ما فيها من الأمتعة والأموال ، فى أيدى بنى مرين ، واحتز رأس آخر الخلفاء الموحدين ، وحمل إلى أبى يوسف ، فخرساجداً شكراً لله على ما أولاه من النصر ، وأرسلت الرأس فعلقت على سورفاس « ليعتبر برؤيتها جميع الناس » . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على الموحدين وهلك آخر خلفائهم فى يوم الأحد الثانى من شهر المحرم سنة ٦٦٨ هـ (أول سبتمبر ١٢٦٩ م)(١) .

وعلى أثر هذا النصر الحاسم ، سار الأمير أبو يوسف إلى مراكش ، وكان قد فر من كان بها من قرابة الخليفة وأشياخ الموحدين ، على أثر وقوفهم على نبأ النكبة المروعة ، ولجأوا إلى جبال الموحدين فى تينملل ، وهنالك بايعوا بالخلافة السيد أبا اسحاق أخا الخليفة المرتضى . بيد أنها لم تكن سوى شبح باهت ومهزلة تدعو إلى الرثاء . وفى يوم الأحد التاسع من المحرم سنة ٦٦٨هـ ، دخل عاهل بنى مرين أبو يوسف يعقوب حضرة مراكش فى موكب فخم ، فاستقبله سائر الأكابر والوجوه ، من الفقهاء والقضاة والأشياخ ، وبايعوه بالطاعة ، والتمسوا إليه الأمان والحماية ، فأمنهم أبو يوسف وطمأنهم ، وأذاع الأمان لسائر أهل المدينة ، وأحوازها فاطمأن الجميع ، وسادت السكينة والأمن ، واستقرت الأمور ، ونزل أبو يوسف بالقصبة ، وتم له بفتح مراكش ملك المغرب الأقصى ، وقامت على أنقاض الدولة الموحدية الأخيرة ، دولة جديدة هى دولة بنى مرين الفتية ، تسيطر على سائر أنحاء المغرب الأقصى ، من وادى ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقا ، حتى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن رباط تازا وجبال غمارة شمالا حتى وادى تانسيفت جنوبا ، وتسمى أبو يوسف منذ دخوله حضرة مراكش « بأمير المسلمين » ، وخرجت كتبه إلى القبائل بهذا اللقب ، وكان قبل ذلك يكتفى بلقب « الأمير »(٢) .

ولبث أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب ، مقيما بمراكش إلى شهر رمضان سنة ٦٦٩ هـ ، وهو ينظر فى شئونها وينظم أحوالها ، وترد إليه الوفود مهنئة من كل صوب ، وفى خلال ذلك ، بعث ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد فى حملة قوية إلى بلاد السوس لغزوها ، وإخضاع من بها ، من الثوار والقبائل الخارجة

---

(١) الذخيرة السنية ص ١٣٢ و ١٣٣ ، وروض القرطاس ص ٢٠٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٥ وج ٧ ص ١٨٢ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٣٤ .

عن الطاعة ، فسار إليها ، وغزا مختلف نواحيها ، واستمر فى توغله حتى ماسة ، ثغر السوس الأقصى ، وفرض الطاعة على سائر النواحي والقبائل ، ثم عاد إلى الحضرة . وبعد ذلك خرج أبو يوسف بنفسه ، إلى غزو طوائف العرب ، التى بسطت سلطانها على منطقة درعة ، وملكت حصونها ، وعاثت فيها قتلا ونهبا ، فسار إليهم فى رمضان ، واخترق منطق درعة ، واستنزلهم تباعاً ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، واستولى على أموالهم ودوابهم ، وسبى نساءهم ، وافتتح سائر بلاد درعة وحصونها ، وقضى فى غزوته هذه زهاء شهرين ، ثم عاد إلى مراكش فى منتصف شهر شوال ، فأقام بها فترة قصيرة ، وعقد عليها وعلى أعمالها لمحمد ابن على بن يحيى ، وهو من أكابر قرابته ووزرائه ، وأنزله بالقصبة ، وفوض إليه النظر فى شئونها ، وعهد إليه بالقضاء على آثار بنى عبد المؤمن وتتبع آثارهم أينما كانوا[1] . وكان من آثار هذه المطاردة أن قبض فى سنة ٦٧٤هـ ، بأحواز تينملل ، على السيد إسحق بن السيد أبى ابراهيم ، أخى الخليفة المرتضى ، وكان قد نصبه الموحدون هنالك خليفة كما تقدم ، وقبض كذلك على ابن عمه السيد أبى الربيع وغيره من القرابة ، وسيقوا مع أولادهم إلى مراكش وقتلوا جميعا[2] .

وغادر أبو يوسف مراكش فى منتصف ذى القعدة (٦٦٩هـ) فسار إلى رباط الفتح ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم أخذ البيعة لولده الأمير أبى مالك بولاية عهده[3] ، وعاد بعد ذلك إلى حاضرته فاس .

وعنى أبو يوسف بأمر سبتة وطنجة لما لها من أهمية بارزة بموقعهما على المضيق ، وكونهما معبر المغرب إلى الأندلس ، ومعبر الأندلس إلى المغرب ، ولاسيما بعد ما ظهر من نيات اسبانيا العدوانية نحو المغرب ، منذ غزو سفنها لثغر سلا ، فاعتزم الاستيلاء على هذين الثغرين الهامين ، وكان ابنه الأمير أبومالك قد زحف على طنجة فى سنة ٦٦٦هـ ، ولكنها امتنعت عليه ، وكان يسيطر على كلا الثغرين ، الفقيه العزفى حسبما تقدم ذكره . فسار أبو يوسف فى قواته إلى طنجة فى أوائل سنة ٦٧٢هـ ، واستولى عليها ، ومنح الأمان لأهلها ، ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب فى قوة كبيرة إلى سبتة فنازلتها أياما ، ثم أذعن العزفى إلى الطاعة ، وتعهد بأداء

(١) الذخيرة السنية ص ١٣٤و١٣٨ ، وروض القرطاس ص ٢٠٥و٢٠٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٣٩ ، وروض القرطاس ص ٢٠٦ .

الجزية ، فتقبل السلطان منه ذلك ، وارتد عائداً فى قواته إلى فاس(١) .

ولم يكن باقيا من قواعد المغرب الأقصى دون فتح سوى سجلماسة ، وكانت بيد يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، وحلفائه من عرب المنبّات من بطون المعقل، فسار إليها أبو يوسف فى جيش ضخم، وضرب حولها الحصار، ثم اقتحمها عنوة ، وكان افتتاحها فى شهر صفر سنة ٦٧٣ هـ . وتم بذلك افتتاح بنى مرين لسائر أمصار المغرب الأقصى وأقطاره ، وبسطهم لسيادتهم عليه كاملة شاملة .

ووقعت قبل ذلك فى سنة ٦٧٠ هـ ، حروب ومعارك طاحنة بين أبى يوسف ويغمراسن فى أحواز تلمسان ، ووجدة ، كان النصر فيها لأبى يوسف ، وهى أحداث ليس من موضوعنا أن نتناولها هنا ، لأنها تتعلق بتاريخ بنى مرين وبنى عبد الواد ، ولاعلاقة لها بتاريخ الدولة الموحدية .

أما عبور السلطان أبى يوسف إلى الأندلس بعد ذلك غير مرة ، استجابة لنداء ابن الأحمر صاحب غرناطة ، وجهاده بها ضد النصارى ، وانتصاراته الباهرة فى ذلك الميدان ، وماكان بينه وبين ابن الأحمر طوراً بعد طور ، من التحالف والقطيعة ، فقد تناولناه مفصلا فى كتابنا « نهاية الأندلس » . وإنما نود أن نشير هنا إلى أن نزول بنى مرين ميدان الجهاد بالأندلس ، إنماكان قياما بنفس الرسالة التاريخية ، التى بدأ بها المغرب منذ عصر المرابطين ، وأن بنى مرين خلفوا الموحدين، فى القيام بأعمال الجهاد فى الأندلس ، ولكن بعد فوات الوقت ، وبعد سقوط معظم القواعد الأندلسية التالدة ، فى أيدى النصارى ، خلال الفترة التى انهار فيها سلطان الدولة الموحدية ، وتضاءلت قواها ومواردها بالأندلس ثم المغرب . بيد أن تدخل بنى مرين فى سير الحوادث بالأندلس ، ومناصرتهم لمملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية بالأندلس، عصراً امتد زهاء ثمانين عاما ، كان أكبر عون لها فى كفاحها ضد اسبانيا النصرانية ، وفى صمودها الطويل ، فى ميدان الصراع ، ولولا عون بنى مرين وعبورهم المتوالى إلى شبه الجزيرة ، ليشدوا بأزر المملكة الإسلامية الصغيرة ، لما كتب لغرناطة كل هذا العمر الطويل الذى عاشته ، والذى امتد بعد انهيار الأندلس الكبرى زهاء قرنين آخرين .

وتوفى السلطان أبو يوسف يعقوب المرينى ، قاهر الدولة الموحدية ومبيدها بعد حياة حافلة بالفتوح المظفرة، فى أنحاء المغرب، وأعمال الجهاد الجليلة بالأندلس

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٧

وذلك بثغر الجزيرة الخضراء ، فى المحرم سنة ٦٨٥هـ (مارس سنة ١٢٨٥ م) وقد أسبغت عليه انتصاراته الباهرة بالأندلس لقب المنصور بالله[1].

— ٣ —

والآن نقف لحظة تأمل ، نحاول فيها أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التى أدت إلى سقوط الدولة الموحدية ، بعد أن عاشت منذ قيامها ، بإعلان المهدى ابن تومرت لإمامته ورياسته ، فى جبل إيجليز فى رمضان سنة ٥١٥ هـ ، حتى سقوط حاضرتها مراكش ، فى يد السلطان أبى يوسف يعقوب المرينى فى المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، مائة واثنتين وخمسين عاما ، قضت منها زهاء نصف قرن ، فى القضاء على الدولة المرابطية بالمغرب ، وافتتاح سائر أقطاره ، ثم افتتاح إفريقية وثغورها ، وافتتاح قواعد الأندلس بعد ذلك ، والقضاء على ثورة ابن مردنيش والاستيلاء على مملكة مرسية ، آخر مهاد الثورة والمقاومة بالاندلس ، وذلك فى سنة ٥٦٧هـ ، وقامت الإمبراطورية الموحدية الكبرى من ذلك التاريخ ، تمتد من لوبية وساحل تونس شرقا ، حتى المحيط الأطلنطى غربا ، ومن ضفاف نهر التاجُه بالأندلس شمالا ، حتى وادى درعة وبلاد السوس ومشارف الصحراء الكبرى جنوبا . على أن هذه الإمبراطورية العظيمة المترامية الأطراف ، لم تمكث على وحدتها وتماسكها أكثر من نحو نصف قرن ، هو الذى يشغله الشطر الأخير من عهد الخليفة عبد المؤمن ، وعهد ولده الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ثم عهد الخليفة المنصور . ومنذ عهد ولد المنصور ، الخليفة محمد الناصر (٥٩٥ — ٦١٠هـ) ، تعمل عوامل الانحلال والتفكك ، التى بدأت قبل ذلك حتى فى عهد المنصور ، وحجبتها قوته وعزمه وانتصاراته الباهرة ، عملها الفعال ، فى تقويض دعائم الدولة الموحدية ، وتمزيق وحدتها . ويمكننا أن نعتبر موقعة العقاب المشئومة (صفر ٦٠٩ هـ — يوليه ١٢١٢ م) أخطر العوامل الحاسمة ، فى تسرب هذا الانحلال ، إلى ذلك الصرح الشامخ ، فقد هزت هذه الكارثة العظيمة أسس الدولة الموحدية إلى الأعماق ، وكان ماوقع فيها من إفناء مروع للجيوش الموحدية وسحق لقوى الدولة ومواردها العسكرية ، نذيراً واضحاً بانحلالها ، وتضعضع قواها ، وتضاءل مواردها . ثم جاء عصر الخلفاء الأحداث والخلفاء الضعاف ،

---

(١) راجع فى جهاد أبى يوسف وغزواته بالأندلس كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين » الطبعة الثانية ص ٨٨ — ٩٨ .

وعصر التنافس على عرش الخلافة ، والحروب الأهلية المستمرة ، وذلك كله فى ظل دولة تقتص أطرافها وتنهار مواردها تباعا .

على أن موقعة العقاب الحاسمة ، جاءت لتعزز عوامل خطيرة أخرى ، كانت تجتمع تباعا ، لتحدث آثارها المخربة المادية والأدبية ، فى صرح الدولة الموحدية . وقد كانت هذه العوامل تعمل عملها حتى فى ظل عصر النهضة ، وعصر الخلفاء الأقوياء ، وقد كان فى مقدمة هذه العوامل ، نظام الحكومة الموحدية ذاته ، وأسلوب الحكم الموحدى . فقد كانت الحكومة الموحدية تقوم على أساس العصبية والقبيلة والأسرة ، وكان الخليفة الموحدى وهو رأس الدولة ، يجعل من أقطار الدولة وعمالاتها إقطاعات قبلية وعائلية ، فلايتولى الحكم فى الأقطار والعمالات سوى السادة من أبناء الخليفة ، وأبناء عمومته وقرابته ، إلا فى أحوال نادرة ، وكانت هذه القاعدة تطبق فى المغرب والأندلس فى وقت واحد . ولم يكن أولئك السادة أوالحفاظ ، أو الزعماء القبليين ، الذين يتولون الحكم ، فى المقاطعات والمدن ، يتمتعون دائماً بمستوى عال ، من الكفاية والحزم والنزاهة ، وإن كان منهم فى أحيان كثيرة ، رجال من ذوى المقدرة ، والنباهة والعفة ، وقادة من أقدر رجال الحرب . ولاشك أن هذا الأسلوب الإقطاعى الضيق ، فى حكم العمالات والمدن ، لم يكن دائماً كفيلا بتحقيق النظام والأمن والرخاء ، أوبالدفاع عن مختلف أقطار الإمبراطورية وثغورها ، ومن ثم فقد كشفت حوادث الأندلس وإفريقية ، غير بعيد ، عن ضعف هذا النظام وقصوره . فأما فى الأندلس فقد استطالت اسبانيا النصرانية والبرتغال على الأراضى الإسلامية ، ونفذت قشتالة بغزواتها إلى ما وراء جبل الشارات (سيرّا مورينا) ، ووصلت جيوشها إلى بسائط قرطبة وإشبيلية ، ونفذت مملكة ليون الصغيرة حتى ضفاف نهر وادى يانه ، واستطاعت مملكة البرتغال الناشئة من جانبها ، أن تستولى على قواعد ما وراء التاجه ، وأن تنفذ بغزواتها جنوبا حتى شلب ، وشرقا حتى بطليوس . ولم تستطع القيادة الموحدية بالأندلس بالرغم مما كان لديها من الموارد والحاميات العديدة ، وبالرغم مما كان يتدفق عليها من القوات من وراء البحر ، أن تقمع هذا العدوان المستمر من جانب النصارى ، أو أن تقف فى وجه الغزوات النصرانية بطريقة ثابتة ، بل لم يستطع الخلفاء الموحدون أنفسهم ، بالرغم من عبورهم إلى شبه الجزيرة غير مرة ، فى جيوشهم الزاخرة ، وعُددهم الهائلة ، حماية الأندلس

واسترداد قواعدها وثغورها المفقودة ، وكان ما أصابهم من مرارة الإخفاق أكثر مما حققوا من الفتح والنجح ، ولم يكن بين غزواتهم الموفقة اللامعة سوى غزوات المنصور وانتصاره الباهر فى معركة الأرك العظيمة (شعبان ٥٩١ هـ — يوليه ١١٩٤م) وهو انتصار لم تلبث أن محت آثاره هزيمة العقاب الساحقة (٦٠٩هـ) . وتفاقمت هذه الآثار فى الأندلس بقيام الخليفة العادل ، خروجا على خلافة أبى محمد عبد الواحد بمراكش ، ثم اضطرام ثورة البياسى (٦٢١—٦٢٣هـ) ، وجنوحه إلى ممالأة ملك قشتالة ، وتسليمه إليه عديد الأراضى والحصون ، ثم خروج الخليفة المأمون على أخيه العادل ٦٢٤ هـ ، والتجائه إلى ملك قشتالة ، واستعانته بالجند النصارى على تحقيق أمره ، وتسليمه بدوره لملك قشتالة طائفة جديدة من الحصون الأندلسية . ويجب أن نضيف إلى ذلك مأساة السيد أبى زيد والى بلنسية وأخى عبدالله البياسى ، فقد رأينا ما كان من أمر هذا السيد ، حينما نهض الأمير أبو جميل زيان وانتزع منه حكم بلنسية ، فقد التجأ إلى حماية ملك أراجون ، واعتنق النصرانية وأصبح حربا على أمته ودينه ، يسلم للنصارى ما كان بيده من الحصون ، ويقودهم إلى غزو الأراضى الإسلامية . وقد كانت هذه الأحداث المبيرة كلها ، نذيراً بانهيار الأندلس ، وتمزيق وحدتها ، وتفكك أوصالها ، والتمهيد لسقوط قواعدها الكبرى ، وكان فى الوقت نفسه نذيراً بفقد الدولة الموحدية لهذا القطر العظيم من أقطارها .

وأما فى إفريقية ، فقد كان غزو بنى غانية لثغورها وقواعدها الغنية ، وعيثهم فى بسائطها ، وقتلهم لسكانها وانتهابهم لأموالها ، وذلك مدى ثلاثين عاما ، وما اضطرت الخلافة الموحدية أن تخوضه من المعارك المستمرة فى إفريقية ، خلال هذه الفترة ، وما تكبدته من الجهود والنفقات الهائلة ، فى سبيل هذه المعارك ، وما هلك من جيوشها فى ميدان القتال لمدافعة بنى غانية ، وللذود عن سلطانها فى إفريقية : كان لذلك كله أثر بالغ فى تقويض مواردها ، وإضعاف قواها ، وتخريب قطر من أعظم أقطارها ، وأغناها وأزخرها بالموارد . وبالرغم من أن الخلافة الموحدية ، استطاعت فى النهاية أن تقضى على فورة بنى غانية ، وأن تسترد منهم سائر الثغور والأراضى الإفريقية ، وأن تفتتح ميورقة موطنهم الرئيسى ، ومثوى حكومتهم ورياستهم ، فإن ذلك لم يكن كافيا لتوطيد سلطان الدولة الموحدية بإفريقية ، ولم يكن ليحول دون تيار الحوادث الجارف ، وقد كان يندفع بإفريقية إلى قدر آخر غير البقاء فى ظل الدولة الموحدية .

وقد كان انسلاخ إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيام الدولة الحفصية بها منذ سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٩ م) فى الواقع نتيجة لفورة بنى غانية ، والأحداث العظيمة التى أثارتها ، وكان هذا الانفصال ، بعد ضياع الأندلس ، أخطر ضربة أصابت الإمبراطورية الموحدية من الناحية الإقليمية ، ثم تبعتها تلمسان فاستولى عليها يغمراسن بن زيان وقومه من بنى عبد الواد ، وقامت بها أمارة مستقلة ، أخذت فى التوطد والنماء، وبذلك فقدت الدولة الموحدية إفريقية والمغرب الأوسط وفقدت فى نفس الوقت ثغرى سبتة وطنجة ، حيث قامت كلتاهما أولا بالدعوة الحفصية ، ثم استقلت سبتة برياسة الفقيه العزفى (سنة ٦٤٧ هـ) وتبعتها طنجة ، فاستقلت برياسة ابن الأمين . وبذلك فقدت الدولة الموحدية سائر ثغورها الشمالية .

ثم كانت المرحلة الأخيرة فى تفكك الدولة الموحدية ، وهى المرحلة التى ظهر فيها بنومرين ، وقوى أمرهم بوادى ملوية ، وغلبوا تباعا على أطراف المغرب الأقصى . وفى الوقت الذى شغلت فيه الخلافة الموحدية بمصانعة طوائف العرب من الخلط وغيرهم ، ومعالجة غدرهم وخياناتهم ، وبقمع الثورة فى الأنحاء الجنوبية ، كان بنومرين يتوغلون تباعا فى الأنحاء الشمالية . ولما شعر الموحدون بخطر بنى مرين ، على ما تبقى من إمبراطوريتهم الشاسعة ، فى المغرب الأقصى ، كان الوقت قد فات للتغلب على تلك القوة الناهضة الدافعة ، وكان سقوط مكناسة فى أيدى بنى مرين فى سنة ٦٤٣هـ ، بداية النهاية فى ضياع أمصار المغرب الأقصى ، وتلتها فاس عاصمة المغرب القديمة التالدة، فسقطت لأول مرة فى أيدى بنى مرين فى سنة ٦٤٦هـ ، ثم استولوا عليها نهائيا بعد ذلك بعامين ، وكان سقوط فاس أعظم أمصار المغرب الأقصى بعد مراكش، عنوان الانهيار الأخير ، فلم تمض عشرون عاما أخرى هى عهد الخليفة المرتضى ، حتى اجتاح بنو مرين سائر أراضى المغرب الأقصى ، فيما وراء وادى أبى رقراق ووادى أم الربيع ، واستولوا على سائر تلك المنطقة ، ثم كان استيلاؤهم على مراكش فى المحرم سنة ٦٦٨ هـ من يد صنيعتهم أبى دبوس ، خاتمة ذلك الصراع المرير المؤلم ، وكان خاتمة الدولة الموحدية .

وإذا تركنا العوامل والأسباب المادية جانبا ، فإن العوامل الأدبية قد لعبت أيضاً ، دوراً فى هذه المأساة التاريخية . ذلك أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس الإمامة المهدية ، والعقيدة الموحدية ، وكانت هذه الأسس بغض النظر عن حقيقة أمرها ، توثق أواصر الزعامة الموحدية ، وتجمع كلمة الموحدين القبلية

والعقيدية ، حول إمامة واحدة ، فلما تحولت الإمامة الموحدية ، إلى خلافة دنيوية ، وانحصرت فى بنى عبد المؤمن ، ضعفت هذه الأواصر العقيدية ، التى كانت توثق بين الزعامة الموحدية ، ولم يبد الخلفاء الموحدون من بعد عبد المؤمن أية حماسة ظاهرة فى تمجيد الإمامة المهدية . وكان الخليفة المنصور بالعكس ، يبدى ريبه فى صحة إمامة المهدى ، وفى عصمته ، ولكنه لم يجرأ على أن يحدث أى تغيير ظاهر ، فى رسوم الإمامة الموحدية . فلما تولى ولده أبو العلا إدريس المأمون الخلافة ، كان فى ذلك أشد منه جرأة وإقداما ، فأصدر مرسومه الشهير بإلغاء الإمامة المهدية ، ومحو رسومها وآثارها (٦٢٧ هـ) وقام بذلك بثورة حقيقية فى كيان العقيدة الموحدية . وكان من أثر هذا الاجتراء على محو تراث المهدى ووصيته الدينية ، أن خرج معظم الأشياخ الموحدين على خلافة بنى عبد المؤمن ، ولجأوا إلى منازلهم فى جبال المصامدة . وبالرغم من أن هذا الانفصام لم يكن له أثر مباشر من الناحية المادية ، فقد كان له من الناحية الأدبية أعمق وقع ، وفقدت خلافة مراكش من جرائه كثيراً مما كانت تتمتع به ، من التأييد الروحى والقبلى ، ولاسيما فى منطقة جبال المصامدة وبلاد السوس . فلما كان عهد الرشيد ولد المأمون ، وقع التقرب بين الزعماء الموحدين وبين الخلافة الموحدية ، وأعاد الرشيد رسوم الإمامة المهدية ، وتقاليدها السابقة ، إرضاء لهؤلاء الزعماء ، وجمعا للكلمة . ولكن الخلافة الموحدية لم تبرأ من ذلك الصدع الذى أصابها ، ولم يكن ذلك التقرب الجديد بينها وبين أوليائها القدماء ، وثيق العرى ، بل كانت تغشاه الريب المتبادلة والحذر الدائم .

وكذلك كان أمر الروابط القبلية بين الخلافة الموحدية ، وبين بعض القبائل البربرية القوية ، وطوائف العرب من أنصارها القدماء . وقد كانت هسكورة وهى من أقوى هذه القبائل وأكثرها عدداً ، تتردد بين تأييد الخلافة الموحدية وبين الخروج عليها ، لابسبب العقيدة أو المبدأ ، ولكن لبواعث المصلحة الشخصية ، وقد لعبت بذلك دورا هاما فى المرحلة الأخيرة ، من مصاير الخلافة الموحدية . وأما طوائف العرب مثل عرب الخلط وعرب المعقل وبنى جابر وغيرهم ، فقد كان موقفهم من الخلافة الموحدية ، موقفاً ذميا مؤلما ، ولم يكن يحدوهم فى تأييدها أية عاطفة من الولاء الثابت ، أو شكر الصنيعة ، مهما أغدقت عليهم ، وكان تقلبهم فى تأييد الجهات المختلفة ، لاتمليه سوى البواعث المادية الوضيعة . وكانت أعمال التخريب والعيث والسفك والنهب ، هى جل ما يستغرق نشاطهم أينما حلوا ، وكانت خياناتهم

وتخاذلهم عن نصرة حلفائهم، فى مختلف المعارك، مضرب الأمثال، وقد عانت الخلافة الموحدية كثيراً من أعمال غدرهم ونكولهم، وذلك حسبما فصلناه فى مختلف المواطن.

ويجب ألا ننسى تبعة الخلفاء الموحدين أنفسهم، فى العمل على تقويض أسس سلطانهم ودولتهم. فقد رأينا الخلفاء، منذ وفاة يوسف المستنصر، ينحدرون إلى هاوية الحرب الأهلية، ويشتغلون بالصراع فيما بينهم، حول اغتنام العرش، ويبددون قوى الدولة ومواردها، فى معارك أهلية عقيمة، وقد استغرقت معارك المأمون، ثم ولده الرشيد، ويحيى المعتصم، فترة طويلة وموارد زاخرة، فى الوقت الذى كان فيه بنو مرين يتوغلون داخل أنحاء المغرب، ويوطدون سلطانهم فيها، وقد اجترأ الموحدون فى أواخر عهدهم على قتل خلفائهم، فقتل الخليفة أبو محمد عبد الواحد، ثم قتل خلفه الخليفة العادل، وقتل المأمون أشياخ الموحدين، الذين نكثوا بيعته، وقد كانوا نحو مائة أو تزيد، وقد أفنيت بهذا العمل الدموى، خلاصة الزعامة الموحدية، وانهار نفوذها القوى فى توجيه الشئون.

ومما تجدر ملاحظته أن الدولة الموحدية، جازت عهداً طويلا من الانحلال والتفكك، استطال زهاء ستين عاما، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، وتدرجت فى هذا الانحلال أطواراً متعاقبة، فلم يكن سقوطها أمراً سريعا مفاجئاً، كما حدث فى أمر الدولة المرابطية، وإنما كانت كل مرحلة تنبىء عن المرحلة التالية، ومن ثم فإن سقوطها لم يحدث فى الأمة المغربية هزة عميقة، كتلك التى أحدثها سقوط الدولة المرابطية، ولم يقع فى مراكش أو غيرها من المدن المغربية، عند انهيار الحكم الموحدى، شئ من تلك المناظر المروعة، التى اقترنت بدخول الموحدين مراكش، وغيرها من الحواضر، واستقبلت الأمة المغربية دولتها الحاكمة الجديدة — دولة بنى مرين — بشعور الاستبشار والرضى، ولم يلبث أن تألق الحكم الجديد، وسطعت دولة بنى مرين الزاهرة، وساد الأمن والنظام، وعم اليسر والرخاء فى الحواضر والبوادى، واختفت تلك الهزات والأحداث العنيفة، التى لبثت تعكر صفاء السلم والحياة الوادعة، أكثر من نصف قرن.

— ٤ —

وعلى أثر انهيار الدولة الموحدية، انهار ذلك الصرح القبلى الشامخ، الذى كان ينتظم عقده، من سائر قبائل المصامدة، والموحدين، كلما جد الجد أو أقبل الجهاد، فيغدو عماد الجيوش الموحدية الجرارة، وكانت هذه القبائل تنقسم

إلى مجموعتين : الأولى قبائل المصامدة ، والثانية قبائل الموحدين . فاما المجموعة الأولى ، فكانت تضم قبائل هسكورة ودكالة وهيلانة وحاحة وغيرها ، من قبائل المصامدة ، وكانت هسكورة أكبر هذه القبائل عددا وأكثرها بطونا ، ومن بطونها قبيلة جنفسية (كنفيسة) ، وكانت لضخامتها ووفرة حشودها ، تحتل مكانة ملحوظة ، بين قبائل الدولة الموحدية ، بيد أن أهلها كانت تغلب عليهم البداوة ، لايخالطون الموحدين ، فيما انغمسوا فيه من حياة الحضر والترف ، بل يؤثرون التزام جبالهم المتشعبة من جبال الأطلس الشامخة ، والممتدة فى جنوب شرقى مراكش حتى مشارف السوس الأقصى : ولما غلب بنو مرين على الدولة الموحدية ومحوا آثارها ، اضطهدوا هسكورة وفرضوا عليها المغارم الثقيلة ، فلزموا السكينة ، ولبثوا معتصمين بجبالهم ، ولم يرتضوا خدمة الدولة الجديدة ، ولم يدينوا بدعوتها ، وكانت كلما اشتدت عليهم وطأة عسكر بنى مرين ردوهم بدفع الإتاوات من آن لآخر . وكان رؤساؤهم يتمتعون بنوع من الاستقلال المحلى ، ويحشدون حولهم الحشود لحماية سلطانهم ، وتحصيل جباياتهم ، ويستعينون أحيانا ببعض قبائل الجبل من أهل بسائط السوس من بطون هسكورة وجنفيسة ، وكذلك ببعض بطون العرب مثل بنى الحارث من سفيان ، والشبانات من عرب المعقل . وهكذا لبثت هسكورة بعيدة عن الولاء لبنى مرين ، لاتدين بطاعتهم ، إلا عن طريق الجزية ، كما حدث أيام السلطان أبى الحسن المرينى ، وأحيانا تناوئهم متى شعرت بضعف الدولة وتراخيها(١) .

وكذلك استقلت بقية قبائل المصامدة غربى مراكش ، مثل دكالة وهيلانة وحاحة ، بأمرها ورياستها ، وكانت منازلهم تمتد غربا حتى شاطىء المحيط(٢).

وأما المجموعة الثانية فكانت تضم قبائل الموحدين ، ومنازلها على مقربة من مراكش ، وكانت منها سبع قبائل امتازت بالسبق والإيثار على غيرها ، لاعتناقها دعوة المهدى ابن تومرت ، قبل أن يتوطد أمره ، أو بعبارة أخرى قبل افتتاح مراكش . وهذه القبائل السبع تنتمى إلى المصامدة ، وهى هرغة قبيلة الإمام المهدى ، وهنتاتة ، وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة فى بداية أمره ، وجنفيسة ، وهزرجة ، وجدميوة (كدميوة) ووريكة . وتلحق بها قبيلة ثامنة ، هى كومية قبيلة الخليفة عبد المؤمن ابن على كبير صحابة المهدى . وكانت هذه القبائل الثمان لسبقها فى البيعة والطاعة ، تتمتع بمزايا الإيثار فى السلطان والنفوذ ، وتولى المناصب والقيام بمهام الأمور . فلما

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٢ و٢٦٣ . (٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٤ .

انهارت الدولة الموحدية ضعف أمرهم ، وأضحوا من الرعايا العاديين للدولة الغالبة[١].

وقد دثرت قبيلة هرغة — قبيلة المهدى — بعد سقوط الدولة بقليل ، وفقدت كل مكانة ونفوذ ، وكذا كان مصير قبيلة أو أهل تينملّل ، وهم الذين نزل بينهم المهدى وأعلن إمامته ، وأنشأ داره ومسجده ، وكان لهم شأن فى مناصب الدولة ، وعمالاتها ، ولكن رجالاتهم انقرضوا غير بعيد ، وملك أمرهم غيرهم من زعماء المصامدة .

وكان قبر المهدى لديهم بتينملّل ، مايزال حتى العصر الذى كتب فيه ابن خلدون تاريخه ، حوالى سنة ٧٨٠ هـ ، مايزال مزارا مرموقاً ، وعلى ماكان عليه من التجلة والتعظيم ، يتلى به القرآن والأحزاب باستمرار ، ويقوم عليه الحجاب والحفاظ ، وترى إليه الوفود من كل فج ، وتقدم الصدقات نذرا وتبركا . وكان أهل تينملل ومعهم كافة المصامدة ، يعتقدون اعتقاداً جازما ، بأن أمر المهدى سيعود ، وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق ، ويملأ المهدى الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وذلك وفق ماوعدهم به[٢].

وأما هنتاتة ، فكانت من أشد قبائل الموحدين بأسا وتمكنا فى الدولة ، وذلك لما كان عليه زعيمها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، أحد الصحب العشرة ، من مكانة ملحوظ لدى المهدى ، وقد لبث أبناؤه يتبوأون أرفع مناصب الدولة ، وانتهى زعيمهم أيام الناصر ، الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص ، بأن غلب على ولاية إفريقية ، ومهد ملكها لعقبة ، فأقاموا بها دولة مستقلة عظيمة . ولما انتهت الدولة الموحدية ، لبثت هنتاتة فى موطنها القدم بجبال درن ، على مقربة من مراكش ، وكانوا أيام بنى مرين ، من القبائل الخاضعة لسلطان الدولة الجديدة ، يولون عليها من شاءوا لضبطها وتحصيل جبايتها .

وكانت قبيلة جدميوة تابعة لهنتاتة ، وتينملل ، وجبلهم بجوار جبل هنتاتة ، فلما انهارت الدولة افترق أمرهم ، وخضع بعضهم لبنى مرين ، وامتنع البعض الآخر عن الطاعة . وكانت وريكة كذلك من القبائل المجاورة لهنتاتة ، وكانت بينهم فتن وحروب مستمرة هلك فيها كثير من الفريقين المتخاصمين[٣] .

وهكذا كانت الخاتمة المؤسية ، لتلك المجموعة من القبائل البربرية والبدوية ، التى هزتها دعوة المهدى ابن تومرت إلى الأعماق ، ومكنتها من أن تنشىء دولة من أعظم الدول ، فى الغرب الإسلامى ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٦ .
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٧ ، وراجع ماورد فى القسم الأول بشأن قبر المهدى ص ١٩٨ .
(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٠ و ٢٧١ .

الكتاب الحادي عشر

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر الموحدى

الفصل الأول

قشتالة وليون

منذ عهد الفونسو الثامن حتى عهد فرناندو الثالث

ألفونسو الثامن الملقب بالنبيل . الممالك النصرانية الإسبانية فى عهده . ألفونسو الثانى ملك أراجون . العلائق بين قشتالة وأراجون . اجتماع ألفونسو الثامن وألفونسو الثانى . تسوية العلائق بينهما وتحالفهما . زواج ألفونسو الثامن من إبنة ملك انجلترا هنرى الثانى . ألفونسو الثامن يشهر الحرب على ناڤارا . غزوه للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على قونقة . توثق العلائق بين قشتالة وأراجون . التحكيم بين قشتالة وناڤارا . تنظيم فتوح الإسترداد بين قشالة وأراجون . اضطراب العلائق بين قشتالة وناڤارا . وفاة فرناندو ملك ليون . يخلفه ولده ألفونسو التاسع . غزوات القشتاليين لأراضى الأندلس حتى موقعة الأرك . غزوات الموحدين لأراضى قشتالة . تحالف ملك قشتالة وبيدرو الثانى ملك أراجون . تعاونهما فى محاربة ناڤارا وليون . استنصار سانشو ملك ناڤارا بالموحدين . عبوره إلى المغرب وزيارته للخليفة الناصر . غزو ملك قشتالة لناڤارا واستيلاؤه على جيبوسكوا . اهتمام البابوية بالتجاء ملكى ناڤارا وليون إلى الموحدين . مطالبتها بإلغاء زواج ألفونسو التاسع من ابنة عمه برنجيلا . إلغاء هذا الزواج وآثاره . إهتمام ألفونسو الثامن بفتوح الإسترداد . سعيه فى جمع كلمة الملوك النصارى . تكتل اسبانيا النصرانية ضد اسبانيا المسلمة . تأييد البابوية والنصرانية لهذا التكتل . عبور الناصر إلى الأندلس . موقعة العقاب ونتائجها المشئومة . غزوات ألفونسو الثامن لأراضى الأندلس . وفاته وخلاله . إصلاحاته الداخلية . ولده الطفل إنريكى يخلفه على العرش . وقوعه تحت وصاية آل لارا . مشروع لزواجه وإلغاء البابوية لهذا المشروع . وفاة إنريكى فى حادث . الملكة برنجيلا تنصب ولدها فرناندو الثالث على عرش قشتالة . فرناندو الثانى ملك ليون . يعقد الصلح مع ألفونسو الثامن . وفاته وقيام ولده ألفونسو التاسع فى العرش . عقده لمجلس الكورتيس . يعقد الصلح مع قشتالة والبرتغال . زواجه من الأميرة تريسا البرتغالية وإلغاء البابوية لهذا الزواج . تحالفه مع الموحدين . عقد التحالف بين ناڤارا وليون والموحدين . عود ألفونسو التاسع إلى التفاهم مع قشتالة . زواجه من الأميرة برنجيلا ثم إلغاء هذا الزواج . تردده بين مخاصمة قشتالة ومسالمتها . إجتماع كلمة الملوك النصارى تحت ضغط البابوية . غزوات القشتاليين لقطاع أبدة ، ومحاصرة ألفونسو التاسع لقاصرش . قيام فرناندو الثالث فى عرش قشتالة أثر وفاة ألفونسو الثامن . محاولة ملك ليون معارضته وانتزاع العرش منه . فشل هذه المحاولة . عقد السلام بين قشتالة وليون . عود ألفونسو التاسع لمحاصرة قاصرش وافتتاحها . استيلاؤه على ماردة وبطليوس . وفاته . بترك العرش لإبنتيه . تنازلهما عنه لفرناندو الثالث . عود اتحاد قشتالة وليون . فرناندو الثالث ملك قشتاله وليون ، وخايمى الأول ملك أراجون . اهتمام فرناندو الثالث بفتوح الإسترداد . ظروف الأندلس تمهد لهذه الفتوح . غزوات فرناندو فى الأندلس الوسطى . استيلاؤه على أبدة . استيلاؤه على قرطبة وأحوازها . تنافس ابن هود

وابن الأحمر على مصانعته . وفاة ابن هود واحتواء ابن الأحمر على معظم تراثه . اهتمام فرناندو بالضغط على ابن الأحمر . ابن الأحمر يعقد الصلح مع فرناندو ويعترف بطاعته . أعظم أعمال فرناندو استيلاؤه على إشبيلية . استيلاؤه على بقية قواعد هذه المنطقة . عنايته بالشئون الداخلية . إصلاحه لنظم الحكم والإدارة إنشاؤه لجامعة شلمنقة . إنشاؤه لدار الصناعة بإشبيلية . مشروعه فى توحيد القوانين القشتالية . إتمام هذا المشروع فى عهد ولده ألفونسو العاشر . وفاته وخلاله .

١ — مملكة قشتالة

انتهينا فيما تقدم ، من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية حتى وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس (١١٥٧ م) وما أعقب وفاته من تقسيم مملكته ، بين ولديه سانشو وفرناندو ، حيث اختص أكبرهما سانشو بعرش قشتالة ، واختص الأصغر فرناندو بمملكة ليون وجليقية ، وما حدث بعد ذلك من وفاة سانشو فجأة فى سنة ١١٥٨ م ، لعام فقط من حكمه ، دون أن يترك لوراثة العرش سوى طفل فى الثالثة من عمره هو ألفونسو ، وما أثارته مسألة الوصاية على هذا الأمير الطفل فى قشتالة من حرب أهلية مضطرمة بين أسرتى كاسترو ولارا ، استمرت بضعة أعوام ، وانتهت حينما بلغ الطفل الحادية عشر من عمره بإعلانه ملكاً على قشتالة ، تحت كنف أسرة لارا القوية .

كما تحدثنا فيما تقدم ، عن قيام جماعات الفرسان الدينية ، فى الممالك الإسبانية النصرانية ، وعن قيام مملكة البرتغال ، واشتداد ساعدها ، فى عصر ملكها ومنشئها الحقيقى ألفونسو هنريكيز .

ونود الآن أن نتابع تاريخ هذه الممالك الإسبانية النصرانية ، خلال العصر الموحدى ، وذلك فى شىء من الإيجاز ، ولاسيما فيما يتعلق بمراحل الصراع ، بينها وبين الأندلس المسلمة ، أو بعبارة أخرى بينها وبين الدولة الموحدية ، صاحبة السيادة على الأندلس فى تلك الفترة ، وذلك لأننا تتبعنا مراحل هذاالصراع خلال كتابنا بإفاضة وافية .

بدأ ملك قشتالة الصبى ألفونسو الثامن ، الملقب بألفونسو النبيل ، حكمه حينما بلغ الرابعة عشرة فى سنة ١١٦٩ م . وكانت اسبانيا النصرانية ، تنقسم يومئذ إلى أربع ممالك ، هى قشتالة وليون وأراجون ونافارا (نبرّة) ، هذا عدا مملكة البرتغال ، وكانت تشق طريقها الخاص فى غربى شبه الجزيرة ، وتتخذ لنفسها سياسة مستقلة ، عن باقى الممالك الإسبانية . وكانت قشتالة ، بالرغم من انفصال ليون عنها ، وقيامها مملكة مستقلة ، ما تزال أكبر الممالك الإسبانية رقعة ،

وأوفرها قوة وموارد ، تليها فى ذلك مملكة أراجون التى اتسعت رقعتها ، ونمت قوتها باتحاد إمارة قطلونية أو إمارة برشلونة معها ، وذلك منذ سنة ١١٣٧ م حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه . وكانت ليون ثالثة الممالك الإسبانية ، بيد أنها لم تكن فى الواقع ، بالرغم من استقلالها وانفصالها عن قشتالة ، وفقاً لوصية القيصر ألفونسو ريمونديس ، سوى إمارة ضعيفة تشق طريقها بصعوبة ، ولم يكن لها كبير شأن ، فى سير الحوادث الهامة فى شبه الجزيرة ، وكان التوتر سائداً بينها وبين شقيقتها الكبرى قشتالة . وكانت نافارا وهى رابعة هذه الممالك كعهدها دائماً ، مملكة صغيرة الرقعة ، ولكن قوية الشكيمة ، ممتنعة وراء جبالها الوعرة ، وحرصها المأثور على استقلالها .

وكان على عرش أراجون فى الوقت نفسه ملك فتى آخر ، هو رامون برنجير الذى سمى ألفونسو الثانى ، وقد تولى العرش عقب وفاة أبيه رامون برنجير الربع فى سنة ١١٦٢ م ، ولقب كأبيه بملك أراجون وقطلونية ، وكانت علائق أراجون وقشتالة ، منذ أواخر عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، على أتم صفاء ووفاق ، وذلك لما كان يربط القيصر بعاهل أراجون رامون برنجير الرابع ، من وشائج المصاهرة ، بزواجه ، من ابنته الملكة برنجيلا . وكان أول عمل قام به ألفونسو الثامن ، أن اجتمع فى ساهاجون بزميله الفتى ملك أراجون ألفونسو الثانى ، وذلك فى سنة ١١٧٠ م ، وقد شهد هذا الاجتماع أكابر الأحبار ، والأشراف من المملكتين ، واتفق الملكان على تسوية سائر الشئون والخلافات القائمة بين المملكتين ، وعقدا معا حلفا ضد باقى الملوك والأمراء ، ماعدا ملك انجلترا هنرى الثانى ، وذلك لأن ألفونسو الثامن كان قد عقد خطبته على ابنته الأميرة إلينور ، ثم سار الملكان إلى سرقسطة عاصمة أراجوان ، وقضى ألفونسو الثامن فى سرقسطة زهاء شهرين فى انتظار مقدم عروسه الأميرة الإنجليزية ، وكانت قادمة من انجلترا فى حاشية فخمة من الأحبار والفرسان الإنجليز والنورمان والغسقونيين ، وكانت قد سارت بعثة ملكية قشتالية ، على رأسها أسقف طليطلة حتى ثغر بوردو ، وعادت بالأميرة الإنجليزية إلى اسبانيا . وسار الملكان إلى طرسونة حيث عقد زواج ألفونسو الثامن بالأميرة إلينور فى حفلات باذخة ، فى تلك المدينة الأرجونية المتواضعة .

وكانت أول حركة قام بها ألفونسو الثامن هو شهره الحرب على نافارا ،

وكان سانشو السادس ملك ناڤارا قد انتهز فرصة قصر ألفونسو ، وانتزع جزءاً كبيراً من أراضى قشتالة المجاورة ، فلما عقد التحالف بين أراجون وقشتالة ، زحف ألفونسو على ناڤارا فى جيش ضخم فى صيف سنة ١١٧٣ م ، واستولى على بريفسكا ولوجرينو ونابارّيتى ، وهزم ملك ناڤارا ، وطارده حتى أحواز بنبلونة . وبعد ذلك بعامين عاد ملك قشتالة وحليفه ملك أراجون، فشهرا الحرب ضد ناڤارا ، وأوقعا بها هزائم أخرى .

وكانت فكرة غزو الأراضى الإسلامية، هى الهدف الأول للسياسة القشتالية. ولم يشذ ألفونسو الثامن عن هذه القاعدة ، ففى أواخر سنة ١١٧٦ م ، خرج ألفونسو ووصيه السابق الكونت نونيودى لارا ، واتجها صوب حدود شرقى الأندلس ، وكانت مدينة قونقة إحدى قواعد الحدود الإسلامية ، هدف هذه الغزوة ، خصوصاً وقد كان الموحدون ، يتخذونها قاعدة للإغارة على أراضى شرقى قشتالة ، واضطرت القوات القشتالية ، نظراً لمناعة المدينة ، أن تضرب حولها الحصار ، واستمرت قونقة ، صامدة نحو تسعة أشهر ، ولم تستطع الأمداد الموحدية أن تصل إليها ، حيث اعترضتها قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة ، وسقطت المدينة المسلمة فى النهاية ، فى أيدى القشتاليين ، فى سبتمبر سنة ١١٧٧م ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه (١) .

وجدد ملك قشتالة وملك أراجون تحالفهما ، بمناسبة ما أبداه ملك أراجون ، من المعاونة فى فتح قونقة ، وأحلّ ملك قشتالة زميله الفتىّ ، من عهد الولاء الذى كانت ترتبط به أراجون نحو قشتالة ، منذ عهد رامون برنجير الرابع. وفى الوقت نفسه اتفق ملك قشتالة مع خصمه سانشو السادس ملك ناڤارا ، على تسوية ما بينهما من خلاف ، واتفقا على أن يخضعا فى ذلك لتحكيم هنرى الثانى ملك انجلترا ، وبعث كل من الملكين سفراء إلى لندن ، ليعرضا ما بينهما من أوجه الخلاف . وبعد أن درس هنرى الثانى ، وجوه النظر المختلفة ، وأخذ رأى البرلمان فى ذلك ، أصدر قراره بأن يرد كل من الملكين إلى الآخر بعض القواعد والأراضى ، التى كان يدعى كل ملكيتها ، وأن يرد ملك قشتالة بالأخص إلى ناڤارا ، لوجرينو وأوسيخو ونابارّيتى ، وأن يدفع ملك قشتالة لملك ناڤارا مدى عشرة أعوام ثلاثة آلاف مراڤيدى كل عام ، فقبل الملكان هذا القرار ،

---

(١) تراجع قصة حصار قونقة وسقوطها فى ص ٩٦ ، ٩٧ من هذا الكتاب .

وعقد بينهما السلم لمدة عشرة أعوام .

وكانت فكرة التحالف بين قشتالة وأراجون ، وهما أقوى الممالك الإسبانية النصرانية ، تنطوى قبل كل شىء على التكتل ضد الجبهة الإسلامية فى شبه الجزيرة ، والتعاون فى دفع حركة الإسترداد النصرانية La Reconquista ضد الأندلس ، ومن ثم فقد كان لابد من تنظيم هذه الحركة ، وتحديد مناطقها بالنسبة لكل من المملكتين ، وقد عقد اتفاق جديد من هذا النوع بين الملكين فى بلدة كسولا Cazola حيث التقيا ، وذلك فى سنة ١١٧٩ م ، وفيه خصت مملكة أراجون بالفتوح فى منطقة بلنسية الإسلامية جنوبا حتى ثغر لقنت ، وخصت مملكة قشتالة بالفتوح فى سائر الأراضى الواقعة جنوب هذا الثغر ، وجاء هذا الاتفاق ، مؤيداً لأول اتفاق عقد بهذا الشأن ، بين القيصر ألفونسو ريموندیس ، والكونت رامون برنجير ، بمدينة كربون فى سنة ١١٥٠م ، حسبما سبق أن أشرنا إليه فى موضعه[١] .

وعقد ملكا قشتالة وأراجون أيضاً ، حلفا جديداً ضد ملك ناڤارا ، لأنه بدأ يعارض فى قرارات التحكيم التى أصدرها ملك انجلترا ، والتزم كل من الفريقين بتنفيذها ، واضطر ملك قشتالة من جراء ذلك أن يحتل لوجرنيو وناباريتى وبريفيسكا وغيرها ، وهى الأماكن التى تقرر ردها إلى ناڤارا ، لأن ملك ناڤارا أبى من جانبه أن يرد الأماكن التى تقرر ردها إلى ملك قشتالة . وقد اقترح ملك أراجون ، أن يعقد اجتماع جديد بين الملكين المتخاصمين ، وعقد هذا الاجتماع بالفعل فى جريدا ، فى سنة ١١٨٥م ، ولكنه لم يسفر عن نتائج حاسمة ، واستمر التوتر فى العلائق قائما بين ناڤارا وقشتالة .

وفى سنة ١١٨٨ م . توفى فرناندو الثانى ملك ليون وجليقية ، وهو كما نذكر عم ملك قشتالة ، وخلفه فى الحكم ولده ألفونسو التاسع ، ورأى ملك ليون الجديد ، أن يعدل سياسة الخصومة التى كان يتبعها أبوه نحو قشتالة ، وأن يعقد معها أواصر الود ، فقابل ألفونسو الثامن فى كريون ، وقدم إليه طاعته ، وأسبغ عليه ملك قشتالة ثوب الفروسية ، وهكذا ارتدت ليون إلى التفاهم مع قشتالة ، بعد أن لبثت حينا تناصبها العداء .

ولسنا فى حاجة لأن نكرر هنا ، الحديث عند الغزوات المتوالية ، التى قام

(١) راجع ص ٥٠٩ من القسم الأول من هذا الكتاب .

بها القشتاليون فى أراضى الأندلس ، منذ استيلائهم على حصن شنتفيلة فى سنة ١١٨٢ م ، حتى غزوة مطران طليطلة وفرسان قلعة رباح لأراضى جيان وقرطبة فى سنة ١١٩١ م ، وخروج ملك قشتالة فى قواته لاختراق جبال الشارات ، وغزو أراضى الأندلس مرة أخرى فى سنة ١١٩٤ م ، على أثر انتهاء أجل الهدنة التى سبق أن عقدها مع الخليفة يعقوب المنصور ، منتهزاً فرصة انشغال المنصور بحوادث إفريقية ، وما كان لهذا العدوان من أثر ، فى تحرك الخليفة الموحدى ، وعبوره إلى الأندلس فى جيوشه الزاخرة ، لقمع هذا العدوان ، وما تلا ذلك من نشوب موقعة الأرك العظيمة بين الموحدين وبين قوى قشتالة ، وذلك فى ١٨ يوليه سنة ١١٩٤م (٩ شعبان سنة٥٩١ هـ) ، وهى معركة انتهت بنصر الموحدين الباهر ، وذلك كله حسبما فصلناه فيما تقدم من كتابنا .

وقد وضعت هزيمة الأرك ، حدا موقتا ، لتفوق قشتالة العسكرى فى شبه الجزيرة ، ولنشاطها المخرب فى أراضى الأندلس ، وكانت فرصة انتهزها سانشو ملك نافارا ، فأغار على أراضى قشتالة من ناحية سُرية وعاث فيها ، وهذا إلى ما قام به الموحدون من جانبهم ، من استردادهم لقلعة رباح ، ومن غزوات مخربة متوالية ، فى منطقة طلبيرة وطليطلة والقلعة ، ووادى الحجارة وغيرها ، وما قام به ألفونسو التاسع ملك ليون من غزو أراضى قشتالة بمعاونة الموحدين ، واجتياحها حتى مدينة كريون ، وهى غزوة تعاونت قوات قشتالة وأراجون فى دفعها[1] .

ولم يجد ملك قشتالة ، إزاء هذه الخطوب المتوالية ، ملاذا إلا فى محالفة أراجون . وكان ملكها ألفونسو الثانى قد توفى فى سنة ١١٩٦م ، وخلفه ولده الملك پيدور الثانى ، وتوثقت أواصر هذا الحلف مع أراجون ، وغدا ملكها الجديد ، أكبر عون لملك قشتالة . وبدت ثمار هذا الحلف فى معاونة ملك أراجون لقشتالة فى محاربة نافارا وليون وحلفائها الموحدين ، وشهر الملكان الحرب على نافارا ، ثم على ليون ، ونفذت الجيوش المتحدة إلى ليون وعاثت فيها . وترتب على هذه الحرب أن ألغى مشروع زواج ألفونسو التاسع ملك ليون ، من الأميرة برنجيلا إبنة ملك قشتالة ، وكان ألفونسو الثامن قد جعل مهرها رد الأراضى والحصون التى اقتطعها من ليون .

---

(١) راجع ص ٢٣٣ من هذا الكتاب .

ولما شعر سانشو ملك نافارا ، بما يتهدده من جراء هذا الحلف القوى ، بين خصميه ملكى أراجون وقشتالة ، فكر فى الاستنصار بالموحدين على غرار ملك ليون ، وعبر البحر فى جماعة كبيرة من الفرسان إلى مراكش ، ملتجئاً إلى الخليفة المنصور ومستنجدا به ، ولكنه ماكاد يصل إلى العاصمة الموحدية حتى كان المنصور قد توفى ، وخلفه ولده محمد الناصر (أواخر يناير سنة ١١٩٩) فاستقبل الناصر الملك النصرانى بمنتهى الحفاوة والتكريم ، وأمضى سانشو فى مراكش زهاء عامين ، وتوثقت علائقه بالخليفة الموحدى وبلاطه ، حتى كاد وفقاً لقول الرواية الإسلامية : أن يعتنق الإسلام[1] ، وفى الرواية النصرانية أن سانشو اشترك خلال إقامته بالمغرب ، فى حروب الناصرفى إفريقية وأبلى فيها[2] ، وهو مالم نجد له أثراً فى الرواية العربية .

ويجب أن نذكر أن هذه الزيارة من جانب ملك نافارا لبلاط مراكش ، قد تلتها زيارته الأخرى للناصر ، عقب عبوره إلى الأندلس فى سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ، وقد زاره ملك نافارا خلال إقامته باشبيلية ، وهى الزيارة التى تقدمها إلينا الرواية العربية فى عبارات غامضة رنانة فى نفس الوقت ، وقد سبق أن أشرنا إليها تفصيلا .

وفى خلال ذلك ، انتهز ملك قشتالة الفرصة ، وغزا أراضى نافارا ، وكانت ولاية جيبوسكوا ، بالرغم من كونها لبثت دهراً منضمة إلى قشتالة ، قد احتلها ملوك نافارا ، وضموها إلى مملكتهم ، فلما نفذ ألفونسو الثامن بقواته ، إلى أراضى نافارا ، وحاصر مدينة فتورية، طلب إليه أهل جيبوسكوا ، أن تعود ولايتهم إلى أراضى قشتالة ، فترك حصار فتوربة للدون دى هارو ، وسار إلى جيبوسكوا واتفق مع زعمائها على شروط وضعها تحت حماية قشتالة، واحتلت قواته سان سبستيان ، وفوانتى رابيا ، وحصن بلاسكواجا ووادى اديارسون كما استولى على مقاطعة ألبة (سنة ١٢٠٠ م) ، وعلى أثر ذلك سلمت فتورية ، وذلك بموافقة سانشو نفسه، وكان نئبه أسقف بنبلونة قد عبر البحر إلى مراكش لينبئه بما حدث وعاد بموافقته ، وبذلك فقدت نافارا شطراً كبيراً من أراضيها[3] .

---

(١) راجع ص ٢٩٠ من هذا الكتاب .

(٢) La Fuente : Historia General de Espana, T. III. p. 346

(٣) La Fuente : ibid ; T. III. p. 346

وحاول ملك أراجون فى نفس الوقت أن يحصل على نصيبه من أراضى نافارا ، فهاجمها بقواته ، ولكنه لم يستطع أن يفتتح منها ، إلا بضعة أماكن صغيرة . ودافعت بنبلونة، وغيرها من المدن الكبيرة ، عن نفسها أعنف دفاع ، واستطاعت أن ترد القوى المغيرة على أعقابها .

وقد أثار التجاء ملك ليون ألفونسو التاسع ، وملك نافارا سانشو القوى ، إلى الموحدين ، صدى سيئاً فى اسبانيا ، واهتمت البابوية ، بجنوح هذين الملكين النصرانيين إلى محالفة المسلمين أعداء الدين ، وبعث البابا سلستينو الثالث ، بسفير خاص من قبله ، ليسدى النصح إلى الملكين الخارجين ، وليهددهما بصدور القرار بنفيهما من الكنيسة ، إذا لم يعدلا عن مسلكهما ، فنزل سانشو مرغما على هذا الوعيد ، وعقد هدنة مع خصميه ، ملكى أراجون وقشتالة ، ولكنه نقضها قبل بعيد ، ثم توفى البابا سلستينو ، وخلفه البابا إنوصان الثالث ، فبعث إلى اسبانيا برسول جديد ، ليرى على من تقع تبعة هذه الحروب الأهلية المتوالية ، بين الملوك النصارى ، وليعمل فى نفس الوقت على إلغاء زواج ألفونسو التاسع من إبنة عمه الأميرة برنجيلا إبنه ألفونسو الثامن ، وكان الزواج قد تم قبل ذلك ببضعة أعوام ، واعتبرته البابوية باطلا لشدة القرابة بين الزوجين.

وقد أثارت مطالبة البابوية بإلغاء هذا الزواج ، مشكلة قومية فى ليون ، وخصوصاً بعد أن أصدر البابا إنوصان الثالث قراره بالحرمان الكنسى ، وانقسم الأحبار فى شأنه ، بين مؤيد له ، ومنكر لصحته . ومع ذلك فقد عاد البابا ، ووافق على تخفيف نصوص الحرمان ، وسمح بتنصير أول ولد جاء من هذا الزواج فى كنيسة ليون الكبرى . وقد كان هذا الإبن هو فرناندو الذى احتفل الكورتيس بتعيينه وليا للعهد (سنة ١٢٠٤م) ، والذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ملك قشتالة الكبرى ، وفاتح قرطبة وإشبيلية . وبعد ذلك ارتضت الملكة برنجيلا الطلاق من زوجها ، وألغى البابا قرار الحرمان الكنسى ، وانتهت بذلك مشكلة كانت تهدد سلام ليون وسكينتها .

وكاد الخلاف ينشب من جديد بين قشتالة وليون ، بسبب طلاق الأميرة القشتالية ، ومطالبة أبيها برد ما استولت عليه ليون من الحصون والأراضى مهراً لها ، ولكن تغلب صوت العقل والسلم . وكان ألفونسو الثامن ، يشعر بأن مهمته الأساسية هى أن يتفرغ لمقارعة الموحدين ، وفتوح الإسترداد La Recon uista

وأن يبذل كل ما فى وسعه لجمع كلمة الملوك النصارى فى شبه الجزيرة ، للتعاون فى تحقيق هذه المهمة الكبرى ، وقد نجح ألفونسو فى سعيه . ونحن نعرف أنه كانت تربطه بملك أراجون بيدرو الثانى أواصر التحالف الوثيق ، ثم كان أن زاره سانشو السابع (القوى) ملك ناڤارا فى وادى الحجارة (سنة ١٢٠٧م) ، وتم التفاهم بين الخصمين القديمين ، وعقدت بينهما الهدنة والتحالف لمدة خمسة أعوام ، ووعد ملك قشتالة بتوسطه لدى بيدرو الثانى لكى يعقد مثل هذه الهدنة مع الملك سانشو[1] ، وفى نفس الوقت عقد السلم بين ملكى قشتالة وليون على نسق ما تم فى مؤتمر وادى الحجارة ، وأخيراً تم التفاهم بين ألفونسو الثامن ، وسانشو ملك البرتغال ، وتوثق التحالف بينهما بزواج الأميرة أوراكا القشتالية ، بألفونسو ولى عهد البرتغال .

وهكذا اجتمعت الممالك الإسبانية النصرانية كلها فى جبهة واحدة ، تحت رعاية ملك قشتالة وقيادته .

وكان اجتماع كلمة اسبانيا النصرانية على هذا النحو ، لايقصد به فقط تحقيق سلامها الداخلى ، بل كان ينطوى قبل كل شىء على المضى فى تحقيق الهدف الرئيسى الذى تدخر له اسبانيا النصرانية كل مواردها وقواها ، وهو محاربة اسبانيا المسلمة ، ودفع تيار فتوح « الاسترداد » بأقصى ما يستطاع . ولم تكن اسبانيا النصرانية تقف وحدها إزاء هذا الهدف ، بل كانت البابوية والنصرانية كلها ، تحبو تلك الغاية بعطفها ومؤازرتها الفعلية ، ولم تبخل البابوية بأن تسبغ الصفة الصليبية على أية طور من أطوار هذا الصراع ، وكان البابا إنوصان الثالث ، يشمل بنصحه ورعايته كل حركة تقارب واتحاد بين الملوك الإسبان ، وكان فوق ذلك يوعز إلى الأحبار فى جنوب فرنسا ، أن يبثوا كل دعاية ممكنة ، لحشد السادة والفرسان ، للتطوع إلى هذه الحرب المقدسة . وقد سبق أن أشرنا فى الفصل الذى خصصناه لموقعة العقاب إلى تلك الجهود فى حشد قوى النصرانية كلها ضد اسبانيا المسلمة . وكان عبور الخليفة محمد الناصر فى جيوشه الجرارة إلى الأندلس فى أواخر سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) عاملا جديداً فى إذكاء تلك الحركة الصليبية . ولم يلبث ملك قشتالة أن بدأ أهباته لشهر الحرب على الأندلس ، وبدأ القشتاليون غزواتهم المخربة للأندلس ، وذلك بالرغم من قيام الهدنة بينهم

---

(١) راجع ص ٢٨٨ من هذا الكتاب .

وبين الموحدين ، وكان عبور الناصر رداً على هذا التحدى السافر ، وبدأ الناصر بالعمل على وقف هذا العدوان ، فزحف أولا نحو منطقة جيان واستولى على قلعة شلبطرّة ، ثم عاد إلى إشبيلية وضاعف أهباته وحشوده ، وخرج للمرة الثانية ، من إشبيلية فى المحرم سنة ٦٠٩ ﻫ (يونيه ١٢١٢ م) . وكان ألفونسو الثامن ، وحلفاؤه الملوك الإسبان ، قد استكملوا أهباتهم عندئذ ، ووفد لمؤازرتهم سيل من الأحبار والفرسان ، والمتطوعة من وراء البرنيه ، واتخذت الحرب الصليبية شكلها الحقيقى ، والتقت الجيوش النصرانية المتحدة بالجيوش الموحدية فى هضبة العقاب أسفل جبال الشارات (سيرّا مورينا) ، وكانت الموقعة المشئومة الى هزمت فيها الجيوش الموحدية شر هزيمة ، ومزقت شر ممزق ، وذلك فى الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ﻫ (١٦ يوليه ١٢١٢ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه فيما تقدم تفصيلا شافيا .

وكانت نكبة العقاب ، نذير انحلال الجبهة الدفاعية الموحدية للأندلس ، ونذير انهيار الأندلس ذاتها ، وقد عجل بهذا الانهيار ، ما اضطرمت به الأندلس على أثر ذلك من ثورات جديدة ، ومن تبدد قواها ومواردها الباقية ، فى حروب أهلية جديدة ، ومنافسات على الزعامة ، كان لها أسوأ الأثر فى تفكك وحدتها ، وفى تمهيد الطريق إلى سقوط قواعدها ، واقتطاع أراضيها .

ولم يفت اسبانيا النصرانية ، بعد أن خرجت من موقعة العقاب ، مكللة بغار الظفر الساحق ، أن تعمل لاجتناء الفرصة السانحة ، وخرج ألفونسو الثامن فى ربيع سنة ١٢١٣م ، لغزو أراضى الأندلس ، من ناحية قلعة رباح ، واستولى على بلدة الكرس ، وحول مسجدها إلى كنيسة .

وبالرغم مما حدث هذا العام فى قشتالة ، من تلف الزروع ونفق الماشية ، وانتشار القحط ، وموت الكثيرين من الجوع والمرض ، فإن ملك قشتالة لم يحجم عن استئناف الغزو ، وفى تلك المرة اخترق جبال الشارات ، وسار منحدراً نحو بيّاسة ، وضرب حولها الحصار ، ولكن المسلمين كانوا قد أحكموا تحصينها ، وطال الحصار ، والمدينة صامدة ، وحل القحط فى المعسكر النصرانى ، فاضطر ملك قشتالة إلى رفع الحصار ، وعاد فى قواته إلى طليطلة . ولم تمض بضعة أشهر حتى غادر العاصمة ، وسار غربا بقصد لقاء ملك البرتغال ومفاوضته ، ولكنه ماكاد يصل إلى بلدة جوتيرى مونيوس ، حتى مرض وتفاقم مرضه

بسرعة ، وتوفى فى اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

ويوضع ألفونسو الثامن فى ثبت ملوك اسبانيا العظام ، وقد أسبغ عليه انتصاره فى موقعة العقاب هالة من المجد ، وفى ظله احتفظت قشتالة بتفوقها السياسى والعسكرى ، على باقى الممالك الإسبانية النصرانية ، على نحو ماكانت عليه أيام فرناندو الأول وألفونسو السابع (ألفونسو ريموند يس) . وكان هذا التفوق يتخذ أحيانا صفة السيادة على هذه الممالك ، وكان يثير لديها كثيراً من المرارة والاحتجاج ، ويحملها أحيانا على التحالف ضد قشتالة[1] .

وكان ألفونسو الثامن ، فضلا عما أحرزه من الظفر العسكرى الباهر ، ملكاً مصلحاً ، وكان من أثر عنايته بشئون الإصلاح ، توسعه فى إنشاء البلديات ، وتوسيع مهامها واختصاصاتها ، وإصداره القوانين الخاصة بذلك Fueros . وقد أنشأ ألفونسو أول جامعة إسبانية هى جامعة بالنسيا ، Palencia وذلك فى سنة ١٢٠٩ م ، وجلب إليها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا . وكان حسبما تصفه الرواية الإسبانية ، يتسم بالتقى والورع ، وقد أنشأ عدداً من الأسقفيات الجديدة ، والأديار الفخمة ، وكان من بينها دير برغش الشهير المسمى بالدير الملكى (لاس هويلجاس) ، وأسبغ على الكنائس والأديار امتيازات جمة .

وخلف ألفونسو الثامن على عرش قشتالة ، ولده هنرى الأول (إنريكى) ولما يبلغ الحادية عشرة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه الملكة إلينور ، ولكن لأجل قصير فقط ، إذ توفيت بعد ذلك بقليل ، وعندئذ تولت الوصاية عليه أخته الملكة برنجيلا ، مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، بيد أنها لم تستطع مقاومة أطماع آل لارا الأقوياء فى انتزاع الوصاية ، وهم الكونت ألبارو نونيز وإخوته ، فتنازلت إليهم عنها بشروط خاصة ، أقسموا بالعمل على تنفيذها ، وخلاصتها ألا يعلن الكونت دى لارا الحرب على أى ملك ، ولا أن يعطى أويتنازل عن الأراضى للاتباع ، أويفرض أية ضرائب دون موافقة الملكة برنجيلا ، ولكن الكونت دى لارا لم يحترم عهوده ، وكان مقصد آل لارا الأول أن يوطدوا نفوذهم على الملك الصبى ، فلما اطمأنوا إلى ذلك ، قرروا تزويجه من الأميرة ما فالدا إبنة سانشو الأول ملك البرتغال . ولم يكن الملك الصبى قد جاوز

---

(١) R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización Espanola; T. I. p. 366

الثانية عشرة من عمره، وكانت الأميرة قد جاوزت العشرين، ومع ذلك فقد عقد هذا الزواج بالفعل (سنة ١٢١٥)، فى انتظار بلوغ الملك الصبى سن الرشد. ولكن الملكة برنجيلا وأكابر قشتالة، اعترضوا على هذا الزواج بشدة، ورفعوا أمره إلى البابا إنوصان الثالث، فأصدر البابا قرارا بالغائه بسبب القرابة بين الزوجين، وعادت الأميرة البرتغالية إلى وطنها، ودخلت أحد الأديار.

وكان الملك الصبي يتوق إلى التحرر من نير آل لارا والعودة إلى أخته برنجيلا. ولكن الكونت ألبارو نونيز حال دون ذلك. ثم سار فضرب الحصار حول قلعة أوتليو وبها برنجيلا وبعض أنصارها، فاستغاثت برنجيلا بزوجها السابق ألفونسو التاسع ملك ليون، فبعث لإنجادها ولدها وولده فرناندو فى بعض قواته، فرفع آل لارا الحصار عن الملكة، وساروا إلى بالنسيا، وكان الملك الصبي قد نزل فى قصر أسقف بالنسيا، وكان يلعب فى فنائه مع بعض صبية فى سنه، فرماه أحدهم بحجر أصابه فى رأسه بجرح بالغ، لم يلبث أن توفى منه، وذلك فى يوم ٦ يونيه سنة ١٢١٧ م.

فبادرت أخته دونيا برنجيلا باستدعاء ولدها فرناندو وصحبها المخلصين. وسارت إلى بلد الوليد، وهنالك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة، ولكنها نزلت فى الحال عن العرش لولدها فرناندو، وكان يومئذ فتى فى الثامنة عشرة من عمره (أول يوليه ١٢١٧) وكان القدر يدخر لهذا الفتى الذى تولى الملك فى تلك الظروف المؤسية، مستقبلا باهراً، حيث غدا هو فرناندو الثالث، قاهر الأندلس، والمستولى على قواعدها الكبرى.

٢ - مملكة ليون

لما توفى القيصر ألفونسو ريموندیس فى سنة ١١٥٧ م، قسمت مملكته بين ولديه، فاختص ولده الأكبر سانشو بملك قشتالة، واختص ولده الأصغر فرناندو بملك ليون. وتوفى سانشو بعد عام واحد من حكمه فى سنة ١١٥٨، وخلفه على عرش قشتالة ولده ألفونسو الثامن الذى أتينا على سيرته فيما تقدم.

أما فرناندو الثانى فاستمر ملكاً على ليون حتى توفى فى سنة ١١٨٨م. وفرناندو الثانى هذا هو الذى تعرفه الرواية الإسلامية (بالببوج) وقد لبث خلال حكمه يتردد بين محالفة الموحدين وبين خصومهم، وكان له فى إنجاد الموحدين بطليوس، وفى التحول إلى خصومهم مواقف متناقضة، سبق أن أتينا عليها

فى مواضعها . وكان من أهم أعماله تصفية الخصومة بين ليون والبرتغال . وكان ألفونسو الثانى ملك البرتغال قد غزا جليقية ، واستولى على بعض مواضع فيها ، فسعى فرناندو الثانى إلى عقد الصلح ، واجتمع الملكان ، واتفقا على أن يتزوج فرناندو بالأميرة أوراكا إبنة ألفونسو الثانى ، وأن تكون المواضع التى استولى عليها البرتغاليون فى جليقية مهرا لها . وكذلك انتهى فرناندو بأن عقد الصلح مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة (سنة ١١٨٠ م) بمقتضى معاهدة خططت فيها الحدود النهائية بين المملكتين ، ونظمت العلائق بينهما ، وعقدت محالفة للتعاون على تحقيق فتوح « الاسترداد » وتعهدت كل منهما ألا تعقد أى صلح أو هدنة مع المسلمين . وكان من أبرز أعمال فرناندو العسكرية حصاره لقاصرش ، ثم انسحابه عنها ليسير إلى نجدة البرتغاليين ، حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يحاصر شنترين . وكانت هذه الحركة ، وفقا لبعض الروايات ، هى السبب الرئيسى فى انسحاب الخليفة الموحدى ، وفيما تلا ذلك من نكبة الجيش الموحدى (سنة ١١٨٤ م) .

ولما توفى فرناندو الثانى فى سنة ١١٨٨ م ، خلفه على العرش ولده ألفونسو التاسع . وفى بداية حكمه وقعت فى أنحاء ليون ، اضطرابات كان يحركها ويغذيها ملك قشتالة ، فدعا الملك لمعالجة الحالة إلى عقد مؤتمر بمدينة ليون ، مثل فيه الأحبار والأشراف ، ونواب المدن . ويعتبر المؤرخون الإسبان أن هذا المؤتمر كان أول « كورتيس » Cortes أو برلمان إسبانى حقيقى . وكان ألفونسو التاسع ، يواجه كأبيه ، مشكلة العلائق المتوترة مع جارتيه قشتالة والبرتغال . وكانت قشتالة فى الواقع تحتل معظم القواعد الأمامية التى تؤلف خط الدفاع عن ليون ، فسعى ألفونسو التاسع إلى الاجتماع مع ابن عمه ملك قشتالة ، فى كريون ، حسبما قدمنا ، وعقدت أواصر المودة والتفاهم بين الملكين . بيد أن ألفونسو التاسع لم يكن مخلصاً فى هذا الاتجاه الودى نحو قشتالة ، إذ كان يشعر دائماً أن قشتالة هى المتجنية على بلاده .

وأما فيما يتعلق بالبرتغال ، وتسوية مشكلة الحدود بينها وبين ليون ، فقد رأى ألفونسو التاسع أن يرتبط مع ملك البرتغال سانشو الأول ، برباط المصاهرة ، بعد أن كان قد قطع مثل هذا الوعد لملك قشتالة ، وعقد بالفعل زواج ألفونسو التاسع بالأميرة تريسا إبنة سانشو (سنة ١١٩١ م) وذلك بالرغم من القرابة الوثيقة بين الزوجين ، إذ كانت أم ألفونسو دونيا أوراكا ، هى أخت سانشو . ومن ثم فإن البابوية لم توافق على هذا الزواج ، وأصدر البابا سلستينو قراره بإبطاله ، وبالتحريم ضد المملكتين ، واضطر

ألفونسو التاسع أخيراً ، بعد أن رزق من هذا الزواج ، بثلاثة أولاد ، أن ينزل عند إرادة البابوية ، وأن ينفصل بالطلاق عن زوجته (١١٩٤ م) .

وعاد ألفونسو التاسع ، أسوة بما فعل أبوه إلى التحالف مع الموحدين . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية الأخرى ، تشعر كلها فى الواقع بالنفور من قشتالة ، لما يدعيه ملكها من السيطرة الأدبية عليها ، وكان الموحدون فى تلك الآونة قد عبروا فى حشودهم الجرارة إلى اسبانيا بقيادة الخليفة المنصور ، ووقع اللقاء فى الأرك بين الجيوش القشتالية بقيادة ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وأسفر عن هزيمة القشتاليين وظفر الموحدين الساحق (١٩ يوليه سنة ١١٩٥م). وعلى أثر ذلك عقد التحالف بين ليون وناڤارا، وبين ليون والموحدين، وهوجمت قشتالة من الشرق والغرب (ربيع سنة ١١٩٦م)، ولكن ألفونسو استطاع بمعاونة أراجون فى الشرق ، والبرتغال فى الغرب ، أن يصمد ضد هذا الهجوم .

وفى ربيع العام التالى (١١٩٧م) قام الموحدون بغزو أراضى طلبيرة والقلعة ومدريد وقونقة ، وقام القشتاليون والبرتغاليون بغزو أراضى ليون وجليقية . ورأى ألفونسو التاسع عندئذ أن يعود إلى مسالمة قشتالة ، وأن يعقد معها أواصر المودة والتفاهم . وقد تحقق ذلك بزواجه من الأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ، ولكن البابوية عادت فاعترضت على هذا الزواج الثانى لملك ليون ، وطالبت بإلغائه بسبب القرابة ، وانتهى الأمر بإلغائه حسبما فصلنا ذلك من قبل .

ولبث ألفونسو التاسع يتردد حيناً بين خصومة قشتالة ومسالمتها ، وانتهى الأمر ، بعد أن بذلت البابوية مابذلت من ضغط ووعيد، ومن جهود متوالية فى التقريب بين الملوك النصارى ، إلى أن نجح ألفونسو الثامن ملك قشتالة فيما بذل من سعى لجمع كلمة الملوك النصارى فى شبه الجزيرة (سنة ١٢٠٧م) ونزل ألفونسو التاسع عند هذا المسعى ، وتم التفاهم بينه وبين خصمه القديم ألفونسو الثامن ، وكان من أثر ذلك أن وقف إلى جانبه فى معركة العقاب (سنة ١٢١٢م) .

وكان ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، قد خرج فى العام التالى لموقعة العقاب (١٢١٣م) لغزو أراضى الأندلس الوسطى ، وقام حيناً على حصار مدينة بياسة ، وكان قد اتفق مع زميله ملك ليون أن يقوم من جانبه بغزو قطاع إشبيلية ، وأمده فى ذلك بقوة من الفرسان القشتاليين . ولكن ألفونسو التاسع ، بعد أن سار فى قواته نحو قاصرش ، وحاول الاستيلاء عليها عبثاً ، ومضى فى تقدمه نحو ماردة ، قرر أن يوقف الغزو

نظراً لاقتراب الشتاء، وأن يعود أدراجه. وسار حلفاؤه القشتاليون غاضبين ولحقوا بملكهم، وهو على حصار أبدة ، ولكن المدينة المسلمة لبثت صامدة ، واضطر القشتاليون بدورهم إلى الانسحاب، والعودة إلى بلادهم (يناير سنة ١٢١٤م) .

وفى هذا العام — سنة ١٢١٤م — توفى دون فرناندو ولد ألفونسو التاسع وولى عهده ، وهو فتى فى الثانية والعشرين من عمره . وكان لألفونسو ولدين آخرين من مطلقته الملكة برنجيلا ، هما فرناندو وألفونسو ، ولكنه لم يقرر بصفةحاسمة من يخلفه منهما على العرش . ولما توفى ملك قشتالة الصبى هنرى الأول فى يونيه سنة١٢١٧ ، بادرت أخته الملكة برنجيلا باستدعاء ولدها فرناندو ، وأعلنت فى الحال نفسها ملكة لقشتالة، ثم تنازلت على الأثر عن العرش لولدها فرناندو ، فأصبح هو ملكاً لقشتالة . وهنا ثارت أطماع ألفونسو التاسع ، ورأى وفقاً لنصح بطانته ، أن يعلن نفسه إمبراطوراً لقشتالة وليون ، وفى الحال دخل قشتالة بجيشه ، ولكنه ماكاد يقترب من بلد الوليد ، حتى علم بأن ولده فرناندو قد أعلن ملكاً لقشتالة . وبعث إليه الملكة برنجيلا بعض أكابر الأحبار يرجونه احترام الأمر الواقع ، والمحافظة على سلام المملكة ، ولكنه لم يصغ إليهم ومضى فى سيره نحو برغش . وهنا استعدت الملكة وولدها ، وأكابر فرسان قشتالة ، لرده ، فعندئذ ارتضى ألفونسو ، أن يعود أدراجه ، بعد أن عقد مع ابنه الهدنة لمدة عامين (نوفمبر ١٢١٧ م) وتلتها بعد ذلك معاهدة سلام دائم بين قشتالة وليون عقدت فى أغسطس سنة ١٢١٨م .

ولما استقر السلام على هذا النحو بين قشتالة وليون، اتجه ألفونسو التاسع إلى العناية بفتوح « الإسترداد » فى القطاع الذى خصص من أراضى الأندلس لغزوات ليون . وكانت حملات الغزو من أى الممالك الإسبانية ، تتخذ عندئذ صفة الحرب الصليبية ، ويشترك فيها بالأخص فرسان الجمعيات الدينية ، والمتطوعة الأجانب . فى أواخر سنة ١٢١٧م، سار ألفونسو التاسع فى حملة مختلطة من قوات ليون وقشتالة ، وبعض فرسان الجماعات الدينية ، وضرب الحصار حول مدينة قاصرش، ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار بعد أسابيع قلائل، وكرر ملك ليون وحلفاؤه بعد ذلك حملاتهم لافتتاح هذه القاعدة الإسلامية المنيعة، وانتهى الأمر بسقوطها فى أيديهم فى صيف سنة ١٢٢٧م .

وفى أواخر سنة ١٢٢٩م، قام ملك ليون بغزوة جديدة فى أراضى الأندلس، واستولى فى هذه المرة على حصن منتانجش على مقربة من ماردة ، ثم ضرب الحصار حول ماردة ، وفى خلال ذلك وصل المتوكل بن هود فى قواته لإنجاد

المدينة المحصورة ، واشتبك الفريقان فى معركة هزم فيها ابن هود وارتد فى قواته نحو الشرق ، وكان من أثر ذلك أن سقطت ماردة وبطليوس فى أيدى الليونيين ، وذلك فى صيف سنة ١٢٣٠ م (أوسط ٦٢٧ هـ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى توفى ألفونسو التاسع ملك ليون ، وذلك فى يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م ، وكانت مسألة وراثة عرش ليون ، هى أهم المسائل المعلقة فى الأعوام الأخيرة من حكمه . ذلك أنه لم يرد أن يوصى بعرش ليون إلى ولده فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ولكنه أوصى به إلى ابنتيه سانشا ودولثى . ولكن هاتين الأميرتين ما لبثتا أن تنازلتا عن العرش إلى أخيهما فرناندو (أواخر سنة ١٢٣٠) ، وبذا وحدت مملكة قشتالة وليون مرة أخرى ، كما كانتا قبل وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس فى سنة ١١٥٧ م ، وعادت قشتالة كما كانت ، أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها .

٣ — قشتالة وعهد فرناندو الثالث

لما جلس فرناندو الثالث على عرش قشتالة فى يوليه سنة ١٢١٧ م ، ثم على عرش ليون (١٢٣٠ م) وفقاً للظروف التى شرحناها ، وعادت قشتالة بذلك إلى حدودها ووحدتها القديمة ، كان القدر يدخر لهذا الملك الفتى ، عهدا حافلا بصنوف الفخار والظفر .

وكان من غرائب القدر ، أن يقوم على عرش أراجون فى نفس الوقت ملك فتىً آخر ، يدخر له القدر مثل هذا المستقبل الحافل ، هو خايمى الأول ، وبينما كان فرناندو يحقق فتوحه العظيمة المتوالية فى أواسط الأندلس ، كان خايمى يحقق مثل هذه الفتوح فى شرق الأندلس .

وكان أبرز ما فى حكم فرناندو الثالث ، هو غيرته فى متابعة فتوح الإسترداد La Reconquista فى أراضى الأندلس ، وتكريسه لها كل جهوده وموارده . وقد بدأ بها مبكراً ، وكانت أحوال الأندلس التى شرحناها ، من انهيار سلطان الموحدين بالأندلس ، عقب موقعة العقاب ، وما تلاها غير بعيد من اضطرام الحرب الأهلية بين بنى عبد المؤمن حول الخلافة الموحدية ، وما كان من ثورة البياسى وانضوائه تحت لواء ملك قشتالة ، وما أقدم عليه الخليفة المأمون من الاستنصار بملك قشتالة ، واستعانته على أمره بالجند النصارى ، ثم ما كان بعد ذلك من قيام ابن هود فى شرقى الأندلس ، وابن الأحمر فى الأندلس الوسطى ،

وتنافس هذين الزعيمين ، كل فى بسط سلطانه ، وفى مصانعة ملك قشتالة وغلبة التفكك والفوضى على شئون الأندلس : كانت هذه الظروف كلها تفسح مجالا طيباً لنشاط فرناندو ومحاولاته العدوانية ضد الأندلس . فنى سنة ١٢٣٠ م ، غزا فرناندو منطقة أندوجر وجيان ، وتوغل فى جنوب الأندلس . وفى سنة ١٢٣٣ ، غزا أحواز قرطبة وإشبيلية وعاث فيها . وفى نفس هذا العام حاصر مدينة أبدة واستولى عليها . وكان من الواضح أن تضعضع قوى الأندلس ، وما يمزقها من المعارك الأهلية ، يفسح لأطماع فرناندو أعظم مجال . ومن ثم فإنا نراه ، بعد ذلك بعامين يستولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وذلك فى شوال سنة ٦٣٣ هـ (يونيه ١٢٣٦ م) ثم يستولى على سائر المدن والحصون القريبة منها ، مثل إستجة والمدور وإشتبة وغيرها . ثم نرى ابن هود ، وابن الأحمر كل يسعى إلى مصانعته والانضواء تحت لوائه . ولما توفى ابن هود فى سنة ٦٣٥هـ (١٢٣٧ م) وخلصت القواعد الجنوبية ، غرناطة ومالقة والمرية لابن الأحمر ، كان فرناندو الثالث يلقى بكل ثقله ضد هذا الزعيم الأندلسى ، خشية أن تلتف حوله كل القوى الباقية فى الأندلس ، فيغدو حجر عثرة ضد مشاريعه ، ومن ثم نراه يكرر غزواته للأندلس الوسطى التى نشأ فيها ابن الأحمر ، وبها موطنه ومثوى أسرته ، أرجونة ، ونراه يدفع غزواته جنوبا حتى غرناطة ذاتها ، ونرى ابن الأحمر نزولا على هذا الضغط الخطير ، يضطر إلى عقد الصلح مع ملك قشتالة ، وإلى الاعتراف بطاعته ، وإلى أن يسلمه مدينة جيان ، وعدة كبيرة أخرى من القواعد والحصون (٦٤٣هـ —١٢٤٦م) ، وذلك كله حسبما فصلناه فى مواضعه ولا حاجة بنا إلى تكراره .

على أن أعظم أعمال فرناندو الثالث ، هو افتتاحه لمدينة إشبيلية أعظم حواضر الأندلس ، وذلك فى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٧ هـ) ، ولم يكن فتح إشبيلية أمراً هينا كفتح قرطبة ، ولكنه كان محاولة عسكرية وبحرية ضخمة ، قاومتها الحاضرة الإسلامية العظيمة ، بمنتهى البسالة ، وصمدت للحصار المرهق خمسة عشر شهراً ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم . وقد فصلنا أطوار هذه المأساة كلها فى الفصل الذى خصصناه لذلك[1] . وفتح إشبيلية هو الذى أسبغ على فرناندو الثالث أروع آيات مجده ، الذى تطنب الروايات القشتالية فى الإشادة به .

وقد سقطت على أثر افتتاح إشبيلية ، فى أيدى القشتاليين ، سائر القواعد الواقعة فى

---

(١) وهو الفصل الرابع من الكتاب التاسع ص ٤٦٥ .

جنوبى الوادى الكبير ، مثل أركش وشذونة وشلوقة (سان لوكار) وقادس وغيرها .

وبالرغم من أن فرناندو الثالث ، أنفق شطراً كبيراً من حكمه ، فى فتوح القواعد والأراضى الأندلسية ، فإنه عنى فى نفس الوقت بتنظيم الشئون الداخلية ، فأصلح نظم الحكم والإدارة ، وأصدر طائفة من القوانين البلدية لعديد من المدن ، وعنى بتدعيم الجامعات وتقدمها ، وأنشأ جامعة شلمنقة التى لبثت عصورا أعظم الجامعات الإسبانية ، والتى ما زالت حتى يومنا تتمتع بكثير من سمعتها العلمية القديمة . ولما افتتح إشبيلية جعل منها عاصمة قشتالة ، وأنشأ بها دار صناعة بحرية عظيمة لإنشاء السفن والقطائع الحربية ، وفرناندو هو أول من عنى بإنشاء قوة قشتالة البحرية ، وقد غدا الأسطول القشتالى منذ أيام ولده ألفونسو العاشر خطراً جديداً ، يهدد شواطىء المغرب الشمالية والغربية . بيد أن أهم ما قام به فرناندو فى مجال الإصلاح الداخلى ، هو تنظيم القوانين وتوحيدها ، وقد أنشأ لذلك مجلساً تشريعياً خاصا من اثنى عشر مشرعا من أعظم فقهاء الدولة سمى « مجلس قشتالة الملكى » وعهد إليه بأن يضع مجموعة موحدة من القوانين للمملكة كلها ، وقطع هذا المجلس فى تحقيق المشروع خطوات كبيرة ، ولكن فرناندو توفى قبل إتمامه ، فقام على إتمامه ولده ألفونسو العاشر ، وسميت هذه المجموعة التشريعية « بالبنود السبعة » **Siete Partidas** وغدت وحدها مرجع التشريع فى قشتالة(١).

وتوفى فرناندو الثالث فى اليوم الثلاثين من مايو سنة ١٢٥٤ م ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام ستة وثلاثين عاما . ويعتبر فرناندو الثالث بما قام به من فتوح واسعة فى أراضى الأندلس ، وبما استولى عليه من قواعدها العظيمة ، ولاسيما قرطبة وإشبيلية ، قاهر الأندلس الحقيقى ، وتعتبره الرواية القشتالية أعظم ملوك قشتالة ، وتشيد بخلاله أعظم إشادة ، وقد لبثت سيرته مدى عصور نموذجا للبطولة النصرانية ، حتى أن البابوية أسبغت عليه صفة القداسة ، وتوج قديساً فى سنة ١٦٧١م ، على يد البابا كليمنضوس العاشر ، وسمى من ذلك التاريخ بالقديس فرناندو (سان فرناندو) .

وخلف فرناندو الثالث على عرش قشتالة وليون ، ولده ألفونسو العاشر ، وهو الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio ؛ وقد تحدثنا عن هذا الملك وعصره وعلائقه مع مملكة غرناطة وبنى مرين ، فى كتابنا « نهاية الأندلس » فلا حاجة بنا إلى تناوله هنا .

(١) M. Lafuente : Ibid; T. IV. p. 96

الفصل الثانى

أراجـــون ونافارا والبرتغال

منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى أواخر القرن الثانى عشر

قيام مملكة أراجون الكبرى . ألفونسو الثانى ملك أراجون . سياسة قشتالة وأراجون الموحدة نحو فتوح الإسترداد . غزوة ألفونسو لأراضى بلنسية . شنتمرية الشرق تحول دون تقدمه . خروجه للغزو ثانية وإنشاؤه لقلعة طرويل . غزوته لأحواز بلنسية ورده . اتفاقه مع ملك قشتالة بشأن شنتمرية الشرق . اتفاق الملكين بشأن مناطق الفتح فى شرق الأندلس . تحالفهما ضد نافارا . فشل أراجون فى غزو نافارا وتحالفها مع ليون والبرتغال . وفاة ألفونسو الثانى وجلوس ولده بيدرو مكانه . عقده لمجلس الكورتيس . اتفاقه مع ألفونسو الثامن على مسائل الحدود . تحالفهما فى موقعة العقاب . مشروعه فى زيارة رومة والتماسه لحماية البابا . البابا يقوم بتتويجه فى رومة . اعترافه بطاعة أراجون للكرسى الرسولى . غضب الشعب الأرجونى لمسلكه . إتحاد الشعب والأشراف ضده . سحبه للاعتراف بالطاعة . سيطرة الأشراف الإقطاعيين على المملكة . سعى بيدرو فى تخفيف هذا النظام . التنظيم القضائى . غزو بيدرو لأراضى بلنسية . تدخله فى الحرب القائمة ضد الألبيين ومصرعه . ولده الطفل خايمى يخلفه . اجتماع الكورتيس واختياره للوصى . ثورة عميه ضده . الحرب بين الفريقين . انتصار خايمى على منافسيه . عقد السلم بين الخصوم . عناية خايمى بأمر الفتح . افتتاحه للجزائر الشرقية . غزواته لأراضى بلنسية . استيلاؤه على بلنسية وقواعد الشرق . تدخله فى حوادث مرسية . افتتاحه إياها بالاتفاق مع صهره ألفونسو العاشر . مشروعه فى إعداد حملة صليبية إلى المشرق . . فشل هذا المشروع . صراع خايمى مع النبلاء . وفاته وخلاله . مصير مملكة نافارا . تربص جارتيها أراجون وقشتالة بها . سانشو السادس وإصلاحاته . ولده شانشو السابع الملقب بالقوى . خوضه لنفس المعارك القديمة ضد قشتالة وأراجون . التهادن والسلم بين الملوك النصارى . سانشو ووراثة العرش . اتفاقه مع خايمى ملك أراجون على أن يكون وارثه . تنحى خايمى وقيام الكونت تيوبالدو ابن أخت سانشو فى العرش . تطور مصاير نافارا . عهد كونتات شمبانا . تيوبالدو الثانى وأمه الملكة مرجريتا . التجاؤها إلى حماية خايمى الثانى . مهاجمة قشتالة لنافارا ثم عقد الصلح بين الفريقين . تزوج تيوبالدو من ابنة لويس التاسع . مسيره معه إلى الحرب الصليبية فى الشرق . وفاته وقيام أخيه إنريكى مكانه . وقوع نافارا تحت حماية فرنسا . مملكة البرتغال . ألفونسو هنريكيز وإصلاحاته . غزواته للأراضى الإسلامية . وفاته وقيام ولده سانشو الأول مكانه . غزوات سانشو للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على شلب واستعادة المنصور إياها . الخلاف بينه وبين البابوية ورجال الدين . وفاته وجلوس ولده ألفونسو الثانى مكانه . الخلاف بينه وبين إخواته الأميرات . استيلاؤه على حصن القصر . النزاع بينه وبين البابوية . وفاته وقيام ولده سانشو الثانى مكانه . عقده الصلح مع رجال الدين ومع الأميرات . غزوه للأراضى الإسلامية . إستيلاؤه على ألفاس وشربه وجلمانية .

استيلاؤه على شلب وطبيرة . عود النزاع بينه وبين رجال الدين والأشراف . بواعث هذا النزاع . أخواه ألفونسو فرناندو وعمه بيدرو يؤيدون الثورة ضده . إصدار البابوية قراراً بعزله وتنصيب أخيه ألفونسو مكانه . فراره والتجاؤه إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث . محاولة فرناندو معاونته وفشل هذه المحاولة . استيلاء ألفونسو على شنتمرية الغرب وقضاؤه على سلطان المسلمين فى أراضى البرتغال .

١ — مملكة أراجون

قامت مملكة أراجون الكبرى باتحاد أراجون وقطلونية فى سنة ١١٣٧م ، على يد الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، ولما توفى هذا الأمير فى سنة ١١٦٢ م ، خلفه على العرش ولده ألفونسو الثانى . وبقيام هذا الأمير على رياسة أراجون ، يعود إليها ثبت الملوك الأقوياء الذى انقطع بوفاة ألفونسو المحارب فى سنة ١١٣٤ م . وكانت علائق قشتالة وأراجون على أتم وفاق وصفاء منذ عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وهكذا استمرت العلائق بينهما فى عهد ألفونسو الثانى ، وزميله الفتى ألفونسو الثامن ملك قشتالة . وكانت تجمع بينهما بالأخص سياسة موحدة نحو فتوح الإسترداد La Reconquista فى أراضى الأندلس ، وذلك وفق برنامج مشترك تحددت معالمه فيما بعد بين الملكين بمعاهدة كاسولا (سنة ١١٧٩ م) التى سبقت الإشارة إليها .

وبدأ ألفونسو الثانى غزواته فى الأراضى الإسلامية مبكراً ، ففى سنة ١١٧٠م سار جنوبا نحو بداية الوادى الأبيض Guadalaviar ، قاصداً أن يخترق مملكة بلنسية ، ولكن حال دون تقدمه من تلك الناحية ، أن شنتمرية الشرق[1] ، وما حولها من المواقع والحصون كانت يومئذ تحت حكم الفارس بيدرو دى أساجرا ، وهو من أشراف نبرّة ، وكان الأمير محمد بن سعد بن مردنيش قد أقطعة هذه المدينة المسلمة وحصونها ، لمعاونات قدمها إليه ، ولم يعترف هذا الفارس بطاعة أراجون ولاقشتالة ، ولكنه أعلن نفسه حاكماً مستقلا باسم « صاحب شنتمرية الشرق » ، واستطاع أن يحصل على موافقة مطران طليطلة ، على أن ينشئ بها أسقفية خاصة .

وفى العام التالى (١١٧١ م) خرج ألفونسو الثانى فى قواته إلى الوادى الأبيض

---

(١) وتسمى بالإسبانية Albaracin نسبة إلى بنى رزين ، الذين حكموها أيام الطوائف ، ومن ثم فإنها تسمى كذلك شنتمرية ابن رزين .

مرة أخرى ، وأنشأ فى تلك المرة عند منابع هذا النهر ، قلعة سميت « طرويل » ومنح من يومها هى وأرضها من السكان النصارى ، بعض المزايا المغرية ،وتقوم اليوم مكانها مدينة طرويل الحديثة .

وفى سنة ١١٧٢ م ، خرج ألفونسو الثانى فى غزوة إلى أراضى بلنسية ، منتهزاً فرصة ضغط الموحدين على ابن مردنيش أمير مملكة الشرق أو الملك لوبى كما تسميه الرواية الإسبانية . وفى بعض الروايات النصرانية أن ملك أراجون وصل فى زحفه حتى شاطبة وحاصرها ، وأن أمير بلنسية عرض أن يدفع إليه الجزية ، وأن يساعده فى فتح مملكة بلنسية . والحقيقة أن القوات الأندلسية استطاعت أن ترد القوات الغازية سواء فى البر أو البحر ، ولم تنل القوات الأرجونية من أراضى بلنسية مأربا(١) .

وعقد ألفونسو الثانى مع زميله ملك قشتالة اتفاقا بشأن مقاطعة شنتمرية الشرق ، نص فيه على أن تغدو مدينة شنتمرية الشرق ذاتها (البراثين) ملكاً لأراجون ، وأن تكون حصونها ملكاً لقشتالة . وفى رواية أخرى أن الفارس بيدرو دى أساجرا صاحب شنتمرية الشرق ، اعترف بطاعة ألفونسو الثامن .

وفى سنة ١١٧٩ م ، غزا ألفونسو أراضى بلنسية بجيش ضخم ، وحاصر ثغر مربيطر . وكانت هذه الغزوات الأرجونية المتكررة لأراضى شرق الأندلس مثار التوجس والقلق لدى قشتالة ، ومن ثم فقد استدعى ألفونسو الثامن زميله ملك أراجون إلى بلدة كسولا ، وعقد الملكان اتفاقهما الذى سبقت الإشارة إليه ، بتقسيم مناطق الفتح فى شرق الأندلس ، كما عقدا معاحلفاً لمتابعة الحرب ضد ناڤارا . ولكن الأمور ما لبثت أن تطورت ، وبينما نجح القشتاليون فى غزو ناڤارا من ناحية الغرب ، إذ فشل الأرجونون وردوا إلى أراضيهم بخسارة . وقد أحدث ذلك صدى سيئاً فى نفس ألفونسو الثانى ، وحقد على زميله الظافر ألفونسو الثامن . ثم ذهب إلى أبعد من ذلك فعقد حلفا مع سانشو ملك ناڤارا لمحاربة قشتالة (١١٩٠م) وقد انضم إلى هذا التحالف ملكا ليون والبرتغال (١١٩١م) ، ورأى ملك قشتالة فى ذلك نذيراً خطراً ، إذ كانت الأنباء تترامى إليه فى تلك الآونة بالذات بما يقوم به الموحدون من استعدادات عظيمة للعبور إلى شبه الجزيرة ، وقد رأينا ما انتهى إليه ألفونسو الثامن من اضطراره إلى لقاء الجيوش الموحدية فى الأرك فى القوات

(١) راجع ص ٥٢ من هذا الكتاب ، وكذلك : A.P. Ibars : Valencia Arabe, p. 632

القشتالية وحدها ، وما أصيبت به يومئذ من هزيمة فادحة (١٨ يوليه ١١٩٥م) .

وتوفى ألفونسو الثانى فى ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ م ، فخلفه فى مملكة أراجون وإمارة قطلونية ، ولده الصبى بيدرو ، وخلفه فى باقى الإمارات الفرنجية، وهى روسيون وبلبارش ومونبلييه وغيرها ولده ألفونسو .

وبدأ الملك بيدرو حكمه تحت وصاية أمه دونيا سانشا . وكان أول ماعمله أن دعا إلى اجتماع ممثلى الأحبار والأشراف والفرسان وممثلى الولايات والمدن ، بمدينة دروقة فى هيئة «كورتيس» . وفى هذا الاجتماع وافق الملك على سائر الحقوق والامتيازات ، التى منحها أسلافه لمختلف الهيئات والطبقات . بيد أنه سرعان مادب الخلاف بين الملك وأمه ، ثم سوى بينهما على أن تحتفظ الملكة بملكية البلاد والحصون الواقعة فى قطلونية، والتى أوصى زوجها بتركها لها .

وكان ثمة بين أراجون وقشتالة خلاف على بعض مواقع الحدود ، فاجتمع بيدرو الثانى وألفونسو الثامن ملك قشتالة على مقربة من طرسونة (١٢٠٤ م) واتفقا على التحكيم فى مسائل الحدود ، وقام المحكمون بالمهمة ، وسوى الخلاف بين المملكتين .

وقد رأينا فيما تقدم ، أن الوئام كان سائداً بين أراجون وقشتالة ، منذ عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وأن أواصر هذا الوئام قد توثقت بنوع خاص فى عهد الملك بيدرو الثانى ، وظهر ذلك فى تحالف المملكتين على محاربة ناڤارا وليون، ثم ظهر فى تحالفهما الوثيق ضد الموحدين فى معركة العقاب (١٢١٢ م) . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذى اضطلع به الملك بيدرو فى تلك الموقعة .

وشغل بيدرو الثانى وقتا بشئون أملاكه فيما وراء البرنيه، وهى ولاية بروڤانص وبعض الإمارات الفرنجية الأخرى . ولكنه ماكاد يفرغ من هذه الشئون حتى اعتزم أن يزور رومة ، وكانت له فى مصانعة البابوية والانضواء تحت لوائها ، فكرة لم ترق لشعبه . وذلك أنه سار إلى رومة ، فى عدة من السفن وعرج فى طريقه على جنوة وبيزة ، ويقال إنه كان يرمى إلى التفاهم مع هاتين الجمهوريتين البحريتين القويتين، على الاتفاق والتحالف على غزو الجزائر الشرقية ، وانتزاعها من المسلمين . أما فى رومة فقد كانت له أمنية أخطر وأبعد أثراً ، وذلك أنه التمس إلى البابا إنوصان الثالث أن يقوم بتتويجه ، وقد استجاب البابا لرغبته ومنحه الشارات الملكية ، وأسبغ عليه درع الفروسية ، وقام بتتويجه فى كنيسة

القديس بطرس (سنة ١٢٠٤م) ، ومنحه هو وأعقابه من ملوك أراجون حق التتويج فى سرقسطة عاصمة المملكة ، وتعهد بيدرو نظير ذلك بأن يحمى الدين الكاثوليكى ، وأن يحترم حريات الكنائس وامتيازاتها ، وأن يطارد الكفرة ، وأن يقيم العدل فى سائر بلاده ، واعترف ملك أراجون فوق ذلك بأنه تابع للبابا ، وأنه يحكم أراجون وقطلونية بمثابة إقطاع من البابوية ، وتعهد بأداء الجزية السنوية . وتعهد الكرسى الرسولى من جانبه بأن يدافع البابوات عن أراجون عن طريق سلطانهم الرسولى . وقد كان لذلك أسوأ وقع بين الأرجونيين والقطلان ، وأنكروا على الملك أن يقوم بمثل هذا العمل دون موافقتهم ، واتحد الأشراف والشعب ضد الملك ، وأرغموه على أن يسحب اعترافه بالتبعية للبابوية ، ومع ذلك فإن أراجون اضطرت أن تدفع إلى البابوية الجزية التى تعهدت بها . ومن جهة أخرى فقد بدأت معارضة السادةوالفرسان فيما بعد لكثير من التشريعات التى حاول بيدرو سنها فى شئون الضرائب وغيرها(١) .

وكان السادة والنبلاء فى أراجون يبسطون سيادتهم على سائر المدن والبلاد الهامة ، ويستولون على دخولها ، لكى ينفقوا منها على الفرسان التابعين لهم ، والذين يقودونهم فى الحرب ، فكان الأشراف بذلك يسيطرون على قوى المملكة العسكرية ، ولايستطيع الملك أن يفعل بذلك شيئاً لافى السلم ولا فى الحرب دون مشاورتهم وموافقتهم ، وكانت هذه السيادة الإقطاعية تؤول إلى عقب أصحابها . وقد بذل بيدرو جهوداً شاقة فى العمل على تخفيف أوضاع هذا النظام المرهق ، ونجح فى أن يعدل توزيع هذه السلطات بين الأشراف بصورة أقرب إلى العدالة مع السماح لهم بتوريثها لأعقابهم ، ولكنه احتفظ للعرش بالسلطات القضائية ، وكان الاختصاص القضائى يمنح للأشراف والفرسان ، ولايسترد منهم إلا لسبب جوهرى ، ويُزاول القضاء بالنيابة عن الملك على يد الأساقفة والأشراف . وللمحكوم عليه حتى الاستئناف إلى العرش . وكان الحق الوحيد الذى يحتفظ به الأشراف لممارسة القضاء هوأن يكونوا أعضاء فى مجلس الملك ، أويعينهم الملك قضاة فى المدن والبلاد التى تخضع لسيادتهم .

ولم يغفل بيدرو الثانى العناية بغزو الأراضى الإسلامية ، وهى مهمة من مهام السياسة الأرجونية الأساسية ، فخرج فى حشوده سنة ١٢١٠م ، وسار جنوبا

(١) R. Altamira : Historia de Espana, T. I. p. 345&346

صوب أراضي بلنسية ، واستولى بمساعدة فرسان الداوية على حصن الديموس ، وعدة حصون أخرى من حصون منطقة شنتمرية الشرق .

واضطر بيدرو أن يتدخل فى الحرب الصليبية التى شهرها سيمون دى مونفور وزملاؤه السادة الفرنسيون على الملاحدة الألبيين[1] ، وذلك لحماية أملاكه فيما وراء البرنية ، وقد كانت مسرحا لهذه الحرب وخربت فيها عدة مدن . وكان من سوء حظه أن سقط فى إحدى المواقع التى خاضها ضد سيمون دى مونفور ، وذلك فى ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ م .

وترك پيدرو الثانى ولداً وحيداً هو دون خايمى ، وكان عند وفاته طفلا حدثاً ، وكان محجوزاً لدى سيمون دى مونفور ، إذ كان ثمة قبل اضطرام الخصومة بين الفريقين ، مشروع لتزويج خايمى بإبنة لسيمون ، ولم يفرج سيمون عن خايمى ألا بتدخل شديد من البابوية ، فأفرج عنه فى العام التالى (١٢١٤م) ، واستقبل الأرجونيون والقطلان ملكهم الطفل بابتهاج وحماسة . واجتمع نواب المملكة فى (الكورتيس) فى لاردة ، واختاروا للوصاية على خايمى أستاذ فرسان الداوية جليم دى مونرادو . ولكن الأمور ما لبثت أن تعقدت إذ ثار عماه دون فرناندو ودون سانشو فى محاولة لانتزاع العرش منه ، ومن جهة أخرى فقد أعلن كثير من الأشراف استقلالهم ، وأخذوا يحاربون بعضهم بعضاً ، وعمت الفوضى فى المملكة . واستطاع أنصار الملك خايمى أن ينتزعوه من وصيه أستاذ الداوية ، وكان يعتقله بقلعة مونتشون ، وكان قد بلغ التاسعة من عمره . واضطرم الصراع عندئذ بين حزب خايمى وبين خصومه ، وكان يؤازره بالأخص الأشراف القطلان ، ونواب الكورتيس ، واستطاع خايمى أن يتغلب على منافسيه فى العرش ، بيد أنه استمر أعواما أخرى يكافح ضد الأشراف الخوارج ، وانتهى الأمر بأن عقد بينهما سلم عام ، وذلك فى شهر مارس سنة ١٢٢٧ م[2] .

وكان الملك خايمى قد بلغ عندئذ نحو العشرين من عمره . وكان يشعر عندئذ أنه بعد أن فرغ من المشاغل الداخلية ، يستطيع أن يوجه عنايته إلى تحقيق أطماع الفتح ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضى الإسلامية فى قطاع بلنسية . بيد أنه كان يتوق إلى أن يحقق قبل ذلك أمنيته فى افتتاح الجزائر الشرقية . ولقد

---

(١) راجع الهامش فى ص ٢٨٩ من هذا الكتاب .

(٢) A. Altamira : ibid; T. I. p 377 & 378

تحدثنا فيماتقدم تفصيلا عما قام به خايمي من الاستعداد لافتتاح الجزائر، وما وفق إليه من افتتاحها بين سنتى ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م . أما عن قطاع بلنسية فلم يكن يخاف على خايمي ، ما نجوزه بلنسية ، وسائر ثغور هذه المنطقة وقواعدها ، من الضعف والفوضى ، وافتراق الكلمة ، وتوالى المعارك الأهلية الانتحارية . ولقد تحدثنا فيما تقدم كذلك تفصيلا عن حملات خايمي المتوالية على أراضى بلنسية ، وافتتاحه تباعا لثغور الشرق وقواعده ، وفوزه أخيراً بالاستيلاء على ثغر بلنسية العظيم وذلك فى صفر سنة ٦٣٦هـ (أكتوبر سنة ١٢٣٨ م) ، ثم استيلائه بعد ذلك على دانية ، ثم شاطبة ، وجزيرة شقر ، وغيرها من قواعد هذه المنطقة ، مما كان يدخل فى نطاق الفتوحات الأرجونية ، وفقاً للاتفاقات التى عقدت لتقسيم مناطق الفتح ، فى شرق الأندلس ، بين أراجون وقشتالة ، وهو ما سبقت الإشارة إليه فى موضعه .

وأما مرسية وأحوازها ، فقد كان من المتفق عليه أن تكون ضمن حظيرة الفتوح القشتالية . وقد أعلنت مرسية خضوعها بالفعل لملك قشتالة فرناندو الثالث منذ سنة ١٢٤١م، واستقرت فيها حامية قشتالية صغيرة، ولكنها لبثت حينا تستقل بشئونها الداخلية ، ويحكمها أعقاب بنى هود وغيرهم من الزعماء المسلمين ، حسبما سبق أن فصلناه . ولكن تطور الحوادث فى مملكة بلنسية واضطراب الأحوال فيها ، وثورة المدجّنين بها ، حملت ملك أراجون دون خايمي إلى أن يسعى إلى افتتاح مرسية ، وذلك بالاتفاق مع صهره ، زوج ابنته ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وكانت ظروفه غير مسعفة له على القيام بهذا الفتح ، وكان الملك خايمي يخشى من أن مرسية إن بقيت تحت حكم زعمائها المسلمين ، تغدو مصدر خطر على سلامة بلنسية ، ومن ثم فقد زحف خايمي فى قواته على أراضى مرسية واحتل لقنت وألش وغيرهما من قواعدها الأمامية ، ثم استولى على مرسية ذاتها، وذلك فى سنة ١٢٦٦م (٦٦٥هـ) وانتهى بذلك حكم المسلمين فى شرق الأندلس .

وحاول خايمي بعد ذلك أن يسير إلى المشرق فى حملة صليبية ، وجهز بالفعل جيشاً وأسطولا لتلك الغاية ، وخرج فى قواته البرية والبحرية متجهاً إلى الشرق فى سنة ١٢٦٩ م ، ولكن العواصف الجامحة حطمت معظم السفن الأرجونية ، ودفعت بباقيها إلى الشاطىء الفرنسى ، فعدل الملك خايمي عن مشروعه وسارت بضع سفن فقط ، بها قوة صغيرة من القطلان والأرجونيين وفرسان شنت ياقب ،

ووصلت إلى ثغر حيفا بالشام ، وانضمت إلى من كان هناك من القوات الصليبية فى محاربة المسلمين .

وكان الملك خايمى ، طوال حكمه ، يعانى من عنت النبلاء ، ومعارضتهم لكثير من تصرفاته ومشاريعه ، وقد لبث معهم فى صراع مستمر ، لكى يتغلب على عنتهم ، ويحطم سلطانهم الإقطاعى القوى ، ولكنهم قاوموه ، ووقعت الحرب الأهلية بين الفريقين ، ولم يهدأ ذلك الصراع إلا حينما تفاقمت الأحوال فى مملكة بلنسية ، واشتدت بها ثورات المدجنين ، وخشى أن يؤدى ذلك إلى ضياع الفتوحات الأرجونية .

وتوفى الملك خايمى فى ٢٧ يوليه سنة ١٢٧٦ م ، بعد حكم طويل استطاع فيه أن يضاعف رقعة مملكته أراجون ، وأن يقضى على دولة الإسلام فى الجزائر وشرق الأندلس، وهو مالقب من أجله « بالفاتح ». ويعتبر خايمى الأول مؤسس مملكة أراجون الحقيقى ، وموطد استقلالها ، وقد قاوم فى هذا السبيل مطامع البابوية، ورفض أن يعترف لها بأى نوع من التبعية كما فعل أبوه . وقد عمل كثيراً لإصلاح القوانين ، وتنظيم الإدارة والشئون المالية بالمملكة ، بيد أنه يوصف بالقسوة وغلبة الشهوات عليه ، ومما يؤثر عنه أن كتب تاريخا لحكمه(١) .

ولما توفى خايمى قسمت مملكته بين ولديه ، فتولى حكم أراجون وقطلونية وبلنسية ولده الأكبر بيدرو ، وتولى حكم الجزائر والإمارات الفرنجية فيما وراء البرنية ، ولده الأصغر خايمى ، على أن هذا التقسيم لم يدم طويلا .

٢ — مملكة نافارا (نبرّة)

لبث الصراع قائماً دون انقطاع بين نافارا وبين جارتيها من الجانبين ، أراجون وقشتالة . وقد تتبعنا فيما تقدم مصاير نافارا ، منذ اتحادها مع أراجون تحت حكم ألفونسو المحارب ، ثم انفصالها بعد ذلك عند وفاته فى سنة ١١٣٤ م واستئنافها لحياتها المستقلة ، تحت حكم ملكها غرسية راميريس حفيد سانشو الكبير . ولما توفى غرسية فى سنة ١١٥٠ م ، خلفه ولده سانشو السادس الملقب بالعالم . وقد خاض سانشو ضد قشتالة وأراجون بعض الأحداث المماثلة ، إذ كان التربص بنافارا سياسة مرسومة تنفذ بالاعتداء عليها كلما سنحت الفرص . وعقد السلم حيناً بين قشتالة ونافارا ، نتيجة لتدخل هنرى الثانى ملك انجلترا ، وتسوية

---

(١) ويسمى تاريخ الملك خايمى Historia del Rey don Jaime

المشاكل الإقليمية بينهما بصورة ارتضاها كل من البلدين[1]. واستطاع سانشو بعد ذلك أن يتفرغ حينا لمعالجة الشئون الداخلية لمملكته ، فأصدر لمختلف المدن طائفة من القوانين البلدية ، وعنى بتنظيم التجارة وتوطيد الرخاء والأمن . ولما توفى سانشو السادس خلفه على العرش ولده سانشو السابع الملقب بالقوى El Fuerte .

وقد خاض سانشو السابع نفس المعارك القديمة ضد أراجون وقشتالة وذلك حسبما فصلنا فيما تقدم . وقد أشرنا كذلك إلى ما سعى إليه سانشو من محالفة الموحدين والاستنصار بهم ضد ملكى قشتالة وأراجون ، بعد أن تكرر ائتمارهما بنافارا واعتداءاتهم عليها ، واقتطاع أراضيها من الجانبين ، وإلى ما حدث بعد ذلك من تقارب بين ملوك اسبانيا النصرانية ، ومن عقد الوئام والتحالف بين ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، وسانشو السابع وذلك فى اجتماع وادى الحجارة فى سنة ١٢٠٧م ، ثم عقد السلم والتحالف كذلك بين ملكى نافارا وأراجون ، وما كان لذلك من أثر فى اجتماع كلمة الملوك النصارى ، على لقاء الموحدين فى جبهة موحدة فى معركة العقاب (١٢١٢م) ، وهى التى خرجت منها الجبهة النصرانية مكللة بغار الظفر الباهر .

وقد شاء القدر أن تتطور مصاير نافارا على يد سانشو السابع . ذلك أنه لبث قائماً على عرشها بعد موقعة العقاب زهاء عشرين عاما أخرى . وكانت تزعجه مسألة وراثة العرش ، لأنه لم يعقب بالرغم من زواجه . وكان يبغض مرشح العرش الوحيد وهو تيوبالدو ابن أخته الأميرة بلانكا وتيوبالدو الرابع كونت شامبانيا . وفى أواخر أيامه ارتد مريضاً إلى تطيلة ، وبعث إلى ملك أراجون خايمى الأول يعرب له عن رغبته فى تبنيه ، وترشيحه لخلافته على العرش ، فوافاه ملك أراجون ، وعقدت بينهما فى تطيلة معاهدة لتحقيق هذا الغرض (فبراير ١٢٣١) . ثم توفى سانشو بعد ذلك بثلاثة أعوام (١٢٣٤م). على أن خايمى لم يحاول أن ينفذ معاهدة تطيلة ، ولا أن يسعى للجلوس على عرش نافارا . ذلك أنه كان مشغولا بافتتاح مملكة بلنسية ، وبمسائل داخلية كثيرة أخرى ، وكان يخشى أن يعرضه الطموح إلى عرش نافارا لمشاكل كثيرة لاقبل له بها ، ومن ثم فقد آل عرش نافارا إلى الكونت تيوبالدو دى شمبانيا ، ابن أخت سانشو ، وكان هذا التحول أول خطوة فى انسلاخ نافارا عن حظيرة الممالك الإسبانية النصرانية ، ووقوعها تحت نفوذ فرنسا ، وابتعادها عن الاندماج فى مشاكل شبه الجزيرة الإسبانية . واستمر

(١) راجع ص ٥٨٥ و ٥٨٦ من هذا الكتاب .

حكم تيوبالدو حتى وفاته فى سنة ١٢٥٣ م . وكانت وفاته بالمشرق فى الحرب الصليبية السادسة . وكانت أيام حكمه مليئة بالاضطرابات ، والخلاف مع شعبه ، لأنه لم يتبع فى الحكم قواعده المأثورة ، ولم يفهم روح الشعب النافارى . وترك تيوبالدو ، ولده تيوبالدو وارث العرش طفلا فى الخامسة من عمره تحت وصاية أمه الملكة مرجريتا : وعندئذ رأت مرجريتا ، اتقاءا لمطامع قشتالة القديمة ، أن تضع المملكة تحت حماية خايمى الثانى ملك أراجون ، وقطع خايمى على نفسه العهد بحماية نافارا من كل أعدائها ، وأن يزوج ابنته كونستنزا لتيوبالدو ، فإذا توفى ، تزوجت من أخيه الأصغر إنريكى . وتعهدت الملكة مرجريتا من جانبها أن تقف نافارا إلى جانب أراجون ضد سائر أعدائها خلا ملك فرنسا وامبراطور ألمانيا . ووقع ما توقعته الملكة مرجريتا ، وقام ملك قشتالة بمهاجمة نافارا ، وهرع خايمى فى قواته لحمايتها وفقاً لعهوده ، وكادت الحرب تنشب بين الملكين بالرغم مماكان يربطهما من رباط المصاهرة الوثيق ، ولكن تدخل الأحبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين ، وهكذا استطاع الملك تيوبالدو الثانى أن يحكم مملكته فى سلام[١]. ولم يتزوج تيوبالدو إبنة الملك خايمى ، ولكنه تزوج إبنة لويس التاسع ملك فرنسا (القديس لويس) ، وصحبه إلى المشرق ، وخاض معه الحرب الصليبية السابعة ، ثم صحبه إلى تونس وتوفى هنالك سنة (١٢٧٠م). وحل محله فى الحكم أخوه إنريكى الأول خلال غيابه ، فلما توفى أعلن ملكاً لنافارا ، واستمر فى الحكم أربعة أعوام أخرى ثم توفى سنة ١٢٧٤م . واستمرت نافارا بعد ذلك عصراً تحت حماية فرنسا .

٣ — مملكة البرتغال

تحدثنا فيما تقدم من تاريخ الممالك النصرانية ، عن نشوء مملكة البرتغال ، ثم اشتداد ساعدها وتوطد أمرها ، فى ظل ملكها ألفونسو هنريكيز ، وكيف استطاع هذا الملك أن يوطد استقلال مملكته ، وان يحميه ضد دعاوى قيصر قشتالة فى السيادة. وقد كان للبابوية ، فضل معاونته على اتخاذ صفة الملك المستقل ، ومن ثم فقد كان للبابوية نفوذها على العرش البرتغالى . وقد أبدى ألفونسو هنريكيز فوق ذلك ، غيرة ملحوظة فى إنشاء جماعات الفرسان الدينية ، للاستعانة بها فى محاربة المسلمين وقام بتنظيم وراثة العرش ، ووضع القوانين المدنية والجنائية التى تكفل تحقيق العدل .

(١) M. Lafuente : ibid; T.IV. p. 120 & 121 — Altamira : ibid; T. I. p. 390 & 391

وكرس ألفونسو هنريكيز معظم نشاطه لغزو الأراضى الإسلامية ، وبدأ بمحاصرة أشبونة وافتتاحها (١١٤٧ م) ، ثم استولى فى نفس الوقت على مدينة شنترين حصنها الشمالى ، واستولى على ثغر قصر الفتح أو قصر أبى دانس فى سنة ١١٦٠ م ، ولبث فى أيدى البرتغاليين ، حتى قام الخليفة يعقوب المنصور باسترداده فى سنة ١١٩١ م ، ثم غزا بطليوس فى سنة ١١٦٩م ، واستولى عليها بالفعل ، ولكن الموحدين استردوها فى الحال بمعاونة حليفهم فرناندو الثانى ملك ليون ، واستولى أخيراً على مدينة باجة فى سنة ١١٧٧ م . وقد أتينا على تفاصيل هذه الغزوات كلها فى مواضعها من الكتاب.

ولما توفى ألفونسو هنريكيز فى شهر ديسمبر ١١٨٥م ، خلفه ولده سانشو الأول . وكان سانشو كأبيه يضطرم حماسة لغزو الأراضى الإسلامية ، والقضاء على بقايا الحكم الإسلامى فى البرتغال ، فقضى أعوام حكمه الأولى فى إصلاح البلاد والحصون التى خربتها الحرب ، ثم زحف نحو الجنوب ، وقام بمحاصرة مدينة شلب أهم القواعد الإسلامية الباقية وافتتاحها ، وذلك بمعاونة القوات الصليبية المسافرة إلى المشرق (سنة١١٨٩م) ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها أكثر من عامين ، إذ قام الخليفة المنصور باستردادها من أيدى البرتغاليين فى سنة١١٩١م ، وكان قد غزا أراضى البرتغال قبل ذلك ، وقام بزحفه المظفر نحو الشمال[1] .

ولم تقع خلال حكم سانشو حوادث خارجية ذات شأن ، وهدأ الصراع حيناً بين البرتغاليين والمسلمين . ولبث المسلمون عصراً آخر يحتلون الرقعة الجنوبية من البرتغال ، تتوسطها مدينة شلب ، والرقعة المتصلة بولاية الغرب ، وبها ميرتلة وعدة قواعد أخرى ، وشغل سانشو معظم أعوام حكمه بما نشب بينه وبين البابوية من خلاف ، أولا بسبب رفضه لأداء الجزية ، التى تعهد والده ألفونسو هنريكيز بأدائها للكرسى الرسولى ، نظير حمايته ضد دعاوى قشتالة ، وثانيا بسبب النزاع المستمر بينه وبين الأحبار ، ولاسيما أسقف بورتو ، وأسقف قلمرية . وقد أصدر الأساقفة ضده أكثر من قرار بالحرمان الكنسى ، وتوفى فى مارس سنة ١٢١١ م ، ولم يرفع عنه قرار الحرمان إلا بعد موته . فخلفه ولده ألفونسو الثانى وهو الملقب بالبادن لبدانته المفرطة . وفى بداية حكمه نشب الخلاف بينه وبين إخواته . وكان والدهن قد أوصى لهن ببعض القلاع والأراضى ، وأبين

(١) راجع ص ١٧٠ — ١٧٤ ، وص ١٨٧ و١٨٨ من هذا الكتاب.

أن يعترفن بسيادة أخيهن عليها ، وقصدن إلى البابا لحمايتهن ، ثم نشبت الحرب بعد ذلك بين الملك والأميرات ، وتدخلت البابوية فى الأمر ، وأصدر مندوبو البابا قراراً بالحرمان ضد الملك ، وكاد النزاع يتفاقم . وأخيراً تدخل البابا ، وألغى قرار الحرمان ، وقضى بأن يُعهد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية على أن تكون خاضعة لسيادة الملك ، وأن يعطى دخلها للأميرات ، فارتضى الطرفان هذا الحل وعاد السلام إلى المملكة .

وكان أهم حدث حربى وقع فى عصر ألفونسو الثانى ، هو استيلاؤه بمعاونة القوات الصليبية المتجهة إلى المشرق ، على ثغر قصر أبى دانس ، وذلك فى سنة ١٢١٧ م (٦١٤ هـ) وذلك حسبما فصلناه فى موضعه .

وفى الأعوام الأخيرة من حكم ألفونسو ، عاد النزاع بينه وبين البابوية بسبب مطاردته لمطران براجا ، واعتدائه على امتيازات رجال الدين ، وتدخل البابا مرة أخرى وهدد الملك بالحرمان ، ولكنه لم يذعن للوعيد ، وما لبث أن مرض وتوفى فى مارس سنة ١٢٢٣ م .

فخلفه ولده سانشو الثانى ، وبدأ حكمه بأن عقد مجلساً نيابياً فى قلمرية عنى بتسوية النزاع بين العرش ورجال الدين ، وكذلك عقد الصلح بين الملك وعماته الأميرات وقرر أن يمنحهن مخصصات مجزية ، على أن يعترفن بطاعته ، وأن تؤول الأراضى والحصون التى لهن بعد وفاتهن إلى العرش . ثم تأهب سانشو بعد ذلك لمنازلة المسلمين ، وانتزاع ما بقى بأيديهم من أراضى البرتغال . فاستولى على إلفاس (١٢٢٦م)، وافتتح حصنى شربة وجلمانية وغيرهما من حصون الحدود الواقعة على ضفة وادى يانه . ثم استولى على ميرتلة ، وسلمها لفرسان شنت ياقب ، واستولى على شلب (١٢٤٢م) ثم استولى أخيراً على ثغر طبيرة (١٢٤٣ م) فى الجنوب ، وكان سانشو يستعين فى معظم فتوحه بالصليبيين الوافدين ، وكانت البابوية ، تمده بعونها الأدبى ، وتسبغ الصفة الصليبية على حروبه ضد المسلمين.

على أن سانشو لم يوفق إلى تدعيم السلام فى مملكته . ذلك أن النزاع عاد يضطرم بينه وبين رجال الدين ، لأسباب عديدة تلخص فى محاولة العرش أن يحتفظ بسلطاته الدنيوية والقضائية ، ومحاولة رجال الدين أن يحافظوا على سلطانهم وامتيازاتهم ، واختصاصاتهم القضائية . وكانت مبالغة الأحبار فى توسيع امتيازاتهم ، ينعكس أثرها على امتيازات الأشراف ، فيضطر العرش إلى إرهاقهم

بمطالبه المالية والعسكرية ، فكانت منهم كذلك طائفة كبيرة تنقم على العرش هذا الإرهاق ، وكان سانشو يشعر بقصوره عن إخماد هذه النزعات الثورية ضد العرش، خصوصاً وأن البابوية كانت دائماً تصغى إلى شكوى الأحبار وتحريضهم . ومن جهة أخرى فإن سانشو كان دون ولد ، وكان أخواه ألفونسو وفرناندو وعمه بيدرو ، جميعاً يمالئون الحركة الثورية ، سعياً إلى انتزاع العرش من سانشو، وكان أكثر هؤلاء حظاً من التأييد الإنفانت ألفونسو ، وكان قد تزوج من الأميرة ماتيلدة صاحبة بولونيا بإيطاليا، وغدا بزواجه أميراً لهذه الولاية، وكان الأحبار ، والأشراف الثوار يرون فيه أداة صالحة لتنفيذ خططهم ، خصوصاً وأنه كان يتمتع بعطف البابوية . وانتهى الأمر بأن نجح هؤلاء فى سعيهم لدى البابوية ، وأصدر البابا إنوصان الرابع فى يوليه سنة ١٢٤٥م ، قرارا بإقالة سانشو الثانى وتنصيب أخيه ألفونسو مكانه فى العرش . فقطع ألفونسو على نفسه عهداً باحترام امتيازات رجال الدين، وركب البحر مع طائفة من الأحبار والأشراف البرتغاليين إلى ثغر أشبونة ، وفى الحال أعلن ملكاً ، واضطر سانشو إلى الفرار ، والالتجاء إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فوعده بتأييده ، وبعث معه ولده ألفونسو فى جيش جهزه لمقارعة خصومه ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل ، حيث استطاع ألفونسو ملك البرتغال الجديد ، أن يقنع الأمير القشتالى ، بأنه ارتقى العرش بأمر الكرسى الرسولى ، وأن معظم الأحبار والأشراف والشعب إلى جانبه ، فارتد القشتاليون أدراجهم دون قتال ، وارتد سانشو معهم ليقضى أعوامه الأخيرة ، فى طليطلة ، وهناك توفى فى يناير سنة ١٢٤٨ م .

وتأهب ألفونسو الثالث ، بعد أن اطمأن إلى توطيد عرشه ، إلى اتمام فتوح ما تبقى بأيدى المسلمين من أراضى البرتغال ، وبدأ بحصار قلعة فارو أوشنتمرية الغرب ، واستولى عليها فى سنة ١٢٤٩ م ، ولم يكن بهذه القواعد الإسلامية الأخيرة سوى حاميات ضئيلة من الموحدين وغيرهم ، ثم استولى ألفونسو تباعا على سائر ما كان باقيا بأيدى المسلمين من القواعد ، والحصون بهذه المنطقة وبذلك تم القضاء على سلطان المسلمين نهائيا من الأراضى البرتغالية ، ولم يكتف ألفونسو الثالث بذلك بل عبر فى قواته نهر وادى يانه ، ومضى فى فتوحه فى أراضى ولاية الغرب الأندلسية ، ولكنه اضطر فيما بعد أن ينزل عما فتحه من الأماكن فى تلك المنطقة لملك قشتالة ، إذ كانت داخلة فى نطاق الفتوح القشتالية .

الكتاب الثاني عشر

نظم الدولة الموحدية
وخواص العصر الموحدى

الفصل الأول

الحكومة الموحدية بالمغرب والأندلس
وأوضاعها السياسية والعسكرية والإدارية

الدولة الموحدية وقيامها على أسس دينية . الفرق بينها وبين الدولتين المرابطية والفاطمية . الحكومة الإمامية فى عهد المهدى . تحول الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية . صفة الإمامة الشكلية . الأساس القبلى لهيكل الدولة الموحدية . قبائل المصامدة وغيرهم . غلبة نفوذ المصامدة فى تسيير الدولة . تصنيف عبد المؤمن لطوائف الموحدين . وضع أسس الحكم الدنيوى الجديد . تخليده فى بنى عبد المؤمن . اختيار عبد المؤمن لولى عهده . زعمه بأنه يحقق بذلك رغبة القبائل البربرية والعربية . تعيينه أولاده لحكم الولايات . اختصاصهم وأعقابهم بلقب السادة . إيثار القرابة والأصهار بمناصب الحكم والوزارة. ولايات المغرب والأندلس فى ظل الدولة الموحدية . إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى بالأندلس . بواعث هذا الاختيار . الأسس الأولى للحكم الموحدى حسبما وردت فى رسالة عبد المؤمن . ظهور الخلافة الموحدية بحرصها على توطيد العدل . الوزارة الموحدية . نظامها أيام المهدى. خطة الوزارة منذ عبدالمؤمن. الوزارة والكتابة . اصطلاع الأبناء والقرابة بالوزارة والحجابة . تعيين الوزراء العاديين . اختيارهم من خاصة القبائل الموحدية . الكتابة من أهم الخطط . اختيار أكابر الكتاب لهذه الخطة . معظمهم من أهل الأندلس . بعض الكتاب الأندلسيين والمغاربة . الخلفاء المتعاقبون وكتابهم . حرص الخلافة الموحدية على بلاغة الترسل . العلامة وديوان العسكر . منصب أشغال البرين وأهميته . وزراء الشئون المالية . ديوان الأعمال المخزنية واختصاصاته . متولى المجابى . متولى المستخلص . صاحب الشرطة . منصب مقدم إرسال ملوك الروم وإنزالهم والترجمة عنهم . سياسة الموحدين فى شئون الجباية . رسائل عبد المؤمن فى ذلك . تضخم الدولة وتطور سياسة الضرائب . تكسير عبدالمؤمن لأراضى الدولة . فرض الخراج وغيره من المكوس . مضاعفة وزن الدينار الموحدى . الأحوال الاقتصادية فى بداية الدولة . خراب إفريقية وأثره فى تحطيم رخاء المغرب . موقعة العقاب وآثارها الاقتصادية المدمرة . اضطراب شئون الخلافة وأثره . عيث العرب وقبائل البربر. القحط والغلاء . تردد صدى هذه المحن بالأندلس . الحروب الأهلية وغزوات النصارى وآثارها المدمرة . المناصب الدينية . القضاء والتعيين فى مناصبه . استئثار قضاة الأندلس بمناصبه فى بلادهم. توليهم أحيانا قضاء الجماعة بالمغرب. خطة الشورى. خطة الأحكام . خطة المواريث . حسبة السوق . منصب الخطابة . صاحب الصلاة . متولى شئون طلبة الحضر . تحول الخلافة إلى ملك دنيوى . الاحتفاظ برسوم المهدى . تطور الفكرة المذهبية فى عصر المنصور . مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدى ومحو أسطورته . فتكه بالزعامة الموحدية . الرشيد وعوده إلى استرضاء الأشياخ . إعادته لرسوم المهدى . القوة العسكرية الموحدية . الحشود القبلية مصدرها الرئيسى . بداية حشدها أيام المهدى . علم المهدى الأبيض . تضخم الجيوش فى عهد عبدالمؤمن . تأليف عبدالمؤمن للحشود القبلية وتنسيقها . طريقة مسير الجيوش الموحدية . سلا ورباط الفتح مركز

لتجمع الجيوش الموحدية . مراكز التموين . طريق العبور إلى شبه الجزيرة . خطة المربع الموحدى ومنحها . طوائف العرب بعد الحشود القبلية . عبد المؤمن يضع خطته لاستمالة العرب . مساعى ولده الخليفة أبى يعقوب فى ذلك . العرب يؤلفون جناحا خاصا فى الجيوش الموحدية . هدف السياسة الموحدية فى حشد العرب . تقلبهم وعدم ولائهم . دورهم فى الحرب الأهلية. القوات الأندلسية ودربتها وولاؤها. الخليفة قائد الجيش العام . المؤتمرات الحربية . ساقة الجيش وقبة الخليفة . الاستعانة بالمرتزقة النصارى. البنود والطبول . الإنعام والبركات . المطوعة ونظامهم . القوى البحرية . عناية الموحدين بإنشاء القطائع . أهمية الأسطول ودوره فى حماية الشواطىء . مراسى الأسطول . إدارة شئون الجيش . ديوان العسكر . ديوان التمييز . التمييز وتطور غايته . الحج إلى تينملل . الثغرات فى الجيش الموحدى. فوضى القيادة . اختلال التموين . تفوق الموحدين فى فنون الحصار والآلات المدمرة . المدافع البدائية . تفوقهم فى فن التحصينات . موقعة العقاب وانهيار الدفاع بالأندلس . انشغال الموحدين بالتنافس على الخلافة. توثب الممالك النصرانية . الحكومة الموحدية بالأندلس . ميلها إلى الطابع المدنى . أقسام الأندلس الإدارية. السادة والقرابة يتولون حكم الولايات . إشبيلية مركز الحكم الموحدى والحاكم العام . البلاط الموحدى بإشبيلية . حكومات الولايات المحلية . عناصر هذه الحكومات . استخدام السادة لكتاب الأندلس . إشبيلية مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية . القوات الأندلسية . قيادتها ودورها فى الدفاع والحراسة . مملكة الشرق . احتفاظها بالطابع الأندلسى . كونها أول مركز لقيام الحركات القومية . اللون الانتحارى لهذه الحركات . مصانعة زعمائها للنصارى واستمدادهم . حكومة إشبيلية بعد انهيار سلطان الموحدين . الاضطراب والفوضى فى الأندلس .

الآن وقد انتهينا من استعراض تاريخ الدولة الموحدية ، بالمغرب والأندلس ، منذ قيامها على يد إمامها المهدى ابن تومرت ، حتى انحلالها وسقوطها ، على يد آخر خلفائها ، أبى العلى إدريس الملقب بأبى دبوس ، فيما يملأ نحو قرن ونصف قرن ، نحاول فى هذا الفصل ، أن ندرس طبيعة النظم ، التى سارت عليها الدولة الموحدية ، فى حكم تلك الإمبراطورية العظيمة ، خلال هذا المدى الطويل من الزمان .

قامت الدولة الموحدية ، حسبما رأينا ، على أسس دينية محضة ، وهى فى ذلك قرينة الدولة المرابطية ، التى قامت كذلك على أسس دينية . ولكن شتان بين الحالتين . ذلك أن الأساس الدينى ، الذى قامت عليه الدولة المرابطية ، كان أساس العقيدة الدينية ، والجهاد فى سبيل نشرها . ولكن الدولة الموحدية ، تمتاز باستنادها إلى أسس الإمامة الدينية ، ونظرية المهدى المنتظر ، وهى فى ذلك تضارع الدولة العبيدية الفاطمية . بيد أنها بالرغم من اشتراكها مع الدولة الفاطمية فى وحدة المصدر ، وهو الدعوة الشيعية ، تمتاز باستقلالها عن الحركة الشيعية المشرقية ، وبصفتها المغربية المحلية .

وامتازت رياسة الدولة الموحدية ، فى البداية ، بإمامة منشئها المهدى

ابن تومرت ، ولم تتخذ فى حكمها مدى العشرة أعوام ، التى لبثها المهدى على رياستها أى طابع آخر ، وكانت هذه الإمامة مصدر السلطات الدينية والسياسية معاً . وكانت الحكومة الموحدية عندئذ ، عبارة عن ثيوقراطية (حكومة دينية) يعاون الإمام فيها ، صحبه العشرة الأوائل ، المسمون بالجماعة ، فيما يمكن أن نصفه بالوزارة ، وكان هؤلاء يضطلعون بمشورة الإمام فى جلائل الأمور ، بيد أنه كان يوجد إلى جانب هؤلاء ، أفراد آخرون من ذوى النفوذ ، كان الإمام يرجع إليهم فى تدبير الشئون ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان[1] ، ثم كان هناك من صحب المهدى أهل خمسين ، وهؤلاء يشتركون فى بحث الشئون الأقل أهمية ، ثم أهل سبعين ، ويشتركون أيضاً فى بحث الشئون العادية .

فلما توفى المهدى ، فى رمضان سنة ٥٢٤ هـ (أغسطس سنة ١١٣٠ م) عقب هزيمة أنصاره الساحقة فى موقعة البحيرة ، بأشهر قلائل ، وخلفه فى رياسة الموحدين كبير صحبه وآثرهم لديه عبد المؤمن بن على ، وبزغ نجم الموحدين بعد ذلك على يد عبد المؤمن ، واستمروا فى صراعهم ضد المرابطين ، حتى انتهوا بسحق دولتهم ، وذلك بالاستيلاء على حضرة مراكش ، فى شوال سنة ٥٤١ هـ (مارس ١١٤٧ م) ، واستكملت الدولة الموحدية بذلك سيادتها ، على سائر أنحاء المغرب ، لم يكن ثمة بد ، من أن تتحول الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية. وبالرغم من أن الإمامة الموحدية ، لم تفقد فى ظل هذا التحول صفتها الدينية ، ولا اعتبارها كشعار للدولة الموحدية ، فإنها لم تكن عندئذ سوى عنوان إسمى يتوج الخلافة الجديدة . والواقع أن الخليفة عبد المؤمن ، هو المنشىء الحقيقى للدولة الموحدية الكبرى ، وعلى يديه ، توطد سلطانها بالمغرب وإفريقية والأندلس ، وفى ظله تحولت الخلافة الموحدية شيئاً فشيئاً ، من إمامة دينية إلى ملك سياسى باذخ ، وذلك مع الاحتفاظ دائماً برسوم الإمامة المهدية ، وتعاليم المهدى الدينية ، والدعاء له فى الخطبة ، وفى المكاتبات الرسمية ، ووصفه دائماً «بالإمام المعصوم ، المهدى المعلوم».

ومن ذلك الحين ، نستطيع أن نتتبع ملامح النظم الموحدية ، وطبائع الحكم الموحدى ، بصورة واضحة . ويجب أن نذكر أولا ، أن هيكل الدولة الموحدية الأساسى ، كان يقوم منذ البداية ، على أسس قَبَلية ، وذلك سواء من الناحية المدنية أو العسكرية . وكانت القبائل ، التى يرتكز إليها هذا الهيكل ، ينتمى

---

(١) نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره ، لوحة ١٠ ب و ٣٣ ب) وراجع ص ١٩٦ من هذا الكتاب .

معظمها إلى مصمودة ، ومنها القبائل السبع الأولى ، التى اتسمت بالصفة الموحدية ، وكانت أسبق القبائل إلى مبايعة المهدى ، وهى هرغة قبيلة الإمام المهدى ذاته ، وهنتاتة ، وأهل تينملل ، وجنفيسة ، وهزرجة ، وجدميوة ، ووريكة ، ويلحق بهذه القبائل التى اكتسبت قبل غيرها صفة التوحيد ، قبيلة كومية وهى قبيلة الخليفة عبد المؤمن ، وكذلك مجموعة أخرى من قبائل المصامدة القوية ، مثل هسكورة ، ودُكالة ، وهيلانة ، وحاحة ، وغيرها ، ومن غير المصامدة ، زناتة تيفسرت وصنهاجة القبلية[1]. وقد انضم بعض هذه القبائل ، إلى العصبة الموحدية بطريق الفتح ، مثل هسكورة وحاحة . وكان سلطان الدولة الموحدية يقوم على تأييد هذه القبائل ، وتستأثر القبائل الموحدية السبع فى الدولة ، بأكبر قسط من النفوذ ، وتحتل معظم المناصب الكبرى ، من الوزارة والولاية والقيادة ، وتغذى هذه المجموعة الكبيرة من القبائل الجيوش الموحدية الجرارة ، بحشودها الزاخرة المدربة على القتال .

وقد وضع عبد المؤمن لتنظيم الموحدين ، نظاما جديداً غير الذى وضعه المهدى ابن تومرت من قبل ؛ وكان المهدى حسبما تقدم فى موضعه ، قد جعل من الجماعة أو الصحب العشرة ، رأس الطوائف الموحدية ، ومن بعدهم أهل خمسين ثم أهل سبعين ، فطلبة العلم ، فالحفاظ ، فأهل الدار . بيد أنه لما تعاقبت الحوادث ، وفُقد الكثير من أهل الجماعة ، وأشياخ الموحدين ، رأى عبد المؤمن أن يصنف الموحدين ، إلى ثلاث طوائف : الأولى هى طائفة السابقين الأولين ، وهم الذين سبقوا إلى مبايعة الإمام المهدى ، وصحبوه أو غزوا معه ، أو صلّوا خلفه ، والذين اشتركوا فى موقعة البحيرة الفاصلة . والثانية هى طبقة الموحدين ، ممن دخلوا فى زمرة الموحدين ، منذ موقعة البحيرة حتّى فتح وهران . والثالثة هى طبقة الذين دخلوا فى التوحيد ، منذ فتح وهران إلى ما هلم جرا ، وهذا كله مع المحافظة على هيكل النظام القبلى الذى تقدم شرحه[2] .

ولما توطد سلطان الخليفة عبد المؤمن ، بما تم له من استكمال فتوح المغرب والأندلس ، وإخضاع سائر القبائل الخصيمة ، وغلب لون الخلافة الدنيوى ، بتضخم صرحها السياسى ، وتحولت فى الواقع إلى ملك باذخ ، وضعت القواعد الأولى لتنظيم هذا الملك ، وتخليده فى بنى عبد المؤمن ، كما وضعت الأسس التى

---

(١) يقدم إلينا البيذق فى أخبار المهدى ابن تومرت تفصيلا شاملا لبطون هذه القبائل (٣٥-٤٣).

(٢) راجع الرسالة الثانية عشرة من رسائل موحدية ص ٥٣ و ٥٤ ، وراجع أيضاً ص ٣٩٨ , ٣٩٩ من هذا الكتاب

تحكم بمقتضاها ، أقطار الدولة الموحدية وشعوبها . وبدأ عبد المؤمن فى ذلك ، باختيار أكبر أولاده أبى عبد الله محمد لولاية عهده (سنة ٥٤٩ هـ) ، وقد أوضحنا فيما تقدم كيف اختير عبد المؤمن للخلافة ، عقب وفاة المهدى ، وما أحاط بذلك الاختيار من ظروف خاصة . ولم يكن ثمة ما يؤذن عندئذ أو يسمح للخليفة ، بأن يجعل من الخلافة أمراً وراثياً فى عقبه ، ومن ثم فقد أبدى عبد المؤمن ، فى رسائله الرسمية عن ولاية العهد ، أنه لم يكن له فى ذلك رغبة خاصة ، وإنما حمل على تصرفه برغبة القبائل والعشائر البربرية والعربية المختلفة ، وهى التى دفعته ، إلى القيام باختيار ولده لولاية العهد . وقام عبد المؤمن فى نفس الوقت باتخاذ الخطوة الثانية ، لتنظيم الحكم ، وتوكيد سيادة بنى عبد المؤمن . فعين بقية أولاده ، لحكم ولايات المغرب والأندلس ، وذلك حسبما فصلنا فى موضعه . وكان أولاد الخليفة ينعتون هم وأعقابهم بالسادة ، وهو لقب اختصوا به طوال أيام دولتهم . وقد جرت الخلافة الموحدية ، على نسق الدولة المرابطية ، فى تعيين الأبناء والقرابة والأصهار ، لحكم الولايات والمدن ، وأحيانا للقيادة والوزارة ، هذا مع تعيين بعض الأشياخ والحفاظ المقربين أحيانا ، فى هذه المناصب الكبرى . وقد حرصت الخلافة الموحدية ، على هذه القاعدة ، حتى أواخر أيامها ، سواء فى المغرب أو الأندلس . وكانت ولايات المغرب أو عمالاته ، فى ظل الخلافة الموحدية ، تشمل بلاد السوس ، وسجلماسة ، ومراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وبجاية ، وإفريقية ، ثم سلا فيما بعد ، وكانت سبتة ، أحيانا ولاية مستقلة ، وأحيانا تلحق بمالقة والجزيرة الخضراء . وأما ولايات الأندلس ، فكانت تشمل ولاية الغرب (شلب وأحوازها) ، وإشبيلية ، وقرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية .

وكانت قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس أولا إشبيلية ، وذلك لأنها كانت أول قاعدة أندلسية كبرى ، نادت بطاعة الموحدين ، وبعثت ببيعتها إلى عبد المؤمن على يد وفد من أعيانها ، وثانيا لأنها كانت أول قاعدة كبرى استولى الموحدون عليها ، ولكن عبد المؤمن ، قبيل وفاته بقليل ، أمر ولده السيد أبا يعقوب يوسف ، وكان عندئذ واليا لإشبيلية ، أن ينتقل منها إلى قرطبة ، وأن يجعل بها قاعدة الحكم الموحدى ، ومستقر الجيوش الموحدية ، لأنها « موسطة الأندلس » . بيد أن هذا التغيير لم يطل أمده ، ولم يمض سوى وقت قصير ، حتى

أعيد مركز الحكم الموحدى إلى إشبيلية ، واستقر بها بعد ذلك ، طوال عهد الدولة الموحدية ، وذلك بالأخص لبعدها عن حدود قشتالة ، وعن خطر الغزو النصرانى ، ولأنها باتصالها بالبحر ، بواسطة مصب نهرها الوادى الكبير ، ووفرة مواردها الزاخرة من وادى الشّرف ، كانت تعتبر خير قاعدة ، لنزول الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، وغدت إشبيلية فى ظل الحكم الموحدى ، أعظم حواضر الأندلس ، وازدانت بكثير من الصروح ، والمنشآت العمرانية العظيمة ، التى أتينا على ذكرها فى موضعها .

١ — نظم الحكم الموحدى

وأما عن نظم الحكم الموحدى ، فقد كان الخليفة عبد المؤمن أيضاً ، هو أول من وضع أسسها الرئيسية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية ، لتحول الخلافة الموحدية على يده ، إلى ملك دنيوى ، ووضعه لنظام ولاية العهد . ونجد هذه الأسس الأولى ، لنظام الحكم الموحدى ، مدونة فى الرسالة التى وجهها عبد المؤمن ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، إلى الطلبة والأعيان والمشيخة والكافة بالأندلس والتى أوردها لنا ابن القطان ، ولخصنا ما تضمنته فيما تقدم[١] . وتنحصر هذه الأسس فى خمس نقط هى : وجوب التزام الدقة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، ووجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أومكوس ، لاتبيحها الشريعة ولاتتفق مع قواعد العدل ، وأنه لايجوز الحكم فى مواد الحدود بالإعدام ، أوتنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ، ليصدر هو قراره فى هذا الشأن ، وأنه يجب تحريم الخمر ، ومطاردتها فى سائر أنحاء الدولة ، وأنه يجب حماية أموال « المخزن » (أموال الدولة) ، وصونها وعدم التصرف فى شىء منها ، دون استئذان الخليفة . وقد حذا الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، حذو أبيه ، بتأكيد هذه الأسس الدستورية ، للحكم الموحدى ، وذلك فى رسالة شبيهة برسالة أبيه ، وجهها فى رمضان سنة ٥٦٩هـ ، إلى أخيه السيد أبى سعيد والى قرطبة ، وأصحابه الطلبة ، وفيها يحث على وجوب تطبيق أحكام الشرع ، أوامرها ونواهيها بدقة ، واتباع الحق والعدل ، فى الفصل فى قضايا العباد ، وأنه فيما يتعلق بالدماء ، فإنه يحظر على سائر عمال الموحدين أن يحكموا فى الدماء من تلقاء أنفسهم ، وأنه لابد من أن ترفع قضايا القتل إلى الخليفة ، مشفوعة بتفاصيلها وأدلتها وشروحها ، ويسرى ذلك حتى على القضايا

---

(١) راجع ص ٤٠٠ و٤٠١ من القسم الأول من هذا الكتاب .

التى وقع فيها اعتراف بالقتل ، أودليل أوشهادة مقبولة ، أوغير ذلك ، فإنه يجب فى سائر الأحوال ، أن يرفع الأمر إلى الخليفة ، وأن ما ورد فى كتاب الله من الحظر المؤكد والوعيد الشديد ، نحو إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، يوجب عليهم اتباع ما رسم ، ووجوب التوقيف والبيان والتعريف ، هذا مع وجوب تقوى الله ، وطاعة أوامره ، والجرى على سننه . وتكرار هذا النصح ، بالعف عن إراقة الدماء ، والتحوط فى تنفيذ أحكام الإعدام ، هو صدى طبيعى ، لما اتسمت به الدولة الموحدية ، منذ قيام المهدى ابن تومرت ، من المبالغة فى استباحة دماء خصومها وإراقتها . وقد ذكرنا من ذلك ، طائفة من الحوادث المروعة المثيرة ، أيام المهدى ، وخليفته الأول عبد المؤمن . فلما انتهت الدولة الموحدية ، من القضاء على خصومها ، ولما توطدت دعائمها ، وضخم سلطانها ، لم يبق ثمة موجب لهذا الإغراق فى سفك الدم ، وكان من حسن السياسة ، أن تؤكد الخلافة الموحدية حرصها على احترام دماء الناس ، وتمسكها بتنفيذ أحكام الشريعة ، وحثها عمالها على مراعاة ذلك ، وبالأخص على عدم التورط فى إراقة الدم ، إلا بموافقة الخليفة نفسه .

وكانت الخلافة الموحدية ، تؤثر أن تبدو فى نفس الوقت ، حريصة على توطيد العدل ، وقمع الظلم ، وقد رأيناها منذ البداية ، تتبع العمال الظلمة وتطاردهم وتقضى فى أحيان كثيرة ، بعزلهم ومحاسبتهم ، وأحيانا باعتقالهم وإعدامهم . وقد كانت للخليفة عبد المؤمن ، ولولده وخليفته أبى يعقوب يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور ، فى ذلك جهود ضخمة ، ذكرناها فى مواضعها ، بل لقد حذا الخليفة الناصر نفسه ، فى ذلك حذو أبيه وجده ، فى مطاردة العمال الظلمة وإزالتهم ، وكان تكرار هذه المطاردة للعمال الظلمة ، وعمال المخزن وغيرهم ، وتوقيع العقوبات الرادعة عليهم ، مما يصل أحيانا إلى الإعدام والمصادرة ، فى ذاته دليلا ، على ما كان يغشى الإدارة الموحدية ، فى بعض الأحيان ، من ضروب الفساد ، التى ترمى هذه المطاردة إلى قمعها .

وكانت الوزارة الموحدية ، وهى أداة الحكم المباشر ، أوسع نطاقا منها ، فى عهد الدولة المرابطية . وقد رأينا أن المهدى ابن تومرت ، لم يكن له وزير خاص ، وإنما كان يتخذ من الجماعة ، وهم الصحاب العشرة الأوائل ، أعضاء

وزارته ، ويبحث معهم شئون الحكم ، وكان يجعل من باقى الصحب ، وهم أهل خمسين ، وأحيانا أهل سبعين ، نوعا من الجمعية الاستشارية(١) . ثم بدأت خطة الوزارة ، فى عهد عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين ، وانتظمت على يده أداة الحكم ، بصورتها التقليدية ، من الاعتماد على معاونة وزير أو أكثر ، يتولون أعباء الحكم والإدارة بتوجيه الخليفة وإرشاده ،ويطالعونه بمختلف الشئون الهامة ، وعلى معاونة كاتب أو أكثر من الكتاب المجيدين ، يكونون ترجمانا لدعوته ، ويضطلعون بتوجيه رسائله وتعلياته ، إلى مختلف العمال والجهات .وكان الخليفة ، يعهد فى بعض الأحيان بوزارته ، إلى أحد أولاده أو إخوته ، فقد رأينا مثلا كيف عهد عبد المؤمن ، فى أواخر أيامه ، بالوزارة إلى ولده السيد أبى حفص(٢) . ولما توفى عبد المؤمن ، وخلفه ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، تولى شئون الحجابة مدى حين ، أخوه السيد أبو حفص ، وذلك على معنى الوزارة والإمارة(٣) . ثم لما توفى الخليفة أبو يعقوب ، عقب موقعة شنترين ، وخلفه ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، تولى حجابته أخوه كبيره السيد أبو حفص ، والحجابة هنا معناها رياسة الوزارة . ثم تولى له الوزارة أخوه السيد أبو عبد الله محمد . وأحيانا كان يضطلع بالوزارة بعض القرابة ، كما حدث أيام الخليفة المستنصر والرشيد . بيد أن تعيين الحجاب والوزراء من الأبناء والإخوة أو القرابة، لم يكن يحول دون تعيين الوزراء العاديين، للاضطلاع بتدبير الشئون، وقد كان أولئك الوزراء أيضاً ، فى الغالب ، من خاصة القبائل الموحدية الموالية . وكانت الوزارة تبقى فى الأسرة الواحدة أجيالا متعاقبة ، كما حدث فى أسرة بنى جامع ، التى تولى أبناؤها الوزارة، منذ خلافة عبد المؤمن ، واستمروا فى توليها فترات مختلفة ، حتى عصر الناصر ، وأسرة بنى يوجان ، التى تولى أبناؤها أيضاً الوزارة غير مرة .

وأما الكتابة ، فقد كانت من أهم خطط الحكومة الموحدية . وكان الخليفة الموحدى ، يحشد فى بلاطه ، أقطاب الكتاب المجيدين ، وكان السادة من الولاة سواء بالمغرب أو الأندلس ، يتخذون لكتابتهم أبلغ كتاب العصر . ومنذ عصر الخليفة عبد المؤمن ، نرى ثبتا طويلاً ، من أئمة النثر والبلاغة ، ينتظمون فى

(١) راجع ص ١٩٦ من ق ١ من هذا الكتاب. (٢) راجع ص ٣٩٤ من ق ١ من هذا الكتاب .
(٣) كتاب المن بالإمامة لوحة ٤٨ ب .

فى بلاط مراكش ، ليكونوا لسانا للخليفة الموحدى ، وترجمانا له ، فى مخاطبة الولاة والقبائل والكافة ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، وكان معظم هؤلاء الكتاب من أهل الأندلس ، ومنهم كذلك عدة من أكابر الكتاب المغاربة . فكان من الأندلسيين فى بلاط عبد المؤمن ، أبو الحسن بن عياش القرطبى ، وأخيل ابن إدزيسن الرندى ، والخطيب أبو الحسن بن الإشبيلى . ومن المغاربة ، أبو جعفر ابن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية ، ولو أنهما ينتميان إلى أصل أندلسى . واستمر أبو الحسن ابن عياش فى منصب الكتابة ، فى عهد أبى يعقوب يوسف . وكان يعاونه اثنان من ألمع الكتاب المغاربة فى ذلك ، هما أبو القاسم القالمى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة . وتولى الكتابة فى عهد يعقوب المنصور ، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش البرشانى ، وأبو الفضل بن محشرة . وكتب للناصر ولد المنصور ، أبو عبد الله محمد بن عياش ، وأبو الحسن على ابن عياش ، ومن المغاربة أبو عبد الله محمد بن مخلفتن الفازازى ، وكتب الأول كذلك للمستنصر . وحتى فى أواخر عهد الدولة الموحدية حينما أدركها الانحلال والوهن ، نجد مثل هذه العناية بمنصب الكتابة ، والحرص على استخدام الكتاب البلغاء . فقد كتب للمأمون ، وهو نفسه من الكتاب البلغاء ، كاتب من أعظم أئمة البيان الأندلسيين ، هو أبو المطرف بن عميرة المخزومى ، وكتب معه أبو الحسن الرعينى ، وأبو عبد الله بن عياش ، ومن كتاب المغرب ، أبو زكريا الفازازى . وكتب أبو المطرّف بن عميرة وأبو زكريا الفازازى كذلك للرشيد . وهكذا نجد البلاط الموحدى ، حتى أواخر عهد الدولة ، حريصاً على الاحتفاظ لديوان الكتابة والترسل ، بمستواه الرفيع ، الذى بلغه منذ عهد الخليفة عبد المؤمن . وإنا لنجد ذلك الحرص ، من جانب الخلافة الموحدية ، على بلاغة الترسل المترجم عنها فى تلك المجموعة من الرسائل ، التى صدرت عن الخلفاء المتعاقبين ، فى مختلف الشئون ، الشرعية ، والإدارية ، وعن سير الغزوات والفتوحات الموحدية ، والتى أشرنا إليها ، واقتبسنا من محتوياتها ، فى مواطن عديدة ، فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب[1] .

---

(١) نود أن نشير هنا مرة أخرى إلى مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرت بعناية العلامة الأستاذ ليفى بروفنسال (الرباط سنة ١٩٤١) والتى رجعنا إليها مراراً عديدة فيما تقدم ، وكذلك إلى مختلف الرسائل الموحدية الأخرى التى جاء ذكرها فى كتاب « المن بالإمامة » ، وكتاب (البيان المغرب) مما سبقت الإشارة إليه فى مواضعه . وقد نشرنا بعضها فى نهاية الكتاب .

وكان مما يلحق بديوان الكتابة ، كتب التوقيعات والظهائر وكل ما يمهر بالعلامة ، وكذلك ديوان العسكر ، وما انضاف إليه من التنفيذات السلطانية ، وتقييد الجزيات العامة فى أنواع النفقات[1]. وكان لديوان العسكر كتابه المختصون به ، وهم غير كتاب الديوان المختصين بالشئون الأخرى .

وكانت أداة الحكومة التنفيذية ، تضم عدة مناصب هامة ، فى مقدمتها منصب « متولى أشغال البرين » أعنى المغرب والأندلس ، وكان لذلك المنصب أهمية خاصة ، أيام عنفوان الدولة الموحدية وتماسكها ، ويوصف اختصاصه « بالأعمال العلية والأشغال السلطانية » . فنراه أيام الخليفة المنصور ، يسند إلى كبير الوزراء نفسه أبى زيدبن يوجان[2] ويوصف أحيانا « بإشراف البرين وضم الأعمال وتفقد الأشغال » ويسند إلى وزير أو أكثر يسمون « أصحاب الأشغال »[3] ويلى ذلك فى الأهمية الوزراء المختصون بالشئون المالية ، وهم « صاحب الأعمال المخزنية » ، ومتولى المجابى ، ومتولى أموال النفقات والمحاسبة ، ومتولى أعمال المستخلص . وكان لصاحب ديوان الأعمال المخزنية ، اختصاصات وسلطات واسعة فى السهر على تحصيل الأموال العامة وإنفاقها ، وفى رقابة العمال والمشرفين ، ومحاسبتهم والقبض عليهم[4]، وكان له وكلاء فى سائر المدن الكبرى ، يسمون بالمشرفين ، ويمثله فى إشبيلية عاصمة الأندلس « صاحب المخزن» ، وكان للمشرف بدوره خازن على المال ، وخازن على الطعام ، يتولى الإشراف على حركة الوارد والصادر بالمخازن العامة ، وأحيانا يقع ضمن أعمال المشرف الرقابة على تقييد المجابى[5]. وكان أولئك الوكلاء المشرفون على الأموال العامة يتحملون مسئوليات خطيرة ، ونراهم من آن لآخر ، عرضة لمختلف الاتهامات والمطاردات[6] وكان من التقاليد المأثورة أن يقوم الخليفة الجديد ، فى بداية ولايته بالعفو عن المسجونين ، ورفع الأموال المتخلفة ، عن عاتق العمال المبددين ، وتأمينهم من العقاب[7] . وأما متولى المجابى ، فهو المختص بتحصيل الضرائب ، والجزيات على مختلف صنوفها ، وله عمال فى المدن وفى البوادى . وكانت الحملات

---

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص٢٣١ (٢) البيان المغرب ٢٠١ و ٢٣٦ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٢٧ و٢٨٣ . (٤) البيان المغرب ص ١٣١ و٢٠١ و٢٣٧ .
(٥) راجع البيان المغرب ص ١٣١ و ١٧٢ .
(٦) البيان المغرب ص٣١ و١٠٨ و١١٢ ، و١٣١ ، و٢٣٧ (٧) البيان المغرب ص ٧٣ .

العسكرية ، تحشد أحيانا ، لإرغام القبائل المتخلفة عن أداء الجباية ، على أدائها ، وذلك حسبما ذكرنا فيما تقدم غير مرة . وأما متولى المستخلص ، فهو المشرف على الأموال الخليفية ، والمحافظة عليها ، وتحصيل ما يتعلق بها ، من مختلف أبواب الدخل . وقد يتولى صاحب الأشغال المخزنية أحيانا ، الإشراف على ما يتعلق «بالسهام السلطانية» أى أنصبة الخليفة أو حقوقه الشرعية فى الغنائم وغيرها[١].

وكان منصب صاحب الشرطة ، من المناصب الإدارية الهامة ، وكانت أهميته تبدو بنوع خاص فى الأوقات المضطربة ، وعند اضطرام الفتن ، وكان يشغله أحيانا ، رجال من ذوى المكانة الرفيعة فى الدولة من أكابر الوزراء ، كما حدث أيام الرشيد[٢] .

وبرز فى أواخر العصر الموحدى ، منصب هام فى الحكومة الموحدية ، هو منصب وزير يقوم فيه صاحبه ، بالتقديم إلى إرسال ملوك الروم ، والاشتغال بإنزالهم ، وتضييفهم ، والترجمة عنهم[٣] . ومن الواضح أن هذا المنصب لم تبرز أهميته ، إلا منذ أيام الخليفة المأمون ، حينما عقد حلفه المشهور ، مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وأمده هذا الملك النصرانى ، بفرقة كبيرة من جنده ، ليعبر بها إلى المغرب ، ويستعين بها على قتال منافسه فى الخلافة ، يحيى المنتصر . ومن ذلك التاريخ ، يأخذ الروم بقسط بارز ، فى الحروب ، التى يشهرها الخليفة الموحدى ، على خصومه ، ويقتضى أن يمثل فى بلاط مراكش ، شخص يتولى استقبال الوافدين من « الروم » (القشتاليين) ، من أمراء وقادة وسفراء وغيرهم ، ويتولى الإشراف على رعايتهم ، والترجمة بينهم وبين الخليفة ، وذوى الشأن من رجال الدولة.

وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى سياسة الحكومة الموحدية فى شئون الجباية ، ووجوب التزام أحكام الشرع فى شأنها ، والاقتصار فى ذلك ، على ما يجيزه الشرع من الزكوات والأعشار . وقد نوه الخليفة عبد المؤمن ، بوجوب التزام هذه السياسة ، فى رسائله الرسمية غير مرة ، وكانت له شعاراً ، فى حملاته للقضاء على الدولة المرابطية ، فنراه يذكرها فى أولى رسائله الدستورية ، وهى الرسالة الجامعة ، التى وجهها إلى الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة بالأندلس ، فى ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، وفيها يتحدث عن المغارم ، والمكوس والقبالات ،

---

(١) البيان المغرب ص ٢٠١ و ٢٢٧ . (٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٣٤ .

وتحجير المراسى ، وغيرها من المظالم ، ووجوب القضاء عليها ، وإجراء العدل فى شأنها[1] ، ونراه بعد ذلك ببضعة أعوام ، يعود إلى ذكرها ، فى رسالة إلى إلى أهل قسنطينة عن فتح بجاية فى جمادى الأولى سنة ٥٤٧ هـ ، وفيها يتحدث عما فرضه « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » دون التفات إلى ما أوجب الله من الزكوات والأعشار ، حتى قضى الله بإزالتهم ، ورد الأمر إلى نصابه ، بإجراء الشريعة على حقيقتها ، وإراحة أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع هذه المغارم[2].

على أن هذه العهود الرسمية، التى كانت تستند فى جوهرها، إلى تعاليم المهدى ابن تومرت ، ودعايته ضد الدولة المرابطية ، فيما جرت عليه من فرض المغارم والمكوس غير الشرعية ، لم تكن سوى شعار مؤقت ، تستظل به الدولة الموحدية فى بداية عهدها ؛ ذلك أنه لما توطدت دعائم الدولة الجديدة ، واتسع نطاق مسئولياتها المدنية والعسكرية ، سواء فى المغرب والأندلس ، كان من الواضح أن الاقتصار على تحصيل الفروض الشرعية فى شئون الجباية ، لايمكن أن يفى بما تتطلبه نفقات الدولة ، أو نفقات الجيوش الموحدية الضخمة فى المغرب ، أو فيما وراء البحر ، ومن ثم فقد اضطرت الدولة الموحدية غير بعيد ، أن تبحث عن وجوه أخرى ، لتحقيق الجباية وتوفير النفقات ، فكان مما فعله عبد المؤمن فى ذلك ، قيامه بمسح (أو تكسير) بلاد إفريقية والمغرب ، من برقة إلى السوس الأقصى ، وإسقاط مقدار الثلث من مساحتها ، مقابل الجبال والأنهار والطرقات وغيرها ، وفرض الخراج على ما بقى بعد ذلك ، من الأراضى الصالحة للزرع ، وألزمت كل قبيلة أن تؤدى قسطها من الزرع والمال[3] . ومن جهة أخرى فإن الخلافة الموحدية ، كانت إلى جانب ما يدخل خزائنها ، من غنائم الفتوحات المظفرة ، وأبواب المصادرة لأموال الخصوم ، ومن يلحق بهم من العمال المنكوبين ، لم تحجم عن أن تفرض مختلف الضرائب والمكوس ، على مختلف أنواع المعاملات ، من البيع والشراء ، والصادر والوارد ، وغير ذلك ، مما كان متبعاً فى سائر دول العصور الوسطى ، وهذا إلى ما كانت تستولى عليه ، من أموال

(١) راجع ص ٤٠٠ من القسم الأول من هذا الكتاب .
(٢) راجع رسالة عبد المؤمن المذكورة فى « رسائل موحدية » وهى الرسالة السابعة ص٢١ .
(٣) راجع ص ٣٧٧ من القسم الأول من هذا الكتاب .

النصارى واليهود ، الذين بقوا فى أراضى الدولة ، ولاسيا خلال حركات الاضطهاد والمطاردة ، وقد كانت تحدث من آن إلى آخر .

وكان من الإجراءات المالية الهامة ، التى قامت بها الخلافة الموحدية ، مضاعفة وزن الدينار الموحدى ، وقد تم ذلك فى بداية عهد الخليفة المنصور ، وكان له أثره فى دعم طمأنينة التعامل، وتحسين الشئون الاقتصادية ، بوجه عام .

وقد لبثت الأحوال الاقتصادية بالمغرب والأندلس، فى ظل الدولة الموحدية ، أيام عنفوانها وقوتها ، طيبة يدعمها الأمن والرخاء ، وتقدم الزراعة والتجارة ، وكان ذلك فى عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن ، حتى أواخر عهد المنصور ، وهى فترة دامت زهاء نصف قرن . ولم يكن يعكر هذا الرخاء ، إلا فتنة محلية ، أو محنة طبيعية ، من جدب أوشرق أوغيره . بيد أنه لما اشتد عيث طوائف العرب بإفريقية ، وخربوا مدنها ، واجتاحوا بسائطها ، وتفاقم هذا العيث والتخريب ، أيام ثورة بنى غانية ، بما ترتب على مغامراتهم ، من صنوف الدمار المطبق ، وقطع السبل، ونهب التجار ، وانقطاع المعاملات السامية ، أخذ خراب إفريقية ، وهى أغنى أقطار الدولة ، وأوفرها خصبا وموارد ، يحدث أثره فى اقتصاد المغرب ، وفى تحطيم رخائه . ولما انتهت فتنة بنى غانية فى أوائل عهد الناصر ، وعاد الأمن والرخاء لإفريقية، كانت حركة الناصر إلى الأندلس ، تمهد لأعظم كارثة عسكرية ، منيت بها الدولة الموحدية ، ومنى بها المغرب . وكان لهزيمة العقاب الساحقة ، فضلا عن آثارها العسكرية المدمرة ، آثار اقتصادية بعيدة المدى، فقضى بفناء الجند على الأيدى العاملة، وانهارت الزراعة والتجارة، وعدمت الأقوات ، وفشت المجاعة فى المغرب والأندلس ، وكان يذكى من هذه المحنة الاقتصادية ، ضعف الحكومة وتواكلها ، واحتجاب الخليفة ، وعدم اهتمامه بآلام الشعب . وفى عهد المستنصر ولد الناصر ، تفاقمت الأزمة الاقتصادية بالمغرب والأندلس ، واشتدت الحال ، وتناهى الغلاء[1] ، واختلت أحوال الخلافة الموحدية ، واضطرب الأمن ، وقطعت السابلة ، ووقع النهب على التجار ، واستمرت هذه الأحوال طوال عهد المستنصر ،وهو فى غفلة عن كل ما يجرى ، غير مهتم بشئون رعيته أوجاهل لها ، لتواكل وزرائه ، وإخفائهم عنه حقائق الشئون[2] .

---

(١) البيان المغرب ص ٢٣٦ و ٢٤٥ .

(٢) الذيل والتكلة لابن عبد الملك (المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٩) .

ثم تفاقم الأمر ، باضطراب شئون الخلافة الموحدية ، ووقوع الفتنة والحروب الأهلية حول كرسى الخلافة ، وتدخل بعض طوائف العرب ، مثل عرب الخُلط وبعض القبائل البربرية القوية ، مثل هسكورة ، فى هذا النزاع ، وتقلبهم فى مناصرة المتنافسين على العرش ، وعيثهم بأحواز العاصمة ، ومهاجمتها أحيانا ، وكانت المجاعة تقع حينما تضطرم الفتنة ، ومن ذلك ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب ، من وقوع المجاعة فى مراكش ، حينما هاجمها عرب الخلط ، وعاثوا فى أحوازها ، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وتحطمت المرافق ، وعانى الناس منتهى الشدة ، ووصل الربع الواحد من الدقيق إلى ثلاثة دنانير[1] . وحدثت مجاعة مماثلة ، حينما اضطر الخليفة الرشيد ، أن يغادر الحضرة ، أمام ضغط عرب الخلط ، فقاسى الناس أهوالا ، وخلت الأسواق من كل شىء ، ووصل المد من القمح إلى سبعة دراهم ، وأكل الناس فيتور الزيتون ، ونوار الخروب ، وغير ذلك من النباتات الطفيلية ، وكانت محنة مروعة[2]. واستمرت الأزمات الاقتصادية ، طوال أيام الفتنة ، والحروب الأهلية بين الرشيد والخلط ، والرشيد ويحيى بن الناصر ، وخفت حدتها أيام السعيد والمرتضى ، وكان القحط يقترن بوقوع الوباء . وفى سنة ٦٤٧ هـ ، وقعت بمدينة سبتة وأحوازها مجاعة عظيمة ، وغلاء فاحش ، وذلك بسبب الفتن والحروب الأهلية المستمرة[3]. وكان صدى هذه الأزمات الاقتصادية ، يحدث أثره فى الأندلس . وكان من أثر المحن والأحداث السياسية فى الأندلس ، أن كانت أهوال الغلاء والجوع ، تعصف بالناس من آن لآخر ، وحدث ذلك فى بلنسية حين حصارها ، ووقعت شدة مماثلة بإشبيلية وقت حصارها ومات كثير من أهلها بسبب الجوع[4] . وكانت الفترة التى تلت قيام ابن هود ، فى شرق الأندلس ، وقيام ابن الأحمر فى أواسط الأندلس ، ثم فى الجنوب ، وما تخلل ذلك من فتن وحروب أهليه ، وما قام به النصارى ، من غزوات لأراضى الأندلس ، ومن استيلائهم على معظم قواعدها الكبرى ، وذلك كله فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، فيما بين سنتى ٦٢٠ و ٦٥٠ هـ ، كانت هذه الفترة المدلهمة من تاريخ الأندلس ، وما اقترن بها من محن ونوائب ، وتشريد لأهل القواعد المفتوحة ، وضياع للأموال والثروات ، مليئة بالأزمات الإقتصادية

(١) البيان المغرب ص ٣٠٧ .
(٢) البيان المغرب ص ٣١٥ و ٣١٦ .
(٣) البيان المغرب ص ٣٤٧ .
(٤) البيان المغرب ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

وأهوال الغلاء والجوع والحرمان ، والأوبئة ، وكانت من أشد ماعانت الأمة الأندلسية عقب انهيار الحكم الموحدى ، وما ترتب عليه ، من انهيار خط دفاعها القديم ، ووقوعها فريسة هينة للغزو النصرانى .

* * *

وكانت المناصب الدينية تنحصر فى القضاء ، وهو أهمها ، والشورى ، وهى من متعلقات القضاء ، والخطبة فى المساجد الجامعة . وكان يعين فى عاصمة كل ولاية قاض للجماعة ، وهو يتولى اختيار نوابه فى مناصب القضاء المحلية . وقد لبث القضاء فى عهد الدولة الموحدية ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، محتفظاً بأهميته وجلاله القديم . وكان الخليفة الموحدى ، يقوم بتعيين قضاة الجماعة ، فى سائر المدن الكبرى ، دون تدخل فى ذلك من الولاة[1]. وتتبع نفس القاعدة فى تعيين قضاة الأندلس . ومما هو جدير بالذكر ، أن الأندلسيين كانوا يستأثرون بمناصب القضاء فى بلادهم ، وذلك منذ أيام الدولة المرابطية ، ولم تحاول الخلافة الموحدية أن تحيد عن ذلك التقليد الراسخ إلا فى أحوال نادرة كان يتولى فيها القضاء بالأندلس بعض الممتازين من القضاة المغاربة[2]. بل لقد كان الخليفة الموحدى ، يختار لقضاء الجماعة بمراكش ، بعض اللامعين من فقهاء الأندلس ، كما حدث أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف حينما تولى قضاء الجماعة بالعاصمة الموحدية ، أبومحمد المالقى ، ثم أبوجعفر بن مضاء ، وتولاه أيام الخليفة المنصور أبو جعفر بن مضاء ، وأبو القاسم أحمد بن بقى ، وشغل أبو القاسم نفس منصبه أيام الخليفة الناصر ، وذلك حسبما ذكرنا فى مواضعه من قبل . ويرجع ذلك كما هو واضح ، إلى تفوق الدراسات الشرعية فى الأندلس ، وتفوق القضاة الأندلسيين فى الفقه المالكى ، وفى ممارسة الأحكام وتطبيقها . وقد لبثت الأندلس محتفظة بهذا التفوق ، سواء فى الكتابة أو القضاء ، حتى إبان انحلالها فى أواخر العهد الموحدى .

وأما خطة الشورى ، فقد كانت أيضاً من المناصب القضائية ، ولكنها كانت حسبما يبدو من مختلف الإشارات الخاصة بها ، أقل فى الرتبة من القضاء . ويختص

---

(١) البيان المغرب ص ١٢٩ و٢٣١ .

(٢) مثال ذلك ما يرويه لنا ابن الأبار فى التكلة من أن أبا عبد الله محمد بن يخلفتن الفازازى التلمسانى ، ولى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة (التكلة رقم ١٦١٦) ، وأن ابن جبل الهمدانى من أهل وهران ، ولى قضاء إشبيلية سنة ٥٩٢ هـ (التكلة رقم ١٧١٩) .

صاحبها بإبداء الرأى والفتوى فى مسائل الأحكام ، ويشغلها على الأغلب أحد الفقهاء . وفى مواضع كثيرة من « التكملة » وغيرها ، يوصف صاحب هذه الوظيفة بأنه كان « فقيهاً مشاوراً » ، أو أنه كان فقيهاً يشاور فى الأحكام ، أو أنه ولى « خطة الشورى »[1] . وقد أورد لنا ابن الأبار نص كتاب صادر عن أمير مرسية ، بتولية أبى بكر بن أبى جمرة خطة الشورى ، يبين لنا ماهية هذه الخطة واختصاصها[2] .

وكانت خطة الأحكام ، فيما يبدو أيضاً من شرح صاحب « التكملة » ، وظيفة تابعة للقضاء ، شبيهة بخطة الشورى ، وكان صاحبها يضطلع بالفتيا أو إبداء الرأى فى الأحكام الشرعية[3] .

وقد كانت للمواريث خطة خاصة بالرغم من كونها داخلة فى اختصاص القضاء العام . وهذا ما يشير إليه ابن الأبار فى غير موضع من « التكملة » ، وهذا ما يدل على أهمية المواريث ، والعناية بالدقة فى تطبيقها[4] .

ويلحق بهذه المناصب القضائية منصب « حسبة السوق » ، وقد أشار إليه ابن الأبار أيضاً ، وهو فى الحقيقة ، ناحية ، من نواحى الحسبة العامة ، يتعلق بالإشراف على ضبط التعامل ، وسلامة السلع المعروضة ، وصحة الموازين ، والمكاييل[5] .

ويلحق بالمناصب الدينية الهامة منصب الخطابة بجوامع المدن الكبرى ، وكان لايلى هذا المنصب إلا الفقهاء المبرزين فى فن الخطابة ، ولاسيما فى جوامع قواعد كإشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وأهمها فى الرتبة منصب الخطابة بجامع إشبيلية وجامع قرطبة[6] . وكذلك كان يؤم الصلوات بجوامع المدن الكبرى « صاحب الصلاة » وكان منصبه يعتبر أيضاً من المناصب الدينية الكبيرة ، ولاسيما إذا كان بجامع إشبيلية أوجامع قرطبة .

وكان منصب متولى شئون طلبة الحضر ، من المناصب العلمية والدينية الرفيعة ، وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة هذه الطبقة من الطلاب الموحدين «المصامدة»

---

(١) راجع التكملة لابن الأبار (القاهرة) ج ١ ص ٣٤ و ٤٤ و ٦٦ و ٧١ و ٨٦ و ٤٩ و ١٤٩ و ٢٠٩ و ٢٤٣ .
(٢) راجع التكملة ج ٢ ص ٥٦٢ . وقد نشرنا هذا الكتاب فى باب الوثائق .
(٣) راجع التكملة ج ١ ص ٧١ و ٢٢٨ .
(٤) راجع التكملة ج ١ ص ٦٧ .
(٥) التكملة ج ١ ص ٨٢ .
(٦) البيان المغرب ص ١٩٣ .

وطلاب الحضر ، منذ عصر الخليفة عبد المؤمن . وقد سما شأن هؤلاء الطلاب ، ولاسيا فى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، وكانت لهم لديه مكانة ملحوظة(١) وكان المقدم على طلبة الحضر بحضرة مراكش ، ينتخب من أكابر العلماء ، ويقوم الخليفة بتعيينه مباشرة ، وقد تولى هذا المنصب علماء أجلاء ، مثل أبى محمد المالقى ، وأبيه عبد الرحمن المالقى من قبل(٢) .

٢ — تطور الأساس الروحى
للخلافة الموحدية

قامت الدولة الموحدية فى بدايتها ، حسبما قدمنا ، على فكرة الإمامة والتوحيد ، فلما توفى المهدى ابن تومرت ، وقام فى رياسة الدولة زعيم لايتشح بثوب المهدية أو الإمامة الروحية ، واتسعت رقعة الدولة ، وعظمت صولتها العسكرية ، والسياسية ، تحولت الخلافة الموحدية على يد عبد المؤمن ، إلى ملك دنيوى باذخ ، وغاضت فكرة الإمامة المهدية شيئاً فشيئاً ، وإن كانت الدولة الموحدية ، قد لبثت حريصة على تقديس ذكرى المهدى ، ونعته دائماً فى الخطب والرسائل الرسمية « بالإمام المعصوم ، المهدى المعلوم » ، وذكر اسمه فى السكة ، والمناداة بشعائره البربرية القديمة فى أوقات الصلاة . واستمر الأمر على ذلك حتى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، وفيه بلغت الدولة الموحدية أوج عظمتها وروعتها . وكان المنصور عالما مستنيراً ، متمكناً من الشريعة وعلوم الدين ، ولم يكن حسبما تبين بعد من تصرفاته المذهبية ، من الغلاة فى تقدير العقيدة الموحدية ، أو المؤمنين بعصمة المهدى ابن تومرت ، بيد أنه بالرغم من عظيم هيبته وسلطانه ، وبالرغم مما قام به من تغييرات مذهبية بعيدة المدى ، مثل مطاردة كتب المذهب المالكى ، وإحياء المذهب الظاهرى ، فإن الخلافة الموحدية لبثت مع ذلك تنضوى من الناحية الدستورية تحت لواء « الدعوة المهدية » ، ولبثت رسائلها الرسمية تتوج « بالرضا عن الإمام المعصوم المهدى العلوم »(٣) .

على أنه لم يك ثمة شك ، فى أن العقيدة الموحدية لم تكن عندئذ ، سوى

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٥٨ ، وراجع ص ٢٤٤ من هذا الكتاب .

(٢) البيان المغرب ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٣) راجع الرسائل الثانية والثلاثون والرابعة والثلاثون والخامسة والثلاثون من مجموعة « الرسائل الموحدية » وهى صادرة عن الخليفة المنصور (ص ١٩٩ و ٢١٩ و ٢٢٩) .

شعار إسمى ، وأن بقاء الخليفة الموحدى ، على رسوم المهدى ابن تومرت ، لم يكن سوى إجراء شكلى ، يقصد به إلى جمع كلمة الموحدين ، تحت شعار موحد ، وكانت هذه سياسة حكيمة من جانب الخلافة الموحدية ، كان لها أثرها القوى فى تدعيم أركان الدولة ، وحمايتها من أخطار الفتنة والتفرق .

فلما كان عهد الخليفة أبى العُلى المأمون ولد الخليفة المنصور ، وقع الحدث الحسم ، فى دستور الخلافة الموحدية ، وشعارها الروحى ، وأصدر المأمون مرسومه الشهير (٦٢٧هـ) بإزالة اسم المهدى من الخطبة ، ومن السكة ، ومن المخاطبات الرسمية ، وقطع النداء عند الصلوات بشعائره البربرية ، التى كان العمل جاريا باتباعها منذ بداية الدولة الموحدية ، ولم يحجم المأمون عن أن يصرح فى كتابه الرسمى الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت « بالمهدى وبالإمام المعصوم » إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه[1]

وهكذا قضى بضربة جريئة على أسطورة المهدى ابن تومرت ، وأسطورة إمامته وعصمته ، وهى الأسطورة التى اتشح بها ابن تومرت ، وبويع فى ظلها بجبل إيجليز فى رمضان سنة ٥١٥هـ (ديسمبر سنة ١١٢١م) ، وكانت هى الأساس الروحى لقيام الدولة الموحدية .

وفضلا عن ذلك فقد قضى المأمون على عصبة الموحدين ، بقتله لزعمائهم الذين نكثوا بيعته ، حتى فنى معظمهم ، وفر الباقون ليعتصموا بجبالهم القديمة فى تينملل ، وبذلك ضربت الزعامة الموحدية فى الصميم ، وفقدت الخلافة الموحدية بذلك عضدا ، كان له فى عونها ومؤازرتها ، قيمته الأدبية والمادية .

ثم كانت خلافة الرشيد ، ولد المأمون ، فوقع تطور جديد فى رسوم الخلافة الموحدية وأسسها الروحية . وذلك أن الرشيد شعر بأهمية مؤازرة أشياخ الموحدين ، واتجه إلى استرضائهم ، واستعادتهم إلى جانب الخلافة الموحدية ، وقبل الزعماء الموحدون ، أن يعودوا إلى سابق ولائهم ، وتعاونهم مع الخلافة ، على أن تعود رسوم الدعوة المهدية كما كانت ، من ذكر المهدى فى الخطبة والسكة ، والنداءات الموحدية فى الصلوات ، وغير ذلك مما كان العمل جاريا عليه ، قبل أن يصدر المأمون مرسومه بإلغاء الدعوة المهدية . وقبل الرشيد ذلك ، وقام بتنفيذه ، وأعيدت رسوم الدعوة المهدية كما كانت . بيد أنها لم تكن يومئذ سوى

(١) راجع مرسوم المأمون فى البيان المغرب ص٢٦٧ و٢٦٨ ، وراجع ص٣٧١ من هذا الكتاب .

إجراء شكلى ، وشبح باهت ، ولم تلبث الخلافة الموحدية ، أن دخلت فى مرحلة انحلالها الأخير ، وأخذت تسير إلى قضائها المحتوم .

٣ — النظم العسكرية

ليس ثمة شك فى أن القوة العسكرية ، كانت منذ البداية ، عماد الدولة الموحدية الأول ، وقد بلغت التنظيمات العسكرية فى ظل الدولة الموحدية ، من حيث الضخامة مبلغاً لم تبلغه فى أية دولة أخرى ، فى الغرب الإسلامى .

وقد كانت الحشود القبلية ، هى المصدر الرئيسى للجيوش الموحدية . وقد بدأت هذه الحشود بصورة متواضعة ، حينما أعلن المهدى ابن تومرت إمامته ، وبايعته القبائل الموحدية ، وأخذ يتأهب لمحاربة المرابطين . وكان المهدى هو أول من وضع نظاما عسكريا لأنصاره الموحدين ، فرتبهم صفوفا ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . والتقت هذه الحشود القبلية لأول مرة بالمرابطين ، وهى قليلة الأهبة ، قليلة العدة ، ودون نظام عسكرى محكم ، فكانت الحماسة لديها تغنى عن السلاح والنظام ، وكانت انتصاراتها فى المعارك الصغيرة الأولى ، التى نشبت بينها وبين المرابطين ، تذكى من عزمها وإقدامها ، وتساعد فى تضخم جموعها . وهكذا بدأ الجيش الموحدى فى التجمع والانتظام ، وإذا استثنينا موقعة البحيرة ، التى فنى فيها معظم الجيش الموحدى الأول تحت أسوار مراكش ، فإن الجيوش الموحدية ، لم تلبث أن نهضت من هذه الضربة ، وعادت منذ خلافة عبد المؤمن إلى سابق منعتها وتضخمها .

واتخذ المهدى لجيشه منذ البداية علما أبيض ، كتب على أحد وجهيه « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدى خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثانى « وما من إله إلا الله . وما توفيقى إلا بالله . وأفوض أمرى إلى الله »(١). وقد لبث البياض شعار العلم الموحدى دهراً ، ولكن مع تغيير الأدعية والآيات التى تكتب عليه ، ثم غيرت ألوانه بعد ذلك فيما يبدو ، فى أواخر عهد الدولة الموحدية ، حسبما يبدو ذلك من ألوان العلم الموحدى الذى غنمه القشتاليون فى معركة العقاب ٦٠٩ هـ ، والذى يحفظ حتى اليوم فى دير برغش الملكى(٢) .

وفى عهد عبد المؤمن بن على ، أول الخلفاء الموحدين ، اتسع نطاق الجيوش الموحدية ، وزادت حشودها زيادة هائلة ، وذلك بعد أن دانت سائر

---

(١) راجع ص١٩٦ من القسم الأول من هذا الكتاب (٢) راجع ص٣١٧ من هذا الكتاب .

قبائل المغرب للطاعة ، وأخذت تساهم بحشودها فى الجيوش الموحدية ، وبالرغم من أن الحشود كان يجرى تنظيمها على أساس قبلى محض ، فقد استطاع عبد المؤمن بسياسته فى تأليف القبائل المختلفة ، أن يؤلف بين هذه الحشود القبلية ، وأن يجعل منها وحدة عظيمة متناسقة كانت هى عماد الجيش الموحدى ، وقد استطاع عبد المؤمن من أن يحشد لغزو إفريقية جيشاً جراراً تقدره الرواية بخمسة وسبعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل ، وهو رقم هائل فى ذلك العصر[1]. وقد وصف لنا صاحب الحلل الموشية بهذه المناسبة ، طريقة مسير الجيش الموحدى ، وخلا صتها أن يبدأ السير عقب صلاة الصبح ، على صوت طبل الرحيل ، فإذا ركب الخليفة ، اجتمع حوله الأشياخ والأعيان ، ويسير على بعد منه نحو مائة فارس ، ويتقدم الموكب الخليفى مصحف عثمان ، وهو فى تابوته المغلف بصفائح الذهب ، والمرصع بالياقوت الأحمر ، موضوع فى هودج يحمله نجيب ، ويتبعه الخليفة ومن ورائه أولاده ، ثم البنود والطبول ، فالوزراء وأكابر الدولة. وتسير الجيوش على ترتيبها ، دون تزاحم ، فلا يتعدى أحد طوره ، فإذا كان وقت النزول ، نزلت كل قبيلة فى منزلها ، وكانت محلة الجيش تضم إلى جانب موارد المؤن ، جميع الصناع وسائر أرباب الحرف ، وكل ما يحتاج إليه « كأن المسافر معهم مقيم »[2] .

وكانت سلا ورباط الفتح ، مركزاً لتجميع الجيوش الموحدية ، سواء الذاهبة منها إلى إفريقية ، أو تلك التى تقصد العبور إلى الأندلس ، وكانت المنطقة الواقعة شمالا ، ، فيما بين سلا وسبتة ، تحتوى عدة مراكز كبيرة متتالية لتخزين المؤن اللازمة لإمداد الجيوش الذاهبة والعائدة . وكان طريق العبور المفضل للجيوش الموحدية ، إلى شبه الجزيرة ، قصر مصمودة أو القصر الصغير ، الواقع على مسافة قريبة غربى سبتة . وموضع نزولها المفضل فى شبه الجزيرة ، هو ثغر طريف أوالجزيرة الخضراء ، وذلك بالرغم مما قام به الخليفة عبد المؤمن من إعداد جبل طارق لنزول الجيوش الموحدية ، وتزويدها بالحصون والمرافق اللازمة .

وقد سبق أن أشرنا إلى رواية ابن اليسع عن ابتكار الموحدين ، منذ عصر عبد المؤمن ، لخطة المربع الموحدى ، التى اتخذت من ذلك الوقت ، أساسا لخطط

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٥ . (٢) الحلل الموشية ص ١١٦ .

الدفاع الموحدية ، وخلاصتها أن « تصنع دارة مربعة فى بسيط المعركة ، يجعل فيها من جهاتها الأربع ، صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفاً ثانيا ، ومن ورائهم أصحاب المخالى فيها الحجارة صفاً ثالثا ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعا . وفى وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . وكانت صفوف الفرسان تخصص لها أمكنة معينة ، فى جميع جوانب المربع ، وتفتح لها مخارج سريعة تستطيع أن تنطلق منها ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام الرجّالة (المشاه) . ويقوم بالهجوم الأول قوات المتطوعة المجاهدة ، تؤيدها القوات الخفيفة ، فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء ، وأن يتقدم حتى مواقف الجنود الموحدية النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدى الذى لايخترق ، واستقبله الرماة من حملة القسى والنبال بسيل من السهام والحجارة ، فإذا استطاع العدو أن يخترق الصف الأول وهم حملة الحراب ، استقبله حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وبادر الفرسان إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ، فإذا استطاع العدو بعد كل ما تقدم ، أن يتغلب على القلب والجناحين ، فعندئذ يقوم الجيش الموحدى بالضربة الأخيرة ، وتتقدم قوات الضلع الرابع من المربع ، وهى الساقة أو الاحتياطى ، المكون من صفوة الجند ، ولاسيما الحرس الخاص ، ويقودها الخليفة بنفسه ، وكثيراً ما كانت هذه الصفوف الاحتياطية ، تساعد على إحراز النصر بشجاعتها وخبرتها . وكانت هذه القوات تمتنع أحيانا داخل نطاق من السلاسل الحديدية ، تبرز من خلالها الحراب الطويلة ، فتثخن بذلك فى العدو متى اجترأ على الدنو منها[1] .

وكان التجمع القبلى حسبما أشرنا من قبل ، هو الدعامة الأولى لحشد الجيوش الموحدية ، وكانت معظم الحشود تجمع من القبائل الموحدية الرئيسية ، التى يرتكز إليها هيكل الدولة الموحدية ، والتى ذكرناها فيما تقدم ، ومعظمها ينتمى إلى مصمودة . ولما اتسع نطاق الغزوات الموحدية فى المغرب والأندلس ، ولم تعد القبائل البربرية تكفى وحدها ، لإمداد الجيوس الموحدية ، بما تحتاج إليه من الحشود الضخمة ، عمدت الخلافة الموحدية إلى التفكير فى استمالة طوائف

(١) الحلل الموشية ص ٩٨ ، وتاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ ص ٤٤٨ و٤٨٩ . وراجع ص ٢٤٦ من القسم الأول من هذا الكتاب .

العرب النازحين لإفريقية ، والاستعانة بهم فى مختلف حروبها وغزواتها ، وكان أول من فكر فى ذلك الخليفة عبد المؤمن ، وذلك حينما اصطدم بأولئك العرب لأول مرة عند افتتاحه لبجاية ، ثم افتتاحه للمهدية ، بيد أنه لم ينجح فى ذلك نجاحا يذكر . فلما تولى الخلافة ولده أبو يعقوب يوسف ، بذل فى سبيل استنفار طوائف العرب ، واستمالتها إلى المشاركة فى الجهاد بالأندلس جهوداً مضاعفة ، واستعان فى ذلك بتوجيه القصائد الرنانة لهم ، وكان ممن اشترك فى توجيه الشعر إليهم طبيبه الفيلسوف ابن طفيل ، فوجه إليهم قصيدته الرائعة التى مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب   لغزو الأعادى واقتناء الرغائب

ونجحت هذه المحاولة ، فى استمالة طوائف كبيرة ، من عرب هلال وسُليم وزغبة ورياح وغيرهم ، إلى الانضمام إلى الجيوش الموحدية المجاهدة ، وغمرهم الخليفة بإنعاماته وصلاته ، من المال والكساء والسلاح ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه فى موضعه(١) .

ومن ذلك الحين تؤلف طوائف العرب ، جناحا هاما فى الجيوش الموحدية ، وتشترك فى سائر الحروب والغزوات الموحدية بالمغرب والأندلس . بيد أنه تبين فيما بعد ، فى كثير من الوقائع ، أن انضمام أولئك العرب إلى الجيش الموحدى ، كان خطأً عسكرياً فادحاً ، وأن ضررهم كان أكثر من نفعهم فى مشاركته ، وذلك لما كانوا يتسمون به من التقلب وعدم الولاء ، وشغف انتهاز الفرص السانحة . وقد خذلوا الجيش الموحدى فى كثير من الوقائع فى إفريقية والأندلس. وقد كان اجتذاب الخلافة الموحدية ، لهذه الطوائف العربية ، يرمى إلى تحقيق غايتين : الأولى إنقاذ إفريقية من عيثهم وتخريبهم المستمر ، والثانى الاستعانة بهم فى أعمال الجهاد بالأندلس . ولكن تبين على ضوء الحوادث ، أنهم لبثوا فى إفريقية عامل تخريب ودمار ، طوال أيام ثورة بنى غانية ، يتقلبون طول الوقت بين الفريقين المتحاربين ، وأنهم كانوا فى الحملات الموحدية بالأندلس عامل تثبيط وخذلان . على أن السياسة الموحدية لم تعدل عن المضى فى سياستها ، فى استمالة العرب ومصانعتهم حتى النهاية . فنراهم فى أواخر عهد الخلافة الموحدية يشغلون فى شئونها ، وفى تكييف مصيرها ، مكانة ملحوظة . ونرى الخليفة الموحدى ، عند اضطرام الحرب الأهلية بينه وبين منافسيه ، يستعين بعرب الخُلط ، وأحيانا

(٢) راجع ص ٥٩ — ٦١ من هذا الكتاب .

بعرب سفيان وبنى جابر ، ونراه يقوم بتعيين مشايخ هذه الطوائف ، ونرى هذه الطوائف ، تلعب فى الأعوام الأخيرة الحاسمة ، من حياة الدولة الموحدية ، فى مصايرها دوراً له خطره .

وكذا كانت القوات الأندلسية ، تؤلف بالجيش الموحدى بالأندلس جناحا هاما ، وتشترك فى سائر الغزوات والحروب التى تشهرها الجيوش الموحدية ضد النصارى ، سواء فى البرتغال أو فى الممالك الإسبانية . وكانت القوات الأندلسية ، تمتاز بشجاعتها ودربتها ، وولائها لقضية الإسلام بالأندلس ، وكانت تقاتل فى طليعة الجيوش الموحدية ، لخبرتها بقتال النصارى ، وتغدو فى معظم الأحيان عاملا من عوامل النصر .

وكان الخليفة الموحدى ، يقود جيوشه فى الحملات والغزوات الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، وكان قبيل نشوب المعركة ، أوبداية الغزو ، يعقد مؤتمراً حربياً لوضع خطة الغزو ، ويستمع فيه إلى آراء قادته[١] . وكان لآراء القادة الأندلسيين ، فى غزوات شبه الجزيرة رأى مسموع ، وقد دلت الحوادث غير مرة ، على سلامة آرائهم ونصحهم . ومتى عبىء الجيش تعبئة قتال ، ضربت قبة الخليفة الحمراء ، ورفع فوقها العلم الموحدى الأبيض ، وأحيطت بالسلاسل الحديدية الضخمة ، وكانت تضرب عادة فى ساقة الجيش ، ويحف بها الحرس الخليفى ، وهو يتألف عادة من الجند العبيد ، ونخبة من الجند البربر ، يحملون الرماح الطويلة ، وكان الخليفة ، متى رأى قواته خلال المعركة فى حاجة إلى العون ، يقود الساقة بنفسه ، ويشد أزر قواته ، ويعاونها بذلك على إحراز النصر ، وقد تقع الكارثة فيهلك الخليفة ، كما حدث لأبى يعقوب يوسف فى نكبة شنترين ، أو يلجأ إلى الفرار ، كما حدث للناصر فى موقعة العقاب .

وعلى غرار ما حدث للجيوش المرابطية ، فى أواخر عهدها ، من الاستعانة بالمرتزقة النصارى ، لجأ الخليفة الموحدى ، إلى حشد المرتزقة النصارى فى جيشه وذلك منذ أيام الخليفة المأمون . ونحن نعرف قصة التجاء المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ، والثمن الفادح الذى دفعه إليه ، لقاء عونه إياه بفرقة من الفرسان النصارى ، لكى يعبر بها إلى المغرب ، ويستعين بها على مقاتلة خصمه يحيى المنتصر ، وانتزاع الخلافة منه ، ومنها أن تقام كنيسة كبيرة للنصارى فى مراكش ،

---

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ٤١ ا .

وكانت هذه الفرقة ، وعددها نحو خمسمائة فارس ، هى أساس القوة النصرانية أو جيش الروم بالجيش الموحدى . وقد لعب الجند النصارى فى عهد المأمون ، وولده الرشيد أدوارا حاسمة ، فى المعارك التى خاضتها الخلافة الموحدية يومئذ ضد خصومها ، وقامت بمراكش تحت رعاية الفرقة النصرانية ، جالية نصرانية كبيرة .

وقد استعملت البنود والطبول بالجيش الموحدى منذ البداية ، وكذلك بالأساطيل الموحدية ، وكان لها فرق خاصة ، ونظم معينة تجرى عليها ، وكانت تستعمل عند الرحيل ، وعند بدء المعركة ، وعند كل إجراء عام يجب أن يقوم به الجند ، وكان منها الطبل الكبير الذى يضرب للرحيل ، وهو مستدير الشكل يبلغ دوره خمسة عشر ذراعا من خشب أخضر اللون ، مذهب الحافة ، وكان يضرب للرحيل ثلاث مرات ، ويسمع على مسيرة نصف يوم ، من مكان مرتفع فى يوم لاريح فيه[1] . وكانت الرسائل تستعمل لإذاعة الأوامر والنواهى ، والانتصارات . وعند النصر يقترن ذلك بالاحتفال والإطعام .

وكانت الإنعامات والبركات من أخص امتيازات الجيش الموحدى ، ولاسيما فى إبان ازدهار الدولة وقوتها ، وكان ذلك يشتمل فضلا عن منح الأجور والأعطية للجند ، على إقامة المآدب للطعام ، وتوزيع الأسلحة والكسى ، وكان كساء الفارس عبارة عن طقم كامل من عفارة وعمامة وكساء وقسطة وشقة . وهذا عدا مبالغ من النقود الذهبية تصل للقادة والأعيان أحيانا إلى مائة دينار لكل منهم[2] ، وكذلك لأشياخ العرب مائة دينار لكل منهم ، وللفارس عشرون دينارا .

وكان النظام القبلى ، هو حسبما قدمنا ، أساس حشد الجيوش الموحدية ، فتقدم كل قبيلة ما يتعين عليها من الفرسان والرجالة ، عند الاستنفار العام . وكان نظام التطوع يقوم كذلك إلى جانب نظام الحشد الجبرى ، فتحشد أعداد كبيرة من الجند على سبيل التطوع دون تكليف ، ويسمى هؤلاء بالمطوعة[3] وتعنى الخلافة الموحدية فى نفس الوقت ، وعند الاستعداد للجهاد ، باستجلاب الخيل والعدد والأسلحة والرماح والبيضات والدروع والتروس وكذلك الكسى ، وتوزيعها على الفرسان والجند وفق نظام معين .

ولم تغفل الخلافة الموحدية عن أهمية القوى البحرية ، وخصوصاً منذ

---

(١) الحلل الموشية ص ١١٥ . (٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة ص ١٧٤ .

(٣) البيان المغرب ص ١٧٤ .

استولت على إفريقية والأندلس . ومنذ عصر عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين، نرى الخلافة الموحدية ، فضلا عما آل إليها من بقايا الأسطول الموحدى ، تعنى بإنشاء القطائع البحرية سواء فى مياه المغرب ، أو إفريقية أوالأندلس . وقد أنشأ عبد المؤمن فى أواخر عهده عدداً ضخماً من هذه القطائع بلغ نحو ثلاثمائة أو أربعمائة ، كانت عماد الأسطول الموحدى الكبير ، وكان الأسطول ، فضلا عن قيامه بنقل الجيوش الموحدية الزاخرة ، وعتادها الهائل، عبر المضيق إلى الأندلس فى الذهاب والأوبة ، يقوم بحراسة الشواطىء الأندلسية ، من مياه البرتغال جنوبا ، حتى مياه بلنسية والجزائر الشرقية ، وشواطىء المغرب الشمالية حتى مياه تونس والمهدية . وكانت للأسطول الموحدى وحدات كبيرة ، ترابط فى المعمورة وسبتة، وتونس، ومالقة وقادس، وأحيانا فى مياه البرتغال الجنوبية . وقد لعب الأسطول الموحدى أدواراً هامة فى معارك الخلافة الموحدية مع البرتغال، وكذلك فى افتتاح المهدية، وحوادث الصراع مع بنى غانية، وفى افتتاح الجزائر الشرقية، وغيرها من مواطن الصراع بينها وبين خصومها .

وكانت شئون الجيش ، توكل إلى ديوانين أو وزارتين هامتين : الأول هو ديوان العسكر ، وعلى رأسه وزير ، يكون فى الغالب من الجند ، يشرف على كل ما يتعلق بشئون الجيش[١]. والثانى هو ديوان التميز . وقد رأينا كيف بدأ التميز فى بداية الدولة الموحدية ، إجراء تعسفياً لاستبعاد الخصوم أوالمارقين أو إعدامهم ، وتطهير صفوف الجيش منهم ، ثم تطور هذا الإجراء بمضى الزمن ، وأصبح ينصرف إلى اختيار الصفوة من الجند، وكان يجرى التميز قبيل كل غزوة أوحرب هامة ، يضطلع بها الخليفة الموحدى ، ويعمل بالتميز زمام ، ويقرن بالإنعام والبركات على الجند الذين فازوا بالتميز . وكان يتولى ديوان التميز ، وزير يسمى كاتب ديوان التميز[٢] ، وكان للجيش فى نفس الوقت، فى ديوان الكتابة ، كاتب أو أكثر يختصون بالكتابة فى شئونه .

وكان حج الخليفة الموحدى إلى قبر المهدى وقبور آبائه بتينملل ، من الرسوم المأثورة، وكان الخليفة يقوم بهذه الزيارة حينما يعتزم الغزو ، أوالاضطلاع بعظائم الأمور، وكانت تعتبر دائماً حركة مباركة ، وعنوان التشجيع والتيمن .

بيد أنه بالرغم مما بلغه الجيش الموحدى ، فى ظل الخلفاء الأقوياء منذ عبدالمؤمن

---

(١) البيان المغرب ص ١٤١ . (٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٥٠ ب.

حتى نهاية عهد المنصور ، من الضخامة والقوة ، فإنه كانت توجد به ثمة ثغرات ، تعرضه من آن لآخر إلى وقوع الكوارث المؤلمة . ومن ذلك فوضى القيادة ، فإنه لم تكن للجيش من بعد عبد المؤمن قيادة قوية حارمة ، وكان اختيار القادة يتوقف على الظروف ، ويتم غالبا قبيل وقوع الغزو أو المعركة المرتقبة ، هذا مع اعتبار الخليفة دائماً هو القائد الأول لجيشه ، وكان استئثار الخليفة بالقيادة ، وعدم استماعه للخبراء من قادته ، ينتهى بالفشل كما حدث فى غزوة وبذه ، أو بالكارثة كما حدث فى موقعة شنترين . ولم يوفق المنصور إلى نصره الباهر فى معركة الأرك ، إلا بفضل حزمه ونصح قادته ، ولاسيما القادة الأندلسيين ، وكان اختيار القادة يتأثر غالبا بصلات القربى والمصاهرة ، مما يترتب عليه استبعاد القادة الأكفاء . وكان حظ القيادة الأندلسية ، على كفايتها وخبرتها بحروب شبه الجزيرة ضئيلا ، وقد أدت هذه الفوضى فى تنظيم القيادة الموحدية واختيارها : إلى هزيمة الجيش الموحدى غير مرة ، فى ظروف كان يلوح فيها أن النصر قريب منه .

وكان اختلال التموين فى الجيوش الموحدية ، يحدث كذلك أثره السيئ فى كفاية هذه الجيوش ومقدرتها . وقد كان امتداد خطوط التموين من أعماق المغرب عبر البحر إلى الأندلس ، مسافات طويلة ، أهم سبب فى هذا الاختلال . وبالرغم من إقامة قواعد التموين الهائلة فيما بين سلا وسبتة ، ولاسيما فى وادى سبو ، فإن الجيوش الموحدية ، كانت حينما تعبر إلى شبه الجزيرة ، وتتوغل فى أراضى العدو ، تشعر بنقص فى تموينها ، وكان هذا النقص ، يؤدى فى بعض الأحيان إلى اختلال نظام الجيش كله ، وإلى انشغال معظم الجند بالبحث عن القوت . وقد تحدثنا فيما تقدم ، غير مرة ، عن هذه الظاهرة المؤسفة فى نظام الجيش الموحدى .

وكان من أهم ما تمتاز به الجيوش الموحدية ، تفوقها فى فن الحصار ، ومقدرتها على اقتحام المدن المنيعة ، بالآلات الفتاكة . وقد كانت تتفوق فى ذلك تفوقاً واضحاً ، على الجيوش المرابطية ، وكانت أمنع الأسوار والتحصينات تتحطم تحت ضربات هذه الآلات المدمرة . وقد دلل الموحدون على هذا التفوق فى حوادث كثيرة ، سواء فى إفريقية أو فى اسبانيا أو البرتغال ، حينما كانت تنهار تحصينات المدن والقلاع المنيعة ، أمام قصف مجانقهم وآلاتهم المدمرة ، ولنا من ذلك أمثلة بارزة فى حوادث حصار وهران والمهدية بإفريقية . وطرُّش وحصن

القصر أو قصر أبي دانس وشلب بالبرتغال . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يلفت النظر ، أن الموحدين لم يقتصروا على استعمال الآلات القديمة وتحسينها ، بل كانوا يستعملون آلات جديدة قاذفة ، تقذف الحجارة والكرات الحديدة الملتهبة . وفى أواخر العهد الموحدى بالأندلس نرى الموحدين فى لبلة حين حصارها ، يطلقون على القوات النصرانية المحاصرة ، آلات تقذف الحجارة والحديد ، ويصحبها دوى كالرعد ، تشبه المدافع البدائية[1]. وكان الموحدون فى نفس الوقت يتفوقون فى تشييد الحصون والمنشآت الدفاعية ، ومازالت أطلال قصبة بطليوس العظيمة ، وقلعة جابر ، والأسوار الموحدية فى إشبيلية ولبلة ، تقوم شاهداً على هذا التفوق فى فنون التحصينات .

ولما وقعت نكبة العقاب المشئومة ، وسحقت الجيوش الموحدية ، وتعذر على الخلافة الموحدية أن تبعث حشودها إلى الأندلس ، انهارت الجبهة الدفاعية الأندلسية ، ونهضت الممالك الإسبانية النصرانية لتجنى ثمار نصرها ، وتلتهم من أشلاء الأندلس المهيضة مااستطاعت ، وشغل الولاة الموحدون ، وشغلت القوات الموحدية القليلة الباقية ، بما نشب حول كرسى الخلافة الموحدية من خلاف ، بدأ بالمغرب ، وتردد صداه بالأندلس ، فنهض أبومحمد عبد الله بن يعقوب المنصور ، المتلقب بالعادل ، أولا بإشبيلية ، ونادى لنفسه بالخلافة ضد عمه أبى محمد عبد الواحد ، وقام من بعده أيضاً بإشبيلية أخوه أبو العلى إدريس المتلقب بالمأمون ، مدعيا الخلافة لنفسه ، وتركت الأندلس لمصيرها ، بعد أن تخلت عنها الخلافة الموحدية ، تحاول بمواردها وقواها المضعضعة ، أن تقف فى وجه السيل المتدفق عليها ، من جيوش الفتح الإسبانية ، ولكن هيهات ، فقد كانت مصاير الأندلس كلها ، ترتجف فى كفة القدر ، وكان أن فقدت الأندلس ، سائر قواعدها الكبرى ، فى أقل من ربع قرن .

٤ — الحكومة الموحدية بالأندلس

كانت نظم الحكم المرابطية للأندلس ، يغلب عليها الطابع العسكرى ، وكان معظم حكام الولايات الأندلسية ، من قادة الجيش البارزين ، مثل سير بن أبى بكر اللمتونى ، ومحمد بن الحاج ، ومزدلى بن تيولتكان ، ويحيى بن غانية ، وغيرهم من أكابر القادة . ولكن النظم الموحدية ، كانت أميل إلى الطابع المدنى ، وكانت

(١) راجع ص ٤٩٣ من هذا الكتاب .

الأندلس ، أوشبه جزيرة الأندلس كما كانت تنعت فى الرسائل الموحدية الرسمية ، تعتبر خلال العصر الموحدى ، مثلما كانت عليه فى العهد المرابطى ، قطراً من أقطار الدولة الموحدية الكبرى . وكانت تنقسم إلى عدة ولايات أوعمالات ، هى ولاية الغرب (شلب وأحوازها) ، وباجة ويابره ، وبطليوس وماردة وأحوازهما ، وإشبيلية وكانت أعظمها رقعة ، وتشتمل على قواعد شريش وشذونة وأركش وقرمونة وإستجه ؛ وقرطبة وأحوازها ؛ وجيان وأحوازها ، وتشتمل على بياسة وأبدة ؛ وغرناطة وتشتمل على وادى آش وبسطة والمنكب والمرية وأحوازها ، ومالقة وأحوازها ، وكانت عمالاتها تضم أحيانا إلى سبتة والجزيرة الخضراء[1] ؛ وبلنسية وتشتمل على قواعد قسطلونة ، والجزيرة وشاطبة ودانية والجزائر الشرقية (وذلك قبل أن يستقل بها بنوغانية) ، ومرسية وتشتمل على لقنت ، وأوريولة ولورقة . وكان يتولى حكم هذه الولايات عادة أبناء الخليفة وإخوته أو قرابتهوأصهاره . وكانت مدينة إشبيلية هى مركز الحكومة الموحدية العامةبالأندلس لما تقدم شرحه من الأسباب والبواعث ، العمرانية والجغرافية والعسكرية ، وقد نقلت منها الحكومة إلى قرطبة فى أواخر عهد عبد المؤمن ، ولكن لفترة قصيرة فقط ، ثم أعيدت إلى إشبيلية ، وبقيت بها حتى نهاية العهد الموحدى . وكان يتولى منصب الحاكم العام للأندلس ، على الأغلب واحد من أبناء الخليفة أو إخوته ، وكان أول من تولاه من أبناء الخليفة السيد أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، وذلك فى سنة ٥٥١ هـ ، وذلك تحقيقاً لرغبة أشياخ إشبيلية[2] . وفى إشبيلية ، كان ينتظم حول ولد الخليفة ، أو أخيه ، بلاط موحدى صغير ، كان يسطع أحيانا بمن يلتف حول السيد الحاكم ، من أكابر الشخصيات الأندلسية المعاصرة ، وقد كان هذا شأن بلاط السيد أبى يعقوب يوسف حينما كان يتولى حكم إشبيلية ، ثم بعد ذلك لما عاد إليها بعد وفاة أبيه ، متشحا بثوب الخلافة ، وأقام بها بضعة أعوام . وكذلك سطع البلاط الموحدى بإشبيلية ، أيام أن أقام بها ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، وحظيت إشبيلية فى عهد أبى يعقوب وولده المنصور بطائفة من الصروح والمنشئات العمرانية العظيمة مثل جامع إشبيلية الأعظم ، وصومعته الرائعة (لاخيرالدا) ، والقصور والبساتين الموحدية خارج باب جهور ، وحصن الفرج ، وقنطرة طريانة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه فى موضعه .

---

(١) راجع ص ٣٣٩ ق ١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٣٤٨ ق ١ من هذا الكتاب .

وكان لكل ولاية أندلسية حكومتها المحلية ، تضم إلى جانب الوالى الموحدى ، الوزير والكاتب وصاحب العمل ، والمشرف على الجباية ، هذا عدا المناصب الدينية من القضاء والخطبة والشورى وغيرها . وكانت تؤلف هذه الحكومات المحلية عادة من أهل الأندلس ، وهم يختصون عادة بمناصب الكتابة والقضاء . وكان بعض السادة من أبناء الخليفة أو إخوته ، يستخدمون فى حكوماتهم المحلية أكابر كتاب الأندلس ، جريا على سنة بلاط مراكش ، فنرى مثلا السيد أبا سعيد ابن الخليفة عبد المؤمن ، حين ولايته لغرناطة ، يستخدم لكتابته ، الكاتب والشاعر الكبير أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى[1] . ونرى فى أواخر العهد الموحدى ، السيد أبا زيد بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والى بلنسية ، يستخدم لوزارته وكتابته ، كاتبا من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها هو ابن الأبار القضاعى[2]. بيد أنه كانت تسند بعض المناصب الحساسة ، إلى الموحدين ، مثل الإشراف على الجباية والأعمال . أما حكم القواعد فكان يسند على الأغلب إلى حكام من الأندلسيين ، الموثوق بولائهم وإخلاصهم للحكم الموحدى .

وكانت إشبيلية فضلا عن كونها مركز الحكومة الموحدية العامة ، تتخذ فى نفس الوقت ، مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، أو العائدة من الغزو ، لتعبر البحر مرة أخرى إلى أوطانها بالمغرب .

وكانت القوات الأندلسية ، حسبما ذكرنا فى موضعه ، تؤلف جناحا خاصاً فى الجيوش الموحدية الوافدة إلى شبه الجزيرة ، وكانت تقوم بحراسة كثير من الحصون فى مناطق الحدود ، أما مستقلة ، وإما بالاشتراك مع بعض الحاميات الموحدية . وكان لجند الأندلس قيادتها الاندلسية الخاصة ، إلى جانب القيادة الموحدية ، وكانت هذه القيادة الأندلسية تلعب أدواراً هامة فى التوجيه والإرشاد فى بعض المعارك الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة الشرق ، أعنى منطقة بلنسية ومرسية ،كانت خاضعة قبل سقوطها فى أيدى الموحدين فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١ م) لحكومة أندلسية محضة ، كانت تقوم بحكمها وفقاً للتقاليد الأندلسية الخالصة، وقد لبثت هذه المنطقة دائماً، حتى بعد استيلاء الموحدين عليها ، تحتفظ بطابع أندلسى قوى، يميزها عن بقية المناطق الأندلسية فى الوسط وفى الغرب . ويرجع ذلك من بعض

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٤ (٢) راجع ص ٣٩٦ من هذا الكتاب .

الوجوه إلى حظوة آل مردنيش بعد وفاة عميدهم محمد بن سعد ، لدى الخليفة الموحدى ، والى موافقة الخليفة على استبقاء آل مردنيش لسلطانهم ونفوذهم فى تلك المنطقة مدى حين . ولما تضعضع سلطان الحكومة الموحدية ، بعد ذلك بنحو ثلث قرن ، على أثر نكبة الجيوش الموحدية فى موقعة العقاب (٦٠٩هـ) وضعفت الحاميات الموحدية المحلية ، كان شرقى الأندلس كذلك ، أول المناطق التى قامت بها الحركة التحريرية الأندلسية ، على يد المتوكل بن هود ، فى مرسية وأحوازها ، والرئيس أبى جميل زيان بن مردنيش فى بلنسية . ولم يكن ذلك سوى تجديد للحركة القومية الأندلسية ، التى اضطرمت ضد الحكم الموحدى فى شرقى الأندلس ، على يد محمد بن سعد بن مردنيش ، ولبثت صامدة زهاء ربع قرن . بيد أن هذه المرحلة الأخيرة من الحركة القومية الأندلسية ، كانت ضعيفة ، ولم يكتب لها الصمود ، إزاء توثب الممالك النصرانية وهجماتها المتوالية ، فكانت بداية المحنة ونذير الانهيار .

ونهض محمد بن الأحمر فى أواسط الأندلس ، فكانت ثمة حركة قومية أندلسية أخرى . وكانت هذه الحركات القومية الأندلسية المحلية ، فى الظروف الدقيقة التى كانت تعمل فيها ، وبالرغم من صفتها القومية والتحريرية ، تصطبغ بلون انتحارى مؤلم ، وكانت الزعامات والقوى الموحدية ، التى بقيت فى شبه الجزيرة تشغل بمشاريعها الخاصة ، وأطماعها فى عرش مراكش ، الذى أحاقت به الخلافات والفتن ، عن الاهتمام بقضية الأندلس ، أو التفكير فى مدافعة أعدائها المتربصين بها ، أعنى النصارى الإسبان ، بل كانت بالعكس تصانع أولئك الأعداء ، وتستمد عونهم ، وتقطعهم ما بيدها من حصون الأندلس وأراضيها . وقد لبثت إشبيلية حتى بيعة المأمون بالخلافة ، مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، ولكنها منذ غادر المأمون شبه الجزيرة إلى المغرب (٦٢٦ هـ) ، قامت بها حكومة محلية فى ظل الخلافة الموحدية ، ثم أخذت تتردد بين الاستقلال ، وبين الانضواء تحت حكم ابن هود تارة ، وتارة تحت ظل الخلافة الموحدية ، وأخيراً تحت ظل الدولة الحفصية بإفريقية . وكان حكم الأندلس فى تلك الفترة العصيبة ، كله اضطراب وفوضى ، ولم تكن ثمة حكومة موحدة ، فى أية منطقة من المناطق ، بل كانت ثمة حكومات محلية عديدة فى منطقة الشرق ، وفى أواسط الأندلس ، وفى إشبيلية وقواعد الغرب ، حسبما فصلناه كله فى مواطنه .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العصر الموحدي

القسم الأول

الدولة المرابطية دولة دينية عسكرية . الحركة الفكرية فى ظلها امتداد لها فى عصر الطوائف . إزدهار الحركة الفكرية خلال العصر الموحدى . المهدى ابن تومرت وسمته العلمية . الخلفاء الموحدون العلماء . رعايتهم للعلماء والحركة العلمية . الخلافة الموحدية وإطلاقها لحرية البحث . دور الأندلس فى إذكاء الحركة الفكرية فى الغرب الإسلامى . تقاطر علماء الأندلس على العدوة . أثر ذلك فى تقدم الحركة الفكرية بالمغرب . إزدهار الحركة الفكرية خلال العصر الموحدى . تماوج الحركة الفكرية الأندلسية من جراء سقوط القواعد الاندلسية . نزوح علماء الشرق إلى إفريقية . إتجاه الحركة الفكرية خلال عصر الانهيار إلى العلوم الدينية . إزدهار العلوم الدينية والآداب حتى خلال عصر الانهيار . ضعف الحركة العلمية . كثرة علماء الدين والفقه والأدب بالأندلس خلال العصر الموحدى . الفقهاء والمحدثون وعلماء الدين الذين ظهروا فى أوائل هذا العصر . نماذج من أعلامهم . أبوعبد الله بن الفرس . ابن الجد الفهرى . أبوعبد الله بن الفجار . ابن ذى النون الحجرى . ابن أبى جمرة . ابن أبى زمنين . ابن عون الله المعروف بالحصار . عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصارى . أخوه داود بن سليمان بن حوط الله . الحافظ أبوالربيع بن سالم الكلاعى . محمد بن إبراهيم المهرى . ابن زرقون الابن . علماء الدين الذين جمعوا بين الحديث والفقه والأدب والشعر واللغة . نماذج من هؤلاء . عبد الله بن عمر الحضرمى . ابن الأشيرى . محمد بن إدريس العبدرى . محمد بن أحمد المتانجشى . محمد بن خير الإشبيلى . عبد الله بن يحيى بن صاحب الصلاة . ابن صاف اللخمى . محمد بن جعفر بن خدين الأموى . ابن زرقون الأب . ابن نجبة الرعينى . أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء . ابن عيسى التادلى . أحمد بن عتيق الذهبى . ابن خلف الأموى الخطيب . ابن عمران القيسى الميرتلى . ابن نوح الغافقى . أبو عمر أحمد بن عات النفرى . أحمد بن خلف الشنتيالى . ابن خلصة الحميرى . ابن عبد العزيز الأنصارى النحوى . ابن حزم الأموى النحوى . . ابن عبد المؤمن القيسى الشريشى . من نبغ فى أواخر العصر الموحدى من العلماء الذين جمعوا بين علوم الدين واللغة والأدب والشعر . محمد بن يخلفتن الفازازى التلمسانى . أحمد بن يزيد بن بقى بن مخلد الأموى . ابن أصبغ الأزدى . ثابت بن خيار الكلاعى . محمد بن جابر الـثقفى . ابن السقاء . من ظهر من هؤلاء وقت الانهيار . ابن مطروح التجيبى . ابن عسكر المالقى . ابن الصفار الضرير . ابن أبى حجة . أحمد بن على بن أحمد الأنصارى . عبد الله بن خلف اللخمى الحرار . ابن محرز . أكابر المتصوفة . أحمد بن عمر المعافرى المعروف بابن إفرندو . ابن مراد السلمى . محمد بن عبد الله بن العربى المعافرى . ابن سيدبونه الخزاعى . محمد بن عبد الله بن قاسم الأنصارى . ابن مهيب اللخمى . الشيخ محيى الدين الطائى ابن عربى .

لم تكن الدولة المرابطية ، حسبما وضح من تاريخها ، سوى دولة دينية عسكرية ، استمدت حياتها ومنعتها خلال عهدها القصير ، مما كانت تتسم من صفات البداوة والخشونة ، وكانت روح التزمت التى تغلب عليها ، وتدفعها إلى تجاهل القيم الفكرية والأدبية ، تحول دون تفتح الحركات العقلية وتقدمها ، ولم تكن تلك الحركة الفكرية التى ازدهرت فى ظلها ، والتى استعرضنا بعض ملامحها فيما تقدم ، سوى امتداد طبيعى ، واندفاع حتمى ، لتلك الحركة الفكرية العظيمة التى ازدهرت فى ظل دول الطوائف ، والتى أسبغ عليها ملوك الطوائف كل تشجيع ورعاية ، ثم جاءت الدولة المرابطية ، فاحتضنت بعض جوانبها الرسمية ، بمن كانت تحشدهم حولها من الوزراء العلماء ، والكتاب البلغاء ، ليكونوا لسانا لها ، لدى الشعوب المحكومة ، سواء بالمغرب ، أو الأندلس ، ولكى يستكمل البلاط المرابطى ، بعد أن ضخمت الدولة وتوطد سلطانها ، ما ينقصه من أسباب الهيبة والبهاء

أما الدولة الموحدية فكان لها شأن آخر . ذلك أن عصر الدولة الموحدية ، الذى استطال زهاء قرن ونصف قرن من الزمان ، كان من أحفل عصور التاريخ الأندلسى والمغربى بالحركات الفكرية . وإنه ليبدو من الغريب المدهش ، أن نجد الحركة الفكرية الأندلسية ، حتى فى مرحلة الانحلال والانهيار ، التى توالى فيها سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، مستمرة فى الاحتفاظ بنشاطها وعنفوانها ، ونراها تنحدر عبر البحر من القواعد الأندلسية الذاهبة ، إلى قواعد إفريقية والمغرب ، تحمل معها تراثها الزاخر ، وتزدهر هنالك حقبة أخرى .

ويجب قبل أن نتحدث عن هذه الحركة الفكرية الباذخة ، التى ازدهرت بالمغرب والأندلس ، خلال العصر الموحدى ، أن نحاول أن نستكشف فى ملامح الدولة الموحدية ، بعض العوامل المشجعة ، أو الدافعة لمثل هذه الحركة ، إذ أنه لاريب فى أن الدولة الموحدية ، بالرغم مما كان يقع فى ظلها بين آونة وأخرى ، من ضروب المطاردة الفكرية ، كانت دولة حامية للعلوم والآداب والفنون .

لقد كان مؤسس الدولة الموحدية الروحى ، المهدى محمد بن تومرت ، من أقطاب علماء عصره ، وقد أفسح فى دعوته للعلم أيما مكانة ، وحض على تحصيله بقوة وحماسة ، فى عبارته المشهورة ، التى يفتتح بها كتابه وهى :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل

المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .

وقد كان أول خلفاء المهدى ، وهو عبد المؤمن بن على ، مؤسس الدولة الموحدية الحقيقى ، وموطد دعائمها ، كذلك كان عالما من ألمع علماء عصره ، يلتف حوله العلماء والكتاب والشعراء من المغرب والأندلس ، يبسط عليهم رعايته ، ويغمرهم بصلاته ، وهو الذى نظم جماعة الحفاظ الموحدين ، وعنى بأمرها أشد عناية ، حتى بلغت فى أيامه نحو ثلاثة آلاف حافظ ، يدرسون كتب المهدى وتعاليمه ، وقد تولى الكثير منهم فيما بعد كثيراً من مناصب الثقة والمسئولية ، فى الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن ، كذلك من أكابر علماء عصره ، وكان أديبا متمكناً ، وفقيهاً ، ومحدثاً بارعا ، يشغف فى نفس الوقت بالدراسات الفلسفية ، ويجمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومفكريه ، وفى مقدمتهم أبو بكر ابن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد ، وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر ، وهم أساتذة الفلسفة والطب فى هذا العصر . وقد انتهى إلينا من آثاره كتابه فى « الجهاد » وهو الملحق بكتاب المهدى ابن تومرت . وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك فى موضعه .

وكان ولده الخليفة يعقوب المنصور عالما مستنيراً ، متمكنا من الحديث والفقه واللغة ، وكان مثل أبيه وجده ، يجمع حوله العلماء والأدباء والشعراء ، من المغرب والأندلس ، ويجزل صلتهم ، ويجرى المرتبات على الفقهاء والطلبة ، وفقا لمراتبهم وطبقاتهم [1] . وكان كذلك يجرى الرواتب المنتظمة ، لكثير من الأطباء ، والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم [2] ، وكان له بتمكنه من الفقه ، دور فعال فى تطور العقيدة الموحدية ، وجنوحها إلى المذهب الظاهرى.

ونجد حتى فى أواخر الدولة الموحدية ، حينما شاخت وأدركها الوهن ، فى الخلفاء الموحدين ، من يتسم بالصفات العلمية البارزة ، فقد كان الخليفة المأمون ابن المنصور ، عالما متمكناً من اللغة والأدب والشعر ، وكان كاتبا مقتدراً ، وكان الخليفة المرتضى لأمر الله ، فقيهاً وأديبا وشاعراً . وكانت هذه الصفات العلمية للأواخر من الخلفاء الموحدين ، تبرز على ما عداها ، بالرغم مما كانت تتردى فيه الدولة ، من الفتن والحروب الأهلية المتواصلة .

وقد كان لهذه النزعة العلمية التى غلبت على معظم الخلفاء الموحدين ، أثر

---

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ . (٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٤ .

كبير فيما جرت عليه الدولة الموحدية طوال أيامها ، من رعاية للعلماء والمفكرين من كل ضرب ، وحشدها لأعلام الكتاب والمفكرين حول البلاط الموحدى ، سواء فى مراكش أو إشبيلية .

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الخلافة الموحدية ، تحملها هذه النزعة العلمية الأصيلة ، قد جرت على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير ، خلافا لما كانت عليه الدولة المرابطية ، من تزمت وتقييد لحرية الفكر ، ومطاردة منظمة لكتب الغزالى وأضرابها من كتب الأصول المشرقية . ولم تشذ الخلافة الموحدية عن هذا المبدأ الحر ، إلا فى أحيان قليلة ، كان أهمها حادثان ، هما اضطهاد العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الرئيس موسى بن ميمون ، ومحنة العلامة الفيلسوف والطبيب أبى الوليد بن رشد ، وذلك حسبما نشير إليه فيما بعد عند الكلام على هذين المفكرين .

بيد أنه بالرغم من هذا التنويه ، بما كان عليه الخلفاء الموحدون من الصفات العلمية ، ورعاية العلوم والآداب ، وماجرت عليه الخلافة الموحدية من إطلاق حرية الفكر ، يجب ألا ننسى حقيقة هامة ، وهى ذلك الدور الفعّال الذى لعبته الأندلس ، وهى يومئذ إحدى ولايات الإمبراطورية الموحدية الكبرى ، فى إذكاء الحركة الفكرية العامة ، بالغرب الإسلامى ، خلال العصر الموحدى . وإذا تركنا جانبا ماكان يحشده البلاط الموحدى حوله ، من أعلام الكتاب الأندلسيين ، فإن تقاطر العلماء على اختلاف طوائفهم باستمرار من شبه الجزيرة الأندلسية، إلى العدوة ، واستقرار الكثير منهم بالحاضرة الموحدية، أوبغيرها من قواعد المغرب ، وعبور الطلاب والعلماء المغاربة من جهة أخرى إلى الأندلس، للدراسة بمعاهدها التالدة فى إشبيلية ، وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، كان له أكبر الأثر فى ازدهار الحركة الفكرية ، بالقطرين العظيمين المغرب والأندلس ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعا فى أيدى النصارى ، عبر كثير من علماء الأندلس ، من أبناء القواعد الذاهبة ، إلى ثغور إفريقية وقواعدها ، ولاسيما تونس وبجاية وتلمسان ، وقامت فى شمال إفريقية فى أواسط القرن السابع الهجرى ، حركة فكرية وأدبية زاهرة .

ومن ثم فإنه من الواضح ، إزاء ذلك كله ، أن الحركة الفكرية فى الغرب الإسلامى ، كانت خلال العصر الموحدى ، تجوز ، سواء بالمغرب أوالأندلس ،

فترة من القوة والازدهار . وإذا كان من الصعب علينا ، خلال هذا البحث الذى خصص لتاريخ الدولة الموحدية السياسى ، أن نستوعب سائر جوانب هذه الحركة الفكرية العظيمة ، التى لايمكن أن يتسع لتفاصيلها ، سوى تاريخ خاص للآداب فى هذا العصر ، فإننا سوف نحاول مع ذلك ، أن نلم بعناصرها بصفة عامة ، وأن نستعرض الكثير من أعلامها ، فى مختلف العلوم والفنون ، ولاسيما فى شبه الجزيرة الأندلسية . هذا مع ذكر طائفة من أعلام التفكير المغاربة ، الذين يقتضى المقام أن نذكرهم .

ومما يلاحظ فى سير الحركة الفكرية الأندلسية فى العصر الموحدى ، تماوجها وعدم استقرارها ، ولاسيما منذ أواخر القرن السادس الهجرى ، وذلك حينما بدأت قواعد الغرب الإسلامية تسقط فى أيدى النصارى ، واتجهت هجرة العلماء وغيرهم ، من أوطانهم القديمة ، صوب منطقة إشبيلية . وحدث مثل هذا التقلقل فى الأندلس الوسطى ، وذلك حينما سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وأعظم مراكز التفكير الأندلسى ، فى أيدى القشتاليين (٦٣٣هـ) . وتلتها بقية قواعد المنطقة مثل جيان وغيرها ، فعندئذ تحول مركز التفكير الأندلسى من هذه المنطقة إلى الجنوب ، صوب غرناطة وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية ، وكانت قد بدأت تجتمع فى ظل زعامة إسلامية جديدة ، هى زعامة ابن الأحمر . ثم لما وقع الانهيار العام فى شرقى الأندلس ، وسقطت بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها من قواعد الشرق فى أيدى النصارى (الأرجونيين) (٦٣٦ — ٦٤١هـ) ، غادرها العلماء والخاصة ، بعضهم إلى مرسية وأحوازها ، ومعظمهم إلى ثغور إفريقية ، ولاسيما تونس وبجاية ، وكان فى مقدمة هؤلاء علماء وكتاب أعلام ، مثل ابن الأبار القضاعى ، وأبى المطرف بن عميرة المخزومى ، وأبى عبد الله بن الجنان وغيرهم . ولبثت مرسية وأحوازها ، بعد سقوط بلنسية ، زهاء ثلاثين عاما أخرى ، مركزاً للعلوم الأندلسية ، وإن كان ذلك فى ظروف مقلقة ، وتحت ضغط العدو المستمر ، حتى سقطت بدورها فى أيدى النصارى ، وخبا بذلك آخر مشعل للعلوم الإسلامية فى شرقى الأندلس ، وتفرقت بقية علماء الشرق ، فى مختلف القواعد الجنوبية ، وقصد الكثير منهم إلى ثغور إفريقية وقواعد المغرب .

وثمة ملاحظة أخرى تتعلق بعناصر الحركة الفكرية الأندلسية ، فى هذا العصر الذى اضطربت فيه أوضاع الحياة الإجتماعية بالأندلس ، وهى أن هذه

العناصر كانت تتجه قبل كل شيء إلى العلوم الدينية والآداب ، بينما لا تحظر العلوم الدنيوية المحضة منها إلا بالقليل النادر ، فلانجد من علماء الطب والفلك والنبات مثلا سوى أفراد قلائل ، ولانجد، إذا استثنينا العالم النباتى الكبير أبا العباس ابن الرومية، شخصيات علمية بارزة، من طراز ابن زهر وابن طفيل وابن رشد . أما العلوم الدينية والآداب ، فقد لبثت حتى خلال المحنة ، محتفظة بمستواها الرفيع السابق ، بل لقد بلغت الآداب ، وقت الانهيار العام ، مستوى عظيما من التفوق ، لم تبلغه فى عصور سابقة ، وبلغ النثر والشعر منتهى الروعة . ذلك أن المحنة بسقوط الأوطان القديمة ، وتبدد الشمل ، وفقد المال والأهل والولد ، وانهيار أركان الدين ، وانطفاء نور الإسلام ، فى تلك الربوع العزيزة ، كل ذلك قد أذكى لوعة الشعر والنثر ، وصدرت عندئذ فى بكاء الأندلس ، من المراثى البليغة ، من النظم والنثر ، ما يهز أوتار القلوب ، وما لا يزال يحتفظ حتى اليوم بكل روعته وتأثيره .

والآن بعد أن استعرضنا بعض ملامح الحركة الفكرية الأندلسية ، خلال العصر الموحدى ، نحاول أن نستعرض ذلك الثبت الحافل من أعلام التفكير الأندلسى ، الذين ظهروا فى هذا العصر ، وسوف نبدأ فى ذلك بعلماء الدين ، من فقهاء ومحدثين ، ومن إليهم من علماء الكلام والأصول وغيرهم .

— ١ —

قلنا إن الحركة الفكرية الأندلسية ، خلال العصر الموحدى ، تمتاز بوفرة فى دراسة علوم الدين والفقه والأدب ، ومن ثم فإنا نجد أمامنا جمهرة كبيرة من علماء الدين والفقه يعدون بالمئات ، ومن المتعذر علينا فى هذا المقام المحدود ، أن نذكرهم جميعاً ، ولهذا فسوف نقتصر على ذكر الأعلام البارزين منهم .

ومن جهة أخرى فإن كثيراً من هؤلاء العلماء والفقهاء ، الذين امتازوا بالتفوق فى العلوم الدينية ، كالحديث والأصول والتفسير والفقه ، كانوا فى نفس الوقت يمتازون بتمكنهم من الأدب وعلوم اللغة ، وبعضهم ينظم الشعر ، ومن ثم فإنا سوف نحاول أن نقدم منهم من غلب عليهم التفوق فى العلوم الدينية ، ثم نتبعهم بمن مزجوا بين علوم الدين والأدب ، بيد أن مثل هذا التصنيف لا يمكن إلا أن يكون أمراً نسبياً .

ونود أن نشير كذلك ، إلى مسألة الفارق الزمنى بين عصر المرابطين وعصر الموحدين . ذلك أننا أدرجنا ضمن أعلام التفكير الأندلسى فى عصر المرابطين،

بعض من امتدت حياتهم إلى صميم العصر الموحدى ، إلى سنة ٥٦٠ هـ ، وأحيانا إلى سنة ٥٧٠ هـ ، وسوف ندرج هنا ضمن أعلام العصر الموحدى بعض من توفوا قبل ذلك ، ممن أدركوا العصر المرابطي وظهروا فيه . والتفرقة هنا نسبية أيضاً ، ولاضير منهما ، مادمنا نعني في كتابنا بعصر المرابطين والموحدين معا .

ونبدأ بذكر طائفة من الفقهاء والمحدثين وعلماء الدين ، الذين ظهروا بالأندلس فى أوائل العصر الموحدى ، منذ منتصف القرن السادس الهجرى . ومن الواضح أن معظمهم ظهر كذلك فى العصر المرابطي ، قبل عبور الموحدين إلى شبه الجزيرة واستيلائهم عليها .

كان من هؤلاء ابراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن خالد ابن عماره الأنصارى ، من أهل غرناطة ، وبها نشأ ودرس على أعلام عصره بها ، وبقرطبة ومالقة ، وألمرية ، وكان ممن أخذ عنهم أبو بكر بن عطية ، وأبو الحسن ابن الباذش ، وابن عتاب ، وابن رشد ، وغيرهم من الأقطاب ، وبرع فى الفقه والحديث ، والقراءات ، ومارس عقد الشروط ، وولى القضاء بعدة جهات من ولاية غرناطة ، ولما انهار سلطان المرابطين بالأندلس غادر موطنه غرناطة ، يتجول فى البلاد ، حتى استقر أخيراً بمدينة ميورقة فى كنف أميرها إسحاق بن محمد بن غانية ، فولاه قضاءها ، وتصدر للدرس والإقراء وكان من أعلام دولة بنى غانية . وتوفى بميورقة فى جمادى الأول سنة ٥٧٩ هـ ، ومولده بغرناطة سنة ٤٩٥ هـ[1].

ومحمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج بن هاشم الأنصارى الخزرجى ، ويعرف بابن الفرس ، من أهل غرناطة ، درس على أبيه أبى القاسم ، وأبى بكر بن عطية ، وأبى الحسن بن الباذش ، وأبى القاسم بن ورد ، ودرس فى قرطبة على ابن عتاب وابن رشد ، وابن الوراق وغيرهم من أعلام العصر . وعنى بالحديث والفقه والقراءات ، والرواية ، مع تمكن من الفتوى . غادر بلده غرناطة عند وقوع الفتنة بها على أثر انهيار سلطان المرابطين واستوطن مرسية ، وولى بها خطة الشورى ثم تولى قضاء بلنسية ، ولكنه غادرها عند قيام ثورة ابن شلبان ، وأدى اضطراب الأحوال إلى أن صرفه الأمير محمد بن سعد عما كان بيده من الخطط ، ثم عاد فاسترضاه لما رأى من علمه وفضله وزهده ، وكان فى وقته من أعلام حفاظ الأندلس ، مع مشاركة فى الأدب . أخذ عنه الكثير

(١) ترجمته فى التكملة (القاهرة) رقم ٤٠٠ .

وانتفعوا به ، وكانت وفاته بمدينة إشبيلية ، عند وفوده عليها مع وجوه أهل مرسية لتحية الخليفة ، وذلك فى شوال سنة ٥٦٧ هـ(١) .

وبيبش بن محمد بن أحمد بن خلف بن بيبش العبدرى من أهل أندة ، وسكن مع أبيه بلنسية ، ودرس بها وبرع فى الفقه ، وولى الشورى ببلنسية ، وكذلك خطة الأحكام ، وكان بصيراً بعقد الشروط ، مدركا لصحة الأحكام ، وتطوع فى جيش الخليفة أبى يعقوب يوسف حينما سار لغزو مدينة وبذة فى سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفى عقب عوده من الغزو المذكور فى سنة ٥٦٨ هـ(٢) .

وعبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن العبدرى من أهل بلنسية ويعرف بابن موجوال ، درس الفقه والحديث والقراءات ، ونزح إلى إشبيلية ، فسكنها وأخذ عن أبى مروان الباجى ، وأبى بكر بن العربى وغيرهما ، وبرع بالأخص فى دراسة الفقه ، وكان بصيراً بالأحكام ، وعرف فوق ذلك بالورع والزهد ، وحدث عنه جماعة من الأعلام . ألف شرحاً فى صحيح مسلم ، ولكنه توفى قبل إتمامه ، وله كذلك شرح لرسالة أبى زيد القيروانى . وتوفى فى إشبيلية سنة ٥٦٦هـ(٣)

ومحمد بن عبد العزيز بن على بن عيسى بن مختار الغافقى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالشقورى لأن أصله من شقورة . كان معنيا بصناعة الحديث ، بصيراً بطرائقه ، وكان فوق ذلك حافظا لأخبار الأندلس متمكنا من الفقه والأحكام . ولى قضاء شقورة بلده الأصلى ، فحمدت سيرته ، واشتهر بالعدل والنزاهة ، وحدث وأخذ عنه الناس ، وتوفى فى المحرم سنة ٥٧٩ هـ(٤) .

وأحمد بن يوسف بن عبد العزيز بن محمد القيسى الوراق من أهل قرطبة أخذ عن ابن عتاب وابن رشد والقاضى عياض وغيرهم من أقطاب عصره ، وكان عالما بالحديث ، حدث وأخذ عنه جماعة كبيرة ، وكان أصم ، وتوفى بمراكش سنة ٥٨٢هـ(٥) .

وأحمد بن عبد الصمد بن أبى عبيدة الخزرجى من أهل قرطبة ، وسكن غرناطة وقتا ، ثم نزح إلى بجاية ، وكان محدثاً متمكنا من الرواية . وكتب فى أحكام النبى كتابا سماه « آفاق الشموس وأعلاق النفوس » وكتابا آخر عنوانه « مقامع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان » ، وتوفى بمدينة فاس فى شهر ذى الحجة سنة ٥٨٢ هـ(٦) .

---

(١) ترجمته فى التكلة رقم ١٣٩٤ .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ٦٠٩ .
(٣) ترجمته فى التكلة رقم ٢٠٥٠ .
(٤) ترجمته فى التكلة رقم ١٤٣٦ .
(٥) ترجمته فى التكلة رقم ٢٢٢ .
(٦) ترجمته فى التكلة رقم ٢٢٣ .

وبيبش بن محمد بن على بن بيبش العبدرى من أهل شاطبة ، درس الفقه والحديث والتفسير مع مشاركة فى النحو ومارس الشورى والفتيا زمنا ، وعرف بمقدرته وكفايته . ثم تولى قضاء شاطبة بلده . وألف فى التعليق على صحيح البخارى كتابين ، وأخذ عنه جماعة من أعلام عصره ، توفى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٢[1]

وكان من أعظم فقهاء هذا العصر وحفاظه ، ابن الجد الفهرى ، وهو محمد ابن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجد ، وأصله من لبلة وبها ولد سنة ٤٩٦ هـ ، وتلقى بها دراسته الأولى ثم درس بقرطبة ، وأخذ فيها عن ابن عتاب ، وابن رشد ، وأخذ فى إشبيلية عن أبى بكر بن العربى وغيره ، وعنى لأول أمره بدراسة العربية فبرع فيها ، وعزم على التخصص فيها، والتصدر لاقرائها ، ولكنه مال بعدئذ بتوجيه أستاذه ابن رشد إلى دراسة الفقه والحديث ، فبرع فى هذا الميدان وبلغ فيه الذروة ، وانتهت إليه رياسة عصره فى الحفظ والفتيا ، وقدم للشورى بإشبيلية مع أبى بكر بن العربى ونظرائه من الفقهاء البارزين يومئذ ، وكان فى عصره فقيه الأندلس والمغرب وحافظهما دون منافس ولا منازع ، كما كان أبرع أهل عصره فى التمكن من مذهب مالك . وكان فوق ذلك فصيحاً، وخطيباً مفوها ، وذاع صيته فى المغرب والأندلس ، وتبوأ ذروة النفوذ والجاه فى ظل الدولة الموحدية ، ولكنه لم يترك من قلمه آثارا ذات شأن ، وتوفى بإشبيلية فى الرابع عشر من شوال سنة ٥٨٦هـ عن تسعين عاما ، ولبثت أسرته عصراً تحتفظ بمكانتها ونفوذها ، وتولى حفيده الفقيه أبو عمرو بن الجد زعامة إشبيلية وقتا ، أيام الانهيار والفتنة ، وتوفى قتيلا قبل سقوط إشبيلية بوقت قصير[2]

ومن الفقهاء والمتكلمين ، صالح بن أبى صالح خلف بن عامر الأنصارى الأوسى من أهل مالقة ، درس بها على أعلام عصره ثم رحل إلى تلمسان، ثم إلى تونس ، والمهدية ، وأخذ عن أقطابها سماعا وإجازة . وكان فقيها متمكناً من علم الكلام . وروى عنه الأخوان أبو محمد وأبو سليمان إبنا حوط الله ، وتوفى فى رمضان سنة ٥٨٦ هـ[3] .

ومنهم أحمد بن محمد بن أخلف بن عبد العزيز الكلاعى ، من أهل إشبيلية

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٦١٠ .

(٢) راجع ترجمة الحافظ ابن الجد فى التكملة رقم ١٤٦٩ ، وراجع ص ٤٧٠-٤٧٢ من هذا الكتاب .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٨٧ .

ويعرف بالحوفى . درس الفقه والحديث ،وسمع من أبى بكر بن العربى وغيره ، وتولى قضاء إشبيلية ، وعنى بنوع خاص بعلم الفرائض ، وألف فيه كتابا حسنا وتوفى فى شعبان سنة ٥٨٨ هـ(١) .

وأبو بكر بن خلف الأنصارى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالموافق ، درس الحديث والفقه ، ونزح إلى مدينة فاس ، واشتهر بغزارة الحفظ ، وتولى تدريس الفقه عصراً ، واشتهر بمقدرته وتبحره ، وعنى فى الحديث بالتعليل والبحث عن الأسانيد والرجال ، ولم يعن بالرواية ، والتحق وقتا بخدمة الخليفة فى مراكش ، ونال جاها وثراءً ، ثم ولى قضاء فاس ، فلبث فيه حتى توفى فى شوال سنة ٥٩٠ هـ(٢) .

ومحمد بن ابراهيم بن خلف بن أحمد الأنصارى من أهل مالقة ، وأصله من بلنسية، ويعرف بابن الفخار. كان أماما فى الحديث، مقدما فيه، وفى المعرفة بسرد المتون والأسانيد ، وتمييز الرجال . سمع من أبى بكر بن العربى ، وأكثر عنه واختص به ، وعن أبى مروان بن بونه ، وأبى جعفر البطروجى ، وشريح ابن محمد ، وأبى طاهر السلفى . وكانت له فوق ذلك مشاركة فى اللغة ومعرفة الشروط ، وكان يتولى عقدها بباب قنتالة ، وكان يحفظ «صحيح مسلم» ، وكان شديد الورع ، جليل القدر ، شديد التمسك بالعدل ، مكرما لطلاب العلم . واستدعى فى أواخر حياته من الخليفة يعقوب المنصور إلى مراكش ليسمع عليه بها ، فقصد إليها ، ولكنه توفى بها بعد قليل فى شعبان سنة ٥٩٠ هـ ، ومولده بمالقة سنة ٥١١ هـ(٣) .

وعبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن ذى النون الحجرى ، من أهل ألمرية ، وأصلهم القديم من طليطلة ، ولهم فيما يبدو صلة رحم ببنى ذى النون سادة طليطلة أيام الطوائف . درس الحديث والفقه ثم رحل إلى قرطبة ، ثم إلى إشبيلية، ودرس فيهما على أعلام عصره ، ولاسيما أبى القاسم بن بقى، وابن مغيث، وأبى بكر بن العربى ، وشريح بن محمد ، واشتهر بتبحره وغزارة حفظه . وكان آية فى الصلاح والورع والفضل والعدالة ، وولى الخطبة والصلاة بجامع بلده ألمرية ، ودعى إلى القضاء ، فاعتذر . ولما غلب النصارى على ألمرية فى سنة

---

(١) ترجمته فى التكلة رقم ٢٢٧ .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ٥٩٦ .
(٣) ترجمته فى التكلة رقم ١٤٨٠ .

٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) غادرها إلى مرسية ، وعاش بها وقتا فى خمول وضعة ، ثم غادرها إلى مالقة ، ولكنه لم يجد بها طيب المستقر ، فعبر البحر إلى العدوة ، ونزل بمدينة فاس وأقام بها مدة ، ثم انتقل منها إلى سبتة ، فاستوطنها ، وهو عاكف على إقراء القرآن وتدريس الحديث ، وسار ذكره ، وبعد صيته ، حتى قصد إليه الناس من كل صوب للأخذ عنه ، واستدعاه الخليفة ، أبو يعقوب يوسف ، إلى مراكش ، ليسمع بها ، فقصد إليها وأقام بها مدة ، ثم استأذن فى العود إلى سبتة وقضى بها بقية حياته . حدث عنه عدد كبير من جلة العلماء من الأندلس والمغرب . وكان مولده بحصن قنجاير على مقربة ألمرية فى سنة ٥٠٥ هـ ، وتوفى بسبتة فى شهر المحرم ، وقيل فى صفر سنة ٥٩١[1] .

ومحمد بن عبد الكريم الفندلاوى من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن الكتانى ، كان إماما فى علم الكلام وأصول الفقه ، وعكف على تدريسهما طول حياته ، وكان له معرفة بالآداب ، وله رجز فى أصول الفقه ، وروى عنه جماعة من أهل المغرب ، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ[2] .

وأحمد بن سلمة بن أحمد بن يوسف بن سلمة الأنصارى من أهل لورقة ، وسكن تلمسان ، ويعرف بابن الصيقل . درس الحديث وبرع فى صناعته ، وروى عن ابن الدباغ ، وابن بشكوال ، وابن خير ، وابن الجد ، وغيرهم من الأقطاب ، وكان من أهل الضبط والإتقان . حدث ، وسمع منه الكثير ، وذكر لنا ابن الأبار أن شيخه أبا الربيع بن سالم كبير علماء بلنسية فى عصره ، كان يطنب فى الثناء عليه . وتوفى فى المحرم سة ٥٩٨ هـ[3] .

ومحمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن محمد بن مروان بن خطاب ابن عبد الجبار ، ويعرف بابن أبى جمرة ، من أهل مرسية . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره ، وعنى بالرأى وحفظه ، وولى خطة الشورى ، وهو شاب فى الحادية والعشرين أيام إمامة القاضى ابن أبى جعفر ، ثم فى ظل إمارة محمد بن سعد ، واستمر فيها وقتا ، وكان أول من شاوره من القضاة أبو الحسن بن برطلة . ثم ولى قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وأوريولة فى أوقات مختلفة . وكان حافظا متقنا ، وفقيهاً بارعا ، بصيراً بمذهب مالك ، متخصصاً فى تدريسه ، عدلا دقيقاً فى

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٨٠ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧١٨ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٣٨ .

أحكامه ، فصيحاً ، حسن البيان . ومن مؤلفاته ، كتاب « نتائج الأبكار ، ومناهج النظار ، فى معانى الآثار » ، ألفه بعد سنة ٥٨٠ هـ ، حينما قام الخليفة المنصور بمطاردة أهل الرأى ، وأمر بإحراق المدونة وغيرها ، من كتبه ، وكتاب « إقليد التقليد المؤدى إلى النظر السديد » . وله برنامج عدد فيه الأعلام من علماء أسرته . وقد حمل عليه وعلى أسلافه بعض علماء عصره ، ودافع عنه ابن الأبار ، فى ترجمته بالتكملة ، ونوه بفضل بعض الأعلام من سلفه ، تأييداً لدفاعه ، واستشهد كذلك بأقوال بعض شيوخه مثل أبى عمر بن عات ، وأبى سليمان بن حوط الله ، وأبى بكر ابن وضاح وغيرهم . وكانت وفاته بمرسية مصروفا عن القضاء ، فى اليوم الثلاثين من المحرم سنة ٥٩٩ هـ[١] .

ومحمد بن على بن مروان بن جبل الهمدانى ، من أهل وهران ، وأصله أندلسى ، ونشأ بتلمسان ، ودرس بها ، وولى قضاءها ، ثم ولى قضاء الجماعة بمراكش فى سنة ٥٨٥ هـ ، بعد أبى جعفر بن مضاء ، ثم نقل إلى قضاء إشبيلية عام ٥٩٢ هـ ، ثم أعيد ثانية إلى قضاء مراكش بعد إقالة أبى القاسم بن بقى ، وكان فقيهاً متمكناً ، حميد السيرة ، شديد الهيبة ، عارفا بالأحكام ، ميالا إلى العدل ، وتوفى سنة ٦٠١ هـ . ويقول لنا صاحب التكملة إن أحداً لم يجلد طوال ولايته للقضاء ، مما يدل على أن عقوبة الجلد ، كانت مستعملة فى هذا العصر ، للمعاقبة على الذنوب التى يقضى فيها بالتعزير[٢] .

ومحمد بن أبى خالد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن . . بن محمد بن أبى زمنين عدنان بن بشير بن كثير المرّى الإلبيرى ، من أهل غرناطة ، كان من ألمع فقهاء عصره ، وأخذ عن أبى مروان بن قزمان ، وأبى الحسن الزهرى ، وأبى القاسم بن بشكوال ، وغيرهم من أقطاب عصره . ولى قضاء غرناطة ، ثم قضاء مالقة ، وكان فوق براعته فى الفقه ، محدثا متقناً ، بارعا فى الرواية ، عارفاً بتاريخ من نزل بالأندلس قديماً من العرب . وحدث عنه جماعة ممن تبوؤوا الطليعة فيما بعد ، ومنهم أبو سليمان بن حوط الله ، وأبو القاسم الملاّحى ، وأبو الربيع ابن سالم وغيرهم . توفى مصروفا عن القضاء فى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ . وكان مولده بغرناطة سنة ٥٣٣ هـ[٣] .

---

(١) أورد له ابن الأبار ترجمة مطولة فى التكملة رقم ١٥١٤ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧١٩ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٣٠ .

وإسحاق بن ابراهيم بن يعمر الجابرى ، من مدينة فاس ، ودرس بها ، ودرس كذلك بسبتة ، ثم رحل إلى الأندلس ، ودرس الفقه بمرسية . وولى قضاء فاس وسبتة ، وكان متبحراً فى الفقه المالكى ، حافظا متقنا ، ويقال إنه كان يستظهر المدونة . وولى قضاء بلنسية فى أواخر عمره سنة ست وستمائة ، ثم ولى قضاء جيان ، وفقد فى موقعة العقاب فى شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ[١] .

وأحمد بن على بن يحيى بن عون الله الأنصارى ، ويعرف بالحصّار . أصله من دانية وسكن بلنسية ، ودرس القراءات وبرع فيها ، وتبوأ رياستها فى عصره ، ولم يكن أحد يدانيه فى صناعته فى الضبط والتجويد والإتقان . وكان يقصده الطلاب من كل صوب للأخذ عنه ، ويصفه تلميذه ابن الأبار ، الذى ننقل عنه هذه الترجمة ، بأنه كان « آخر المقرئين » بشرق الأندلس . وكانت وفاته ببلنسية فى فى الثالث من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل كارثة العقاب بأيام قلائل ، وقد قارب الثمانين من عمره[٢] .

وعبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى من أهل مالقة ، ويعرف بابن القرطبى ، لأن أصلهم من قرطبة . ودرس الحديث ، وبرع فيه ، وأخذ عنه جمهرة من أقطاب عصره مثل أبى بكر بن الجد ، وابن زرقون ، وأبى القاسم بن حبيش ، وأبى عبد الله بن الفخار ، وعنى بالرواية عناية شديدة ، وأكثر من الرحلة فى لقاء الشيوخ ، وطلب العلم ، وكان من أشهر أهل عصره فى صناعة الحديث ، والتصرف فى فنونه ، ولم يكن أحد يدانيه فى حفظ التاريخ ، إلا القلائل من أهل عصره ، وكان فوق ذلك له مشاركة طيبة فى علم العربية والآداب ، إلا أن شهرته فى الحديث كانت هى الغالبة عليه . وقد حدث ودرس وأخذ عنه الكثير ، وألف مجموعة فى « تلخيص أسانيد الموطأ » توفى بمالقة فى شهر ربيع الآخر سنة ٦١١ هـ[٣] .

وكان من أبرز أقطاب الحديث والفقه فى أواخر العصر الموحدى بالأندلس ، الأخوان عبد الله وداود ، إبنا حوط الله الأنصارى الحارثى . وأكبرهما عبد الله ، وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمرو بن خلف ابن حوط الله الأنصارى الحارثى ، ولد بأندة من أعمال بلنسية فى سنة ٥٤٩ هـ ،

(١) ترجمته فى التكلة رقم ٥١٧ . (٢) ترجمته فى التكلة رقم ٢٦١ .
(٣) ترجمته فى التكلة رقم ٢٠٩٧ .

وهى موطنهم وأصل دارهم ، ودرس ببلنسية ومرسية وقرطبة . وتجول فى سائر قواعد الأندلس الأخرى . وبرز فى الحديث ، والقراءات ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب العصر ، منهم بمرسية أبو القاسم بن حبيش ، وبقرطبة أبو القاسم ابن بشكوال ، وأبو العباس المجريطى ، وأبو اليد بن رشد ، وبإشبيلية أبو بكر ابن الجد، وأبو اسحق بن ملكون ، وبمالقة أبو عبد الله بن الفخار وأبو القاسم السهيلى ، وغير هؤلاء . وكان أماما فى صناعة الحديث ، متفوقاً فى الرواية والضبط ، حافظاً لأسماء الرجال ، متمكنا من التعديل والتجريح ، ولم يكن فى وقته أبعد صيتا منه ، ومن أخيه أبى سليمان فى هذا الميدان ، وكان فوق ذلك متفوقاً فى علم العربية ، كاتبا بليغاً ، وخطيباً مقتدراً ، وشاعراً محسنا . استدعاه الخليفة المنصور لتأديب بنيه فحظى لديه ، ونال جاها ودنيا عريضة . وتولى فى أوقات مختلفة قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا وغيرها ، وألف كتاباً فى « تسمية شيوخ البخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى » ولكنه لم يكمل، ووضع فهرسا حافلا لشيوخه . حدث وسمع منه الكثيرون من أعلام عصره . وتوفى بغرناطة ، وهو فى طريقه إلى مرسية، وذلك فى الثانى من شهر ربيع الأول سنة ٦١٢ هـ ، ثم نقل إلى مالقة ودفن بها(١) .

وأما أخوه داود بن سليمان بن داود ، فقد ولد بأندة سنة ٥٦٠ هـ ، ودرس الحديث على أبيه وأخيه كبيره عبد الله ، وبرع مثله فى الحديث ، وطاف بقواعد الأندلس طلباً للعلم ، وأخذ من الجلة أينما حل ، ورحل كذلك إلى سبتة وغيرها من بلاد العدوة ، وكان خبيراً بعقد الشروط . وكان ممن أخذ عنهم أبو العباس المجريطى ، وابن بشكوال ، وأبو بكر بن الجد ، وأبو عبد الله بن زرقون ، وأبو عبد الله بن الفخار ، وأبو العباس بن مضاء، وابن الفرس، وأبو بكر بن أبى زمنين وغيرهم وغيرهم . وتولى قضاء سبتة وألمرية والجزيرة الخضراء ، ثم تولى قضاء بلنسية ، ومالقة ، وعرف أينما حل بالعلم والحلم والنزاهة ، وكان ورعا متواضعا، لين الجانب ، يشاطر أخاه الشهرة وعلو المكانة . وتوفى بمالقة فى سادس ربيع الآخر سنة ٦٢١ هـ ، ودفن بسفح جبل فاره إلى جانب أخيه(٢) .

ونختم هذا الثبت من علماء الحديث والحفاظ بذكر إمامهم وشيخهم فى وقته، العلامة الحافظ أبو الربيع بن سالم . وهو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٩٩ . (٢) ترجمته فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥١١–٥١٤ .

ابن سليمان الحميرى الكلاعى من أهل بلنسية ، وأصله من بعض ثغورها الشرقية . درس القراءات والحديث ، وأخذ وروى عن جماعة كبيرة من شيوخ عصره ، مثل أبى العطاء بن نذير وأبى القاسم بن حبيش وأبى بكر بن الجد ، وأبى الوليد بن رشد وأبى محمد بن الفرس وغيرهم . وبرع فى الحديث والفقه والأدب . وكان حسبما يصفه تلميذه ابن الأبار « إماما فى صناعة الحديث ، بصيراً ، حافظا حافلا ، عارفا بالجرح والتعديل ، ذاكراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه فى ذلك وفى حفظ أسماء الرجال ، مع الاستبحار فى الأدب والاشتهار فى البلاغة ، فرداً فى إنشاء الرسائل ، مجيداً فى النظم ، خطيباً فصيحاً مفوها ». ويصفه ابن عبد الملك بأنه « بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقى ، حافظا للحديث مبرزاً فى نقده ، ضابطا لأحكام أسانيده ، كاتبا بليغاً شاعراً مجيداً ، خطيباً مصقعاً » . تولى الخطبة بجامع بلنسية غير مرة ، وقدم إلى سماعه الطلاب من كل صوب . وكتب عدة مصنفات فى الحديث والسير والآداب ، منها حلية الأمانى فى الموافقات العوالى ، وتحفة الرواد فى الغوالى البدلية والإسناد ، والمسلسلات من الأحاديث ، وكتاب الاكتفاء فى مغازى رسول الله ، ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وكتاب حافل فى معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وبرنامج مروياته ، وجنى الرطب فى سنى الخطب ، جمع فيه طائفة كبيرة من خطبه ، ومؤلفات أخرى فى الأدب ، ومجموع رسائله ، وغير ذلك ، وجمع شعره فى ديوان . ومما يؤثر عنه أنه كان ينحى باللائمة على الإمام الغزالى فى اختيار عنوان كتابه « إحياء علوم الدين » ويقول متى ماتت العلوم حتى نقول بإحيائها ، فهى مازالت حية وسوف تبقى كذلك .

وكان فوق علمه الغزير ، مجاهداً من أولى الإقدام والبسالة ، وثبات الجأش. يحضر الغزوات والوقائع ، ويشترك بنفسه فى القتال ، ويبلى البلاء الحسن ، وكانت آخر وقيعة اشترك فيها هى وقيعة أنيشة التى اضطرمت بين المسلمين والنصارى فى ظاهر بلنسية فى اليوم العشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ ، ودارت فيها الدائرة على المسلمين ، واستشهد منهم عدد جم بينهم كثير من الفقهاء والعلماء . وكان أبو الربيع فى مقدمة من استشهد وهو يخوض المعمعة ، ويحث إخوانه على القتال ، وذلك حسبما سبق أن ذكرناه فى موضعه . وقد رثاه تلميذه ابن الأبار ، ومن سقط معه من علماء بلنسية ، بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألمّا بأشلاء العلى والمكارم   تقد بأطراف القنا والصوارم

وعوجا عليها مأربا وحفاوة ... مصارع غصت بالطلى والجماجم

وهى فى نحو مائة بيت . وكان مولد أبى الربيع بن سالم فى قرية من قرى مرسية فى شهر رمضان سنة ٥٦٥ هـ[1] .

ومن الفقهاء الذين نبغوا فى الأصول وعلم الكلام ، محمد بن ابراهيم المهرى من أهل بجاية ، وأصله من إشبيلية . رحل إلى المشرق ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب المحدثين ، وبرز فى علم الكلام ، وأصول الفقه ، حتى اشتهر بالأصولى ، وكان علم وقته فى هذا الميدان . وولى قضاء بجاية غير مرة ، وعنى بإصلاح كتاب «المستصفى» لأبى حامد الغزالى ، ورحل إلى الأندلس ، واتصل بابن رشد وكان يدرس معه « علوم الأوائل » . ولما امتحن ابن رشد سنة ٥٩٣ هـ ، محنته المشهورة ، التى سبق ذكرها فى موضعها ، امتحن معه المهرى ، ونفى مثله من قرطبة ، إلى بعض الجهات ، ثم عفى عنه ، وكف بصره فى أواخر حياته ، وتوفى سنة ٦١٢ هـ[2] .

ومنهم عبد الله بن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصبى من أهل جزيرة شقر ، نشأ فى بلنسية ، ورحل إلى إشبيلية فأخذ بها عن أقطابها ، ثم عبر البحر إلى فاس ، وتبحر فى الأصول وعلم الكلام على أشياخها ، ثم عاد إلى بلنسية ، وتصدر للتدريس بالمسجد الجامع ، ونوظر فى « المستصفى » لأبى حامد الغزالى ، وكان من أساتذة ابن الأبار ، أخذ عليه وصحبه وقتا ، وتزهد فى آخر حياته ، وتوفى فى شعبان سنة ٦٢٢ هـ[3] .

ومنهم محمد بن محمد بن سعيد . . بن مجاهد الأنصارى من أهل إشبيلية ويعرف بابن زرقون ، وأصلهم من بطليوس ، أخذ عن أقطاب عصره ، وفى مقدمتهم أبو بكر بن الجد ، وأبو جعفر بن مضاء . وكان فقيها مالكيا متبحراً فى المذهب ، متعصبا له ، وأخذ عنه أهل عصره ، وكان فوق ذلك يشارك فى الأدب مشاركة طيبة ، وينظم اليسير من الشعر . ومن مؤلفاته « الكتاب المعلى فى الرد على المُحَلّى لابن حزم » وكتاب « قطب الشريعة فى الجمع بين الصحيحين » واختصر كتاب « الأموال » لأبى عبيد ، وغير ذلك . وكانت وفاته بإشبيلية فى شوال سنة ٦٢١ هـ ، ومولده بها فى سنة ٥٣٩ هـ[4] .

---

(١) ترجمته فى التكملة لابن الأبار (الأندلسية) رقم ١٩٩١ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى — لوحة ٢٣ وما بعدها ، وعنوان الدراية ص ١٦٧—١٦٩ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٢٦ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٩ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٢ .

— ٢ —

وهنالك طائفة كبيرة من علماء الدين ، الذين نبغوا فى الفقه أو الحديث والقراءات ، ونبغوا فى نفس الوقت فى الأدب والشعر أواللغة ، وقد رأينا أن نذكرهم مجتمعين فى هذا القسم على النحو الآتى :

كان من هؤلاء عبيد الله بن عمر بن هشام الحضرمى ، أصله من إشبيلية ، ونزح أهله إلى قرطبة ، وبها ولد ونشأ . ودرس القراءات والحديث ، والعربية والآداب ، على أقطاب عصره ، وتحول فى حواضر الأندلس فى طلب الاستزادة والتمكن . وكان مقرئاً ، نحويا ، أديبا شاعراً . عبر البحر إلى المغرب ، وتصدر للإقراء وتعليم الآداب والعربية ، وتنقل بين مراكش ومكناسة وتلمسان . ثم قفل إلى الأندلس ، ونزل ألمرية حينا ، ثم غادرها إلى مرسية وولى الخطبة بجامعها ، وله تصانيف عدة ، منها « كتاب الإفصاح فى اختصار المصباح » وكتاب فى « شرح مقصورة ابن دريد » . وكان انفصاله عن مرسية فى سنة ٥٥٠ هـ ، ولايعرف كم عاش بعدها . ومولده فى سنة ٤٨٩ هـ[١] .

وعبد الله بن محمد عبد الله الصنهاجى المعروف بابن الأشيرى ، نسبة إلى إلى أشير من أعمال المغرب الأوسط . درس الحديث والفقه بالأندلس ، وأخذ بها عن أبى بكر بن العربى ، وابن عساكر ، وشريح بن محمد ، وأبى الفضل عياض ، وأبى الوليد بن الدباغ وغيرهم . وكان أديبا ، وكاتبا بليغا ، كتب لصاحب المغرب (وهو فيما يرجح على بن يوسف) ، فلما توفى استتر وغادر المغرب إلى المشرق وحج ، وجاور حينا بمكة ، ثم توجه فى أواخر حياته إلى حلب ، وحدث بها وهنالك توفى فى سنة ٥٦١ هـ[٢] .

ومحمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس العبدرى ، من أهل قرطبة . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره ، مثل ابن عتاب ، وابن رشد ، وابن مغيث ، وابن العربى ، وابن الباذش وغيرهم ، وبرع بنوع خاص فى علم اللغة ، وكان مشاركا فى فنون كثيرة ، حافظا متمكنا ، وشاعراً محسنا . غادر قرطبة أيام الفتنة وعبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، فاقرأ بها العربية والآداب ، وله شرح مشهور « بجمل الزجاجى » ، ومعشرات فى الغزل ، ونظم فى الزهد ،

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٧٢ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٤٩ .

وتوفى بمراكش سنة ٥٦٧ هـ[١] .

ومحمد بن أحمد بن محرز بن عبد الله بن أميه ، من أهل بطليوس ، واستوطن إشبيلية ويعرف بالمتانجشي نسبة إلى حصن متانجش . عنى بالقراءات والفقه والحديث ، ودرس العربية على أبى عبد الله بن أبى العافية وأبى بكر بن القبطورنة وغيرهما ، وكان فقيهاً مشاورا ،حافظا، له حظ من الأدب والكتابة . وقد أخذ عنه عدة من الجلة مثل ابن خير ، وأبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى الخطاب بن واجب وغيرهم ، وتوفى فى آخر سنة ٥٦٩ هـ ، ومولده فى سنة ٤٧٩هـ سنة الزلاقة[٢] .

ومنهم وهو من أنبغهم ، محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى ، مولى ابراهيم بن محمد بن يغمور اللمتونى من أهل إشبيلية . ودرس بها وبقرطبة والمرية وغيرها ، وشغف بالقراءات والحديث والفقه ، وبرع فيها ، وعنى عناية كبيرة بتقييد الرواية والآثار ، وأخذ عن جمهرة كبيرة من أقطاب عصره ، منهم أبو مروان الباجى ، وأبو بكر بن العربى ، وأبو اسحاق بن حبيش ، وأبو القاسم ابن بقى ، وابن مغيث ، وابن أبى الخصال ، وأبو الفضل عياض وغيرهم . وقد اشتهر بالإتقان والضبط ، وكان فوق ذلك أديبا كبيراً ، بارعا فى اللغة والنحو . وفى أواخر حياته ولى الصلاة بجامع قرطبة وتوفى بها فى ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ ، ومولده فى سنة ٥٠٢هـ . وقد اشتهر ابن خير بنوع خاص بفهرسه الجامع الذى ألفه عن شيوخه ، وعن الكتب التى رواها وقرأها ، عنهم ، ومن هذا الثبت الحافل ، نستطيع أن نكون فكرة جامعة عن الكتب الدراسية وكتب النصوص ، التى كانت متداولة بمدارس الأندلس فى القرن السادس الهجرى[٣] .

ومنهم محمد بن عبيد الله بن أحمد . . بن نصر بن سالم الحشنى ، من أهل رندة وسكن مالقة ، ودرس بها ، وبقرطبة، وبرع فى القراءات واللغة والنحو، وأنفق حياته فى إقراء القرآن وتعليم العربية ، وكان كذلك محدثا حافظا ، حدث، وأخذ عنه الكثيرون . وتوفى بمالقة فى سنة ٥٧٦ هـ[٤] .

وعبد الله بن محمد بن عيسى الأنصارى ، ويعرف بابن المالقى ،لأن أصله

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٣٩٥ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٠٠ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٢٤ . وقد نشر فهرست ابن خير ضمن المكتبة الأندلسية ، وهو يشغل المجلد العاشر منها ، ونشر بعناية الأستاذين كوديرا وخوليان ربيرا (سنة ١٨٩٣) .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٢٧ .

من مالقة، ودرس باشبيلية وغيرها ، ثم نزح إلى العدوة وسكن مراكش وكان فقيهاً متمكنا ، وخطيباً مفوها ، وأديبا كبيراً محسنا ، ندبه الخليفة أبو يعقوب يوسف لرياسة طلبة الحضرة ، ونال فى ظل رعايته جاها ودنيا عريضة . وتوفى بمراكش فى سنة ٥٧٤ هـ ، وعلى قول آخر فى سنة ٥٧٣ هـ(١) .

وعبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح الحضرمى النحوى من أهل دانية ، ويعرف بابن صاحب الصلاة. درس القراءات والعربية والأدب، ونزح إلى شاطبة فدرس بها الأدب والنحو زمانا ، وكان أديبا متمكنا ، مبرزاً فى صناعة العربية، استدعاه ابن سعد أمير الشرق إلى بلنسية ، وذلك لتأديب أولاده ، وأخذ عنه كثير من أهل عصره ، ومنهم أعلام مثل أبى الربيع بن سالم ، وكان له كذلك حظ من قرض الشعر . ومن ذلك قوله :

وعجل شيبى أن ذا الفضل مبتلى ... بدهر غدا ذو النقص فيه مؤمّلا
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... بها الحر يشقى واللئيم ممـــولا

وتوفى ببلنسية فى شهر رجب سنة ٥٧٨ هـ ثم حمل إلى بلده دانية ، ودفن بها . ومولده فى سنة ٥١٧ هـ(٢) .

وأحمد بن محمد بن مفرج الأموى أصله من سرقسطة، ونزل مرسية، ويعرف بالملاحى ، عنى بالقرآن والحديث والعربية وبرع فيها ، وأقرأ القرآن بمرسية ، وحدث وأخذ عنه ، وعلم العربية زمنا ، وتوفى فى سنة ٥٨٢ هـ(٣) .

والحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى ، من أهل قرطبة ، ونزل مالقة ، درس القراءات والحديث وبرع فى الرواية ، وأخذ عن عدة من أقطاب عصره ، ومنهم أبو القاسم بن بشكوال ، أخذ عنه كتاب الصلة ، وكان متمكنا من العربية ومن علم العروض . وحدث عنه أهل عصره . وتوفى بمالقة فى رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، ومولده فى سنة ٥١٨ هـ(٤) .

ومحمد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن صاف اللخمى من أهل إشبيلية . عنى بالقراءات والعربية ، ودرس ببلده إشبيلية ، ثم رحل إلى جيان ، فدرس على أبى بكر بن مسعود الخشنى . واشتهر ببراعته فى القراءات والعربية ، وله شرح فى أشعار الستة وفى تغلب . وكتاب فى ألفات الوصل والقطع ، وشروح

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٥٨ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٦٦ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٢٠ . (٤) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٤ .

لآيات من القرآن ، وأجوبة لأهل طنجة فى مسائل القراءات والنحو . حدث ، وأخذ عنه جماعة . وتوفى فى سنة ٥٨٥ هـ وقيل فى ٥٨٦ هـ ، ومولده سنة ٥١٢هـ(١)

ومحمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد بن مأمون الأموى ، من أهل بلنسية . درس القراءات بإشبيلية وغرناطة على أقطاب عصره ، ورحل إلى جيان فدرس بها العربية والآداب على أبى بكر بن مسعود. ثم رحل إلى المرية فدرس على من كان بها من أقطاب العصر . ثم قفل إلى بلده ، وقد ذاع صيته ، واشتهر بغزير علمه ، فاقرأ وحدث وعلم العربية . ثم ندب لقضاء بلنسية فقضى فى منصبه عدة أعوام ، واشتهر بنزاهته وعدالته وحسن تصريفه ، وهو فى نفس الوقت يقرئ القرآن والعربية ، مع حظ وافر من البلاغة والبيان والبديع . وانتقل إلى مرسية فى أواخر حياته ، وتولى بها الصلاة والخطبة ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٦هـ ومولده فى سنة ٥١٣ هـ(٢) .

ومحمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصارى ، من أهل إشبيلية ويعرف بابن زرقون . درس على أبيه ، وعلى عدد من الجلة ، مثل أبى محمد ابن عبدون ، وأبى بكر بن القبطورنة ، وأبى الفضل عياض ، واختص به ولازمه كثيراً ، وكتب له أيام ولايته لقضاء غرناطة . وكان متمكنا من الحديث والفقه ، مع براعته فى الأدب وقرض الشعر . ولى قضاء شلب ، ثم قضاء سبتة ، فحمدت سيرته ، واشتهر بكفايته ونزاهته . وله عدة مؤلفات منها كتاب الأنوار ، جمع فيه بين المنتقى والاستذكار ، وجمع أيضاً بين مصنف الترمذى وسنن أبى داود ، وكان الطلاب يرحلون إليه لعلو روايته . وتوفى بإشبيلية فى رجب سنة ٥٨٦ هـ . ومولده بشريش سنة ٥١٢ هـ(٣) .

ومفوز بن طاهر بن حيدرة المعافرى ، من أهل شاطبة ، درس القراءات والفقه ، وبرع فيهما ، وكان فقيهاً مشاوراً ، ولى قضاء شاطبة ، زمنا فحمدت سيرته ، وكان فوق ذلك متمكنا من الأدب ، بليغاً حسن البيان ، وله حظ من قرض الشعر ، ومن نظمه :

وقفت على الوادى المنعم دوحه ... فأرسلت من دمعى هنالك واديا
وغنمت به ورق الحمام عشية ... فأذكرنا أياما مضت ولياليا

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٦٥ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٦٧ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٦٨ .

وتوفى بشاطبة فى شعبان سنة ٥٩٠ هـ ، ومولده فى سنة ٥١٧ هـ[1].

ونجبة بن يحيى بن خلف .. بن نجبة الرعينى من أهل إشبيلية، درس على أقطاب عصره مثل أبى مروان الباجى ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى بكر بن طاهر ، وأبى القاسم بن الرماك ، وغيرهم . وكان إماما فى القراءات والعربية ، وقد تصدر لإقراء القرآن ، وتعليم العربية زمانا ، ثم عبر إلى المغرب ، ونزل بمراكش استجابة لدعوة الخليفة ، وهنالك أقرأ القرآن بالحاضرة الموحدية ، وكان يرافق حملات الغزو الموحدية . وقد حدث عنه جماعة من الشيوخ ، وتوفى على مقربة من شريش سنة ٥٩١ هـ ، وهو مرافق لجيش المنصور المتجه إلى الغزو ، وحمل إلى إشبيلية ودفن بها ، ومولده فى سنة ٥٢٠ هـ[2] .

وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد . . ابن مضاء بن مهند بن عمير اللخمى ، من أهل قرطبة ، وأصله من شذونة ، درس القراءات والحديث والعربية ، وأخذ عن عدة من الجلة ، مثل ابن أبى الخصال ، وابن مسرة ، وأبى بكر بن مدبر ، وأبى بكر بن سمجون ، وأخذ العربية بإشبيلية عن أبى القاسم بن الرماك ، وسمع من أبى بكر بن العربى ، وسمع بالمرية أبا محمد عبد الحق بن عطية ، وأبا الفضل عياض ، ومال إلى العربية وبرع فيها، ثم عبر إلى المغرب والتحق بخدمة الخلافة ، وولى قضاء فاس ، ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش . وكان له حظ وافر من الأدب ، والبيان والشعر ، وله فى العربية كتاب سماه « بالمشرق » وكتاب« تنزيه القرآن عما لايليق من البيان» . وتوفى بإشبيلية مصروفا عن القضاء فى جمادى الأولى سنة ٥٩٣ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٥١١ هـ[3] .

وعبيد الله بن عبد الرحمن . . بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ، من أهل قرطبة ، واستوطن أشونة من أعمالها . درس الحديث والفقه ، وسمع من عدة من الأقطاب ، منهم أبوه القاضى أبو مروان ، وأبو جعفر البطروجى ، وأبو إسحق ابن فرقد ، وغيرهم . وولى القضاء بعدة بلاد من أعمال قرطبة ، وكان فقيهاً متمكنا بصيراً بالأحكام ، وكان فوق ذلك أديبا محسنا وشاعراً ، من بيت علم وأدب ونباهة . توفى بأشونة سنة ٥٩٣ ، أو ٥٩٤ هـ[4] .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٤٤ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٨٧٩ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٣٤ .
(٤) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبدالملك المجلد الأول من مخطوط باريس لوحة ١٧٦٥ ، وكذلك فى التكملة رقم ٢١٨١ .

ومنهم من علماء المغرب عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى ، من أهل فاس ، ودخل الأندلس فى أواخر العهد المرابطى ، ودرس بإشبيلية ، وسمع من القاضى عياض ، وأجاز له ابن بشكوال ، وتلقى الحديث عن ابن عتاب ، وأبى بحر الأسدى ، وكان فقيهاً متمكنا ، أديبا محسنا ، وله رسائل وأشعار جيدة ، وولى قضاء بلده فاس فى أواخر أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف . وحدث عنه جماعة من أقطاب الأندلس ، مثل أبى محمد بن حوطه الله ، وأبى الربيع بن سالم . وتوفى بمكناسة سنة ٥٩٧ هـ . ومولده فى سنة ٥١١ هـ[1] .

ومنهم أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن فرج ، أصله من ألمرية ، وسكن بلنسية ، ويعرف بالذهبى ، درس القراءات والفقه والآداب والعربية ، ومهر فى عدة فنون ، وكان فقيها مبرزاً فى علم الأصول ، متبحراً فى علوم الأوائل ، ماهراً فى العربية ، وكان آية فى الحفظ والذكاء والفهم ، وحسن الاستنباط ، والغوص على المعانى الدقيقة . حدث وأقرأ العربية ، واستدعاه الخليفة المنصور إلى مراكش فحظى لديه ، وكان من أبرز أعضاء مجلسه العلمى ، وكان يتلقى عليه بعض العلوم النظرية . وقدمه للشورى والفتوى ، فأبدى فى هذا الميدان ما يشهد بتمكنه وغزارة علمه . ولما امتحن ابن رشد وزملاؤه محنتهم المشهورة فى سنة سنة ٥٩١ هـ ، اختفى ابن فرج حينا خشية توجيه الاتهام إليه ، ثم ظهر وطمأنه المنصور ، وحظى بعد المنصور لدى ولده محمد الناصر ، ونال جاها وثراء . وله تآليف ، منها كتاب الإعلام بفوائد مسلم للمهدى الإمام ، وكتاب حسن العبارة فى فضل الخلافة والإمارة . وكانت وفاته بتلمسان فى شول سنة ٦٠١هـ ، أثناء مرافقته الجيش الموحدى المتجه إلى إفريقية[2] .

والحسن بن على بن خلف الأموى من أهل قرطبة ، وسكن إشبيلية ، ويعرف بالخطيب ، أخذ عن عدة من أقطاب عصره ، مثل ابن مغيث ، وأبى بكر بن العربى ، وابن مسرة ، وأبى بكر بن مسعود ، وابن أبى الخصال ، وبرع فى القراءات والحديث والأدب . وتولى الخطابة ببعض جهات إشبيلية ، وله عدة مصنفات نفيسة ، منها كتاب روضة الأزهار ، وكتاب فى الأنواء ، وكتاب اللؤلؤ المنظوم فى معرفة الأوقات بالنجوم ، وكتاب روضة الحقيقة فى بدء الخليقة ، وكتاب تهافت

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٥٥ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٤٧ .

الشعراء وغيرها . توفى بإشبيلية سنة ٦٠٢ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٥١٤ه[١] .

ومحمد بن يوسف بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي زيد ، من أهل لرية من عمل بلنسية ، ويعرف بابن عياد . أخذ عن أبيه أبي عمر ، وعدة من الأقطاب مثل أبي الحسن بن النعمة ، وأبي عبد الله بن الفرس ، وأبي القاسم ابن حبيش ، وغيرهم ، وعنى أشد العناية بالرواية ، وتقييد الآثار والأخبار ، والتواريخ . وكان له حظ وافر من الآداب والعربية ، وله مشاركة فى النظم ، وحدث وأخذ عنه البعض ، وله مجموع فى مشيخة أبيه أبي عمر . توفى ببلده سنة ٦٠٣ هـ ، ومولده فى سنة ٥٤٤ هـ[٢] .

وموسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسى ، الميرتلى ، نزيل إشبيلية ، درس القراءات والأدب ، وبرع فيهما ، وصحب أبا عبد الله بن المجاهد ، واختص به وسلك طريقته فى الزهد والورع والعزلة والعبادة ، وكان فى ذلك منطقع القرين . وكان يلازم مسجده داخل إشبيلية ، يقرئ ويعلم ، وله حظ وافر من قرض الشعر ، ومعظمه فى الزهد والتخويف من سطوة الله . توفى فى أوائل سنة ٦٠٤ هـ ، وقد تجاوز الثمانين. ومن نظمه قوله :

سليخة وحصير لبيت مثلى كثير
وفيه ، شكراً لربى خبز وماء غبير
وفوق جسمي ثوب من الهواء ستير
إن قلت أنى مقل إنى إذاً لكفور
قررت عينا بعيشى فدون حالى الأمير[٣]

وأحمد بن محمد بن أحمد بن مقدام الرعينى ، من أهل إشبيلية ، أخذ عن ابن العربى ، وأبى القاسم بن الرماك ، وأبى الحسن بن عظيمة ، وغيرهم ، ومهر فى القراءات والأدب ، وكان أديبا حافظا ، يستظهر شعر المعرى المدون بسقط الزند ، ولما توجه ابن العربى على رأس وفد إشبيلية إلى مراكش لمقابلة الخليفة عبد المؤمن ، صحبه فى رحلته ، وحضر وفاته عند عوده بفاس ، وتوفى فى أواخر سنة ٦٠٤ هـ ، ومولده سنة ٥١٦ه[٤] .

وإدريس بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى من أهل مرسية

(١) ترجمته فى التكلة رقم ٦٩٨ . (٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٥٣٣ .
(٣) ترجمته فى التكلة رقم ١٧٣١ . (٤) ترجمته فى التكلة رقم ٢٥٢ .

درس الحديث والفقه والأدب ، وكان فى مقدمة من أخذ عنهم أبو العباس بن الحلاّل صاحب الأحكام بمرسية ، وكان ماهراً فى شئون الوثائق والعقود، وولى قضاء شاطبة ، ثم ولى الخطابة والصلاة بجامعها، وكانت له مشاركة طيبة فى الأدب وله موجز فى السيرة لابن إسحاق سماه « بالإشراق » وتوفى فى سنة ٦٠٦هـ(١).

وأحمد بن عبد الودود بن عبد الرحمن . . بن صالح الهلالى ، من أهل غرناطة وسكن المنكب حينا . ويعرف بابن سمجون . أخذ عن أبيه أبى محمد، وعدة من أقطاب عصره . وبرع فى الحديث والفقه ، وولى قضاء المنكب ، ثم تولى الخطبة، بجامع قرطبة وقتا . وكان فوق ذلك أديبا محسنا فى النثر والنظم ، حدث وأخذ عنه بعض الشيوخ الجلة . وتوفى بغرناطة ، فى أوائل سنة ٦٠٨ هـ ، ومولده فى سنة ٥٢٨ هـ(٢) .

ومحمد بن أيوب بن محمد بن وهب . . بن نوح الغافقى من أهل بلنسية ، ودار سلفه بسرقسطة . وكان من أشهر وأنبغ الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب فى تلك الفترة . درس القراءات والفقه والأدب ، وأخذ عن عدة من الأقطاب ، واستظهر المدوّنة ، وأخذ العربية والآداب عن ابن النعمة . ولى خطة الشورى ببلنسية فى حياة شيوخه ، وتفوق عليهم فى الحفظ والتحصيل ، ولم يكن فى وقته بشرقى الأندلس ، أغزر منه علما وتبحراً ، وانتهت إليه الرياسة يومئذ فى عقد الشروط والفتيا . وكان فوق براعته فى الفقه والقراءات والتفسير ، أديبا متمكنا ، ماهراً فى الغريب من اللغة ، حافظا للأنساب والأخبار ، متقنا لما استغلق من معانى الأشعار الجاهلية والإسلامية، مشاركا فى فنون كثيرة أخرى . وولى بعد الشورى ، قضاء بعض الكور ببلنسية ، وخطب بجامعها وقتا . وكان له حظ متوسط من النظم . أسمع الحديث ودرس الفقه وعلوم العربية والآداب وأخذ عنه كثير من الناس، وسمع منه جلة من الشيوخ ، ودرس عليه ابن الأبار ، وهو يقول لنا إنه كان « أغزر من لقيت علما ، وأبعدهم صيتاً » . توفى فى شوال سنة ٦٠٨ هـ ، ومولده سنة ٥٣٠ هـ(٣) .

ومنهم ، ومن أشهرهم ، أبو عمر أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزى ، من أهل شاطبة ، أخذ عن أبيه وغيره من شيوخ وقته ، ورحل إلى

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٥٢١ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٥٩ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٥٦ .

المشرق ، فأدى فريضة الحج ، وسمع بمصر أبا طاهر السلفي ، وغيره من الأقطاب وكان آية فى الحفظ ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً ، ولا يخل بشيء منها ، مع مشاركة طيبة فى النظم والنثر ، وكان موصوفا بالدراية والرواية ، يغلب عليه الزهد والورع ، حدث عنه بعض الشيوخ الجلة ، وكان من العلماء المرافقين للجيش الموحدى فى موقعة العقاب ، وفيها لقى حتفه ، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ومولده سنة ٥٤٢ هـ[١] .

وحيان بن عبد الله بن محمد بن هشام . . بن حيان الأنصارى الأوسى من أهل بلنسية ، وأصلهم من أروش من عمل قرطبة ، درس القراءات والنحو ، واقرأ وقتا بجامع بلنسية ، وكان نحويا بارعا ، متقنا لكتاب سيبويه ، لغويا ، أديبا شاعراً ماهراً فى الكتابة ، يميل إلى استعمال العويص من اللغة ، وكان من أساتذة ابن الأبار وتوفى سنة ٦٠٩ هـ[٢] .

ومحمد بن أحمد بن خلف بن عياش الأنصارى الخزرجى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالشنتيالى ، درس على أبى القاسم بن بشكوال ، وأبى القاسم بن غالب الشراط ، وأبى إسحاق بن طلحة ، وأبى الحسن بن بقى ، وأبى بكر بن خير ، وأبى القاسم السهيلى وغيرهم ، وبرع فى علم القراءات ، والحديث والفقه ، والنحو ، وكانت له كذلك مشاركة فى الفرائض والحساب ، تولى الصلاة بجامع قرطبة نحواً من ثلاثين سنة ، واقرأ به القرآن ، وحدث زمنا ، وأخذ عنه عدد من الشيوخ ، وكان من أهل العلم والعمل ، والصلاح والتواضع ، توفى فى شعبان سنة ٦٠٩ هـ . ومولده فى سنة ٥٣٢هـ[٣] .

وأحمد بن محمد بن إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم بن خلصة الحميرى ، من أهل قرطبة ، درس القراءات والعربية والآداب واللغة ، وبرع فيها ، وعين خطيبا للجامع الأعظم ، وتصدر للاقراء به مدة طويلة ، وعكف بالأخص على تدريس علوم اللغة ، وكان متمكنا منها متفوقاً فيها ، وكان له حظ من قرض الشعر . لبث دهراً يدرس علوم اللسان بجامع قرطبة ، وتولى به الخطبة نحو ثلاثة أعوم وكانت وفاته وهو قائم يخطب فوق منبر الجامع الأعظم ، وذلك فى شهر صفر

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٦٢ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٧٧٤ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٦٠ .

سنة ٦١٠ هـ ، ومولده فى سنة ٥٢٤ هـ[1] .

ومحمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى النحوى ، من أهل بلنسية ، وأصله من سرقسطة. عنى بالحديث والرواية ، وبرع فى علم اللسان والعربية ، وكان من شيوخه عدة من الجلة مثل أبى الخطاب بن واجب ، وأبى عمر ابن عات ، وأبى بكر عتيق بن على . وكان غزير العلم والمعرفة ، حافظا متمكنا ، متفوقاً فى صناعة العربية عاكفا على إقرائها وتعليمها ، وكان فوق ذلك شاعراً مجيداً ، حسن التصرف والذوق . وكانت وفاته فى ربيع الأول سنة ٦١٠ هـ ، ومولده فى سنة ٥٦٣[2] .

وعبد الله بن عمرو بن محمد بن يوسف الخزرجى من أهل قرطبة ، ونشأ بتلمسان ، درس القراءات والعربية ، وكان أديبا كاتبا بليغا ، نزح إلى قرطبة ، وعاش بها ، وخدم بعض ولاتها الموحدين بالكتابة عنهم . ثم ولى القضاء وظهر بكفايته ونزاهته . وتوفى بقرطبة فى رمضان سنة ٦١٣هـ ، وقد نيف على السبعين[3] .

ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن سعادة من أهل شاطبة ، درس القراءات والحديث ، وأخذ عن أبى الحسن بن هذيل ، وأبى بكر بن سيدبونه ، وأخذ العربية والآداب عن أبى الحسن بن النعمة ، وغيره من أقطاب العصر . وكان مقرئا بارعا ، ونحويا متمكنا ، ولغويا محققاً . وقد أخذ عنه ابن الأبار وجماعة من أصحابه . وتوفى سنة ٦١٤ هـ[4] .

وإبراهيم بن على بن ابراهيم . . بن أغلب الخولانى ، من أهل إسطبة من عمل قرطبة ، يعرف بالزواقى ، درس بأشونة على أبى مروان بن قزمان ، وبإشبيلية على ابن فرقد ، وأخذ كذلك عن ابن النعمة ، وابن سعادة ، وأبى الحسن الزهرى ، وغيرهم . وتجول فى مختلف البلاد فى طلب العلم ، وعنى بالأخص بالآداب واشتهر ببراعته فيها . وولى قضاء ألش من أعمال مرسية ، وحدث وأخذ عنه . وكانت وفاته بمراكش فى آخر سنة ٦١٦ هـ ، ومولده فى سنة ٥٤٠ هـ[5]

ومحمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك . . بن حزم الأموى النحوى ، سكن إشبيلية ، وأصلهم من يابرة من أعمال الغرب (البرتغال) ، عنى بالقراءات

---

(١) ترجمته فى الذيل والتكملة (مخطوط خزانة الرباط المصور) ج ١ لوحة ١٣٤ وفى تكملة ابن الأبار رقم ٢٦٣ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٦٢ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٠ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٧٩ .

(٥) ترجمته فى التكملة رقم ٤٣٥ .

والعربية ، وأخذ عن أبي بكر بن صاف ، وأبي اسحاق بن ملكون ، وأبي بكر ابن الجد ، وأبي زيد السهلي ، وغلب عليه التخصص فى العربية ، والتمكن منها ، والتحقق من غوامضها ، فعكف على تعليمها ، واعتبر فى هذا الميدان أستاذ إشبيلية الذى لايبارى ، وقد انتفع به عدد من الشيوخ اللاحقين ، مثل أبي على الشلوبين وغيره ، وغلب عليه فى أواخر حياته حب العزلة ، فاعكتف عن الناس ،وتوفى فى صفر سنة ٦١٨ هـ . ومولده بيابرة فى سنة ٥٤٥ هـ[١] .

وسليمان بن حكم بن محمد بن أحمد بن على الغافقى من أهل قرطبة ، درس القرآن والحديث واللغة ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب عصره ، منهم ابن الفخار ، وأبو عمر بن عات ، وأبو القاسم بن بشكوال ، وأبو جعفر بن يحيى وغيرهم . امتهن عقد الشروط بقرطبة مدة ، وكان متقناً مبرزاً فى العدالة والضبط ، عارفا بالأحكام ، أديبا كاتبا وشاعراً مبرزاً فى النظم ، وضع أرجوزة جيدة فى فى الفقه . وله غير ذلك من النظم . ولد بقرطبة سنة ٥٤٦ هـ ، وتوفى بها فى ربيع الآخر سنة ٦١٨ هـ[٢] .

وأحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عبد المؤمن القيسى ، من أهل شريش . درس الحديث والعربية على شيوخ عصره . وعكف زمنا على تدريس اللغة . وله فى هذا الميدان عدة مصنفات نفيسة، منها شرح الإيضاح للفارسى ، والجمل للزجاجى ، وله تأليف فى العروض ، ومجموع فى مشاهير قصائد العرب، ومختصر لنوادر أبي على القالى، ولكنه اشتهر بنوع خاص بشرحه لمقامات الحريرى . وله فى ذلك ثلاث نسخ ، كبرى ، ووسطى ،وصغرى . وأخذ عنه عدد من أقطاب العصر ، ومنهم ابن الأبار حسبما يحدثنا فى ترجمته . وقد نشرت شروحه على هامش المقامات مراراً ، وما تزال هى عمدتنا فى فهم غوامضها . وكانت وفاته ببلدته شريش سنة ٦١٩ هـ[٣] .

وعبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعى ، وهو والد ابن الأبار صاحب التكملة ، أصله من أندة وسكن بلنسية ، درس القراءات والأدب ، وكان حسبما يصفه لنا ولده، « مقدما فى حملة القرآن ،

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٩٥ .

(٢) ترجمته فى الذيل والتكلة (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى) .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٨١ ، وفى نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦ .

كثير التلاوة له ، والتهجد به ، ذاكراً للقراءات ، مشاركا فى حفظ المسائل ، آخذاً فيا يستحسن من الأدب معدّلا عند الحكام » . وقد كان أول أساتذة ابنه فى القراءات والأدب ، وقد اطلع على جميع كتبه ، وشاركه فى الأخذ عن معظم شيوخه ، وتوفى بأندة فى ربيع الأول سنة ٦١٩هـ ، وولده المؤرخ يومئذ ببطليوس ، ومولده بأندة سنة ٥٧١ هـ(١) .

— ٣ —

وظهرت من هذه الطبقة التى تجمع بين علوم الدين ، وبين اللغة أو الأدب أو الشعر ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، جمهرة كبيرة أخرى ، ممن نبغوا فى أواخر العصر الموحدى ، وفى خلال عهد الفتنة والانهيار بالأندلس نذكرهم فيا يلى :

كان من هؤلاء عبد الله بن حامد بن يحيى بن سليمان بن أبى حامد المعافرى من أهل مرسية ، درس الحديث على أبى القاسم بن حبيش ، وأبى محمد بن حوط الله وغيرهما من أعلام عصره ، ثم درس العربية وبرع فيها ، وصحب الأديب الكبير أبا بحر صفوان بن إدريس ، وغيره . وكان له حظ من قرض الشعر ، والبراعة فى الكتابة ، وكان فى وقته من رؤساء مرسية وأعيانها . وكانت وفاته فى سنة ٦٢١(٢) .

ومحمد بن يخلفتن بن أحمد بن تنفليت الجنفيسى الفازازى التلمسانى ، نزح من المغرب إلى الأندلس ، ودرس على عدة من الأعلام ، وكان فقيهاً متمكنا ، وأديبا مبرزاً ، وكاتبا بليغا ، وشاعراً محسنا ، ولى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة ، وقيل إنه كان يحفظ صحيح البخارى أومعظمه . وتوفى بقرطبة سنة ٦٢١هـ (٣) .

وأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن . . بن بقى بن مخلد بن يزيد الأموى ، من أهل قرطبة ، ومن أعرق بيوتاتها فى العلم والنباهة ، درس على جمهرة من أقطاب عصره ومنهم ابن بشكوال ، وابن مضاء ، وابن فرقد وغيرهم ، وبرع فى الفقه والحديث والأدب . وتولى قضاء الجماعة بمراكش حينا ، وكذلك خطتى المظالم والكتابة العليا . وكان من أعلم رجالات عصره ، وأوفرهم سراوة وجلالا . وعاش بمراكش معظم حياته ، ثم غادرها إلى الأندلس وولى قضاء قرطبة قبل وفاته بيسير . وكان فوق تضلعه فى الفقه أديبا كبيراً ، وشاعراً مجيداً . وتوفى بقرطبة فى شهر رمضان

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٥ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٧ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٦ .

سنة ٦٢٥ هـ ، ومولده فى سنة ٥٣٧ هـ[(١)] .

واسماعيل بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصارى من أهل إشبيلية ، ويعرف بابن السراج ، درس القراءات والحديث ، ودرس العربية على أبى اسحاق بن ملكون أستاذ عصره فى ذلك الميدان ، وولى قضاء بعض الكور ، وكان عاكفا على عقد الشروط خبيراً بصناعتها . وتوفى بإشبيلية فى حدود سنة ٦٢٥هـ[(٢)] .

وإبراهيم بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدرى من أهل قرطبة . درس الحديث والفقه ، وأخذ العربية عن أبى ذر الخشنى ، وبرع فيها وفى النحو ، وولى قضاء دانية ، ثم صرف عنه لما اضطرمت الفتنة ببلنسية فى سنة ٦٢١ ، وسيق إلى بلنسية ، واعتقل بها وقتا ، ثم أطلق سراحه ، فعبر البحر إلى مراكش . وله مؤلف حسن فى « مسائل الخلاف بين النحويين » ، وولى فى أواخر حياته قضاء سجلماسة ، وتوفى بها سنة ٦٢٧هـ[(٣)]

وثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعى من أهل لبلة بغرب الأندلس ونزل جيان ، ثم سكن غرناطة . درس القراءات والحديث والفقه ، وسمع بقرطبة ، وإشبيلية ، ووادى آش وغيرها ، وأخذ عن عدة من الأقطاب مثل أبى القاسم بن بشكوال ، وأبى بكر بن بيبش ، وأبى بكر بن خطاب ، وأبى الحسن بن كوثر . ودرس العربية والنحو وبرع فيهما . واقرأ القرآن والعربية بجيان وغرناطة ، وبها توفى سنة ٦٢٨ هـ[(٤)] .

وأحمد بن محمد بن عبد اله بن محمد الأزدى ، من أهل لقنت من أعمال مرسية ، عنى بالقراءات والفقه وولى القضاء بجزيرة شقر ، ثم ولى قضاء دانية ، وكان فوق ذلك أديبا ، متحققاً من العربية . وتوفى فى ربيع الأول سنة ٦٢٩هـ[(٥)] .

ومحمد بن جابر بن على بن سعيد الأنصارى من أهل إشبيلية ، ويعرف بالسقطى . درس القرآن والحديث وأخذ فى ذلك عن نجبة بن يحيى ، وأبى الوليد بن نام ، وأبى ذر الخشنى وغيرهم ، ودرس العربية والأدب ، وكان من أهل العناية بالرواية ولقاء الرجال ، رحل إلى شرق الأندلس ، وأخذ عن أبى الخطاب بن واجب وغيره ببلنسية . وكان يقرئ القرآن والعربية ، وقد حُدث عنه . وتوفى بعد سنة ٦٣٠هـ[(٦)] .

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٩٢ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٤٩٥ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٤٤٠ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٦٢٦
(٥) ترجمته فى التكملة رقم ٢٩٧ .
(٦) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٤٦ .

وأحمد بن مليك بن غالب بن سعيد بن عبد الرحمن التجيبي من أهل أبذة ويعرف بابن السقاء . درس القراءات والحديث ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب عصره مثل أبي محمد بن غلبون ، وأبي الخطاب بن واجب ، وابن عات ، وابن بقي وغيرهم ، وأخذ العربية واللغات عن أبي عبد الله بن يربوع وبرع فيها ، وتصدر ببلده للإقراء والتدريس . ولما استولى القشتاليون على أبذة ، غادرها إلى غرناطة واستوطنها ، وتوفي بها بعد سنة ٦٣٠ هـ[1] .

وبسام بن أحمد بن حبيب . . بن شاكر الغافقي ، من أهل جيان ، وسكن مالقة ، أخذ الحديث والفقه عن جماعة من الأقطاب مثل أبي عبد الله بن الفخار ، وأبي جعفر بن مضاء ، وأبي القاسم بن بشكوال وغيرهم ، ودرس العربية والأدب ، وولي قضاء ثغر المنكب وغيره ، وكان له أيضاً حظ من قرض الشعر . توفي بمالقة في شعبان سنة ٦٣١ هـ ، ومولده في سنة ٥٥٧ هـ[2] .

ومن هؤلاء الذين جمعوا بين علوم الدين واللغة والأدب والشعر أحيانا ، جمهرة أخرى ، ظهرت وقت انهيار سلطان الموحدين ، ثم انهيار الأندلس الكبرى ، وسقوط قواعدها ، نذكرهم فيما يلي :

كان من هؤلاء المتأخرين ، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن مطروح التجيبي من أهل بلنسية ، وأصله من سرقسطة . درس القراءات والفقه والعربية والآداب ، وكان من أساتذته أقطاب مثل أبي عبد الله بن نوح ، وأبي ذر الخشني ، وأبي الخطاب بن واجب ، ، وأبي محمد بن حوط الله وغيرهم . وكان فقيها متمكنا عارفا بالأحكام ، من أهل الشورى والفتيا . ولي القضاء بعدة كور من بلنسية ، ثم ولي قضاء دانية ، وكان فوق ذلك أديبا شاعراً ، راوية . وكانت وفاته ببلنسية ، أثناء حصار النصارى لها ، في شهر ذي القعدة سنة ٦٣٥ هـ ومولده سنة ٥٧٤ هـ[3] .

ومحمد بن ابراهيم بن محمد بن عبد الجليل . . بن غالب بن حمدون الأنصاري الخزرجي ، من أهل ألش من عمل بلنسية . أخذ بمرسية وشاطبة عن أقطاب الشرق ، مثل أبي الخطاب بن واجب ، وأبي عمر بن عات ، وأقطاب الغرب مثل أبي القاسم ابن بقي ، وأبي سليمان بن حوط الله ، وأبي القاسم الملاحي ، وغيرهم ، وعني

---

(١) ترجمته في التكملة رقم ٣٠١ .
(٢) ترجمته في التكملة رقم ٦٠٦ .
(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢١١٧ .

بالحديث والفقه أتم عناية ، وكان له حظ من الأدب واللغة . ولى قضاء ألمرية ، وتوفى بغرناطة فى شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ(١).

ومحمد بن على بن خضر بن هارون الغسانى ، من أهل مالقة ، يعرف بابن عسكر ، كان فى مقدمة أعلام عصره فى الفقه واللغة والأدب ، فكان فقيهاً متمكنا ، ماهراً فى عقد الشروط ، وكان حافظا للغة ، أديبا ، وكاتبا بليغا ، وله كذلك حظ من قرض الشعر . ولى قضاء بلده مالقة مرتين . وكتب عدة كتب قيمة فى اللغة والأدب منها كتاب « المشرع المروى فى الزيادة على غريبى الهروى » وكتاب « نزهة الناظر فى مناقب عمار بن ياسر » وكتاب « الجزء المختصر فى السلو عن ذهاب البصر » . وله رسالة فى الزهد عنوانها « ادخار الصبر فى افتخار القصر والقبر » . وتوفى وهو يتولى قضاء مالقة فى جمادى الآخرة سنة ٦٣٦هـ . ومولده فى نحو سنة ٥٨٤هـ(٢).

وابراهيم بن محمد بن ابراهيم ، من أهل بطليوس ، ونزح إلى إشبيلية ، ويعرف بالأعلم . درس القرآن والحديث والعربية ، وبرع فيها ، وتصدر لإقرائها . وله شروح قيمة فى كتب الإيضاح والجمل ، والكامل ، والأمالى ، وغيرها . وألف أيضاً كتابا فى « آداب أهل بطليوس » . وتوفى فى سنة ٦٣٧(٣).

واسماعيل بن سعد السعود بن أحمد بن هشام . . بن عفير الأموى ، من أهل لبلة ، وسكن إشبيلية ، وينتسب إلى موالى بنى أمية ، عنى بالحديث والفقه ودرس بقرطبة ، وأخذ بها عن أبى بكر بن خير ، وابن بشكوال ، وابن فرقد ، وغيرهم ، وكان فقيهاً متمكنا ، ولى قضاء مراكش أيام الفتنة . ثم صرف عنه وعاد إلى إشبيلية . وكان فى نفس الوقت أديبا بارعا ، وتوفى سنة ٦٣٧(٤) .

ومحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن خميس الجمحى ، من أهل قسنطانة من عمل دانية ، درس الحديث والفقه ، وصحب أبى عبد الله بن نوح ولازمه ، وكتب للقضاة ، ثم ولى قضاء بلنسية أيام الفتنة . وكان فوق براعته فى الفقه ، أديبا متمكنا له حظ من قرض الشعر ، بصيراً فى الأحكام وعقد الشروط ، ثم غادر بلنسية مصروفا عن القضاء ، وقدم إلى قضاء شاطبة . وكان من أساتذة ابن الأبار . وتوفى بشاطبة فى صفر سنة ٦٣٩ هـ(٥).

---

(١) ترجمته فى التكلة رقم ١٦٦٠ .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٦٦١ .
(٣) ترجمته فى التكلة رقم ٤٤٧ .
(٤) ترجمته فى التكلة رقم ٤٩٦ .
(٥) ترجمته فى التكلة رقم ١٦٣٨ .

وسهل بن محمد سهل بن ملك الأزدرى من أهل غرناطة . أخذ ببلده عن أبى عبدالله بن عروس، وأبى الحسن بن كوثر ، وعبد المنعم بن الفرس ، وأخذ بمالقة عن أبى عبد الله بن الفخار ، وبإشبيلية عن أبى بكر بن الجد وأبى عبد الله بن زرقون وأبى العباس بن مضاء وأبى الوليد بن رشد ، وأخذ عن غيرهم من أقطاب العصر. وبرع فى الفقه والأصول والعربية ، وكان كاتبا مقتدراً وشاعراً محسنا . نفى من وطنه غرناطة إلى مرسية بسعى بعض خصومه، وبقى بها حتى توفى المتوكل ابن هود بألمرية فى سنة ٦٣٥ هـ ، فعندئذ سرح إلى بلده . وقد صدر عنه كثير من النثر والنظم الجيد ، وصنف فى العربية كتابا رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيبويه . ولد سنة ٥٥٩ هـ ، وتوفى بغرناطة سنة ٦٣٩ هـ(١).

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن على بن اسماعيل بن عمر الأنصارى الأوسى الضرير ، من أهل قرطبة، ويعرف بابن الصفار . أخذ عن أبى القاسم بن بشكوال ، وأبى بكر ابن الجد، وأبى عبد الله بن زرقون، وابن مضاء ، وأبى ذر الخشنى ، وغيرهم من أعلام العصر ، وبرع فى القراءات والحديث . ورحل إلى المشرق وأخذ عن بعض أقطابه ، ثم عاد إلى المغرب ، وسكن مراكش ، وكان يقرئ العربية والآداب ، ويسمع الحديث ، واستقر أخيراً بمدينة تونس ، وبها توفى سنة ٦٣٩ هـ(٢) .

وعلى بن ابراهيم بن على بن عبد الرحمن المعروف بابن الفخار من أهل أركش ، درس الحديث والفقه على جماعة من أهل عصره مثل ابن الغزال وابن زرقون وغيرهما ، وكان حافظاً متقناً ، ذاكراً لأسماء الرجال وأحوالهم ، بارعاً فى الفقه والأدب، وكان على قول ابن عبد الملك « أعجوبة زمانه فى حضور الذكر للملك كله »، وكان مشاركاً فى النظم . تولى القضاء برندة والجزيرة الخضراء وغيرهما ، وتوفى بشريش فى صفر سنة ٦٤٢ هـ(٣) .

وأحمد بن محمد بن القيسى من أهل قرطبة ، ويعرف بابن أبى حجة . أخذ عن أقطاب عصره ، وفى مقدمتهم ابن بشكوال ، وابن مضاء ، وأبى العباس المجريطى ، وبرع فى علوم القرآن والعربية ، وتصدر لاقرائها . وله عدة تآليف ، منها كتاب منهاج العبادة ، وكتاب تفهيم القلوب فى آيات علام الغيوب ، وكتاب

(١) ترجمة فى الذيل والتكلة (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيرى) .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٦٦٨ .
(٣) ترجمته فى الذيل والتكلة (السفر الرابع من مخطوط المتحف البريطانى) .

تسديد اللسان لذكر أنواع البيان ، وغيرها . ولما سقطت قرطبة فى أيدى النصارى غادرها إلى إشبيلية ، وسكن بها حينا ، ثم غادرها متجها إلى ميورقة ، وأسرته الروم فى البحر ، وامتحن بالتعذيب ، وتوفى على أثر ذلك بميورقة فى سنة ٦٤٣هـ[١].

وأحمد بن محمد بن وهب البكرى من أهل شاطبة ، أخذ عن ابن نوح وابن عات وغيرهما ، وبرع فى الفقه والعربية ، ومهر فى عقد الشروط . وغادر شاطبة عند إجلاء النصارى لأهلها المسلمين ، وذلك فى سنة ٦٤٥ هـ ، وقصد إلى أوريولة ، وهناك توفى فى أواخر هذا العام[٢] .

وأحمد بن على بن أحمد . . بن عبد الله الأنصارى من أهل قرطبة ، درس الفقه والأدب بقرطبة وإشبيلية وجيان ، وولى الأحكام ببعض الكور ، وعنى بعقد الشروط ، وكتب لوالى قرطبة وقتا . ولما سقطت قرطبة فى أيدى النصارى غادرها ، وعبر البحر إلى تونس ، ونزل بها . وكان يقرئ بها اللغة والأدب ، وممن أخذ عنه بها ابن الأبار ، وكان قد استقر بها كذلك . ثم قصد إلى المشرق لتأدية فريضة الحج ، ولكنه توفى بقوص وذلك فى رجب سنة ٦٤٦ هـ[٣] .

وعبد الله بن قاسم بن عبد الله بن محمد بن خلف اللخمى من أهل إشبيلية ويعرف بالحرار وبالحريرى . أخذ عن أبى الحسن الشقورى ، وأبى محمد بن حوط الله وأبى القاسم الملاحى ، وابن زرقون ، وابن عات ، وغيرهم من الأقطاب . وبرع فى الحديث ، والأدب ، وقرض الشعر . وله عدة مؤلفات منها ، « حديقة الأنوار » وهو فى تذييل « اقتباس الأنوار » فى الأنساب للرشاطى ، وكتاب « المنهج الرضى ، فى الجمع بين كتابى ابن بشكوال وابن الفرضى » . وكانت وفاته بإشبيلية خلال حصار النصارى لها فى أوائل سنة ٦٤٦هـ ، ومولده بجزيرة شقر ، بلد أسلافه فى سنة ٥٩١ هـ[٤] .

ومحمد بن محمد بن أحمد . . بن سليمان الزهرى ، من أهل بلنسية ، ويعرف بابن محرز ، درس على جماعة من أقطاب الشرق ، مثل أبى عبد الله بن نوح ، وأبى بكر بن جمرة ، وأبى العطاء بن نذير ، وغيرهم ، وكان متمكنا من الحديث والفقه والأدب واللغة وحفظ الغريب ، وله شعر رائق . ولما استولى النصارى على بلنسية ، عبر البحر إلى إفريقية ، ونزل ببجاية ، واستوطنها وأخذ يقرئ بها

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٣٠٧ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٠ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٢ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٢١ .

الحديث والفقه واللغة . وكانت له بين علمائها مكانة رفيعة ، وبها توفى فى سنة ٦٥٥ هـ . ومولده سنة ٥٦٩ هـ[1] .

ومحمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن المفرح الأوسى المعروف بابن الدباغ الإشبيلى ، برع فى الفقه ، وكان أوحد عصره فى حفظ مذهب مالك ، وفى عقد الوثائق ، وكان فى الوقت نفسه ، عارفا بالنحو واللغة ، أديبا بارعا ، مشاركا فى النظم والتاريخ . انتقل إلى غرناطة ولبث يقرئ بجامعها حينا ، وتوفى فى سنة ٦٦٨ هـ[2] .

• • •

وازدهرت فى هذا العصر ، الذى توالت فيه المحن على الأندلس ، ومالت شمسها إلى الغروب ، حركة التصوف ، وظهر عدة من أكابر المتصوفة نذكرهم فيما يلى :

كان من هؤلاء أحمد بن عمر المعافرى من أهل مرسية ، وأصله من طبيرة من ولاية الغرب ، ويعرف بابن إفرنلو ، أخذ عن أبى على بن سكرة ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى محمد الرُّشاطى وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، وأخذ عن بعض أقطابه ، ومنهم بعض أصحاب الإمام الغزالى . وكان محدثاً حافظا ، ومال إلى الزهد والتصرف ، وأخذ عنه بعض أعلام العصر ، مثل أبى الخطاب بن واجب وغيره . ولم نقف على تاريخ وفاته[3]

ومنهم ابراهيم بن محمد بن خلف بن سوار بن أحمد بن حزب الله ، بن أبى العباس بن مرداس السلمى من أهل بلفيق من أعمال المرية ، وبها ولد ونشأ ، ويعرف بابن الحاج . درس القراءات والحديث ، وأخذ فى ذلك عن أبى محمد البسطى الخطيب ، وابن كوثر ، وابن عروس ، وابن أبى زمنين وغيرهم . وكان فوق براعته فى علوم السنة ، مشاركا فى الأدب ، ومال إلى التصوف ، وشغف به ، وأقبل الناس إليه من كل صوب ، وكثر الازدحام عليه ، فنفاه الوالى إلى المغرب ، وتوفى بمراكش فى جمادى الآخرة سنة ٦١٦ هـ[4] .

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربى المعافرى ، من أهل إشبيلية ومن بيت القاضى أبى بكر بن العربى ، درس بإشبيلية وقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، فأخذ عن أبى طاهر السلفى بالإسكندرية ، ورحل إليه ثانية ، ودخل الشأم ،

---

(١) ترجمته فى التكلمة رقم ١٦٩٢ ، وفى عنوان الدراية للغبرينى ص ١٧٠ – ١٧٣ .
(٢) ترجمته فى الإحاطة – مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ١٠٧ .
(٣) ترجمته فى التكلمة رقم ١٩٠ .
(٤) ترجمته فى التكلمة رقم ٤٣٤ .

والعراق وبغداد ، وأخذ عن أكابر علمائها ، وجاور بمكة ، وسمع الحديث من أكابر حفاظها . وعاد من رحلته الثانية إلى إشبيلية سنه ٦٠٤ ﻫ ، وأخذ عنه الطلاب عندئذ بإشبيلية وقرطبة . ثم رحل إلى المشرق للمرة الثالثة سنة ٦١٢ ، وجاور بالحرمين عدة أعوام ، وحج مراراً ، وسلك طريقة التصوف ، وغلب عليه الزهد ، وتوفى فى طريق العود ، بثغر الإسكندرية سنة ٦١٧ﻫ(١) .

ومن أشهرهم وأبعدهم صيتاً ، جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه الخزاعى العابد ، من أهل قسطانة من عمل دانية . درس القراءات والحديث ، وأخذ عن ابن هذيل ، وابن النعمة ، ورحل إلى المشرق ، فأدى فريضة الحج ، ودخل الإسكندرية فسمع السلفى ، ثم عاد إلى بلده ، ولزم العزلة والزهد ، والإعراض عن الدنيا ، وسلك طريقة التصوف ، وكان شيخ المتصوفة بالأندلس فى وقته ، وعلا صيته ، وذاع ذكره ، فى الزهد والورع ، وتوفى عن نحو مائةعام فى شهر ذى العقدة سنة ٦٢٤ﻫ ، ولبث قبره حينا مزارا يتبرك بهالناس(٢) .

ومنهم محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنصارى بن أهل بلنسية ، وأصلهم من قلعة أيوب بالثغر الأعلى . درس القراءات والفقه والعربية والآداب ، وأخذ عن أبى العطاء بن نذير ، وأبى عبد الله بن نوح ، وأبى الخطاب ابن واجب وغيرهم . وعنى لأول أمره بعقد الشروط ، ثم اعتزل الحياة وتزهد، وانقطع للعلم والعبادة ، وتصدر لإقراء التفسير بجامع بلنسية ، وغلب عليه التصوف . وألف كتاب « نسيم الصبا » فى الوعظ، وكتاب « النفوس الزكية فى فى الخطب الوعظية » ، وكان من أساتذة ابن الأبار ، أخذ عنه وكتب عنه بعض كتبه . ولما وقع حصار النصارى لبلنسية ، وجهه أمرها إلى مرسية لاستنهاض هم أهلها . وتوفى بأوريولة فى رجب سنة ٦٤٠ ﻫ(٣) .

ومحمد بن مفضل بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن مهيب اللخمى ، أصله من طبيرة من أعمال الغرب ، وسكن ألمرية . كان فقيهاً وأديبا وشاعراً ، مائلا إلى التصوف ، ولى الخطبة بقصبة ألمرية حيناً ، ثم نزح إلى تونس ، ثم إلى سبتة وبها توفى سنة ٦٤٥ ﻫ ، ومن مؤلفاته كتاب « الجواهر الثمينة »(٤) .

ونختم هذا الثبت القصير من متصوفة الأندلس فى أواخر العهد الموحدى ،

---

(١) ترجمته فى التكلمة رقم ١٥٩٣ .
(٢) ترجمته فى التكلمة رقم ٦٤٣ .
(٣) ترجمته فى التكلمة رقم ١٦٧١ .
(٤) ترجمته فى التكلمة رقم ١٦٨٢ .

بذكر قطبهم الأكبر الشيخ محيي الدين الطائي ، الذى يعتبر شيخ المتصوفة على الإطلاق . وهو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الشيخ محيي الدين الطائى الحاتمى ، ويكنى أبا محمد وأبا بكر ، ويعرف بابن عربى تميزاً له من العلامة أبى بكر بن العربى. ولد فى شهر رمضان سنة ٥٦٠هـ بمدينة مرسية، وسكن إشبيلية وقتا ، وأخذ بمرسية عن أشياخها ، ومنهم ابن بشكوال ، وكان يقيم بها يومئذ ، وعبر إلى المغرب ونزل بجاية فى رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، وأخذ عن أشياخها ، ثم رحل إلى المشرق حاجا ، فأدى الفريضة ، ولم يرجع بعدها إلى وطنه ، وسمع بمكة وبغداد ودمشق ، ودرس الحديث ومال إلى التصوف ، وشغف به ، حتى ملك عليه كل جوارحه ، وكان ظاهرى المذهب ، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبى طاهر السلفى . واشتهر ابن عربى ، بانقطاعه إلى التصوف وتبحره فى مذاهبه وطرائقه، حتى وصفه بعض مترجميه « بالبحر الزاخر فى المعارف الإلهية »، وله ثبت حافل من المؤلفات الجليلة التى تدل على غزير علمه وسمو معارفه ، نذكر منها « الفتوحات المكية » وهو مؤلف ضخم يعالج فيه طرائق الصوفية علاجا شاملا ، « والتدبيرات الإلهية » « وفصوص الحكم » ، «وتاج الرسائل ومنهاج الوسائل » « وكتاب العظمة » ، « والمتجليات» « ومفاتيح الغيب »، وكتاب الحق، ومراتب علوم الوهب، والأعلام بإشارات أهل الإلهام ، والعبادة والخلوة ، والمدخل إلى معرفة الأسماء ، وأسرار الخلوة ، وعقيدة أهل السنة ، وناصحة النفس واليقين ، ومشكاة الأنوار ، وكثير غيرها . وقد ذكر منها صاحب فوات الوفيات أكثر من خمسين مؤلفا . وكان ابن عربى يجاهر بكثير من الآراء الحرة التى تؤخذ عليه أحيانا ، وتعتبر من ضروب الإلحاد ، حتى أنه حينما كان بمصر ، وصدرت عنه تلك الآراء أو الشطحات كما كان يصفها ابن عربى، اشتد العلماء المصريون فى محاسبته، ورموه بالإلحاد والكفر ،وطالبوا بإهدار دمه ، لولا أن شفع له بعضهم ونجا من تلك المحنة . وكان ابن عربى آية فى الذكاء والحافظة وسرعة الخاطر ، فصيحا ، بارع البيان ، وعلى الجملة فقد كان قطبا من أعظم أقطاب عصره، وكان صيته يطبق أنحاء المشرق والمغرب. وتوفى ابن عربى فى دمشق فى نحو الثمانين من عمره ، وقد اختلف فى تاريخ وفاته ، فذكر صاحب فوات الوفيات أنه توفى فى الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٣٨هـ . وذكر ابن الأبار أنه توفى بعد الأربعين وستمائة .

وعنى كثير من أكابر المستشرقين بدراسة حياة ابن عربى وتراثه، ومن هؤلاء آسين بلاثيوس ، وجولد سيهر ، ومكدونالد .

وكان ابن عربى ، فوق براعته فى التصوف، شاعراً جزلا ينظم الشعر الرقيق الجيد ، ومن ذلك قوله فى التعبير عن الشوق :

سلام على سلمى ومن هل بالحمى ... وحق لمثلى رقة أن يسلما
وماذا عليها أن ترد تحية ... علينا ولكن لا احتكام على الدمى
سروا وظلام الليل أرخى سدوله ... فقلت لها صبا غريبا متيما
فأبدت ثناياها وأومض بارق ... فلم أدر من شق الحنادس منهما
وقالت أما يكفيه أنى بقلبه ... يشاهدنى من كل وقت أما أما

وقوله :

درست عهودهم وإن هواهم ... أبدا جديد فى الحشا ما يدرس
هذى طلولهم وهذى الأدمع ... ولذكرهم أبدا تذوب الأنفس
ناديت خلف ركابهم من حبهم ... يا من غناه الحسن ها أنا مفلس
يا موقدا نارا رويدا هذه ... نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا(١)

(١) راجع فى ترجمة ابن عربى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤١ — ٢٤٣ ، والتكلة لابن الأبار رقم ١٦٧٣ ، وعنوان الدراية للغبرينى (طبع الجزائر ١٣٣٨ هـ) ، ص ٩٧ — ٩٩ .

الفصل الثالث

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العصر الموحدى

القسم الثانى

علماء اللغة والنحو والأدب . ابن سمحون الأنصارى . عبدالرحمن بن محمد السلمى . داود بن يزيد السعدى . ابن طاهر الأنصارى النحوى . ابن ملكون الحضرمى . عبد الله بن محمد بن عبيد البكرى . سليمان الحضرمى النحوى . أبو ذر الخشنى . ابن خروف . ابن سعدون الأزدى . ابن وهب البكرى . ابن البرذعى . ابن عامر الجزيرى . أبوعلى الشلوبين . نهضة الشعر الأندلسى خلال العصر الموحدى . أثر المحنة فى اضطرابه . ابن حبوس . ابن أبى العافية الأزدى . ابن مغاور . ابن غلبون . ابن غالب البلنسى الرصافى . شىء من شعره . ابن عياض القرطبى . أبو بحر صفوان بن إدريس التجيبى . محمد ابن أحمد الصابونى . ابن المناصف . ابن حريق . محمد بن ادريس مرج الكحل ، شىء من شعره . ابن حزمون . ابراهيم بن سهم الإشبيلى . شىء من شعره . أحمد بن محمد بن حجاج اللخمى . أبو العباس الجراوى . أبو بكر بن مجبر . أعلام الكتاب فى العصر الموحدى . أبو القاسم بن خيرة المواعينى . ابن هرودس ابن سعد الخير الأنصارى . الحسن بن حجاج الهوارى . أبو الفضل بن محشرة . الرحالة ابن جبير . بنو عياش . أبو الحسن بن عياش . محمد بن عبدالعزيز بن عياش . أبوالحسن على بن عياش . أحمد بن عبد العزيز بن عياش . عزيز بن عبد الملك بن خطاب . أبو عبد الله بن الجنان . أحمد بن محمد القضاعى البلوى . ابن هيصم الرعينى . أبو المطرف بن عميرة المخزومى . الرواة والمؤرخون فى العصر الموحدى . صلة ابن بشكوال ثم تكملة ابن الأبار ثم الذيل والتكملة ، ثم صلة الصلة . عبد الملك بن صاحب الصلاة . عبد الواحد المراكشى . ابن مدرك الغسانى . أحمد بن محمد الأزدى . أبو القاسم الملاحى . عيسى بن سليمان الرعينى . ابن قسوم اللخمى . ابن الأبار القضاعى . آثاره وتراثه . ابن سعيد الأندلسى . ابن فرتون السلمى . ابن عذارى المراكشى . ابن القطان . ابن الزبير . ابن عبد الملك المراكشى .

استعرضنا فى الفصل السابق طائفة كبيرة من أعلام الفكر الأندلسى ، ممن نبغوا فى العلوم الدينية ، ومن جمعوا بينها وبين اللغة والأدب ، ومن برزوا فى ميدان التصوف ، خلال العصر الموحدى ، وهم حسبما بينا فيما تقدم ، الكثرة الغالبة فى ميدان التفكير الأندلسى فى ذلك العصر ، الذى قدر أن تجوز فيه الأندلس محنتها الكبرى ، بانهيار صرحها القديم الشامخ ، وسقوط معظم قواعدها الكبرى ، فى يد اسبانيا النصرانية .

ونريد الآن أن نستعرض بقية أعلام الفكر الأندلسى فى تلك الحقبة ممن ظهروا فى ميادين التفكير الأخرى .

— ١ —

ونبدأ فى ذلك بذكر طائفة من علماء اللغة والنحو والأدب وما إليها ، وهم ليسوا من الناحية العددية كثرة تلفت النظر ، ولكن ظهرت منهم شخصيات بارزة ، لاتقل عن مثيلاتها فى أى عصر ، من عصور النهضة والاستقرار .

كان من هؤلاء ، أحمد بن بن محمد القيسى ، من أهل جيان ويعرف بالفنلرى . درس ببلده ، ثم نزح إلى مرسية ، ودرس بها الآداب والعربية ، وبرع فيها ثم انتقل إلى بلدة ألش من أعمالها ، واستقر بها وقتا ، وكانت له إلى جانب ذلك مشاركة فى علم الطب ، وتوفى بمرسية فى شهر ربيع الأول سنة ٥٥٩ هـ[1] .

وأبو بكر بن سليمان بن سمحون الأنصارى ، من أهل قرطبة ، درس القراءات والعربية والآداب ، وبرع فى علم النحو حتى فاق سائر أقرانه ، وكان يوصف بأنه أعلم معاصريه بالنحو ، وكان يدرس العربية ، وله مشاركة فى علم الحساب ، وأخذ عنه عدة من أعلام عصره ، مثل أبى جعفر بن مضاء ، وأبى محمد عبد الحق بن محمد الخزرجى ، وأبى القاسم بن بقى ، وتوفى بقرطبة سنة ٥٦٣ هـ[2] .

وعبد الرحمن بن محمد السلمى من أهل شرق الأندلس ، وبه نشأ ، ويعرف بالمكناسى . درس على أقطاب صقعه ، وبرع فى الآداب واللغات ، ومعرفة أيام العرب ورجالها ، وكان كاتبا جيد النظم ، مقتدرا فى إنشاء الرسائل اللزومية ، وله منها طائفة جليلة . وتوفى بمراكش سنة ٥٧١ هـ[3] .

وداود بن يزيد بن عبد الله السعدى النحوى ، من أهل قلعة يحصب من عمل غرناطة ، درس بغرناطة وأخذ بها عن أبى الحسن بن الباذش ، واختص به ، ثم رحل إلى قرطبة فسمع من أقطابها ، وكان أستاذ النحويين فى وقته ، وكان ممن أخذ عنه أعلام ، مثل أبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى الحسن بن خروف ، وأبى القاسم الملاحى ، وتوفى عن سن عالية فى سنة ٥٧٣ هـ[4] .

وعبد الله بن أحمد بن على بن قرشى الحجرى ، من أهل قرطبة ، ونشأ

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٨ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٥٩١ .

(٣) نقلنا ترجمته من أوراق مخطوطة من صلة الصلة لابن الزبير عثرنا عليها بمكتبة القرويين .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٨٥٥ .

بشرق الاندلس ، وأخذ عن أبي الحسن بن النعمة ، وأبي الوليد بن الدباغ ، وأبي عبد الله بن سعادة ، ومهر فى صناعة العربية والآداب ، وضبط اللغات ، وتصدر لإقرائها زمنا. وكان له إلى جانب ذلك حظ من النثر والنظم . وتوفى بقرطبة سنة ٥٧٥ هـ(١).

ومحمد بن أحمد بن طاهر الأنصارى النحوى ، من أهل إشبيلية . درس العربية على أبي القاسم بن الرماك ، وأبي الحسن بن مسلم ، وبرع فيها ، وتفوق على أقران عصره ، وعكف على تدريسها فى مختلف البلاد . ودخل مدينة فاس محترفاً للتجارة ، فرغب إليه أهلها فى الإقراء ، فاستجاب إليهم ، وأقام بها وقتا ، ثم رحل إلى المشرق ودرس بمصر وحلب والبصرة ، وعاد بعد أداء الفريضة فنزل مدينة بجاية ، وله تعليق جيد على كتاب سيبويه سماه « بالطرر » . وكان ممن أخذ عنه أقطاب مثل أبي ذر الخشنى ، وأبي الحسن بن خروف ، وغيرهما . وتوفى ببجاية سنة ٥٨٠ هـ(٢) .

وابراهيم بن محمد بن منذر بن أحمد بن سعيد بن ملكون الحضرمى النحوى ، من أهل إشبيلية ، أخذ بها عن أقطاب العصر ، مثل أبي مروان الباجى ، وشريح ابن محمد ، وأبي الوليد بن حجاج ، وأبي القاسم بن الرماك ، وبرز فى علم العربية والآداب ، ومهر فيها ، وقام على إقرائها ، وكان ممن أخذ عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف وعدة من الجلة ، وله فى اللغة والنحو عدة مؤلفات قيمة منها « إيضاح المنهج » وقد جمع فيه بين كتابى ابن جنى ، ووضع شرحا لكتاب الجمل للزجاجى ، وشرحا آخر لكتاب التبصرة للصميرى وغيرها . وتوفى بإشبيلية سنة ٥٨١ هـ(٣).

وعبد الله بن محمد بن أبي عبيد بن عبد العزيز البكرى ، من أهل قرطبة ، وأصلهم من لبلة ، ومن سادة جزيرة شلطيش أيام الطوائف ، وجده أبو عبيد البكرى ، وهو العلامة الجغرافى اللغوى الشهير صاحب المسالك والممالك ، ومعجم ما استعجم . ونبغ عبد الله كجده فى اللغة والآداب وغريبها ، وأخذ على أبي عبدالله ابن مكى ، وأبي جعفر البطروجى ، وأبي بكر بن عبد العزيز وغيرهم . وأخذ عنه الجلة مصنفات جده ، وكانت وفاته بقرطبة فى جمادى الأول سنة ٥٨١هـ ، ومولده فى سنة ٥٠٧ هـ(٤) .

ولب بن عبد الله بن لب بن أحمد الرُّصافى ، نسبة إلى رُصافة بلنسية ، أخذ

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٦٠ .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٤٧ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٤٠٦ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٧١ .

العربية عن أبي الحسن بن النعمة وغيره ، وبرع فيها ، وقام بتعليمها ، وبرع كذلك في النحو ، وكان قائما على شرح ابن بابشاذ لجمل الزجاجي ، وأخذ عنه كثير من شيوخ عصره . وتوفي نحو سنة ٥٩٠ هـ(١) .

وجابر بن محمد بن نام بن أبي أيوب ، ويعرف بسليمان الحضرمي النحوي ، من أهل إشبيلية . عني بالحديث والرواية ، ثم درس العربية على أبي القاسم ابن الرماك ، وأبي الحسن بن مسلم ، وبرع فيها وغاص على دقائقها وأسرارها ، وتصدر لإقرائها ، ولم يكن في وقته بإشبيلية أقدر منه على شرح كتاب سيبويه ، وتوفي سنة ٥٩٦ أو ٥٩٧ هـ(٢) .

ومصعب بن محمد بن مسعود الخشني ، من أهل جيان ، ويكنى بأبي ذر ، ويعرف بابن أبي ركب ، درس العربية والآداب واللغات بالأندلس والمغرب دراسة مستفيضة ، وكان في مقدمة أساتذته العلامة النحوي أبو اسحاق بن ملكون . وبرع في العربية وتبوأ رياستها في عصره ، وقصده ، الطلاب من كل صوب للأخذ عنه ، هذا مع مشاركته في الآداب واللغات ، وقرض الشعر . ولي الخطبة بجامع إشبيلية وقتا ، وكان يقرئ العربية بمسجد ابن الرماك ، ثم ولي قضاء جيان ، واستوطن في أواخر حياته مدينة فاس . وتصدر بها لإقراء العربية ، وله تأليف في « شرح غريب السير لأبي اسحاق » ، ورسالة في العروض . وتوفي بمدينة فاس في شهر شوال سنة ٦٠٤ هـ(٣) .

وعلي بن محمد بن علي بن خروف الحضرمي النحوي من أهل إشبيلية ، ويعرف بابن خروف . درس الكلام والأصول ، وأخذ عن أبي مروان بن قزمان ، وأبي إسحاق بن ملكون ، وداود بن يزيد السعدي ، وبرع في العربية ، وانقطع لها ، وأصبح من أئمتها البارزين ، وتصدر لإقرائها طول حياته ، بإشبيلية وقرطبة ورندة ، وبالمغرب بفاس وسبتة . ورحل إلى المشرق ، وأقام مدة بحلب . وتفوق بالأخص في شرح كتاب سيبويه ، وأخذه عنه جمهرة من الحلة . وألف شرحه المشهور عليه ، ويقال إنه حمل منه نسخة إلى الخليفة الناصر بمراكش ، فوصله عنها بألف دينار ، وألف كذلك شرحا لكتاب الجمل للزجاجي ، وكانت له مشاركة في علم الفرائض وفي القراءات . وكان ذا أسلوب بارع في الدرس والمحاضرة والمناظرة .

---

(١) ترجمته في التكملة رقم ٩٤٦ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٦٥٥ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٧٨٥ .

وأخذ عنه ولازمه كثير من شيوخ العصر . وتوفى بإشبيلية سنة ٦٠٩ هـ(١).

وأحمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك الأموى ، أصله من أهل يابرة ، ونشأ بإشبيلية ، أخذ العربية عن أخيه أبى بكر بن طلحة ، وغيره ، وبرع فى الأدب والنحو والعروض، وله فى ذلك تآليف وأخذ عنه .وتوفى فى نحو سنة ٦٢٠هـ(٢).

وعبد الله بن محمد بن عبد العزيز . . بن سعدون الأزدى ، من أهل بلنسية، درس العربية والآداب ومهر فيها ، وكان من أهل المعرفة الكاملة بها وبفنونها، مبرزاً فى العربية واللغة ، متقنا ، متحققا ، بديع الخط ، وكان إلى جانب ذلك بارع النظم والنثر ، وكتب عن بعض الرؤساء . وتوفى فى آخر سنة ٦٢٢هـ (٣)

وأحمد بن محمد بن وهب البكرى ، من أهل شاطبة ، أخذ عن عدة من أقطاب عصره مثل ابن نوح وابن عات وغيرهما . ومهر فى صناعة العربية ، إلى جانب مشاركته فى حفظ المسائل ، وعقد الشروط . قال ابن الأبار : « وكان صاحبا لأبى رحمه الله ، اشتركا فى الأخذ عن ابن نوح ، وانفرد هو بالأخذ عن أبى بكر ابن عتيق » . وغادر موطنه شاطبة حينما قام النصارى بإجلاء أهلها عنها بعد نقض هدنتهم وذلك فى رمضان سنة ٦٤٥ هـ ، وتوفى على أثر ذلك بمدينة أوريولة(٤).

ومحمد بن يحيى بن هشام بن عبد الله بن أحمد الأنصارى الخزرجى ، من أهل الجزيرة الخضراء ويعرف بابن البرذعى ، درس القراءات والعربية ، وأخذ العربية عن أبى ذر الخشنى ، وأبى الحسن بن خروف ، وأبى على الرندى وغيرهم ، وأخذ كذلك عن القاضى ابن رشد ، وأبى الحسن بن الصائغ ، وأبى محمد بن حوط الله وأخيه ، وأبى على الشلوبين وغيرهم ، وكان إماما فى صناعة العربية منقطعا إليها ، مقدما فيها ، وكان أستاذه الشلوبين يثنى عليه ، ويشهد بتفوقه فيها ، وله فيها عدة مؤلفات منها ، « كتاب الإفصاح بفوائد الإيضاح » « وكتاب فصل المقال فى تلخيص أبنية الأفعال » ، وكتاب « غرة الإصباح فى شرح أبيات الإيضاح » . وكان يشارك أيضاً فى فنون شتى . ونزح فى أواخر حياته إلى تونس ، وهنالك لقيه ابن الأبار وأخذ عنه . وتوفى بتونس

---

(١) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير رقم ٢٤٥ ، وفى فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٠ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك (الجزء الأول من مخطوط الرباط المصور) .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٨٣ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١١٠ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٣١٠ .

فى شهر جمادى الأخرى سنة ٦٤٦ هـ[١]

وإدريس بن محمد بن موسى الأنصارى ، من أهل قرطبة ، أخذ عن أبى جعفر بن يحيى الخطيب ، وأبى محمد بن حوط الله ، ومال إلى العربية والآداب ، وبرع فيها ، وتصدر لإقرائها بقرطبة ، إلى أن تملكها القشتاليون فى سنة ٦٣٣ هـ ، فغادرها وعبر البحر إلى سبتة ، واستأنف بها الإقراء ، وكانت له مشاركة فى النظم والنثر ، وتوفى سنة ٦٤٧ هـ[٢] .

والحسن بن أحمد بن الحصين بن عطاف العقيلى ، من أهل جيان ، أخذ عن أبيه وغيره من أشياخ بلده ، وبرع فى اللغة والأدب ، وكانت جيان من مناطق التفوق فى دراسة العربية ، وله شرح فى « مقصورة ابن دريد » . ولم تذكر لنا تاريخ وفاته[٣] .

ومحمد بن محمد بن مخلد النحوى ، من أهل شاطبة ، درس العربية وبرع فيها ، ثم انتقل من بلده إلى غرب الأندلس . وله كتاب فى شرح « الجمل للزجاجى » ولم تذكر لنا تاريخ وفاته[٤] .

وموسى بن على بن عامر من أهل إشبيلية يعرف بالجزيرى ، لأن أصله من من الجزيرة الخضراء ، درس القراءات والحديث والعربية ، ومهر فى العربية وكان عمدة فى النحو فى عصره ، يؤخذ عنه ، ويؤثر به . وله شرح فى كتاب « لحن العامة » للزبيدى ، وشرح لكتاب « التبصره » للصميرى ، وكتاب آخر عنوانه « الاستيضاح فى شرح الإيضاح » ولم نعثر كذلك على تاريخ وفاته[٥] .

ونختتم هذا الثبت من علماء اللغة والنحو بذكر أمامهم وقطبهم الأكبر فى ذلك العصر ، وهو العلامة عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدى الإشبيلى ، أبو على الشلوبين — قال ولده إنه سمى بالشلوبين ، لأنه كان أشقر أزرق ، وكان خبازاً . ودرس الشلوبين القراءات والآداب واللغات وأخذ بقسط من رواية الحديث ، وروى عن جمهرة من أقطاب عصره مثل ابن بشكوال ، وأبى بكر بن زهر ، وأبى محمد بن بونه ، وأبى زيد السهلى ، وابن مضاء ، وابن حبيش ، وابن كوثر وغيرهم . ولكن غلبت عليه دراسة العربية ونبغ فيها حتى غدا إمامها الذى لايبارى ، وتصدر لإقرائها بإشبيلية دهراً ، وكانت تشد إليه الرحال من سائر

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٥٢٢ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٨٤ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٢ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٤٨ .
(٥) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٣٦ .

الآفاق للأخذ عنه، والتضلع عليه، وذاع صيته فى سائر أنحاء الأندلس والمغرب، وكان أمام العربية بالمشرق والمغرب دون مدافع ، وكان ذا معرفة بنقد الشعر وغيره ، بارعا فى التعليم والإلقاء ، أخذ عنه كثير من الجلة مثل القاضى أبى عبدالله ابن عياض ، وأبى العباس الأزدى ، وأبى بكر بن رشيق ، وأبى عمر بن حوط الله وغيرهم . وكان منقطعاً بإشبيلية إلى ابن زهر . عبر البحر إلى مراكش أيام المنصور ، وعاد إلى بلده ، وكرس حياته للعربية ، وقد لبث يقرئها زهاء ستين عاما ، وله شرح للكراسة المنسوبة للجزولى ، وألف كتاب التوطئة ، إتماما للكراسة المذكورة . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ هـ ، وتوفى بها فى أواخر صفر سنة ٦٤٥هـ ، أثناء حصار القشتاليين إياها(١) .

— ٢ —

ازدهر الشعر خلال العصر الموحدى بالأندلس والمغرب معا ، وكان الخلفاء الموحدون يتذوقون الشعر الجيد ، ويقدرون أثر الإشادة والمديح ، فى تأييد هيبة الدولة والخلافة ، ومن ثم فقد أسبغوا رعايتهم على الشعراء ، وأغدقوا عليهم الصلات . وكان للخلافة الموحدية شعراؤها الأثيرون لديها مثل الجراوى ، وابن حزمون ، وابن مجبر ، وغيرهم ، ينظمون قصائدهم فى مختلف المواطن ، والمناسبات السعيدة ، من ولاية وفتوح ومقدم وإبلال وغيرها ، يشيدون فيها بقوة الخلافة الموحدية ومجدها وسعدها .

وبلغ الشعر فى الأندلس فى تلك الفترة مستوى عاليا من الازدهار والقوة فى ظل الخلافة الموحدية ، التى قدرت قدره ، وأظلته برعايتها ، وتبارى الشعراء الأندلسيون، منذ عهد عبد المؤمن فى مديح الخلافة الموحدية ، والإشادة بذكرها . على أن نهضة الشعر الأندلسى ، فى أوائل العصر الموحدى لم تكن سوى امتداد طبيعى لنهضتها القديمة منذ الطوائف ، وذلك إذا استثنينا عهد المرابطين القصير الذى لم يحظ فيه الشعر بشىء من التقدير والرعاية، من الدولة المرابطية . ولم تخب النهضة الشعرية القوية، حتى فى عصر الانهيار، فى أواخر العهد الموحدى ، بل بالعكس فقد زادتها المحنة قوة واضطراما . وصدرت فى الصريخ من المحنة وفى الأندلس ورثاء قواعدها الذاهبة، وشعبها المغلوب، من غرر القصائد المبكية، مايشهد بأن الشعر

(١) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (الرباط سنة ١٩٣٢) رقم ١٢٨ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك (الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى) .

الأندلسى ، قدبلغ فى تلك الفترة المؤسية من حياة الأمة الأندلسية ، ذروة قوته وروعته.

وسوف نستعرض فيما يلى ، أهم الشعراء ، الذين ظهروا فى العصر الموحدى سواء بالأندلس أو المغرب ، وقد كانت الخلافة الموحدية تجذبهم إليها أينما حلت ، ولم تكن الأندلس يومئذ ، سوى قطر من أقطار الدولة الموحدية الكبرى.

كان فى مقدمة هؤلاء الشعراء ، أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله ابن حبوس ، وهو من أهل فاس ، وكان عالما محققاً ، وشاعراً كبيراً ، يقول لنا المراكشى إن طريقته فى الشعر كانت على نحو طريقة ابن هانىء الأندلسى فى تخير الألفاظ الرائعة . وظهر ابن حبوس فى ميدان الشعر منذ أيام المرابطين ، ومدح بعض أمرائهم ، ولكن نقلت إليهم عنه بعض تهم وحماقات خشى منها على نفسه ، ففر إلى الأندلس ونزل مدينة شلب حيناً ، ولما غلب أمر الموحدين ، انضوى تحت لوائهم ، ولقى الخليفة عبد المؤمن بجبل طارق مع باقى الشعراء ، وامتدحه بقصيدته التى أشرنا إليها فى موضعها . وكثرت مدائحه من بعده لولده الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وأمراء بنى عبد المؤمن . وجمع شعره فى ديوان حافل ، يدل على جزالته ، وقوة شاعريته . وكانت وفاته فى سنة ٥٧٠هـ عن سبعين عاما[١]

ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبى العافية الأزدى ، من أهل غرناطة ، ويعرف بالكتندى لأن أصله من كتندة . كان أديبا كاتبا شاعراً ، متمكنا من العربية ، أخذ عن أقطاب عصره ، وحدث عنه أبو سليمان بن حوط الله ، وأبو القاسم الملاحى وغيرهما ، ومن شعره :

يا سرحة الحى يا مطـــول	شرح الذى بيننـا يطـول
ماض من العيش كان فيـــه	ملبسنا ظلك الظليـــــل
زال ، وماذا عليك ماذا	يا سرح ، لو لم يكن يزول
حيًّا عن المدنف المعنّى	منبتك القطــــر والقبـول

وتوفى الكتندى سنة ٥٨٣ هـ[٢] .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم بن مغاور من أهل شاطبة ، كان من العلماء المحققين ، وأخذ عن أبى على الصدفى وغيره ، وكان من الكتاب البلغاء ، والشعراء المجيدين ، ومن شعره فى الزهد :

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٧١١ ، وراجع المعجب للمراكشى ص ١١٧ و ١١٨ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤٥٨ .

أيها الواقف اعتبارا بقبرى ... استمع فيه قول عظم رميم
أودعونى بطن الضريح وخافوا ... من ذنوب كلومها بأديم
قلت لا تجزعوا على فإنى حسن ... الظن بالرؤوف الرحيم

وتوفى ابن مغاور فى صفر سنة ٥٨٧ هـ[١] .

وأبو رجال بن غلبون من أهل مرسية ، وكان أيضاً كاتبا شاعراً بليغا يجيد النثر والنظم ، وأخذ عنه الأدب جماعة من الأقطاب ، مثل أبى بحر صفوان ، وأبى الربيع بن سالم ، وكان يحمل عن أبى اسحاق بن خفاجة ديوان شعره ويرويه ويؤخذ عنه ، وتوفى سنة ٥٧٩ هـ[٢].

وكان من أعلام الشعر فى تلك الفترة من أوائل العصر الموحدى ، وأعظمهم شأنا ، أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى الرفاء المعروف بالرُّصافى ، نسبة إلى رُصافة بلنسية . ولد ببلنسية ، وسكن غرناطة ومالقة ، وبرع فى الشعر والأدب ، وكان ظهوره فى أواخر العصر المرابطى . وكان ممن مدح الخليفة عبد المؤمن عند وفوده على جبل طارق سنة ٥٥٦ هـ ، وألقى بين يديه قصيدته الغراء التى مطلعها :

لو جئت نار الهدى من جانب الطور ... قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبها ... ليلا لسار ولم تشبب لمغمور

وقد أشرنا إليها فى موضعها . وكان الرصافى يومئذ فتى فى عنفوانه ، ولكنه كان قد لمع فى ميدان الشعر وكان له فيه افتنان وإبداع ، ومع ذلك فقد كان كثير التواضع ، لا يحب أن يشتهر بشعره ، مع إجادته فى كثير منه . وكان عزيز النفس موفور الكرامة ، يعيش من صناعة الرفو ، ولايبتذل نفسه فى خدمة أحد ، ولا يتجر بشعره ولايتخذه سبيلا إلى الزلفى ، أو التقرب من أحد . ومن نظمه يصف نهر إشبيليه (الوادى الكبير) :

ومهول الشطين تحسب أنه ... متسايل من درة لصفائه
فاءت عليه مع الهجيرة سرحة ... صدئت لفيأتها صفيحة مائه
فتراه أزرق فى غلالة سمرة ... كالدارع استلقى بظل لوائه

ومن قوله :

وفتيان صدق كالنجوم تألقوا ... على الناس من شتى بروج وآفاق

---

(١) ترجمته نقلناها من أوراق مخطوطة من صلة الصلة لابن الزبير .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٨٨٢ .

على حين راق البرق فى الجو مغمدا صباه ودمع المزن فى جوه راق
وحانت بعينى فى الرياض التفاتة حبست وكاساتى قليل على الساق
على سطر خير ذكرتك فانثنى يميل بأعناق ويرنو بأحداق

ومن قصائده المشهورة ، قصيدة طويلة ، يتشوق فيها إلى وطنه بلنسية ويشيد بمحاسنها وفيها يقول :

خليلى ما لليد قد عبقت نسرا وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا
أظنك مفتونا بمدرجة الصبا أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا
خليلى عوجا بى قليلا فإنه حديث كبرد الماء فى الكبد الحرّا
قفا غير مأمورين ولتضربا على بقية للمزن فاستبقيا القطرا
بجسر معان والرُّصافة أنه على القطران يسقي الرصافة والجسرا
بلادى التى ريشت قويدمتى منها صريحا وأدوانى قرارتها وكرا
لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ولاكن عرينا من حلاه ولم تعرا

وتوفى الرصافى بمالقه فى شهر رمضان سنة ٥٧٢ هـ[١] .

ومنهم محمد بن عيسى بن عياض القرطبى ، كان من أقطاب الأدب وأفذاذ الشعراء والكتاب ، وإليه تنسب المقامة العياضية الغزلية .

ومما ينسب إليه من الشعر قوله :

كم من أخ فى فؤاده دغل أخوف من كاشح تجاهده
برء السقام الخفى أعسر من برء سقام بدت شواهده

ولم يذكر له تاريخ وفاة[٢] .

وأبو بحر صفران بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبى ، من أهل مرسية ، درس الحديث والأدب ، وبرع فى النثر والنظم ، وكان من أقطاب الكتاب البلغاء ، والشعراء المجيدين ، وله رسائل عديدة وقصائد جليلة . وجمع ماصدر منها فى كتاب سماه « عجالة المحتفز ، وبداهة المستوفز » ، . وألف كتابا آخر عنوانه « زاد المسافر » . وتوفى شابا ببلده مرسية فى شوال سنة ٥٩٨ هـ ، ومولده سنة ٥٦١ هـ[٣] .

ومحمد بن أحمد بن الصابونى الصدفى من أهل إشبيلية . كان من أعظم أدباء

---

(١) راجع المعجب ص ١١٩—١٢٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٠ ، والتكلة لابن الأبار رقم ١٤١٦ .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ١٤٠٦ . (٣) ترجمته فى التكلة رقم ١٨٩٥ .

عصره ، وألمع شعرائه ، ويقول ابن الأبار إن ابن الصابونى كان شاعر وقته ، ويقول أيضاً إن الآداب ذهبت بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها به . وهو قول يحمل طابع المبالغة . ورحل ابن الصابونى إلى المشرق فتوفى بالإسكندرية ، وهو فى طريقه إلى القاهرة ، وذلك فى سنة ٦٤٠ هـ .

ومن نظمه قصيدته المشهورة فى مدح عزيز بن عبد الملك بن خطاب والى مرسية ، حين وفد عليه فى سنة ٦٣٢ هـ ، وهذا مطلعها :

أهلا بطيف خيال منك منساب ... أزال عتبك عندى حين إعتابى

ومنها :

لا درّ درُّ ليالى البعد من زمن ... يطول فيه اجتراع الصب للصاب
نابت صروف نبا بى عندها وطنى ... قرعت بابى لها من رحلى الناب
جوابة الأرض لا ألوى على سكن ... تشجى الركاب وتجرى بى لتجواب

ومن قوله من قصيدة :

أقسم فرق الليـل عن سنة الضحى ... وأهبط خصر القاع من كفل الدعص
إلى أن أرى برقا إذا شمت وجهـه ... رأيت جبين البدر مكتمل القرص[1]

وطلحة بن يعقوب بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الأنصارى من أهل شاطبة ، وأصله من جزيرة شقر . كان كاتبا بليغا ، وشاعراً مجيداً ، أخذ عن أشياخ عصره ، ورُوى عنه . وتوفى فى رمضان سنة ٦١٨هـ[2] .

ومحمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ . . بن عيسى بن أصبغ ، ويعرف بابن المناصف ، أصلهم من قرطبة ، وخرج أبوه منها أيام الثورة على المرابطين ، واستوطن إفريقية ، وبها نشأ ولده هذا . وكان عالما متمكنا من الفقه مع حظ وافر من اللغة والأدب ، وقرض الشعر الجيد . وله أراجيز فى عدة فنون منها « الدرة السنية فى المعالم السنية » . وألف كتاب « الإنجاد فى الجهاد » وكتاب الأحكام . وفى أواخر حياته ولى قضاء بلنسية ، ثم قضاء مرسية ، ولما صرف عن القضاء عاد إلى المغرب وتوفى بمراكش فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٠ هـ[3] .

وعلى بن محمد بن أحمد بن حريق من أهل بلنسية ، كان بارعا فى اللغة والأدب ، حافظا لإشعار العرب ، وأيامها ، شاعراً مجيداً ، وافر الإنتاج ، ذاع

---

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ١٦٨ . وراجع الحلة السيراء ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٩١٣ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٠٦ .

شعره فى الأندلس وتداوله الناس ، وله عدة كتب فى الأدب ، ومن نظمه قوله :

يا صاحبي وما البخيل بصاحبي　　هذى الخيام فأين تلك الأدمع
أتمر بالعرصات لا تبكى بها　　وهى المعاهد منهم والأربع
يا سعد ماهذا القيام وقد نأوا　　أتقيم من بعد القلوب الأضلع
هيهات لاريح اللواعج بعدهم　　زهر ولاطير الصبابة وقع

وتوفى ابن حريق ببلده بلنسية فى سنة ٦٢٢ هـ[1] .

ومحمد بن على بن حماد بن عيسى الصنهاجي ، أصله من قلعة بنى حماد ، وسكن بجاية ، وأخذ عن أشياخها ثم دخل الأندلس ، فسمع بها ، وولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم قضاء سلا ، وكان كاتبا بليغا ، وشاعراً مجيداً ، وله ديوان شعر معروف . وله أيضا كتاب « الإعلام بفوائد الأحكام » وشرح لمقصورة ابن دريد . وتوفى سنة ٦٢٨ هـ[2] .

ومنهم ومن أشهرهم وألمعهم ، محمد بن إدريس بن على بن ابراهيم بن القاسم من أهل جزيرة شقر ، ويعرف بمرج الكحل ، وكان من أعظم شعراء عصره مقدرة على الإبداع والتوليد والتجويد ، وبرع فى الأخص فى الغزل ، والشعر الوصفى المبتكر ، وعاش حينا فى غرناطة ، وذاع صيته فى سائر أنحاء الأندلس . وأخذ عنه عدة من أشياخ العصر ، مثل أبى الربيع بن سالم ، وأبى عبد الله بن أبى البقاء ، وابن عسكر ، ومترجمه ابن الأبار وغيرهم . ومن شعره قوله :

مثل الرزق الذى تطلبه　　مثل الظل الذى يمشى معك
أنت لاتدركه متبعا　　فإذا وليت عنه أتبعك

وقوله يصف عشة بنهر الفنداق الذى يمر بلوشة :

عرج بمنعرج الكثيب الأخضر　　بين الفرات وبين شط الكوثر
ولنغتبقها قهوة ذهبية　　من راحتى أحوى المراشف أحور
والروض ما بين مفضض ومذهب　　والزهر بين مدرهم ومدنر
والنهر مرقوم الأباطح والربا　　بمصندل من زهره ومعصفر

وتوفى مرج الكحل ببلده فى شهر ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ[3] .

ومنهم أبو بكر بن هشام بن عبد الله بن هشام . . بن عبد الغافر الأزدرى

---

(١) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير رقم ٢٦٣ ، وفوات الوفيات ج ٢ ص ٧٠ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٣٧ .　　(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٥٦ .

من أهل قرطبة . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره . وبرع فى الأدب ، وكان كاتبا بليغا وشاعراً مجيداً ، كتب لبعض الولاة ، وولى قضاء بعض الكور . وتوفى بالجزيرة الخضراء سنة ٦٣٥ هـ(١) .

ومن أشهرهم أيضاً على بن عبد الرحمن بن حزمون، أصله من مرسية . وكان شاعراً مجيداً ، متمكنا من الآداب والتواريخ ، وكان بارع التصرف فى النظم ، مقذع الهجاء . قال ابن عبد الملك فى الذيل والتكملة « وكان شديد القنا ، وارد الأنف ، أزرق حاد النظر ، أسيل الوجه ، بادى الشر ، مهيبا » . ووقعت بينه وبين بعض أدباء عصره مخاطبات ومساجلات تشهد بتقدمه وتمكنه . دخل مراكش غير مرة ، جاء فى آخرها متظلما إلى الخليفة المستنصر من الجريطى والى مرسية ، لاضطهاده ، والاعتداء عليه وضربه بالسياط . ولما ظهرت براءته مما نسب إليه من هجو الجريطى ، أصدر المستنصر أمره بإنصافه ، وإعدايه على الجريطى ، وتمكينه منه ، حتى ينتصف لنفسه ، وعاد ابن حزمون إلى الأندلس ، يحمل أمر المستنصر بإنصافه ، ولكنه ماكاد يصل إلى مرسية حتى ورد الخبر بوفاة المستنصر ، وتحطم بذلك أمله من الانتصاف لنفسه ، ومن نظمه قوله :

يا من له بالأنـام أنسى   وهو إلى اللهو ذو التفات
استغفر الله من ذنـوب   أناىها نازل الصـفات

وقوله وهو مطلع قصيدته فى الشكوى إلى الخليفة :

إليك إمام الحق جبت المفاوز   وخلفت خلفى صبية وعجائزا
يرجين سبب الله ثم حنانكم   إمام الهدى حتى يمن عجـائزا

وتوفى ابن حزمون حول سنة ٦٣٠ هـ(٢) .

ومن ألمعهم أيام الانهيار ، إبراهيم بن سهل الإشبيلى ، وقد كان يهوديا واعتنق الإسلام ، وبرع فى الشعر ولاسيما فى الموشحات . ومن أبدع قصائده ، قصيدة نظمها فى مدح النبى . وقد توفى غريقاً فى النهر وهو شاب فى عنفوانه ، وذلك فى سنة ٦٤٩ هـ . ومن شعره ، حينما حاصر النصارى إشبيلية فى سنة ٦٤٥هـ واشتدت الحال بأهل إشبيلية ، قصيدة مؤثرة ، يحثهم فيها على الصبر والثبات ، وفيها يقول :

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٥٩٨ .

(٢) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى . وقد أورد لنا ابن عذارى كثيرا من شعره . وراجع البيان المغرب ص ٧٤ - ٧٧ .

ورداً فمضمون نجاح المصدر — هي عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر — يبدو لكم بين القنا والضمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا — عبر العجاج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل فى السرى — ترووا بماء الحوض غير مكدر

ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى — أدارى بها همى إذا الليل عسعسا
أتانى حديث الوصل زورا على النوى — أعد ذلك الزور اللذيذ المؤنسا
ويا أيها الشوق الذى جاء زائرا — أصبت الأمانى خذ قلوبا وأنفسا

وقوله :

ليل الهوى يقظان — والحب مترب السهر
والصبر لى خوان — والنوم من عينى برى(١)

ومنهم أحمد بن محمد بن عيسى . . بن عبد الرحمن بن حجاج اللخمى من أهل إشبيلية، ويعرف بالأفيلح تصغير الأفلح وهو المشقوق الشفة السفلى ، كان أديبا بارعا وشاعراً مجيداً ، وزر للمتوكل ابن هود ، وخاض معه حوادث إمارته ، وحظى لديه . وله أرجوزة مخمسة فى السير عنوانها « نظم الدرر ونثر الزهر » وهى من أحسن ما نظم فى موضوعها . وله شعر جيد ، وعدة مدائح فى أمراء بنى عبد المؤمن ، ومن ذلك قوله يهنىء المأمون أبا العلاء إدريس :

هنأ الله بلاد العرب — ما تتمناه بلاد المشرق
طلع المأمون فيها أمل — الراجى وأمن التق
وكساها من سنا أنواره — رونقا يدهش نور الحدق(٢)

ومالك بن عبد الرحمن بن على، يكنى أبا الحكم ويعرف بابن المرحل ، درس الفقه والأدب ، وامتهن صناعة التوثيق حيناً ، وولى القضاء بغرناطة وغيرها ، وكان شاعراً رقيقاً مطبوعا، وله شعر كثير أورد لنا منه ابن الخطيب فى الإحاطة عدة قصائد . ولد سنة ٦٠٤ هـ وتوفى عن سن عالية فى سنة ٦٩٩هـ(٣).

ومن شعراء الخلافة الموحدية الأثيرين ، شاعران ، اختصا عصراً بمدائح

---

(١) راجع نفح الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .
(٢) ترجمته فى الذيل والتكملة ، الجزء الأول من مخطوط الرباط المصور لوحة ١١٠ و ١١١.
(١) ترجمته ومقتطفات من شعره فى الإحاطة (مخطوط الإسكوريال لوحات ١٨٩ — ١٩٦) .

الخلفاء الموحدين ، منذ عصر أبى يعقوب يوسف حتى عصر الناصر ، وهما أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، وأبو بكر بن عبد الجليل بن مُجبر ، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى مدائح هذين الشاعرين . وكان الجراوى ، وأصله من تادلا ، وسكن مراكش ، شاعراً مبرزاً ، عالما بالآداب ، حافظاً لأصول البلاغة ، ورحل إلى الأندلس مراراً . وقد وضع للخليفة المنصور كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر ، وانتشر هذا الديوان فى المغرب انتشاراعظيما ، وكان لديهم ككتاب الحماسة عند أهل المشرق[1] . وكذلك جمعت مدائح ابن مجبر للمنصور فى ديوان وأورد لنا منها ابن خلكان قصيدته التى مطلعها :

أتراه يترك الغـــزلا وعليه شب واكتهـــلا
كلف بالغيـــد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا[2]

ومن شعراء الخلافة الموحدية أيضاً أبو الحسن الرعينى ، وأبو زيد الفازازى ، وعبد الرحمن الجزولى وغيرهم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب كثيراً من مدائح هؤلاء الشعراء للخلفاء الموحدين فى غير موضع[3] .

ولدينا ثبت آخر من أكابر الشعراء ، مثل ابن طفيل الوادى آشى ، وابن الأبار القضاعى ، وأبى المطرّف بن عميرة المخزومى ، ولكنا رأينا أن نضع هؤلاء فى مواضع هم أكثر ارتباطا بها وألصق ، فابن الأبار ، بالرغم من إنتاجه الشعرى الرائع ، أكثر انتسابا إلى ميدان التاريخ ، وابن عميرة أكثر انتسابا إلى الكتابة ، وابن طفيل موضعه الحقيقى بين الفلاسفة والعلماء .

— ٣ —

ولنعرض الآن إلى أكابر الكتاب خلال العصر الموحدى . ولدينا من ذلك ثبت حافل يصعب علينا أن نستوعبه فى هذا المقام المحدود ، ولكنا سوف نحاول أن نذكر ألمعهم فى هذا الميدان .

كان من هؤلاء أبو القاسم محمد بن ابراهيم بن خيرة ، ويعرف بالمواعينى من أهل قرطبة ، وسكن إشبيلية . سمع ابن مغيث ، وابن مكى ، وابن العربى ،

(١) ترجمة الجراوى فى التكملة رقم ٣٢٣ ، وقد أورد لنا ابن عذارى كثيراً من شعر الجراوى (يراجع البيان المغرب ص ٨١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٥١ و ١٥٤) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٥٨ و ٢٦٠ و ٢٦٦ و ٢٦٨ .

وابن أبي الخصال وغيرهم ، وبرع في الأدب ، وكان كاتبا بليغاً ، وشاعراً مجيداً . كتب أولا للسيد أبي اسماعيل الوالي بغرناطة ، ثم كتب من بعده للسيد أبي جعفر بن عبد المؤمن وحظي عنده ، ونال جاها عريضا . وله عدة مؤلفات تاريخية وأدبية منها : « ريحان الإعراب وريعان الشباب » و« الوشاح المفصل » وكتاب في « الأمثال السائرة » ، وكتاب في الأدب نحى فيه منحى ابن عبد البر في « بهجة المجالس » . وتوفي بمراكش سنة ٥٦٤هـ ، أونحو سنة ٥٧٠ هـ ، وفقاً لرواية ابن الأبار[١]

وأبو الحكم إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري ، أصله من وادي آش وسكن مالقة ، ويعرف بابن هرودس . كان عالما متمكنا ، وكاتبا بليغا ، وله حظ من قرض الشعر . كتب أيام الفتنة لأحمد بن ملحان الطائي القائم بوادي آش ، إلى جانب العلامة ابن طفيل . وتوفي في سنة ٥٧٣هـ[٢] .

ومنهم أبو عبد الرحمن بن طاهر ، زعيم مرسية أيام الفتنة ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته بين الكتاب الذين ظهروا في العصر المرابطي[٣] .

ومنهم علي بن ابراهيم بن محمد عيسى بن سعد الخير الأنصاري من أهل بلنسية ، وأصله من بلدة قشتيل من أعمالها ، كان إماما بارعا في علوم اللسان والأدب وكاتبا بليغاً وشاعراً محسنا ، بديع التشبيه . وكتب عن السيد أبي الربيع سليمان ابن عبد الله بن عبدالمؤمن . وله مصنفات أدبية عديدة منها اختصاره للعقد الفريد ، وجمع طرر أبي الوليد الوقشي ، وكتاب مشاهير الموشحين بالأندلس ، وهم عشرون ، ذكرهم بصفاتهم ومحاسنهم ، على طريقة الفتح في القلائد والمطمح ، وابن بسام في الذخيرة . وله رسائل عديدة . وسار إلى إشبيلية مع مخدومه السيد أبي الربيع ، حينما قدم إليها مهنئا ابن عمه الخليفة المنصور بفتح شلب ، وارتجاعها من أيدي البرتغاليين ، وهنالك توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٩١ هـ[٤] .

والحسن بن حجاج بن يوسف الهواري التجيبي ، أصله من بجاية وسكن مراكش ، ودخل الأندلس مرارا . وولي الخطبة بإشبيلية . وكان أديبا مبرزاً

---

(١) ترجمته في الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيري ، لوحة ١١ ، وفي التكملة رقم ١٤٠٧ .
(٢) ترجمته في التكملة رقم ٣٩٧ .
(٣) راجع ترجمة ابن طاهر في ص ٤٤٥ من القسم الأول من هذا الكتاب .
(٤) ترجمته في الذيل والتكملة ، مخطوط المتحف البريطاني ، السفر الرابع لوحات ٤١ — ٤٣ .

وكاتبا بليغا ، أخذ عن أقطاب العصر ، وأخذ عنه عدة من الجلة ، منهم أبو الربيع ابن سالم ، وتوفى بمدينة فاس سنة ٥٩٨ هـ[١] .

ومنهم أبو الفضل محمد بن على بن طاهر بن تميم القيسى من أهل بجاية ، ويعرف بابن محشرة . كان عالما متمكنا ، وأديبا بارعا ، وكاتبا مجيداً ، وكان تلميذاً لأبى القاسم القالمى . استدعاه الخليفة أبو يعقوب يوسف ليتولى كتابة السر ، فظهر فى هذا المنصب بمقدرته ، وروعة أسلوبه وبيانه . ولما توفى أبو يعقوب ، كتب من بعده لولده الخليفة يعقوب المنصور . وفى مجموعة الرسائل الموحدية ، عدد من الرسائل مدبجة بقلمه ، تشهد بتفوقه ، وتفننه فى أساليب البلاغة ، وكانت وفاته فى سنة ٥٩٨ هـ[٢] .

ونستطيع أن نضع بين أعلام كتاب الأندلس فى العصر الموحدى ، الرحالة ابن جبير ، وهو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكنانى ، أصله من بلنسية ، ونزل أبوه شاطبة ، وانتقل إلى غرناطة . ودرس ابن جبير القراءات والحديث ، وبرع فى الآداب ، وبرز فى الكتابة والنظم ، وكتب فى شبابه بسبتة للسيد أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، ثم كتب لوالى غرناطة ، ونال جاها وثراء . ثم تزهد ورحل إلى المشرق لأول مرة فى سنة ٥٧٨ هـ ، لقضاء فريضة الحج ، وسمع الحديث بمكة على أبى حفص اليانشى ، وأخذ مقامات الحريرى بدمشق عن أبى طاهر الخشوعى . ثم عاد إلى الأندلس وأخذ بها عليه ماكان عنده ، وحُمل عنه شعره فى الزهد ، وهو كثير . وقام برحلته الثانية إلى المشرق سنة ٥٨٥ هـ ، وعاد إلى المغرب . ثم رحل رحلته الثالثة بعد سنة ٦٠١ هـ ودرس بمكة والقدس ، وحدث هناك وأخذ عنه . وتوفى بالإسكندرية فى شهر شعبان سنة ٦١٤ هـ ، ومولده ببلنسية ، أوشاطبة سنة ٥٤٠ هـ[٣] . ومن أشهر آثار ابن جبير رحلته القيمة المسماة « اعتبار الناسك ، فى ذكر الآثار الكريمة ، والمناسك » أوبعبارة أخصر « رحلة ابن جبير » وفيها يدون مشاهداته وملاحظاته بأسلوب قوى شائق .

وظهر فى أواسط العصر الموحدى فى ميدان الكتابة بنو عيّاش ، وهم من

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٧٢٢ .

(٢) ترجمته فى « عنوان الدراية » ص ٣٠ ، وراجع المعجب ص ١٤٩ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٨١ .

أقطاب الكتاب البلغاء، وهم أسرة أندلسية نزحت إلى المغرب، وكان أول من ظهر منهم فى خدمة الخلافة الموحدية أبو الحسن بن عياش من كتاب الخليفة عبد المؤمن، ثم ولده الخليفة أبى يعقوب يوسف. ومحمد بن عبد العزيز بن عياش، كاتب الخليفة يعقوب المنصور، ثم ولده الناصر. وأبو الحسن على بن عياش ابن عبد الملك كاتب الخليفة الناصر وولده يوسف المستنصر. وكان أنبههم، وأشهرهم، هو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبى، وأصله من برشانة من أعمال ألمرية[1]. ونزح إلى المغرب، وسكن مراكش، وبرع فى الآداب وعلوم اللغة، وكان قطب عصره فى البيان والبلاغة، خطيباً مصقعاً، وله حظ من قرض الشعر. وقد وصفه ابن عبد الملك فى التكملة بقوله: «كان كاتبا بارعا، فصيحاً، مشرفا على علوم اللسان، حافظا للغات والآداب، كبير المقدار، حسن الخلق، كريم الطباع، دفاعا مجاهداً، كثير الاعتناء بطلبة العلم، والسعى الجميل لهم»، وتولى ابن عياش منصب الكتابة للخليفة المنصور، وظهر فيه برسائله المشرقة، وبيانه الرائع، عن أحوال الخلافة الموحدية ومراسيمها، وتحركاتها[2]. وهو الذى دبج بقلمه المنشور الصادر بأمر المنصور ضد الفليسوف ابن رشد وزملائه. ولما توفى المنصور، تولى منصب الكتابة لولده الخليفة الناصر، ثم ولده الخليفة يوسف المستنصر. وكان من آثر رجال الدولة، وأرفعهم مكانة لدى الخلافة الموحدية. وكان صديقاً شخصياً للخليفة المنصور، وله معه أخبار كثيرة. وتوفى أبو عبد الله ابن عياش بمراكش فى شهر جمادى الآخر سنة ٦١٨ هـ، ومولده ببرشانة سنة ٥٥٠ هـ[3].

وتولى ولده، أحمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عياش، منصب الكتابة للخليفة يوسف المستنصر ثم للخليفة المأمون، وتولى قضاء تلمسان وسبتة، وكان كذلك كاتبا محسنا، مشرق البيان، بارع الطريقة، وتوفى فى محرم سنة ٦٢٩ هـ[4]

ومن أشهر كتاب الاندلس فى هذا العصر، الذى اضطرمت فيه الفتنة فى كل

---

(١) برشانة هى بالإسبانية Puchena .

(٢) وردت فى الرسائل الخامسة والثلاثين، والسادسة والثلاثين، والسابعة والثلاثين، من مجموعة رسائل موحدية نماذج بديعة من أسلوب ابن عياش .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٥٩٦، وفى الإحاطة – مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٠ – ٥٩ . وقد أورد لنا أيضاً نماذج من كتابته .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ٣٠٠، وفى الذيل والتكملة (مخطوط باريس لوحة ١٧٤) .

ناحية ، أبوبكرعزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي ، وهو سليل آل خطاب أعيان مرسية ورؤسائها أحيانا منذ القرن الرابع الهجرى . وكانت له كأسلافه مشاركة فى العلوم ، وتمكن من النثر والنظم . ولما تغلب ابن هود على مرسية فى سنة ٦٢٥ ﻫ ، اختاره لرياستها نائبا عنه ، فلبث على ولايتها حتى توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ ﻫ ، وعندئذ ، استبد عزيز بمرسية ، ولكن لم يمض سوى قليل حتى تغلب عليه أبو جميل زيان أمير بلنسية السابق ، وانتهى الأمر باعتقاله ثم قتله فى رمضان سنة ٦٣٦ ﻫ . قال ابن عبد الملك فى حقه «كان وجيه أهل بلده وصدرهم المعظم لديهم ، مشهور الفضل لديهم ، أجمل الناس صورة ، وأحسنهم شارة ، زاهدا ورعا ناسكا عابدا . . حريصاً على نشر العلم ، مثابراً على التدريس مستبحراً فى المعارف ، إلى بيان فى الخطابة وبلاغة فى النظم والنثر» . وكان يميل إلى طرائق الصوفية وله نظم حسن ، ورسائل نثرية بليغة(١) .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصارى المعروف بابن الحنان وهو من أهل مرسية ، وكان محدثا راوية ، وكاتبا بليغاً ، وشاعراً محسنا ، ظهر بنثره البارع ، وكتب لابن هود أيام إمارته ، ثم استكتبه الرئيس أبو جميل زيان ، أيام تغلبه على مرسية . ولما تغلب النصارى على مرسية سنة ٦٤٠ﻫ ، غادرها إلى أوريولة ، واستقر بها وقتاً ، ثم نزح إلى إفريقية ، مع من نزح إليها من أهل الشرق ، ونزل ببجاية ، وكانت بينه وبين كتاب عصره أمثال أبى المطرف بن عميرة وغيره مراسلات بليغة ، ظهرت فيها براعة أسلوبه . وكانت وفاته ببجاية سنة ٦٥٠ﻫ (٢) .

وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن . . بن على القضاعى ثم البلوى ، من أهل إشبيلية ، كان كاتبا مطبوعا بارعا فى النثر والنظم . كتب فى شبابه لبعض ولاة الأندلس من أبناء الخليفة عبد المؤمن وأحفاده ، ثم ترك الكتابة ، واشتغل بكتب الشروط . ونزح إلى مراكش فى أيام الناصر ، واستقر بها وقتا ، وغادرها إلى إشبيلية ، ثم عاد إلى مراكش مع وفد إشبيلية الذى يحمل بيعة أهلها إلى الخليفة السعيد ، ومدحه بقصيدة فريدة وخطبة بارعة ، وحظى لديه ، وتوفى بمراكش سنة ٦٥٧ﻫ (٣) .

---

(١) ترجمته فى الحلة السيراء لابن الأبار ص ٢٤٩ — ٢٥٣ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك (مخطوط باريس) .

(٢) ترجمته فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ الغزيرى) لوحة ١٤ — ١٨ . وكذلك فى عنوان الدراية ص ٢١٣ — ٢١٥ .

(٣) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبدالملك المجلد الأول (مخطوط باريس) لوحة ١٧١ و١٧٢ .

وعلى بن محمد بن على بن هيصم الرعينى من أهل إشبيلية ، كان محدثا ، وكاتبا بليغاً ، مشاركا فى علوم كثيرة . وغلبت عليه الكتابة السلطانية ، فبرع فيها ، وانقطع لها ، وكتب عن عدة من أمراء الأندلس والعدوة ، فكتب للمتوكل ابن هود ، ثم كتب بعد وفاته لمحمد بن الأحمر صاحب غرناطة ، ووقعت مساجلات أدبية بينه وبين أبى عبد الله بن الجنان ، وأبى المطرّف بن عميرة ، ينقلها إلينا صاحب التكملة . ثم نزح من الأندلس إلى العدوة ، فكتب عن أمير سبتة ، ثم عن الأواخر من الخلفاء الموحدين ، خلفاً لشيخه أبى زيد الفازازى ، وكان من شيوخ ابن عبد الملك صاحب التكملة وتوفى بمراكش سنة ٦٦٦ هـ[1] .

ونستطيع أن نختم هذا الثبت من الكتاب ، بكاتب من أبرع وألمع كتاب الأندلس ، فى عصر الانهيار ، هو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومى . وأصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وبها ولد سنة ٥٨٢هـ . وسكن بلنسية ودرس بها الحديث والفقه ، ولكنه شغف باللغة وعلومها ، وبالأدب ، وبرع فى النثر . قال ابن عبد الملك : « وتفنن فى العلوم ، ونظر فى العقليات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فيه براعة عد بها فى كبار مجيدى النظم . وأما الكتابة ، فهو علمها المشهور ، وواحدها الذى عجزت عن ثانيه الدهور » ، وقال ابن الخطيب فى وصفه « كان نسيج وحده إدراكا وتفننا ، بصيراً بالعلوم ، محدثا مكثراً ، راوية ثبتاً ، متبحراً فى التاريخ والأخبار ، قائماً على العربية واللغة ، جم العيون ، غزير المعانى والمحاسن »[2] وأخذ ابن عميرة عن عدة من أقطاب عصره ، منهم أبو الخطاب بن واجب ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو على الشلوبين وأبو عمر بن عات ، وأبو محمد بن حوط الله . وولى لأول أمره القضاء بأوريولة ثم شاطبة ، ولكنه ظهر فى ميدان الكتابة والترسل ، وكتب عن الأمير أبى جميل زيان ، وصدرت عنه فى تلك الفترة المدلهمة من تاريخ شرق الأندلس رسائل عديدة ، منها ماهو موجه منه ، وهو قاض بشاطبة إلى المتوكل بن هود ، وما كتبه عن أبى جميل زيان أيام ولايته لمرسية إلى ملك قشتالة ، وإلى أبى زكريا الحفصى أمير إفريقية ، ومنها ماتبادله مع زميله وصديقه وقرينه فى الشهرة والبراعة ابن الأبار

---

(١) ترجمته فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٢٨ و ٣٢٩ . وفى الذيل والتكملة المجلد الرابع من مخطوط المتحف البريطانى .

(٢) الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ١٨٠ .

القضاعى . وقد انتهى إلينا عدد كبير من هذه الرسائل التى دبجها ابن عميرة فى تلك الفترة ، وكلها تدل بروعة بيانه، ومقدرته الفائقة فى الترسل[١]. وكان مما نقله إلينا صاحب « صبح الأعشى » من رسائله ، رسالة كتبها عن « صاحب أرغون » إلى الخليفة الموحدى يوسف المستنصر ، يخبره فيها بأن صاحب أرغون، قد وقع بينه وبين بلده خلاف ، انتهى بنكبته ، وإخراجه من بلاده ، ففكر فى « أن يلجأ إلى المقام الباهر الأنوار ، العزيز الجوار ، فقدم إلى بلنسية ، التى صدرت منها هذه الرسالة ، وبأنه إن وجد من الأمر العالى تأييداً ، واستطاع أن ينتصر على خصومه ، كانت لذلك نتائج هامة ، خصوصاً وأن له فى « أرغون » كثير من الزعماء والأقارب والفرسان المناصرين له»[٢]. وقد ظن بعض الباحثين أن ابن عميرة التحق بخدمة ملك أراجون، وكتب عنه هذه الرسالة وهو فى خدمته. والحقيقة كما يبدو من نص الرسالة الواضح ، أن ابن عميرة ، كان وقت كتابة الرسالة مقيما ببلاده بلنسية ، وربما كان عندئذ يتولى الكتابة لواليها السيد أبى زيد ؛ أما « صاحب أرغون » ، الذى كتبت عنه هذه الرسالة ، فالمرجح أنه الدون فرناندو الأرجونى عم ملك أراجون الصبى « خايمى » ، وكان يحاول مع جماعة من أعيان أراجون أن يناوئه ، وأن ينتزع العرش لنفسه[٣]، ومن ثم كان قدومه إلى بلنسية ، وتوجيه رسالة منها إلى الخليفة الموحدى ، وكان ذلك ، فيما يبدو حوالى سنة ٦١٨هـ (١٢٢٠ م) ، فى أواخر عهد المستنصر . ولما تفاقمت الحوادث فى شرق الأندلس ، وشعر ابن عميرة أنه لم يبق له ثمة أمل فى البقاء فى الوطن المنكوب ، عبر البحر إلى المغرب، والتحق بخدمة الخليفة الموحدى الرشيد، وكتب عنه فى أواخر عهده . ثم ولى بعد ذلك قضاء سلا ومكناسة . ولما قتل الخليفة المعتضد (السعيد) لحق بسبتة ، وهنالك انقض عليه جمع من بنى مرين وسلبوه كل أمواله، فارتد فى أسوأ حال إلى إفريقية ، وسكن بجاية حينا، ثم رحل إلى تونس ، وحظى لدى أميرها المستنصر بالله ، فولاه قضاء قسنطينة ثم قضاء

---

(١) نشرت عدة من رسائل ابن عميرة فى صبح الأعشى وج ٦ ص٥٣٤ وج ٧ ص ٩٨ و٩٤ و١١٦ . ونشرت منها عدة بكتاب زواهر الفكر ، لابن المرابط — مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيرى ، ورقم ٥٢٠ ديرنبور . ونشر المقرى بعضها فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٦ — ٦٠١ ، وفى الروض المعطار — صفة جزيرة الأندلس ص ٤٨ — ٥٢ ، وكذلك الإحاطة ص ١٨٢ .

(٢) تراجع هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٣٤ — ٥٣٥ .

(٣) M. Lafuente : Historia General de Espana T.IV, p. 69 & 70

قابس ، ثم كتب حينا عن المستنصر . وقد كان ابن عميرة إلى جانب براعته فى الكتابة، شاعراً مجيداً له النظم الرائق . وله تأليف فى «كائنة ميورقة » وسقوطها فى أيدى النصارى ، نحى فيه بأسلوبه المسجع منحى العماد الأصفهانى فى الفتح القدسى . وكتاب فى التعقيب على فخر الدين الرازى فى كتاب المعالم فى أصول الفقه ، ومختصر فى « ثورة المريدين » وغيرها . وجمع ابن هانىء السبتى رسائل ابن عميرة وشعره فى كتاب فى سفرين ، وسماه « بغية المستطرف وغنية المتطرف ، من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبى المطرّف» . والخلاصة أن القاضى ابن عميرة ، مثل زميله ابن الأبار ، يمثل كلاهما، بشعره ونثره نفثة من نفثات الأندلس المحتضرة، ويودع كلاهما رسائله أنفس نماذج تراثها الأدبى الأخير . وتوفى ابن عميرة بتونس عن سن عالية ، فى شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ ، وقيل فى ذى الحجة سنة ٦٥٦هـ[1] .

— ٤ —

وأما عن الرواة والمؤرخين الذين ظهروا فى العصر الموحدى ، فليس لدينا منهم سوى القليل ، بيد أنه قد انتهى إلينا من تراث هذه الحقبة ، عدد من المصادر القيمة الهامة ، وفى مقدمتها تلك السلسلة النفيسة من تراجم العصرين المرابطى والموحدى ، وهى التى بدأت بكتاب « الصلة » لابن بشكوال . وقد سبق أن ترجمنا لابن بشكوال ضمن مؤرخى العصر المرابطى ، وجاء ابن الأبار القضاعى فوضع معجمه « التكملة » ليتم به معجم « الصلة » وليصل بما يتضمنه من التراجم إلى ما بعد سنة ٦٥٠هـ بقليل ، وليقدم لنا بذلك ثبتا حافلا ضخماً من أعلام الفكر الأندلسى ، فى سائر ميادينه ، خلال العصر الموحدى. وجاء من بعد ابن الأبار ، العلامة المغربى الثقة ، ابن عبد الملك المراكشى المتوفى أواخر القرن السابع ، فوضع معجمه الضخم « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » تكملة لهذه السلسلة النفيسة . مستدركا فيها الكثير مما فات سلفيه ، ومتوسعا فى كثير من التراجم المشتركة ، هذا إلى ما يقدمه إلينا خلال هذه التراجم عن أحداث العصر الموحدى ، سواءبالمغرب أوالأندلس من نبذ تاريخية قيمة ، ومن وثائق فريدة أحيانا . وقد عاش ابن عبد الملك فى أواخر العصر الموحدى ، وأدرك نهايته ، ثم توفى بعد ذلك بنحو ثلث قرن . وجاء أخيراً من بعد ابن عبد الملك

---

(١) تراجع ترجمته ابن عميرة فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٧٩ — ١٨٦ ، وعنوان الدراية ص ١٧٨ — ١٨٠.

راوية ومؤرخ أندلسي ، ولد فى أواخر العصر الموحدى بالاندلس ، هو أبو جعفر ابن الزبير المتوفى فى سنة ٧٠٨ هـ ، فوضع لنا معجماً جديداً من التراجم الأندلسية والمغربية ، سماه « صلة الصلة » ، وبه يضيف إلى سلسلة المعاجم السابقة ، مرحلة أخرى من تراجم العصر الموحدى .

وسوف نحاول التعريف بأولئك الرواة المؤرخين ، أصحاب المعاجم المذكورة خلال حديثنا عن المؤرخين الذين ظهروا خلال العصر الموحدى .

كان من هؤلاء مؤرخان لاينتميان فقط إلى العصر الموحدى ، ولكن يعتبر كلاهما من أولياء الدولة الموحدية ومؤرخيها الأوائل ، هما ابن صاحب الصلاة ، وعبد الواحد المراكشى .

فأما ابن صاحب الصلاة ، فهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم الباجى ، ويكنى أبا مروان وأبامحمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وصاحب التاريخ . وقد سبق أن أتينا على ترجمته ، ووصف أثره التاريخى الهام عن الدولة الموحدية وهو كتاب « المن بالإمامة » ، كما أشرنا إلى ما يوجد من خلاف حول تاريخ وفاته ، وإلى ما يبدو بالرجوع إلى بعض شذور تاريخية من كتابه من أنه قدعاش حتى أواخر القرن السادس الهجرى ، وتوفى فيما يرجح حوالى سنة ٦٠٥ هـ[1] .

وأما المراكشى فهو أبو محمد عبد الواحد بن على التيمى المراكشى ، ولد بمدينة مراكش ، حسبما يحدثنا فى سنة ٥٨١ هـ ، وغادرها فى صباه إلى فاس ، وهناك درس القرآن والنحو ، ثم عبر إلى الأندلس فى سنة ٦٠٣ هـ ، وتجول بها حيناً ، وعاد إلى مراكش ، وبقى بها حتى سنة ٦١١ هـ ، ثم عبر إلى الأندلس مرة أخرى وهناك اتصل ببعض الولاة الموحدين ، وغادرها فى أواخر سنة ٦١٣ هـ إلى المشرق ، وقضى بمصر حيناً . وكتب كتابه « المعجب فى تلخيص أخبار المغرب » ، وفيه يتحدث عن تاريخ الأندلس بإيجاز ، ثم تاريخ المغرب خلال عصر المرابطين والموحدين ، فى شىء من التفصيل ، ويبدى عناية خاصة بسرد أخبار الموحدين ويبدى فى سردها إعجابا وعطفاً ، لما كان يربطه قبل مغادرته الأندلس والمغرب ، من أواصر المودة ببعض الولاة والأمراء الموحدين . وبالرغم مما يبدو فى تاريخه من ثغرات كثيرة ، فإنه يعتبر من المصادر القيمة لتاريخ الدولة الموحدية ، لما يحتويه من إشارات ونبذ قيمة عن تاريخ الخلافة الموحدية ، منذ عهد عبد المؤمن

(١) راجع القسم الأول من هذا الكتاب ص ٩ و ١٠ .

حتى عهد الناصر . ولم نعثر على تاريخ وفاته(١) .

ومنهم محمد بن سعيد بن محمد . . بن مدرك الغسانى من أهل مالقة ، درس الحديث والفقه على عدة من أعلام عصره ، ومنهم أبو بكر بن العربى ، وبرع فى الرواية والتاريخ وتحقيق الأنساب ، وكان يقتنى مكتبة من أكبر مكتبات بلده . ولم يذكر له تاريخ وفاة(٢) .

وأحمد بن محمد الأزدى المؤرخ من أهل قرطبة ، كان من تلاميذ ابن بشكوال وأخذ عنه كثيراً ، وكان يلازم المسجد الجامع ، متعبداً متبتلا ، وقيد كثيراً من التواريخ والمواليد والوفيات ، ولكن لم يصلنا من آثاره شيء ، وتوفى سنة ٦١١هـ(٣)

ومن أشهر مؤرخى العصر الموحدى بالاندلس ، أبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرج بن حريث بن مروان الغافقى ، من أهل غرناطة ويعرف بالملاّحى نسبة إلى « الملاحة » وهى قرية من أعمال إلبيرة على مقربة من غرناطة ، وكان بها منزل سلفه . درس الحديث وشغف بالرواية والأدب والسير ، وأخذ عن عدة من أقطاب عصره ، مثل أبى الحسن بن كوثر ، وأبى محمد ابن الفرس ، وأبى عبد الله بن بونه ، وأبى بكر بن أبى زمنين وغيرهم ، وكان محدثا وراوية متقنا ، وأديبا مؤرخا بارعا . وله عدة مؤلفات أشهرها كتابه « تاريخ علماء إلبيرة وأنسابهم وأنبائهم » ، وهو مؤلف يقتبس منه المتأخرون بكثرة مثل ابن الخطيب وغيره . ومن مؤلفاته أيضاً « كتاب الشجرة فى أنساب الأمم العرب والعجم » وكتاب الأربعين حديثا » ، وله استدراك على كتاب الصحابة لأبى عمر ابن عبد البر . توفى فى شهر شعبان سنة ٦١٩ هـ ، ومولده سنة ٥٤٩ هـ(٤) .

ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الله بن عبد الملك الرعينى ، ويعرف بالرندى ، لأن أصله من رندة وسكن مالقة . عنى بالإسناد والرواية ، وأخذ بالأندلس عن عدة من الأشياخ ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأخذ هنالك عن كثيرين ، وأنفق فى المشرق نحو عشرين عاما ، ثم عاد إلى بلده مالقة ، وأخذ عنه الكثيرون ، وكان ضابطا متقنا ، عارفا بالرجال والأسانيد ، وألف كتابا فى « الصحابة » ووضع معجم أشياخه . وتوفى سنة ٦٣٢ هـ(٥)

---

(١) راجع المعجب ص١٣٠ و١٨٧ و١٨٩ و٢٠٣ حيث يشير المراكشى إلى بعض مراحل حياته .

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٤١٢ .

(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢٦٩ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٠٤ ، وفى الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ١٤٦ .

(٥) ترجمته فى صلة الصلة لابن الزبير ص ٥١ .

ومحمد بن عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله بن قسوم اللخمى من أهل إشبيلية ، كان أديبا شاعراً راوية . وعكف على الزهد والعبادة ، فطار ذكره ، وقصر شعره على الزهد والمراثى ، وأخذ البعض عنه . وعنى بالسير ، وألف كتابا سماه « محاسن الأبرار فى معاملة الجبار » يشتمل على أخبار الصالحين من أهل إشبيلية . وتوفى فى ذى الحجة سنة ٦٣٩ هـ[1] .

على أن أعظم أقطاب الرواية والتاريخ ، فى هذه الفترة القاتمة من تاريخ الأندلس ، هو بلا ريب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى المعروف بابن الأبار . وقد آثرنا أن نضع هذا المفكر الأندلسى العظيم بين المؤرخين ، لأن تراثه التاريخى هو أقيم ما انتهى إلينا من آثاره العديدة . ذلك أن ابن الأبار ، هو علامة متعددة الجوانب ، فهو فقيه راسخ ، وكاتب بلغ ذروة البيان ، وشاعر مبدع مبكى ، ثم هو بعد ذلك كله مؤرخ محقق ، وكان مولده بثغر بلنسية فى سنة ٥٩٥ هـ ، فى بيت علم ونبل ، وأصلهم من أندة على مقربة من غربى بلنسية . ودرس ابن الأبار على أبيه عبد الله ، وعلى عدة من أقطاب عصره ، منهم أبو عبد الله ابن نوح ، وأبو جعفر الحصار ، وأبو الخطاب بن واجب ، وأبو سليمان بن حوط الله ، وكبير محدثى الأندلس يومئذ أبو الربيع بن سالم ، وقد لازمه ابن الأبار أكثر من عشرين سنة ، وهو الذى أشار عليه فيما بعد أن يضع معجمه الشهير « التكملة » لكتاب الصلة . وبرع ابن الأبار فى اللغة والأدب ، وشغف بالأخبار والسير ، ورحل فى مطلع شبابه إلى غربى الأندلس ، فزار قرطبة ، ثم إشبيلية ، وهو يأخذ أينما حل عن أساتذة العصر . وتولى ابن الأبار فى شبابه قضاء دانيه[2] ، ولكن القدر كان يدخره لمهام أخطر . ذلك أنه تولى منصب الكتابة للسيد أبى زيد والى بلنسية الموحدى ، ولما اضطرمت الثورة ببلنسية ضد الموحدين وغلب على بلنسية الرئيس أبو جميل زيان بن مردنيش ، تولى ابن الأبار له منصب الكتابة ، ولكنه لم يمكث طويلا فى ذلك المنصب ، وشاء القدر أن تسقط بلنسية فى أيدى النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، وأن يكون ابن الأبار يوم تسليمها إلى جانب أميره ، وأن يقوم هو بتحرير شروط التسليم ، وكان ذلك بعد أن عبر ابن الأبار البحر سفيراً إلى تونس يطلب إلى أميرها باسم أميره ، وباسم الإسلام فى الأندلس ، الإنجاد

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٦٩ .

(٢) هذا ما يستفاد من قول ابن الأبار فى التكملة فى الترجمة رقم ٢١١٧ .

والغوث ، وينشد بين يديه قصيدته السينية الرائعة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

وقد أتينا على ذلك كله مفصلا فى موضعه . ونود أن نضيف هنا أن ابن الأبار هزته هذه المحنة إلى الأعماق ، فلم يطق البقاء فى الوطن المنكوب ، وغادر الأندلس وعبر البحر مرة أخرى إلى تونس ، فوصلها فى أواخر سنة ٦٣٦ ﻫ[1]. وعاش حيناً فى كنف أميرها أبى زكريا الحفصى يتولى له كتابة العلامة ، ثم أخذ يتردد بين تونس وبجاية يدرس هنا وهناك . ولما توفى الأمير أبو زكريا فى سنة ٦٤٧ﻫ ، وخلفه ولده المستنصر بالله ، التحق ابن الأبار ببطانته العلمية ، ولكنه لم يكن قريراً مطمئناً إلى هذه الحياة ، لما كان يتخللها من غضب السلطان بسبب دسائس خصومه أحيانا ، وبسبب تصرفاته الشخصية النزقة أحيانا أخرى . واستطاع خصوم ابن الأبار فى النهاية أن يوقعوا به ، ورفعت إلى السلطان بعض أقوال وأبيات شعر نسبت إليه طعنا فى السلطان وتعريضاً به ، فأمر المستنصر بجلده ثم بقتله ، فجلد بالسياط ، ثم قتل طعناً بالرماح ، وأخذت كتبه وأحرقت فى موضع قتله . ووقع مصرع ابن الأبار على هذا النحو المؤسى فى الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٥٨ ﻫ (٨ يناير سنة ١٢٦٠ م) ، واختتمت بذلك حياة أعظم شخصية فى الأدب الأندلسى فى القرن السابع الهجرى .

وقد ترك لنا ابن الأبار تراثا حافلا من المنثور والمنظوم ، والمصنفات التاريخية الجليلة . وأقوى وأروع ماصدر عن الأبار من نثر ونظم ، هو ماكتبه أيام المحنة ، أيام انهيار الأندلس ، وأيام سقوط وطنه بلنسية ، من القصائد والرسائل ، التى مازالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المبكى ، الذى يتفطر له الفؤاد ، وقد أشرنا إلى بعضها فيما تقدم من فصول هذا الكتاب . وأما تراثه التاريخى ، فهو من أنفس ما انتهى إلينا عن تاريخ الأندلس ، وتاريخ رجالاتها ، ولاسيما فى القرن السادس الهجرى ، وأوائل القرن السابع ، وقد كان ابن الأبار وزيراً وكاتبا ، ومعاصراً لكثير من الحوادث التى يرويها . وأهم مصنفاته التاريخية هو بلا ريب كتاب « التكملة لكتاب الصلة » وهو موسوعة حافلة فى التراجم ، يتخللها كثير من النبذ التاريخية الهامة ، وقد وضعه ابن الأبار تنفيذاً لإشارة أستاذه أبى الربيع بن سالم كبير علماء الشرق الأندلسى يومئذ ، وأريد به أن يكون « تكملة » لكتاب الصلة

---

(١) هذا ما يقوله ابن الأبار فى التكملة فى الترجمة رقم ١٨٨٠

لابن بشكوال القرطبي ، ويقول لنا ابن الأبار إنه كان قد انتهى من وضع كتاب «التكملة» فى سنة ٦٣٦هـ[١] ، وهنالك ما يدل على أنه لبث ينقحها ويزيد فيها حتى أواخر سنة ٦٥٥هـ أعنى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين[٢]. وظاهر من محتويات « التكملة » أن ابن الأبار يعنى عناية خاصة بعلماء شرق الأندلس ، وأحداثه التاريخية، وهى المنطقة التى ولد فيها ، وسلخ فيها شبابه ، واكتمل نضجه، واتصل بالعدد الجم من علمائها . وكتاب « الحلة السيراء » وهو أيضاً مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب وغيرهم ، تبدأ من المائة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة ، وكتاب « المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى السرقسطى » ينحو نحو القاضى عياض فى وضعه لمعجم شيوخه[٣]، وهذه هى معاجم التراجم الكبيرة ، التى انتهت إلينا من تراث ابن الأبار ، وهناك مايدل خلال بعض تراجم التكملة أن الأبار قد وضع معجما لشيوخه ، ومعجما آخر فى أصحاب ابن العربى . وانتهت إلينا من قلمه مجموعة صغيرة أخرى من التراجم عنوانها « إعتاب الكتاب » تشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة[٤]، ولابن الأبار مؤلفات أخرى لم تصل إلينا منها كتاب « درر السمط فى أخبار السبط » ، وهو مؤلف يشير إليه المقرى نفح الطيب ويقتبس منه[٥] ، وكتاب « معدن اللجين فى مراثى الحسين[٦] . ويوجد بمكتبة الإسكوريال كذلك مخطوط عنوانه « تحفة القادم » من تأليف ابن الأبار، يوصف بأنه « مقتضب من كتاب تحفة

---

(١) راجع التكملة فى الترجمة رقم ١٦٩٠ .

(٢) هذا ما يبدو من مراجعة ماورد فى الترجمة رقم ١٦٥٢ .

(٣) نشر كتاب التكملة فى مجلدين بمدريد منذ سنة ١٨٨٧ ضمن المكتبة الأندلسية . ونشر كذلك فى طبعة ناقصة بالقاهرة (١٩٥٥) . ونشر كتاب المعجم فى أصحاب القاضى أبىعلى الصد فى أيضا ضمن المكتبة الأندلسية (سنة ١٨٨٦) . ونشر كتاب الحلة السيراء بعناية المستشرق دوزى فى طبعة ناقصة حذف منها كثير من التراجم (سنة ١٨٥١) نشر بعضها بمعرفة دوزى أيضاً فى مجموعة « نصوص بنى عباد » **Historia Abbadidarum** ، والبعض الآخر بعناية المستشرق ميللر فى : **Beiträge** . وقد قام أخيراً الدكتور حسين مؤنس باصدار طبعة كاملة محققة من الحلة السيراء فى مجلدين (القاهرة سنة ١٩٦٤) وذلك أثناء قيامنا بطبع هذا الكتاب .

(٤) وتوجد منه نسخة قديمة بالية ، بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١ الغزيرى .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠١ — ٦٠٤ حيث يقتبس المقرى منه عدة فصول .

(٦) وقد ورد ذكره خلال الترجمة رقم ١٦٥٤ من كتاب التكملة حيث يشير ابن الأبار نفسه إلى أنه ألف كتابا بهذا الإسم .

القادم » وهو حسبما يصفه ابن الأبار فى الديباجة « اقتضاب من بارع الأشعار » وفيه يورد ابن الأبار تراجم بعض الشعراء الأندلسيين والغرباء ، ومختارات من من أشعارهم[١] . وذكر لنا ابن الأبار فى الحلة أن له مؤلفا آخر عنوانه « إيماض البرق فى أدباء الشرق »[٢] .

وبعد فهذه لمحة فى التعريف بابن الأبار وتراثه ، حسبما وسع هذا المقام المحدود . وقد خلدت لنا آثار ابن الأبار صوراً حية من محنة الأندلس، وعوامل انهيارها ، لم يستطع كاتب آخر من معاصريه ، أن يقدم إلينا شيئاً يدانيها . ومازالت هذه الآثار حتى يومنا ، أهم وأوثق مصادرنا عن تلك الفترة المشجية من التاريخ الأندلسى[٣] .

ومن الأدباء المؤرخين الذين نبغوا فى تلك الفترة ، على بن موسى بن سعيد الأندلسى ، المعروف بابن سعيد المغربى ، وأصله من سادة قلعة يحصب من أعمال شمالى غرناطة ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة فى مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم فى فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، بضم كتابين كبيرين هما «كتاب المشرق فى حلى المشرق ، و « كتاب » المغرب فى حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ، وتجول بقواعد الأندلس ، والمغرب والمشرق ، وتوفى بدمشق سنة ٦٧٣ هـ ، ومؤلفه أثر أدبى كبير ، تاريخى جغرافى ، بارع الأسلوب . وله كتب أخرى منها « المرقص والمطرب » وملوك الشعر ، والطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد ، ولذة الأحلام فى تاريخ أمم الإعجام ، ونشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب ، وغيرها[٤] .

ومن المؤرخين المغاربة فى العصر الموحدى ، أحمد بن يوسف بن أحمد ابن يوسف بن فُرتون السلمى ، من أهل مدينة فاس، واستوطن سبتة ، ويعرف

---

(١) يحفظ هذا المخطوط بمكتبه الإسكوريال برقم ٣٥٦ الغزيرى .

(٢) الحلة السيراء ص ٢٢٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن الأبار فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦–٢٢٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ — ٥٨٠ ، وعنوان الدراية ص ١٨٣ — ١٨٦ ، والزركشى فى تاريخ الدولتين ص ٢٧ . وراجع أيضاً فى ترجمة ابن الأبار وتعداد آثاره **Pons Boigues; ibid, p. 291-296** .

(٤) ترجمته فى فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٩ — ٩١ وكذلك فى : **Pons Boigues : p. 306**

بابن فرتون ، عنى بالتاريخ والسير ، وتراجم الرجال ، إلى جانب عنايته بالحديث ، وألف مجموعا فى التراجم عنوانه « الذيل » ، وتوفى بسبتة فى شعبان سنة ٦٦٠ هـ[١].

ونبغ فى أواخر العصر الموحدى ، وتجاوزه بقليل عدة من المؤرخين ، وأصحاب المعاجم والسير ، التى كانت من أخصب مصادرنا فى كتابة تاريخ العصر الموحدى وتراجم رجاله ، وفى مقدمة هؤلاء أبو عبد الله محمد المراكشى المعروف بابن عذارى صاحب الموسوعة الجليلة فى تاريخ المغرب والأندلس ، « البيان المغرب » ، وهى التى كانت من أهم وأوثق مصادرنا . وقد أشرنا إليها وإلى أهميتها فى بداية هذا الكتاب ، فى الفصل الذى كتبناه عن « المصادر » . أما عن حياة ابن عذارى فلسنا نعرف الكثير ، ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، وكان حيا فى سنة ٧١٢ هـ ، حسبما يذكر لنا ذلك فى مؤلفه ، وربما توفى بعد ذلك بقليل[٢] .

وابن القطان صاحب كتاب « نظم الجمان » ، وقد كان حيا فى عصر الخليفة المرتضى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى فصل المصادر .

وأحمد بن ابراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين بن الزبير ، الشهير بابن الزبير ، وهو أندلسى من أهل جيان ولد بها سنة ٦٢٧ هـ ، وتوفى بغرناطة سنة ٧٠٨ هـ ، وكان محدثا متقنا . وقد ترك لنا مجموعة نفيسة من التراجم عنوانها « صلة الصلة » مذيلا بها على صلة ابن بشكوال ، ومنها كثير من التراجم لرجال العصرين المرابطى والموحدى[٣] .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى ، المراكشى ، وقد كان فقيهاً جليلا ، ومؤرخاً ثقة ، تولى قضاء الجماعة حينا . ويصفه ابن الخطيب خلال ترجمته لولده « بقاضى القضاة ، نسيج وحده الإمام العالم التاريخى المتبحر فى الأدب »[٤] ، وقد ترك لنا ابن عبد الملك موسوعة من أجل موسوعات التراجم لرجالات المغرب والأندلس ، تشغل عدة مجلدات كبيرة ، وتوجد منها نحو خمسة مجلدات ، مبعثرة بالمتحف البريطانى ، والمكتبة الوطنية

---

(١) ترجمته فى مقدمة صلة الصلة (ص ط) (٢) راجع البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٥٤ .

(٣) نشر كتاب « صلة الصلة » بعناية المرحوم الأستاذ ليفى بروفنسال (الرباط سنة ١٩٣٧) ، ووردت به ترجمة ابن الزبير فى المقدمة (ص هـ) منقولة عن تكملة ابن عبد الملك .

(٤) فى الإحاطة فى ترجمة محمد بن عبد الملك ولد المؤرخ ، مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٦٧.

بباريس ، ودار الكتب المصرية ، ومنها قطعة بالإسكوريال ، وقد أشرنا إلى ذلك فى الفصل الخاص بالمصادر . أما عن حياة مؤلفها فلسنا نعرف الكثير ، ولا نعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وتوفى أواخر هذا القرن وربما فى أوائل القرن الثامن[1] .

وتسمى موسوعة ابن عبد الملك « بالذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » أى لكتابى « ابن الفرضى وصلة ابن بشكوال » وقد كتبت تراجمها بلغة أدبية ونقدية قوية ، وتخللتها نبذ تاريخية عديدة هامة ، انتفعنا بالكثير منها .

---

(١) ذكر بونس بويجيس **P. Boiguas** فى معجمه فى ترجمة ابن عبد الملك أنه كان معاصراً للعبدرى صاحب « الرحلة المغربية » التى كتبت فى سنة ٦٨٨ هـ ، وأنه يجب أن يكون قد توفى فى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) **Historiadores y Geograficos Arab. Espanoles** (ص٣١٠ و٤١٤) . وقد وهم هذا العلامة فيما استنتج . وقد وقفنا على ما يدحض هذا الوهم ، أولا فى الجزء المحفوظ من التكملة المحفوظ بمكتبة الإسكوريال (١٦٨٢ الغزيرى) ففيه يترجم ابن عبد الملك لأبى الطيب صالح ابن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ويذكر فى هذا الترجمة كما يأتى « وروى عنه جماعة من أصحابنا ، وكتب إلى بإجازة مارواه وألفه وأنشأه نظماً ونثراً » ومعنى ذلك أن ابن عبد الملك ، أخذ عن الرندى وتتلمذ عليه ، فهو بذلك متأخر عنه ، وثانيا وقفنا فى كتاب الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى) على ترجمة لمحمد بن محمد بن عبد الملك وهو ابن صاحب التكملة ، وفيها أنه توفى فى وقيعة على المسلمين من جيش مالقة فى شهر ذى القعدة سنة ٧٤٣ هـ (لوحة ٦٧ — ٧٤ من المخطوط) وهو مايؤيد مرة أخرى أن صاحب التكملة امتدت حياته فيما يرجع إلى أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى .

الفصل الرابع

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العصر الموحدى

القسم الثالث

إزدهار العلوم فى ظل الدولة الموحدية . أعلام الطب فى العصر الموحدى . أبو جعفر الغافقى القرطبى . ابن غلندة الأموى . أبو مروان بن جريول . محمد بن عبد الملك بن زهير . أبو جعفر ابن حسان القضاعى . عبيد الله بن الوليد المذحجى . محمد بن على القرشى الزهرى . علماء النبات . أبو على ابن مفرج البكرى الأشبونى . جودى بن عدنان القيسى . ابن مفرج الأموى المعروف بابن الرومية . ابن البيطار المالقى . علماء الرياضيات . ابن سهل الضرير . أبو اسحق البطروجى المراكشى . عبد الله ابن محمد بن حجاج . محمد بن بكر الفهرى . الحسن بن على المراكشى . أبو بكر الرقوطى المرسى . العالم الزراعى ابن العوام الإشبيلى . عباقرة الطب والفلسفة . أبو بكر بن طفيل القيسى . رسالة «حى ابن يقظان» . أبو الوليد ابن رشد . تصانيفه الفلسفية والطبية . اتهامه ونكبته أيام المنصور . الرئيس موسى بن ميمون القرطبى . الفنون فى ظل العهد الموحدى . تحول الخلافة الموحدية إلى ملك دنيوى باذخ . الإتجاه إلى استكمال مظاهر الأبهة الملوكية . إنشاء مدينة جبل طارق . رعاية الدولة الموحدية للفنون المعارية . المنشآت الموحدية بإشبيلية . القصور الموحدية والجامع الأعظم وصومعته . قصر السيد أبى يحيى بقرطبة . قصر السيد أبى اسحق بغرناطة . بعض أقطاب الهندسة والفن فى هذا العصر . صدى هذه الحركة العمرانية والفنية فى العاصمة الموحدية . ضاحية الصالحة . صومعة الكتبية . الموسيقى وإغفال شأنها . فن كتابة المصاحف . تفوق الفنون الموحدية فى المنشآت الدفاعية .

بقى علينا أن نستعرض من الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى ، ناحية من أهم نواحيها ، وهى ناحية العلوم والفنون . فنى هذا الميدان ميدان العلوم والفنون ، تصل الحركة الفكرية الأندلسية إلى ذروة قوتها وازدهارها ، وتسطع خلالها أسماء من أعظم شخصيات التفكير الأندلسى ، بل من أعظم شخصيات التفكير الإسلامى ، على الإطلاق ، ويكفى أن يكون من بينها ، عبقريات مثل ابن طفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، وابن الرومية ، وابن البيطار .

لم تكن الدولة الموحدية ، بالرغم من صفتها الدينية الراسخة ، من الناحية الفكرية ، كالدولة المرابطية ، دولة رجعية تطارد العلوم والفلسفة ، بل كانت بالعكس حسبما بينا من قبل ، دولة تفسح للتفكير مجالاته ، لما كان يتصف به

مؤسسها الروحي وخلفاؤه من الصفات العلمية البارزة ، وإذا استثنينا بعض حوادث المطاردة الفكرية ، مثل حادث اتهام ابن رشد وزملائه أيام المنصور ، فإنا نستطيع أن نصف الدولة الموحدية ، بأنها كانت دولة حامية للعلوم ، كما كانت حامية للآداب ، حامية للفنون فى نفس الوقت ، حماية تشهد بها منشآتها العمرانية العظيمة فى المغرب والأندلس

ولدينا فى الواقع ثبت حافل ، من أكابر العلماء الذين نبغوا فى ذلك العصر فى مختلف العلوم ، فى الطب والنبات والرياضة والفلك والهندسة وغيرها ، وإذا كان هذا الثبت ليس مرتفعا من الناحية العددية ، كما هو الشأن فى ميدان العلوم الدينية والنظرية ، فإنه يضم أقطابا من الطراز الأول ، من أساتذة الطب والفلسفة والنبات فى العصور الوسطى .

— ١ —

ولنبدأ بذكر أعلام الطب فى هذا العصر ، وقد كانت منهم ثمة جمهرة كبيرة ، وأقطاب عظام .

كان من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقى القرطبى ، برع فى الطب والنبات ، وتجول فى أنحاء الأندلس وإفريقية ، وجمع منها أصنافا عديدة من النباتات الطبية ، وقام بتصنيفها من الناحية العلمية ، وسجلها بأسمائها العربية واللاتينية والبربرية ، وكان كتابه « الأدوية المفردة » من أهم المراجع الطبية فى عصره . وتوفى سنة ٥٦١ هـ

وعبيد الله بن غَلَندة الأموى ، أصله من سرقسطة، وسكن إشبيلية . غادر أهله سرقسطة حين تغلب عليها النصارى فى سنة ٥١٢ هـ ، ونزلوا أولا بقرطبة، وبها درس عبيد الله ، ثم رحل منها إلى إشبيلية واستقر بها ، وبرع فى الأدب والشعر . ولكنه برع فى الطب فى نفس الوقت ، وذاع صيته كطبيب ماهر فى العلاج . وفى أواخر حياته عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمدينة مراكش، وبها توفى فى سنة ٥٨١ هـ ، وقد بلغ السابعة والتسعين من عمره(١) .

ومنهم أبو مروان عبد الملك بن محمد بن جُرْيُول من أهل بلنسية ، وسكن قرطبة ويعرف بابن كنراط ، كان من المبرزين فى معرفة الطب ، المتقدمين فى صناعته ، وعنه أخذ كثير من أقطاب العصر ، وفى مقدمتهم العلامة

(١) ترجمته فى التكلمة رقم ٢١٨٠ .

ابو الواليد بن رشد ، وغيره . ولم يذكر تاريخ لوفاته[١] .

وعبد الله بن سيد أمير اللخمى من أهل شلب ، من ناحية الغرب ، برع فى الحديث والنحو وكانت له مشاركة فى علم الطب عرف بها ، وانتفع به[٢] .

ومنهم ، ومن أشهرهم وألمعهم ، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر ابن عبد الملك بن زهر الأيادى، سليل الأسرة الإشبيلية الشهيرة ، ولد العلامة والطبيب العظيم أبى مروان عبد الملك ، وحفيد أبيه وقرينه فى النبوغ أبى العلاء ابن زهر . وقد سبق أن قمنا بالتعريف بالأب والجد فى القسم الأول من هذا الكتاب[٣] . ودرس أبو بكر علم الطب على أبيه وجده ، وبرع فى نفس الوقت فى الحديث والأدب واللغة ، ولكنه تفوق فى صناعة الطب ، وبلغ الغاية منها ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، منذ أيام أبى يعقوب يوسف ، وتولى فى بلده إشبيلية بعض المناصب الإدارية الهامة ، ثم عين فيما بعد طبيباً خاصاً للخليفة أبى يعقوب المنصور ، وبلغ فى ظل الخلافة الموحدية ذروة الجاه والنفوذ ، وتوفى بمراكش فى أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٩٥ هـ ، وصلى عليه الخليفة (محمد الناصر) ودفن بروضة الأمراء ، ومولده فى سنة ٥٠٧ هـ[٤] .

ومنهم أحمد بن داود بن يوسف الجذامى من أهل باغة من عمل غرناطة، كان أديبا نحوياً عالما باللغة ومن العارفين بصناعة الطب. ومن مؤلفاته الأدبية شرحه لكتاب آداب الكتاب لابن قتيبة ، وبدأ فى وضع شرح لمقامات الحريرى ولم يتمه . وتوفى فى سنة ٥٩٨ هـ[٥]

وأبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن حسان القضاعى ، أصلة من أندة من عمل بلنسية ، وولد بمرسية ، ودرس الحديث ، ورحل إلى المشرق مرافقاً لابن جبير فى رحلته، وسمع معه فى دمشق وبغداد وغيرهما ، وعاد معه إلى المغرب وكانت أبرز خلة لدى أبى جعفر هى براعته فى صناعة الطب ، وتحققه من دقائقها ، وقد وضع فيها تأليفاً مفيداً لم يذكر لنا عنوانه . وتوفى بمراكش سنة ٥٩٩هـ[٦] .

وعبيد الله بن محمدبن عبيد الله . . بن ابراهيم بن الوليد المذحجى ، من أهل باغة ، وسكن قرطبة ودرس بها الحديث والأدب والطب ، وأخذ الطب بنوع

---

(١) ترجمته فى التكلة (الأندلسية) رقم ١٧١٤ .
(٢) ترجمته فى التكلة رقم ٢٠٧٥ .
(٣) راجع ص٤٧٣ من القسم الأول من هذا الكتاب.
(٤) ترجمته فى التكلة رقم ١٤٩٩
(٥) ترجمته فى التكلة رقم ٢٤٠ .
(٦) ترجمته فى التكلة رقم ٢٤١ .

خاص عن أبى مروان عبد الملك بن جُرُّبول البلنسى ، وأبى نصر بن الحجام ، ومحمد بن ظهير وغيرهم ، وعنى بلقاء الشيوخ من المحدثين والأطباء، وكان فوق مهارته فى الطب أديبا يجيد النظم والنثر . وذكر ابن الطيلسان أنه سليل أسرة من الأطباء تعاقب أبناؤها فى المهنة منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وتوفى ابن الوليد فى ربيع الآخر سنة ٦١٢ هـ (١) .

ومحمد بن على بن أحمد بن عبد الرحمن القرشى الزهرى من أهل إشبيلية ، درس الحديث والرواية ، ولكنه شغف بالطب ، ومهر فيه ، وكان يقصده الحكام والكبراء للعلاج ، ولما مرض والى إشبيلية الموحدى ، كان ممن شاركوا فى علاجه ، توفى سنة ٦٢٣ هـ ، وقد جاوز التسعين من عمره(٢) .

وأحمد بن عتيق بن على بن خلف . . بن سعيد، من سلالة عبد الرحمن الداخل ، أصله من سرقسطة . كان عالما نابهاً متقنا للطب وعلوم الأوائل. ولى القضاء بشريش حيناً . ثم اتصل بأبى العلى المأمون أيام ولايته لإشبيلية فحظى لديه، ولما دعا المأمون لنفسه بالخلافة ، وجهه إلى قبائل العدوة ليستميل شيوخها إلى بيعته ، فنجح فى مهمته . ثم صحب المأمون إلى العدوة ، ولكنه لما شعر باضطراب الأحوال استأذن المأمون فى العودة إلى الأندلس ، ونزل بمالقة ، فألفاها قد خلعت طاعة الموحدين وانضمت إلى ابن هود . واتجهت إليه الريبة عندئذ بأنه حضر إلى مالقة ليروج بها دعوة المأمون واعتقله الوالى ، ولكن العامة ألحوا عليه فى إخراجه وهددوه فأخرجه إليهم فقتلوه ، وذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٢٧هـ(٣)

ومحمد بن على بن سليمان بن رفاعة من أهل شريش ، عنى بالحديث والرواية والأدب ، وكانت له مشاركة فى الطب ، وكان من أساتذته أبو بكر بن زهر ، وتوفى سنة ٦٣٦ هـ(٤) .

وعبدالله بن أحمد عبد الله . . بن حفص الأنصارى من أهل دانية ، وسكن شاطبة ، درس الحديث والعربية والأدب ، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية ودمشق والموصل، ومال إلى علم الطب وعنى به، ومهر فيه . وعاد من رحلته الأولى إلى المغرب ونزل بتونس حيناً ، ثم رحل ثانية إلى المشرق ، وتوفى بالقاهرة فى سنة ٦٤٦ هـ(٥).

---

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٨٤ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٨ .

(٣) ترجمته فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك — المجلد الأول من مخطوط باريس لوحة ٦٧ و ٦٨ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٦٦ . (٥) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٢٢ .

هؤلاء هم طائفة من الأطباء الذين ظهروا فى العصر الموحدى ، ولم نذكر من بينهم أقطاب الطب العظام مثل ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن ميمون ، لأننا آثرنا أن نذكر هؤلاء بين الفلاسفة ، وهى الصفة الغالبة عليهم بالرغم من مثولهم بين أعظم الأطباء فى العصور الوسطى .

— ٢ —

ونبغ فى هذا العصر عدة من علماء النبات ، منهم اثنان من أعظم النباتيين فى العصور الوسطى ، وهما ابن الرومية الإشبيلى ، وابن البيطار المالقى ، ونحن نذكرهم فيما يلى :

كان منهم أبو على حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج البكرى الأشبونى ، لأن أصله من أشبونة عاصمة البرتغال الإسلامية ، وسكن الجزيرة الخضراء ، يعرف بالزرقالة ، درس الحديث والأدب ، ولكنه مهر فى الطب والعلاج ، وفى تمييز النبات والعشب ، وفاق فى ذلك أهل عصره ، وكان يقرض الشعر فى نفس الوقت وتوفى سنة ٦١٣ هـ(١).

وجودى بن عبد الرحمن بن جودى . . بن عدنان القيسى من أهل وادى آش ، درس القرآن والعربية على جماعة من أقطاب عصره مثل أبى جعفر بن حكم ، وأبى بكر بن أبى زمنين ، وأبى القاسم بن سمجون وغيرهم ، وكانت له معرفة بالنبات وتمييزه ، مع اشتهاره بالأدب فى نفس الوقت . وتوفى ببلده سنة ٦٣١ هـ(٢).

على أن أعظم النباتيين والعشابين فى العصر الموحدى ، بل أعظم النباتيين المسلمين فى سائر العصور ، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموى ، المعروف بابن الرومية ، وبالعشاب ، والنباتى . ولد بإشبيلية فى المحرم سنة ٥٦١ هـ ، وأصلهم من قرطبة ، ودرس الحديث على جماعة من أقطاب العصر مثل أبى بكر ابن الجد وأبى عبد الله بن زرقون ، وأبى الوليد بن عفير ، وعبد المنعم بن الفرس ، وأبى ذر الخشنى وغيرهم ، وتجول فى طلب العلم ، وسماع الحديث ، حتى صار فيه إماما حافظا ، ناقداً ، ذاكراً تاريخ المحدثين وأنسابهم ومواليدهم ، ووفياتهم ، وتعديلهم وتجريحهم . ومال إلى علم النبات ودراسته ، وتمييزه ، وتصنيفه ، وتجول من أجل ذلك فى ربوع الأندلس ، والمغرب وإفريقية ، ثم رحل إلى المشرق ، بعد سنة ٥٨٠ هـ ، وتجول فى مصر والشام والعراق والحجاز ، فدرس الكثير من أصناف النباتات غير المعروفة ، ووقف على كثير من غوامضها ، قال

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٩ .　　(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٦١ .

ابن عبد الملك « حتى وقف من ذلك على ما يقف عليه غيره ، ممن تقدم فى الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لايجاريه فيه أحد باجماع ذلك الشأن » ووصفه ابن الخطيب بأنه « عجيبة نوع الأنسان فى عصره ، وماقبله ، وما بعده فى معرفة علم النبات ، وتمييز العشب ، وتحليلها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها بمشرق أو بمغرب ، حسا ، ومشاهدة وتحقيقاً ، لامدافع له فى ذلك ولامنازع ، حجة لاترد ولاتدفع . قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك » .

وكان ابن الرومية فقيهاً ظاهرى المذهب ، من أنصار ابن حزم ، وانتشرت على يديه تصانيف ابن حزم ، بما أبداه من غيرة وعناية فى إظهارها واستنساخها والإنفاق عليها ، وكان إلى ذلك ورعا ، زاهدا ، وكان بعد أن عاد من رحلاته الدراسية بالمشرق قد استقر ببلده إشبيلية ، وافتتح متجراً لبيع الأعشاب الطبية . قال ابن الأبار : « وهناك رأيته ولقيته غير مرة » .

ولإبن الرومية تصانيف عديدة فى الحديث والنبات ، منها فى الحديث ، رجالة المعلم بزوائد البخارى على مسلم ، واختصار حديث مالك للدارقطنى ، ونظم الدرارى فيما تفرد به مسلم عن البخارى ، والحافل فى تدليل الكامل وغيرها . ومن مصنفاته فى النبات « شرح حشائش دياسقوريدس وأدوية جالينوس ، والتنبيه على أوهام ترجمتها » و« التنبيه على أغلاط الغافقى » ، و« الرحلة النباتية » و« المستدركة » وغيرها ، وله كتاب فى « الأدوية المفردة » على نمط كتب بنى زهر فى ذلك . ويعتبر ابن الرومية أعظم العشابين والنباتيين فى العصور الوسطى ، ولايتقدمه أحد فى هذا الشأن من القدماء سوى دياسقوريديس اليونانى ، الذى عاش فى القرن الأول للميلاد ، والذى وضع ابن الرومية شرحه لحشائشه .

وتوفى ابن الرومية بإشبيلية فى شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ ، قبل سقوطها فى أيدى القشتاليين بنحو تسعة أعوام[1].

وجاء بعد ابن الرومية تلميذه ابن البيطار المالقى ، فكان أعظم علماء النبات بعد أستاذه ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة فى أواخر القرن السادس الهجرى ، ودرس على أستاذه ابن الرومية وبرع مثله فى النبات

(١) ترجمته فى التكلة رقم ٣٠٤ ، وفى الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٢١٥ – ٢٢١ .

والوسائل العلاجية ، ثم غادر الأندلس ، وطاف بأنحاء المغرب باحثا عن الفصائل النباتية دارسا لخصائصها، ثم قصد إلى مصر أيام الملك الكامل فدخل طبيبا فى خدمته، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان . ووضع فى ذلك كتابين، هما : «كتاب الجامع فى الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة فى عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، « وكتاب المغنى فى الأدوية المفردة » وهو مرتب على أبواب معالجة الأعضاء . وله أيضاً كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . وكان ممن تتلمذ على ابن البيطار ودرس عليه ، العلامة الطبيب ابن أبى أصيبعة صاحب معجم طبقات الأطباء ، وقد أشاد ببراعته وغزارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفى ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ(١) .

ونبغ فى تلك الفترة كذلك عدة من علماء الرياضيات والفلك ، نذكر منهم :

عبدالله بن محمد بن سهل الضرير ، من أهل غرناطة. درس القراءات والحديث، وبرع فى العربية والآداب . ولكنه مال كذلك إلى العلوم الرياضية ، وأخذها من بعض أصحاب أبى بكر بن الصائغ (ابن باجة) . واستدعاه الأمير محمد بن سعد أمير الشرق لتأديب ولده فسكن مرسية وقتا . ولما تفاقمت الحوادث شغل عنه ، فبقى مضاعا إلى أن توفى بها فى أواخر سنة ٥٧١ هـ(٢) .

وأبو اسحق نور الدين البطروجى المراكشى ، تلميذ الفيلسوف ابن طفيل ، وقد برع فى العلوم الطبيعية والفلك ، وحاول أن يصحح أخطاء الطريقة البطلمية فى الأفلاك بوضع شرح جديد للدورة الفلكية ، ويعرف البطروجى عند علماء الغرب باسمه اللاتينى Alpetragius ، وقد توفى بإشبيلية فى سنة ٦٠١ هـ .

وعبد الله بن محمد بن حجاج من أهل فاس ، ويعرف بابن الياسمين ،وهو من قبيلة أساسة البربرية النازلة فى أحواز فاس ، أخذ عن أبيه عبد الله بن قاسم علم الحساب والعدد وبرع فيه ، وعبر إلى الأندلس فأتم بها دراسته . وله أرجوزة فى علم الجبر ، وخدم البلاط الموحدى بمراكش، وكانت له فيه حظوة . وتوفى قتيلا بمراكش سنة ٦٠١ هـ(٣) .

ومحمد بن بكر بن محمد عبد الرحمن بن بكر الفهرى من أهل بلنسية ، كان

(١) ترجمته فى فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٠٥٦ .
(٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٥٦ .

إماما فى الحديث ، ودرس على أقطاب عصره مثل أبى عبدالله بن نوح ، وأبى الخطاب ابن واجب ، وأبى عمر بن عات ، وامتاز ببراعته فى علم الحساب ، وتحققه من مسائله ، وكان فضلا عن ذلك مشاركا فى الطب ، حافظا للتواريخ ، وتوفى سنة ٦١٨ هـ[١].

وكان من أبرع علماء الفلك فى أواخر العصر الموحدى ، أبو على الحسن بن على ابن عمر المراكشى من أهل مراكش ، اشتهر بكتابه المسمى « جامع المبادئ والغايات » وهو موسوعة جليلة فى الفلك ، وتشتمل كذلك على أوصاف الآلات الفلكية التى كانت معروفة فى عصره ، وبه جداول فلكية ، وفهرس للنجوم عن سنة ٦٢٢ هـ ، وشروح لخطوط الطول والعرض لكثير من الأماكن . وبالجملة فقد كان أبو على آية عصره فى علمه وفنه ، وتوفى فى أواخر العصر الموحدى فى سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) .

ومن أواخر علماء شرق الأندلس أبو بكر محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، وكان آية فى المعرفة والبراعة ، فى المنطق والهندسة والرياضيات والطب والموسيقى ، وكان فوق ذلك فيلسوفا وطبيباً ماهراً ، يتقن عدة لغات ، وكان قد بقى فى وطنه مرسية بعد تغلب النصارى عليها (٦٦٤ هـ — ١٢٦٦ م) ولم يقبل أن يغادرها فيمن غادرها من بنى وطنه ، وقدر المتغلب (خايمى الأول) قدره ، وابتنى له مدرسة ، يعلم فيها المسلمين والنصارى واليهود ، وحاول عبثا أن يغريه باعتناق النصرانية ، ثم غادر مرسية أخيراً ، تلبية لدعوة ابن الأحمر سلطان غرناطة ، فنزل بها ، وأقبل عليه طلابها ، وكان يدرس الطب ، والرياضة والفلك وغيرها ، ولم يذكر لنا تاريخ وفاة الرقوطى ، ولكن المرجح أنه توفى أواخر القرن السابع[٢] .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا الثبت من علماء الرياضة والفلك ، اسم عالم من علماء الزراعة ، هو أبو زكريا يحيى بن أحمد بن العوام الإشبيلى ، وقد عاش فى إشبيلية فى أواخر القرن السادس الهجرى (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) واشتهر بكتابة « الفلاحة » وقد اعتمد فيه بالأخص على كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلى ، ويقدم إلينا ابن العوام فى مؤلفه الضخم عرضا مستفيضا للفنون الزراعية وكيفية العمل فى الزراعة والغراسة ، وتسميد الأرض وإصلاحها ، واختيار البذور والغراس الصالحة ، والمواسم الملائمة لزراعة كل صنف ،

(١) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٠٠ .

(٢) ترجمة الرقوطى فى الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى — لوحة ١٠٧ .

وغير ذلك مما يؤدى إلى جودة الأرض ووفرة الإنتاج(١) .

— ٣ —

ونعود الآن إلى ذكر عباقرة الطب خلال العصر الموحدى ، وهم الذين غلبت عليهم صفة الفلسفة قبل كل شيء ، بالرغم من نبوغهم فى الطب ،واعتبارهم من أعظم الأطباء فى العصور الوسطى .

هؤلاء هم ثلاثة ، أبو بكر بن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد ، وموسى بن ميمون القرطبى .

فأما ابن طفيل ، فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ، من أهل وادى آش . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق، وربما ولد فى الأعوام الأولى من القرن السادس الهجرى . ودرس ابن طفيل الحديث والفقه واللغة ، على أبى محمد الرُّشاطى ، وعبد الحق بن عطية ، وغيرهما من أقطاب العصر . ولكنه مال إلى الحكمة وعلوم الأوائل ، ودرس الحكمة على أبى بكر ابن الصائغ (ابن باجة) وغيره ، وبرع فى الفلسفة والطب، وكان عالما محققاً ، شغوفا بالحكمة المشرقية ، متصوفا ، طبيباً ماهراً فى أصول العلاج ، وفقيهاً بارع الإعراب، وكاتبا بليغاً ، ناظما ناثراً ، مشاركا فى عدة فنون . وبدأ ابن طفيل حياته العامة بخدمة المتغلب على بلده وادى آش ، أحمد بن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٠ هـ . ولما سقطت حكومة ابن ملحان بعد ذلك بأعوام قلائل ، انتقل ابن طفيل إلى خدمة الموحدين ، وكتب لوالى غرناطة الموحدى. ولما ولى السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حكم إشبيلية ، التف حوله جماعة من العلماء والمفكرين ، كان منهم ابن طفيل . وكان الأمير يشغف بمجالس العلم ، ويؤثر العلماء بصحبته . ولما تولى هذا الأمير الخلافة عقب وفاة أبيه فى سنة ٥٥٨ هـ ، عين ابن طفيل طبيبه الخاص وكان فضلا عن ذلك ينتدبه لبعض المهام الخلافية الدقيقة ، ومن ذلك أن عهد إليه بالسعى لتأليف طوائف العرب ، وترغيبهم فى الجهاد، وفى سبيل ذلك وضع ابن طفيل، وكان إلى جانب علمه الغزير ، شاعراً مجيداً، قصيدته الشهيرة ، يهيب فيها بالعرب أن ينهضوا للمشاركة فى الجهاد ، ومطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب   لغزو الأعادى واقتناء الرغائب

---

(١) نشر كتاب الفلاحة لابن العوام لأول مرة بمدريد سنة ١٨٠٢ فى مجلدين كبيرين عن مخطوطه الموجود بمكتبة الإسكوريال ، بعناية القس يوسف أنطونيو بانكيرى مقرونا بترجمة إسبانية .

ولما عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس فى أواخر سنة ٥٦٦ هـ ، واستطالت إقامته فى إشبيلية بضعة أعوام ، التف حوله رهط من صفوة العلماء، كان فى مقدمتهم ثلاثة من أعظم الأطباء والفلاسفة المسلمين ، هم طبيبه الخاص ابن طفيل، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو اليد بن رشد، والعلامة الطبيب أبو بكر ابن زهر. وقد سبق أن أشرنا إلى شغف الخليفة أبى يعقوب يوسف بالدراسات الفلسفية ، وشغفه بملازمة ابن طفيل ، والأخذ عليه ، كما أشرنا إلى الدور الذى قام به ابن طفيل فى الإيعاز إلى تلميذه ابن رشد بعمل تلخيص جديد لشروح أرسطو . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم باسمه من مختلف الأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه، ويحثه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل تلميذه ابن رشد وبراعته لدى الخليفة حتى علت مكانته لديه . ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى ربيع الآخر سنة ٥٨٠هـ ، عقب نكبة جيشه فى موقعة شنترين ، استمر ابن طفيل فى منصبه طبيبا خاصا لولده الخليفة الجديد أبى يوسف يعقوب المنصور ، ولكنه لم يعش بعد ذلك طويلا إذ توفى بمراكش فى أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وحضر الخليفة جنازته(١)

وأشهر مؤلفات أبى طفيل رسالة «حى بن يقظان » أو « أسرار الحكمة المشرقية » و« الأرجوزة الطبية المجهولة » « ورسالة فى النفس » وغيرها من مؤلفات ورسائل لم تصل إلينا . وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة « حى بن يقظان » وهى تلخيص فلسفى رائع لأسرار الطبيعة والخليقة، عرضت خلال حياة وأعمال طفل، خلق من «بطن الأرض» فى جزيرة مجهولة من جزائر الهند جنوبى خط الاستواء، وهذا الطفل هو « حى » . وقد استطاع بالملاحظة والتأمل التدريجى لظروف الحياة ، ومظاهرها الطبيعية ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا، وأن يتقرب فى تأمله وصومه من الله . وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية، وهو لا يزيد عن خمسين صفحة ، فقد لفتت بروعتها أنظار النقد الحديث ، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى لغات أخرى(٢).

وأما ابن رشد ، فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد

---

(١) راجع فى ترجمه ابن طفيل ، الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى لوحة ٥٠ — ٥٧ ، والمعجب للمراكشى ص ١٣٤ — ١٣٥ . وراجع ص ١٣٦ من هذا الكتاب .

(٢) ترجمها إلى اللاتينية **Pockocke** ، ونشرت باكسفورد سنة ١٦٧١ بعنوان **Philosophus Autodidactus** ونشرت ترجمتها الإنجليزية فى سنة ١٧٠٨ بقلم **Ockly** والفرنسية سنة ١٩٠٠ بقلم **Gautier** ونشرت ترجمتها الإسبانية سنة ١٩٠٠ بقلم المستشرق **Pons Boigues**

ابن رشد ، وهو سليل بيت من بيوتات العلم والنباهة العريقة بقرطبة ، وبها ولد سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، ودرس بها دراسة حسنة ، وأخذ الحديث عن أبيه أبي القاسم ، وابن بشكوال ، وأبي مروان بن مسرة، وغيرهم . درس الطب أولا على أبي مروان بن جرْيول البلنسي ، ثم بعد ذلك على أستاذه الأثير عبد الملك بن زهر ، ودرس الفقه والأصول والكلام على أقطاب عصره . وبرع ابن رشد بالأخص في الحكمة والطب . ولما بلغ الثلاثين من عمره غادر موطنه قرطبة إلى إشبيلية ، وكانت دولة المرابطين قد انهارت يومئذ ، وخلفتها دولة الموحدين ، وكان والي إشبيلية الموحدى يومئذ ، هو حسبما قدمنا الأمير العالم ، السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فاتصل به ابن رشد ، وحظي برعايته ، وكان من آثار هذه الرعاية أن وُلى ابن رشد قضاء مدينة إشبيلية ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة بعض الوقت . وكان من أنفس ما حظي ابن رشد خلال إقامته بإشبيلية ، دراسته المستفيضة على أستاذه العلامة الطبيب العبقرى عبد الملك ابن زهر ، وهو الذى وصفه ابن رشد فيما بعد بأنه أعظم طبيب بعد جالينوس . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة ، وقدم إلى إشبيلية وأقام بها ، زادت مكانة ابن رشد وتوطدت فى البلاط الموحدى ، ولاسيما عن طريق أستاذه ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص ، وصديقه وناصحه الأثير لديه ، وكان من آثار هذه الرعاية ، أن عين الخليفة ابن رشد ، طبيباً خاصاً له إلى جانب ابن طفيل . وكان ابن رشد يتنقل معظم الوقت مع بلاط الخليفة سواء بالمغرب أوالأندلس ، ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى سنة ٥٨٠ هـ ، وخلفه ولده الخليفة أبويوسف يعقوب المنصور ، بقى ابن رشد فى منصب الطبيب الخاص . ولما توفى ابن طفيل ، انفرد ابن رشد بمنصب الطبيب الخاص . وكان الخليفة المنصور صنو أبيه فى الشغف بالعلوم والفنون ، ومن ثم لقى ابن رشد لديه نفس التقدير والرعاية ، ولبث على مكانته المرموقة فى هذا الجو العلمى الرفيع .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد بلغ ذروة مجده العلمى ، وكتب كثيراً من مصنفاته الفلسفية والطبية . وأهم مؤلفات ابن رشد الفلسفية ، هى شروح فلسفة أرسطو ، ويقال إن الذى أوعز إليه بكتابتها أستاذه ابن طفيل[1] ، وهى تشغل عدة مؤلفات ورسائل ، هى جوامع كتب أرسطوطاليس فى الطبيعيات والإلهيات ،

---

(١) المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

وتلخيص كتاب ما بعد الطبيعة ، وتلخيص كتاب الأخلاق ، وتلخيص كتاب البرهان ، وتلخيص كتاب السماع الطبيعى ، وشرح كتاب النفس وغيرها . وتشمل مؤلفات ابن رشد الطبية كذلك عدة مصنفات ، منها شرح أرجوزة الطب للشيخ الرئيس ابن سينا ، وتلخيص عدة كتب لجالينوس ، منها كتاب المزاج ، وكتاب القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأعراض ، وكتاب الحميات ، وكتاب الأدوية المفردة ، وغيرها . بيد أن أشهر مصنفات ابن رشد الطبية هى كتابة « الكليات » وفيه يتناول أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، وذلك مقابل التفاصيل الجزئية التى يتناولها أستاذه عبد الملك بن زهر فى كتابه « التيسير »[1] . وله كتاب فى الحيوان . ولابن رشد كذلك ، فى الفقه والأصول عدة مصنفات ، منها كتاب « تهافت التهافت » وفيه يرد على كتاب « التهافت » للغزالى ، وكتاب منهاج الأدلة فى علم الأصول ، ورسالة فى « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وكتاب المقدمات ، وكتاب بداية المجتهد فى الفقه ، وغيرها . وله فضلا عن ذلك عدة رسائل أخرى فى الفلسفة والطب والأصول والمنطق لايتسع المقام لذكرها .

وقد عرف التفكير الغربى ابن رشد فى عصر مبكر ، وعرفه بالأخص فيلسوفا وطبيبا من أعظم الفلاسفة والأطباء المسلمين ، بل من أعظم الفلاسفة والأطباء فى كل قطر ، وكل عصر ، واشتهر ابن رشد فى الغرب بالأخص بشروحه لفلسفة أرسطو ، وهى شروح ترجمت إلى اللاتينية ، وذاعت فى دوائر التفكير الغربى منذ القرن الثالث عشر الميلادى .

ولبث ابن رشد على حظوته فى البلاط الموحدى أعواما طويلة ، ولكن الفقهاء والطلبة الموحدين ، الذين ضاقوا ذرعا بتفكيره الدينى والفقهى المستنير ، وبحوثه الفلسفية الرفيعة ، عملوا على مناوئته ، والوشاية به لدى الخليفة المنصور ، واتهامه بالانحراف والمروق ، وانتهى المنصور ، بالرغم مما كان يكنه لابن رشد من التوقير والتقدير ، أن ينزل عند تحريضهم ، وأن يصدر قراره الشهير بمحاكمة الفيلسوف وبعض زملائه وتلاميذه ، وأن يقضى بنفيه إلى بلدة اليسانة على مقربة من غرناطة (سنة ٥٩١ هـ) ، وصدر إلى جانب ذلك بيان للمنصور بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، بالحملة على ابن رشد وزملائه ، واتهامهم بالمروق والزيغ .

---

(١) رأينا خلال إحدى زياراتنا لغرناطة نسخة خطية نادرة من كتاب « الكليات » لابن رشد بمكتبة دير ساكرومنتى القريب من غرناطة . وقد طبع هذا المخطوط بأصله كما هو ألواحا مصورة .

وقضى ابن رشد فى منفاه فى اليسّانة نحو ثلاثة أعوام ، ثم عفا عنه المنصور ، ورده إلى سابق منصبه وحظوته (٥٩٤ هـ) . وعاد ابن رشد إلى مراكش ، ولكنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م) وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . وقد سبق أن أفضنا القول فى اتهام ابن رشد ونكبته ، وأوردنا نص المرسوم الموحدى الصادر بشأن اتهامه[1] .

وكان من أعلام المفكرين والفلاسفة الأندلسيين فى أوائل العهد الموحدى ، العلامة اليهودى ، موسى بن ميمون ، واسمه العربى ، أبو عمران موسى بن ميمون ابن عبد الله القرطبي الأندلسى الإسرائيلى ، واسمه اليهودى موشى بن ميمون ، وقد ولد بقرطبة سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) ودرس بها علوم الأوائل والرياضيات والفلسفة على أقطاب عصره ، وبرع فى الطب والفلسفة والدراسات التلمودية . ولما غلب الموحدون على الأندلس ، وأصدر الخليفة عبد المؤمن فى أواخر عهده قراره الشهير بنفى النصارى واليهود من المغرب والأندلس ، إلا من اعتنق الإسلام منهم ، ومن بقى ولم يعتنق الإسلام ، حل ماله ودمه ، تظاهر كثير من النصارى واليهود الذين آثروا البقاء باعتناق الإسلام ، وكان من هؤلاء موسى بن ميمون وأسرته . وعبر ابن ميمون البحر إلى المغرب فى سنة ٥٥٧ هـ ، وأنفق بضعة أعوام فى فاس حاضرته العلمية ، وهو يزاول مهنة الطب التى اشتهر بها ، ويستتر فى نفس الوقت بمزاولة شعائر الإسلام ، ولكنه كان يرقب الفرصة لمغادرة المغرب إلى بلاد أوسع آفاقا ورزقا . فلما سنحت هذه الفرصة ، سار مع أهله إلى مصر ، ونزل بالقاهرة (سنة ٥٦١ هـ) ، وأقام بالفسطاط بين أبناء دينه اليهود ، مظهراً دينه الحقيقى ، وأخذ يرتزق بتجارة الجوهر ، وتزوج أختا لرجل يهودى من كتاب السلطان يدعى أبا المعالى ، واتصل بواسطته بالبلاط ، وأسبغ عليه القاضى الفاضل رعايته لما كان يتصف به من علم غزير وبراعة فى الطب . وعين ابن ميمون طبيبا خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وغدا عميد الجالية اليهودية بالقاهرة . وكان يلقب بالرئيس لمكانته العلمية البارزة . ولما توفى صلاح الدين ،

---

(١) راجع ترجمة ابن رشد فى التكلمة لابن الأبار رقم ١٤٩٧ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٧٤ و ١٧٥ ، والبيان المغرب ص ٢٠٢ . وقد وردت فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ترجمة ضافية لابن رشد ، ذكر خلالها نص المرسوم الموحدى ، وذلك فى مخطوط المتحف البريطانى الجزء الخامس . وراجع ص ٢٢٣ – ٢٢٨ من هذا الكتاب .

خدم طبيبا لولده الملك الأفضل ، وأخذ عليه بالقاهرة كثير من علمائها وأطبائها ، ومنهم العلامة الطبيب عبد اللطيف البغدادى ، وكان يقيم وقتئذ بالقاهرة ، وتوفى ابن ميمون فى سنة ٦٠٢هـ (١٢٠٤ م) . ويعتبر ابن ميمون من أعظم المفكرين اليهود فى العصور الوسطى ، ومن أعظم شراح الشريعة اليهودية ، وقد ترك تراثاً حافلا من المؤلفات الدينية والفلسفية والطبية ، من ذلك شرح للتلمود ، وعدة شروح لكتب جالينوس ، « ودلالات الحائرين » فى شرح فلسفة أرسطو ، وهو أعظم كتبه الفلسفية ، وتهذيب كتاب الإستكمال لابن هود فى الرياضيات ، ومقالة فى صناعة المنطق ، وكثير غيرها فى أبواب الشريعة اليهودية . وكان لكتابات ابن ميمون الدينية والفلسفية تأثير عظيم فى التفكير الأوربى فى العصور الوسطى .

— ٤ —

هذا ، ونختتم هذا الحديث الطويل عن الحركة الفكرية الأندلسية وأعلامها ، بكلمة موجزة عن سير الفنون خلال العصر الموحدى .

لقد امتاز العصر الموحدى بالأندلس والمغرب ، بظهور حركة فنية مستقلة ، تتمثل بالأخص فى الصروح والمنشآت العظيمة ، التى أقيمت خلال هذا العصر ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، وتميزت بخصائصها المعمارية والفنية الخاصة ، والتى بقيت منها حتى اليوم آثار عديدة ، تشهد بتقدم العلوم الهندسية والفنون المعمارية فى هذا العصر.

وقد نشأت الدولة الموحدية فى البداية على أسس دينية محضة ، تباعد بينها وبين المظاهر الدنيوية البراقة . بيد أنه لما تحولت الخلافة الموحدية ، على يد عبد المؤمن إلى ملك دنيوى باذخ ، كان من الطبيعى أن تتجه الدولة الموحدية إلى استكمال مظاهر الفخامة والأبهة الملوكية . وبدأ ذلك الاتجاه منذ أواخر عهد عبد المؤمن بإقامة مدينة جبل طارق الملوكية ، لتكون منزلا للخليفة أو السادة ، عند عبورهم فى جيوشهم إلى الأندلس ، وكان هذا العمل الإنشائى العظيم مسرحا لظهور عبقرية بعض أعلام المهندسين الأندلسيين ، الذين اقترن اسمهم فيما بعد بأعمال إنشائية جليلة أخرى ، مثل الحاج يعيش المالقى . وظهرت رعاية الدولة الموحدية للفنون المعمارية بالأخص بمدينة إشبيلية ، عاصمة الأندلس خلال العصر الموحدى ، وهى التى كانت مسرحا لأعظم وأجمل المنشآت العمرانية الموحدية بالأندلس . وقد سبق أن تحدثنا عن إنشاء القصور الموحدية الفخمة خارج إشبيلية أمام باب جهور أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وعن بساتينها اليانعة ، كما

تحدثنا عن إنشاء جامع إشبيلية الأعظم على يد الخليفة أبى يعقوب يوسف ثم ولده الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور ، وعناية المنصور بإقامة صومعته العظيمة ، (وهى التى يسميها الإسبان اليوم لاخيرالدا) . وأقام الموحدون كذلك عدداً من المنشآت العمرانية بقرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من قصور وغيرها . وكان قصر السيد أبى يحيى بن أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج قرطبة على النهر الأعظم تحمله أقواس . وأنشأ ولده السيد أبو إبراهيم اسحق أيام أن كان واليا لغرناطة ، قصره الفخم على مقربة من ضفة شنيل ، ومازالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله وعقوده[1] . وقد كانت الخلافة الموحدية تبتعد فى البداية عن مظاهر الترف والزخرف فى منشآتها العمرانية ، وتكتفى بمراعاة المتانة والجلال ، ولكنها لما بلغت ذروة عظمتها الدنيوية أيام المنصور ، أخذت تغدق على منشآتها أعظم مظاهر الفخامة والزخرف ، فنرى المنصور يزود جامع إشبيلية بمنبره الفخم المرصع بالصندل المجزع والعاج وبصفائح الذهب والفضة ، وبمقصورته المزينة بالفضة ، ونراه يزود صومعة هذا الجامع بتفافيحها الذهبية الشهيرة[2] . وفى خلال هذه الحركة العمرانية والفنية العظيمة ، نرى عدداً من أقطاب الهندسة والفن مثل الحاج يعيش المالقى المتقدم الذكر ، والعريف أحمد بن باسُه ، والمعلم أبو الليث الصقلى ، وغيرهم ممن اقترنت أسماؤهم بهذه المنشآت العظيمة ، يتزعمون بالأندلس خلال العصر الموحدى حركة فنية زاهرة ، ونرى أصداء هذه الحركة العمرانية والفنية الزاهرة ، تتردد فى نفس الوقت فى المغرب ، وفى عاصمة الخلافة الموحدية مدينة مراكش العظيمة ، فى إنشاء الخليفة المنصور فى بداية عهده لضاحية الصالحة الملوكية ، وقصورها الفخمة ، جنوبى مراكش ، وفى إنشاء أو إتمام صومعة جامع الكتبية ، على نمط صومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وإنشاء صومعة حسان بمدينة رباط الفتح ، وهى صومعة لم تكمل ، ومازال هذه الصوامع العظيمة ، وهى من أبرز آثار العصر الموحدى الفنية ، قائمة إلى يومنا ، ومنها صومعة جامع إشبيلية التى تحول فقط جزؤها الأعلى ، إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى ، التى أنشئت فوق موقع الجامع ، بيد أنها لم تفقد بالرغم من ذلك سمتها الإسلامية ، ومازالت زخارفها العربية ، فى مشارفها ونوافذها السفلى ، تشهد بروعة الفنون الزخرفية خلال العصر الموحدى .

---

(١) راجع ص ٣٣١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٢٣٢ و ٢٣٣ من هذا الكتاب .

ولم نجد فى أخبار العصر الموحدى ما يدلنا على تطور الموسيقى الأندلسية ، ومن المعروف أن الموحدين مهما بلغ تسامحهم وتشجيعهم ، نحو فنون العمارة والزخارف المعمارية ، فإنهم لم يكونوا بطبيعة نظامهم ، وتزمتهم الدينى ، حماة للفنون الجميلة المحضة من الموسيقى غيرها ، ومن ثم فإننا لم نعثر على أحد من نبغ فى الموسيقى فى تلك الحقبة ، اللهم إلا محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، الذى جمع إلى براعته فى الهندسة والمنطق ، والفلسفة والطب ، براعته فى الموسيقى ، وكان ظهوره فى الشرق عقب انهيار سلطان الموحدين ، وانهيار شرق الأندلس، وسقوط قواعده فى أيدى النصارى[1] .

بيد أنه كان ثمة فن من الفنون الجميلة ازدهر خلال العصر الموحدى ، هو فن كتابة المصاحف وتنميقها وزخرفتها ، ونستطيع أن نذكر عدة ممن نبغوا فى هذا الفن ، فنهم محمد بن عبد الله بن سهيل الأنصارى البلنسى المعروف بابن غطوس، والمتوفى فى سنة ٦١٠ هـ ، فقد وهب ابن غطوس حياته لكتابة كتاب الله ، وبرع فى تنميق المصاحف وزخرفتها براعة عظيمة ، جعلت الملوك والأمراء يتنافسون فى اقتنائها[2] . ومنهم محمد بن محمد بن يحيى بن حسين من أهل جزيرة شقر ، المتوفى نحو سنة ٦٣٠ هـ ، وكان أبرع أهل وقته فى كتابة المصاحف[3] ، ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز المعروف بابن حمنال ، من أهل مرسية والمتوفى سنة ٦٣٣هـ[4] ، ومنهم موسى بن عيسى اللخمى القرطبى المعروف بابن الفخار ، وقد توفى فى سنة ٦٢١ هـ[5] ، وغير هؤلاء .

هذا وقد سبق أن أشرنا إلى تفوق الهندسة والفنون الموحدية ، فى إقامة المنشآت الدفاعية ، من حصون وأسوار وأبراج ، مازالت تشهد بروعتها حتى اليوم أطلال قصبة بطليوس ، وقلعة جابر ، وأسوار إشبيلية ولبلة الموحدية[6] .

---

(١) سبق أن أتينا على ترجمة الرقوطى فى ص ٧١٨ من هذا الكتاب .

(٢) ترجمة ابن غطوس فى التكلمة رقم ١٥٧١ .

(٣) ترجمته فى التكلمة رقم ١٦٤٤ .

(٤) ترجمته فى التكلمة رقم ١٦٥٢ .

(٥) ترجمته فى التكلمة رقم ١٧٣٣ .

(٦) راجع ص ٦٤٠ من هذا الكتاب .

وثائق موحدية

١

رســــالة

الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

إلى أخيه السيد أبي سعيد عثمان وأصحابه الطلبة بقرطبة، يوصي فيها بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل وتحرى الدقة، وألا يقضي في أمر الدماء إلا بعد رفعه إلى الخليفة، من إنشاء الوزير الكاتب أبي الحسن بن عياش، ومؤرخه في شهر رمضان سنة ٥٦١ هـ.

(منقولة عن كتاب «المن بالإمامة» لابن صاحب الصلاة مخطوط أكسفورد لوحات ٧٩ ب — ٨٢ ب. ونشرها العلامة جولدسيهر في بحثه:

(**Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung p. 134-138**

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم
والحمد لله وحده

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره، وأمدهم بمعونته، إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا، الأكرم لدينا، أبي سعيد وأصحابه، الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله، ودام كرامتهم بتقواه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله، ونرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم نجله وسليله، ونوالي الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعي إلى سبيله. وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه، وكلأ جانبكم وحماه، من حضرة مراكش حرسها الله. والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى، والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه، وموالاة شكره على ما هدى أولياء أمره، وأنصار دعوته، وحماة كلمته، من صرف أعنة المحبة والاهتمام، وإحكام منابر الأحكام، فيما وكله إليهم من أمور الإسلام، إلى أن تجرى على السداد، وتنسق على سبيل الإرشاد، وتستقيم على المهيع، وتمضى على المنهج، وتسير في الواضح، وتهتدى على اللاحب، ويسلك بها في الجدد، الذي من سلكه أحمدت منه الآثار وأمن عليه العثار، وارتضى له الإيراد والإصدار، فيكون العمل فيها على اليقين، الهادى إلى الصراط المستبين، المأمون في سلوكه من المزلة والضلال، المرجو في الاهتداء به حسن العاقبة وصلاح الحال، فنسئله تعالى جده عونا من قبله على هذا الغرض العام الجدوى يصاحب، وتوفيقاً من لدنه في هذا النظر الشامل المنفعة يجاور ويصاقب، وأنه أدام الله

كرامتكم ، لما كانت مبانى هذا الأمر العزيز أدامه الله على التقوى مؤسسة ، وأوامره ونواهيه على أمر الله ورسوله جرية مترقبة ، وإليها فى الأخذ والتركة مستندة ، وبمقتضياتها فى جميع الأحكام آخذة عاملة ، إذ هى نور الحق وسراجه ، وعمود الصدق ومعراجه ، وسبيل الفوز ومنهاجه ، ورائد الثواب وبشيره ، وقائد العقاب ونكيره ، فمن ائتم بكتاب الله ، الذى هو الإمام المنادى والحق الواضح البدى ، وبسنة رسوله صلعم ، التى جعل العمل بها كالعمل بكتابه ، والوقوف عند حدها كالوقوف عند حده ، أمن من الغوائل ، فى العاجل والآجل ، وبلغ من السلامة فى الحالين إلى أقصى أمد الآمل ، ولم يوجد للباطل إليه سبيلا ، ولم يتمكن للشيطان أن يجد فى تضليله واستهواءه صرفاً ولاحويلا ، فتوفرت الدواعى على الدعاء إليها ، وحمل الكافة عليها ، وأخذ الجميع بما يفقههم لديها ، وقد أمر الله تعالى ، من أمر الناس بطاعته ، أن يحكموا بالعدل ، ويضعوا للعبد موازين القسط ، فلم يكن لهم بد من امتثال أمره ، والاستناد إلى حكمه ، وكانت الوجوه التى تفضى إلى الحق ، فى فصل قضايا العباد متنقبة ، والطرق المؤدية إلى مغنى الصدق ومعناه ملتبسة ومتشعبة ، فخرج فيها بُنَيّات تخطىء الصراط المستقيم ، وتضل الضلال البعيد ، فصار امضاءها من غير استناد إلى هذا الهدى المتبوع ، والعلم المرفوع ، خطراً على ممضيها ، وإنفاذها على غير هذا السنن غررا على منفذيها ، ولما كان الأمر كذلك ، تعين ووجب وثبت وترقب ، أن نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله ، شرقاً وغربا وبعداً وقربا ، خطابا يتساوى فيه جميعهم ، ويتوازى فى العمل فيه كافتهم ، بألاّ يحكموا فى الدماء حكماً من تلقائهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم ، ويتقرر فيما يروقه لديهم ، إلا بعد أن تُرفع إلينا النازلة على وجهها ، وتؤدى على كنهها ، وتشرح حسب ما وقعت عليه ، وتنتهى بالتوثق والبيان إلى ما انتهت إليه ، وتقيد بالشهود العدول ، المعروفين فى مواضعهم بالعدل والرضا ، الموجبين للقبول ، وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين فى مقالاتهم واستظهارهم فى بيناتهم ، مُعطّى كل جانب حقه ، موفى كل قائل قوله ، فتكون مخاطبتكم أعزكم الله ، ومخاطبة من يتناول هذا الكتاب وتوجه إليه هذا القصد ، خطاب من تَحَمَّل الشهادة ويؤدى فيها الأمانة ، على ما يجب من البيان الذى لايعتوره التباس ولايطمس وجهه إشكال ، ويتوثقون فى المطلوبين بالدماء بسجنهم

وتثقيفهم ، ويتوكفون ما تصلكم به المخاطبة ، فتقفون عند مقتضاه ، ولايعدلون عن شيء من معناه ، مراقبا كل منكم إلاهه ومولاه ، علما بأنه يعلم سره ونجواه ، وأنه يسمعه ويراه ، واعلموا وفقكم الله وأسعدكم، أن هذا الحكم عام فى جميع النوازل ، التى أطلقت السُّنّة فيها القتل وسنته ، وحكمت به وشرعته ، كمن قتل نفساً وأقر بالقتل ، أوشهد العدول عليه به ، ومن بدّل دينا وارتد عنه ، ومن أتى الفاحشة بعد الإحصان ، باعتراف أودليل أوشهادة مقبولة ، وما خيّر الأئمة فيه من قتل المحاربين والساعين فى الأرض بالفساد ، والمتأملين أمر الله بالاستهزاء والعناد، سواء سُنّ ذلك كله أو وقع فيه ضرب يشاكله مجراه ، واحد فى التوقف عن امضاءه ، والتأخر عن تنفيذه ، إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه العمل من المجاوبة . وكذلك وفقكم الله يكون التوقف فيما عدا المذكور من النوازل ، التى يكون [فيها] أحكام دون النفوس من قتل الخطأ وديات الشّجاج ، وعقول الأعضاء، وأورش الجراحات ، ووجه القصاص، والقطع فى السرقات، إلى غير ذلك من القضايا المشكلة فى الأموال وإطلاقها واستحقاقها ، وفى الرقاب وإعتاقها واسترقاقها ، وملتبسات المناكحات والمعاملات ، وما أشبهها من الأمور التى الإقدام على الحكم فيها تهجم ، والعمل فيها بغير استناد إلى ما يجب تسور، فتوقفوا أعزكم الله عن جميع ما فُسّر لكم، ولو أخفه توقف الساعى فى نجاته ، العامل لدنياه وآخرته ، وقد ورد فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله من الحظر الوكيد ، والوعيد الشديد ، فى إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، لايسلم إلا من طريق العصمة ، ولاتهتدى إليه إلا أنوار الحكمة، ما يزع العقلاء ، ويكف الألباء ، ويحذرهم من سطو الله وعقابه ، ويخوفهم من أليم عذابه ، فعولوا على ما رسم فى هذا الكتاب، من التعريف بما يبطن ، وانهاء كل ما ينزل، ليتصلكم من التوقيف ، والبيان والتعريف، لما يظهر لكم به بركة الاقتداء ، وتستبرق منه عليكم أنوار الائتمام والاهتداء ، ويتراءى لكم به الحق فى صوره الصادقة ، ومثله المطابقة ، ومناظره الموافقة ، ومطالعه المشرقة ، بفضل الله ورحمته ، وملاك مايسدد مقاصدكم فى جميع أحوالكم ، ويوجب لكم الرضا فى كافة أقوالكم وأفعالكم، تقوى الله فى السر والجهر ، وخيفته فى الباطن والظاهر ، وقدع النفس عن هواها ، وكبحها بلجام النهى عن الركض ، فى ميدان رداها ، وطاعة أمره العظيم والجرى على سننه المستقيم ، فذلك عصمة من الزلل،

وتوفيق فى القول والعمل بفضل الله ، وقد وجب أكرمكم الله لهذا الكتاب ، بما انطوى عليه من الأغراض الشاملة المنفعة ، العامة المصلحة ، أن يعطى حقه من الإشاعة والتشهير ، وينهض مقتضاه إلى الصغير والكبير ، ويجمع الناس لقراءته وتلقى مضمنه ، ويساوى فيه بين الغائب والشاهد ، والبادى والحاضر ، بإسماع من حضر ومخاطبة من غاب ، ممن يتعلق بنظركم ويدخل تحت عملكم ، فتوجهون بنسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم ، وعمل من أعمالكم ، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة ، وتعرف بركته واستشعار عائدته ، وأنسه بما أمر به هذا الأمر العزيز ، من إفاضة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعين ، وسننه الواضح المبين ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب فى الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وستين وخمسمائة .

٢
بيعة أهل إشبيلية للخليفة أبى يوسف يعقوب

استكتبها ولده والى إشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، ووجهها إلى الحضرة مع بعض أشياخ إشبيلية ، وهى من إنشاء الفقيه أحمد بن محمد ، ومؤرخه فى جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ هـ

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » ، مخطوط اكسفورد لوحة ١٠١ ا و ب . ونشرها العلامة جولدسيهر فى بحثه الذى سبق ذكره ص ١٣٩ — ١٤٠) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الحمد لله الذى جعل الإمامة قواما للحق ، ونظاما للخلق ، وتماما على الذى أحسن رعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث بنور الحق ، الساطع الأضواء ، المبلغ عن الله سبحانه بأكمل وجوه التبليغ والإنهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجتباء ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى ، متمم أنوار الهدى ، ومجلى غياهب الظلماء ، والإمام الأعدل الأهدى ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبى يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ، واستصحاب الظهور والاعتلاء . أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين يحضرهم من الله حاضرة التوفيق ، وينظر إليهم نظر الاقتداء والاهتداء من وراءهم من أهل الحق والتحقيق ، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا

أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين خلد الله أمرهم ، وأعز نصرهم بالإسم المبارك الكريم، الذى أول من دعي به الفاروق رضوان الله تعالى عليه، فعرف الله من يمنه ما فتح لملة الإسلام شرقاً وغربا ، وأحال الدلو بيد ساقيهم فاستحالت غربا ، حتى ضرب الدين بجرانه ، وألقى الناس بعطن من يمنه وأمانه ، جددنا من بيعته على الإسمية المباركة ، فرضا أوجبه الشرع وجوب الإلزام ، واقتضى الوفاء بشروطه المؤكدة على الكمال والتمام ، فبايعنا على السمع والطاعة بيعة أمان وإيمان وعدل وعبادة ، والتزمنا بها ، فى اليسر والعسر ، والمنبسط والمكروه ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا بها بالعروة الوثق ، والعصمة التى من يعلق بحبلها ، وأوى إلى ظلها ، فقد اعتصم بالجانب الأمنع الأوفى ، علما أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التى تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها ، العناية الربانية ، علينا بذلك عهد الله الأوكد الألزم ، وميثاقه الأغلظ الأعظم ، وذمته التى لا يقطع حبلها على مرور الزمان ولا يصرم، مستبصرين فى هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء ، سالكين فى التزام الطاعة على الحجة البيضاء ، عارفين بما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها أكناف الإسلام ، ويجعلها كلمة باقية على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنه ، وعلى مضمن ما نص فوق هذا ، التزم أهل إشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلث وستين وخمس مابة .

٣

رســـالة

من الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة الذين بغرناطة ، يبشر فيها إلى وصول بيعتهم مع أشياخ غرناطة ، وينوه بولائهم ووفائهم ، ويوصى بإكرامهم وبرهم .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحة ١٠٥ب) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده . من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأعزه بمعونته . إلى الطلبة الذين بأغرناطة أكرمهم الله بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فإنا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ونشكره

على آلايه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القايم بأمر الله ، والداعى إلى سبيله ، ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين مسنى أمره العزيز إلى غاية تتميمه وتكميله ، فإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضرة مراكش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكل عليه . وقد وصلنا كتابكم من عند الشيوخ من إغرناطة ، حرسها الله والموحدين ، وفق الله جميعهم ، ووفقنا عليه ، ورأينا ما تحملوه عن الموحدين بأغرناطة وجيرانهم من انعقاد إجماعهم على ما أجمع عليه شيوخ أهل [الهدى] وأعيانهم من الأمر الذى أوجبوا على أنفسهم المبايعة عليه ، وأعطاه صفقة اليد فيه ، وقد وفقهم الله لما وفق إليه أهل أمره ، وذوى العصمة من طايفته ، والله تعالى يتقبل منهم عملهم ويعرفهم بركة ما التزموه ، ويعينهم على القيام بواجبهم والوفاء بحقه . وقد انصرف هؤلاء الأشياخ المذكورين بعد إقامتهم بهذه الحضرة ونيلهم بركاتنا ، ما يجدون أثره فى أحوالهم [وسريان] الانتفاع به فى أقوالهم وأعمالهم ، فأعرفوا لهم حق وفادتهم ومكان رفادتهم وأحلوهم.. خيراً بهم على الرعاية المتصلة ، والمبرة الحافلة المشتملة ، إن شاء الله تعالى ، والله ولى عونكم وصوبكم ، لارب غيره ، والسلام الكريم العميم عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب فى الثانى عشر من شوال عام ثلثة وستين وخمس مائة .

٤

رســـــالة

موجهة من السيد أبى إسحق إبراهيم بن الخليفة أبى يعقوب يوسف

إلى الحافظ أبى عبد الله بن أبى ابراهيم والى غرناطة يبلغه فيها بدخول ابن همشك فى الدعوة الموحدية وهى من إنشاء ابن مصادق .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحة ١٢٧ ا ب و١٢٨ ا) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الشيخ الأجل الحافظ الأعلى ولينا فى الله تعالى ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم أدام الله عزه وكرامته بتقواه .

وليكم فى الله تعالى ابراهيم بن أمير المؤمنين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله على ما أولى ومنح ، والصلاة على محمد نبيه الذى تبين

به دين الحق ووضح ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، معيد دين الله ، بعد ما عفى رسمه ومضى ، والدعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الذى طهر بعدله البلاد وفتح ، ولسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذى أثمر سعيه وأنجح ، وكمل فيمن جلا فيه الأمور الدينية وأصلح ، فكتبناه إليكم أدام الله كرامتكم بتقواه ، من قرطبة حرسها الله ، ولاجديد إلا ما عود الله بركة هذا الأمر العزيز من فتح ، لاتزال تفتح أبوابه وتتصل أعتابه ، وترفع قبابه ، وتتعرف مع كل حين انهلال ما فيه وإسكانه . والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ، يصفو به سربال إحسانه وجلبابه . وإن من النعم التى ببركة هذا الأمر العزيز حديدها ، واقتضى بسعادته مزيدها ، واتبع بطريقها تأييدها ، وانجرفيها لأولياء الأمر العزيز الموعود ، ووافقهم فيها الحد المصحب المسعد . وإن الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن همشك وفقه الله ، كشف له عن وجه هداه ، وجلى عن موارد رواه ، وتبين له أن هذا الأمر العزيز هو المركب المنجى ، السابق له السعادة الباقية المزجى ، الذى لايؤخر عثار من صدف عنه ولايرجى ، فبادر إلى الدخول فيه بدار من خلصت سرائره ، وطويت على موعبة ضمايره ، ورأى أن ذلك يمحى به خطاياه ويغفر جرايره . وأذاع الدعوة المهدية فى جميع بلاده ، وأعلن بها ، وأبدى الاعتلاق بعصمتها ، والتمسك بسننها ، ولقى الموحدين أيدهم الله بتقواه ، ملاقاة اللايذ بظلهم ، المتمسك بحبلهم ، المستنيم ، المستسلم ، المنطوى على الولاء الأخلص ، والود الأسلم ، والحمد لله على ذلك حمداً تتوالى به فتوحه ، ويتصل به مبذول إحسانه وممنوحه ، وخاطبناكم بذلك أدام الله كرامتكم لتجروا شكر الله تعالى على ما أسبغ من نعمه وأولى ، وتسلكوا معه سبيلا يكون أحرى بازديادها ، ما من عفا وولى ، والله تعالى يوالى لديكم آلاه ، ويسبغ عليكم ظاهره وباطنه نعماه ، والسلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كتب فى شهر رمضان المعظم عام أربعة وستين وخمس ماية .

٥

رســـــالة

الخليفة أبى يعقوب يوسف

إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس ، ينبهّم فيها باهتمامه بأمر الأندلس ، والعمل على نصرتها ، ومجاهدة أعدائها ، ويطمئنهم على تنفيذ هذا العزم ؛ عما بعثه

من عسكر موحدى تحت إمرة الشيخ أبى حفص ، تمهيدا لجواز الموحدين إليها ، من إنشاء أبى الحسن بن عياش ، ومؤرخة فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحات ١٢٠ – ١٢٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده . من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته . إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس أدام الله توفيقهم وكرامتهم . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فانا نحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، القايم بأمر الله تعالى ، والداعى إلى سبيله ، ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، ممشى أمره العزيز إلى غاية تنمية وتكميله . وأنا كتبناه إليكم وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه ، من حضرة مراكش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاستعانة به ، والتوكل عليه . وهذا الأمر العزيز بما وعده الله من النصر ، وضمن له من التأييد ، وتكفل له من التمكين ، وزاد من تبسطه وامتداد علوايه ، واتصال مضماره وخلوصه ، إلى كافة الأرجاء ، وتغلغله فى كل الأنحاء ، لإكمال دينه وإتمام نوره ، وبث دعوته وتصديق وعده ، لاتزال [موارده] الحافظة لصوره ، المبقية لأثره ، المثبتة لأركانه ، الممكنة لقواعده ، تشيع من الأسباب القوية واللطائف المنهضة ، والمعانى المعينة على سريانه ، المزعجة لتشربه وجريانه ، مما يؤذن له بإنجازه موعوداته ، وتتبع مضموناته ، حتى يستوى على مداه الذى لا غاية بعده ، ويقف على منتهاه الذى لا مطلع وراءه ، يقينا اطمأنت بمقدمات العلابه القلوب ، وقرت على ظهور براهينه النفوس ، وعضدته الآيات البينة ، ونطقت به الآثار المفصحة ، وناقدت شد أحواله لمن ألقى السمع وهو شهيد . .

وما زلنا وفقكم الله ، على أتم العناية بتلكم الجزيرة مهدها الله ، والحرص على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالمباشرة والمشاهدة إشفاقا على ما استضام منها جيرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء ، مجمعين وردها ، وما كادوها به من التلف والتحفيف والتنقيض ، وفغر الأفواه ، وكسر الشبوب والأرصاد ، لغيض ما فض فيها من نور التوحيد ، وخفض مانصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصبة للمتحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستذمين بذمته ، ممن صح

ولاوه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظا ، يستحق الصدق على ما سواه ، من الأفكار ، ويأخذ السبق على غيره من معنيات الأمور ، ونراه من الأهم الأغنى ، والأول الأولى، قياما بحق الله فى جهاد أعدايها ومكابرى مناويها، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره ، وتواردها على مشاهدته ، وإدايتها به ، ولم يرع سمعا دعوة الحق التى ملأت الخافقين ، وقرع صوتها مسامع الثقلين ، وتمكن أسباب التفرغ لذلك، والتوسع فيه ، والنظر فى أحكامه ، فيعترض من أهل هذه المغارب ، شواغب يثيرها الجهال ، ويبغيها النعقة الضلال ، فلايسمع أسهالها ، ولايسوغ الإضراب عنها ، قياما بحق الدين ، وتوقياً من استشراء الشر ، وتوقد أسباب الفتنة ، فينصرف إليها من الالتفات والقصد ، لحسم عللها ، وإبراء أدوائها ، ما يقشع غياباتها ، ويطهر أقذاءها ، ويفضى إلى المقصود الأول من التفرغ للجزيرة مهدها الله، والتوطيد لأمرها دوما . . الاشتغال بهذا الغرب يلط بأرجائه ، ويشتمل على جوانبه ، ويتخلل زواياه ، وينتظم أوعاره وسهوله ، حتى صفى الله مشاربه ، وخلص من الشوب مشارعه ، ووقف بأهل الانتزاء من أصناف مشغبية على تايب أنات بقلبه ، وندم على ما فرط من ذنبه ، وعلى شقى تمادى فى غلوايه ، ولج فى تمرده فولى كل ما استحق، وسهم خطة ما رضى ، ووجد التايب برد الأمان ، وتبوأ كنف الإحسان ، وحقت على العاصى كلمة العذاب ، وأخذه التباب ، والصيرورة إلى سوء المآل، وشر المآب، وماربك بظلام للعبيد . ولما تولى الله هذه الجهات منة التمهيد ، وبسط لها نعمة التمكين والتوطيد ، انعطف النظر إلى محل مثاره ، وسال سيل الاعتقاد إلى قراره ، وتوجه حفل الاشتغال إلى الجزيرة مهدها الله ، وتوفرت دواعي الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوها ، ورأينا فى أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة المتممة المباشرة، أن نقدم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، يكون تقدمه لحواز جمهور الموحدين ، ومؤذيا بما عزمنا عليه ، والله المستعان ، من التحرك لحملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذى جعلناه نصب العين ، وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أغراضها ، التى انعقدت بها النية،

واحتدمت لها فى ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله فى تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والروية ، وإنا لنرجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتمم مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه ، بالنعمة فى أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وثنية ، فما ذلك على الله بعزيز ، وإذا طالعتم وفقكم الله هذه الأنباء ، واستعلمتم مافى ضمنها من البشائر ، وعنوانات الفتوح ، وآثار هذه القصود ، وحملتم ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر ، والتلفت إلىما عودة رأيتموها نعمى تحولتكم ، ورحمى انتحتكم وأتتكم ، وشرحتم لها صدوركم ، وعمرتهم بها أحناكم ، وشغلتم بها مشاهدكم ، وسررتم بها غايتكم وشاهدكم ، وأذعتموها إذاعة تثلج بها صدور الأولياء ، وتحرج منها صدور الأعداء ، ويكون للمؤمنين منها مطلع أمل ، وللكافر مطلع هول ووجل ، عرفكم الله شكر النعمة بها ، وأعانكم على أداء واجبها ، وبلغكم الغاية الجميلة منها بمنه ويمنه . وإذا وصلكم هذا الكتاب ، فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس ، وإرسالا بنسخه إلى من نأى عنكم ، حتى يجد أثر الاستبشار به ، ويترقب عودعه الغايب والشاهد ، والحاضر والناءى انشاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
كتب فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس ماية .

٦

ظهير الخليفة الرشيد بإسكان المهاجرين من أهل بلنسبة
وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من بلاد الشرق فى مدينة رباط
الفتح من إنشاء كاتبه أبى المطرف بن عميرة المخزومى .

(منقولة من كتاب «زواهر الفكر» مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٠ الغزيرى لوحة ١١٥و١١٦)

هذا ظهير كريم أمر به أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمدهم بمعونته ويسره ، للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ، ومن جرى من ساير بلاد الشرق مجراهم ، وعراه من عبر الأيام ما عراهم ، حين أنهى ذو الوزارتين الشيخ الأجل الأكرم ، الأعز ، الأفضل ، أبو على ابن الشيخ الأجل الأكرم ، أبى جعفر بن خلاص ، أدم الله تعالى أثرته وكرامته ، ما أصابهم من الجلاء ، ودهاهم من أمر الأعداء ، وسعى لهم سعى من يقضى فيهم . . ، ويلتمس لهم

مكانا للقرار ، ومنزلا لإلقاء عصى التسيار . وعند ذلك أذن لهم ، أعلى الله تعالى إذنه ، وجدد مجده ويمنه ، فى النقلة إلى رباط الفتح عمره الله تعالى ، بقضيضهم وقضهم ، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ، ويعمروا منه بلداً بقبل منهم أولى من قبل ، ويحملهم إنشاء الله تعالى ، وخير البلاد ما حمل ، فإنه مناخ التاجر والفلاح ، وملتقى الحادى الملاح ، والمرافق من بر أو بحر ، موجودة فى فصول السنة ، مؤذنة لقاطنه بالمعيشة الهنية ، والحال الحسنية ، ولهم أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز ، أدامه الله تعالى ، من التوسعة على قويهم ، كى يزداد قوة ، والرفق بضعيفهم حتى ينال يسارا وثروة ، وأن يتوسعوا فى الحرث ، ففى أرضه هنالك متسع ، ويتبسطوا فى كل ما لهم منه مكافىء وبه منتفع ، ويغرسوا الكروم وأنواع . . على عادتهم ببلادهم ، ويتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم ، وأولاد أولادهم ، وكل ما يعمرون من الضياع ، ويقتنون من الأصول والركاع ، فله حكم . . على الإطلاق والدوام ، لايلزمون فيه شيئاً من وجوه الإلزام ، ولايطلبون بغير حقوق الشرع ، التى جعلها الله تعالى فى أموال أهل الإسلام ، وأقوالهم فى مقاديرها مصدقة ، وأمانيهم كلها لهم ، واللاحقين بهم محققة ، والولاة والعمال حفظهم الله تعالى ، مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب من جوانبهم ، ويعوق عن مأرب صغير أو كبير من مآربهم ، وأن يكرموا غاية الإكرام ، نبهائهم وأعيانهم ، ويولونهم من حسن الجوار ، ما ينسيهم أوطانهم ، حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف ، ويجمع لهم بين الرعاية حرمة البلوى ، والعناية بحق الضيف . احسن [illegible] منه على الله تعالى أمره ، وأوزع شكره ، ينسحب على جماعتهم وأفرادهم ، ويحملهم على موجب اعتلامهم بهذا الأمر العلى ، أدامه الله تعالى وملاه بهم ، فمن وقف عليه من المكانة والعمال ، أكرمهم الله تعالى ، فليعمل بحسبه ، ولايعدل عن كريم مذهبه ، إن شاء الله تعالى ، وهو تعالى المستعان ، لا رب سواه . كتب فى الحادى والعشرين لشعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وستماية .

٧

رســـــالة

الخليفة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوصان الرابع

ينوه فى بدايتها بدحض نظرية التثليث ، ويشير فيها إلى ما ورد من كتب البابا إلى الخلافة الموحدية ، ويرجوه أن يكون اختيار الحبر المكلف بالنظر فى شئون

النصارى بالمغرب من ذوى العقل الراجح ، والأخلاق الحميدة ، والنزاهة الوافرة . مؤرخة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ .

(وتحفظ الرسالة المذكورة بمحفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية برومة برقم A. A. I. XVIII (1802) وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها ، التى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان) .

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله وحده

من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الأمير أبى ابراهيم بن أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمدهم بمعونته . إلى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية ، وقيم الملة المسيحية واورث رياستها الدينية ، البابه إينه سانس أش ، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وإرشاده ، وجعل التقوى التى أمر عز وجل بها عدته لمحياه ومعاده ، وأناله من سابق الهداية ، ما يفضى لمدى الغاية ، بأتم انفساحه وامتداده ، تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا ، ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به البار لدينا .

أما بعد فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذى دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد ، ونصلى على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم ، الذى وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد ، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد ، ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان ينادى ويعاند ، وعلى آله وصحبه الكرام ، الذين ازدانت بهم المحاضر والمشاهد ، ووصلت صوارمهم فى مواقف الحروب السواعد ، وأنجزت لهم فى استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد . ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدى المعلوم ، الذى جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاود ، وأهلت بهدايته بعد إقفارها المعاهد ، وباء بالخسران المخاتل لأمره والمكايد ، وعن الخلفاء الراشدين المهتدين ، الذين تولى منهم إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد ، وعلت بهم لأمر الله تعالى المراقى والمصاعد ، وعن سيدنا الأمير الطاهر أبى إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر والمحاتد ، واشتق من نبعة للخلافة مذ أورق نضارة وغضارة قنتها المآئد ، وزهد

فى الدنيا الفانية ، ورغب فى الأخرى الباقية ، فنعم الراغب الزاهد .

وبعد كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظا من رضاه ، تزكو وتتوفر ، واستعملنا وإياكم بكل ما نتهيأ به لإحراز الفوز لديه ونتيسر ، من حضرة مراكش حرسها الله تعالى ، ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده ، والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده ، والسعى معمل فى ابتغاء [منّ] الله تعالى موفقه ومسدده ، والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الألسنة تكرره وتردده ، ونستدعى به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعلى من يشكره ويحمده ، وإلى هذا يسر الله تعلى بتوفيقه إسعادكم ، وجعل فى طاعته التى تعبّد بها خلقه أصدار[كم] وإيرادكم ، فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم الموثرة الواصلة إلينا [وأرسلنا] نحوكم من الجواب عنها ، ما تممنا به بركم ووفينا ، وعرفناكم أنا نوجب لمنصبكم الذى أبز فى ملتكم على المناصب ، وأقر لرتبتكم فيه أهل دينكم ، بالشفوف على سائر ما لهم من المراتب ، فأنتم عندنا لذلكم بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الجميلة محظوظون ، نؤكد من أسباب المواصلة لكم ماحقه أن يؤكد ، ونجدد من عهود الحفاية بكم ما شأنه أن يُجدد ، ونشكر لكم ماتوالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد .

وفى سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله ، البِشُب الذى كان قد وصل بكتابكم إلينا ، انصرافا لم يعده منا فيه بر وإكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام ، كما أنه فى المدة التى قضى له فيها لدينا بالمقام ، لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام ، وتحمّل كتابنا إليكم تعريفاً بما اختار من انصرافه ، وتوخياً فى ما آثره من ذلك لإسعافه ، وما قصر له فى حالى مقامه ورحيله ، ولا عدل به عن حفى البر وحفيله ، وسنى المن وجزيله ، ذهابا لتكريم إشارتكم السابقة فى حقه ، وسلوكاً به من البر على أوضح طرقه ، والله تعالى يرشد فى كل الأحوال لأزكى الأعمال لديه ، وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه . ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه ، أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله ، من ترونه يرمم ما يصلحهم فى دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم ، فتخيروه من أهل العقل الراجح ، والسمت الحسن وممن يستلذ فى النزاهة على واضح السنن ، وممن يتميز فى الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن ، وذلكم هو الذى إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة ، ومتحلياً بالخلال المشكورة ، حسن فى كل ما يستخدم ، وتسنى له

بذلك أجزل الخير وأوفره، وأنتم تفون بهذا المقصود فى ما تعملون من اختياركم، متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد ، وتعتمدون فيه أجمل معتمد ، وشكرنا لكم على كل ماتذهبون إليه فى جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب ، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب ، وتبادرون إلى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم فى نحلتكم من إناقة المناصب ، مما نكافىء به صدق مصادقتكم ، ونتوخى فيه ما لايعدل عن موافقتكم، جزاء لبركم بأمثاله ، واعتناء بما يقضى لولائكم بدوامه واتصاله ، بحول الله تعالى وقوته ، وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحسنى ، والزيادة من فضله ، ويأخذ ما فى ديننا ودنيانا على أقوم سبله ، ويجعلنا وإياكم مما يمنحنا من التوفيق ، فى أول رعيل من حزب الحق وأهله ، بمنه وكرمه ، لارب سواه . وكتب فى الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وستمائة .

٨

كتاب بتقليد خطة الشورى

صادر من أبى جعفر بن أبى جعفر بن أبى جعفر أمير مرسية
إلى الفقيه أبى بكر بن أبى جمرة

هذا كتاب تنويه وترفيع ، وإنهاض إلى مرقى رفيع ، أمر بكتبه الأمير الناصر الدين ، أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل ، أبى بكر بن أبى جمرة أدام الله عزه ، أنهضه به إلى الشورى، ليكون عند ما يقطع لأمر ، أو يحكم فى نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه ، وجده فى اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريقة له ، بل تليدة متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه ، فليتحملها تحمل المستقبل بأعبائها المحسن بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخاة المعتهدة وانحائها، والله يزيده تنويهاً وترفيعاً ، ويبوئه من حظوته وتمجيده مكانا رفيعاً . وكتب فى التاسع لذى حجة سنة ٥٣٩ ، الثقة بالله عز وجل .

---

(١) نقلنا هذا الكتاب من التكلة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٢ ؛ وقد فاتنا أن نلحقه بالوثائق المرابطية المنشورة بالقسم الأول فألحقناه هنا بالوثائق الموحدية .

اســـتدراك

— ١ —

جاء فى القسم الأول من هذا المؤلف (عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية) ص ٣٥٢ عند الكلام عن مصرع الكاتب الشاعر أبى جعفر بن عطية، أنه كان عند مصرعه فتى فى السادسة والعشرين. وهذا ما نقلناه عن «الإحاطة» لابن الخطيب، وعلقنا عليه فى حاشية أبدينا فيها أن مايذكره ابن الخطيب عن سن ابن عطية لايتفق مع مراحل حياته. وقد وقفنا بعد ذلك على رواية أخرى هى رواية ابن الأبار، وهى أن ابن عطية كان وقت مصرعه فى السادسة والثلاثين من عمره، وأن مولده فى سنة ٥١٧هـ[1] لا فى سنة ٥٢٧هـ حسبما يقول لنا ابن الخطيب. وهذه الرواية أكثر تناسقاً واتفاقاً مع حياة ابن عطية، إذ يقال لنا إنه تولى الكتابة عن أمير المسلمين، على بن يوسف، ثم عن ولده تاشفين، ثم عن حفيده ابراهيم.

— ٢ —

قرأنا فى مقدمة ابن خلدون عن ابن قسى زعيم ثوار الغرب ودعوته، فقرة فاتنا أن نشير إليها عند كلامنا عنه (ص ٣٧٧ و٤٦٦ من القسم الأول من كتابنا). ويقول لنا ابن خلدون فى حديثه فى الفصل الذى عنوانه «فصل فى أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتتم» ما يأتى:

«وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة، فلا بدله من العصبية. وفى الحديث الصحيح كما مر: «ما بعث الله نبياً إلا فى منعة من قومه». وإذا كان هذا فى الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد، فما ظنك بغيرهم أن لاتخرق له العادة فى الغلب بغير عصبية. وقد وقع هذا لابن قسى شيخ الصوفية، وصاحب كتاب «خلع النعلين» فى التصوف، ثار بالأندلس داعياً إلى الحق، وسمى أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدى. فاستتب له الأمر قليلا لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين. ولم تكن هناك عصائب ولاقبائل يدفعونه فى شأنه، فلم يلبث حين استولى الموحدون على الغرب أن أذعن لهم، ودخل فى دعوتهم، وكان أول داعية لهم بالأندلس، وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين (المقدمة ص ١٣٣).

(١) تراجع رواية ابن الأبار فى الحلة السيراء الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ج ٢ ص ٢٣٨. وهى واردة فى ترجمة عبد الله بن خيار الجيانى. وقد نقل الأستاذ بروفنسال هذه الترجمة كذلك فى كتاب «أخبار المهدى ابن تومرت» ص ١٤٦ — ١٤٨ ووردت بها نفس الرواية.

ثبت المراجع

— ١ —

تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
مقدمة ابن خلدون (بولاق) .
تاريخ ابن الأثير (الكامل) المطبعة الأهلية (١٣٠٣ هـ) .
نهاية الأرب للنويرى (القسم التاريخى) طبعة جسبار ريميرو (Rev. del Cent. de Est. Hist. Granada 1919)
صبح الأعشى للقلقشندى (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٣٢ هـ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق ١٢٩٩ هـ) .
فوات الوفيات لإبن شاكر الكتبى (بولاق ١٢٩٩ هـ) .
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى (القاهرة ١٣٠٢ هـ)
أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض للمقرى (القاهرة ١٩٣٩) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، لابن أبى زرع الفاسى المنشور بعناية كارل تورنبرج (أبسالة ١٨٤٣) .
الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .
الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (طبع الجزائر ١٩٢٠) .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
الإحاطة فى أخبار غرناطة لإبن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٠٤ و١٩٥٦) .
أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
اللمحة البدرية فى تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (١٣٤٧ هـ) .
المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى المنشور بعناية الدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٥٣) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنترينى (طبعة جامعة القاهرة) .
البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (القسم الثالث) لابن عذارى المراكشى (المنشور بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان ١٩٦٠—١٩٦٤) .

كتاب محمد بن تومرت أوكتاب« أعزما يطلب » المطبوع بالجزائر سنة ١٩٠٣ ، مع مقدمة فرنسية للعلامة المستشرق إجناس جولد سيهر .
كتاب موطأ الإمام المهدى (ابن تومرت) المطبوع بالجزائر سنة ١٩٠٥ ه .
أخبار المهدى ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبى بكر الصنهاجى المكنى بالبيذق ، ومنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (باريس ١٩٢٨) .
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى (تونس ١٢٨٩ ه) .
مجموع رسائل موحدية المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (الرباط ١٩٤١) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ ه) .
المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (طبع تونس) .
المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المشتق من كتاب المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى (طبعة دى سلان) .
وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المشتق من كتاب نزهة المشتاق للإدريسى (طبعة دوزى) .
الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لابن عبد المنعم الحميرى المنشور بعناية الأستاذ ليڤى بروڤنسال (القاهرة ١٩٣٧) .
الاستبصار فى عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول (جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) .
رحلة التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد) المطبوعة بعناية المطبعة الرسمية بتونس ١٩٥٨ .
رحلة ابن جبير المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار(القاهرة ١٩٥٥) .
الروضتين فى تاريخ الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ ه) .
مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٥٣) .
الرسالة المصرية لإبن أبى الصلت المنشورة بعناية الأستاذ عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٥١) .
المطرب من أشعار أهل المغرب لإبن دحية البلنسى (القاهرة ١٩٥٤)
رسالة ابن عبدون فى الحسبة المنشورة بعناية الأستاذ بروڤنسال (طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة) .

الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبى (القاهرة ١٣٢١ ﻫ) .
الملل والنحل للشهرستانى ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » .
المنقذ من الضلال لأبى حامد الغزالى (القاهرة ١٣٠٩ ﻫ) .
كتاب الحلة السيراء لابن الأبار (طبعة دوزى ١٨٥١) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (طبع القاهرة ١٩٥٥) .
كتاب التكملة لابن الأبار (طبع القاهرة ١٩٥٦) ، وضمن المكتبة الأندلسية (مدريد ١٨٨٦) .
المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى لابن الأبار (ضمن المكتبة الأندلسية) .
بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس للضبى (ضمن المكتبة الأندلسية) .
كتاب صلة الصلة لابن الزبير المنشور بعناية الأستاذ بروفنسال (الجزائر ١٩٣٧) .
عنوان الدراية لأبى العباس الغبرينى (الجزائر ١٣٢٨ ﻫ) .
جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن أبى العافية (فاس ١٣٠٩ ﻫ)
أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطى (القاهرة ١٣٢٦ ﻫ) .
تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين لأشباخ (الترجمة العربية ١٩٥٨) .
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٦٠)
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٨) .
الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٦١) .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد (المجلدان السابع والثامن) .

المصادر المخطوطة

سبق أن تناولنا فى بداية القسم الأول من هذا الكتاب فى الفصل الذى عقدناه بعنوان « بيان عن المصادر » أهم المصادر المخطوطة التى اعتمدنا عليها وانتفعنا بها ، وذكرنا أوصافها ، وأماكن وجودها . ولذا لانرى حاجة لتكرار ذكرها فى هذا الثبت .

— ٢ —

F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almorávides en España (Zaragoza 1899).
Primera Crónica General, Ed. M. Pidal (Madrid 1956) .
Mariana : Historia General de España.
Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León
Florez : Historia de las Reinas Católicas
Chronicon Lusitanum (Espana Sagrada Vol. XXIV).
Chronique Latine des Rois de Castille

M. Lafuente : Historia General de Espana

A. de los Rios : Trofeos Militares de la Reconquista (Madrid 1893)

F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1896)

Pons Boigues : Historiadores y Geógraficos Arábigo-Españoles (Madrid 1898)

R. Altamira : Historia de Espana y de Civilización Española (Barcelona 1900)

A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888)

P.y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid 1926)

G. Palencia y M. Alarcón : Miscelenea de Estudios y Textos Arabes (Madrid 1916)

A.P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901)

M. Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1903)

A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade (Tetuan 1957)

A.H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956)

J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946)

Is. de las Cagigas : Sevilla Almohade y Ultimos Años de su Vida Musulmana (Madrid 1951)

La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1959)

Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid y Granada

M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1867)

R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Leiden 1932)

R. Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant le moyen âge (Leiden 1881)

Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903)

A Müller : Der Islam im Morgen und Abendland (Berlin 1885)

I. Goldziher : Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung (Z. der Morg. Gesell. 1887)

I. Goldziher : Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger 1903), Introduction

M. Müller : Beiträge zur Geschichte des Wesentlichen Araber.

فهرست الموضـــوعات

ص

الكتاب التاسع

انهيار الأندلس

وسقوط قواعدها الكبرى

الكتاب العاشر

نهاية الدولة الموحدية

الكتاب الحادى عشر

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر الموحدى

ص

الكتاب الثانى عشر

نظم الدولة الموحدية

وخواص العهد الموحدى

وثائق موحـــدية

ص

فهرست الخرائط والصور

فهرست الشعر

فهرست البلدان والأماكن[1]

— ا —

(١) هذا الفهرس وما يليه ، يضم فهارس القسمين الأول والثانى من الكتاب (ج ١ و ج ٢)

— ب —

ت — ث

ج - خ

س — ش

ص – غ

ـ ف ـ

ق ـ ك

ل — م

ن — ی

فهرست القبائل والطوائف والدول

ت — خ

د — ش

ص — غ

ف — ل

— م —

ن — ى

فهرست الأعـــلام

ـ ا ـ

ج — ز

س — ط

ع — غ

ف ــ ك

ل — م

ن — ى